

الصّراع بين الإسلام والثّنية

تأليف

عبد الله بن أبي القحطاني

الجزء الثاني

الخميني يسمع

نداء ورجاء وتذكير مخلص للخميني ولأهل عقيدته :
كم هي خطيئة معاداة من نصروا الدين ونشروه بادعاء
الانتصار والانتقام لمن ارادوا نصره ونشره
وكم هي خطيئة أن يشوه الدين بتحويله الى بغضاء وأحقاد
وعداوات وعدوان وحروب بزعم تجهيله ونصره ونشره
وكم هي خطيئة أن يسحب من النفوس المحبة للمحبة
والسلام .. المحتاجة الى المحبة والسلام بحجة غرسه وتوكيده في
النفوس بالرصاص والخناجر والسيوف
ما أنذل وأفجر وأكفر البغضاء والاحقاد والحروب باسم المحبة
والسلام . باسم السلام .. باسم الاسلام

الطبعة الثانية

القاهرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٧ م

الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

رقم الإبداع بدار الكتب

١٩٨٢ / ٥٦٣١

﴿ تقریظ الجزء الأول من كتاب الصراع ﴾

نشر في ما يلي هذه القصيدة البارة التي قرظ بها الاستاذ الجليل الشيخ
عبد الظاهر أبو السمح إمام المسجد الحرام ، وخطيبه ، ومدير دار الحديث بمكة
المكرمة الجزء الأول من كتاب « الصراع » قال حفظه الله :

ألا في الله ما خط الصراع	لنصر الدين واحتدم الصراع
« صراع » لا يماثله صراع	تميد به الأباطح والتلاع
صراع بين إسلام وكفر	يقوم به القصيمي الشجاع
خبير بالبطولة عبقرى	له في العلم والبرهان باع
يقول الحق لا يخشى ملاماً	وذلك عنده نعم المتاع
يريك « صراعه » أسداً هصوراً	له في خصمه أمر مطاع
كأن بيانه سيل أنى	تفيض به المسالك والبقاع
تسايه جنود الحق حق	لتخشاه الأسود والسباع
إلى صراعه فانظر كيف أسوا	عليهم من مذلتهم رقع
فبعضهم أسير أو قنيل	وبعضهم يصيح ولا دفاع
أعبد الله من على الأسارى	وأطعمهم هدى فهمو جياح
أبليت عوارهم وصرعت منهم	أكابرم ، ولم يتج الرطاع
لقد أحسنت في رد عليهم	وجشتم بما لا يستطاع
لقد كنا نعد الرفض جرماً	فبين كفره هذا « الصراع »
كتاب قد حوى علماً غزيراً	له من نور صاحبه شعاع
يرد به على الضلال طراً	وينقض ما افتروه وما أذاعوا
ويصلى الرافض به سعيّاً	تلظى ، ما لها عنه انقطاع

يخزي كل ذي رفق غوى
يسبون الصحابة خير محب
ومن شهد الرسول لهم بفوز
ويحمل قلبهم بغضاً شديداً
يقولون : الأيمن حبا بوحى
فهل فى الأرض كفر بعد هذا
فا للقوم دين أو حياء
ألا لله درك يا ابن « نجد »
وكم لك من مواقف خاللات
« بروقك » فى سماء الحق تملو
« وفصلك » ما يزال يشع نوراً
« ونقدك » هيكلاً أحلى وأحلى
وكل ردودك الحسنى متاع
ومنها مادحت به « شيوخا »
فجاهد فى سبيل الله تؤجر
لقد رابطت فى « عسراً غنى »
وكم سيف لدى الميحاء ينبو
وان يراعك السيل سيف
فدم واسلم لأهل الحق تقضى
خلاصة دينه السوءى خداع
وأزواج النوى ولم يراعوا
بما ضحوا بأنفسهم وباعوا
خير الخلق ليس له قناع
وخان . وما لهم عن ذا ارتداع
وحرثوا لمن يهوى متاع
بحسبهم من الخزي « الصراع »
كبت الخصم ، فانقطع النزاع
بها للحق عز وارتفاع
وفىها للذى عى اتضاع
وفى رأس العدى منه انصداع
به للناس ما مرضوا انتفاع
تلد لمن له فيها استماع
لهم فى الدين جهل وابتداع
من الرحمن إن قوم أضاعوا
لعمرى منك عن جيش دفاع
ولا يجدى بها إلا اليراع
إذا ما شمتته اندكت قلاع
على من ليس عندهم اتباع
عبد الظاهر أبو السمح

حاجة المسلمين الى الكفاح

﴿ لماذا سميت هذا الكتاب : « الصراع » ؟ ﴾

الجواب أننى سميت هذا الاسم لأننى لم أجِد المسلمين يحتاجون فى هذا العصر إلى شئٍ احتياجهِم إلى الصراع وإلى ما للصراع من آثار ونتائج . فأنكبوا فى بلد من بلدانهم ، ولا فى حرمة من حرمتهم ، ولا فى مجد من أمجادهم ، ولا فى حق من حقوقهم ، ولا فى شئٍ من أشيائهم إلا بعد أن نسوا الصراع ، وبعد أن ملوه وهجروه ومالوا إلى الدعة والركود والهدوء الذليل الجبان . وما بلغ المسلمون الأولون ما بلغوا ، ولا قال الإسلام ما قال من ملك أذل كل ملك ، وسلطان صرع كل سلطان ، ومجد وطىء كل مجد إلا بالصراع ، وإنهم - اليوم - وبعد اليوم وفى كل وقت - لن ينالوا حقاً من حقوقهم ، أو يستردوا كرامة من كراماتهم ، أو يثأروا من عدو ظالم ، أو يجيدوا فى هذا العالم الجياش بالمظالم إنصافاً إلا بالصراع وبالخصومة العنيفة الحادة الملتهبة .

الصراع ضرورى لحياة الشعوب ولبقائها . وكل شعب فقد هذا الدواء فقد - ولا محالة - الحياة ، وأكلته الشعوب ، وطحنه تنازع البقاء ، وذهب أقساماً بين أشنات المطامع والأهواء ، ولقى مثل ما لقى الشرق الوديع المسالم من الغرب الهائج المحارب .

لقد صار اليوم أغبياء من يحاول أن ينال حقه باسم العدالة والرحمة أو باسم القوانين الخاصة أو العامة ، أو باسم المدنية والانسانية ! وصار المقبون حقاً ، المجنون حقاً ذلك الضعيف المهزول المسالم ، الجائى على ركبتيه الضميريتين

المهزولتين أمام ذلك الجبار القوى الظالم ، يستجديه حقه ، ويسأله إنصافه ويطلب إليه بمدمعه ، لا يمدفه ، أن يمسح الدم عن أظفاره الدامية ، ويطمفه من لحوم الضعفاء الأبرياء ، ويناديه باسم المدنية ، وباسم الحقوق الانسانية وصار لا يوجد العدل إلا حيث يوجد الجور ، ولا توجد السلم إلا حيث توجد الحرب ، ولا يوجد الحب إلا حيث توجد الكراهية والبغضاء ، ولا يوجد القانون إلا حيث يوجد من يمزقه ، ولا توجد الانسانية ولا نتحدث عن حقوقها إلا حيث يوجد من يضربونها بالضربات القاتلة . وصار الأقوياء الباطشون لا يذكر و العدالة ، ولا الحقوق ، ولا القوانين ، ولا المعاهدات ، ولا الشرف ، ولا سائر هاتيك الفضائل النارية إلا إذا تحددوا إلى الأقوياء الباطشين الظالمين أمثالهم . أ ، الضعيف العاجز عن الصراع ، الهارب إلى الدعة والسلم فانه عند هؤلاء الأقوياء الشرفاء إلا التمدين ومعناه إفساد الأخلاق والأذواق والعقائد ، وإلا الاستعانة ومعناه الجوع والجهل والذل والمرض وسائر ما للبؤس والشقاء من مظاهر ومعان والانتداب ومعناه ما في فلسطين .

كان في الناس في الزمان الأول من يظنون أن القتال هو الذي يحدث القتل وأن الشجاع المقاتل يقتل دون الجبان المسالم الراضى بالذلة ، المقر للخسف في دينه ووطنه وشرفه ، وكانوا يحسبون أن الجبناء أطول آجالاً من الشجعان فقالوا يقرب حب الموت أجالنا لنا • وتكرهه آجالهم فنطول وقالوا أيضاً :

فيم الشجاعة إعلاناً بأسد وغى ؟ • أفنأتم الصبر إذ أبقاكم الجزع وكانوا يظنون أن من كره الموت ففر من وجهه ومن أسبابه فال الحياة الطويلة : لأنهم كانوا يظنون الأقوياء الظالمين لا يقاتلون إلا المقاتلين ، ولا يحاربون إلا المقاومين ، وكانوا يحسبون الانسان يأنف من قتل المسالم المستسلم . ولهذا كان

كان من يحرصون على الحياة يهرعون إلى السلم والاستسلام . وكان لا يقدم على الحرب والمقاومة إلا من رخصت لديهم الحياة وهان عليهم القتل . وعلى هذا كانت تكون الحرب ، وكانت تكون السلم . أما اليوم فقد تبين للناس كافة حق للجبناء البلباء منهم أنه لا يقتل إلا الجبان ، ولا يقع في الحرب إلا الهارب إلى السلم ، ولا ينال الشر إلا أهل الخير والدعة واللين والسلام ، وأنه لا ينجو من الموت إلا المقاومون المصارعون ، الموقدون الحرب بموقديها ، الجازون الشر أضغافه ، الطائرون إلى كل هيمة ، وعلموا أنه لا أمل لطالب الحياة فيها إلا أن يكون أبداً رجل حرب وكفاح وصراع وإقدام . إذن ليقل للجبناء : إنكم بالجبن تقتلون أنفسكم ، وبالهرب من الحرب تقعون فيها .

لقد سالم المسلمون وأخلصوا للسلم ، وأحبوا فبالنوا في جبههم ، وكرهوا الحروب وأخلصوا في كراهم حتى نفروا من كل حرب ومقاومة ، وتخلوا من كل يفضاء وحقد وكره لهذا الغرب الحقود الظالم المخارب قروناً طويلة ، وقد ظلوا يتقنون الحروب ويتقنون أسبابها حتى ذهبت بلادهم ، وزال ملكهم ، وتلاشت هيبتهم ، ومنوا بكل ما هم فيه اليوم من هوان وذلة وققر وجهل وعجز وخزي حتى صاروا ، وهم يعدون بأربعمائة مليون ، لا يحسب لهم حساب ، ولا يقيم لإرادتهم ورايهم وزن ، ولا يذكرون حين تقسم الأسلاب والمغانم . وليست الأسلاب ولا المغانم سواهم وسوى بلادهم وحقوقهم . وصارت أقل دولة وأذلها تأخذ منهم ماتريد ، وتنال من بلادهم ماتشهى دون أن تستأذنهم أو تسألهم أو يخطر لهم حساب على بلها . وكان من أروع مظاهر هذا البلاء الذى أصاب المسلمين عامة أن استعمرت دويلة أوربية ضئيلة ، لا يزيد عددها على خمسة ملايين شعباً من المسلمين يبلغ تعدادهم ستين مليوناً ، وهذه في الغرب وهؤلاء في الشرق . وكان من أبغض هذا الخزي الذى شمل المسلمين أن تقدم هذه الدولة العجوز على فعلتها

(ج)

المنكرة في فلسطين ، هذه الفعل التي لم يسبق لها نظير في تاريخ الظالمين المتوحشين كلها ، ثم لا تهتز جنبات العالم الاسلامي اهتزازاً ترتفع به أمم وتسقط به أخرى - إن المسلمين لو لم يصابوا بهذا الفشل الذي لا مثيل له ، ولو لم يملوا الصراع المقدس ما استطاعت بريطانيا أن تكشف سوءتها وحقاتها ومذنباتها الزائفة في فلسطين على منظر العالم الاسلامي العربي ومسمعه ، وعلى رغبة ، ثم لا يفضى غضبة يتحطم بها أكبر عرش مرصع بالجواهر المنهوبة من خزائن المسلمين ومن عروشهم المحطمة ، الواحد تلو الآخر بنسائس هذه المعجزة وطفياتها وكيدها .

هذا شعب عربي مسلم ، في بلد عربي إسلامي ، يقع في قلب البلدان العربية الاسلامية ، تغير عليه دولة أوربية ، فتحكمه وتحكم فيه أخبت أنواع الحكم والتحكم باسم الاتسداب الملعون ، فتسلبه أولاً كل معاني السيادة والعزة ، ثم لا يكفيتها هذا ، بل تمتد يداها إلى مكان العقائد والايمان والخلائق الفاضلة من أهله فتحاول إفساده وتخبيثه ليسهل عليها ما تريد ، ثم لا يكفيتها هذا أيضاً بل تبسط يديها إلى القصور وإلى الأكوخ لتنزل فيها الفقر والبؤس ، ولتغلبها من معاني الشقاء والفاقة ، وتبسطهما إلى الجيوب لتنتزع منها ما بقي فيها من ماله قليل ، فتبلغ أقصى ما تريد ، ثم لا يكفيتها - ويلها - كل ذلك ، بل تقوم فخر جيوشها وأساطيلها وطائراتها وسائر قواتها المزودة بأموال المسلمين وأموال العرب لتشرذم هذا الشعب المنهوك بانتدابها - قاتله الله - من وطنه ووطن آباءه وأجداده ووطن دينه منذ القرون القصية ، وفيه مقدساته الدينية ، وفيه رفات أسلافه الأكرمين الأولين وفيه كم أراق دماءه وبذل مهجه لحمايته وصون حرمانه من عدوان العادين ، وفيه كم ساد وحكم وذاد عنه المغيرين . . . لتشرذم من وطنه كي تهبط التائبين المشردين المنهوقين من اليهود المقوتين في كل مكان وزمان ، ليزرعوا

فيه خبثهم وحقدهم وفتنادم الجبلى ، وينشروا فيه المعانى اليهودية المحرمة ، وليكونوا الجرثومة الفتاكة القتالة في قلب الشعوب العربية الاسلامية حتى يغلبها الفناء ، وليكونوا في وطنهم ذاك الموهوم المزعوم مصدراً خصباً لشقاء المسلمين وشقاء العرب ، ومصدراً تهديد بلادهم بالمعاني الاسرائيلية الذميمة من كذب . . . فلما أن قام هذا الشعب العربي الباسل المتبوك بانتداب هذه الدولة المعجوزة قائلاً : لا ، لن أخرج عن وطني ليكون وطناً لبني إسرائيل الآن ذال وإن رغمت بريطانيا القوية ، وإن رغم كل ظالم على وجه الأرض ، وقائلاً : إن وطناً قد حميته ودفعت عن سيادته وعن عروبه وإسلامه أربعة عشر قرناً من القرون القاسية العاصفة لا يمكن أن أتركه في عام واحد ، ولا في عشرين عاماً ، ولا في عشرين قرناً إن شاء الله ، ولو ساقطت بريطانيا كل قواتها وأساطيلها وجيوشها وشياطينها لتحارب إرادة الله القوى ، ولتقاوم مشيئته . فإن شعباً لا يعرف إلا الله لن يغلبه من لا يعرف الله ، وإن من لا يعرف إلا الحق لن يذل لمن لا يعرف إلا الباطل ، وإن شعباً تنميه آباؤه وجدوده إلى السلطان صلاح الدين ، ثم ترتفع به إلى المعتصم وعبد الملك بن مروان ، وهماوية بن أبي سفيان ، ثم تسمو به صعداً إلى الصديق وإلى الفاروق وإلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وطارق بن زياد وموسى بن نصير ، ثم تسمو به أكثر حتى تصله بسيدنا و سيد العالمين محمد بن عبد الله ﷺ - لن يقر هذا الظلم والخسف أبداً في وطنه ودينه ، ولن يقبل هذا العقوق الفظيع لأبائه وسلفه — وإن شعباً دينه الاسلام ، وقد ثل عروش القيصرية والكسروية ، وأذل اليهودية والنصرانية والمجوسية وكل دين باطل أو محرف بمحنة من الأعراب والعرب الأُميين الذين لم يفارقوا الصحراء الجرداء إلا إلى الفتح والملك ، والا إلى مدائن كسرى وخزائنه وإلى القصور البيضاء والجنات الخضراء في الشام ومصر وفي الشرق والغرب — لن يترك وطنه الاسلامي

(٢)

العربي يهود ويتنصر ويصبح كهنًا للعبريين من اليهود المشردين المطردين بقوة الانجليز وجبروتهم أو بقوة أوروبا كلها .

فلما أن قام هذا الشعب الباسل وقال قوله هذه ، ورفعها على أطراف السنان بعد أن لم يجد رفعها على أطراف اللسان لم يكن من هذه الدولة القوية الموصوفة - كذبا وخداعاً - بالعدالة والتمدن ، إلا أن تسحب أصناف مكايدها ودسائسها وقواتها إلى هذا الشعب العربي الأبي ، تفعل به ما لم يفعله شعب همجي منذ كانت الدنيا : تأتي المدينة قهدها بأسرها وتنسف مبانيها التاريخية وغير التاريخية فتجعلها في ساعات أو لحظات خراباً كأن لم تمسها يد العمران منذ آلاف السنين ، ثم تأتي المدينة الأخرى وتسوق جميع رجالها إلى السجن ، وفي السجن من العذاب والقسوة ما لا يعرفه إلا زبائنه وإلأرب فلسطين المساكين ، ثم تأتي المدينة الثالثة فتحشر جميع أهلها وتضع على أيديهم الأختام ، صمة الاجرام ، كأنهم بهائم توضع عليها المسام ، ثم تأتي المدينة الرابعة وتطلب إلى سكانها أن يخرجوا كل مافي جيوبهم وأيديهم وبيوتهم من مال ، وكل مافي أفواههم من خبز ، وما على ظهورهم المحطمة من ثياب بالية - وماترك الانتداب ومراية اليهود من ذلك شيئاً باسم الغرامات . وهذه أخبث سرقة يحلها القانون الانجليزي المتمدن ، وهي سرقة لاثمائها سرقات اللصوص العاديين ، وهي سرقة بالقانون كما أن المنتسدين والمستعمرين قطاع طريق بالقانون السحري الفظيع . ثم تأتي المدينة الخامسة فتجمع كل من فيها ، فتسدد إلى صدورهم ورؤوسهم المدافع والمسدسات ، تفننًا في الإرهاب ، ووحشية يقصر عنها إن شاء الله كل شعب شرقي وإن بلغ ما بلغ من القسوة والاجرام ، ثم تأتي المدينة السادسة فتروح تقتل وتنهب بلا حساب ولا قانون . ثم بعد ذلك كله تبعث وزارة المستعمرات في لندن إلى حاكمها بأمره في فلسطين تهيب السلطة المطلقة في أعمال النهب والتقتيل والتخريب والصوصية

(ك)

المسماة بالفرامات . . . فيقتل العربي إذا وجد في منزله أو في أرضه رصاصة أو حديدة أو مدية أو بندقية صيد .

هذا شعب عربي مسلم في بلاد إسلامي عربي ، يقع في قلب البلدان العربية الإسلامية ، تغير عليه هذه الدولة الأوروبية ، فتفعل به هذه الفعلات السوداء في تاريخها وفي وجوه العرب والمسلمين ، ثم لا ينتطح فيها عنزان ، ولا تقط رقاب ، ولا تنفى جيوش ، ولا تحطم عروش ، بل ثم لا نجد كلاماً فيه قوة ، وفيه جد ، وفيه صرامة ومرارة ، وفيه حسرة ولوعة ، بل ثم تبقى العلاقات والصدقات والمعاهدات والمحالقات مع هذه الدولة كما هي ، لا تصاب بالاختلال ولا بالانهلال ولا بالنخمة ، بل نذهب نصلحها بأحدى يديها ويدها الأخرى ممدودة جباراً نهاراً إلى هذا القطر الإسلامي العربي لتساخه من العروبة والإسلام لتصيره يهودياً إنجليزياً لتعاد نكبة الأندلس من جديد .

إنني أطلب إلى كل قارئ لهذه الكلمة أن يتذكر ما يأتي : فلسطين بلاد عربية وأهلها عرب ، والإنجليز ليسوا عرباً - فلسطين بلاد إسلامية وأهلها مسلمون ، والإنجليز مسيحيون أو ملحدون - فلسطين بلاد شرقية وأهلها شرقيون والإنجليز غربيون أوروبيون - أهل فلسطين لا يريدون الإنجليز ولا يريدون تمدينهم ، والإنجليز لا يخافونهم على بلادهم ومستعمراتهم - أهل فلسطين لهم أخلاق وللإنجليز أخلاق أخرى تخالف أخلاق أهل فلسطين وأخلاق العرب عامة - أهل فلسطين لا يحبون في حكم الإنجليز إلا البؤس والفقر وكل ألوان الهوان ، والإنجليز يعرفون هذه الحقيقة : - هذا كله صحيح ، إذن ما المسوخ لتحكم الإنجليز في فلسطين وفي أهلها ؟ وأي قانون بشري عادل يحل هذا التحكم المقرون بهذه النكبات ؟ وما الفرق بين هذا العمل المسمى بالانتداب وبين عمل الصوص المهاجرين لبيوت الآمنين المسالمين ، ليأخذوا ما فيها بقوة السلاح والارهاب ؟ نعم .

(ل)

إن بين العاملين فرقا ، هو أن اللصوص لا يفعلون ذلك إلا تحت ضرورة المفاقة والحاجة ، أما الانجليز وغيرهم من المستعمرين والمنتدبين فانهم يفعلون ذلك عن غنى وثروة طائلة ، وفرقا آخر ، هو أن اللصوص لا يهاجمون غالباً إلا بيوت الأغنياء والمثريين ، أما الانجليز فلا يهاجمون إلا على الفقراء الماجزين ، أما الأغنياء الأقوياء فانهم لا يجرءون عليهم بل يساعدونهم على التهام الضعفاء (١) وفرقا آخر ، هو أن اللصوص لا يقومون بعملهم إلا خفية وانسلا ، أما الانجليز فانهم يفعلون ذلك في وضوح النهار بكل تبجح وافتخار ، على جميع العالم كله ومرآه فيها وفرقا آخر هو أن اللصوص لا يعتقدون إلا أنهم لصوص مذنبون . أما الانجليز فانهم يفعلون ذلك ويترحمون أنهم بفعلهم هذا يمتثلون للشعوب المنحطة ، وينشرون فيها العلوم والثقافات ، ويهدون لها الخير والرحمة ، وينزلون عليها المن والسوى ، وفرقا آخر هو أن الانجليز يفعلون ذلك بالقانون ، أما اللصوص فلا يدعون أن لهم قانونا ، وفرقا آخر هو أن اللصوص لا تمتد أيديهم إلى غير المال ، أما هؤلاء فتمتد أيديهم الناعمة الصفراء إلى كل شيء حتى إلى مكان الإيمان والاعتقاد لتحرقه وتمزقه لنخل أيها الفارئ بنفسك ساعات أو لحظات ، ولنتذكر فعل الانجليز في فلسطين وفي غيرها من البلدان العربية الإسلامية ، وفعل غير الانجليز بالعرب.

(١) ومن النباوة ان يقوم قاصمون منا بمتنحون موقف الحكومة البريطانية من المشكلة الألمانية التشكوسلافية ، وقد سموا رئيس وزاراتها رسول السلام ، لأنه قام بعمل يمدن أكبر الحيات الانجليزية ، اذ أعلن ألمانيا القوية على التهام تشكوسلافيا الضعيفة خوفا على دولته من الوقوع في الحرب . وهذا العمل الذي استحق به تشمبرلن ان يسمى رسول السلام هو عمل جدير بأن يعطيه لقب « رسول المتآمرين على الضعفاء » ، وهذا تطلب إيطاليا وفرنسا وأمريكا وألمانيا أيضا وغيرهن السدوان على الدول الضعيفة فيخرج رجل سلام اخر من لندن ليعطى القوى الضعيف خوفا من الحرب . فكيف تأمن الدول الصغيرة بعد الآن ؟ والا ان كانوا رسل سلام حقا فإين رسالتهم عن الحبشة والصين وعن فلسطين ؟

(م)

والمسلمين في كل مكان ، ولتتذكر موقفك من هذه النكبات الديرية الوطنية ،
ولتفرض نفسك مع جماعة من أصدقائك وأقربيك وبنى دينك ولتتفكر في فلاة من
الأرض ، ففاجأهم اللصوص وقطاع الطريق ، فأخذوا أموالهم وما يملكون ، ثم أفسدوا
أخلاقهم ، ثم أعملوا أساحتهم في رقابهم ومقاتلهم ، وكان ذلك على مسمع ومشهد منك
وكان في استطاعتك أن تعمل شيئاً لا تقاوم فلم تفعل شيئاً ، بل ولم تقل شيئاً ولم
تتعب نفسك . فما ترى موقفك هذا ؟ ألا تود أن تبتلعك الأرض ولا تقف
هذا الموقف الذليل الجبان ؟ فهل ترى أيها القارئ فرقا بين موقفي وموقفك
وموقف جميع المسلمين من فلسطين وبين ذاك الموقف الجبان الخزي ؟ ويزداد
الموقف شناعة إذا كان اللصوص غرباء يغيرون ويغزون من بعيد ، ثم يزداد
فظاعة إذا كان اللصوص أقل عدداً من خصومهم أضعافاً مضاعفة ، ثم يزداد فظاعة
وشناعة إذا ظلت علاقاتنا هؤلاء اللصوص « المقدسين » علاقة العبد الذليل بسيد
الجبار ، بل أقل وأذل والله ، لأن العبد قد يعطى على سيادة سيده ، وقد يشور به
وينازعه البقاء إذا أمعن في إذلاله وعذابه .

إن ألمانيا - وعددها ستون مليوناً - قامت في وجه العالم كله لتقاتله إذا لم
يخضع لإرادتها من أجل ثلاثة ملايين من الألمان ، محكومين بدولة أوربية مسيحية ،
متمتعين بأفضل ما تتمتع به « الأقليات » . وأخيراً انتصرت ألمانيا انتصاراً لا
مثيل له ، وانهمز أمام إرادتها شيوخ الاستعمار الجشع ، واندركت فرقا منها هياكل
الديمقراطيات القائمة على غير الحق . ونال الألمان ما أرادوا بالنحو المعلوم الخزي
لفاعليه إلى الأبد . وأنتم أيها المسلمون - وعددكم أربعمائة مليون - وأنتم أيها العرب
- وعددكم سبعون مليوناً - تقررون هذه المظالم التي لا تقرها البهائم في أنفسكم ودينكم
وأوطانكم . والله لو كان عددكم هذا لألمانيا أو لغيرها من الدول الحية لحاربت
العالم كله بأيديها عزلاء من كل سلاح إلا من هذا العدد الهائل ، ثم لمسكت

(٥)

ناصية النصر. والله لو لم تملوا الصراع « المقدس » لكان لكم وهؤلاء شأن آخر. ولكن كرهتم الصراع فاجترأت على آسادكم وآجامكم ثعالب الامم ومن لا يستطيعون الدفع عن أنفسهم . إنكم أيها المسلمون غالطون إذ تظنون أنكم تنجون من طغيان الغرب بالمسألة والمجاملة والملاينة ، ولكن كلا والله ، لن تنجوا منهم إلا بالحرب والمقاومة ، فان فلسطين لم تنج من الانجليز واليهود بمسالتها ، وأن قطراً عربياً أو إسلامياً واحداً لم تنج المسألة والملاينة . بل لقد ذهبت البلدان العربية ، والممالك الاسلامية ضحايا اللين والركون إلى الدعة والسلم رغبة في الحياة ، ولكن السلم لا تنال بالسلم ، والحياة لا تدرك بالرغبة فيها ، والحقوق لا تطلب بالنوم عنها .

والله لو أنكم وقفتم من انجلترا موقفاً جريئاً حازماً ، ورفعتم في وجه ظلمها عصاً ، لكان أجدى وأنفع من كل احتجاجاتكم وضراعاتكم الدليلة ! والله لو علمت أنكم سوف تقابلون عدوانها بغير البكاء لوقفت هي منكم موقفكم اليوم منها : موقف المحتج المتوسل الضارع ! هذا مصطفى كمال ، قد زار في وجه فرنسا زارة واحدة ، فتركت له لواء الاسكندرونة السوري العربي صاغرة هاربة رغم كل شيء . وأين مصطفى كمال وقومه الأتراك من أحفاد الأكرمين : العرب نجدة وشجاعة وأخلاقاً وعدداً ؟ ولكن مصطفى كمال زار وأفهم فرنسا أنه يريد أن يهجم ، وأما أنتم فبكيتم وأفهمتم انجلترا أنكم لا تريدون إلا أن تبكوا ، وإلا أن يقال : إنكم قد أعذرتكم بالبكاء

ماذا تقولون لو كنتم أنتم في مكان بريطانيا ، وكانت بريطانيا في مكانكم ؟ أعني لو كنتم تفعلون ببلدان انجليزية وبأهلها مثل ما تفعله انجلترا في فلسطين وأهلها من العدوان الصارخ : أنظنون انجلترا تقبل ذلك منكم أو تنام عليه ؟ أو تظنونها إن عجزت عن حر بكم العسكرية تصجم عن أن تعلن الحرب عليكم من

جيات أخرى ؟ أنظنونها تبقى على صداقتكم وعلاقاتها السلية بكم ؟ لا نظنوا شيئاً من ذلك أبداً .

إنكم لن تخلصوا من عدوان هؤلاء الأعداء إلا بالكراه العميق ، وبالبغضاء الحادة . وإنكم لن تعزوا حتى تكونوا جرأاً على أن تقولوا لأعظم فيلسوف فيهم : إنه أحمق جاهل ، ولا أبرع حكمة يأتون بها : إنها سفاهة ، ولأرقى مدنية يشيدونها : إنها همجية ، وحتى تقولوا للذهب الذي يخطر ونكم به من السماء : إنه طوب ، إنه حجارة قاتلة ، إنه قنابل الغريبيون لا يضررون لكم إلا البغض والحقد والاحتقار . فمن الجبل أن تقابلوا هذه النفسيات بالحب والإخلاص والامتناع والتعظيم . . . الأوربيون مجردون من القلوب ومن العواطف الانسانية ، وهم إن لم يعدلوا خوفاً وقسراً ، فلن يعدلوا رحمة وإنسانية . . . لقد أخلاصتم لهم وأحسنتم بهم الظن وبعدونهم وطفيتهم حتى خضتم الحروب انتصاراً لهم . فإذا لقيتم عندهم وماذا كانت النتيجة ؟ لقد ذهبت بلادكم وكاد يذهب دينكم وأخلاقكم ، ثم هاجم الآن يحاولون إفناءكم . وإنهم لن يتأخروا عن ذلك إن استطاعوا . . . يجب عليكم أن تقابلوا الداء بالداء ، والشر بالشر ، والحقد بالحقد والبغضاء بمثلها . . . يجب أن تقولوا لهم :

لا تطعموا أن تهيئونا ونكرمكم وأن تكف الأذى عنكم ونؤذونا
الله يعلم أنا لا نحبكم ولا نلومكم أن نلأ نحبونا
كل له نية في بنفص صاحبه في ذمة الله تعلقكم وتقلونا
إن كل إنسان فينا يحتاج إلى أن يكون شديد الكفاح ، شديد المقاومة .
الصانع عندنا يحتاج إلى الكفاح ، ليتماك إزاء صناع أوربا وأمريكا واليهود ،
والتاجر يحتاج إلى الكفاح لينجو من تجار هؤلاء الغزاة المنافسين ، وسائر أصناف
العمال يحتاجون إلى هذا الكفاح لئلا تقضى عليهم منافسة هؤلاء الأعداء المهرة ،

ع

والعالم الديني يحتاج إلى هذا السلاح لئلا تطفئ أفكار هؤلاء القوم وعقائدهم على عقيدته ودقته ، فيذهب بحرف دينه وينسل منه انسلالاً خدعة وضلة ، والعالم المدنى يحتاج إلى هذا السلاح ، لئلا يغلبوه ويصرعوه ويلسوه آباءه وسلفه ، وما جاؤا به من علوم ومعارف ، فيذهب يضيفها إلى هؤلاء الكذبة إن قبلوها واعتقدوها صحيحة ، وينذهب بردها ويسخر منها إن لم يقبلوها جهلاً أو حسداً وكراهة للعرب والمسلمين ، وللشرق والشرقيين ، والغنى الثرى يحتاج إلى هذا الصراع لينافس هؤلاء الذين قبضوا على زمام الثروات وأمسكوا بناصية الأسواق كلها بشركاتهم ومصانعهم ومعاملهم ومضارباتهم ومقامراتهم ، والزعيم عندنا يحتاج أيضاً إلى هذا الصراع لئلا تذوب زعامته فى زعامات هؤلاء الأعداء المكرة ، ولئلا يكون لهم قابلاً ، وعلى أهوائهم ومشوراتهم الماكرة سائراً دائماً ، ولئلا يقود أمتة وقومه بزعامته الرخوة الذائبة إلى الهاوية ، والهاوية هنا ليست سوى الركون إلى الغرب الظالم ، فان الغربيين لا يمكن أن يخلصوا لنا معشر المسلمين ، وان أخلصوا للشياطين . بل هم أبداً يرون الاسلام والمسلم المدوين الواجب خربهما ما أمكنت الحرب . والصحنى والكاتب والمؤلف يحتاجون إلى هذه المقاومة ، لئلا يفتنوا فى رجال صحافة أوروبا ومؤلفيها وكتابها . وكل مخلوق عندنا يحتاج إلى هذا السلاح . ولو أننا لم نجل هذا النوع من الجهاد « المقدس » لما تقدم فينا أهل النفاق والخيانة والمروق والفسوق ، وتأخر أهل الصلاح والاستقامة والایمان والاخلاص والكفاية ، ولما أمكن أن يكون كل شئ لدينا فى أيدي هؤلاء الأعداء من اليهود والأوربيين الخصوم غير الشرفاء ، ولما كان كل شئ سائراً طبق أهوائهم ومصالحهم ، ولما كانت مظاهر البلدان الاسلامية مظاهر إفريقية أوربية خالصة : تنظر إلى الشركات القوية الراجعة فتجدها فى أيدي هؤلاء الدخلاء ، وتنظر إلى المصانع والمعامل الشيطة الناقصة فلا تحتاج إلى أن تسأل : لمن هذه ، إذ هى للقوم بلا

(ف)

شك ، وتنظر إلى المتاجر الكبرى المزدهم عليها فلا تشك في أنها ملك لهم ، وتنظر إلى الأحياء الحية المحاطة بمظاهر النعيم والرفق والترف فتجدها خاصة بهؤلاء الضيوف ، وتسمع بأصحاب الثروات الطائلة فلا تردد في أنهم منهم . وتنظر وتسمع كل شيء فلا تجد إلا ما يسوءك ويدعى شغورك إذا كنت من أولئك المتألمين الشاعرين . والذي يؤلم حقاً أن الذين ينمون هؤلاء المستعمرين وينمون ثرواتهم هم المسلمون والعرب ، ثم لا ينالون منهم إلا الاحتقار والازدراء والاحتكار الذي مشيل له ، حتى إن أصحاب المصانع والأعمال منهم يستعملون — إذا مسمحو — المسلمين الوطنيين العمال بما لا يشبعهم خبزاً حافاً . ولهم على ذلك أن يسبوا دينهم ووطنهم وزعماءهم ونبيهم ، وعلى العمال المسلمين أن يشكروهم على ذلك وأن يتقبلوه بالرضا والتسليم ، وإلا فالويل لهم ولوطنهم معهم ! وإحجباً من جريح لا يتألم من جراحته ! ويأويلناه للدليل لا يشعر بذلته ، ولظلم يتعبد ظالمه !

إن الأمر أيها الاخوان جد العجـد ، إنه الحياة أو الموت ، وإن الخطاب إلى البقايا التي لما يقتلها هؤلاء الأعداء ، لملهم يمدون أيدي الاقتاذ والانتشال ، أو لملهم يهربون ، على الأقل ، بأنفسهم من هذه الأشرار القاتلة ! أما هؤلاء الذين وقعوا في أيدي هؤلاء الضيوف الظالمين لمضيفيهم السنين والأعوام فهم على بساط الموت ، قد فقدوا كل حول وقوة ، فلا يستطيعون شيئاً من الخير لأنفسهم ، وإنما هم في انتظار الطبيب الرحيم الماهر المنقذ ! فهل يوجد فيكم أيها الاخوان ذلكم الطبيب ؟ وإذا لم يكن موجوداً أفلا تعملون لإيجاده ؟

انظروا أيها الاخوان إلى حقائق الأشياء نظرات تتجاوز المظاهر لتشعروا أن الهواية في الانتظار ، وأنكم إن لم تستيقظوا فالويل للنائم تحت سياط الأعداء الذين لا يرحمون ! أليس من البلاء أيها الاخوان أن يستولى هؤلاء على كل شيء

(ص)

في بلاد المسلمين حتى على الماء وعلى النور وعلى النار، حتى إن الوطني المتحمس لوطنيته لو أراد الاستغناء عما ليس وطنياً، وأراد أن يعيش وطنياً في ملبسه وما كله ومشربه ومركبه، وضروريات حياته ما أمكنه ذلك ! أو ليس من المؤلم حقاً ألا يوجد في بلاد المسلمين أجنبي واحد فقير أو عاطل ، وأن يكون المسلمون كلهم في بلادهم فقراء بؤساء ، لا يظفرون بالكفاف من العيش المر إذا استثنينا الموظفين والوارثين وأمثالهم والقليل التزر من غيرهم . على أن هؤلاء أنفسهم منطلقون إلى الفاقة العامة بخطوات واسعة ، ومنطلق ما معهم إلى جيوب هؤلاء الأجانب بسرعة مذهشة وبطريقة تترك المحب لدينه ووطنه وقومه حيران مكبوتاً ، حتى صار المسلمون كلهم كما قيل :

لا يَألف الدِرم المضروب صرتنا

لكن يمر عليها وهو منطلق (إلى الحاجات)

أذهب إلى المتاجر والشركات والمصالح الأجنبية، وانظر كيف يتدفق عليها الوطنيون المسلمون ، وكيف ينثرون بقايا ما معهم من مال قليل على موائد هؤلاء الأجانب بجود لا نظير له ، ثم عرج على المتاجر والمصالح الوطنية المسلة إن كان شيء من ذلك ، وانظر كيف يخيم عليها الفقر والكساد والبؤس، وانظر كيف يهرب منها الوطنيون المسلمون ، وكيف يضمنون عليها بالعاملة ، ثم لك بعد ذلك أن تتألم ما وسعت الألم ، وأن تحزن ما شاء لك الحزن ، وأن نخشى كما نخشى الأكترون البصراء أن تصبح البلاد الإسلامية — المستقلة وغير المستقلة — خالصة لهؤلاء الضيوف بكل مراقبتها ومواردها ، وأن ينقرض المسلمون تحت عوامل الفاقة وما يلزم الفاقة من الأمراض والتشريد والشقاء العام القاتل .

ومن الحكايات المؤلمة أنني كنت يوماً أحادث أحد الاصدقاء فقال ذاك الصديق على سبيل اللطابة المرة : إننا معشر المسلمين الوطنيين نطلب

س ق

الاستقلال لبلاذنا مع أن الجاليات الأجنبية أولى منا بهذا الطلب في بلادنا نفسها
لكثرة مصالحهم ولاستيلائهم على كل شئ فيها ١١ وما أصدق هذا القول ١ وما
أشد وقعه على ذوى الدين والوطنية وعلى ذوى النفوس اليقظة الشاعرة .
إذن ما أخرجنا إلى الصراع ١ وما أخرج صراعنا إلى القوة والشدة ١ وما أخرجنا
إلى أن نكون من الحديد والفولاذ ، لا من اللحم والدم والمظالم ١

اللهم ايقظ قومى فانهم نائمون ١١ عبد الله على القصيمى

بالقاهرة

شعبان سنة ١٣٥٧



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين وعلى
آلهم وصحبهم أجمعين . أما بعد فهذا هو الجزء الثاني من كتاب « الصراع بين
الاسلام والوثنية » الذي ننقض به إنشاء الله كتاب الشيعة « كشف الارتباب
في اتباع محمد بن عبد الوهاب » وقبل الأخذ بموضوعه نقول :
ظن بعض الذين قرؤوا الجزء الأول من كتابنا أننا قد نجلنا الشيعة ما لم
يكن من قولهم ولا من اعتقادهم ، وأننا قد تكذبنا عليهم وعزونا إلى مذهبهم
ما هم منه بريئون . وقد جاء هؤلاء الظانين ظنهم هذا من غرابة ما وجدوه هناك
من عقائد القوم وأقوالهم التي لا يقولها مجتمعة من يؤمن بالله وبرسوله . ونحن نقول
لهؤلاء الظانين هذا الظن المستبعدين أن يكون كل ما ذكرناه في الجزء الأول
عن الشيعة صحيحا ثابت النسب إليهم : إننا قد كنا نحن مثلكم لا نصدق بعض
هذا الصديق فضلا عن أن نصدقه كله . وكنا لا نشك في أن مسلما لا يمكن أن
يذهب إلى القول بتلك الأباطيل التي قالتها الشيعة ، والتي نقلناها من كتبهم
التي كتبوها بأيديهم وطبعوها بمطابعهم في بلادهم . وكنا نحسب أن أمثال تلك
المتكررات التي تضاف إلى هذه الجماعة لا منشأ لها في الأثر سوى الخصومة

وكنسها وهواها وزورها . وكنا نمر بما نجهه في كتب التاريخ والملل والكلام
لأهل السنة من هذه الاعتقادات التي يقال إن قوماً من المسلمين يزعمونها
ويعتقدونها ويكفرون منكرها ، فلا نحسب ذلك إلا من مبالغة الخلاف واسرافه
الخصومة ولجاجة الهوى وشهوة الانتقام . وكنا نلظن أن الخلاف وإن كان ذا دين
وتقوى وحسب ونسب معزق في الفضل والنبل لا يمكن أن يخلص من التزبد
والافتعال ولا ينجو من التكنب والتقول : هكذا كنا نقول حتى لمسنا هذه
هذه الحقيقة المرة التي كتبناها بأيدينا ووجدناها سافرة مبتذلة في كتب الطائفة
قديمها وحديثها سفيها وعاطلها فما وجدنا مناصاً من الاقتناع ولا مفراً من الايمان
بأن الخبر قد كان دون الخبر وأن السماع دون العيان ، وأن الباطل في كتب
القوم لا يحيط بأطرافه ولا يطل على جميع آفاقه باحث ولا عليم ما خلا الله وحده .
وقد قرأت بعض كتب القوم قبل كتابة الجزء الأول من الصراع وقرأت
بعضها في أثناء كتابته وبعضها آخر بعد ذلك ، وكنت كلما قرأت لهم من هذه
الكتب وجدت ما لم أجد ، وعلمت ما لم أكن أعلم ، وما لم يكن يخطر لي على بال
من عظيم المقالات وشنيع الآراء وغريب الزور .

جهل حقيقة
الشيعة

وقد تبين لي بعد أن قرأت عدداً غير عديد من هذه الكتب أن جميع
الذين كتبوا في نقد الشيعة ونقد معتقداتها لم يكن فيهم كاتب واحد عرف الحقيقة
كلها ولا علم ما كان يجب أن يعلم من مذاهبهم وتحليلهم الغريبة . ولا قرأ ما كان
يجب أن يقرأه من مؤلفاتهم وما سجلوه على أنفسهم وعلى أئمتهم من الباطل
والعدوان ومن الحنث العظيم . بل جميع الذين كتبوا في هذه الأبواب كانوا يجهلون
الأمر البين من معتقدات هذه الفرقة وكانوا لا يعلمون منها إلا اليسير
الأقل . والسبب في هذا والله أعلم أن جماعة الشيعة كانوا في أكثر الأعصار
والأصوار لا يجرؤن على نشر كتبهم ولا إذاعة معتقداتهم كما هي ، بل كانوا أبداً

يفرون إلى التقية وإلى المصانعة والمداهنة . وكانوا يجدون في الكتان
المكان المتسع للفسيح لا يواء هذه الكتب ولوضعها كما يشاءون ويريدون محلة
بأخطر هذه الأفكار المنبوذة بين جميع الأملأ التي لا يستطيع البوح بها في
بلد يرعى أهله الإسلام والحق . ولهذا الكتان وهذه التقية كانت كتب القوم
المفعمة بعقائدهم الخطيرة بعيدة عن أيدي الناس بعيدة عن متناول العامة .
فكان يعسر على من أراد كتبهم أن يظفر بها وعلى من أراد الرد عليهم أن
يعرف حقيقةهم . فكانت الردود عليهم كلها حتى الردود المبالغ فيها المدفوعة
بأعنف التعصب تقع دون المرمى وتقصّر عن الغاية كما هي عندهم . وعلى هذا
فكل ما يقرؤه القارئ في نقد هذه الجماعة ونقد عقائدها فليعلم أن الحقيقة
السافرة في كتبهم أنفسهم فوق ذلك كله . .

وبين يدي الساعة كتاب « فرق الشيعة » طبع النجف سنة ١٣٥٥ كتاب فرق
من الهجرة تأليف أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي أحد علماء الشيعة
الإمامية ومؤلفيها الكبار ، صححه وعلق عليه السيد محمد صادق آل بحر
العلوم ، وكتب مقدمته هبة الدين الشهرستاني ، وقامت على طبعه المطبعة
الحيدرية الإمامية . والكتاب كما يدل اسمه موضوع لبيان عقائد من يشملهم
اسم الشيعة العام : الاثنا عشرية وغيرهم . وقد قال في هذا الكتاب : « فلما
قبض النبي افترقت الشيعة ثلاث فرق : فرقة قالت إن عليا امام مفترض الطاعة قول الشيعة
بعد رسول الله واجب على الناس القبول منه والأخذ عنه ولا يجوز غيره . وقد في الشيعة
وضع عنده النبي من العلم ما يحتاج إليه الناس من الدين والحلال والحرام
وجميع منافع دينهم ودنياهم ومضارهم وجميع العلوم جليلها ودقيقها واستودعه
ذلك كله واستحفظه إياه . ولذلك استحق الإمامة ، ومقام النبي لعصمته وطهارة
مولده وسابقته . . . وقالوا إنه لا بد مع ذلك من أن يقوم مقامه بعده رجل من

من ولده من ولد فاطمة بنت محمد عليه السلام . معصوم من الذنوب طاهر من
العيوب مبرأ من الآفات والعياهات في كل من الدين والنسب والمولد ، يؤمن منه
العمد والخطأ والزلل منصوص عليه من الإمام الذي قبله مشار إليه باسمه وعينه
الموالى له ناج والمعادى له كافر هالك ، والمتخذ دونه وليجة ضال مشرك . وأن
الإمامة جارية في عقبه ما اتصلت أمور الله وأمره ونهيه . . وفرقة منهم

من قول

يسمون الجارودية . قالوا بتفضيل على ولم يروا مقامه يجوز لأحد سواه . وزعموا أن
من دفع علياً عن هذا المكان فهو كافر ، وأن الأمة كفرت وضلت في تركها بيعته

الجارودية

وجعلوا الإمامة بعده في الحسن بن علي ثم في الحسين ثم في شوري بين أولادهما .
فلما قتل على عليه السلام افترقت التي ثبتت على إمامته وأنها فرض من الله
ورسوله فصاروا فرقتين : فرقة منهم قالت إن علياً لم يقتل ولم يمت ولا يقتل ولا
يموت حتى يسوق العرب بعصاه ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً
وجوراً . وهي أول فرقة قالت في الاسلام بالوقف بعد النبي من هذه الأمة وأول

من قول

من قال منها بالغلو . وهذه الفرقة تسمى السبئية أصحاب عبيد الله بن سبأ وكان
عبيد الله بن سبأ ممن أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم ، وقال إن علياً
أمره بذلك فأخذه على فسأله عن قوله هذا فأقر به فأمر بقتله فصاح عليه الناس :

يا أمير المؤمنين أقتل رجلاً يدعو إلى حبكم أهل البيت وإلى ولايتكم والبراءة
من أعدائكم ! ففسره إلى المدائن . وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي

أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً وكان يقول وهو على يهوديته في
يوشع بن نون بعد موسى بهذه المقالة قتل في اسلامه بعد وفاة النبي في علي بمثل
ذلك . وهو أول من شهر القول بفرض الإمامة على وأظهر البراءة من أعدائه وكشف

الرفض مأخوذ بخالفه . ومن هنا قال من خالف الشيعة إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية
من اليهودية . ولما بلغ ابن سبأ نبي على بالمدينة قال للنبي لعنه كذبت لوجنتها بدماعه في

سبعين حسرة وأقت على قتله سبعين عدلاً لعلنا أنه لم يمت ولم يقتل ولا يموت حتى يملك الأرض . . . وفرقة قالت بإمامة محمد بن الحنفية فسموا الكيسانية وإنما سموا بذلك لأن المختار بن أبي عبيد الثقفي كان رئيسهم وكان يلقب كيسان وهو الذي طالب بدم الحسين وادعى أن محمد بن الحنفية أمره بذلك وأنه الإمام بعد أبيه . وإنما لقب المختار كيسان لأن صاحب شرطته المكنى بأبي حمزة كان اسمه كيسان وكان أفرط في القول والفعل والقتل من المختار جدا . وكان يقول إن ابن الحنفية وصى على بن أبي طالب وأنه الإمام وأن المختار قيمه وعامله ويكفر من تقدم عليا ويكفر أهل صفين والجل ، وكان يزعم أن جبريل يأتي المختار بالوحي من عند الله فيخبره ولا يراه . ثم قال النوبختي بعد كلام : « وبقى أصحاب الحسين على القول الأول بإمامته حتى مضى ثم اختلفوا بعده ثلاث فرق : فرقة قالت بإمامة ابن الحنفية . وفرقة قالت : إن ابن الحنفية هو الإمام المهدي وهو وصى على بن أبي طالب ليس لأحد من أهل بيته أن يخالفه ولا يخرج عن إمامته ولا يشهر سيفه إلا بإذنه . وإنما خرج الحسن بن علي إلى معاوية محاربا له بإذن محمد ووادعه وصالحه بإذنه ، وإن الحسين إنما خرج لقتال يزيد بإذنه ولو خرجا بغير إذنه هلكا وضلا ، وإن من خالف ابن الحنفية كافر مشرك ، وأن محمداً استعمل المختار على العراقين بعد قتل الحسين وأمره بالطلب بدمه وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا . وسماه كيسان لكيسه ولما عرف من قيامه ومنهجه فيهم . فهم يسمون المختارية ويدعون الكيسانية . فلما توفي ابن الحنفية تفرق أصحابه فصاروا ثلاث فرق : فرقة قالت إن ابن الحنفية هو المهدي سماه على مهديا لم يمت ولا يموت ولا يجوز ذلك ، ولكنه غلب ولا يدري أين هو وسيرجع ويملك الأرض ولا إمام بعد غيبته إلى رجوعه . وهم أصحاب ابن كرب ويسمون الكرية . وكان حمزة بن عمار البربري منهم ، وكان من أهل المدينة فنارقههم

و ادعى أنه نبي وأن ابن الحنفية هو الله وأن حمزة هو الإمام وأنه ينزل عليه سبعة أسباب من السماء فيفتح بين الأرض ويملكها . فتنبعه على ذلك ناس من أهل المدينة والكوفة فلعنه أبو جعفر وبرى منه وكذبه وبرئت منه الشيعة . فاتبه على رأيه رجلان يقال لأحدهما « صائد » وللآخر « بيان » وكان بيان تباثا بالكوفة ثم ادعى أن محمد بن علي بن الحسين أوصى إليه . وكان حمزة بن عمار لإحلال جميع نكح ابنته وأحل جميع المحارم . وقال : من عرف الإمام فليصنع ما شاء فلا إثم عليه . فأصحاب ابن كرب وأصحاب بيان وأصحاب صائد ينتظرون رجوعهم ورجوع أصحابه ويزعمون أن ابن الحنفية يظهر بنفسه بعد الاستئذان عن خلقه ينزل إلى الدنيا ويكون أمير المؤمنين وهذه آخرتهم . وفرقة قالت إن ابن الحنفية حي لم يمت وأنه مقيم بجبال رضوى بين مكة والمدينة تنفذوه الأرام وعن يمينه أسد وعن يساره أسد يحفظانه إلى أوان خروجه وحجته وقيامه وهو عندهم الإمام المنتظر الذي بشر به النبي وأنه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً . فثبتوا على ذلك حتى فنوا وانقضوا إلا قليلاً من أبنائهم . وهم إحدى فرق الكيسانية . ومن الكيسانية السيد الحيرى وهو الذى يقول :

يا شعب رضوى ما لن بك لا يرى * حق متى تخفى وأنت قريب
لو ظاب عنا عمر نوح أيقنت * منا النفوس بأنه سيثوب
وفيه يقول أيضاً :

ألا حي المقيم بشعب رضوى * وأهد له بمنزله السلاما
أضر بمعشر والوك منا * وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرا * مقامك عنهم سبعين عاما
لقد أمسى بجانب شعب رضوى * تراجع الملائكة الكلاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت * ولا وارت له أرض عظاما

وإن له به لثقل صدق * وأندية تحفته كراماً
«ويروى قوم أن السيد الحميري رجع عن قوله هذا وقال بإمامة جعفر بن محمد
وقالت فرقة مثل قول الكيسانية في أبيه بأنه المهدي، وأنه حي لم يمت وأنه يحيى
الموتى وغلوا فيه». وبعد هذا ذكر فروعا للفرقة السابقة ثم قال: «فهم كلهم
غلالة يقولون من عرف الامام فليصنع ما شاء. وفرقة قالت أوصى عبدالله بن محمد
ابن الحنفية إلى محمد بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب لأنه مات عنده بأرض
الشراة بالشام. ذلك أن محمد بن علي كان صغيرا عند وفاة أبي هاشم وأمره أن
يدفعها إليه إذا بلغ فلما بلغ دفعها إليه. فهو الامام وهو الله وهو العالم بكل شيء
ومن عرفه فليصنع ما شاء. وهؤلاء غلالة الروندية. وفرقة قالت إن الامام القائم
المهدي هو أبو هاشم وولي الخلق ويرجع فيقوم بأمر الناس ويملك الأرض ولا
يوصى بعده وغلوا فيه وهم البيانية أصحاب بيان النهدي. وقالوا إن أبا هاشم نبي
بيانا عن الله في بيان نبي وتأولوا في ذلك قول الله «هذا بيان للناس وهدى
واضح» بيان بعد وفاة أبي هاشم النبوة وكتب إلى أبي جعفر يدعو إلى نفسه وإلى
الإقرار بنبوته ويقول له أسلم تسلم. . . ولما قتل أبو مسلم عبد الله بن معاوية
افتترقت فرقته بعده ثلاث فرق وقد كان مال إلى عبد الله بن معاوية شذاذ من
صنوف الشيعة برجل يقال له عبد الله بن الحارث وكان أبوه زنديقا من أهل
المدائن فأخرج من شيعة عبدالله جمعا فأدخلهم في الغلو والقول بالتناسخ والأظلة
والدور وأسند ذلك إلى جابر بن عبد الله الأنصاري ثم إلى جابر الجعفي فخدعهم
بنلك حتى ردهم عن جميع الفرائض والشرائع والسنن. وفرقة منهم قالت إن
عبد الله بن معاوية حي لم يمت وأنه مقيم في جبال أصفهان. لا يموت أبدا حتى
يقود نواصيها إلى رجل من ولد فاطمة. وفرقة قالت إن عبد الله بن معاوية قد
مات ولم يوص ولم يوص له إمام فتأهوا وصاروا مذبذبين بين صنوف الشيعة

من عرف
الامام فليصنع
ما شاء

فرقة البيانية

المنكرة في فلسطين ، هذه الفعلة التي لم يسبق لها نظير في تاريخ الطالبين الفلسطينيين كلها ، ثم لا تهتز جنبات العالم الاسلامي اهتزازاً ترتفع به أمم وتسقط به أخرى . إن المسلمين لو لم يصابوا بهذا الفشل الذي لا مثيل له ، ولو لم يملوا الصراع المقدس ما استطاعت بريطانيا أن تكشف سوءتها وحقاتها ومدينتها الزائفة في فلسطين على منظر العالم الاسلامي العربي ومسمعه ، وعلى رغبه ، ثم لا يغضب غضبة يتحطم بها أكبر عرش مرصع بالجواهر المنهوبة من خزائن المسلمين ومن عروشهم المحطمة ، الواحد تلو الآخر بدسائس هذه الفجور وطغيانها وكيدها .

هذا شعب عربي مسلم ، في بلد عربي إسلامي ، يقع في قلب البلدان العربية الاسلامية ، تغير عليه دولة أوربية ، فتحكمه وتتحكم فيه أخبث أنواع الحكم والتحكم باسم الانتداب الملعون ، فتسلبه أولاً كل معاني السيادة والعزة ، ثم لا يكفها هذا ، بل تمتد يداها إلى مكان العقائد والايمان والخلائق الفاضلة بين أهله فتحاول إفساده وتخبيثه ليسهل عليها ما تريد ، ثم لا يكفها هذا أيضاً بل تبسط يديها إلى القصور وإلى الأكوخ لتتزل فيهما الفقر والبؤس ، ولتملأهما من معاني الشقاء والفاقة ، وتبسطهما إلى الجيوب لتنتزع منها ما بقي فيها من مله قليل ، فتبلغ أقصى ما تريد ، ثم لا يكفها - ويلها - كل ذلك ، بل تقوم تهرج جيوشها وأساطيلها وطائراتها وسائر قواتها المزودة بأموال المسلمين وأموال الغرب لتشرذم هذا الشعب المنهوك بانتدابها - قاتله الله - من وطنه ووطن آباءه وأجداده ووطن دينه منذ القرون القصية ، وفيه مقدساته الدينية ، وفيه رفات أسلافه الأكرمين الأولين وفيه كم أراق دماءه وبذل مهجه لحايته وصون حرمانه من عتوون العادين ، وفيه كم ساد وحكم وذاد عنه المغيرين . . . لتشرده من وطنه كي تنهبه التائبين المشردين المنبوذين من اليهود المقوتين في كل مكان وزمان ، ليزرعوا

بدن خبيث يعذبه فيه بالدنيا، وجعله في أقبح صورة ورزقه أنتن رزق وأقذره. وتأولوا في ذلك قول الله « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن » فكنب الله هؤلاء ورد عليهم قولهم لمصيتهم إياه فقال : « كلاب لا تكرون اليتيم » وهو النبي « ولا تحاضون على طعام المسكين » وهو الامام « وتأكلون التراث أكلاماً » ولا تخرجون حق الامام كما رزقكم وأجراه عليكم ... ومنهم فرقة تسمى المنصورية وهم أصحاب أبي منصور وهو الذي ادعى أن الله عرج به إليه فأذناه منه وكله ومسح يده على رأسه وقال له بالسريانية : أى بنى . وذكر أنه نبي ورسول وأن الله اتخذته خليلاً . وكان أبو منصور هذا من أهل الكوفة وكان لا يقرأ ولا يكتب فادعى بعد وفاة أبي جعفر أنه فوض إليه أمره وجعله وصيه من بعده ثم ترقى به الأمر إلى أن قال كان علي بن أبي طالب نبيا ورسولاً وكذا الحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وأنا نبي ورسول والنبوة في ستة من ولدى يكونون من بعدى أنبياء آخرهم القائم . . . وكان يأمر أصحابه بخلق من خالفهم وقتلهم بالاعتقال ويقول من خالفكم فهدموا كافر مشرك فاقتلوه فإن هذا جهاد خفي وزعم قتل المخالفين أن جبريل يأتيه بالوحي من عند الله وأن الله بعث محمداً بالتنزيل وبمته هو بالتأويل. ثم ظفر عمر الخناق بابنه الحسين بن أبي منصور، وقد تنبأ وادعى مرتبة أبيه وجبيت إليه الأموال وتابعه على مذهبه بشر كثير وقالوا بنبوته . قال النوبختي : « فهذه صنوف الغالية من أصحاب عبدالله بن معاوية والعباسية الروندية وغيرهم . غير أن أصحاب عبدالله بن معاوية يزعمون أنهم يتعارفون في انتقالهم في كل جسد صاروا فيه على ما كانوا فيه مع نوح عليه السلام في السفينة ومع النبي عليه السلام . ويسمون أنفسهم بأسماء أصحاب النبي يزعمون أن أرواحهم فيهم ويتأولون في ذلك قول علي بن أبي طالب وقد روى عن النبي « إن الأرواح

فرقة
المنصورية

جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ففصموا فتعارف كما قال علي عليه السلام . وقال بعضهم بالناسخ وتنقل الأرواح . . . وبعد هذا نقل النوبختي كلاما كثيرا في التناسخ وفي تفصيله وتفصيل قولهم فيه قال بعده : « وقالت الكيسانية يرجع الناس في أجسامهم التي كانوا فيها ، ويرجع محمد وجميع الأنبياء فيؤمنون به ، ويرجع علي بن أبي طالب فيقتل معاوية بن أبي سفيان وآل أبي سفيان ويهدم دمشق ويفرق البصرة . وأما أصحاب أبي الخطاب ومن قال بقولهم فانهم افترقوا لما بلغهم أن أبا عبد الله لعنه وبريء منه ومن أصحابه . . . فصاروا أربع فرق ففرقة منهم قالت إن أبا عبد الله جعفر بن محمد هو الله وأن أبا الخطاب نبي مرسل وأحلوا المحارم من الزنا والسرقه وشرب الخمر وتركوا الزكاة والصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بمضمهم لبعض وقالوا من سألهم أخوه ليشهد له على مخالفته فليصدقه ويشهد له فإن ذلك فرض عليه واجب ، وجعلوا الفرائض رجالا مموهم والفواحش والمعاصي رجالاً وتأولوا على ما استحلوه قول الله (يريد الله أن يخفف عنكم) وقالوا خفف عنا بأبي الخطاب ووضع عنا الأغلال والآصار يمتنون الصلاة والزكاة والصيام والحج . . فن عرف الرسول النبي الامام فليصنع ما أحب . وفرقة قالت بزيع نبي رسول مثل أبي الخطاب . وفرقة قالت « السري » رسول مثل أبي الخطاب أرسله جعفر وقال إنه قوى أمين وهو موسى القوى الأمين وفيه تلك الروح وجعفر هو الاسلام والاسلام هو السلام وهو الله ونحن بنو الاسلام كما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه . وقد قال رسول الله « سلمان ابن الاسلام » فدعوا إلى نبوة السري ورسالته وصلوا وصاموا وحجوا لجعفر بن محمد بن جعفر ولبوا له وقالوا لبيك يا جعفر . . وفرقة قالت جعفر هو الله وإنما هو نور يدخل في أبدان الأوصياء فيحل فيها فكان ذلك النور في جعفر ثم خرج منه فدخل في أبي الخطاب فصار جعفر من الملائكة ثم خرج .

قول
الكيسانية
في الرجعة

ترك جميع
الفرائض
والشرائع

من أبي الخطاب قد دخل في معمر وصار أبو الخطاب من الملائكة فمعمر هو الله ١
فخرج ابن اللبان يدعو إلى معمر وقال إنه الله وصلى له وصام وأحل الشهوات كلها
ما حل منها وما حرم . وليس عنده شيء محرم . وقال لم يخلق الله هذا إلا لخلق
فكيف يكون محرماً ؟ وأحل الزنا والسرقه والميتة ولحم الخنزير ونكاح الأمهات
والبنات ونكاح الرجال وزعم أن كل شيء أحله الله في القرآن وحرمه فأنما هو
أسماء رجال . فخاصمه قوم من الشيعة .

وبعد هذا ساق كلاماً كثيراً في تأليه المخلوق قال بعده : « فهذه فرق الغلو إلى من يرجع
من انتحل التشيع . وإلى الحرمدانية والمزدكية والزنديقية والدهرية مرجعهم الغلاة من
جميعاً . وكلهم متفقون على نفي الربوبية عن الخالق وإثباتها في بدن مخلوق على الشيعة
أن البدن مسكن لله وأن الله نور وروح ينتقل في هذه الأبدان . ثم إن الشيعة
العباسية الروندية اختلفت ثلاث فرق » وفصل أقوال هذه الفرق الثلاث ثم أخذ
في بيان أقوال فرق الشيعة حتى ختم الكتاب .

وهذا الذي نقلناه بنصه من الكتاب نموذج صحيح للكتاب كله . وقد ذكر
عن طوائف منهم أن الامام يعلم كل شيء وأنه مثل النبي في جميع أموره . وذكر
عن طائفة أنها زعمت أن المنصور هو الله وأنه يعلم سرهم ونجواهم . وذكر عن
طائفة أنها ادعت أن آل النبي وذريته صفاتهم وكبارهم في المعارف والعلوم سواء
وأن الطفل في المهد يعلم ما يعلمه الكبير لا يفضل عليه بشيء . وأن منهم من قال :
من زعم أن من كان في المهد والخرق ليس علمه مثل علم الرسول فهو كافر بالله مشرك .
وأن منهم من قال ليس أحد من آل النبي يحتاج إلى أن يتعلم من أحد لا منهم ولا
من غيرهم بل العلم ينبت في صدورهم كما ينبت الزرع بالمطر . وذكر عن طوائف منهم
أنهم ألوهوا أشياخهم وأنهم زعموا رسلاً وآلهة . وحكى عن طوائف القول بالتناسخ
والمحول وعن طوائف أخرى القول بالبداة وحكاها عن أئمتهم المعصومين . وحكى

عن طوائف أخرى أنهم قالوا الإمام واحد وهو روح تنتقل في سائر الأئمة ولكنه .
واحد لا يتعدد . وحكى عن فرقة أنها زعمت أن النبي انقطعت عنه الرسالة في حياته
في اليوم الذي أعلن فيه إمامة علي بن أبي طالب وهو يوم « غد برخم » قالوا
وقد انتقلت الرسالة في ذلك اليوم من النبي إلى علي . واعتلوا لهذا بقول النبي
« من كنت مولاه فعلي مولاه » قالوا وهذا القول خروج من النبوة والرسالة
وتنازل عنهما لعل . وحكى عن فرقة أنها ذهبوا إلى أن الشريعة الإسلامية
نسخ الشريعة سوف تلتسخ ينسخها القائمة ، واعتلوا بالروايات التي نقلوها عن أئمتهم الذين زعموا
الإسلامية معصومين مثل قولهم لو قام قائمنا علمتم القرآن جديدا . وحكى عن طوائف أنهم
ذهبوا إلى وجوب قتل أهل القبلة وأخذ أموالهم والشهادة عليهم بالكفر . واعتلوا
بقول الله « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وذهبوا إلى سبي النساء وقتل
الأطفال واعتلوا بقول الله (لا تدر على الأرض من الكافرين دياراً) وزعموا
أنه يجب البدء بقتل من قال بالإمامة ممن ليس على قولهم . واحتجوا على ذلك
بالقرآن . وحكى عن فريق أحلال الفروج والغلمان وجميع المحرمات واحتج هذا
الاستدلال الفريق بقول الله (أو يزوجهم ذكرانا وإنا نأ) وعن فريق آخر أحلال نكاح
بالقرآن على الرجال زاعمين أن ذلك من التواضع . وحكى عن غير هؤلاء غير هذا البلاء . وما
أحلال نكاح من فرقة من فرق الشيعة إلا وحكى لها آفة من هذه الآفات .

الرجال

وهذا الذي حكاه أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي في كتابه « فرق الشيعة »
يوافق ما حكاه عنهم جميع من كتبوا في الملل والنحل كالأشعري وابن حزم
والشهرستاني والمقرئ وغيرهم من أهل السنة وغير أهل السنة . وهذا الذي
نقلناه عن هذا الكتاب الشيعي الإمامي لهذا المؤلف الشيعي الإمامي يصدق
ما حكيناه عن الطائفة في الجزء الأول ناقلين له من كتب أهل السنة . وكنا
حين ذاك لم نر كتاب فرق الشيعة وإلا لنقلنا منه لأن كتب أهل السنة ليكن

ذلك أمكن في اظهار الحجة وتقليم أظافر النزاع والعناد .

نعم قد يقولون إن هذه الفرق التي يحكى عنها النوبختي وغيره هذه الآفات الاعتقادية والآفات العقلية ليست وافقة لما تذهب إليه طائفة الامامية الاثنا عشرية الحققة . بل هي تبرأ من هذه الفرق جميعا وتضلها جميعا وتحكم عليها بالزيغ فمن المدون إذن ذكر هذه الفرق في معرض الرد على طائفة الامامية ، ومن المدون أيضا مزج هذه الفرق الضالة بها وهي تعوذ بالله منها . . . إذا قالوا هذه المقالة قلنا لهم : إن أثمتكم أنفسكم فملاوا هذا الذي فعلناه ، وذكرنا هذه الفرق التي يشملها لفظ الشيعة العام وإن لم يكونوا اثنا عشرية مع طائفة الاثنا عشرية كما فعل النوبختي وغيره من علماء الشيعة . وقلنا لهم إن الجامع بين هذه الفرق وبين فرقة الامامية هو الذهاب إلى التشيع والاستمسك به وإن كان بينهم فرق وخلاف في التفصيل فلا يضر ولا يمنع هذا الذي فعلناه وفعله غيرنا من أهل السنة ومن الشيعة ومن كتبوا في عقائد الناس وإن كانوا غير مسلمين . ولهذا نجد مؤلفي الشيعة عندما يريدون تعداد الشيعة وبيان كثرتهم وعظمتهم وشأنهم في العالم الاسلامي يذكرون كل من يشمل لفظ الشيعة والتشيع ، فيذكرون الزيدية والاسماعيلية . ويذكرون أيضا غيرهم . وقد فعل هذا الشيخ محسن الأمين الداملي في كتابه « أعيان الشيعة » في مواضع ، وهو وغيره يشيدون بذكر الفاطميين ويفخرون بهم ويعمدونهم منهم وإليهم مع أن الفاطميين ليسوا اثنا عشرية وإنما هم إسماعيلية . وقد وجدنا مؤلفي الامامية يذكرون حين الرد على أهل السنة كل من قابل الشيعة وإن كان من يذكرهم بعيدين جدا عن أهل السنة بالمعنى الخالص . فهم عندما يتعرضون لنقد أهل السنة ولرد عليهم يذكرون أقوال الجهمية والخبرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة ويسبونهم بما تقوله إحدى هذه الطوائف من الاغلاط والمنكرات مع أن هذه الفرق ليست جميعا من أهل السنة

بل أهل السنة يبرؤن منها ومن باطلها ، بل بعض هذه الفرق أقرب إلى الشيعة منهم إلى أهل السنة كالمعتزلة مثلاً . فإن أصولهم تخرج إلى أصول الشيعة أكثر من جنوحها إلى أصول أهل السنة . فعند المعتزلة من الشيعة أصدق من عدم في أهل السنة ، ولكن كتاب الشيعة يعدون المعتزلة في أهل السنة لأنهم يخالفونهم في أصول الإمامة . ومقياس الناس عند الشيعة مسألة الإمامة والغلو في علي وولده ، ثم القدح في أعدائهم أو من زعمهم لهم أعداء وإن كانوا أصدقاء . ويصدق هذا الذي ذكرناه أننا وجدنا هؤلاء القوم مثل محسن الأمين في كتابه « أعيان الشيعة » ومثل غيره يذكرون في عداد الشيعة مثل محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ومثل الحافظ أبي نعيم ومثل ابن إسحاق صاحب السيرة ومثل غيرهم بل يذكرون في تعدادهم كل من قال كلمة غلو في آل البيت من الشعراء والكتاب والعلماء والفقهاء وغيرهم . ولهذا يذكرون من شعراء الشيعة مثل كعب بن زهير وأبي الأسود الدؤلي وأمثال الفرزدق وأبي نواس الفاسق ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحري والمتنبي وغيرهم من أهل الفسق والشعر والأدب ، لأنهم قالوا بيت شعر أو كلمة فيها ريح غلو أو ريح تفضيل لعلي . ومن غريب أمر هذا الرجل — أعني صاحب كتاب أعيان الشيعة — أنه عمد إلى جميع الشعراء الفحول والكتاب البارزين وأصناف العلماء وحمل الأقلام فعدم في كتابه شيعة . ولو صدق هذا الذي فعل لكان أبو حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل والبخاري ومسلم وغيرهم وغيرهم من عيون الشيعة . بل لكان الوهابيون الذين يقدح فيهم ويستحل الوقعة في أعراضهم من متعصبى الشيعة . لأن هؤلاء جميعاً يمتدحون علياً وذريته ويوالونهم ويعادون من يعاديهم ويقولون إن من الإيمان ومن الإسلام حبهم وموالاتهم . ولا يشك مؤمن بالله وباليوم الآخر أن أئمة الحديث والفقهاء السنة أمثال الأئمة الأربعة وأمثال شيوخ الحديث وغيرهم أقرب إلى

على وإلى حبه وإلى أهل بيته وموالاهم من أمثال أبي نواس والبحتري وأبي تمام وأبي الطيب المتنبي . والقوم يمدون هؤلاء الشعراء جميعا شيعة ولا يمدون الأئمة الأربعة ولا غيرهم من شيوخ السنة شيعة ، بل يمدونهم من خصوم على وخصوم آل النبي ومن أعدائهم الفجار الكفار . ومن غريب أمر هذا الرجل أنه أنكر في كتابه على من عد هذه الفرق الزائفة غير الاثنا عشرية من الشيعة وزعم أن هذا من التضليل والتلبيس . ولكن هأنحن وجدنا علماء الشيعة أنفسهم يمدون هذه الطوائف النائية عن الحق التي ذكرنا بعض عقائدها من فرق الشيعة وهو نفسه يفعل ذلك أحيانا . ونحن لم ندع قط أن كل قول تقوله طائفة من طوائف الشيعة يكون قولاً لجميع طوائفها ، ولكن ندعى أن الباطل الموجود في طوائفها كلها لا يوجد مجموعاً في أهل نخلة من النحل ولا ملة من الملل بل هم يفوقون العالم بأسره في وفرة الأخطاء والخطايا والضلالات الكبرى . ولم توجد هذه الآفات الشيعية التي ذكرها النوبختي في فرق الشيعة مجتمعة في فريق ولا فرق من خلق الله فيما نعلم . على أنه قد اجتمع في طائفة الامامية الاثنا عشرية من ذلك ما طم الوادي . ونحن هنا نورد نماذج من هذه الآفات ناقلين لها من كتبهم المطبوعة في مطابعهم المسماة بأسماء أئمتهم :

﴿ النبي هو موجد العالم عند الشيعة ﴾

قال السيد محسن الأمين العاملي في كتاب أعيان الشيعة الجزء الخامس إيجاد الرسول ص ٥٢٠ قال الشيخ إبراهيم بن يحيى الشيعي الاثنا عشرى في امتداح النبي للعالم اقل عليه الصلاة والسلام :

ساد الورى بفضائل وفواضل * وأقلها إيجاد هذا العالم
أنا عبدك القرن الذى لا يبتغى * إلا رضاك وأنت أرحم راحم
وفضائله

فأقل فواضل النبي وفواضله إيجاده العالم وهذا كفر بلا مريية .

﴿ رجوع الأمر كله إلى علي ﴾

ثم ذكر السيد محسن في هذا الجزء عن الشيخ إبراهيم بن صادق أحد علماءهم ص ٢٢٠ أنه قال في علي :

يا مَنْ إِلَيْهِ الْأَمْرُ يَرْجِعُ فِي غَد * وَلَدِيهِ أَعْمَالُ الْخَلَائِقِ تَرْفَعُ
وَلَهُ مَالُ ثَوَابِهَا وَعِقَابِهَا * يَمُطِي الْمَطَاءَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ
﴿ علي عندهم غير محدود الذات والصفات ﴾

رجوع الامور
كلها إلى علي
بن أبي طالب

وفي هذه القصيدة يقول :

وَأَرَى الْأَلَى لَصِفَاتِ ذَاتِكَ حُدُودًا * قَدْ أَخْطَأُوا مَعْنَى عِلَاكَ وَضَمُّعُوا
وَلَا يَ مَجْدُكَ يَا عَظِيمَ الْمَجْدِ لَمْ * يَتَدَبَّرُوا وَحْدِيثَ قَدْسِكَ لَمْ يَمُوعُوا
وَلَكِ الزَّمَامُ تَهَبِ مِنْ أَجْدَانِهَا * وَالشَّمْسُ بَعْدَ مَغِيبِهَا لَكَ تَرْجِعُ
وَالشَّمْسُ بَعْدَ مَغِيبِهَا إِنْ رَدَّهَا * بِالسَّرْمَنِكَ وَصَى مُوسَى يُوْشَعَ
فَهِيَ الْتَقَى بِكَ كُلَّ يَوْمٍ لَمْ تَزَلْ * مِنْ بَدءِ خَطَرِهَا تَغِيبُ وَتَطْلُعُ
وَالدَّهْرُ عَبْدُكَ طَائِعٌ لَكَ لَمْ يَزَلْ * وَكَذَا الْقَضَا لَكَ مِنْ يَمِينِكَ أَطْلُوعُ
وَلَنْ أَطْلُعَ الْبَحْرُ مُوسَى بِالْعَصَا * ضَرْبًا فَمُوسَى وَالْعَصَا لَكَ أَطْلُوعُ
وَلَنْ نَجْتَ بِالرَّسْلِ قَبْلَكَ أُمَّةٌ * فَلَقَدْ نَجْتَ بِكَ رَسْلَ رَبِّكَ أَجْمَعُ
وَصِفَاتِكَ الْحَسَنَى يَقْصُرُ عَنْ مَدَى * أَدْنَى عِلَاهَا كُلُّ مَدْحٍ يَصْنَعُ
وَالْحَمْدُ مَقْصُورٌ عَلَيْهِ ثَنَاؤُهُ * وَعَلَى سِوَاكَ لَوْ أَوْهَ لَا يَرْفَعُ
وهذا لا يقوله مسلم ولا مؤمن بالله وقوله « فموسى والعصا لك أطلوع » وقوله
« نجت بك رسل ربك أجمع » وقوله « بالسرم منك » البيت ، هي أقوال لا يتفوه
بها المؤمنون وهي تشير إلى ألوهية علي وقدمه ، ونعوذ بالله من هذا .

﴿ وجود على واسع كل الوجود ﴾

وقبل هذه الآيات من هذه القصيدة يقول الشيخ إبراهيم هذا في على :

وجوده وسع الوجود وهل خلا * في عالم الامكان منه موضع
كشاف داجية القضاء عن الوري * بمزائم منها القضاء يروع
وجود على بن أبي طالب في كل مكان

﴿ آل النبي يملكون أمور العالمين ﴾

وتقل في الجزء الخامس ص ٦٧٣ في ترجمة الشيخ إبراهيم العاسلي قوله
في آل النبي :

المالون بكل علم أحجيت * عنه الخواطر غير كنه الذات
ملكوا أمور العالمين فأمرهم * ماض على الأحياء والأموات
وفي ص ٦٨٧ من هذا الجزء عن هذا الشيخ بعد أن ذكر الرسول وفاطمة لأمر العالمين
والحسن والحسين وجعفر وحمة وعقيلاً وعبد مناف قال:

هم التسعة نفر الذين إليهم * أمور الوري في النشاطين تتول
ولو لام ما ساغ فعل لفاعل * ولا طالب منه القول حين يقول
﴿ الدنيا والأخرى أقل عطايا السيدة زينب ﴾

وذكر ص ٥٨٨ من الجزء الخامس للشيخ إبراهيم بن يحيى العاسلي قوله
في السيدة زينب :

وكيف لا يطلب الدنيا وضرتها * مولاكم وهما أدنى عطاياك
﴿ مجاورة أحد قبور أهل البيت يعصم من سؤال القبر ﴾

وذكر في ص ٣٥٠ من الجزء الخامس للشيخ إبراهيم الكفعمي أحد علمائهم
قوله طالبا أن يدفن في كربلاء :

سألتكم بالله أن تدفنونني * إذا مت في قبر بأرض عقير

فأنى به جبار الشهيد بكر بلا * سليل رسول الله خير مجير
فأنى به فى حفرتى غير خائف * بلا صرية من منكر ونكير

﴿ أحد ضربات على أفضل من عبادة الخلائق أجمع ﴾

قتل على لأحد
المشركين
أفضل من
عبادة
الخلائق
أجمعين

ومن أقبح النواذى يتخبطون فيه ماذكره السيد محسن الأمين فى كتابه
« أعيان الشيعة » ص ٢٣٤ من الجزء الثانى وص ١١٣ من الجزء الثالث قال:
إن قتل على بن أبى طالب لعمر و بن عبود أفضل من عبادة الجن والانس
والملائكة وملايين العوالم أمثالهم إلى قيام الساعة ، قال ولولا هذه القتلة لما عبد الله
فى الأرض . قال وفى قراءة « وكفى الله المؤمنين القتال بلى »

ولا يخفى ما فى هذا من الإثم والباطل ومن التنقص للأنبىاء والمرسلين
والملائكة وللمؤمنين ، ومن التهوين لهم ولعبادتهم وطاعتهم لله . ولن يقول مسلم
إن عليا كله بجهاده وأعماله وجميع أحواله أفضل من أحد الأنبياء فضلا عن أن
يقول إن قتله لرجل من المشركين أفضل من عبادة جميع الأنبياء والمرسلين
ومن عبادات الجن والانس والملائكة وملايين العوالم من أمثال الجن والانس
والملائكة ، وفيهم الأنبياء والرسل ، وفيهم محمد وموسى وعيسى وإبراهيم ونوح
وغيرهم ، وفيهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم . وقد ذكر هذا الرجل فى
مواضع من كتابه أن عليا كان يقتل فى جميع غزوات المسلمين وحده أكثر من الشطر
وأن المسلمين جميعا مع الملائكة يقتلون الباقى وهو مادون الشطر ، فجميع أبطال
الصحابة مع الملائكة المسومين لا يستطيعون مجتعمين أن يقتلوا العدد الذى يقتله
على وحده . وهذا طرب من ضروب الجنة والهوس . وقد ذكر أيضا ص ٤٤٦
من الجزء الثانى أنه لا كفء لفاطمة غير على وأنه لولا على لما كان آدم ولا من
بعده كففا لها .

﴿ إنكارهم لبنات النبي ﴾

إنكار بنات

النبي عليه
السلام

ومن عجيب أمر القوم ومن لجأهم في عداوة الخلفاء الراشدين وانحذارهم في جحد فضائلهم أنهم ينكرون أن تكون رقية وأم كلثوم زوجا عثمان وابنتا النبي عليه السلام : ينكرون أن تكونا من بنات النبي ويزعمون أنهما ليستا ابنتين له . ذكر هذا الإنكار أحد علمائهم وقضاةها وهو السيد محمد مهدي القزويني الكاظمي في كتابه منهاج الشريعة الجزء الثاني ص ٢٨٩ وص ١٩١ والقوم يريدون بهذا تجريد عثمان من فضائله التي قلده الله إياها حتى ألبسه خمر مصاهرة نبيه وتزويجه بابتنتين من بناته، وهذا مجد لم ينله على نفسه . ولكن إنكارهم هذا يدل على استهتارهم بدينهم ونبيهم وبآله وذريته وأهل بيته . ولولاؤهم للبيت النبوي هو أعظم مالهيم من المفاخر التي يدلون بها فيما يزعمون . فأيمن ما يزعمون وأين ما به يفاخرون ويدلون ؟؟؟ وما يلحق بهذا أن هذا الشيخ نفسه أعفى محمد مهدي القزويني زعم في هذا الجزء من كتابه ص ١١٨ أن التتار الذين هجموا على عاصمة الإسلام بغداد فخر بها وقتلوا خليفة المسلمين المستعصم كانوا مسلمين مؤمنين بالله . وفي الصفحة التي يسدها امتدح كل من أعان على قتل الخليفة وتمزيق خلافته ، وذكر أن ابن الملقم إن كان حقا قد خاسر ومالاً المغيرين على بغداد وصرع خليفتها فقد فعل حسناً وأفعولاً جيلاً يشكر عليه . وهم يريدون بهذا القول الثناء على التتار وامتداحهم لأنهم في رأيهم قد أنقذوا بما يشكرون عليه وهو قتلهم الخليفة العباسي وقتل رجاله وعلمائه .

أولاد النبي

محرمون على

النار وعلى

العصيان

﴿ ذرية النبي جميعا محرمون على النار معصومون من كل سوء ﴾

وفي الجزء الثاني صفحة ٣٢٧ من كتاب « منهاج الشريعة » المتقدم زعم مؤلفه أن الله قد حرم جميع أولاد فاطمة بنت النبي على النار . وأن من فاته الحق

منهم أولا فلا بد أن يوفق إليه قبل وفاته ، قال : ثم الشفاعة من وراء ذلك . وقال في « أعيان الشيعة » الجزء الثالث صفحة ٦٥ إن أولاد النبي عليه الصلاة والسلام لا يخطؤون ولا يذنبون ولا يعصون الله إلى قيام الساعة .

﴿ بنو أمية ليسوا من قريش ولا من العرب ﴾

بنو أمية من
الروم لا من
العرب

ومن فطيع ما خطوه بأيديهم عداوة للعرب وخصومة للموكلهم وتجريفا لكتاب الله ما ذكره في كتاب « ذخيرة الدارين في ما يتعلق بالحسين » تأليف السيد عبد المجيد الحسيني الحائري الأمامي . قال صفحة ٤٨ الجزء الأول (طبع النجف) بعنوان « نسب معاوية ويزيد وزياد وعمر بن العاص » : « ذكر الحلي في كتاب « نهج الحق » عند نقل مثالب الصحابة أن معاوية كان لأربعة من الرجال قال السيد التستري في كتاب « احقاق الحق في بيان نسب بني أمية » إن نسبهم بطريق علماء أهل البيت أنهم ليسوا من قريش وإنما كانوا لعبد رومي اسمه « أمية » قال ونسبهم النسابون الجاهل إلى قريش . وفي تفسير الصافي الفاضل القاشاني في سورة الروم قال وقرئ في الشواذ « غلبت الروم » (بفتح الحرف الأول) وهم من بعد غلبهم سيغلبون « بضم حرف الياء . قال وقد روينا من طريق علماء أهل البيت في علومهم وأسرارهم التي خرجت منهم إلى علماء شيعتهم أن قوما ينسبون إلى قريش وأن أصلهم من الروم ، وفيهم تأويل هذه الآية ، « غلبت الروم » ومعناها أنهم غلبوا على الملك وسيغلبهم بنو العباس » انتهى كلامه ونحن نترك هذا الكلام بدون تعليق .

﴿ ملوك أهل السنة أولاد زنا عند الشيعة ﴾

ملوك أهل
سنة أولاد
اعند الشيعة

وفي هذا الجزء من هذا الكتاب صفحة ٥٠ قال : فبنوا أمية جميعهم ليسوا من صلب قريش وإنما هم ملحقون . . . والعجيب أنهم يشهدون على أنفسهم

بأنهم أولاد زنا وأولاد مخانيث ثم يقدمونهم على من ليس فيهم عيب ، ولا في نسبهم ريب . انتهى كلامه .

وأهل السنة لم يقدموا على علي وعلى الحسن والحسين وذريتهم الصالحين غير أبي بكر وعمر وعثمان . فكان هؤلاء الخنولون يعنون بهذه المقادح الملعونة هؤلاء الخلفاء : الصديق والفاروق وعثمان . وقد ذكر صاحب كتاب أعيان الشيعة (الجزء الثالث صفحة ٣٦) هذا المعنى بعبارة لا أستطيع نقلها وحكايتها . وذكر صاحب « ذخيرة الدارين » أيضا أن عمرو بن العاص وطلحة بن عبيد الله وسعد ابن أبي وقاص وابنه عمر والزبير وابنه عبد الله : ذكر أن هؤلاء جميعا أولاد زنا

الباكى على
الحسين محرم
على النار

﴿ من بكى أو تباكى على الحسين حرم على النار ﴾

وفي « ذخيرة الدارين » صفحة ١١٥ قال : من بكى أو تباكى على قتل الحسين

حرم جسده على النار .

على بن أبي
طالب قسيم
النار

﴿ على قسيم النار وهو مخلص الخلائق يوم القيامة منها ﴾

وفي صفحة ١١٦ قال : إن عليا يندود الخلق يوم العطش فيسقى منه أوليائه ويندود عنه أعداءه ، وإنه قسيم النار وإنها تطيعه يخرج منها من يشاء ، وإنه هو الذى يخلص الخلائق يوم القيامة عند الله .

زيارة الحسين
نجابة

﴿ زائر الحسين ناج وزيارته أفضل من الحج والاعتمار ﴾

وفي هذه الصفحة قال : « ومن أتى الحسين زائراً كان في ضمان الله وكان بمنزلة من حج واعتمر ولم يخل من الرحمة طرفة عين وإن مات مات شهيداً وإن بقى لم يزل يحفظه حتى يفارق الدنيا » .

الشفاء وإجابة
الدعاء فى قبر

﴿ الشفاء وإجابة الدعاء فى قبر الحسين ﴾

وفي صفحة ١١٩ قال : « إن الله عوض الحسين من قتله أن جعل الإمامة فى الحسين

خريته والشفاء في تربته وإجابة الدعاء عند قبره ، ولا تعد أيام زائره جائيا وذاهبا
من عمره .

﴿ الامام المنتظر يأتي بأمر جديد وكتاب جديد ﴾

الامام المنتظر
يأتي بدين
جديد

وفي كتاب « أعيان الشيعة » (الجزء الرابع القسم الثاني صفحة ٥٣٠)
قال قال الصادق عليه السلام : إذا قام القائم دعا الناس إلى الاسلام جديدا
وهدهم إلى أمر دثروضل عنه الجمهور . وإنما سمي القائم مهديا لأنه يهدي إلى أمر
مضلول عنه ، وسمى القائم لقيامه بالحق . وعنه عليه السلام قال : إذا قام القائم هدم
المسجد الحرام حتى يرده إلى أساسه ، وحول المقام إلى الموضع الذي كان فيه ، وقطع
أيدي بني شيبه وعلقها بالكعبة وكتب عليها : هؤلاء سراق الكعبة . وعنه
عليه السلام قال : إذا قام القائم جاء بأمر جديد كما دعا رسول الله في بدء الاسلام
إلى أمر جديد . وعن الباقر نحوه . وعن الباقر أيضا قال : إذا خرج يقوم بأمر
جديد وكتاب جديد وسنة جديدة وقضاء جديد على العرب شديد . ليس شأنه
إلا القتل لا يستبقى أحدا ولا تأخذه في الله لومة لائم . وعنه في حديث : لكأني
أنظر إليه بين الركن والمقام يبائع الناس بأمر جديد وكتاب جديد وسلطان
جديد من السماء . وعنه عليه السلام قال : إذا قام القائم سار إلى الكوفة ، فيهدم
بها أربعة مساجد . ولم يبق على وجه الأرض مسجد له شرف الاهدمه ، ووسع
الطريق الأعظم وكسر كل جناح خارج في الطريق ، وأبطل الكنف والميازيب
إلى الطرقات .

هذه أقوال الأئمة المعصومين عند القوم ومقالاتهم . وهي صريحة في أن
هنالك كتابا صحيحا وقرآنا غير هذا القرآن وغير هذا الكتاب الذي بين أيدي
المسلمين . وبعد هذا يحاول محاولون من مؤلفي هذه الطائفة التضليل على من لم

يعرف حقيقتهم وحقيقة دعاويهم فيذهبون يقولون : كلا ، إنما معشر الشيعة الاثنا عشرية لا تقول بشئ من هذه المقالات بل نبرأ منها ومن قائلها . وهم يفرون إلى التقية والحداع والتضليل وإلا فهذه مقالات الأئمة الذين يزعمونهم معصومين كالأنبيا والمرسلين ، بل أعظم وأفضل وأصدق عندهم من أولى العزم من الأنبياء بيينة في هذا الأمر الذي يحاولون اخفائه وكتمانته .

أما هدم المساجد وزعمهم أن القائم المنتظر يهدم كل مسجد له شرف فقد جاء عن هؤلاء الأئمة من طرقهم هم أن القائم إذا ظهر هدم مسجد النبي عليه الصلاة والسلام وأخرج أبا بكر وعمر منه طريين فصليهما ثم حرقهما . وجاءت روايات كثيرة في كتبهم أنه يهدم جميع المساجد . والشيعة أبدأهم أعداء المساجد ولهذا يقتل أن يشاهد الضارب في طول بلادهم وعرضها مسجدا .

وحسن لهم هم أن يهدموا مساجد المسلمين وأن يهدموا مسجد النبي والمسجد الحرام وكل مسجد له شرف ، وغير حسن من أتباع السنة الحمديدية الصافية أن يهدموا القباب والبنائات المشيدة على الأموات ترغيبا في عبادتهم وإشرا بهم بالله وقولهم في الرواية : « وقضاء على العرب شديد » لا يدري من لم يعرف مقدار حنقهم على العرب لماذا خصومهم دون سواهم من الأمم والشعوب بشدة ذلك القضاء المنتظر . ولما الله هذه الجماعة ! فلقد غذيت بعداوة العرب وبفضائهم أن كانت إلى قيام منتظرها من غير ما سبب أتاه العرب المساكين سوى نشرهم هذا الدين . والله المطلع على ذات صدورهم .

﴿ كل جهاد في سبيل الله باطل ومعصية عند الشيعة ﴾
بطلان الجهاد
ومن أشنع ما ذهبت إليه هذه الفرقة أنها زعمت أن الجهاد في سبيل الله باطل موضوع ، وأن المجاهدين فاسقون عاصون أن لم يكن ذلك تحت لواء على بن أبي طالب أو أحد أولاد المعصومين ! فنندم أن جميع فتوح الاسلام التي

تمت في عصر الخلفاء الراشدين وفي عصور من بعدهم من الخلفاء والأمراء والملك فتوح قائمة على عصيان الله ومخالفة أمره وشرعه . وعندهم أن كل من اشترك في فتح بقعة من بلاد الكفر والشرك بعد النبي آثم عاص لله ولرسوله سواء أكان قائداً أم كان مقوداً ، وسواء أكان أميراً أم كان مأموراً . وهم يذكرون روايات في هذا الباطل والاثم العظيم عن أئمة البيت النبوي . والروايات بلاريب مكتوبة . ولو كانت صحيحة عنهم لما كانوا عندنا ولا عند المسلمين من المرضيين وقد ذكرت هذه المسألة في كتاب « أعيان الشيعة » (الجزء الرابع القسم الأول صفحة ١٣١) . وقد ذكر قول أحد الكتاب عن الحسين رضي الله عنه وعن جهاده مع المسلمين : « ويتنقل مع جيوش المسلمين إلى أقطار الأرض في فتح إفريقية وغزوة جرجان وطبرستان وقسطنطينية » . فقال الشيعة مؤلف « أعيان الشيعة » تعقيباً على ما ذكر من جهاد الحسين : « ولا يخفى أن ذلك كله اختلاق . فالحسين لم يكن ليسير تحت تلك الرايات التي يراها رايات ضلالة ، وخصوصاً راية يزيد بن معاوية . ولم يكن ليؤيد سلطنة الظلم والملك العضوض ، وأخوه الحسن الذي كان أقرب منه إلى المسألة لم يرض أن يحارب الخوارج تحت راية معاوية ، وقد قال مامعناه : أنت أحق بأن أجاهدك من الخوارج . فالحسين الذي علم حاله في إباء الضيم والمجاهرة بالحق هل يمكن أن يسير تحت مثل تلك الرايات وأمير المؤمنين عليه السلام قد قال : لا تحاربوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه . وأئمة أهل البيت كانوا يرون مسير أبي أيوب الأنصاري لمحاصرة القسطنطينية قلة فقه منه . فهل يمكن أن يفعلوا ما عابوه على غيرهم ؟ » انتهى كلامه فض الله فاه .

فهل ممع المسلم بأعجب من هذا ؟ وهل يقول مثل هذا القول من يؤمن بالله وباليوم الآخر ومن يريد أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الكفر والشرك هي

السفلى ؟ وأبو أيوب الأنصارى مات غزياً مجاهداً في بلاد الروم في خلافة معاوية .
رضى الله عنهما . ومتى كان المجاهد في سبيل الله الذاهب إلى ربه في جهاده قليل
الفقه ياقومنا ؟ هبوا أيها الناس معاوية شر الخليقة كلها فلماذا لا يجوز معاونته على
الخير والطاعات . ولماذا لا يجوز جهاد الكفر والفساد والجهل والظلم معه ونحت
رايته وفي إمرته ؟ إن المسلم - يامن يزعمون أنهم مسلمون - مأمور بأن ينصر الحق
وأن يكون مع الحق وأن يجاهد في سبيل الله وفي سبيل إعزاز دينه وكلمة الله أين
كان وحيث كان ومع من كان . ولو أن المسلمين وجدوا كفاراً يناصرون الإسلام
وأهله لكانوا معهم .

والقوم يظنون أن قول على المذكور : « لا تقاتلوا الخوارج بعدى »
الحديث ، إبطال للجهاد في سبيل الله ، ويحسبونه يعنى أن كل مسلم يجب
عليه أن يغمد سيفه وأن يحطم رمحه فلا يجاهد ولا يقاتل لأن كل جهاد و قتال
بعده باطل موضوع لأن الملوك والخلفاء القائمين بالجهاد بعده كلهم من غير
المعصومين . وهذا باطل والرواية عن على باطلة ولو صححت لما أمكن أن يكون
معناها ما زعموا .

وقول الرافضى : « ولم يكن ليؤيد سلطنة الظلم والملك المضوض » قول غريب
باطل . لأن الجهاد في سبيل الله ليس تأييداً للظلم والملك المضوض وإنما هو
تأييد لدين الله ونشره . وإذا لزم الجهاد في الحق أن يكون فيه إعزاز لدولة أحد
الخلفاء الظالمين عند الشيعة لم يكن هذا الجهاد باطلاً ولا تأييداً للظلم والملك
المضوض . وهل يجوز للمسلم أن يترك الجهاد في سبيل الله مع المسلمين المجاهدين
خيفة أن يكون في جهاده تقوية لخلافة أبي بكر أو عمر أو عثمان أو معاوية أو غيرهم
من الخلفاء والملوك ؟ وهل ينهب من يؤمن بالله واليوم الآخر إلى أن إبقاء ديار
الكفر والظلم والشرك تحت الكفار والمشركين والجاهلين أفضل وأولى من إدخاله

في حوزة المسلمين والاسلام تحت سلطنة معاوية أو خلافة أبي بكر أو عمر أو عثمان لئلا يكون في هذا توسيع لسلطان أحد هؤلاء الخلفاء والملوك الظالمين ؟ وهل يقول مؤمن بالله وباليوم الآخر إن عمرو بن العاص مثلاً آثم في غزواته في سبيل الله وفي فتحه مصر وفتح غيرها من بلاد الكفار والمشركين ، أو يقول إن كل من اشتركوا في فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص أو فتح فارس أو الشام أو المغرب أو غير ذلك مما فتح في سبيل الله : هل يقول من يؤمن بالله وباليوم الآخر إن كل من اشتركوا في هذه الفتوحات الاسلامية عاصون آثمون لأنهم يجاهدون تحت رايات الملوك الظالمين ، ولأنهم بذلك يؤيدون سلطات الخلفاء والملوك المعتدين المنيرين على حقوق غيرهم وعلى الخلافة والسلطان ؟ ألا جازى الله هذه الطائفة أعدل جزاء ، فما أشد خصومتها لله ولدينه ولعباده المؤمنين .

إن المؤمن لا يشك في أن هذه الاقاويل لا تصدر إلا من قلوب ترشح بغضا للاسلام وكراهة لله ولرسوله ولأنصاره الابرار المجاهدين .

﴿ الرجعة ومعناها عندهم ﴾

الرجعة

وحقيقتها

تروى فرقة الشيعة الاثنا عشرية عن علماء أهل البيت النبوي روايات كثيرة في الرجعة والايان بها والحللة على من ينكرها أو يشك فيها حتى روى عن أئمة البيت إكفار من لم يؤمن بها . ومن رواياتهم عنهم قولهم : « من لم يؤمن برجعتنا ، ويقر بمتعتنا فليس منا » . وهم يزعمون أن مسألة الرجعة من ضروريات مذهبهم ، ومنكر الضرورى ليسهم كافر كما تقدم عن الشيخ محسن الأمين العامل في الجزء الأول من كتاب « الصراع » . فالقوم لا يختلفون في الايمان بالرجعة ، ومن خالف فيها عندهم فليس إمامياً اثنا عشرياً أى فليس مسلماً . وقد ألفوا فيها وفي اثباتها كتباً كثيرة قديمة وحديثة . وكلمة « الرجعة » تمر كثيراً بمن ينظر في

كتب الرجال وكتب الجرح والتعديل ، فيجدهم يقولون مثلاً : «فلان يؤمن بالرجعة» ، أو يقول بالرجعة . وقد يخفى ما تريده الشيعة من هذه الكلمة على كثير من الناس وعلى الخاصة منهم . وقد كنت حينما كتبت الجزء الأول من الصّراع لأجهل مرادهم الحقيقي من هذه الكلمة ، وكنت أظنهم يعنون بذلك رجوع علي بن أبي طالب أو رجوع أحد الأئمة الاثني عشر إلى الحياة الدنيا ، أو نحو ذلك . وما كنت أعرف غرضهم الحقيقي كما هو ، وقد ظهر لي بعد ما يعنون حقيقة بالرجعة بعد أن راجعت شيئاً من كتبهم .

فالرجعة عندهم معناها رجوع جميع المؤمنين : الأنبياء فن دونهم والأئمة المعصومين وغيرهم ليقاتلوا جميعاً تحت راية علي بن أبي طالب ، ورجوع جميع الكافرين : أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم من أتباعهم والمواليين لهم لينثار على وآله والمؤمنون منهم ، وليجازوهم ما فعلوه بهم من ظلم وعدوان وتغلب . فكل من محض الإيمان يرجع ليكون تحت راية علي ، وكل من محض الكفر يرجع للثأر والانتقام منه . فالرجعة ليست خاصة بعلي ولا بالأئمة ولا بالمؤمنين ولا بالكافرين . وأنا أورد هنا بعض رواياتهم عن علماء أهل البيت الذين هم عندهم معصومون :

١ — عن أبي عبد الله الصادق في قول الله «ويوم نحشر من كل أمة فوجاً» رواياتهم فلا حال ليس أحد من المؤمنين قتل إلا يرجع حتى يموت ، ولا أحد من المؤمنين ^{الرجعة} مات إلا يرجع حتى يقتل .

٢ — وعن موسى الخنابط قال سمعت أبا عبد الله الصادق يقول : أيام الله ثلاثه يوم يقوم القائم ، ويوم الكرة ، ويوم القيامة .

٣ — وعن فيض بن أبي شيبه عن أبي عبد الله الصادق يقول وتلاً هذه الآية « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم » الآية ، قلت ليؤمن برسول الله

ولينصرون على بن أبي طالب ، قال والله من لدن آدم وهلم جرا . فلم يبعث الله نبيا ولا رسولا إلا أرجعهم جميعا إلى الدنيا حتى يقاتلوا بين يدي على بن أبي طالب ٤ — وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر في قول الله : « يا أيها المدثر قم فأندر » يعني محمدا وقيامه في الرجعة فينذر فيها ، وفي قوله : « إنها لأحدى الكبر » يعني محمدا نذيرا للبشر في الرجعة ، وفي قوله « وما أرسلناك إلا كافة للناس » يعني في الرجعة .

٥ — وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر قال سئل عن قول الله : « ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم » . فقال يا جابر أتدرى ما سبيل الله ؟ قلت : لا والله ، فقال القتل في سبيل على وذريته . فن قتل في ولايته قتل في سبيل الله ، وليس أحد يؤمن بهذه الآية إلا وله قتلة وموتة . إنه من قتل نشرحق يموت ، ومن مات نشرحق يقتل .

٦ — وعن أبي عبد الرحمن القصير عن أبي جعفر قال قرأ هذه الآية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » فقال أتدرى من يعني ؟ فقلت : يقاتل المؤمنون فيقتلون ، فقال لا . ولكن من قتل من المؤمنين رد حتى يموت ، ومن مات رد حتى يقتل . وتلك القدرة .

٧ — وعن جميل بن دراج عن أبي عبد الله قال قلت له : قول الله : « إنما لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » فقال ذلك والله في الرجعة . أما علمت أن أنبياء الله كثيرا لم ينصروا في الدنيا وقتلوا ، وأئمة قتلوا ولم ينصروا . فذلك في الرجعة . قلت : « واستمع يوم ينادى المنادى » الآية . قال : هي الرجعة .

٨ — وعن أحمد بن حنبل عن أبيه عن أبي عبد الله أنه سئل عن الرجعة . أحق هي ؟ قيل له : من أول من يخرج ؟ قال الحسين يخرج على أثر القائم .

٩ — وعن حنان بن سدير عن أبيه قال سألت أبا جعفر عن الرجعة فقال :
ينكرها القدرية ثلاثاً .

١٠ — وعن داود البرقي قال قلت له عليه السلام : إني قد كبرت ودق
عظمي وأحب أن يختم عمري بقتل فيكم ، فقال : وما من هذا بد ، إن لم يكن في
العاجلة يكون في الآجلة .

١١ — وعن فضيل بن شاذان عن أبي جعفر قال : إذا ظهر القائم ودخل
الكوفة بعث الله من ظهر الكوفة سبعين ألف صديق فيكونون في أتباعه وأنصاره .
هذه الروايات قد نقلناها كلها من كتاب « النجعة في الرجعة » طبع النجف
صفحة ٢٧ وما بعدها ، تأليف محمد رضا الطبسي الخراساني ، وقد قال بعد أن ساق
هذه الروايات : « ومن أراد أكثر من ذلك فليراجع في مظانها . وقد ذكر المحدث
الحري العامل في كتابه « الأيقاظ » أكثر من ستائة حديث . وقال في ذيل كلمة
« مؤمن بإيابكم » : ان فيها دلالة واضحة على رجوع رسول الله وأوصيائه الأئمة .
وإني قد اطلعت على ستائة وعشرين حديثاً » انتهى قوله .

وقال صفحة ٢٥ وما بعدها : روى الشيخ حسن بن سليمان في كتابه المختصر
بإسناده عن سلمان الفارسي قال : دخلت يوماً على رسول الله فنظر إلى ، إلى أن
قال يا سلمان خلقتي الله من صفوة نوره وخلق من نوري عليا ، وخلق من نوري
ونور علي فاطمة ، وخلق مني ومن علي وفاطمة الحسن والحسين فهما أنا بخمسة وآله من صفوة
أسماء من أسمائه ، ثم خلق منا ومن نور الحسين تسعة أئمة فدعاهم فأطاعوه قبل أن
يخلق الله سماء ولا أرضاً ولا هواء ولا ماء ولا ملكاً ولا بشراً . وكنا بعلمه أنواراً
نسبحه ونسمع له ونطيع . وهنا ذكر له أسماء الأئمة الاثني عشر إلى آخرهم وهو
القائم المهدي . قال سلمان فبكيت ثم قلت يا رسول الله وأني لى بادرا بهم ؟ قال :
يا سلمان إنك مدرهم وأمثالك . قلت يا رسول الله إني مؤجل إلى عهدهم ؟ قال :

خلق النبي
والله من صفوة
نور الله

يا سلمان اقرأ : « فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فحاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا » قال سلمان فاشتد بكائي وشوقى وقلت : يا رسول الله بعهد منك ؟ فقال إى والذى أرسل محمدا إنه لبعهد منى وبلى وفاطمة والحسن والحسين وتسعة أئمة وكل من هو مظلوم منا وفينا ، إى والله يا سلمان ثم يحضر إبليس وجنوده وكل من محض الإيمان ومحض الكفر محضا حتى يؤخذ بالتقصص والثرات ولا يظلم ربك أحدا ، ونحن تأويل هذه الآية : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » الآية . قلت وقبح الله الكذابين .

وفى هذا الكتاب أيضا صفحة ٢٣ قال : كانت لمؤمن الطاق مع أبى حنيفة حكايات كثيرة منها أنه قال يوما يا أبا جعفر تقول بالرجعة ؟ قال نعم . قال أبو حنيفة أقرضنى خمسمائة دينار فاذا عدت أنا وأنت رددتها إليك . فقال له : أريد ضيقا أنك تعود إنسانا وإنى أخاف أن تعود قدرا فلا أتمكن من استرجاع ما أخنت . وقد ذكرت فى الكتاب روايات كثيرة من هذا النوع الشنيع . وقد أشار مرات إلى كفر من أنكر هذه الرجعة أو شك فيها . ونقل عن أحد شيوخهم ومؤلفيهم أنه قال : يقينى بالرجعة أشد من يقينى بالقيامة . وذكر فى مواضع أن الإيمان بالرجعة من ضرورات مذهب الإمامية وأنها من أصول اعتقاداتهم ... ومن أمتنع مازعموه فى هذه المسألة الشيعية أنهم قد حددوا للرجعة ٨٠ ألف سنة .

هذا هو قولهم بالرجعة وهذا هو معناها لديهم وما يريدونه منها . ولينظر بعد هل هؤلاء ممن آمنوا بالله وبرسوله وبالإسلام !

بماذا يعرف الشيعي الحق ؟

الناس كلهم مؤمنون وكافرون يستدلون على الأمر بدلائل العقلية والنقلية

الهدى فى
مخالفة
المسلمين

إلا هذه الفرقة ، فانها تستدل على الأمر بغير ذلك وتعرف الحق من الباطل بما
يخجل المسلم ذكره ونقله ... فأنا وأنت والعقلاء كافة نعرف أن هذا حق وأن ذلك
باطل لأن هذا دلت عليه دلائل الحق وذلك دلت عليه دلائل الباطل ، أما الشيعي
الاثنا عشرى فيعرف الحق بأنه ما اعتقده أهل السنة باطلا فتركوه ، ويعرف
الباطل بأنه ما اعتقده أهل السنة حقا ففعلوه . فاذا أراد الشيعي أن يعرف أحلال
هذا أم حرام ، أحق أم باطل ، نظر إلى عمل أهل السنة ومن ليسوا شيعة فاعملوه
وقبلوه فهو حرام وباطل بلا شك ، وما هجروه وجانبوه فهو حلال وحق بلا ريب .
هذا هو فيصل التفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام والاسلام وغير الاسلام
عند طائفة الشيعة . ونحن ننقل رأيهم وروايتهم في هذا الباطل وهذا الخزي الفاضح .

روى المشايخ الثلاثة بالاسانيد عن عمر بن حفظة قال سألت أبا عبد الله لا يجوز التحاكم
عن رجلين من أصحابنا تكون بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكم إلى السلطان إلى المسلمين
أو إلى القضاة ، أيحل ذلك ؟ قال : من تحاكم إليهم في حق أو باطل فانما يتحاكم
إلى الطاغوت ، وما يحكم له به فانما يأخذ سحتنا وإن كان حقه الثابت لأنه أخذ
بحكم الطاغوت وإنما أمر الله أن يكفر به قال : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت
وقد أمروا أن يكفروا به » . قلت فكيف يصنعان ؟ قال ينظران من كان منكم
قد روى حديثنا ونظر في بحالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به فاني قد
جعلته عليكم حاكما ، فاذا لم يقبل حكمنا فانما يحكم الله استخف وعلينا قد رد .
والراد علينا راد على الله وهو على حد الشرك بالله ، إلى أن قال : ينظر ما وافق
حكمه حكم الكتاب والسنة وخالف العامة فيأخذ به ويترك ما خالف الكتاب
والسنة ووافق العامة . قلت أرأيت إن كان الفقيهان عرفا حكما من الكتاب والسنة
فوجدنا أحد الخبرين موافقا للعامة والآخر مخالفا لهم بأى الخبرين يؤخذ ؟ قال
بما خالف العامة فان الرشاد فيه . قلت فان وافقهم الخبران جميعا ؟ قال ينظر إلى

ماهم أميل إليه . قلت فان وافق حکامهم الخبرين جميعا ؟ قال إذا كان ذلك فأرجه حتى تلقى إمامك فان الوقوف عند الشبهات خير من الاتحام في الهلكات » قال صاحب الكتاب الذى تنقل منه هذه الروايات بعد ذكره هذه الرواية : « كذا يوجه الجمع بين موافقة الكتاب والسنة ومخالفة العامة مع كفاية واحدة منهما لإجماعا » . يريد أن مخالفة العامة مطلوبة على كل حال بلانظر إلى الكتاب والسنة فان في خلافهم الرشاد والهداية إجماعا .

وعن زرارة قال سألت أبا جعفر قلت يأتى عنكم الخبران المتعارضان فبأيهما آخذ (إلى أن قال) أنظر ماوافق منهما العامة فاتركه وخذ بما خالف ، فان الحق في خلافهم ، قلت ربما كانا موافقين لهم أو مخالفين فكيف أصنع ؟ قال اأذن خذ بما فيه الحيلة لديك .

وفي رسالة القطب الراوندى بإسناده الصحيح عن الصادق قال إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فذروه فان لم تجدوه في كتاب الله فاعرضوهما على أخبار العامة فما وافق أخبارهم فذروه ، وماخالف أخبارهم فخذوه . وروى بسنده أيضا عن ابن السرى قال قال أبو عبد الله : إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فخذوا بما خالف القوم . وروى بسنده أيضا قال خذ بماخالف القوم وماوافق القوم اجتنبه . وبسنده أيضا عن محمد بن عبد الله قال قلت للرضا كيف نصنع بالخبرين المختلفين ؟ قال : إذا ورد عليكم خبران مختلفان فانظروا ماخالف منهما العامة فخذوه وانظروا ماوافق أخبارهم فذروه . وبسنده عن ابن مهران قال قلت لأبي عبد الله : يرد علينا حديثان واحد ينهانا وواحد يأمرنا قال لا تعمل بواحد منهما حتى تلقى صاحبك وتسأله . قلت لا بد أن نعمل بواحد منهما . قال خذ بمافيه خلاف العامة . وعن علي بن أسباط قال قلت للرضا يحدث الأمر لا بد من معرفته وليس في البلد

الذى أنا فيه أحد من مواليك أستغثيه ، قال اعط فقيه البلد واستغثه فى أمرك فاذا أفتاك بشئ فخذ بخلافه فان الحق فيه . وعن أبى إسحاق الأرجاني قال قال أبو عبد الله : أتدرى لم أمرتم بالاختلاف ما يقوله العامة ؟ فقلت لا أدري فقال إن عليا لم يكن يدين الله بشئ إلا خالف عليه العامة ، إرادة لا بطل أمره ، وكانوا يسألونه عن الشئ الذى لا يعلمونه فاذا أفتاهم جعلوا له ضدا من عندهم ليلبسوا على الناس . وفى رسالة ابن الحصين : أن من واقعنا خالف عدونا فى قول أو عمل فليس منا ولا نحن منه . كذا الرواية والظاهر أنها محرفة . وفى رواية الحسين بن خالد قال : شيعتنا المسلمون لأمرنا ، الآخذون بقولنا ، المخالفون لأعدائنا . ومن لم يكن كذلك فليس منا ، ويكون حالهم حال اليهود الوارد فيهم قوله ﷺ : « خالفوهم ما استطعتم » . وقال أبو عبد الله الصادق أيضا : ما سمعته منى يشبه كلام الناس فنيه التقية ، وما سمعته منى لا يشبه كلام الناس فلا تقية فيه . وعن أبى بصير عن أبى عبد الله قال ما أنتم والله على شئ مما هم فيه ولا هم على شئ مما أنتم فيه ، فخالفوهم فانهم ليسوا من الخيفية على شئ .

روى هذه الأخبار كلها الشيخ مرتضى الأنصارى التستري الامامى الاثنا عشرى فى كتابه « فرائد الاصول » صفحة ٣٣٥ وما بعدها .

والشيعة إذا قالوا « العامة » أو « الجمهور » كانوا يعنون أهل السنة ومن ليسوا شيعة . فهم يعرفون الحق بأنه ما خالفه أهل السنة ، والباطل بأنه ما كان عليه أهل السنة . وأهل السنة عندهم لا يمكن أن يكونوا على شئ من الرشاد والهدى والخيفية بل كل أمرهم باطل وضلال وخلاف على الدين . والنحاة كم إليهم وإلى علمائهم وقضاتهم وسلاطينهم وخلفائهم من التحاكم إلى الطواغيت . وقد أمر الله بالكفر بهم لا بالتحاكم إليهم . والمتحاكمون إلى الطواغوت منافقون ضالون بلا ريب ، فمن تحاكم إلى قاض أو حاكم أو سلطان أو خليفة من أهل السنة فقد نافق وضل

وخالف نهي الله وشرعه . ولا يجوز استحلال شيء ما يحكمهم وقضائهم ، حتى صاحب الحق نفسه لا يجوز له أن يأخذ حقه المعلوم الواضح بحكم أهل السنة . ومن أخذ حقه يحكمهم وقضائهم فقد أخذه حراما وسحنا ١١

وما ندرى ماذا يقولون في المتحاكين إلى المحاكم الأفرنجية والالحادية منهم ، ومن شيعتهم ، وماذا يقولون في من أخذ حقه أو حاول أخذه بقضاء هذه المحاكم ؟! أظن هذا لا بأس به عندهم ولا عقوبة فيه ولا حوب .

وقولهم إن عليا لم يكن يدين الله بشيء مما عليه العامة قول نعوذ بالله منه . ومن قائله . فإن العامة يدينون بوجود الله وبأنه واحد وبأن رسوله صادق ، ويدينون بالاسلام وبالجنة والنار ، ويؤمنون بالانبياء والملائكة والرسول والحساب . والعقاب . فهل كان على يخالفهم في شيء من هذا أولا يدين بشيء منه ؟

الحق أن القوم يسرفون على أنفسهم في عداة أهل السنة وكرهاتهم ، والحق أنهم بهذا أبعد عن المسلمين من غير المسلمين ، والحق أنهم ينحلون المسلمين من العداوة والشتان مالا يستطيع أن ينحلهم إياه أعداء الشعوب والأمم جميعا :! فأننا ما رأينا ولا سمعنا أن طائفة تعرف الحق والباطل بموافقة طائفة أخرى ، ومخالفتها غير طائفة الشيعة . ومهما عشت أراك الدهر عجبا !

﴿ مصحف فاطمة ، جامعة علي ، الجفر ﴾

المصاحف

غير القرآن

تزعّم الشيعة في مازعّم أن لديها ولدى الأئمة من آل البيت كتباً ثلاثة غير القرآن ، في كل كتاب من الكتب الثلاثة كل ما يحتاج إليه الناس من أمور الدين وأموال الدنيا ، بل كل كتاب يشتمل على جميع الحلال والحرام ، وجميع الإحداث التي تقع إلى قيام الساعة : أحد هذه الكتب الثلاثة مصحف فاطمة يل مصحفها ، فقد ذكرنا في جميع كتبهم الموضوع بيان هذه الشؤون أن

هنالك مصحفا لفاطمة كان عندها وكان الأئمة من ولدها يتوارثونه من بعدها .
وقد ذكر هذا المصحف في الجزء الأول من كتاب « أعيان الشيعة » .
ومؤلف « أعيان الشيعة » هو مؤلف كتاب « كشف الارتباب » وقد أطل
الكلام عليه صفحة ١٨٧ - ١٩٣ ، وذكر روايات عديدة عن الأئمة فيه : فنقل
عن الصادق أنه قال : وعندنا مصحف فاطمة وما يدريهم ما مصحف فاطمة قال
فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ، وليس فيه من قرآنكم حرف واحد ، وإنما هو
شيء أملاه الله عليها أو أوحى إليها . وعنه أيضا قال : وعندنا مصحف فاطمة وفيه
ما يكون من حادث وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة . وعن محمد بن مسلم قال
كانوا يأتون أبا عبد الله الصادق يسألونه عما خلف رسول الله فقال لهم كلاما جاء
فيه : وخلفت فاطمة مصحفا ما هو قرآن ولكنه كلام من كلام الله أنزله عليها
بأملاء رسول الله وخط على بن أبي طالب . وذكر روايات أخرى دل بعضها
على أن المصحف أوحى إليها وأنزل عليها في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وهو
الذي أملاه وعلى كتبه . ودل بعضها على أنه أنزل عليها بعد وفاة رسول الله ،
نزل به جبرئيل وأملاه عليها . . . فجمع صاحب الكتاب بين الروايات بأن زعم
أن لفاطمة مصحفين لمصحفا واحدا ، أحدهما أوحى إليها في حياة الرسول ،
والثاني أوحى إليها بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . فللفاطمة إذن مصحفان
لمصحف واحد ، كلاهما قد أوحى إليها . وقد قدمنا في الجزء الأول أن القوم
يزعمون أن أئمة آل البيت يوحى إليهم ، وأن الملائكة تأتيهم بالوحي من الله ومن
السماء . وتقدم قولهم إن الأئمة لا يفعلون شيئا ولا يقولونه إلا بوحى من الله ، وتقدم
أن الفرق عندهم بين محمد رسول الله وبين الأئمة من ذريته أن محمدا كان يرى
الملك الإنزال عليه بالوحي وأما الأئمة فيسمعون الوحي وصوت الملك وكلامه ولا يرون
شخصه . وهذا هو الفرق لديهم بين النبي والامام وبين الرسل والأئمة . وهو فرق

لا فرق بين
الامام والرسول
عند الشيعة

لاحقيقة له . فالأئمة من آل البيت عندهم أنبياء ورسول بكل ما في كلمة النبي والرسول من معنى . لان النبي الرسول هو إنسان أوحى الله إليه رسالة وكلفه تبليغها ونشرها ، سواء أكان وحى الله اليه بواسطة الملك أم بلا واسطة . وسواء أرى شخص تلك الواسطة أم لم يره بل سمع منه وعقل عنه . هذا هو النبي الرسول . ورؤية الملك لادخل لها في حقيقة معنى النبي والرسول بالاجماع . ولهذا يقولون الرسول هو إنسان أوحى اليه وأمر بالبلاغ ، والنبي هو إنسان أوحى اليه ولم يؤمر بالبلاغ . ولم يجعلوا لرؤية الملك دخلا في حقيقة النبي وحقيقة الرسول . وهذا لا ينافي فيه أحد من الناس ، فالشيعة يزعمون لفاطمة والأئمة من ولدها ما يزعمون للأنبياء والرسول من المعاني والحقائق فهم يزعمون أنهم معصومون وأنهم يوحى اليهم وأن الملائكة تنزل عليهم بالرسالات وأن لهم معجزات أقلها إحيائهم الأموات كما يقولون في أفضل كتبهم . ويزعمون أن طاعتهم مفترضة كالأنبياء والمرسلين ، وأن كل ما يجب للأنبياء والرسول يجب لهم . بل يزعمون أنه يجب لهم أكثر مما يجب لأولى العزم من رسل الله . ولهذا يفضلون الأئمة عليهم . ولديهم أن علي بن أبي طالب وأولاده المعصومين أفضل من إبراهيم وموسى وعيسى ونوح وغيرهم . ومن ثمة يقولون إن هؤلاء الأنبياء والمرسلين سوف يعادون في الحياة الدنيا عند عودة علي وعودة بنيه كي يقاتلوا بين يديه ، وكي يكونوا من أجنادة . ففاطمة وعلي بن أبي طالب وأولادهما أنبياء رسل لدى هذه الفرقة بلا ريب ولا شك ، بل هم أفضل الرسل والأنبياء . وهم وإن مانعوا في شيء من ذلك في التسمية والاسماء . أما الحقيقة فيسلمونها بكل ما فيها . وهؤلاء المصابون يدعون أن الوحي الذي نزل على فاطمة أكثر من الوحي الذي نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، فانهم يقولون إن في مصحف فاطمة مثل القرآن ثلاث مرات ويقولون مع هذا إن لها مصحفنا آخر . فاذا فرض أن المصحفين

متساويان كثرة كاتا مثل القرآن ست مرات . فالوحي الذي أوحاه الله إلى فاطمة
مثل القرآن الذي أوحاه إلى عبده محمد ست مرات وهذا غاية الخذلان والاملاص
من الدين والعقل . . . والعجيب أنهم يكفرون من قال بنزول الوحي أو بالنبوة
بعد محمد عليه السلام كما يكفرون من ادعى النبوة . قال الشيخ محمد الحسين آل
كاشف الغطاء في كتاب « أصل الشيعة وأصولها » (الطبعة الثانية صفحة
١٠١) : « ويعتقد الامامية أن كل من اعتقد أو ادعى نبوة بعد محمد أو نزول
وحي أو كتاب فهو كافر يجب قتله » هذا نص كلام آل كاشف الغطاء في « أصل
الشيعة وأصولها » وعلى هذا الذي ذكره فالامامية وأئمتهم المعصومون كفار كلهم
يجب قتلهم واخلاص منهم لأنهم يدعون نزول الوحي بعد رسول الله على الأئمة
جميعا إلا أنهم يدعون أنهم لا يرون الملك النازل بالوحي عليهم ، ويدعون نزول
الوحي على فاطمة بعد وفاة والدها . وأنه قد أوحى إليها مثل قرآنا هذا ثلاث
مرات وليس فيه من قرآنا حرف واحد ، وأنه قد أوحى إليها كتاب وهو
المعروف بمصحف فاطمة عندهم ، بل كتابان هما مصحفاها ، ويدعون أن الأئمة
المعصومين : عليا فمن بعده كانوا يتوارثون هذين المصحفين ويقولون للناس إنهما
قد أوحيا إلى فاطمة بعد وفاة النبي وفي حياته . وهذا لا يختلفون فيه ولا في
نصوصه . وليراجع كتاب « أعيان الشيعة » الجزء الاول صفحة ١٨٧ - ١٩٣ ،
بل لتراجع كتبهم كلها التي يسمونها الكتب الحديثية
فذهب الامامية الاثنا عشرية قائم على الكفر والاحاد ، وأئمتهم كفار
يجب قتلهم وقتلهم على ما قال آل كاشف الغطاء . فاذا يقولون ؟ نحن نعرف أن
هذا الذي قاله آل كاشف الغطاء وأمثاله من إنكارهم ما هم مجمعون عليه وأخفائهم
إياه إنما يذهبون فيه إلى التقية والمداهنة التي هي أصل مذهبهم ومبناه . وقد نقلوا أبي الله ان
عن أئمتهم أنهم قالوا : « أبا الله أن يعبد الاسرا » . وبهذه التقية لهم أن ينكروا يعبد الاسرا

كل شيء وأن يقرأوا كل شيء ولا يصح لي ولا لك أن نأخذ من انكارهم انكارا ولا من اقرارهم اقرارا مادام الذي انكروه أو أقروه يصح أن يدخل في باب التقية وأن يكون منها، ولهذا يزعمون أن الأئمة من آل البيت كانوا يقولون لا تباعهم وشيعتهم هذا حرام وهم يرونه حلالا، وهذا حلال وهم يرونه حراما وإن لم يكن بينهم أحد ممن يتقون أو يخافون ولكنهم يفعلون ذلك لا يفتاع الخلاف بينهم كيلا يعرف انهم شيعة أو لاجل أن يظن انهم ليسوا من الشيعة . وقد استفتى أحد الشيعة إماما من أئمتهم ، لأدري أهو الصادق أم غيره ، في مسئلة من المسائل فافتاه فيها ثم جاءه من قابل واستفتاه في المسئلة نفسها فافتاه بخلاف ما أفتاه عام اول ، ولم يكن بينهما أحد حينما استفتاه في المرتين ، فشك ذلك المستفتى في إمامه وخرج من مذهب الشيعة وقال : ان كان الامام انما افتأى تقية فليس معنا من يتقى في المرتين وقد كنت مخلصا لهم عاملا بما يقولون ، وإن كان مأتى هذا هو الغلط والنسيان فالأئمة ليسوا معصومين إذن والشيعة تدعى لهم العصمة . ففارقهم وانحاز إلى غير مذهبهم . وهذه الرواية مذكورة في كتب القوم . وهكذا الأمر في مقال آل كاشف الغطاء في « أصل الشيعة وأصولها » . هذا هو مصحف طائفة أو مصحفها .

جامعة علي وما فيها من العلوم والمعارف وأما الجامعة فهي كتاب من كتب علي بن أبي طالب ، على ما يقولون ، أملاه رسول الله وكتبه على يده ، طوله سبعون ذراعا ، وهو من الجلد ، يزعمون أن فيه كل شيء من الاحكام والحلال والحرام ومن الأحداث والحوادث . وفيه كل قضية وفيه مالا يحتاجون معه إلى غيره وغيرهم ، والناس يحتاجون اليه وإليهم . عن أبي مريم قال قال أبو جعفر : عندنا الجامعة وهي سبعون ذراعا ، فيها كل شيء حتى أرش الخلدشة ، أملاه رسول الله وخطه علي بن أبي طالب . وعن أبي عبيد الله الصادق أنه سئل عن الجامعة : فقال تلك صحيفة طولها سبعون ذراعا

فيها كل ما يحتاج الناس اليه ، وليس من قضية الاوهى فيها حتى أرض الخلدش .
وعن أبي بصير عن أبي عبد الله قال : ان عندنا الجامعة وما يدرهم ما الجامعة ؟
هي صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله ، فيها كل حلال وحرام وكل شيء
يحتاج الناس اليه حتى الأرض في الخلدش . وفي البصائر بعدة أسانيد عن الصادق :
ولكن عندنا الجامعة فيها الحلال والحرام . وعنه أيضا وعندنا الجامعة كتاب
طوله سبعون ذراعاً ، أملاه رسول الله وخطه على بن أبي طالب فيه والله جميع
ما يحتاج اليه الناس إلى يوم القيامة حتى إن فيه أرض الخلدش والجلدة ونصف
الجلدة . وعن الباقر قال في كتاب على كل ما يحتاج اليه حتى أرض الخلدش . وعن
الصادق قال اما والله إن عندنا مالا نحتاج إلى أحد والناس يحتاجون إلينا ، أن
عندنا لكتابا أملاه رسول الله وكتبه على بن أبي طالب ، على صحيفة فيها كل
حلال وحرام . وعن الفضيل قال قال الباقر : عندنا كتاب على سبعون ذراعاً ،
ما على الأرض شيء يحتاج اليه إلا وهو فيه حتى أرض الخلدش . وعن محمد بن
مسلم عن الباقر قال : إن عندنا صحيفة من كتب على فنحن نتبع ما فيها لانعموها ،
وقال إن علينا كتب العلم كله : القضاء والفرائض والحديث . وعن الصادق قال :
أما والله ان عندنا مالا نحتاج معه الى الناس وإن الناس ليحتاجون إلينا .

ذكر هذه الروايات كلها الشيخ محسن الأمين العامل في كتاب « أعيان
الشعبة » صفحة ١٦٦ - ١٧٣ من الجزء الأول . وقد ذكر روايات أخرى كثيرة
في هذا المعنى . كلها تنص على وجود هذه الجامعة عند علي ، وتنص على أنها من
إملاء رسول الله وكتابة علي ، وعلى أن فيها كل شيء وكل الحلال والحرام ، وكل
العلوم على اختلافها واختلاف أصنافها ، وتنص على أنها تفني عن كل شيء
وأنها لا تفني عنها شيء وأنهم لا يحتاجون معها إلى شيء . فهي تفني عن القرآن
وعن السنة وعن كل مامع المسلمين من نصوص وعلوم وقرآن وحديث ، لأنهم

يذكرون أن فيها أصغر المسائل وأكبرها وبيان ما يحتاج إليه البشر إلى قيام الساعة من العلوم والمعارف . وإذا كان ذلك كذلك فما حاجتهم إلى القرآن وإلى الحديث وإلى ما مع المسلمين من ذلك . ولهذا تجد القوم لا يبالون بالقرآن ولا بقراءته أو حفظه ، ويقل جداً أن يقتنوا المصاحف أو يعينوا بطبعها ، لأنهم في غنى عن ذلك : تغنيهم الجامعة ويغنيهم مصحف فاطمة ، ثم يغنيهم الجفر ، فما حاجتهم إلى كتاب الله ! ومن نظر في كتب القوم علم أنهم لا يرفعون بكتاب الله رأساً . وذلك أنه يقل جداً أن يستشهدوا بآية من القرآن فتأتي صحيحة غير ملحونة مغلوطة . ولا يصيب منهم في إيراد الآيات إلا الخالطون لأهل السنة العائشون بين أظهرهم . على أن إصابة هؤلاء لا بد أن تكون مصابة . أما البعيدون منهم عن أهل السنة فلا يكاد أحد منهم يورد آية فتسلم من التحريف والغلط . وقد قال من طافوا في بلادهم : إنه لا يوجد فيهم من يحفظون القرآن . وقالوا إنه يندر جداً أن توجد بينهم المصاحف . وقد قالوا في الرواية المتقدمة : « إننا لانعدو العمل بما في الجامعة » وقالوا : إننا لا نحتاج إلى أحد ومعنا الجامعة . ومرادهم أنهم لا يحتاجون إلى ما في أيدي الناس من قرآن وحديث وسنة . وقد سموها الجامعة ويعنون أنها قد جمعت كل شيء . ومن عندهم علم كل شيء عن الله وعن رسوله كيف يحتاجون إلى القرآن أو إلى الحديث ؟ وإنما يحتاج اليهما الظمان إلى المعرفة وإلى ورود الحقيقة ، أما من خصه الله بعلم كل شيء فلن يحتاج إلى شيء من العلوم والتعليم . هذه هي الجامعة أو الكتاب الذي يسمونه الجامعة ، وهذا هو رأيهم وقولهم فيها .

الكلام على الجفر ومعناه
وأما الجفر فقد قالوا : إنه أحد مؤلفات علي بن أبي طالب . وقد زعموا أيضاً أن في الجفر كل شيء وكل العلوم حلالها وحرامها ، أحداثها وحوادثها . ما كان وما سيكون في غابر الزمان وحاضر وآتية . قال المحقق الشريف : « الجفر والجامعة

كتابان من كتب على ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث إلى انقراض العالم . وكان الأئمة المعروفون من أولاده يعرفونهما ويحكمون بهما . وعن أبي مريم قال قال أبو جعفر الباقر : وعندنا الجفر وهو أديم عكاظي قد كتب فيه حتى امتلأت أكارعه فيه ما كان وما هو كائن إلى قيام الساعة . وقال الصادق : هو جلد ثور مدبوغ كالجراب فيه علم ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة من حلال وحرام . وقال : إنما هو جلد شاة ليست بالصغيرة ولا بالكبيرة ، فيها خط على وإملاء رسول الله ، ما من شيء يحتاج إليه إلا وهو فيه حتى أرش الخدش وفي رواية أخرى قال : فيه كل ما يحتاج إليه حتى أرش الخدش والظفر ، وفي رواية أخرى عنه قال : عندى الجفر الأبيض ، قلنا وأى شيء فيه ؟ قال زبور داود ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، وصحف إبراهيم والحلال والحرام ومصحف فاطمة . وفيه ما يحتاج إليه الناس البنا ولا يحتاج إلى أحد ، حتى إن فيه الجلدة بالجلدة ونصف الجلدة وثلاث الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش . قال وعندى الجفر الأحمر ، قلنا : وأى شيء في الجفر الأحمر ؟ قال السلاح ، وذلك أنه يفتح للدم ، يفتحه صاحب السيف للقتل . وهذه الرواية نص في أن عندهم في ما يدعون جفرين أبيض وأحمر ، أحدهما للعلوم كلها وللكتب كلها ، والاخر للدم والقتال والسلاح . ونمود بوجه الله من الجفرين : الأبيض والأحمر . وفي رواية أخرى عنه : وفيه علم الانبياء والاوصياء .

ذكر هذه الروايات وكثيرا غيرها الشيخ محسن الأمين العالمى فى كتاب « أعيان الشيعة » صفحة ١٧٣ - ١٨٤ من الجزء الأول . وقد قال بعد ذكره الروايات : « والظاهر من الاخبار أن الجفر كتاب فيه العلوم النبوية من حلال وحرام وقضايا وأصول ما يحتاج إليه الناس فى أحكام دينهم وما يصاحبهم فى دنياهم » قال وما أحسن ما قال المعرى :

لقد عجبوا لآكل البيت لما * أروهم علمهم في جلد جعفر
ومرأة المنجم وهي صغرى * أرتة كل عامرة وقفر

اشتغال الجفر على جميع العلوم والأوصياء كلهم وفيه الكتب المقدسة وفيه جميع الحلال والحرام ، وفيه باختصار وعلى علم الله وإيجاز علم الله كله . لأنهم يزعمون أن فيه ما كان وما يكون . وهذا يعني كل العلوم . ففيه علم الله كما هو . وهذه المزاعم تنحط عن أن تناقش مناقشة علمية أو أن توضع تحت امتحان البرهان أو في كفة الميزان ، وإنما هي مزاعم أشنع سب لها ورد عليها أن تقدم للقراء وأن تساق إليهم على علاها وبألفاظها ، وهكذا نصنع نحن بها .

والذي لا يمكن أن يقله أحد مهما نخرق عقله زعمهم أن جلد شاة يمكنه أن يحوى جميع العلوم والمعارف على اختلافها وكثرتها بالتفصيل حتى يذكر فيه أرش الخلد والجلدة ونصف الجلدة وثلاثها وربعا ، وهذا يكفى عن غاية التفصيل وغاية البيان . ومماثل هذا إلا أن يقول قائل : إن الخلائق كلها من سموات وأرضين وشموس وأقمار ونجوم وكواكب وأفلاك وكل شئ موضوعة كلها في جلد نملة أو جلد ذرة ! ومن يقل هذا أو يصدقه سوى الشيعة الامامية الاثنا عشرية أهل العقول والمعارف ؟

والذى نريد أن نقوله للقوم هو : أين عزب هذا الجفر عن المسلمين ، وأين عزبت الجامعة ، وأين عزب مصحف فاطمة أيضا ، وأين عزبت مؤلفات على التى تدعون وتدكرون ؟ أين عزبت هذه عن المسلمين جميعا ، لماذا لم يظهرها رسول الله ، ولماذا خص بها عاليا وبنية دون سائر الصحابة وسائر المسلمين ؟ أفما كان واجبا عليه البيان والبلاغ والتسوية بين الناس كافة في أداء رسالة ربه التى بعثه بها ليكون بشيرا ونذيرا للعالمين ؟ وليبلغ القاصى والدانى ، وإلا فما بلغ

رسالة ربه ولا بين البيان المفروض عليه وعلى كل رسول مثله ؟ ثم لماذا لم يظهر هذه الكتب على بن أبي طالب كما أظهر القرآن في ماتدعون ، ولماذا تركها مكتومة خاصة به وبأولاده وذريته ، وهل يفعل ذلك إمام معصوم مثل علي ، بل لماذا لم يظهرها سائر الأئمة المعصومين الوارثين لها ، ولماذا أجازوا لأنفسهم أن يحتازوها دون سائر المسلمين ، وأن يبخلوا بها على العالمين ، وهل يفعل هذا من يؤمن بالله واليوم الآخر ؟ أجيبوا يامن يزعمون أنهم مسلمون ، وأنهم موالون لآل البيت محبون لهم قائمون بما يجب لهم من الموالاة والحب والتكريم دون أهل الاسلام قاطبة .

أيليق بالنبي وبأهل البيت وبالأئمة المعصومين أن يكتبوا هذه الكتب وأن يبذلوا في كتابتها والاستئثار بها حتى يدركها الضياع والفناء ؟ أجيبوا أيها المسلمون . بل ولماذا ضاعت هذه الكتب من بيننا ومن بينكم كلها ولم يضع كتاب الله مع أن كتاب الله إذا صدق ما زعمتم ليس إلا نقطة من بحار بالنسبة إلى تلك الكتب الضائعة . وذلك أن مصحف فاطمة فيه مثل القرآن يضع مرات والجامعة فيها كل شيء بالتفصيل ، والجفر فيه جميع العلوم والكتب والاحداث والحوادث بالتفصيل الدقيق البالغ حتى الجلدة ونصفها وثلاثها وربعا وأرش الخدش والظفر وليس كذلك القرآن بالاجماع ، بل هو في بيان الحلال والحرام محتاج إلى السنة ، لا يقوم بنفسه في بيانها وبيان الحلال والحرام وسائر شرائع الهدى ، فضلا عن أن يدعى أن فيه كل شيء تفصيلا . فهذه الكتب إذن أولى بالمحافظة عليها وأولى بالرعاية والصيانة من القرآن ومن كل شيء إذا صدقتم في ما زعمتم . فلماذا ضاعت كلها ولم يضع القرآن ، بل ولم يضع منه حرف واحد والحمد لله على ذلك ؟

ومن البلاء ذير مامر من أصنافه أنهم حددوا لعلي بن أبي طالب في كتاب مؤلفات علي بن أبي طالب « أعيان الشيعة » من المؤلفات أحد عشر : أولها جميع القرآن وتأويله ، ثانيهما أبي طالب

كتاب أملى فيه ستين نوعاً من أنواع العلوم ، ثالثها الجامعة ، رابعها الجفر ، خامسها صحيفة الفرائض ، سادسها كتاب في زكاة الانعام ، سابعها كتاب في أبواب الفقه . ثامنها كتاب في الفقه ، تاسعها كتاب عهد للاشتر ، عاشرها وصاته لمحمد ابن الحنفية ، الحادى عشر كتاب عجائب أحكامه . وقد ذكرها في الكتاب المذكور صفحة ١٥٤ — ١٨٧ بعنوان مؤلفات أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد زعموا أن الأئمة من ولده كانوا يتوارثون هذه المؤلفات العلوية وكانت عندهم . فاين هى اليوم وأين ذهبت ؟

والحاصل أن دعاويهم هذه هى التى أفسدت عليهم الأمر وصرقتهم عن كتاب الله وعن سنة رسوله . لأنهم إذا زعموا أن لديهم من الكتب كجامعة ومصحف فاطمة والجفر ما فيه كل شئ من أمور الدنيا وأمر الدين على وجه التفصيل الدقيق والبيان التام فما حاجتهم إلى مامع المسلمين من القرآن والحديث . والسنة ! وعلى هذا فما أخلقهم بالانصراف عن كتاب الله وعن السنة وعن كل علم وهدى .

﴿ مواكب البكاء والعويل واللطم والدم هي الدين عند الشيعة ﴾

ما تتم
عاشوراء

سئل حجة الشيعة الامامية الاثنا عشرية فى هذا العصر الشيخ محمد الحسين . آل كاشف الغطاء : « عن المواكب المشجية التى تقيمها الشيعة فى يوم عاشوراء تمثيلاً لفاجعة الحسين ، وعما يصحب تلك المواكب من ندب ونداء ، وعويل وبكاء ، وضرب بالكف على الصدور . وبالسلاسل على الظهور : هل هذه الاعمال مباحة فى الشرع فاجاب ، قال : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع الى أجل مسمى » . ولا ريب ان تلك المواكب المحزنة من أعظم شعائر الفرقة الجعفرية : وما أحسب التعرض للسؤال عن تلك الأعمال

التي استمرت عليها منذ مئات الأعوام ، وذلك بمشاهدة أعظم العلماء مع عدم
النكير مع انها برأى ومسمع منهم : ما أحسب وضعها في مجال السؤال والتشكيك
إلا دسيسة أموية ، أو نزعة وهابية ، يريدون أن يتوصلوا بذلك إلى اطفاء ذلك
النور الذي أبى الله إلا أن يتمه ولو كره الكافرون . كما أنى لا أرتاب في أنه لو
تمت لهم هذه الحيلة وعطلت تلك المواكب سرى الداء واستفحل الخطب وجعلوا
ذلك باباً إلى إمامة تلك المحافل التي باحياها احياء الدين وباماتنها إمامة ذكرى
الأئمة الطاهرين (إلى أن قال) والرجاء ترك الخوض في هذه الامور المتسالم
عليها خلفا عن سلف والتي هي من أعظم الوسائل إلى نيل الشفاعة والدخول في
سفينة النجاة وأبواب الرحمة (الى أن قال) فلا إشكال في أن اللطم على الصدور
وضرب السلاسل على الظهور وخروج الجماعات في الطرقات بالمشاعل والأعلام
مباحة مشروعة ، بل راجحة مستحبة وهي وسيلة من الوسائل الحسيلية وباب
من أبواب سفينة النجاة . وأما الضرب بالسلاسل والخناجر والادماء فهو كسوابقه
مباح بمقتضى أصل الإباحة بل راجح بقصد اعلان الشعار للاحزان الحسينية
(إلى أن قال) وأما الشبيه فلا ريب في أن أصل تشبيه شخص بآخر مباح جائز
وقد ألقى الله شبه عيسى عليه السلام على أبغض خلقه وهو يهوذا الاسخريوطى
(إلى أن قال) بل في ذلك (والاشارة إلى المواكب) من الحكم والاسرار
السامية المقدسة ما يقصر عنه اللسان ويضيق به البيان . . . »

وجاء في هذا الجواب أيضا قوله : « سأتم عن المواكب الحسينية زاد الله
شرفها وعمما يجرى فيها من ضرب الرؤوس والصدور بالسلاسل والسيوف والادماء
وقرع الطوس والطبول والشبيه والخروج في الشوارع بالهيات المتعارفة ، ولعمري
ما كنت أحسب أن هذا الموضوع يعرض على النقد والتشكيك » .

ثم فصل الجواب وكان حاصله أنه لاشك أن أهل البيت قد لطموا خدودهم

ولنموا صدورهم على الحسين ، ولا شك في أنه يشرع التأسي بهم . . . هذا في بيان حسن اللطم واللدن . وأما خروج الموكب والزمان فقال في بيان استحبابه أو بيان وجوبه : « ولولا خروج الموكب في الطرقات لبطلت الغاية وققدت الثمرة وانتفى الغرض من التذكار الحسيني بل ومن الشهادة الحسينية » هذا هو لفظ الجواب . ولا ريب أنه إذا لزم ترك الموكب بطلان الغرض من استشهاد الحسين وشهادته كان القيام بها من أعظم الواجبات الديلية .

وقال عن ضرب الهوس والظهور بالسيوف والسلاسل : « لا ريب أن جرح الإنسان نفسه وإخراج دمه بيده في حد ذاته من المباحات الأصلية ، ولكنه قد يجب تارة وقد يحرم أخرى . وحسبك قصد ، وإساءة الحسين وآل بيته وأظهار التفجع عليهم وتمثيل شبح من حالتهم أمام عيون محبيهم . ناهيك بهذه الغايات والمقاصد جهات محسنة وغيثات شريفة ترتقى بتلك الأعمال إلى أعلى مراتب السكال » . قال : « أما ترتب الضرر أحياناً بنزف الدم المؤدى إلى الموت أو إلى المرض المقتضى لتحريمه فذلك كلام لا ينبغي صدوره من ذى لب . أما أولاً فأننا ما رأينا أحداً مات أو تضرر من تلك المحاشد الدموية . وأما ثانياً فعلى فرض حصول تلك الأمور فأنما هي عوارض وقتية .. » ثم تكلم على ضرب الطبول ونفخ الأبواق وقرع الطوس فامتدحها كلها . وكذا امتدح إقامة « الشبيه » و « التمثيل » ثم قال : « ولعمري إن تعطيل تلك المظاهرات لا يلبث رويداً حتى يعود ذريعة إلى سد أبواب المآثم الحسينية ، وعندها لا يبقى للشيعة أثر ولا عين ، ولنذهب الشيعة ذهاب أمس الدابر . فان الجماعة الوحيدة والرابطة الوثيقة لها هي المنابر الحسينية . وما تلك المنابر والوساوس ، إلا من جراء هاتيك الدسائس - نزعة أموية ، ونزعة وهابية ، يريدون إحياء بنى أمية ، وإزهاق الحقيقة الحمديدية ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون . . » إلى آخر جوابه .

هذه الفتوى نقلناها كلها من كتاب ألفه هذا الشيخ اسمه « الآيات البينات في قمع البدع والضلالات » طبع النجف في المطبعة العلوية سنة ١٣٤٥ من الهجرة . فعند القوم أن هذه المواقب المحجلة الفاضحة التي يزعمون أن فيها تأسيا بالحسين وآله ومواساة له ولهم : يزعمون أن هذه المواقب من شعائر الدين وأن تعظيمها من تقوى القلوب ، وأن فيها منافع لهم وللإسلام ، وأنها من أعظم شعائر الشيعة الإمامية . وأن السؤال عنها ومحاولة التشكيك فيها من دسائس الوهابيين والأمويين - يشيرون بهذا إلى الكفر والشرك ، يزعمون أن هذه المواقب بصراخها وعويلها ومافيهما من لعن ولعن ومنكرات - يزعمون أنها هي قوام الدين وحياته يزعمون أن في إحيائها إحياءه وإن في إمامتها إمامة الأئمة الطاهرين وإمامة ذكراهم . ولا شك أن هذا كفر صراح عديم بل هو عديم من شر أنواع الكفر . يزعمون أن هذه المواقب من أعظم الوسائل إلى نيل الشفاعة وإلى النجاة من النار ، يزعمون أن تمثل أشخاص بأنهم عداة الحسين وقتلوه داخل في هذه الفضائل المزعومة المكذوبة . يزعمون أن في ذلك كله أسراراً وحكماً سامية مقدسة يعجز عن بيانها اللسان والبيان . يزعمون أن إقامة هذه المآتم أو المآتم قيام بفرض الاستشهاد الحسيني ومحافظة على حكمة شهادته ، يزعمون أن إبطال المآتم إبطال لشهادته ولحكمتها وقرضه منها : يزعمون هذا كله يزعمون غيره مما ذكره في هذا الكتاب وفي غيره ومما يفعلونه في أيام عاشوراء .

ولا ريب أن هذه المزاعم من أشنع المخازي الانسانية التي عرفها التاريخ في كل أطواره وعصوره ، والتي وقع عليها بصر الوجود قديماً وحديثه ، وأنها عار وشنار يلحقان فصيلة الإنسان أين كانت ومتى كانت ويلقيان بأنف كبرياتها تحت الرغام !

أى شيء هذه المواقب والمآتم والمآتم ؟ وأى عقل أو دين يجيزها أو يبررها ؟

ومتى أجاز الدين أو أجازت العقول أن يكون الناس العقلاء مثل النساء النورادب المولات في الطرقات : يضربن الصدور والحدود ، ويشقن الجيوب وينتفنن الشعور ، وينادين بالويل والثبور ؟ أى شئ هذا وأى عقل أو دين يجيزه ؟
ذاك كله خزي بين ولكن أشد هذا الخزي زعمهم أن إقامته والقيام به من أعظم مظاهر الدين وأعلى مراتب الكمال وزعمهم أن في إحيائه أحياء الدين وفي إمامته إمامته ، ثم زعمهم أن ذلك كله من أعظم شعائر الشيعة !! برأ الله خير الأديان من هذا الخزي .

هم يدعون أن هذه المآتم مظاهرات ، نعم ، مظاهرات ، ولكن يراد بها التظاهر على من ؟ إن كانوا يتظاهرون بها على يزيد وقاتلى الحسين فما أجل من يتظاهرون على الأوقات ! وإن كانوا يتظاهرون بها على المسلمين من أهل السنة فأهل السنة ينقمون من قاتلى الحسين أشد النقمة ويحملونهم تبعة ذلك ووزره . فما وجه التظاهر عليهم إذن وهم ينكرون قتل الحسين ويكرهون قاتليه ؟ فعلى من التظاهر إذن ؟

ثم هم يزعمون أيضاً أن البكاء والمويل وضرب الحدود والصدور وسائر الجسم بالسيف وبالخنجر والسلاسل والآلات الحادة وإن أفضى إلى الموت من دين الله وبما برضى الله ويرضى النبي والحسين وآله . ونحن نقول لهم : إذا كان هذا كله من الدين وكان فيه مواساة للحسين وتأس به فما تقولون في قتل المرء نفسه لهذا المرض نفسه : تأسيا بالحسين ومواساة له وجزعاً عليه وعلى ما ناله من سوء الظلم والبلوى ؟ إن قلتم إن هذا جائز ودين مشروع قلنا ياليتكم صدقتم وفعلتم ، وإن قلتم : غير جائز وغير مشروع قلنا لكم : وكيف جاز جرح المرء نفسه بالسيف وبالحديد وإدماؤه جسمه ثم امتنع قتله نفسه والعلة في الأمرين واحدة ؟ فإن قلتم إن في القتل إزهاقاً وفناءً وأما الضرب والجرح فليس فيهما شئ من ذلك قلنا نعم ،

ولكن القتل أدل على المواساة وعلى التأسي وعلى قوة الجزع وغزارته من الضرب بلا قتل وأنتم تزعمون أن الحسين قتل نفسه تعمدًا وتزعمون أن إظهار أقصى غايات الجزع عليه مطلوب مشروع مثاب عليه ، وأقصى غاياته هو القتل والفناء . وإذا كان من الجزع المشروع على الحسين ضرب الجسم والبدن بالسيف وبالحديد القاطع كان من الجزع المشروع عليه بلا شك قتل النفس . فانه إذا دل الضرب على الوفاء والجزع والتأسي كان القتل أدل على ذلك . ولا يوجد دليل واحد يدل على جواز ضرب الجسم والنفس بالحديد وبالسيوف والخناجر والسلاسل إلا ويدل على جواز قتل النفس وإزهاق الروح . . . وذلك أن القوم إذا سئلوا : ما الدليل على جواز ضربكم أجسامكم بالآلات الحادة القاتلة قالوا : الدليل أن هذا الفعل يدل على التأسي بالحسين والمواساة له والجزع عليه وهذه الأمور مطلوبة مثاب عليها وحينئذ يقال لهم قولوا إذن إن القتل جائز مشروع مثاب عليه لأنه أدل على هذه الأمور التي زعمتموها مطلوبة مشروعة . وهذا أظهر وأولى من ذلك لوجه كثيرة مفهومة . فإذا قالوا : إن الله قد نهى عن قتل النفس وعن قتل المرء نفسه قلنا وكذلك نهى عن الجزع والحزن وإيذاء النفس أو الجسم عند المصيبة وأمر بالصبر والتسليم له ولا رادته وحكمه ورغب المصاب في أن يقول عند مصيبتة : إنا لله وإنا إليه راجعون . وقد قال تعالى : «و بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » وقال في جزائهم : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » . وقد نهى نبيه وعباده المؤمنين كثيرا عن الحزن والجزع وحثهم على الاستمسك بعرا الصبر والاحتساب والتسليم لقضائه وقدره وقدرته . وهذا لا يحصى في كتاب الله . وقد قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » لكيلا تأسوا الآية . وهذا باب (٤)

لا يحاط به ولا يحتاج إلى بيانه لأنه معروف مشهور . أما الاحاديث فلا نذكرها
للقوم في هذه المسألة لأنهم يفلخرون بردها وتكذيبها .

والجزع لا يمدح أبداً ولا يؤمر به أبداً ، وكذا الحزن . والذي يجوز من ذلك
لا يجوز إلا لأنه اضطرارى قهرى خارج عن طاقة البشر ، ولكن لا يؤمر بشئ منه
ولا يمدح شئ منه أو يثاب عليه . أما القتل فقد قال الله فيه : « كتب عليكم
القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » الآية ، وقال « ولو
أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم
ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم » الآية ، وقال : « فتوبوا إلى
بارئكم فاقتلوا أنفسهم ذلكم خير لكم » الآية .

والقتل والقتال بالجملة مطلوبان ، أما الجزع والحزن فمكرهان منكرا نأبداً .
ولا يجوز منهما إلا ما غلب عليه المرء . فن جزع وحزن قسراً عند لان ذلك .
فوق الطاقة والله لا يكلف عبده فوق طاقته وصبره . ولكن لا يؤمر المرء بشئ من
هذا . فما يستدلون به من ذلك على ما يذهبون إليه لا يدل على شئ من أمرهم .
فانه إذا فرض أن بعض علماء آل البيت بكى على الحسين وتوجع عليه أو حزن
وأسف لم يدل هذا على أن شيئاً من هذه الانفعالات مطلوبه مأمور به ، وإنما
يدل على أن المؤمن القوى الصابر قد يجزع وقد يبكى ، فيكون معنواً غير ملوم .
فلا ريب إذن أنه إذا جاز ضرب الجسم بالحديد وبالسيف ونحوه جزئاً على
شهيد كربلاء ومواساة له وتأسيا به جاز قتل المرء نفسه لهذه الأغراض نفسها ،
فما يقولون ؟ ولا يدري كيف تشرع هذه المآثم والمواكب بكاء على قتيل كربلاء .
ولا تشرع على سواء ! وقد قتل قبله الأنبياء ، وقتل الأولياء وقتل أصحاب الحسين .
وقتل أولاده المعصومون وقتل أخوه الحسن : قتل هؤلاء جميعاً اغتيالاً بالسهم .
ما تزم الشيعة ، وقتل على بن أبى طالب وقتل حمزة وقتل من هم أفضل من .

الحسين من أنبياء الله ورسله ، فلماذا لا يقيمون شيئاً من المآتم على أحد من هؤلاء ولماذا خصوا الحسين بها ؟ بل قد مات رسول الله عليه الصلاة والسلام وموته أشد المصائب ولا شك على المسلمين ، فلماذا لا يقيمون مواكب الجزع والحزن والبكاء عليه وعلى افتقاده . وهذا إن شِرع على المقتول شرع على الميت فمن كان فقهه رزاً عظيماً حزن عليه الناس سواء أكان فقهه بالموت أم بالقتل ومن لا فلا ، وآلة الموت لا تدخل لها في جواز الجزع ولا في منعه . فلا يحسن الجزع على مقتول لأنه فقد بالقتل ، ولا يقبح على آخر لأنه فقد بالموت . وهذا واضح جلي ، فاجابهم ؟ فانهم إذا جزعوا على الحسين ولم يجزعوا على النبي ﷺ ولا على غيره من الأنبياء وأبطال الأمة دل ذلك على أن جزعهم لم يكن على الحسين ولم يكن تأسياً به ولا واساة له وإنما هو الجهل والعناد والثورة على سلاطين المسلمين وخلفائهم ومحاولة إضرار الفتن وإيقاظ النائم منها ، ولو لم يكن هذا هو ما يريدون ويعنون لما خصوا قتيلاً كربلاء بذلك دون العالمين جميعاً . والدليل على أن هذا هو غرضهم وما يرمون إليه أنهم يسمون هذه المواكب مظاهرات كما تقدم والمظاهرات ظاهراً ما يعنى بها وما يراد منها . والدليل أيضاً زعمهم الآنف : أن ترك هذه المآتم تضيق لغرض استشهاد الحسين ولما أراد من وراء تقديمه نفسه ضحية . وقد ذكروا أن لهذه المواكب أسراراً وحكماً سامية مقدسة يعجز عن بيانها اللسان والبيان . وما هذه الأسرار والحكم المزعومة سوى محاولة الثورة والفتن الحرة وتغيير النفوس على أوائل المسلمين وعلى خلفائهم وولوكهم وسلاطينهم . وكل هذا قد يهون ولكن الذى لا يهون أبداً هو زعمهم أن العويل في الطرقات وضرب الحدود والصدور بالحديد والآلات الجارحة وتنف الشعور والمناداة بالويل والثبور - من أعظم شعائر الإيمان وشعائر الاسلام ومن أعظم ماتناله به الشفاعة ، مركب به في سفينة النجاة ، وكيف يزعم مسلم أن شيئاً من هذا

فيه إعلاء للدين وإحياء له وأن في تركه إماتته وإماتة الأئمة المعصومين الطاهرين ؟ وكيف يقول من يؤمن بالله وباليوم الآخر : إن إقامة إنسان لضربه ولتمثيل به وليسبه ومحاولة الهجوم عليه على توهم أنه هو قاتل الحسين : كيف يدعى من يؤمن بالله وباليوم الآخر أن ذلك من العقل أو من الدين فضلا عن أن يقال إنه من أعلى مراتب السكال وشعائر الدين ومشاعره ؟ هذه هي النافخة ، وهذه هي سبة الانسانية أين ذهبت ووجدت .

ولقد كنا نظن أن هذه المواقف من أعمال جهال القوم ودهماءهم وحدهم لا يرجعون فيها إلى رأى عالم منهم ولا مشورة مثقف من رجالهم ، وما كنا نحسب أن علماءهم بل كبار علمائهم وفضلائهم يفتنون بمجوازي شيء منها ، والآن علمنا أن علماءهم وجهالهم سواء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .
هذه شذرات من خطايا القوم أثبتناها على عجل ننقل منها إلى موضوع الكتاب ونقضى ما في « كشف الارتباب » .

لا بد من الغيرة : وقبل ترك هذه المقدمة أقول : لينحطم هذا القلم ولتتناثر هذه الأنامل ، لاصحاب النبي وليودع رئيس هذه الحشاشة ، ولينطفئ هذا الشعاع إن لم أشف صدور المؤمنين من هؤلاء الذين مازالوا يشفون صدر الشيطان وصدر الباطل والاثم من صحابة النبي ومن خلفاء الأمة ومن أركان الملة وأبطال الاسلام ومجاهديه وقائديه . ولن نجعل بمن لا يرضيهم هذا الصنيع ومن لا يعجبهم هذا السبيل ، فانه إذا حق للناس أن يغاروا على مبادئهم الحزبية ، وأن يتقاتلوا حفاظا على رجالها أو من زعموا من رجالها ، فما أخلق المسلم بأن يغار على أمثال الصديق والفاروق وخالد وعمر وأبي عبيدة وسائر أولئك الأبطال الذين علقوا الاسلام وفتوحه بقرص الشمس مشرقة ومغرب . وإذا كان الناس اليوم يحطم بعضهم بعضا ، فيحطم الأثم أخاه في يبلاد قيل في وصفها : إنها مطلق النور ومصنع الحريات والعرفان -

غيرة على تلك الأحزاب المبسوطة على المدوان والظلم ، السائمة في حقول الشهوات والذنابات المحرمة ، فكيف لا يحق المسلم الصادق أن يدفع عن المسلمين وعن أبطال الاسلام ومفاخر الانسانية دفاعاً موقوفاً على القلم والكلام !

ولا يفكرن أحد في الوحدة وفي التأليف بين المسلمين وبين هذه الجماعة ، لا يمكن تأليف فاق مذاهبها ومبادئها لا يمكنها أبداً من الرضا عن المسلمين ومن الاقتراب اليهم الشيعة ولا إلى ودم ولا ينهم . وإذا كانت هذه القرون الطويلة التي مرت بهم لم تستطع أن تأكل من صدورهم ومن كتبهم العداوات التي يحملونها لأبي بكر وعمر وعثمان والآخرين - بل ظلت في صدورهم وفي كتبهم حتى اليوم تزداد ذكاه واتقادا وتوجهاً - فكيف نرجو نحن منهم محبة أو ولاية أو صداقة ؟ ثم ما الذي نرجوه من الاتحاد بهم والاقتراب اليهم ؟ إنهم لن ينفعونا شيئاً ، ولن يزيدونا إلا ضعفاً وهواناً وهواناً وخبالاً !

انريد منهم أن يجاهدوا معنا أعداءنا وأعداء الاسلام ، وهم يقولون إن الجهاد باطل موضوع لا يجوز إلا تحت راية الامام المنتظر ، وهم يقولون أيضاً : إن الذين فتحوا بلاد الكفر والشرك من المسلمين آثمون عاصون لانهم تحت إمرة غير معصوم أمثال عمرو وخالد وأبي عبيدة وأسامة ؟ بل أنريد منهم أن يجاهدوا معنا أعداءنا وهم يقولون إننا أحق بجهادهم من الكفار والمشركين كما تقدم ؟ إذن أنى نرجو شيئاً منهم ؟ أم نريد منهم العلوم والمعارف وقد وضعنا أمام القارئ نماذج من علومهم ومعارفهم ؟ أم نريد منهم القوة وهم مازالوا الضعف في الاسلام والوهن في صفوف المسلمين ؟ أم نريد منهم كثرة العدد ، وماذا نفعل بكثرة العدد ؟ والمسلمون لم يؤتوا من قلة العدد . إنه الغناء والوباء والبلاء . ومسلم واحد مثل خالد بن الوليد خير للاسلام من الشيعة في جميع عصورها . أم نريد منهم

أن يقينوا في بلادنا تلك المواقب المحزنة في أيام عاشوراء وتلك المآثم التي تقدم القول فيها ، فيصبحوا فينا نواذب متنقلة ، تصيح وتقول وتلطم وتلدن وتسب في الطرقات . . . كأنهم نسوة في زار ، أو عار في نار ؟ أمحاول إرضاءهم كي يمثّلوا هذه الفضائح بين أعيننا وعلى مسامعنا فيربو في الرجال معاني النساء الضعاف الجزعات التي لا سلاح لمن إزاء المصائب سوى العويل وشق الجيوب وتنف الشعور واللطم واللدن والصراخ المفزع الرنان ؟

سألوا التاريخ أم ماذا تريد منهم وقد كانوا أبدا خربا على المسلمين ، وعونا لأعداء المسلمين ، المريدين بهم الفواق ؟ سألوا التاريخ قولوا له : في أي عصر من عصورك كتبت في صفحاتك لهذه الطائفة جهادا أو نصرا للإسلام أو دفاعا عنه بين صفوف المجاهدين من المسلمين ؟ بل قولوا له في أي عصر من عصورك لم تكتب على هذه الطائفة أنحيازها إلى غير المسلمين وانكفاءها شطر أخصام الإسلام فرارا من المسلمين ؟ قولوا للتاريخ وهو أصدق ناطق وبحيب : أما كانوا أعوانا وعبونا لطاغية التتار على المسلمين وعلى خليفتهم ، ثم أما حاولوا قتل البطل المجاهد السلطان صلاح الدين بينا هو يناجز عبدة الصليبان ويحاربهم ولكن الله أنجاه منهم ومن عدوانهم ؟ وقد خصوا هذا البطل العظيم بمزيد العداوة وعنيف الخصومة . بل قولوا أي بطل من أبطال الإسلام وقائحيه ومجاهديه لم يكرهه ويمقتوه ماخلا على بن أبي طالب ، وما ولاؤهم له بلاء ولكنه البلاء ؟

إذن ماذا تريد منهم ومن الاقتراب اليهم وتألفهم لو كان ذلك ممكنا ميسورا ؟ إننا نريد مسلما واحدا مسلما قويا ولا نريد ألف مريض هالك ، ونريد جيشا مؤلفا من ثلاثمائة بطل كإبطال بدر ولا نريد جيشا مؤلفا من أربعمائة مليون من أمثال هؤلاء المسلمين الذين يسبون أمثال أبي أيوب الأنصاري وخالد بن الوليد وعمر و ابن العاص وغيرهم لغة وهم بلاد الكفار وتمنعهم إياها تحت رايات وصفوها بالظلم

والعدوان . لا تريد صورا ولا أسماء ولا عددا ولكن نريد رجالا وإيمانا وقوة وتفانيا
في نصرة الحق وفناء في خدمة الاسلام .

وأخيرا نقول : ألا أسخن الله عين من يحرص على إرضاء أعداء الصديق
والفاروق وعثمان وخالد وعمر والمغيرة وأبي أيوب وأبي عبيدة وطارق وموسى
ابن نصير وصالح الدين

ولن نسالم مرءا كان حربهم حتى يمود بياضا حالك القار

كتبه في يوم ٤ شهر صفر سنة ١٣٥٧

عبد الله على القصيمي

بالقاهرة



﴿اعتقاد الوهابيين في النبي عليه السلام وفي الانبياء والصالحين في قبورهم﴾
ثم قال الرافضى في كتابه « كشف الارتياح في أتباع محمد بن عبد الوهاب »
تحت العنوان المذكور : « واعتقادهم في النبي عليه الصلاة والسلام أن الاستغاثة
به وطلب الشفاعة منه والتوسل به إلى الله والتبرك بقبره والصلاة والدعاء وتعميمه
كل ذلك شرك وعبادة للأوثان والاصنام محلة للمال والدم . . . وأنه يحرم السفر
لزيارته ويجب هدم ضريحه وتقبيله وأن ضريحه صنم من الأصنام ووثن من
الأوثان بل هو الصنم الأكبر والوثن الأعظم ، وكذلك سائر الانبياء والصالحين .
وفي خلاصة الكلام : كان محمد بن عبد الوهاب يقول عن النبي إنه طارش ، وإن
بعض أتباعه كان يقول عصاى هذه خير من محمد لأنه يلتفت بها في قتل الحية
ونحوها ومحمد قد مات ولم يبق فيه نفع وإنما هو طارش ومضى ، وكان يقال ذلك
بمحضرته ويبلغه فيرضى ، وكان يقول وجدت في قصة الحديدية كذا وكذا
كذبة . » انتهى كلام الرافضى .

والجواب أن يقال ما صدق الرافضى ولا أنصف حيث زعم أن هذا الذى
ذكره هو اعتقاد الوهابيين في النبي وفي الانبياء وفي الصالحين . وقال الله
الكذابين وقتل هذه الفرقة فما يوجد على الأرض أ كذب منها ولا من يستحل
الكذب والظلم والزور مثلها . . . واعتقاد الوهابيين في الانبياء عليهم الصلاة
والسلام أنه يجب على كل مسلم أن يظلمهم التظيم المشروع كله أحياء وأمواتا
وأن يحبهم الحب الصادق الماقل أكثر من حبه لنفسه ولأهله وللناس أجمعين ،
وأن يعلم أنه لا نجاة له فى أخراه وفى أولاه أيضا إلا بطاعتهم واتباعهم والأخذ
بهديتهم واقتفاء آثارهم أحياء وأمواتا ، وأن يعلم أنهم هم وحدهم - دون البشر
جميعا - وساطات البلاغ والبيان بين الله وبين عباده ، بين الأرض والسماء ،
وأن يعلم أنهم هم دون غيرهم المصومون الذين افترض الله على البشر أن يعطوهم

وأن يصدقهم في كل ما قالوا وما أخبروا . وفي كل ما هموا وأمرؤا، وأنه لا يجب على إنسان واحد في هذه الأرض أن يدع هواه واختياره وأمره إلا لأمرهم واختيارهم وأنه يجب حفظ عهودهم في آلهم الصالحين وأولى قرباهم كأزواجهم وذرياتهم وأصولهم وفروعهم المؤمنة الصالحة . ولهمنا فانهم يتبرزون من الرافضة القادحين في أزواج النبي عليه السلام وفي طوائف من أقربيه وآله وذوى وده وحبه ورضاه الغالين في فريق آخر حتى أحلوهم غير محلهم المقدور لهم اللائق بهم .

ثم من عقيدة الوهابيين في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم أحياء في قبورهم حياة برزخية غيبية روحية ليست كهذه الحياة الدنيوية ، بل حياة لا يعلم حقيقتها وكنهها سوى من يعلم الغيب والشهادة ، ومن يعلم كل شئ ، وأن كل ما يجب لهم أحياء من الحب والاحلال والتعظيم والطاعة يجب لهم أمواتا ولا فرق .

وبالاجمال فمقيدة الوهابيين في الأنبياء لا تمدد مافي الكتاب والسنة نفيا وإثباتا . وكذلك عقيدتهم في الصالحين من الأحياء والأبوات: يحبونهم ولكن لا يعبدونهم ، ويعظمونهم ولكن لا يتجاوزون الحدود ، ويعرفون فضلهم ولكن لا يبحدون فضل من هم أفضل منهم لأجل تخصيصهم بذلك ، كما فعلت الرافضة عادت خيار الصحابة ، وخيار الأمة ، زاعمة أنها بهذه المعادة المجرمة تحافظ على ولاء آل النبي وعلى فضائلهم وحقوقهم بحيث لا تشرك بهم غيرهم في الإيمان بالفضائل والكمالات

هذا كله من عقيدة الوهابيين في الأنبياء والصالحين ، فعقيدتهم فيهم أنهم بشر ولكن اختارهم الله لرسالته المقدسة ففرض على الخلق طاعتهم واتباعهم والنهج منهاجهم ، وبالتالي فرض حبهم وموالاتهم وتوقيرهم في الحيا وفي الممات جزاء ما أسدوا من هداية وشكر ما قدموا من رسالة عقباها رضا الله وجزاؤه الأوفى لمن أطاعهم وامثل ما جاؤا به من الشرائع والآداب والاخلاق الفاضلة . فعقيدتهم

قائمة على التفريق بين الخالق والمخلوق وبين العبد والرب . فالرسل ، مهما جلوا وعظموا وقربوا من الله ومن مكان الخطوة لديه ، لا يخرج أحد منهم عن منطقة التخليق ولا يعدو بساط العبودية العامة . فأعظم رسل الله مع سائر الخلق تحت بساط العبودية سواء ، لا عابد ومعبود ، ولا رب ومربوب . بل الجميع عابدون لها واحدا وربا واحدا . بل لاشك أن أفضل خلق الله وأقربهم إليه من الرسل والأنبياء والصالحين هم أكثر العباد خضوعاً لفروض العبودية ، عبودية الله .

ففضل الأنبياء وليس فضل النبي ليس في قدرته وفنوده سلطانه ، ولا في مقدرته على النفع والضرر : كلا ليس في ليس فضل النبي في شيء من ذلك وإنما فضله في ما يجيء به من الهدى والنور مقدرتهم والآداب التي فيها سعادة متبعيها في دنياهم وأخراهم ثم في إخلاصه العبادة لله ، ولكن في وفي دعوته الناس إلى خالقهم وخالق كل شيء ليعبدوه وحده كما خلقهم وحده . عبادتهم وقد يكون شر خلق الله من الكفار والمشركين أقدر على شؤون الدنيا وإعطاء ما يسألون منها من خير الخلق كالأنبياء والمرسلين والصالحين . وإذا لم

ليس في سؤال يكن فضل الأنبياء في قدرتهم المادية لم يكن في سؤالهم والانتفاع اليهم رغبة إلا أنبياء شيء ورهبة شيء من تعظيمهم ولا شيء من عرفان أقدارهم والقيام بحقوقهم . بل قد يكون من التعظيم في هذا إحراجهم وإيذاؤهم والتحدى لهم ، ولم يكن في الاعراض عن سؤالهم لهم والقيام النفع والضرر والحاجات وشؤون الدنيا شيء من التنقص لهم والانكار لحقهم . .. بحقوقهم وإذن فليس الطالب للأنبياء السائل لهم هو المعظم القائم بما يجب لهم ، وليس الداعي لله الراغب فيه وحده متنقصا لهم ولا جاحدا شيئاً من فضلهم وكالاتهم يقيناً . وعلى هذا دل الدين جملة وتفصيلاً وقد قال الله تعالى لرسوله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم الله واحد » .

وهذه اعتقادات صحيحة لا غبار عليها ولا نصيب للباطل فيها ، ولكن الاعتقاد الباطل الموبق هو اعتقاد الشيعة في النبي وفي سائر الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام ، وفي الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين . وذلك أنهم قد ذهبوا إلى أن الأنبياء ليسوا وحدهم المخصوصين بالمعصية من الخطأ والزلل ، وليسوا وحدهم المخصوصين بالوحي وبنزول الملائكة . بل قد زعموا أن الأئمة معصومون من ذلك ومن أكثر منه مثل الأنبياء والرسل ، وأنهم يوحى إليهم كما يوحى إليهم . وذهبوا كما تقدم إلى أن الله قد أنزل بعد موت النبي وحيا ومصاحف على فاطمة وعلى غير فاطمة . وقد قدمنا أشياء من بيان ذلك . وذهبوا أيضا إلى أن الأئمة أفضل من الأنبياء ومن أولى العزم من المرسلين . فعندهم أن علي بن أبي طالب وسائر ولده أفضل من إبراهيم ومن موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء والرسل وذهبوا إلى أن الاسلام لم تقم له قائمة ولم يعبد الله في الأرض إلا بعلي بن أبي طالب وبجهاده وسيفه . وقالوا إنه لولا علي وجهاده ومقاماته لما اخضر للاسلام عود ولما قام له عمود . وقد أنشدوا :

ألا إنما الاسلام لولا حسامه * كمفظة عزز أو قلامة ظافر

يجل عن الاعراض والأين والتمنى * ويكبر عن تشبيهه بالعناصر

وهذا من شر الهجاء لرسول الله ولصحابته والمسلمين الذين ما يخلوا بشيء من أهولهم ولا أولادهم ولا أهلهم ولا أنفسهم على الله وعلى رسوله وعلى دينه حتى استطال عموده في الآفاق وحتى سابر الشمس مشرقة ومغربة ، وقد قالوا إن ضربة علي بن أبي طالب لسرو بن عبدود أفضل من عبادة الجن والانس والملائكة وجميع الخلائق والملايين العوالم أمثالهم وفيهم الأنبياء والرسل إلى قيام الساعة ، وهذا من أشنع التحقير والزراية بالأنبياء والملائكة وعباد الله الصالحين . وقد ذهبوا أيضا إلى أن خيار صحابة النبي عليه السلام كفروا وارتدوا بعد وفاة نبيهم فحرفوا القرآن وحرفوا السنة زادوا فيها وقصصوا منها ، وتكذبوا على النبي وجحدوا دينه ووصاياه وظلوا أهل بيته وسلبوا حقوقهم كفرا وغدرا . وكذا زعموا في خيار

زوجاته عليه الصلاة والسلام أمثال عائشة وحفصة . ثم ذهبوا إلى أن اتباع خيار الصحابة، المهتدين بهديهم كفار مارقون : هذا كله وغيره من اعتقادات شيعة هذا الرجل الهاجى لأهل السنة المنتقل عليهم الأباطيل والأكاذيب بقيا من عند نفسه وظلما للحق وأهله . وهذا كله بلاريب من شر الاعتقادات .

ما يمنع من . أما ما ذكره عن الوهابيين فبعضه كذب صريح لاشبهة له فيه ، وبعضه مجمل التوسل . يحتمل حقا ويحتمل باطلا . فاذكر بأنهم يقولون : إن الاستغاثة به عليه الصلاة والاستغاثة والسلام وطلب الشفاعة منه والتوسل به إلى الله كفر فجعل يحتاج إلى البيان والاستشفاق والتفصيل . وذلك أنهم لا يرون الاستغاثة به عليه الصلاة والسلام وطلب الشفاعة منه ، والتوسل به إلى الله ممنوعة مطلقا ، وعلى كل حال ، بل هم يرون أن الاستغاثة به في الدنيا فيما يقدر عليه عادة جائزة لا يمنع فيها ، وكذلك يرون في طلب الشفاعة التي هي الدعاء وكذلك يرون في التوسل الذي هو طاعته والايان به واتباعه وتعظيمه وحبه وطلب الدعاء والاستغفار منه ، وغير ذلك من الأمور المشروعة التي هي أصل الايمان والاسلام . فهذه الأمور كلها وغيرها من المنقول والمعتول . لا يأبأها الوهابيون ولا يمانعون فيها ، بل هم يرون بعضها واجبا فرضا لا يتم الاسلام والدين إلا به وبعضها مستحبنا وبعضها جائزا ، لا يأبون شيئا من ذلك . ألبتة . ولكن الذي يأبونه ويمنعونه ولا يرضونه هو الاستغاثة به عليه السلام وطلب الشفاعة منه في قبره بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وهو أيضا التوسل . العامى الجاهل القائم اليوم على قبور المشايخ والصالحين وقبور من هب ودب . هذا هو المبتنع المحرم ، وهذا هو ما يأباه الوهابيون وما يردونه على فاعليه . فهذه الأشياء لها جانبان ، جانب باطل وهو طلبها من الاموات ، سواء كانوا أنبياء أم كانوا غير أنبياء ، وجانب مشروع جائز . وهو طلبها ممن يقدر عليها عادة إذا لم يكن ثمة مانع شرعى . فزعم الرافضى أن الوهابيين يمنعون ذلك كله جملة زعم

يجازى عليه جزاء الكاذبين إن شاء الله .

وأما التبرك بقبره عليه السلام والدعاء عند القبر فأمر ممنوعة بحق .
وسوف نجيب الدلائل على ذلك .

وأما زعمهم أنهم يمنعون تعظيمه عليه الصلاة والسلام ، وأنهم يرونه كفرا
وعباداة للأصنام فن الأكاذيب التي سيسود لها وجه مقترها عند الله يوم تبلى
السرائر . بل هم لا يشكون أن تعظيمه التعظيم المشروع هو أصل الأيمان
والاسلام . ولا يشكون أن من لم يعظمه صلى الله عليه وسلم هذا التعظيم فليس
بمسلم ولا مؤمن .

وأما السفر لمجرد زيارة القبر فباطل ممنوع وسوف نذكر براهين ذلك
والأصل في هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة
مساجد » الحديث . وقد زوى هذا الحديث من طرق عن جماعة من الصحابة
ورواه أصحاب الصحيحين البخارى ومسلم ، وقد جاء بصيغة النهى وبصيغة
الإخبار ، وقد استدلل به جماعة من الصحابة وجماعات من بعدهم على امتناع
السفر إلى آثار الأنبياء وزيارتها . وبمحت هذا يجيب إن شاء الله في فصل
خاص فيما بعد .

وأما قوله : إن الوهابيين ذهبوا إلى وجوب هدم الضريح النبوى فن أكتب
الكذب وأفجر الفجور . وذلك أن الضريح الذى هو القبر لم يقل أحد من المسلمين
بوجوب هدمه أو جوازه . والذى قيل إن الشرع يأمر بهدمه هو القباب والبنائيات
المشيئة جهلا وخلافا للرسول ولشريعتة على القبر ، أما الضريح نفسه فلا خلافه
في وجوب بقائه . وفرق عظيم بين الضريح وبين البناء المقام على الضريح . ولا
يقول عاقل ولا بصير بالاسلام ودين الله إن في هدم البناء المقام على القبر طاعة
لله ولرسوله شيئا من التنقص أو شيئا من الإهانة لصاحب القبر ، ونترك تحقيق

هذا المقام إلى الفصل الخاص به الآتى .

وأما قوله : ويحرم التبرك بتربته ولسن ضريحه وتقبيله ، فالجواب أن يقال لا ريب أن ذلك كله باطل وخلاف على الدين وأنه خلاف المأثور عن السلف الصالح قاطبة ، وخلاف ما علم من الاسلام بالضرورة والتواتر ، ولا شك أن ذلك كله من بقايا الجاهلية الأولى التى جاء الاسلام لنقضها والقضاء على بليانها وكيانها . ولا يرتاب العارفون بالاسلام ، الملمون بأغراضه أن هنـه الأفعال وأمثالها منافية لأفضل شئ دعا إليه الدين الحنيف وهو الاخلاص لله والالتقاط إليه وحده بالجملة والتفصيل ، بالقلب والقالب : ثم لا يرتابون فى أن ذلك من أعظم الفساد ، فساد العقل والدين والدوق .

وقد كان الصحابة الذين تلقوا الاسلام نصوصه ومعانيه ، أفعاله وأقواله ، من صاحب الرسالة كفاحاً بلا وسيط يحبونه عليه الصلاة والسلام حباً لم يحبه أحد . أحداً من الخلق ، ويحرصون على الأخذ بأطراف الفضائل وأشتات الصالحات . حرصاً تفنى دون أدناه أشواط السابقين من الأولين والآخرين ، وكانوا يفهمون شرع الله فيها تنزوعاً عن بلوغ حقيقته جياد الأفهام ، وكان هؤلاء الصحابة يزورون رسول الله ويدخلون مسجده فى اليوم والليلة مرات ، وكانوا يودون لو أبيع لهم أن يكتحلوا بتراب قبره وأن يسفوه حبا وإخلاصاً ، ولكنهم مع ذلك لم يقبلوا ولم يتمسحوا رجاء شئ مما زعمه هذا الشيعى لأنهم يعلمون أن ذلك خلاف على نبيهم ، ولأنهم يعلمون أن الخلاف عليه — بزعم حبه والقيام بحقه — هو الهلاك والجهل ، بل لقد خشوا هذا الذى يدعو إليه الرافضة وإخوانهم فخالوا بين الناس وبين الوصول إلى القبر بالبناء الذى أحاطوه به وبوضعه عليه الصلاة والسلام فى حجرة زوجه عائشة . ولو أرادوا هذا الذى أرادته المخالفون الجاهلون لكشفوا قبره ولوضعوه فى العراء ليستطيع النائم الوصول إليه كي يقبلوه ويتمسحوا .

بجدران وأركانها . وقد قالت عائشة رضى الله عنها فى ذلك قولها المشهور : « ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن خشى أن يتخذ مسجدا » . وقد كانوا وكان السلف قاطبة يهونون عن اتباع آثار الأنبياء كما ذكرنا فى الجزء الأول ، وكان الخليفة النافذ البصري عمر بن الخطاب من أشد الناس نهيا عن ذلك حتى لقد نهى عن قصد الصلاة فى المسجد الذى صلى فيه رسول الله ، وأمر بقطع الشجرة ، شجرة الرضوان ، لما رأى فريقا يقصدونها . ولو كان ذلك من دين الله الاسلام لوجدنا المسلمين الأولين يتسابقون إلى مواطن النبوة وآثار الأنبياء ، أيهم السابق المستولى على الأمد ، ولو جدناهم يتنافسون فى قصد غار حراء وغار ثور وغيرهما من الأماكن التى وطنها أقدام النبوة ، للتقبيل والتمسح والتبرك ، ولما كان لهم مغدى ومراح إلى تلك الآثار وإلى حجر أزواجه ومواطن قدميه ومواقع وجهه الشريف ، فى مسجده وفى غير مسجده للفوز بتلك الفضيلة . ولكن لا نزاع بين أهل العلم البصراء بالآثار والروايات أنه لم يكن شئ من ذلك .

على أن من العجيب فى الدين والنظر أن يكون تقبيل قبر النبي عليه الصلاة والسلام مشروعا ودينا يثاب عليه فاعله فى حين أن تقبيله ذاته لأجل ذلك لم يكن معهودا ولا معروفا بين أصحابه يوم كان حيا بين أظهرهم بروحه ويقدمون على تقبيله إذا كان مشروعا جائزا . وما جاء ذلك إلا فى حوادث معلومة خاصة لأسباب كذلك خاصة معلومة غير ما ينسب إليه هؤلاء القوم ، وما روى شئ من هذا فى كتب الصحاح كالبخارى ومسلم . فما جاء أن يهوديين أتيا رسول الله عليه السلام فسألاه عن عدة مسائل فأخبرهما فقبلا يديه ورجليه وقالوا نشهد أنك نبي . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . وعن عبد الله بن عمر قال كنت فى سرية من سرايا رسول الله فخاص الناس حيصة وكنت فىمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبقتنا ، ثم قلنا :

تقبيل القبر
ليس من الدين
ولا من سنة
المسلمين

لو عرضنا أنفسنا على رسول الله فان كانت لنا توبة وإلا ذهبنا فأتيناه قبل صلاة النداء فخرج وقال : من الفرارون ؟ فقلنا نحن الفرارون ، قال بل أنتم المكارون ، قال فأتيناه حتى قبلنا يده . رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد . وقد ذكر شيئا من ذلك البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » . ولا تخلو رواية من هذه الروايات من مقال . على أنه واضح من السياق أن ذلك التقبيل لم يكن طلبا لما يزعمه الشيعة وأنه لم يكن عادة معهودة للقوم . وإنما كان ذلك للاعتراف بالشكر والاغتباط . وإلا لو كان الامر كما زعم القوم لكان ذلك دأبا للصحابة وعلا من أعمالهم التى يواظبون عليها ويتسابقون اليها ، ولما وقف على الفرط النادر من الاحيان . وإنما نعلم بالتواتر الصامت أن الصحابة لم يكونوا يحاولون أن يقبلوا جسم النبي أو ثوبه أو شيئا من آكأاره ، أو يحاولون أن يتمسحوا ببعض ذلك كلما واثت الفرصة . ولعلم أيضا أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يدلهم لا تصريحاً ولا تلميحاً على أن هذا من الدين ومن أعمال البر والطاعات ، بل انه ﷺ كان ينههم عن هذا النوع من الغلو أنواع التهى ، ويدلهم أنواع الدلالات على أنه مأبى محرم . وكما ينهى عن ذلك أمثال قول الله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » وقوله : « إنما أنت منندولكل قوم هاد » وقوله . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، وأمثال قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تطرونى كما أطرت النصارى تقديم وصف عيسى بن مريم إنما أنا عبد ، تقولوا عبد الله ورسوله » . ومن المعجيب فى هذا العبودية على الحديث أنه قدم العبودية على الرسالة وهكذا جاء فى التشهد : « أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » ، وهكذا جاء فى غير ذلك . والكتابات النبوية حينما ذكر أوصاف النبوة والنبي لم يزد على وصفه بالعبودية وبالرسالة وبما يلزمها ، من الهداية والانذار والبلاغ والبيان . والعبودية هى المذكورة

في مواطن الامتداح والثناء في مثل قوله تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » ، وقوله : « وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » . وما جاء وصفه ﷺ بالقدرة وسعة السلطان وامتلاك ناصية التصريف والضر والنفع ، بل لقد جاء نفى ذلك عنه وعن الخلق جميعاً ، قال تعالى : « ليس لك من الأمر شيء » وقال : « وما أنت عليهم بجبار » وقال : « ليس عليك هدام » وقال : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير » وقال « قل إني لأأملك لكم ضرا ولا رشدا . قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » وقال : « ألا له الخلق والأمر » . وهكذا ينسق الكتاب الآيات نسقا في حرمان الخلق كافة من أن يشاركوه في ملكه أو في خلقه أو أمره أو شأته ، وهكذا ينسق الآيات نسقا في تجريد الأنبياء ومن دون الأنبياء من القدرة والسلطان والضر والنفع والتصريف ، وهكذا يحصرهم جميعا في منطقة العبودية ، ورواق الملكية ، لا يندو ذلك نبي مرسل ، ولا ملك مقرب « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتية يوم القيامة فردا »

وأما زعمه أن الوهابيين يقولون إن ضريح النبي عليه الصلاة والسلام صنم من الأصنام بل هو الصنم الأكبر ، وإنهم كذلك يقولون في سائر قبور الأنبياء والصالحين - فزعم كاذب . وقد قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد » وقد استجاب الله دعوة رسوله فأحيط قبره الشريف بالبناء الذي حال بين الجاهلة وبين الوصول إليه ، فلم يقدروا على الوصول اليه كما وصلوا إلى قبور غيره من آله وغيرهم من الصالحين والطالحين فعبدوهم من دون الله وعبدوا قبورهم وعكفوا عليها عكوف أهل الجاهلية كلهم على أصنامهم وعلى أوثانهم : يدعون ويسألون

(٥)

ويستغيثون ويستشفون ويرجون الدنيا والآخرة هناك ، ناسين أن في السماء رباً
له الخلق والأمر وإليه يرجع كل شيء . . . ولو فرض أن الجاهل عبدوا الرسول
أو عبدوا قبره ، كما عبد غيره من الأنبياء والصالحين ، فقل إنه معبود أو إن
قبره معبود أو مؤله لدى العامة الجاهلاء لما كان ذلك نقصاً فيه ولا عيباً أو ذمالة
يقيناً . والمسلمون يقولون : إن عيسى بن مريم وأمه إلهان معبودان لدى النصارى
وليس في هذا القول ما ينقصهما أو يميتهما . وكذلك يقولون إن الملائكة معبودة
مؤلفة من دون الله ، وكذا يقولون في علي بن أبي طالب وفي ذريته لأن قوماً من
الشيعة عبدوهم وزعموهم آلهة كما تقدم . وليس في هذا ما يضير أحداً من هؤلاء .
فاذا عبد الرسول أو عبد قبره فقل إنه معبود أو إن قبره معبود لم يكن في هذه
المقالة ما ينقصه عليه الصلاة والسلام كما لم ينقص الملائكة وعيسى بن مريم ومريم
وعليا والمحبين من ولده عبادة من عبدوهم . وهم يتبرؤون منهم ومن عبادتهم
بين يدي الله .

أما ما ذكره عن خلاصة الكلام تأليف شيخ الكذب دحلان من أن
الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يقول إن النبي طارش وأن بعض أتباعه كان يقول .
إن العصا خير من الرسول ، وإن ذلك كان يقال في حضرة الشيخ فيسمعه ويرضاه .
وأنه كان يقول إني وجدت في قصة الجديبية كذا وكذا كذبة - فهذا كله وأمثاله
من أرذل الاكثوبات وأرخصها . وإننا تتحدى هذا الرافضي وإخوانه ونطلب
إليهم جميعاً أن يسندوا شيئاً من هذه الأقوال عن أحد الوهابيين . لانطالبتهم أن
يسندوه عن الشيخ محمد ولا عن عالم من علمائهم ، فالمسألة أسمى من أن نطلب
إليهم ذلك . بل إننا نطالبتهم أن يسندوه عن جاهل . . . حملتهم ، وإلا فالكذب
يقتدر عليه أقل الناس عقلاً وعلماً وفهماً . وأجرأ الناس على الكذب هم أقلهم
ديناً وعلماً وفهماً وحيلة . وإذا استعان الخصم على خصمه بالكذب والاختلاق

قد لجأ إلى ركن غير وثيق ، وأخذ بسبب مقطوع ، وباع نفسه وعلمه في سوق الكاسب فيها خاسر . . . وأنا لأشك أن هذا الراضى لا يعتقد صحة ما يذكركه هنا ، بل لأشك في أنه يعتقد كذبه وتزويره . ولكن خصومته للحق ولأهلها أباحت له أن يروي الكذب وأن يقاتل به وأن يزعم للناس أنه جاد غير هازل ، ليسقطوا من وأنه صادق غير كاذب ، بل وأنه محرم على الكذب وقول الكذب . وطائفة السحاب يبلغ عشق الانتقام والظلم بكبار علمائها ومجاهديها أن يستجيزوا رواية مثل هذا الباطل وأن يدونوه في كتبهم يحق أن يقال لها : لتسقط من السحاب ، أو ليسقط عليها السحاب ، فلن تضير الله والحق شيئاً .

إني أقول لهذا الراضى ولغيره من الكذابين : إن من قال عن النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأقاويل التي رواها عن شيخ الكذب دحلان فقد ضل ضللاً كبيراً ، واحتجب نكراء يثقل وزرها كاهل قائلها ، ثم أقول لهم إن كل وهابي على وجه الأرض يقول قولاً هذا .

﴿ المسلمون في نظر الوهابيين ﴾

ثم ذكر الشيعي تحت عنوان : « اعتقادهم في عموم المسلمين » ما خلاصته : إن المسلمين في نظر الوهابيين قد كفروا وأشركوا منذ ستمائة سنة قبل خروج الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وإنهم قد ابتدعوا في الإسلام . قال : « وهذا محور منهج الوهابية الذي يدور عليه . . . وفرع الوهابية على هذا الاعتقاد وجوب قتال المسلمين واستحلال دماهم وجمل بلادهم دار حرب وأنه تجب الهجرة منها إلى بلاد الإسلام التي أهلها وهاوية » قال : « وأما سبي ذراري المسلمين فهو مقتضى قواعد منهجهم » قال « وقسموا التوحيد إلى توحيد الربوبية وهو الاعتقاد بأن الخالق المنبسط للأمر هو الله ، وتوحيد العبادة وهو صرف العبادة كلها إلى الله . قالوا ولا ينفع الأول دون الثاني . وقالوا الكفر نوعان : مطلق ومقيد . فالمطلق

أن يكفر بجميع ما جاء به الرسول ، والمقيد أن يكفر ببعض ذلك » .
 ١ هذا خلاصة ما ذكر في هذا الفصل . ثم بعد ذلك أخذ في التفصيل وفي إيراد
 دلائله على دعاويه هذه دافعاً لجميع شهادات العلماء وشهادات الوهابيين أنفسهم
 على تكذيب هذا الكذب وعلى أن المسلمين عندهم مسلمون لاشك ولا ريب
 وعلى أن هذه الدعوى كاذبة افتجروها قوم آثروا جهلهم على علمهم وشهواتهم على
 دينهم ، وآثروا هوى الخلق على رضا الخالق ، قتلهم فيها فريقان : فريق الجهل
 وفريق الاثم فأخذ الفريقان بطرفيها يشدانها حتى أوصلاها المشارق والمغرب
 وما زالت بأيديهم تطوى وتلشر وتخفض وترفع حتى تلقفها هذا الشيى الظالم
 « بدوره » فراح يلوح بها يميناً وشمالاً ، يبنى الفتنة ، ويبنى الشر ويريدما الله
 خاذله فيه هو وشيعته .

لا يدل على
 حقيقة المرء
 سوى أقواله
 وأفعاله

ونحن نقول رداً على هذه الدعوى إن عقيدة المرء تؤخذ من أمرين : من
 أقواله ومن أفعاله . فالأقوال تدل على العقيدة وكذلك الأفعال . فإذا فعل المرء
 شيئاً يدل على عقيدة من العقائد قلنا إنه في الظاهر يعتقد كذا ، وإذا قال إني
 أعتقد كذا قيل إن عقيدته في الظاهر على ما ذكر . ولا شئ يدل على عقيدة
 المرء غير الأقوال والأفعال لدينا . فمن ادعى على إنسان ما بأنه يعتقد عقيدة لم
 تدل عليها أقواله ولا أفعاله أو دلت أقواله وأفعاله على أنه لا يعتقد ما كان ذلك
 المدعى غالطاً كاذباً ظالماً . وكانت دعواه مرجوعة عليه ولا كرامة . فان الدعاوى
 بلا بينات أولادها أديعاء . ولو قبلت الدعاوى بلا بينات لكان سهلاً على كل
 من انقطعت الصلات بينه وبين الحياء والدين أن يتكذب وأن يقول وأن يزعم
 على الشمس بأنها جرم مظلم أسود ، وعلى الليل الأسود بأنه نور مشرق ، وكان سهلاً
 عليه أن يقول للسماء : ما أسفلك ، وللأرض ما أرففك ، وكان سهلاً على هذا الرافضى
 وغيره من الخجافين أن يقولوا إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم

وأموالهم ، وأن يدعوا عليهم ما يريدون ويشتهون ، وكانت هذه الدعوى للدينه المذاق في أفواه أعداء الحق والحقيقة ، ولكن الله الذي خلق الحق والباطل أعز الأول ببراهينه وأذل الآخر ببراهينه أيضا وبيناته ووسم وجوه الكاذبين بسمات الكذب وطبع الكذب بطابع الكاذبين ، وأقام الحق له منه عليه شواهد تسم الباطل واهله على الخطوط . ومما يعزى صاحب الحق المكنوب على أثره أنه ما جاء صاحب حق ودعوة فاضلة نبيلة الاكثر الجناة عليه ، وأن جناة الكذب وفرسان الزور لا بد أن يفتضحوا وأن يتحطموا فوق صخرة الحق العتيدة التليدة وإن غالبوا الموت طويلا .

إذا علم هذا قيل للرافضى : أى الأمرين أعنى الأقوال والافعال ، دل على أن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم بل أى الأمرين لم يدل على كذب هذه الدعوى وكذب ناقلها ؟ لاشك أن الرافضى لن يجد فى أقوال هذه الطائفة ولا فى أفعالها ما يؤيد ما قال وزعم كما سوف يعلم ذلك واضحا جليا .

الدلائل على أن الوهابيين لا يكفرون المسلمين

و بيان ذلك أن أفعال الحكومة الوهابية وأقوالها ، وأفعال أفراد الوهابيين وأقوالهم بيينة صريحة فى أنهم بريئون من هذه التهمة وهذه البهينة وفى أنهم لا يكفرون المسلمين ولا يمدونهم إلا لإخوانهم وإلا منهم وإليهم . وذلك أن الحكومة الوهابية تعامل سائر الحكومات الاسلامية وسائر أفراد المسلمين معاملة المسلمين الاخوة ، وتحاطبهم مخاطبة المسلمين الاخوة ، وتمطف عليهم عطفها على المسلمين الاخوة وتشعر إزاءهم شعورها إزاء المسلمين الاخوة ، وتتقرب إليهم تقربها إلى المسلمين الاخوة ، وتمحنو عليهم حنو المسلم على أخيه المسلم . وهذا كله واضح فى كل موقف من مواقفها إزاء المسلمين حين الافراح والاتراح ، فى السراء والضراء ، فى السلب والإيجاب . وهام المسلمون ينهبون عشرات الألوف كل عام إلى بيت الله يؤدون

فريضتهم فيتمتعون تحت الراية الوهابية بالامن الذي يتحدث اليوم عنه الناس وبالمعاملة الأخوية الممتازة حتى الشيعة منهم وهم أكثر الفرق الاسلامية انحرافاً عن الصراط المسلك ، وأكثرها ضراوة وولوعاً بالدخيل المدخول . فهل حالت دون بيت الله أو وقفت في سبيل من يريدون الحج بحجة أنهم كفار مشركون ، وأن الكفار والمشركين لا يباح لهم أن يصلوا إلى بيت الله وإلى معقل الاسلام والمسلمين ؟ أو هل سفكت دم أحد من أولئك الحجاج أو شامت عليهم سيفاً أو شرعت رحماً بحجة أنهم مشركون ، وأن المشركين حلال الدم والمال ؟ أم هل استحلّت مال أحد من أولئك الزوار بحجة أنه كافر وأن الكافر حلال المال ؟ أو قالت كما نقل الرافضى الظالم لأحد من أولئك المسلمين : يا مشرك أو يا كافر ، أو أن بلدك بلد حرب وشرك يجب عليك الفرار منها ، ويجب عليك بعد أن تسلم وأن تنطق بالشهادتين أن تقيم في بلادنا بلاد الاسلام والمسلمين ، وألا ترجع إلى بلدك أبداً : هل فعلت الحكومة الوهابية أو قالت شيئاً من ذلك أو قاله أو فعله أحد من أفرادها وعلماؤها حتى يتعجه لهذا الشيىء الظالم أن يقول وأن يطبع ما يقول : إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم وقتالهم وأنهم لا ينادونهم إلا بيا مشركون ؟ ؟

بل هاهى الحكومة الوهابية تبث البعوث العلمية دينية ومدنية إلى أنحاء البلاد الاسلامية وتنشئ المفوضيات في تلك البلاد فيعامل هؤلاء كلهم المسلمين معاملة المسلم أخاه المسلم ، فيجتمعون بهم في العبادات الخاصة بالمسلمين فيصلون معهم في مساجدهم ويأتونهم ويتلقون منهم العلوم الدينية وغيرها ويمتزجون بهم امتزاج الارحام : فيتزوجون منهم ويزوجونهم ويتصلون بهم الاتصال الذى لا يكون إلا بين المسلمين وحدهم . ولا يرون في شىء من ذلك مانعاً ولا حراماً . ولا يعترض عليهم أحد من الوهابيين ولا يرون أنهم بذلك قد أتوا إثمًا أو ذنباً أو خالفوا مبدأ

من مبادئ الاسلام التي يحافظون عليها وينهبون إليها . فهل هؤلاء ياتون يرون المسلمين غير مسلمين ، أو هل يمكن أن يكون أمثال هؤلاء يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وقتالهم ؟ ما أرخصها من دجوى وما أرخص مدعيها لدى نفسه ولدى الحق ! ولقد زار ولى عهد الحكومة السعودية مصر غير مرة فكان يؤدى الصلوات فى المساجد العامة وكان يأتى بالآئمة الذين يزعم الشيعى أن الوهابيين يرونهم غير مسلمين بل يرونهم مشركين كافرين .

بل أليست الحكومة الوهابية مازالت تستقدم الرجال من جميع الأقطار الاسلامية فتوليهم ماتوليهم من أعمال الدولة السياسية والعلمية وغيرها وتستعملهم فى كبريات المناصب وعظائم الوظائف ، وتوليهم من الثقة ماتولى رجالها وبنى وطنها ، وتعاملهم المعاملة التى لا يعامل المسلم بها إلا أخاه المسلم . فهل حاولت الحكومة أن تطرد هؤلاء الموظفين أو أن تنالهم بسوء . أو هل حاول الشعب شيئاً من ذلك بحجة أنهم غير مسلمين وبحجة أن الكفار والمشركين حلال الدماء والاموال والأعراض ؟؟ بل أليست فى المملكة الوهابية السعودية ولاية شيعية — هى مقاطعة الاحساء والقطيف . والشيعه كما ذكرنا من أبعد الناس عن الاعتدال والحق ، وأكثرهم غلوا فى الاموات وعبادة لهم وعكوفاً على أجدانهم . وقد كان فى استطاعة الوهابيين أن يبيدوهم أو ينفوهم من تحت سلطانهم وسماهم ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك ولم ينالوهم بسوء ما ، ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم فى العدل والحكم والمعاملة وإنما منعوهم فقط من التظاهر بالمنكرات الخاصة بهم كسب الصحابة والسلف وإكفارهم ، وكنكرات أيام عاشوراء ومآثمها ومآثمها .

أفلا يزال الشيعى بعد هذا مصراً على دعواه أن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم وقتالهم ؟ ليعلم أنه هو نفسه لو ذهب هناك ووقع تحت أيدي الوهابيين لما استحلوا دمه ولا ماله ولا قتاله ، بل لأضافوه

ولكرمونه ورجوعه سالماً موفوراً .

هذه بعض أفعال الحكومة الوهابية مما يكذب هذه الدعوى التي تبرع بها لهم الرافضى وإخوته في الكذب والظلم .

الوهابيون لا يباينون غيرهم من المسلمين في شئ

وأما أفعال أفراد الوهابيين فهي أنطق وأفصح في رد هذه الدعوى الكاذبة والأمر فيها أوضح وأظهر . وذلك أن الوهابيين ما زالوا ولا يزالون يسافرون إلى جميع الأقطار الإسلامية كمصر والعراق والشام وغيرها ، ولهم تجارات مختلفة في تلك الأقطار ، ولهم أصدقاء وأصهار وأرحام وذريات وعلاقات مختلفة قوية ، هي علاقة المسلم بأخيه المسلم . وجميع هؤلاء الوهابيين الذين يردون هذه البلدان يخاطبون أهلها المسلمين مخالطهم لأهل بلادهم الأولى ، فيصاهرونهم : يتزوجون منهم ويتزوجونهم ويشاركونهم في عباداتهم وعواطفهم ، فيصلون معهم ويأتمنون بأتمهم ولا يفارقونهم في شئ من أعمال المسلمين ، ولا يحسون بينهم وبينهم فرقا إلا مثل ما يكون بين أفراد الأمة الواحدة من الخلاف والفرق ، وما اختلفوا عليهم في أمر من أمور المسلمين : فما اتخذوا لهم مسجداً خاصاً ولا إماماً خاصاً ولا حياً خاصاً ولا زياً خاصاً ولا بلداً خاصاً ، ولا شيئاً من الأشياء خاصاً بهم ، ولا قاضياً خاصاً بهم ولا غير ذلك مما يوم أنهم يخالفون غيرهم من المسلمين ، أو أن لهم عقداً سيئاً في عقائد المؤمنين ، ولا يشعر من يراهم ويرى أحوالهم وأعمالهم أنهم يذهبون إلى شئ يخالفون به غيرهم . ولو أنهم دخلوا بلداً إسلامياً وكان إمام الجماعة فيه هو هذا الرافضى نفسه الهاذى بهذه التهم لما تخلفوا عن الصلاة وراءه ولما استجازوا لأنفسهم التخلف عن الجماعة إلا أن يعلموا منه أمراً يمنع الاقتداء به عند جميع أهل السنة ، مثل أن يعلموا منه أنه يكفر الصحابة ويستحل الوقعة في أعراض السلف والوقعة في دينهم ، ومثل أن يعلموا منه أنه يقول بتحرif القرآن أو غلط جبريل في الرسالة ، أو نحو ذلك من عظام ما ذهبت

إليه الشيعة ، أو غيره مما يمنع أهل السنة جميعاً من الاقتداء بصاحبه والاحترام له .
ولا أظن مسلماً يستجيز الصلاة خلف من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان . فثقل هذا
يأبون الاقتداء به ولا كرامة . ومن الصدف الطريفة أن قابلت في هذه الأيام
أحد رجال الشيعة الواردين على القاهرة لأسباب علمية ، وهو من بيت علم معروف
في النجف وفارس . وقد كانت المقابلة يوم جمعة . فسألته : أين صليت الجمعة ؟
فأخبرني أنه لم يصل ، وأن لصلاة الجمعة عند الشيعة شرائط لم تجتمع لديه . هذا
وكل يعلم أن في مصر جماعات من النجديين الوهابيين ، وأنهم صلوا جميعاً ذلك
اليوم في مساجد مصر المختلفة ، وأنه لم يتخلف أحد منهم عن الصلاة محتجاً بتلك
الحجة الشيعية ولا بغيرها . وإنما كلنا نصلي في مساجد القاهرة الجمع والجماعات
وما خطر لنا أن ندع الصلوات الجامعة لأجل ما ذكر الشيعي . وهذا صاحب

السعادة الشيخ فوزان السابق القائم بأعمال المفوضية السعودية بمصر ، وهو من
أثقى المسلمين ومن أعرفهم بالاسلام وحقائقه ، ومن أشدهم غيرة عليه واستمساكاً
به ، هذا هو يقيم الصلوات في مساجد مصر ، ويحافظ على صلاة الجمعة في مساجدها
ويأتم بالآئمة المختلفين لا يرى في ذلك حرجاً ولا مانعاً وهو أكبر رجل للدولة
السعودية بمصر ، وكذلك أخوه الشيخ عبد العزيز السابق وكذلك جميع أقاربهما
ومن يمتنون إليهما بالمعرفة اللازمة يصلون الجمع والجماعات في المساجد العامة
لا يتخلفون عنها لسبب من الأسباب التي يذكرها هذا الرافضي وشيعته . بل إن
الشيخ فوزان إذا ما زاره أحد العلماء في مستقر عمله الحكومي أو في بيته فحضرت
الصلاة قسم العالم للصلاة به وبجماعته فأتموا به جميعاً - إلى غير ذلك مما يطول
شرحه وبيانه . فهل بعد هذا يقول من يقيم للحق وللصدق وزناً وحرمة ومن
يرعى الله وقاراً : إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم ؟
هذه هي أفعال الحكومة الوهابية وأفعال أفرادها كلها شواهد ناطقة صادقة

أكبر رجل
سعودي في
مصر يصل
الجمع والجماعات
في المساجد العامة

على أن الشيعة لم يكن صادقا ولا ناطقا بالحق إذ رماهم بالكفر المسلمين واستحلال
دمائهم وأموالهم وقتالهم .

الوهابيون
ينفون عن
أنفسهم تكفير
المسلمين

وأما أقوالهم في تكذيب هذه الدعوى فهي أنطق وأشهر، فإزاولوا يكذبون
الدعوى ويكذبون مدعيها وزاعميها . والشيعة نفسه ذكر في هذا الفصل المذكور
عن علمائهم القدامى والمتأخرين أنهم يتبرأون من ذلك ومن قائله ، ويهتفون بأنهم
يتهمون به إتهاماً تنفيراً عنهم وعن سمرهم الاصلاحية . ولكنه يصير على أنهم
كاذبون في ما نفوا عن أنفسهم ، وعلى أنهم ملطخون بما زعموا أنهم منه بريئون .
وإذا كانوا يقولون ويذيعون ما يقولون في كتبهم منشورة معروضة للخاصة والعامة :
إنهم لا يكفرون مسلماً ولا يستحلون دمه ولا ماله ولا عرضه ولا حرمة من حرمانه
فيقوم هذا الشيعة يقول لهم : كلا إنكم كاذبون غالطون فيما قلتم وذكركم وأنكم
تكفرون المسلمين وتستحلون أموالهم وقتالهم فإذا عساهم يذكرون من الدلالات
لا نزع هذه التهمة من رأسه ، وماذا عسى البراهين الصادقة تفعل لديه لتحرق
هذه البهينة في رأسه !! قوم يقولون مختارين غير مكرهين : إن المسلم مسلم لا يحل
دمه ولا ماله ولا عرضه فيقال لهم : لا ، إن المسلم لديكم كافر حلال الدم والمال
والعرض ، فهل يستطيعون أن ينفوا عن أنفسهم هذه التهمة إلا بأن يقولوا : إن
المسلم مسلم ، فإذا قالوا ذلك فقليل لهم : كلا ، إن المسلم عندهم كافر مشرك فقد بطل
الكلام والحجاج ، وتحكم العناد واللجاج ، وإذا قلت إني لا أحسن ألما فقال لك
قائل : بل إنك لن تحسن ألماً . فإنا نرد على ذلك القائل بأصدق من أن تعيد
ما قلت : فنقول إني لا أحسن ألماً . وإذا قال الشيعة وغيره إن الوهابيين يكفرون
المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم فهل يردون عليه بأصدق من أن يقولوا :
إننا لا نكفر المسلمين بل نذهب إلى إكفارهم وهذا واضح ظاهر .

ومن أقرب الدلائل على ذلك أن علماء المملكة السعودية عقدوا في هذه

الاسباب المؤتمرات بمناسبة مشروع تقسيم فلسطين مستنكرين لذلك ، وقد أرسلوا إلى جلالة الملك الاحتجاجات الحارة الملتبة غضبا ونقمة من الحكومة البريطانية ومن مشروعها الظالم المفقوت ... وقد نشرت تلك الاحتجاجات في جريدة الحكومة الرسمية جريدة أم القرى وفي غيرها من الصحف المصرية وغير المصرية وقرأها الناس . وهذه الاحتجاجات كلها تصرّيات بأن فلسطين بلد إسلامي وأن أهله إخوان مسلمون . ونعوذ بالله من الشك في هذا ومن اضطرونا إلى الاحتجاج له . ولو أن الشيعة صادق في دعواه أنهم يكفرون المسلمين لما استجاز علماء نجد وغير نجد من علماء المملكة السعودية أن يطالبوا جلالة الملك « بمناصرة إخواننا أهل فلسطين » و « بمناصرة : « فلسطين المسلمة » والعمل لابقائها « بلدة إسلامية » و « برفع لواء الجهاد على الظالمين المحاولين : « تهويد فلسطين المسلمة » ولوسعهم السكوت كما وسع غيرهم من علماء الشيعة وغيرهم . وأسكت الله أصوات من يسكتون على مأساة فلسطين ، ولا أقر أعين من يغمضون على نكبتها وبلواها .

نعم ، إن الدلائل على كذب هذه الدعوى لا استطاع إحصاؤها ولا حصرها . فما شبهة هذا الرجل وإخوانه إذن على ذلك ؟ لهم شبهتان فعلية وقولية ، أما الاولى . وهي الفعلية فهي أن حروبا قد شبت بين الوهابيين وبين طوائف من المسلمين أو أن الوهابيين قد شبهوها بادئين على بعض البلاد الاسلامية ، وهذه الحروب هي الحروب التي قامت بينهم وبين الدولة التركية وبينهم وبين الجيوش المصرية وبينهم وبين أشراف الحجاز في القديم وفي الحديث ، وبينهم وبين أعراب الجزيرة العربية وبينهم وبين غير هؤلاء مما هو معلوم لا شك فيه . وقد زعم هؤلاء أن هذه الحروب دلائل على أن الوهابيين يستحلون قتال المسلمين وأخذ أموالهم . واقتتاح بلادهم ، وذلك لأنهم لديهم كفار مشركون ، وإلا لولم يعتقدوا فيهم

شبهاتهم على
أن الوهابيين
يكفرون
المسلمين

هذه العقيدة لما استجازوا قتالهم ولما استجازوا أن تقوم بينهم وبينهم حرب .
هذه هي الشبهة الفعلية ، وقد أقام عليها الرافضى من التهم وسوء الرأى القصور
والعلالى . والشبهة فى الواقع من أفسد الشبهات وأبطلها وأسخطها ، والرد عليها
سهل ميسور وذلك أن يقال لصاحبها المسرور بها :

الحروب بين أولاً أن الحرب بين طائفتين أو أمتين لم تكن يوماً من الأيام دليلاً على أن
الناس لا تمثل إحدى الطائفتين أو الأمتين تكفر الأخرى وتستحل قتلها ودماءها وأموالها
على نوع العقيدة لأنها فى رأيها كافرة مشركة بالله ، بل أغلب الحروب تقوم بين الناس وبين
الشعوب والأمم لغير ذلك من الأسباب ، لأسباب قد تكون صحيحة وقد تكون
باطلة ، وقد تكون بحجة الحرب وقد لا تكون كذلك . وهذا معروف مشهور فى
جميع المصور . وقد شبت الحروب بين جيوش على بن أبى طالب وعساكر
معاوية ، وبين على وعسكر الجمل . ونحن نوقن بأن إحدى الطائفتين لم تكن
تكفر الأخرى ، ونوقن بأن الباعث على الحرب لم يكن الكفر والشرك ، وإن
زعم الشيعة خلاف هذا . وكذلك لم تزل الحروب تضطرم بين جماعات المسلمين
منذ صدر الاسلام إلى اليوم ، أحياناً بشدة وقوة ، وأحياناً أخرى بلين وقلة .
ولكن أحداً من الناس لم يزعم أن تلك الحروب بين المسلمين دليل على أن أحد
الجيشين يكفر الجيش الآخر ، وأن الباعث على الحرب هو الكفر والشرك .
والحرب كثيراً ماتت بين المرء وأخيه حيث لا خلاف فى العقيدة ولا فى المذهب
ولا فى شئ من ذلك . وقد شبت الحروب بين الإيرانيين وهم من الشيعة وبين
الخلافة التركية . فهل يقول الرافضى إن الشيعة يكفرون الترك ويستحلون قتالهم .
أو يقول إن الخلافة التركية هى التى كانت تستحل ذلك من الشيعة ؟ وكذلك
شبت بين العساكر المصرية وبين الجيش التركى ، وشبت بين الأتراك وأهل
البحرين وهم زيدية ، والزيدية فرقة من فرق الشيعة ، وكذلك شبت بين الأتراك

وبين أشراف مكة ، وكذلك حارب العرب وغيرهم من المسلمين تركيا في الحرب الكبرى وفي غيرها . . . فهل يدعى الشيعة أن الباعث على هذه الحروب هو الكفر والتكفير والظلم في الاعتقاد ؟ هو يزعم أنه لا يزعم ذلك فلنا أن نأخذنه وأن نحججه بما زعم ، ويقال له كيف ادعيت أن محاربة الوهابيين لغيرهم ، أو محاربة غيرهم لهم لم تكن إلا لأت الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم وأموالهم ؟ وهذا مالا جواب له عليه وهو مما يلقى شبهته في الحضيض الأسفل

ثم يقال ثانيا - إن الحرب أمر مشترك بين الفريقين المتحاربين فالنجديون دلالة الحرب إذا حاربوا الأتراك والأشراف فقد حاربهم الأتراك والأشراف وهذا لا بد منه . مشتركة بين المتحاربين وإذا كان الأمر كذلك قيل لماذا زعمت أن الوهابيين ، وهم أحد الفريقين المتحاربين يكفرون الفريق الآخر المحارب لهم ويستحلون قتاله وماله ، ولماذا لم تزعم العكس والعكس ممكن في قضايا العقول وحقائق الواقع ، ولا فرق بين الزعمين . فان كان الأول ممكنا كان الثاني كذلك ، وإن لم يكن ممكنا كان الثاني أيضا غير ممكن ؟ كيف والشيعة قد ذكر غير مرة في كتابه هذا أن الأشراف والأتراك قد بدأوا الوهابيين بالحروب والقتال ، وأنهم قد غزوهم في ديارهم مرات ، لأنهم - في ما زعم - قد جاؤا بأمر جديد يستحقون عليه التحطيم والابادة ، ويستحقون عليه أن يعاطوا حد الحسام وصدر القناة . وقد حشى كتابه بهذا الزعم وأعاد وأبداه مسرورا مغتبطا به كل السرور وكل الغبطة . بل لقد تأول مستيقنا صحة تأوله الأحاديث الواردة في الخوارج في الوهابيين ، وقد صدر عن هذا بأنه واجب على الناس قتالهم وإبادتهم ، وأن في ذلك أجرا جزيلا لمن قام به من المسلمين لتخليص الناس فيما زعم من شرهم وبلائهم ومن عقائدكم الضالة الباطلة . فهو يقول : إن بدء الوهابيين بالقتال واجب وعمل صالح مبرور ، ويقول : إن المسلمين

كالأتراك والأشراف وغيرهم لم يزالوا يقاتلونهم ويتقربون إلى الله بقتالهم
ويبعثونها عليهم وعلى عقائدهم وبلادهم شعواء عادية... وإذا فالوهابيون مبدوون
بالتكفير والقتال والحرب والعدوان كما اعترف ، فإذا إذن ينقم ويريد منهم بعد
هذا ؟ أيريد منهم أن يضعوا رقابهم تحت أسياف العادين عليهم الغازين لهم في
ديارهم وإلا كانوا عنده قوماً ضالين يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم ودماءهم ؟
إن كان يريد هذا منهم ولم فهم لا يريدونه منه لأنفسهم ولا الله يريد منهم ولا
لهم ، وإن كان في عملهم هذا ضلال فهو أحب إليهم وإلى الله من الهدى الذي
يسموم إليه الشيعة ويعرضه عليهم

الباعث على الحروب في غالب سياسي لاديني
ليعلم هذا الشيعة الظالم أن الحروب التي تشب بين المسلمين ، وكذلك التي
تكون أيضا بين الكافرين ، أكثرها سياسي محض لا باعث عليه من الدين
ولا سلطان للعقيدة فيه . ولهذا فاتها تقع كثيرا بين أهل الدين الواحد والملة
الواحدة ، كما تقع بين أهل الأديان والنحل المختلفة ، وتقع بين المرء وأخيه
وقريبه ، كما تقع بين الأباعد والأخلاق . ومن زعم أن الباعث على هذه الحروب
النصرانية الأوروبية بين الأوربيين أنفسهم ، وبينهم وبين غيرهم من الأمم
الوثنية وغيرها هو الدين ، وهو كفر كل أمة لأختها فهو كمن زعم أن الباعث
للأتراك والأشراف وغيرهم على حرب الوهابيين هو الدين وعقيدة الكفر فيهم ؟
ولكن أى طائل يزعم شيئا من هذا . فالحروب مجردة لم تكن قط دليلا على
الأكفار أو القسح في الاعتقاد

تكفير المستغيث بالأموات
وأما الشبهة الثانية ، وهي القولية ، فهي أن علماء أهل السنة أو علماء
الوهابية في تعبيره هو ، يذكرون في كثير من كتبهم المطبوعة المشهورة أن أشياء
كثيرة مما يأتيه المسلمون الجهال وأمثالهم من الاشباخ الأغراب كفروا وضربوا
لتوحيد والإيمان في الضننيم ، فيذكرون أن الاستغاثة بالأموات ، وسؤالهم

المطالب العليا التي لا يقدر عليها إلا الله ، وأن الانقطاع إلى الاجداث وكتابة الرقاع ورفعها إلى سكانها : يذكرون أن ذلك كله وأمثاله هو من أعمال المشركين ومن المنكرات التي جاءت أديان الله كلها منادية ببطانها وفسادها ومنافاتها للتوحيد وللإيمان . ويذكرون أن هذا كله وثنية في الصورة والمعنى ، وثنية كثيفة صريحة باطلة . هذا ما يذكره هؤلاء العلماء وهذا مالا شك فيه لديهم ولدى جميع العارفين بحقائق الدين .

فقال هؤلاء المعارضون الخيالون الحريصون على هذه البدع والمنكرات : إن هذه الأقوال والآراء إما كفار للمسلمين ظاهر لأن المسلمين كلهم يعملون تلك الأعمال ويمتدحونها ويدعون إليها ويرونها من الدين والاسلام . فالوهايون إذن أصحاب هذه الأقوال والآراء يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم وأموالهم هذه هي الشبهة القولية .

والجواب أن يقال : لا ريب أن العلماء يقولون ذلك ويدونونه في كتبهم . ويصرحون به ، ولا ريب في أن ذلك حق كله لا باطل فيه كما سوف ترى الدلائل عليه . ولكن هذا لا يصدق ما قاله الرافضي وإخوانه لأمرين اثنين : أول الأمرين أن هذه الأشياء المنكرة المبتدعة لم يتفق المسلمون عليها في عصر من العصور ، لا القربية ولا البعيدة ، ولم يتفقوا على الرضا عنها ، ولا على أنها من الدين أو مما يجوز في الدين . بل مازال المسلمون العارفون بأسرار الاسلام وحقائق الدعوة المحمدية ينهون عنها ويوردون دلائل الله على بطلانها وخلافها على دينه وشرعته ، وقد وضعوا المؤلفات الكثيرة في هذا . فالمسلمون لم يجمعوا إذن على تلك المنكرات الباطلة حتى يقال إنه يلزم القول بأنها كفر وشرك وإكفار المسلمين والحكم عليهم جميعاً بالردة والضلال . ومارضى ذلك الزور الاعتقادي إلا الجاهل الغبياء كما سوف يحى البيان . فنبطلت الشبهة إذن .

قد يندر ونأى الأمرين أنه لا يلزم حكمهم بأن الأمر كفر وشرك ، أن يكون كل فاعل الجاهل شرعاً له مشركاً كافراً . وذلك أنه قد يكون لقيام الوصف بالفرد المعين موانع ، والموانع كثيرة . ومثل هذا دخول العامل للمعصية الخاصة الموعد عليها تحت الوعيد الخاص . فأننا نعلم أن الشريعة قد أوعدت أصناف العصاة والمذنبين بالعذاب والنكال الشديد ، ففي الزناة وعيد وفي السارقين وعيد ، وفي القتاتلين وعيد ، وهكذا ، ولكن لا يلزم أن يدخل تحت ذلك اليعيد كل من قارف إحدى هذه المعاصي ، إذ قد يكون لديه مانع في نفسه أو في غيره يمنع دخوله تحته . وذلك المانع قد يكون أعمالاً صالحة كثيرة عملها ذلك المعاصي كفرت سيئاته وغفر له ذنبه من أجلها . وقد يكون المانع مصائب مؤلمة أصابته فتلقاها بالصبر والرضا والتسليم فاستحق الغفران والصفح . وقد يكون المانع غير ذلك . وهكذا هؤلاء العاملون لهذه الأعمال الباطلة الوثنية من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والانتقطاع إليهم ، وكتابة الرقاع ورفعها إلى أصحاب القبور ، وغير ذلك مما ابتلى به المسلمون فغيروا به معالم دينهم وحقائقه الأولى الناصعة - لعل الله يقيم لهم عنرا لجهلهم والجيل قد يكون عنرا مانعاً من المواخنة والعقاب الأخرى إذا ما كان ذلك الجاهل حسن القصد نقي النية صادق الاتجاه إلى الله ، وإذا كان حريصاً على الحق وعلى العمل به متى بان ووضح له ، ومتى بذل أقصى جهده في تطلب الحقيقة والتماسها ومتى لم يكن للهوى عليه سلطان ولا للتعصب في وجه الحق لديه مكان . . فمثل هذا المرء قد يعذره الله ويغفر له خطأ وقع فيه رغم أنه وأنف رغبته الشديدة الأكيدة في أن يكون أبداً مع الحق وأن يكون أبداً مجانباً الباطل والضلال ، والله أعلم بما في قلوب خلقه من صدق وكنب وإخلاص له واتباع للاهواء والشهوات وأعلم بمن يليق به الغفران والعفو والصفح الجميل . ونحن عباده لا نتقدم بين يديه بحكم ولا نقول عليه مالم نعلم ومالا يدخل في دائرة حقنا ، وربك الفعال لما يريد

وهذا نظائر شرعية كثيرة لا يمكن نسيانها ولا نكرانها .

ومما يقرب إلينا فهم ذلك ويكشفه أننا نعلم أن الميتة محرمة على المسلم تحريماً باتاً صريحاً ، ونعلم أن من قارف المحرم فقد تعرض لغضب الله وعقابه . ولكن لو أكل مسلم لحم ميتة غير عالم بأنها ميتة لما قيل شرعاً : إنه أكل محرماً عليه ، وإنه تعرض لما يغضب الله عليه . بل لا شك أنه في ذلك معذور بجهله غير ملوم ولا مؤاخذ ، وأنه لم يتعرض لغضب الله ولا لعقابه . وهذا لأنه جاهل ، ولأنه لم يرد أن يقارف مانهاه الله عنه ولم يقصد محادثته وعصيانته تعالى . ويقرب هذا أيضاً أن الله قد أوعد من لم يحكم بما أنزل أشد الإيعاد فقال : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وفي آية « الفاسقون » وفي أخرى « الكافرون » . ولكن لو حكم مسلم صالح بغير ما أنزل الله غير عالم بما أنزل وغير عالم بأنه خالف ما أنزل لم يدخل تحت هذا الوعيد الصارم ، ولم يصح إطلاق ذلك عليه ولا وسمه بتلك السمة الهائلة الراجعة من الكفر والظلم والفسق والحكم بغير ما أنزل الله . بل ذلك المسلم معذور إذ أخطأ مغفوره ذنبه شأن أئمة الاسلام ، إذ لا يسلم من أن يقع في الخطأ إنسان عدا من عصم الله من الانبياء والمرسلين . هذا مع أن ظاهر الآيات دخول كل من أخطأ حكم الله تحت وعيدها . ومثله أن المسلمين يعلمون جميعاً بأن من ترك سنة النبي عليه الصلاة والسلام أو ترك حكم الله رغبة عنه وتفضيلاً لسواه عليه فهو مرتد كافر بالاجماع . ولكن كثيرين من فضلاء المسلمين وخيارهم يقع ذلك منهم اجتهاداً وخطأً كثيراً . وكل من رأى منهم رأياً واجتهد اجتهاداً يخالف في نفس الأمر ما أنزل الله وما أتى عن رسوله يعتقد ويقول إن ذلك الرأي وذلك الاجتهاد المخالفين لحكم الله هما أفضل من حكم الله الذي أخطأ وعزب عنه ، ولولا ذلك الاعتقاد لما أخذ بما رآه وبما أدى إليه اجتهاده . ولكن هؤلاء المسلمين المجتهدين المخالفين لسنة النبي ولحكم الله باجتهادهم لا باختيارهم وأهوائهم لا يتناوهم

العبادات والاعتقادات ، وفي أصول الدين وفروعه ، ولا شك أن من اعتقد بأن جميع ما يأتيه المسلمون اليوم وقبل اليوم بقرون كثيرة من الإسلام ومن صميم الدعوة المحمدية فقد أساء إلى الله وإلى رسوله وإلى دينه إساءة بالغة منكرة يستحق عليها التأديب والعقوبة الرادعة الوجيعة . ومن زعم أن دين الإسلام هو هذا الذي صار إليه جمهور المسلمين وعامتهم ودهماؤهم من الغباوات والجهالات والترهات العملية والاعتقادية والقولية ، فقد أعظم الفرية على الله وبالغ في هجاء خيرة الأديان . وما أبعد ما عليه الناس اليوم وقبل اليوم بقرون كثيرة متقادمة عما كان عليه رسول الله وما كان عليه أصحابه ، وما أعظم الفرق بين الدين في القرآن وفي السنة وبين الدين عند عامة المسلمين ، وما أ كذب من زعم أن الإسلام لم يزل نقياً طاهراً خالصاً ، كما جاء وكما نزل على خاتم الأنبياء لم ينله خطل في القول ، ولا سخف في الاعتقاد ، ولا فضيحة في العمل ، وما أ كذب من زعم أن جميع المسلمين لم يزالوا محافظين على حقائق الإسلام الأولى ، وعلى أقواله وعقائده وكل شئ فيه كما جاء منذ جاء ، لا انحراف ولا ميل . وما أسخف من زعم أن عامة المسلمين طيلة هذه العصور العجفاء لم ينالوا دينهم - ولم ينله غيرهم فيقبعوه - بالتبديل والتغيير والافساد والتشويه ! !

فإذا يريد الشيعي بما قال ؟ أ يريد أن الوهابيين قد اخطأوا إذ قالوا إن المسلمين قد أصابوا دينهم بالابتداع والخلاف له ، أم يريد أنهم أصابوا إذ قالوا ذلك ؟ أمادح هو أم قاذح ؟

ما أعجب أمر هؤلاء الشيعة ! هم يقولون إن المسلمين بعد وفاة نبيهم كفروا ما أعجب أمر وارتدوا ، وهذا كان مصير كبار الصحابة كالخلفاء الثلاثة ومن ساروا سيرتهم ، الشيعة ! ويقولون إن أهل السنة جميعاً كفار مرتدون ! وبعد هذه السوءاء يقومون يردون على من قالوا إن المسلمين المتأخرين قد ابتدعوا في دينهم وأدخلوا فيه ما ليس منه

خطأ وجهلاً نعم ، ما أعجب أمر هؤلاء الشيعة ! يعتقدون أن أهل السنة لم يزالوا يتقلبون في البدع والمنكرات والضلالات ، ولم يزالوا يتخططون في حضيض الفوايات ، ويعتقدون أن أمر أهل السنة أكثره ابتداع في ابتداع ، وأن أصل أمرهم قائم على الابتداع ، الابتداع الكافر الموبق ، وعندهم أن أمثال أبي حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل من شر المبتدعين المحرفين للشرعة الخارجين على الدين . ومع هذا كله يقوون يدافعون عن الجهال وينضبون لهم إذا ما قيل إنهم ابتدعوا أو أحدثوا في الدين ما ليس منه خطأ وجهلاً ! !

ويحك يا هذا ! أما زعمتم أن بيعة الصديق والفاروق وعثمان وخلافتهم ومقام عليها بدع منكرة ، تقلدها المسلمون وباؤا بانتمائها ؟ ثم أما زعمتم أن غسل الرجلين في الوضوء بدعة ، وأن المسح على الخفين بدعة ، وأن تحريم متعة النساء بدعة ، ابتدعها عمر فقلده المسلمون فيها ، وأن صلاة التراويح بدعة ، وأن صلاة الضحى بدعة ، وأن الدعاء للخلفاء فوق المنابر يوم الجمعة بدعة ، وأن القول بالقياس بدعة وأن المذاهب الأربعة بدعة ، وأن الأذان الأول يوم الجمعة بدعة ، ابتدعها عثمان فاتبعها الناس ، وأن الكثير الغالب من عقائد أهل السنة وأعمالهم بدع فاحشة ، وأن هذا الابتداع قد نال الأصول والفروع : الاعتقادات والعمليات ، وأن كلامهم في النبوة وفي الخلافة والامامة والالهيات ابتداع في ابتداع : أما زعمتم أن أهل السنة قد ابتدعوا ذلك كله وأنهم مازالوا يبتدعون ويغالون في الابتداع حتى عدتهم من الفرق الهالكة ، وعدتم فرقتكم وحدها الفرقة الناجية ؟ ؟

إذن كيف تستطيعون أن تنكروا قول من قال إن كثيرين من متأخري المسلمين وجهلهم قد صاروا إلى الابتداع في دينهم من حيث لا يشعرون حتى شوهوه وابتدلوه ونسخوا محاسنه وألقوا عليها حججاً من المبتدعات الرخيصة المنكرة حتى رمقته الإبصار بالزراية والاحتقار

ونحن لا ندرى هل الشيعي يريد امتداح الوهابيين أم فحشاءهم حينما حكى عنهم ما حكى . وذلك أنه لا يشك أحد لامن المبتدعين ولا من المحافظين المتبعين في أن طوائف من المسلمين قد ابتدعوا في دينهم وأسرفوا في الابتداع . وكل فرقة تزعم أن الفرقة المخالفة لها هي الفرقة المبتدعة ، وتزعم لنفسها أنها هي الفرقة الراشدة المتبعة . وأهل السنة جميعاً يقولون ويعتقدون أن جميع ما خالفت به الشيعة واختصت به دونهم هو مبتدعات بلا ريب . فلا يوجد مسلم واحد يزعم أن المسلمين جميعاً سالمون من الابتداع والانحراف عن الصراط الأول ، صراط محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام وصراط صحابته الأبرار . فما معنى إذن تخصيص الوهابيين بذلك ، وما معنى الرد عليهم إذا قالوا : ما قلناه كل مسلم ؟ إننا نسلم بالضرورة أنه لا يمكن أن يظل جميع المسلمين في جميع المصور محافظين وتوقع الابتد ضرورة ووفاء على دينهم : اعتقادياته وعملياته وقوليته ، بحيث لا يخطئون ولا يضلون وبحيث لا يزيدون ولا ينقصون ولا يغيرون : وبحيث لا يقولون إلا الحق لا عدا ولا خطأ . فإن هذا مما لا يتقبله العقل ولا العادة التي لا تختاف ولا تخطئ . فالقول بأن الابتداع قد أصاب المسلمين أمر قد دل عليه العقل دلالة لا ريب فيها ، وأمر قد قضت به العادة قضاء لا مرد له . هذا من جانب النظر وحكم القياس . أما من جانب الشرع وحكمه فإن نصوصه المتواترة قد دلت دلالات مختلفة لا موضع للخلاف والنزاع فيها على أن جماهير من المسلمين صأرون ولا محالة إلى ما صارت إليه الأمم الغابرة الذاهبة . وهذه النصوص سوف نورد منها جملاً في الفصل الآتي بالعقل والنص والاجماع : كل ذلك قد دل على أن جماهير المسلمين سوف يقبضون في الابتداع ولا محالة . فإذا إذن يريد أن يقول هذا المصنف الظالم ؟ إن كان يريد أن الوهابيين يزعمون أن المسلمين جميعاً قد ابتدعوا فهذا كذب ، وإن كان يريد أنهم يقولون إن طوائف منهم صاروا إلى ذلك فهذا لا ينكر . فإذا يريد أن يقول ؟

سبي ذريات
المسلمين
وكنب
الرافضي

وقوله : « وأما سبي ذراري المسلمين فهو مقتضى قواعد المذهب الوهابي »
فالجواب على هذا أن يقال : لقد علم الخصاص والعام والقاصي والداني أن الوهابيين
قد التحموا في حروب كثيرة معلومة في القديم والحديث : فحاربوا الأتراك وحاربوا
الأشراف ، وحاربوا غيرهم في عصور مختلفة وحالات مختلفة بقيادة غير واحد
من أئمتهم آل سعود ، وإمامة غير واحد من علمائهم آل الشيخ محمد بن عبد
الوهاب صاحب هذا الاصلاح القائم المنشور ، وبإمامة غير آل الشيخ من
علمائهم المعروفين . وقد ملكوا النصر في غير موقعة من حروبهم وشتتوا قوات
محاربيهم وخصومهم أروع تشتيت . ولكنهم مع ذلك كله لم يفعلوا مرة واحدة
الذي اتهمهم به الرافضي الظالم ... وحروبهم ومواقعهم ليست مما يخفى على الناس
ولما يعرفه فريق دون فريق حتى يمكن أن تروج مثل هذه الكذوبة أو أن يخفى
على أحد أمرها . ولو أمكن أن يصدق كذبه أحد وقوله : إنهم يكفرون المسلمين
ويستحلون دماءهم وقتالهم وأموالهم ، لما أمكن أن يصدق قوله : إنهم يسبون ذراري
المسلمين ونساءهم . وذلك أن هذا كذب مكشوف مفضوح وهو مثل أن يقول
إن الوهابيين حينما فتحوا الحجاز الفتح الأخير قتلوا جميع النساء والأطفال
وحرقوا جميع البلاد ونهبوا جميع ما فيها من الأموال والمنافع ، وأنهم هدموا بيوت
الله الحرام وصدوا الناس عن أداء الحج . . . فان كان لا يجرؤ على اختلاق هذا
الكذب لأنه لن يصدق ديار فليعلم أن زعمه أنهم يسبون ذراري محاربيهم من
المسلمين مثل ذلك . فليكنذب إن شاء أو ليدع .

يا هذا ! إن الوهابيين ليسوا من سكان المريخ ولا من سكان الاجرام العلوية
حتى يحتمل كل هذا الكذب عليهم ، بل هم سدة بيت الله وجيرة حرمة ،
يلتقي بهم المسلمون كل عام من كل فج و صوب ، ويعرفون عنهم وعن عقائدهم
ودينهم مالا يعرفونه عن أهل بلادهم التي ولدوا وربوا فيها . فليسلون لا يجهلون

أمر الوهابيين ولا يخفى عليهم مآم عليه من الديانة واستقامة المذهب ونصاعة الاعتقاد . فالكاذب عليهم مسمى إلى نفسه لا إليهم ، محتقر لمن أراد منهم أن يقبلوا كذبه وإن أراد احتقارهم هم .

وأما زعمه أن سبي الذرية هو ما يقضى به المذهب الوهابي ، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك كانوا متناقضين ، لأنهم يكفرون المسلمين وذريات الكفار المحاربين تسمي وتستحل ، فالجواب عن هذا الزعم أمران : أولهما أننا قد بينا أنهم بريئون من إكفار أحد من المسلمين ، وأن هذه دعوى كاذبة عليهم . وثاني الأمرين أن نذكر الشيعة بحروب علي بن أبي طالب وحروب أئمة الشيعة الآخرين . . . فان علي بن أبي طالب قد حارب عسكر طلحة والزبير وعائشة وحارب جيش معاوية ابن أبي سفيان ، وحارب الخوارج . وهؤلاء الذين حاربهم على رضى الله عنه كلهم كفار مرتدون عند الشيعة لا يشكون في كفرهم ولا في ارتدادهم . ولكن عليا لم يسب ذرية هؤلاء الكفار المرتدين ولم يستبح شيئا من ذلك ، مع أنه قاتلهم وتغلب عليهم أحيانا ، ومع أنه معصوم لدى هؤلاء القوم لا يقول ولا يفعل إلا الحق الصواب وإلا ما أراد الله . وهذا لا خلاف فيه عندهم ، فاجواب المعارض عنه وما رآه فيه ؟ أيقول إن عليا كان متناقضا إذ لم يسب الذرية ، أم يقول إنه كان مخطئا ضالا ، أم يقول إن أولئك القوم كلهم ليسوا كافرين ولا مرتدين بل هم مسلمون مؤمنون ؟ ؟ إنه لا يقول شيئا من ذلك كله لأنه خلاف مذهبهم الجمع عليه . فماذا يقول وبماذا يجاوب ؟ ليفكر في الجواب طويلا .

وأما قوله : « إنهم قسموا التوحيد إلى نوعين توحيد الربوبية ، وهو الاعتقاد أن الله هو الخالق المالك للأمر ، وتوحيد العبادات ، وهو صرف العبادة كلها لله » فالجواب أن نقول : ما كنا نظن أن مسلما يخالف في أنه مطلوب من المسلم أن يؤمن بأن الله هو الخالق لكل شيء وهو المالك المدبر لجميع الأمور ، لا شريك

توحيد
الالهية
وتوحيد
الربوبية

ولا معين له ، ثم مطلوب منه بعد ذلك أن يصرف عبادته كلها ظاهرها وباطنها ، صورها وحقيقتها إلى ذلك الخالق الرازق القابض على ناصية كل شيء ! ولا خلاف بين المسلمين في أن هذين الأمرين هما أول ما يطالب به المسلم ليكون مسلماً مؤمناً موحداً ، ولا خلاف بينهم في أن المرء لا يكون مسلماً ناجياً إلا إذا جمع الأمرين لله ثم أخاص في جمعه لهما ظاهراً وباطناً ، ولا خلاف بينهم في أن أحدهما لا ينفع دون الثاني ولا ينجو به العبد من عذاب الله وعقابه ، ثم لا خلاف بينهم في أنهما أمران متباينان متغايران مفهوماً وحقيقة ، لفظاً ومعنى . كل هذا لا خلاف في شيء منه بين المسلمين وإن اختلفوا في مآلعه من الأصول والفروع . فإذا إذن يريد الشيعي بما قال ، أهو جاد أم هازل ؟

ولا يجهل أحد من الناس أن من آمن بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور صغيرها وكبيرها ، لا شريك له ولا نديد ، ثم وقف عند هذا إزاء ربه وذهب يعبد غيره من الأموات أو من الأحياء : لا يجهل أحد أن مثل هذا المرء مشرك بالله العظيم كافر به ، مصيره إلى عذاب الله وأليم عقابه . ولا يجهل أحد من الناس أن هذا ممكن ، أي ممكن أن يؤمن العبد بأن الله هو الخالق وحده ، الفاعل لكل شيء ثم بعد هذا الإيمان يظل يعبد خلقه تعالى على اعتبار من الاعتبارات ووجه من الوجوه التي تلقى بالإنسان أحياناً كثيرة في حضيض الشرك وتحت أقدام المخلوقين الضعفاء الماجزين ، يعبدهم ويرجوهم كما يعبد ويرجو به العبد المؤمن الموحد الخالص من الشرك والضلال . ولا يجهل أحد أن المؤمن بالله حقاً ، الموحد حقاً ، هو من آمن بأن الخلق والأمر كله لله رب العالمين ، ثم خص صاحب الخلق والأمر بعبادته كلها . فإن من خلقتك وحده كان من حقه عليك أن تعبد وحده ، ومن لم يخلق فيك شيئاً لم يكن من الحق أن تهبه من عبادتك شيئاً ، وإلا كنت من الجاهلين الظالمين المعتدين . ومن شر الجهل أن

لا ينجو المرء
إلا بالتوحيد
معا

تجهل حق من وهبك الوجود والحياة لكل شئ فيك وكل شئ لك ... ثم لا يجهل
أحد أن هذين الأمرين ، أو التوحيدين ، أمران مختلفان متباينان حقيقة
ومفهوماً واشتقاقاً ومادة ، وأن أكثر الذين نازعوا الرسل والأنبياء الطاعة والإيمان
كانوا مقرين بالتوحيد الأول منكرين للثاني لا غير . وقد دل على ذلك جملة
القرآن وجملة الدين ، قال الله تعالى « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »
قال المفسرون من السلف والخلف في معنى الآية : تسألهم من خلق السموات
والأرض فيقولون الله ، ومع هذا يعبدون غيره من الأوثان والاصنام . والآيات في
هذا المعنى كثيرة ، ملوثة ، وسوف نورد منها نماذج فيما يأتي وفي غضون الكتاب
كله . وقد ذكر القرآن وجه الجمع بين هذا التوحيد وهذا الشرك عند المشركين
فقال : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ،
وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا
عند الله » . فعقيدة المشركين والمؤمنين قائمة على التسليم بأن الله هو غاية الغايات ،
المنفرد بصفات الخلق والرزق والإيجاد وسائر معاني النكوين ، لا شريك له في
ذلك ولا معين . . . أما الآلهة المعبودة من دونه تعالى فغاية ما يرجونه منها
جزاء عبادتها أن تقوم بوظيفة تقريرهم إلى الإله الأعظم ، غاية كل موجود ،
ومصدر كل خير ولطف في هذا الوجود ، وأن تؤدي وظيفة الوسيط الصادق
الخاص بينهم وبين رب العالمين . فهم معترفون بتوحيد ، منكرون لتوحيد ،
ولكن ذلك الاعتراف لم ينفعهم شيئاً مع ذلك الإنكار . فلم يجدهم توحيد
الربوبية وهم مشركون في توحيد الألوهية . فكان من أغراض ابتعاث الرسل
أن يدعوا هؤلاء المشركين في العبادة إلى التوحيد فيها . وكانت دعوتهم جميعاً
لأقوامهم : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ، « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا
أن اعبدوا الله » . ولهذا لم يكلفوا دعوة أقوامهم إلى الإيمان بوجود الله والإيمان

إيمان
المشركين بأن
الله الخالق
لكل شئ

بأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، إلا في ما قل وشذ كفرعون، وذلك الذي حاج إبراهيم في ربه - على خلاف في هذا - وإنما كفوا أن يدعوا أقوامهم إلى إخلاص العبادة كلها لله . ولهذا يقل أن تجد في القرآن إذ تقرأ قصص الأنبياء وقصص أقوامهم أن نبيا من الأنبياء قال لقومه : آمنوا بأن الله الخالق لكم الخالق لكل شيء ، أو قال لهم : اعلموا أنه لا خالق إلا الله ، أو مالكم تعتقدون بأن مع الله خالقين آخرين متعددين أو نحو ذلك . ولا جاء أنهم أنكروا توحيد الربوبية أو فزعوا أنبياءهم فيه ، وما كان إنكارهم إلا مثل ما قالوا : « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجيب » . ولا خلاف في أن الكلمة التي يطلب بها المشرك ليكون مسلماً هي كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأنه لو قال : الكلمة التي لا خالق إلا الله لما صار بهذه الكلمة مسلماً ولا مؤمناً . وهذا لأن الكلمتين يصير بها المرء مختلفتان ، ولأن المشركين كانوا مؤمنين بالثانية دون الأولى . ومن ثم كانت كلمة : « لا إله إلا الله » أفضل الكلام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله . وقد جاءت هذه الكلمة في مالا تقدر على إحصائه من الأذكار : والمسلمون يقولونها في مواضع يعز احصاؤها وحصرها من مواضع عباداتهم اليومية وغير اليومية ، ويقولها المسلم في يومه وليلته عشرات المرات ، بل مطلوب من كل مسلم أن تكون هذه الكلمة هي هجاءه وأنشودته المرتلة في الليل والنهار ، وأن لا يزال لسانه رطبا بها ، وقلبه محشوا بمعناها : يفرغ إليها كلما حزبه حازب ، وكلما هم بالاقدام على أمر جسيم أو غير جسيم . وقد كان عليه السلام يقول لما سأله عنه أبو طالب ما تريد من قومك يا ابن أخي ؟ فيقول : « أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها المعجم الجزية » قال كلمة واحدة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « كلمة واحدة . قولوا لا إله إلا الله » فيقولون « أجعل الآلهة إلها واحداً . إن هذا لشيء عجيب » .

وأما كلمة لا خالق إلا الله فلم يرد على ما أذكر أنها من الذكر المرغوب فيه المثاب عليه . بل لا أذكر أنها من الأذكار الإسلامية مطلقاً ، بل هي مثل أن يقال : الله موجود وأزلى وقديم وأبدى ، ونحو هذا مما يشترك في الإقرار به ومعرفة المؤمنين والكافرين والموحدين والمشركين ، ومما لا يدل على الإقرار بالله بالعبودية التي عليها يقوم الحساب ، والثواب والعقاب . فالكلمتان مختلفتان معنى ولفظاً ومادة واشتقاقاً . والتوحيد توحيدان : توحيد عبادة وتوحيد ربوبية ، والإسلام مؤلف من التوحيدين معاً ، والثواب لا ينال إلا بهما معاً ، والتوحيدان غير متلازمين ، فقد يوحد الربوبية من ينكر توحيد العبادة ، وهذا كان شأن المشركين ، وهذا هو مرض الإنسانية في كل عصورها ، وهذا هو المرض الذي أصاب جماهير من المسلمين كما أصاب سواهم من أهل الأديان الأخرى . فأصابعهم غضب الله ومقتته . . . وهذه أمور أولية لا يختلف فيها أهل العلم . ولو أردنا إيراد النقول فيها لطال بنا القول . وسوف تجيء أشياء من ذلك في أثناء الكتاب وفي مواضع منه . فلا ندري ماذا ينكر الرافضى وماذا يعيب على الوهابيين . والأفطع قوله : « وقالوا الكفر نوعان : مطلق ومقيد ، فالمطلق أن يكفر بجميع ما جاء به الرسول ، والمقيد أن يكفر ببعضه . . . »

وما كنا نحسب أن إنساناً بلغ رتبة التأليف في أصول الدين وكبريات المسائل الإلهية يروح ينازع في أن الكفر منه مطلق ومنه مقيد ، وأن الكافر قد يكفر بالكل وقد يكفر ببعض ويؤمن ببعض الآخر . وأن الناس منهم قوم خالصون للكفر والالحاد والانكار العام التام ليس فيهم للإيمان شيء ، ومنهم فريق آخر آمن وكفر ، آمن بشيء وكفر بشيء . وقد قال الله في هذا الفريق : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ، وقال : « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا

للكافرين عذاباً مهيناً » . وقال : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض »
الكفر المطلق ومن ذا يشك في أن من آمن بالقرآن كله خلا سوراً أو آيات ، أو آمن بالقرآن
والكفر المقيد كله ثم كفر بالسنة كلها ، أو آمن بفرائض الاسلام كلها ما عدا فريضة الصلاة أو
الصيام أو الحج ، أو آمن بالجنة وكفر بالنار ، أو آمن بالثواب وكفر بالعقاب ، أو
آمن بالغيب كله ثم كفر بالملائكة أو بالجان : من يشك في أن من آمن كذلك
فهو كافر ببعض مؤمن ببعض فهو كافر كفراً مقيداً ؟ ومن ذا يشك في أن من
كفر بذلك كله وبالأديان كلها وبالإله وبالأنبياء والكتب كلها : من يشك في أن
ذلك كافر كفراً مطلقاً ، كفراً تاماً خالصاً ؟

وإذا كان هذا لا ينازع فيه إنسان فما ينكر الشيعي على الوهابيين إذ قالوا :
إن الكفر منه مطلق ومنه مقيد ، ومنه الكفر بكل والكفر ببعض ، ومنه النام
ومنه الناقص ، وهذا يقوله الناس جميعاً : يقوله المؤمن ويقوله الكافر ، لا يختلفون
فيه لأنه بدهي ضروري لدى الجميع ، لأن العلم به من العلم بأن الشيء المنقسم
كلاً وجزئاً وأن الكل أكبر من الجزء أبداً ؟

إذا كان مثل هذه المقالة من معائب الوهابيين وأخطائهم عند الشيعة فلا أقل
الله معائبهم وأخطاءهم ، ولا أكثر من صواب مخالفتهم وفضائلهم ، إذا كانت هي
ما يحذو به هذا الشيعي وإخوانه .

هذا ومن الأكاذيب التي ذكرها في الفصل المذكور أنه روى نقلاً عن
شيخ الكذب دحلان أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان ينهى الناس عن
الصلاة والسلام على النبي ليلة الجمعة ، وأنه قتل مؤذناً صالحاً كان يجهر بذلك فوق
المنارة بعد أن نهاه فلم يدع ، وأنه قال : إن صوت الربابة في بيت الزانية لأقل
إيماناً من ينادى بالصلاة فوق المنارات ، فهذا كله من الكذب المفضوح .

﴿ هل المسلمون في أمان من الشرك ؟ ﴾

ثم قال الشيعي في خاتمة هذا الفصل : « وحيث ذكرنا معتقدات الوهابية إجمالاً فيناسب أن نذكر هنا بعض ما يدل إجمالاً على فساد شبهتهم بشرك جميع المسلمين وهو ما رواه البخاري ومسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال « إني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف الدنيا أن تنافسوا فيها » وفي رواية لمسلم « أن تنافسوا فيها وتقتلوا قتلهم كما هلك من قبلكم ». ولو كان كما زعمت الوهابية من أن الناس أشركوا قبل ظهورهم وأنهم جاءوا ليدعواهم إلى التوحيد للزم تكذيب هذه الأحاديث كلها . وقوله عليه السلام « إن الشيطان قد آيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً ولكن ستكون له طاعة في بعض ما تحقرون من أعمالكم فيرضى بها » . رواه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه . وهذا ينافي حكم الوهابيين بأشراك أهل مكة ، بل قالوا إنهم لم يروا بلداً تعبد فيه الأموات والقبور مثل مكة . وقوله عليه الصلاة والسلام « إن الشيطان قد آيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن رضى منهم بما دون ذلك ، بالمحقرات وهي الموبقات » رواه الحاكم وصححه وأبو يعلى والبيهقي . وفي رواية أنه عليه السلام قال : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب » ومكة والمدينة من جزيرة العرب قطعاً بل قد حكى في النهاية عن أنس بن مالك أنه قال أزد بجزيرة العرب المدينة نفسها . وهذا ينافي حكمهم بأشراك أهل الجزيرة بعبادة الأصنام عداً نجداً . وقال عليه السلام : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تارز الحية إلى جحرها » ذكره ابن الأثير في النهاية . وفيه من المبالغة في ثبوت الإيمان ورسوخه في المدينة مالا يخفى المنافي لما يندعيه الوهابية من رسوخ الكفر فيها وجعل بلادهم بلاد الإيمان » انتهى كلام الرافضي . ونقول : يريد الشيعي أن يقول إن هذه الأحاديث لنصوص صريحة في أن المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا ، والوهابيون يزعمون أنهم قد

كفروا وأشركوا ، أو قد أشرك وكفر طوائف منهم ، فالوهابيون كاذبون غالطون . وعلى هذا يجب أن يقال إن كل ما يقع من المسلمين مما يحكى الشرك والكفر أو مما يقال إنه كفر أو شرك ليس كفراً وليس شركاً . وذلك كالأستغاثة بالأموات والانتقاع إليهم والمكوف على أجدانهم رغبة ورهبة ، لأن هذا كله مما فعله المسلمون وأقروه ورضوه ، والمسلمون كلهم أعمالهم كلها إسلام وإيمان وهم لن يفعلوا ما هو شرك وما هو كفر ولن يرضوا ذلك أو يقروه للأحاديث السابقة . فهذا الذى يقع فى أضرحة المشايخ من عامة المسلمين وجهالهم ليس بمناف للإسلام ولا بمخالف لأصوله ولا لفروعه بل هو كله من الدين ومن عمل المسلمين . فما قال الوهابيون فى هذه المطالب وما كتبوه وذكروه وانتحلوه باطل باطل وخطأ خطأ . هذا ما يريد أن يقوله الشيعى ، والجواب أن نقول : إما أن يريد أن هذه النصوص دلائل على أن المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا كلهم ، أو يقول : إنها دلائل على أنه لن تقع طوائف منهم فى شئ من ذلك ، وعلى أنه لن يكفر ولن يشرك أحد من المسلمين ولا أحد من أهل مكة والمدينة والحجاز والجزيرة العربية . ولا انفكاك له من أن يريد أحد الأمرين . فان كان يريد الأول قلنا هذا حق وصدق فان المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا كلهم ، بل لن تزال طائفة منهم على الحق لا يضرهم خذلهم ولا مخالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، ولن يزال هذا الدين القيم قائماً فى الأرض معروفاً بين طوائف من أهله وإن قلوا وضعفوا . هذا حق لا ريب فيه . وأما إن كان يريد الثانى أى يريد أنه لن يشرك أحد من المسلمين أو يكفر ، ولن يقع فى الحجاز أو بلاد العرب أو البلاد الإسلامية شئ من الشرك والكفر والخروج عن الإسلام الصحيح ، قلنا : هذا ممنوع باطل ، ليس صحيحاً لا عقلاً ولا نقلاً ولا نظراً . بل إن المسلمين كثيرهم من أهل الأديان الأخرى السابقة لابد أن يقع منهم التغيير والتبديل والخروج على دينهم الصحيح المأثور ،

ولا بد أن تترامى طوائف منهم فيما ترامت به الامم الاولى من الشرك والكفر والجهل والخروج على أمهات الدين الجليلة الواضحة ، وهذا ما تبدل عليه النصوص والنظر : أما النصوص من الاسلام نفسه فانها متواترة في أن جماعات من المسلمين سوف يصابون بداء الأمم وداء الانسانية العتيد التليد ، بعبادة المخلوقين العاجزين الضعفاء ، وعبادة الأموات من أهل الصلاح وأهل الفساد أيضا . وإذا دلت النصوص على ذلك دلالة واضحة لا ريب فيها لم يصح هذا الاحتمال ولا ذلك التأويل .

﴿ بعض النصوص الدالة على أن طوائف من المسلمين يصيرون إلى الشرك ﴾

قال مسلم في صحيحه بتبويب الامام النووي : باب ذهاب الايمان في آخر الزمان . حدثني زهير بن حرب ... عن أنس بن مالك أن رسول الله قال « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله » وفي رواية « لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله . الله » وفي رواية غير مسلم « لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول لا إله إلا الله » رواه الامام أحمد . وقال أيضا مسلم في آخر الصحيح بتبويب النووي : باب اتباع سنن اليهود والنصارى . حدثني سويد بن سعيد . . . عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله . قال « لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لا تبعتموهم » قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال « فن ٢٢٢ » وهذا الحديث ينقله علماء الشيعة عن أئمتهم ويدعون أنه متواتر ويحتجون به على الرجعة والايمان بهافي كتاب النجعة في الرجعة « وقد روى الخبر المذكور بعينه وبمضمونه (يشير إلى هذا الحديث) في كثير من أصول الشيعة وجوامعهم . ففي عيون أخبار الرضا في رواية حسن بن الجهم وسؤال المأمون للرضا : ما قولك يا ابن رسول الله في الرجعة فقال حق ، وكانت في الأمم السابقة وقد نطق بها القرآن . وقال رسول الله « يكون في هذه الامة كل ما كان في الأمم السابقة حذو النعل بالنعل والقنة بالقنة » . وقد ورد أيضا في الفقيه وإكمال الدين

اتباع المسلمين
للأمم الغابرة
واعتراف
الشيعة بذلك

الدين ، ومختصر البصائر ، والكافي ، وإعلام الوري ، والاعتقادات لابن باويه
ونقل نظيره النكشي والعياشي في كتاب الاحتجاج والخرائج والجرائع في ذيل
خطبة سلمان ، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ، وحسن بن خازن القمي وابن طاوس
في كشف المهجة والمجلسي والقمي في الاربعين ، والسيد بن طاوس أيضا في كتاب
الفتن والملاحم بعدة طرق . وبالجملة الخبر من المتواترات ، وهو يصرح بأنه لا بد
من أن يقع في هذه الامة كل ما وقع في الامة السالفة . ومنها إحياء الموتى ، فلا
بد من وقوعه في هذه الامة . ونقل الميرزا محمد الاسترآبادي خطبة سلمان في ترجمته
وفيها ذكر ذلك الحديث عن عبد الله بن سنان عن الصادق قال : خطب سلمان
فقال : الحمد لله الذي هدانا لهذا لم يكن بعد جمودي إلى أن قال : قال رسول الله في حق
علي : « وصي وخليفتي » إلى أن قال : وقال « لتركن طبقا عن طبق سنة بني
إسرائيل القذة بالقذة » انتهى كلام النجعة . . ص ٢٥ . ثم قال مسلم بتبويب
النووي : باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة . حدثني محمد بن رافع . .
عن أبي هريرة عن رسول الله قال : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء
عبادة اللات دوس حول ذي الخلصة » وكانت صنبا تعبدها دوس في الجاهلية . حدثنا أبو
العزى كامل الجعدي . . . عن عائشة قالت سمعت رسول الله يقول : « لا ينهب الليل
والنهار حتى تعبد اللات والعزى » . وقال أيضا بتبويب النووي : باب رفع العلم
وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان . حدثنا شيبان بن فروخ . . . عن
أنس بن مالك قال قال رسول الله : « من أشرط الساعة أن يرفع العلم ، ويثبت
الجهل ، ويشرب الخمر ويظهر الزنا » . حدثنا محمد بن عبد الله . . . قال قال رسول الله :
« إن بين يدي الساعة أياما يرفع فيها العلم ، وينزل فيها الجهل ، ويكثر فيها الهرج ،
بوالهرج القتل » . حدثني حرمة بن يحيى . . . أن أبا هريرة قال قال رسول الله : « يتقارب
الزمان ويقبض العلم وتظهر الفتن ويلقى الشيخ ويكثر الهرج » . قالوا : وما الهرج ؟

قال القتل . حدثنا قتيبة بن سعيد ... سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول سمعت رسول الله يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالماً أخذ الناس دواً جبالاً فاستلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » . وقال أي مسلم والنووي : باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير واليمان وبقاء شرار الناس وعبادتهم الاوثان . ثم ذكر مسلم الأحاديث الدالة على أن أهل الخير واليمان ينهبون فلا يبقى إلا شرار الناس الذين لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكراً ، وأن الشيطان يتمثل لهم ويدعوم إلى عبادة الاوثان فيستعجبون . وذكر أحاديث الدجال وأتباعه وأنه يظأ كل البلاد ما خلا مكة والمدينة .

وقال البخاري في الصحيح : باب قول النبي عليه السلام : لتبعن سنن من كان قبلكم . حدثنا أحمد بن بنس . . . عن أبي هريرة أن النبي قال : « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعاً بذراع » فقيل يارسول الله : كنفارس والروم ؟ فقال « ومن الناس إلا أولئك » : ١١ حدثنا محمد بن عبد العزيز . . . عن أبي سعيد الخدري عن النبي عليه السلام قال : « لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبتموهم » . قلنا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال . « فن » وقال البخاري : باب تغير الزمان حتى تعبد الاوثان . حدثنا أبو اليمان . . . أخبرني أبو هريرة أن رسول الله قال « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليان نساء دوس على ذى الخلصة » ، وذو الخلصة طائفة دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية . وقال في باب علامات النبوة : حدثنا يحيى بن موسى . . أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يارسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجهنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم . قلت

وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دخن ، قلت وما دخنه ؟ قال قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر ، قلت فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال نعم ، دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها ، قلت يا رسول الله صفهم لنا ، قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، قلت فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك .

وروى هو ومسلم وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال لينادن أقوام يوم القيامة عن حوضي فأقول ياربى أصحابى أصحابى ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، إنهم ما زالوا مرتدين على أعقابهم ، فأقول بعدا بعدا لمن بدل بعملى . ومن هذا الباب حديث افتراق الأمة المشهور الذى قيل فيه « وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة » . قيل من هى يا رسول الله ؟ قال « هى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » . ومن ذلك حديث الغربة المعروف الذى رواه مسلم فى الصحيح وهو قوله عليه الصلاة والسلام : بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء . وعن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان ، وإنه سيكون فى أمتى كتابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لأننى بعدى . رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح . وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى يرجع ناس من أمتى إلى أوثان يعبدونها من دون الله . رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده . وقال الحافظ الهيثمى فى كتاب مجمع الزوائد : باب فى اتباع سنن من مضى . عن سهل بن سعد الأنصارى عن النبي عليه السلام قال « والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم مثلاً بمنزل » وعن شداد بن أوس عن رسول الله ﷺ قال : « ليحملن .

شرار هذه الامة على سنن الذين خلوا من أهل الكتاب حذو القذة بالقذة» رواه أحمد والطبراني ورجاله مختلف فيهم . وعن ابن عباس قال قال رسول الله : « لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع وباعا ببيع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه لفعلتم » . رواه البزار ورجاله ثقات . وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله : « أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل لتركبن طريقهم حذو القذة بالقذة حتى لا يكون فيهم شيء إلا كان فيكم مثله ، حتى إن القوم لتمر عليهم المرأة فيقوم إليها بمضهم فيجاءها ثم يرجع إلى أصحابه يضحك لهم ويضحكون إليه » . رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه . وعن المستورد بن شداد أن رسول الله قال : « لا تترك هذه الأمة شيئا من سنن الأولين حتى تأتيه » . رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات . ثم قال الهيثمي : باب نقض عرى الاسلام . عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله قال « لننقض عرى الاسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها ، وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة » . رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح . وقد ذكر الهيثمي أحاديث كثيرة في هذا المعنى . إلى غير ذلك من الأخبار الصحاح الدالة على أن أهل الاسلام يغيرون كما غير من كانوا قبلهم . والأخبار في هذا متواترة لا يختلف أهل العلم في صحتها وصحة دالاتها ، ولا يختلفون فيما دلت عليه من أن طوائف من المدعين للإسلام يفسقون عن الاسلام الصحيح ويتكبرونه يأخذون عنه ذات اليمين وذات الشمال ويقعون جهالة وضلالة في الاشرار الجلى والخلق وفي الكفر الأصغر والأكبر ، بل وفي الالحاد والردة . وهذا كله مشهود مرئى يسمو على النزاع والخلاف معو المحسوسات على ذلك . وقد وضع الفقهاء جميعا على اختلاف مذاهبهم أبوابا خاصة بأحكام المرتدين من المسلمين ، يقولون من قال كذا أو فعل كذا فقد ارتد ،

ويقولون : إن حكم المرتد المغير لدينه القتل الناجز لقوله عليه الصلاة والسلام : من بدل دينه فاقتلوه . وما اعترض أحد من أهل العلم على أبواب أحكام المرتدين ولا قال لماذا هذا والمسلمون لا يرتدون لقول النبي « إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب » ولقوله « وإنما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي » ولم يكن شئ من هذا لأن المسألة أظهر من أن يتناولها هذا الخلاف . فالمسلمون لا يتنازعون في أن طوائف من المنتسبين للإسلام ارتدوا وكفروا . ولا يختلفون أن هذا يقع لها كل عصر ، كما لا يختلفون أن جماعات من العرب ارتدوا بعد وفاة النبي عليه السلام فقاتلهم الصديق وقاتلهم الصحابة ، وقد قام متذبثون كاذبون في جزيرة العرب فضل بهم أقوام من المسلمين فقاتلهم الصحابة وقاتلهم الصديق حاجتوا أصولهم ، وكل هذا معروف . وهناك في كتب الفقه والحديث كتاب يسمى بكتاب قتال المرتدين أى المرتدين من المسلمين ، يذكر فيه أحكام الإسلام فيمن يكفرون ويشركون من أهل الإسلام وكيف يقاتلون . وكل هذا لا خلاف فيه كما قلنا ، فقيم خلاف الشيعي وقيم لفظه ؟ كيف ونحن نرى أبما كانت عريقة في الإسلام أثيلة السب في الدين الحمدي ، تنادى حكوماتها اليوم بحرب الإسلام ومطاردة قرآنه ولسانه وتهدم المساجد وتحدى المصلين والمتقين وتغذى نشأها وبنيتها بعداء القرآن ومحمد والإسلام والمسلمين وما يتصل بذلك من لغة وأدب وعادات ؟ كيف ذلك وقد تقلبت الأمور بالإسلام والمسلمين حتى صرنا نسمع جميع خطباء المساجد يلهمون بالخبر المشهور « إنه لم يبق من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه » وقد شهدنا المستمعين يطربون لهذه الكلمة لأنهم يجدون صدقها في كل مكان وفي كل بلاد المسلمين وفي أنفسهم أيضا . ويناسب هذا أن نورد كلمة قالها أحد أئمة القرن الثامن الهجري في التفجع على غربة الإسلام وانطماس سننه وفشو البع والمنكرات . ذلك هو ما ذكره الامام

الشاطبي في كتابه « الاعتصام ». قال في أول ذاك الكتاب تعليقا على حديث كلام الشاطبي بدأ الاسلام غريبا وسيمود غريبا كما بدأ : « ثم استمر تزايد الاسلام واستقام في فساد الناس طريقه مدة حياة النبي ومن بعد موته وأكثر قرن الصحابة إلى أن نبغت فيهم وفي فشو البدع نوابغ في الخروج عن السنة وأصغوا إلى البدع المضلة كبدعة القدر وبدعة الخوارج ، ثم لم تزل الفرق تكثر حسبما وعد به الصادق عليه السلام في قوله : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك ، وتفرقت أمي على ثلاث وسبعين فرقة » . وفي الحديث الآخر : « لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتمهم » .. وكان الاسلام في أوله مقاوماً بل ظاهراً وأهله غالبين ، وسوادهم أعظم الأسودة ... فسار على استقامة وجرى على اجتماع واتساق ، إلى أن أخذ اجتماعه في الافتراق الموعود ، وقوته إلى الضعف المنتظر ... وتكاثرت على سواد السنة البدع والاهواء فتفرقت أكثرهم شيعاً ، وهذه سنة الله في الخلق : أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل ، لقوله تعالى : « وما أ كثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » وقوله : « وقليل من عبادى الشكور » . ولينجزن الله ما وعد به نبيه عليه الصلاة والسلام من عود وصف الغربة إليه ، فان الغربة لاتكون إلا مع فقد الأهل أو قتلهم وذلك حين يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة ، فيقام على أهل السنة بالثريب والتعنيف كما كان أولاً يقام على أهل البدعة طمعا من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة ، فلا تجتمع الفرق كلها على كثرتها على مخالفة السنة عادة ومهماً بل لابد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتى أمر الله ، غير أنهم لكثرة ماتناوشهم الفرق الضالة وتناصبهم العداوة والبغضاء — استدعاء إلى موافقتهم — لا يزالون في جهاد ونزاع ومداغة وقراع ، فيضاعف الله لهم الأجر الجزيل ... فلما أردت الاستقامة على الطريق

وجبت نفسى غريباً فى جمهور أهل الوقت لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد ودخلت على سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد ، ولم يكن ذلك بدعاً فى الأزمنة المتقدمة فكيف فى زماننا هذا ؟ فقد روى عن السلف الصالح من التنبيه على ذلك كثير ، كما روى عن أبى الدرداء أنه قال : لو خرج رسول الله عليكم ما عرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة . قال الأوزاعى : فكيف لو كان اليوم ؟ قال عيسى بن يونس : فكيف لو أدرك الأوزاعى هذا الزمان ؟ وعن أم الدرداء قالت : دخل أبو الدرداء وهو غضبان ، فقلت : ما أغضبك ؟ فقال والله ما أعرف شيئاً فيهم من أمر محمد إلا أنهم يصلون جميعاً . وعن أنس ابن مالك قال : ما أعرف منكم ما كنت أعهد على عهد رسول الله غير قولكم : لا إله إلا الله . قلنا : بلى يا أبا حمزة . قال : صليتم حتى تغرب الشمس ، أفكانت تلك صلاة رسول الله ؟ وعن أنس قال : لو أن رجلاً أدرك السلف الأول ثم بعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئاً ، قال ووضع يده على خده ثم قال إلا هذه الصلاة . ثم قال : أما والله على ذلك لمن عاش فى هذا المنكر ولم يدرك ذلك السلف الصالح فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه فمصه الله من ذلك وجعل قلبه يحن إلى ذلك الساف الصالح يسأل عن سبلهم ويقتص آثارهم ليعوض أجراً عظيماً ، وكذلك فكونوا إن شاء الله . وعن ميمون ابن مهران قال : لو أن رجلاً أنشرف فيكم من الساف ما عرف غير هذه القبلة . وعن سهل بن مالك قال : ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة .. إلى ما أشبه هذا من الآثار الدالة على أن المحدثات تدخل فى المشروعات وأن ذلك قد كان قبل زماننا ، وإنما تتكاثر على توالى الدهور إلى الآن

« فتردد النظر بين أن اتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد ، فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفى العوائد ، لاسيما إذا ادعى أهلها أن ما هم عليه هو

السنة لاسواها ، إلا أن في ذلك العبء الثقيل مافيه من الأجر الجزيل ، وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح فأدخل تحت ترجمة الضلال - عائذا بالله من ذلك . إلا أنى أوافق المعتاد وأعد من الموالفين لآمن المخالفين ، فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة ، وأن الناس لن يغفوا عني من الله شيئاً . فأخذت في ذلك على حكم التدرج في بعض الأمور ، فقامت على القيامة ، وتواترت على الملامة ، وفوق العتاب سهامه ، ونسبت إلى البدعة والضلالة ، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة . . . »

هذا بعض ما ذكره الامام الشاطبي في مقدمة كتابه « الاعتصام » وقد أطل الكلام في هذا النحو ، والكتاب كله موضوع للكشف عن البدع وأصولها ، وعما أصاب السنة والشرعية الغراء من أحداث ومبتدعات نكراء . وقد ألف محمد بن وضاح القرطبي الأندلسي أحد أئمة القرن الثالث الهجري كتاباً قيماً في هذا الموضوع سماه « البدع والنهي عنها » جاء فيه بالعجب العجيب من هذا النوع . وفي الكتاب فصل عنوانه « باب في تقصير عرى الاسلام ودفن الدين وإظهار البدع » ننقل منه بعض ما يدخل في بحثنا :

عن حذيفة بن اليمان أنه أخذ حجرين فوضع أحدهما على الآخر ثم قال لأصحابه : هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور ؟ قالوا : ما نرى بينهما من النور إلا قليلاً ، قال : والذي نفسي بيده لتظهرن البدع حتى لا يرى من الحق إلا قدر ما ترون بين هذين الحجرين من النور . والله لتفشون البدع حتى إذا ترك منها شيء قالوا تركت السنة . وساق بسند آخر عن حذيفة أيضاً رضي الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه ثم قال : إن هذا الدين قد استضاء إضاءة هذه ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يندره على الحصاة حتى وادها ، ثم قال والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفعون الدين كما دفنت هذه الحصاة وليسكن

كلام ابن وضاح
في فشو البدع
والمحدثات

طريق الذين كانوا قبلكم حذوا القنّة بالقنّة وحذوا النعل بالنعل .
وعنه رضى الله عنه أنه قال أول ماتفقّدون من دينكم الأمانة ، وآخر ماتفقّدون
الصلاة ولتنقضن عرى الاسلام عروة عروة ، ولتصلين نساؤكم حيضا ، ولتسلكن
طريق من كان قبلكم حذوا القنّة بالقنّة وحذوا النعل بالنعل ، لا تخطئون طريقهم
ولا يخطئ بكم ، وحتى تبقى فرقان تقول إحداها ما بال الصلوات الخمس ؟ لقد ضل
من كان قبلنا ، إنما قال الله : « أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل » ،
لا يصلون إلا ثلاثا . وتقول الأخرى : أيها المؤمنون بالله كايما الملائكة ! ما فينا
كافر ولا منافق . حق على الله أن يحشرهم مع الدجال . قال ابن وضاح المؤلف :
لم يعمل أحد من الأمم شيئا إلا ستمعله هذه الأمة ، واخبر بعد الانبياء ينقص
والشريداد ، وإنما هلكت بنو إسرائيل على أيدي قرائهم وفتاتهم ، وستهلك
هذه الامة على أيدي قرائهم وفتاتهم . ثم بعد هذا أورد الحديث المتقدم الذي
فيه : « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » . وعن غير واحد من أهل العلم أن رسول
الله قال : « كيف بكم إذا فسق شبانكم ، وطغت نساؤكم ، وكثر جهالكم » ؟ قالوا :
وإن ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : وأشد من ذلك . كيف بكم إذا لم تأمروا
بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : وإن ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : وأشد
من ذلك . كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا ؟

وعن محمد بن علي قال قال رسول الله ﷺ : ويح هذه الأمة ماذا بلقي فيها
من أطاع الله ! كيف يكذبونه ويضربونه . قال عمر بن الخطاب يا رسول الله : الناس
يؤمّنون على الاسلام ؟ قل : نعم يا عمر . قال عمر يا رسول الله : ولم يبغضون من
أمرهم بطاعة الله ؟ فقال : يا عمر ترك القوم الطريق فركبوا الدواب ولبسوا لين
الثياب وخدمهم أبناء فارس وتزين الرجل منهم بزينة المرأة لزوجها وتبرجت
النساء ، زيهن زى الملوك الجبابرة يتسمنون كالنساء فإذا تكلم أولياء الله

وأمرهم بطاعة الله قيل : أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة ، مكنب بالكتاب ، تحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . تأولوا كتاب الله على غير تأويله واستندلوا به أولياء الله .

وعن أبي الدرداء قال : لو خرج إليكم اليوم رسول الله ما عرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة ، قال الأوزاعي : فكيف لو كان اليوم ؟ قال عيسى فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان ؟

وعن الحسن قال : أدركت عشرة آلاف من أصحاب النبي لو رأوكم لقالوا : مال هؤلاء مجانين ؟ ولو رأيتهم لقتلهم : هؤلاء مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب ، ولو رأوا شراركم لقالوا : ما هؤلاء عند الله من خلاق . قال المؤلف ابن وضاح : يقال تخرج الفتن من عند أصحاب الكتب وإليهم تعود . وعن أوفى بن دهم العدوي قال : بلغني عن علي بن أبي طالب أنه قال : تعلموا العلم تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله . فانه سيأتي زمان من بعدكم ينكر الحق فيه تسعة أعشارهم ، لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نومة . أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم .

وعن عدي بن حاتم أنه قال : إنكم في زمان معروفه منكر زمان قد مضى ، ومنكره معروف زمان آت . وقال الفضيل : في آخر الزمان يمشى المؤمن بالتنقية وبئس القوم قوم يمشى فيهم بالتنقية .

وعن أبي حمزة عن أبي هريرة : قال كيف بك إذا كنت في زمان لا ينكر خياركم المنكر ؟ قلت : سبحان الله ما أولئك بخيار ، قال بلى ولكن يخاف أن يشتم عرضه وأن يضرب بشره .

وعن بكر بن عمرو المعافري قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : طوبى للغرباء الذين يمسكون بكتاب الله حين يترك ، ويعملون بالسنة حين تطفأ . وقال

رسول الله : بدأ الاسلام غريباً ، ولا تقوم الساعة حتى يكون غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء حين يفسد الناس ، ثم طوبى للغرباء حين يفسد الناس . وعن ربيعة بن يزيد قال سمعت أبا إدريس الخولاني يقول : سمعت أن للاسلام عرى يتعلق الناس بها وإنما يمتنخ عروة عروة . فأول ما يمتنخ منها الحلم ، وآخر ما يمتنخ منها الصلاة . وعن عبد الله الديلمي قال : تذهب السنة سنة سنة كما يذهب الجبل قوة قوة . وآخر الدين الصلاة ، وليصلين أقوام لا خلاق لهم . وعن مالك بن أنس عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال : ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة . وعن أنس بن مالك قال ما أعرف منكم شيئاً كنت أعهده على عهد رسول الله ليس قولكم : لا إله إلا الله . قلنا بلى يا أبا حمزة الصلاة ، فقال قد صليتم حين تغرب الشمس ، أفكانت تلك صلاة رسول الله ؟

وعن الحسن قال : لو أن رجلاً أدرك السلف الأول ثم بعث اليوم ما عرف من الاسلام شيئاً . ثم قال إلا هذه الصلاة . أما والله لمن عاش في هذه النكراء ولم يدرك السلف الصالح فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه فعصمه الله وجعل قلبه يحن إلى ذلك السلف الصالح : يسأل عن سبيلهم ويقتص آثارهم ويتبع سبيلهم ليعوض أجراً عظيماً . فكذلك فكونوا إن شاء الله .

وعن ميمون بن مهران قال : لو أن رجلاً أنشرف فيكم من السلف ما عرف فيكم خير هذه القبيلة .

وعن أم الدرداء قالت : دخل على أبو الدرداء وهو غضبان فقلت له ما أغضبك ؟ فقال : والله ما أعرف فيهم من أمر محمد شيئاً إلا أنهم يصلون جميعاً . وعن سالم قال قال أبو الدرداء : لو أن رجلاً تعلم الاسلام ثم تفقده ما عرف منه شيئاً . وعن مالك بن أنس قال بلغني أن أبا هريرة تلا : « إذا جاء نصر الله والفتح

ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا» ثم قال : والذي نفسي بيده إن الناس ليخرجون اليوم من دين الله أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لو أن رجلين من أوائل هذه الأمة خليا بمصحفهما في بعض هذه الأودية لأتيا الناس اليوم لا يمران شيئا مما كانا عليه . وعن أبي وائل قال قال عبد الله : أتدرون كيف ينقض الاسلام ؟ قالوا نعم كما ينقض صنع الثوب .

وعن حذيفة قال : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يملكون ، أو يضلوا وهم يشعرون .

وعن سعيد أخى الحسن يرفعه قال : إنكم اليوم على بينة من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في الله ولم تظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب الديش . وستحولون عن ذلك فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في الله وتظهر فيكم السكرتان ، فالتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين .

وعن عطاء بن أبي رباح : قال مر بعلى بن أبي طالب رجل له سمعت فقال من أهل خراسان أنت ؟ قال : لا ، قال من أهل فارس أنت ؟ قال : لا ، قال : فن أنت ؟ قال أنا من أهل الأرض ، قال فاني سمعت رسول الله يقول : « لا يزال الدين معتدلا صالحا ما لم يسلم نبط العراق ، فاذا أسلم نبط العراق أدغلوا في الدين وقالوا فيه بنير علم فعند ذلك يهدم الاسلام وينتلم » .

وعن ابن مسعود قال كان عمر بن الخطاب حائطا حصيّا على الاسلام يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه ، فانتلم الحائط فالتاس يخرجون منه ولا يدخلون فيه . وعن حذيفة قال كيف أنتم إذا انفرجتم من دينكم انفراج المرأة عن قبلها لا تمنع من يأتيها ؟ فقال رجل : قبح العايز . فقال بل تبحت أس .

وعن على رضى الله عنه قال ينقض الدين حتى لا يقول أحد لا إله إلا الله .
قال بعضهم حتى لا يقال : الله ، الله .

وعن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : لا يأتى عليكم عام إلا والذى
بعده شر منه ، ولا أعنى أن عاما أخصب من عام ولا أمطر من عام ولكن ذهاب
خياركم وعلماؤكم . ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم فيهدم الإسلام ويثلم .
وعن إسماعيل بن نافع القرشى عن عبد الله بن المبارك قال : أعلم أخى أن
الموت اليوم كرامة لكل مسلم اتقى الله على السنة ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، وإلى
الله نشكو وحشتنا وذهاب الاخوان وقلة الأعوان وظهور البدع . وإلى الله نشكو
ما حل بهذه الأمة ممن ذهاب العلماء أهل السنة وظهور البدع . وقد أصبحنا فى
زمان شديد وهرج عظيم . إن رسول الله يخوف علينا ما قد أضلنا وما قد أصبحنا
فيه فحذرنا وتقدم الينا بقول أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : أتتكم فتن كقطع
الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح
كافراً ، يبيع فيها أقوام دينهم بمرض الدنيا .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : يأتى على الناس زمان تكون السنة فيه
بدعة والبدعة سنة ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً . وذلك إذا اتبعوا واقتدوا
بالملوك والسلاطين فى دنياهم .

وعن عمار بن ياسر قال : يأتى على الناس زمان خير دينهم دين الأعراب .
قيل ، ومم ذلك ؟ قال تحدث أهواء وبدع يحضون عليها .
وعن الأعمش قال قال لى شقيق أبو وائل : حدثنا سليمان : ما شئت قراء
زمانك إلا بغنم رعت حمضاً ، فن رآها ظن أنها سمان ، فاذا ذبحها لم يجد فيها شاة
سمينة . وذكر عن ابن مسعود مثله .

وعن خلاد بن سليمان قال : سمعت دراجاً أبا السمح يقول : يأتى على الناس

زمان يسمن الرجل راحلته حتى تعقد شحما ثم يسير عليها في الأمصاري يلمس من يفتيه بسنة قد عمل بها فلا يجسد من يفتيه إلا بالظن . قال ابن وضاح المؤلف : سمعت سحنونا يقول منذ خمسين سنة في الحديث الذي جاء يسمن الرجل راحلته قال سحنون : إني أظن أنا في ذلك الزمان : قطلبت أهل السنة في ذلك الزمان فكانوا كالكوكب المضيء في ليلة مظلمة . قال ابن وضاح : فاذا طلبت الشيء الخالص لا تجده وإذا كان مختاطا فهو الكامل . كتاب الله قد بدل : وسنة رسوله قد غيرت ، ودماء قد سفكت وكرائم قد سبيت وحدود قد عطلت وترأس أهل الباطل وتكلم في الدين من ليس من أهل الدين ، وخاف البريء وأمن النطيف (أى المريب) وحكم في أمر المسلمين وسود فيهم من هو مسخوط عليه فيهم وعن الحسن بن سمرة بن جنسب قال : لا تقوم الساعة حتى تروا أمورا مهادة الأصنام عظاما لم تكونوا ترونها ولا تحدثون بها أنفسكم . قال ابن وضاح : أنا أقول في المحاريب لا تقوم الساعة حتى تمبد الأصنام في المحاريب وعن حذيفة قال : لا تقوم الساعة حتى تنصب فيها الأوثان وتعبد - يعنى في المحاريب - وقد وقع مصداق هذا فإن الأوثان اليوم يعبدون في المساجد وفي المحاريب ونعوذ بوجه الله من سوء ومن الشرك وعن علي بن أبي طالب قال : لا تقوم الساعة حتى تكون هذه الأمة على بضع وسبعين ملة كلها في الهاوية وواحدة في الناجية . وعن ابن عمر عن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « لا تقوم الساعة حتى تنصب الأوثان وأول من ينصبها أهل حضر من تهامة » وعن حذيفة قال قال رسول الله عليه السلام : « اقرأ القرآن بلحون العرب وأصواتها ولياكم ولحون أهل الفسق فإنه سيخرجني من بعدى قوم يرجعون القرآن

ترجيع الفناء والرهبانية والنوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب.
الذين يعجبهم شأنهم

وعن عمر بن الخطاب قال : أخذ رسول الله بلحيق وأنا أعرف الحزن في وجهه فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قلت أجل ، إنا لله وإنا إليه راجعون. فما ذلك يا رسول الله ؟ قال أتأني جبريل فأخبرني أن أمتك مفتتنة بعد قليل من الدهر غير كثير . قلت فتنة كفر أم فتنة ضلالة ؟ قال : كل سيكون . قلت : ومن أين يأتيهم ذلك وأنا تارك فيهم كتاب الله ؟ قال بكتاب الله يضلون من قبل قرائهم وأمرائهم : قال ابن وضاح : إن فتنة الكفر هي الردة يحل فيها السبي والأموال ، وفتنة الضلالة لا يحل فيها السبي ولا الأموال . وهذا الذي نحن فيه فتنة ضلال لا يحل فيها السبي ولا الأموال .

وعن عبد الله قال : كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم الكبير وتتخذ سنة يجرى عليها فإذا غير منها شيء قيل غيرت السنة . قيل متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال إذا كثرت قراؤكم وقل فقهاؤكم وكثرت أموالكم وقل أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقه لغير الدين .

روى هذه الأخبار كلها محمد بن وضاح في كتابه « البدع والنهي عنها » .
وفي الكتاب روايات كثيرة من هذا النوع . والروايات كلها بالاسناد .

حديث ذات
الأنواط

ومن أصرح النصوص في هذا الباب حديث ذات الأنواط المشهور . فروى الترمذي في جامعه عن أبي واقد الليثي ، واسمه الحارث بن عوف على ما ذكر الترمذي ، قال : خرجنا مع رسول الله إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يمكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى .

« اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » لتركبن سنن من كان قبلكم قال الترمذى : حديث حسن صحيح . ورواه الطبرانى من حديث عمرو بن عوف قال : هجروني مع رسول الله عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح الله مكة وحينئذ حتى إذا كنا بين حنين والطائف أبصر شجرة يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبداً من دون الله ، فلما رآها رسول الله أنصرف عنها في يوم صائف إلى ظلي هو أدنى منه ، فقال رجل : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال له رسول الله : إنها السنن ، قتلته والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . قال في مجمع الزوائد : فيه كثير بن عبد الله ضعفه الجمهور وحسن الترمذى حديثه .

وهذا الخبر صريح في أن طوائف من أهل القبلة يصيرون ولا محالة مصابري الأمم الأولى الواقعة في الشرك وعبادة الخلق . وذلك أنهم لما طلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم شجرة يشركون بها ويعبدونها مع الله أنكر ذلك عليهم وأخبر أن طلبهم هذا كطلب بنى إسرائيل وكتبهم لموسى : « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » . ثم أخبر أن المسلمين سوف يركبون طرق الذين كانوا قبلهم من المشركين العابدين لغير الله من الأحجار والأشجار وأصناف المخلوقات التي لا تضر ولا تنفع ولا تغني شيئاً .

ومع هذا كله يجرأ الشيعي أن ينكر على الوهابيين أن قالوا : إن طوائف من المسلمين وقعوا في الابتداع وفي مخالفة السنة ، ويزعم أنهم انفردوا بهذه المقالة وبذلك الاعتقاد دون عامة المسلمين وجماهيرهم .

وما زال العلماء الأعلام يضعون المؤلفات القيمة الكثيرة في تحذير المسلمين من الابتداعات ومن الوقوع فيها في الأصول والفروع . وقد وضعت في هذا السكتب الكثيرة المعلومة ، منها المطبوع ومنها غير المطبوع . وقد اشتهر من

الكتب الموضوعة
في أنكار
البدع

هذه الكتب « الاعتصام » للشاطبي ، و « الباعث على إنكار البدع والحوادث » لأبي شامة ، و « الحوادث والبدع » لأبي بكر الطرطوشي . ومن أقدمها كتاب « البدع والنهي عنها » للأمام الأندلسي محمد بن وضاح ، وأفضل هذه الكتب « الاعتصام » بلا نزاع . وقد أكثر المتأخرون من التأليف في الموضوع . ومامن كتاب وضعه السلف أو الخلف إلا ويشكو مؤلفه من البدع ومن شيوعها وتغلّبها دلى السنن ، ومن تهافت المسلمين عليها . وكلام السلف : الصحابة فمن بعدهم كثير ما نور في ذلك ، ويكفى الطالب للعلم والهدى أن يرجع إلى أحد الكتب التى كرهاها .

هذه بعض دلالات السنة وكلام السلف على أن طوائف من المسلمين سوف ينحطون فى أصناف الاشراك والكفر من حيث لا يعلمون ولا يريدون ، وقد قام على ذلك الإجماع ، سلفا وخلفا ، ودل عليه النظر والمادة والقياس الصحيح طانه من الحال الباطل عادة ونظراً وقياساً أن يظل جميع طوائف المسلمين فى جميع العصور والأوقات والحالات محافظين على الاسلام : على أصوله وفروعه وحقايقه الصحيحة الأولى بحيث لا يضل ولا يزل منهم أحد ، وبحيث لا يكفر ولا يشرك منهم إنسان لاعدا ولا جهلا ، والناس هم مام من أصالة أنسابهم ورسومهم أعراقهم فى الجهالات ، والناس هم الناس ، ما زالوا معمين مخولين فى الانساب الوثنية والضلالات الانسانية . هذا ما يدفعه القياس والمادة والنظر . وقد دل على ذلك أيضا جملة القرآن الكريم دلالات مختلفة منها البين ومنها الخفى . وذلك أنه قد أنبأ فى غير آية أن المسلمين ماداموا مسلمين هم الغالبون وهم الظاهرون فى الأرض ، وهم أصحاب السلطان والشوكة والقوة المرهوبة الخشية . قال تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون » وقال : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » . وقال « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . وقال

دلالة القرآن
على ذلك

« والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وقال : « كتب الله لأغابن أناورسلى ». إلى ذير ذلك من الآيات الناصة على أن نصيب المسلمين في هذه الأرض خير الأ نصبة من العزة والغلب والمجد الباذخ والشرف الشامخ والسلطان القاهر الظاهر . ولكننا نرى المسلمين اليوم أذل أمم الأرض وأهونها وأعجزها عن الزعامة والسيادة : مسبوقين إلى كل خير ، قاصرين عن كل مجد ، متأخرين عن جميع الأمم في كل أمر محمود . فلماذا كل هذا ؟ أيكذب القرآن أهله ؟ كلا . أم يكذب الذين قالوا إنهم مسلمون ومماهم بمسلمين ولماؤمنين . لأن للمسلمين حقوقا مفروضة معلومة واجبة في هذا العالم قد شاءها الله لهم ، وكل ما شاءه الله كائن ولا بد . ومن أعظم حقوقهم العزة وضخامة المجد . وما فقدوا العزة والمجد إلا بعد أن فقدوا سببهما وهو الاسلام الصحيح والايمان القوى الملتب . ولا ريب أننا لو زعمنا المسلمين اليوم مسلمين حقا وصدقا لكان زعمنا هذا قدحا في صدق كتاب الله . وجل الله وجل كتابه عن المقادح ... فالكتاب والسنة والاجماع والقياس والنظر - كل أولئك - دال على أن المسلمين قد نالوا دينهم بالتغيير والتبديل ، وأنهم قد باينوه ، فاستحقوا ما لقوه ، فما هذا الخلف يوما هذا الشعب ، وما هذا الذي ينقمه الشيعة الظالم من هؤلاء الناس ؟ ؟

كيف ذلك وطوائف الشيعة هم أعظم الناس خلافا وتكديبا لما قال هذا الشيعة ، فأنهم يمتقدون أن الناس بعد رسول الله قد كفروا وارتدوا . ويستدلون على هذا الاثم العظيم والاعتقاد الموبق بآيات من كتاب الله وبأخبار ثابتة صحيحة . فمن الآيات قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » . ومن الاخبار قوله عليه الصلاة والسلام : « ليذا دن يوم القيامة أقوام عن حوضي » الحديث . وطوائف من الشيعة - لارعاها الله - تدعى أن

جماهير الصحابة ما زالوا كافرين في حياة النبي عليه السلام وبعد وفاته ، وتدعى أنهم كانوا منافقين مخادعين للنبي وللمؤمنين ، وأنهم كانوا يكفرون كفرهم وشركهم . . . وهؤلاء لا يشكون في أن بنى أمية وولاتهم وعملهم كانوا كفارا مارقين ، وكانوا ملحدين جاحدين لا يؤمنون بإيمان ولا يكفرون بكفر . ويصرح كثيرون من علمائهم المتقدمين والمتأخرين بأن معاوية وبأن أباه أبا سفيان كانا إمامين في الالحاد وفي الكفران الخالص التام ، وكذلك يقولون في عبد الملك ابن مروان ومن بعد هؤلاء ، وكذلك يقولون في عمرو بن العاص وفي بنى العباس جميعاً ، وكذلك قولهم في غير هؤلاء وهؤلاء ، وبالأجمال هم يعتقدون ، ويكتبون ما يعتقدون ، أن جماهير الصحابة وجماهير التابعين وجماهير المسلمين - أعني كل من قاوموا خرافات الشيعة وغلوها وباطلها - يعتقدون أن هؤلاء جميعاً كفار مشركون ، وزنادقة ملحدون ، ينطوون على الالحاد والكفر الخالص الفاضح ، وقد يرشحون ذلك أحياناً . وهذا الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وهو من أعدل القوم وأكثر الطائفة نزماً ، ومن أوسعهم صدراً وعظماً للخلاف والنزاع . وأكثرهم تظاهراً بالتسامح إزاء الخلاف بينهم وبين أهل السنة ، يقول في كتابه الموضوع للنهاية الشيعية الاثنا عشرية ، وهو كتاب « أصل الشيعة وأصولها » . بعد أن ذكر بالسوء والضعيفة المضطربة معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء : « فهل هذه الاعمال تسبغ أن يكون صاحبها مسلماً فضلاً عن أن يكون خليفة المسلمين وأمير المؤمنين . ثم سارت الرواية كلها على تلك السيرة وما هو أشقى وأشق منها عدا ما كان من العبد الصالح عمر بن عبد العزيز . ثم خلقتها الدولة العباسية فزادت ، كما يقال ، في الطنبور نعمات حتى قال أحد مخضرمي الدولتين :

يا ليت جور بنى مروان دام لنا * وليت عدل بنى العباس في النار . . . »

وقال أيضا هذا الشيخ في رسائل له معموها « الآيات البينات ، في قمع البدع والضلالات » وهي مطبوعة في النجف تحت عنوان « الزندقة في الاسلام ، وزنادقة المسلمين » بعد أن ذكر الملحدون والزنادقة في المسلمين وفي الاسلام وذكر أصنافهم وكثرتهم والباعث لهم على احتقار هذا الداء القتال ، والمرض العضال ، وأنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام ويبطنون شر أنواع الكفران وشر أنواع الالحاد والضلال ، قال هناك : « يبد أن أكبر العوامل نفوذا وأشدّها إثما هو أن المتغلبين على السلطة والأخذين على أزمة المسلمين بزعم الخلافة ، كانوا على ذلك الرأي وبتلك الصفة ، والناس ، كما قيل ، على دين ملوكهم . فأول المتغلبين على المسلمين بغير رضا منهم الدولة السفينية وماهى إلا معاوية ونفله يزيد . ثم تلاها الدولة مروانية ، وكلهم يضربون على ذلك الوتر ويطربون على تلك النغمات . اللهم إلا الأشجج والناقص (حنانيك بعض الشر أهون من بعض) . وحسبك بالوليد بن يزيد بن عبد الملك أكبر زنديق متخلف في الاسلام . وأقاصيصه في ذلك مشهورة ، وربما نأى على بعضها في غير هذا المكان . وفي عصره تكاثرت الزنادقة وانتشرت وأخذت في النمو والاتساع واتصل ذلك إلى زمان الخلافة العباسية ، واحتوت تلك البرهة اليسيرة على أكبر من علماء العربية ونوابغ في الأدب والشعر ، اشتهروا بالزندقة بل جاهروا . . . وما حمل هؤلاء أجمع على الزندقة والالحاد ، وحبها اليهم إلا حب السراح لأنفسهم وإطلاقها في مسارح الشهوات وفكها من قيود الشريعة ونواميس الدين . فينكح الرجل كل أنثى أعجبته ولو كانت أمه وأخته ، ويندرفيقتل كل أحد ولو أعطاه ألف ألف عهد وميثاق كما فعل عبد الملك في ابن عمه عمرو بن سعيد الأشدق وغيره . . . »

وقال هذا الشيخ عينة في هذه الرسائل عينها في آخر الفصل الذي عقده للكشف عن مساوى البابية والبهائية وكفرهم وإلحادهم وزندقتهم : « وتالله

ما ارتسم على لوح الوجود ، ولا انتظم على رقعة هذه الأرض أجهل وأضل وأمكر
وأكفر وأدهى وأخبث من تلك الأمة الخبيثة والطنمة التي خنقت أنفاس الحقيقة
وأزهقت روح شرف العلم والفضيلة . . . » ثم قال بعد هذا القول تحت عنوان :
من هدايا « الأموية الحديثة » : « ولكن ألا أدلك على أكر وأكفر وأضل وأجهل وأشد
الشيعة لاهل صافا ووقاحة وأقل حياء وصيانة وأضعف عقلا وحصانة — أولئك شرذمة من
السنة
رعرعة الدمشقيين وزطائفهم في هذا العصر من كل أف وقف ، وجورب وخف ،
أحقر من قامة ، وأقل من قلامة ، وأقدر من نخامة ، يريد هؤلاء الشذاذ التعصب
والنحزب لبنى أمية وإحياء ذكرها الخامد ، واسمها البائد ، وما أدرى أغاب عن
عقولهم السخيفة ، أنهم بذلك ينبشون عن جيفة — جيفة تملأ العالم تقنا وعفونة . .
وهل ترك بنو أمية السفينانية والمروانية من غدر أو كفر أو مكر أو عهر أو فجور
أو ظلم أو بني أو عدوان . . . » -

إلى غير ذلك من أقوال علماء الشيعة وعقائدهم في ملوك الاسلام والمسلمين
فهم عندهم كما ترى ، من شر الكفار والملحدين والزنادقة الفاسقين ، فكيف
يستطيعون بعد هذا ، أو كيف يحاولون ، الاستدلال على ان المسلمين لن يكفر
منهم أحد ولن يضل منهم إنسان ؟ لو كانت هذه المحاولة من غير طائفة الشيعة لهان
الأمر ، أما منهم فلن يهون .

﴿ الكلام على أخبار يأس الشيطان أن يمبد في جزيرة العرب ﴾

إلى الكلام على الأخبار التي ذكرها الرافضي ، فنقول : إن عنها جوابين
جوابا مجلا وجوابا مفصلا . أما المجمل فيقال : هذه الأخبار لا تقاوم الدلائل
والنصوص التي ذكرناها في الفصل السابق ، فان ما أوردناه أكثر وأظهر وأصح .
ولا يصح أن يرد الأقوى بالاضعف أو يعارض الاكثر بالاقل .

أما الجواب المفصل فيقال أما الحديث الأول وهو قوله عليه الصلاة والسلام جواب حديث « والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى » الحديث فهو لما ذهبت إليه جماعة « والله ما أخاف الشيعة ولزعمها أن صحابة النبي عليه الصلاة والسلام قد كفروا وارتدوا بعد وفاته ، أن تشركوا أو أنهم كانوا كذلك في حياته . وذلك أن الحديث خاص بالصحابة رضوان الله بعدى عليهم . فقد أعلم الله نبيه بأن أصحابه لن يكفروا ولن يشركوا بعده أبدا ، ولكن سوف يمتحنون بالدنيا وزهراتها ولذا ذاتها بما يرغس لهم من النعم والآلاء ، وبما يفتح لهم من أبواب الممالك المترفة الخصبية . . . فتنهفوا إلى ذلك قلوب ونفوس ، ولكن سوف يعصم الله الأكرمين منهم ويفنيهم بإيمانهم وإسلامهم وتقام عن الدنيا وعما فيها من لذات وزهرات وشهوات تستنزل أحيانا النفوس من أعلى سماء السموات . . . وهذا هو ما كان ، فقد عصم الله ، وله الحمد ، صحابة رسوله من شوائب الشرك وعقائيل الكفر ، فلم يحم حول ذلك منهم أحد . أما الدنيا فقد انغمست فيها بعض الأيدي ودحضت في زلقها بعض الأقدام . فنالت تبعات ذلك عاجلا ، فكانت العبرة ، وكانت العظة البالغة . أما الخيار المصطفون منهم فقد حال بينهم وبين النهل والعلل من تلك المكارع أن كانت قلوبهم وعقولهم وشهواتهم ملأى بالله وحده ، فدافعت ما سواه من الأغيار فدفعته . فسروا بهذا الزاد ، ولا زاد غيره ، عابرين ، فأدركوا ساحل النجاة موفورين سالمين من كل خوف وتبعة . ويفر الله للجميع كل ذلك .

فالحديث علم من أعلام النبوة الظاهرة إذ قد أنبأ بأن تلك النخبة المختارة من البشر ، وهم صحابة النبوة وأنصارها سيظلون معتمدين بالإيمان ، لا يدفعهم عنه دافع ، ولا يحملهم على خلافه والخروج عليه حامل ، فكانوا كذلك كما أخبر فصدقت النبوة وتمت المعجزة وظهرت الآية . . . وقد أورد هذا الحديث لما ذكرناه في علامات النبوة كما فعل الامام البخاري في الصحيح . هذا وجه الحديث

وسبيله . فهو إنباء عن الصحابة خاصة كما هو ظاهر من لفظه وكما دل عليه الواقع وكما قضت به الدلائل الظاهرة السابقة المخبرة بأن طوائف من المسلمين ، ولا محالة ، سنوف يكفرون ويشركون ويعبدون غير الله من الأصنام والأوثان والمخلوقات الأخرى العاجزة . ولا يمكن حمل الحديث على ما أراده الشيعة لأجل ما قدمنا من البراهين .

وجه آخر في . وفي الحديث وجه آخر وهو أن يقال : لعل النبي عليه السلام قد قال ذلك الحديث قبل أن يعلم ويوحى إليه بأن طوائف من الأمة سوف يضلون ويشركون فيهلكون كما هلك من كانوا قبلهم . ولا مانع من هذا الوجه في الحديث ، فإن الدين ، بأعلامه ونصوصه ، لم ينزل مرة واحدة ولا جملة واحدة ، وإنما نزل تجموعاً مفرقة بمجموعها تم وكل وكان الدين الاسلامي . والأنبيا عليهم الصلاة والسلام إنما يعلمون بأعلام الله إياهم وبما يوحى إليهم . ووحى الله لا يأتي جملة واحدة وإنما يأتي تجموعاً مفرقاً .

وجه ثالث في الحديث . وفي الحديث وجه ثالث وهو أنه عليه السلام يريد بقوله هذا أن هلاك أمته وضياع دولتها ومجدها وتلاشي سلطاتها وملكها سيكون سببه القريب المباشر هو التنافس في الدنيا والتغالب عليها وعلى ملكها وما فيها من متع ولذات وشهوات ... وهذا هو ما كان وحدث ، وهذا هو ما أصاب المسلمين فأودى بملكهم ودولتهم وتل عروشهم القائمة الفخمة ، وطاح بمجدهم الشامخ الباذخ ، فهبطوا من أعلى الذرى والنوارب إلى أعماق الخضيض الأوهـد الدليل . . . فأصبحوا في الهالكين الغابرين ، وأصبحوا في هذه الضمة الشاملة المنكرة ، وصاروا نهبا مقسما بين حمان الأمم وذؤبانها .

فهذا البلاء الذي أصاب المسلمين يرجع كله مباشرة ، بسبب واحد أو بأسباب ذات عدد ، إلى التنافس في الدنيا والتغالب عليها والرغبة الحادة المجرمة الفاسقة فيها وفي ما بين ثناياها من بروق كاذبة خالصة : وكل ما اصطدم به الاسلام والمسلمون

من جهل ونقص أو ضعف أو ذلة وهوان ، مرجعه الرغبة في الدنيا والتقاتل عليها ولا جلها . فان هذه الرغبة في هذه الحبيبة الغادرة أجرى بين القوم عقارب العداوات والعداوات دفعتهم إلى خوض غمار الحروب المنيعة الطاحنة . فتحطم الفريقان : الظالم والمظلوم ، العزيز والدليل ، الغالب والمغلوب ، قتل الفريقان وضعفا . والضعف أبدا يلزمه الانحطاط والنقصان في المدارك والآداب والعلوم وكل أسباب الكمال والعظمة : فاذا ذلت أمة من الأمم ضعفت فقد جهلت وخرفت ونسيت ، ولا محالة ، مقوماتها الفاضلة الحية التي بها نالت ما حسنت عليه من مطارف الأبحاد وطرائف العلياء . . . فالضعف هو أول ما يصيب الأمة المظلة على الهاوية ثم يتبعه كل أسباب الفشل والتأخر والسقوط . فالجهل والشرك الذي هو وليد الجهل ، نتيجتان من نتائج الضعف الذي هو وليد انقسام الأمة والانقسام هو وليد التنافس والرغبة في الدنيا كما تقضى السلسلة الطبيعية . . . وإذن فأول هذه السلسلة ، الذي هو التنافس في الدنيا والحرص عليها هو الذي يخاف على الأمة ويخشى بأسه على بأسها . وإذن فالتنافس في الدنيا هو الذي خشية رسول الله على أمته وعلى سلطاتها ومجدها ، لان كل ماعداء من أفنان البلاء نتائج لازمة له . فالشرك الذي وقع من الأمة والذي سوف يقع هو إحدى نتائج التنافس في الدنيا ولا شك . فاذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها فتهلككم كما أهلكت الذين من قبلكم » لم تكن الخشية من التنافس على الدنيا فقط دون الخشية من نتائج هذا التنافس ولوازمه بل لابد أن تكون الخشية من التنافس ومن نتائجه الطبيعية اللازمة ، والتنافس على الدنيا لم يخش ولم يحذر إلا لأجل ماله من النتائج والآثار الحزيرة المنكرة . . . فقوله عليه السلام : « ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » معناه أي لا أخشى عليكم الشرك فقط ولكن أخشى الرغبة في الدنيا وفي الحياة والحرص عليها ،

وأخشى عليكم ما يتولد عن هذا كله من الشرك والكفر والجهل والانحطاط العام.
في العقول والمقائد وفي كل شئ . فالخشية لم ترفع عن الشرك لأنه لن يقع أبداً كلاً
وإنما رفعت عنه منفرداً مخصوصاً ، ولأنه لن يقع لولا وقوع الرغبة الباطلة في الحياة
الدنيا الباطلة . فالخشية من الشرك واقعة لزوماً لا تخصيصاً . . . وفي الحديث وجه
وجه رابع في رابع ، وهو أن يقال : إن الحديث لم يرد لبيان ماسوف يقع وما لن يقع مما يخشى
الحديث ويخاف على الامة ، وإنما ورد لبيان أعظم وأقرب ما سوف يهدم بمجد المسلمين
وينسف سلطانهم . والامة الاسلامية إنما نسف سلطانها وقوض دعائم مجدها
الخلافة على الدنيا والشع عليها ، حتى قاتل المسلم أخاه المسلم صبوة إليها . وهذا هو ما
أودى بالاسلام والمسلمين مباشرة ، وهذا أفضح ما أصابه وما أصابهم من أعاصير
القضاء . أما الشرك وتبديل الدين وغير ذلك مما انكفأ فيه المسلمون فقد انتشر
بينهم بعد ذلك بأزمان . ومثل هذا الاسلوب لهذا المعنى لا يدل على النفي الخالص
البات ، وإنما هو مثل أن يقول القائل : أنا لا أخشى على الاسلام والمسلمين الأعداء
وإنما أخشى على المسلمين المسلمين . وهو مثل أن يقال إنما داء المسلمين من
أنفسهم لأن أعدائهم ونحو ذلك من الاسلوب المألوف المعروف في هذا المعنى ،
وهو يشبه الحديث المشهور أعنى قوله ﷺ : « وسألت ربي ألا يسلب على أمتي
عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم فأعطاني ذلك » . والأعداء اليوم
مسلطون على الامة الاسلامية المحمدية أفضح تسليط ، مستبيحون لبيضتها في كل
مكان - إلا ما شاء الله . ومع هذا فالحديث صحيح الاسناد والمعنى لأن المراد منه
أن أعداء الاسلام والمسلمين لن ينالوا منه ولا منهم ابتداء حتى يكون المسلمون هم
الذين يمكنون لهم من أنفسهم ومن دينهم وبلادهم . وهذا كما جاء في روايات
الحديث أن الله قد قال في الخبر القدسي لنبيه : « ولا أسلط عليهم (أى على
المسلمين) عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من

بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبى بعضهم بعضا . ولا يراد بالنفي هنا النفي الخالص البات ، وإنما يراد تفضيل أمر على أمر في القدر والمقام . فالتنافس في الدنيا سوف يكون أسبق إلى تحطيم الأمة الإسلامية من الشرك ومن الكفر ، اللذين هما ، ولا محالة ، واقمان من طوائف المسلمين ، ولهذا خشى على الأمة وحدث عنه بالإنذار والتحذير قبل سواه . فالحديث لا يدل يقيناً على أن الشرك لن يقع من المسلمين .

وأما الحديث الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب » إلى آخر رواياته فالجواب أن يقال : الشيطان من قد روى الحديث عن جماعة من الصحابة بطرق ولكن لا يخلو طريق من كلام أن يعبد في ونقد . وقد بين ذلك الخلفاء المشيقي في مجمع الزوائد . والحديث له ألفاظ بعضها جزيرة العرب يقول : « إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون » وبعضها يقول : « لقد برأ لله هذه الجزيرة من الشرك ما لم تضلهم النجوم » . وبعضها يقول : « إن الشيطان أيس أن يعبد في بلدكم هذا » وبعضها يقول : « إن الشياطين أيسن » ولكن كل ذلك لا يخلو سنده من النقد والكلام . فالخبر لا يبلغ درجة الصحيح الذي يحتاج به في مثل هذه المطالب وهذه الخلافات إن صح أن في هذا خلافاً .

ثم يقال ثانياً : هذا الحديث إذا فرض في غاية الصحة والقوة لا يصح أن يكون دليلاً على ما أراده الشيعة الظالم . وذلك أنه قد قيل فيه : إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب . ولكن ليست الحججة في أن يمتلئ الشيطان يأساً وقنوطاً ، وإنما الحججة في أن يقول الصادق المصدوق : إن الشيطان لن يعبد في بلاد العرب . أو لن يعبد المصلون أو نحو هذا . وذلك أنه يجوز أن يرى الشيطان من قوة الاسلام وسطوته ومن سلطانه ومن علو التوحيد وخللان الشرك في تلك الأجيان المختارة ما يملأ نفسه يأساً وقنوطاً من أن تعود للشرك والكفر

في تلك الديار والأقطار دولة أو سلطان ، أو أن يحل للإسلام والتوحيد هناك بناء ، هذا يجوز ، ولكن يجوز أيضا معه أن يكون الشيطان غالطا في يأسه وقنوطه ، غير عالم بما جبلت عليه النفوس من الخنين إلى الاشرار والتعديد ، وما جبلت عليه من العراقة والأصالة في الوثنية والجهالات ... فيخلف الانسان ظنه ويحقق طلبه فيعبد الشرك في تلك الربوع المطهرة ، ويبعث الوثنية بعد الموت والشنات ، فيحى أمل الشيطان ثانيا فيرجع له زهوه ورضاه وسروره فيطمئن على دولة الأصنام والأوثان ويجلس على عرشها مزهوا فخورا . . . هذا كله يجوز ولا ريب . وعليه لا يبقى للشيعي فيه ريس من حجة ، ولا وميض من نور وهدى لأننا نقول له : سلمنا أن الشيطان قد أيس حقيقة من أن يعبد غير الله في بلاد العرب وفي غيرها من البلدان الاسلامية ، ولكن كيف تستطيع أن تقيم الحجة على أن الشيطان ما أيس من ذلك إلا لأنه لن يقع ولن يكون ؟ ولماذا لا يكون الشيطان غالطا واهما جاهلا في يأسه وقنوطه ؟ ولماذا لا يكون يأسه الغالط قد جاء ، لما رأى من وثبات الاسلام وفعالاته ، فلما ان اختفت هذه الوثبات والفعالات عاد إليه رجاؤه وأمله في غلبة الشرك والكفر والهلاك في الأرض وعلى البشر ؟ اننا إذا قلنا له هذا ، وهذا هو ما نقول ، فلن يظفر بجواب صحيح مقبول .

جواب آخر ثم نقول ثالثا : إن الحديث يقول : إن الشيطان أيس أن يعبد . وظاهر ن الحديث لفظه أنه أيس من أن يعبد هو نفسه لامن أن يعبد غيره من المخلوقات كالأنبياء والملائكة والصالحين والأحجار والأشجار . وإذا كان ذلك كذلك قلنا لهذا الشيعي : إن مخالفك لم يزعموا أن الشيطان عبد نفسه في جزيرة العرب ، ولم يزعموا أن أحدا وجه إليه عبادته مباشرة وكفاحا . لم يزعموا هذا وإنما زعموا أن جماهير المسلمين عبدوا كثيرا من الانبياء والصالحين ومن خالوهم صالحين وليسوا كذلك في واقع أمرهم . والحديث لا يدل في ظاهره على بطلان ما ذهبوا

إليه ، وإنما يدل على أنه لن يعبد هو عند نفسه . ومخالفو الشيعة لم يزعموا أنه عبد هو نفسه وإنما أطيع في عبادة بعض المخلوقات ، وقد تضاف إليه هذه العبادة ولكنها إضافة مجازية غير حقيقية والعلاقة في الإضافة كونه هو الأمر بها . وحقيقة عبادة الشيطان نفسه أن توجه إليه العبادة كفاحاً مباشرة . وهذا لم يزعم خصوم الشيعة أن الناس وصلوا إليه في جزيرة العرب . فلا يستطيع المخالف أن يأخذ من الحديث شيئاً .

اعتراض
وجوابه

فإن قيل هذا الوجه في الحديث صحيح لولا أنه لم يمد أن العرب المشركين في جاهليتهم كانوا يعبدون الشيطان نفسه ، وإنما عهد أنهم أطاعوه في عبادة الأصنام والأوثان التي عبدوها في الجاهلية وفي دولة الشرك والضلال. والحديث يجب أن يوجه معناه ، نفياً وإثباتاً ، إلى ما عهد وعلم لا إلى ما لم يمد وما لم يعلم ، فيجب أن يقال : إن هذه العبادة التي أيس الشيطان منها هي العبادة التي كان أهل الجاهلية يقدمونها إليه وهي طاعته في عبادة غيره من المخلوقات ناطقها ووصامتها . فالحديث بهذا يدل على أنه لن يعبد غير الله في جزيرة العرب . وهذا هو قول الشيعة وغرضه واحتجاجه : إن قيل هذا ، وكان صحيحاً أن الشيطان لم يعبد حقيقة في بلاد العرب ، وهذا من المشكوك فيه لدينا ، قلنا في جوابه : لا مانع من أن الشيطان كان يسعى جهده لايقاع المشركين ، عبدة الأصنام والأوثان ، في عبادته نفسه ، وأنه كان يأمل أن يعبدوه حقيقة مباشرة كما كانوا يعبدون الأحجار والأشجار والإنسان والحيوان وغير ذلك من أصناف المعبودات ، وأنه كان عظيم الرجاء في أن يصل إلى هذه الغاية الشيطانية العظيمة ، وأنه كان يرى في كل وقت تباشير نجاح ذلك الرجاء بما ينساق إليه المشركون الضالون من أشنت النوايات والجهالات — والشيطان كما علم وعرف لا يقنع من عابديه ومطيعيه بشيء ، ولا يقف بهم عند غاية من غايات الضلال والخزي . : نعم

لامانع من ذلك كله ، ثم لامانع من أن يكون انتشار الاسلام هناك وتوثبه قد قطع على الشيطان رجاءه هذا ، وأفسد عليه أمنيته هذه ، وحال بينه وبين ذلك الأمل اللذيذ البسام ، وأراه الاسلام وارتفاع شأنه أنه قد ظن باطلا ورجا ما لن يكون أبدا ، فاققلب ذلك الرجاء يأسا والأمل قنوطاً والسعى خيبة . فأعلن يأسه . وباح بفلاسه ونادى بويله وبثوره . فأعلن رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الحقيقة وقال : إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب . فقام علما من أعلام النبوة الخاتمة . بهذا كله لامانع منه وهو يفسد هذا الاعتراض .

معنى عبادة
الاصنام

غير أنه يقال : إن هذا الجواب لا يصح إلا في رواية « إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب » أما الرواية الأخرى القائلة : « إن الشيطان أيس أن تعبد الأصنام في جزيرة العرب » . فلا يستقيم لها هذا الجواب الأخير ، ولكن يقال إن هذه الرواية جواباً آخر يخصها ، ذلك اتنا نقول : « إن عبادة الأصنام » لا يراد بها مطلق الشرك ولا مطلق عبادة غير الله ، وإنما يراد بها الرجوع إل الوثنية الخالصة ، والجاهلية الأولى المتجردة من الكتاب . ومن النبوة الخاصة كحال مشركي العرب وغيرهم من عبدة الاصنام والوثان . ولهذا فانه لا يقال : إن اليهود والنصارى من « عبدة الاصنام » ، ولا يصدق عليهم هذا الاسم ، مع أنهم في حقيقتهم مشركون يعبدون غير الله ، ويعبدون الأبحار والرهبان ، ويعبدون عيسى ومريم وعزيراً . والمؤلفون في الملل والنحل لا يمدونهم في عبدة الاصنام بل يضعون لهم باباً خاصاً بهم كما فعل الشهرستاني . وغيره من المؤلفين في الملل والنحل .

فقوله ﷺ . « إن الشيطان قد أيس أن تعبد الاصنام في جزيرة العرب » معناه على ما ذكرنا أن الشيطان قد أيس من أن يرجع العرب إلى حالهم الوثنية الأولى الخالصة ، فينكروا كتابهم ، وينكروا نبيهم ، ورجعوا إلى عبادة الاصنام

ن التماثيل والجثث المنحوتة من الذهب والفضة والنحاس ، ونحو ذلك كما هو
لاصل في معنى « الأصنام » على ما ذكره الراغب في غريب القرآن ، وغير
لراغب . وهذا صحيح لانزاع فيه . فان الذى وقع فيه العرب من المسلمين هو
لغلو فى الصالحين من الانبياء وغيرهم إلى حد العبادة والتأليه ، وإلى حد أن
عطوهم حق الله الخالص كما فعل ذلك أهل الكتابين : اليهود والنصارى . ولهذا
لما قال رسول الله فى الحديث الصحيح السابق : « لتبعن سنن من كان قبلكم
حنوا القنة بالقنة » وقالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن القوم
إلهم ؟ » فالمسلمون فعلوا ما فعله أهل الكتاب قبلهم من الغلو فى الانبياء والصالحين
وغير الصالحين أيضا . وقد كان النبی علیه السلام يحذر أمته الوقوع فيما وقع فيه
اليهود والنصارى ويقول كثيرا : إنهم فعلوا كيت وكيت ، يحذر فعلهم : ويقول :
افتقرت اليهود والنصارى على كذا وكذا فرقة وستفترق أمتى على كذا وكذا
فرقة ، ويقول : لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، إنما أنا عبد
فقولوا : عبد الله ورسوله . وهناك فرق معلوم معروف بين أهل الكتاب : اليهود
والنصارى ، وبين عبدة الاصنام والأوثان فى الحقيقة والحكم وفى الشريعة
الإسلامية . وقد فرق بين الفريقين بأشياء عديدة ، فأهل الكتاب يجوز الزواج
منهم ويحل طعامهم وذبايحهم وتقبل منهم الجزية ، وعبدة الاصنام يحكم عليهم
بمخالفة ذلك . والتفريق بينهما فى الأحكام راجع إلى الفرق بينهما فى الحقيقة .
فالعرب بهذا الحديث لا يرجعون إلى الوثنية المعروفة الصريحة ، ولا إلى
عبادة الأصنام بالمعنى المتبادر المفهوم ، وإنما يقعون فى الغلو الاشنع فى أنبيائهم
وصالحهم وعبادهم وفيما يتصل بهم من القبور والآثار ، وهذا هو ما كان ، والله
المستعان .

أجوبة أخرى

وفى الحديث أجوبة أخرى غير ما ذكرنا ، كأن يقال مثلا : المراد أن فى الحديث

الشیطان قد أیس من أن یعبد أو تعبد الاصلنام فی بلاد العرب فی کل وقت وزمان ، فهذا لن یکون إن شاء الله . وقد یشهد لهذا لفظه « أبداً » المذكورة فی الروایة التي ذکرها الشیعی . وكأن یشهد أيضاً : إنه أیس من أن یعبد فی ذلك العصر الذی هبط فی الاسلام علی العرب وعلی بلادهم . ویکون المعنی إن الشیطان کان إذ ذاک یصارع الدعوة المحمدیة محاولاً کبتها وخنقها ، وكان یرجو الظفر بها والنیل منها والقضاء علیها قبل اکتمالها وانتشارها . فصار حفظه القلب والمزیمة ، فصرعه الاسلام وصرع حیلتة وکیده فأیس من النجاح فأعلن الافلاس . علی أن هذا الحدیث بلاریب فی امتداح للعرب ظاهر وامتداح لبلادهم عام . فیه امتداح ضمناً للدعوة السلفیة التي یسمونها بالوهابیة إذ هی دعوة عربیة إسلامیة خالصة ، ظهرت وعزت ، وانتشرت فی بلاد العرب وفی الجزیرة العربیة . فالبلاد التي أنبتتها عربیة ، والرجال الذین قاموا بنصرتها وتأييدها وإعلاء شأنها عرب . . . فالحدیث اذن منطوق علی امتداحها والثناء علیها من هذا السبیل . ولا یکون مادحها ذامها فی وقت واحد من وجه واحد . هذا وجه وجهه بلاریب . وعلی کل حال لا یمکن أن یدعی أنه لن یعبد غیر الله فی بلاد العرب فی وقت من الأوقات ، فان هذا باطل کاذب بالإجماع والضرورة والنصوص المتواترة وقد کان فی بلاد العرب یهود ونصارى وهم یعبدون غیر الله حیثما قال رسول الله هذا الحدیث إن صح أنه قاله . ولی الیوم یوجدون فی بلاد الیمین وغیر الیمین من بلاد العرب . وقد ارتد بعض العرب بعد موت النبی علیه السلام فقاتلهم الصدیق والصحابة رضوان الله علیهم أجمعین . کیف والشیعة یزعمون أن خیار الصحابة وکبارهم ارتدوا وکفروا بعد موت نبيهم . وفریق منهم یزعمون أنهم ما زالوا کافرین مرتدین مضمهرین لکفرهم ونفاقهم ، ویزعمون أن خلفاء بنی أمیة وبنی العباس کانوا ملحدین زنادقة کما تقدم النقل عنهم ؟ ثم کیف وهم یزعمون أن

الخوارج وغيرهم ممن قاتلوا علياً كانوا من شر الكفار، وقد كانوا، أو كانت طوائف منهم في بلاد العرب ؟ بل كيف وفي الناس في كل زمن من يعبد المرأة وفيهم من يعبد المال ، وفيهم من يعبد الشرف والجاه ، وفيهم من يعبد نفسه ، وفيهم من يعبد هواه ، وفيهم من يعبد غير ذلك من صنوف المعبودات الباطلة . . . كل هذا ينادى بفشل هذه الحجة وفسادها ويأتي بها في الحضيض الأسفل .

وأما الحديث الذي ذكر الشيعة أن صاحب النهاية ذكره وهو قوله عليه السلام « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » فهو حديث صحيح رواه الامامان البخاري ومسلم ، ولكن ما أبعد ما بينه وما بين حجة الشيعة وشبهته ، فإن هذا الحديث قد يكون رداً يبنياً عليه ، وذلك أن معناه أن الإيمان يلجأ ويندفع إلى المدينة حينما يطارد ويشرد من كل مكان . ومعلوم أن الوهابيين قد فتحوا الحجاز وفتحوا المدينة المنورة ، وطهروا من أوضاع الضالين والظالمين والمبتدعين وأقاموا فيه سوق الصلاح والإيمان والسنة أزماناً طويلة بعد تلاشي ذلك كله . . فلماذا لا يكون هذا الإيمان الذي يأرز إلى المدينة هو هذا الإيمان الملتبب المتقد الذي يسميه هؤلاء وهابية متطرفة مشددة ؟ هذا مالا يستطيع الرافضي دفعه بالحجة ، ونحن لو ذهبنا إليه وقتلناه لما قلنا قولاً منكراً باطلاً وعلى كل حال فالحديث لم يقل إن المدينة لن يقع فيها نوع من أنواع الشرك والضلال في وقت من الأوقات حتى يكون للشيعة فيه مستمسك إذ قد يأرز إليها الإيمان حيناً دون حين كما هو ظاهر الحديث ، وقد يأرز إليها مع وجود غيره فيها فيجتمع فيها الإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والسنة والبدعة في عصر واحد وقد قال تعالى : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم » وقد كانت في زمن النبي عليه السلام مستقراً لجماعة من كبار المناققين خصوم الاسلام والمسلمين وخصوم النبي الكريم ، ومع هذا يقول النبي عليه السلام إن الإيمان ليأرز إلى

المدينة . أولسنا قد قدمنا أن أحد أئمة الشيعة ، على قول كتبهم ، سئل عن سكنى المدينة فنهى عن ذلك وقال : « أهل المدينة أخبث من أهل مكة سبعين ضعفا » فهذا الحديث على الشيعة لاله . وهكذا نجد أغلب حجج الرجل لاعقل ولا علم ولا عدل .

﴿ الباب الثانى من كتاب الرافضى ﴾

قال الرافضى : « الباب الثانى فى ذكر معتقدات الوهابية التى كفروا بها المسلمين وحججهم على ذلك وردھا على وجه العموم ناقلين لها من كتبهم الموضوعة المشهورة » .

وهذا الباب خلاصة للباب الثالث الآتى بعد هذا كما سوف يجرى وكما سوف يجرى النقض عليه إن شاء الله . وهو فى هذا الباب لم يأت بمسألة خاصة من مسائل التزاع وإنما نقل جملا من كتب مخالفيه فرد عليها بقدر علمه وهواه . ونحن هنا نورد ما فى هذا الباب من الأخطاء الكبرى مجملين الرد إجمالاً ثم نلتقل إلى الباب الثالث مفصلين القول تفصيلاً .

﴿ بماذا كان المشركون مشركين ؟ ﴾

ذكر الرافضى فى أول هذا الباب قول إمام الطائفة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إن المشركين الذين قاتلهم رسول الله كانوا مقرين بأن الله هو الخالق الرازق المدبر ولم يدخلهم ذلك فى الإسلام لأنهم كانوا مشركين فى العبادة . فقال الشيعى ردّاً عليه ما خلاصته : « إن ذلك لم يدخلهم فى الإسلام لأنهم كانوا مكذبين للرسول . منكرين بجميع شرائعه قاذبين فيه دائنين بدين الجاهلية . . .

« فكيف يقاس بهم المسلمون المتوسلون المؤمنون بجميع ما جاء به النبي ﷺ . . . هذا خلاصة الرد وخلاصة الفرق بين الفريقين لدى الشيعة .

والجواب أن يقال إذا ما كان القوم الذين بعث فيهم النبي من المشركين والكافرين من العرب وغير العرب إنما كانوا غير مسلمين لأنهم كذبوا الرسول وقدموا فيه وردوا ما جاءهم به فإذا يقول فيهم قبل ابتعث الرسول وقبل أن ينكروا ما جاءهم به ، وقبل أن يكذبوه لأنهم ما كذبوه ولا قدموا فيه إلا بعد ابتعائهم إليهم ؟ أيقول إنهم كانوا مسلمين وكانوا مؤمنين وموحدين ، وكانوا غير كافرين وغير مشركين ، وكانوا ناجين مرضيين ، ويقول : إن النعمة والغضب والسخط لم تنزل بهم إلا بعد ابتعث النبي فيهم ، ويقول إنهم لم يكونوا مشركين ولا كافرين أو ضالين إلا بعد أن جاءهم كتاب الله بحمله رسول الله ﷺ إن ما قاله هنا يقضى بأن يكون الجواب على هذه الأسئلة هو « نعم » ولكن هذا باطل بالاجماع والضرورة والبداية . فان المسلمين لا يختلفون في أن العرب الذين ابتعث فيهم محمد عليه السلام كانوا مشركين وكافرين وضالين قبل أن يبتعث ، وأنه عليه السلام إنما بعث لإخراجهم من تلك الظلمات : ظلمات الشرك والكفر والانحطاط الاعتقادي العقلي الشليخ ، وأنهم ما كذبوه ولا نازعوه ولا ردوا ما جاءهم به إلا لأنه خلاف ما كانوا عليه وخلاف ما كان عليه الآباء والجدود والسادة والاشراف ولهذا كانوا يقولون لما جاءهم بخلاف ما عرفوا وورثوا ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ الآية ، وكان يقول لهم : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجوا وتدن لكم العرب وتؤد إليكم المعجم الجزية . فكانوا ينكرون ذلك ويبحدون ويعجبون منه ، لأنه غريب بينهم مجهول لديهم . وكانت الدعوة الحمديد قائمة على أن أولئك الناس قد أشركوا بخالقهم وعبدوا المخلوقين العاجزين الضعفاء . فوجب إخراجهم من هذا نقصان ، وهذه الورطة الاعتقادية المنكرة ، وهذا الضعف العقلي الفظيخ ، وكانوا هم لا يرضون هذا ولا ينعمون به عينا ، ولا يقبلون النبوة هذه التي تريد منهم أن يفارقوا ما وجدوا عليه الآباء والجدود ، وما وجدوا عليه

الكبراء والاشراف الأقدمين الذين هم زين العشيرة ، وعماد القبيلة وكانوا يقولون
« أنزل عليه الذكر من بيننا » . ولهذا فانهم لو آمنوا بالرسول وبالكتاب.
وبالاسلام ثم بقوا على ما كانوا عليه من عبادة غير الله لما خرجوا بذلك عن الشرك.
والكفر ، ولما كانوا مسلمين ولا مؤمنين . وهذا لاختلاف فيه وهو يكشف غلط
الشيعى ويفضحه

وتحقيق هذا أن أهل العلم قالوا : إن المشركين كانوا مقرين بأن الله هو
الخالق لخالق غيره ، وهو المدبر لجميع الأمور لمدبر غيره ، ومع هذا لم يكونوا
مسلمين ولا مؤمنين لأنهم كانوا يعبدون الأصنام ، وكانوا يشركون بالله : فجاء
هذا الشيعى ورد على هؤلاء بأن قال : نعم إن أولئك المشركين المقرين لله
بالربوبية لم يكونوا بذلك الاقرار مسلمين ولا ناجين لأنهم كانوا مكذبين للنبي.
وقاد حين فيه ورادين ما جاءهم به . . . فرددنا نحن عليه بأن قلنا : لو كان هذا
حقا لكانوا قبل مجىء الرسول إليهم وقبل تكذيبهم إياه مؤمنين مسلمين.
مهتدين . لأن تكذيبهم الرسول وقصمهم فيه وردم ما جاءهم به - وذلك هو
موجب كفرهم وإشراكهم فيما زعموا - لم يكن إلا بعد البعثة والدعوة النبوية، وبعد
أن أعلن دعوتهم ومجاهرتهم بالتضليل والتجهيل . وقلنا أيضا رداً على الشيعى :
لو كان هذا حقاً لكانوا مسلمين مؤمنين ناجين لو أنهم آمنوا بالنبي وما جاءهم به.
ثم ظلوا بعد هذا الايمان على ما كانوا عليه من العقائد الخرفاء . وقلنا : لو كان هذا
حقاً لم يدعهم الرسول الكريم إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده ، وإلى أن
يقولوا لا إله إلا الله لا شريك له ، بل لاقتصر على دعوتهم إلى الايمان والتصديق
بما جاء به . وقلنا أيضا : إن المشركين لم يأبوا دعوة الاسلام في الأثر ويدرؤوها
إلا لأنها كانت تطالبهم بأن يتركوا معتقداتهم التى ورثوها عن الأسلاف ، ولو
أنها لم تطالبهم بذلك، بل كانت تريد إقراهم على ما كانوا عليه، لما لجأوا هذا العجلاج

في عنادها وإيائها ومطاردتها . ولكن الله جل شأنه إنما بعث رسوله ، وبعث سائر رسله لأجل الدعوة إلى عبادته وتوحيده وإفراده بكل معاني العبودية كما قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » وذكر الكتاب الكريم في قصص الأنبياء والمرسلين أن كل رسول كان يبادىء قومه بقوله : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . فالأنبياء بعثوا لدعوة الخلق إلى الهدى الذى تركوه وجانبوه ، ولأخراجهم من الظلمات التى أركسوا فيها ، لا لأجل دعوتهم إلى الإيمان بهم فقط . ولو أن الناس كانوا مهتدين راشدين قبل مجىء النبيين لما كانت هنالك ضرورة إلى إرسال الرسل وانزال الكتب . .

فالمشركون الذين قاتلهم الرسول عليه السلام وقتلوه ، وطاردوه وطاردوه كانوا قبله ضالين مشركين هالكين كما قال تعالى في الفريق الذى آمن منهم : « وكنتم على شفا جفرة من النار فأنقذكم منها » ولو أنهم آمنوا به عليه السلام وبكل ما جاءهم به ، ولكنهم بقوا على عقائدهم الأولى ، لما كانوا بذلك مسلمين بلا ريب . فكيف يزعم الشيعة أن المشركين كانوا مشركين وغير مؤمنين لا لشيء إلا لأنهم كذبوا الرسول وقسحوا فيه وعابوه وعاندوه ؟ بل هم كفرون مشركون لعبادتهم غير الله من المخلوقين الضعفاء . وقد كذبوا الأنبياء وردوا ما جاءهم به لأنهم يدعونهم إلى النزوع عن عقائد ورثوها وألفوها يمز عليها النزوع عنها والفراق لها . فإذا يقول هذا المؤلف أم أين يفر ويهرب ؟

وإتنا نعيد هذه المعاني بعبارة الأسئلة أيضا وزيادة بيان فيقول لهذا المصنف : بماذا كان العرب الجاهليون مشركين كافرين ؟ فان قال بما كذبهم الرسول وردهم ما جاء به ، قيل له : كلا ، لانه لو كان هذا هو موجب كفرهم وإشراكهم لكانوا قبل مجىء الرسول غير مشركين وغير كافرين ، لأنهم قبل مجيئه لم يكذبوه يفتينا ، ولأنهم لو آمنوا به وظلوا على عقائدهم لكانوا أيضا مشركين كافرين بلا

خلاف بين الناس . . . وإن قال . إنهم كانوا كافرين مشركين لانكارهم البعث والحياة الآخروية ، قيل له أيضا : كلا ، لأنه لاخلاف في أنهم كانوا مشركين كافرين فوق انكارهم البعث والحياة الأخرى ، ولأنهم لو آمنوا بالبعث بل وبكل ما جاءهم به الرسول ثم لم ينزعوا عن أعمالهم وعقائدهم ما كانوا مسلمين ولا مؤمنين يقينا . وإن قال : إنهم كانوا مشركين لأنهم كانوا منكرين لله ، أو لأنهم كانوا يرون معه شركاء في الخلق والقسم والبقاء ، قيل له : كلا ، لأنهم كانوا مؤمنين بالله وبأنه خالق كل شيء وبأن بيده الأمور كلها ، والدليل على ذلك الآيات المتكاثرة الصريحة القائلة : إنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض ، ومن خلق كل شيء ومن بيده كل شيء . . . يقولون : ذلك هو الله وحده لا شريك له . والمخالف معترف بهذا مقربا ، فليس محل خلاف بينه وبين مخالفه ، ولأنه لاخلاف أيضا بين المسلمين في أنهم لو أقروا بذلك كله إلا أنهم بقوا على عقائدهم ما كانوا مسلمين ولا ناجين . فهذا لا يصح جوابا مطلقا .

وإن قال : إنهم كانوا مشركين لأنهم عبدوا غير الله ، ولأنهم عبدوا الأصنام والأوثان ، قيل هذا هو سر المسألة ومضطرب الأذهان فيها . فما كانت عبادتهم للأصنام والأوثان ، وما هي الأصنام والأوثان ؟ وفي الجواب على هذين السؤالين جواب كاف عن جوهر المسألة وسرها . ولا مفر من أن يقول : إن عبادتهم الأصنام هي سجودهم وركوعهم ونذرهم وذبحهم لها ، وهي أيضا خشيتهم ودعاؤهم وخوفهم ورجاؤهم إياها ، واقطاعهم إليها وما يصاقب هذه المعاني . فإذا قال ذلك قلنا له : انتهى إذن كل شيء في المسألة ، وبهذا رجع إلينا كرها أو طوعا ، وقال بقولنا اختيارا أو اضطرارا . فالتأنيب نزع أن هذه الأمور هي العبادة بصورها ومعانيها ، ونزعم أن كثيرا من المدعين للإسلام يفعلون ذلك كله فوق أضربة الأموات لا ينقصون منه شيئا إن لم تقل إنهم يزيدون عليه كثيرا . وبهذا

انحلت المسألة وانكشف غطاؤها . . . ثم لا مفر من أن يقول : إن الأصنام والأوثان هي كل ما عبد من دون الله إما حقيقة وإما حكما ومعنى فقط ، ولا مفر من أن يقول إن عبادة الأنبياء والأولياء والصالحين والأئمة لا تجوز كما أن عبادة الأحجار والأشجار والأصنام والأوثان لا تجوز ، وأن عبادة الصالح كفر بالله كما أن عبادة الحجر والصنم كفر كذلك ، لأننا لا نعلم خلافا في أن عبادة غير الله شرك بالله سواء أكان المعبود أقرب الخلق إلى الله أم كان أبعدهم عنه . وهذه حقائق في معزل عن الخلاف .

﴿ هل كان العرب المشركون ينكرون الله ﴾

﴿ أو يقولون إن الأصنام تضر وتنفع ؟ ﴾

يقول الشيعة في هذا الباب : « إنه لا شيء يدلنا على أنهم (أى مشركى عبيدة العرب) لا يعتقدون في الأصنام ومعبوداتهم من الجن والانس والملائكة أنه لا تأثير لها في الكون ، وأن التأثير لله وحده ، إذ يجوز أن يعتقدوا أن لها تأثيرا بنفسها ، فتشفى المرضى ، وتنصر على الأعداء ، وتكشف الضرر وغير ذلك ، وأنها تشفع عند الله حتما ولا يرد شفاعتها ، أو أن الله جعل لها قسطا من التأثير أو كله إليها ، بل ظاهر الآيات هو ذلك مثل قوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » . بل ظاهر قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » أنهم كانوا يسجدون لغير الأصنام ، ولا يعتقدون إلها غيرها ، وظاهر قوله عن أهل جهنم « فأن الله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . . » اعتقادهم أنها مساوية لله وإن لم يكن من جميع الوجوه ، وذلك كاف في الشرك والكفر ، وذلك أيضا ظاهر جميع الآيات الدالة على اتخاذهم إلها من دون الله وشركاء لله

ونحو ذلك مثل « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا » « أجعل الآلهة إلهاً واحداً »
 ومنهم من كان ينكر الله وينكر البعث ، وهم الذين قالوا كما حكى الله عنهم : « ما هي
 إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » انتهى كلام الرافضى .
 المشركون لم والجواب أن يقال لا ريب أن المشركين من العرب كانوا مؤمنين بأن الله
 ينكروا الله ولم وحده هو الخالق لكل شئ ، وهو المدبر لكل أمر ، وهو القاضى على كل شئ ،
 ينكروا ربوبيته وهو المجير على كل كائن فى السماء وفى الأرض ، ويؤمنين بأن أصنامهم مخلوقة لله
 لكل شئ نافذ فيها قضاءه وحكمه وأمره ، راجعة إليه خلقاً وحكماً وبداية ونهاية ، خاضعة له
 خضوع العبيد الأرقاء الأذلاء ، لا تستطيع عما شاءه وأرادها لها خروجاً ولا مفراً .
 والدلائل على ذلك متضاربة متكاثرة ، والقرآن بجملة دال عليه ضروب الدلالات
 وقد نص فى غير ما آية على أنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض ، ومن خلق
 كل شئ يقولون ذلك هو الله وحده كما قال تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات
 والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر
 هل من كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل من ممسكات رحمته ، قل حسبي الله
 عليه يتوكل المتوكلون » وقال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم
 من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى
 ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » وقال « قل لمن الأرض ومن
 فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات
 السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من يده ملكوت
 كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى
 تسحرون » إلى غير ذلك من الآيات البينات الدالات على أنهم مؤمنون بالله
 وبأنه القابض على كل شئ ، القاضى على كل موجود ، الآخذ برباطية كل
 شئ ، ليس وراءه مذهب ، ولا عنه مهرب ، ولا إلى سواء منقلب ، لا إله إلا هو

الحق وما سواه الباطل ، الباقي وما سواه الفاني . . . وليس بعد هذه الآيات
الواضحة بيان لمن أراد البيان ، وبرهان لمن طلب البرهان ، وإيمان لمن شاء
الإيمان . . .

هذا ضرب من ضروب دلالات القرآن على إيمان المشركين بالله . وقد نص
توحيد المشركين في حالة الشك
أيضاً على أنهم كانوا يدعون كل من سوى الله ، ويسمون إليه سبعاينه وحده برغباتهم
وذهباتهم ، ويمجدون إليه المفرز والمفرز ، والمفرز ولا مفرز إلا هو عز شأنه
وتمتلى سلطانه وعظم جده . وهذا في غير ما آية قال تعالى : « فاذا ركبوا في
الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » وقال :
« وإفلا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » وقال تعالى « قل أرايتكم
إن أناكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل
إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتلسون ما تشركون » . وما انقطعوا
إلى الله وحده ولا رغبوا عن كل من سواه في تلك الساعات إلا لأنهم يعلمون أن
كل شيء إليه يصير ، وأن كل من دونه باطل حقير ، وأن كل عزيز لديه ذليل ،
وكل كبير لدى كبريائه صغير . فالله أكبر كلمة وسعت كل شيء ولكن لم يسعها
شيء ، كلمة آمن بها المؤمن والكافر ، ونطق بها الناطق والصامت بلسانه أو كيانه
وبليانه ، فالله أكبر . ولو كان أولئك المشركون الكافرون يعتقدون ، على
ما يقول الشيعي ، أن الله جعل لتلك الأصنام والأوثان بعض التأثير أو كله ، أو
يعتقدون أنها تنفع وتضر وتشفي المرضى وتنصر على الأعداء وتزيل البلاء ،
وأنها تشفع لديه حتما فيقبل شفاعتها حتما ، أو لو أنهم كانوا ينكرون الله : أقول
نوا أن المشركين كانوا يعتقدون ذلك للأصنام والأوثان لما نسوها في شدتهم
وضرائهم ، بل لتعلقوا بها حيثئذ أعظم التعلق ، ولكنهم أعرضوا عنها لأنهم

يملكون عجزها وهوانها عند ما يغضب الله ، وعند ما يريد أن ينزل بعض عذابه وعقابه على بعض العصاة من خلقه .

أحتجاجهم
بمشيئة الله
وقد نص القرآن أيضاً في غير ما آية على أن المشركين كانوا يحنجون لكفرهم وشركهم بمشيئة الله كما قال الله « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم » وقال : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء » وقال : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ »

فهم يحنجون لمعاصيهم وخطاياهم وشركهم وكفرهم بإرادة الله ومشيئته ، ويرعون أن الله هو الذي ألجأهم واضطرم إلى ذلك ، فأتوه مكرهين ، فهو يريد منهم ما يعاملون ويرضاه وإلا لحجزهم عنه وحال بينهم وبينه ، لأنه المتصرف المطلق ، والفاعل المطلق ، الكائن ما يريد ويشاؤه لا ما يشاؤه ويريد غيره من الخلق والأصنام والأوثان والمعبودات الأخرى ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه . أما الأصنام والأوثان ، أما كل ما دون الله فذلك كله لله يصرفه كما يشاء تصرفه قهر وملك واضطرار . فهو وعابده في الخضوع له سواء . ولا أدل من هذا على أن القوم مؤمنون بالله ومؤمنون بأن كل شيء يدين له بالعبودية الخالصة من جميع أطرافها .

الاصنام شائعة
فقط
وقد نص القرآن أيضاً على أنهم كانوا يريدون من أصنامهم ومعبوداتهم أن تقر بهم إلى الله زلفى ، وأن تقوم لهم لديه تعالى مقام الشفعاء ، لأنه هو خاتمتهم وخاية كل شيء ، ولأنه هو الذي يعطي ويمنع ، أما الآلهة والاصنام فتدعو وتشفع . ومقام الداعي الشافع غير مقام المدعو المشفع ، ومقام الوسيلة غير مقام الغاية : فالله عند القوم هو المشفع والغاية ، والاصنام والمعبودات الأخرى هي الشافعة

والوسيلة . قال الله تعالى : « يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، أى إنهم يقولون فى توجيه عبادتهم للأصنام ذلك . فهل هذه الأقوال ، يقوم ، أقوال من ينكرون الله ، أو من يرون للأصنام التأثير كله أو بعضه أو من يقولون إنها مساوية لله وإنها مثله ، أم هى أقوال قوم يؤمنون بالله ويعترفون له بكل معنى من معانى الربوبية والقوة ؟ وليفكر فى هذا أولو الألباب خالصين من عقايل الأهواء وأدران الجهالات

إيمان المركبة
وشركهم

وقال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » . قال السلف والمفسرون : معنى ذلك أنهم يؤمنون بأن الله خالقهم ورازقهم وخالق كل شئ من علوى وسفلى ومع هذا يعبدون غيره تعالى . قال ابن جرير فى تفسير الآية : « يقول تعالى وما يقرأ كثر هؤلاء الذين وصف صفتهم بقوله : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » بالله أنه خالقهم ورازقهم وخالق كل شئ إلا وهم به مشركون فى عبادتهم الأصنام والأوثان واتخاذهم من دونه أرباباً وزعمهم أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون » . ثم روى عن عبد الله بن عباس قال : من إيمانهم إذا قيل لهم : من خلق السماء ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال قالوا : الله وهم مشركون . وذكر عن عكرمة قال تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فيقولون الله ، فذلك إيمانهم بالله ، وهم يعبدون غيره . وعن عكرمة وعاصم ومجاهد أنهم قالوا فى هذه الآية : ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض . فهذا إيمانهم وهم يكفرون بما سوى ذلك . وعن قتادة قال : لست تائق أحداً منهم إلا نبأك أن الله ربه وهو الذى خلقه ورزقه ، وهو مشرك فى عبادته . وعن الضحاك قال : كانوا يشركون به فى

أقوال
المفسرين

تدبيتهم . وعن عطاء قال : يلمون أن الله ربهم وهم يشركون به بعد . وعن ابن زيد قال : ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ، ويعرف أن الله ربه وأن الله خالقه ورازقه وهو يشرك به . قال : فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به ، ألا ترى كيف كانت العرب تلمي ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . قل هذه الرايات كلها ابن جرير في تفسير الآية .

قول الرازي وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى : « ... ومن يدبر الأمر فسيقولون بعد ابن جرير الله » من سورة يونس : « لما ذكر بعض تلك التفاصيل عقبها بالكلام الكلي ليدل على الباقي ثم بين أن الرسول إذا سأله عن مدبر هذه الأحوال فسيقولون انه الله . وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقولون به . وهم الذين قالوا في عبادتهم الأصنام : إنما قربنا إلى الله زلي ، وإنما شغلنا عند الله ، وكانوا يلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر . فمند ذلك قال لرسوله : « قل أفلا تتقون » يعنى أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأصنام شركاء لله في العبودية مع اعترافكم بأن كل المخلوقات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه ، واعتباركم بأن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر البتة .

قول النيسابوري وقال النيسابوري في تفسير قوله تعالى « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » « ورايتها أنه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون فيه أنه بحسب الدعوة ومقبول الشفاعة عند الله اتخذوا صنما على صورته وعبدوها على اعتقاد أن ذلك الانسان يكون لهم شفيعاً يوم القيامة عند الله » ويقولون هؤلاء شغلنا عند الله . وخامسها لعلمهم اتخذوها قبلة لصلاتهم ومطاعتهم ، ويسجدون إليها لالهائهم كأننا نسجد إلى القبلة لا للقبلة . ولما استمرت هذه الحال ظن جهلهم أنه يجب عبادتها . . . ولما قربوا إليها وعظموها وصورها آلهة أشبهت حلقهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله ،

قادرة على مخالفته ومضادته ، قليل لهم ذلك على سبيل التهمك ، وكانهم بهم
بلفظ الندب شنع عليهم واستنفع شأنهم بأن جعلوا أندادا كثيرة لمن لا يصلح
أن يكون له ند ، ولا يفيد في طريق عبادته إلا الحنيفية والاخلاص ورفع
الوسائل من البين .

وقال أمثال هذه الأقوال سائر المفسرين من الأولين والآخرين . وقد
حدث القرآن عن أظنى الخليفة بأنه كان مؤمنا بالله وبمظنته وسلطانه فقال تعالى
حكاية عن رسوله موسى أنه قال لعدوه فرعون : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء
إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبورا » ، وقال
تعالى في فرعون وقومه الطاغين : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا »
بل حدث عن إبليس إمام الكافرين وزعيم طوائف المشركين أنه مؤمن بالله
وبربوبيته وملكه وسلطانه المطلق . وهذا مذكور في آيات معلومة . هذه
بعض دلالات القرآن على إيمان المشركين بوجود الله وبربوبيته . فقيم الخلاف
بعد هذا إذن ؟

وقد دلت السنة أيضا على ذلك دلالات مختلفة ظاهرة . وهذا فيما لا يحصى
من الأخبار الصحيحة الثابتة ، من ذلك حديث الصحيحين المشهور وهو أن
المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم إذ هم حجاج : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك
لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك » . وقد كان رسول الله
يسمعهم يقولون ذلك فيقول عند قولهم « لا شريك لك » : « قط قط » أى
حسب حسب . وكذلك دلت على ذلك أقوال جميع المفسرين من السلف
والخلف من المحدثين والمتقدمين ، وتفاسير أمثال ابن جرير الطبري وابن كثير ،
والبغوي ، والرازي ، وغيرهم طرفة بهذا . وهو غنى عن إيراد أفراد شواهد
وقد دل على ذلك أيضا كلام المشركين أنفسهم ، ودل عليه ما حفظ من

دلالة كلام
المشركين
أنفسهم

شعرهم ونثرهم دلالات قاطعة كل نزاع وخصام . وليتناول من شاء ما شاء من
دواوين العرب وكتب آدابهم وعلومهم . ومن أبلغ ذلك قول لبید :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل

وقد أنشد هذا الشعر في المسجد الحرام بين أظهر المشركين الكافرين
بالله وبنبيه عليه الصلاة والسلام فأقروه جميعاً وهم يحاربون الاسلام ونبي الاسلام
ودعوة الاسلام . وقد كان أحد المسلمين حاضراً لبیدا وهو ينشد شعره هذا
فلما قال : « وكل نعيم لا محالة زائل » قال له : كذبت فإن نعيم الجنة لا يزول .
وقال لبید أيضاً :

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم * بلى كل ذى رأى إلى الله واسل
وقال أيضاً في هذا المعنى :

أحمد الله فلا ند له * بيده الخيرات ما شاء فعل

وقال النابغة الذبياني :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وقال حاتم طي :

كلوا الآن من رزق الاله وأيسروا * فان على الرحمن رزقكم وفدا

وقال عنزة العبسي :

يا عبل أين من المنية مهرب * إن كان ربي في السماء قضاها

هذه قطرات من بحار والسير كلها ملأى بأمثال ذلك شعرا ونثرا . ومن

العبث محاولة جمع دلائل إيمان القوم بالله وبأنه الآخذ بناصية كل حي وميت .

استحالة ذلك على أن من الأمور البديهية العلم بأن عقلاء المشركين ودهاتهم وذوى الرأى

عقلا وعادة والأرب منهم لم يكونوا يرون تلك الأحجار والأشجار والتمائيل والصور التي

كانوا يعبدونها ويعملونها بأيديهم ، والتي كانوا يأكلونها أحيانا متى جاءوا خالا

العبادها أو أنها قديمة مع الله أو شريكة له في الملك والربوبية . ونحن - مهما أسأنا الظن بالمشركين والكافرين ، وبالفناني هجاء عقولهم وفطرتهم - لا نحسب أن أمثال عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وخالده بن الوليد وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة وأبي سفيان ومعاوية وأبي طالب وغيرهم من دهاة الرجال وذوى الرأى والأرب منهم ، كانوا ، حينما كانوا مشركين ، يعتقدون أن الاصنام والأوثان والصور والتماثيل التى كانوا يعبدون خالقة لهم أو خاتمة السموات والأرض ، أو مساوية لله فى القوة والقدرة والسلطان والقدم والبقاء وسعة العلم وإحاطته ، أو نحو ذلك من صفات الربوبية وأوصاف الرب . إن العلم ببطلان هذا وفساده من العلوم الضرورية الجلية . ولكن القوم كانوا يتخذون تلك الأصنام والأوثان قرباناً إلى الله ربهم كما قال تعالى : « فلولاً نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ، بل ضلوا عنهم وذلك أفكهم وما كانوا يفكرون » وقال : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . هذه أمور وبراهين يكفى بعضها لرد ما قاله الشيعى من أن المشركين كانوا ينكرون الله ، أو كانوا يقولون ان الله أعطى الاصنام والأوثان التأثير كله أو بعضه .

﴿ الآيات التى احتج بها الشيعى ﴾

أما الآيات التى احتج بها هذا الرجل على هذه الدعوى فلا حجة فيها مطلقاً
 أما قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف
 الضر عنكم ولا تحويلاً » فما أناها عما رام منها ، فهى تقول خطاباً للنبي عليه
 الصلاة والسلام : قل لأولئك المشركين بالله ، العابدين معه ما خلق : قل ادعوا
 الذين زعمتم آلهة ، وزعمتمهم جديرين بالعبادة والتأليه ، وزعمتم أنهم يدعون
 ويستغاثون فيجدى دعاؤهم والاستغاثة بهم : ادعهم فلن ينفعوكم شيئاً ، ولن

الجواب عن
 الآية الأولى

يستطيعوا أن يكشفوا عنكم ضرا نازلا بكم ، ولا أن يحولوه عنكم إلى غيركم لمعجزهم عن ذلك ، ولا نفردا لله به دون من خلق ودون كل شيء في الأرض وفي السموات . ثم قل لأولئك المشركين أيضا : إن هؤلاء الذين تدعونهم رجاء خير أو دفع ضرر ، بشفاعتهم ووساطتهم ، هم يدعون الله ويرجونه ما ترجونهم من الوسيلة إليه ، والقرب لديه ، والخطوة عنده . وهم يرجون رحمته لفقرهم وإحتياجهم ، ويخافون عذابه لضعفهم وعجزهم . فما أضعف من تدعون وترجون ، وما أضعف الطالب والمطلوب وليس في الآية أن أولئك العابدين المشركين كانوا يعتقدون أن أولئك المعبودين مساوون لله ، أو خالقون للسموات والأرض ، أو خالقون لأنفسهم أو لغيرهم ، أو يمتدنون أن الله أعطاهم تصرف هذا العالم كله أو تصرف بعضه : ليس في الآية الكريمة شيء من هذا حتى يسوغ للشيعة الاحتجاج بها ، بل غاية ما يمكن أن يفهم منها أنهم كانوا يدعونهم ويعبدونهم أنواع العبادات ، من الخضوع والخشوع والخلوف والرجاء ، رجاء أن ينفعهم عند الله ربهم وربهم بوساطتهم وشفاعتهم ومكانتهم . وسوف نبين إن شاء الله أن عبادة القبور هكنا يفعلون ويرجون ، وهكنا يضربون ويلسجون . فان إنسانا واحدا عاقلا لا يمكن أن يدعو شيئا ما وهو لا يرجو منه شيئا لا بوساطته ولا بقدرته .

الجواب عن وأما قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد الآية الثانية لما تأمرنا ، وزادهم نفورا » فاحتجاج الشيعة بها مناقض لأقواله الكثيرة ، لأنه معترف في غير مكان من هذا الباب ومن الأبواب الأخرى أن المشركين كانوا مؤمنين بالله وكانوا يعبدونه أيضا ، ولكنهم كانوا يعبدون غيره من الأصنام والأوثان ، وكانوا يكذبون الرسول وينكرون شرائعه وشرائع الإسلام ، وينكرون البعث والحساب والثواب والعقاب . فالجواب عن الآية إذن مشترك بينه وبين مخالفيه . ومما لا ريب فيه أن هذه الآية لا يمكن أن تقوى على معارضة الآيات

والدلائل الأخرى السابقة في إيمان المشركين بالله وعبادتهم غيره
والآية لها معنى آخر غير ما ذهب إليه الرافضى . وهذا المعنى مذكور في
كتب الحديث الصحيح وفي كتب التفسير وأقوال المفسرين من السلف
والخلف ، وفي كتب اللغة ، وذلك أن المشركين من العرب كانوا ينكرون هذا
الاسم الذى هو « الرحمن » لأنهم لم يكونوا يعرفون أنه من أسماء الله ، أولئك
لم يعتادوا إطلاقه على الله . فهم ينكرون هذا الاسم من الرسول عليه الصلاة
والسلام ، لأنه ، فيما زعموا ، ابتدعه وأحدثه ، ولا ينكرون الله ذاته . وهذا معروف
مذكور في كتب الحديث والتفسير . وقد روى البخارى وغيره في خبر صلح
الحديبية بين المسلمين والمشركين أن الرسول عليه السلام لما أُمي على الكاتب
عبارات الصلح وقال له قل : بسم الله الرحمن الرحيم قال له سبيل بن عمر زعيم
المشركين : أما الرحمن فلا نعرفه ، ولكن اكتب باسمك اللهم . وهكذا ذكر
المفسرون في معنى الآية من المتقدمين والمتأخرين . فالذى أنكره المشركون هو
الاسم لا المسمى . وهذا واضح . ولهذا فانهم كما حكى الله عنهم أنكروا الرحمن ولم
ينكروا الله ولا الإله ولا الرب ولا غير ذلك من أسماء الله وأوصافه وصفاته
المعروفة في كلامهم .

على أن للآية السكينة معنى آخر أراه قريبا وجيها . ذلك أن الرسول عليه
الصلاة والسلام كان يدعو القوم إلى عبادة الله وحده لا شريك له في نوع من
أنواع العبادات ولا في مظهر من مظاهرها . فكان يدعوهم إلى توحيد تعالى في
الدهاء والرجاء والخوف والرغبة والرغبة والسجود والركوع ... وكانوا ينكرون
ذلك التوحيد ويلجئون في الإنكار أقبح العجيج ، وكانوا يتكلمون به عليه السلام
إذا دعاهم إلى ذلك ، إلى الله وحده ضروب التهكم ، فكان رسول الله يقول لهم
فيما يقول : اسجدوا للرحمن وحده ، فكانوا يردون عليه ساخريين هازئين :

« وما الرحمن » ، ماهنا إلا له الذى تدعوننا إلى عبادته والسجود له وحده ؟ صفه لنا ، وصف لنا حقيقته وحقيقة أمره وما تعرفه عنه مما نبجله نحن عنه إن كنت صدقا عالما ما لم نعلم ، معلما على ما لم نطلع عليه من شؤونه وصفاته وأوصافه ، وإن كنت حقا نبيه وصفه من خليقته ورسوله البنا وإلى الخلق جميعا وكانوا يريدون بذلك التمجيز والافحام والزراية ، لا العلم والمعرفة والدراية . وما كانوا يريدون حقيقة السؤال والعلم لانهم كانوا منكرين عليه عليه الصلاة والسلام الرسالة والصلة الالهية التى خصه الله بها دونهم . فكان المراد بقولهم « وما الرحمن » التمجيز والافحام والمدح . وما كانوا يعنون إنكار الله أو إنكار وجوده تعالى ، فان لفظ الآية لا يعين على إرادة هذا الإنكار . ولو كانوا يريدون الإنكار والجحود حقاً لقواله : إنه لا إله إلا الله ولا خالق ، فمن ذا الذى تدعوننا إلى عبادته وحده والسجود له ؟ والقوم كانوا كل الحراس على مجابهة نبيهم بالخلاف والا كذاب والكفران ، وإنما قالوا : « وما الرحمن » . ومثل هذا الاستفهام والكلام يسأل به عن حقيقة الأمر وماهيته ، ولا يراد به حقيقة الجحود إلا أن يكون القول ضرباً من ضروب المجازات المعلومة الكثيرة . ولكن لاشئ هنا يحصل على تحميل الآية المجاز والخروج بها عن الحقيقة ، بل كل شئ يدل على أن لا مجاز ولا إنكار ولا جحود ، وإنما هنا الشرك والحرص الأعمى عليه .

آية تسوية
الأصنام برب العالمين

وأما قوله تعالى . « تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين »
فهى ليست بسبيل مما ذهب إليه المخالفون ويتبين ذلك بإيراد ما قبل الآية . قال تعالى من سورة الشعراء : « وبرزت الجحيم للناوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ، فكذبوا فيهاهم والناوون وجنود إبليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا الجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق

حجيم...». فلينظر القارئ في الآية يجد أنها خصام وحوار بين المشركين التابعين
و بين رؤسائهم المضلين المتبوعين، ويجد أن هذه الآية مثل قوله تعالى من سورة
الأحزاب : « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً
لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله
وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا
آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » ومثل قوله تعالى من سورة إبراهيم
« وبرزوا لله جميعاً ، قتال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم
معتنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا
أجزعنا أم صبرنا ، ما لنا من محيص » . فهذه الآيات كلها من نهر واحد ، هي
خصام وجدال بين فريق الضالين المعذبين : بين أئمة الكفر والضلال ودعاة
جهنم من الملوك والزعماء والعلماء وسائر الرؤساء الذين ملكوا عقول الجماهير
وقلوبهم وغنائدهم وعواطفهم بخداعهم ومكرهم وسلطانهم ودرهمهم ودينارهم
فاقنادوم ، وهم ينظرون ، إلى جهنم بأمراس الزطمة والرئاسة التي قدموها إليهم عن
طاعة ورضا وجهل وغبوة ، ليقودهم بها إلى عذاب النكر والهون والجحيم في
حياتهم : الدنيا والأخرى - وبين هذه الجماهير الضالة الغبية التي استعبد عقولها
وقلوبها وعقائدها وعواطفها أناس مثلهم يلبسون الثياب خوف الحر والقر
ويأكلون الطعام لطرد الجوع والإعياء والألم... فالآية حوار قاس بين الرؤساء
والرؤسين من المشركين والمضلين ، لا بين المشركين وأصنامهم وأوثانهم التي
ألهوها وعبدوها . وذلك أن الآية قد أنبأت بأن أولئك المعبودين المسوين
يرب العالمين لا ينصرون ولا هم ينتصرون ، وأنهم كبكبوا جميعاً في الجحيم ،
وأنبأت أن فريق الاختصاص والحوارهم المشركون والغاؤون وجنود إبليس
أجمعون . وهذا كله لا يكون إلا للرؤساء الضالين المضلين ، لا لللاوثان الجامدة ،

ولا للمعبودين من الأنبياء والصلحين .

والمراد هنا بتسوية الرؤسین للرؤساء رب العالمين أنهم قد أطاعوهم في عصيان الله وفي الخروج على شرعه ودينه وسننه ، وأنهم قد شرعوا لهم شرائع باطلة لم يأذن بها الله فأطاعوهم وأذعنوا لهم ، واستبدلوا بشرائع الله خالقهم ورازقهم ، وبشرائع أنبيائه وصفوة عباده . وفي هذا المعنى قال الله تعالى « اتخذوا أجبازهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » . وقد جاء في تفسير الآية عن النجاشي عليه الصلاة والسلام أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام وفي تحريم الحلال ، فكانوا بذلك متخذينهم لهم أرباباً . وفي هذا المعنى أيضاً قوله تعالى « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » وفي هذا المعنى أيضاً على بعد قول الله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

ولا ريب أن من أطاع الملوك الظالمين ، والزعماء الجاهلين ، في تحريم الحلال وإحلال الحرام والخروج على شرع الله ، لإرادة إرضائهم وكسب عطفهم ومودتهم ، فقد سواهم بالله بل فضلهم عليه تعالى وفضل رضاهم على رضاه . وهذا هو الخذلان المبين والجهل الفاضح . والله المرجو أن يحفظنا ويسد لنا

ثم إذا فرض أن الآية نازلة في المشركين وفي أوثانهم وأصنامهم لم يمكن أن تفسر بأن المشركين كانوا يسوون الأصنام والأوثان بالله رب العالمين تسوية تامة من كل وجه ، فإنه لا يوجد عاقل مؤمن بالله يسوى بينه وبين معبوده من الأحجار والأشجار والحيوان والإنسان ، وأكثف الخلق شركاً وكفراً لا يمكن أن يبلغ به فساد الذوق والعقل والعقيدة إلى هذا المدى والانحطاط ، وإنما غاية المشرك أن يعبد مع الله آلهة أخرى لا أن يسوى هذه الآلهة بالله متى كان مؤمناً . تفسير الانداد به . فالمراد بالتسوية هنا هي عبادة الأصنام مع الله وإشراكها في حقه على حينئذ . في القرآن كما قال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله »

والنبد في اللسان هو المثال . فمن أحب شيئاً مثل حبه الله فقد سواه به ، وقد قال تعالى « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » قال ابن عباس في تفسيرها : لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه ربكم لا يرزقكم غيره . وقال قتادة ومجاهد : لا تجعلوا لله أكفأ من الرجال تطيعونهم في معصية الله . وقال ابن زيد : الأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه . وروى ابن أبي حاتم في تفسير الآية عن عبد الله بن عباس أنه قال : هو أن تقول والله وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول لولا كلبية هذا لأنانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأنانا اللصوص ، وقول الرجل : ماشاء الله وشئت ، ولولا الله وفلان . هذا كله من تفسير الآية عند عبد الله بن عباس . ومثل هذا أن رجلاً قال للنبي عليه السلام : ماشاء الله وشئت ، فقال : « أجعلني لله نداً بل ماشاء الله وحده » . ومثل الذي قلناه في تفسير الآية قال سائر المفسرين ، وهذا مالا شك فيه . على أن الدلائل المتقدمة في إيمان المشركين بالله وبأنه خالق كل شيء وخالق أصنامهم وما يعبدون كافٍ لصرف هذه الآية عن ظاهرها لو فرض أن ظاهرها هو ما ذكره المخالف .

ثم إن هاهنا أمراً يجب أن يذكره الشيعي وألا ينساه ، هذا الأمر هو أنه وما يرد على ذكر في كتابه في غير موضع أن من آمن بالله وبصفاته العلية كالاستواء والعلو الشيعي والرفعة الحقيقية فهو مشبه الله بخلقه ومسويه بهم وإن صرح بنفي التشبيه ونفي المماثلة والتسوية . وهو لهذا يعد السلف الصالح الواقفين مع النصوص المثبتين لهذه الصفات النافين للمماثلة والتشبيه مجسمين ، ويدعوم مشبهين ممثلين . وهو لا يراهم يقيناً قد سواوا الله بخلقه من جميع الجهات ، ولا اعتقدوا أنهم مثله في كل الخصائص والأوصاف . فالتسوية إذن باعترافه تطلق ولا يراد بها التسوية التامة الحقيقية . وبهذه التسوية الجزئية تفسر الآية إذا ما بطل جميع ما ذكرناه في

تفسيرها . والقرآن يجب أن يذهب به حيث تذهب اللغة التي نزل بها ، واللغة لا تريد من التسوية ونحوها التسوية بين المسوى والموسوى به من كل وجه بالضرورة ، فاذا قلت : سويت بين فلان وفلان ، وسويت هذا بهذا ، لم ترد هذه التسوية التامة الدقيقة بلا خلاف . ولو كانت هذه التسوية التامة هي المرادة هنا لدلت الآية على أن جميع من في النار قد سواوا معبوداتهم وأصنامهم بالله رب العالمين من جميع الوجوه ، وفي جميع الأشياء الثبوتية والسلبية تسوية تامة عامة ! ومن ذا يمارى في بطلان هذا .

معنى الإله أما الآيات التي فيها اتخذوا الآلهة مع الله فلا تدل مطلقا على شيء مما زعموه . وذلك أن الإله هو المعبود ، والمعبود ليس بال لازم أن يعتقد فيه عابده أنه مثل الله أو أنه قديم معه ، أو أنه خالق السماء والأرض ، أو خالق العالم . وإنما الإله هو المعبود لا غير . ولهذا سمى الله الهوى المطاع إله فقال تعالى : « أفرايت من اتخذ إلهه هواه » قال السلف : الهوى معبود . ولا يمكن أن يقول إنسان إن هواه مثل الله ، أو أنه خالق أو متصرف في الكون . ومثل هذا قول الله : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وهم لم يعتقدوا في الأحبار والرهبان أنهم خالقون أو رازقون أو مساوون لله أو نحو ذلك ، كما جاء في تفسير الآية عن النبي عليه الصلاة والسلام . فزعم الشيعي أن اتخذوا المشركين مع الله آلهة أخرى يدل على أكثر من عبادتهم إياها زعم باطل .

لم يكن في العرب من ينكر الله إنما زعمه أن في العرب المشركين من كان ينكر الله بدلالة قوله تعالى حكاية عنهم « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » فزعم فيه نظر . ذلك أن الآية نازلة ، على ما يظهر ، في إنكار المشركين للبعث لا في إنكارهم الخالق ، وهذا ظاهر من سياق الآية ومن الآيات الأخرى المتكاثرة الدالة على إيمانهم بالله وعلى إنكارهم البعث والحساب . أما سياق الآية فهو

هكذا : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

فقولهم « وما هي إلا حياتنا الدنيا » إنكار للبعث ولدار الجزاء . وقولهم تفسير : « وما نموت ونحيا » لعلمهم بمنون أن الدنيا خالدة باقية لا نهاية لها وسنظل هكذا أبداً يهلكنا إلا فيها ، نتوالد ونتمتع بـ ويموت آباؤنا فنخلفهم ، ثم نموت نحن فيخلفنا أبنائنا ، وهكذا دواليك ، لأنه لا حساب ولا عقاب ولا بعث ولا حياة سوى هذه الحياة الدنيا . وهذا نتيجة إنكار البعث ويوم الجزاء . وقولهم « وما يهلكنا إلا الدهر » لعلمهم بمنون أننا لا نموت إلا بطول الزمان وتمتد كراته ودولاته ، وبما يحدثه هذا التعاقب وما يلزم هذا الطول من أعراض وأمراض ومصيبات تقتلنا وتميتنا بما جبلنا عليه من صفة التغير وصفة الانفعال بالمؤثرات الجوية الزمنية على حد ما قالوا :

أشباب الصغير وأفنى الكبير * كره الغداة ومر العشى
ونظيره من كلامهم المعروف المشهور . ولكن ليس معنى هذا إنكار الله أو إنكار أن يكون الدهر مخلوقاً للخلاق العظام . كلا ، فان إضافة أمثال الامانة والاحياء إلى بعض ما خلق الله لا يدل على إنكار الله . فالناس كلهم يقولون : سطا عليه سيف الهرم وطول العمر ، وهم لا يريدون بتلك الأقاويل والعبارات إنكار الله وجحدته ، فان أشد الناس إيماناً و يقيناً يقول ذلك . وأى إنسان يسمع قول الشاعر مثلاً :

نعد المشرفة والعوالى * وتقتلنا المنون بلا قتال
فيقول : إن هذا القائل يريد إنكار الله بما قال هنا أو إنكار أن يكون

سبحانه هو وحده خالق الموت والحياة وخالق كل شيء . وإن يدل قولهم « وما يهلكنا إلا الدهر » على إنكار الخالق حتى يدل على ذلك قولهم وقول الناس جميعا : أساء إلى الدهر وأحسن إلى فلان ، والدهر سلم النجى الوضيع ، وحرب الذكى الرفيع . وقولهم : أخنى عليه الزمان وقتله الجديدان ، وقولهم :

رمى الحدثنان نسوة آل حرب * بمقدار ممدن له مموداً

فرد شعورهن السود بيضا * ورد وجوههن البيض سودا

وهذا ، بلا خلاف ولا ريب ، لا يراد به جحد الخالق ولا إنكار أفعاله ، ولكن الناس المؤمنين بالله وغير المؤمنين قد يضيفون الحوادث إلى أسبابها القريبة الظاهرة المباشرة مع الاحتفاظ بسبب الأسباب ومسببها ، وغاية الغايات وخالقها وهذا معروف لهم ، ولو كانوا يريدون بقولهم : وما يهلكنا إلا الدهر جحد الخالق لقالوا : ما خلقنا ولا أحيانا ولا يهلكنا ولا يفنينا إلا الدهر أو نحو ذلك ، ولكنهم أضافوا الإهلاك فقط إلى الدهر . ولعلمهم كانوا يريدون تنزيهه تعالى عن أن يضيفوا إليه الشرور والآفات ، مثل الإهلاك والموت . وقولهم بعد قولهم هذا : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا إن كنتم صادقين » يشهد لما قلنا ، ويدل على أن الإنكار كان للبعث والحساب فقط لا للخلاق ، وقوله تعالى بعد ذلك « قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » يدل على ما قلناه دلالة صادقة ناطقة .

. فسياق الآية نفسه واضح في أن الإنكار ليس للرب ولا للخالق ، وإنما هو للبعث والحساب ، وأما الدلائل الأخرى على ذلك فلا تخفى ، وقد قدمنا جلا من دلالات القرآن على أن المشركين كانوا مؤمنين بالله ، وبأنه خالق السماء وخالق الأرض والعالم وخالق كل شيء ، وأن داءهم وبلاءهم هو الشرك وعبادة

المخلوقين العاجزين الضعفاء .

ومشركو العرب الذين نزلت فيهم هذه الآية قوم أميون ساذجون فطريون
تقريباً ، بعيدون عن البحث وأعماقه في الآلهيات وغير الآلهيات . والأمم
الأمية الفطرية من المستبعد أن تهتدى إلى الاتحاد الذي هو إنكار الخالق ،
وإنما يقع الاتحاد في الأمم الحضارية المدنية العريقة في الفلسفات البشرية المغرورة
المدخولة . وذلك أن الخالق قريب جداً من الفطرة الأولى ، بعيد جداً من الفلسفة
المتعمقة المنتظمة ، لأن هذه الفلسفة مصابة أبدأً بداء الغرور والكبرياء .
والكبرياء تأتي على صاحبها التسليم للحق والخضوع للقدرة الخفية القاهرة ، بل
هي أبدأً تجنح إلى التغلب على كل شيء ، والاستهتار بكل شيء ، والجحود لكل
ما أعجزها وقهرها وحيرها . فمن البعيد القريب من الحال أن يصاب العرب بداء
الاتحاد ، ومن البعيد إذن أن يفسر قوله تعالى حكاية عن الكافرين المشركين
منهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » بهذا الداء .
ولو فرض أن هذه المقالة لا يراد بها إلا الاتحاد لما كانت إلا مقالة طارئة
اختطفها بعض المشركين من بعض الأمم المجاورة اختطافاً ، فنقلها نقلاً ،
وقالها قولاً لا يلبث أن يرجع عنه وأن ينقاد لوحى فطرته الأولى المولودة في
الصحراء التي لا تعرف غير الإيمان بالله وبملكه وسلطانه الأعظم . ولا يصح
أبدأً أن تكون عقيدة راسخة دائماً ، ولا أن تكون منهج الجمهور المعروف
الواضح . ومن يسر له أن يقرأ بعض ما خلفه العرب الفارقون في الشرك من
شعر ونثر لم يستطع أن يمارى في إيمانهم بالله وإيمانهم بأنه رب السموات
والأرضين ورب العالمين ، لا شريك له ولا معين .

﴿ هل يرى المنقطعون إلى الاموات ﴾

﴿ أنهم ينفعون أو يضررون ؟ ﴾

أما قول الشيعي: « إنه لا شيء يدلنا على أن المشركين ما كانوا يعتقدون فيه أصنامهم ومعبوداتهم من الجن والانس والملائكة أنها لا تأثير لها في الكون إذ يجوز أن يعتقدوا لها تأثيرا بنفسها فتشفي المرضى وتنصر على الأعداء وتكشف الضرر ، وأنها تشفع عند الله حتما ولا يرد شفاعتها ، أو أن الله جعل لها قسطا من التأثير أو كله اليها » .

المرء لا يدعو إلا من يعتقد أنه قادر على نفعه فنقول في جوابه: لاشك أن المشركين مادعوا الأصنام والأوثان، ولا رغبوا إلى الأولياء والأنبياء فعبدهم ، إلا لاعتقادهم أنهم يستطيعون نفعهم وضرهم ، وأن لديهم شيئا من النفع والضرر والاعطاء والمنع ، وأنهم قد يشفعون ، وقد ينصرون: كل ذلك بأمر الله وقدرته وإذنه وفضله . ولولا هذه العقيدة لما دعوهم ولا سألوهم ولا رغبوا إليهم ولا رهبوهم . فان الناس مجبولون على الانصراف إلى ما يظنون أن لهم فيه فائدة ، والانصراف عما يملكون أنه لا ينفعهم ولا يضرهم شيئا . فمن دعا غير الله فلا بد من أن يكون قد اعتقد في قرارة نفسه أن ذلك المدعو قادر على شيء ، وأن له تأثيرا ما . وهذا هو الحامل له على الرغبة فيه والانتفاع إليه ، ولو فقد هذا الأمل لفقد ذاك العمل . وهذا مالا يصح الخلاف فيه .

أما دعاة الأموات المنقطعون إلى القبور من المسلمين فلا ريب أيضا في تحكم هذه العقيدة ، عقيدة نفع الأموات وضرهم في قرارات نفوسهم ومسارب أذهانهم . وأبدانهم ، ولو أنهم اعتقدوا وعلموا أن أولئك المقبورين فاقدون ما يطلبونه منهم عاجزون عنه وعن إيصال النفع إليهم ودفع الضر عنهم ، لما وجبتهم عاكفين .

عليهم باسطين أكفهم إليهم ، تغشى وجوههم الذلة والمسكنة ، وتضطرم في قلوبهم الرغبة وحب المنفعة ، ولما تحملوا المشاق واجتنبوا الشقق المرهقة من كل فيج عميق ، ومن كل مكان سحيق ، توضع بهم نجائب الأمل . الحلو اللذيذ ليقفوا على تلك الأطلال والمعالم ، ليسكبوا على ترابها العبرات ، ويبتسخوا على أعتابها أنواع الشكايات ، وليقوموا بين الخوف والرجاء مقاماً يلطم شرف الانسان ويضرب مجد العبودية الموحدة في القتل :- نعم لولا رسوخ هذه العقيدة عقيمة نفع الأموات وضرهم في نفوس هؤلاء الداعين ما فعلوا من ذلك شيئاً ولا هتفوا عند الشدائد دعاة الأموات بأسماهم ، ولا قدموا لهم الترابين والهدايا من حر أموالهم وغالبها ، وهم يبخلون يعتقدون فيهم بأخسها وأقلها على الفقراء والموزين الذين أمرت الأديان والآداب جميعاً ببرهم والاحسان إليهم والتصدق عليهم ، وإلا فللمسكين من الله أليم العذاب والعقاب . هذا ما لا ريب فيه والشواهد عليه كثيرة منظورة : من ذلك أنهم يسمون الأموات « أهل النصريف » أى نصريف العالم ، ويسمونهم : « الأقطاب » أى أقطاب الكون ، ويدعون لواحد منهم « بالمتولى » أى متولى أمر الوجود .. ويقولون للشيخ من هؤلاء : « سقت ربك عليك » ، ومن ذلك أنهم يزعمون إليهم حكايات كاذبة تدل دلالات قاطعة على أنهم يرونهم قادرين على أشياء لا يقدر عليها إلا الله : فيحكون أن البدوى فعل كذا ، وأن الدسوقي صنع كذا من غرائب الأفعال والحكايات الدالة على كامل القدرة والنصريف لو صححت عنهم . وقد ألفوا كتباً ضمنوها هذا الداء ونشروها على جهلاء الناس وعلمائهم . ومن ذلك أنهم يحتجون لدعوتهم والاستغاثة بهم بأمثال قول الله : « لهم ما يشاؤون عند ربهم » وقوله « وسوف يعطيك ربك فترضى » واحتجاجهم بهذه الآيات صريح في أنهم يرون من يدعون من دون الله من الأشياء الموقى يفعلون كل ما يشاؤون ، وينالون ما يشاهون ، لأن لهم عند ربهم ما يشاهون ،

ولأن الله سوف يعطيهم حتى يرضيهم ، وهم لا يرضون أن يضام ، أو يمتدح ، أو
 يدخل النار ، أو ينجيب أحد من دعائهم ولا ذنبهم من المريدين والمنقطعين ، وهم يشاؤون
 أيضا نفع السائلين لهم ، العائدين بهم ، وأجدانهم . فطوبى إذا لمن وقف
 بأبوابهم وعلى أطلالهم ، ولن عاذ بحمام ، والويل كله لمن أعرض عنهم ونأى
 بجانبه عن رحابهم واعتابهم . . . وأنت إذا سألت أحد هؤلاء الهلكى عن
 ذلك وقلت له : كيف تدعو ميتا تحت أطباق التراب ؟ وكيف ترجو أن ينالك
 منه شيء ؟ قال لك : يا أخى « لهم ما يشاءون عند ربهم » . فلا خوف عليهم
 ولا هم يحزنون » فيضع هذه الآيات مواضع الحجج والبراهين على دعاء الأموات
 والافتقار إليهم وتأويلهم . وهذا يؤكد أى تأكيد لا اعتقادهم فيهم النفع والضرر
 وسائر مبادئ الإيجاد والقدرة . وأنت إذا ما وقفت بضريح من هذه الضرائح
 وسمعت الدعوات والمناجات ، ورأيت ما هنالك من الأكف المرفوعة ، والأدمع
 المندروفة ، والوجوه المصفرة ، والوجوه المعترية ، لم تشك فى أن للقوم فى تلك الحفرة
 آمالا عراضا طوالا تتضاءل أمامها آمالهم فى الله رب العالمين . وهذا الشيعى
 المخالف لا يخالف فى أن الأموات ينفعون ويضرون ويعطون ويمنعون ، ولكن
 يقول : إن ذلك كله من الأموات الصالحين يكون بدعائهم وشفاعتهم ووساطاتهم
 عند الله . ويقول : إن ذلك كله يكون منهم لكن لا على سبيل الاستقلال
 والاستبداد ، وإنما يكون بإذن الله وإقداره ورضاه . فهم يضرون وينفعون
 ويعطون ويمنعون بما ملكوا من الشفاعة والجاه ، وبما وهبوا من القدرة
 والسلطان . وقد تفوه بهذا فى غير موضع من كتابه تصريحاً وتلويحاً ، فهو يقول
 فى هذا الباب الثالث : « فإن المسلمين لا يعنون بالسيد إلا أن له منزلة عند الله
 أوجبت امتيازاً عن غيره ، وأن يقبل الله شفاعته ويسمع دعاء من تشفع به إليه
 كرما منه تعالى وفضلا . فهم لم يثبتوا له إلا ما أثبتته الله . أما الوهابيون فنفوا

اعتراف
 المخالف بضر
 الاموات
 ونفعهم

ما جعله الله له « ثم قال في هذا الباب أيضا : « والمسلمون اعتقدوا أن الأنبياء
والصالحين ينفعون بدعائهم وشفاعتهم أحياء وأمواتا كما نصت عليه أحكام دينهم
وأدلتها التي ستعرفها ، والتي أثبتت لهم الشفاعة والدعاء ، ويضرون بترك ذلك
وبالبعد عن نيل بركاتهم ، وهو اعتقاد صحيح مطابق لأدلة الدين الاسلامي .
فطلبوا منهم ما جعله الله لهم من دعائه والشفاعة لديه » ، ثم قال من هذا الباب
أيضا « فهم قريون - يعني الموتى - إلى الله بدعائهم لنا ويشفعون لنا عنده » ،
ثم يقول دافعا عن هؤلاء الضلال : « فالظاهر أنهم لا يعتقدون في مشايخهم
الاستقلال في التصرف » . وظاهر هذا القول أنهم إذا اعتقدوا أنهم يتصرفون
لكن لا استقلالاً بل مع الله وبقدرته وإذنه ، فلا شيء في هذا الاعتقاد ، بل ظاهر
كلامه أن هذا هو اعتقادهم ، ولهذا فإنه دافع في هذا الباب عما روى عن الشعرائي
أنه قال : إن الله وكل بقبر كل ولي ملكا يقضى حاجة من سأل ذلك الولي ، كما
دافع عما روى أن امرأة كف بصرها فنادت وليها قائلة : أما الله فقد صنع ما ترى
ولم يبق إلا حبك . ويقول في آخر القصيدة التي وضعها في آخر كتابه في
نفع القبور والمقبور :

الدعاء في	إن القبور بساكنها شرفت * فلساكنها منزل لم يجحد
المساجد غير	بركاتنا ترجى لداع إنها * بركات شخص في الضريح موسد
مقبول وفي	لا بدع إن كان الدعاء إليه فيها صاعداً وبغيرها لم يصعد
القبور مقبول	إن الأئمة من سلالة أحمد * نقل النبي وقوده لا مقتدى
	قالوا : الصلاة لدى محل قبورنا * في الفضل تعدل مثلها في المسجد
	عنهم روته لنا الثقات فبالهدى * منهم إذا شئت الهداية فاقصد
	فدعاء العبد ربه في بيوت الله في الأسحار وفي سويحات الاجابة وسويحات
	الفيوضات الإلهية لن يتقبله الله من عبده ولن يعبا به ولن ينظر إليه . أما الدعاء

في القبور فهو الدعاء الذي لا يرد وهو الذي يمرج إليه تعالى مخترقاً الأطباق والحجب والمسافات . والصلاة في القبور وعند أقدام الموتى تفضل الصلاة في المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي عليه السلام وجميع المساجد . ولا يختلف المسلمون البصراء بالاسلام أن هذا من شر الالحاد وشر الضلال - عياذا بالله . فيا لله للاسلام من عدوان الشيعة وضلال الشيعة وبهتان الشيعة ! ألا لأقر الله عينا تكتحل بالرضا عن هذه أقوالهم ، ولا أتمليج قلبا يحمل لهم المودة والحب ما داموا هكذا يقولون .

ذلك كله يدل على أن القوم يمتدحون في أمواتهم أنهم ينفعون ويضرون ويتصرفون ، غير أن ذلك كما يدعى هذا الشيخ ، ليس استقلاً لأنهم وإنما هو بمشيئة الله وقدرته . . وهذا يضاهي قول المفوضة ، وهم جماعة من الشيعة يزعمون أن الله خالق ، أو مخلق ، جماعة من آل البيت النبوي ، ففوض إليهم خلق العالم وتدبيره والقيام به وعليه . ولهذا فإن هذا المصنف كثيراً ما يقول في كتابه هذا : إن الفرق بين المشركين الأولين وبين هؤلاء المتوسلين : أن المشركين كانوا يدعون مالا ينفع ومالا يضر من الأحجار والأشجار ومن الصور والتماثيل ، ويدعون من لم يجعل الله فيهم نفعا ولا ضرا ولا شفاعا ولا أمرا . وأما المسلمون فأنهم يدعون من جل الله لهم ذلك ووجههم إياه تفضلا منه ونعمة . ومما يقوى أن هذا المصنف وطائفته من المفوضة أشياء ذكرها في كتابه « أعيان الشيعة » عن شيوخهم . السكابر المجمع على إمامتهم وجلالتهم عندهم ، فذكر في الجزء الخامس من هذا الكتاب ص ٥٢٠ من قول الشيخ إبراهيم بن يحيى العاملي في النبي - برأه الله - مما قالوا - قوله :

الشيعة مفوضة
ومعنى ذلك

سأد الورى بفضائل وفواضل * وأقلها إيجاد هذا العالم
أنا عبدك القن الذى لا يبتنى * إلا رضاك وأنت أرحم راحم

وقوله أيضا في مدحه :

وكان وسيلة الراجين منهم * ومفزع كل ملهوف مضام

وقوله في مدح الحسن :

ذو المعجزات الواضحات أقلها * إحيائه الموتى من الأحياء

وقولهم في مدح آل النبي :

وحاشى حمى الزوراء، موسى بن جعفر * ملاذ بنى الأيام والدهر مجحف

غمامن دار الخلد للزائر الذى * آتاه يؤدى حقه، لا يسوف

وقولهم في امتداح على :

حاشاك أن تلسى وليا، الله * إلّاك يا غوث الورى من مفزع

وذكر ص ٥٨٨ من هذا الجزء قول أحد أشياخهم فى السيدة زينب :

وكيف لا يطلب الدنيا وضررتها * ولا كوء، وهما أدنى عطايك

وفى هذا الجزء أيضا ص ٢١٩ فى ترجمة الشيخ إبراهيم بن صادق أحد

علمائهم فى امتداح على :

ووجوده وسع الوجود وهل خلا * فى عالم الامكان منه موضع

كشاف داجية القضاء عن الورى * بعزائم منها القضاء يروع

يا من إليه الأمر يرجع فى غد * ولديه أعمال الخلائق ترفع

وله مآل نوابها وعقابها * يعطى العطاء لمن يشاء ويمنع

وأرى الآلى لصفات ذاتك حددوا * قد أخطأوا معنى علاك وضيعوا

ولأى مجدك يا عظيم المجد لم * يتدبروا وحديث قدسك لم يعوا

ولك الرمام تهب من أجدانها * والشمس بعد مغيبها لك ترجع

والشمس بعد مغيبها إن ردها * بالسر منك وصى موسى يوشع

فهبى التى بك كل يوم لم تزل * من بدء فطرتها تغيب وتطلع

والدهر عبدك طائع لك لم يزل * وكذا القضا لك من يمينك أطوع
ولئن أطاع البحر موسى بالعصا * ضربا فموسى والعصا لك أطوع
ولئن نجت بالرسول قبلك أمة * فلقد نجت بك رسول ربك أجمع
وصفاتك الحسنى يقصر عن مدى * أدنى علاها كل مدح يصنع
والحمد مقصور عليك ثناؤه * وعلى سواك لواؤه لا يرفع
وذكر ص ٦٧٣ من هذا الجزء في ترجمة الشيخ إبراهيم العامل قوله في امتلاك
العترة لأمرور العالمين جميعا :

العالمون بكل علم أحجيت * عنه الخواطر غير كنه الذات
ملكوا أمور العالمين فأمرهم * ماض على الأحياء والأموات
ثم نقل عن هذا الشيخ أيضا ص ٦٨٧ قوله بعد أن ذكر النبي وعليه
وفاطمة والحسن والحسين وجعفرًا وحمزة وعقيلًا وعبد مناف في مصير أمور
العالمين إليهم :

هم التهمة الغر الذين إليهمو * أمور الورى في النشاطين تشول
فلولا همو ما ساع فعل لفاعل * ولا طاب منه القول حين يقول
هذه نماذج من أقوال أئمة الشيعة وشيوخهم في مذهب التفويض ، تفويض
أمور العالم من خلق وإيجاد وإحياء وإماتة وتصريف إلى النبي وآله ، وهذه
دلائل لا يختلف فيها على أن القوم لا يعتقدون في موتهم الضر والنفع والاعطاء
والمنع فقط ، بل يعتقدون أنهم يخلقون ويحيون ويميتون ويتصرفون في هذا العالم
الزخار تصرفا كاملا تاما ، ويقدررون على كل شئ قدرة كاملة غير محدودة ولا
معدودة ، بل مطلقة تامة ، وهذا شر الشرك وشر أنواع الكفر بالله العظيم . ولا
خلاف أن هذا الكفر وهذا الشرك هما شر من كفر الكافرين وإشراك المشركين
الأولين الذين تابوا الدعوة الحمدية وحاربوها ، يريدون تحطيمها والوقوف في

سبيلها ، فان أولئك الكفار وأولئك المشركين كانوا يعتقدون بأن خالق العالم أين إيمان
وخالق كل شيء هو الله وحده لا شريك له ، وهؤلاء الضلال الخيري يقولون إن آل هؤلاء من
النبي هم الخالقون الموجودون لكل شيء ، الصائرة إليهم جميع الأمور . وأين هذه شرك أولئك
الأشعار من قول أولئك المشركين :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء منعب
وقولهم :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل * وكل نعم لا محالة زائل
وقولهم أيضا :

تعز فلا شيء على الأرض باقيا * ولا وزرما قضى الله واقيا
وقولهم أيضا :

أحمد الله فلا ندله * بيده الخيرات ماشاء فعل
وقولهم أيضا :

يا عبل أين من المنية مهرب * إن كان ربى فى السماء قضاها
فأين هذه الأشعار التي قالها المشركون من تلك الأشعار التي قالها من
قالوا : إنهم مسلمون ؟ فياليت كفر أولئك وشركهم كان إيمانا لهؤلاء وتوحيدا ،
ويا ليت هؤلاء كانوا فداء لأولئك ، ويا ليت لنا رأسا واحداً من أولئك بألف
رأس من هؤلاء ، وإننا نحن الرابحون إذن .

منهـب الشيعة

فلا ريب أن هؤلاء الهاتفين بأسماء الموتى يعتقدون أنهم ينفعون ويضرون
ويعطون ويمنعون . ولولا هذا الاعتقاد لما هتفوا بأسمائهم ، ولما رجعوا إليهم عند
ا كفهـرار الأقدار وتشعب الآمال . والشيعة لابد أن يعتقدوا ذلك ، ولابد أن
يقولوه ، لأن من منبهم أن العباد خالقون موجودون لأعمالهم ، وهم يفارقون أهل
السنة فى هذه القضية . فالأحياء خالقون لديهم موجودون متصرفون حقيقة ،

يقضى بأن
يكون
الأموات
متصرفين

والأموات عندهم مثل الأحياء سواء ، بل هم أحياء عندهم حقيقة . فالأحياء
والأموات يقينا متصرفون ينفعون ويضرون ويعطون ويمنعون . فالشيء إذا
ماسأل ميتا فلا بد أن يعتقد أنه قادر على ما يطلبه منه ، وأن يعتقد أنه فاعل ، وأنه
معط مانع ، وضار نافع . وهذا هو الاعتقاد الذى زعم أنه يكون شركا وكفرا
بصاحبه ، وهذا هو اعتقاد الكفار والمشركين فى أصنامهم وأوثانهم ، على
ما ذكر فى مواضع من الكتاب ، وإن كان يزعم فى مواضع أخرى أن الفرق بين
هذا الاعتقاد الذى هو اعتقاد المتوسلين من المسلمين ، وبين اعتقاد المشركين
الغابرين أن المسلمين يعتقدون ذلك فيمن ينفعون ويضرون ويدعون ويشفعون
من الأنبياء والصالحين . وأما المشركون فإنهم اعتقدوا فيمن ليس لهم ذلك من
الأحجار والأشجار والصور والتماثيل . وهذا هو الفرق بين الفريقين ، ولكن
يقال : إذا لم يكن هذا الاعتقاد فيمن يقدر شركا وكفرا ، لم يكن فيمن لا
يقدر شركا ولا كفرا ، على ما ذهب إليه . وذلك أنه طالما قال الخلفيه :
لو فرضنا أن الأموات لا يقدر على شيء ولا يسمعون شيئا ، وأنهم لا يدفنون
ولا يشفعون فدعاهم على اعتقاد أنهم قادرون ، لما كان فى ذلك بأس ولا شيء
ولكان ذلك كمن طلب القيام من مقعد ظانا أنه غير مقعد ، وكمن طلب القراءة
من أعمى ظانا أنه مبصر ، وكمن طلب من ميت حاجة ظانا أنه نائم . وحيلت
له لو لم تكن الاستغاثة بالأموات شركا ولا خطأ ، لأنهم قادرون على الإغاثة
والشفاعة والدعاء ، وهذا كاف فى تصحيح دعوتهم والاستغاثة بهم ، لما كانت
الاستغاثة بالأحجار والأشجار والصور والتماثيل شركا ولا خطأ ، فمن استغاث بها
ظانا أنها قادرة على الإغاثة والشفاعة والدعاء كان كمن طلب من أعمى القراءة ومن
مقعد القيام ومن ميت حاجة ظانا أنهم ليسوا كذلك كما قال هو وكما قال . وعلى
هذا لا يكون المستغيثون بالأحجار والأشجار والصور والتماثيل مشركين

«وام المصالح

ولا ضالين، وعليه فكفار قریش ومشركوم ليسوا مشركين ولا كافرين ، وعليه
فلا مشرك في هذه الدنيا .

﴿ ما الفرق بين العاكفين على الأصنام ﴾

﴿ والعاكفين على القبور ؟ ﴾

محاول الخالف في هذا الباب أن يكثر الفروق بين أولئك المشركين
العاكفين على الأصنام والأوثان، وبين هؤلاء العاكفين على الأجداث المنقطعين
إلى الأموات . ونحن نلخص هذه الفروق هنا ، ونضع إن شاء الله كل شيء
في نصابه .

الفرق بين
المشركين
العاكفين على
القبور عند
الخالف

قال : « أما عبادة المشركين للأصنام والأوثان فهي أنهم عمدوا إلى أصنام
من حجر أو نحاس أو خشب أو غيرها على صور قوم صالحين متوهمة أو غير
متوهمة عملوها بأيديهم ، وإلى أشجار فعبدها من دون الله وسجدوا لها ونحروا
وذبحوا وأهلوا بنياتهم لها وذكروا أسماءها عليها دون اسم الله ، وطلوها بدمائها
وطلبوا منها كل ما يطلب من الله ، وأعرضوا عن عبادة الله فكانوا يقولون :
لا طاقة لنا على عبادة الله ، فنحن نعبد ما لتقربنا إلى الله . وهذا صريح في أن
عبادتهم لها غير طلبهم الشفاعة منها ، وتشفعوا بها وخالفوا أمر الله وأنبيائه في
نهيهم عن عبادتها وطلب شيء منها ، وخالفوا مقتضى عقولهم الحاكمة بأنها جماد
لا تضر ولا تنفع ، ولا تمقل ولا تسمع ، ولا تقرب ولا تشفع ، ولو كانت على
صورة نبي أو صالح . فان الشافع هو النبي أو الصالح لا صورته المتوهمة ، ولا
تدفع عن نفسها بول الثعالب ولا تروث الدواب فوقها . ومنهم من عمل صنماً من
نمر فسجدوا له أول النهار فلما كان آخر النهار جاعوا فأكلوه . وكانوا يمينون أشياء
من حرث وتناجى الله ، وأشياء منها لأهلهم . فاذا ما زكا ما جملاوه لله رجعوا

فجعلوه للآلهة، وإذا ما زكا ما جعلوه للأصنام تركوه . وذلك قول الله : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله ، بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكون » . ولم يفعل أحد من المسلمين شيئاً من ذلك مع نبي ولا ولي ولا قبر ولا غيره . . . فهذه الاعتقادات والأعمال والتكذيب للرسول هي التي قاتلهم النبي عليها ودعاهم إلى تركها ، لا على مجرد التشفع بنبي أو صالح والتوسل به . وأما عبادتهم الملائكة فقد اتخذهم أرباباً من دون الله كما يدل عليه قول الله : « ولا تأمركم أن تتخفوا الملائكة والنبیین أرباباً ، يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ » . وفي هذا دليل على أنهم فعلوا واعتقدوا بالنسبة إليها ما هو من خصائص الربوبية من سجود ونحوه من أنواع العبادات والاعتقادات . وكانوا يقولون في الملائكة : إنهم بنات الله . وبهذا ظهر أن كفرهم ليس بمجرد استغاثتهم بالملائكة وتشفعهم وتوسلهم بهم . فالتشفع بهم ليس مخطئاً فضلاً عن أن يكون مشركاً . . . » .

ثم قال : « مع أنهم (يعني المشركين) كانوا يعبدون صور الأنبياء والصالحين لا أنفسهم » قال : « ولم يقاتلهم على مجرد التشفع بالصالحين بل على عدم قبولهم أحكام الإسلام وتكذيبهم للنبي مع ظهور المعجزات على يديه وارتكابهم الموبقات والمظالم حتى من يعبد صور الصالحين من الأتجار المنحوتة » قال : « وجميع هذه الأمور (يشير إلى الاستغاثات بالأمووات وكل ما يعمل لدى القبور) سواء بحميت عبادة أو لا لاتمد شركاً ولا كفراً ، لأن الممنوع منه الموجب للشرك هي عبادة خاصة وهي ما كان عن غير أمر الله ، أو عناداً له أو بقصد الاستحقاق الذاتي كاستحقاق الله . »

« فالمشركون كذبوا الرسول وأنكروا ما جاء به ، ومنهم من قال عيسى هو

الله . والمسلمون أقرؤا بالله وبرسوله وبكل ما جاء به . فكيف يقاس أحدهما
بالآخر ويجعل مساويا له ؟ والمشركون اعتقدوا في أحجار وأشجار وجمادات
لا تضر ولا تنفع ، ولا تمقل ولا تسمع ، ولا تفيث ولا تشفع ، سواء أكانت صور
صالحين أو غيرهم . فالشافع الصالح لا صورته - أنها تضر وتنفع وتفيث وتشفع ،
فتشفعوا بها واستغاثوا وعظموها ، ولم يجعل الله لها شيئا من ذلك ، بل نهى عن
التشفع والاستغاثة بها وتعظيمها . والمسلمون اعتقدوا أن الأنبياء والصالحين
ينفعون بدعائهم وشفاعتهم ، ويفضون بترك ذلك . والمشركون عظموها مالا
يستحق التعظيم سواء كان صورة صالح متوهمة أو غيره . فان الصور لا تستحق
تعظيما . وطافوا وتبركوا بما لم يجعله الله مباركا . والمسلمون عظموها من أمر الله
بتعظيمه حيا وميتا من الأنبياء والصالحين وقبورهم ، وطافوا وتمسحوا وتبركوا
بها لتشفعها بأجسادهم الشريفة . فهل يسوى بين هؤلاء وهؤلاء إلا جاهل أو
معاند ؟ والمشركون عبدوا تلك الأحجار والأشجار بأنواع العبادات التي نهى
الله عنها ، فسجدوا لها وذبحوا ونحروا مهلين بأسماؤها على ذبائحهم دون اسم الله ،
وظلوا بدمائها وأعرضوا عن عبادة الله بالكلية ، وقالوا : لا قدرة لنا على عبادته ،
فنحن نعبد ما لتقربنا إليه ، واعتقدوا أن لها شرفا ذاتيا واستحقاقا للعبادة
بالأشجار . فتلال واختيارا وتدبيراً . وكانوا يقولون : « اعل هبل » قاصدين أن تكون
كلمة الأصنام ودين الجاهلية هي العليا ، وكلمة الله ودين الاسلام هي السفلى .
فأعرضوا عن ذكر الله واكتفوا بذكرها . وكذبوا الرسل الذين نهوهم عن عبادتها
ولم يكتفوا بذلك بل بدلوا دين الله وغيروا أحكامه . والمسلمون لم يعبدوا نبيا
ولا صالحا ولا قبره . فهل يسوى بين عمل المسلمين هذا وبين عمل المشركين
إلا جاهل ؟ » .

هذه خلاصة الفروق التي ذكرها في هذا الباب بين المالكين على الأصنام

الأوثان وبين المالكين على القبور والأجداث . وهذه الأمور هي التي قضت
عنده بكفر الكافرين وشركهم . وقضت بأن يفرى بهم الحسام إن لم يقبلوا الاسلام .

﴿ خلاصة هذه الفروق ﴾

وهذه الفروق تتلخص على ما ذكر فيما يأتي

أولاً :- أن المشركين عمدوا إلى أحجار وأشجار وصور قوم صالحين فعبدوها
من دون الله فسجدوا وذبحوا ونذروا وأهلوا بذبائحهم لها وذكروا أسماءها عليها
دون اسم الله ، وطلوها بدمائها وطلبوا منها كل ما يطلب من الله ، وأعرضوا عن
عبادة الله ، وكانوا يقولون : لا قدرة لنا على عبادته وتشفعوا بها وخالفوا أمر الله وأمر
أنبيائه في نهيبهم عن عبادتها وطلب شيء منها ، وخالفوا حكم عقولهم بأنها جماد
لا تنفع ولا تنفع ولا تشفع ولا تمقل شيئاً ، ولو كانت صورة نبي أو صالح ، فإن الشافع
هو النبي والصالح لا صورتهما . وأما المسلمون فإنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، فكيف
يسوى بين الفريقين ؟

أعمال الفروق
بين المالكين
وبين المالكين
على القبور

ثانياً :- أن منهم من حمل معبوده بيده فعبدته كما صنع بعضهم له صنماً من
تمر فسجدوا له أول النهار ثم أكلوه آخره . وهذا لم يفعله أحد من المسلمين ،
فكيف يسوى بين الفريقين ؟

ثالثاً :- أنهم كانوا يجعلون أشياء مما خلق الله ومما رزقهم له تعالى وباسمه ،
ويجعلون أشياء من ذلك لأصنامهم . وكانوا لا يعدلون بين الله وبين خلقه في هذه
القسمة وذلك الصنيع ، بل كانوا يفضلون أصنامهم وأوثانهم عليه تعالى ، فكانوا
إذا ماتوا زكاً ما جعلوه لله عدواً فصرفوه لأصنامهم ، وإذا مازكا ونما ما جعلوه
لأصنامهم لم يجعلوا لله منه شيئاً ، وإلى هذا يشير قول الله : « وجعلوا لله مما ذرأ
من الحنث والأنعام نصيباً » الآية . والمسلمون لم يفعلوا من ذلك شيئاً ،
فمنه لانتبه ون مثلاً .

رابعاً — : المشركون اتخذوا الملائكة أرباباً وصرفوا لهم ما هو من خصائص الرب كالسجود وغيره من أنواع العبادات ، وكانوا يزعمون أنهم بنات الله . والمسلمون لم يصنعوا من ذلك شيئاً

خامساً — : المشركون كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام وردوا ما جاءهم به . والمسلمون مصدقون مؤمنون بما جاء به عليه الصلاة والسلام

سادساً — : المشركون اعتقدوا في أحجار وأشجار أنها تنفع وتضر وتشفع وتفيث . وهي لا تقدر على شيء من هذا . فتشفعوا بها واستغاثوها وعظموها ، والله لم يجعل لها ذلك ، بل نهى عنه . والمسلمون اعتقدوا أن الأنبياء والصالحين ينفعون بدعائهم وشفاعتهم ، ويضرون بترك ذلك . فلاموا إذن سواء

سابعاً — : المشركون عظموا ما لا يستحق التعظيم سواء أكان صورة عبد صالح أم غيره ، فإن الصورة لا تستحق تعظيماً ، وطافوا وتبركوا بما لم يجعل الله فيه من البركة شيئاً . والمسلمون فعلوا ذلك بمن أمر الله بتعظيمه من الأنبياء والصالحين . وشتان ما بين الأمرين والفريقين !

ثامناً : المشركون اعتقدوا أن للأصنام من الأحجار والأشجار شركاً ذاتياً ، واستحقاقاً للعبادة بالاستقلال ، واعتقدوا أن لها اختياراً وتدبيراً ، وقد كانوا يقولون لأصنامهم : « اعل هبل » يريدون أن يكون دين الجاهلية والشرك هو الظاهر الأعلى . ولم يكتفوا بذلك بل بدلوا دين الله وغيره وأشرائمه وأحكامه . والمسلمون لم يفعلوا هذا فكيف تجوز التسوية بين الفريقين ؟ ؟

هذا إجمال الفروق بين المشركين الصابدين للأصنام والأوثان وبين المستغيثين بالأموات المنقطعين إلى القبور الطالبين من سكانها جميع حاجاتهم وآمالهم الدنيوية والآخروية .

❦ لافرق بين الفريقين ❧

وهذه الفروق كلها فروق باطلة كاذبة فلا فرق بين الحزبين في الحقيقة
وبيان ذلك :

أما الفرق الأول وهو أن المشركين عبدوا الأحجار والأشجار وصور
الصلحين ، فذبّحوا ونذروا لها وتشفعوا بها - إلى آخر ما ذكر في الفرق الأول ،
إبطال الفرق فيقال : إذا سلم أن الاستشفاع والاستغاثة بالأحجار والأشجار والصور ، وأن
الذبح والنذر لها ودعاءها ونداءها وسؤالها ما يسأل الله من عظيم المطالب والحاجات
الأول إذا سلم أن ذلك شرك كله موجب غضب الله وسخطه ونقمته فقد سلم ما نازع فيه
وأقر ما كان أنكر ، ورجع إلى قول مخالفه . وذلك أن نزاعه كله قائم على أن هذه
الأعمال من الاستغاثات والاستعانات والضراحيات والنذور والذبح ليست عبادة
ما ، وليس صرفها إلى غير الله شركاً بالله ولا خلافاً له ، وليس التوجه إلى المخلوق
بها موجباً كفراً ولا ضللاً : وكان وجه هذا القول ودليله لديه أن ذلك لو كان
عبادة لما جاز أن يتوجه به إلى غير الله ، لا إلى الأحياء ولا إلى الأموات ، في
حالة من الحالات . ولكن لا خلاف في أن هذه الأمور يجوز التوجه بها إلى المخلوقين
فيجوز الاستغاثة والاستعانة بالأحياء فيما يقدرون عليه عادة ، ويجوز سؤالهم
ما في طاعتهم فعله والقيام به . ويجوز نداؤهم إلى ما يستطيعون أن يجيبوا إليه ، كما
يجوز النذر للمفقر ، والذبح للعظماء ، على معنى الاحسان والاكرام ، وكان جوابه
إذا قيل له : إن الاستغاثة بالأموات ضلال وخروج على الدين أن يقول : كلا ،
فانه لو كان ذلك كذلك لما جازت الاستغاثة بالأحياء وهي جائزة بالاجماع
فيما يقدرون عليه . فاذا قيل له : ليسوا سواء : الأحياء والأموات . لأن الأحياء
يقدرون والأموات لا يقدرون ، قال : إن الأموات مثل الأحياء سواء يقدرون
على ما يقدرون عليه بلافرق ، وقال : إذا فرض أن الأموات حقاً لا يقدرون

على شيء لم تكن الاستغاثه بهم شركا ولا ضلالا بل تكون كطلب القراءة من
الاعمى على زعم أنه مبصر ، وطلب القيام من المقعد على ظن أنه غير مقعد ،
وطلب الحاجات من الميت على ظن أنه قائم . فليس في هذا ضلال ولا شرك ولا كفر
وكان يابى أن ينزع عن هذه الحجة أو يتهاون فيها . . . فنحن حينئذ نقول له :
إذا أقررت أن الاستغاثه والاستعانة بالأحجار والأشجار والصور ، وأقررت أن
النذر والذبح لها والاستشفاع بها من أعمال المشركين التي أكره الله بها ، وقابلهم
رسوله عليها ، فلا بد أن تكون كذلك سواء أصرفت للأحجار والأشجار والصور
والتماثيل ، أم صرفت للأنبياء والأولياء والصالحين . لأن عبادة الصالحين
والأنبياء لا تجوز ، كما أن عبادة الأحجار والأشجار والصور لا تجوز . وإذا كانت
عبادة الجمادات من الأحجار والأشجار والصور كفرا وشركا بالله ، فلا بد أن تكون
عبادة الأنبياء والأولياء والصالحين كذلك كفرا وشركا بالله . إذ لا خلاف بين
الناس أن عبادة المخلوق ، مهما كان ذلك المخلوق المعبود ، من العقلاء أو من غير
العقلاء ، خروج على الدين وعلى التوحيد ، وإشراك لا ريب فيه ولا خلاف . وذلك
أن المطلوب من العباد ، المفروض عليهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا ند
وأن يصرفوا ذلك كله له لا إله إلا هو رب العالمين . وليس المطلوب منهم أن يعبدوا
فريقا من الخلق دون فريق ، وأن يختاروا لعبادتهم أفضل الخلق وأكرمهم على
الله ، أو أن يختاروا لها عقلاء الخلق دون مجاهم . ولا يختلف الناس أن عابد النبي
والولي ضال ، كما أن عابد الحجر والشجر ضال ، وأنه إذا لم يكن عابد الأنبياء
والصالحين كافرا ولا مشركا فعابد الأحجار والأشجار والجمادات كذلك ليس كافرا
ولا مشركا . وما قال أحد من المسلمين : إنه تجوز عبادة مخلوق دون مخلوق .
فاذا قال هذا الشيىء : إنه لا تصح التسوية بين الأنبياء والصالحين
والجمادات لأن الله أمر بالاستغاثه بالأنبياء والاستشفاع بهم ، وقد جعلهم أهلا

لذلك قادرين عليه ، دون الجداد ، فإنه لا يشفع ولا يغيث ولا يدعى ، فكيف يسوى بينهما ؟ قيل : نحن لا نزعم التسوية بينهما ولا ندعيها ، ولكن نقول : إذا كانت الاستغانة والاستعانة بالأحجار والصور عبادة لها وشركا بالله ، فلا بد أن تكون الاستعانة والاستغانة بالأنبياء والصالحين كذلك : عبادة لهم وشركا بالله ، كما قال الشيعي نفسه في غير ما موضع من كتابه : « لو كانت الاستغانة بالأموات ضلالا وكفرا لكانت كذلك بالأحياء » . وكما قال : « إذا لم يكن سؤال الأحياء النوث والعون والممد شركا بالله لم يكن سؤال الأموات ذلك شركا ، لأن الشرك شرك سواء أوجه إلى الأحياء أم إلى الأموات ، وما ليس شركا ليس شركا ووجه إلى الميت أم إلى الحي » . هذا معنى كلامه .

ثم نقول أيضا : هب الأموات ، من الأنبياء والصالحين ، يقدرون على ما يسألون ، وهب الأحجار والأشجار والصور لا تقدر على شيء من ذلك ، وهي حقلا تقدر ، فهل يلزم هذا أن تكون دعوة الأموات والاستعانة بهم وسؤالهم ما يقدرون عليه جائزة ، ويكون سؤال الأحجار والأشجار والصور العون والنوث ، بزعم أنها تقدر على ذلك ، شركا وضلالا ؟ إننا نقول هذا لا يمكن أن يصبح على ما ذهب إليه المخالف ، فإنه طالما زعم أن من ظن شيئا قادرا على إغاثة وعونه فاستغاثه واستعان به لم يكن في هذا الظن الخطأ ، ولا في دعائه واستعانه المبنيين على ظنه الخطأ ، ضلال ولا كفر ، بل كان ذلك كمن طلب من أعمى القراءة ظانا أنه غير أعمى . وأمثال هذا . . وقد قال هذا القول ولجأ إليه فراراً من تخطئة دعاة الأموات ، لأن مخالفه قالوا له : إن الأموات لا يقدرون ولا يسمعون ولا يشفعون ولا يعملون لمن لاذبهم شيئا ، فقال مجابوا : لو فرض أن هذا كله صحيح لم يوجب تضليل من دعاهم واستغاثهم حاسبا أنهم قادرون فاعلون ، بل هو كمن طلب من المقعد القيام حاسبا أن غير مقعد ، فليس فيه

ضلال ولا كفر ولا شيء من التائبين . ونحن نقول : إذا كان هذا صحيحا كان ردّا عليه هنا ، وإذا لم يكن صحيحا بطل قوله في دعوة الأموات ودعاتهم ، وبطل قياسه دعاء الموتى العاجزين بمن طلب من العميان القراءة ، ومن المقعدين القيام والذي نريد أن نستخلصه من كلامه هذا إقراره أنه قد كان من إشراك المشركين وكفر الكافرين استغاثتهم واستعانتهم بالأحجار والأشجار ، وسؤالهم إياها كل ما يسأل الله ، وكذا الاستشفاع بها والذبح والنذر لها ، فانه إذا أقر أن ذلك كله عبادة لتلك الحجارة ، ثم أقر بأن تلك العبادة شرك بالله ، قيل له : إن عبادة غير الله لا تجوز ألبتة ، فلا تجوز عبادة الأنبياء وأهل الصلاح ، كما لا تجوز عبادة الأحجار والأشجار . فإذا كان المستغيث المستشفع بالحجر ظانا أنه قادر كافر واجب أن يكون المستغيث المستشفع بالأموات كذلك ، لأن العبادة عبادة ، ولأن الشرك شرك ، أين وضعنا وحيث صرفنا .

على أننا نقول كما قال الشهرستاني في كتابه المال والنحل : « وبالجملة وضع الأصنام حيث قدر إنما هو على معبود غائب حتى يكون الصنم المعمول على هيئته وشكله وصورته نائباً منابه وقائماً مقامه . وإلا فنعم لم قطعاً أن عاقلاً ما لا ينحت بيده خشباً صورة ثم يمتد أنه إلهه وخالقه وخالق الشكل ، إذ كان وجوده مسبوقاً بوجود صانعه ، وشكله محدداً بصنعة صانعه . ولكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها وربطوا حوائجهم بها من غير إذن وحجة وبرهان وسلطان من الله كان عكوفهم ذلك عبادة ، وطلبهم الحوائج منها إثبات ألوهية لها . وعن هذا كانوا يقولون : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فلو كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الربوبية لما تعدوا عنها إلى رب الأرباب » انتهى قول الشهرستاني ونقول حينئذ : إن المشركين عبدة الأصنام لم يكونوا يعبدون الأحجار والأشجار فيذبحون وينذرون لها ويدعونها ويستغيثونها ويستشفعون بها ، وهم

إقراره أن من
الفرك
دعوة المخلوق
واستغاثته

كلام الشهرستاني
في أن عبدة
الأصنام
لا يعبدون
وإنما يعبدون
أحياء

يملكون انها أحجار وأشجار مجردة عن كل معنى وعن كل قصد ، فان هذا ظاهر
البطلان ، ولكنهم عبدوها رامزين بها إلى معبودات أخرى أعظم وأرق . فقد
كانوا يصنعون تماثيل الأنبياء والصالحين فيعبدونها وهم يريدون عبادة أصحابها ،
فيتوجهون إليها وهم يريدون التوجه إلى الأنبياء والصالحين أنفسهم ، كما يعبد
النصارى صورة المسيح وصورة المذراء وصورة القديسين ، وهم يريدون بلا شك
عبادة نفس المسيح ونفس مريم ونفس القديسين ، لا عبادة صورهم التي عملوها
بأيديهم والتي يحطون بها متى شاؤا بأيديهم أيضاً . ولهذا قال الرسول عليه الصلاة
والسلام عند ما ذكرت له كنيسة بأرض الجبشة ، وذكر له ما فيها من الصور قال :
« أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح ، أو العبد الصالح ، بنوا على قبره مسجدا
وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » فان القوم يصورون
صور الصالحين في معابدهم فيتوجهون إليها بالعبادة بأنواع الضراعات والاستغاثات
وهم لا يعنون سوى التوجه إلى أصحاب الصور ، ولكنهم نصبوا صورهم بين
أيديهم وتحت أبصارهم ليكون في هذا لهم تحضيض وتنشيط على العبادة والتقوى
كما قد يقصدون به الاحترام والاجلال . ولأجل ذلك كان نهى الاسلام شديدا
صريحا عن اتخاذ الصور والتماثيل ، ولا سيما إذا كانت صوراً وتماثيل لصالحين روحانيين
من الأنبياء والمرسلين . فان في هذا الخطر الأكبر ، والبلاء الأحر . وقد أتى
المشركون - أكثر ما أتوا - من هذه الناحية ، ناحية التعلق بآثار الصالحين
ومعالمهم وأطلالهم من صور وتماثيل ومعابد . وقد كان ضلال قوم نوح وفساد
حقيدتهم آتيا من هذه الناحية ، كما ذكر أهل العلم . فقد حكوا أن ودأ وسواعا
ويعوث ويعوق ونسراً كانوا رجالا صالحين في قوم نوح ، يأمرون بالطاعات
والمعروف ، وينهون عن المعاصي ، فكانوا مرضيين محبوبين في قومهم . فلما أرا
ماتوا وأرادوا استبقاء ذكراهم ، استبقوا لما كانوا يأمرون به ويدعون إليه ، صور

جبدأ شرك
المشركين من
الصور
والتماثيل

صورهم ونصبوها في معابدهم وميادينهم لتذكّرهم بهم وبما كانوا عليه من الخير والاستقامة: هكذا كانوا في بدء الأمر ثم دب فيهم ديب الفلوس ثم طفر بهم الفلوحى عبدوهم ، وقد كانوا يأمر ونهم بعبادة الله وحده، وأشركوا بهم في عبادة من كانوا ينيهونهم عن أن يشركوا به شيئاً ، ونسوا عهد الحى ، ونسوا الفرض الأول ، ونسوا ما كان عليه أولئك وما كانوا يدعون إليه من التوحيد والإخلاص لله . وقد حكى أهل العلم وأهل السير أيضاً أن هذه الأصنام كانت في العرب من بعد قوم نوح: أما ود فكان في كلب، وأما سواع فكان لهذيل ، وأما يغوث فكان لمراد ، وأما يعوق فكان لهمدان ، وأما نسر فكان لحير . ولأريب أن الذى بقى للعرب من هؤلاء هى تماثيلهم وصورهم . فكانوا يبدون الصور ويتوجهون إليها بالاذعية والضراعات والمعنى بذلك هم أصحابها. وقد كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مصورين في الكعبة في العهد الجاهلى ، وكانت أصنام العرب كذلك تماثيل وصوراً . وقد كان أعظم أصنامهم «هبل» . وقد ذكر الكلبي في كتاب الأصنام وغيره أن «هبل» هذا كان على صورة الانسان وكان من العقيق أصنام العرب الأثحر . وذكر هو وابن إسحاق وغيرهما أن «أساف ونائلة» وهما من أصنام العرب ، رجل وامرأة مسخا حجرين . وكانا ، فيما ذكرنا ، عشيقين فسقا في جوف الكعبة فسخا حجرين فنصبوهما ليتعظ الناس بهما ، فلما طال لبثهما وعبدت الأصنام عبداً معها . وذكر الكلبي أيضاً على وجه التعميم أن الأصنام معناها التماثيل ، وقال : ما صنع من خشب أو فضة أو ذهب على صورة إنسان فهو صنم ، وما صنع من حجارة فهو وثن . وهذا يدل على أن أصنام العرب وأوثانهم كلها ما كانت إلا صوراً وتماثيل لقوم صالحين أو طالحين ظنوا من الصالحين . وقد وجد حول الكعبة يوم الفتح ثلثمائة وستون صنماً مرصعة بها فجعل رسول الله يطعنها ببقوسه في عيونها وجوهرها (وهذا يدل أيضاً على ما قال الكلبي من أن الأصنام

والأوثان لم تكن سوى صور وتمائيل) ويقول حين طعنها « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » فتساقطت على رؤسها ، ثم أمر بها فأخرجت منها وحرقت . وكل هذا يدل على أنها كانت صوراً وتمائيل ذوات رؤس وعيون . وجوه . وذكروا أن اللات ، وهو من أعظم أصنامهم ، كان رجلاً صالحاً يعمل الطعام للحجاج فلما مات عبده ، وكذلك ذكر في العزى ثانياً الأصنام الكبرى . وقد قيل في صفة « ود » وهو يعبد في جاهلية العرب : « كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، عليه حلطان ، تزر بحلة مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، وجعبة فيها نبل » . وقد كان قوم إبراهيم مرضى بهذا الداء ، داء عشق التمايل ، فبعث الله خليفه إبراهيم ليدعوم إلى الله وحده ليدعوا تلك الآلهة التي عملوها بأيديهم . فدعاهم ليلاً ونهاراً فلما لم يسمعوا لدعوته ولم ينتهوا عن غيهم سطا على تماثيلهم فحماها جذاً و ترك لهم كبرهم ليتحدثوا بسؤاله واستطاقه . ولكن القوم كانوا قد بلغوا حالة لا يسمعون . معهما صريف حجة ولا يصيخون إلى جاحلة برهان . وهكذا كان غيرهم من عبدة الصور والتمايل في أول الزمان إلى آخره . وبهذا قضت سنة الله . ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

اللات والعزى
وود وغيرهما من
الأصنام لم تكن
إلا رجالاً

وقد ذكر ابن إسحاق والسكاجي أنه كان من أسباب عبادة الأصنام والأوثان . من أسباب عبادة الأصنام في العرب أن الواحد منهم كان إذا أراد سفراً حمل معه حجراً من حجارة البيت تبركا به وتعظيماً ، فكان في سفره يطوف بذلك الحجر ويتبرك به كلما طاف برأسه . الشوق إلى البيت . فظلوا ينتقلون في درجات الغلو والجهالات حتى بلغوا القمة . ، وحتى صاروا إلى عبادة الأحجار والجماد . ولا ريب أنهم ما عظموا البيت وحجارته إلا تعظيماً لبانيه وواضع قواعده ، وإلا تعظيماً لأنوار الأنبياء . وهذا الذي ذكرناه كله لا ريب فيه ، وهو يدل على أن القوم ما كانوا يعبدون .

حجارة مجردة ولا جماداً جامداً ، لا لشيء غير اعتقادهم أنه إله من حجر ، ورب المشرك لم يعبد من جماد . فان هذا مستحيل في بدائه العقول . . بل كانوا يعبدون تماثيل جاداً الصالحين وتماثيل الكواكب العلوية ويتوجهون إليها ، وهم يقصدون أصحابها . فالمعبودون في الحقيقة هم الأحياء المختارون . وعلى هذا لا فرق بين أولئك المشركين الماكفين على أصنامهم في جاهليتهم ، وبين هؤلاء الماكفين على قبورهم وأجدانهم في إسلامهم . فان الجميع عبدوا الصالحين واستغاثوهم وضرعوا إليهم واستشفعوا بهم ، والجميع عكفوا على الجادات ، إلا أن أولئك عكفوا على تماثيل وصور ، وهؤلاء عكفوا على قبور وأجدان ، ولكن الجميع جاد ، ولكن الجميع موات لا يضر ولا ينفع ، ولا يسمع أو يشفع على أننا نقول : إن هؤلاء الضالين من المسلمين قد عبدوا الاحجار والأشجار ولم يقفوا عند عبادة الأنبياء والصالحين ، حتى لقد اختلقوا لذلك حديثاً زعموه نبوياً - وقد كذبوا - وهذا الحديث هو ما شاع على أفواه العامة وأشباههم من علماء السوء ، وهو : « لو اعتقد أحدكم في حجر لنفعه » وقالوا : إن الله قد وكل بقبر كل ولي ملكا يقضى حاجات من جاء ذلك القبر فدعا واستغاث . وقد افتن هؤلاء بهذا الضلال وجنوا به حتى جاءوا بكل طريف ولون : فطوائف منهم عمدوا إلى باب صنعه بأيديهم فاعتقدوا فيه سر الأسرار ومفتاح ما أغلق من الحاجات ، واعتقدوا أن ثم قطبا من أعظم الأقطاب المنصرفين في الوجود أنواع الألهة يقضى حوائج من جاؤا إلى ذلك الباب وطافوا به وتعلقوا وربطوا به الخرق والحبال المعبودة اليوم فراحوا إليه من كل فج وصوب فتطوفوا وقبلوا وعلقوا وتعلقوا وخضعوا وضرعوا وجاءوا بكل إفك مبین . وهذا « كباب المتولى » في القاهرة . وطوائف أخرى صنعوا جملة أضرحه لميت واحد فزخرفوها وغالوا في تشييدها ورفع شأنها ، وحلوا بكل فن من الزينة وكل لون من طرائف المعلقات . فذهبوا

يطوفون بهذه القبور ويحجون إليها من كل مكان ، ويربطون بها حوائجهم وراحوا يستغيثون ويستشفعون ويسألون ويقدمون ألوان الهدايا والسذور من الأنعام والخبز والشموع والنيران .

ومنهم من اعتقدوا في شجرة وزعموا فيها سرا ، وأنه لديها تنال المآرب والحاجات . فقصدها فأملوا بركتها وشفاعتها وطلبوا حولها كل رغبة . فأريقت تحنها المدامع ، ونثرت حولها الرغبات والشكيات .

ومنهم من اعتقدوا في غار من الغيران ، لأنهم زعموا أن وليا من الأولياء أو نبيا من الأنبياء قد نزل ذلك الغار فوضع فيه أحد أسرارهِ وإحدى بركاتهِ فأصبح غارا مزورا معظما ترجى بركته وتتمهد زيارته .

ومنهم من وجدوا حجرا مخدوشا مثقوبا فزعموا أن ذلك الثقب أو الخدش أثر لأحد عباد الله الممتازين الذين تدرك بهمجي آثارهم المطالب وتنال بالطواف بها الآمال . فقدسوا ذلك الحجر وأموه ورجوه فغدا من الأحجار المزورة المقدسة . ومنهم من وضعوا حيوانا مهينا كحمار أو كلب في تربة من التراب وأعطوها هيئة المقام المقصود المزور ، فتهافت الناس إليه فزاروه ، واستغاثوه وطافوا به وقدموا له أصناف الهدايا حتى صار وليا من الأولياء الكبار . ولعل كثيرا من هذه المقامات لا تعدو حقيقتها هذا

ومنهم غير هؤلاء وهؤلاء مما هو قائم في كل مكان ، مائل في كل قطر إلا القليل العاكفون على النزر . وهؤلاء في نفس الأمر إنما يدعون جمادات ويتعلقون بأحجار وخلقان لا يرجون إلى ^{القبور} غير الجاد ^{القبور} وإن زعموا أنهم لا يقصدون غير أولياء الله المقربين ، وعبادة الصالحين الذين لهم ما يشاؤون : بل نقول . إن جميع هؤلاء المنقطعين إلى القبور والمقامات إنما يقصدون أحجارا وبنيات ، ويتعلقون بجمادات من ستائر ومعلقات وشموع ونيران والله القاطع على ذلك أن هؤلاء الحيرى يعطون القبر ويلجئون إليه ويتعلقون به .

ما فوقه وما حوله من الزينات والمعلقات ، وبقدر ما يصل اليه من النور والهدايا ، من الدليل على
وبقدر كثرة الطائفين به والمنقطعين إليه إن قليلا قليلا وإن كثيرا فكثير . ذلك
ولهذا فاتهم مثلا في مصر يعظمون البدوي أكثر من تعظيمهم للامام الشافعي
والشيخ بن سعد ، ومن تعظيمهم لأبي بكر وعمر وسائر الصحابة ، بل ويلهجون
باسم هذا البدوي عند الشدائد والملمات أكثر من لهجهم باسم النبي عليه السلام
وأسماء الصحابة وكرام الأمة ، بل لعلهم لا يذكرون أحدا من هؤلاء عند احمرار
الاقطار واتساع الآمال . وهذا هو الشأن في كل قطر وبلد : يعظم أهله صاحب
المقام الرفيع الفاخر ، دون ذي الذكر الباهر ، ويدعون من شيعت على قبره
القباب والمعلقات ، دون من شيعت حياته وسيرته على الصالحات ، وينقطعون
إلى من كثرت حول تربته النذور ، وينسون صاحب العمل المبرور . كل هذا
حق لا نزاع فيه . فاذا سألت ماسر ذلك ، قلنا لك : إن السر فيه أن هؤلاء
الجاهل لا يعبدون أشخاصا ورجالا ، ولا أولياء وأنبياء وإنما يعبدون ما يرونه من
الزينات والمعلقات والقبور والضخمة الفخمة ، والبنائات المشيدة على جبل
الجهلاء . فهذا هو ما يعبدون ، وهذا هو ما يدعون ويرجون ، وهذا هو ما يزورون
وما يقصدون . أما الطلسم الذي من أجله عبدت هذه المشاهد فهو ما يزعم فيها من
الأسرار والبركات المتدفقة اليها من أولئك الأولياء والمشايخ المجهولين . فالمعبود
هو الجهاد والخوارف ، وطلسم هذه العبادة هو أسرار قوم غائبين مجهولين . فمن قال
إن ضلال المسلمين لم يعبدوا جمادا ولا حجرا كما عبد أهل الجاهلية : فقد
كذب أو جهل .

لا يعبدون
أشخاصا وإنما
يعبدون الزينات
والمعلقات

نعم نحن لا ننكر أن هؤلاء إنما تعلقوا بهذه الجمادات وبهذه القبور والاحجار
لأنهم لا يظنون فيها من أسرار الصالحين ، وما يدعون من بركاتهم الحالة في هذه
الجمادات المائلة فيها : نعم نحن لا ننكر هذا ، ولكن نقول : إن هذا عينه هو

بلاء المشركين وقصدهم في كل عصر وعصر. فالمشرك لن يعبد الحجر وهو يعلم أنه حجر لا أكثر ولا أقل، ولكنه يعبد به ويضرع إليه لأن فيه برزعه سرا إلهيا ومعنى روحيا من أسرار ومعاني عباد الله المقربين، لأنه مثلا صورة صالح وتمثال نبي أو أثر من آثارهم، وإلا فإن عاقلا لا يمكن أن يلجأ إلى جناد مجرد من كل معنى. وعباد السكواكب والأفلاك العلوية ما عبدوها إلا لظنهم أنها عاقلة متصرفة فاهمة، ولو علموا أنها جناد مجرد ما عبثوا بها ولا قصدوها بشيء من عباداتهم. ولا ريب في هذا عند من أعمل النظر وأحكم الفكرة. فإن العاقل لا يمكن أن يرغب في غير العاقل. وما ضرع الحى إلا الحى أو لجناد يحسب أنه ينسب إلى الأحياء، وإلى معنى معانيهم وسر من أسرارهم. والناس كافة مجبولون على الاعتراف بنقصان الميت وفاقد الحياة والشعور. فعابد الجناد إنما يعبد في زعمه حيا عاقلا أكل منه حياة وعقلا، وهذا هو السر في عبادته إياه. ولولا هذا الهم الخاطيء لما استجاز لنفسه أن يعبد به وأن يرغب إليه ولوجد في نفسه وإنسانيته من الأنفة والكبرياء ما يسمو به على عبادة الجناد وعبادة فاقد الحياة. وقد كان العرب المشركون يقولون في أصنامهم ومعبوداتهم من دون الله: إنها تقربنا إلى الله زلفى، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويقولون: «تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهم لترتجى» وهم يعلمون بداهة أن الأحجار والأشجار المجردة عاجزة عن أن تقرب أحداً إلى الله، وعن أن تشفع لاحد لديه تعالى، وعن أن تعلم من أمر عابديها شيئا. ويعلمون بالضرورة أن الذى يشفع ويقرب ويعلم هو العاقل الحى. وهذا علم يشترك فيه خاصة الناس وطائفتهم. فالمشركون الماكفون على الأصنام والأوثان يعبدون أصناماً وأوثاناً يظنونها عاقلة فاهمة عالمة كحال عبدة القبور ولا فرق. وقد اعترف الشيعى هنا أنه قد كان من شرك المشركين دعاؤهم صور الصالحين، وسؤالها ما يسأل الله، وذبحهم ونذرهم لها، واستشفاعهم بها. ومما

«الاحسان لا يمكن ان يقصد بعبادته غير الحى»

لا شك فيه أنهم إذا دعوا الصور واستغاثوها واستشفعوا بها وسألوها فأنما يريدون داعي الصورة بذلك كله أصحابها أصالة وقصدًا . أما الصور نفسها فلا ريب في أنهم يعلمون لا يدعو غير أنها لا تستجق عبادة ولا شيئاً ، ويعلمون أنها عاجزة عن أن تعمل عملاً وعن أن تقدم أو تؤخر ، أو تدعو وتشفع لمن دعاها واستشفع بها ورجع إليها كل وقته وحياته . فداعى الصورة لا يدعو في قصده صورة ولكن يدعو صاحبها . وهذا أمر لا يجهله أحد ولا يخفى مكانه على أبلد الناس طبعاً ، لا على أحد من المشركين ولا على أحد من المسلمين . فإذا كان داعي صورة الصالح - وهو لا يدعو في نفسه يقيناً غير الصالح نفسه - كافراً مشركاً ، باعتراف المخالف ، فلا شك أن مثله العاكف على القبور ، الداعى لأصحابها ، المنقطع إليهم . فان الداعى للقبور العاكف عليها ، الفازع إليها لم ير صالحاً يدعو ، ولا نبياً يرجوه ، وإنما رأى بناء مشيداً ، وقبرا مشرقاً منخرقاً يدعى ويقصد ويؤمل ويرجى ، فراح يدعو مع الداعين ، ويسأله مع السائلين ، ويضع على عاتقه آمانه الطوال العراض ، على زعم أن الذى أمامه عبد من عباده تعالى ، أعطاه ربه التصرف المطلق أو المحدود ووهبه الدلال عليه ، حتى إن له ما يشاء لديه ، وحتى خصه بالقدرة والكمال ، وبالقوة الفاعلة . ومثل هذا داعي الصورة سواء . ولا يمكن أن يوجد فرق بين داعي صورة الصالح المنقطع إليها ، وبين داعي قبره المنقطع إليه . ولهذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يجمع بين الصور والبناء على القبور في النهي الشديد فيقول في أصحاب الصور والقبور : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » . وقد قال على بن أبى طالب لأحد أصحابه : ألا أبئثك على ما بعثني عليه رسول الله ؟ ألا تدع قبراً مشرقاً إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته . رواه مسلم في الصحيح . وقد نهى الاسلام أشد النهى عن هذين الأمرين ، أعفى الصور

والبناء على القبور ، وذلك لما يؤدى ان اليه من الاضرار بالعقائد والافساد للنفوس . وقد تجلت حكمة الاسلام فى النهى عنهما واضحة ظاهرة فى هذا العصر ، فان فتننا الصور والبناء على القبور أصبحت اليوم لا تخفى على أحد إلا هالك . أما الصور فقد أفسدت القلوب ، وأما القبور فقد أفسدت العقول . فالأولى مادة الشهوات الهوجاء ، والثانية مادة الشبهات على التوحيد وعلى عبادة الله وحده ، ومادة الاشرار والضلال الأبعد . والشهوات والشبهات - أو الفسوق الذى مصدره الشهوة ، وضلال العقيدة الذى مصدره الشبهة ، هما غذاء ومثار مافى هذا الوجود من بلاء ومنكر عظيم . فالتقبر المزخرف المشرف هو والصورة فرسارها فى الدعوة الصامتة الندية الحارة إلى إضلال العباد ، وإمراض النفوس والفطر ، والاخلال بالتوحيد والایمان الصحيح فى هذه الأنفس المغبونة الخيرية . والله من وراء كل شئ .

فاعترف الشيعى بان دعاء الصور والاستغاثة والاستعانة والاستشفاع بهاء شرك بالله ، اعترف منه صريح بأن دعاء القبور والاستغاثة والاستعانة والاستشفاع بها كذلك أيضا شرك بالله .

زعمه أن
المشركين
لا يعبدون الله

أما زعمه أن المشركين قد أعرضوا عن عبادة الله قائلين : إنه لا طاقة لنا بعبادته تعالى ، فزعم كاذب ، فان المشركين لم يعرضوا عن عبادة الله ، ولم يقولوا : لا قدرة لنا على عبادته . بل كانوا يعبدونه تعالى أصناف العبادات ، ولكنهم كانوا يشركون معه آلهة أخرى لا برهان لهم بها . وكانوا - كما قدمنا الدلائل - يخلصون الدعاء والعبادة حين الشدة والبلاء ، وينسون كل ما سواه تعالى ، ويخلصون اليه وحده لا شريك له كما قال تعالى : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » ، وكما قال : « وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » . والآيات فى هذا كثيرة معلومة .

وقد كانوا يحجون لله ويحافظون على كثير من شعار الحج ويقولون في تلبيتهم:
« لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك » ، فالمشركون
لم يعرضوا عن الله ودين عبادته ، ولم يقولوا إنه لا قدرة لنا على عبادته تعالى . فهذا
الذي قاله المصنف الشيعي كذب لا يقوم له ظل من الحق . وما كان بلاء المشركين
إلا الشرك الذي هو بلاء هؤلاء العاكفين على القبور أيضا .

أما مسألة سجد المشركين للأصنام والأوثان فلا أعرف أكانوا يسجدون لها السجود للاست
حقيقة أم لا . والذي ذكره القرآن وأطنب في ذكره ، ولما على المشركين ،
وأطنب في نعيه هو دعوتهم الأصنام وعبادتها . أما السجود فلا أذكر له دليلا ،
على أنه لا مانع من أن يكونوا فعلوه حقا ، فهم مشركون ضلال .

وقد وقع هذا من هؤلاء الضلال الخبيثين ، العاكفين على القبور ، المسلمين وقوع هذا
فيما زعم الخالف وأنصاره ، فهم يرتمون على الأعتاب والأبواب بلا خلاف المسلمين
يقبلونها ، وهذا هو السجود عينه ، أو هذا ما لا يكون إلا بالسجود . فالسجود واقع
من المسلمين أنفسهم . هذا من المسلمين غير الشيعة ، أما الشيعة فأنهم يسجدون
للقبور صراحة سجودا كاملا كسجود الصلاة . وكل الذين ذهبوا إلى بلادهم ، مثل
النجف وكر بلاء ، رأوا ذلك بأعينهم .

أما إهلال المشركين بذبائحهم للأصنام ، فالإهلال هو رفع الصوت في أصل
اللغة ، والمسلمون فعلوا ذلك كما سوف يجيء فأنهم رفعوا عقائرهم وأصواتهم قائلين:
هذا عجل البدوي ، هذا عجل الدسوقي ، هذا نذر فلان وفلانة ، وهذا مما لا
ينكر ولا يجحد

وأما طلاء الأصنام بدماء الذبائح فالمسلمون قد طلوا القبور وأفنية القبور طلاء الأصنام
بدماء قرابينهم للأموات ، وهداياهم للقبور ، وقد قدروها بالقول والخبز والمأكولات بالدماء
الأخرى التي يهدونها وينذرونها لها .

ذكر اسم المخلوق
على الذبائح

وأما ذكر اسم غير الله على الذبائح ، فهذا إن كان قد فعله المشركون دون المسلمين ، فقد فعل المسلمون ما هو شر منه ، فإن سؤال الموتى غفران الذنوب ، وهداية النلوب ، وكل ما لا يقدر عليه إلا الله - وهذا كله يجيزه الشيعي ويفعله هو وطائفته - شر من ذكر اسم الميت على النخيرة بلاريب ، كما لا ريب في أن نذر البهائم وتقديمها إلى الأموات ، ونحرها لدى قبورهم وفوقها ، وما يلزم ذلك من ضراعات وتوسلات واستغاثات ، أقبح عند الله وعند المؤمنين من ذكر اسم الميت على النخيرة . على أننا لا نستبعد أن يكون ذلك قد فعله هؤلاء الضالون الجاهلون ، ولا سيما ضلال الشيعة وجهالهم . فإن لهم الأعاجيب في هذا الباب . وقد قدمنا أن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام قد أخبر في غير ما حديث أن طوائف من أمته سوف تقع في جميع ما وقعت فيه الأمم الذاهبة من الضلالات والجهالات . وقد صدق الله وصدق رسوله عليه الصلوات والتسليمات .

إبطال الفرق
الثاني

وأما الفرق الثاني - وهو أن منهم من عمل معبوداً بيده فعبدته - فالجواب أن يقال إن عبادة غير الله قبيحة باطلة ، سواء أكان ذلك المعبود معمولاً بيده عابده أم يبدخالقه . وليست عبادة المخلوق قبيحة منسومة لأن ذلك المخلوق صنع ذلك العابد ، بل لأن المعبود مخلوق عاجز لا يليق أن يعبد مخلوق عاجز مثله . فكلما لا يصح أن يعبد هذا المخلوق ذاك المخلوق لا يصح العكس ، أعني أن يكون المعبود عابداً ، والعابد معبوداً . فالمخلوق يجب أن يكون أبداً عابداً لا معبوداً ، ومن الظلم والجهل الخروج به عن منطقة العبودية إلى منطقة الألوهية . ومن الظلم والجهل أيضاً أن تعبد عبداً مثلك يعبد هو خالقك وخالقه وخالق كل شيء . فالأشراك بالله إثم عظيم سواء أصنعت ذلك الشريك بيديك أم صنعه الله . فانه إذا كان من القبيح الباطل أن تعبد صنما عملته بيديك وقدرتك كان من الأقيس والأبطل أن تعبد عبداً خلقه الله تعالى لعبادته، وخلقته ليدعوك

ويدعو غيرك إلى عبادته وحده ، وإذا كان من الأثم والغباء أن تعبد جهاداً لم يكن أقل منه غباء وإثمًا أن تعبد نبيّاً بعثه الله للدعوة إلى التوحيد المطلق الخالص ولتعظيم الشرك وتعظيم أسبابه ووسائله وغاياته . فهذا الفرق لا حقيقة له البتة .

على أننا نقول أيضاً إن هؤلاء المسلمين قد صنعوا أشياء بأيديهم فعبدها كالفعل المشركون قبلهم . فإن هؤلاء كما ذكرنا يعبدون القبور والقباب والأعتاب والأبواب التي صنعوها بأيديهم ، والتي قد يكون صانعها غير مسلم وغير مؤمن بالله . ولولا هذه البنايات والقباب والزخارف والمساجد والأشياء الأخرى القائمة على الموتى لما وجدت هؤلاء الطائفتين المقبلتين الباكين الخاشعين الشاكين . . .

فكل ما تراه اليوم فوق الأضرحة من الضلال والجهل هو في الواقع موجه إلى هذه الزخارف المحمولة على القبور . فإنه لولا ذلك لما عرفوا ذلك الميت ولا حفلاً ولا تعلقوا به ، ولا بالوه أو عرفوه ، ولا طلبوا منه حاجة من الحاج . ولهذا فإنه قد يكون ذلك الميت المقصود المعبود فاسقاً أو غير مسلم ، من الكافرين بالله العظيم ، وقد يكون حيواناً قادراً ، وقد يكون قبراً مجرداً ليس فيه شيء للإنسان ولا حيوان ، ليس غير الوهم والزور والجهل الفاضح . وهذا كثير . وقد صرح أن جماعة رأوا ما يكسبه سدة القبور من الصدقات والهدايا والنذور فاحتالوا لذلك ، فجاءوا بحمار ميت فدفنوه وأقاموا عليه قبة ، وزعموا للناس أنه مقام يحوى شيئاً كبيراً ، فأقبلوا على زيارته والطواف به ، وجادوا عليه بالصدقات والقرايين والهدايا . وراح المغفلون يتوسلون بذلك الشيخ الحماري ويستغيثونه ويسألونه الشفاء وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات . . . ولعل أمثال هذا كثير ! ولعل الكثير من هؤلاء المشايخ والأولياء - في زعم الجهلاء - حمير أو كلاب أو أقل من ذلك . وقد كان فريق من الناس إذا أرادوا أن يبقى ما حول دارهم نظيفاً غير ملوث بالقاذورات والنجاسات المتراكمة في الأحياء القنرة - يقيمون بناية

المسلمون يعبدون ما يعملون بأيديهم

عبادة الحيوان

تشبه الضريح ، ويكتبون عليها اسم شيخ مكذوب مزور لم يخلقه الله ، ثم يزعمون للناس أن تحت ذاك البناء شيخاً كبيراً وولياً خطيراً . . . فيتحاشى الناس تقدير ما حوله . وأخيراً يصير ذلك البناء ولياً عظيم القدر والجاه ، كثير الزوار والطائفين ، الراجين البركات والشفاعات .

فهؤلاء في الحقيقة يعبدون ما يعملون بأيديهم بل ويعبدون شراً مما عملوا .
وأما الفرق الثالث - وهو أن المشركين كانوا يجعلون لأصنامهم نصيباً مما خلق الله ، والله نصيباً ، ثم لا يعدلون بين الله وبين أصنامهم في قسمة تلك الأنصبة - فالجواب أن المسلمين قد فعلوا ذلك كله بلا شك ولا ريب . بل لهم فعلوه بشكل هو أفظع وأقبح مما فعله المشركون قبلهم . فلقد جعل القوم أكثر نذورهم وقرابينهم للمشايخ وأصحاب القبور : فسيبوا السوائب المنسورة للمقامات والأموال وتركوها كحمام مكة صيدهن حرام ، لا يصاد ولا يطارد ولا يؤذى . فعجل البدوى ينهب ويأكل ويرعى حيث شاء : لا يستطيع مالك أن يطرده من ملكه ، ولا صاحب أرض أن يخرجها منها وإلا نزل به أشد العذاب والعقاب من هلاك أولاد وذهاب أموال إلى ألوان من المصائب والآفات طائنين بالله وحده من السوء والبلاء . بل إن هؤلاء الحيرى يتهيبون التعرض لسوائب المشايخ ، ويفرون من وجوها اتقاء غضبهم وحذار عقوبتهم ، فينذر بعضهم بعضاً ذلك قائلين : إياك وعجل الشيخ ، إياك وجاموس البدوى . وهذا معروف للناس جميعاً لا يخفى على أحد منهم . ويقل أن يوجد أحد من أهل طنطا المدينة التي فيها البدوى ، أو أحد من أهل القرى والكفور حولها ، لم يجعل لهذا البدوى شيئاً من ماله وحيواناً من حيواناته ، فيسميه باسمه ، فيقول عجل البدوى أو مال البدوى . وقد ينذرون البهيمة هي وما تلد للشيخ ، فيقولون في نذورهم هذه البهيمة هي وأولادها ، أو نصف أولادها ، وقف على الشيخ أو على صندوق

إبطال الفرق

الثالث

السوائب
البدوى ولغيره
من الأموال

الشيخ ، ولو قدر أن أحد هؤلاء لم يف بنذره أو تهانون في الوفاء به ، فأصيب بمصيبة سماوية أو أرضية لما شك في أن تلك المصيبة عقوبة من الشيخ جزاء غدره بنذره ، وجزاء تفريطه بحقه . ولأجل هذا تجد القوم يتحاشون الإخلال بما نذروه للمشايخ والأموات ، ويهابون ذلك أشد الهيبة . ولو أن أحدهم نذر الله نذراً خالصاً ونذر للشيخ نذراً آخر لا جترأ على الإخلال بنذر الله ، ولأحجم عن الإخلال بنذر الشيخ . ولو كان لا مندوحة له من الإخلال بأحد النذرين لما تردد في أن يخل بنذر الله دون نذر الشيخ . وهذا ، وأأسفاه ، يعرفه الخاص والعام .

وقد آمن الله على أهل بيت من المؤمنين فعرفهم العقيدة الصحيحة السليمة من شوائب الاشرار والابتداع . وكان أهل هذا البيت قبل ذلك من المعتقدين في البدوى : يقدسون إلى مقامه النذور والنحائر ، وإلى صندوقه الأموال والصدقات . . . فكفوا عن ذلك إيماناً بالله وتوحيداً وعبادة له وحده . وكان لأهل هذا البيت المؤمن الموحد قريب من العلماء الرسميين . فخال هذا العالم أن دنيا هؤلاء الأقارب قد نقصت ، ثم خال ثانياً أن ذلك النقصان مصدره ما طرأ على أهل البيت من العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص والاقطاع إلى الله والرغبة إليه وفيه وحده لا شريك له . فلم يستطع هذا العالم أن يكتف ذلك عن أقاربه ، فصرح لهم بأن ما طرأ عليهم من تحول الحال راجع إلى ما طرأ على عقيدتهم من الايمان بالله وإخلاص العبادة والدين له ، فنصّح لهم بالرجوع إلى سيرتهم الأولى وإلى تقديم النذور والهدايا إلى البدرى ليرجع إليهم ما ظن أنهم فقدوه من رغد العيش ، ووفرة المادة . وإذا كان هذا رأى العلماء وقولهم فماذا عسى أن يكون رأى العامة وقولها ؟

تعبيد الاسماء

وعندى أنه لا يقل عما فعله المشركون من جعلهم بعض ما خلق الله من الحرث لغير الله

والانعام للأصنام والاولئان تعبيد الأسماء لغير الله ، بل لعل هذا من هذا . وذلك كأسمائهم عبد الحسين ، وعبد علي ، وعبد النبي وأمثالها من التعبيد للمخلوق . فان هؤلاء قد جعلوا لغير الله نصيباً من أنفسهم ومن ذرياتهم وأهليهم . وهذا لا يقل إثمًا وفضاعة عن جعل الحرث والانعام التي خلقها الله للأصنام والاولئان .

ومن العجيب أن هذا الشيعة ذكر في هذا الباب ما ذكره بعض أهل العلم من أن بعض العوام يشترون أولادهم من المشايخ والأموات بأشياء من أموالهم يمحرونها على الأضرحة والصناديق كل عام . فدافع الشيعة عن هذا الضلال وزعم أن له وجهاً صحيحاً إذا صح أن أحداً من المسلمين فعله . ولا ريب أن أحداً لا يشتري من أحد شيئاً إلا إذا اعتقد أنه ماله وصاحبه . وإلا لو علم أنه ذلك ملك لله وحده لا شريك له ما أمكن أن يشتريه من أحد غيره ... فهؤلاء

أنصبة المشايخ في المعتدين أنهم مالكون لذلك متصرفون فيه وفي بيعه وشراؤه . فقد جعلوا أولاً ما خلق الله فيهم من الأنفس البشرية ، لامن الحرث والانعام فقط ، للأشياء ثم اشتروا ذلك منهم ثانياً بنصيب آخر من أموالهم جعلوه لهم ثمن ما أخذوه منهم من الأولاد والذريات . فقد جعلوا ، كما ترى ، لغير الله من الموتى نصيباً من أولادهم وملكهم إياهم بحيث يحق لهم أن يتصرفوا فيهم تصرف بيع وشراء ، ونصيباً آخر من الأموال ، ونصيباً ثالثاً وهو حق التصرف فيما وشراء ، ونصيباً رابعاً وهو القدرة على البيع والشراء ، ونصيباً خامساً وهو ملك الأحرار واسترقاقهم : هذا كله واقع من هؤلاء المسلمين الذين يزعم هذا الشيعة أنهم لم يجعلوا لغير الله نصيباً من الحرث والانعام . وهب أن هذا لم يقع منه شيء فالحال يدافع عنه ويزعم أن له في الإسلام وجهاً صحيحاً مقبولاً سائلاً شرعاً وعقلاً ، فلنا إذن أن نؤاخذه ونحمله تبعته ومافيه من إثم وعناد لدين الله ومحاذة له . ولن نجد من يقول لنا أخطأتم إذا

ما قلنا إن هذا شر لم يصل إليه المشركون الذين جعلوا لشركائهم نصيباً من الحرث والآنعام قائلين : هذا لشركائنا .

وأما زعمه أن المشركين ما كانوا يعدلون في قسمتهم بين الله وبين الأصنام حتى صرفوا للأصنام ما جعلوه لله ، ولم يصرفوا شيئاً مما جعلوه للأصنام له تعالى ، فيقال : إن هذا من القوم قائم على إرادتهم تعظيم الله وتقص الأصنام . وذلك أنهم زعموا أن الله غنى عن كل شيء فلا يضيره أن يجعلوا بعض ما جعلوه له لأصنامهم لأنها فقيرة محتاجة ، وأما ما جعلوه لها فلم يجعلوا منه شيئاً لله السبب نفسه ، وهو غناه تعالى وفقرها هي . فكأن مراد القوم الاعظام من شأنه تعالى والخط من شأن الأصنام .

ولكن هؤلاء
يندرون
للأموات
دون الله

وهؤلاء المسلمون قد فعلوا ما هو شر من هذا كله وأفطع ، وذلك أنهم ، في الغالب الكثير ، يقدمون القرابين والهدايا والنذور للأموات دون الله ، فيندرون للبهوى وللرفاعي والدسوقي ، مثلاً ، ويقولون جداً أن يندروا لربهم من ذلك شيئاً ، ويجعلون للشياخ ولقاداتهم ومقاصيرهم ما يجعلون مما تزدهم به تلك الأضرحة ، وتضيق به أفئدتها كل عام ، ولكنهم لا يجعلون لله شيئاً ، ولا تجود أنفسهم بشيء مخلصه له تعالى وحده لا شريك له . ولهذا فانك مهما دعوت هؤلاء النعم إلى فعل الخيرات وبسط أيديهم إلى الانفاق على ما فيه رضا الله وطاعته ، وما فيه نفع الأمة والدولة كالتصدق على الجمعيات الخيرية ، وعلى بناء المصحات ودور العلم ، وعلى المنكوبين من المسلمين ، وعلى المجاهدين في سبيل الله ، الذائدين عن حقائق الاسلام ، وعن دياره ومقدساته ، فلن يولوك ، مهما دعوتهم إلى ذلك ، غير أقفائهم وهزأ كتافهم ، ولن يسمعوك سوى ألوان التعلات الشحيحة البخيلة . أما الأضرحة والمقامات فانهم ينثرون عليها الأموال من كل جانب بسخاء وجود واغترباط ورضا ، وهم لا يحتاجون إلى من يذكرهم بذلك . ولا إلى من

يدعوم إليه . وهم يلمون أن ما تنفق في هذا السبيل إنما ينهب إلى جيوب الأغنياء وشواتهم ، وإلى جيوب الكسالى البطالين من السدنة الدجالين الكذابين ، والسائلين القنرين الذين يصدون الناس عن غشيان بيوت الله وإجابة داعي الفلاح والصلاة ، هروباً من وقوفهم لهم بالمرصاد وبسائر الأبواب يستجدون ويلحفون ، ويضرعون فيكادون يكفرون ويشركون ويبالغون في استجدائهم وسؤالهم ، حتى ليكادون يضمنون أيديهم في جيوب الناس يستخرجون منها الصدقات والمكوس التي فرضوها على المصلين . وإن الجواد كل الجواد هو الذي يستطيع أن يفلت من أيدي هؤلاء اللصوص الكرماء الشرفاء المجاهرين بصنعتهم هذه قبل أن يسلبوه بعض ما يملك قسراً وغلاباً .

وبسط هؤلاء أيديهم إلى الاتفاق على القبور وسدنتها ، وكفها عما أوجب الله الاتفاق فيه يشهد شهادة لا ترد على أن القوم قد بلغوا حالة من نسيان الله ونسيان أوامره ونواهيه قد قصر عن بلوغها أولئك الأبطال الذين قال الله فيهم : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرت والانعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا » .

وأما الفرق الرابع وهو أن المشركين قد اتخذوا الملائكة أرباباً وعبدوم
الرابع
أنواع العبادات ، وزعموا أنهم بنات الله ، فيقال : نعم ، إن المشركين قد عبدوا الملائكة كما عبدوا الصالحين من البشر والأصنام والأوثان والجن . وليس عبادتهم الملائكة بشر في الشرع والعقل من عبادتهم الأموات والتماثيل والصور والأصنام والأوثان والجان . بل كل ذلك قبيح ، ولكن عبادة التماثيل والصور والأموات الغابرين أقبح . وليس الذين عبدوا الملائكة بأفضل ولا أجمل من هؤلاء الماكفين على القبور الطائفين بها ، المنقطعين إليها ، الداعين لها ، الهائنين بها . فإنه إذا كانت عبادة الملائكة باطلة كانت عبادة الموتى أبطل

وإذا كان الداعى للملائكة المستغيث بهم ضالاً كان داعى أهل القبور المستغيث بهم أضل وأجهل ، وإذا كان السجود للملائكة شركاً بالله - كما يبدو من كلامه هنا - فلا ريب أن سؤالهم غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وكل ما يسأل الله من عظيم المطالب والحاجات - وهذا كله جائز عند المخالف - أعظم إشراكاً بالله . وإذا لم يكن السجود للملائكة ، وسؤالهم كل ما يسأل الله ، من أعظم الأشياء إلى أحقرها ، عبادة لهم وشركاً بالله العظيم ، فماذا يمكن أن تكون عبادتهم ؟ وماذا يمكن أن يكون الشرك بالله ؟

وقد زعم الرافضى فى خير موضع من كتابه أنه تجوز الاستغاثة بالملائكة ، دعاء الملائكة وسؤالهم ضرور الحاجات ، صغيراتها وكبيراتها ، والاستشفاع بهم والدعاء والنداء . والسجود لهم لهم كما زعم أن الله قد استعملهم فى تصريف الكون وتدبيره والقيام عليه وبه وعلى سائر شؤونه الشكوينية ، فالملائكة عنده يستغاثون ويدعون وينادون ، ويهتف بأسمائهم عند الشدائد واللزبات ، ويضرع إليهم حين الرهبة والرغبة ، ويقدرّون بأمر الله على ذلك كله . . . فن زعم أن الملائكة قادرون على إغائته ، وعلى إعائته ، وعلى نفعه وضره ، وعلى إحيائه وإماتته ، وعلى إغنائه وإفقاره . . ثم بعد ذلك عكف على دعائهم وندائهم وسؤالهم حاجاته ومطالبه الصغيرة والكبيرة صارخاً ضارعاً - : فهو مؤمن حقاً ، لم يزعم باطلاً ، ولم يقل منكراً ، ولم يذهب إلى ما ينكره الدين أو يأباه التوحيد ، أو ينفيه النظر والعقل . وإذا كان هذا كله لدى المخالف من الاسلام الصحيح الذى جاء به محمد من لدن ربه ، فماذا يكون الاشرار بالله ، وماذا تكون عبادة الملائكة والمخلوقين ؟ ؟ أهو يحسب أن ذلك هو الاعتقاد بأنهم خالقو الوجود والعالم كله ؟ إن المشركين أنفسهم كانوا مقرين لله بأنه خالق كل شيء ، قائم على كل شيء فى الأرض أو فى السماء كما قدمنا الدلائل عليه من شهادات القرآن والسنة وكلام العلماء وأقوال المشركين أنفسهم .

على أن هذا أيضا ليس كفرا ولا شركا لدى الرافضة. فإننا قد قدمنا أنهم يعتقدون بأن النبي عليه الصلاة والسلام هو الخالق الموجد للعالم ، وهم مع ذلك يدعونه لكل شيء ويسألونه كل شيء ويطلبون منه كل ما يطلبون من الله ، وهم بمسد ذلك لا يرون أنهم أشركوا ولا كفروا ولا ذهبوا إلى باطل . إذن هم لا يعتقدون أن دعاء المخلوق وسؤاله كل شيء مع اعتقاد أنه خالق كل شيء كفر ولا شرك ولا ضلال . أم هو يحسب أن عبادة الملائكة وإشراكهم بالله هي السجود لهم فقط ؟ لا ريب أن العبادة ليست هي السجود خاصة ، ولا ريب أن الاشراك بالله ليس هو السجود للمخلوق خاصة . ثم لا ريب أن سؤال المخلوق كل ما يسأل الله من ضرور الحاج مع الخضوع والخشوع وألوان الضراعات أدخل في فنون الشرك بالله من السجود المجرد لغير الله . ثم لا ريب أن المخالف لا يستطيع أن يورد دليلا واحدا يدل دلالة صادقة ظاهرة على أن المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة كانوا يسجدون لهم . ثم لا ريب أن من زعم أن من الاسلام ودين الله الحق الاستغاث بالملائكة وسؤالهم الحاجات والدعاء والنداء لهم ، فقد زعم ما ترده الضرورة وما ينفيه الاجماع ، وما يكذبه الدين جملة وتفصيلا بروحه ونصوصه ، ثم لا ريب أن من زعم هذا قاضاه هذا الزعم أن يزعم أيضا أن دعاء الجن من الاسلام والدين الصحيح الاستغاث والاستعانة بالجان وبما خلق الله في وأهل الجنة الجنان ، من الحور والولدان ، وبكل ما خلقه تعالى ممن له بعض القدرة والقوة ، ومن بلغت به شبهاته وحججه أن يجوز الاستغاث بالملائكة والجان وأهل السماء والأرض وأهل الجنة ، وسؤالهم كل ما يسأل الله من غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، والتنقيب إلى الجنة ، وإلى رضا الله ، والابعاد من النار ومن كل ما يسخط الله - كما يزعم هذا الرافضي - فقد بلغ حالة يعسر معها العلاج وينهب الدواء معها باطلا . فإن من أعظم ضرورات الاسلام عند المسلمين بطلان القول بدعوة

الملائكة والجان والاستغاثة بهم ، ومن أعظم الضرورات عندهم أن الاستغاثة بهم هي عين الشرك بالله الذي أحل به على المشركين عذابه وعقابه . وقد حكى تعالى في كتابه أن قوماً من العرب كانوا يعبدون الجن ، وأنه كان من عبادتهم إياهم ، أو أن عبادتهم إياهم كانت هي العوذ بهم . فقال تعالى : « وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهتما » وقد ذكروا في تفسير الآية أن الرجل كان إذا هبط وادياً مرهوباً قال عند ذلك : « أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه » يطلب إلى زعيم الجان أن يحجز شرار الجن عن أذاه ومسه بسوءه ، فكان ذلك نفس الاتراك بالله . ولا شك أن الاستغاثة بالجن وسؤالهم ضروب المطالب والحاجات أبلغ في الضلال من الاستعاذة بسيد الجن من شر سفهاءهم . وقد قال تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً » قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كان نفر من الانس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن واستمسك هؤلاء بعبادتهم ، فأنزل الله الآية . وظاهر من الآية الكريمة أن عبادتهم إياهم كانت بدعائهم وندائهم كما كانوا يقولون حين هبوط الأودية الخيفة : « أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه » . وهذا ظاهر من ظاهر الآية ، فان قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه » دليل ظاهر على أن الأسماء التي أنكره الله عليهم هو دعاؤهم إياهم حاسبين أنهم يجيبونهم ويهبتونهم ما يسألونهم إياه ، أو يدعون الله لهم فيجيب ، ولهذا يحجزهم وأبطل دعوتهم ودعواهم بقوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه » فليجيئكم إلى ماتدعونهم إليه من الخير إن كنتم صادقين ، ولكن هيهات لما ترجون وتطلبون ، فان من تدعون عاجزون « فلا يملكون كشف الضر عنكم » كما لا يملكون

نحويله إلى سواكم ، فما أضلكم إذن ، وما أضل من يدعو من دون الله من لا ينفعه ولا يضره ولا يستجيب له إلى يوم القيامة » ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . ثم قوله : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » الآية ، دليل آخر على أنهم كانوا يدعونهم يبتغون منهم أن يقربهم إلى الله وأن يكونوا لهم وسيلة لديه تعالى لنيل رحمته والنجاة من عذابه ، فرد الله عليهم ذلك بأن الذين يدعونهم هم يدعون الله ويطلبون الوسيلة التي هي القرب منه ، وهم يرجون رحمته ويخافون عذابه : فهم يطلبون ما تطلبون ، ويرجون من الله ما ترجون ، ويخافون ما تخافون . ومن ذا يطلب الرى من صديان هو يطلب الرى لنفسه ، أو من ذا يطلب الغنى من فقير هو يطلب ذلك الذى يطلب منه ؟ وهل تطلب من مقعد أن يعرج بك إلى علالى السموات وأعالى الملكوت ؟ فما أجهل الانسان ، وما أضعف الطالب والمطلوب ، والعابد والمعبود !

فلا ريب عندنا أن دعاء الملائكة والجان والاستغاثة بهم والانتفاع بهم إليهم عبادة لهم صريحة ، وشرك بالله صريح ، كما لا ريب عندنا أن الاستغاثة والاستعانة بالأموات شر من ذلك وأدخل منه فى معانى الأشرار وفنون الضلال فهذا الفرق فرق باطل .

أما زعم المشركين أن الملائكة بنات الله فهذه مسألة أخرى غير الأشرار
 زعم المفركين
 أن الملائكة
 بنات الله غير
 عبادتهم
 بهم ، وغير عبادتهم . فان الاعتقاد بانهم بنات الله ليس عبادة لهم ، فان العبادة شئ آخر غير ذلك . ولهذا فان من اعتقد بان الله هو رب العالمين ورب السموات والأرضين ثم لم يزد على هذا الاعتقاد فليس عابداً لله بلا ريب . وهذا مثل الشيطان ، ومثل كثيرين من الكفار ، فانهم يؤمنون بالله وبأنه مصدر كل خير فى هذا العالم ، وخالق جميع الموجودات ، ولكنهم لا يعبدونه تعالى ، وليسوا

بذلك الاعتقاد المجرد بعابدين لله بلا نزاع .

والشئ الذى نقوله هنا ونذهب إليه هو أنه لا فرق بين المشركين العاكفين على الاصنام ، وبين المسلمين العاكفين على القبور ، الطائفين بالأعتاب والأبواب من ناحية الإشراف بالله وعبادة العبيد . فالجميع اشركوا بالله وعبدوا سواء ولسنا نزعـم أو نقول : إن الفريقين سواء فى جميع الاعتقادات ، كما لا يزعم أحد أن المشركين لم يكونوا مشركين إلا بأن جمعوا بين جميع اعتقاداتهم وأعمالهم الباطلة الضالة . ولا يختلف الناس أن قوماً كانوا يعبدون الملائكة ويشركونهم فى عبادة الله ولولم يزعموا أنهم بنات الله . فعابد الملائكة مشرك بالله سواء اعتقد أنهم بنات الله أم لم يعتقد ذلك بل اعتقد أنهم مخلوقون مـربوبون لرب العالمين ورب كل شئ .

وأما الفرق الخامس ، وهو أن المشركين كانوا مكذبين للرسول والمسلمون إبطال الفرق مصدقون له ، فالجواب أن نقول : نحن لا ندعى التسوية بين الفريقين من كل وجه ، ولكن ندعى أن هؤلاء وهؤلاء عبدوا غير الله ، فالفرقتان مشركان بالله عابدان للمخلوق ، فلا فرق بينهما من هذا الوجه ، وجه الإشراف به تعالى وعبادة غيره . . . وتكذيب الرسول عليه السلام ، وكذلك تصديقه ، غير الإشراف ، المشرك مشرك فهو مستقل عنه فقد يكون المصدق للرسول مشركاً ، كما قد يكون المكذب له وإن آمن بالله كذلك ، وقد يكون المكذب للرسول غير مشرك بل كافراً فقط ، والكافر غير وبأنبيائه المشرك ، كما يكون المصدق أيضاً . فلو أن يهودياً أو نصرانياً أو غيرهما انكف عن الشرك فعبد الله وحده ولم يصدق خاتم الأنبياء لكان كافراً غير مشرك ، لأن الشرك هو عبادة غير الله مع الله . ولو أن المشركين صدقوا الرسول وآمنوا بنبوته وبكتاب الله غير أنهم ظلوا على أصنامهم عاكفين ، لما كانوا مسلمين ولا ناجين ، بل لكانوا مشركين بمد هذا الإيمان والتصديق كما كانوا كذلك قبله .

إذن فتصديق الرسول ليس معناه الخلاص من الشرك يقينا . ولهذا فإن اليهود والنصارى مصدقون بنبوة أنبيائهم ، مؤمنون بهم ، ولكنهم مع ذلك مشركون عابدون للصنم ، وكذلك كان العرب مصدقين بنبوة إبراهيم وغيره من النبيين ، وكانوا مع هذا التصديق وهذا الإيمان مشركين عابدين للأوثان هالكين بلا ريب . وإذا لم يكن التصديق بالله وبأنه خالق السماء والأرض ، وخالق كل شيء ، أمانا ولا ضمانا من الشرك والكفر ، فكيف يكون التصديق بالنبي عليه السلام أمانا وضمانا من ذلك ؟ هذا مالا يكون ، وهذا مالا يصح . فالمؤمن بالله وبجميع أنبيائه وكتبه قد يكون مشركا كافرا ، والمسلم المؤمن بمحمد وبكتاب الله قد يقع في الاشراك وفي عبادة الخلق من حيث لا يدري ولا يريد ، كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق ، إذ حدث في غير ما حديث بأن طوائف من أمته صارون إلى الشرك وعبادة الأوثان والأصنام . فهذا الوجه لاطائل تحته .

الفريقان
مشاركان
في صفة
التكذيب

على أننا نقول : إن الفريقين أيضا مشتركون في صفة التكذيب : تكذيب الرسول وتكذيب الحق ، وإن لم يقصدا معاً التكذيب . فإن هؤلاء العاكفين على القبور ، المنقطعين إلى الموتى مكذبون للرسول عليه السلام . وذلك أن الذين الذي جاء به من عند ربه كله نهي عن هذا البلاء الذي صاروا إليه واتخذوه ديناً يتقربون به إلى الله ، ولكنهم لم يعبأوا بهذا النهي ، ولم يبالوه . فوضعوها كل نص عن الله وعن رسوله في ذلك دبراً ذانهم ، ووراء أهوائهم ، ولم يزدادوا بإيراد الدلائل والحجج إلا جماعاً عنها ، وفراراً منها ، وإصراراً على ما وجعلوا عليه الآباء والأشياخ . . . فكذبوا الرسول من حيث لا يشعرون ، كما كذبه المشركون ، إلا أن الفرق بينهما أن هؤلاء لم يريدوا التكذيب ولا رد ما جاءهم به قصداً وتعمداً ، وأن أولئك أرادوا ذلك وتعمدوه . فالفريقان شركاء في رد الحق ورد ما جاء به النبي ، وإن اختلفا نية وقصداً . على أنهما قد يشتركان في أنهما

معاً لم يريدوا رد الحق صراحة وهما يعلمان أنه حق ، ولكنهما جهلا أن الحق حق
فكذبوه وردوه حاسبيه باطلاً . هذا قد يقال ، ثم قد يكون صحيحاً .

وأما الفرق السادس ، وهو أن المشركين اعتقدوا في أحجار وأشجار أنها **إبطال الفرق**
تنفع وتضر ، فشفعوا بها واستغاثوها وعظموها ، وأن المسلمين إنما اعتقدوا في **السادس**
الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون بدعائهم وشفاعتهم ، ويضرون بترك ذلك ،
وهذا فرق - فالجواب أن يقال : قد قدمنا أن المشركين في الواقع إنما دعوا
واستغاثوا المقربين من عباد الله ، من الأنبياء والصالحين ، وقد قدمنا أنهم
وجهوا عبادتهم ودعائهم واستشفاعهم إلى صور الصالحين وتماثيلهم وآثارهم ، وهم **الفريقان قد**
لا يريدون سوى الصالحين أنفسهم ، كما فعل عبدة القبور ، فإنهم توجهوا بعبادتهم **عبداً للجحاد**
واستشفاعهم ودعائهم وسائر ضروب عباداتهم إلى القبور وإلى الأجداد
والبنات والزخارف المشيدة على رءوس الصالحين والفاستين أيضاً . ولهذا فإنهم قد
توجهوا إلى الأبواب والأحجار والأشجار للملايسة زعموها بينها وبين بعض
الصالحين ، ومن قد يكونون غير صالحين . وهذا مثل ما فعلوا لدى باب المتولى .
فانه باب زعموا أن له اختصاصاً وعلاقة بالمتولى كما سموا الباب به . والمتولى عندهم
عبارة عن ولي عظيم وهبه الله التصرف في جانب عظيم من الكون . وقد زعموا
أن هذا المتولى يعطى من سألته واستغاثه ودعاه وضرع إليه لدى هذا الباب ،
فتزاحوا على الباب يدعون ويستغيثون ويستشفعون ويشكون أصناف
الشكايات ، ويطلبون أنواع الرغيبات ، ويربطون به الحبال والخرق والخيط ،
تعبيراً عن ارتباطهم وارتباط آملهم وحاجاتهم بهذا المتولى . . . فأصبح هذا
الباب معبداً من معابدهم ، وصنما من أصنامهم ، إن لم يكن شراً من اللات والعزى
ومناة الثالثة الأخرى ، ومن هبل وأساف ونائلة ، فليس خيراً منها .

ومثل هذا ما فعلوه لدى ماسموه عمود البدوى . وهو عمود منصوب في الجامع **عبادة العمدة**

المسبوب للسيد الحسين في القاهرة . زعموا أن البدوي قد جاء به من بلد ضحيق مجهول فنصبه في ذاك المكان ، أو نصبوه هم ، لسر عظيم خفى به . فهم لذلك يطوفون به ويتمسحون ويقبلون ويرهبون ويرغبون ، ويسألون البدوي متوجبين إلى عموده جميع حاجاتهم ومآربهم . وهم يعلمون أن ضريح البدوي الكافت لرفاته في بلد آخر قصي .

عبادة البهائم وشر من هذا كله ما صنعه من التوسلات والضراعات والطواف والدوران لدى بنايات زعموا أنها منصوبة على بعض بهائم بعض الأولياء والوليات ، كقمام حمار السيدة وغيره في مصر . ومثل هذا ما صنعه من مقامات « الأربمينات » ومثله الحجر المنصوب في مصر القديمة الذي زعموا أن النبي عليه السلام قد وطئه بقدمه الشريفة فأثرت فيه . وهم يطوفون بهذا الحجر ويتبركون ويصدقون عقائد المشركين الهالكين .

عبادة الشجيرات والمغارات ولغزير هذا الذي ذكرناه شجيرات ومغارات يحج إليها المغفلون من المسلمين يقضون لديها أتفائهم ، ويعلقون بها حاجاتهم ، وينثرون حولها شكائاتهم ، لأنهم خالوا أنها مهيطة لأسرار بعض الأولياء . وهذه الشجيرات والمغارات كثيرة معروفة في مصر ، من بقايا مختلفات الشيعة الفاطميين ، لا طيب الله ذكراهم . **ماري جرجس** وأشنع وأفظع من هذا الذي قدمناه اعتقادات القوم في هياكل رفعت على بهائم زعمت أولياء متصرفين وعلى رمم قوم كافرين ، وفي مصر ضريح مشيد يسمى « ماري جرجس » وتسمى البلدة التي هو فيها هذا الاسم . يحج إليه المسلمون والمسيحيون معا ، ويعتقد فيه الفريقان عقائد الكافرين . واسم هذا الهالك يدل على أنه غير مسلم . وكذلك يوجد في شبرا مصر كنيسة فيها امرأة نصرانية يعتقد فيها المسلمون كاعتقادهم في الصالحين ، يحجون إليها ويتبركون بها . وهذا أفق لا حداً بعاده .

إنّ هؤلاء المسلمون وأولئك المشركون كلاهما قد اعتقد في أحجار وأشجار
أنها تنفع وتضر؛ وكلاهما قد عظمها ودعاها واستغاثوا بها وكلاهما لا يريد بما فعل
أصالة وقصدًا إلا التوجه إلى الصالحين والارتباط بهم والاستشفاع. فالمتوجه
إليه في الظاهر لدى الفريقين هو الجاد، والمقصود في الواقع لدى الفريقين هم
عباد الله الممتازون الذين لهم لدى الله ما ليس لغيرهم من الجاه والمكانة
والمكان. وما توجه العربي المشرك إلى الصنم لأنه جاد فحسب. ولا توجه المسلم
الجاهل إلى القبر المكذوب أو إلى الباب أو الشجر والحجر لأنه جاد فقط. بل
هذا وذاك توجهها إلى حى ناطق قادر ممتاز زعموا أن له بالله صلة خاصة، ومكانة
ممتازة، وجاها نافذا، وقربا قريبا. فالغاية واحدة وإن اختلفت الوسائل،
والفرض متحد وإن تعددت المظاهر. فلا فرق بين الفريقين.

وأما الفرق السابع، وهو أن المشركين قد عظموا ما لا يستحق التعظيم إبطال الفرق
وإن كان صورة صالح، وأنهم طافوا وتبركوا بما لم يجعل الله فيه بركة، وأن
المسلمين فعلوا ذلك بمن أمر الله بتعظيمه من الأنبياء والصالحين وقبورهم.
فالجواب أن نقول: إن الفريقين كليهما قد عظم ما لا يستحق التعظيم، وتبرك
بملا بركة فيه: فالمسلمون الجاهلون قد عظموا الأبواب والأعتاب والأشجار
والغيران والعمد، وتبركوا بها وطافوا، والمشركون فعلوا ذلك بالتماثيل تماثيل
الصالحين وصورهم وآثارهم. وهذا كله لا يستحق التعظيم، وهذا كله لا بركة فيه.
وأى مسلم أو عاقل يستطيع أن يزعم أن الله أمر بتعظيم باب المتولى وعمود
البدوى، وتعظيم قبور الفسقة والكافرين، وقبور البهائم، أو يزعم أن الله جعل
في ذلك بركة، وهذا كله قد عظمه المسلمون الجاهلون، وتبركوا وطافوا به ؟
وأى فرق بين هذا وبين التماثيل والصور والأصنام والأوثان، لو أن القوم كانوا
يمقلون ؟

وإذا زعم الشيعي أن صورة الصالح والنبي لا تستحق التعظيم ، وزعم أنه لا بركة فيها ، فكيف يزعم أن الأجداد والأبواب والأحجار والأشجار تستحق ذلك ، أو يزعم أن فيها بركة وسرا ، وأنها تستحق أن يطاف بها وأن تحج ؟ إن كان ذلك عنده لأجل نسبتها إلى الصالحين وإضافتها إليهم ، فصورة الصالح وتمثال النبي أو الملك منسوبان ومضافان إليهما . فالحقيقة واحدة ، كما أن العلاقة واحدة أيضا . ولن يخالف هذا الشيعي ، مهما أكثر الخلاف ، في أن طوائف من المسلمين عظموا قبور قوم لا يستحقون التعظيم أنفسهم ، وأنهم قد اعتقدوا في هذه القبور البركة ، والله لم يجعل في أصحابها أنفسهم بركة . ولن يخالف في أنهم قد عظموا أحجارا وأبوابا وطافوا بها وتبركوا ، وهي لا علاقة لها بعبد من عباد الله الصالحين ، وأنها لذلك لا تستحق التعظيم ، ولا يصح الطواف بها ، ولا اعتقاد البركة فيها . والشيعية يكفرون أهل السنة كافة ، والمتهاونون منهم المعتدلون يفسقونهم ويضللونهم . وهم لذلك لا يعتقدون أن فيهم بركة ، ولا أنهم يستحقون التعظيم ، لأنهم عندهم كفار أو فساق ظلمة . ومن لا يستحق التعظيم ومن لا بركة فيه نفسه ، لن يستحق قبره ومالابسه ذلك . ولكن الجهال من أهل السنة يعظمون قبور هؤلاء الكفار والفاستين من أهل السنة ، ويطوفون بها ، ويتبركون . فهم بلا شك ولا ريب قد عظموا مالا يستحق التعظيم ، واعتقدوا البركة في مالا بركة فيه ، وطافوا بمالا يصح الطواف به . وهذا لاشك فيه لدى الشيعة وهو لازم لمنهجهم لزوما لا خلاص منه . فهؤلاء لديهم مثل المشركين قد عظموا . لا يستحق التعظيم وطلبوا البركة ممن لا بركة فيهم

والاعتقاد في المجاذيب وكثيرون من هؤلاء المسلمين الجهلاء قد اعتقدوا في هؤلاء الجهلاء المجاذيب المرأة الأقدار الأرجاس الانجاس ، الذين لا يفعلون . أمورا به ، ولا ينتهون عن منهى عنه : فلا يأتون طاعة ولا ينزعون عن معصية : اعتقدوا فيهم بأنهم من

كبار الأولياء المقربين المطلعين على الغيوب وعلى الألواح المحفوظة ، المتحكمين في الله وفي أقداره وعباده ، القائلين للشيء كن فيكون . . . فعظوم لذلك أجل التعظيم ، وحملوا عليهم حاجاتهم ورغباتهم ، وأفضوا إليهم بذوات صدورهم ، ودخائل أنفسهم ، وسألوهم التحكم في مصائرهم ، والقضاء لهم بما يشاؤون ، وقاهوا لهم بما يلزم ذلك من الطواف والتسح والتمسك لأيديهم وأثوابهم القنطرة والانقطاع إليهم ، والرغبة فيهم ، والرغبة منهم . . . فلما أن هلكوا وصاروا إلى هذاب الله ، وإلى حسابه المسير ، شادوا قبورهم ، فمكف عليها القريب ، وحنج إليها البعيد ، وقدموا إليها ما قدموا من النذور والقرابين ، وطافوا وتمسحوا وعظمووا وفعلوا كل منكر . ولن يقول هذا الشيىء : إن هؤلاء المجاذيب المهايل يستحقون شيئاً من ذلك ، ولا إن قبورهم تستحق شيئاً من التعظيم ، ولا إن فيهم أو فيها شيئاً من البركة والاسرار

ولاريب أن صور الأنبياء والصالحين أولى بالتعظيم والاجلال والانقطاع من هؤلاء المجاذيب ومن قبورهم وآثارهم . وهذا لا ينازع فيه مسلم ، ولا عاقل غير مسلم . والمخالف معترف بأنه قد كان من عبادة المشركين للمخلوق ، ومن ضلالهم الباطل ، تعظيم صور الصالحين ، لأنه زعم أن الصورة لا تستحق التعظيم ولا الاحترام . وإذا كانت صور الأنبياء لا تستحق التعظيم ، وكان تعظيمها من شرك المشركين وجهل الجاهلين ، أفيمكن أن يكون تعظيم هؤلاء العلماء كفين على الآثام من الإيمان والاسلام ، أو يمكن ألا يكون ذلك من الخرى البين ، والضلال الاهوج الأحق ؟ لسننا نشك أن الاحجار والاشجار الصماء البكماء أولى بالتعظيم والاحترام من هؤلاء المصاة الأولياء ، ولسنا نشك أن معظم الجناد الجرد أعقل وأرشد من معظم هؤلاء الاشقياء

إبطال الفرق

وأما الفرق الثامن . . . أن المشركين اعتقدوا أن لأصنامهم شرفاً ذاتياً الثامن

واستحقاقا للعبادة بالاستقلال ، وأن لهم اختياراً وتدبيراً ، وأنهم لم يقفوا عند ذلك ، بل بدلوا دين الله وغيره وأحكامه ، وأما المسلمون فانهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً - فالجواب أن يقال : إن جهلاء المسلمين اعتقدوا في أوليائهم ومشايخهم جميع ما اعتقده المشركون في أصنامهم وأوثانهم . أما أن المشركين قد اعتقدوا أن لأصنامهم شرفاً ذاتياً ، فهذا يحتمل أمرين : أحدهما أن يريد أنهم اعتقدوا أن الله شرفهم وميزهم واختارهم على غيرهم ، وقسم لهم من الشرف والعظمة ما لم يقسم للآخرين . وثانيهما أن يريد أنهم اعتقدوا بأن لهم شرفاً قديماً واجب الوجود ، لم يخلقه الله ولا ينزعه عنهم إذا شاء ، بل هو شرف واجب للذات الواجبة الوجود ، التي وجودها من ذاتها لا من خالقها وخالق كل شيء . . . فان كان يريد المعنى الأول ، قيل له : إن المسلمين أيضاً قد اعتقدوا ذلك في أوليائهم ومشايخهم ، وهذا هو أصل الدعوى . وإن كان يريد الثاني قيل له : هذا كذب صريح ، فان المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق أصنامهم وخالق ما لها من الشرف والاختصاص والجلال ، كما أنه خالقهم هم وخالق كل شيء . وقد تقدمت بعض الدلائل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال السلف . والقرآن الكريم ملآن باعترافات القوم لله بهذا . فهو لا نزاع فيه بين أهل العلم والمعرفة . وأما أنهم اعتقدوا أن الأصنام تستحق العبادة بالاستقلال ، فهذا كذب أيضاً ، فانهم ما عبدوها إلا على قصد أن تقر بهم إلى الله وتشفع لهم عنده ، كما حكى الله عنهم ذلك وكما حكاه أهل العلم ، وكما دلت عليه أقوالهم الصحيحة . قال الله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . » وقال « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما كنا من دونه من شيء »

نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء» وقالوا في عبادتهم الملائكة «لو شاء الرحمن بما عبدناهم» ومن ذلك حديث تلييتهم المشهور . فالشركون لم يزعموا أن الأصنام تستحق العبادة بالاستقلال ، بل عبدوها لتشفع لهم عند الله ، ولتقربهم لديه ، لأنه هو وحده غايتهم ، أما الأصنام وكل موجود غير الله فوسائل . وهذا هو مازعمه هؤلاء الجاهلون في أولياتهم حذو القذة بالقذة .

وأما إن كان يريد باستحقاق الأصنام للعبادة بالاستقلال أنها تعبد وحدها دون الله ، وأنه لا يصح أن يعبد تعالى معها ، وأنهم فعلوا ذلك حقا ، فهذا هو الباطل عينه والكنب نفسه . فإن المشركين كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة أخرى . وهذا هو معنى تسميتهم «مشركين» . وقد قال تعالى : «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .» وقال : « وإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » وقال : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » إلى آخر الآيات والدلائل في هذا المعنى .

وأما أنهم اعتقدوا أن لها اختيارا وتدييرا ، فهذا الاختيار وهذا التدبير فإذا يريد ؟ إما أن يريد أنهم غالبا لاختيار الله وتدييره وإذنه ومشيتته ، كائنان قسرا عليه تعالى . وإما أن يريد أن الله هو الذي جعل لها هذا الاختيار وهذا التدبير . فإن كان يريد الأول فهو باطل بالدلائل السابقة الناصة على أنهم كانوا يعتقدون أن الله خالق الأصنام والأوثان وكل شيء ، وأنه هو المسيطر المهيمن على هذا الكون كله ، عابديه ومعبوديه ، وأنه مالك الأصنام وما تملك . متصرف فيها وفي عابديها تصرفا غير محدود . وأما إن كان يريد المعنى الثاني فهذا هو ما يعتقده المسلمون الجاهلون في الآموات ، فلا فرق بين أولئك وهؤلاء .

من إيمان
المشركين
بالله

والعرب المشركين كملت قالوها في الله وفي أصنامهم ، لا تدع للشك مكانا في أنهم كانوا يمتقدون في الله أفضل مما يعتقده كثيرون من هؤلاء الجاهلين ،

ويعتقدون في أصنامهم دون ما يعتقده هؤلاء في أوليائهم وأشياخهم . فقد حفظ
من قول أولئك المشركين « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وقولهم « وليس
 وراء الله لمرء مذهب » وقولهم « بيده الخيرات ما شاء فعل » وقولهم « أين
المفر والاله الطالب » وقولهم

من يسأل الناس بحرمة * وسائل الله لا يخيب
إلى غير ذلك من الأقوال المأثورة الدالة على إيمانهم بالله وبأنه الآخذ بكل
أصية . وقال بعضهم في أحد أصنامهم ، ويقال له ذو الخليفة :
لو كنت يا ذا الخلف الموتي * مثلى وكان شيخك المقبور
* لم تنه عن قتل المداة زورا *

وكان هذا القائل قد قتل أبوه فجاء الصنم فاستقسم عنده بالأزلام فجاءت
النتيجة نهيا . وقال آخر في صنم آخر يقال له : « سعد » :
أتينا إلى سعد ليجمع شملنا * فشتنا سعد ، فأنحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة في تنوفة * من الأرض ، لا يدعون خير ولا يهدى
وكان هذا القائل قد جاء إلى هذا الصنم بإبل له فنفرت منه وذهبت في كل
وجه ، فغضب وتناول حجرا ورماه به وقال له : « لا بارك الله فيك إلها ، نفرت
على إبلى ! » . وقوله هذا يدل على أنه كان قارآ في أذهان القوم على أن الذي
يبارك في الأصنام وفي غيرها هو ربها وربهم ورب كل شيء ، وأنه هو الذي
يسلبها البركة والخير المزعوم متى شاء . إلى غير ذلك مما يدل على أن عقيدتهم
في الأصنام المعبودة لم تكن تزيد ، إن لم تكن تنقص ، عن عقيدة هؤلاء
في موتاهم وشياخهم .

بل دين الله وأما قوله : « إن المشركين بدلوا دين الله وغيروا أحكامه » فالجواب أن
قول : ونحن لا نشك أيضا في أن عبدة القبور فعلوا ذلك بدين الله بأبشع

الصور وأنبأها عن النوق والعقل والدين . وهذا هو أصل الدعوى ومثارها، وهذا هو أصل الخلاف والنزاع ، وهذا هو ما وضعنا له كتابنا هذا ، وما وضع له أهل العلم كتبهم المؤلفة في هذه الأصول ، وهذا هو ما دلت عليه النصوص المتواترة القائلة : بأن طوائف من المسلمين ، ولا محالة ، سوف يصيرون مصابيح الذين كانوا قبلهم من الأئمة المهلكة تحت هياكل الشرك والوثنية الهوجاء . هذا هو الرد التفصيلي على الفروق التي ذكرها وزعمها بين العاكفين على الأصنام ، والعاكفين على القبور والأجداث .

وأما الرد الإجمالي فنقول له : هب هؤلاء المسلمين الجاهلين لم يفعلوا جميع ما فعله المشركون الأولون من عبادة الأصنام والأوثان ، فهل يدل هذا على أن المسلمين العاكفين على القبور لم يقعوا في الاشتراك ، أو لم يقع منهم نوع من أنواع الاشتراك ؟ كلا ، فإن هذا لا يمكن زعمه ولا قوله حتى يمكن الزعم والقول بأن أولئك المشركين لم يكونوا مشركين ولا ضالين إلا لأنهم عملوا جميع ما عملوه من الأعمال التي أنكرها الإسلام ، أما لو قصوا شيتا من أعمالهم فأنهم لا يكونون حينئذ مشركين ولا ضالين . ولكن هذا لا يمكن أن يزعمه ولا أن يقوله مسلم ولا عاقل غير مسلم ، وذلك أن المشركين كان لديهم أنواع كثيرة من أنواع الشرك ، وكان كل نوع كافيا للقضاء عليهم بالشرك والهلاك والضلال ، وإذن لن ينفع المخالف أن يجد فرقا بين أولئك وهؤلاء ، ولن يجديه في قضيته أن يجد هؤلاء الطائفتين بالقبور لم يعملوا كل ما عمله المشركون الأولون ، ولم يعتقدوا جميع ما اعتقدوه .

من أسباب
الشرك

﴿ كيف ، ولماذا عبد الخلق ؟ ﴾

يجمل بنا هنا أن نذكر السبب الذي حمل الخلق على أن يعبد الخلق العاجز مثله . وذلك أن عبادة الخلق للمخلوق من الأمور الغريبة المدهشة التي قد لا يستطيع الكثيرون تأويلها وفهمها . وهذا لأن من الأشياء الضرورية

البدئية أن إنساناً قسم له من العقل مدصح به تكليفه لا يمكن أن يعتمد إلى مخلوق مثله مساوٍ له في البداية والنهاية والصورة، وفي الولادة وقبول الفناء والمهلك والانصهار بالأعراض البشرية الخلقية، فيعبده ويدين له بالالوهية والعبودية . ولهذا يقوم هذا السؤال : لماذا إذن عبد الإنسان الإنسان، وما هو دون الإنسان من الحيوان والجماد، ومن الأحجار والأشجار ؟ وكيف أمكن أن يصنع التماثيل والصور بيديه ثم يعبدها، وهو يعلم بالضرورة أنه يستطيع نقضها وتحطيمها متى شاء، ويعلم بالضرورة أيضاً أنها جماد جامد لا تدفع عن نفسها من أراد السوء بها، ولا تسوق الخير إلى من رغب فيها وأله منها، بل وهو يعلم أنه أقدر وأشرف منها ؟ هذا هو السؤال الذي يعسرفهمه وجوابه على الكثيرين، وغاية ما يمكن أن يقول من لم يفهم الحقيقة : إن عبدة المخلوق، وعبدة الأصنام والأوثان، قوم لا يعقلون، فلا يقال : كيف فعلوا، ولا كيف تركوا، ولا كيف عبدوا ما صنعوا بأيديهم من الأحجار والأشجار والصور والتماثيل والبنائيات . . . ولكن هذا جواب، ولا شك، ساذج باطل، لا يصح الاطمئنان إليه ولا التثبت به. وهذا لأن عبدة الأصنام والمخلوقين لم يبلغوا من الجنون والعته وضعف العقل مبلغاً يستطع معه تعليل أفعالهم وأعمالهم بحيث لا يقال : كيف فعلوا ذلك، ولا كيف تركوه، لأنهم لو كانوا كذلك لستطعت عنهم أعباء التكليف، ولما كانوا مخاطبين ولا محاسبين . ولكن كلا، فإن للقوم أفهاماً وعقولا وكيدا ومكراً عظيماً، ودهاء مرا، وذكاء صافياً، مروراً جباراً . . . ومما يبين ضعف هذا الجواب، بل بطلانه في تعليل عبادة الإنسان الأصنام، أننا لم نجد أحداً من هؤلاء المعاصرين الجهلاء عمد إلى عبادة جماد مجرد لا صلة له بنفخ المخلوقين، وإلما عبدوا مخلوقاً زعموا أن له بالخلاق صلة خاصة قوية لولاها ما التفتوا إليه ولا بالوه . فلم نجد أحداً من هؤلاء الجاهلين الأغبياء عمد إلى عبادة شجرة مجردة، ولا عبادة

حجر مجرد من المماني والأسرار الالهية التي يزعمونها لبعض الجمد لصله زعموها
لذلك الجمد . ولو أنك طلبت إلى أغبي هؤلاء الأغبياء أن يعبد حجراً ، لا يزيد
في أمره للظاهر والباطن عن كونه حجراً ، وطلبت إليه أن يطوف وأن يتبرك به ،
لما أجابك إلى ذلك أبداً حتى تروح تزعم أن هذا الحجر أو تلك الشجرة مثلاً
تنطوي على مخلوق له بالله رب العالمين صلة كبيرة متينة ، وله لديه جاه عظيم
كبير . هذا ونحن ندلم ، ولا نشك ، أن هؤلاء الدوام أجهل وأغبي من كثيرين
عبدوا الأصنام والأوثان ، ورفهوا إليها أفضل أنواع العبادة الخالصة . وهذا
لأنه باطل بالضرورة ، كما قلنا ، أن يعبد إنسان له عقل يصح به تكليفه مخلوقاً
يُلم أنه مثله مخلوق لا أكثر ولا أقل .

هذا كله صحيح لدينا لدى جميع الباحثين ، فكيف إذن عبد الإنسان الإنسان
وما هو دون الإنسان كالجند والحيوان ؟ والجواب أن تقول : إن غاية كل مخلوق غاية كل إنسان
متأله متدين ، والإنسان كما قيل في إحدى تعاريفه « حيوان متدين بالطبع » أن هذا الوجود
يتصل بأكثر قوة ، وأن يرضى عنه أعظم ضرار ونفع في هذا الوجود المتلاطم
بالأضرار والمنافع ، المتهاك تحت نواميس القوة والضعف ، والقوى والضعيف .
وقد علم هذا الحيوان المتدين ، بما ورثه من رسالات الأنبياء ، وبما استلهمه فطرته
الصحيحة السليمة الأولى ، أن أكبر كبير ، وأن أعظم ضرار نفع في هذا العالم
هو الله خالق كل شيء وخالق الأقوياء والضعفاء ، وصنوف الضر والنفع ... فأراد
الاتصال به عز شأنه ، وأراد أن يقيم بينه وبينه أسباب الرضا والمودة ، وعلاقات
القربى والزلفى ، وصلات العبادة والرعاية والحياطة ، وأراد أن يعطيه إخلاصه
وخضوعه وذله وكل مماني عبادته وعبوديته ، كما أعطاه تعالى وجوده وحياته وكل
ما يتمتع به من متع الحياة وأسباب البقاء ، ولكي يزيده تعالى من ذلك ويديه عليه
و يمنحه منه ما لم يمنحه ... ولكن كيف يعطيه ذلك ، وكيف يعبد ويصل به ،

و بأى أسلوب يرفع اليه ذلك كله ؟ هذه هي المشكلة ، وهذه هي منطقة الخطر الخطير...
 وإن مما ارتكز في الفطر الانسانية كلها أن الرهب والرغب لا يكونان إلا في القوى
 القادر ، وأن العبادة لا تكون إلا حيث تكون الرهبة والرغبة . فمن المسلم به إذن
 في أوائل كل الفطر ألا يعبد في هذا العالم إلا الموجد له القائم عليه وبه ، المفنى له إذا
 شاء ، الواهب لكل شئ ما هو فيه ، القائل للشئ كن فيكون ، الآخذ بكل ناصية
 الأول الآخر ، الفعال لما يريد . . . هذا مما جبلت عليه جميع الفطر البشرية ،
 فكان المعقول المظنون إذن أن تكون النتيجة لهذه المعارف والمعلوم المجمع عليها ألا
 يعبد إلا الله ، وأن يكون البشر جميعا . وحدين ، وألا توجد في قاموس البشرية
 كلمة « الاشرار » ، ولا كلمة « الشرك » ولكن شيئا قابل هذه المعارف الفطرية
 فحول النتيجة الصحيحة المعقولة ، ووضع مكانها نتيجة أخرى فاسدة باطلة . وهذا
 الشئ الذى حول هذه المعارف البشرية عن أن تصل إلى نتيجتها الصحيحة هو أن
 الانسان قد خالق ماديا حسيا أكثر منه معنويا علميا ، تغلق نزاعا إلى الرغبة في
 المحسوس المشهود ، نزوها عن الرغبة في المعلوم المفهوم . . . فأراد أن يرى الله ،
 وأراد أن يعبد عبادة مشاهدة وحضور ورؤية ، فأعجزه ذلك وحال بينه وبينه
 ما بين الخالق والمخلوق من الفروق . فراح يبحث لعبادة الحضور والشهود ، وهب
 يقدح زناد عقله وفهمه فوق في الاشرار والضلال والجهل ، واهتدى إلى أن يقيم
 التماثيل والهياكل والأصنام والأوثان ، وأن يزعم أنها ترمز إلى الله وتشير إليه وتقوم
 مقامه وتنوب منابه في الحضور والشهود ، واهتدى إلى أن يزعم أن لهذه التماثيل
 والهياكل والأصنام والأوثان صلوات بالله مخنفة ، وأنها بهذه الصلوات تتمثل تعالى
 وتقوم مكانه ، كما تمثل حضوره وقر به وشهوده إذ لم يمكن قر به الحقيقي ولا حضوره
 الصحيح ، ولا شهوده المطلوب . وراح في فهم هذه الصلوات التي زعمها بين الأوثان
 وبين الله مذاهب أشتاتاً ، وذهب في تأويلها وتفسيرها طرائق أفناناً ، إلا أن

الرغبة في عبادة
الحضور من
أسباب العرك

الجميع قد أجمعوا على عبادتها، وأجمعوا على أن عبادتها عبادة لله . فبعضهم أقام هياكل للنجوم وللشمس والقمر والأجرام العلوية ، فوجه إليها عبادته وزعم أن عبادتها عبادة للأجرام نفسها ، كما زعم أن عبادة الأجرام عبادة لله تعالى ، وقد زعم أن هذه الأجرام مخلوقات حية صالحة فاهمة . فكان بذلك عند نفسه عابداً لله عبادة حضور وشهود . وبعضهم قصد إلى حجر أو شجر فزعم أن له ببعض عبادا لله المقربين إليه ، المختارين لديه ، علائق وملابسات مختلفة ، صار ذلك الحجر أو الشجر لأجلها محط أسرار أولئك العباد المقربين المتنازين . فتوجه إلى الحجر والشجر بعبادته ، وزعم أن المتوجه إليه حقيقة بالعبادة هو ذلك العبد المقرب الممتاز ، كما زعم أن التوجه إلى ذلك العبد بالعبادة هو في الواقع توجه إلى الله . فالمعبود في الظاهر الحجر والشجر ، والمعبود في الحقيقة هو رب العالمين .

وبعضهم شاد القبور والضرائح وبالفن زخرفها وتجميلها وتعميرها وانتياها من كل مكان لأنها مراقد أقوام صالحين لهم عند الله الجاه العظيم والسر الباطن ، الضار النافع . في مازعموا . فقصودوا هذه القبور والضرائح بالعبادة ، وربطوا بها حاجاتهم ورغائبهم ، وزعموا أنهم ما فعلوا ذلك إلا لأجل من فيها من الصالحين ، وزعموا أنهم ما توجهوا بذلك إلى الصالحين لا لقربهم من الله وحفظتهم لديه . فهم في الحقيقة ما رغبوا إلا في الله ، ولا انقطعوا إلا إليه تعالى ، فهو الغاية ، وهو المعبود ، وهو المرجو المدعو . وإنما اتخضوا إليه الوسائل ، وراموا القرب منه بالوساطات . والوسائل والوساطات إن هي إلا أسباب ، وقد ربط الله كل الأشياء بأسبابها ، فلا يمكن أن يدرك الشيء طالبه إلا بسببه ، ولا يمكن أن ينال الحاجة مردها إلا بوسيلتها . والاسباب ، وإن كثرت وتعددت ، ليست مقصودة بالذات . ليست إلا طريقاً وسبيلاً إلى الغاية ، والغاية هي المقصودة في الحقيقة ، وهي المطلوبة المرجوة . ولو أنها أدركت بدون أسبابها ووسائلها لما عبت إلا بها ،

من فلسفة
الشرك

ولأقصيت هذه الأسباب وتلك الوسائل إقصاء . فالراغب في الوسيلة راغب في
الغاية حقاً ، والمابذ للوساطة عابد لما بعدها بلا شك ولا ريب . فالله وحده هو غاية
هؤلاء المتوسلين المتخذين الوساطات والشفعاء لديه ، وهو محبوبهم ، وكل مادونه
آلات للحظوة به وعنده .

ومنهم عمد إلى بيوت أضيفت إلى الله فبالذوا في إعظامها وإعظام بنائها
حق عبودها وأسرفوا في عبادتها ، وحتى عبدوا لذلك الحجارة وما استحسنا
من الجناد . وقد ذكر أهل العلم أنه كان مما سأل بالمشركين إلى عبادة الأوثان
والحجارة أنه كان لا يظن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة
الحرم تعظيماً للحرم . فحينما حلوا وضموه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صباية وجدوا
وحبا . ثم سألهم بذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، وما
كانوا يرون إليه ، ولم يكن تعظيمهم للحرم إلا لصلته بالله ، أو لصلته بمن له صلة بالله
وبعضهم توجه إلى عبادة الملائكة لقربهم منه ومن الله ربهم . ومنهم غير
هؤلاء وهؤلاء من أصناف المشركين الضالين . وكأن هؤلاء جميعاً ما صاروا
ما أشرك بالله إلى الشرك إلا لرغبتهم في عبادة الحضور والشهود والقرب ، فلما أن عجزوا عن
ذلك قصدوا إلى تحقيقها بعبادة أشياء حاضرة محسوسة لها اتصال بهم ، ولها اتصال
بالله فيها حسبوا وزعموا ، ولها حضور لديهم وحضور لدى الله . ولهذا فإن طوائف
من المتألهين المتدينين ذهبوا إلى القول بحلول الله في مخلوقاته ، فعبدوا هذه
المخلوقات لأنها مظهر لله . ولهذا أيضاً كانت الأمم تطالب أنبياءها ورسلاً برؤية الله
وكانت تقول كل أمة لرسولها : إني نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وعبادنا . وهذا لأن
الإنسان ، كما قلنا ، خلق مادياً حسياً أكثر منه علمياً معنوياً . وقد سلخت هذه
تشبيهه الله
بالظالمين من خلقه
بزعمائهم وكبرائهم الظالمين الباغين . فقد وجدوا ورأوا أن هؤلاء الكبراء

الظالمين لا يستطيع الضعيف الفقير أن ينال رضاهم ولا عدلهم ولا رعايتهم ولا شيئاً مما بأيديهم إلا بأخذ الوسائل والشفعاء لديهم ، وإلا باتيانهم من طريق المقر بين لديهم ، الذين لهم سلطان ودلال عليهم . ووجدوا أن من أراد إتيانهم وعدلهم ورضاهم من هؤلاء الضعفاء الفقراء بدون شفيع ووسيلة كبيرة رهوبة فإن يصل إليهم ، ولن يلاقى إلا الحرمان والاقصاء والدفع والطرده . وقد ظنوا حينئذ لجبتهم الحمية الناقصة أن الله أيضاً كذلك يؤتى ويطلب من طريق الوسائل والوساطات والشفعاء المقر بين الممتازين ، وأنه بغير ذلك لا يمكن الوصول إليه ولا الظفر برضاه وقربه والخطوة عنده ، وبهذا صاروا إلى الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان . والفريب في هذا أنهم لم يقيسوا الله إلا بالظالم من خلقه ، فقد رأوا أن الظالمين من البشر لا تنال منهم الحقوق والحاجات والواجبات إلا بالوسائل والشفعاء . وقد رأوا أيضاً أن العادلين المنصفين من البشر يعطون الحقوق والواجبات من أنفسهم بلا وسيط ولا شفيع ، فشبّهوا الله بالفريق الظالم الجاهل من عباده ، ولم يشبهوه ، إن كان لابد من التشبيه ، بالفريق العادل الذي يفعل الحق والواجب والجميل لأنه حق وواجب وجميل ، لا لأن فلاناً أو فلانة طلب إليه فعل ذلك ، ولا لأنه خاف إن لم يفعله من هو فوقه أو من هو مثله أو من هو دونه . فالمشركون شبّهوا الله بخلقهم ، بل شبّهوه بأضعف خلقه وأظلمهم وأرذلهم . ولولا هذه الجبلة الحسية الناقصة لما أشرك المشركون ولا شبه المشبهون .

فعبادة الخلق للمخلوق وللأصنام والأوثان قائمة على الرغبة في عبادة الحضور والشهود وعبادة الحاضر الشاهد لأن الإنسان خلق حسياً مادياً أكثر منه علمياً برهانياً غيبياً . فعبدة الأصنام والمخلوقين إنما قصدوا الله وحده ولكنهم قصدوه من طريق ضال باطل جاهل . ولهذا فانهم ما عبدوا ولا قصدوا إلا إلى المقر بين لديه

وقد زعموا ملكين عظيمين. وعبدوا الأنبياء والصالحين ، وعبدوا آتلاتهم ومخلفاتهم ، وعبدوا الحرم وحجارته ، وعبدوا الأحجار والأشجار والقبور والأحداث لما لها من الصلات الكبيرة المتينة، فما عبدوا إلا مقرباً إليه تعالى أو من ظنوه مقرباً وإن لم يكن كذلك . فهم لم يعبدوا حجارة مجردة ولا جُحاشاً مجرداً يقيناً . وإنما عبدوا أحياء عاقلين أو من زعمهم كذلك . وقد بين الله ذلك في كتابه في غير ما آية قال تعالى : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ولا شك أنه لا يمكن أن يتوهموا أن الجمادات المجردة يمكن أن تشفع لهم . وقال تعالى : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، ولن يظنوا أن الجمادات تقربهم إلى الله وتدنيهم منه ولا أنها تقدر على شيء من ذلك . وكلمة « نعبدهم » و « يقربونا » و « أولياء » صريحة في أنهم قد عبدوا عقلاء . وإطلاق كلمة « أولياء » على معبودات المشركين جاء كثيراً في كتاب الله كما في هذه الآية وكما في قوله من سورة « العنكبوت » : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » وقال تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون » ، وقال : « قل أغير الله اتخذ ولياً » إلى غير ذلك من الآيات المعلومة الواضحة الدلالة . فعبادة الخلق قائمة على هذه الشبهة الفاسدة .

المشركون
يعبدون من
دون الله أولياء

﴿ الباب الثالث من كتاب الرافضى ﴾

ثم قال الشيعى : « الباب الثالث في تفصيل الأمور التي كفر بها الوهابية المسلمين ورد كل واحد منها بخصوصه . . . »

وفي هذا الباب ذكر الفصول الآتية : الفصل الأول في الشفاعة . الثاني في دعاء غير الله وطلب الخواص منه . الثالث في التوسل إلى الله بالأنبياء

والصالحين . الرابع في الأقسام على الله بالخلق أو بحقه . الخامس في الحلف بغير الله . السادس في إطلاق السيد والمولى على غير الله . السابع في الذبح والنحر لغير الله . الثامن في النذر لغير الله . التاسع في بناء القبور والبناء عليها . العاشر في الكتابة على القبور . الحادي عشر في اتخاذ المساجد على القبور ، واتخاذ القبور مساجد . الثاني عشر في إسراج القبور . الثالث عشر في الصلاة والدعاء عند القبور . الرابع عشر في تعظيم القبور وتعظيم أصحابها والتبرك بها ومسها والطواف بها . الخامس عشر في اتخاذ السدنة والخدام والحجاب لمقامات الأنبياء والصالحين واتخاذها أعياداً . السادس عشر في تزيين المشاهد بالذهب والفضة والمعلقات والكسوة . السابع عشر في زيارة القبور وشد الرحال إليها . هذه هي فصول هذا الباب . وقد تكلم الشيعي على كل فصل منها ، وسوف نتكلم نحن عليها كلها ، وسوف يتكلم معنا ، إن شاء الله ، الحق والصواب والهدى .

﴿ الاستشفاع بالأموات ﴾

ذكر الشيعي في فصل الشفاعة ما خلاصته : إن الاستشفاع بالموتى جائز حجة الزانضو
على طلب
الشفاعة من
الأموات
لا ريب في جوازه ، قال : « ذلك أن الله قد أعطى عباده الصالحين ، كالأنبياء والأولياء والملائكة ، الشفاعة ، ولا مانع يمنع من أن نطلبهم ما أعطاهم الله » . قال : « والشفاعة هي الدعاء ، فالذي يطلب ولياً أو نبياً أو ملكاً أن يشفع له إنما يطلب منه أن يدعو له لأن الشفاعة هي الدعاء والدعاء يجوز طلبه ، بلا ريب ، من الصالحين : الأحياء منهم والأموات ولا فرق » قال « وقد ثبت أن الملائكة يدعون ويستغفرون للذين آمنوا كما قال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك » وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذراريهم

إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ،
وذلك هو الفوز المبين » . ودعاؤهم هذا للمؤمنين هو عين شفاعتهم . . . وقد
جاء أن الحجر الأسود يشفع ويشفع كما صبح عن علي بن أبي طالب أنه قال :
اشهدوا هذا الحجر خيرا فإنه يوم القيامة شافع مشفع ، له لسان وشفتان يشهد
لمن استلمه . ولا يمكن القول بأن الله أعطى عباده الشفاعة ثم منع من سؤالهم
لإياها . فإن الشفاعة إذا كانت حقا لم يكن طلبها باطلا ، لأن طلب الحق لا يكون
باطلا ولا شركا ، ولكن طلب الباطل هو الذي لا يكون إلا باطلا . . . وقد تشفع
آدم برسول الله قبل خلقه ، وتشفع وتوسل رسول الله بمن قبله من الأنبياء ، وتشفع
الصحابة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وتشفع عمر بالعباس ، وأقر النبي أيضا
عليه السلام ذلك الأعرابي الذي قال : إنا نستشفع بك على الله . وقد طلبوا
من النبي أيضا بعد موته أن يستسقى لهم فسقوا . وقد روى أن الذين يصلون
على الجنائز يشفعون . وقد روى الترمذي عن أنس بن مالك قال : سألت
رسول الله أن يشفع لي يوم القيامة فقال ، « أنا فاعل » . وقد طلب سواد بن قارب
وهو أحد الصحابة ، من الرسول الشفاعة وقال من قصيدة :

فكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة * بمن فتيلا عن سواد بن قارب

« وفي السيرة الحلبية أن تبعاً الحيرى آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام قبل
ولادته ، وكتب كتاباً فوصل للنبي بعد مبعته ، وفي الكتاب « وإن لم أدركك
فاشفع لي يوم القيامة ولا تنسى » وأن النبي عليه السلام قال : « مرحبا باتبع
الأنخ الصالح » ثلاث مرات . وقد علم ابن حنيفة رجلا في خلافة عثمان أن يقول
في دعائه : يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن تقضى حاجتي ، ويذكر حاجته . وأنه
فعل ذلك فقضيت حاجته . وقد روى المفيد في المجالس أن عليا لما فرغ من غسل
النبي عليه السلام كشف الإزار عن وجهه وقال : بأبي أنت وأمي ، اذكرنا عند

ربك واجعلنا من همك . ثم أكب عليه وقبله . وفي خلاصة الكلام أن أبا بكر قال وفعل مثل ذلك في النبي بعد وفاته . وفي شرح المواهب للزرقاني أن الداعي إذا قال : اللهم إني أستشفع إليك بنبيك يانبي الرحمة اشفع لي عند ربك استجيب له . وقد ذكر العلماء في باب آداب الزيارة أن من جملة ما يخاطب به النبي ﷺ أن يقال : جئتاك لقضاء حقتك والاستشفاع بك ، فليس لنا يارسول الله شفيع غيرك ، فاستغفر لنا واشفع لنا . . . » .

هذا جملة ما ذكره في هذا الفصل من التدليل على جواز الاستشفاع بالموتى وبالملائكة وسائر الصالحين . ونحن ، إن شاء الله ، نورد هنا ما نرى إirاده من الدلائل على بطلان الاستشفاع بالأموات وبالملائكة ، ثم نثني بالابطال والنقض لهذه الشبه التي أوردناها - ضارعين إلى الله وحده أن يفرغ علينا من عونه ومده وتسديده ، وأن يقسم لنا ، في ما ينقسم ، التوفيق والهداية والرشاد ، وأن يبعد بيننا وبين الهوى الظالم ، والعصبية لغير الحق كما يبعد بين المشرق والمغرب ، وأن يغسل ألسنتنا من الهذر والزلل ، وقلوبنا من الفتن والخلط ، وأن يجعلنا هادين مهدين ، لا ضالين ولا مضلين ، ولا فاتنين أو مفتونين ، فهو وحده مجيب السائلين ، ومعطي الراغبين ، وهو رب العالمين ، فنقول :

لا ريب أن الشفاعة نوع من الدعاء ، وأن الاستشفاع نوع من طلبه ، وأن الشافع يكون داعياً . ولا ريب أن الله يطلب الدعاء من الحي الحاضر جائز مشروع بالجملة ، وأن الاستشفاع بالقادر على الشفاعة جائز مشروع أيضاً بالجملة . ثم لا ريب أن الله قد أذخر لنبيه عليه الصلاة والسلام ، وكذلك لسائر أنبيائه ، ولسائر الصالحين من عباده ، أنواعاً من الشفاعات سوف يكرمهم الله بها ويعلن شرفهم وما لهم عنده من الزلف وقرب المكان وعلو المكانة ومحو المراتب في أيام مشهودة مشهورة . كما لا ريب أنه تعالى قد أخذ لهم في أنواع من الشفاعات في الدنيا ،

إبطال شبهات
المتخالف

وأعنى بها الأدعية ، وأنهم قد شفّعوا أنواعاً أيضاً من الشفاعات نفع الله بها الكثير من عباده ، وأنزل بها الكثير من فضله وأنعمه ، وأن له تعالى عبادة لم يخلقوا بعد سوف يشفعون ، وسوف ينفع الله بشفاعتهم طوائف من خلقه . ثم لا ريب أن المسلمين كانوا يطلبون إلى نبيهم أن يدعو الله لهم ، وأنه كان يدعو لهم ، وأن الله كان يجيب دعاءه ويقبل شفاعته ويرحم عباده ، وأنه كان لغيره من الأنبياء والصلحاء أشياء كثيرة من ذلك . ثم لا ريب أيضاً في أن المسلمين يرجون شفاعته نبيهم ، ويرجون أن يرحمهم الله بها في أشد يوم سوف يمر بالخلقة ، ويسألون الله أن يعظم نصيبهم من هذه الشفاعة العظمى في ذلك اليوم الأعظم . كما لا ريب أنهم سوف يستشفعون ذلك اليوم الموعود بالأنبياء واحداً واحداً فلا يكون الشافع الأول لهم وللناس جميعاً سوى محمد عليه الصلاة والسلام خاتمهم وآخرهم : هذا كله لا ريب في شيء منه ولا خلاف ، ولكن الذي فيه الخلاف والنزاع هو طلب الشفاعة من الأموات والاستشفاع بهم . وكل ما ذكر هنا لا يدل شيء منه على ذلك . والدلائل على بطلان الاستشفاع بالموتى كثيرة ظاهرة ميسورة نورد منها هنا ما يتيسر :

دلائل بطلان الاستشفاع بالأموات أولاً — : المستشفعون بالموتى لابد أن يعتقدوا أنهم قد أعطوا من كمال السماع والاحاطة بالغيب ما لم يكن لهم وما لم يكن إلا الله وحده . ولابد أن يعتقدوا فيهم أيضاً أنهم يعلمون الغيوب ويحيطون علماً بالقريب والبعيد ، ويسمعون جملجة المتناف أين كان المهاتفون الداعون ، ويفرقون بين مختلف النعمات والدعوات في وقت واحد كما يفرقون بين مطالبها ومعانيها ، مهما كثرت وتعددت واختلفت . ولهذا يدعو النبي والولي والشيخ في الوقت الواحد منهم الداعون الكثيرون المختلفون لغات ولهجات وحاجات وأماكن ومواضع ، ثم لا يشكون أن ذلك النبي أو الولي أو الشيخ المدعو المستول يسمع دعاءهم واستشفاعهم ،

ويفهم ما يريدون وما يعنون . ولهذا أيضاً يدعوونه ويسألونه الشفاعة من كل مكان وفي كل مكان بكل لسان في كل زمان . ولهذا أيضاً يجتمعون على دعائه والاستشفاع به في وقت واحد مهما كثروا واختلفوا أغراضاً وحاجات ولهجات ولغات . ولهذا أيضاً يدعووه الفارسي والتركي والهندي والبربري وغيرهم من أصناف المعجم والعرب : كل بلسانه وبيانه ولهجته وأسلوبه . ولا يرتاب أحد من هؤلاء الداعين الصارخين الطالبين في أن ذلك كله مفهوم معلوم مسموع معقول في وقت واحد وفي حالة واحدة . ولا يرتاب أحد منهم أيضاً في أن ذلك الشيخ المدعو المرجو لا يميزه ولا يفوته شيء من تلك الدعوات والاستشفاعات والضراعات . ولا شك أن ذلك المدعو لو كان حياً حاضراً قائماً بين أيديهم وتحت أبصارهم لما انحله كل هذه الاحاطة باللغات والحاجات والغائبات ، وأنه لو كان حياً سوياً بينهم وبينه من الحجب والموانع والحوائل ما بينهم وبين ذلك المقبور لما شكوا في أنه لن يسمع دعوة داع ولا ضراعة ضارع . ولكن هاهم يقفون فوق كل ضريح من أولئك الاستشفاع الضرائع وبينهم وبين الراقدين فيه ماهو معلوم من الأبعاد والحجب والمسافات بالأموات والحوائل والموانع ، فيناجونه خفي النجوى ، ويشكون إليه بألسنتهم وقلوبهم يلزمه علمهم ونفوسهم أيضاً ، كما يفعلون ذلك وهم في المكان القصى منه ، ويرون أنه سميع فاهم شيء ، ولهذا أيضاً يقدمون إليه المرائض والشكايات المكتوبة بمختلف العبارات واللغات والحاجات ، التي لو كان حياً سوياً لما فهم الكثير منها ، ولما طاف بمعناها ومرماها : هذا كله يفعلونه ، وهذا كله يدل على أن القوم ينحلون الأموات من كمال السماع والاحاطة بالغيوب ، ومن كمال القدرة والسلطان ما لم يكن وما لم يجعله الله لأحد سواه وحده لا شريك له . بل هذا كله يدل على أنهم يرونهم عالمين بكل غائبة ، محيطين بكل سر ، عارفين بكل لسان ، سامعين كل صوت ، موجودين في كل مكان . وقد جهر كثيرون من هؤلاء الضلال الخيرون بهذه

النتيجة بلا جمجمة ولا جملعة ، فزعموا أن الولي والنبى موجودان فى كل مكان مع كل داع لهما ، هاتف بهما ، لا يفتيان ولا يبعدان ، وقد إستدلوا ، فى ضمن دلائلهم ، بقول الشاعر الكاذب الجاهل :

كالبر من حيث التفت رأيت • يهذى إلى عيليك نورا ثاقبا

كالشمس فى كبد السماء وضوءها • يفتش البلاد مشارقا ومغاربا

وأحتجوا أيضا ، وقد كذبوا ، بوجود ملك الموت فى كل مكان واتساعه ملائكة واتساع سلطانه بقدر اتساع الأرواح المقبوضة وانتشارها . وقد كذبوا وأخطوا لا ملك واحد لأن قابض الأرواح ملائكة لا ملك واحد كما صرح به القرآن فى غير آية كقوله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ » وقال : « توفته وسلمنا » وقال : « والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تخرجون عذاب الهون » والآيات كثيرة . أما قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم » فهم يكتولونه : « وإن تعبدوا لنعمة الله لا تحصوها » وأمثالها : كلاهما يراد به المدد لا الافراد ، لسر معروف فى لغة الضاد .

وأعظم دليل على أن القوم يعتقدون فى الأموات هذه العقيدة أنهم يلجئون بأسانهم أين كانوا ، فى عرض البحار ومتون القفار ، ويفزعون إلى شفاعتهم ودعوتهم كلما رغبوا أو رهبوا ، لا يفكرون فى بعد الديار ، وتقطع الأسباب ، وقدان الآلات . وهذا لا شك فيه

وإذا كن المستشفعون بالأموات ينحلونهم هذه الصفات التى لا يمكن أن تعدو رب العالمين ، أو إذا كن الاستشفاع بهم يلزمه نحلهم إياها أو نحلهم بعضها فلا ريب فى بطلان هذا الاستشفاع وفساد عقائد القائلين به . فانه لا شك فى مصادمة هذا لأصول الاسلام وأصول الأديان السماوية كلها . فان من لم يعلم أن مخلوقا يعلم الغيوب فقد اغترف من منهل الضلال شر اغتراف ، وقاسم الغنى شر

مقامه . وأديان الله كلها قائمة على أفراد الله وحده بصفات الكمال ، فلا يقدر على كل شيء إلا هو ، ولا يدين كل شيء إلا له تعالى ، ولا يعلم الغيب سواه . وكل دين لله قائم على أمرين : على أن الله ليس كمثل شيء ، وعلى أن الكمال المحض له وحده لا يشاركه فيه مشارك . فمن نازع في هذين الأمرين ، أو في أحدهما ، فقد ضل ضللاً بعيداً وخالف كل دين لله يرضاه . ولهذا يطلب القرآن ، وتطلب السنة ، في نفي علم الغيب عن المخلوقين ، بل عن أفضل المخلوقين ، ويبالغ الرسول عليه الصلاة والسلام في نفي ذلك عن نفسه بمبالغة شديدة واضحة ، ويجهر بها في كل موطن من موطن البلاغ والدعوة والانداد والبيان ، ويقرر ذلك تقريراً لا يخفى أن الغرض منه المحافظة على سلامة الاعتقاد وحفظ الإيمان . بل كان ينفي عن نفسه الشريفة كل ما يحوم حول هذا ، وما يمكن أن يمت إليه بصلة من الصلات قريبة أو بعيدة . فكان دائماً يقرر أنه بشر مثل سائر البشر إلا أن الله اختصه برسائله وموضع نذارته ودعوته ، فجعله مكاناً لهدايته ، فكان يقول دائماً : « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون » ويقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم . إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » . ولما وفد عليه بعض أحياء العرب وقالوا له : أنت سيدنا وابن سيدنا ، أنكر هذا . القيل عليهم وقال « قولوا ببعض قولكم ، ولا ينوينكم الشيطان . فبأحب أن ترفعوني فوق منزلي التي وضعتني الله بها » وقد غنت إحدى الجوارى في حضرته عليه الصلاة والسلام وقالت في غنائها : « وفينا نبي يعلم ما في غد » فأنكر هذا الغناء . وقد أنكر أيضاً على من سألوه عن قيام الساعة وميقانها كما ذكر القرآن . وأنكر قيل من قال : ما شاء الله وشئت . وأنكر ماهودون ذلك بما عمت إلى الغلو والمبالغة في التقديس . وقد علم بالضرورة من دين الاسلام أنه لا الرسول ولا غيره من الرسل والصالحين والملائكة المقربين ، ولا الجن كانوا يعلمون الغيب ، أو يعلمون

لا يعلم الغيب إلا الله

شيئاً منه إلا باعلام الله ووحيه، كما قال تعالى : « ولا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » . وما يعلم الرسل والأنبياء من الغيب ما يعلمون إلا باظهار الله ووحيه وبلاغه ، لاشيء غير ذلك . وقد كان رسول الله يسأل المسائل فينتظر الجواب من جبريل عليهما الصلاة والسلام . وكان أحياناً يفعل الفعل الذي لم ينزل عليه فيه وحى من الله اجتهداً وطلباً لحكم الله ورضاه ، فينزل الله عتابه له وتنبهه إلى ماخفى على طاقته البشرية من حكمه تعالى وشرعه أمثال قوله تعالى ، « عفا الله عنك ، لم أذنب لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » ، وقوله : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » وقوله : « وما كنت لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » . بل لقد نفى الله عنه عليه السلام علمه بحقيقة من كانوا يساكنونه في المدينة المنورة ویراهم صباح مساء فقال : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا أعلمهم ، نحن نعلمهم » وقال : « أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكم فلمرقمهم بسياط ولنعرفكمهم في حن القول ، والله يعلم أعمالكم » وقال : « عفا الله عنك » الآية - إلى أشياء أخر معلومة . ومن تحصيل الحاصل كما يقولون ، محاولة إقامة الدلائل على أن الرسول وغيره من المخلوقين ما كانوا يعلمون الغيب ولا كان يمكن أن يعلموه .

﴿ أحد العلماء يؤلف كتاباً يدعو فيه إلى عبادة شخصه ﴾

عالم يدعو إلى عبادة ذاته وبهذه المناسبة نذكر أمراً مؤسفاً مؤلماً ، ذلك أن أحد العلماء المشهورين لدى الجمهور بالصلاح واستقامة المذهب ، وطيب السيرة والسريرة ، وبالدعوة إلى السنة والعمل بها ، قد وضع كتاباً أسماه « العهد الوثيق » ، فيما يجب على سالكه أحسن طزيق ، ضمنه أشياء منكرة منافية لحقائق الاسلام وأصول أديان الله كلها ، بل ضمنه دعوة صريحة جاهرة إلى عبادة شخصه وعبادة أشخاص المشايخ

مثله . وقد زعم في هذا الكتاب أنه هو وغيره من أشياخ الطريق يعلمون الفيوب
ويطوفون بما يطوف في زوايا الرؤوس والنفوس من الخطرات والخلجات
والفدرات فقد جاء في الكتاب ما لفظه : « وكان يقول (يعنى الشبلى) من
علامة صدق المريد اعتقاده أن شيخه جاسوس قلبه ، يدخل في قلبه يعلم ما عنده
ويخرج من حيث لا يحتسب . . . » هذا نص لفظه . وقد قال في خطبة الكتاب :
« . . . أما بعد فيقول محمود بن محمد بن أحمد خطاب السبكي : هذه كلمات دالة
على بعض سنن سيد الكائنات سميتها « العهد الوثيق » لمن أراد سلوك أحسن
طريق » فن عمل بها فهو من إخواننا ، ومن أعرض عنها فلا علفة له بنا . . »
فكل ما في هذا الكتاب عند مؤلفه التقى الورع الشيخ فلان هو من سنة النبي
عليه الصلاة والسلام ومن دين الاسلام ، ولهذا فان من عمل به فقد سلك أحسن
طريق ! ولا أحسن طريقا من دين الله الاسلام . فما في الكتاب ليس سوى
الاسلام الحق لدى مؤلفه عفا الله عنه . ولهذا فان من عمل بما فيه فهو من هؤلاء
الجماعة الذين يزعمون لأنفسهم أنهم هم المسلمون وحدهم دون المسلمين ، ومن لم
يعمل به فهو منهم برئ ، وهم كذلك منه براء . فكل ما في الكتاب صواب حق
لا يمس الخطأ ، ولا يقر به الضلال ، ولا يحوم حوله الفند - في ما زعم المؤلف - صفح
الله عنه : كله من دين الاسلام ومن السنة المحمدية النقية

الشيخ
جاسوس
قلب مريده

والقول بأن الشيخ جاسوس قلب المريد ، أو جاسوس قلب غيره ، يدخل
فيه ويعلم ما هناك ، ثم يخرج منه من حيث لا يدري ولا يحتسب ، قول لا يمكن
أن يوجد له وجه في دين الله ، وقول لا استطاع أن يوفق بينه وبين أصل الاصول
الاسلامية القائل : إن الذي يعلم ما في القلوب والنفوس والرؤوس ، ويعلم خائنة
الآعين وما تخفى الصدور ، ويعلم غيب الضمائر ، هو الله وحده لا شريك له ولا
مثيل بل هذا القيل معدود عندنا من أقبح البدع الاعتقادية النكراء .

وإذا علم أن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه ما كان يعلم ما كانت تشتمل عليه قلوب أهل المدينة ونفوسهم من المؤمنين والمنافقين ، ولا كان يعلم ما كان يطوف برؤوسهم وقلوبهم من الخطرات والاعتقادات والخلجات ، علم حقا نكارة هذا القيل وبطلانه وعدوانه . وقد قدمنا الآيات الناصة على أن الرسول ما كان يعلم ما في نفوس أهل بلده ولا ما كانوا يعتقدون فيه وفي الله وفي الاسلام ، مثل قوله تعالى « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم » وقوله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » وقوله : « أم حسب الذين في قلوبهم مرض » الآية ، وقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوا لله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم » - إلى غير ذلك الآية الواضحة . وهذا لاختلاف فيه بين أهل الاسلام ، ولا خلاف بينهم في أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يعلم ما في صدور أصحابه ، ولا ما كانوا يكتونه من الهوم والههم والخطرات والمسائل وغير ذلك ، وأنه لم يكن جاسوس قلوبهم ولا قلب أحد منهم . وهذا كله معلوم بالضرورة والاجماع ، والدلائل عليه من الكتاب والسنة لا تمكن الاطاحة بها في هذا الفصل . وكذلك جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يعلمون ما كانت تنطوى عليه قلوب أقوامهم ونفوسهم ، بل ولا ما كانت تنطوى عليه قلوب أقرب الناس إليهم وألصقهم بهم من الأزواج والأبناء والآباء والأقارب . وقد أنبأنا القرآن الكريم بأن بعض الأنبياء كانت أزواجهم تختننهم وتسمى في أذانهم وكيدهم وهم لا يعلمون ، لأنهم ما كانوا يعلمون ما في القلوب والنفوس ، ولأنهم لم يكونوا جواسيس القلوب يدخلون فيها ويخرجون منها ، ويعلمون كل شيء فيها من الخداع والمكر والضلال والاختيان . قال تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم

مخالفة ذلك
لقواطع
الاسلام

يفنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) .
وكذلك لم يكن أحد من صحابة رسول الله - وهم خير الأمة وأتقائها نفوساً
وأثقبها قلوباً وعقولا - جاسوساً لقلوب المسلمين أو غير المسلمين من المشركين
والكافرين . فما كان أحد منهم ، كأبي بكر الصديق أو عمر بن الخطاب ، يعلم
ما كان يمر برؤوس خلاصة المؤمنين ونقاية المسلمين ، من المقر بين إليه ، المتصلين
به ، ولا كان يعلم ما كان يجول في أنفسهم من الآراء والمبادئ والخطرات ، بل كانوا
لجهلهم ذلك كله يتساءلون فيما بينهم ، فيسأل بعضهم بعضاً عما لا يفهمه ، وعما
يريد أن يعلمه ، وعن الروايات والأحاديث ، وعن غير ذلك من المسائل والشؤون .
وإذا كان أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى لا يعلمون ما في نفوس أصحابهم ولا
ما في صدور المسلمين . كان من أفضح المنكرات القول بأن الشيخ خطاباً وغيره
من مشايخ الطريق يعلمون ما في صدور مريديهم وأتباعهم ، والقول بأنهم
يدخلون في قلوبهم ويخرجون منها من حيث لا يشعرون . . . ولا ريب أنهم
إذا استطاعوا أن يدخلوا قلوب أصحابهم وأن يعلموا ما فيها استطاعوا أن يدخلوا
قلوب غير أصحابهم من المسلمين وغير المسلمين وأن يخرجوا منها من حيث لا
يدري ولا يشعر . وإذا استطاعوا أن يدخلوا قلوب جميع البشر ويعلموا كل
شيء فيها ، استطاعوا أن يدخلوا قلوب غير البشر من الملائكة والجان وأن
يدخلوا في نفوس البهائم وأحشائها وحواياها وزواياها . وإذا استطاعوا هذا
كله استطاعوا أن يدخلوا كل شيء ، ومعنى هذا علمهم بكل شيء في الأرض أو
في السماء لأنه لا فرق بين ما في قلب الإنسان وما في قلب الملك أو الشيطان أو
ما في نفس البهيمة . . . كما لا فرق بين ما في القلوب والنفوس وبين ما في أعلى
السموات أو أقصى الأرضين أو ما في اللوح المحفوظ . . . فن يستطيع أن يعلم
ذلك يستطيع أن يعلم ما في السموات وما في الأرض وما في اللوح المحفوظ . إذ

ومعنى هذا
علمهم كل شيء

لا فرق بين غيب وغيب بالنسبة إلى المخلوق وعجزه عن الاطلاع عليه والعلم به ...
فهذا القول الذي ذكره يقضى بأن يكون الشيخ عالماً بكل شئ في الأرض أو
في السماء . ونود بالله من هذا القول ومن لوازمه .

على أن الذي لا يستطيع فهمه ولا الإيمان به القول بأن الشيخ يدخل في
القلوب ويخرج منها ، وهذا غير القول بأنه يعلم ما فيها ، فإنه يمكن أن يقال : إنه
يعلم ما فيها ، ولكنه مع ذلك لا يدخلها ولا يستطيع دخولها . وهذا أقرب إلى
العقل والعلم من الزعم بأنه يدخلها ويخرج منها ، فإن هذا لا يمكن أن يؤمن به
إنسان يحترم عقله ويستعمله فيما خلق له . وأى إنسان يرضى لعقله ولدينه ولنفسه بأن
يصدق بأن ذاك الشيخ يستطيع أن يدخل بأثوابه وجسمه وهيكله كله في قلب
مريده النحيل الضعيف الأقرم ؟ اللهم احفظ لنا قلوبنا ونفوسنا من دخول هذا
الجالوس الضار المؤذى .

وفي هذا الكتاب الذى هو « النهد الوثيق » شناعب أخرى لا تقل عما
ذكرناه قبلاً ومصادرة لدين الله وخروجاً عليه ، ففي صفحة ١٧ يقول : « وأما
آدابك مع شيخك فكثيرة ، منها تعظيمه ظاهراً وباطناً وهذا من أهم الواجبات
عليك . وتباعد من الكمال بقدر تعظيمك له . ومن تعظيمه ألا نجاس على فراشه
الخاص ونحو ذلك . . . » فمضى هذا الشيخ التقي الورع أن من أهم الواجبات
على أتباعه وأنصاره - وهم خلاصة المسلمين فيما يزعمون - تعظيم الشيخ في الظاهر
والباطن ، ينفى في أنفسهم وفي أعمالهم ، وعنده أن من أوجب الواجبات عليهم
هذا التعظيم ، وأن هذا التعظيم هو مقياس الكمال والإيمان والفضل والتقى . وهذا
كله باطل مخالف لأصول الدين وفروعه ، مصادر لاجماع المسلمين في جميع العصور
فإن المسلم يبلغ من الكمال والإيمان بقدر صلاحه وتقواه وطاعته لربه وأتباعه
لنبيه ، لا بقدر تعظيمه لإنسان معين . والاسلام لم يطالب أهله بأن يعظموا إنساناً

شناعب
الكتاب

الآداب مع
الشيخ

معيناً ، بل الاسلام بجملته نهى عن تعظيم المخلوق والالتفات إليه . ولا يوجد في كتاب الله حرف واحد يقول : عظموا فلانا أو فلانا وبالغوا في تعظيمه ، لأن كالكلم لا يكون إلا بقدر تعظيمكم له ، بل قد يكون تعظيم المشايخ والرؤساء حراماً ممنوعاً . وإنما باطلاً موقفاً في الشرك والضلال وعبادة غير الله . ولم يقل مسلم واحد بصير بالاسلام قبل هذا القائل : إن المبالغة في تعظيم المشايخ مشروعة مطلوبة إطلاقاً . بل تعظيم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس جائزاً مشروعاً إطلاقاً ، بل من تعظيمهم ما هو شرك بالله ممنوع ، وذلك مثل السجود والركوع لهم ، بل لقد كان رسول الله ، كما قدمنا ، يكره القيام له ويقول لمن قاموا وراءه : « لا تفعلوا فعمل فارس والروم » وقد قدمنا أنه عليه السلام أنكر قيل من قالوا له : أنت سيدنا وابن سيدنا . وحذر القائلين منغبات الغلو الحرام . وكان يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم . إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » . وأنكر على من استغاثوا به ، وعلى من قال له : ما شاء الله وشئت ، وكان كثيراً ما يقول : « إنما أنا بشر مثلكم » وأنكر على من سجد له تعظيماً ، وأنكر غير ذلك من أنواع التعظيم . فكيف يزعم بعد هذا أن تعظيم المشايخ في الظاهر والباطن من أهم الواجبات على المسلم ، وأنه يبلغ من الكمال بقدر مبلغ تعظيمه شيخه ؟ ولو أن مسلماً اتقى الله فقام بواجباته وفروضه وترك منهيته ولم يعظم هذا الشيخ نوعاً من أنواع التعظيم ولا غيره من هؤلاء الأشياء ، بل ولم يمر والله ببال وفكرة لكان ذلك المسلم من الأتقياء الناجين ، ومن الكاملين ذلك الكمال النسبي البشري ، ولما طعن جهله هذا الشيخ وجهله إخوانه أو إنكاره لهم في دينه ولا في إسلامه وإيمانه . ولو أن إنساناً منح هذا الشيخ أبلغ التعظيم وأنكره وأشده ولكنه ترك الواجبات ، وأقدم على المحرمات لكان من الهالكين الفاسقين ، ولما نفعه ذلك الشيخ ولا تعظيمه شيئاً ، ولما عبأ الله به ولا بشيخه ولا تعظيمه

بل لكان كجهلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله...

فمقاس التقوى والكمال هو طاعة الله واتباع رسوله، لا تعظيم فلان أو فلانة.. ولهذا يقول الله في كتابه: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم» ولم يقل تعظموا فلانا أو فلانا. وقد علق الله سعادة البشر كافة بالإيمان والأعمال الصالحة في جملة القرآن. ودين الله قائم على هذا المعنى، أمثال قوله تعالى: «والمصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» وقوله: «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما» والقرآن كله قائم على هذا الأساس المتين. فن أعظم البدع المنكرة في دين الله الزعم أن تعظيم الشيخ هو مقاس الكمال والسعادة، والزعم أن ذلك من أهم الواجبات على المسلم.

وأما تحريم الجلوس على فراش الشيخ ونحوه فتحريم لما لم يحرمه الله، وشرع لم يأذن به الله وغلو موبق.

ثم قال هذا الشيخ في هذا الكتاب: «...ومنها ألا تكتم عنه شيئا مما خطر لك من محمود ومنهوم...»

الاعتراف
للشيخ

وهذا تقرير لهقيقة الاعتراف النصرانية التي توجب الاعتراف على المذنبين بين أيدي القسس ورجال الدين. ولكن الاسلام يرى من هذه العقيدة، زاجر عنها كل الزجر، محذر منها أبلغ التحذير. والاسلام لا يجوز لمن عارف بمعصية أو فكر في ركوب فاحشة من الفواحش، كالزنا أو ما هو أقبح منه، أن يخبر بذلك أحدا، لا الشيخ ولا من هو فوق الشيخ. وهل يرى هذا القائل المؤلف أنه واجب أو مطلوب دون الواجب من المريد أن يخبره لو فكر في إساءة منكرة إليه أو هم باتم عظيم يؤذيه ويؤله؟ اللهم إن هذا القول من شر الإقاويل المنكرة

المخالفة لجميع الأديان السماوية

ثم يقول الشيخ: « ومنها أن تسلم لأواصره ظاهراً وباطناً . ولو اعترضت عليه ولو التسليم للشيخ ظاهراً وباطناً بقلبك لا تغلح ! قال الأشياخ: ما عدم المرید الفلاح إلا من عدم امتثال شيخه ! » وهذا أيضاً باطل لأن التسليم ظاهراً وباطناً لا يكون إلا لله وللمبلغين عنه من الأنبياء والمرسلين المعصومين من الهوى والضلال والغفلة . ومن سلم لأوامر شيخ من المشايخ ظاهراً وباطناً فقد نأى عن دين الله ، وخرج عليه وعلى قواطعه نهاراً .

وهذا القول أيضاً باطل لأن الذي لا يفتح هو الذي يعترض على الله وعلى رسله وأنبيائه . أما الأشياخ فلا بأس في الاعتراض عليهم ، بل ذلك يجب أحياناً كثيرة . وقد كان المسلمون يعترضون على الصديق والفاروق وعثمان وعلى بن أبي طالب ، وكانوا جدمفلحين راشدين . بل كان هذا الاعتراض من معاني فلاحهم ورشادهم وهدايتهم . وقد قال حبر الأمة عبد الله بن عباس لقوم نازعوه ونازعهم : توشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ! أقول قال رسول الله وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ وهذا الشيخ نفسه يعترض ظاهراً وباطناً بقلبه ولسانه على كبار أئمة الاسلام وأركان الملة الاسلامية ، وقد يكفر طوائف منهم ، كما فعل في كتاب «إنحاف السكائنات» وهو يرى لنفسه أنه قطب الفلاح والصالح وأتباعه يعترضون بأقوالهم وقلوبهم وحالهم على شيوخ الاسلام بل ويسبونهم وهم يزعمون أنهم هم المسلمون حسب . وماذا يقول هذا الشيخ وخليفته وأتباعه في شيخ من شيوخ الحديث الأفاضل ، ومن رجال السنة البارزين ، ألف كتاباً ضمنه اعتراضات وانتقادات لأحد أئمة الفقه ، مثل الإمام الأكبر أبي حنيفة رضي الله عنه وأرضاه ، لأنه صح لدى ذلك المحدث المعترض أن أبا حنيفة خالف السنة وخالف مذهبه الأحاديث الصحيح ؟ يقول إن هذا المحدث المعترض لا

يفلح أبداً لا اعتراضه على إمام من أئمة الاسلام ؟ بل ماذا يقول في من اعترض على بعض أصحاب النبي عليه السلام في بعض الآراء والاجتهادات : أيقول : إن هذا المعترض لا يفلح أبداً ؟ أم يرى أن الذي لا يفلح هو المعترض عليه فقط ؟ بل ماذا يقول في المسلمين جميعاً فانهم لا يرتضون منه هذا الكتاب الذي هو كتاب « العهد الوثيق » ويمدونه من سقط التأليف ، ويوسعونه اعتراضاً وتفنيداً لأجله ، أرى أنهم لا يفلحون لأنهم اعترضوا عليه وعلى كتابه ؟ وهذا باطل أيضاً لأن المرید يعدم الفلاح إذا لم يمثل أوامر الله وأوامر رسوله ، لا أوامر شيخه ، بل لابد أن يعدم الفلاح إذا امتثل هذه الأوامر الجائرة الصادرة إليه من الشيخ .

الجلوس بين يدي الشيخ كالجلوس للصلاة

ثم يقول : « ومنها ألا تجلس بحضرته إلا كجلوسك للصلاة إلّا للضرورة » وهذا أمر صريح بعبادة الشيخ ، لأن الجلوس للصلاة جزء من الصلاة ، ولا يجوز صرف جزء الصلاة لغير الله كما لا يجوز صرفها كلها لغيره ، ولا يجوز أن يتوجه إلى مخلوق بجزء من العبادة كما لا يجوز التوجه بها كلها إليه . ومن التناقض الغريب أن هذا الشيخ يقول هذا القول في حين أنه يحرم القيام للقادم سواء أكان القادم هو الشيخ أم كان غيره . وهذا لأن الشيخ يريد أن يشتهر بالخلاف وبالا امتياز على الآخرين لسياسة متبعة . ومثل هذا محافظتهم على العذبة دون غيرها من ملبوس الرسول وعاداته المحفوظة المعروفة ، لأن في العذبة امتيازاً واشتهاراً قد لا يتحقق في غيرها . والعذبة ، بل والهامة ، لا تخرج عن أن تكون عادة من عادات العرب التي أقراها الرسول وجعلها من عادات المسلمين لا من دينياتهم . ومن الدليل على أن محافظتهم على العذبة لم تكن إلا لطلب تمييزهم عن غيرهم ، لأغراض قد لا تكون صحيحة ، أن أصبح حديث جاء في العذبة هو الحديث الذي رواه مسلم في الصحيح وهو أن النبي عليه السلام خطب يوم فتح مكة لا بسا

عمامة سوداء قد سدل طرفيها بين كتفيه . هذا هو أصح حديث في لبس العمامة وسدل العذبة . والذي فيه ، كما ترى ، أنه عليه السلام قد لبس عمامة سوداء لا بيضاء ، وسدل طرفيها لا طرفها . فكان الواجب على هؤلاء إذا كانوا من أهل السنة حقاً أن يلبسوا عمامم سوداء ، ولو بعض الأحيان ، وأن يسدلوا طرفيها لا طرفها إذا كانوا يريدون الاقتداء بالرسول حقاً ، ويريدون المحافظة على عاداته . ولكنهم قد حافظوا على العمامم البيض دون السود ، وعلى إرخاء الطرف الواحد دون الطرفين . فكانوا بهذا الفعل الذي زعموه محافظة على زى الرسول مخالفين لزيه ولما حفظ عنه فيه . وقد حفظ عنه أيضاً أنه لبس الأزار ولم يحفظ أنه لبس السراويل ، وهؤلاء يحافظون على لبس السراويل دون الأزار . . . والقول في هذا الباب يطول ، ونحن نشير بإشارات مجمل .

ثم قال : « ومنها ألا تطيع في شيخك قول قائل ، ولا تصاحب له عدواً ، ولا تعادى له صديقاً ، ولا تجالس من ليس محباً له . ومن أدل دليل على عدم صدق المريد في حبه شيخه أن يكره أحداً من أصحابه أو ينتقصه . وإن أمره شيخه أن يجانب أحداً من أصدقائه أو غيرهم وجب عليه اجتنابهم » .

وهذا أيضاً قول لا يعرفه الإسلام ولا الحق ، لأن الشيخ ليس معصوماً ، ولأن أصحابه ليسوا معصومين حتى لا تصح كراهتهم ، بل قد يكون في أصحاب الشيخ وفي بطائنه انخاصة من يستحقون المقت والطرده ، كما قد يأمر الشيخ بمجانبة من يجب الاتصال به والاقتراب إليه ، لأن الشيخ ليس محرماً على الهوى والفرض والضلالة . وقد يخاصم الشيخ أبا المريد أو ابنه أو أخاه أو غيرهم من ذوى قرباه لأجل غرض دنيوى ، أو حاجة نفسية باطلة ، فيأمر مريده باجتنابه وهجره بغيا وعدواناً ، لأنه ليس محرماً ، كما قلنا على الهوى . فهل يجب على المريد ، يا أيها الناس ، حينئذ أن يهجر أباه وأخاه احتراماً لهوى الشيخ ، وطاعة لشهوته الظالمة ، أو

لا يسمع في
الشيخ قول

خطئه الاسم ، وقد يأمر الشيخ أيضا باجتنب مسلم تقي فاضل ، لأحد الأسباب المذكورة أو غيرها من الأسباب الباطلة ، وقد يكرهه ويشنؤه ، فهل يجب حينئذ . على جميع مريديه مصارمة ذلكم المسلم الصالح الفاضل والورع التقي ؟ وقد يكون هنالك عالم نبيل لا يحب الشيخ لأنه رأى منه أشياء لا تجدر بمثله ، ولا بمنصب مثل منصبه . فهل تجب معاداة ذلكم العالم الصالح النبيل وهو قد يكون على حق . واضح اذكره الشيخ ، وأقل أحواله أن يكون مخطئا خطأ يندر فيه ؟ هذا كله . لا يعرفه الاسلام ولا غيره من أديان الله لأن فيه تقديساً لشخص معين ، ولأن فيه رفعا له عن أفق البشرية المعرض للخطأ والهوى والضلال والقدح والمدح . ثم كيف يجب على المرید ألا يقبل في شيخه قول قائل ؟ أو لا يمكن أن يكون قول ذلكم القائل حقا وصدقا ؟ إن قالوا إنه لا يمكن أن يكون حقا ، فقد ذهبوا إلى أن شيخهم معصوم لا يمكن أن يمر بساحته الخطأ والزلل ، وإن قالوا إنه يمكن أن يكون قول ذلك القائل حقا وصدقا ، ومع هذا يجب رد حقه وصوابه احتراما للشيخ ليس أكبر من الحق للشيخ ، فقد زعموا أن الشيخ أكرم وأكبر من الحق ، وأنه يجب رد الحق والصدق والدين ، دين الله الذي لم يعرفه الشيخ أو لم يرضه ويقل به . ولا خلاص لهم من افتراض أحد الأمرين ، وهما أمران أحلاهما ممر ، وكلاهما لا يعرفه الاسلام ولا المسلمون .

إن هذه السراقات من أفانين التبجيل التي يضربونها على الشيخ لم يضرب شيء منها على أفضل الخلق بعد الأنبياء : فما زعم هذا المسلمون لأصحاب نبيهم ولا لأتباعهم الذين نقلوا عنهم الدين ، ولا زعموه للأئمة الذين فصلوا فقه الاسلام وحفظوا نصوصه من الضياع والالتباس بالمكذوب والباطل : فما زعموا أن ما قيل هذا أبا بكر الصديق أو عمر أو عثمان أو عليا أو أبا حنيفة أو مالكا أو الشافعي أو ابن لا أصحاب النبي حنبل : ما زعموا أنه لا يصح أن يقبل في هؤلاء قول قائل ، ولو زعم هذا أحد .

للاموه وأخذوه وخطأوه بل لقد كانت النساء ، وكان صغار المسلمين ، يجرؤون على تخطئة كبار الصحابة وكبار الخلفاء الراشدين ، وكان هؤلاء يقبلون ذلك ويطيبون به أنفسهم ويقرون به أعيناً . وكان المسلمون أيضاً يقبلونه وينعمون به . والله يقول في كتابه للناس جميعاً للأشياخ ومن دونهم من المريدين والمرادين : « فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ، ويقول : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » ويقول في أمثال هؤلاء الذين لا يقبلون في أشياخهم قول قائل : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ » .

إن هذه الأقاويل في هذا الكتاب ، موضوعة بدهاء كريه مر ، ومسيانة منظمة الدهاء في هذه بارعة ، ولكنها ضالة ظالمة . فهذه الأقاويل تريد أن يحاط الشيخ بأسلاك التبجيل والتقديس ، وتريد ألا يكون في أنفس أتباعه وأنصاره غير ذينك التقديس والتبجيل . ولأجل الحصول على ذلك حرمت على الأتباع والأنصار الاتصال والاقتراب إلى من لا يحبون الشيخ ، ومن لا ينعمون بتبجيله ، ومن قد يدلون على خطائه ومكان انحرافه ، وأوجبت عليهم معاداة الأهل والأصدقاء والناس جميعاً ، وهجرانهم واجتنابهم ، خشية أن يقولوا قولة حكمة وصواب فتلع في ضلالتهم وتتبد ، فتحرق شيئاً من جلال الشيخ في نفوسهم ، ومن قدره في صدورهم ، لأن الغاية كلها هي المحافظة على قداسة الشيخ ومكانته والرباط في سبيل هذه المحافظة . ولغمان هذه الغاية حرم على الأتباع والمريدين الاعتراض عليه ظاهراً أو باطناً وحرم عليهم الاقتراب إلى من لا يقدسونه ، وحرم عليهم أن يسموا فيه قيل قائل ، وحرم عليهم سؤاله بالحاج ، إذ قد لا يكون عليهما بما سئل عنه فيفتضح وينكشف الغطاء ، وحرم عليهم النظر إليه بعناية ، وحرم المبيت عنده

الغاية

والاتصال به كثيراً ، لأن المبيت عنده والاتصال به يعينان على معرفة حقيقته المرة ونقصه المحتوم . وحقيقته هي بلا شك تدفع الغلو فيه وتأباه . وحرّم عليهم الجهر على معرفة مقدار نومه وأكله وشربه وضوئه وإتيانه النساء ، وحرّم عليهم الزوج بامرأته التي طلقها أو مات عنها ، لأن ذلك كله يعين على كشف مخبأته ، وإذا انكشف الخبأ فعلى الشيخ العفاء . وحرّم عليهم معارضته والاحتجاج عليه بأقوال العلماء ، وحرّم عليهم أن يقولوا لشيء فعله أو لشيء قاله : « لم » وأوجب عليهم أن يمتنعوا أن المبت لا يمر به مطلقاً ، فلا يقول قولاً عبثاً ، ولا يفعل فعلاً عبثاً لأن مقامه يحل عن ذلك ، وأوجب عليهم أيضاً أن يمتنعوا أن معصيته ورثاه أفضل من طاعة المريد وإخلاصه ، وحرّم عليهم وأوجب غير ذلك مما يرى كله إلى أن يكون الشيخ في منجى من النقد والذم والاعتراض ظاهراً ولا باطناً ، وأن يكون كالإيمان : يبعد عن مواطن الشكوك والريب والكفران ، ويخشى عليه طيف الأذى . وهذا الذى ذكرناه مما حرّم على المريدين وأوجب عليهم مذكور كله فى كتاب « العهد الوثيق » ومذكور فيه غيره .

حفظ الشيخ
من أوصاف
الربوبية

ثم قال : « ومنها ألا تعمل عملاً إلا بأذنه ، وأن تسلم له فى جميع الأمور بأن تكون بين يديه كالمنت بين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء ولا يتحرك منه شيء إلا إذا حركه » .

وهذا أيضاً أمر بالاشراك بالربوبية ، وإعطاء للمخلوق الحقير الزرى صفة الخالق تعالى جده . فان الذى لا يتحرك شيء إلا إذا حركه هو الله وحده ، والذى لا يعمل عمل إلا بأذنه هو الله وحده أيضاً . فهذا ليس للرسول ولا لأحد من الرسل فانه ليس واجبا على المسلم ألا يعمل عملاً من الأعمال الدنيوية والعادية إلا بأذن رسوله عليه الصلاة والسلام ، فليس بواجب عليه ألا يشرب وألا يقوم وألا يتعد وألا يتحرك وألا يأكل وألا يسافر إلا إذا أذن له النبي . كلا ليس هذا واجبا على

مسلم . ومن زعم أن هذا واجب في دين الاسلام فقد أعظم على الله الفرية ، بل لقد كان رسول الله يقول للمسلمين : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وكان يشاورهم في الشؤون الدنيوية ويقول الله له « وشاورهم في الأمر » فكيف بعد هذا يجب على المسلم ألا يعمل عملاً إلا باذن شيخ من الأشراف : فلا يصلي ولا يصوم ولا يطبخ الله ولا يسافر ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا إذا أذن له ؟ اللهم إنا نعوذ بك من العمى ومن العماية ، ومن عقابيل الغواية .

هبوا هذا الشيخ جن ، فخرم على أنصاره ومريديه ذلكم كله ، أفيحرمونه على أنفسهم ؟ اللهم إنا نعوذ بك مرة أخرى من العمى والعماية ، ومن عقابيل الغواية . ثم من يكون هذا الشيخ الذي يجب أن يقع المسلم بين يديه كوقوع الميت بين يدي غاسله ، وألا يتحرك شيء منه إلا إذا حركه ؟ أليس هو إنساناً ضعيفاً عاجزاً يخضع للهوى ، وينقاد لشهوة النفس الأمارة بالسوء ، ويجهل كثيراً من الدين فضلاً عن الدنيا ، ويجهل كثيراً من ضروراتها ؟ ؟ ؟ أإنسان هذا الذي لا يتحرك من مريديه عضو إلا بأذنه وأمره ؟ إن هذا ، ولا ريب ، إله كبير . فالإله هو الذي لا يتحرك عباده ولا يقوّمون ولا يقدّمون ولا يستطيعون أن يعملوا عملاً إلا إذا شاء وأذن . هذا على مذهب أهل السنة ، وأما المعتزلة ومن شايعهم من أصناف القدرية

فعمدتم أن العبد يفعل ويقول ويعمل ويترك ويأتي ما يريد وإن لم يشأ الله ويرد . الشيخ أعظم فهذا الشيخ أعظم إذن من الله عند المعتزلة . اللهم إنا نعوذ بك مرة ثالثة من العمى من إله المعتزلة والعماية ، ومن عقابيل الغواية . أما المخلوق فحقاراً وصغاراً له ولمن وهبه هذا الوصف

أربّ يبول الثعلبان برأسه ؟ * لقد ذل من بالت عليه الثعالب
يا هؤلاء إن الله جلت قدرته يقول لنبيه في غير ما خفاء ولا لبس « ليس لك من الأمر شيء » ويقول « إنك لا تهدي من أحببت » ويقول : « ليس عليك هدام » ويقول « وما أنت عليهم بجبار » ويقول « قل إنما أنا بشر مثلكم »

ويقول « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ويقول « ألا له الخلق والأمر » . هذا بعض ما يقول الله لأكرم الخلق عليه ، وأنتم تزعمون أن الواجب على المسلم ألا يعمل عملا إلا بإذن الشيخ وبأمره . أهذا جنون وألا يتحرك منه عضو ولا شيء إلا إذا حركه . أهذا جنون أم ضلال هو شر من الجنون ؟! « يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . . . ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما أفلاتندكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تحافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » .

ثم قال « قالوا : وليعلم المريد أن كل ذرة من أعمال شيخه لا يقاوم بها عبادته هو طول السنة لسلامتها من الموانع ، فنومه أشرف من عبادة المريد ، وقد أرسل ذوالنون المصرى يقول لأبى يزيد البسطامى : إلى متى الغفلة والراحة وقد أسارت القافلة ؟ فأرسل أبو يزيد يقول له : ليس الرجل الذى يسير مع القافلة ، وإنما الرجل من ينام إلى الصباح ويصبح أمامها ، فقال ذوالنون هذه درجة لم تبلغها أحوالنا . وقال فى موضع آخر : « قال أبو سعيد من علامات كذب المريد أن يرى قيامه أفضل من نوم شيخه ، ومن علامات صدقه أن يرى رثاء شيخه أفضل من إخلاص نفسه » انتهى . وهذه أقوال أيضا باطلة مخالفة لأصول الدين وفروعه ، فليست كل ذرة من أعمال الشيخ أفضل من عبادة المريد طول السنة . وليست عبادة الشيخ وأعماله سالمة من الموانع ، وليس نومه أفضل من عبادة المريد ، والنائم إلى الصباح لا يمكن أن يكون أمام القافلة السارية كل الليل ورثاء الشيخ لا يمكن أن يكون أفضل من إخلاص المريد . وأى شيخ هذا الذى برأى ؟ لأن الرثاء

تعالى الشيخ
ونومه أفضل من
إخلاص غيره
ومن عبادته

نفاق ، وأى شيخ هذا الذى ينافق ؟

أما الزعم بأن الذرة من عمل الشيخ تفضل عبادة غيره من المريدين كل الذرة من عمل السنة فن أعظم الكذب على الدين وعلى الله وعلى عبده . فإن الله لا يظلم الشيخ أحداً ، ولا يلبس مخلوقاً من عمله شيئاً ، ولا ينقص عاملاً مما عمل فتية . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، سواء أكان شيخاً أم مريداً . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . سواء أكان ذلك العامل الشيخ أم كان المريد . فإن كل نفس بما كسبت رهينة . وليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب ولا قرابة . كما قال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . فلا يمكن فى عدل الله أن تكون الذرة من أعمال الشيخ ، لأنه شيخ ، أفضل من عبادة المريد كل السنة ، لأنه مريد ، ولا شك أن المريد قد يكون أصلح وأورع وأتقى قلباً ونفساً وأقرب إلى الاخلاص من الشيخ ، وقد يتقن المريد عبادته وصلاته وسائر أعماله أكثر من الشيخ ، كما قد يكون لدى الشيخ من النفاق والهوى والحقد والحسد وحب الدنيا والحرص عليها ما ليس عند المريد . فالمريد بالجملة كثيراً ما يكون أقوم بالواجب وأتقياً عن المحرم وعن أمراض النفس والقلب ، وأكثر صباة بالاخلاص والطاعات من شيخه . وهذا كثير مشهود . وليس يمكن مع هذا الفرق العظيم أن تكون الذرة من أعمال الشيخ المسبوق إلى كل خير أفضل من عبادة المريد السابق إلى كل خير طول السنة فى عدل الله وحكمته وشرعته .

أما الزعم بأن أعمال الشيخ سالمة من الموانع فزعم من أعظم الأخطاء أيضاً سلامة أعمال فقد . تجتمع جميع الموانع الظاهرة والباطنة لدى الشيخ ، وقد يعرف المريد اجتماعها لدى شيخه ، وقد لا يعرف لحرصه على إخفائها وإظهارها وكتمانها . فأعظم الموانع النفاق والرثاء ، وقد يكون نصيب الشيخ من هذا الداء أعظم نصيب . ومن

أعظم الموانع أن تكون العبادة على خلاف السنة ، وكثيرا ما تكون عبادة الشيخ لا نسب بينها وبين السنة . ومن أعظم هذه الموانع الخنوع للهوى والانجذاب إلى الدنيا . وهؤلاء في هذين المرضين تاريخ مذكور مشهور ، ولهم مغدى ومراح إلى اقتناصهما من لهوات التقي والورع . فأية موانع للعبادة أعظم من هذه الموانع ؟ وأى قوم أفلتوا من وثاقها ؟ وأى أشياخ هؤلاء الذين سلموا منها ؟ وأى مسلم يستطيع أن يشهد لله بأن شيخه قد سلم ظاهره وباطنه من العصيان والاثم ، ويشهد أن أعماله مقبولة خالصة لوجه الله ؟ وقد نهى الاسلام عن هذه الشهادة فقال « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » وقال « ولا تقف ما ليس لك به علم » وباطن المرء وما تنعوى عليه حشاشته لا يلمه إلا الله . فمن زعم أن ضمير شيخ من الأشياخ قد خاض من الاثم والمعصية فقد قفا ما ليس له به علم .

لا يعلم باطن
الانسان غير
الله

وقد مدح رجل رجلا عند النبي ﷺ فقال النبي عليه السلام : ويحك قطعت عنق صاحبك مرارا . إن كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة ، فليقل أحسبه كذا وكذا ولا أذكرى على الله أحدا . وروى البخارى أن أم العلاء ، إحدى الانصاريات ، قالت : لما توفى عثمان بن مظعون دخل عليه رسول الله فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . فقال النبي : « وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ والله إني لأرجو له الخير ، والله وأنا رسول الله لا أدرى ما يفعل بى » . قالت : فوالله لا أذكرى أحدا بعده أبدا . وقال عليه السلام « إن كذب الحديث الظن » إلى غير ذلك من الدلائل الكثيرة الدالة على أن الله وحده هو العليم بمحائق عباده وبما طويت عليه نفوسهم وقلوبهم .

لا يستوى
النائم والقائم

وأما الزعم أن نوم الشيخ أفضل من عبادة المريد ومن صلاته في جوف الليل ، فن أعظم الأكاذيب المناقضة لأصول الدين بل للأديان كلها . فإن أديان الله قائمة على أن الحسنه لا يساويها غير الحسنه ، وأن المحسن ليس كغير

غرس رَأْيَ النِّسَاءِ الطَّاعَةِ ، وَأَنْ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ بِمَقْدَارٍ وَنَظَامٍ ،
وَأَنْ السَّابِقَ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ لَيْسَ كَالْقَاعِدِ الْمَعْرُضِ عَنْ ذَلِكَ ، الرَّاكِنِ
إِلَى الرَّاحَةِ وَالْكَسَلِ ، وَأَنْ الْمُنْفَقَ لِيْلِهِ نَوْمًا وَرَاحَةً لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ كَالْمُنْفَقِ لِيْلِهِ
تَسْبِيحًا وَقِيَامًا وَقِرْآنًا ، وَأَنْ الْمَالِيَّ عَيْنِيهِ رَقَادًا لَا يَكُونُ ، فِي عَدْلِ اللَّهِ وَشَرْعَتِهِ ، مِثْلُ
الْمَالِيَّ عَيْنِيهِ بَكَاءٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَخَوْفًا مِنْ غَضَبِهِ وَمِنْ مَقَامِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَا كَالْمَالِيَّ
عَيْنِيهِ افْتِكَارًا فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَجَلَائِلِ مَصْنُوعَاتِهِ . وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ الصَّحِيحِ
وَجِبَ عَلَى الْعُقَلَاءِ جَمِيعًا أَنْ يَبَادِرُوا إِلَى الطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ ، وَأَنْ يَهْبُوا أَعْمَارَهُمْ
وَحَيَاتِهِمْ وَمَحْتَمَهُمْ وَرَاحَتَهُمْ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ . وَأَنْ يَجَافُوا جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ
وَعَنِ الْحَشَايَا النَّاعِمَةِ إِلَى السَّهْرِ وَالنَّصَبِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَابْتِغَاءَ ثَوَابِهِ . أَمَّا لَوْ
أُمِكنَ أَنْ يَكُونَ النَّوْمُ أَفْضَلَ مِنَ الْقِيَامِ وَمِنَ الصَّلَاةِ ، وَأَنْ تَكُونَ الرَّاحَةُ أَفْضَلَ
مِنَ النَّصَبِ وَالتَّعَبِ ، أَزْدَلَانَا ، إِلَى اللَّهِ لَكَانَ جَاهِلًا ذَاكَ الَّذِي يَقُومُ يَصَلِّي فِي
جَوْفِ اللَّيْلِ وَالْعَيُونِ نَائِمَةً ، وَلَكَانَ حَاشَا ضَالًّا ذَاكَ الَّذِي يَدَعُ رَاحَتَهُ وَلِذَلِكَ إِلَى
تَعَبِ الْعِبَادَةِ وَنَصَبِ الطَّاعَةِ وَالنَّاسِ فِي لَذَاتِهِمْ يَتَفَكَّهُونَ .

لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الزَّعْمُ مِنَ الْمَزَاحِمِ الَّتِي يَنْكُرُهَا الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ بِشَدَّةٍ ،
بَلْ نَحْنُ لَا نَشْكُ أَنَّ قِيَامَ الْمُرِيدِ أَحْيَانًا كَثِيرَةٌ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ قِيَامِ الشَّيْخِ ،
وَأَنْ طَاعَتَهُ وَعِبَادَتَهُ تَكُونُ أَحْيَانًا أَوْ مِنْ طَاعَتِ الشَّيْخِ وَعِبَادَاتِهِ لِمَا يَمْتَّازُ
بِهِ الْمُرِيدُ أَحْيَانًا عَنْ شَيْخِهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَصِدْقِ النِّيَّةِ وَسَلَامَةِ الْقَصْدِ مِنْ
الْأَدْوَاءِ النَّفْسِيَّةِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ عَنْ ذِي النُّونِ الْمَصْرِيِّ وَأَبِي يَزِيدَ
الْبُسْطَامِيِّ بَاطِلٌ .

وَأَمَّا الزَّعْمُ أَنَّ رِثَاءَ الشَّيْخِ يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ إِخْلَاصِ الْمُرِيدِ
فَزَعْمٌ هُوَ لِأَحَدِي الْكَبِيرِ وَإِلَّاهِي الْأَنَامِ الْمُنْكَرَةِ .

نَحْنُ قَالُ : « وَمِنْهَا أَلَا تَتَزَوَّجُ امْرَأَةً رَأَيْتَهُ مِثْلًا إِلَى التَّزْوِجِ بِهَا ، وَلَا امْرَأَةً مُحْرِمٍ أَزْوَاجَ
طَلَقَهَا أَوْ مَاتَ عَنْهَا » .

الشَّيْخُ

يحاول هذا الشيخ، دفا الله عنه، أن يتم الشبه بينه وبين النبي عليه الصلاة والسلام. ولهذا فالتزوج بمطلقته وبأرملته وبأنتى مال إلى الزواج بها باطل ممنوع كما منع التزوج بزوجات النبي عليه السلام. وفي ص ١٢ من هذا الكتاب يقول: « قال ابن مسروق من علامة المريد الصادق ألا يرى على وجه تشبيه الشيخ بالرسول الأرض أحداً أحب إليه من شيخه. فان قدم عليه زوجة أو ولداً لم يشم من طريق الحق رائحة وهو كاذب. وفي الحديث لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين. وهو للأشياخ بحكم الإِراث ». فمنعه أنه إذا لم يؤمن من قدم أحداً في حبه على رسول الله فكذلك ليس بمؤمن من قدم أحداً على شيخه في حبه. وهذا بلا شك قول زور وخطأ باطل يستتاب قائله وناشره وبائعه ومقره وراضيه. ولا يرتاب مسلم يعرف ما الاسلام أنه يجب أحيانا كثيرة على المسلم أن يحب فقيرا زرياعيا أكثر من حبه هذا الشيخ وغيره من أشياخ الطرق لما قد يمتاز به ذلك الفقير العاى على هؤلاء من التقوى والإخلاص والورع. ولا يشك المسلمون أيضا في أن من كره شيخا من هؤلاء لسبب من أسباب الكراهة الصحيحة فليس بناقص ذلك من دينه وإيمانه شيئا وليس بضاره قليلا ولا كثيرا. ولو أن الناس جميعا لم يعرفوا هذا الشيخ الذى أوجب عليهم أن يحبوه أعظم من حبهم الناس جميعا لما ضارهم ذلك الجهل به شيئا عند الله. وإنا نقول لهذا الشيخ، ونحن على يقين مما نقول: إن جميع أنصاره ومريديه يحبون أموالهم وأزواجهم وأولادهم أعظم من حبهم له بلا شك، فهل يراهم جميعا بعبيدين عن رائحة الحق غير صادقين في دينهم وشأنهم.

المشايع
مشرعون
نعم يقول هذا ليقم الشبه بينه وبين النبي عليه السلام. وفي ص ١٢ يقول
ناقلا « فإنه ما دامت الأشياخ باقية فان الأمر والنهى باق، والتحليل والتحرير
مخاطب به ». فالأشياخ بهذا يحلون ويحرمون، ويأمرون وينهون، كما كان

الأنبياء والمرسلون . ويقول ص ١٤ : إن المعارض على الشيخ لا يفلح أبداً .
ونص الكلمة المذكورة « من قال لأستاذه «لم» لا يفلح أبداً » فالعارض
على الشيخ موجب الضلال والهلاك كالمعارض على الأنبياء سواء . ويقول في
هذه الصفحة أيضاً: إن التسليم للشيخ واجب في كل شيء حتى في ترك الطاعات،
ويزعم أن الشيخ لو منع مريده من الصلاة والصيام والقرآن وطلبه العلم فأنكر طاعة الشيخ
المريد لهذا المنع، ولو في نفسه، فهو عاص لله ولرسوله. ويقول ص ١٨ كما تقدم : إنه في ترك الطاعة
لا يصح أن يطيع المريد في شيخه قول قائل، وإنه يجب عليه أن يعادى جميع
الناس لأجله إذا أراد ذلك منه. وهذا هو ما يجب على المسلمين إزاء نبيهم. ويزعم
ص ١٩ أن أعمال الاشياخ لا يدخلها العيب والبطلان أبداً فهم في هذا كالأنبيا .
وأما هنا فنقول : إن الزواج بطلقة الشيخ وأرملته وبالتالي مال إليها ممنوع
كالزواج بلساء النبي عليه السلام. وقد ذكر في الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن
أحد المريدين في مصر تزوج بامرأة شيخه بعد موته فجاءه الشيخ وهو قائم وطلعه
بجزبة فأرداه قتيلاً. وفي الطبعة الثانية حذف هذه الخرافة بعد أن أحس جسامتها
وفداحتها . وهذا الذي ذكر كله باطل فاسد لدى جميع المسلمين لا يختلفون في
بطلانه ومناقضته لأصول الاسلام وفروعه، ولا يختلفون أن قائله يجب أن يستتاب
وأن يتوب . .

دلي أن الذي حرم على المسلمين من أزواج النبي عليه السلام هي أزواجه تفضيل الشيخ
اسمى مات عنهن لا الا في طلقهن أو مال إلى الزواج بهن فلم يتزوجوهن فانهم يحرمون على الرسول
على المسلمين . فهو بهذا قد وضع لنفسه من الحقوق والواجبات ما لم يمكن لرسول الله
ﷺ . وأزواج النبي اللاتي مات عنهن حرم على المسلمين بعده لأنهن أمهاتهم
كما ذكر القرآن، ولأنهن أزواجه عليه السلام في الجنة لا يصلحن لغيره، ولا أغراض
أخرى عاليا ليس لأحد منها شيء. أما أزواج الشيخ فلماذا حرمت على المريدين ؟

وبعد تحريرهم عليهم يحتمل أنه يريد أن يبين حياتهم بلا أزواج ، ويحتمل أنهم محرمات على المريدين فقط دون غيرهم . أما الاحتمال الأول فن أعظم الضلال والسوء . وأما الاحتمال الثاني ففساد باطل لأن الواجب على الشيخ أن يرجع زواجهن بمريديه وأنصاره على زواجهن بالآخرين ، لأن مريديه وأنصاره يقومون بحقوقهن وواجباتهن ويكرهونهن أكثر من الآخرين رعاية لحق شيخهم عليهم ، ولأنهم قد تخرجوا على الشيخ وتآدبوا بآدابه فسكن لاثقات بمريديه لأنهم طيبات وهم طيبون والطيبون للطيبات . فالمعقول أن يقدم المريدون على غيرهم لأجل ما ذكرناه . ولكن كل شيء هنا يجري على غير المعقول

دفاع أتباع
الشيخ

وقد خاطبنا بعض أتباع هذا الشيخ في هذه المسألة فوجدناهم مقرين لها راضين بها ، وقد دافعوا عنها بأن المراد الأدب مع الشيخ فقط ، ولكن فاتهم شيء بل أشياء ، إذ يقل لهم : هل يضع الشيخ لنفسه من الآداب ما يحرم به الحلال ويحل به الحرام ؟ وهل من الأدب مع الشيخ أن يحرم ما أحل الله في كتابه ودينه ؟ ؟ إنه يجب أن يكون الأدب مع الشيخ ، والآداب بين الشيخ وأتباعه ، هو اتباع الشرع تحليلاً وتحريماً . والمسلم الحق لا يمكن أن يزعم أن الأدب يكون في تحريم الحلال أو في إحلال الحرام إذا كانوا حقاً مسلمين . وأرى شيخ هذا الذي يرى لنفسه من الآداب ما يرد به على الله وعلى كتابه ، وما يحرم به طيبات ما أحل الله لعباده ، وأن يرى لنفسه من ذلك ما ليس لرسول الله وما ليس لأبي بكر وعمر ، وما ليس للآخرين من سادة الأمة ؟ ولعمري إن هذا ليس من الأدب في شيء . ولو كان الامتناع من أزواج الأموات فيه تأدب معهم مشروع مطلوب لكان من الواجب على المسلم ، أو من المستحب له ، ألا يتزوج أرملة مسلم ولا مطلقة أبداً ، لأن التأدب مع المسلمين عامة مطلوب مشروع .

فساد الدفاع

على أن هذا الدفاع الذي دافعوا به عن شيخهم غير صادق ، وذلك أن هذا

الشيخ قد ذكر في مقدمة الكتاب أن جميع ما فيه مأخوذ من سنة النبي ومن دين الاسلام، وعنوان الكتاب « العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق » يدل على ذلك ، فان أحسن طريق ، بلا شك ، هو الطريق المحمدي ، فكل ما في الكتاب هو من الاسلام ، فيما يزعم كاتبه : فحريم مطلقة الشيخ وأرملته والتي مال إلى الزواج بها أمر يقره الاسلام ورضاه ، ويدعو إليه عند هذا المؤلف عنا الله عنه . ثم لو كان من الأدب فقط فلماذا ساء ذلك الشيخ أن يقتل ذلك المريد الذي تزوج بأرملته ، وهل يحل قتل المسلم بنذر ارتكابه إحدى الموبقات . وقد قال عليه السلام في الحديث الصحيح : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه يعنى المرتد .

فلا ريب أن تحريم زوجة الشيخ راجع إلى الأثانية الحادة والغلو المدقوت أثنانية في تقديس النفس ، وراجع أيضا إلى الرغبة العنيفة في إبعاد من يعرفون دخائل الشيخ ومخباته عن أنصاره وأتباعه لئلا يملأوا من أمره شيئا يزلزل مكانته في قلوبهم ونفوسهم .

ثم قال « ومنها أن تعظم ما أعطاه لك من نوب ونحوه ولا تبغمه لأحد ، ولو آتاك الشيخ أعطاك ما أعطاك ، إذ ربما يكون قد طوى لك فيه سرا ، وربما جمع لك فيه جملة من أخلاق الرجال كما طوى رسول الله لأبي هريرة ثوبا فما نسى بعد ذلك شيئا قط . والأشياخ ليس لهم فعل عبثا » كذا « لأن مقامهم يحل عن ذلك » وهذا أيضا راجع إلى محاولة إتمام الشبه بينه وبين الرسول عليه السلام وإن كان كثيرا ما يزيد في قدره عن قدره ، ويمطيه من الفضائل والأحكام ما لم يكن لرسول الله . وهذا عين البلاء . فهو هنا يأتي على الأتباع والمريدين أن يفرطوا فيما وصل إليهم من الشيخ : فلا يهبوه ولا يبيعوه ، مهما تمن لهم ومهما بولغ في

هذا لم يكن التبيين والقيمة . وهذا لم يكن لما أعطاه النبي عليه السلام ، فقد كان يعطى أصحابه لرسول الله ما يعطيهم وكان لا يأتي عليهم أن يبيعوا أو أن يهبوا ذلك ، وكانوا هم لا يفهمون هذا المنع والغلو الباطل . فكانوا يبيعون ذلك أحيانا ، ويهبونه أحيانا أخرى وأحيانا يستمتعون به . وما كانوا يقدرون ما أعطاهم هذا التقدير ، ولا يفهمون فيه هذا الغلو ، ولا يفهمون ذلك السر الذي ربما كان أخلاق جملة من الرجال ، أو ربما كان أعظم من ذلك .

أسرار الشيخ ثم أى سر هذا الذى قد يضعه الشيخ فى ثوب إعطاه ، بل وأى سر لدى الشيخ ؟ وهل يستطيع أن يضع فى شئ سرا لم يضعه الله فيه ، وهل يجعل مباركا ما ليس مباركا ؟ هذا مأخوذ من قول العامة فى الله عز وجل « يضع سره فى أضعف خلقه » . ولكن قول العامة أصدق من قول هذا الشيخ ، لأن العامة يدركون أن الذى يضع السر هو الله لا المخلوق . أما الشيخ فهو أعجز من ذلك وأقل . وأى شيخ هذا الذى يتدبر أن يضع فى ثوب أخلاق جملة من الرجال الفضلاء ، وكيف يمكن ذلك ؟ أليس هذا جنونا ؟ أو ليس هذا لم يكن لمخلوق قط لا للأنبياء ولا لغيرهم ، بل الله وحده هو الذى يضع الأسرار والبركات فيما يضع وما يخلق . أما المخلوق ، فكما لا يستطيع أن يخلق شيئا من العدم ، فكذلك لا يستطيع أن يوجد فى شئ سرا من الأسرار ، ولا بركة من البركات ، ولا معنى من المعاني . فخالق الأشياء هو خالق معانيها وصفاتها ، وموجد المخلوقات هو موجد البركات .

صفات الله فى إن كثيرا من الأوصاف التى يخلعونها على هذا الشيخ فى هذا الكتاب الشيخ . هى صفات لله خالصة لا يمكن أن يتصف بها غيره سبحانه . أولا يعلم هؤلاء أن الشيخ لو كان مستطيعا أن يضع فى ثوب أخلاق جملة من الرجال أو يضع غير ذلك لكان مستطيعا أن يغير الأحوال العامة وينقلها من سوء إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن ، ومن كفر إلى إيمان . ولكن فى قدرته . أن يغير القلوب والنفوس ،

وأن يضع فيها الهدى والایمان، وأن يحشوها صلاحا واستقامة وفضائل. فالذى يستطيع أن يضع فى ثوب أخلاق جملة من الرجال الكاملين لن يعجزه أن يضع فى القلوب الكافرة والفاجرة الايمان والصلاح يقينا، والذى يستطيع ذلك كيف لا يستطيع أن يضع فى قلب مشرك كافر أخلاق رجل مؤمن، ومن أخلاقه الايمان والدين ؟ وعلى كل حال فالذى يقدر أن يضع المعاني الفاضلة فى الجمادات كالاثواب يقدر ولا شك أن يضع هذه المعاني فى العقلاء من البشر وفى الحيوانات : فيقدر أن يعيد الكافرين والبهائم مؤمنين ومؤمنات. ولكن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له وإن زعموا خلاف ذلك وكتبوا ما زعموه وقالوا : إنه هو الايمان والعقل والدوق، فأين يذهبون ؟ ؟ إن هذا الذى ذكره منطوق على شر أنواع الوثنية وسيكون مادة لا تنفد لهذا المرض الانسانى العتيد .

لقد كان الإسلام مبنيًا على النهى عن اتباع آثار الأنبياء والصالحين ، النهى عن وكان المسلمون ، أهل البصر بالإسلام ، ينهون عن اتباع هذه الآثار وعن الغلوفى اتباع الآثار تلك المخلفات كما قد بينا فى الجزء الأول . ومن أبلغ ذلك وأوضحه أن الخليفة عمر أمر بقطع شجرة الرضوان لما رأى أناساً يقصدونها . وقد نهى الناس أيضا عن قصد الصلاة فى المسجد الذى صلى فيه النبى عليه السلام ، وقال : إنما هلك من كان قبلكم باتباع آثار أنبيائهم . وقد جاء أن المسلمين لما فتحوا (تستر) من بلاد الفرس فى خلافة عمر بن الخطاب وجدوا ميتا على سرير وعند رأسه مصحف وهو النبى « دانيال » ، على ما ذكرنا ، فأمر عمر بحفر جملة قبور متفرقة وأمر بدفنه فى أحدها ليلا ، فدفن وسويت القبور لتعمية مكانه لئلا يعرف فيعظمه الجاهلون ويثول بهم إلى عبادته ، لأن الناس يحبون على الغلوفى من كان فوقهم أو من ظنوه كذلك . وقد نهى الإسلام بشدة عن الصلاة إلى القبور ، وعن البناء عليها لئلا يورد لهم ذلك موارد الهالكين . وكان الإسلام بالجملة يريد من أهله أن يقطعوا فى غير الله

كل رجاء في غير الله، وأن يحصر رجاءهم في الله وحده ، وأن يجمعوا رغبتهم عليه وأن يكون وحده المرجو المدعو كما كان هو وحده الخالق الموجد . فالزعم أن فيما وهب الشيخ أسراراً وبركات زعم يردده معنى الاسلام وتأباه نصوصه ، والزعم أنه يجب الاحتفاظ بما وهب والاستمسك به زعم مخالف لأساس الشريعة القائمة على الدعوة إلى الله والرغبة فيه وحده والرغبة عن كل ما سواه .

فوب أبي هريرة وأما ما ذكر أن النبي طوى لآبي هريرة ثوباً فما نسي بعده شيئاً فتحريف ، والصحيح أن الرسول قال يوباً ، وأبو هريرة حاضر ، : « من يبسط ثوبه فلن يلبس شيئاً معه مني » فبسط أبو هريرة ثوبه حتى قضى النبي حديثه قال أبو هريرة فما نسيت شيئاً سمعته منه . فالثوب المبسوط هو ثوب أبي هريرة ، والباسط له هو أبو هريرة . والرسول عليه السلام لم يضع في الثوب سرّاً ما . وليكن الله خص أبا هريرة بالحفظ الجيد إذ أطاع رسوله ولازمه لأجل حفظ السنة على الأئمة والسنة نصف الدين . وبسط الثوب كناية عن الالتفات إلى رسول الله والالتباه لحديثه والرغبة فيه .

أما زعمه أن الأشياخ ليس لهم فعل عبث ، لأن مقامهم يحل عن العبث ، فهي شهادة يسأل عنها بين يدي الله ويتحمل هناك تبعاتها وإثمها .

للشيخ أن ثم قال : « ومنها ألا تتغير عليه إذا تفصك بين إخوانك أو فعل بك أي يفعل بالمريد فعل ، لأنه لا يفعل معك ذلك إلا لمصلحة يقصر عن إدراكها عقلك ، بل يجب عليك أن تشكره زيادة على ما كنت عليه من قبل ، لأنه ما فعل معك ذلك إلا اعتناء بك ، بل لا يخاف على المرید إلا من مباسطة شيخه له . فن تغير من زجر شيخه لا يفلح أبداً » .

كما يحاول مؤلف هذا الكتاب أن يقيم الشبه التام بينه وبين النبي يحاول كذلك أن يقطع على أصحابه ومريديه سبيل التفكير فيه وفيما يعمل ، وسبيل

الاعتراض على ما يأتي وما يندر، فعنده أنه يجب أن يكون في منجى من الاعتراض
والقدح، وأن يكون أتباعه فاقدى الإرادة والاختيار والعقل، أو كما يعبر هو، يجب
أن يكونوا كالأموات بين أيدي الفاسلين: لا يتحرك منهم شيء إلا إذا حركه هو:
فله أن يسيء إليهم وأن يسبهم، وأن يطردهم وأن يضربهم، كما يفعل في دروسه
وبجالسه التي شهدتها الناس جميعا، وعليهم هم أن يسلوا وأن ينقادوا ظاهرا
وباطنا لكل ما يريد منهم: فيسألوا ظهورهم لمصاه، وقلوبهم لهواه، وله هو أن
يكون كامل التصرف والاختيار فيهم، وعليهم هم أن يفقدوا كل اختيارهم وتصرفهم
فن قال منهم لأمر فعله، ولو في نفسه: لم فعل أو لماذا ترك لم يفعل. ومن تفسير
عليه بقلبه لأنه نقصه بين إخوانه، ولأنه آذاه، فلن يفعل أيضا، ومن ألح
عليه في السؤال فلن يفاج أيضا. ومن عارض قوله بأقوال العلماء وحجج الإسلام
لنن يفعل أيضا، وإذا منع أحدا منهم فعل الطاعات: قنهي عن الصلاة وعن
لصيام ونحو ذلك فلم يطمه أو اعترض عليه، ولو بقلبه، فلن يفعل أيضا،
وعليهم جميعا أن يعتقدوا أن نوم الشيخ وعصيانته، كالرثاء والنفاق، أفضل من
طاعتهم ومن قيامهم. وإخلاصهم، وعليهم أن يعتقدوا أيضا أن جميع أفعاله
مبرأة من العبث، فضلا عن العصيان والفسوق، لأن الذي لا يمكن أن يثبت
لا يمكن أن يعصى. وبالاجمال يجب أن يكونوا له أقل وأذل من العبيد، بل كلا
فان العبد يستعبد الظاهر فقط، وتستعبد أفعاله دون قلبه وضميره وخطراته.
أما المريدون، عند هذا الشيخ التقى الصالح، فيجب أن يستعبد قلوبهم ونفوسهم
وضمائرهم قبل أفعالهم وأعمالهم. بل كلا، فانه يجب عنده ألا تكون لهم قلوب ولا
عقول ولا حياة بل كالأموات بين أيدي الفاسلين ١١ وليس في الدنيا كلها
استعباد أفظع من هذا الاستعباد، وليس فيها كلها رقى بمائل هذا الرق وذل
كهذا الذل. ولو أن العباد أعطوا ربهم من قلوبهم وأبدانهم ما يريد هذا الشيخ

أنفطع الرق

لنفسه من مريديه لكانوا من أعظم الأتقياء والأولياء ، ولكانوا عبادهم المخلصين الأبرار .

النتيجة

وقد أدت هذه الأقوال إلى النتيجة التي كان يرمى إليها واضع هذا الكتاب وهي أن تكون سيئاته لدى مريديه حسنات ، وأن يكون خطؤه صوابا وحكمة ، وأن يكون نقصه كمالا ، لأنهم ممنوعون من أن يفكروا في غير الحسنات والصواب والكمال والحكمة ، وممنوعون من أن يبصروا حوله غير الدين والتقى والسنة والجلال والجمال : فهم لا يمكن أن يسلموا لك أن الشيخ غلط في مسألة واحدة ، ولا أنه فاته علم من علوم الدنيا أو علوم الدين ، وقد يسلم لك بعضهم ، بالاجمال ، أن الشيخ ليس معصوما ولكن عند التفصيل يأبى إلا أن يكون معصوماً : فأنت تقول له : هل يمكن أن يخطئ الشيخ ؟ فيقول نعم قد يكون ذلك ، لأن المعصوم هو النبي فقط ، فترجع وتنازعه في كل مسألة للشيخ فيها قول فلا يمكن أن يسلم

مصمة الشيخ

لك أنه حاد عن الصواب والحق في واحدة منها : فهو يقبل القول بأنه غير معصوم بالجملة ويرفضه بالتفصيل ، وهذا بلاء . أما الشيخ فهو يزعم في هذا الكتاب لنفسه المصمة بالجملة والتفصيل ، لأنه يزعم أنه يجب التسليم له في كل أمر ظاهرا وباطنا ، ولأنه يزعم أن الأشياء ، وهو عند نفسه سيدهم ، مبرأون من العيب والباطل ، ولأنه يزعم أنه لا يفعل شيئا إلا لمصلحة يقصر عن إدراكها عقلي وعقله وعقول

من السهل

الادعاء

العالمين جميعا . . . من السهل الذي لا يبالي به أن يدعي امرؤ لنفسه ما يشاء ، وأن يخلق عليها من أوصاف النبوة والألوهية والربوبية ما يريد . ومن السهل الذي لا يعبا به أيضا ، والذي يسهل على الحق أن يقول له : ما أرخصه ، أن يختار قوم لأنفسهم من الهوان والعبودية أفظع ذلك وأذله . ومن السهل عليهم أن يبيعوا عقولهم ونفوسهم وضمايرهم في سوق الجهل والخذاع والتفريز : هذا كله من السهل الميسور ، ولكن من الصعب العسير أن يدعي مدعي أن ذلك من الاسلام

أو أنه يقره الاسلام ، أو أحد من المسلمين ، فيقيم لدعواه ما يجعلها محترمة مقبولة .
والأدهى والأمر قوله « أو فعل بك أى فعل » فإن إنسانا فى الدنيا لا يمكن أن
يقر فى نفسه أى فعل يفعل به ، وإن إنسانا فى الدنيا لا يمكن أن يقر على كل فعل
أراد . ومن هذا الذى يجب أن يسلم له المسلم جميع أفعاله فيه ؟ إنه لا يوجد فاعل لا تسلم النفس
واحد يجب على المسلم أن يسلم له نفسه يفعل فيها ما يشاء ويختار حاشا الله ، فهو لغير الله
وحده الذى يجب على العباد أن يرضوا قضاءه وقدره وفعله ، وأن يسلموا نفوسهم له
كذلك طوعا أو كرها . أما الخلق فلا . وإنسان يرضى بأن يقدم نفسه لإنسان
آخر يتحكم فيها ويفعل فيه ما يشاء ليس إنسانا ، بل وليس حيوانا ، بل لا يكون ذلك
إلا جهادا أصم . كما أن من الأدهى والأمر قوله : إنه يجب عليك أن تشكره
أكثر مما كنت تشكره على إساءته ، لأنه ما فعل بك ذلك إلا اعتناء بك !!
وهل يمكن أن تكون الإساءة والاهانة اعتناء ؟ أو هل من العقول والنوق والدين
أن يسئ المرء إلى محبيه وأنصاره ؟ وهل يجازى الماقل الدين الحسنة بالسيئة ؟ كلا
إنما يفعل ذلك اللئيم الغادر ، أما الماقل والتقى فلا يفعلان ذلك أبداً ، بل يجازيان
الحسن بالاحسان والكريم بالإكرام . وقد كان رسول الله يكرم أصحابه على حسب
درجاتهم فى الفضل والتقى والعلم ، وعلى حسب حبه لهم : فكان لا يقدم على أبى
بكر وعمر وعثمان وعلى غيرهم فى الإكرام والاحسان والبر . ونحن نذكر هنا الرسول
عليه السلام لأن القوم يزعمون أنهم بسنته مستمسكون . وقد تمكنت أقوال هذا سلطة الشيخ
الشيخ فى قلوب أتباعه وأنصاره فتراهم يتمنون أن يسيط لسانه إليهم بالإساءة
والأذى ، وعصاه إلى ظهورهم بالضرب والوكز : فتراهم يقدمون له ظهورهم وجنوبهم
فيتلقون ضربات عصاه برضا وتسليم ، وشتائمهم بسرور وإبتهاج . وقد وجد هو
فى هذا ملهة وسلطة باردة سائلة تمز على الملوك والأمراء ، سلطة لا تكلفه
جندا ولا مخاطرة ولا شيئا من آلات السلطة والسلطان . فتراهم يسيط عصاه ويده

يد الشيخ ولسانه إلى القوم المساكين بالضرب والسباب المنكر في مجالسه العامة ، وحلقات دروسه ، وفي كل مكان . ولعل بعضهم كان يهنيء بعضاً بضربه وسبه ١١ ولعل الكثيرين يقربون مجالسهم منه رجاء أن يفوزوا بضرباته وشتاته التي هي عناية خاصة بهم كما زعم لهم في هذا الكتاب العجيب . وتجدد لهذا يخص كبار أصحابه بمزيد الضرب والسب والأذى ، وهم لا يحسبون ذلك ، فيما زعموا وزعم ، إلا عناية بهم وإكباراً لشأنهم .

وقد لا يكون هؤلاء القوم يعلمون أن الرسول عليه السلام لم يضرب أحداً بيده الشريفة في حياته كلها : لا خادماً ولا زوجاً ولا غيرهما ، فضلاً عن خاصته . وخلاصة أصحابه . والعجيب أن شأن هؤلاء الجماعة يخالف لما تواطأ عليه الناس جميعاً في كل عصر ومصر . فان الناس عادة يبالغون في إكرام خاصتهم وفي التودد إليهم وفي تبجيلهم وإظهارهم أمام الجماهير مظاهر التكريم والتعظيم ، وهذا شأن جميع العقلاء من بنى آدم ، أما هؤلاء فأحرهم عجب .

أما قوله : « بل لا يخاف المريد إلا من مباسطة شيخه » فيقال كلابل لا يخاف المسلم الصحيح الاسلام إلا من غضب ربه ومن ذنبه . والمريد الذي لا يخاف التشبه بالله إلا من مباسطة شيخه ليس مسلماً ولا كرامة . وكأن الشيخ يريد بهذا التشبه بالله ف يريد أن يقول إن الله أحياناً يملئ لعباده ، ويفدق عليهم نعماء وآلاءه وهو عليهم غاضب ، وهم بها وبه كفرون ، ثم يأخذهم بعد ذلك بأخذ عزيز مقتدر ، فكانه باسطهم أولاً ثم أخذهم ثانياً . وكذا الشيخ يباسط المريدين ويبدى رضاه عنهم وسرورهم وارتياحه إليهم وهو عليهم غاضب ناقم ، وهو يريد بهم الشر والمنكر والكيد فهو في هذا كالله عند نفسه . ونعوذ بوجه الله من هذا .

وقوله « ومن تذر من زجر شيخه لا يفلح أبداً » يقال في جوابه : من لا يتغير ، ومن لا يفتض من سوء أدب شيخه وبذائه وإيذائه باليد واللسان فهو الحمار ، وحاشا

المسلم الصحيح الاسلام أن يكون كذلك ، وحاشا الاسلام أن يرضى للمسلم هذا الهوان . ومن يكون هذا الشيخ الذى لا يفلح أبدا من تغير عليه إذا أساء إليه ؟ الفلاح بيد الله إن الفلاح حقا لا يكون إلا فى رضا الله وفى طاعته وفى اتباع شريعته وقانونه لا بيد الشيخ السماوى ، وإن المفلح حقا هو من رضى الله عنه ، ومن استمسك بهداه وبجبله المتين . أما هذا الشيخ وغيره من الأشيخ فلا وزن لهم فى هذا الميزان . ولو قطع الشيخ وجميع الأشيخ غضبا على إنسان ، قد رضى الله عنه ، لما ضاره ذلك شيئا ، ولما استطاعوا ، متعاونين مجتمعين ، أن يحولوا بينه وبين الفلاح . ولو أنهم رضوا جميعا عن إنسان ، قد غضب الله عليه رضاهم عن أنفسهم ، ثم أرادوا جاهدين مجتمعين ، أن يوصلوا إليه الخير والفلاح لما استطاعوا من ذلك شيئا إلا أن يشاء الله . ومن يكون هذا الشيخ الذى لا يفلح من تغير عليه إذا أساء إليه ؟ إن الفلاح فى هذا العالم ليس كل من لم يغضب عليه ربه ، فن غضب عليه ربه هذا العالم وأراد أن يخرج منه وأن يحول بينه وبين الفلاح والسعادة فذاك هو الذى لا بد أن يشقى وأن يهلك . فعلى هؤلاء الناس أولا أن يقيموا للناس البراهين يجب أولا على أن شيخهم هو صاحب هذا العالم وربه وخالفه كي يستطيعوا أن يقتنعوا بأن من غضب عليه لا يفلح أبدا . أما ماداموا يعلمون بأن شيخهم إنسان مخلوق فلن يصدقوا ما يزعمونه له من تقسيمه الفلاح ، وتصريفه الخير والشر والرشاد والضلال ، ولن يصدقوا أنه يستطيع الحيولة بين الناس وبين فلاحهم وهداهم فليثبتوا أولا هذه الخزية ، ثم ليدعوا بعدها ما يشاءون وما يذكرون من تقسيم الشيخ للفلاح وللرضا والغضب وللسعادة والشقاوة ، وللجنات والنيران أيضا وليبعدوا بعدها من شاء وعن رحمة الله ، وليهبوا من شاء وما شاءوا من الرحمة والفلاح والسعادة

لا يفعل شئ

الاماذن الشيخ

ثم قال : « ومنها ألا تسافر ولا تنزوج ولا تفعل نحو ذلك إلا بأذنه »

كنا قد سمعنا منذ بضع سنوات أن جماعة من أتباع هذا الشيخ ومريديه أرادوا أن يسافروا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فذهبوا إلى الشيخ أولاً يستأذنونهم ويستأمرونه ، كما أوجب وفرض عليهم في هذا « العهد » فكان جواب الشيخ ألا يسافروا ولا يحجوا في ذلك العام لحكمة له تنق على عقول المريدين وعقول جميع العالمين . والمريد ، كما تقدم ، لا يجوز له أن يواجه الشيخ بلفظة « لماذا » ولا كلمة « كيف » وإلا هلك وشقى ولولم يتفوه بالاعتراض والسؤال : فكان من الشيخ الرفض ، وكان من أولئك المريدين المنكوبين التسليم .

وكنا سمعنا أيضاً من بضع سنوات أن خطيب هذه الجماعة قال يوم الجمعة فوق المنبر ، وكان تحته الشيخ والمريدون ، ما معناه : إنه يجب على المريدين الصادقين أن يطيعوا شيخهم ولو أمرهم بمصيان الله وانتهاك حرمانه . . . ثم أتم الخطبة والصلاة ولم ينبعث من جوانب تلك الجماعات صوت إنكار واعتراض لا من الشيخ ولا من غيره ، ولم ترسم علامة سخط وغضب واشتمزاز على وجه من تلك الوجوه ، غير أن رجلاً واحداً ، يدل مظهره ويشهد موقفه ، على أنه غريب في الجماعة ، قام غاضباً وسأل عما سمع من الخطيب . . . فأمعموه جواباً .

روايتان

كنا سمعنا هاتين الروايتين من ثقات كنا لا نجروا على تكذيبهم ولا نجروا على تصديق ما أمعمونا لفرابته وقبحه وفظاعته ، ولكن جاء هذا الكتاب الذي كتبه الشيخ بيده فقطع الشك باليقين . فنحن اليوم نصدق ذلك ونعلم أنه يقع أمثاله كثير ، لأن إمام الجماعة قد صدقه في كتابه الذي جعله عهداً بينه وبين مريديه . . . فهو يقول تصريحاً : لا يصح للمريد الصادق أن يسافر إلا بأذنه وأمره ، وقد يمنع من السفر ، ومن الاسفار السفر إلى الحج وإلى الطاعات المختلفة كالجهاد في سبيل الله وكطلب العلم وغيرهما . وللشيخ بعد الاستئذان أن يمنع وأن يكون جوابه الرفض والإباء ، وإلا كان لا معنى للاستئذان . . . ويقول أيضاً :

لأنه لا يصح للمريد الصادق أن يتزوج إلا بعد استئذانه وبعد إذنه ... والزواج أحياناً يكون واجباً فرضاً . وللشيخ بعد ذلك أن يمنع ويحرم ، وله أن يجيز ويبيح وإلا لما كان للاستئذان والاستئثار فائدة ولا معنى . . . ويقول أيضاً : إنه لا يصح للمريد أن يفعل نحو ذلك ، أى نحو الزواج والأَسفار للحج وطلب العلم والجهاد في سبيل الله ، إلا بإذنه ومشيئته أيضاً ، كما تقدم أنه ذكر ، على وجه العموم ، أنه لا يجوز للمريد أن يفعل فعلاً ولا أن يعمل عملاً إلا بعد استئذانه الشيخ وإذنه له ، وأنه يجب عليه أن يكون امامه مثل الميت البالي يقلبه كيف شاء لا يتحرك منه عضو ولا شيء إلا إذا شاء وحركه .

فالذي على المريد بهنئذ الآداب والتعاليم ألا يطيع الله وألا يعبد ، وألا يقوم بالفروض والواجبات ، كالحج والجهاد في سبيل الله وطلب العلم والواجبات الأخرى ، إلا إذا أراد ذلك شيخه فأذن له ، وله أن يمنعه من ذلك وأن ينهيه عنه وأن يأمره بغيره . وعلى المريد حينئذ التسليم والالتقياد والرضا ظاهراً وباطناً بحيث لا يقول « لم » ولا « كيف » لا بلسانه ولا بحاله ووجدانه ، وبحيث لا يتحرك منه عضو ولا شيء إلا بتحريك الشيخ وإرادته وقدرته وقوته وإلا فالحلاك والشقاء مصيره في دنياه وآخره .

وقال في صفحة ١٤ من الطبعة الثانية وصفحة ١٧ من الطبعة الأولى إذا نهى عن حاكيا : « كل مريد أمره شيخه بمباداة من صوم أو صلاة أو قراءة أو اشتغال بعلم أو حرفة أو نحو ذلك أو منعه منها (أى من العبادة) فبكر من ذلك فهو عاص لله ولرسوله » فللشيخ أن يمنع من الطاعات : من الصوم والصلاة والقيام وقراءة القرآن وعلى المريد أن يذعن للمنع وإلا كان عاصياً لله ولرسوله ، ولو أن المريد امتثل هذا المنع في الظاهر إلا أنه عارض في قلبه فتك . لكان أيضاً عاصياً كما أنما عند صاحب

الكتاب وعند أتباعه ومريديه من أهل السنة المدعين أنهم أهل الحق دون
العالين جميعاً.

وقال في صفحة ١٤ : « فحق اختيار شيخه شيئاً واختار هو خلافه فقد خرج
من محبته ، والواجب عليه التوبة ثم إن شاء شيخه قبله وإن شاء رده . . . »
الله أكبر على هؤلاء القوم ! ! إن الله تمالى قدرته وعظمته ، ليقبل توبة
التائبين جميعاً ، بل ويبدل سيئاتهم حسنات ويقبلهم إذا أقبلوا عليه وإن أدبروا
عنه تلويلاً ، بل ويأتيهم هرولة إذا أتوه مشياً ، ويتقرب إليهم باعاً إذا تقربوا
إليه ذراعاً : هذا الله جلّت قدرته وعظمته ، وهذا عفوه وسعة مغفرته ، وهؤلاء
يرحمون أن الشيخ قد لا يقبل توبة التائب لديه ، وقد يردّه ويقفل في وجهه وسبيله
باب المتاب وإن كان لم يمض الله قط

من تشريع
المشايع

وفي هذه الصفحة أيضاً يقول : « قال شقيق لمريده : أفطر معنا اليوم ولك
أجر يوم . فقال : لا ، فقال أجر جمعة . فقال : لا ، فقال أجر شهر ، فقال : لا ،
قال : أجر سنة فقال : لا . قال أبو يزيد دعوه فقد سقط من رعاية الله ، فخرج
من عندهم فسرق وقطعت يده ١١ » . والعجيب الفظيع في هذه الرواية أن الشيخ
يقدّر الثواب على حسب ما يريد ويحب ويرضى : فقد قدر أولاً ثواب المريد بأفطاره
معهم بصيام يوم ، ثم بجمعة ثم بشهر ثم بسنة . فكان تقدير الثواب والأجر راجعاً
إلى الشيخ وإلى إرادته واختياره . وهذا مثل قوله السابق : إن شرع التحليل
والنحرىم والنهى والأمر باق ومخاطب به مادامت الأشياء باقية . ويعنى بهذا
أنهم يحللون ويحرمون ويشرعون كما يشاؤون ويرون . ونعوذ بالله من الضلال .
ومن العجيب المنكر أيضاً أن يكون الإفطار مع شيخ من الأشياخ ، مهما كان
أمر ذلك الشيخ وشأنه ، يعدل صيام سنة ١١ وما كان هذا الثواب للإفطار مع
رسول الله ولا مع غيره من خيرة خلقه . ثم الأعجب الأغرب أن يسقط من رعاية

الله من أبي أن يأكل مع الشيخ مؤثراً اجر الصيام واجر الطاعة !! هذه عبودية ولكن عبودية باطلة ظالمة، وهذا رق ولكنه من شر الرق الذي لا يقره دين، من الأديان ولا قانون من القوانين ، وهذا عدوان ولكنه عدوان دلى حق الله ممن قالوا : إنهم هم وحدهم الدعاة إلى الله وإلى شريعته وعبادته . فيا ويل هؤلاء ، ويا ويل من كبلوه بهذه الأصفا !!

لقد كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يسافرون ولا يستأذونه ، وكانوا يتزوجون ولا يستأذونه أيضاً ، وما جاء أنه عليه السلام أنكر ذلك على أحدهم أو أن أحداً منهم أنكره على فاعله . وقد جاء في الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام رأى على عبد الرحمن بن عوف صفرة من آثار الزواج فقال له : ما هذا ؟ فقال : يا رسول الله إني تزوجت امرأة ، فقال عليه السلام : بارك الله لك ، أولم ولو بشاة . فقد تزوج ولم يعلم رسول الله حتى رأى آثار الزواج . وما قال له : كيف تزوجت ولم تستأذني . وجاء أيضاً في الحديث الصحيح أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل وعنده زوجة فاطمة بنت رسول الله ، فلما سمعت ذلك أتت النبي عليه الصلاة والسلام وقالت له : إن قومك يتحدثون بأنك لا تنضب لبناتك ، وهذا على ناكح ابنة أبي جهل ، فقام النبي وخطب وقال : إن فاطمة بضعة مني وإنما أكره أن يفتنوها ، وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً . فترك على الخطبة .

فقد خطب عبد الرحمن بن عوف وتزوج ولم يعلم النبي عليه السلام ؛ فلما علم لم ينكره ، وخطب علي بن أبي طالب ، وهو ابن عمه وزوج ابنته والناسي في كنفه وعلى عينه ، ولم يعلم النبي عليه السلام فلما علم لم ينكر عليه إذ لم يستأذنه وإتاما أنكر أن يجمع بين ابنته وابنة أبي جهل عدو الله وعدو رسوله ، لأن في هذا الجمع خوفاً على فاطمة وعلى دينها كاذكر نبي الله ، ولهذا قال : إن كان ابن أبي طالب

مصرًا على الزواج بآبنة أبي جهل فليطلق ابنتي ولتزوج ابنتهم . ولفظاً هذا كثيرة معلومة بالنقول المتواترة وبالضرورة وبالإجماع .

فالمسلمون كانوا يسافرون ، وكانوا يتزوجون ولا يستأذنون النبي عليه الصلاة والسلام ، وما كان يخطر على بال أحد منهم أن هذا الاستئذان واجب مطلوب ، وأنه من حقوق النبي على المؤمنين .

والعجيب أن هذا الشيخ يوجب على مريديه أن يستأذنوه في شؤونهم الدنيوية الخاصة كلها والنبي عليه الصلاة والسلام كان يقول للمسلمين كما في الحديث الصحيح المشهور الذي رواه مسلم في الصحيح وغيره : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . وقد كان ﷺ يستشير أصحابه في شؤونه الدنيوية الخاصة ، كما استشارهم في طلاق أم المؤمنين عائشة عند حديث الافك قبل نزول براءتها في كتاب الله ، وكما استشارهم في غير ذلك ، كما كان يستشيرهم في شؤون الدولة وشؤون المسلمين العامة وشؤون الحرب ولقاء الأعداء . وقد أمره الله بمشاورتهم فقال : « وشاورهم في الأمر » . وفرق عظيم بين من يقول : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ومن يقال له : « وشاورهم في الأمر » ومن يستشير في شؤونه الخاصة وشؤون الدولة العامة : فرق عظيم بين هذا النبي الكريم ، وبين من يجعل الأمر أمره وحده ، والقول قوله وحده ، والرأي رأيه وحده ، حتى تبلغ به المغالاة في نفسه وفي تقديرها أن يحرم على الناس أن يسافروا وأن يتزوجوا أو يعملوا عملاً ما إلا بعد استئذانه وإذنه . نحن لا نعجب من هذا الكاتب كيف كتب ما كتب لأننا نعلم لماذا كتبه ، ولكننا نعجب ممن يقبله ، وممن يقيم له وزناً ، وممن يحترمه وهو يؤمن بالله وبعبده .

ثم قال : « ومنها أن تمتثل لأمره إذا منعك من فعل مباح لأن قصد الشيخ للمريد دائماً الترقى ، وفعل المباح لا ترقى فيه لأنه لا ثواب فيه . قالوا إذا احتج

فرق عظيم
بينهما

المريد على شيخه بأقوال العلماء في جواز فعل المباح لم يفلح أبداً ، وإذا أتركه شيخه محتج عليه ولم يزجره عن ذلك فقد مكر به وأخرجه عن صحبته . . . » .
وهذه أيضاً حلقة من هذه السلسلة الخاطئة التي أفرغ فيها هذا الكتاب ، وأسلوب منكر من هذه الأساليب المنكرة التي جرى عليها مؤلف هذه الرسالة الظالمة . فان الشيخ إذا منع مسلماً من تناول شيء أباحه الله له في شرعه ، وأباحه تحريم المباح له رسوله في وحيه ، فقد عارض الله ورسوله وخالفهما ، ومنع من تناول شيء أمراً بتناوله ، وحرم شيئاً أحلاه لعباده ، ومن أظلم ممن فعل ذلك ؟ وقد قال الله في كتابه : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » وقال النبي عليه السلام في تأويل هذه الآية « إنهم أحلوا لهم الحرام فأحلوه ، وحرّموا عليهم الحلال فحرموه » وقال هذه هي عبادتهم وهذا هو معنى اتخاذهم إلام أرباباً . وقال تعالى « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » فجعل الشارعين ما لم يشرعه الله شركاء له . وقال في تحليل الخلق وتحريمه « وإن أظنتمهم إنكم لمشركون » .

فن منع ما أباحه الله وما أحل فقد عانده تعالى في شرعه ودينه وحكمته ، ومن أظلم ممن فعل ذلك المانع فقد غوى وضل ، ومن منع فعل مباح ، زاعماً أن في فعله نقصاناً ، فقد طعن في شرع الله وادعى أنه تعالى يشرع لعباده النقصان . والله لم يبيح المباح لعباده إلا لأنه يعلم أن الحكمة والرحمة في الإباحة ، ومن حال بين عباد الله وبين حكمته الله ورحمته فقد افتري ، وقد خاب من افتري ، وأعظم الذنب والخطيئة على الله . ولو علم الله بأن الصواب والكمال والحكمة في تحريم المباح لحرمه ، لأنه تعالى لا يريد بخلقه إلا الخير والصلاح والكمال . فالمانع من المباح متعقب على الله زاعماً أنه قد علم ما لم يعلم ، وأنه أحاط بما لم يحيط به من الأسرار والحكم البالغة ثم كيف يزعم بأن فعل المباح لا ترقى فيه وقد قال النبي الكريم « إن الله

يجب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى محارمه « وفي رواية « كما يجب أن تؤتى عزائمه » وقد ذكر النبي الكريم في الحديث الصحيح أن في إتيان الأهل ثوابا ، مع أن إتيانهم بالجملة مباح . وقد روى البخارى ومسلم في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه جاء ثلاثه رهط إلى أزواج النبي يسألون عن عبادته عليه السلام ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : أئین نحن من النبي قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، فقال آخر أنا أعزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء الرسول فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكفى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » . ووقع في بعض روايات هذا الحديث أن بعضهم كان قد اعتزم الامتناع من أكل اللحوم ، وفي رواية أخرى اعتزم اجتناب الشهوات . وفي الصحيح أيضا أن بعض المسلمين استأذنوا النبي في الاختصاص ، لأنهم كانوا يفرون في سبيل الله فلا يجدون النساء فيلحقون المشقة ، فبهام النبي عن ذلك وقرأ عليهم قول الله « يا أيها الذين آمنوا لا نهرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » . فقطع آلة الشهوة ممنوع لأنه يؤدي إلى الامتناع من إتيان النساء ، والامتناع من إتيان النساء تحريم لما أحل الله ، كما ذكر النبي الكريم الآية عند سؤاله عن حكم الاختصاص . وقد قال عليه السلام لقوم رغبوا عن المباح فصاموا في السفر فشقق عليهم الصيام : « أولئك العصاة » .

فكيف يزعم هذا الشيخ أن المباح لا ترقى فيه ، أم كيف يزعم أنه يصح للشيخ أن يمنع المريدين فعل المباح ، ثم يزعم أنه تجب عليهم طاعته في هذا المنع وإلا هلكوا وضلوا . ؟؟

أما زعمه أن من احتج على الشيخ بأقوال العلماء في جواز فعل المباح لا يفلح

احتجاج على
الشيخ هلاك

أبدا فن أبشع ما كتب ، وإذا كان المسلمون يجادلون النبي فكيف يكون جدال هذا الشيخ حائلا بين مجادله وبين الفلاح ؟ وقد قال الله تعالى « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها » وقال « وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك في الحق بعد ما تبين » بل لقد سمح الله لعباده بأن يجادلوه فقال تعالى « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » وقال عن خليله إبراهيم « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط » .

فاذا كان الله ورسوله يجادلان فكيف لا يجوز جدال هذا الشيخ ؟ وإذا أجاز الله جداله وجدال رسوله فكيف يزعم من يؤمن بالله أن من احتج عليه لا يفلح أبدا ، مع أن الاحتجاج دون الجدال وأخف منه . .

وأما قوله « وإذا تركه الشيخ يحتج عليه ولم يزجره عن ذلك فقد مكر به مكر الشيخ وأخرجه عن صحبته » فنحن قدمنا أن الشيخ ، كما يحاول التشبه بالرسول ، كذلك يحاول التشبه بالله ، فإنه يزعم هنا أن الشيخ يملأ لمريديه كما يملأ الله لعباده الظالمين المجرمين ، ويمكر بهم كما يمكر الله بالماكرين ، ويباسطهم ثم يأخذهم أخذ عزيز . وقد قال فيما سبق « بل لا يخاف المرید إلا من مباسطة شيخه له » كما قال هنا : « وإذا تركه الشيخ يحتج عليه ولم يزجره فقد مكر به » ونعوذ بالله من هذا كله .

ثم قال : « ومنها ألا تجلس في المكان الممد بالوسه . ومنها ألا تصافحه ويده عبوديات مشغولة بقلم ونحوه . ومنها ألا تكثر الكلام بحضرته ، ولا تفرع باب المكان الذي هو فيه بشدة ، ولا تلح عليه في أمر . ومنها أن تصبر على جفوته وإعراضه عنك ، ولا تقول لم فعل بفلان كذا ولم يفعل بي كذا وإلا خبت . ومنها ألا تدبب النظر إلى وجهه ، فن أدمن النظر إلى وجه شيخه فقد خلع ربة الحياء من عنقه وربما حرم بركنه . ومنها ألا تبين عنده إلا إذا دعاك ، ولا تبين معه قط حيث يبين سفرا ولا حضرا إلا العذر . قالوا : ومتى غاب المرید عن شيخه ساعة واحدة

ولم يشتق إلى رؤيته فهو كاذب في إرادته لا يصلح للطريق أبدا . ومنها ألا تطلّ سجادته بل اطوها أو امش على ركبتيك ، ولا تدخل له خلوة . ومنها ألا تغفل عن ملاحظته وملاحظة المكان الذي هو فيه ، فإن حاجتك كلها عنده من حيث كونه دليلك في الوصول إلى مولاك ، فالقصود هو . ولاك على كل حال .

وهذه أيضا سلسلة من هذه السلاسل المجرمة ، وأصر من آصار العبودية التي يحاول هذا الشيخ أن يكبل بها أنصاره ومريديه ويعبدهم بها تعبدا لا يقره في نفسه من يعلم أن الله ربه وأنه هو عبده ، ولا من خلقت الكرامة والنخوة والعزة لا يجلس في في قلبه وعقله : فلي المريد ألا يجلس في المكان المعد للشيخ المحترم ، فللشيخ مكان الشيخ مكان معد ، وعلى الناس ألا يجلسوا في ذاك المكان وإلا ضلوا وشقوا ، وهذا باطل وغلو منكر ، فليس بجائز أن يكون للشيخ مكان خاص به إلا في ملكه الخاص ، وهذا لافرق فيه بين الشيخ وبين غيره من المريدين ، من المؤمنين والكافرين . أما في الأماكن العامة المشتركة كالساجد وغيرها ، فلا يجوز أن يكون له فيها مكان خاص أبدا ، لأنها مشاعة بين الجميع والاختصاص بشيء منها ظلم وعدوان . وما كان لرسول الله ولا لغيره من خلفائه الراشدين أما كن معدة خاصة بهم ، وإذا فرض أن للشيخ مكانا خاصا معدا لم يمتنع الجلوس فيه على العامة والمريدين إلا إذا كان في ملكه ، وامتنع الجلوس فيه من ناحية المملكية لا من ناحية الخصوصية . وإذا كان الامتناع لأجل هذا لم يكن هناك فرق بين الشيخ والمريد ، فكما يمتنع على المريد أن يجلس في ملك الشيخ إلا بأذنه ، كذلك يمتنع على الشيخ أن يجلس في ملك المريد إلا بأذنه ، فلا معنى للتفريق بين الشيخ والمريد في هذا . ولكن القوم يريدون تخصيص الشيخ وتعظيمه لمعنى يخصه دون المريدين ودون العالمين جميعا : يريدون أن يكون الناس له عبيدا .

لا يصفح الشيخ وعلى المريد أيضا ألا يصفح الشيخ وفي يده قلم أو نحوه من كتاب أو

غيره . وهذا خيفة على شعوره وخيفة من غضبه وانزعاجه وإقلاق راحته . وهذا الأدب من الآداب المضحكة ، فان الشيخ إذا كان في يده قلم أو كتاب أو نحوه يستطيع عند مصافحته أن يضع ذلك في اليد الأخرى أو في الأرض أو في مكان آخر ، ويصح أيضاً أن يصفح ، والقلم ونحوه بيده ، وهذا ممكن . وعند هؤلاء أن المصافحة عند اللقاء سنة ، وهم يزعمون أنهم حراس على السنة جداً ، فكيف يصح لهم أن يتركوا السنة لأجل المحافظة على شعور الشيخ وآدابه الباطلة . وكيف ساغ لهم ، وهم أهل السنة ، أن يرغبوا عنها لأن في يد الشيخ قلماً أو كتاباً تمكن المصافحة معه ويمكن وضعه بعيداً أو قريباً ؟ وماذا يروون ويقولون في إلقاء السلام على الشيخ إذا كان مشغولاً بمحديث أو كلام أو أكل أو راحة من راحته ولذة من لذاته ، أو كان مفكراً في شأن من شؤونه ؟ يقولون إن إلقاء السلام عليه حينئذ ممنوع ، وإن على المرید ألا يسلم عليه وإلا خاب وأثم ؟ ؟ وسواء أجابوا بالسلب أم بالإيجاب فالجواب الصحيح اللازم لمقالاتهم هذه أن يقولوا بامتناع السلام في تلك الحالة . وإذا قالوا ذلك فقد خالفوا السنة الصحيحة بلا حجة ولا برهان . وهذا لا يفعله المحبون للسنة والنبي والاسلام .

وعلى المرید أيضاً ألا يكثر الكلام في حضرته وألا يقرع باب المكان الكلام في الذي هو فيه بشدة ، وألا يلح عليه في سؤال ولا غيره . وهذا أيضاً من الآداب المرغوب عنها ، لأن إكثار الكلام في حضرة الشيخ أحياناً يكون مطلوباً مرغوباً فيه ، لأنه مفيد ، ولأنه كلام في الخير وفي الدعوة إليه وفي تعليم الناس . أما إكثار الكلام في الشر والباطل فممنوع في حضرة الشيخ وفي غيبته وغيبوبته : فإكثار الكلام في الخير مرغوب فيه في حضرة الشيخ وفي غيبته وإكثاره في الباطل والاثم مرغوب عنه في حضرته وغيبته وغيبوبته ، فلا معنى لما ذكره . وأما قرع باب المكان الذي هو فيه بشدة فهذا أيضاً لا معنى له ،

قرع باب
الشيخ

وذلك أن قرعه بشدة إيمان يكون مفيداً منتجاً خيراً ، أو يكون ضاراً لا خير فيه . فإن كان الأول فلا مانع من قرعه بشدة ، وإن كان الثاني فلا خير فيه سواء أكان الشيخ موجوداً فيه أم كان غائباً ، ولا تأثير لوجوده وغيبته في هذه المعاني لأنها من الآداب العامة ، وليس فيها معنى خالص به ، ولم توضع هذه سؤال الشيخ التاديبات لرسول الله ولا لخلفائه . وأما الإلحاح عليه بالسؤال فواجب أحياناً باعتباره معلماً مرشداً . فإذا كان المرید يجهل مسألة من دينه وكان في حاجة إلى معرفتها وجب عليه أن يسأل الشيخ ، فإن لم يجب ، وكان يعلم أنه عالم بالمسألة التي هو في حاجة إليها ، وجب عليه أن يسأل ثانياً وأن يلج في سؤاله حتى يجيب أو يعلم أنه جاهل بالمسألة لا علم له بها ، وحينئذ يجب عليه أن يقول : إني لا أعرف جواب المسألة التي تسألني عنها . وقول لا أعرف ، أولاً أعلم ، قد يكون من العلم ومن الأدب الإسلامي الرفيع . ولم ينم أحد من المسلمين الإلحاح في طلب العلم والإلحاح في سؤال أعلامه ، بل لقد أمر الله المسلمين كافة بالسؤال عما لا يعلمون فقال : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . وقال عليه السلام في حديث « ألا سألوا إذ لم يعلموا فأنما شفاء العي السؤال » وماذا يقول الشيخ وأنصاره ، في مرید من المریدين احتاج إلى علم مسألة من مسائل الدين احتياجاً ضرورياً فجاء وسأل شيخه عنها فأعرض عنه ولم يجبه ، أيسكت على الجهل ويعمل على غير علم ، والعمل بدون علم إثم ، أم يعيد السؤال على الشيخ مرة ومرة حتى يجيب ، أم يرون أن الواجب على هذا المرید أن يذهب إلى آخرين يعرفهم الشيخ أولاً يعرفهم فيسألهم ويعمل بما قالوا وما أفتوا به ؟ ؟ ولكن هذا عند هؤلاء لا يجوز ولا يحل لأنهم يزعمون : كما تقدم ، أنه لا يصح للمرید أن يعمل عملاً ما إلا باذن الشيخ وأمره ، ويزعمون أنه يجب أن يكون أمامه مثل الميت أمام الفاسل لا يتحرك منه إلا ما حركه . علم أنهم هم لا يجيزون

سؤال غير الشيخ وغير أتباعه الخاضعين له ، ولو سألو عالما غيرهم فأفانهم لم
يركنوا إلى فتواه مهما كانت معرزة بالحجج والبراهين .

والذي نراه ، ولا نشك فيه ، أن الشيخ يحرم الإلحاح في سؤاله وسؤال
غيره من الأشياخ إبعاداً لنفسه عن أن يقع بوما تحت طائلة أسئلة لايدان له
فيها ويجوابها فينكشف ساعته المغطى وتسفر الحقيقة المرة متبديّة كما هي مكنمة
فيهمون حينئذ عند الاتباع والأفصار والمريدين ، ويخف احترامهم وإعظامهم له
فيقع المخذور ، ويتداعى الأساس الذي شيدت عليه هذه الرسالة وألفت من أجله
وهو أن يكون الشيخ التعظيم والاحترام والحب والاحترام ، بل والعبودية
الملتزمة . وقد صرح بهذا في مواضع من رسالته فقال ص ١٨ : « ومنها ألا نطلب
منه جواباً عن رؤيا رأيها ، أو حادثة حدثت لك بل تذكر حاجتك وتسكت ،
فإن أجابك كان وإلا أعرضت بقلبك عن طلب الجواب ، لئلا يصير شيخك
محكوماً عليه بلزوم رد الجواب » وفي هذه الصفحة أيضاً يقول « ومنها ألا تتشوق
إلى معرفة مقدار نومه وأكله أو كم يتوضأ في اليوم واليلة ، وهل يأتي النساء كثيراً
أو قليلاً ، فهذا ونحوه معدود من حقوق المريدين ، والعاق لا يرفع له عمل إلى
السماء إذ ربما كان اطلاع المريد على تلك الأحوال منتقصة لحال شيخه في قلبه
لجله بأحوال الكل ، فيهلك ويقع في الخيانة لشيخه ويحل عقده الذي عقده
معه » ، وقد حرم كما تقدم الاتصال بالذين ينتقدونه والذين لا ينوبون في حبه
وهواه ، وحرم على المريد أن يسمع في شيخه قولاً ما ، وذلك كله خيفة أن تنزعزع
مكانة الشيخ في الصدور والنفوس : هذا هو ما يرمون إليه من وراء هذه القيود
التي ضربوها على قوم من المسلمين ، والله من وراء كل قصد .

وعلى المريد أيضاً أن يصبر على جفاء شيخه له وإعراضه عنه ، وعليه صبر المريد على
أن يقبل ذلك ظاهراً وباطناً بحيث لا يقول ، لا بقلبه ولا بلسانه ، لم فعل بي جفاء الشيخ

كذا وفصل بغيرى كيت وإلا خسر .

وهذا أيضا من الآداب الباطلة المموجة ، فانه ليس بواجب على مسلم أن يقبل من امرئ معين - ليس رسول الله والأنبيا - في الظاهر والباطن كل شئ يتناوله به من اعراض والجفاء واهانات ، ولا يوجد إنسان اليوم على وجه الأرض مفروض على الناس أن يقبلوا منه كل شئ يريد أن يفعله بهم أو بغيرهم في سرهم وعلايتهم ، ومحرم عليهم أن يوجهوا إلى أفعاله وأقواله اعتراضا بحيث لا يقولون لم ترك ولا لم فعل . ومن زعم أن إنسانا واحدا ، غير الأنبياء ، مفروض على الناس تقديسه هذا التقديس فقد خاب حقا .

وعلى المرید أيضا ألا يديم النظر إلى وجه شيخه ، ومن فعل ذلك فلا حياء له وهو معرض للحرمان من بركات الشيخ ، وهذا أيضا من الآداب الباطلة . وقد كان المظنون المعقول أن يرغبوا في النظر إلى وجه الشيخ ، وأن يزعموا أن النظر اليه عبادة وزلفى إلى الله ، لأنهم يبالغون في إثبات بركات المشايخ وأسرارهم والمعروف أن النظر إلى وجه الحبيب المبارك لذة وسعادة وخير كما قيل (نظرى إلى وجه الحبيب نعيم) . والذى يكره إدمان النظر إلى وجهه هو العدو الشائى أو الخبيث الفاسق الظالم ، لا الحبيب الذى زعم أنه مادة الصلاح والدين والعلم . ولهذا كان المسلمون كلهم رغبة في ملء أبصارهم من عيا النبی عليه السلام ، وماتهى أحدا عن ذلك ولا رغب عنه . ولهذا كان النظر إلى وجه المولى لذة لا تساويها لذة ، لأن حب عبده المؤمن له لا يساويه حب . ولكن هؤلاء يريدون أن يكون الشيخ طلسمًا من الطلاسم ، وسرا مغلقا ، ولغزا من الألغاز المعقدة ، لتجل هيئته في الصدور وفي النفوس التي لو عرفته لا نكرت منه ما كانت تعرف . أما البركة التي زعم أنها تفوت ذلك الممن النظر إلى وجه شيخه فشئ لا حقيقة له ، وشئ

النظر إلى
وجه الشيخ

لا يعرفه الاسلام . وأية بركة يشتمل عليها الشيخ ؟ فقتشوه وفتشوا كل شئ يحيط به ، فانكم لن تجدوا شيئا يسركم . اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون .

وكذلك على المريد ألا يبيت عند شيخه في حضرة ولا سفر إلا لعذر ملح . المبيت مع الشيخ وهذا نحرهم لما أحل الله ، وتضييق لما وسع الله ، وشئ لم يأذن به الله . ولو أن الشيخ ومريديه ناموا في مكان واحد لما زعم مسلم يعرف الاسلام أنهم ارتكبوا بذلك إثمًا . وقد قالوا هذا القول ليبقى الشيخ ، كما ذكرنا مرارا ، طلسما مجهولا يحاط بالأسرار والمعميات . لا يعرف ماحوله ولا ماطوى عليه .

وكذلك على المريد ألا يطأ سجادة الشيخ بل عليه أن يطويها أو يشق على الشيخ لاوطأ سجادة ركبتيه لئلا يطأها ، وكذلك عليه ألا يففل عن ملاحظته وذكره وملاحظة المكان الذي هو فيه وقتا واحداً ، لأن حاجات المريد كلها ، من دنيوية ودينية ، عند الشيخ . ونحن لا نستطيع أن نعلق على هذا الكلام شيئا سوى أن تقدمه إلى من يعرفون الاسلام ويعرفون ما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد ومن التجرد عن كل ما سواه « وما بكم من لمة فن الله » .

وأما زعمه أن من غلب عن شيخه ساعة واحدة فلم يشتق إلى رؤيته فهو الاعتناء إليه كاذب في إرادته لا يصلح للطريق أبداً فزعم غير صحيح ، بل زعم منكر في دين الاسلام ، لأن الذي يجب أن يذكره المسلم في كل لحظة هو الله ، فالله هو الذي يجب أن تعمر به القلوب ، فان قلبا يخلو من ربه ساعة واحدة قلب خرب مظلم مخيف لا خير فيه . أما الشيخ وغيره من الأشياخ فلو نسبهم المسلم في حياته كلها لما ضاره ذلك شيئا ولما نقص ملك الله ذرة ، ولما نقص إيمانه ودينه قليلا ولا كثيرا . وما لا يرضاه الاسلام ولا يقبله توحيد الله أن يطوى قلب مسلم على شيخ أو على غيره من المخلوقين ، فان هذا وأمثاله من بندرات الوثنية وجرائم المشرك . وقانا الله واخواننا هؤلاء القوم السوء والضلال .

قليل من كثير
ثم قال في خاتمة هذه الآداب : « ومنها غير ذلك . وبذكر القليل يتنبه العاقل للكثير . وهذه الآداب إنما يخاطب بها الصادق المجد الحاذق ، لا كل من تلقن الذكر » .

فعند الشيخ ، عفا الله عنه ، أن هذه الآداب التي ضربها على عقول مريديه وأنصاره ، فأذل بها نفوسهم وأخلاقهم وعقائدهم ، ليست إلا قليلا من كثير ، وليست إلا غيضا من فيض مما يجب له على الاتباع والعباد من التعظيم والتقديس ، وإنما ذكر هذا الذي ذكر تلويحا لا تصريحاً ، وإشارة عاجلة لاحقيقة جامعة . وإنما ذكر ما به يتنبه العاقل الحاذق ويعرف به ما وراءه من الأشياء الأخرى والآداب الكاملة الكثيرة التي تحجب للشيخ في أعناق المريدين .

ونحن لا نعرف ما وراء هذا الذي ذكره في هذه الرسالة من الخضوع له والهوان والهون لأوامره وإراداته ، وما الذي يمكن أن يقدمه المريد له غير ما أورد هنا ، وهل ترك نوعاً واحداً من أنواع التعظيم والتقديس لم يزعم أنه واجب تقديمه إليه ؟ وهل يمكن أن يكون لدى المرء من الأدب والخشوع والذلة والمسكنة أعظم من أن يكون كالميت بين يدي الغاسل لا يتحرك منه شيء إلا إذا حركه ؟ وهل هناك خضوع أعظم من أن يجلس بين يدي الشيخ كجلوسه للصلاة وأن يقبل منه كل شيء ظاهراً وباطناً ، وألا يقول له « لم » ولا « كيف » في حالة من الحالات ، وأن يزداد له إخلاصاً وعبودية وحبا وطاعة كلما زاده إهانة وإذلالاً وتنقصاً وطرداً ، وألا يعمل عملاً إلا من بعد إذنه وأمره ، وألا يتزوج ولا يسافر ولا يقطع أمراً إلا بأمره ورضاه : هل هناك تأدب مع الشيخ ، بل عبودية له أكثر من هذا حتى يقال ، أوحق يمكن أن يقال ، إن هذا الذي ذكر ليس إلا تنبيهاً لما بعده ومقدمة لكتاب ؟ وهل يمكن أن يوجد تعظيم للشيخ أعظم من الاعتقاد بأن نفاقه ونومه أفضل من إخلاص المريد وصلاته ، وأن الذرة من

أعماله أفضل من عبادة المرید طول السنة ؟ أم هل هناك تعظیم أعظم من قوله :
إنه يجب على المرید أن يحب الشيخ حبا لا يحبه أحدًا في هذه الدنيا ، لازوجا
ولا ولدا ولا نفسا ولا أهلا ولا مالا ، وأن من قدم على الشيخ أحدا في حبه لم
يشم رائحة الحق ؟ بل هل هناك تقديس أكثر من الاعتقاد بأن الأشياخ ليس
لهم فعل عبث أبداً ، بل كل أفعالهم وأقوالهم حكم بوالغ وعلم وصواب ؟؟

وليس هناك تقديس للشيخ أكثر من قول ص ١٣ « وأجمع الأشياخ عقوق الاستاذ
كلهم على أن عقوق الاستاذية لا توبة عنه » فان المسلمين لا يختلفون في أن لا توبة له
من كفر بالله وبجميع الأنبياء والمرسلين وجميع الكتب ، بل وبكل حق ثم
تاب تقبل الله توبته وغفر له ذنبه وأبدل سيئاته حسنات ، ثم أدخله بعد ذلك
جنته وألبسه رضوانه ورحمته ، هذا مصير من يكفر بالله ثم يتوب ، أما من عى
الشيخ فيقول هذا الشيخ : إنهم أجمعوا على أنه لا توبة له ، فعقوق الأشياخ
لدى هذا التقى الورع أعظم من الكفر بالله وبأنبيائه وملائكته وكتبه ورسوله
وقد قال في هذا المعنى : « والعاق (أى علق الشيخ) لا يرفع له عمل إلى السماء »
وقد تقدم هذا ، وقال أيضا فيما تقدم : « ففى اختار شيخه شيئا واختار هو خلافه لا يرفع عمله
فقد خرج عن صحبته ، والواجب عليه التوبة ثم إن شاء شيخه قبله وإن شاء
رده » فبالله هل يوجد تعظيم للشيخ أعظم وأجل من هذا حتى يدعى أن كل
ما ذكر لم يكن سوى قليل من كثير ؟

ومن التعظيم الفظيع قوله ص ٥ : « واحذر أن تستعمل أى اسم إلا بإذن لا يجوز ذكر
من الشيخ إلا أن يسمى . هلكت » يعنى أنه لا يصح للمرید أن يذكر الله باسم الله إلا بتلقين
من أنما تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي
لا يعرفه يستعمله ولا يسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي تسمي

ويقول ص ١١ « قال حمدون القصار : من علامة صدق المرید إذا دخل على

شيخه كأنه داخل على سلطان جائر يخاف سطوته»، وهذه الأقوال كلها مما جاءت الأديان السماوية كلها لمحاربتها وانتزاعها من النفوس والرؤوس، ولا يوجد دين سماوى يقر شيئاً منها أو يتهاون فى دفعه .

ومن أقبح ما جاء فى هذا « المهد الوثيق » قوله بعد أن قسم النفوس على حسب درجاتها وصفاتها سبعة أقسام بادئاً بذكر الأدنى مترقياً إلى الأعلى قال :
للنفس المرضية « السادس المرضية . ذات مقام تجليات الأفعال ، فلا يرى صاحبها صدور الأفعال إلا من الله ، فلا يعترض على أحد بعين الحقيقة لمشاهدته أن الأمر كله منه وإليه سبحانه » . هذا ما ذكره عن صاحب النفس المرضية وليس فوق هذه النفس لديه إلا النفس الكاملة « ومقامها مقام تجليات الأسماء والصفات فهى بمعالى الفضائل والفواضل حافلة ، وذلك أنها فوق الفوق ومعارفها فى نهاية الشروق » .

وهذا الذى ذكره عن النفس المرضية مذهب مرغوب عنه مجمع على بطلانه وخلافه للدين بل وللأديان جميعاً . ذلك بأنه يقضى بأن يكون كل مجرم معذوراً . لا يصح الاعتراض عليه ، والاعتراض أقل المواخنة : فالقاتل والسارق والمشارك والكافر والفاعل لكل . وبقة : كل هؤلاء معذور عند صاحب النفس المرضية لأنه يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده لا من غيره . فالزنا والسرقه والقتل والكفر والإثم كله : جميع ذلك لا يصدر إلا من الله . وصاحب النفس المرضية لا يصح أن يلوّم المخلوقين الماجزين على أفعال الله ، لأن هذا نهاية الظلم والجهل وعذر العصاة . وعلى هذا المذهب لا يصح أن يعترض على أحد من العصاة والمجرمين لأن الأمر كله من الله وإليه ، وهذا ما تقره ومآراه عين الحقيقة التى ينظر بها صاحب النفس المرضية . هذا معنى هذا الكلام ، وهو مذهب باطل قبيح قد قال به قائلون من الضالين فرد عليهم الساف الصالح وأدبهم . وقد كانت نفس رسول الله ونفوس

سائر الرسل ونفوس أصحابهم من أرضى النفوس وأنظرها بعين الحقيقة ، وكانوا مع هذا يعترضون على أصناف المذنبين ويؤاخذونهم ، فكان رسول الله وأصحابه يقتلون القاتل ويرجمون ، أو يجلدون ، الزاني ، ويقتلون المرتد ، و يقيمون الحدود . وكانوا يحملون الحسام والحديد في يد ، والمصحف والحكمة في أخرى ، فكانوا أرضى الناس نفوساً وأشدهم على المجرمين والمفسدين بأساً ، وأعظمهم قياماً بالحدود والمقويات الزاجرة الرادعة . فصاحب النفس المرضية هو الذي يفعل هذا ومن لا فليس سوى صاحب نفس خبيثة . فلا ريب أن هذه للقاله معناها رد الأتيان وتكذيبها ، ورد أوامر الله وشرائعه

تكذيب الأديان

ثم إذا كان هذا صحيحاً فلماذا كانت جماعة هذا الشيخ من أشد الناس اعتراضاً على الناس وإيذاء وسباً لهم وقدساً فيهم وفي عقائدهم لأسباب باطلة ؟ ولماذا لا يحاولون أن يكونوا من ذوى النفوس المرضية الذين ينظرون بعين الحقيقة فيرون الأمر كله من الله وإليه ، ويرون الأفعال كلها أفعال الله فلا يعترضوا على أحد ولا يسبوا أحداً ؟ فن أى جانب يمكن أن يصح هذا القول ؛ ومن أى وجه يؤخذ ؟ ؟

وقال في أول الرسالة في صفة هيئة الذ كر : « ثم تجرد من الشواغل الدنيوية بلاء عظيم وأنت جالس في مكان مظلم طاهر معظم مطيب بالروائح الذكية . . . واضحاً يدك على فخذيك - مبعداً الروائح الكريهة ، لأن الروحانيين لا يقبلون الروائح الكريهة . وبانقطاعهم عن مجالس الذ كر ينقطع المدد ، مستأذاً أهل الطريق ورسول الله والخضرة الآلئية في دخول حضرة الذ كر التي هي حضرة الله ، جاعلاً خيال شيخك بين عينيك ليكون رفيقك في السير إلى الله ، لا لكونه مقصوداً لذاته حتى يكون منافياً للتجرد عما سوى الله ، أو يكون إثراً كافى العبادة ، خلافاً لما يتوهمه بعض القاصرين ، فالمقصود هو الله وحده . واستحضار الشيخ إنما

هو لتحصل على مقصودك ، لأن الوصول عادة لا يكون إلا بدليل ، وإذا وجد الدليل لا يجد الشيطان له مدخلا معك حتى يحولك عن الطريق ، ولذا كان استحضار الشيخ من أهم الآداب . . . »

وثلية ظاهرة

وهذا كله وثلية ظاهرة لا ريب فيها ، فان المسلم الموحد لا يستأذن أحدا في دخول حضرة الله ولا في الاقبال على ذكره ونجواه ، كما لا يستأذن أحدا في الصلاة والصيام وأنواع العبادات . . ومن استأذن أهل الطريق من الموتى ، أو استأذن رسول الله أو غيره من الرسل والصالحين عند صلاته أو صيامه أو ذكر ربه ومناجاته إياه ، فقد أساء وخرم توحيده وأصاب التجرد لله وأتى أمراً إمرأاً . ومن هم أهل الطريق الذين يُستأذنهم من أراد ذكر الله ودخول حضرة ؟ إنهم أقوام موتى لا يسمعون ولا يعلمون من حال مستأذنهم شيئا : فالمستأذن لهم مستأذن مالا يسمع ولا يعلم . ولكن هذا الاستئذان مبني على منهج فاسد قائل وهو الاعتقاد بأن الأشياء ، من أهل الطريق ، حاضرون ذا كرمهم ومستأذنهم موجودون معه حيث كان ، بل وموجودون في كل مكان وزمان ، ولعمد بالله من هذا المنهج . ويدل على أن هذا هو المعنى قوله « لأن الروحانيين لا يقبلون الروائح الكريهة ، وبانقطاعهم عن مجالس الذكر ينقطع المدد » وهذا نص من هذا القائل بأن مجالس الذكر محصورة بالروحانيين ، والذي يبدو ، بدليل سابق الكلام ولا حقه ، أنه لا يعنى بالروحانيين الملائكة ، وإنما يعنى أهل الطريق الذين يستأذنهم في دخول حضرة الله . وزعمه أنه بانقطاعهم عن مجالس الذكر ينقطع المدد زعم لا يلاقى الايمان والتوحيد أبداً ، لأن المدد من الله وحده لا من الروحانيين ، ومدد الله لا ينقطع عن عبده بانقطاع غيره عنه ، لأن المدد هنا يراد به المدد الروحي القلبي من التوفيق والتسديد والعناية الخفية ، والالهام الرباني المتدفق على الأرواح الصالحة المشرقة بشمس الايمان واليقين ، وهذا

مدد أهل الطريق

كله من الله ، وهذا لا يقطع انقطاع الروحانيين ولا انقطاع غيرهم عن مجالس الذكر . وهذا المدهو الهدى والتوفيق والله هو الهادى الموفق وغيره لا يهدى أبداً بهذا المعنى « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً » .

ومن البلاء قوله « جاعلا خيال شيخك بين عينيك » إلى آخره ، فان هذا خيال الشيخ شئ لا يقبله التوحيد مطلقاً ، بل شئ يشرق به الايمان بالله ويعتر به التجرد له . وما طلب رسول الله من المسلمين أن يجعلوا خياله بين أعينهم حين ذكر الله ، بل طلب إليهم أن ينسوا كل ما سواه حين ذاك ، وطلب إليهم أن تكون قلوبهم ملاءى به وبذكره ، وأن يقولوا في أذكارهم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والدلائل على هذا منبذة للجميع .

وقد كان المشركون يترفون عن هذا الانحطاط في حضيض الخلق لسيان الخلق حين شدتهم وبلوهم كما قال تعالى « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » وما أبلغ وأروع وأصدق قوله « ضل » فان المراد به أن كل شئ سوى الله ، من الاصنام والأوثان والخلوقات كلها ، يذهب ويتلاشى عن قلوب المشركين وخواطرم وأوهامهم وأخيلتهم وعن ألسنتهم في تلك الساعة : فلا يذكرون غيره تعالى بقلوبهم ونفوسهم ، ولا يدعون سواه بألسنتهم وأقوالهم ، فلا يبقى في قلوبهم ولا في ألسنتهم غير الله : فلا خيال مخلوق ولا خيال شيخ ولا خيال صنم ولا خيال شئ من الأشياء غير الله . وهذا غاية التجرد والتوحيد . وأين هذا من هذا ؟ أين وضع خيال الشيخ في القلب وفي العين حين مناجاة الله من الانقطاع إلى الله وحده ونسيان ما سواه ؟

وقوله « ليكون رفيقك في السير » شئ لا معنى له ، فان الشيخ إن كان قد مات فهو إما في الجنة أو في غيرها ، أو في القبر ، فكيف يكون رفيق ذا كثر الله الذهاب إليه ! وإن كان حيا لما يموت فهو ، حين ذكر المريد ، قد يكون مشغولا

بأحواله أو راحاته أو لذاته أو دنياه أو عبادته ، على أحسن تقدير ، فكيف يمكنه أن يكون رفيق الذاكر لله السائر إليه وهو لا يعلم من حاله شيئا ؟ هذا محال باطل . ثم كيف يحتاج الذهاب إلى الله المناجى له إلى من يسير معه وإلى دليل يده ساعته ؟ جل الله عن ذلك « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » « ولقد جئتمونا فرأى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم ترعون » « ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع » « قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والأرض » قل الله ثم ذرم في خوضهم يلعبون .

الدلالة على الله وقوله « لان الوصول عادة لا يكون إلا بدليل » يقال نعم ، ولكن الدالون على الله هم رسل الله وأنبيأؤه بيناتهم ورسالاتهم ووحيمهم وكتبهم ، لا خيال الشيخ ولا استحضاره ولا نصبه بين العيين ، فان هذا لا يهدى إلى الله بل يضل عنه ويشغل عن ذكره وعن مناجاته وعن جلاله . فهذه كلها آداب تنافي الاخلاص لله والتجرد لعبادته .

قوة المشايخ ومن أقطع ماجاء في هذا الكتاب قوله « وقال أبو علي الدقاق : الفقراء ملوك وكل مرید محبهم بغير صلق قتلوه » فانه قد أعطى المخلوقين بهذا القول القدرة على الامانة والقتل ، فهو لا يريد أنهم يقتلون بالسيوف ولا بالرمح ولا بالسم ولا بالآلات العادية التي يقتل بها كل الناس ، وإنما يريد أنهم يقتلون بأسرارهم وقدرهم المعنوية الروحية الفاعلة ، وبما وهبوا من قوة التصريف والسلطان الروحاني . ونحن نقول كما قال خليل الله إبراهيم لئلا الذي حاجه في ربه « إذ قال إبراهيم ربي الذي يحى ويميت ، قال أنا أحى وأميت ، قال إبراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » .

هذا بعض مافى هذه الرسالة رسالة « العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن

طريق « من الأقوال المتجافية عن سبيل الله وعن العقل الصحيح . ولا شك أن القارئ سوف يأسف ويفضرب معا ، وسوف يشتد غضبه وأسفه حينما يعلم أن هذا الشيخ الذى عرف بالسنة والدعوة إليها ، وبمجاناة البدع والحلة عليها كل حياته يدركه الحظ العاثر ، ويدركه عجز الانسان المطبوع ، ويدركه انحطاط المدا رك عجز الانسان الاسلامية فى المصور المتأخرة ، حتى يسجل على نفسه ما فى هذا الكتاب من آراء وعقائد لا يمكن أن تجتمع هى ودين الله وكتابه فى قلب ، ولا يمكن أن يرضاها . امرؤ عرف الاسلام .

نحن نعلم أن كثيرا من هذه الأقوال والأخطاء قد سبق الشيخ محمود خطاب إليها غيره ممن لم يقدر لهم أن يهدوا إلى حقيقة الايمان وحقيقة دين الله ، ولكننا نعلم أن سبق الخطئ الأول إلى الخطأ لا يجعل ضرب الآخر على عقبه واتهاجه منهاجه محمودا مشكورا ولا مفعوا عنه مغفورا ، بل إن الخطأ قبيح ولكن أقبحه التقليد فيه ، كما نعلم أن أكثر هذه الأقاويل والأخطاء إنما هى بضاعات نصرانية وثنية وغلت فى دين الاسلام وتسلت بين المسلمين ، ورزى بها الاسلام وأهله بطريق الدس والخداع تارة ، وبطريق الجهل والبلادة تارة أخرى . فإن هذه الأديان قائمة على المغالاة فى الخلق إلى حد عبادته ، فهى التى تتقبل هذه العبودية الموصوفة فى رسالة العهد الوثيق ، وهى التى تسمعها مبادئها الوثنية وأصولها الباطلة المعبدة غير المعبود بحق ... أما الاسلام فإنه ينكر ذلك كله أشد الانكار ، ويلفظه لفظ المقلى المزدرى بلا هوادة ولا رفق . وما يوجد دين من الأديان يأبى عبادة الخلق ، صوريها وحقيقتها ، وينكر الاسراف فى تقديس الانسان ، مهما يكن ، ويحضى على الانقطاع إلى الله مثل دين الاسلام . ولقد بالغ الاسلام وكتابه فى التزهيد فى الخلق والصرف عن غير الله حتى حكم على كل شئ « ما خلا الله ، بالفناء المطلق وبالهلاك العام . فقال « كل من عليها فان » ،

بضاعات
أجنبية

« كل شيء هالك إلا وجهه » وقد جعل كل ماسوى الله باطلا وجعلت هذه الكلمة مأخلافة باطل أصبق كلمة قالها شاعر . فصاح عن النبى الكرىم أنه قال أصبق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل * وكل نعيم ، لا محالة ، زائل
وقد أشد لبيد قوله هذا كفاراً مكة في المسجد الحرام وكان فيهم أحد
أصحاب النبي فقال له في الشطرة الأولى : صدقت وفي الثانية كذبت ، فان نعيم
الجنة لا يزول . هذا قول لبيد المشرك ، وهذا ما يلشده العرب المشركين
فيتقبح . . . وكم لهم من أمثال ذلك . فانظر كيف تشرق أنوار الحقيقة بين
حناسد الباطل والشرك الخالكة المدهمة . ومن أبلغ ذلك قول النابغة الذبياني .

ماورء الله
مذهب

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب
وهذه الكلمات الصادقة وأمثالها إنما تصدر من معدن الفطرة الأولى.

الصحيحة الربانية العتيدة التي يعجز الباطل الطريف أحيانا عن النفوذ إليها والاختلاط بها ، والتي لا يكون الباطل ، إن وصل إليها ، إلا فقايع طافحة كالفقايع التي تطفو على سطح المحيط ، ثم لا تلبث أن تتمزق وتتلشى وتنفى .

فرق عظيم

وكم بين أقوال هؤلاء الشعراء الجاهلين وبين أقوال هذا الشيخ النقي الورع من الفرق والبهن الشاسع ! وكم بين أشعارهم هذه وبين مقالاته في كتابه هذا من البعد في وصف الحقيقة وعرفان الحق : فهم يقولون : إن كل شيء ما خلا الله باطل لا يجبأ به ، ويقولون إنه ليس وراء الله للانسان مذهب . وكم في هذه الأقاويل من معاني التوحيد ومن عرفان الله : أما الشيخ فيقول : يجب على المسلم ليكون مسلما حقا أن يكون بين يدي الانسان الباطل الغائي مثل الميت بين يدي الفاسل يصرفه ويقلبه كما يشاء ، لا يرتفع منه عضو ولا يقع إلا بإذنه وأمره . ويقول : على المسلم ليكون مسلما حقا أن يدخل على شيخه وكأنه داخل على سلطان .

جائر يخشى سطوته وبأسه . ويقول : من قال للشيخ ، وهو الباطل الفاني « لم »
لم يفلح أبدا . ويقول : على المسلم ليكون حتما مسلما أن يسلم للشيخ ، والشيخ
إنسان باطل فاني ، ظاهرا وباطنا بحيث لا يعترض عليه لا بقلبه ولا بلسانه
إلا فلن يفلح . ويقول : على المسلم ليكون مسلما حقا ألا يجلس بحضرة شيخه ،
وهو الانسان الفاني ، إلا كجلوسه للصلاة . ويقول : على المسلم ليكون مسلما حقا
ألا يعمل عملا : فلا يتزوج ولا يسافر ولا يصلى ولا يصوم ولا يعبد الله إلا باذن
الشيخ ، ويقول عليه أيضا أن يقبل من الشيخ كل شيء يفعله به لا اعتراض
ولا ممانعة لا ظاهرا ولا باطنا ، وعليه أن يتقبل كل إهاناته والتحكم فيه وطفياته
بالشكر والرضا والحمد الجزيل . ويقول كل ما نقلناه عن هذا الكتاب من
العبادة الوضيعة لأنها عبادة لغير الله وكل عبادة لم تكن لله وحده هي عبادة
وضيعة بلا ريب : فكم بين أقوال هذا الشيخ التقى الورع وبين أقوال أولئك
الشعراء الجاهليين من بون وفرق .

لقد مات الشيخ مؤلف هذا الكتاب واتى زبه بخيره وشره بالعوما مات الشيخ
عليه ، وخلى الدنيا بحسناتها وسيئاتها ومفاتها ومناعها ، وأصبح لا يد له برفع
هذا الكتاب من قائمة أعماله ولا رفع شيء مما فيه ، كما أصبح غير مستطيع أن
ينكر منه شيئا وإن أحب أن ينكر ولا أن يححو من صفحاته قولا قد كتبه وإن
أحب أن يححو : أجل لقد أصبح الشيخ في قبضة العدم وفي ذمة التاريخ الحفيظ .
لهذا لم يكن الرد عليه ذاته ممكنا ولا مطلوبا لولا أننا وجدنا أنصاره ومريديه
يبيعون هذا الكتاب إلى اليوم على علم ومرأى ومسمع من خليفته الشيخ أمين بيع الكتاب
خطاب ، وعلى علم ومرأى ومسمع من علماء مريديه بلا نكير ولا اعتراض .
وقد وقعت بأيدينا من الكتاب جملة نسخ بطريق الشراء من مكتبتهم ، وهم
الآن يبذلونه يبعان لمن يريدونه من جماعتهم ومن غيرهم . وقد طبعوا الكتاب

طبعتين ، فطبعوه الطبعة الثانية قبل أن تنفذ الطبعة الأولى ، والنسخ موجودة في المكتبة من الطبعتين . وقد اشترى بعض أصحابنا نسخا من الطبعتين وأحضرها لدى بقصد الإشارة إلى ما فيها من الأخطاء . بل لقد كلفنا بعض الجماعة في ذلك فوجدناهم راضين عن هذه الرسالة وعن جميع سيناتها ، وما عددنا عليها ، وألفيناهم يدافعون عن كل ذلك بحماسة وصلابة بلا استثناء . وما وجدنا من أحد منهم إنكاراً لشيء مما ذكرناه وأنكرناه ، بل لقد نوهوا بهذا « العهد الوثيق » وأعلنوا عنه في آخر كتاب ألفوه وطبعوه ، وهو الكتاب الذي عرف وطبع الجزء الأول منه بعد وفاة الشيخ ، صفح الله عنه . وهذا الكتاب هو كتاب « الدين الخالص » ، وقد طالمت بعض أجزاءه فوجدت الحق فيه منقولاً نقلاً من كتب الشوكاني . . . وهذا دليل على أن القوم راضون بالكتاب وراضاهم الكتاب وما فيه . على أنهم لو كانوا ينكرونه أو ينكرون شيئاً منه لوجب عليهم أن يطبعوا إنكارهم وينشروه كما طبعوا هذا المنكر ونشروه . والسكوت على الخطأ ليس مما يعذر عليه ، وليس مما يهون أمره عند الله وعند المتقين . فإذا زعم لنا زاعم أن القوم ينكرون هذه الأمور التي عددناها قلنا هذا غير صحيح والالما باعوا الكتاب ونشروه ولما قرظوه وأعلنوا عنه في أحدث كتبهم ولما وسعهم السكوت عليه . فهم يبيعونه وقرظونه ولا ينكرونه . وهذه أمور ثلاثة يدل كل واحد منها على رضاهم بهذه الأغلوطات . فالواجب على الجماعة ، إذا كانوا من أهل السنة حقاً ، ألا يبيعوا من الكتاب بعد اليوم نسخة واحدة ، بل عليهم أن يهبوه لآلسنة النيران ، والواجب عليهم أيضاً أن ينكروا ما علق في الأذهان منه وأن يتبرؤا من هذه الباطلات ، وأن يعلنوا براءتهم ليعلم ذلك من بقي في رأسه أو داره منها شيء ، أما إذا لم يفعلوا فلا شك أنهم مصرون على الكتاب ، راضون عنه ، قائلون بما فيه ، عاملون به . ولو قدر أنهم ينكرون الكتاب ثم

يبيعونه لكان هذا من أكبر الآثام والخطايا .

ومن السهل عليهم أن يعترفوا بأن شيخهم لم يعرف الحق جملة واحدة ، ولم يجد الحقيقة منذ خلق . ومن غير العسير عليهم أن يتحدثوا بأن الشيخ راجع عن هذا الكتاب ، راجع عما فيه ، لأنه قد ألفه في أول حياته العلمية ، قبل أن تهبط عليه الحقيقة ، وقبل أن يخصه الله بمعرفة السنة ، وإحيائها وتجديدها . وليس من العار في شيء أن يكون المرء تائها عن الحق في أول حياته ، ولكن العار والسببة والبلاء في أن يصير المرء على الباطل في كل حياته ، ثم يلقي ربه مصرا على باطله ، ثم يورث هذا الباطل قوماً يمسكون به ويمضون عليه بالنواجذ ، ويورثونه هم أولادهم وأحفادهم والآتين بعدهم ، وهكذا دواليك : هذا هو العار والسببة والبلاء ، وهذا مالا يرضاه المسلم الناصح لنفسه .

وقد ترامت إلينا الأنباء بأن خليفة المؤلف وابنه الشيخ أميناً منير الذهن الأمل في مستقيم التفكير ، هيوم بالحق ، محب للسنة ، لا يرضى الاصرار على الباطل ، الشيخ أمين وإن خلفه الأكبر الأوائل ، ولا رد الحق وإن كان قبوله مرا شاقاً ، كما تراهي إلينا من أنبائه أنه بصير بالسنة وبالإسلام : هذا ما تراهي إلينا من أخبار الشيخ أمين خليفة مؤلف هذه الرسالة ورئيس الجماعة اليوم . ونحن نرجو أن يكون هذا كله صحيحاً ، ونرجو أن يكون لدى الشيخ من الخير والفضل أكثر من ذلك ولكننا نرجو أن يكون صارماً قوياً في توجيه الجماعة وتهديتها وتطهيرها من أشياء يعلمها الخليفة عنهم حق العلم وتؤلمه كثيرا ، ويود ألا يراها لا في جماعته ولا في غيرهم . ومن أول ما يجب عليه مصادرة هذه الرسالة وجمع نسخها لإبادتها وتحويلها فإن الله ورسوله أحب إلى المؤمن من والده وشيخه ومن الناس أجمعين . ونحن نعلم كما يعلم غيرنا وكما يعلم الشيخ نفسه أن هؤلاء الجماعة ، على دعواهم الاستمسك بالسنة ، وعلى تمسكهم الشديد ببعض مظاهرها ، هنات كثيرة يتمسكون

هناك الجماعة بها أشد الاستمسك ، ويبالغون فيها مبالغة لا يرضاها الدين ولا العقل ولا الذوق ، وقد وجدناهم يتحامون الصلاة في المساجد العامة حتى صلاة الجمعة ولو اقتضى ذلك الفرد منهم أن يدع صلاة الجمعة ، ووجدنا الكثيرين منهم لا يلقون السلام على المسلم ، من يعرفون ومن لا يعرفون : حتى على أقاربهم ، ممن لا يوافقونهم على زعيم ، بل وجدنا أناساً منهم لا يردون السلام على من سلم عليهم ممن لم يتزبوا بزيم . وقد بلغنا أن جماعات منهم ذهبوا إلى الحجاز ، شرفه الله ، فكانوا لا يصلون في المسجد الحرام مع جماعات المسلمين ، وكانوا يصلون وحدهم لأسباب سخيفة كالاختلاف في الزى . وقد خاطبت أحدهم ، ولكنه من العامة ، وأكثر القوم عوام ، في هذه المسألة فأسمعى ما يصدق هذا عنهم . وإذا صح عنهم هذا ، والغالب أنه صحيح ، فالويل لهم . والقوم يبالغون في شأن المذبة مبالغة شديدة وقد أخرجتها هذه المبالغة عن أن تكون سنة لو كانت سنة ، ويوجد بين أيديهم كتاب مطبوع من كتب شيخهم فيه عبارة عن هذه المذبة فظيعة . وقد كلنا فريقاً منهم في هذه العبارة فوجدناهم يدافعون عنها إلا أن بعضهم يلجأ إلى تأويلها تأويلاً بعيداً يباه الظاهر ، ولا ندري ما الذي اضطربهم إلى القول بهذه الأقوال التي يعترفون بأنها مؤولة ، وبأن ظاهرها باطل ، والمسلم والعقل لا يقولان أقوالاً تضطرهما إلى التأويل والتمحل المحال .

ومن البلاء المعروف عنهم أنهم يبالغون في حمل العداوة والشئان لمن خالفهم في مسائلهم الصورية ، ويرون أن المؤمن القوى الإيمان ، الصادق العقيدة ، الناصر للسنة ، هو الشديد في عداة الناس المتلقى لهم بالجفاء والغلظة والفظاظة والمعاملة الغنيمة القاسية . ولذلك فإن الرجل منهم يكون وديعاً سليم القلب واللسان عف المحضر والمغيب ، موطاً الاكثاف ، سهل الخلائق ، فيقدر له أن ينضم إليهم ، وأن يصبح فرداً منهم فيصير حيلئذ شيئاً آخر ، وتبديل خلأته ، وتصير

عداوتهم للناس

إلى الفظاظة والشراسة والجفاء . فكأنهم يرون الدين ، وقد سبوه بذلك ،
 يقتضيه أن يثثروا العداوة في الأرض بين الناس ، وأن يصير الأخ حرباً
 لأخيه وأبيه وذويه وأهليه وإلا لم يكن مسلماً ولا سنياً . وهذا جهل بالدين
 وبالسنّة ، فإن أديان الله جميعاً إنما جاءت لإلقاء السلام العام بين جميع الناس
 و لكل الشعوب ، ومن أبلغ وأعظم دعوة دين الله للسلام العام قول الله « وإن
 جنحوا للسلم فاجنح لها » وقوله « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا
 تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » وقوله « يا أيها الناس إنا خلقناكم
 من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وقوله « لا ينهاكم الله عن الذين
 لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب
 المقسطين » وقال في الأيوين الكافرين الداعيين إلى الكفر بالله يوصى بهما
 ابنهما « وصاحبهما في الدنيا معروفا » إلى غير ذلك من الآيات الداعية إلى
 السلام العام ، وإلى الآداب العامة الفاضلة ، وإلى البر بجميع الخلق . ولهذا
 الغرض سمى الدين الحمدي « بالاسلام » . وقد كان النبي عليه السلام أودع الناس
 وأسلمهم وأطيبهم خلقاً ومعاملة للصديق والعدو والمسلم وغير المسلم ، حتى لقد كان
 يعود غلمان اليهود الكافرين به وبربه ودينه وكتابه إذا ما مرضوا ، وكان يتلقى
 شر الناس خلقاً وطبعاً وديناً بالبشاشة واللين والرفق ، ويقول : « إن الرفق لا يدخل
 شيئاً إلا زانه ، وإن العنف لا يدخل شيئاً إلا شانه » ويقول « شر الناس من
 تركه الناس اتقاء شرمه » وقد حدث الله عن هذه الصفات الحمديّة الفنة في
 كتابه فقال « وإنك لعلّ خلق عظيم » وقال « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو
 كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وقد كان اليهود ، وهم شر الناس
 في كل عصر ، يأتونه عليه السلام ويقولون : السام عليك يا محمد - والسام هو
 الموت - فلا يزيد على أن يقول « وعليك » وقد أنكر عليه السلام على عائشة

من الأئمة
 الحمدي

إذ سبت اليهودى الذى قال للنبي عليه السلام ذلك . وبماذا تظن أن يلاقى جماعة هذا الشيخ إنسانا تائقى شيخهم بالاعتراض والنقد الهين فضلا عن سبه والدعاء عليه بالموت ؟ وقد كان عليه السلام أشد حياء من المنزلاء فى يخدمها كما جاء فى وصفه الصحيح . ومن كان أشد حياء من المنزلاء العربية لا يمكن أن يقابل أحدا من الموافقين والمخالفين إلا بأفضل الأخلاق وأسهل الطباع .

فرسول الله ، وكذا سائر رسله ، لم يكن فظا ولا فاحشا ولا بذيئا ، بل كانت معاملته كلها للناس كلهم ، حتى المشركين منهم ، وحتى اليهود ، أخبت الأمم ، المثل الأعلى الكامل فى الرفق واللين والحياء والأدب والتسامح . . فعلى هؤلاء إذا كانوا من أهل السنة ، أن يقبضوا من هذه الاخلاق الحميدة المرضية، وعليهم أن يدعوا الفظاظة والشراسة والجفوة التى نراها متحكة طاغية على أخلاق الكثيرين منهم، حتى لقد فرقوا بين الاخوة وبين الأبناء والآباء ، لا شئ إلا شئ لا وزن له فى معيار الدين والصالح ، حتى لقد بعثوها على الجيران عداوة . نكراء لا يرضاها امرؤ عرف الله وأنبياءه وما جاءوا به من الآداب والسلام والرفق . حتى لقد عرف « السنن » : وهذا لقبهم بين الجمهور ، قرين الشدة والعنف وحدة الطبع ، وهذا من أعظم ما ينكر عليهم بل هذا من أعظم ما يرغب الناس ويصرفهم عما مهم من السنة والدين . ولنعوذ بالله من أن نكون فتنة لأحد .

هذه كلمات وضمنها عَرَضاً فى هذا الكتاب ، حملنا عليها الرغبة فى إصلاح هؤلاء الناس ، وإصلاح خلافتهم وطباعهم وعقائدهم مما لا يرضاه الله ولا دينه ، وأملنا فى رئيس الجماعة الشيخ أمين خطاب عظيم . والهاالك من هلك بالحق . ومع هذا الذى ذكرناه لا ننكر أن فى كثير من هؤلاء الجماعة خيرا ودينا . .

الرجوع إلى وبعد هذا نرجع إلى أصل بحثنا وهو بحث الشفاعة وطلبها من الأموات وإيراد بحث الشفاعة الدلائل على امتناع ذلك . فنقول : إن اعتقاد المستشفعين بالموتى أنهم يعلمون

الغيب ، ولزوم هذا الاعتقاد لطلب الشفاعة منهم هو البرهان الأول على أن الاستشفاع بهم لا يجوز ولا يقره الاسلام ولا أهله .

ثانياً : ، أى ثانياً الدلائل على بطلان الاستشفاع بالموتى ، أنهم قد أفضوا إلى البرهان الثانى عالم آخر مجهول الكنه والحقيقة ، متقطع الأسباب والصلات ، بعيد المكان والمكانة عن عالمنا هذا : فهم غرباء بعداء عنا ، مجهولو المسكانة والمكان ، ليس بيننا وبينهم من الصلات والاسباب إلا الايمان بالغيب وبما ذكره الله فى وحيه ورسالاته على السنة رسله وأنبيائه . فهم لن يسموا دعاء من دعاهم ولا استشفاع من استشفع بهم ، بل لن يعلموا من حاله شيئاً : لا رغبته فيهم ولا انقطاعه إليهم ، ولا استشفاعه بهم ، لبعده ما بينه وما بينهم ، ثم لو علموا من ذلك شيئاً لما فعلوا شيئاً .

و بيان ذلك أنه لاخلاف بين المؤمنين بالجزاء والثواب والعقاب والحساب ، استحالة سما المؤمنين باستقلال الأرواح وانفصالها عن الأشباح ، المؤمنين بعذاب القبر الأموات ونعيمه : لاخلاف بين هؤلاء جميعاً فى أن أرواح الموتى إما فى عالم النعيم والراحة والسعادة ، كالجنة وماحولها ، إن كانت أرواحاً صالحة مؤمنة طيبة ، وإما فى عالم الشقاء والعذاب والهوان ، كالجهنم وماحولها ، إن كانت أرواحاً كافرة فاسقة خبيثة : فأرواح الموتى إما فى أعلى عليين وهى أرواح المؤمنين الطيبين ، وإما فى أسفل سافلين ، وهى أرواح الكافرين والأشقياء الظالمين : فلاشك أن عالمي النعيم والجهنم منفصلان عن عالمنا هذا مبانان له . وإذا كان هذا كله صحيحاً ، وهو صحيح بلا ريب ، فكيف يمكن هؤلاء أن يسموا دعوة من دعاهم واستشفاع من استشفع بهم من أهل هذه الدنيا وسكانها وسكان عالم الأرض ؟ بل كيف يمكن أن يعلموا من أحواله وشؤونه شيئاً إلا شيئاً نص عليه الشرع لحكمة أرادها الله ؟ فكيف لا يكون من أجهل الخلق وأغباهم وأضلهم من أمل هؤلاء فانقطع إليهم

ورجا أن يسمعه وأن ينفعوه ؟ وهم لو كانوا أحياء كملى الحواس فى هذه الدنيا فدعاهم داع من مكان قصى بعيد ، كأن يكون هو فى قطر وهم فى آخر ، من غير أن تكون هنالك آلات تنقل الأصوات وتلاشى الأبعاد والمسافات ، لكان ذلك الداعى إما جاهلاً ضالاً معتقداً فيهم علم الغيب والاحاطة التامة بالغائبات ، وإما مجنوناً يهذى . ولن يدعو عاقل ، دعوة حقيقية ، إنساناً بعيداً عنه غائباً : هذا وهم أحياء يمدون غائبون فكيف بهم وهم أموات قصيون غائبون نازلون فى أقصى منزل وأمنح دار ؟ لاشك أنهم إذن لن يسموا أصوات هؤلاء المستشفعين بهم المندوعين الضالين ، ولن يملوا من أحوالهم شيئاً ، بل لاشك أنهم عنهم فى عزلة تامة وغفلة تامة . ولو أن قوماً توجهوا إلى سكان السموات وإلى سكان القمر والمريخ والأفلاك العلوية ، إن كان فيها سكان ، يدعونهم ويستشفعون بهم ، ظانين أنهم يسمعون ويشفعون ، لكانوا مثل هؤلاء المستشفعين بالأموات ، إن لم يكن هؤلاء شراً منهم مكاناً وأبلد أذهاناً . ولا ريب أن من طلب الشفاعة والدعاء من حى سوى يسكن المريخ أو القمر أو السموات العلى ضال جاهل بعيد عن حدود الدين وحدود المعقولات ، ولا ريب أن من طلب ذلك من الأموات سكان الجنة أو النار ، ليس أقل غباءً وجهلاً وضلالاً من ذلك الذى يستشفع بأهل السماء وأهل الأجرام العلوية . وقد جبلت النفوس كلها على معرفة هذه الحقيقة الواضحة ، وهى أن دعاء البعيد القصى الغائب جهالة وغباوة وضلالة . ولهذا فالتنا لأنجد الناس ، مهما كرهوا فى مناهل الجهل وارتووا منها ، يحاولون سؤال الأبعدين الغائبين عنهم شفاعاً ولاغيرها ، ولا يحاولون خطابهم والاتصال بهم ، وإن أسرفوا فى إعظامهم وإعظام شأنهم ، وإن زعموا لهم من الكرامات المفتريات والسلطان الإلهى الذى لا يبارى ولا يجارى . وإنما يقعون فى دعاء الأموات والاستشفاع بهم ، مهما بعدوا وغابوا ، ومهما بعثت عنهم أضرحتهم وقبورهم . وهذا

دعاء أهل
السماء

الغائب لا يدعى

راجع ، والله أعلم ، إلى أنهم يرون الموتى موجودين في كل مكان ، حاضرين مع كل شخص ، داعٍ لهم ، أو أنهم يعلمون جميع المغيبات ، ولهذا يدعونهم من كل مكان بكل لسان ولا يدعونهم أحياء إلا حاضرين قريين إلا في النادر الشاذ .

وقد أنبأ كتاب الله في غير ما آية بانقطاع صلات الأموات بالأحياء وبأن الآيات في أن الأموات لا يعلمون ولا يسمعون دعوة من دعاهم ولا استشفاع من استشفع بهم ولا انقطاع من انقطع إليهم . وقد نعى الله على المشركين والجاهلين تعلقهم بالموتى ورجاءهم نفهم وضرهم ، واستشفاعهم بهم ، وقد نوع هذا النعى وهذا التحجيل وتلك الزاوية بهم . وهذا كله واضح في آي الكتاب ، قال تعالى : « والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيا ن يبعثون » وقال : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم » . والآية نص ظاهر في أن من كان المشركون يدعونهم لا يسمعون دعوتهم ، والمشركون كانوا يدعون الأنبياء والصالحين من الأموات ، ويدعون الملائكة والجان ، والآية نص جلي في أن هؤلاء المدعوين جميعا لا يسمعون دعاء من دعاهم ولا استشفاع من استشفع بهم . وقال من سورة الأحقاف : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » . وهذه الآية ، ولا شك ، نعى على قوم كانوا يدعون عبادة الله مقرين لديه قد رحلوا عن هذا العالم رحلتهم الطويلة ، واجتازوا حدوده كلها : فهم غافلون عن الدنيا وأهل الدنيا ، غافلون عن دعوتهم وتعلقوا بهم ورجوا شفاعتهم أو وساطتهم : غافلون عن كل ذلك مشغولون عنه بمآلهم الذي هم فيه . ولهذا فانهم يوم القيامة ، يوم الثواب والعقاب والحساب ، يوم التغابن ، يكفرون

بعبادة ، عابديهم ويتشكرون لهم وينكرونهم وينكرون عبادتهم لإلهم ويتبرؤن
أيضاً منهم ، لأنهم عباد الله المخلصون ، لا يرضون إلا ما يرضى ولا يريدون إلا
ما يريد ولا يحبون إلا ما يحب . . . فالآية برهان على أن الأموات لا يسمعون دعاء
الداعين لهم ، وعلى أنهم غافلون عن كل ما هنالك

وقال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فدعوهم
فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين : ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يبطشون
بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ؟؟ قل ادعوا شركاءكم
ثم كيدون ، فلا تنظرون . » فالذين كان المشركون يدعونهم من دون الله عباد بشر
مثل دعائهم المشركين ، لا يستجيبون لمن طلب منهم الشفاعة ولا غير الشفاعة ،
لأنهم غير قادرين ، لأنهم فقدوا آلات القدرة والعمل : فلا أيدي يبطشون بها ،
ولا أرجل يمشون بها ، ولا أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها من دعاهم
وعاذ بهم وسألهم الشفاعة من أهل الدنيا وسكان عالم الأرض . وإذا كانوا
لا يسمعون دعائهم ولا يرونهم ، كما لا يملكون بأيديهم ولا يمشون بأرجلهم ، فكيف
يمكن أن تطلب منهم الشفاعة ؟ وكيف يستشفع بهم العاقل البصير ؟؟ فالآية
برهان قاطع على أن الأموات لا يسمعون الاستشفاع بهم ولا الدعاء لهم ، وعلى
أنهم لا يصنعون لأهل الدنيا شيئاً

وقال تعالى : « إنك لا تسمع الموتى » وقال : « وما أنت بمسمع من في
القبور » . وهاتان الآيتان ، على ما يقال فيهما من التأويل والتفسير ، برهانان
بينان على أن الأموات وأصحاب القبور لا يستطيعون أن يسمعوا دعاء من دعاهم
ولا استشفاع المستشفع بهم من أهل الدنيا : فهما يدعهم الداعي ، ويستشفع بهم
المستشفع فهم عن دعائهم واستشفاعه وحاله في صمم وغفلة وعزلة « ومن أضل ممن
يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ؟ »

والآيات الدالات على أن الموتى لا يسمعون ولا يعلمون دعاء أهل الدنيا .
وانقطاعهم إليهم كثيرة معلومة ، وسوف يأتي ، إن شاء الله ، لهذا الذي ذكرناه
حزيرد . وإذا كانوا لا يسمعون هتاف المستشفين ولا ضراعاتهم فكيف يجوز
الاستشفاع بهم ، وكيف لا يكون طالب الشفاعة منهم أغبياء وأجهل الجاهلاء .

ثالثا : قد ذكر الله في جملة القرآن إنكار شفاعات المشركين ، ونهى عليهم
أنواع استشفاعهم : فنفى شفاعتهم جملة ، ونهى عليهم استشفاعهم أيضاً جملة ،
وأخبر أن من جملة ضلال القوم وفساد عقولهم وعقائدهم ، ومن جملة شركهم بالله
واستحقاقهم النعمة والمقت ، اتخاذهم الشفعاء إليه وطلبهم الشفاعة من معبوديهم
وتأميلهم أن يشفعوا لهم وأن ينفعوهم ، وأن يقرّبوهم إلى مولاهم الحق بشفاعتهم
ووساطتهم ، ثم دعاهم جميعاً إلى أن يدعوا ذلك كله وإلا فالويل لهم . هذا كله
جاء به القرآن وبيّنه في الآيات الكثيرة الظاهرة ، قال تعالى : « أم اتخذوا
من دون الله شفعاء ؟ قل أولو كانوا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة
جميعاً ، له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون . وإذا ذكر الله وحده اثبتأزت
قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ،
غفى هذه الآية البليغة أنكر الله على الذين اتخذوا إليه تعالى شفعاء ، ورد عليهم
هذه الشفاعة وهؤلاء الشفعاء ردوداً مختلفة بالغة : فهم أولاً لا يملكون شيئاً
لا الشفاعة ولا غيرها من ملك الله أو في ملكه ، وهم ثانياً لا يعقلون ولا يعلمون
لأنهم قد ماتوا وأفضوا إلى عالم الخلود والنعيم المنفصل عن عالم الدنيا وعالم
المستشفين ، وهم ثالثاً لا يملكون من أمر الشفاعة شيئاً لأنها لله جميعاً ، يقسمها
على وفق حكمته وإرادته وعلمه ورحمته . وهم رابعاً لا يمتلكون في هذا العالم شيئاً
لا نقيراً ولا قطميراً ولا مادون ذلك ، لأن الله وحده ملك السموات والأرضين
وملك كل شيء ، وهم خامساً لا ينفعون ولا يضرّون ، ولا يقدمون ولا يؤخرون ،

البرهان

الثالث

الآيات في

إنكار

الشفاعة

لأن مرجع ذلك ومصيره إليه تعالى وحده . وقد ختم هذه الردود القوية البالغة المتنوعة بالانبياء عما جبلت عليه النفوس المشركة المعددة من انكار التوحيد والافراد والافتزاز من ذلك والنفور عنه ، ومن الرضا والولوع بالشرك والتعديدي . في الأرباب والمعبودات ، فقال في الآية : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » : فاذا قيل لهم : الله وحده كافٍ عبده وكافٍ جميع عباد ، فلا يرجع إلا إليه ، ولا يرغب إلا فيه ، ولا يؤمل سواء ، ولا يدعى إلا هو : الله وحده وكفى « أليس الله بكافٍ عبده » : إذا قيل لهم هذا أنكروا وأجفلوا وورمت أنوفهم ، واشمأزت نفوسهم ، لأنهم قد طبعوا على حب غيره تعالى ، وعلى العبودية للمخلوق . العاجز وعلى الرغبة فيه . أما إذا ذكر لهم أولئك الذين أشربت قلوبهم ونفوسهم حبهم ورجاءهم وخوفهم وتأميلهم من المخلوقين العاجزين الضعفاء ، قليل في قدرهم ، وامتداحهم : « تلك الغرائيق العلى ، وإن شفاعتهم لترتجى » ، تلك الأنبياء والأولياء ، إن لهم الشفاعات والمعجزات والكرامات والوسائل الضارة النافعة ، المقدمة المؤخرة ، وإن لهم ما يشاؤون من الشفاعات والكرامات والمعجزات التي ادخروها لمن دعواهم ولاذوابهم ووقفوا بأبوابهم وأعتابهم ورجعوا إليهم : أما إذا قيل لهم ذلك فأنهم يفرحون ويطربون ويستخفهم الفرح والطرب حتى يطيروا بأجنحة السرور والحبور في جواء الخيال ومموات الغبطة والرضا . . . وهذا إنباء عظيم عن جميع النفوس الدائنة لغير الله ربها ، الخاضعة للمخلوق وللعبيد الأرقاء الأذلاء ، فإن هذا هو دينها ودأبها في كل عصر ومصر : لا تختلف ولا تتغير . والله المستعان . والآية من أبلغ الردود على متخذي الشفعاء كما هو ظاهر من ألفاظها ومراميها

وقال تعالى : « الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة

أيام ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولا شفيع ، أفلا تتذكرون »
 وقال : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى
 ولا شفيع ، لهمم يتقون » وفى هاتين الآيتين الكريمتين نفى الله الأولياء والشفعاء
 . نفياً عاماً باتماً للاستثناء فيه ولا تخصيص ، وحدث فيهما تحديداً واضحاً لاختفاء فيه
 ولا لبس بأنه ليس لهم من دون الله ربهم ولى ينفعهم أو يضرهم أو يقدم لهم
 خيراً ، ولا شفيع يشفع لهم فيدفع عنهم بشفاعته ضراً أو مكروهاً أو بلاء . فليس
 بينهم وبينه تعالى سوى عدله ورحمته وقضائه المحتوم . . . فاعمالهم هى شفعاؤهم ،
 ثم على عدله ورحمته يكون الجزاء والثواب ، ولا يحسب حاسب أن قوله : « مالكم
 من دونه من ولى ولا شفيع » وقوله « ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع » يدل على
 انكار ذلك إذا كان من دون الله ، أما إذا كان إليه ولديه فلا انكار ولا نكران :
 لا يحسب هذا الخاطر حاسب ، وذلك أن كلمة « من دونه » أو « من دون الله »
 يراد بها غيره تعالى . وهذا أسلوب للقرآن معروف كقوله « ولا تدع من دون
 الله مالا ينفعك ولا يضرك » وقوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من
 لا يستجيب له إلى يوم القيامة » ، وقوله : « قل أئندعو من دون الله مالا ينفعنا
 ولا يضرنا ونزد على أعقابنا » وقوله : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون
 من دونه الباطل » وقوله : « وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » وقوله :
 « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كياسط
 كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو بباله » ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » ،
 وقوله تعالى : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء
 شفعاؤنا عند الله » إلى غير ذلك من الآيات المعلومة الكثيرة . فإن المراد هنا
 بـ « دونه » و « دون الله » غيره وغير الله بلا ريب ، فقوله : « مالكم من
 دونه من ولى ولا شفيع » معناه مالكم غيره تعالى ولى وشفيع . وقد علم عن

سؤال وجوابه

المشركين أنهم كانوا يتخذون الشفعاء ليشفعوا لهم عند الله كما قال تعالى :
 « ويعبدون من دون الله » الآية المتقدمة وكما ذكر في آية التقريب إليه تعالى زلنى
 وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم
 لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » وقال : « واتقوا يوماً
 لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم
 لا يجدى عند ينصرون » . وفى هاتين الآيتين أيضاً لى الله تعالى الشفاعة نفيًا عامًا تاماً .
 وفى أن تنفع نفساً من النفوس شفاعة من الشفاعات فى ذلك اليوم الذى هو يوم
 القيامة ويوم الفصل ، يوم الدين ، يوم الثواب والعقاب بعد الحساب والبلاء ، كما
 نفى الخلة أيضاً ، وهى الصداقة والمحبة ، وفى سورة إبراهيم « من قبل أن يأتى يوم
 لا بيع فيه ولا خلة » و « خلال » جمع خلة وهى الصداقة والولاية كما ذكرنا .
 والمراد أنه لا تنفع فى ذلك اليوم شفاعات ولا صداقات ولا محاللات ولا شئ من
 هذا النوع المهود نفعه عند أهل الدنيا الظالمين وعند حكامهم وقضاةهم
 وحكوماتهم . بل يذهب كل شئ من هذا ويتلاشى وينتظير أمام حكم أحكم
 الحاكمين ، وعدل أعدل العادلين ، وعلم أعلم العالمين . . . فلا ينفع أو يبقى ثم
 إلا الأعمال الصالحة والطاعات البارة . أما ما سوى ذلك من أنواع الرجاءات
 والوساطات فلا يجدى لدى القاضى العادل والحكم المنصف ، بل لا يمكن التقدم
 إليه بشئ منه وإلا كان قدساً وطنناً فى حكمه وعدله وقضائه . أما الشفاعة
 الصحيحة الثابتة فلا يعترض بها على هذا الذى ذكرناه لما سوف نذكره من
 الجواب والبيان من بعد .

وهذه الآيات تشبه قوله تعالى فى سورة « المؤمنون » فاذا نفخ فى الصور
 فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ،
 ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون »

وقال تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » فأبطل تعالى في هاتين الآيتين زعم المشركين أن لهم شفعاء يشفعون لهم ، وأنهم إذ يستشفعون بهم ينفعونهم بشفاعتهم ووساطتهم وقر بهم من الله أبلغ إبطال ، ففي الآية الأولى صور حالهم وما سيكونون عليه إذ قدموا على الله مولاهم الحق بأمثال الجبال من الذنوب والآثام والخطايا ومعهم أعظم منها من الآمال بالشفعاء والوسطاء الذين حسبوا أنهم سيدفون عنهم كل ما يخافون ، وسيشفعون لهم في غفران جميع ذنوبهم وآثامهم وماركبوهم في حياتهم من المخالفات والمعاصي : قدموا على الله مولاهم الحق بهذه الأعمال والآمال ، وكانوا أحوج ما يكونون إلى الشفاعة والوساطة ، ففوجئوا بأن نظروا حولهم فما وجدوا غير أنفسهم وغير آثامهم ، وقد أتوا ربهم ، كما خلقهم فرادى مجردين من كل سلطان وسلطة ، ومن كل شفيع ووسيط ، وتلفنوا فلم يبصروا حمياً أو نصيراً ، وتسمعوا فلم يسمعوا غير الحق يناديهم « وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء » ولكم شفعاء ووسطاء ، لقد كذب ما كنتم ترجون وتظنون ، فضلت عنكم الشفعاء المأمولون ، بل لنند أنكرهم وطردهم وتبرأوا منكم فتقطعت بكم الأسباب ، وخانتكم الآمال ، وتلاشى ما كنتم تزعمون بينكم وبينهم من المناصرة والمعاونة في تلك الساعات الرهيبة العصيبة ، وأخطأ ما كنتم تتخيلون . فكانت مفاجأة هي أروع المفاجآت ، ومقاماً هو أخذل المنامات .

فأين الشفعاء منكم في هذه الآونة ؟ وما الشفعاء إذا لم يمدوا أيدي النصرة والمداونة والاقاذا في آونة الحرج والضيق ، وأى شفعاء هؤلاء الذين لا يراهم الله ؟؟

آمال المشرك
الخائبة

كلا ، لاشفعاء ولا نصراء ولا شئ غير الله وغير عدله وقضائهم وحكته ، وغير عمل المرء وما قدمت يده من صالح وطالح . ذلك هو ما يبق وما يرى في ساعات القضاء . وفي يوم الفصل وكل ماسواه زور وغرور ، والله العليم بمصائر الأمور .

وفي الآية الثانية أعدل أيضا شفعاءهم أباغ إبطال فقال : إن هؤلاء الضلال

المشركين قد عمدوا إلى عبادة من لا يضرهم ولا ينفعونهم ، فرجواهم وخافوهم

وضرعوا وانقطعوا إليهم ، وبسطوا لهم أكف الرجاء والدعاء والأمل الخائب

الكاذب قائلين : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، لمكانتهم منه . وكاننا منهم رجائنا

إياهم وانقطعنا إليهم واتساع آمالنا فيهم . فهم النصراء لنا يوم يعز النصير ، وهم

الشفعاء المشفعون فينا يوم يطلب الشفيع ، وإنهم الآخذون بأيدينا ، المقتحمون .

بنا العقبات الكأداء ، المحجزونا كل سبيل عسراء ... وذلك لقوة أسبابنا بهم ،

وقوة أسبابهم هم بالله الذي إليه يرجع كل شئ . . . هذا هو ظنهم وزعمهم ،

فأ كذب الله هذا الظن وذاك الزعم أعظم إكذاب وأوضحه بأن قال لهم أين

هؤلاء الشفعاء الذين تزعمون وتؤمنون ؟ أروني إياهم فاني لأرى منهم أحدا ولا

أسمع لهم ركزا ، أين يقولون أفى السماء أم فى الأرض ؟ كلا لا أراهم ولا أسمعهم

لأفى السموات ولأفى الأرضين ، أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض

سبحانه وتعالى عما يشركون ويؤمنون ويدعون اكلا إنه لاشفيع لكم ولا شئ

ينقذك غير أعمالكم ، إذ لو كان لكم شفعاء حقا ، كما تزعمون ، لعلمهم الله فى الأرض

أو فى السماء لأن الله لا يخفى عليه شئ فى ما كنهه .

هذه ضروب بالغة قوية من إنكار القرآن التام لشفاعة المشركين وشفعاتهم

وضروب بالغة قوية من تنديد القرآن بمن اتخذوا إلى الله شفعاء ، ومن نعيه على من

أملوا الشفاعات ورجوا خلاصهم بها و بالشافعين . وقد أجمل القرآن ، كما يرى

إنكار ذلك ونهي عنه ونعيه على من عملوا له ورغبوا فيه ، فما استثنى نوعا من

ظن المشرك
الكاذب

أنواع ، ولا أخرج قسما من أقسام ، ولا شفاعا من شفاعات ، بل عمد إلى النهي العام التام ، وإلى الإبطال الشامل الكامل . .

هذا مادل عليه القرآن وما ذهب إليه مع أننا لا نشك ولا يشك العارفون بالبصراء بأن طوائف من المشركين كانوا يستشفعون بالأنبياء والصالحين ، وكانوا يرغبون في شفاعتهم ، وكانوا يطلبونهم ذلك كما يفعل هذا طوائف من المنقطعين إلى الأموات وإلى قبورهم اللاهجين بشفاعتهم . . . فلا يرتاب عليهم في أن أقواما من المشركين الذين أنكر الله استشفاعتهم وشفاعتهم كانوا يطلبون الشفاعا من عباد الله الصالحين كالأنبياء والمرسائين ، كما يطلبها اليوم جماعات الضارعين إلى القبور : هذا مالا يسمو إليه الريب ، ومعه أنكر الله في آيات واضحة بينة على المشركين ، وعلى العرب ، أنواع شفاعاتهم وضروب استشفاعتهم وأقام عليهم الحرب الشعواء إذ استمسكوا بذلك وأبوا أن يدعوه ، وكان هذا دالا بجمليته وتفصيله على بطلان الاستشفاع بالموتى والرغبة فيهم رجاء شفاعتهم ووساطتهم .

ويمكن سياق هذه الحجة بمباراة أخرى كان يقال مثلا : لا ريب أن هذه دلالة الآيات الآيات تحرم نوعاً من أنواع الاستشفاعات ؛ وتنكر نوعاً من أنواع الشفعاء تحريماً على ما ذكرنا وإنكاراً صارحاً صريحاً ، ولا ريب أن هذين النوعين : المحرم والمنكر لا بد أن يتحققا في الخارج ، ولا بد أن يكونا موجودين في طوائف المشركين والضلال حين نزول القرآن وشرائع الإسلام . وحينئذ نقول لا يمكن أن يكون هذا الاستشفاع المحرم ، وهؤلاء الشفعاء المنكرون هو الاستشفاع بالأحياء القادرين على الشفاعا ، وهم الشفعاء القادرين على أن يشفعوا ، لأن ذلك ليس محرماً في الإسلام ولا في غيره من الأديان ، فلا خلاف بين أهل الأديان كلها في جواز هذا النوع من العبادة والوساطة . ولا يمكن أيضاً أن يقال : إن هذا الاستشفاع المحرم هو الاستشفاع بالجماد المجرد من الأحجار والأشجار ، وذلك لما قدمنا من أنه من

الباطل المحال أن يفزع المشركون إلى جمادات وأحجار وأشجار مجردة من المعاني الروحية ، والانتسابات الخاصة إلى العباد الروحانيين من الأنبياء والأولياء ، لتشفع لهم ولتقر بهم إلى الله زلفى وقربى . ولا يمكن أن يؤمل المشركون في الجهاد شفاعته ولا خيرا ولا قربا ولا تقريبا إلى الله . فان بطلان هذا لا يخفى على أحد ولا يختلف الناس في امتناعه ، لا المشركون ولا غيرهم . وإنما كان فزع المشركين واستشفاعهم بالعباد الصالحين الممتازين طمعا ورغبا في تقريرهم وهم إذ ارجعوا إلى جناد من شجر وحجر ووقفوا حوله مستشفعين وداعين كانوا ، بلاريب ، يقصدون من وراء ذلك أولئك الأنبياء والأولياء الذين زعم لهم الانتساب إلى ذلك الجهاد المقصود ، كما يفعل أرباب القبور الضلال من المسلمين لدى عمود البدوى في جامع الحسين ، وباب المنولى في القاهرة ، وغيرهما ، وكنقعات الأربعينات الذين زعم لكل واحد منهم أربعون جسما ، وزعم لكل جسم من هذه الأجسام الأربعين ضريح خاص به ، تطلب الشفاعات ، وتنثر الشكايات والدعوات لديه ، وكما يفعل هؤلاء الضلال لدى سائر المقامات والبنيات المشيدة التي قد تكون مزورة مكنوبة . فان هؤلاء لم يروا ذلك الولي ولا ذاك الشيخ المزهومين ولم يجدوا أثرا من آثارهما ولا علما من أعلام وجودهما ولايتهما وكرامتهما وشفاعتهما ، وإنما رأوا الزخارف القائمة من القباب والسرر والتمارق والشبابيك المذهبة المزخرفة المفضضة ، فخالوا وتخيلوا ، وغلنوا فضلوا ، وحسبوا تحت القبة شيخا ولدى الشيخ ضرا ونفعا وتقدما وتأخيرا وشفاعة ووساطة . وقد تكون الحقيقة الصحيحة الصاعدة ألا شيخ ولا إنسان ولا شيء هنالك كما ذكرنا سابقا . فهذا التأويل لا يصح أن يكون تأويلا للاستشفاع المنكر المبطل في الكتاب العزيز . ولا يمكن أيضا أن يقال إن هذا الاستشفاع المنكر على المشركين هو تقرير ذلك الاستشفاع المقرون باعتقاد صاحبه بأن ذلك المستشفع به المرجو للشفاعة قديم

منع الله مساوئه في القدرة والسلطان ، وذلك لأن المشركين كانوا مقرين بأن الله وحده هو خالق الخلق وخالق العالم وخالق أصنامهم وشفعائهم وما يعبدون ويدعون من دون الله . وقد قدمنا الدلائل على هذا من الكتاب ومن السنة ومن الضرورة ، ومن كلام المشركين أنفسهم .

ولا يمكن أيضا أن يحمل هذا الاستشفاع المنكر على الاستشفاع الذي يعتقد صاحبه أن من استشفع به يشفع بدون إذن الله وبدون رضاه ، بل يشفع قهرا وقسرا . لأن المشركين كما تقدم ، كانوا مقرين بخضوع أصنامهم وخضوع كل شيء لله ، لا ينازعون في هذا ولا يماحلون . ولهذا يتخذون أصنامهم شفعا لديه تعالى ، ويقولون إنها تقر بنا إلى الله زلفى ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ولا ريب أنه لا بد أن يكون الشافع والمشفوع له خاضعين دائنين لسلطانه وقهره ، لأنهم لو كانوا يعتقدون أن الأصنام مستقلة عن الله قادرة على منح الخير والفلاح والسعادة من دون الله ، وبدون إذنه ورضاه ، لما احتاجوا إلى جعلهم شفعا لديه سبحانه بل كان يقتضيه هذا الاعتقاد - لو كان - أن يرغبوا عن الله وأن يستغنوا بهم عنه ، فلا يقولوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ولا مانعهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى . لأنهم مستقلون في قدرتهم وإرادتهم وأعمالهم . فيجب على هذا أن تكون الرغبة فيهم خالصة من أن تمزج بالرغبة في غيرهم ، لا في الله ولا في غير الله . ولكن كلا ، فإن المشركين ما اتخذوا الأصنام والأوثان والمعبودات الأخرى من دون الله إلا رجاء أن تدنيهم منه تعالى وتقربهم إليه . فهذه الاحتمالات في تأويل الاستشفاع المبطل المنكر كلها احتمالات باطلة ، فلم يبق إلا أن يقال إنه هو الاستشفاع بالصالحين الزاهبين وبصورهم وتمثيلهم وأجدانهم ومخلفاتهم وآثارهم كما فعل هؤلاء الحميري من المسلمين حنو القذة بالقذة وحذو النمل بالنمل ، لا فرق ولا شك .

البرهان الرابع : - أى رابع البراهين على بطلان الاستشفاع بالموتى - أن تجويز ذلك وفعله يلزمه أنواع كثيرة من أنواع المحرمات المحظورة فى الدين وفى العقول فان الميت إذا استشفع به وقصد للشفاعة فلا بد أن يعكف على قبره وأن يطاف به ، وأن يستلم ويقصد ، ويحج من كل مكان ، ومن كل فج وأفق بعيد ، وأن يزان قبره ويسرف فى زيلته وبنائه ، فيسرج ويعطر ويكسى وتعلق به أنواع المعلقات النفسية ، وتقام عليه القباب الشاخنة ، وتقدم إليه النذور والقرايين مع الضحايا والهدايا ، وتراق حوله الدماء مع الدروع ، وتشتمل على تقديسه والرهبة منه والرغبة فيه حنايا الصلوع : هذا كله يلزم جواز الاستشفاع بالميت وإتيانه لذلك ، كما يلزمه بلا شك - كما حصل ووقع وشهد أن يدعى استقلالاً ، وأن يطلب منه ما لا يستطيعه إلا الله كهداية القلوب ، وغفران الذنوب ، وشفاء المرضى وغير ذلك من المطالب العالية التى توجه بها عباد القبور إلى الموتى فى كل بلد إلا ما شاء الله .

هذا كله بلاريب يلزم جواز الاستشفاع بالميت ، والدليل على هذا التلازم الواقع والمادة والتحريرات النفسية الصائبة . وهذه الأمور اللازمة كلها أمور محرمة باطلة قد نهى عنها الاسلام نهياً صريحاً صارماً كما سبقت الدلائل وكما سوف يجيئ المزيد لها . ولا شك أن الأمر الذى يقارن هذه المنكرات ويلازمها أمر منكر باطل يجب هجرانه والازورار عنه وعن أسبابه ووسائله ، لأن وسائل المنكر منكراً كالمنكر نفسه ، ولأن ماوقع فى عصيان الله وفى الجهالة والضلالة هو عصيان وجهالة وضلال يجب اطراحه والفرار منه . وقد بالغ الدين فى تحريم وسائل الشر ، وبالغ فى النهى والتباعد عنها . وهذا معلوم لأهل العلم لا يختلفون فيه . ومن أبلغ حافى الباب وأدخله فى بحثنا هذا أن الاسلام قد نهى عن زيارة القبور فى أول عهده حينما كانت النفوس حديثة العهد بالشرك وعبادة الخلق خيفة أن يلبعث فيها

شئ من مخلفات الشرك وبقايا الكامنة في أركانها ، وحرمة الصلاة وقت شروق الشمس ووقت غروبها ووقت استوائها ، خيفة أن يخال أن تلك الصلاة للشمس أو أن للشمس فيها نصيبا ، كما حرم البناء على القبور وإسراجها ، وجعلها أعيادا خيفة أن يجر هذا كله إلى الغلو والباطل والضلال . ومن أبلغ ذلك قطع عمر بن الخطاب شجرة الرضوان لما رأى أناسا يقصدونها ، ونهيه رضى الله عنه عن قصد الصلاة والعبادة في المواضع التي تعبد فيها النبي عليه السلام ، وقوله رضى الله عنه عند النهي عن ذلك « إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم آثار أنبيائهم » . وهذا شئ يطول شرحه .

فلاستشفاع بالموتى يجر بلا ريب إلى الانحدار في هذه الباطلات ، والباطل وسائل يجب قطعه واستئصاله من أصوله وجنوره العريضة لئلا ينمو ويتركو يوما ، بل ليهلك الباطل باطلا ويتلاشى . ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا أن أول هذه البلايا التي أصيب بها الاسلام والمسلمون من الخرافات المعجبية ، كالاستنجاد بالموتى ، وسؤالهم ما لا يقدر على مثله إلا الله ، هو الاستشفاع بالميت واقتناع الأتباع الجاهلة بأن ذلك ممكن وحسن ومفيد ومطلوب ، فان إنسانا يقف بين يدي ضريح مغلق غاية فضله ومجده أن يحوى جنة صالح من عباد الله الصالحين الميتين ، فيمد يديه إلى ذلك الضريح مستشفعا ، راغبا راغبا ، مؤملا الشفاعة والخير ، زاعما أن ذلك الساكن الراقد في ذاك الضريح قادر على نفعه بالشفاعة ، وعلى ضرره بتركها ، وزاعما أنه يسمع استشفاعه ودعائه ، ويرى حاله وذله ورجاءه : إن إنسانا يفعل ذلك ويعتقده لجدير بأن يضل ويهلك ، وجدير بأن تمتلئ نفسه بالجهالات والباطلات ، وأن تنفرع جرائم الشرك في جنبات نفسه وقلبه وعقله ، وأن تنمو وتركو فيصبح من الهالكين . ولا ريب أن إنسانا يعتقد أن ميتا من الأموات يستطيع أن يسمع شفاعته إذا استشفع به ، وأن يعلم حاله وذله إذا انقطع إليه وذل بين يديه ، وأنه يستطيع أن

يتصل بالله إذا اتصل هو به ، ليقوم له مقام الشفيح الوسيط : أقول إن إنسانا تسول له نفسه وعقله أن يعتقد هذه العقيدة في إنسان هالك لا بد أن يعتقد فيه أكثر من ذلك وأعظم ، ولا بد أن ينساق إلى الهاوية ، وأن يتدحرج في الضلال الاعتقادي شيئا فشيئا ، ويندلى ، أو يترقى ، حتى يقع في تأليه ذلك الهالك وعبادته الصريحة ، وحتى يهبه سلطان الله وحقه وأوصافه الحميدة الحسنى . . فان الإنسان خلق رخواً ضعيفاً ، بل ذائباً ، إزاء المؤثرات الاعتقادية ، لا يستطيع أن يقف في سبيل تيارها العنيف سليماً صحيحاً معافى ، بل لا بد أن يضعف وأن ينوب فيتلاشى . ومن هذا الوجه نرى بطلان أن يسأل الله بجاه أحد من خلقه ، كأن يقال أسألك يا الله بجاه فلان أو بجاه فلانة . وذلك أن إدخال اسم فلان أو فلانة في دعاء الله وسؤاله مقدمة لأمر أخرى من أمور الضلال وسوء العقبي ، فان الداعي ربما أدخل في دعائه أولاً بجاه فلان ولم يزد ولم يجوز أن يزد ، ولكن ربما انتقل خطوة أخرى أوسع وأجراً ، فسأل الله بفلان وألغى بجاهه ثم لم يزد ولم يجوز أن يزد ، ولكن ربما انتقل خطوة ثالثة ، فراح يطلب من ذلك « الفلان » أن يشفع له وأن يدعو ثم لم يزد ولم يجوز أن يزد . ولكن ربما انتقل إلى الخطوة الأخيرة فارتطم في الهاوية فراح يدعو ذلك « الفلان » ويرفع اليه حاجاته ومطالبه ومآربه ملفياً اسم الله من البين ، ملفياً تلك الوساطات . فصار من المشركين العاديين عن الخالق إلى المخلوق . ومن أضل ممن فعل ذلك .

.. وهذه سلسلة مرتبطة آخرها بأولها ، يقل أن يأخذ آخذ بالأول منها إلا وأخذ بالآخر مرغماً أو مختاراً ، والله العليم بذات الصدور وبما جبل عليه الإنسان من الضعف والجهل . فلا تستشفع بالأَمْوات يجر إلى هذه الباطلات ، والباطل يجب أن يؤخذ من أصوله وفروعه فيرمى ، والباطل محرم بوسائله وظاياته :

وهذا يكفى الحازم البصير برهانا على بطلان هذا الاستشفاع الذى يدعو إليه الجاهلون . . .

خامساً : قد نص كتاب الله فى غير ما آية على أنه لا يشفع شافع بين يدي
 البرهان الله لأحد ما إلا بأذنه ورضاه ، فلا يتقدم إليه تعالى نبي ولا ولى بشفاعة لانسان
 الخامس حتى يأذن له بالشفاعة بأن يقول له اشفع لعمدى فلان فقد رضيت ورضيت بأن
 تشفع له ، فيتقدم الشفيع ساعته ويشفع . وشواهد هذا من القرآن ومن السنة
 غنية عن إيرادها لشهرتها وكثرتها . ولهذا فان الشفاعة فى الواقع لله ، لأنه هو
 الذى رضى المشفوع له وأراد رحمته بشفاعة الشافع لصلاحه وطاعته ، وهو الذى
 أمر الشفيع بأن يشفع ، وهو الذى بعد ذلك قبل شفاعته وشفعه . . . فالشفاعة
 كلها لله ومن الله وإليه ترجع ، كما قال تعالى « قل لله الشفاعة جميعاً » . فمقام
 الشافع لم يزد عن أن يكون مقام تكريم وعناية ، وإلا فانه لم يقدم ولم يؤخر ولم
 يصنع شيئاً . فالشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند الخلق ، فان الشافع عند
 المخلوقين يشفع بنصير إذن المشفوع لديه وبدون رضاه ، بل قد يرغمه على ذلك
 ويرغمه على قبول الشفاعة وعلى التشفيع فيمن يكره ويمقت ، والمشفوع عنده
 من المخلوقين يفعل ويترك لأجل الشفاعة والشافع ، فيترك ما يريد ويجانب
 ما يهوى ويرضى إجابة للشفاعة والشافع . ولهذا كثيراً ما يجور ويظلم من كثرت
 لديهم الشفعاء والشفاعات ، ولهذا أيضاً حرمت الشفاعة فى القضاء والحكومة
 والفصل بين الناس ، لأنها توقع فى الجور والظلم ، بل الشافع يطلب
 ما يطلب على أنه ظلم وانتقاص لحقوق الآخرين . ولهذا فان البيئة التى تنشوفها
 لا تنشو الشفاعات والرجاءات والوساطات بيئة موبوءة آثمة مجرمة غير محترمة وغير مرضى
 الوساطة فى عنها ، بل هى بيئة مملوئة ممقوتة فى الأرض وفى السماء ، لا يرضها إلا من أعطوا
 بيئة صالحة ما ليس لهم بشفاعات الشافعين الظالمين ، على أن هؤلاء أنفسهم لا يرضون هذه

البيئة في دخائل أنفسهم . أما الشفاعة عند الحق سبحانه فليس فيها شيء من ذلك البتة ، وإنما هي تكريم وإظهار لشرف بعض خلقه ، فهي على هذا صورية لاحقيقية ، فإن حقيقتها أن الله أراد بأحد عباده خيراً فأجراه في الظاهر فقط بعد الشفاعة ومن طريقها والله هو موصل ذلك الخير لا ذلك العبد بشفاعة ولا بغير شفاعة . وقريب من هذا ، والله المثل الأعلى ، أن تريد أن تهيب إنساناً شيئاً ، لأنك تريد إيصال ذلك الموهوب إلى ذاك الإنسان الموهوب له على كل حال ، وتريد مع هذا أن تظهر كرامة بعض أصدقائك أو أقاربك عليك ، فتشير عليه ، أو تأمره ، بأن يشفع لديك بإيصال تلك الهبة المفروضة إلى ذاك الموهوب له المفروض أيضاً ، فيشفع ذاك الصديق لديك فتجرب ما أردت إجراؤه على يديه وشفاعته في الظاهر ، فتكون حينئذ قد عملت الخير الذي أردت عمله وأظهرت في عملك هذا كرامة الشفيع عليك ، وهو في الواقع لا دخل له البتة ولا فضل فيما عملت وأجريت ، والفضل لك وحدك أولاً وآخراً ، فكذلك ، والله المثل الأعلى ، يقال في شفاعة الشافعين عند الله .

إذا علم هذا قيل لهؤلاء المخالفين : إذا كان الشافع لا يشفع عند الله حتى يأمره تعالى ويأذن له ويقول له اشفع تشفع وسل تعط ، وكان الشافع لا يمكن أن يتأخر عن الشفاعة فيمن قيل له اشفع فيه ، وكان الله مالك الشفاعة ، ومالك كل شيء ، لا يرضى عن الشفاعة في أحد من عباده إلا في الصالحين الأتقياء ، الراضين المرضيين ، وكان تعالى سوف يأمر ، ولا بد ، تفضلاً منه وجوداً بأن يشفع في عباده الصالحين المخلصين الأبرار ، وبأن تنالهم ، ولا شك ، شفاعة الشافعين كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » . وفي الصحيح عن أبي هريرة أيضاً قال قال رسول الله : « لكل

نبى دعوة مستجابة ، وانى اختبأت دعوتى شفاعا لأمتى يوم القيامة . فهى نائلة
إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا ، والأخبار الصحاح فى
هذا المعنى كثيرة معلومة .

إذا كان ما ذكر كله صحيحاً ، وهو صحيح بلا ريب ، فلامعنى لطلب الشفاعا
من المخلوقين ، ولا معنى للاستشفاع بالأنبياء والأولياء من الأموات ليشفئوا
عند الله ، وذلك أن طلبك الشفاعا لا يجعلك أهلاً لها ولا مأذوناً لك بها إن لم
تكن بأعمالك الصالحة من أهلها ، وتركك طلبها لا يجعلك محروماً منها إن كنت
من أهلها . فالاستشفاع ، إذن ، بالأموات رجاء شفاعتهم جهل وعبث وسفه . وهذا
لا يجدر بالعاقل أن يقدم عليه ، وهذا كله لا يمكن أن يشرعه الله لعباده فى دينه .

ومن أعجب ذلك وأقطع ما ذكره الامام مسلم فى الصحيح فى باب الايمان من أحاديث
من أحاديث الشفاعا ، فقد روى فى حديث الشفاعا الطويل الذى حدث به الشفاعا
أنس بن مالك عن رسول الله أنه قال فى آخر الحديث : « فأخر ساجداً فيقال لى :
يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول يا رب
اثنى لى فيمن قال : لا إله إلا الله ، قال ليس ذلك إليك ، أو ليس ذلك لك ،
ولكن عزى وكبر يأتى وعظمتى وجبر يأتى لا تخرجن من النار من قال : لا إله
إلا الله » . فأنتم لو استشفعت الليل والنهار بأقرب عباد الله إلى الله لما شفع
لك ، ولما نفعتك شفاعته لو شفع إلا أن يشاء الله ويأذن ويرضى . ولو أنه تعالى
أراد لك شفاعا وراك أهلاً لها ورضى أن يشفع لك أكرم خلقه عليه لشفع لك
ولنالتك شفاعته ونفعتك وإن أنت لم تستشفع بأحد من الخلق ، بل وإن لم يخطر
ذلك على بالك . فاستشفاعتك لا ينفعك وتركك ذلك لا يضرک ولا يمنع ما شاءه
الله لك . وقد أعظم الله اللائمة على من يتعلقون بمن لا ينفعونهم ولا يضررونهم
ولا يستجيبون لهم فقال : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرک ، فان

فعلت فانك إذن من الظالمين » وقال . « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . . » فالذين يستشفعون بالموتى هم من الضالين الظالمين ، وهم من المابئين الجاهلين المتعلقين بما لا ينفعهم ولا يضرهم .

البرهان السادس : لا ريب أن الاستشفاع بالموتى من الأمور المجددة في الاسلام الغريبة فيه ، المحمولة عليه حملا لا شبهة فيه ، ومن الأشياء المخالفة للاجماع الصامت التركي ، المخالفة لما لقنه الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه ولما لقنه أصحابه من بعدهم من المسلمين . . .

السنة في زيارة المقابر ولقد علم المسلمون من دينهم ومن سنة نبيهم أنه لم يشرع لأحد منهم أن يذهب إلى ميت من الأموات ، لامن الأنبياء ولا ممن دون الأنبياء ، ليسأله الشفاعة والوساطة ، وليدعو الله له في جلب الخير ودفع الضر . وقد علم المسلمون سنة الاسلام التي جاء بها محمد عليه السلام في زيارة القبور ، وفي ما يقال عند زيارتها من الأدعية والأقوال ، وعلموا ما كان رسول الله وأصحابه يقولونه ويفعلونه حين الزيارة ، زيارة الصالحين والخيار من عباد الله ، وقد نقلت هذه السنة بالتواتر والاجماع الذي لا ينزع ولا يخالف ، وحفظت الالفاظ التي كان رسول الله يقولها عند الزيارة والتي علم أصحابه أن يقولوها عند زيارتهم . وقد غربت أسانيد ذلك كله ومحضت وامتحنحت أعظم امتحان وخبرت أفضل اختبار حتى علم الصحيح الثابت من المكشوب الخلق ، وحتى عرف ذلك كله كل من أراد معرفته من الخاصة والعامة . وقد علم أهل البصر بالاسلام والفحول من صياقة الرواية والمدراية وحلم المخالف والموافق أنه لم يكن مما علمه المسلمون من سنة نبيهم ومن كتاب ربهم وشريعتهم أن يستشفع بالموتى عند زيارتهم أو أن يزاروا لأجل ذلك ، لأجل طلب الشفاعة والوساطة وطلب الدعاء منهم . وقد علم هؤلاء جميعاً أنه لم يفعل ذلك

أجد من المسلمين في صدر الاسلام، لارسل الله ولا أبوبكر ولا عمر ولا أحد من الصحابة ولا من التابعين ولا من تبعهم بإحسان وإيمان . وعلم هؤلاء كافة ما كان يقوله رسول الله ومحبته حين يزورون وأنه لم يكن سوى الدعاء للأموات والسلام عليهم ، وسوى دعاء الزائر لنفسه أيضاً . وما جاء في حديث لا يصحح ولا ضعيف أن رسول الله استشفع بميت من الأموات ، لا من أصحابه ولا من غيرهم من الأنبياء والصالحين الأولين ، ولا أنه علم أحدا من أصحابه أن يفعل ذلك ، ولا جاء أن أحدا منهم صنع شيئا منه أو أرشد إليه أو دل عليه أو ذكر له فضلا ومثوبة وجزاء . . . ولو أنك رجعت إلى كل كتاب على وجه الأرض اليوم مما خلفه السلف الصالح وجهاً بوجه الرواة ونقطة الأخبار ، ثم بذلت غاية جهدك وأقصى طاقتك كي تظفر بحديث واحد يعا به يذكر أن رسول الله، أو أن أحدا من محبته أو أحدا من شيوخ الشريعة وأعضاء الملة أمر بالاستشفاع بالموتى وطلب الدعاء والوساطة منهم - : لأعيالك الطلب ولما حصلت على غير الخيبة والاعياء .

وقد حفظ المسلمون سنة نبيهم الدقيق منها والجليل ، وحافظوا على حفظها والعلم والعمل بها وعلى نقلها والتحديث بها بأمانة فادرة واتقان منقطع النظير ، وحملوها الأبناء والأحفاد كما حملوها هم بأمانة واتقان أيضاً؛ وهكذا كان المسلمون معنيين بدينهم وبسنة رسولهم ، نضر الله وجوههم ، حتى شادوا منها هذه الاسفار الضخيمة التي تتألف منها جبال ضخمة لو جمع بعضها إلى بعض . وقد عنوا بنقل الصحيح والضعيف من ذلك ، بل وبنقل الموضوع المكنوب ، الأول نقلوه للعمل به والاحتجاج ، والثاني التحذير منه والحدار من الوقوع فيه . وقد قسموا هذا كله أقساماً مرتبة ، ونظاموه تنظيماً تعجز جودته الوصف والاطراء والمدح حتى أصبح من السهل اليسير على الأغبياء والجهلاء أن يعلموا صحيح السنة من ضميمها من مكنوبها بأيسر حيلة وأقرب وسيلة . وقد بالغ علماء الحديث وفرسان

الحديث
والمحدثون

الرواية في تفصيل ذلك وتميز أنواعه وأقسامه حتى وضعوا أسفاراً خاصة بالصحيح المجمع على قبوله والاحتجاج به على شرائع الدين ، غنية عن وضعها على خشبة النقد والامتحان والتجريح والتعديل ، كما وضع آخرون من هؤلاء الجهابذة أسفاراً أخرى خاصة بالموضوع المكذوب المجمع على رده وإنكاره وبطلانه بين صاغة الرواية وأعلام الحديث ، كما وضعوا كتباً خاصة بالنقات من الرواة وكتباً أخرى خاصة بالضعفاء المجروحين ، وكتباً جامعة النوعين . وقد صيغت هذه الكتب كلها بأيدي ماهرة وعقول صحيحة بارعة منظمة ، حافظ عليها الدين من أن تميل مع الهوى ، وحجزها التقى وخوف الله من أن تدين للنش والتضليل والكنب . هذا كله بمضى ما قام به المحدثون لحفظ الحديث وإبلاغه القرون الآتية . ولكننا مع ما ذكرناه كله لانجد لما يذكره المخالف من الاستشفاع بالموتى دليلاً واحداً .

لو قلنا لو أننا قلنا هذه المدونات الإسلامية كلها ورقة ورقة وسطراً سطرًا ثم حرفاً لحرفاً لكتب كلها حرفاً على أن نجد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يأمر أصحابه بأن يزوروا القبور ويطلبوا من أصحابها الدعاء والشفاعة لما وجدنا شيئاً من ذلك ، ثم لو قلنا هذه المدونات كلها هكذا مرات ومرات على أن نجد أن أصحاب النبي عليه السلام كانوا يفعلون ذلك حين الزيارة ، زيارة قبر النبي وقبور غيره من الأنبياء والصالحين لما وجدنا أيضاً رسيماً من هذا النوع . بل لقد علم من سيرة الصحابة والمسلمين والبصراء بالاسلام أنهم كانوا ينكرون ذلك ويأبونه أشد الإباء والانكار وقد كانوا بعد وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام يلجأون أحياناً إلى أن يطلبوا الدعاء من أفراد المسلمين من الصحابة والتابعين . ولم يفكروا في الرجوع إلى قبر الرسول لدعائه والاستشفاع به . وقد استسقى المسلمون في عهد الخليفة عمر بالعباس بن عبد المطلب وقال عمر حين الاستسقاء به « اللهم إنا كنا نتوسل إليك

بنبيينا فتسقيناه، وإنا نتوصل إليك بعم نبيينا فاستقنا . وهذا الاستسقاء بالعباس مع هذه العبارة التي قالها الفاروق يدل على أن الاستسقاء بالأَمْوات لا يمكن ولا يجوز ، وعلى أنهم يعرفون أنه لا يجوز بالاجماع ، وإلا لو كان جائزاً مشروعا لما عدلوا عن رسول الله إلى غيره يقيناً لا شك فيه وقد استسقى معاوية ومن معه من المسلمين بأحد التابعين الصالحين ، ولم يرجعوا إلى النبي ولا إلى قبره . وقد علم بالتواتر والضرورة أن بعضهم كان يطلب من بعض الشفاعة والدعاء الذي هو الشفاعة التي هي خير شفاعة الآخرة ، وكانوا يحرصون على ذلك ويفعلونه ويقرونه . ولكنهم ما كانوا يذهبون إلى النبي عليه السلام إلا للسلام عليه وللزيارة المجردة من دعائه وطلب الشفاعة منه . ومن طاب له أن ينازع في شيء من هذه الحقائق الظاهرة السافرة فنحن نتحداه ونطلب إليه أن يرد شيئاً من الذي ذكرناه بالعلم لا يسبق الرسول وأصحابه والحجاج الصحيح . وإذا علم هذا كله قبل للمخالفين : إن شيئاً رغب عنه رسول الله ورغب عن الحث عليه ، ورغب عنه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة وخيار المسلمين لجدير بنا نحن أن نرغب عنه بأنفسنا وديننا ، وأن يرغب عنه كل مسلم يحب الله ورسوله ودينه ويحبل صحابة النبوة ، وإن شيئاً لم يفعله رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا غيرهم من الأصحاب لا يمكن أن نفعله نحن ما هتدينا ، ولا يمكن أن يفعله المسلم الصحيح الاسلام رجاء الثواب والأجر من الله . فان ثواباً لا يسبق إليه هؤلاء السابقون ولا يفتنون له لا نحب أن نسبق إليه نحن ولا أن نفتن له . فان أقصى ما يمكن أن نرجوه وأن نطلبه لأنفسنا هو أن نكون هؤلاء الخيار تبهماً وأن نحسن الاتباع والافتداء بهم ، لا أن نسبقهم ، ولا أن نجتمع ونعلم من الخير والفضل ما لم يجمعوا وما لم يملوا . والدين عندنا اتباع لا ابتداء ، واستئذان لا اختراع . ولا نتقدم نحن بين يدي الله ورسوله ، لأننا نعلم أنه لا خير في عمل لم يعمله الرسول وأصحابه

ولا نضل ، إن شاء الله ، فنزعم أنهم يتركون الخير والسبق إلى الصالحات ليسبقهم إليها هؤلاء الخلوفا المخالفون . ولكننا نسأل الله الهداية والتوفيق ، ونسأله أن يجنبنا الغواية والضلالة وصنوف الجهالة .

هذه ستة براهين ناصعة قاهرة على بطلان الاستشفاع بالموتى وطلب الدعاء والوسامة منهم . والبحث يتحمل أكثر من هذا ولكننا نوجز بإيجاز . وطالب الهدى يكفيه القليل ، والراغب في الضلال والنداد لا يكفيه قليل ولا كثير ولو جرى بكل آية وحجة لله . والله لا يهدي القوم الظالمين .

﴿ الكلام على حجج المخالف ﴾

﴿ في الاستشفاع بالأموات ﴾

بقي هنا الكلام على الشبه أو الحجج التي أوردها هذا المؤلف الشيعي في كتابه على جوار دعاء الموتى وطلب الشفاعة منهم . وهذه الشبه تتأخص فيما يأتي : أولاً — : إن الله قد أعطى عباده الصالحين الشفاعة ولا مانع من سؤالهم ما أعطوا .

ثانياً : — الشفاعة هي الدعاء ، والدعاء يجوز طلبه من الصالحين : الأحياء منهم والأموات ، ولا فرق .

ثالثاً : — قد ثبت في القرآن أن الملائكة يدعون ويستغفرون للمؤمنين والدعاء والاستغفار لا يخرجان عن معنى الشفاعة ، فهم يشفعون .

رابعاً : — قد صح أن الجناد يشفع كما صح عن علي أنه قال : أشهدوا هذا الحجر (يعني الحجر الأسود) خيراً فإنه يوم القيامة شافع مشفع ، له لسان وشفعتان يشهد لمن أسنده .

خامساً : — لا يمكن القول بأن الله أعطى عباده الشفاعة ومنع طلبهم إياها .

إجمال شبه
المخالف

فان الحق لا يكون طلبه باطلا ، ولكن طلب الباطل هو الذى لا يكون إلا باطلا .
سادسا - : قد تشفع آدم برسول الله قبل خلقه ، وتشفع وتوسل رسول الله
بمن قبله من الأنبياء ، وتشفع الصحابة بالنبي عليه السلام ، وتشفع عمر بالعباس
وأقر النبي ذلك الأعرابي الذى قال : إنا نستشفع بك على الله ، وطلبوا من النبي
بعد وفاته أن يستسقى لهم فسقوا . وصح أن الذين يصلون على الجنائز شافعون :
وروى الترمذى عن أنس بن مالك قال : سألت رسول الله أن يشفع لى يوم
القيامة فقال : « أنا فاعل » . وطلب سواد بن قارب ، وهو صحابى ، من النبي أن
يشفع له يوم القيامة بقوله :

فكن لى شفعاً يوم لا ذو شفاعة * بمن فتيلاء سواد بن قارب
وقد طلب تبع الحميرى من النبي أن يشفع له أيضاً يوم القيامة وقد أقر
رسول الله طلبه وشهد أنه صالح . وقد علم عثمان بن حنيف فى خلافة عثمان رجلا
أن يقول : يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك فى حاجتى هذه . وقد فعل الرجل ذلك
فقضيت حاجته . وقد جاء أن علياً وأبا بكر أبا على النبي عليه الصلاة والسلام وهو
ميت وقبلاه وقال كلاهما : أبى أنت وأمى يا رسول الله ، اذكرنا عند ربك واجعلنا
من همك . وفى شرح المواهب للزرقانى أن الداعى إذا قال : اللهم إنى أستشفع
إليك بلببك ، يأنى الرحمة اشفع لى عند ربك استجيب له . وقد ذكر العلماء فى
آداب الزيارة أن الزائر يقول خطاباً للنبي عليه السلام : جئناك لفضاء حقك
والاستشفاع بك ، فليس لنا ، يا رسول الله ، شفيع غيرك ، فاستغفر لنا واشفع لنا .
هذه جميع دلائل المخالف على جواز الاستشفاع بالميت ، وجميعها دلائل
باطلة مبهرجة .

جواب دليله
الأول

﴿ بطلان هذه الشبهة ﴾

أما الدليل الأول ، وهو أن الله أعطى عباده الشفاعة ولا مانع من طلبها منهم ،

فالجواب أن يقال : إما أن يريد أن الله أعطاهم الشفاعة في كل وقت ، وأنهم لذلك يشفعون كلما شاؤوا ومتى أرادوا فيمن أرادوا ، وإما أن يريد أنهم يشفعون حقاً ولكنهم لا يشفعون إلا إذا أذن لهم بالشفاعة ورضى عن المشفوع له . . . فان كان يريد الأول قيل له : هذا باطل ، فانه لا يمكن أن يشفع أحد عند الله لأحد إلا من بعد إذنه للشافع بالشفاعة ، وورضاه عن المشفوع له لصلاحه وتقواه واستقامته واستحقاقه لذلك كما صرح بهذا القرآن الكريم في غير ما آية . وإن كان يريد الثاني قيل له : إذا كانوا لا يشفعون إلا إذا أذن لهم ، وكانوا يشفعون ، ولا بد ، في من أذن لهم بالشفاعة له ، فلا وجه لطلب الشفاعة منهم ولا معنى له كما تقدم . فانهم إذا شاء الله أن يشفعوا لأحد شفّعوا ولا محالة ، سواء أطلب منهم ذلك أم لم يطلب ، وإذا لم يرد الله أن يشفعوا لأحد فلن يشفعوا ، سواء استشفّع بهم أم لم يفعل . فالاستشفاع إذن بهم عبث وجهالة وسفاهة ، وذلك باطل لا يأمر الله به في دينه وشريعته

جواب آخر

ويقال بمباراة أخرى : إن إعطاءهم الشفاعة لا يقضى بجواز طلبها منهم يقيناً وذلك لجواز أن يكون في طلبها منهم إثم وباطل وفساد ، ولجواز أن يكون طلبها عدواناً وبغياً ، ولجواز أن يكونوا مع إعطائهم إياها لا يسمعون إذا طلبوا ولا يبلغهم ذلك الطلب ، فيكون حراماً لهذا ، ولجواز أن تكون هنالك موانع أخرى . غير ما ذكرنا حرم طلبها منهم لأجلها .

وقد أعطى الله الملائكة الشفاعة ، على ما ذكر في الآية ، ولا يجوز طلبها منهم ولا الاستشفاع بهم بالضرورة ، بل لقد أعطى الجماد الشفاعة كما قال : إنه أعطاهما الحجر الأسود وأخبر أنه يشفع ويشفع يوم القيامة . وهل يجزأ المخالف . الرافضي أن يدعى أنه يجوز طلب الشفاعة من الجماد ومن الحجر الأسود ، وأنه

يجوز الاستشفاع به ؟ بل لقد جاء وصح أن القرآن يشفع، وأن الأطفال يشفعون لأبائهم وأقاربهم . فهل يزعم الرافض أن الاستشفاع بالقرآن ، والقرآن عندهم مخلوق ، وبالأطفال جائز مطلوب ودين يتقرب إلى الله به ؟

ثم من ذا الذى قال بأن كل من أعطى شيئاً جاز طلبه منه ؟ وأي دليل على جواب آخر بهذا القول إذا قيل ؟ وهل يجوز للناس جميعاً أن يسألوا الأغنياء الأموال والأشياء التى أعطاهم الله إياها ؟ وهل يجوز لكل مسلم أن يسأل كل مخلوق ما أعطاه الله وما ملكه إياه من أنواع الأموال وأنواع الأعطيات الأخرى من القصور والضياع والأولاد والنساء وغير ذلك بحجة أن الله أعطاه ذلك، وبحجة أنه لا مانع من سؤال الخلق ما أعطوا ، لأن طلب الحق لا يكون باطلاً، ولأن سؤال الموجود لا يكون ممنوعاً ؟ إن كان جواب الشيعة الإيجاب فجواب الناس جميعاً السلب ، وإن كان يجيز هذا كله فالناس العقلاء ممنوعونه كله .

ثم يقال له أيضاً : من الذى سلم له بأن الله قد أعطى عباده الصالحين الشفاعة ؟ جواب آ. إننا نحن ننكر هذا القول وذاك الزعم ، ونقول ، بحق لا شك فيه : إن الله لم يعطهم الشفاعة اليوم ولما يأذن لهم بها حتى الساعة ، ولكنه تعالى سوف يعطيهم ذلك يوم القيامة ، فانه سوف يشفع عباده هناك فى قوم آخرين من عباده ، ولكنه لم يشفعهم الآن فيهم بالضرورة . وإذا علم المخالف هذا قلنا له أى عاقل يزعم أنه يصح أن يسأل الإنسان ما لم يعط وما لم يملك ؟ هذا عن الدليل الأول .

وأما الدليل الثانى ، وهو أن الشفاعة هى الدعاء وأن الدعاء يجوز طلبه من جواب دليله الأحياء والأموات ، فالجواب أن نقول : سلمنا أن الشفاعة هى الدعاء وأن الدعاء الثانى هو الشفاعة طباقاً سواء آ ، ولكننا لانسلم له جواز طلب الدعاء من الموتى ألبتة، ونقول إن هذا هو أصل المسألة ومبدؤها . ولن يجحد دليلاً واحداً يدل دلالة صحيحة

صريحة محترمة على جواز طلب الدعاء من الأموات . والدلائل التي ذكرناها على بطلان الاستشفاع بهم هي دلائل على بطلان طلب الدعاء منهم ، فلتراجع وأما دليله الثالث ، وهو أن الملائكة يدعون للمؤمنين ، وأن دعاءهم شفاعة فالجواب أن نقول له : سلنا أن الملائكة يشفعون للمؤمنين ولكننا لانسلم جواز طلب الشفاعة منهم لدلائل كثيرة تقدست في أول البحث . فلا يصح سؤالهم الشفاعة لأنهم لا يسمعون سؤال من سألهم لبعد مكانهم ، ولأن في سؤالهم ما يدعو إلى الغلو فيهم وفساد الاعتقاد والإيمان ، ولأنهم يقومون بوظيفتهم التي أعدم الله لها وأمرهم بها ، سواء أطلبوا أم لم يطلبوا ، وسواء أقبل لهم أعمالوا ما أمرهم الله بعمله أم لم يقبل لهم . فطلب ذلك إليهم عبث وسفه وجهل ، ودين الله لا يأمر بذلك ، ولأنهم من عالم الغيب ، ولا يجوز للمؤمن أن يتصل بعالم الغيب إلا من طريق الدين والرسالة الإلهية . وأديان الله لم تأمر بدعاء الملائكة والاستشفاع بهم ، بل نهت عن ذلك وحاربته . ولأن الرسول وأصحابه لم يحاولوا الاتصال بهم ، ولادعاهم والاستشفاع بهم قط . ولو كان ذلك مشروعاً مثاباً فاعله لما جاز أن يتركوه البتة .

وإننا نطلب إلى المخالفين جميعاً أن يرونا دليلاً واحداً يذكر أن الرسول أو أحد الأئمة الراشدين طلب من ملك شفاعة أو دعاء أو نحو ذلك ، ولأن الاتصال بالملائكة وسؤالهم هو كالاتصال بالجان وسؤالهم ، كلاهما فيه خطر على العقيدة وطغيان على مكان الإيمان . فإن من أجاز لنفسه سؤال الملائكة أو الجان الشفاعة وهم من عالم الغيب ، وقد وصفوا بالقدرة الخارقة ، فقد تميز له نفسه يوماً ما هو فوق ذلك من عبادتهم ووصفهم بما ليس لهم من أوصاف الربوبية وصفات الرب ، ولأنه يجوز أيضاً أن يقال إن الدين تشريع وتوقيف ، لا يجوز الابتداع فيه ولا الاختراع والاستحسان ، ودعاء الملائكة وغيرهم من عالم الغيب لا يجوز ولا

يمكن إلا بوحى ، وليس لدينا وحى يجوز دعوة عالم الغيب والاتصال به بنوع من أنواع الاتصالات .

هذا كله من دلائل بطلان دعوة الملائكة وغيرهم من عوالم الغيب كالجان ، وكلحور المخلوقة فى الجنة ، وكالعوالم الأخرى ، ومخلوقات الله لا يعلمها إلا الله .

وأما دليله الرابع ، وهو أنه صح أن الجهاد يشفع وأن الحجر الأسود يشفع جواب دليله
ويشفع يوم القيامة من استلمه ، فالجواب أن يقال : إن هذا من أعظم الدلائل الرابع
وأظهرها على بطلان ما أتى به هذا المخالف وبطلان ما اختلق وزور ، وذلك أننا
نقول له : إذا كان الله قد أعطى الجهاد الشفاعة ومع هذا لم يجوز أحد طلبها منه
تبيين أنه لا يبدل إعطاء الشيء الشفاعة على جواز طلبها منه والاستشفاع به ، وعليه
لا يلزم إعطاء الصالحين الشفاعة جواز أن تطلب منهم وأن يستشفع بهم كأعطى
الحجر الأسود ذلك ولم يقل أحد إن الاستشفاع به مشروع جائز . وليس أمام
الرافضى إلا أن يزعم أن الاستشفاع بالجهاد يجوز ، فيزعم أنه يجوز للمسلم أن يقول
للحجر الأسود اشفع لى ، وادع الله لى ١١ فإذا زعم هذا وبلغته حاله قلنا : عليه
وعلى دينه العفاء .

وأما دليله الخامس ، وهو أنه لا يمكن أن يقال إن الله أعطى عباده الشفاعة
وجواب
الخامس
ومنع طلبها منهم ، لأن الحق لا يمكن أن يكون طلبه وسؤاله باطلاً ، فنقول : إن
الجواب عن هذا هو الجواب عن دليله الأول ودليله الثالث ، فليرجع إليهما .

وأما دليله السادس ، وهو الأخبار المذكورة ، فالجواب أن نقول :
جواب
السادس
أما الحديث الأول ، وهو قوله إن آدم تشفع برسول الله قبل خلقه ، فهو يعنى
به الحديث المشهور على ألسنة جهلاء العلماء والفقهاء والعامة ، وهو ما رواه الحاكم فى
المستدرك على الصحيحين من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن عمر بن
الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك

يحق محمد لما غفرته لي ، قال الله يا آدم وكيف جرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال
يا رب لأنك لما خلقتني بيدك وضعت في من روحك رفعت رأسي فزأيت على
قوائم العرش مكتوبا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فمرفت أنك لم تضيف إلى
اسمك إلا أحب الخلق إليك ، قال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلى
وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ما خلقتك . »

ولكن هذا الحديث مكنوب موضوع كما ذكر الحافظ الذهبي في التلخيص .
المستدرك فلا حجة فيه . وسوف يجيء الكلام عليه في باب النوسل من جهنم
الجزء . والذي نقوله هنا هو أن الرافض قد غلط غلطا فاحشا فظيما ، وذلك أنه
زعم بهذا الحديث أن آدم قد استشفع بمحمد ﷺ قبل خلقه ؛ وهذا خطأ
لا يقدم عليه إلا مثله . وذلك أن الاستشفاع هو طلب الشفاعة وطلب الدعاء
كما ذكر هو في كلامه السابق . فالاستشفاع فيه خطاب إلى المستشفع به ورجاء وسؤال
للشفاعة منه . والذي لم يخلق كيف يمكن مخاطب وسؤاله وطلب الدعاء منه إلا أن
يكون ذلك على وجه التوصية التي لا يتوجه فيها الخطاب للموصى له إلا بعد خلقه
ورشده ووجود عقله ؟ ولكن هذا ليس من هذا النوع يقينا . فافهم الأغبياء ،
وأجهل الجهلاء وأضال الناس عقلا وفهما لا يمكن أن يطلب ممن لم يخلق الشفاعة
والدعاء طلبا صحيحا حقيقيا ، ولا يمكن أن يتوجه إليه بالخطاب والاستشفاع .
وهذا الرجل يزعم على آدم أبي البشر أنه دعا النبي عليه السلام واستشفع به
وطلب منه الشفاعة وخاطبه وسأله قبل أن يخلق وقبل أن يكون قادرا على السماع
وعلى الشفاعة والدعاء والخطاب ، لأنه لم يخلق . وهذا غاية القبح في آدم وفي عقله
ودينه ، وغاية القبح في رسول الله إذ نسب إليه أنه قاله ، وغاية القبح في عمر
ابن الخطاب إذ زعم أنه حدث به عن رسول الله ، وغاية القبح فيمن رواه من
المحدثين إذ ذكر أنهم روه وذكروه في كتبهم ١١ وآدم ورسول الله وعمر

من تغليط
المخالف

ابن الخطاب والمحدثون والمسلمون بريئون ، والحمد لله ، من هذا التخليط ، ومن هذه التهمة المنكرة الباطلة . والحديث ، لو كان صحيحاً ثابتاً ، ليس فيه شيء من الاستشفاع والخطاب وطلب الدعاء ، وإنما الذي فيه سؤال الله بحق النبي عليه السلام . فالخطاب والطلب لله وحده لا شريك له ، وإنما طلب ودعا وخاطب سائلاً بحق محمد . وفرق عظيم بين الطلب من الله بحق أحد خلقه ، وبين طلب ذلك « الأُحد » وسؤاله مباشرة . فإن الأول خطاب لله والثاني خطاب لغير الله ، والفرق بين الأمرين ظاهر معروف لا يخفى . هذا على افتراض صحة الخبر ، ولكنه غير صحيح كما سوف يجيء القول فيه .

كشف القبر
النبوي إلى
السماء

وأما قوله : « وتشفع الصحابة بالنبي عليه السلام » فهو يشير به إلى ما روى أن أهل المدينة قحطوا فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها فقالت : انظروا إلى قبر رسول الله فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، ففعلوا ففطروا مطراً غزيراً .

والكلام على هذا الخبر من ناحيتين : ناحية إسناده وناحية معناه ، أما إسناده فليس صحيحاً لأمرين اثنين ، أولهما أنه من حديث محمد بن الفضل السدوسي المعروف بعارم عن سعيد بن زيد أخى حماد بن زيد الإمام المشهور عن عمرو بن مالك النكري عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله الربي عن عائشة رضي الله عنها . هكذا رواه الدارمي في سننه . وهذا الإسناد فيه مقادح أربعة : أولها أن عارماً هذا ، وإن كان ثقة إماماً من رجال الصحيح الأثبات ، إلا أنهم ذكروا أنه في آخر عمره تغير واختلط ، وأن حديثه لذلك قسبان : قسم صحيح وهو ما كان حدث به قبل التغير والاختلاط ، وقسم ضعيف وهو ما كان بعد ذلك ، وهذا الحديث لا يدرى من أى القسمين هو . وثانيها أن سعيد بن زيد قد تكلم فيه وضعف حديثه ، وقد وثقه آخرون . وثالثها أن عمرو بن مالك

التكرى هنا ضعف أيضاً وخاصة إذا حدث عن أبي الجوزاء وهو هنا عنه ، وعن ضعفه إمام الحديث البخارى . وقد ذكروا أنه حدث عن أبي الجوزاء عدة أحاديث غير صحيحة ولا محفوظة ، كذا ذكر ابن عدى الخافظ . ورابع المقادح أن أبا الجوزاء ، وإن كان ثقة إماماً ، إلا أنهم ذكروا أن حديثه عن عائشة مرسل لأنه لم يلقها ، كذا ذكر البخارى وابن عدى وغيرهما ، فهذه الرواية مرسلة . واجتماع هذه المقادح الأربعة في مثل هذا الخبر يمنع صحته ويرد على من زعموا أنه خير صحيح . وحديث يجمع فيه هذه العلل لا يصح الاحتجاج به في مثل هذه المباحث التي يطلب فيها اليقين والصحة الظاهرة .

حجة أخرى

قالى الأمرين الدالين على أن الخبر غير صحيح مخالفته لسنة المسلمين وسنة الإسلام ، ولعمل الرسول وأصحابه والمسلمين من بعده عند القحط وأنحباس السماء والماء . فإن الرسول عليه السلام وأصحابه والمسلمين كانوا إذا اشتد عليهم القحط وامتنع الثيب والمطر فزعوا إلى صلاة الاستسقاء ، وصلاة الاستسقاء مطروحة في الإسلام والدين ، لها أصول ومبطلات مطروحة معروفة في كتب الحديث وكتب الفقه . وقد صلى رسول الله صلاة الاستسقاء ، وصلاها أصحابه وخلفاؤه من بعده ، وصلاها المسلمون من بعدهم ، وأقرتها وقالت بها جميع المذاهب الإسلامية . وقد قحطوا في عهد الرسول عليه السلام وطلبوا منه أن يستسقى لهم مرات عدة ، فكان يستسقى تارة بالصلاة والدعاء في الخلاء ، وتارة بالدعاء وهو فوق المنبر يخطب ، وتارة وهو جالس يدعو ويستسقى . . . ولكنه لم يقل مرة واحدة حينما طلبوا منه السقيا ، وحين عضهم الجذب : إنه يكفيكم أن أبرز يدي إلى السماء أو أبرز قبرى ، كما زعم في هذا الخبر الضعيف ، بل ولم يفهم أحد من أصحابنا المعنى ، ولهذا علموا أنه لا بد من الاستسقاء . وقد أجذبوا في زمن عمر بن الخطاب فاستسقوا بالعباس بن عبد المطلب ، كما تقدم مرات وكما سوف يجي بيانه

وما قل عمر ولا العباسي ولا غيرهما من الصحابة والمسلمين : اكشفوا قبر النبي واضمحوا كوة بينه وبين السماء ، كما قيل في هذا الحديث الباطلي . وأجذب كذلك المسجون من بعد ، فكانوا جميعاً يفرعون إلى صلاة الاستسقاء وإله الدعاء ، دعاء الاستسقاء . وما ذكر أحد من أهل العلم أولى الابصار والبصار في الاسلام وحقيقته : أن فتح هذه الكوة المزعومة من سنة الاستسقاء ومن الأمور المرغوب فيها عند الجذب ، بل هم يذكرون كل ما يضل وما يطلب فعله عند طلب السقيا ولكنهم لا يذكرون هذا لأنه ليس معروفاً لهم ولا معلوماً في الاسلام . فحقها الخبر غير صحيح لأنه مخالف للسنة المبلوغة التي لا يختلف فيها المسلمون .

على أنه لا يجرى للخبر معنى ولا يمكن أن يصح له وجه من الوجوه ، فأى علة ثلاثة
منه في إبراز القبر إلى السماء ؟ وأية عبادة فيه يستقر بها المطر ويستمدح بها القسط والنصر ؟ وأية حكمة في هذا ، وأى أصل من أصول الشريعة يرافقه أو جلي حلال فيه ؟ إنه لو كان لهذا معنى ووجه لكان إبراز المصنف أولى من إبراز القبر ~~الذي يجب~~ إلى ~~أن يستقر~~ الله به النيث والمطر على عباده ، ولكن كلا ، لا شيء من ذلك يتقرب به إلى الله وتستنزل به رحمته ، وإنما تستنزل رحمة الله بعبادته بالدعاء والصلاة والتوبة والعبادة والاستقامة على الطريقة والفرع إلى الله بالآمال والأعمال كما قال تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل الأنهار عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا » وقال : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكثروا من فقههم ومن تحت أرجلهم » وقال : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فخففناهم بما كانوا يكسبون » وقال : « ولئن لو استقلوا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » - إلى غير ذلك من آي الكتاب ~~الذي~~ الله على أن النيث والخبر

يستنزلان بالطاعات والأعمال الصالحة والدعاء والاستغفار، لا باظهار القبور إلى السماء أو غيرها : هذا كله مما يدل على ضعف الحديث وعلى بطلانه وكذبه .

معنى الخبر إذا صح
أما الكلام عليه من الناحية الأخرى ، أعني ناحية معناه ، فنقول : إن هذا الخبر ، على فرض ثبوته ، لا يدل على ماذهب إليه الشيعة المخالف ولا على ما أراد منه ، فإنه هو زعم أن الصحابة قد تشفعوا برسول الله : والاستشفاع ، كما تقدم في ما ذكر هو ، معناه طلب الدعاء من المستشفع به . فقلوه : إن الصحابة استشفعوا بالنبي معناه أنهم طلبوا منه الدعاء والشفاعة ، ولكن الخبر ليس فيه طلب ولا استشفاع ما . لامن النبي ولا من الله ولا من أحدا ما ، وإنما فيه إبراز القبر وفتح كوة منه إلى السماء ، وفيه أنهم صنعوا هذا وأنهم أغثوا . فهو لو كان صحيحاً ، وإن يكونه ، لا يشهد لما ذهب إليه المخالفون من الشفاعة والاستشفاع والدعاء وطلب الدعاء أبداً .

الاستشفاع بالأحياء
وأما قوله : « وتشفع عمر بالعباس » فالجواب أن يقال : إن المخالفين لهذا المصنف ولاخوانه من أنصار الابتداع والزور ، لا يخالفون في جواز طلب الشفاعة والدعاء من الأحياء الصالحين ، بل هم أنفسهم يفعلون ذلك . فكأن هذا الرافضى لا يدري ماالنزاع والخلاف بينه وبين مخالفيه ! ولا خلاف بين الناس أن العباس كان حياً سوياً حينما استسقى به عمر والمسلمون معه وتوسلوا . وللكلام في الحديث مزيد وإيضاح سوف يذكران في هذا الجزء .

وأما قوله : « وأقر النبي ذلك الأعرابي الذي قال : إنا نستشفع بك على الله » . فالجواب أن يقال : الكلام في هذا الحديث كالكلام في الذي قبله وهو أنه في غير محل النزاع والخلاف ، لان الاستشفاع بالحي القادر على الشفاعة لا خلاف في جوازه بين المسلمين ، وهذا الأعرابي قد استشفع بالنبي وهو حي بلا خلاف . فلا معنى لما ذكر الشيعة

وأما أقواه : « وصح أن الذين يصلون على الميت شافعون » فيقال : هذا كإنه في قبلة إيس في مكان النزاع ، لأن الذين يصلون على الميت هم الأحياء دون الأموات ، والأحياء ، كما قلنا مراراً ، يستشفعون ويشفعون بلا خلاف .

وأما قوله : « وروى الترمذى عن أنس بن مالك أنه قال : سألت رسول الله أن يشفع لى يوم القدر » فقال : أنا فاعل « فالجواب أن الترمذى قال بعد إخراج الحديث : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وفى مسنده أبو الخطاب حرب بن ميمون ، ضعف ووثق ، ومن ضعفه شيخ المحدثين البخارى... فحديث يقول فيه الترمذى : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الطريق الحسن الغريب والترمذى معروف لينه وتساهله فى نقد الرواة والروايات ، وفيه أيضاً من ضعفه البخارى ، وحسبك به ناقد حجة فى هذا الشأن ، كيف يحتاج به فى مثل هذه المطالب العليا والمباحث الاعتقادية العظيمة ؟ وكيف يقبل المصنف الشيعى هذا الخبر الغريب فى مثل هذه المسائل وهو يكذب عشرات الأحاديث الصحاح فى تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة فيها وإليها ، كما سوف يأتى أنه يقدس فى تلك الأحاديث كلها ويضعفها ، وهى مخرجة فى الصحاح والسنن والمستدركات والمسائيد والمعاجم وفى كتب الفقه بل وفى جميع كتب الاسلام بل وقد أجمع على صحتها وثبوتها عن رسول الله ؟

ثم يقال إن هذا الحديث ، على تقدير صحته ، خارج عن محل النزاع أيضاً معنى هذا إذا كان صحيحاً لأن أنساً طلب الشفاعة من النبى عليه الصلاة والسلام وهو حى ، وطلب الشفاعة من الأحياء لم تنزع نحن ولا غيرنا فى جوازه كما قلنا مراراً .

فان قيل هذا لا يوافق ما ذكرتموه من أنه لا يشفع أحد لأحد عند الله إلا بعد إذنه بالشفاعة وبعد رضاه عن المشفوع له ، وما ذكرتم من أن من استحق الشفاعة فالها سواء أطلبها أم لم يطلبها ، ومن لم يستحقها فلن تناله وإن طلبها وأوغل فى

الطلب ، وما ذكرتم من أنصاعى هذا لا معنى للاستشفاع لأنه لا يقسم ولا يفر ولا يفيد : إن قيل هذا قلنا هذا الذى ذكرناه صحيح لا ريب فيه ولا غيلو عليه وقد شهد له الدين جملة وتفصيلا . أما الحديث ، على تقدير بطلانه ، فيقتضى فيه : لعلى أنسا لم يعلم ذلك حينئذ طلب من النبي ، وهذا لا مانع منه ولا نقص فيه . وأما إقوال النبي عليه السلام له وقوله : « أنا فاعل » فلهذا يريد بذلك الشفاعة العلة التي ستال كل من مات لا يشرك بالله شيئا . وقد علم رسول الله أن أنسا لن يشرك بالله شيئا ، وعلم أنه سوف تناله شفاعته ودعوته لذلك . فالرسول عليه الصلاة والسلام أجاب أنسا إلى ما علم أنه سيكون له ولا بد سواء أطلبه منه أم لم يطلبه . فكان قوله عليه السلام في هذا الحديث : « أنا فاعل » في معنى قوله إن شفاعتي ستال كل من مات لا يشرك بالله شيئا . أو لعل هذه الشفاعة التي طلبها أنس شفاعته خاصة به دون الجميع جزاء خدمته رسول الله وملازمته إياه الاعوام الطوال ملازمة الخدام الخاص الامين . وقد خص رسول الله كثيرا من أصحابه بخصائص معلومة جزاء أعمال عملوها ، وخلافه فاضلة اتصفوا بها ، فكان أنسا وصى الله عنه طلب أن تكون له شفاعته خاصة به غير الشفاعات المعلومه التي سيكون له منها قسم ونصيب وإن لم يطلبها : هذا كله لا مانع منه دينا ونظراً .

وأما قوله : « وطلب سواد بن قارب من رسول الله أن يشفع له يوم القيامة بقوله : فكر لي شفيماً . البيت . » فالجواب أن هذه القصة ، قصة سواد بن قارب ، ضعيفة الاسناد كما ذكر ذلك الحافظ الهيثمي صاحب مجمع الزوائد . ولهذا لم يرو القصة أحد من أصحاب الصحاح ولا أحد من أصحاب السنن ولا أحد من المؤلفين في الصحيح ، المتحررين الثابت دون الضعيف والباطل والمكذوب ، وإنما رواها الطبراني في المعجم ، والطبراني يروى الضعيفات والموضوعات المكفريات ويروى المتردية والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع ، كما يعرف أهل هذا الشأن .

سواد بن
قارب ضعيفة

وروى القصة أيضا أبو نعيم في دلائل النبوة بأسنادها . وعادة أهل الرواية أنهم يتساهلون في مثل هذه المسائل التي فيها إعظام من شأن النبي ومن شأن الاسلام ، ويلينون في تقدير رواياتها وتغريجها . . فلا يصح الاحتجاج بهذه القصة الضعيفة الباطلة في هذا الموضوع الجلل .

على أن هذا الخبر لو كان صحيحاً لكان خارجاً عن محل النزاع لأنه من الاستسناع بالحق وهو لا خلاف في جوازه .

وأما ما ذكره عن تبع الحميري فيقال في الجواب : وأين الاسناد لذلك ؟ ومن الذي رواه من أهل العلم والدراية والرواية والمعرفة ؟ فان استطاع هذا المخالف أن يصحح هذا الخبر وأن يقيم له استناداً مقبولاً ورواية قائمة سألته أن يمتنع به وأن يرد به على المخالفين ، وأن يؤول لأجله آيات الكتاب ومتواتر السنة . أما بغير ذلك فلن يعبأ به .

ونحن لا تنازع ولا نشك في أن هنالك أخباراً كثيرة مكنوبة على الله علم الرواية وعلى دينه ونبيه لو صحت كانت دليلاً على بعض الباطل الذي يدعو إليه هؤلاء القوم ، ولكن رحم الله أهل الاسناد والرواية ، وجزاهم عن الاسلام والعلم والنبوة أفضل الجزاء . فلقد دفعوا عن الاسلام والعلم بعلم الاسناد وقوانين الرواية شراً كثيراً كان أرادته أهل الكيد والفدر والدهاء المرائيين بهما ، فدفعه الله بعلم الاسناد وعلوم الرواية . ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء ، ولما عرف حق من باطل ولا صادق من كاذب ، ولا اختلط الخبيث بالطيب والكنب بالصدق ، وكلام الأنبياء بكلام الكاذبين الجاهلين وصنوف النادرين . . . ولكن الله جلّت قدرته وحكمته شاء لهذا الدين أن يحفظ لأنه شاء له أن يكون خاتم الأديان ، وآخر رسالات السماء إلى نوع الانسان .

وأما حديث عثمان بن حنيف وقوله : إنه علم رجلاً في خلافة عثمان أن يقول في دعائه : يا محمد إني أنوجه بك إلى ربك في حاجتي هذه لتقضى ، وإن ذلك

الرجل فعل ما أمره به ابن حنيف فنال حاجته ، فنقول إن في هذا الحديث كلاماً طويلاً وتحقيقاً واثماً وف نذكره فيما بعد من هذا الجزء إن شاء الله . وسوف نتكلم عليه إن شاء الله بما يستحق من العناية والتحقيق ، لأنه هو أعظم ما مع دعاة الأهواء من الشبهات .

رواية اذكرنا وأما ما ذكر أيضاً عن أبي بكر وعلى من أنهما أبا علي النبي عليه السلام عند ربك وهو ميت وقبلاه وقال كل منهما : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك . فنقول : يعوز هذا النقل الاسناد والصحة ، فان الرواية بغير إسناد لا تقبل عندنا في دين الله . والاسناد هو الفاصل بين الحق والباطل وهو الفاصل بين الصدق والكذب . وليس من الاسلام ولا من العلم في قليل ولا كثير أن يقول القائل : جاء عن فلان كذا وعن فلان كيت من غير أن يسند ما قال ويصححه ، ومن غير أن يورد لما يذكر رواية لا صحيحة ولا ضعيفة . وليس بنافع هذا المخالف أن يجد ما يذكره مذكوراً في بعض الكتب المطبوعة المشهورة . فأننا نعرف ونعترف أيضاً أن الباطل موضوع في الكتب مطبوع مقروء ، يحفل به ما شاء الله من الجماهير والدهماء ، ولكن ليس بنافع الباطل عند الحق أن يدون في الأسفار الضخمة وعلى القراطيس الصفراء والبيضاء . وإنما الذي ينفع عند الحق هو الاثبات وإقامة الحجة الظاهرة المقبولة . فأين الاثبات هنا لما نقله عن أبي بكر وعلى ؟ بل وأين الاسناد لذلك ولو ضعيفاً هالكاً ؟ 19 أبا باطيل التي لا أساس لها يسوغ لمن يخشى الله ولن يحترم العلم والقراء أن ينازع ويجادل وينازل ويصاول ، بل ويهجو ويسب ، ويقول ما يقول هذا من الأراجيف والأباطيل ؟

نعم جاء في صحيح البخاري أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، دخل على رسول الله حين توفي وقال : بأبي أنت وأمي ، طبت حيا وميتا ، والله .

لا يذيقك الله الموتين أبداً ، وأكب عليه وقبله . وأما أنه قال اذكرونا عند ربك واجعلنا من همك أو من بالك ، أو أن علياً قال ذلك ، فشيء لم نره ولم نعرفه ، ولم يذكره البخاري في هذا الحديث ولا في غيره ، ولم يروه أحد من فرسان الحديث فيما نعلم . فعلى المخالف أن يقيم الاسناد لما ذكر واحتج به وأن يصحح ذلك الاسناد ، وإن لم يفعل - ولن يفعل - فليدع المراء والجدال بنير الحق ، فإن للحق أنصاراً وحماة يفارون عليه ويحمون دونه ويدفعون عنه المدوان والتضليل ، فليدع المراء والجدال بنير الحق .

على أن هذا النقل لو صح لما دل على جواز الاستشفاع بالموتى وطلب الدعاء ^{لوحى الرواية لما ذكر} منهم . وذلك أن الذين ذكروا هذا النقل كصاحب « المواهب اللدنية » ذكروا معه أن الناس حين بغتوا بخبر وفاة النبي عليه الصلاة والسلام طاشت عقولهم ، ففهم من خبل ، ومنهم من أقعد فلم يستطع القيام ، ومنهم من أخرس فلم يعاقل الكلام ، ومنهم من أضى . وكان عمر بن الخطاب ممن خبلوا ، وكان عثمان بن عفان ممن أقعدوا فلم يستطع حراكاً ، وأضى بعضهم فأت كذا ، وكان أميئتهم أبو بكر الصديق جاء وعيناه تهلان ، وزفراته تتردد ، وغصصه تتصاعد وترتفع ، فدخل على النبي وقبله وقال ما ذكروا أنه قاله . فان كان هذا صحيحاً ، كما زعموا ، لم يكن دالا على ما ذهبوا إليه يقيناً ، وذلك لأنهم ذكروا أن العقول قد طاشت في تلك الساعة الأليمة ، ومعنى هذا أنها خرجت عن صوابها حتى خبل فريق ، أى فقد رشدهم وصوابه وعقله ، وأخرس فريق وأقعد فريق آخر ، إلى آخر ما ذكروا . وساعة تصل فيها العقول والقلوب والنفوس إلى هذا المكان من القلق والاضطراب والفرع والانفجاع - إلى حد الخبل والخرس والموت جزعاً وهولاً - لا يضح أن يحتاج بالكلام الذى يقع فيها والالفاظ التى تتساقط من هولها وبلواها بلا ريب . فان هذه الحالة مظنة لأن تقول الألسنة فيها مالا تمتدحه العقول ، وأن تمتدحه

المقول والقلوب مالا يصح ومالا يمكن أن تستغده لو كانت مالكة صوابها ورشدها وهما .

لام المصاب لا يحتاج به وقد عرف أن الناس في وقت الملح والمصائب كثيراً ما يقولون أقوالاً لا يرضونها ولا يقولونها أو يقرونها في أوقاتهم وحالاتهم العادية الساكنة ، وعرف أن الألسنة قد تنفوه بما لا تدري وبما لا تدعى عقولها وقلوبها . وقد قال عمر بن الخطاب ، وهو الرجل الحازم الصلب ، يوم أن مات رسول الله : من زعم أن محمداً قد مات أشطت دمه بسيفي هذا . ولولا الملح والفزع الأخذان بناصية رشده وقلبه في تلك الساعة النكراء لما قال ذلك الذي قال ، لأنه لا يخفى على مثله أن رسول الله سوف يموت كما مات الأنبياء والرسل قبله ، وكما يموت سائر الخلق . وقد ذكر القرآن نبأ موته عليه الصلاة والسلام في آيات قرأها عمر وقرأها غيره من المسلمين وعرفها الخاصة والعامة . وعلى كل حال كلام المصاب إذا اشتدت مصيبتة وعظمت لا يصح أن يحتاج به ولا يصح أن يكون منهجاً ورأيالقائه يؤاخذ به ويمد عليه . وقد علم أن المحب إذا أصيب بفراق حبيبه أو فقدته يقول ويفعل مالا يصح من سواء ومالا يصح منه نفسه قبل مصيبتة . . فيخاطب آثار المحبوب الراحل ويناديه ويحج إليها ويستلمها ويقبلها ويطوف بها ، وقد يخاطب أنوابه وصوره ويدعوها ويكلمها كأنه يخاطب حبيبه حقيقة ، وكأنه حاضر عنده يراه ويسمعه ، وكأنه واقف بين يديه ، وكأنه يخاطب حياً سمعياً بصيراً .

وإذا بلغت الحالة بالمصاب المنجوع إلى هذا الحد فالله أكرم وأرحم من أن يؤاخذ بما يقول وما يفعل في تلك الساعة وتلك الحالة التي فقد فيها صوابه وهده . ولن نظن أن الله مؤاخذ عمر رضى الله عنه إذ أنكر موت النبي وقد مات وإذ زعم أنه قاتل من قال بموته من المسلمين ، كما لا نظن أنه تعالى مؤاخذ أولئك الذين زعم هؤلاء أنهم خباوا وأقمدا وأخرسوا وماتوا كمدا حينما بلغهم موت

النبي عليه الصلاة والسلام . فلاحتجاج بهذا النقل ، لو كان صحيحاً ، لا يصح عندنا ولا عند غيرنا إذا صح ما ذكره من طيش العقول واضطرابها وبلوغها تلك الحالة التي وصفوها ووصفوا ما فيها من الخبل والخرس والاقماد والموت من الكمد والجزع . والله أعلم .

الخطيب نوعان

فان قيل إن في الرواية التي رواها البخاري والتي أقرتموها ، وهي قوله الصديق : « بأبي أنت وأمي ، طهت حيا وميتا ، والله لا يذيقك الله الموتين أبداً » - دليل على جواز خطاب الموتى ، وخطابهم دليل على سماعهم وإلا لما خوطبوا ، لأن الخطاب يراد به الاسماع والابلاغ ، ولا يحاول اسماع وإبلاغ من لا يمكن إسماعه ولا إبلاغه ، وأنتم تدعون أن الأموات لا يخاطبون ولا يسمعون من خاطبهم من أهل الدنيا ، وهم إذا كانوا يسمعون الخطاب فما المانع من دعائهم وندائهم وطلب الشفاعات منهم ؟ وقد جعلتم برهانكم على بطلان دعاء الموتى ادعاءكم أنهم لا يسمعون الدعاء والنداء ، ولا يملكون عن اتصال بهم شيئاً ، استدلالاً بالآيات التي ذكرتوها وزعمتموها براهين دلي أنهم انقطعوا عن الدنيا وأهلها فليس بينهم وبينهم سبب من الأسباب ولا علاقة من العلاقات يتمسك بها أحد الفريقين : نحن قائل هذا ، قلنا في الجواب عنه : إن الخطاب لم يوضع أصلاً في اللسان ليوجه إلى من يسمع دون من لا يسمع ، أو إلى الحاضر دون الغائب ، أو إلى الحي دون من مات ، أو إلى العاقل دون من لا يعقل من الجماد والأحجار والأشجار . بل قد وجه الخطاب إلى السامع وغير السامع ، وإلى القريب والبعيد ، وإلى الحي والميت ، وإلى العاقل العالم وإلى الجماد الذي لا يعقل ولا يشعر ولا يعلم شيئاً . والدلائل على ذلك من كلام للعلاء شمرآ ونثراً ومن نصوص الدين ، لا يجمعها جامع ، ولا يحيط بأفرادها محيط ، ومن الدلائل الدينية . على ما ذكرناه السلام على الأموات بلفظ الخطاب ، فان الزائر للمقابر

قد يجوز
خطاب
الأموات

يُشرع له أن يسلم وأن يقول في سلامه : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين . وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » ، نسأل الله لنا ولكم العافية » . وليس معنى هذا السلام وهذا الخطاب أن الأموات يسمعون ذلك وأنه يراد لإسماعهم يقيناً ، لأنهم قد يكونون في حفر لو كانوا فيها أحياء لما سمعوا دعاء من دعاهم ولا سلام من سلم عليهم لكثرة الحوائل وفقدان المسالك . ومن الدلائل على ذلك أيضاً السلام على النبي في تشهد الصلاة ، فإن المصلي يقول في تشهده : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » . يقال ذلك في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته في كل مكان وزمان . ولا يستطيع مسلم ولا عاقل غير مسلم أن يزعم أن النبي عليه السلام حاضر مع كل مصلي مسلم عليه ، سامع سلامه وخطابه في كل مكان ومن كل مكان لأن معنى هذا القول وجوده في كل مكان وسماعه كل صوت وخطاب في وقت واحد ، وهذا لا يقول به المؤمنون بالله وبمقوله . وقال ﷺ لما مات ابنه إبراهيم : « العين تدمع والقلب يحزن ، ولا تقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لحزون » . ولا شك لدينا أنه لا سماع في هذا الخطاب . ومن ذلك قول نبي الله صالح لقومه بعد أن أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين من سورة الاعراف : « فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » وقول نبي الله شعيب لقومه بعد أن هلكوا من سورة الاعراف أيضاً : « فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » . ولا شك ولا تردد أن هذا الخطاب وهذا النداء خطاب ونداء غير حقيقيين ، وأنه لا سماع هنا ولا حضور ولا فهم ولا معنى من المعاني القائمة بالخطاب السامع الفهم . ونظائر هذا في الشريعة كثيرة مفهومة .

فطالب الجهاد أما هذا النوع في كلام البلغاء من الشعراء والناطقين وسائر أصناف بنى آدم

فشيء لا يمكن الا حاطة به ولا جمعه ، وشيء يعرفه الخاصة والعامة والجهلاء والعلماء
 فقد خاطبوا الديار والآثار والرياح والنسائم ، وحملوها تحيات الحبايب ، وحملوها
 النجائب ، وخاطبوا الشمس والقمر والنجوم والسماء ، وسألوها عن الاحباب
 والأصحاب ، وخاطبوا السحاب ، وخاطبوا الليل والنهار ، وخاطبوا الخيال والطيف
 والنوم ، وخاطبوا النجائب والركائب ، وخاطبوا غير ذلك مما لا يعقل ولا يفهم
 ولا يسمع ، وشواهد هذا غنية عن إيراد شيء منها . وقد رثوا الأموات الذين
 تقاسمتهم السباع والضباع وصنوف الوحوش والطيور ، والذين ابتلعهم البحار حتى
 لا يعلم لهم عين ولا أثر ، والذين أكلتهم النيران فطيروا مع ذرات الرياح وذواريها
 رثوا هؤلاء الموتى فخاطبهم خطاب الحاضرين السامعين الفاهمين ، وهم يعلمون
 أنهم لا يسمعون ولا يعلمون من خطابهم وأمرهم وحالهم شيئاً .

كل هذا فعله الناس العقلاء ، وكل هذا لا يدل على سماع المخاطب وفهمه
 واجابته وضره ونفعه بلا ريب ، فكذلك ما كان مثله مما جاء في الشرع ونصوصه
 الصحيحة . والذي ننكره نحن من الخطاب هو الخطاب الذي فيه طلب وسؤال
 منكر من الخطاب
 الأموات
 ورجاء وخوف وخشوع وخضوع ، لا مطلق الخطاب ، فاننا نقول في اليوم والليلة
 مرات : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ونقول : « السلام
 عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » ، نسأل الله لنا
 ولكم العافية » ونقول : رحمة الله عليك يا أبا بكر ، لقد كنت برا ببيتيك ، مخلصاً
 لربك ، ناصراً لدينك . . . رحمة الله عليك أيها الفاروق ، لقد كنت شديداً في
 الحق ، شديداً على الباطل ، قائماً لأهل النفاق ، مذلاً للكفر وأشياعه ، ناصراً
 للإسلام ، ناصراً لراياته على هام الأنام . . . رحمة الله عليك يا عثمان بن عفان ،
 لقد كنت هيناً لنا حياً ، تكره الشر وأهله ، وتحب الخير والسلامة والرفق حتى
 ذهبت ضحية الرفق واللين شهيداً مظلوماً . . . رحمة الله عليك يا ابن أبي طالب

لقد كنت سيفاً وبحراً وحكمة . .

وبهذا التخرج الصحيح يخرج ما جاء من الخطاب للأموات في النصوص الصحيحة كقول فاطمة رضي الله عنها ترى أيتها : يا أيتها ، أجب رباً دعاه ، يا أيتها ، في جنة الفردوس مأواه ، يا أيتها ، إلى جبريل نعام . وإن كان هذا ندبة لانداء .

وأما ما ذكر عن شرح المواهب للزرقاني من أن الهامى إذا قال في دعائه : اللهم إني أستشفع إليك بنبيك ، يابى الرحمة اشفع لى عند ربك استجيب له ، قول على الله وفي دين الله بلا سلطان من الله ، فلا يعابى به .

إمتنا قد قلنا مرات إنه ليس كل ما كتب حجة على العلم ، وكتبنا يضامرات إن الضلال والخطأ يطبع وينشر ويقرأ ، ويحصل به الجماهير والخلق الكثير ، ليس كل ما كتب ذنباً وإن الشيخ الكبير والعلم من العلماء قد يقول ما لا علم له به ، وما يمجزه أن يقيم عليه الحجة والبرهان . وماذا ينفع الباطل وأهله عند الحق وحده أن يجد الباطل من يقوله ، وأن يجد من يكتبه وينشره ، وأن يجد من يطبعه ؟ وماذا يجدى الخطى أن يجد له سلفاً في الخطأ وشيعة في الباطل ، وماذا يجديه أن يقلد فيه ؟ هذا كله لا يجدى شيئاً ، ولكن الذى يجدى هو البرهان وإن كان لا لائق به ، والحجة الظاهرة وإن كانت قليلة الأنصار والأعوان . فليأتنا هذا المصنف ببصيص من برهان ندن له ، أو رسيس من حق نقل : لبيك وسعديك ، وإفلا . وليس يخفى على من تماطى العلم وتغاطى التأليف فيه حتى دخل في المضايق والمآزق أن أشياخاً أكبر من صاحب شرح المواهب ، وأكبر من هؤلاء الذين ينقل عنهم هذا الشيعى قد أخطوا وغلطوا وقالوا أقوالاً لا يقبلها المحدثين والإيمان ، ولا يرضاها المسلمون والمؤمنون ، ولا نعبأ نحن بها لأنها لا برهان لها . ولا ريب أنه لو كان الحق بالرجال يعرف لكان شيخ الإسلام ابن تيمية أحق

بالحق من الزرقاني وأضراب الزرقاني ، ولو كان الدين تقليداً مجرداً لكان ابن تيمية وتلاميذه أولى بأن يقلدوا من صاحب « المواهب الدنية » وصاحب شرح المواهب ومن كان مثلهما . فما نقله عن الزرقاني لا ينفعه عند الحق وأهله شيئاً .

وأما ما ذكر من أن العلماء ذكروا أن من آداب الزيارة أن يقول زائر النبي عليه الصلاة والسلام : « جئناك لقضاء حجتك والاستشفاع بك ، فليس لنا يارسل الله شفيع غيرك ، فاستغفر لنا واشفع لنا . . . »

فجوابه أن نعيده ما ذكرناه مراراً من أننا لا تنازع أن جماعات من الفقهاء والمفسرين والمتكلمين وغيرهم قد قالوا ما ليس لهم به من علم ، وأنهم قد غلطوا وأخطأوا وكتبوا ما لا يصح أن يكتبوه وما نهجهم أن يقيموا عليه الحجة والبرهان ولعيد أيضاً ما ذكرناه مرات من أنه ليس كل من كتب في الدين يلزم المسلمين - الأخذ عنه والقول بقوله والذهاب إلى ما كتب ودون من الأخطاء والآراء . بل لقد أوجب الدين على المسلمين كافة أن يعرضوا جميع الأقوال والآراء على الكتاب والسنة ، فما وافقهما قبل ، وما خالفهما رد ولا كرامة . وألزم الناس جميعاً أن يرجعوا إلى الله وإلى رسوله عند اختلافهم وتنازعهم ، ولم يحل من ذلك أحداً من الناس قال تعالى : « فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » وقال : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » . وضم في غير ما آية الذين يقولون : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا إذ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، وجعل الذين يأبون الرجوع إلى الكتاب والسنة ، ويأبون التحاكم إليهما عند الاختلاف والتنازع مناققين مرتدين ، فقال : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول

الحكم هو
الكتاب
والسنة

رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » وجعل المؤمنين الصادقين هم الذين يقولون ، إذا دعوا إلى الله ورسوله ، سمعنا وأطعنا فقال : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » ، ونهى على الذين يمرضون إذا دعوا إلى الله ورسوله أشد النهي فقال : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون » -

تتبع أغلاط العلماء المسلم الصحيح الاسلام ليس هو من يتتبع أخطاء الخطئين وأغلاط الغالطين ليقاوم بها وحى الله ورسالة نبيه ونصوص كتابه المبين ، وليعبد الله بتلك الاغلاط والاختطاء ، وليطاول ويصاول بها الدعاة إلى الدين الصحيح وإلى الكروع في مناهله الصافية النقية ، والاخذ من معادنه الأولى الجارية : ليس هذا هو المسلم الصحيح الاسلام ، ولكن المسلم حقا هو الذى يستمع القول فيأخذ بأحسنه ، ولا أحسن من قول الله وقول نبيه عليه الصلاة والسلام ، ثم هو الذى يعلم أن الله لم يفترض على عبده أن يدين إلا له تعالى ولما أنزله على رسله وأنبيائه ، والذى يعلم أن من ذهب يؤلف لنفسه عقيدة ولعقيدته مذهبا من أغلاط الغالطين وأخطاء الخطئين فقد اختار لنفسه شر العقائد ، ولعقيدته شر المذاهب ، لأنه يقل أن يسلم عالم من أن يغلط ويخطئ وينهب مذهباً لم يشرعه الله ولا رسوله ، كما أنه يقل أن يسلم إنسان من أن يقارف إحدى الخالفات ويلامس واحدة من المحرمات لضعفه الجبلى ونقصه المحتوم . فمن بنى مذهبه على أغلاط العلماء فقد جمع لنفسه الشر والنقصان والجهل المفرق فى الأمم والشعوب . ومن أحبا ، وأتقى ، وحفظاً ، فما ، ذلك ؟

وما مثل هذا إلا من ذهب يتتبع سيئات الناس وآثامهم وعثراتهم وملاوهم
ليعمل بكل ما وجده من ذلك ، تاركا حسناتهم وفضائلهم وما أتوه من صالحات . **شر المذاهب**
ولا يفعل هذا إلا مغمور في الزندقة والضلال . وذلك لأن لكل إنسان - إلا من
شاء الله - هنات ، تقل في إنسان وتكثر في آخر ، فأحياناً تغلب الحسنات ،
وأحياناً تغلب الهنات والسيئات . فإذا غلبت الحسنات غمرت السيئات وحملت
الناس على الإغضاء عنها ، أو على غفرانها وتناسيها ، وإن كانت الأخرى
كانت الأخرى . فإذا جاء إنسان وأراد أن ينتزع من كل إنسان سيئاته وهناته
دون الحسنات فقد جاء بشر المذاهب والعقائد . وهذا هو ما انتحى إليه هذا
الشيخي وأشياعه وأسلافه : فقد قصدوا إلى كل غلطة وقع فيها أحد الفقهاء
والمشايخ في أبواب البسع والقبور وعبادة الموتى ، وركبوا منها هذه الوثنية
الكثيفة الشنعاء ، وتركوا ماع هؤلاء المخطئين الغالطين من الحق والصواب
والاسلام . ففلان « مثلاً » يقول بجواز شد الرحال إلى القبور ، ولكنه مع
ذلك يمنع « مثلاً » تقبيل القبر ودعاء المقبور . . . فيعمد هؤلاء إلى قول هذا
القائل في السفر إلى القبور ، ويتركون قوله في تحريم تقبيل القبور وتحريم دعوة
الأموات ، ثم يذهبون يلتمسون غالطين آخرين قالوا بجواز تقبيل القبر وجواز
دعوة المقبور ، فيجدون ، ولا بد ، من قال ذلك فيأخذون به ويتركون ماعه من
الحق والصواب والاسلام . وهكذا يظنون يطوفون على أصناف العلماء وأصناف
الكاتبين والمؤلفين ، وجميع أصناف الناطقين يستجوبونهم أغلاطهم وأخطاءهم
وخطاياهم ، فيركبون منها لهم عقيدة يقفون عليها ، ويدعون الناس إليها .
وهذا لا يصنعه الازنديقى - عياذاً بالله . وقد قال بعض أهل العلم : من تتبع
رخص العلماء فقد تزندق . فكيف بمن تتبع أخطاءهم وزلاتهم ! بل كيف بمن
تتبع أخطاء الجهلاء وغفلاتهم من المؤلفين الذين لا سابقة لهم في الاسلام ولا في

العلم والصلاح والتقى غير أن جاءوا إلى كتب قيمة من تراث السلف الصالح النفيس ، فكتبوا أسماءهم على طرورها بعد أن مسخوها وأفسدوها وأدخلوا عليها كل غريب باطل ، وكل دخيل مزدرى ، وبعد أن ملأوها بالشوك والسعدان وقد كانت ، قبلاً ، أزاهير ورياحين حبذا الجاني والمحتنى . . .

فالمسلم مطالب أبداً بأن يكون مع الحق أين كان ووقع ، ومطالب بأن يجانب الباطل ويهجره أين كان ومع من كان . فليس من الحجة على الحق وأهله أن يقول فلان أو فلان ، وليس المسلم مكلفاً بأن يعبد ربه ويدينه بكل ما يقال وكل ما يكتب . وهذا ظاهر .

من ذكر هذا على أننا نقول لهذا المصنف : إن العلماء كلهم لم يذكروا هذا الذى ذكرت عند الزيارة ، بل ولم يذكروه جلهم ، بل ولم يذكروه أحد من الأئمة الذين تتبع مذاهمم ويقتدى بأرائهم وعلمهم . ومن العسير على هذا المصنف وطى غيره من أشياع الابتداع أن يذكروا لنا نقلاً صحيحاً ورواية قائمة مقبولة تثبت أن الامام أبا حنيفة أو مالكا أو الشافعى أو ابن حنبل قال ذلك أو أجازه أو أباحه أو ذكر أن له فضيلة ومشوبة ، أو فعله أو رأى من فعله فلم ينكره . وقد وضع الامام الشافعى رضى الله عنه كتاب « الأم » بيده فلم يذكر فيه ذلك ، ووضع الامام مالك « الموطأ » فلم يذكر ذلك ، ووضع الامام أحمد مسنده الجامع الكبير ، وهو الأصل والمرجع الأول لعلوم السنة ولمذهبه ومذاهب أصحابه - وضعه رضى الله عنه بيده فلم يذكر فيه رواية واحدة من هذا القبيل . ولم ينقل أصحاب الأئمة الثقات الملازمون لهم العارفون بمذاهممهم وبالمذاهب الاسلامية شيئاً من هذا : لافعله ولا استحبابه ، ولا ذكروا رواية فى فضله وثوابه

هذا كله حق لا ريب فيه ، ولكن الذين ذكروا هذا هم الذين ذكروا غيره من الآراء الرخيصة والمعتقدات الضعيفة التى صارت ، فيما بعد ، مادة ومرجماً

لهؤلاء الجانحين إلى بعض الباطل الذي حارب به الاسلام ونبي الاسلام حر بأشعواء طاحنة . . . وهؤلاء الذين يذكرون هذه الآراء والأقوال المتجافية عن أصول الاسلام ليسوا حجة بالاجماع : ليسوا حجة عند المجتهدين ولا عند المقلدين لأنهم هم مقلدون ، غاية أمرهم وفضلهم وعلمهم أن ينقلوا ويدونوا أقوال الأئمة السابقين المجتهدين . فاذا جاءوا بشئ غير صحيح ولا ثابت عن الأئمة لم يصح الأخذ به لا عند المجتهد ولا عند المقلد ، لأنهم ليسوا بمجتهدين بالاجماع ، وهم أنفسهم ينكرون الاجتهاد ويشلبون المجتهدين ويقعون فيهم لاجتهادهم . وهذا لا ريب فيه . ثم لا ريب أن هذه الآراء المبتذلة التي ينقلها هؤلاء المتأخرون المقلدون آراء لا يستطيعون أن يجدوا لها رواية صحيحة قائمة تثبت نسبتها بالامام المجتهد الذي ينقل منهجه وينادي بتقليده .

وهذا الشيخ صاحب « المغنى » في مذهب الحنابلة ، أقرب مثل إلينا ، ما ذكره ابن قد ذكر في فصل زيارة القبر النبوي أن الزائر يقول في دعائه : « اللهم إنك قلت وقولك الحق » ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » ، وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبي ، مستشفعاً بك إلى ربى . . . »

وهذا الذي زعم أن الزائر يقوله من تلاوة الآية ومن قوله : أتيتك مستغفراً ومستشفعاً ، من العسير أن يجد له حجة وسنداً من أقوال الامام أحمد الذي ألفه كتابه في نقل منهجه وتدوين أقواله ، ومن الأعرس أن يجد له حجة من الرواية الصحيحة عن النبي عليه الصلاة والسلام أو عن أحسن أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . وإذا قال صاحب « المغنى » أو غيره قولاً لاحجة له عليهم لا من الكتاب ولا من السنة ولا من أقوال الامام الذي يقلده وينقل عنه لم يصح القبول له عند أحد من أهل العلم لا عند المقلدين ولا عند المجتهدين . فالمقلدون

لا يقبلون قوله ، لأنه عندهم ليس مجتهدا ، ولا يصح أن يجتهد ، والمجتهدون لا يقبلونه أيضا لأن المجتهد لا يقلد وإنما يأخذ بالدليل والحجة . فقوله غير مقبول عند الفريقين . وهكذا القول في كل ما يكتبه المؤلفون في مذاهب الأئمة مما لا دليل عليه .

والأئمة المقلدون قد تُكذب عليهم ودفعت إليهم أقوال لم يقولوها ولم يعرفوها ، بل لو ذكرت لهم لأنكروها وردوها ، كما تُكذب على رسول الله وعلى أصحابه ، بل كما تُكذب على الله وعلى دينه . وهذا الكذب المعزى إلى رسول الله وإلى أهل العلم على نوعين : نوع منه كان مقصودا متعمدا لأغراض مجرمة . فاستة ، وهذا هو الكذب الصحيح الصريح . ونوع آخر من هذا الكذب لم يكن مقصودا ولا متعمدا ، وإنما جاء بضروب شتى من السهو والخطأ والتساهل والاجتهاد والتعليق . وهذا كذب في الواقع وإن لم يكن كذلك في أنفس الذين كسبوه وقعوا فيه لأنهم لم يقصدوه ، بل ولم يعلموه . وهذا النوع إنما يقع فيه أهل الدين من المنخدعين بالباطل لسلامة نياتهم وصدورهم ، ورخاوة أذهانهم . ولهذا فانه يجب على أهل العلم التنقيب والتنقيب عن أصول كل ما يذكروا في هذه الكتب فلا يصح أخذ ذلك بالتسليم العام ولا بالثقة المطلقة ولا بالأطمئنان الوثيق ، لأن الدخيل ، كما ذكرنا ، قد كثر في كتب الحديث ، وهو في كتب الفقه وغيرها أكثر . وهذا أمر لا يشك أهل العلم في وجاهته وإصابته الحقيقة والمرمى . وإذا كانوا لا يقبلون ما يذكروه إمام الحديث البخاري في صحيحه سيد الكتب الصحاح حتى يسنده وحتى تعرف روايته : فلا يقبلون معلقاته ورواياته التي يذكروها مخدوفة الإسناد ، لاحتمال أن يكون الإسناد المخدوف غير نظيف . وكذلك لا يقبلون ما يذكروه الشيوخ الكبار والأئمة البارعون ، أمثال مالك وغيره إلا بالسند والحجة . فكيف يمكن أن يقبل أهل العلم كل ما يذكروا في كتب الفقه من

ليس من الاسلام
مضلات الافهام

الآراء الرخيصة المبندلة بلا رواية ولا دراية ولا حجة لا من كتاب ولا من سنة ولا قول أمام من الأئمة ؟ بل إذا كانت أقوال صحابة النبي عليه الصلاة والسلام ، وأقوال السكبار والخلفاء منهم لا يجب قبولها مطلقاً بلا حجة من الكتاب والسنة فكيف يقبل كل ما يذكر في كتب الفقه من الأقاويل والعقائد المنسوخة . فمن الائم الكبير إذن أن يروح رائح ينلس ، في غمرات من الجهل والبلادة ، غلطات الكتب ويتسقط على سقطات الكتّابين ، ليؤلف له والمسلمين عقيدة يحملهم عليها ، ويثالب من لم يجب إليها . ومن ائم الكبير أيضاً أن يقوم قائم فيحشد في كتاب واحد من الكتب جميع ما زلت به الأقلام ، وما ضلت به الأفهام والالهام ، ثم يقوم يقول : إن هذا هو دين الله خاتم الأديان ، ورسالة محمد ﷺ خاتمة رسالات الله إلى بني الإنسان !

يا هذا ! إننا إننا نعلم أن في الكتب أغلاطاً وأخطاءً ، ولكننا نعلم مع هذا أن الله لم يكلف أحداً من عباده أن يدينه بتلك الاغلاط والأخطاء وأن يذل لها عقله وقلبه ودينه وعقيدته ، بل نعلم أن الله لا يرضى هذا لأحد من خلقه . فليس بنا فاعك إذن ، يا هذا ، أن تسقط على سقطه في كتاب مطبوع أو غير مطبوع ، ولا بمقيم لك العذر عند الله أن تكون مقلداً في خطئك وغلطك ، ولا الله بعاذرك إذا ما قللت في الخطأ والغلط . وأنتم يا هؤلاء لا تقبلون ما ذهب إليه أبو بكر وعمر وعثمان ، بل ولا ما اتفق عليه جميع الأصحاب ، خلا المعصومين عندهم ، فاني يسوع لكم ، بعد هذا ، أن تقبلوا كل ما يكتب في هذه الكتب ، بل كيف يسوع لكم أن تجعلوا هذا كله من الحجج التي لا يصلح خلافها وأنتم أنفسكم تكفرون من قالوها وكتبوها وألفوها من أهل السنة أو تفسقونهم ، بل وأنتم تكفرون أبا بكر وعمر وعثمان وخيار الصحابة ، أو تضللونهم إذا ما تساهلتم

وترنم ؟ فلعمري الله ما هذا بانصاف ولا دين ولا عدل .
 هذا آخر الرد على شبهاتهم في جواز الاستشفاع بالأموات . وهنا انتهت
 دلائلنا على بطلان ذلك ، وتقضنا لدلائلهم على جوازه . فلينظر هذا بانصاف
 الاستشفاع ونجرد من الهوى والتعصب لغير الحق ، والله المرشد والمستعان .
 بالجماد عند ومن الفطائع التي كتبها الشيعة في هذا الفصل أنه زعم أن الاعتقاد في
 الرافضى الأحجار والأشجار والجماد بأنها تشفع ثم الاستشفاع بها : زعم صفحة ٢٥١ أن
 ذلك لم يعلم كونه عبادة للأحجار والأشجار والجماد ، وزعم أنه لم يعلم كون هذا
 من أسباب شرك المشركين . . . فعنده أنه ليس من الشرك اعتقادك أن حجراً
 أو شجراً يشفع ويستشفع مع استشفاعك به ودعوتك إياه الليل والنهار رجاء
 شفاعته ودعوته . وعكوفك عليه حياتك ووقتك كله راجياً أن يقربك إلى ربك
 زلنى بشفاعته ودعوته ! ! فمن عكف على شجرة ليلاً ونهاره يدعوها لتدعو الله له ،
 ويستشفع بها لتشفع له وتبذل وساطتها وجاهاها عند الله لا تقاذه من ضرائه
 وبلائه ولا يسعاده وإعلائه ، فليس بمشرك ولا كافر ولا عابد غير الله . ونعوذ بالله
 من هذا الخذلان المتتابع والهوان المتلاطم .

﴿ الاستغاثة بالأموات ﴾

الحجج على ثم قال الشيعة : « الفصل الثانى فى دعاء غير الله ، والاستغاثة والاستعانة
 دعاء الاموات به ، وطلب الخوائج منه . . . » .

وقد أورد فى هذا الفصل ما خلاصته : أن الوهابيين ، وقديتهم ابن تيمية ،
 قد منعوا دعاء الأموات والاستغاثة والاستعانة بهم ، وأكفروا من فعلوا ذلك .
 قال : وقد غلطوا وضلوا . فانه لا مانع من دعاء الأموات والاستغاثة والاستعانة
 بهم وسؤالهم ضرورى الحاجات والمطالب الصغيرة والكبيرة . وذلك لأن الدعاء

والاستغاثه بغير الله يكون على وجوه ثلاثة : الأول أن يهتف باسم المخلوق مجرداً مثل أن يقول : يا علي ، يا محمد ، يا عبد القادر ، يا أولياء الله ، يا أهل البيت ، ونحو ذلك . الثاني أن يقول : يا فلان كن شفيعي إلى الله في قضاء حاجتي ، أو أدع الله أن يقضيها ، وما شابه ذلك . الثالث أن يقول مباشرة : يا فلان اقض ديني واشف مريضى وانصرنى على عدوى وغير ذلك . قال : والوجوه الثلاثة جائزة صحيحة لآمانع منها ، وكل ما كان ظاهره من ذلك ممنوعاً باطلاً وجب حمله على الصحيح وعلى مجاز الكلام ، لأننا مطالبون أبداً بأن نحمل أفعال المسلمين وأقوالهم على الصحيح والخير والطاعة . فإذا قال مسلم ، مثلاً ، يا ولي الله فلان اشف مريضى أو اهد قلبى أو اغفر ذنبى أو رد غائبى أو اشرح قلبى للإسلام أو أمثل ذلك من الكلام وجب أن نقول إن هذا كله صحيح جائز وإنه من مجاز الكلام كما في قول الناس : بنى الأمير المدينة ، وشفى الطبيب المريض ، وكما في قول علماء البيان : أثبت الربيع البقل . . . قال : وقد جاء المجاز العقلى في لسان العرب وفي القرآن كثيراً كما في قوله تعالى : « فارزقهم منه » وقوله : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله » وقوله : « وما تقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » . بل لقد أضاف الله إلى عبده عيسى ما هو أبلغ وأعظم من هذا فقال حكاية عنه عليه الصلاة والسلام : « إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وأرى الأكمة والأبرص وأحيى الموتى باذن الله » .

قال : فالمسلم إذا دعا الميت وقال ، مثلاً ، يا محمد ، أو يا علي ، أو يا عبد القادر ، اشفنى أو اهد قلبى أو اغفر ذنبى ، كان معنى ذلك أنه يطالب منه الشفاعة والوساطة ، أى يطلب منه أن يكون سبباً في نيل ما يطلب بدعائه وشفاعته . وقد قال قائل

لرسول الله : أسألك مراقبتك في الجنة . وسؤال المراقبة في الجنة مثل سؤال
خفران الذنوب وهداية القلوب وأمثال هذا .

قال : نعم ، لو قصد المستغيث بغير الله أن المستغاث به فاعل اختياراً
واستقلالاً بدون واسطة الله تعالى فالمسلمون براء منه ، ولكن لا يوجد مسلم يقصد
ذلك . وقد روى البيهقي وابن أبي شيبة عن مالك الدار ، خازن عمر رضى الله
عنه ، قال أصاب الناس قحط في زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبي عليه الصلاة
فقال يا رسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله في المنام فقال
أنت عمر وأخبره أنهم مستقون . وقد نص القرآن على أن الشهداء أحياء عند
ربهم ، والأنبياء أولى بالحياة من الشهداء بلا ريب . والأحياء يصح دعاؤهم
والاستغاثة بهم بالاجماع .

قال : والمسلمون ، سلفاً وخلفاً ، مازالوا يستغيثون بالأنبياء والصالحين ويسألونهم
الشفاعة . قال السهودي : إن الاستغاثة بالنبي عليه السلام من فعل الأنبياء
 والمرسلين ، ومن سيرة السلف الصالحين . وقد ذكر في كتابه « وفاء الوفا في أخبار
دار المصطفى » أقاصيص وحكايات ذات عدد من استغاثات العلماء بالأموات ،
وذكر أنهم قد نالوا ما طلبوا وأملوا بسؤالهم إياهم . فما ذكر أن رجلاً أو دعت
عنده أمانة فأنفقها فطلبت منه فقال لطالبها اذهب وعد إلى غداً . وراح هو إلى
المسجد يلوذ بقبر النبي عليه السلام مرة ، ومرة أخرى يلوذ بمنبره . وقضى ليله
ساحراً ضارعاً كذلك حتى كاد الصباح يطلع ، وبينما هو يستغيث ويلج في
استغاثته إذا بشخص يناديه ويعطيه ماسأل . وقال قال أبو بكر بن المقرئ :
كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ في حرم رسول الله فعضنا الجوع ، فلما كان وقت
العشاء أتيت قبر النبي عليه السلام وقلت يا رسول الله الجوع - إلى أن قال :
فدق الباب غلام علوى معه غلامان ، مع كل غلام زنبيل فيه شيء كثير ، وقال :

حكايات
غريبة في
الاستغاثة
بالأموات

أشكوتكم إلى رسول الله ، فأتى رأيته في المنام فأمرني أن أحمل شيئاً إليكم . قال وقال ابن الجلاب دخلت المدينة المنورة وبي فاقة فتقدمت إلى القبر وقلت : ضيفك ، فغفوت فرأيت النبي عليه السلام فأعطاني رغيفاً فأكلت نصفه وانتبهت وبيدي النصف الآخر . قال وقال أبو عبد الله محمد بن زرعة الصوفي سافرت مع أبي ومع أبي عبد الله بن خفيف إلى مكة فأصابتنا فاقة شديدة ، فدخلنا المدينة فأتى أبي الحظيرة وقال : يا رسول الله : أنا ضيفك الليلة ، فرأيت رسول الله فوضع في يدي دراهم وبارك الله فيها إلى أن رجعنا إلى شيراز ، وكنا نفق منها . قال وقال أحمد ابن محمد الصوفي تهت في البادية ثلاثة أشهر فانسليخ جلدي ، فدخلت المدينة فأنيت النبي عليه الصلاة والسلام وسلمت ثم نمت فرأيت في النوم فقال لي : جئت ؟ قلت نعم وأنا جائع وأنا في ضيافتك ، قال افتح كفيك فلاهما دراهم ، فانتبهت وهما مملوءان . قال وذكر السهمودي أشياء أخرى من هذا النوع منها ماوقع له هو . قال فيستفاد من هذا أن الاستغاثاة بالنبي سيرة المسلمين خلفاً عن سلف بلا تكبر ولا خلاف ، وهذا مأخوذ من صاحب الشريعة .

قال : ويدل على جواز الاستغاثاة بغير الله ما رواه ابن السني عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : عباد الله احبسوا ، فإن الله عبداً يجيبونه » وفي حديث آخر رواه الطبراني أنه عليه السلام قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس ، فليقل يا عباد الله أعينوني » وفي رواية « أغثوني فإن الله عبداً لا ترؤسهم » . قال في خلاصة الكلام : صح عن بلال بن الحارث أنه ذبح شاة عام القحط المسمى عام الرمادة فوجدها هزيلة ، فصار يقول : والمحمداه ، والمحمداه . وصح أن أصحاب النبي عليه السلام لما قاتلوا مسيلة الكذاب كان شعارهم : والمحمداه

وإيمده . وفي الشفاء للقاضى عياض أن عبد الله بن عمر خدرت رجله مرة فقبل له اذ كر أحب الناس إليك فقال : وإيمده ، فانطلقت رجله .

قال والحاصل أن الاستغاثة بالأَمْوات من الصالحين والأنبياء لا مانع منها ، فيجوز سؤالهم شفاء المرضى ، وهداية القلوب ، وغفر الذنوب ، وإدخال الجنة ، والأبعاد من النار وغير ذلك ، بل هذا كله من الدين ، قد دلت عليه نصوصه : آياته وأحاديثه ، وتوارثه المسلمون السلف عن الخلف بلا تكثير ولا اعتراض . وجميع مآظهم الكفر والباطل والضلال يجب تأويله وحمله المحامل الصبيحة إذا كان قائله أو فاعله مسلماً . . . هذا خلاصة ما أورده في هذا الفصل .

ونحن بحول الله وقوته نذكر هنا ما يكفي من الحجج على بطلان ما ذكر ، ثم نكشف عن شبهاته ونبين ما فيها من زغل ودخل - سائلين الله وحده العون والمدد

﴿ بطلان الاستغاثة بالموتى ﴾

الدلائل على

والبراهين على ذلك كثيرة نورد منها ما يأتي

بطلان دعوة

الاموات

أولاً : إن القرآن بمجملته نهى عام عن دعاء غير الله من الجن والانس وسائر المخلوقات ، وتنديد شديد صاعد بمن فعلوا ذلك ، ودعاء عام شامل إلى دعاء الله والرغبة فيه والانتقاط اليه وحده لا شريك له ، وإنباء عن المؤمنين جميعاً بأنهم لا يدعون إلا الله ولا يسألون سواه لافي السراء ولا في الضراء ، وإخبار قاطع بأن الذي يجيب دعاء الداعين ، ومسألة السائلين هو الله وحده ، وأن كل ما عداه باطل زائل لا يجيب ولا يسمع ولا يضر كما لا ينفع ، وتحديث عن المشركين بأنهم يدعون لحاجاتهم سوى ربهم ، ويسألون غيره ما يأمون في سراهم وضرائمهم وجميع أحوالهم ، وأنهم لهذا ضالون جاهلون . . . هذا كله بعض ما دل عليه القرآن في آي كثيرة صريحة ، وسور مختلفة من طويلة وقصيرة . وما تصدى القرآن ، فما أعلم ، لشيء تصديه لا بطل دعوة غير الله والنهي والزجر عنها ، وما أطنب

وأوضح في شيء إطنابه بولييضاحه في أن المدعى بحق هو رب العالمين ، وأن ما يدعى من دونه فدعاؤه الباطل والضلال والجهل المبين . ولا عاب القرآن الكريم ، فيما أحسب ، شيئاً عيبه لسؤال غير الله ودعوة المخلوقين ، ولا ذم فريقتاً من فرق الضلال مذمته لمن يدعون غير ربهم ، ويسألون غير خالقهم ورازقهم ، ومحبيهم ومبئتهم حين الرهبة وحين الرغبة وجميع الاحيان . ولقد نوع الله في هذا الإنبال ، وأكثر وأوضح فيه العبارات ، وبين وأبدع في البيان والايضاح فأبلغ وبلغ ، وأرسلها في أساليب لو أرسلت على صخر أصم لتصدع ، وأنزلها في آيات من آياته أبان ما تقوله بلاغة البلغاء في صفتها : الله أكبر ! ما أبلغ وأروع ! وأبدع ما يقول المادحون في امتداحها : هذا كلام الله ، والله أجل وأعظم أوصافها في أقوال من المثل العليا لو أن الناس عقلوا منها مثلاً واحداً لما أشرك بالله إنسان واحد ، ولما وجدت كلمة « الاشرار » ولا كلمة « المشرك » في قاموس البشرية .

لقد عني القرآن بإثبات المعاد والحساب والعقاب ، وبإثبات النبوات والوحي والاتصال للملائكة الأعلى بالبشر ، وعنى بغير ذلك من أصول الأديان والإيمان ، ولكنه قد عني بالنهي عن دعاء غير الله وبالأمر بدعائه وحده . أكثر كما سوف نعرض على القارئ لكتابنا : ففي كل سورة تحمد الله تعالى ينهي عن دعاء غيره ويأمر بدعائه وحده ، ويندد بمن دعا سواه من خلقه ، وفي كل آية تنهى عن ذلك تحمد النهي فيها شديداً والتأنيم عظيماً . والأمر أوضح وأظهر :

قال الله تعالى من سورة الحج « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن دلالة القرآن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب : ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » . وحين الآية لو لم ينزل الله خلافها على البشر كافة لكانت حجة قائمة عليهم جميعاً في بطلان الشرك وبطلان دعاء غير الله وهتدم أركانه ،

وهي تنديد بمن دعوا مخلوقا يقصر القول عن نعمته وصفته . وقد وجه الله هذا المثل إلى الناس أجمعين في كل زمان ومكان ، وأذنبهم بأن الذين يدعون من دونه من العقلاء وغير العقلاء ، من الجن والانس ، من الصالحين والطلحين ، عاجزون عن نفهم وعن ضرهم وعن كل ما يرجي منهم من خير وشر : فهم لا يستطيعون أن يخلقوا أحقر مخلوق في هذا الوجود ، ولا أن يستردوا ما أخذ منهم هذا الأحر . وهذا أبلغ وصف للضعفاء العاجزين . فهم لا يستطيعون ، ولو اجتمعوا ، أن يخلقوا ذباباً واحداً ، ولا يستطيعون أيضاً أن يستنقذوا من الذباب ما سلبهم من الأمور الروحية والمادية . وهذا أقصى غايات الضعف والعجز . فما أضعف الطالب الذي يرجو هؤلاء العاجزين عن خلق الذباب وعن استنقاذ ما سلبهم إياه ، والذي يدعوم لا إحدى حاجاته ؟ وما أضعف المطلوب الذي عجز عن خلق الذباب وعن التغلب عليه ! فما أضعف إذن الطالب والمطلوب ! وإن قوما يدعون هؤلاء العاجزين الضعفاء لحاجاتهم وآربهم ، ويسون الله ربهم ومخالقهم وخالق كل شيء لجاهلون به وبقدرة وحقه وجبروته وسلطانه ، وجاهلون بأنفسهم أيضاً . فما قدر والله حق قدره ولا عظموه حق تعظيمه ، وهو القوى العزيز الذي لا يغالب ولا يفلب ، ولا يمانع ولا يمتنع على أمره ومشيتته شيء .

فغير باب الله فهذه الآية لم تدع مخلوقا يدعى من دون الله إلا عجزته ونهت عن دعائه أبلغ النهي ، وإلا ضعفته وبالغت في تضييفه وتضييف داعيه وسائليه : فلم تدع للمنقطعين إلى غير الله ، الراغبين في المخلوقين نبياً ، ولا ولياً ولا شجراً ولا حجراً ولا ملكاً ولا جانا ولا شيئاً من الأشياء . فقد سدت على البشر جميعاً كل باب غير باب الله ، وأوصدت في وجوههم وسبلهم كل أمل غير أمل الله ، وقطعت الرجاء من كل أحد إلا من الواحد الصمد ، وردت على كل داع غير ربه دعوته ، وعلى كل من سأل مخلوقاً مسألته ، وترت جميع الصلات بالخلق والأسباب بالعباد ، وربطتهم

جواب
اعتراض

جميعا بأقوى سبب وأعظم مطلوب، بالله ربهم ورب آبائهم الأولين، رب العالمين،
ورب الأولين والآخرين . فآين ، آين من يعقلون ؟ بل آين من يسمعون ؟
وليس لدعاة الصالحين من الأنبياء والأولياء أن يزعموا أن الآية في نهياها
لم تشملهم ، وأنها خاصة بالجمادات والأحجار والأشجار : ليس لهم أن
يزعموا هذا لأن الآية شاملة كل مدعو سوى الله . وكل من لا يستطيع أن يخلق
ذبابا ولا أن يستنقذ من الذباب ماسلبه . والأنبياء وغيرهم من الخلق عاجزون
عن خلق الذباب وعن استرداد ما أخذ منهم . ولأن ألفاظ الآية بيّنة في نهياها عن
دعوة العقلاء : الأنبياء ومن دونهم ، وذلك في قوله « إن الذين » و « يخلقوا »
و « اجتمعوا » و « يسلمهم » وفي « يستنقذوه » . فهذه الألفاظ كلها موضوعة
في اللغة أصالة لتدل على العقلاء لا على الجمادات من الأحجار والأشجار . فهذا
الزعم - إن زعمه زاعم - كاذب باطل . ولا يزعم زاعم آخر أن الآية نازلة في
النهى عن عبادة غير الله لا في النهى عن دعاء غيره تعالى ، لأننا نقول : الآية
صريحة في أنها نازلة في الدعاء . فهي تقول « إن الذين تدعون من دون الله »
وتقول بعد : « ضعف الطالب والمطلوب » . فالسألة مسألة دعاء وطلب وداع
ومدعو وطالب ومطلوب . ولأننا أيضا نقول إن الدعاء أفضل أنواع العبادة ،
ولأننا أيضا نقول : إن تمجيز الخلق جميعا هذا التمجيز وتهوين أمرهم هذا التهوين ،
ونعتهم هذا النعت البالغ أقصى غايات الضعف والعجز عن الخير وعن الشر وعن
النفع والضرر ، يناسب النهى عن الدعاء والطلب مناسبة واضحة بيّنة ، ولأن
الترغيب عن الخلق والصرف عنهم جميعا بهذا الأسلوب القوى الباهر يشمل ،
بالإرباب ، الترغيب عن دعائهم وسؤالهم والانصراف عنهم بالقلب والقلب
بالدعاء وسائر أنواع العبادات . فلا يمكن أن يقول الله فيهم هذا المقتال ، ولأن
يضعف هذا الموضوع ، ولأن يضعف شأنهم هذا الاضعاف ، ثم لا يكون هذا كله

نهبيا حاملا عن دعائهم ومسألتهم ، وعن الرجوع إليهم في حاجة من الحاج ،
ومأرب من المأرب . فان هذا المثل ، وهذا الأسلوب الذي صيغ فيه المثل ،
يملاّن قلب سامعهما بكل أنواع الزهد في الخلق ، وبكل أنواع الرغبة عنهم .
فلا يمكن أن يدعّا في نفس سامعهما ولا قلبه أملا في مخلوق ، ولا رغبة في عبد
من العباد العاجزين عن خلق الذباب ، لا في دعائه ولا في إجابته ولا في أمره
من أموره . فالآية سلطان من سلاطين الله الخالدة ، ونجوة من حججه القائمة
على المشركين وعلى الخلق أجمعين .

لو عقل عاقل هذه الآيات وعقلها وفهم أسرارها وصرامها لتصدع قلبه فزعا وخشية وانهاراً ، ولقدف
شركه ووثليته من بشرته ومن أطراف جسمه ، ثم لا نصبغ بالتوحيد وبصبغة
التوحيد الثابتة المعقمة . ولهذا كان الواحد من سلفنا الأولين الذين تلقفوا هذه
الآية وغيرها من قم النبوة ، والذين فهموها وعقلوها عن الله وعقلوا مراده منها ،
يتلقى الزمان بمصائبه وسائر آفاته وامتحناته ، فلا يعلم غير الله مابه ، ولا يكشف
لغيره عن علة من علله ولا آفة من آفاته ، حتى لقد كان السوط يسقط من يده
فلا يقول لأحد : ناوئيه ، كما جاء في صفتهم . وكان المرء منهم يتلقى الزمان بسيفه
واحدا فلا يثنى حتى يثنى هو عنه . ولهذا استطاعوا أن يخضعوا الزمان والمكان
وأهلها ، واستطاعوا أن يصبحوا في جوانب الكون الفاسد يحطمونه وهم ينادون
(ألا كل شيء ما خلا الله باطل) .

آية ثانية وقال تعالى من سورة لقمان « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من
دونه الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير » .

فالله هو الحق وحده وسواه الباطل ، فدعاؤه هو الدعاء الحق ، ودعاء غيره هو
الدعاء الباطل ، وسؤاله هو السؤال الحق ، وسؤال غيره هو السؤال الباطل ،

والرغبة فيه هي الرغبة الحق ، والرغبة في غيره هي الرغبة الباطلة ، والانتقطاع إليه حق ، والانتقطاع إلى سواه باطل « ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل » ، فالله هو الحق أى الثابت ، وكل شئ سواه باطل أى فان زائل . فمن ذا يرغب عن الحق الثابت إلى الميت الزائل ؟ ومن يعدل عن دعاء الحق إلى دعاء الباطل ! وهذه الآية في معنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد (ألا كل شئ ما خلا الله باطل) . وهي صريحة في إبطال دعاء غير الله من الأموات صراحة عجيبة ، لا يتعجب إليها النزاع . وذلك أنها جعلت كل ما يدعى غير الله باطلا ، والتعبير عن كل مدعو خلاه تعالى بالباطل غاية في النهي عن دعائه وسؤاله ، غاية في التزهيد فيه والصرف عنه ، غاية في الزاوية بمن دعاه ورجاه ، غاية في كل ضروب التنفير عنه وعن الحوم حوله رغبا أو رهبا ، لأن الله لا يمكن أن يميز لعباده أن يفزعوا إلى الباطل ، وأن يدعوه ، ويأملوه ، وأن يسألوه حاجاتهم ، ولأن العاقل نفسه لا يرضى لنفسه بأن يرجع إلى الباطل وأن يمد يديه إليه ، وأن يملأ قلبه برجائه وخوفه . فلا أبلغ من التنفير عن كل مدعو سوى الله ومن التنفير عن دعوته من وصفه بالباطل ، ولا أبلغ من الحض على الانتقطاع إلى الله وحده من وصفه بأنه هو الحق وما سواه الباطل . فان من أبلغ الصرف عن الأمر عند الناس وصفه بالباطل والبطلان .

فجميع ما يدعوه الناس ، غير الله ، من الأموات باطل لا خير في دعائه ولا في تأميله . ولا أضل ممن أمل ودعا مالا خيرا فيه ومالا نفع يرتجى لديه . وقد صحت الآية الكريمة كل مدعو من الخلق بهذا الوصف ، وصف البطلان ، فلم تستثن مدعوا لا نبيا ولا وليا ولا ملكا ولا جنيا ولا عاقلا ولا غير عاقل ، ولم تخرج من هذا دعاء دون دعاء : فلم تخرج دعاء الأنبياء ، ولا دعاء الأولياء ، ولا دعاء الملائكة ، ولا دعاء العقلاء دون دعاء الجمادات . فكان النهي إذن عاما شاملا . . .

آية ثالثة

وقال تعالى من سورة الرعد : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله، ومادعاه الكافرين إلا في ضلال ، والله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال . قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، قل أفأنتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأففسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار » .

مضروب دلالة الآية

وهذه الآية من آيات التوحيد العجيبة التي جمعت فنون الابهجاز مع فنون الابهجاز ، مع بلاغة الرد وقوة الاحتجاج ، ووضوح المرمى مع غماسة العبارة ، وسهولة الحجج مع قوة الأسلوب ، حتى لتأخذ على القارئ جميع آلات إحساسه وآلات شعوره ، تهزه هزاً عنيفاً وإن كان من الأغبياء المبلدين . ودلائلها على بطلان دعوة غير الله من وجوه كثيرة : أولاً أنه جعل دعوة الحق التي لا باطل فيها هي دعوته وحده . ثانياً : أنبأه بأن جميع الذين يدعون من دونه لا يستجيبون لمن دعاه أبداً . ثالثاً : تشبيه من دعا سواه بمن أرسل يديه إلى الماء باسطاً لهما رجاء أن يرفعا إلى فيه وهما مبسوطتان منشورتان ، لكنهما لن يرفعا إلى فيه مادامتا مبسوطتين منشورتين ممدودتين إلى جهة غير جهة الفم وهي جهة الماء أبداً ، وهما لن يوصلا الماء فيه حتى يرفعا إليه ، وحتى يقبضه براحتيه أو بشئ آخر كانا ونحوه . فالذين يدعون غير الله من الأنبياء والأولياء ، رجاء أن ينفعهم وأن يدفعوا عنهم ، هم كمثل من بسط كفه ومده إلى ماء جارٍ في الأرض ليرتفع إلى فيه بمجرد بسط كفه ومده إليه ، وهذا لن يبلغ فيه الماء أبداً . وكذلك الذين يدعون الخلق ، رجاء شئ ، لن ينيلوا ذلك الشئ . فالذي يبسط يده إلى الماء ليبلغ فاه بذلك طالب بشئ من غير سببه وبدون آله ، فهو لن يدرك ما يطلب .

وكذلك الذين يدعون غير الله ليهبهم بعض ما خلق الله وبعض ما فى ملك الله
 طالبون الشئ بغير سببه ومن غير أهله ، فهم لن يدركوا ما طلبوا سجيىس الليالى .
 رابعاً ، جعله دعاء غيره من دعاء الكافرين « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » ،
 خامساً : رده على من تعلقوا بشئ دون الله فى الأرض أو فى السماء منبثاً بأن جميع
 من فى السماوات وجميع من فى الأرض خاضعون لله ساجدون له طوعاً أو كرها .
 فانه إذا كان كل شئ ساجداً لله خاضعاً له بالقسر والطاعة وجب على العاقل أن
 يخضع له مع هؤلاء الخاضعين ، وأن يدين له وحده مع الدائنين . ولن يضيره شيئاً
 أن يرغب عن عباد خاضعين لربهم طوعاً وكرهاً ، وأن يرغب فى ذلك الذى يرغب
 فيه وخضع له كل من فى السماوات ومن فى الأرض . سادساً : نبيه على من اتخذوا
 من دونه أولياء عاجزين عن النفع والضرر لأنفسهم فضلاً عن أن يملكوا شيئاً
 من ذلك لتغيرهم . سابعاً : قضاؤه بأن من دعا غيره أعمى ، وأن من دعاه وحده
 بصير ، وأن دعوة العباد ظلام ، ودعوة المعبود نور . وهل يستوى الأعمى والبصير
 أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ ثامناً : رده على دعاة المخلوقين وعبدة العباد
 بأنهم لم يخلقوا شيئاً فى هذا العالم فيستحقوا به العبادة والخضوع والدعاء والنداء ،
 رجاء أن يُعطوا عما خلقوا وأوجدوا . وإذا كانوا لم يخلقوا شيئاً ، فيتشابه الخلق
 عليهم : خلق المخلوقين المعبودين ، وخلق الله رب العالمين ، فلماذا عبدهم
 ودعاهم وسألهم ؟ أمن العقل والصواب أن تسأل غيرك ما لا يملك وما لا يمكن
 أن يملك ، بل من لا يملك نفسه ، وتدفع الممالك كل شئ جانباً وهو أرحم الراحمين
 وأعدل العاذلين ، وأقرب إليك من كل قريب ، وأسمع لك من أذنك وأدنى
 إليك من نفسك ؟ فإذا كان الله خالقاً كل شئ ، باعتراف عابدى غيره ، فكيف
 عبدوا غيره تعالى لو كانوا يعقلون ويتدبرون . وقد سجل الناس جميعاً على أن
 يرغبوا فى الممالك دون من لا يملك ، وأن يلجؤا إلى القوى القادر دون الضعيف

العاجز ، وأن يسألوا من يقدر أن يعطى دون من لا يقدر ، فما بال المشركين يضلون عن جبلتهم وفطرتهم عند عبادة الله وتوحيده ، ما بالهم ؟ فالآية حجة من الحجج الناطقة على بطلان دعاء الخلق وسؤال العبيد .

ممارسة الشيعى
في الآيه

أما الشيعى المصنف فقد حاول المماراة فى الآيه وحاول التنصل منها بالتأويل ، فزعم أن المراد بذلك ما يدعى من الجادات كالأحجار والأشجار دون العقلاء من الأنبياء والأولياء والملائكة والجان ، أو ما يدعى من الأنبياء والملائكة الذين يعتقد فيهم أنهم مساوون لله وأن لهم تأثير معه أو أن لهم شفاعاة اضطرارية قهرية . قال : ولا يبعد أن يكون المراد هؤلاء الذين أبطلت الآيه دعوتهم الأصنام خاصة . وهذه تأويلات فاسدة ، ومحاولات للخلاص من الآيه فاشلة : أما تأويلها بالجناد فواضح البطلان لأن الاسم الموصول (الذين) والضمير المذكور (لا يستجيبون) برهاتان على إرادة العقلاء ، ولأن المشركين لم يكونوا ، كما سلف ، يعبدون جماداً أصم مجرداً ، وإنما كانوا يعبدون عباد الله المقربين ويعبدون ما يتصل بهم من الآثار والأحجار والأشجار والنماثيل والصور ، وغاية القوم الحقيقية العباد المقربون وعبادتهم كمثل عبدة القبور والأمووات اليوم سواء ، ولأن المشركين كانوا بلا خلاف يعبدون الملائكة والجان والصالحين وغيرهم ، ونحن أخبرنا الآيه بأن الذين يدعوم المشركون من دون الله لا ينفعون ولا يضرون ، وأخبرت أن دعوتهم باطلة لزم دخول كل معبوداتهم فيها ، فلزم دخول الملائكة والجان والصالحين كاللوات وغيره ، ولأن لفظ الآيه عام ، ولأن قوله :

« له دعوة الحق » دليل واضح على إنكار الدعوات الأخرى والمدعويين الآخرين . : هذه الأمور كلها تبطل على الراضى تأويله الآيه بالجادات خاصة .

وأما تأويله لها بالأنبياء والأولياء والملائكة والجان الذين سواوا بالله أو اعتقد فيهم معه تعالى التأثير والشفاعة الاضطرارية القهرية ، فتأويل فاسد باطل أيضا

لأُمُور : أولها: أن المشركين الذين نزل فيهم القرآن أصالة ، وهم مشركو العرب ، كانوا معتقدين بأن جميع الأمور تصير إلى الله وحده دون سواه ، وأن كل ذلك بيديه وإليه ، ومؤمنين بأنه تعالى خالق كل شيء ، وأنه مالك ما في السموات وما في الأرض وما في العالم كله ، وأنهم ما عبدوا من عبدا من الأصنام والأوثان إلا رجاء أن يقرّبهم إلى الله وأن يشفعوا لهم : هذا كله مما أقرّبه المشركون لله . فهم لم يسووا معبوداتهم وأصنامهم بالله التسوية التامة المطلقة التي يعينها هذا الرجل وإخوانه من المحرفين . ثانياً الأُمُور : أن عباد القبور أنفسهم يعتقدون بأن للأولياء والأنبياء الذين يدعونهم من دون الله تأثيراً وأفعالا غريبة وخوارق مدهشة عظيمة ، وهم يصرحون بذلك ويتناقضون ، ولولا هذا الاعتقاد لما دعوا ولا فزعوا إليهم عند الاحتياج والضرورة ، ويعتقدون أن لهم شفاعات لا تخطئ ولا ترد ولا يطيش لها سهم . ولهذا يسمونهم متصرفين ويستدلون بأمثال قوله تعالى : « لهم ما يشاؤون عند ربهم » ، ويعنون بهذا الاحتجاج أنهم مطلقو الأفعال والتصرف والقدرة . وهذا معلوم عن القوم لا يشك فيه أحد . ثالث الأُمُور : أن الإنكار في الآية موجه إلى دعاء ذير الله لا إلى اعتقاد أن له شفاعاة أو تأثيرا وتصرفا . رابع الأُمُور : أن الآية قد حصرت دعوة الحق في دعوته تعالى وحده . فلا تكون إذن دعوة غيره إلا باطلة . خامس الأُمُور : أن المصنف الرافض ذكر في غير مكان من كتابه أن الأموات مثل الأحياء سواء مثلا ، بل صرح بأن الأموات أوسع قدرة وعملا وفلا من الأحياء . فإذا كان هذا حقا ، وهو عنده كذلك ، والشيعية يعتقدون أن العباد خالقون لأفعالهم موحدون لأعمالهم ، خرج من مجموع الأمرين أن للأنبياء وللأولياء تأثيراً أحياء وأمواتا ، وتصرفا في الحياة وفي الممات ، وإيجاداً وخلقاً في الحالتين . والشيعية بعد هذا يدعون الأموات من الأنبياء والأولياء ، ويستغيثون بهم ويسألونهم

ضروب المسائل . فالشيعة إذن يدعون الأموات مع اعتقادهم أن لهم تأثيراً
وتصرفاً وخلقاً وإيجاداً . فهم قد جمعوا بهذا ما زعم المخالف أن المشركين جمعوه
إذ نزلت فيهم هذه الآية . فإذا يصنع ؟ سادس الأمور : أن الآية قد ذكرت
أن هؤلاء المدعويين لا يستجيبون لمن دعاهم شيئاً . فإذا صح تأويل الشيعة الآية
بالأنبياء والأولياء والأموات فقد خرج من هذا أن الموتى من الصالحين ، أنبياء
وأولياء ، لا يستجيبون لمن دعاهم وسألهم واستغاثهم أبداً . وإذا كان دعاؤهم
ينهب عبداً باطلاً قام الدليل المطلوب على بطلان دعايتهم والاستغاثة بهم . وهذا
هو المطلوب من الآية . فالآية ، كيفما صرفت ووجهت وأولت ، برهان باهر
على بطلان دعاء الأموات وعلى ضلال الداعين لهم العاكفين على أجدانهم .
وأما تأويله إياها بالأصنام خاصة فيقال في الجواب : إن أصنام المشركين
الذين نزلت فيهم الآية كانت خليطاً من الأنبياء والصالحين والملائكة والجان ،
ومن صور هؤلاء وتمثيلهم وآثارهم ومخلفاتهم التي خلفوها كالقبور والمشاهد
والأماكن التي عرفت بالنسبة إليهم ... فإذا نهى القرآن الكريم عن دعاء الأصنام
أصنام العرب والمشركين ، وأنبا بأن دعاءها ضلال وباطل وإثم وجريمة دخل في
هذا كل هذه المعبودات من دون الله ودخلت كلها فيه ، فصار دعاء الأنبياء
والصالحين والملائكة والجان ضلالاً وباطلاً ممنوعاً وجريمة يعاقب عليها قانون
السماء . فانه لا خلاف في أن المشركين كانوا يدعون الملائكة والصالحين والجان
وكانوا يسألونهم ضروب حاجاتهم ومآربهم . فإذا حدث القرآن أن كل ما يدعو
المشركون من دون الله باطل ، وحدث أنه لا يستجيب لداعيه أبداً كان هذا التحديث
تحديثاً صريحاً بأن دعاء الجان والملائكة والأموات ، على اختلافهم ، باطل
وضلال ، وتحديثاً بأنهم لا يستجيبون لطالبهم وداعيتهم شيئاً ، وكان هذا صريحاً
بيناً في بطلان دعاء الأموات وسؤالهم ، وبطلان أمر وعمل كل من يدعوهم

تأويل آخر
وفساده

ويسألونهم . فالآية دالة على ما ذكرنا على كل حال .-

ثم يقال ثانياً : إن قوله تعالى : « له دعوة الحق » صريح ظاهر بأن دعوته وحده هي دعوة الحق ، وأن كل الدعوات لسواه هي دعوات الباطل والضلال ، إذ ما بعد الحق إلا الضلال . والآية قد قسمت الدعاء إلى نوعين : إلى دعائه تعالى وحده ، وجعلت هذا النوع من الدعاء هو الدعاء الحق ، وإلى ما يدعو به الناس من دونه تعالى ، وجعلت هذا هو الدعاء الباطل الذي لا خير فيه ولا نفع . فمن دعا الله فقد دعا دعاء الحق ، ومن دعا سواه فقد دعا دعاء الباطل والضلال والجهل . ونعوذ بالله من الباطل بجميع ضروبه وأشكاله وهيئاته ومعانيه ومبانيه .

وقال تعالى من سورة النساء : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضللاً بعيداً . إن يدعو من دونه إلا إناثاً وإن يدعو إلا شيطاناً مريداً لعنه الله ، وقال لا تخنن من عبادك نصيباً مفروضاً . -

وهذه الآية الكريمة خليق بالعقل المسلم أن يتدبرها وأن يقف عندها طويلاً مستلهماً ربه ما فيها من أسرار ومعان وتوحيد ، وما فيها من خود وطرده عن الخلق وعن الرغبة فيهم ، وما فيها من رد على هؤلاء المنقطعين إلى النساء وأضرحة النساء يدعوون ويسألون أفنان الحاجات وأشتات المطالب ، ثم يزعمون أنهم لم يأتوا منكراً ولم يفعلوا ما ينهى عنه القرآن وما ينادى ببطلانه وفساده جهاراً نهاراً .

ذكرت الآية أولاً الشرك وفضاعته وسوء عقباه وأخراه ، وعقبي من جاؤا ربهم به ، وأنبات أن الله لا يغفر شيئاً من هذا الذنب العظيم والجرم الجسيم وإن كان يغفر جميع الذنوب والآثام إن يشاء من خلقه وهو أعلم بهم وبمن هم أهل للغفران والانتقام . ثم أخذت الآية في تبيان هذا الذنب الذي جل عن الغفران وعن أن يتناولوه عفو الله وسعة رحمته وقد وسعت كل شيء : فذكرت في

بياتها أن المشركين الذين لا ينفق لهم هم الذين يرغبون عن الله وعن دعائه إلى دعاء الاناث ، أحط النوعين وأضعفهما وأقلهما خيراً وجدوى ومبنى ، ثم أبلغت في البيان فذكرت أن الذين يدعون الاناث من دون الله هم في الواقع لا يدعون إلا الشيطان المرید ، لأنه هو الذى أضاهم وأوقعهم في دعاء الاناث ورغبهم فيه وزينه لهم ، فهو السبب الأول ، وهو المحرض والباعث على ذلك الترام الفطيع والهوى المنكر المزدوى . فكأن الدعاء وجهه اليه هو ، وكأن عبادة الاناث عبادة له مباشرة ، اذ لولاه ولولا خطواته وخطيئاته لما أشركوا ولما عبدوا غير المعبود بحق : الله رب العالمين .

دعاء النساء في القرآن فدعاء الاناث بنص هذه الآية الكريمة من الاشرار ومن شر الضلالات والجهالات ، ومن أعمال المشركين الضالين الذين بث الله فيهم رسوله لا نقاذهم من هذه المهالك وانتشالهم من تلك الأوهام والحفر . وهذا الدعاء ، أى دعاء الاناث ، أى دعاء النساء مما أخبر الله عنه بأنه لا ينفقه لصاحبه ولا يرحمه إذا قدم عليه به . فدعاء الاناث والنساء من الأمور التي نص القرآن على بطلانها وفسادها وضلال الآتين بها . فإذا يقول دعاء الاناث والنساء ، ودعاء السب فلانة والسيدة فلانة ؟ وماذا يقول هؤلاء الهاتفون بأسماء « زينب » و « نفيسة » و « سكينه » وغيرهن من المدعوات المشهورات المعبودات في الأرض دون الله السموات ؟ وماذا يقول هؤلاء المائلون لمن ، المنقطعون إلى قبورهن وقماماتهن يدعون ويهتفون ويسألون ويضرعون وينادون ويخشون ويرجون ويطلبون جميع ما يشاؤون ويأملون منهم مطالب الدنيا والآخرة وحاجاتهم ؟ ؟ أيستطيع أحد منهم أن يزعم أن الاسلام لم ينه عن دعاء النساء وعن سؤالهن ، وقد جهر القرآن بأن المشركين هم الذين يدعون الاناث من دون الله ، وجهر بأن دعاءهن من الشرك الذى يجبل عن الغفران والصفح والمغفرة ؟

ودعاء النساء والرغبة فيهن وفي قبورهن ، ميتات ، من سوءات الإنسان الفاضحة
ومخازيه التي تجل عن الوصف والنعمة . وقد جبل الناس كافة ، حتى الأطفال
منهم ، على استضعاف المرأة وانتقاصها وتهوين لها ولشأنها وأمرها وقدرتها ،
وقد عرفوها أبداً ضعيفة عاجزة ، في حاجة أبداً إلى الحماية والرعاية والكفاية
الضئيلة وتلة حولها وطولها . ولكن هذا كله ، لجهل الإنسان وغباوته وجمعه بين
المتناقضات ، لم يمنهم من عبادتها ، ولم يحجزهم عن الاستنصار بها والالتقاط إليها
وإنزال الحاجات المختلفة بها كعدم موتها وفنائها واندحارها وانهازام سلطانها الوهمي
الموجود في شهوات الرجال دون عقولهم ورجولتهم . وهذا من غرائب الإنسان
وغرائب نقصه الفظيع .

وقال تعالى من سورة الزمر : « أليس الله بكاف عبده ؟ » ويخوفونك بالذين آية خامسة
من دونه ، ومن يضلل الله فإله من هاد ومن يهد الله فإله من مضل ، أليس الله
بعزيز ذي انتقام ! ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل
أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو
أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون
(إلى قوله) أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا
يلاقون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون . وإذا
ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه
إذا هم يستبشرون ، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت
تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون » .

وهذه الآيات من عجائب آيات الله في الدعوة إلى التوحيد المطلق والتجرد
عن كل مخلوق وكائن سموماً إلى الله وحده وانتقاعاً إليه ، لا إله إلا هو سبحانه
وتعالى عما يشركون . وقد أبدعت في هذه الدعوة إبداعاً يقطع كل أمل على

من عجائب
القرآن

الآمل في غير الله ، ويصدق كل باب بين العبد والعبد والمخلوق والمخلوق ، وبالفيت في هذا بحق حتى وترت جميع الصلوات والأسباب في هذا الوجود غير صلوات الوجود كله بربه وخالقه وما بينه وبينه من الأسباب : فلم تدع لعبد مفراً إلا إلى الله ، وأين فرار الخلق إلا إلى الخالق ! ولم تبق لمخلوق حاجة عند مخلوق أو مأرباً يطلب إلا من الله ، وأين يطلب المؤمن حاجاته وآربه إلا عند ربه ورب العالمين ! لقد جاءت وفي كل حرف منها شهاب لتحريق كل شيطان يدعو إلى الشرك وإلى الأنداد .

ذكر الله أولاً ، بأسلوب تنخلع له أفئدة الشرك والمشركون ، أنه تعالى كاف عبده فلا يحتاج إلى سواء في أمر من أموره الوجودية أو المادية فقال : « اليس الله بكاف عبده ؟ » وأي مؤمن يمكن أن يجيب على هذا السؤال إلا ويكون جوابه : بلى . وإذا كان الله كافياً عبده فكيف لا ينقطع إليه وحده : فيدعوه ويرجوه ويسأله ويخافه ويقف في بابه وحده ! وإذا كان الله كافياً عباده فكيف يفزعون إلى غيره وكيف يدعونه وينقطعون إليه أو إذا كان كل عبد محتاجاً إلى الله وإلى كفايته ورعايته فكيف يفزع العبد إلى المحتاج المكفى ويدع الرب الكافي ؟

من خلأئق
المشركين
ثم ذكر ثانياً خلقاً من أخلاق الإنسان العريقة في القسم ، هذا الخلق هو خوفه وتوحيده غيره مما يعبد من دون الله من العباد العاجزين الضعفاء ، فقال « ويخوفونك بالذين من دونه » فإذا قلت لهم : ادعوا الله وحده ودعوا فلاناً وفلاناً فانهم لا يجردون ولا ينفعون ولا يضررون ، قالوا لك : كلا ، إن هؤلاء من الأمور والحظوة عند الله والشفاعات والوساطات ما يستطيعون به أن ينالوك بأنواع الأذى والبلاء ، فحذار من إغصابهم وغضبهم ، وحذار من أذاهم وبلائهم وسلطانهم الضار النافع . وهذا عينه هو ما يقوله اليوم عبدة القبور والأهوات .

والسيدات لدعاة التوحيد وللهداة إلى دعوة الله الخالصة . وقد رد على هذا الخوف والتخويف ، خليل الله إبراهيم إمام الموحدين فقال لقومه : « وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » .

نم ذكر خلقاً آخر من خلألق المشركين الجاهلة فقال : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » . ومع هذا الاعتراف الصريح والایمان الخلق بأن يذودهم عن الشرك والحوم حوله يظنون يعبدون ويدعون ويسألون غيره ممن لم يخلقوا شيئاً فيملكوه فيصح أن يسألوه ويطلبوه لا فى السموات ولا فى الأرض . وهذا هو الضلال البعيد حقا .

ثم أمر نبيه أن يسأل هؤلاء المشركين سؤالاً لا يجدون له جواباً فقال : « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته » . وهم ، لابد ، معترفون بأن مايدعون وما يعبدون من الأصنام والأوثان لا يمكن أن يدفع ماأراد الله بخلقهم من الضر والنفع والنعمة والنتمة . . . وهذا ضرورة عند جميع المؤمنين بالله . وإذا كان ذلك كذلك فكيف يتمدون الله الذى بيده الضر والنفع والخير وكل شئ إلى ما لا يقدم ولا يؤخر وما لا يملك شيئاً ؟ هذا سؤال باهر معجز ، وهم لن يعرفوا جوابه إلا بالانكشاف عن الشرك والانحراف عن وسائله وأسبابه والاستمسك بعرى التوحيد الخالص المجرد .

ثم أمر نبيه ثانياً بأن يقول لهؤلاء المشركين وللناس أجمعين « حسبى الله » حسبى الله
حسبى الرغبة فيه عن الرغبة فى سواء ، وحسبى دعاؤه وسؤاله عن .دعاء الخلق
وسؤالهم جميعاً ، وحسبى خوفه ورجاؤه عن خوف العباد ورجائهم ، وحسبى
الانقطاع إليه عن الانقطاع إلى ماعداه : « حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون »

لأن كل شيء منه وإليه ، ولأن له ملك السموات والأرض وله كل شيء .
والإتكال لا يكون إلا على القادر الذي يستطيع أن يضر وأن ينفع ، وأن يدفع
ويمنع كي يستطيع حماية من اتكل عليه ورعايته وتأمينه مما يخاف ويحذر ، وكل
من ليس كذلك باطل لا يصح التكلان عليه ولا الرجوع إليه .

التعلق . ثم ذكر أن داء هؤلاء الضلال المشركين هو زعم الشفاعة والتعلق بها
بالشفاعات هو وحسبانهم ، جهلاً وضلالاً ، أنهم إذا تعلقوا بقوم مقربين إلى الله مختارين عنده
الداء فدعواهم ورغبوا فيهم شفعا لهم عند ربهم فشفعهم فيهم لحظوتهم لديه ، فنالوا
ما أملوا وطلبوا ، وأمنوا بما رهبوا ، لأن لهم الجاه العريض والشفاعة العظيمة ،
ولأن لهم ما يشاءون عند ربهم . وما علموا أن الشفاعة كلها لله فهو الذي يأمر
بها لمن يستحقونها من عباده الخالصين المخلصين ، وهو الذي يعلم الخلق بها .
وما علموا أنه لا يشفع أحد من عباده الممتازين المقربين إلا إذا أذن له وأمره
بأن يشفع لمن يرضى عنه من عباده الصالحين . فالشفاعة والشفيع لا يخرجان عن
ملك الله وعن إرادته وهيبته وقبضته . فلن ينال إذن شيء من ذلك إلا بالرجوع
إلى مالك ما هنالك ، فقال : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أو لو كانوا
لا يملكون شيئاً ولا يعلون ، أى لا يملكون شيئاً من الشفاعة ، ولا يعلون
عن سألهم الشفاعة ودعواهم لها شيئاً لا تقطع الأسباب . « قل لله الشفاعة جميعاً »
وقل « له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون » مجردين من كل شيء : من
الشفاعات ومن الشفعاء . فليس أمام العبد إلا الله ، وليس له مفر إلا إليه ، ولن
ينال شيئاً من حاجاته وآماله إلا عنده وبأذنه ورضاه . فلا مندوحة من الانقطاع
إليه وحده .

إذا ذكر الله ثم ذكر طبعاً آخر من طباع المشركين الفاسدة البليدة فقال : « وإذا ذكر
وحده اشأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم

يستبشرون . أى إذا دعى الله وحده ، وسئل وجهه ، وعبد وحده ، ورجى وحده ، وخيف وحده ، نفروا وأجفلوا وكرهوا ذلك التوحيد وزمجروا من دعائه وطلبوا أن يضاف إليه تعالى فلان وفلانة : فيدعوا ويخافوا ويرجوا ويمبدوا معه . أما إذا ذكر ما يعبدون غيره تعالى من المخلوقين فذكرت الشفاعات « والجاهات » والولايات والكرامات ، وما فى دعوتهم وسؤالهم من قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات . وإدراك المطالب والمآرب : أما إذا ذكر ذلك فانهم يطبقون سروراً واستبشاراً وفرحاً : فتنتطق ألسنتهم بذكر الأسانيد والأقاصيص ، وتنسبط بالتحديث عن الكرامات والخوارق ، وتنبليج أسارى وجوههم بضياء الآمال العريضة النضة التى يرجونها عندهؤلاء الذين يدعون من دون الله « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون » .

ويشبه هذه الآية قوله تعالى من سورة الاسراء : « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً » وقوله تعالى من سورة « المؤمن » : « ذلکم بانه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحکم لله العلى الكبير » .

وهذه السورة : سورة الزمر ، من سور التوحيد المكثرة من الدعوة إليه ومن إقامة البراهين عليه بألوان من البيان والأساليب ، وأقنن من الايضاح والقوة . وهكذا الكثير من السور المكية . وقال تعالى فى أول السورة : « فاعبد الله مخلصاً له الدين ، إلا الله الدين الخالص . والذين اتخنوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار » . ومن الواضح البين عند الجميع أن الدعاء ، برغب ورهب . وأن المسألة بخضوع وخشوع ، من صلب الدين ومن خالصه وتقايته . وقد وكد الله

الأمر بإخلاص الدين له تعالى ، ومعنى إخلاصه أن يكون كله له . وذكر بعد هذا الأمر الصادر بإخلاص الدين له أن الذين لم يخلصوه له هم الذين اتخنوا من دونه أولياء قائلين : ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله ويدنونا منه . وفي هذا بيان واضح أن اتخاذ الأولياء من دون الله وعبادتهم - والعبادة معرفة ومعرفة - أن الدعاء من أفضل أنواعها - ينافي بإخلاص الدين وتوحيد الله ، وإن كان كل الغرض من ذلك الشفاعة والوساطة . وهذا ظاهر .

آية سابعة

وقال تعالى من سورة «الأأنام» «قل أرأيتكم إن آتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أخبر الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون . إليه إن شاء وتلنسون ما تشركون » .

وهذه الآية مصرية ، أن إشرأكم لم يكن إلا في دعاء غير الله ، وذلك أنها ذكرت أنهم إذا فزعوا وخافوا من عذاب الله أو من الساعة لم يدعوا غيره تعالى : لانبيا ولا ولأ ولا ملكا ولا جاناً ولا حجراً ولا شجراً ، بل أخلصوا الدعاء كله له ، ثم أوضحت أنهم إذا أخلصوا الدعاء له وحده وإياه دعوا ، فقد نسوا بذلك إشرأكم . فكان في هذا بيان واضح ظاهر أن الإشرأ بالدعاء وأن الإخلص كذلك فيه ، فإذا دعوا الله وحده فقد عبدوه وحده ، وإذا دعوا غيره فقد عبدوا غيره . وهذا يوافق ما ذكر في غير آية عن المشركين بأنهم كانوا إذا ركبوا في الفلك وخشوا الفرق والهلاك دعوا الله مخلصين له الدين ، فإذا نجاهم وأخرجهم إلى البر وأمنوا الفرق والهلاك إذا هم يشركون . ويعنى بإشرأكم في هذه الآيات دعاءه غيره تعالى من الأصنام والأوثان والمخلوقات الأخرى كما هو ظاهر من السياق .

آية ثامنة

ثم قال من سورة الأأنام أيضاً : «قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله» وظاهر من هذه الآية أيضاً أن العبادة التي نهى عنها هي الدعاء ، وظاهر

منها أيضاً أن دعاءهم غير الله هو معنى إشرأكلهم به تعالى ، أو هو من إشرأكلهم .
ثم قال من السورة نفسها : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » . فذكر أنهم يدعونه تعالى في ظلمات البر وظلمات البحر تضرعاً وخفية ناسين كل ماسواه ، وأنهم إذا نجوا وفارقوا مناطق الخطر والظوف البري والبحري أشركوا ، أى أشركوا ، ولا ريب ، في ما أخلصوا فيه وهو الدعاء والتضرع والظوف والرجاء ، لأن هذا هو المذكور في الآية ، وهو المحكى المعروف عن النعم في وقت إخلصهم وتوحيدهم

ثم قال في السورة أيضاً : « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا الآية العاشر ونرد على أعتابنا بعد إذ هدانا الله كاللئى استهوته الشياطين في الأرض حيران إليه أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتتنا ، قل إني هدى الله هو الهدى وأمرنا بالنسليم لرب العالمين » .

فأوضحت هذه الآية بأنه لا يصح للمسلم أن يدعو من دون الله مالا ينفعه ومالا يضره ، وأوضحت أن من دعا هذا الذي لا يضر ولا ينفع فقد ارتد على عقبه بعد أن هداه الله وهدته فطرته الصحيحة ، وأن الشيطان قد أغواه واستهواه وأضله فأصبح حيران ، حيران لا يدري ما الهدى ولا ما الضلال ، ولا يعرف ما الحق ولا ما الباطل ، وأصبح ينادى من مكان بعيد فلا يجيب من دعاه إلى الهدى ، ولا يطيع من أمره بالرشد ودله على الخير ، وذلك لأن الهدى بيد الله يمنحه من يتعرض له من عباده أهل الإخلاص للحق والطلب الملح له : هذا شأن من دعا مالا ينفعه ومالا يضره من دون الله . ولا شك أن الأموات لا ينفعون ولا يضرهم باعتراف هؤلاء الداعين إلى عبادتهم . والحجة التي يدفعون بها عن عبدة الأموات هي زعمهم أنهم يعتقدون ويقولون أن من يدعو من

المشايخ والأموات لا ينفعون ولا يضررون ، ولا يملكون لأنفسهم ، فضلاً عن غيرهم ، خيراً ولا شراً ولا موتاً ولا حياة . فإذا كان حقاً نازعوه في معرض الدواعي عن عبادة الأموات العاكفين على الأحداث فقد قطعت عليهم هذه الآية وغيرها من الآيات كل مانسجوه وحاكوه من الشبهات والحجج والزهات احتجاجاً على دعاء الموتى وسؤالهم ضرور الحلاج والمآرب . وقد بين الكتاب والسنة أن أفضل الخلق لا يملك الضر والنفع لأنفسه ولا لغيره فقال تعالى : « ليس لك من الأمر شيء » ، وقال : « إنك لا تهدي من أحببت » وقال : « ألا له الخلق والأمر » ، وقال : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله » ، « قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً » ، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً » ، إلى غير ذلك من الآي .

فصوص الدين واضحة ظاهرة ناصئة تلي أن أفضل الخلق وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهاً وكرامة ومنزلة لا يملك خيراً ولا شراً ولا نفعا ولا ضرراً ، والمخالفون يزعمون أنهم معترفون بهذا . فإذا كان ذلك كذلك علم منه ومن الآية المذكورة ومن الآيات الكثيرة أمثالها أن هؤلاء الذين يدعون الأموات وأصحاب القبور قد ارتدوا على أعقابهم وأضلهم الشيطان وأصبحوا حيارى في دينهم وعقائدهم ، لأن الله يقول في الآية المذكورة : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى » . الآية

وفي معنى هذه الآية آيات كثيرة كقوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون » ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وكقوله : « ولا تدع من دون الله ملاً ينفك ولا يضررك » ، فإن فعلت فانك إذن من الظالمين » .

وقال في ختام سورة الأنعام : « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله الآية الحادية
رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبني عشر
رباً وهو رب كل شيء ؟ »

والصلاة معروفة بأنها قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء ومناجاة وخشوع
وخضوع وذلة وتمسك وقراءة وخوف ورجاء وأمل ونحو ذلك . وهذا كله يجب
أن يكون لله وحده بنص هذه الآية الكريمة . والدسك هنا لعله الذبح وهو
القربان إلى الله . فالذبح يجب أن يكون لله بنص الآية الكريمة ، فلا يذبح لغيره
أبداً . والحيا هو الحياة . فالحياة يجب أن تكون كلها لله بما يقع فيها من عبادات
وصلوات وصيام وخوف ورجاء وخشوع وخضوع ودعاء ونداء وغير ذلك من
هذه المعاني ، فلا يكون نوع من ذلك لغير الله . والمات أيضاً كله لله بما فيه من
رجوع وحساب وثواب وإعطاء وإرضاء ورضا وإدخال في الجنات وإبعاد من
النيران وزيادة في الحسنات وكل ما هناك .

والإنسان عبارة عن حياة وعن موت ، وهو إما حي وإما ميت ، وهو في
الحالين والحيتين خالص لله وحده لا شريك لأحد فيه . هذا هو المسلم الصحيح
الاسلام ، وهذا هو حقيقة الاسلام والايمان والتوحيد ، وهذا هو ما دلت عليه
هذه الآية الكريمة . والمسلم حقاً لا يصح له أن يتخذ رباً غير الله ، فلا يهب
مخلوقاً معنى واحداً من معاني الربوبية ، لأن معاني الربوبية كلها لمن خلق كل
شيء وهو الله رب العالمين .

وقال تعالى من سورة « المؤمن » : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم آية أخرى :
وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير » .
ولا أصرح من هذه الآية رداً على هؤلاء الذين يابون دعوة الله وحده
ويدهون سواء من الأموات والأشياخ الناهيين . فان هؤلاء إذا دُعي الله وحده

إذا دعى الله وقيل لهم : لا يدعى إلا الله ، ولا تجوز دعوة سواء ، صاحوا : يا مناهضة
 هذه التوحيد وإنكاره والكفر به ، وزعموا أن ذلك عدوان على دين الله
 الصالحين وإساءة بالغة إليهم . وإذا وجدوا من يدعو إلى توحيد الله والاستغناء
 به عن سواء وإفراده بالدعاء وما يلزم الدعاء من ممانى العبودية والعبادة عابوه
 ومجوه وقلوا فيه وفي اعتقاده الأباطيل وكفروا به وبدعوته وتوحيده . ومن يدعو
 إليه . أما إذا قيل لهم : بل يدعى فلان وفلانة ويستغاث بالأموات والصالحين
 والمشايخ ، ويمكف على أجدانهم وآثارهم للاستشفاع وطلب البركات والامدادات
 رضا وفرحوا واعتبطوا وقابلوا ذلك بالرضا والایمان والاطمئنان وعدوه من
 مقالات المؤمنين المسلمين . وإذا وجدوا من يقولون هذا القول ويدعون إليه
 وينهون هذا المذهب المشرك أحبهم ورضوهم وأعلمأنوا إليهم وقابلوهم بالاحترام
 والتبجيل والتصديق والبنية والامتداح والثناء الكاذب المزور كما صنع هذا
 الشيعي المصنف . فانه قابل أنفاذ العلماء وأعضاء الشريعة الاسلامية بالنجريح
 والافساق والا كفار والمهزاء والبذاء والكفر بهم وبما لهم من الأيادى على الاسلام
 والعلم والأخلاق والفضائل . . . لأنهم قالوا لا يدعى إلا الله ، ولأنهم كانوا
 لا يدعون غيره تعالى من الأموات ، وقابل جهلاء المؤلفين وجهلاء العلماء بالتكريم
 والاجلال والامتدح والثناء . . . لأنهم كانوا يدعون الاموات ، ولأنهم كانوا
 يشيدون الشبهات على جواز دعوتهم والمعكوف على قبورهم ، ولأنهم كانوا يقصدون
 في فريق التوحيد ، وفيمن قالوا لا يدعى ولا يعبد إلا الله . وهذا الدأب هو ما حكاه
 الله عن المشركين بقوله : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك
 به تؤمنوا » . أى إذا دعا محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين الله وحده ونسوا
 ما خلاه من الأصنام والأوثان والأغيار الأخرى كفروا بهذا الدين الذى جاء
 به هؤلاء الذين لا يدعون إلا الله بأشراكهم ، بأن ذهبوا يدعون ما يدعون من

دونه تعالى لإثباتاً لوجودهم في جانب وجود أهل الله وحزبه وحده ، وإثباتاً لوجود شركهم وضلالهم ازاء توحيد محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين . . . « وإن يشرك به تؤمنوا » أى وإن يدع الله ويدع معه غيره من المعبودات الأخرى بأن يقال حينئذ : يا الله ، وحينئذ آخر : يا فلان أو يا فلانة ، يؤمنوا بهذا الاشرار ويصدقوه ويقرّوه . وهذا هو عين ما عليه عبدة القبور اليوم خذو القذة بالقذة وخذو النمل بالنمل . فما أشبه الليلة بالبارحة أو ما أشبه الليل بالليل !

ثم قال في هذه السورة عنها : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » أى ادعوا الله مخلصين له الدماء والنداء وغير ذلك من معاني الدين وأنواعه ، ولا تشركوا به شيئاً في دعاتكم ودينكم ، ولو كره ذلكم التوحيد منكم المشركون الكافرون ، ولو كرهه أهل الأرض جميعاً .

آية أخرى

ثم قال من السورة نفسها أيضاً : « والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ » ، إن الله هو السميع البصير « أى إن الله وحده هو القادر على أن يقضى بين الخلائق بالحق والعدل والحكمة لأنه هو الخالق لكل شئ . . . وأما الذين يدعونهم من دونه تعالى فمأجزون جميعاً عن أن يقضوا بشئ . وأن يحكموا على شئ وأن ينفعوا أو يضروا ، لأنهم عباد أذلة ، ممدود عليهم رواق العبودية . فما أضل إذن هؤلاء الذين يدعون من لا يستطيعون أن يقضوا لهم ولا لنفسيهم بشئ . لا يغيروا ولا يثيروا ، وما أغنى وأبلى من يعملون عن دعوة الله القاضى بين جميع الخلق بالحق والعدل والحكمة . إلى دعوة من لا يقضون بشئ لا داعيهم ولا غيره ! فأى الفريقين - الفريق الذى لا يدعو إلا الله ، والفريق الذى يدعو ويدعو سواه - أحق بالهدى والرشاد والهدى ؟

ثم قال من هذه السورة أيضاً : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » . قلتم أولاً بالدعاء ثم ذكر

(٢٣)

بعده أن الذين لا يعبدون الله ، استكباراً ، مأوام النار . فدل ذلك على أن الدعاء هو العبادة ، أو أن الدعاء عبادة ، ودل على أن العبادة التي أوعدها الله المستكبرين عنها في الآية بالنار والنكال هي الدعاء . ويصحح هذا الذي يبدو من الآية الكريمة ما رواه النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » رواه الأربعة وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وروى من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله : « الدعاء من العبادة » وروى من حديث أبي هريرة عن رسول الله قال : « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » . قال ابن حجر : صححه ابن حبان والحاكم . والعبادة باتفاق أهل الاسلام لا تكون إلا لله .

آية أخرى

ثم قال من السورة المذكورة أيضاً : « فادعوا الله مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين . قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين » إلى أن قال : « والذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا ، بل لم يكن ندعو من قبل شيئاً ، كذلك يضل الله الكافرين » . فأوضحت هذه الآية أن المشركين إذا سئلوا يوم القيامة بين يدي الله وقيل لهم : أين آلهتكم الذين كنتم تشركونهم في عبادتكم ، فأرادوا البراءة منهم قالوا : إنهم قد غابوا عنا وضلوا ، ثم عدلوا عن هذا الجواب إلى التبري من أن يكونوا أشركوا بالله شيئاً فقالوا « بل لم يكن ندعو من قبل شيئاً » . غير الله . وفي هذا بيان ظاهر بأن الاشتراك الذي لموا عليه وأوخنوا فأرادوا أن ينكروه وأن ينزهوا أنفسهم عنه هو دعاء غير الله . ولهذا هربوا إلى

إنكار أن قد يكونوا قد دعوا أحداً غير الله حينما أرادوا البراءة من الشرك والكفر ، قال الله : « كذلك يضل الله الكافرين » .

وقال تعالى من سورة الأحقاف : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، آية أخرى أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ؟ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو آتارة من علم إن كنتم صادقين . ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

يقول تعالى لعبد الله ونبيه محمد ﷺ : قل لمن راحوا يدعون عباداً مخلوقين مثلهم ، ويسألونهم حاجاتهم ومآربهم المختلفة ، وهم عاجزون عن أن ينفعوا أنفسهم وأن يجلبوا لها خيراً أو يدفعوا عنها شراً : قل لهم : أخبروني عن هؤلاء الذين تدعونهم وتسألونهم ، هل خلقوا شيئاً من الأرض فلكوه فاستطاعوا أن يهبوه من شلوا وأن يمنعوه من شاءوا فذهبتم تسألونهم إياه وتطلبونه منهم لأنه ملك لهم ؟ فإن كنتم تزعمون لهم هذا فأروني هذا الذي خلقوه من الأرض ، وأخبروني كيف خلقوه ، وكيف كان ذلك ؟ وما البرهان عليه لديكم ؟ وهذا ما يفجزكم إجابته وبرهانه . . . وإذا كنتم لا تزعمون لمن تدعون هذا الأمر ، وكنتم لا تدعون أنهم خلقوا شيئاً من الأرض ، فأخبروني عن أمر آخر لعلكم تزعمونه لهم ، ولعلكم تدعونهم وتسألونهم من أجله ، أخبروني هل تزعمون أن لهم شركة في السموات وملكاً فيها تسألونهم أن يعطوكم منه شيئاً وأن يمنحوكم كله أو بعضه ؟ فإن كنتم تزعمون لهم هذا أو هذا فأقيموا على ما تزعمون البرهان ، والبرهان إما مقبول مقبول وهو الرواية المتصلة بمن قوله حجة وهو الكتاب والوحي ، وإما معقول وهو الأتارة من العلم . فأتوني إذن بكتاب أو آتارة من علم إن كنتم صادقين . أما إذا عجبتكم عن هذا كله فعجزتم عن أن تثبتوا لهم شركاً لا في السموات ولا في الأرض

ومن السموات والأرض يتألف العالم المعروف لكم ، فقد وجب عليكم أن تعلموا أنهم لا يستجيبون لمن دعاهم وسألهم ، لأنهم يسألون ما لا يملكون وما ليس لهم ، لأنهم لم يخلقوه ولم يكن لهم سبب ولا أثر في خلقه وإيجاده . وإذا علمتم هذا حقاً فاسمعوا آية الله الخالدة : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) .

أضل الناس وفي الحق أنه لا أضل ممن يدعو من دون ربه من لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وذلك أن الضلال ضلالان : ضلال في ما بين العبد والعبد ونفسه ، وضلال في ما بين العبد وربه ، أو ضلال في أمور الدنيا وضلال في شؤون الآخرة الذي هو الدين . وهذا الذي يدعو من لا يستجيب له إلى يوم القيامة قد جمع الضلالين : الضلال في ما بينه وبين العباد ونفسه ، والضلال في ما بينه وبين ربه ، أو الضلال في شؤون دنياه والضلال في أمور دينه . أما الضلال الأول فهو أنه يدعو من لا يستجيب له ومن لا يسمعه ومن لا ينفعه لو سمعه ، فهو خاسر في هذا الدماء ، ناصب دون أن يلقى ثمرة أو فائدة لتعبه ونصبه ، وهذا عين الضلال . ولأن الضلال هو الخروج عن الطريق القاصد والمنهاج الراشد . وأما الضلال الثاني فهو أنه في هذا الدماء الذي يظن أنه يقر به إلى ربه ويرضيه عنه ويثبته به الثواب والجزاء الحسن يغضبه عليه ويستحق به عقابه ومقته وطرده وسخطه . وذلك لأنه قد أشرك به عبداً من عباده الخاضعين له ، عبداً قد خلقه لعبادته . وهذا أقبح الضلال . فقد جمع الداعي من لا يستجيب له الضلالين ، فكان بذلك أضل الناس وأجهلهم - عائدين بالله من الضلال بسائر أنواعه وأقسامه -

أقبح التبيح وفي الحق أيضاً أنه لا أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وذلك أنه من الضلال أن تريد من عبد أن

يهبك ما يملكه عبد آخر غيره من العباد ، ولكن الأقبح من هذا والأوضح ضلالاً وغياً أن تريد من عبد أن يهبك ما يملكه ربك ورب العالمين أجمعين ! وأقبح هذا القبيح أن يكون هذا العبد الذى تطلبه أن يعطيك ما يملكه رب العالمين عبداً ميتاً ميتاً تحت التراب والظام على رغم أنفه .

فمن ألقى أنه لا أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غفلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين . وذلك أن الذى يدعو هذا الذى لا يستجيب له ولا يسمع منه ولا يعلم عنه شيئاً ، إنما يريد بدعائه إياه أن يسمع له وأن ينفعه أحد أنواع النفع ، أو كل أنواعه : فإذا كان ذلك المدعو لا يستجيب له أبداً كان هذا من الضلال الظاهر فإذا كان ذلك المدعو أيضاً الذى لا يستجيب إلى يوم القيامة سيصير عدواً لداعيه . فى الساعة التى كان يرجو نصرته ومفوثته ومعوثته فيها كان من الضلال الظاهر ثم إذا كان ذلك الداعى الذى سوف يلقى جميع أنواع ماذكر من نسيانه ومن معاداته ومن الكفر به وبعبادته سوف يجزيه ربه ، على نصبه وعبادته وأعماله الناصبة ، النار والعذاب الأليم الدائم ، كان هذا أيضاً من الضلال الظاهر . . . فقد جمع ذلك المسكين أنواع الضلال وشبر الضلال ، فمن أضل إذن منه !

وهذه الآيات دالة بوجوه كثيرة وأساليب مختلفة واضحة جلية على بطلان ما فى الآية دعوة الأموات وعلى أن دعائهم قد وقعوا فى الإلشراك والكفر برّب العالمين من ضروب وذلك أنها قد عنفت المشركين ضروب التعنيف على دعائهم غير الله ، ولم تذكر عنهم غير الدعاء ، ثم ردت عليهم دعائهم بحجة باهرة قاهرة يعقلها جميع الناس ، وهى أن من يدعو من دون الله لم يخلقوا شيئاً فى هذا العالم . وليس لهم شرك ولا ملك لا فى سماواته ولا فى أرضياته ، بل الملك كله لله وحده . وهذا يعترف به ويقره المشركون ، كما ذكر القرآن عنهم . ومن لا يملك شيئاً كيف يسأل التملك ؟

ما فى الآية
من ضروب
الدلائل

وكيف يطلب أن يهب شيئاً لم يخلقه ولم يملكه لو كان المشرك بربه يعقل شيئاً ؟
وهذه الحجة ، في إبطال دعاء المشركين غير ربهم ، هي حجة باهرة قائمة على بطلان
دعوة الموتى وبطلان الانقطاع إليهم . ثم ذكرت بعد هذا الاحتجاج العجيب
على دعاة المخلوقين أنه لا أضل من الذين يدعون من لا يجيبونهم ومن لا يسمعون
دعائهم ولا يعملون حالهم . وهذا تقض صريح على دعاة القبورين لأنهم يدعون
من لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة . وهل يستجيب الميت لداعيه ؟ فلا أضل
وأجهل من دعاة الميتين بنص الآية الكريمة :

ثم ذكرت أن دعاء غير الله عبادة لمن دُعي بقوله « وكانوا بعبادتهم كافرين »
وهي لم تذكر عنهم في مقام الرد عليهم والزاوية بهم غير الدعاء ، فذكرها العبادة
بعد ذكر الدعاء دليل على أن الدعاء عبادة ، وعلى أن عبادة المشركين لغير الله
كانت بالدعاء ، أو أن الدعاء كان منها . وفي هذا كله الرد الواضح على هؤلاء الذين
يدعون الموتى ويرحمون أنهم لم يعبدوا ولم يشرؤا بهم بدعائهم وسؤالهم إليهم .
والآية واضحة أيضاً في أن أولئك المدعوين المعبودين قوم عقلاء من البشر
والملائكة والجان ، ولم يكونوا جماداً مجرداً كما زعم ، والصفات التي ذكرت لهم في
الآيات دالة على ذلك دلالات بينة ظاهرة . وهذه كلها مناقضات لعبدة القبور
الما كفين عليها يستجدون ويدعون

آية أخرى : وقال تعالى في آخر السورة : « ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا
الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ، بل
ضلوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفكرون » .

فالمشركون على اختلاف صور شر كهم وتباين مظاهرهم ومظاهر ضلالهم
ما اتخذوا الأصنام والمعبودات الأخرى من دون الله إلهة إلا قرابين إليه تعالى
ليقرّبهم عنده بشفاعتهم ووساطتهم ، وما لهم من الجاه والمنزلة العظيمة القريبة
قرابين

أما غايتهم فهي هو وحده لا شريك له .

والقربان هو ما يتقرب به إلى الشيء ، فالقربان إلى الله هو ما يتقرب به إليه وإلى رضاه ونيل ثوابه وجزائه ، والقربان إلى الصنم ، مثلاً ، هو ما يتقرب به إلى الصنم ، والقربان إلى النبي والولي هو ما يتقرب به إليهما وإلى شفاعتهما وإلى رضاهما ووساطتهما . فقرايين المشركين التي هي آلهتهم ومعبوداتهم التي اتخذوها من دون الله ، لا يعدو معناها معنى الأولياء والوسطاء والشفعاء والوسائل عند هؤلاء العاكفين على الأحداث . فالجميع يراد منهم التقريب إلى الله زلفى ، والجميع غايتهم الوصول إلى الله والحظوة برضاه . فمابد الصنم مثلاً لم يعبد له لأنه في عقده رب خالق قديم مع الله باق بقاءه ، بل عبده متقرباً به إلى الخالق القديم الباقي وكل شيء يفنى ، فهو قربان إلى الله لا غير . وعابد النبي والولي لم يعبد له لأنه في اعتقاده رب خالق قديم مع الله مساوٍ له في جميع الصفات والأسماء ، ولكن عبده ليكون له شفيماً ووسيطاً ، وليكون له وسيلة لدى ربه القديم الباقي الدائم . فالغرض متحد ، والعقد متحد ، والمظهر متحد ، فأين الفرق ، وأين الاختلاف ؟ والأمركا قال الشاعر الجاهلي (بل كل ذي رأى إلى الله واسل) وكما قال الجاهلي الآخر : (وليس وراء الله للمرء منهج) .

وقال تعالى من سورة سبأ : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وما لهم فيها من شرك ، وما لهم منه من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » الآيات .

وقد كرر الكتاب الكريم هذا الاحتجاج الباهر على المشركين العادلين بالله غيره من خلقه الضعفاء العاجزين ، وذكره في سور مختلفة بأساليب واضحة عجيبة . وهذا الاحتجاج الباهر هو أن هؤلاء الذين يدعون من دون الله فقراء عاجزون ، لم يخلقوا ولم يملكوا شيئاً في هذا العالم العظيم الواسع ، لافي العلويات

وهي السموات ، ولا في السفليات وهي الأرضون . والمشركون لا ينازعون في هذا ؛ أى لا ينازعون في أن من يعبدون من دون الله لم يخلقوا شيئاً ، ولا ينازعون في أنهم مملوكون هم وما يملكون في الظاهر لله ، مخلوقون له ، واقصون تحت سلطانه وقهره وقصره . فاذا كانوا بهذا المكان من الضعف والمعجز والافتقار المطلق الكامل الشامل فلماذا يُدعون ويسألون ، وتقتضى منهم الحاجات والمآرب ، وهم عاجزون عن نفع أنفسهم وعن إيصال الخير إليها ؟ وقد جبل الناس جميعاً على الاعراض عن الفقير العاجز الذي لا يستطيع أن ينفع سائله إذا أراد ، ولا يضر غيره إذا شاء ، وجبلوا كافة على الرغبة في القادر المالك الذي يستطيع أن يعطى وأن يمنع وأن يضر وينفع .

الحجة الخالدة وقد ذكر الله هذه الحجة في مواضع من الكتاب العزيز وهي اليوم الحجة على هؤلاء الداعين للأموات ، السائلين إياهم جميع حاجاتهم وما يرجون ويطلبون ، وهي الحجة القائمة أبداً على كل مشرك في كل عصر ومكان : فهي الحجة الخالدة الباقية لأنها منتزعة من أحقاد النفوس والفطر الصحيحة ، فهي باقية ما بقيت الفطر والنفوس ، وهي قائمة ما قام الشرك والايمان خصمين متوافقين يتنازعان الغالب والسلطان والعقائد والأعمال .

وقد قفل الله في هذه الآيات على المشركين جميع آمالهم في غير الله ، وسد عليهم كل منفذ يحاولون أن ينفذوا به إلى الخير من طريق الخلق : فأخبر أولاً أنهم لا يملكون مثقال ذرة واحدة في هذا العالم وهذا الملك الواسع ، ثم أخبر ثانياً أنه ليس لهم في هذا الملك شركة ما ، إذ قد يكونون غير مالكين لكنهم شركاء ، فجردهم من الملك ومن الشركة فيه ، ثم أخبر ثالثاً أنه ليس لصاحب هذا الملك ورثه ومالكه منهم ظهير ولا نصير ولا معين ، إذ قد يقال إنهم غير مالكين وغير شركاء في الملك ولكنهم أهوان ونصراء وظهراء لملك الجميع ، فيدهون

من هذه الناحية ، وهي ناحية عونهم وظهارتهم لصاحب الشأن والملك الأعظم
فجردهم الله من الأمور الثلاثة : من أن يكونوا مالكيين ، أو شركاء ، أو أعوانا
نصرأ. فابق لهم بعد ذلك ، ومابقى للأمل فيهم ؟ بقى أن يقال : لعل لهم شفاععة
وجاهاً لديه تعالى فيدعون ويسألون ذاك الجاه وتلك الشفاععة . فقفل الله عليهم
هذا الأمل ، وسد في وجوههم ذاك المنفذ : فأخبر أن الشفاععة ليست سوى أمر
صورى ظاهرى لا يقدم ولا يؤخر ولا يترتب عليه شئ مما يرومون ويظنون
ولكن الله جلت قدرته وعظمته عند ما يريد أن يكرم عبداً من عباده الأتقياء
ويقيمه مقام التبجيل والتعظيم ، يأمره بأن يشفع لأحد الناس الذين أراد بهم خيراً
ورحمة وغفراناً وعناية لأعمال صالحة عملها ، فيشفع فيشفعه تعالى ويمجى على
شفاعته ، ظاهراً فقط ، ذلك الاحسان الذى أراد الله لذلك العبد المشفوع فيه .
ولكن الأمر فى كل ما هنالك لله وحده ، فهو الذى رضى عن المشفوع له ، وهو
الذى أمر الشافع بالشفاعة ، وهو الذى شفعه فيه وأجاب طلبه ومسألته . فلا أمر
كله الله ، والشفاعة كلها ، بأسبابها وسائلها وغاياتها ومظاهرها وحقائقها ، له
وحده ، كما قال تعالى : « قل لله الشفاععة جميعاً » . فسؤالها إذن من غير الله ومن
الشافع نفسه عبث باطل لا يفيد ، والتعلق بها والاعتماد عليها أيضاً جهل وضلال .
فإن طلبها من غير الله والتعلق بها ليسا من أسباب حصولها ونيلها ، وإنما سبيلها
الصحيح هو عبادة مالئها وطاعته والقيام له على قدم العبودية الصحيحة الصادقة
كما تقدم فى فصل بحث الشفاععة الفائت . . . فلا شئ إذن لغير الله ، ولا شئ
لمن يدعون من دونه. فلماذا إذن يدعونهم وهم ليس لهم منقال ذرة فى هذا الملك ،
وليس لهم فيه شركة ما ، وليس منهم معين ولا ظهير لصاحب هذا الملك ، وهم
بعد ذلك كله لا يملكون الشفاععة وهى الدعاء ، كما زعم المخالف ، ولا يستطيعون
أن يتقدموا بين يديه بهذه الشفاععة حتى يأذن لهم ويأمرهم . فهم عاجزون عن كل

لا أمل فى من
يدعون من
دون الله

يَقَّةٌ أُخْرَى

شئ، فقراء من كل وجه، فلا أضل من راح يدعوهم ويسألهم فارقاً ربه وراء ظهره .
وقال تعالى من سورة فاطر : « ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من
دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا
لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا يفتنك مثل خبير . . . يا أيها الناس
أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد . إن يسأ ينهبكم ويأت بخلق جديد ،
وما ذلك على الله بعزيز » .

يقول تعالى ، مخاطباً من يدعون غيره من عبيده الضعفاء العجزة : ذلكم الذي له تلك الصفات. ، وتلك الشؤون التي تليت عليكم ، هو الله ربكم ورب العالمين ، له هذا الملك وحده ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا يعينه على القيام عليه وبه معين . فكل الخيرات التي تطلبون لديه ، وكل الشرور التي تحذرون تستدفع به وحده ، فهو المحنزون المأمول ، وهو المدعو المستول : وأما الألى تدعون من دونه فقراء ضعفاء ، ما يملكون في هذا العالم الطويل العريض من قطير ، وهو اللافاة التي تجدها فوق النواة ، فإذا تطلبون عندهم إذن ، وإذا ترجون لديهم ؟ وهم بعد هذا الفقر المنقطع والمجز البالي قد فقدوا حواسهم بالموت والفناء : فقدوا آلات محمهم ونطقهم وعملهم فلو أنكم ظلماتهم الليل والنهار بكل لسان ولغة ولهجة لما نفذ إليهم دعاؤكم ولا نداؤكم ولا شيء من أسركم ، ولو أن شيئاً من هذا نفذ إليهم فسمعوه ووعوه لما نفعمكم ذلكم ولما استجابوا لكم شيئاً ، لأنهم عاجزون عجزاً لازماً ، ولأنهم قراء قرا ذاتياً . على أنهم لو سمعوا وقدروا على إجابتكم ونفعمكم ما أجابوكم ولا نفعمكم ، بل لتبرؤا منكم وعنفوكم . ولهذا فانهم يوم القيامة ، يوم يستطيعون القول والكلام والسمع ، يبرؤن منكم ، ويكفرون بكم وبشرركم ويصبحون لكم خصوماً للآل .

وقد بالغ الكتاب العزيز في تقنيط القوم وإحاطتهم باليأس الغالب ماضات

مبالغة الكتاب في
القول عن غير الله

المبالغة الصادقة : فجرد من يدعونهم من دون الله أولا من الملك حتى من أقله ، ثم جردهم ثانياً من آلات السماع والقدرة والعمل التي قد يعمل بها من لا يملك شيئاً ، ثم جردهم ثالثاً من العون والمغوث التي كانوا يظنونها لديهم إذا قدموا عليهم ، فاستغاثوهم ، فأبأ أنهم سوف يكفرون بعبادتهم لإلهم ، وبما تقربوا به إليهم من تعظيم وخضوع وخشوع ، فهم إذن لا يملكون شيئاً ولا يستطيعون أن يملكوا . ولو قدر أنهم ملكوا لما نفَعوا أبداً . فأيدبهم فقيرة خالية ، وأبدانهم عاجزة واهية ، ثم لو ملكوا أو قدروا ما نفَعوا . فما أقرهم وأعجزهم ! وما أضل وأغبي من دعاهم واستجدهم .

وفي هذا من المناقضات على عبدة الأموات ما فيه . وذلك أن الله أنكر على المشركين دعاء غيره ، وليكن ذلك الغير ما يكون ، وذكر أن ما يدعون من دونه لا يصح دعاؤه لأنه فقير عاجز عن الإجابة وعن الملك ، وذكر أنهم لا يسمعون دعاء الداعين أبداً ، وأنهم لو سمعوا ما أجابوا من دعاهم ، وذكر أنهم يوم القيامة يشكرون على من عبدهم ودعاهم ، وذكر أنهم أشركوا بعد أن ذكر أنهم دعوا غيره ، فكان هذا تفسيراً لهذا ، وكان شركهم هو دعاهم غير الله . وواضح من ظاهر هذا كله أن المدعويين عقلاء من البشر والجان ، وليسوا جمادات مجردة كما ذكرنا مراراً ، وواضح أن عبدة القبور ضالون جاهلون لأن من يدعونهم من الأنبياء والأولياء ما يملكون من قطمير ، ولأنهم لا يسمعون دعاهم ، ولأنهم لو سمعوا ما أجابوهم ولا نفَعوهم ، ولأنهم يوم القيامة سوف يشكرون عليهم دعاهم وانقطاعهم إليهم ، وسوف يكفرون بشركهم بهم .

ثم قال من هذه السورة : « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات ، أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً لإغواء » .

المناقضة على عبدة القبور

آية أخرى

فكان آيات التوحيد قد أنزلت لغاية واحدة وغرض واحد وهو النهي عن دعاء غير الله والأمر بدعائه وحده ، والزراية بمن دعوا غيره ، والإيعاد للمشركين لدعائهم سواء . ومن ثم فانك تقرأ عشرات الآيات النازلة في المشركين وفي عبادتهم الأصنام « الأوثان » وعبادتهم غير الله فتجدها كلها عامدة إلى غاية واحدة هي الإنكار عليهم أن دعوا مخلوقا ، وأن سألوا عبداً حاجة من الحاج . وتقرأ عشرات الآيات الآمرة بالانقطاع إليه تعالى فتجدها أيضاً كلها رامية إلى هدف واحد ، هو الأمر بدعائه وحده لا شريك له . فجميع آيات التوحيد كأنما نزلت لغاية واحدة ، وهي أن يفرد الله بالدعاء . هكذا جاءت هذه الآية ، وهكذا جاءت جميع الآيات التي تلونها والتي سوف نتلوها . والعجيب أنه ما جاء في آية واحدة ، على ما أذكر ، أن الله أنكر على المشركين السجود والركوع لغيره صراحة ونصا وكل ما جاء في هذا هو قوله « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » وقصة الهدد مع سليمان وقول الهدد : « وجدتني وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . أما الدعاء فكما سمعت ورأيت . والأمر حيثئذ دائر بين احتمالين : بين أن يقال : إن المشركين لم يكونوا يسجدون للأصنام والأوثان ولا يركعون لها ، وإنما كانوا يدعونها دعاء ويسألونها : سؤالا ، ولهذا وحده كانوا مشركين عابدين غير الحق . والاحتمال الثاني أن يقال : بل كانوا يسجدون ويركعون لها كما كانوا يدعونها ويسألونها ، ولكن الله أكثر من إنكار الدعاء دون إنكار السجود والركوع لأن أمر الدعاء أعظم وأجل ، ولأنه أفضل وأدل على العبودية . . . والاحتمالان كلاهما يردان على هؤلاء الذين يدعون القبور الليل مع النهار ، ثم يزعمون أنهم لم يعبدوهم ولم يهبوهم شيئا من أنواع العبادة ، لأن العبادة فيما زعموا شيء آخر غير الدعاء والاستجداء . فاذا قيل بالاحتمال الأول ثبت أن عبادة المشركين للأصنام ، وأن شركهم بالله

انكار
الدعاء دون
السجود

كان بالدعاء دون غيره ، وهذا يرد على أصحاب القبور قولهم : إن الدعاء ليس عبادة للمدعو ولا شركاً بالله . وإن قيل بالاحتمال الثاني كان أيضاً أوضح في الرد عليهم ، لأنه إذا كان الدعاء أفضل أنواع العبادة وكان أعظم من السجود والركوع فلا خلاف في أن هؤلاء قد قدموا للأموات أفضل العبادة وأعظمها بضروب وصور لا شك في فظاعتها وهولها . فانه لاخلاف في أنهم يدعون أصحاب القبور ليقيمونهم ، في محضهم ومنعيتهم ، في سرائهم مع ضرائهم ، دعاء حاراً متواصلاً ، وليسألونهم عظام الحاجات وكبريات المآرب . فلى الاحتمالين دعاة الأموات عابدون لغير الله مشركون به شركاً منكراً .

وقال تعالى من سورة يونس : « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء آية أخرى إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون » .

يعنى تعالى أن المشركين الذين يدعون مع الله ، شركاء ، يشركونهم في دعائهم وندائهم ، ويطلبون منهم ما يطلب من الله ليس لهم من برهان ولا من حجة على هذا الاشرار ، وكيف يكون للباطل برهان ، أم كيف يجدد داعى الأموات حجة ؟ ولكنهم يتبعون الظن ، والظن لا ينفى عند الحق شيئاً ، ولكنهم أيضاً يخرصون ، وقد قتل الخراصون . ولو أنك نفضت هؤلاء الذين يدعون الأموات ويستجدونهم ، لتجد لديهم صورة من برهان ، أو شبهة من علم ، أو بصيصاً من حجة لما وقعت منهم إلا على الظنون والتخرصات والشبهات الزممة ، وعلى القياس الفاسد قياس البارى القادر على عباده العاجزين الجهلاء الغالين . كقولهم أنت لا تستطيع الوصول إلى الأمير والوزير إلا بالوسيط والشفيع ، فكذلك لا يستطيع الوصول إلى الله إلا بالنبي وأولى بالمقرين إليه تعالى . أو كما كان الأمر كذلك فيما بين العباد ، فلا مانع من أن يكون كذلك فيما بين العباد وربه . ولما وقعت أيضاً منهم إلا على تحميل النصوص ما لا تحمل ، وتكليفها ما لا تطيق ،

تارة بصرفها عن ظاهرها وسبيلها ، وتارة بتفسيرها التفسير الباطلة المزورة
ليكون منها دلائل على عبادة القبور والانتطاع إلى الاجداث : فلك أن تقرأ
مائشاء مما كتبه نصراء الأموات من كتب حاولوا بها أن يحدوا لما قالوه واعتقدوه
وزوروه شيئاً ، وأن يشيدوا لما اتحلوه بناءً ياوون إليه هم وأشياهم ، فرارا من
عبدة القبور صواعق العقول وصواعق المنقول ، فلن تجد في كل ما يمكن أن تقرأ غير خبر مكذوب
غير الظن أو خبر صحيح ، ولكنه عليهم لالهم ، أو قول مفتون ضال ، ضل عن السبيل كما
والحرص ضل من جعله حكماً ، وجعل قوله حجة ، وغير هذا لن تجد فيما كتبوا وألفوا
وغير هذا لن يكون الظن والتخمين ، وغير الظن والتخمين لن يكون الباطل
والتموذج الأعلى لما كتبه أشياح القبور هو كتاب هذا الشيعي . وقد علم القاري
مكانه من العلم والبرهان ، ومكانته من العقول والمنقول ، وقد رأى أن أفضل
وأعظم ما جاء به من المناقضة لدعوة الإصلاح السلفية الموحدة هو إيراد الشبهات
والاحتمالات على الكتاب والسنة الصحيحة ، وإحاطتهما بالتأويلات البشعة
والشكوك في معاني آي الكتاب التي لا حيلة في رد ألفاظها ونصوصها ، ثم التشكيك
في معاني السنة الصحيحة المتواترة ورد نصوصها أيضا . ولهذا فقد أجرى فرس
التأويل والتشكيك في آي الكتاب العزيم الناهية عن دعاء غير الله الزاجرة عنه
بأفانين من النهي والزجر ، تدعش العقول الصحيحة السليمة ، وقد سمع القاري بعض
هذه الأفانين . . وقد خرج الشيعي من الميدان منهوكا مضى بشر الأسلاب وشر
المفانم . ويكفي أن تعلم أنه قد أول قوله تعالى : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله
أحياء » بقوله : « إن الدعاء المنهي عنه هنا هو الدعاء المساوي لدعاء الله باعتقاد أن
المدعو قادر مختار مساو لله في ذلك » أي في القدرة والاختيار ، قال : « أو هو دعاء
من نهى الله عن دعائه من الأصنام والأوثان ، التي هي أحجار وأشجار لا تقبل ولا
تسمع ، ولا تضر ولا تنفع ، كما كان يفعل المشركون في الكعبة ، أو دعاء الملائكة

وَالَّذِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ تَأْثِيرًا فِي السَّكُونِ مَعَ اللَّهِ بِأَنْفُسِهِمْ
أَوْ يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ اضْطِرَارًّا بِحَيْثُ لَا يَرُدُّ شَفَاعَتَهُمْ »

هذا ما اختار في تفسير هذه الآية ، وهذا ما فضل للخلاص من دلالتها القاطعة
ومن معناها المفهوم الذي لم يرضه ولم يقبله ، وهذا نموذج من أفعاله وأقواله وعدوانه
على آى ربه وكتابه . وهل هذا إلا شر الظن الذي أخبر الله أن دعاة غيره
يقبضونه ، وشر التخرص الذي أنبأ الله عن المشركين بأنهم يخرصونه ؟ بل ما هذا
إلا دون الظن ودون التخرص اللذين كان المشركون يقيمون عليهما هياكل
دينهم وعقائدهم .

أما زعمه أن الدعاء المنهى عنه في الآية هو الدعاء المساوى لدعاء الله ، بمعنى
أن المدعو مساوٍ لله في القدرة والاختيار، فزعمه مرشوب عنه ، وذلك أنه لا يوجد
مؤمن بالله على وجه الأرض يزعم أن شيئاً مساوٍ له في القدرة والاختيار، أو
مساوٍ له في شئ من الأشياء . والمشركون كلهم لم يشركوا ولم يعبدوا غير الله إلا
بیتقربوا إليه تعالى بذلك . ولهذا سمى ما يعبدون من دونه قرباناً كما في قوله
تعالى : « فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً » وسموا شفعا في
قوله : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ
شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » وقال « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا
إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » . فسموا أولياء وأريد بعبادتهم التقريب إلى ربهم . ولهذا كانوا
ينسبون كل آلتهم ، ما خلا الله ، في حالة الفزع والخوف الشديد كما في قوله :
« وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ » وكما في قوله « ثُمَّ إِذَا
مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ » والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة . وكانوا إذا
سئلوا من خلق السموات والأرض ومن خلق كل شئ يجيبون بأن الخالق لكل
ذلك هو الله واحداً . والآيات في المعنى كثيرة معروفة . وكانوا يقولون في تلبيتهم

فساد هذا
التأويل

لم يزعموا أن الأصنام مثل الله
 « لبيك اللهم لبيك الخ . » . هذه أشياء لا يشكون في شيء منها ولا يتنازعون .
 ولكنهم كانوا مع هذا الإيمان يعبدون غير الله بالدعاء والرجاء والخوف وما
 يدخل في هذا المعنى . وقد كان هذا هو بلادهم وذنبهم العظيم . أما أنهم كانوا يعتقدون
 بأن أصنامهم مساوية لله في القدرة والاختيار أو في شيء من الأشياء فكلًا ،
 ما قالوا ذلك ولا اعتقدوه ، ولا زعمه أحد من المؤمنين بالله . أما ما ذكره عن
 النصارى وزعمه أنهم يعتقدون أن عيسى مساو لله فهذا الزعم فيه خطأ وسداجة
 قول النصارى ظاهرة : ذلك أن النصارى لم يزعموا أن عيسى البشرى مساو لله ، وإنما زعموا أنه
 في عيسى عليه السلام تعالى حال فيه . فلم عيسى عندهم جانبان : جانب مادي بشرى ، وهو عيسى المولود
 المصوب المركب كسائر الأجساد ، وجانب روى لاهوتى قديم أزلى وهو
 الله الذى له القدرة والسلطان المطلق : المتجليان على بدن عيسى البشرى
 الناسوتى . . . فعيسى فبراه عندهم بهذا الاعتبار ، وعيسى الناسوتى ليس
 مساوياً لعيسى اللاهوتى الذى هو الله . هذا هو اعتقاد القوم ، وهذه هى
 الأغلوطة الكبرى . فالله حال في عيسى ولكنه ليس مثله ولا قريباً منه . وعندهم
 أن من الدلائل على هذا الحلول أن عيسى كان يفعل أفعال الإله من الأحياء
 والإماتة والخلق والرزق وعلم الغيوب ، والبشر لا يقدر على شيء من هذا في
 المؤلف المعتاد . فالذى فعل هذه الأفعال من عيسى المادى الناسوتى هو الله
 الحال فيه تشريعاً له وتكريماً وإقامة للبراهين على صدقه وجدارته بالإمامة والالوهية
 ولهذا إذا سئلوا « أعنى النصارى » كيف أمكن أن يكون الثلاثة واحداً قالوا مثل
 ذلك الشمس ، هى واحدة ولكنها ثلاثة : جرمها وشعاعها وحرارتها أو ضياؤها
 فثلاثة واحد ، وواحد ثلاثة . وهذا القول والتمثيل ، وإن كانا ظلمات بعضها فوق
 يدلاننا على أن القوم ينهبون مذهب الحلول في التثليث وفي تأليه عيسى
 وتأليه أمه ، والحال بلا شك ليس مساوياً للحلول فيه فلا يوجد مؤمن واحد

على وجه الأرض يؤمن بالله ثم يزعم أن شيئاً مساوياً لله مساواة تامة مطلقة من كل الوجوه. فهذا التأويل والذي ذكره في الدعاء المنهى عنه في الآية تأويل مزهود فيه. ثم يقال في دفع ما ذكر : لو كان قوله تعالى « فلا تدعوا مع الله أحداً » نهياً عن الاعتقاد بأن شيئاً من الأشياء مساوياً لله في القدرة والاختيار لما قيل « فلا تدعوا مع الله أحداً » ولكن الواجب أن يقال لا تعتقدوا ، أولاً تظنوا ، أولاً تزعموا أن شيئاً يساوى الله في قدرته واختياره ، أو في صفة من صفاته ، أو نحو ذلك. وهذا لأن المنهى عنه حينئذ هو الاعتقاد بأن شيئاً مساوياً لله تعالى ، وليس المنهى عنه هو الدعاء . وهذا الاعتقاد ، اعتقاد المساواة ، أمر باطل موجب للكفر سواء أَدْعَا غير الله معتقده أم لم يدع إلا إياه . ودعاء غير الله غير اعتقاد هذه العقيدة فيه. فلا يصح النهي عن الدعاء وهو غير منهى عنه ، كما لا يصح السكوت عن عقيدة المساواة وهي منهى عنها . والنهي عن الدعاء لا يمكن أن يفهم منه أنه نهى عن أن يسوى ذلك المنهى عن دعائه بالله في القدرة والاختيار والصفات يقيناً .

وخلاصة الرد أن نقول للشيء : إن الدعاء عندك ، أى دعاء غير الله من هذا الوجه ، ليس منهيًا عنه ولا ممنوعاً ، وإنما الممنوع المنهى عنه هو الاعتقاد بأن شيئاً مساوياً لله في القدرة والاختيار والصفات ، ولكن هذا باطل ، لأن المنهى عنه في الآية هو الدعاء ، والدعاء غير منهى عنه عندك ، والمساواة لم تذكر في الآية وهي المنهى عنها ، فيما تزعم . ولا يمكن أن ينهى عن شيء ويكون المنهى عنه شيئاً آخر ، ويكون هو أى المنهى عنه غير منهى عنه . لأن هذين الأمرين أعمى دعاء الشيء واعتقاد مساواته لله غير متلازمين ، لأن الدعاء قد يكون منهيًا عنه وإن لم يعتقد في المنهى عن دعائه أنه مثل الله من كل وجه ، ولأنه يمكن عقلاً أن تعتقد في شيء أنه مثل الله ومع هذا لا تدعوه. فهذا التفسير باطل سخيف ثم يقال أيضاً : أى مؤمن بالله يستطيع أن يزعم أنه لا ينهى عن دعاء غير

الله إلا إذا اقترن دعاؤه باعتقاد أنه مثل الله سواء في كل شيء ؟ وأي عاقل يقول هذا القول أو يرضاه أو يشك في بطلانه وفساده ؟

إيضاح آخر

ثم يقال أيضا : وأي عربي يفهم أن قول الله « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » نهى عن تسوية ذلك « الأحد » بالله من كل وجه ، وأنه ليس نهياً عن دعائه الذي يعرفه عامة الناس وخاصتهم ؟ ؟ إن كتاب الله نزل لعامة الناس وخاصتهم ، ونزل للإفهام والتعليم لا للألفاظ والأحاجي والتضليل ، وما زعمه الشيعة في الآية ألفاظ وأحاج وتضليل . ولو أن قائلنا قال : أدع فلانا ولا تدع فلانا ، لما أمكن أن يفهم أحد أن المعنى ادع فلانا الأول وادع الثاني أيضاً ولكن لا تسويه بالأول في التكريم والتعظيم ، بل ادعها معاً وافرّق بينهما في الاعزاز والاحترام . ولو قال هذا قائل وأراد هذا المعنى لكان ملوماً مخطئاً ملغوا مضللاً عند جميع السامعين العارفين بمواقع الكلام ومناحي القول .

على أنه لو صح هذا الفهم في الآية لصح لقائل آخر أن يقول ، إن النهى عن عبادة غير الله ، كالنهي مثلاً عن السجود والركوع ، معناه النهى عن تسوية غير الله بالله ، أو النهى عن عبادته المقتربة باعتقاد مساواته لله . وهذا كزعم المخالف ، وهما زعمان من سقط المزاعم ورثيث الآراء .

أو يله الآخر
للاية

وأما تفسيره الثاني للآية ، فهو أن يكون النهى خاصاً بالنهي عن دعاء الأحجار والأشجار التي لا تسبح ولا تمقل ولا تضر كما لا تنفع ، فتفسير أيضاً منبوذ . وذلك لما أسلفناه من أن المشركين لم يكونوا يدعون الأحجار والأشجار المجردة يقيناً ، وإنما كانوا يدعون صور الصالحين وصور الأنبياء والملائكة والجان ، ويتعلقون بآثارهم وخلفاتهم على قصد دعاء الصالحين أنفسهم ، كما يفعل عبدة القبور وعبدة الأبواب والأعتاب والشبابيك والعمد والأحجار والأشجار التي يزعمون أن لبعض الأنبياء والأولياء والأشياخ والآقطاب بها صلوات وملايسات ومناسبات

والمدعو المقصود في أنفس الفريقين - أعنى فريق القبور وفريق الأصنام والأوثان - هم الصالحون والملائكة والجان بلا شك ولا ريب . ولهذا فإنهم لا يتوجهون إلى كل جماد ولا إلى كل حجر وشجر بالدعاء والقصد والعبادة ، وإنما يخصون من ذلك ما زعموا أن له صلات خاصة بذلك الصالح أو الشيخ أو الملك أو الجان . . . فالمشركون لم يعبدوا الأحجار والأشجار المجردة لأنها أحجار وأشجار يقيناً . فلا يمكن أن يكون النهى عن الدعاء في الآية خاصاً بدعاء هذا النوع من الخلق .

على أنه لا خلاف في أن المشركين كانوا يدعون الجان والملائكة والصالحين ، وكانوا يعبدونهم . وعليه يقال : إنه من غير الممكن أن ينهوا هذا النهى العام المطبق عن دعاء غير الله ، ثم يكون النهى عن دعاء الأحجار والأشجار خاصة دون من يدعون من الآلهة الأخرى ، ودون الملائكة والجان واللات وود وسواع وبنوت ويعوق ونسر ، بل يجب أن يكون النهى عن دعاء هؤلاء مقدماً على النهى عن دعاء الأحجار والأشجار وصنوف الجمادات ، لأن الفتنة فيهم أعظم وأوسع وأقرب .

ويقال أيضاً من البعيد الباطل أن يقول الله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » فيكون هذا النهى العام الشامل المطلق الصريح نهياً عن دعاء الجمادات خاصة ، ولو كان هذا هو المراد لآتى مصرحاً به ولقيل : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله جماداً ولا حجاراً ولا شجراً » ، فكان هذا نصاً لا يحتمل النزاع في المعنى بالآية الشريفة بقى اللبس والابهام والتضليل . وقوله في الآية « أحداً » يرد تفسير الشيعة رداً لا هوادة فيه ولا رفق ، وذلك أن « الأحد » عند الإطلاق ينصرف إلى العاقل لا إلى الجماد من الأحجار والأشجار . فإذا قال قائل : ما رأيت اليوم أحداً ، أو ما جاء اليوم أحد ، أو ما ذهب إلى هذا أحد ، كان المراد

بالأحد بهذا كله «الأحد» من العقلاء لامن الجهاد الصامت ، وهذا بين ظاهر .
فاذا قال الله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » لم يصح أن يقال
إن الأحد في الآية هو الحجر أو الشجر دون المعبودات الأخرى من الأنبياء
والصالحين والملائكة والجان بلا ريب .

تأويله الثالث وأما تفسيره الثالث للآية ، وهو أن يكون النهى خاصاً بالنهى عن دعاء
للاية الملائكة والجان الذين كانوا يعبدونهم ويعتقدون أن لهم تأثيراً بأنفسهم وأنهم
يشفون عنده اضطراراً بحيث لا يرد شفاعتهم ، فالجواب أن يقال : إذا سلم أن
هذا النهى نهى عن دعاء الملائكة والجان فقد سلم النزاع والخلاف وأتى باليد ،
لأنه هو يزعم أن دعاء الملائكة جائز . مطلوب . مشروع ، ومثله دعاء الجان والصالحين
فاذا سلم أن الآية تنهى عن دعاء الملائكة فلا شك أن دعاء الأموات يكون
كذلك منهياً عنه ، لأن الأموات ليسوا أقدر على الاجابة والاعطاء لما يُسألون
من الملائكة الموهوبين من القدرة والسلطان والقوة ما لم يوهب البشر . وكذا
إذا سلم بأن الآية تنهى عن دعاء الجان ، صالحهم وطالحهم ، فقد وجب عاينه أن
يسلم بأنها تنهى كذلك عن دعاء الموتى صالحهم وطالحهم . وذلك لأن الأموات
ليسوا أخلق بالدعاء والسؤال ، وليسوا أقرب ، من الجان الأحياء . فاذا سلم أن
الآية نهى عن دعاء الملائكة والجان والأموات من البشر ، فقد سلم النزاع
والخلاف وأعطى بيده ، وانتهى كل شئ وخرجت كلمة التوحيد عزيزة مظفرة
منصورة ، والحمد لله .

كذبه على وأما قوله : إنهم كانوا يعتقدون بأن لهم (أى للجان والملائكة) تأثيراً
القوم بأنفسهم وشفاعة لا ترد فهذا ، لو صح ، لا يكون مقيداً للنهى عن دعائهم لأن النهى
في الآية مسلط على الدعاء لا على هذا الاعتقاد المزعوم . وهذا الاعتقاد إن كان
باطلاً كان بطلانه مستقلاً عن بطلان الدعاء ، وإن لم يكن باطلاً لم يصح النهى عنه

لا مع الدعاء ولا وحده . وإذا فرض أن هذا الاعتقاد فيهم ، أى فى الملائكة أو الجان باطل ، وفرض أن دعاءهم ليس باطلا كما هو قول الشيعة المنازع وجب أن ينهى عن الباطل وحده ، وهو هذا الاعتقاد دون الحق وهو الدعاء ، ولم يصح جمع الأمرين : المنهى عنه الباطل ، وغير المنهى عنه الحق . ولم يصح يقيناً النهى عن الحق وهو الدعاء ويكون المراد بالنهى ما لم يذكر وهو اعتقاد التأثير والشفاعة القهرية فيهم يقيناً . فهذا الذى ذكره لا ينفعه ذكره إن كان صحيحاً ، كيف وهو غير صحيح . وذلك لما قدمناه من الدلائل على أن المشركين كانوا مؤمنين بالله وبأنه خالق كل شيء ، آخذ بناصية كل شيء ، خاضع له كل شيء حتى أصنامهم وما يعبدون من دونه تعالى . وبراهين هذا تقدمت مرات فلا يمكن مع هذا أن يعتقدوا بأن شيئاً من الأشياء يشفع عند الله قهراً وقسراً واضطراً له ، لأن القاهر القاسر المضطر هو الأقوى ، وهو الرب الأعلى ، وهل يعتقدون بأن هنالك من هو أقوى وأعلى من الله ؟ على أن اعترافهم بأنهم شفعاء لهم عند الله كافى فى إبطال هذا المزعم . وذلك ان الشافع داع سائل من المشفوع ما يلزم الشفاعة لديه باعتراف الشيعة وهذا معنى الشفاعة . والداعى السائل خاضع للمدعو المستول ، عاجز عن أن يكون مثله فى ما شفع فيه . وإلا لو كان قادراً على قهر المشفوع عنده لما كان شافعاً ولما شفع عنده ، بل لأخذ ما أراد وما طلب اغتصاباً وغلاباً واقتداراً . وهذا واضح . أما أن يكون شافعاً سائلاً داعياً وهو قاهر لمن يشفع عنده غالب مضطر له ، فهذا لا يمكن أن يكون ولا يمكن أن يعتقد . والذى يكون بهذه الحال لا يكون شافعاً وإنما يكون عملياً آمراً متحكماً . أما الشفاعة الحقيقية فهى سؤال ودعاء ، فيها ذل ورجاء كما قيل :

فلو كان صلحاً لم يكن بشفاعة * ولكنه ذل لهم وغرام
لأن الصلح الحقيقي المنصف الكاش بين قوتين متساويتين لا ذل فيه ولا

طاب ، وإنما يكون هذا في الشفاعة . وهذا يعرفه كل الناس . ولهذا لا يجوز أن يتخذ الله شفيعاً إلى أحد من خلقه لأن الله أعظم من كل شيء . وقد أنكر رسول الله ﷺ على ذلك الذي قال له : إنا نستشفع بالله عليك ، قائلاً عليه الصلاة والسلام : « إنه لا يستشفع بالله إلى أحد من خلقه » وأقر قوله : ونستشفع بك على الله . وقد تقدم هذا .

فنصرح المشركين بأن الذين يدعونهم ويعبدونهم من دون الله شفعاء لهم عنده تعالى إيمان منهم صريح بأنهم يرونهم خاضعين له تعالى ، واقعين تحت قهره وسلطانه ، وأنه إن شاء قبل شفاعتهم وإن شاء ردها ولا يبالي . فهذا الذي زعم المخالف لا يمكن أن يكون صحيحاً .

وأما زعمه أنهم يعتقدون بأن لهم تأثيراً في الكون فهذا يعتقد عبدة القبور في قبورهم ومشايخهم . ولولا ذلك الاعتقاد لما دعومهم وبالوم ولا افكر وافي دعائهم وسؤالهم . إلا أنهم يعتقدون بأن تأثيرهم خاضع لتأثير الله ، كأن باذنه وقدرته وإرادته ورضاه ، وهكذا عقيدة المشركين سواء ، للدلائل التي قدمناها في خضوع كل شيء له تعالى ، وكون كل شيء حسب إذنه ومشيتته ورضاه .

آية أخرى ثم قال في ختام هذه السورة : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذن من الظالمين ، وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب برحمته من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » .

والأولياء والأنبياء والمشايخ وغيرهم يعترف هؤلاء الذين يدعونهم الليل والنهار بأنهم لا ينفعون ولا يضررون ، ويعترفون بأن من زعم فيهم النفع والضرر فقد فارق دينه وافترى على الله . وحيث يقال لهم على هذا الاعتراف : إن هذه الآية كسواها من الآيات ، تنهى بشدة وصرامة وصراحة عن دعاء من

لا ينفعون ولا يضررون ، وتلجئ بأن من فعل ذلك فهو عين الضال الظالم المعتدى بحريم دعاء
وعليه فضاء الموتى من الأنبياء والأولياء والمشايخ والصالحين محرم ممنوع بنص من لا ينفع
هذه الآية ونظائرهما من الآيات . وعليه فدعائهم من الضالين الظالمين المعتدين . ولا يضر
بلا ريب . فليس لهم مخرج ولا منفذ من هذا إلا أن يزعموا أن الأموات الذين
يدعونهم من دون ربهم ينفعون ويضررون ، يزعموا أنهم ما دعوهم ولا سألوهم إلا
رجاء هذا النفع وذاك الضر . وإذا زعموا هذا الزعم فقد رجعوا إلى إثبات
مألكروا ، وصار مذهبهم في الأموات قائماً على الاعتقاد بأنهم ينفعون ويضررون
ولكنهم يزعمون دائماً مخالفتهم ، جاهدين مقسمين ، أن هذا المذهب وهذا الاعتقاد
كفر وضلال جسيم ، يزعمون لهم دائماً ، دفعاً عن دعاء الأموات وعن دعائهم
أن هؤلاء الذين يدعونهم ويسألونهم ضروب الحاج الخاصة والعامة ، لو سئلوا : هل
تقولون إن الذين تدعونهم يضررون وينفعون لقالوا جميعاً : كلا ، إنهم لا يضررون
ولا ينفعون ، وإن الذي يضر وينفع هو الله وحده لا شريك له . وهم يذكر أن
هذا الجواب لا يمكن أن يختلف ولا أن يختلف فيه دعاة الموتى من الصالحين .
وعندهم أن هذا الاعتقاد ، أى اعتقاد انفراد الله بالنفع والضر هو الذى يدفع
عن دعاة الأموات التضليل والتكفير ، لأن الكفر والضلال عندهم هو في
اعتقاد أن شيئاً غير الله ينفع ويضر ، أما الدعاء والاستجداء فلا شئ فيه من
ذلك . هذا ما يقوله وما يكتبه الذائدون المدافعون عن خرافات القبور ، وخرافات
العاكفين على القبور . ولكنهم محجوجون على جميع الحالات والافتراضات .
وذلك أننا نقول لهم : أما أن تزعموا أن هؤلاء المشايخ الذين تدعونهم من دون
الله ينفعون ويضررون ، وأن دعاءكم إليهم لم يكن إلا رغبة في نفعهم وضرهم . ولما
أن تقولوا إنهم لا ينفعون ولا يضررون . ولا مفر من الافتراضين . فان ذهبتم إلى
الافتراض الأول فقد ذهبتم إلى ما زعتم أنه كفر بالله وضلال كبير . وإن ذهبتم

إلى الافتراض الثاني وجب أن تعترفوا بأن دعاء الأموات ممنوع باطل. وذلك لأن هذه الآية وغيرها من الآيات قد نهت بشدة وصراحة عن دعاء من لا ينفع ولا يضر، وأنبت بأن من دعاء من لا ينفعه ولا يضره فهو من الظالمين. وأيا اخترتم فقد حججتم. والافتراض الأول، أي افتراض أن المشايخ ينفعون ويضرون لا يمكن لمسلم الذهاب إليه وقد أبطله الله بقوله « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو. وإن يردك بخير فلا راد لفضله » وقد أبطله أيضاً في آيات أخرى صريحة معلومة مثل قوله : « إنك لا تهدي من أحببت » وقوله : « ليس لك من الأمر شيء » وقوله « ألا له الخلق والأمر » وقوله : « قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً » وقوله : « قل إني لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله » - إلى غير ذلك من الآيات الصريحة الظاهرة. فهذا الافتراض لا يتحمل مسلم الذهاب إليه ولا القول به. وأما الافتراض الثاني فهو ما يذهب إليه هؤلاء في ما يزعمون. وهذه الآية وغيرها من الآيات رادة عليهم حيث نردّها لاجلها لهم في دفعه ولا رفعه. وما أجمل قوله : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله » بعد قوله : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين ». وذلك أن قوله : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك » ينصرف إليه هذا السؤال : ما الذي لا ينفع ولا يضر فلا يدعى، وما الذي ينفع ويضر ويدعى وحده ؟ فأجاب الله عن هذا السؤال الذي لم يذكر بأن الذي ينفع ويضر هو الله وحده لا شريك له فقال : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله » فالله وحده المدعو المسؤول المرجو، لأنه وحده النافع الضار. فالنساء له وحده، لأن كل ما يطلبه الداعي ويرجوه، وكل ما يحذره ويخشاه عنده وحده. فكما كان هو المعطى المانع الضار النافع يجب أن يكون وحده المدعو المعبود المسؤول.

وقال تعالى من سورة الجن : « وأن للمساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ، قل إنما أدعوربي ولا أشرك به أحداً ، قل إني لأؤمك لكم ضرا ولا رشداً ، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاءاً من الله ورسالاته . ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً » .

يقول تعالى مخاطباً عباده جميعاً : « مؤمنهم وكافرهم : إن مواضع السجود والعبادة وأعضاء السجود نفسها لله رب العالمين لا شريك له فيها ولا في غيرها مما في السموات والأرض . وإذا علمتم أن ذلك كله لله وحده فادعوه وحده لأنه هو المالك وحده ، ولا تدعوا معه أحداً ممن لم يملكوا ولم يخلقوا شيئاً من المساجد ولا من غيرها ، لأن من لم يخلق ولم يملك لا يصح أن يدعى ، لأنه لا يمكن أن يجيب دعوة من دعاه ، ولا أن يعطيه شيئاً مما يسأل ويرجو ، لأنه لا يملك ، ومن لا يملك لا يمكن أن يملك غيره بالضرورة . . . ولكن المشركين لا يعلمون ذلك ولا يلمون ما يحسن مما يقبح . ولهذا فانه لما قام عبد الله ورسوله يدعوه ربه وحده بينهم لم يرضوا ذلك منه ولم يرقهم أن يوحدوه ومشركون ، وأن يدعوا رباً واحداً وهم يدعون مثات الأرباب . فاحتزبوا عليه وتألبوا على عداوته وعلى مناوآته ومطاردته ، وتكاثروا عليه حتى كادوا يضيقون عليه كل سبيل ووجه ، وقاربوا أن يكونوا عليه لبداً من ازدحامهم واحتشادهم في آفاقه وسبله الطويلة العريضة . . . ولكن الله ورسوله لا يباليان بالمشركين الجاهلين الداعين من لا ينفعونهم ولا يضررونهم ولا بازدهامهم واحتشادهم في طريق الحق وطريق العبد الصالح الذي لا يدعوا غير ربه وخالقه . فظل عبد الله ورسوله في مقامه يدعوا ربه وحده ولا يبالي بالمعارضين ، وأنزل الله عليه الوصية الخالدة : « قل إنما أدعوربي ولا أشرك به أحداً » . يقول له : قل يا عبادي لهؤلاء المشركين الداعين غيري :

احتشاد العرك
على التوحيد

يا هؤلاء لا ادعو إلا ربى وحده ، وإن جاهدتم وجهتكم على أن أضل وأغوى ، ولا أشرك بربى أحداً في دعائى وندائى وسؤالى ، فلا أدعو مخلوقاً ، لا ملكاً ولا إنساناً ولا جانا ولا غيرهم من المخلوقين المربوبين . ولا شك أن قوله هنا : « ولا أشرك به أحداً » يعنى فى الدعاء ، يعنى أنه لا يدعو أحداً غير الله ، وفى غير الدعاء أيضاً من أنواع العبادات . ولكن الدعاء هو أول ما يدخل فى هذا النفى العام الشامل ، وذلك لأنه هو المتقدم ذكره فى قوله : « فلا تدعوا مع الله أحداً » وفى قوله « يدعوه » وقوله « أدعز » . فلما أن تقدم ذكر الدعاء فى ثلاثة ألفاظ وجاء نفي الاشرار بعد وجب أن يكون الاشرار المنفي فى الدعاء أو فى الدعاء وفى سواء من ضرور العبادة .

أسباب منع ثم أخذ فى شرح الأسباب التى من أجلها وجب أن يدعى الله وحده وأن دعوة غير الله لا يدعى سواء : أحد هذه الأسباب أن عبده محمداً ، وهو أفضل الخلق عنده تعالى ، لا يملك الضر ولا الرشد فقال له : « قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً » . وإذا كان أفضل الخلق عند الله بهذا المكان من العجز إزاء القدرة الإلهية والسلطان الربانى فكيف يطمع فى سواء وكيف يدعو مخلوقاً غيره لدفع مكروه وإعطاء محبوب ؟ ونأتى هذه الأسباب أنه ﷺ ، وهو رسول الله وأقرب عباده وخلقه إليه ، لا يستطيع أحد من أهل السموات أو من أهل الأرض أن يجبره من الله وأن يحول بينه وبين ما يريد ويشاؤه له ربه ، وأنه لن يجد عند غيره تعالى ملتحداً ولا معاذاً ومهرباً يفر إليه ، ويتقى به ما يخاف ويحاذر مهما تقب وتطلب ، ومهما راح وجاء . وإذا كان لا مفر من الله إلا إليه ، ولا معاذ من غضبه إلا برضاه ، وحذف الخلق جميعاً من لا خير يرجى إلا لديه ، ولا شر يهرب ويخاف إلا ما أراد وشاء ، فكيف الحساب من يدعو سواء ، وكيف يسأل العاقل مخلوقاً ويدع الله وهو يعلم أن أهل السماء وأهل الأرض جميعاً لو أرادوا أن يحولوا بينه وبين شر قضاء عليه لما استطاعوا ، ولو

اجتمعوا على أن يعطوه ما لم يردده الله وما لم يقسمه له لما فعلوا شيئاً ؟ ؟ فإذا كان الخلق لا يملكون الضر ولا الرشد ، ولا الخير ولا الشر ، ولا يملكون شيئاً في هذا الملك العظيم ، وكانوا جميعاً لا يستطيعون أن ينجسوا مستجيراً ، ولأنهم يعبدون مستعيزاً بهم ، ولا أن يجحدوا لمن هرب إليهم مهرباً ولا محيصاً ، فكيف لا يحذفون من الحساب والذاكرة ؟ وكيف لا تحتشد الآمال والحاجات كلها على من ناصية كل شيء بيده ، ودلى من لا يهرب منه إلا إليه ، ولا يماذ من سخطه إلا برضاه ؟ وهذا غاية في الرد على دعاة الأموات الماكفين على الأجداث . فإن قوله « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » نهى قاطع صارم عن دعاء المخلوقين كيف كانوا وأين كانوا ، لا يستثنى صالحاً ولا طالحاً ولا ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا إلهاً أو جنياً : لا يستثنى شيئاً . فكل ما يدعى سواه فدعاؤه باطل ضلال ، وداعيه مبطل ضال . وقوله : « قل إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا » نص صريح في أنه لا يدعى سوى الله ، وذلك أن هذا بمنزلة أن « يقال لا أدعو إلا ربِّي » في النفي والإيجاب ، وفي قصر الدعوة على الحق . وقوله « وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا » صريح في أن دعوة غير الله شرك بالله . وقوله « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » دليل على أن المشركين كانوا ينكرون على الرسول عليه السلام دعاء ربه وحده كما ينكر اليوم دعاة الأموات على أهل التوحيد دعاء ربهم وحده ، ودليل على أن أولئك المشركين كانوا ينقمون من الرسول ، ويحتشدون على عداوته إذ لم يوافقهم على دعاء غير الله ، كما ينقم هؤلاء الماكفون على القبور من أهل التوحيد إخلاصهم وتوحيدهم ، ويحتشدون على عداوتهم وهنأوتهم ، إذ لم يوافقهم على دعاء غير الله : من المشايخ والأولياء والأنبياء والصالحين . فدعاة الله وحده هم إذن خلف الرسول وخلف صحبه الأبرار ، والمنكرون عليهم دعوتهم ودعاهم إذن خلف أولئك المخلصين للنبوة ولتوحيد الله ، ولعوذ بالله من الضلال ومن أسلافه وأخلافه .

خلف الرسول
وخلف
خصومه

آية أخرى

وقال تعالى في سورة المؤمنين « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون »

ولا خلاف في أن كل من عبّد من دون الله فهو إله لغة وشرعاً ، لأن الإله منه الحق ومنه الباطل ، أى منه الآلهة الذى يستحق العبادة ، والآلهة الذى لا يستحقها ، فالمسيح إله عند عابديه لأنهم عبّدوه ، وأمه إله عند عابديها ، والأخبار والرهبان آلهة لأنهم معبودون ، وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وغيرهم آلهة ، وهم قوم صالحون ، والملائكة آلهة عند العرب لأنهم كانوا يعبدونهم فالإله هو المعبود كيف كان وأين كان . ولهذا فلهوى ، أى هوى النفس ، أحياناً يكون إلهها كما قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواً » . والآية التى ذكرناها تقول : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون » . أى إن الذى يدع مع الله إلهاً آخر هو كافر ولا يفلح الكافرون . ولا يمكن أن يكون لمن دعا مع الله إلهاً آخر برهان ، وإذن فكل من دعا أحد هؤلاء الآلهة : المسيح ، أو مريم ، أو الملائكة أو ودأ ، أو سواعا ، أو يغوث ، أو يعوق أو نسرأ ، أو أحد أولئك الأخبار والرهبان ، فقد دعا مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، فهو واقع تحت هذا الوعيد الصارم الشديد ولا ريب في هذا ، فانه لا شك في أن المسيح وأمه الهان ، وإن الملائكة عند العرب آلهة ، وأن هذه الأسماء المذكورة : ودأ وسواعاً إلى آخرها أسماء آلهة ولا شك أن من دعا أحد هؤلاء فقد دعا مع الله إلهاً آخر لا برهان له به . فن قال : يا مسيح أعطنى كذا فقد دعا مع الله إلهاً آخر ، ومن قال يا مريم افعلى من اجلى كذا فقد دعا مع الله إلهاً آخر ، ومن قال يا جبريل او يا ميكائيل أريد منك كيت فقد دعا مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، ومن دعا مع الله إلهاً فقد ذكر الله في الآية المذكورة وعيده وجزاءه . فدعاء هؤلاء الآلهة ممنوع بهذه الآية منعاً

من دعاء مع
الله إلهاً

صريحاً شديداً ، والداعى لهم ألاّ أحدم واقع تحت طائلة هذا الوعيد الذى هو الكفر ، والكافر لا يفلح و « لا يفلح الكافرون » ، كافي الآية . وإذا كان دعاء المسيح ومريم والملائكة وجميع الأحرار والرهبان الذين اتخذوا آلهة مع الله ممنوعاً فلا شك أن دعاء الأموات يكون مثله ممنوعاً أو ممنوعاً أكثر ، لأنه لا يمكن أن يكون دعاء المسيح وأمه والملائكة كفرة وردة ثم يكون دعاء الرافعى والبدوى والجيلانى والزيلعى ، وغيرهم من المشايخ ، إيماناً ودينياً بل إذا كان دعاء أولئك ممنوعاً وردة كان دعاء هؤلاء أحق بالمنع وبالإيراد . وورد الكفر والكافرين ، وإذا كان دعاء هؤلاء الأسيان الموتى من الدين والاسلام كان دعاء أولئك أحق بأن يكون من ذلك .

فنحن لا نشك أن مسلماً لا يمكن أن يزعم أن دعاء المسيح ودعاء مريم أو دعاء ود أو سواع ، أو دعاء اللات - وهو رجل صالح كما ذكر في التفسير - لا يمكن أن يزعم مسلم أن دعاء هؤلاء كلهم ، أو دعاء فريق منهم ، من الاسلام والدين ولا من الجائز المباح . ولا نعرف ما يزعم هذا الشيعى ، هل يرى أن دعاء هؤلاء جائز ودين كدعاء الملائكة والمشايخ ، أم يرى في هذا ما يراه جميع المسلمين من البطلان والتحريم . وإذا كنا لا نشك أن مسلماً واحداً لا يمكن أن يجوز دعاء المسيح ومريم ولا دعاء أحد هؤلاء المعبودين الصالحين ، فلا شك أنه لا فرق بين دعائهم ودعاء المشايخ الأموات من جهة التحريم والبطلان . بل لا شك أن دعاء هؤلاء المشايخ أحق بالتحريم والحظر . فان مسلماً عاقلاً لا يجرؤ أن يقول : إن دعاء المسيح من الضلال والكفر ، أو من الأمور الممنوعة المحرمة ، ثم يقول : إن دعاء الجيلانى أو الرافعى أو دعاء الحسن أو الحسين أو غيرهم من الأمور الجائزة التى امتدحها الاسلام وتنب إليها المسلمين . وكذلك أيضاً لا نشك أن مسلماً عاقلاً لا يمكن أن يزعم أن دعوة اللات اليوم جائزة ، لأنه قد صح

ما الفرق بين
دعاء المسيح
وأمه ودعاء
المشايخ
الأموات

عن اهل التفسير واهل السير انه كان رجلا صالحا يلت السويق للحجيج ، فلما ان مات عبده . وإذا كان مسلم واحد لا يمكن ان يرغم جواز دعوة اللات - وهو احد الصالحين الأموات - فما الفرق بينه وبين البدوي والدسوقي مثلا ؟ وما الفرق بين دعاء هذا العبد الصالح ودعاء هؤلاء الأسياف الذين لا تعرف حقيقتهم ولا كنههم ولا كنه مذهبهم وإيمانهم على وجه اليقين ؟ نحن نحسب أنه لا فرق بين هذا وهذا ، ونحسب ان كل منصف يعلم ، ويقول : إنه لا فرق . قال هؤلاء إذن لا يسرون على طرية واحدة وسيرة متفقة متحدة ، فلا يتناقضوا ، ويقولوا القول ويردوا نظيره وأخاه ؟ إن زعموا ان الفرق بين أولئك الأولين كاليسوع ومريم واللات وود وسواع ، وبين هؤلاء المتأخرين كالطاعي والدسوقي والبدوي والسيدات : زينب وسكينة ونفيسة أن أولئك الأولين اتخذوا آلهة ، وأما هؤلاء فلم يتخذوا آلهة ، ودعوة الذين اتخذوا آلهة فيها إيهام ومضاهاة للمشركين الضالين بخلاف هؤلاء المشايخ الأموات ، فانه لا إيهام في دعوتهم ولا مضاهاة فيها لأحد من المشركين ، فكان من العدل والعقل التفريق بين الفريقين ، وكان من العدل والعقل أن يقال بجواز دعاء هؤلاء المشايخ الصالحين وبنع دعاء أولئك الأولين **بطلان** **التفريق بين** **الذاهبين : إن زعموا هذا الزعم قلنا : هذا ، وإن كان باطلا لا يصح ، مردود بدعائهم لعل بن أبي طالب ودعاء غيره من آله ، وقد عبد على وعبدت طوائف من ذريته وزعموا آلهة ، وقد حرق على قوما زعموا فيه هذا الزعم وقالوا له أنت الله وهذا الشيعي صاحب هذا الكتاب معترف بأنه عبد وادعيت فيه الألوهية وكذا الشيعة أجمع تعترف بهذا . ومردود أيضا بتجويزهم دعاء الملائكة وقد عبدوا وزعم فيهم أنهم بنات الله كما ذكر الله وكما اعترف هذا الخصم في كتابه بل هذا الزعم مردود بدعائهم للرسول عليه السلام ولأهل بيته عليهم الرضوان فاتهم قد عبدوا وزعموا آلهة من دون الله ، وزعم ان الله قد حل فيهم كما ذكر**

علماء الشيعة أنفسهم كابن النوبختي في كتابه فرق الشيعة المطبوع في النجف ،
وكما ذكر مجتهدهم الكبير في هذا الوقت الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء
في كتابه « الآيات البينات » المطبوع في النجف بالمطبعة العلوية ، فقد ذكر هؤلاء
وغيرهم أن فرقاً من المتشيعين ادعوا الألوهية والربوبية في النبي عليه السلام ، وفي
الحسن والحسين وأولادهم ، وفي فاطمة وفي جعفر وفي غير هؤلاء من قرابة النبوة
وقد قال آل كاشف الغطاء في كتابه المذكور « الآيات البينات » : « من أشكال من قول مشايخ
الاحاد والزندقة التي نشأت في الاسلام الغلو والارتفاع وتجاوز الحد في الأئمة من الشيعة في
آل البيت النبوي ، وأول من اشتهر بذلك عبد الله بن سبأ . غلا في أمير المؤمنين الشيعة
على وزعم أنه هو الله ، وتبعه جماعة حضر بعضهم عند علي وخاطبوه بالربوبية
فحرقهم . ثم هدأ غليان الغلو إلى زمن جعفر الصادق فثار ثورة ، وكان أكبر
القائمين بذلك محمد بن مقلص المعروف بأبي الخطاب وتبعه جماعة كبيرة تعرف
بالخطابية ذهب إلى ألوهية الصادق ، ثم ترقى فزعم أن الاله - يعني الصادق -
قد حل فيه : ثم تشعبت الغلاة إلى شعب كثيرة ، منها الملياوية ، القائلون بأن من فرق الشيعة
علياً رب ، وإن فاطمة والحسين والحسن تلييس ، والحقيقة هو شخص على . ومنها على قولهم هم
الخمس ، القائلون إن الخمسة : سلمان وأبا ذر والمقداد وعماراً وعمر بن أمية
الضمري ، هم الموكلون بمصالح العالم من قبل الرب ، وهو على . ومنها المفوضة ،
الزاعمون أن الله خلق محمداً وعلياً وفوض إليهما الخلق والإيجاد ، فخلقا الدنيا وما
فيها . ومنها المغيرة ، أصحاب المغيرة ابن سعيد . قالوا : إن الله قد حل في كل واحد
من الأئمة وظهر بصورة على . . . ولم يزل الغلو مطرداً في عامة الأئمة الاثنى
عشر وفي خاصة كل واحد منهم . وكان آخرهم الفرقة المعروفة بالنصيرية ،
أصحاب محمد بن نصير . كان يقول : الرب هو علي بن محمد العسكري وهو نبي
مرسل منه . . . »

هذا بعض ما ذكره مجتهد الشيعة محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه المذكور . وقد ذكر أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي في كتابه « فرق الشيعة » أمور كثيرة تقدمت في مطلع هذا الجزء .

فإذا كان يصح التفريق بين الفريقين بما ذكره من الفرق وجب أن يقولوا ببطلان دعوة علي بن أبي طالب ، ودعوة الرسول عليه السلام ، ودعوة آله وقرابته الذين عبدوا وزعموا آلهة من دون الله ، وزعم أن الله قد حل فيهم ، وأن يقولوا أيضاً ببطلان دعوة الملائكة لأنهم عبدوا وزعموا بنات الله ، كما ذكر الشيعة نفسه . ولكن كلا ، هم لم يقولوا ببطلان دعوة أحد من هؤلاء . بل هم يدعونهم الليل والنهار ، وينالون ممن قالوا بامتناع دعائهم ، ويضعون الكتب للتدليل واصطیاد الشبهات على دعائهم والاستغاثة بهم . وقد زعموا كهذا المصنف في كتابه وغيره أنه يجوز دعاء الملائكة والاستغاثة بهم وسؤالهم الحاجات دنيوية ودنيوية . فهم إذن لم يبالوا بهذا التفريق ولم يعملوا به ، ولم يبالوا بأن يدعوا من عبدوا وأهلوا وادعيت لهم الربوبية ، فهم إذن غير صادقين في هذا التفريق ولا جادين ولا قابلين له ولا معترفين به . فعليهم إذن أن يقولوا بجواز دعاء اللات لأنهم رجل صالح ، وبدعاء المسيح وأمه ، وبدعاء عزيز والأنبياء الأولين ، وبدعاء ود وسواع ويعقوب ويعق ونسر ، لأنهم رجال صالحون ، كانوا يدعون إلى عبادة الله فلما ماتوا عبدوا الجاهل ، وجوز دعاء الصالحين الأولين من الأمم الأولى - وإن لم يقولوا بهذا ويرضوه - فعليهم إذن أن يقولوا ببطلان دعاء هؤلاء المشايخ الموتى وبطلان دعوة الرسول ودعوة غيره من الأموات ، فلا يدعوا ميتاً لا قدماً ولا حديثاً ، ولا قريباً ولا بعيداً . هذا ما عليهم أن يقولوه وأن يزعموه ويلتزموه . أما أن يقولوا ببطلان دعوة المسيح ومريم والعزيز مثلاً واللات وود وسواع ويعقوب ويعق ونسر والصالحين الآخرين وهم يقولون بجواز دعوة الدسوقي

أما أن يقولوا
بجواز دعاء اللات
أو بامتناع دعاء
الأموات

والرافعى والبدوى والجيلانى وكل من هب ودب ، فجهل وضلال . فاذا سلكوا طريقة واحدة فقالوا بجواز دعاء هؤلاء جميعاً ، فحوزوا أن يقول المسلم : يا عيسى أعطنى . ويا مريم هبى لى كيت : ويا فلان أسألك العفو والعافية والشفاعة والوساطة ، وأمثال ذلك : أما إذا ذهبوا إلى هذه المقالة فقد ساعدوا على أنفسهم وصاروا بلا شك غير مسلمين بإجماع المسلمين . . . وإذن لا مفر لهم من الاعتراف بأن دعاء الأموات ، كيف كانوا وأين كانوا ، من الشرك بالله ومن الجهل الفظيع .

وهذا الذى ذكرناه برهان مستقل بارع على بطلان دعوة المشايخ ومثاليين إذا ماتدبره الماقل الفطن وحذقه جيداً لم يحتج إلى غيره لعرفان بطلان الرجوع إلى الموتى والاستغاثة بهم ودعائهم لنيل أمر من الأمور . . . والله الذى افترض على عباده جميعاً التوحيد قد أقام عليه من البراهين الواضحة والدلائل المتنوعة ما يلائم كل عقل ، وما يفهمه كل إنسان ، هما كان ضعيف الذكاء قليل الحفظ من رسوخ القدم فى صناعة البرهان ومعرفة الحجة . . .

وقال تعالى من سورة الأعراف : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألم هم أرجل يعيشون بها ، أم لهم أيدي يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ! قل ادعوا شركاءكم ثم كيون فلا تنظرون . إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوم إلى الهدى لا يسمعون ، وتراهم ينظرون إليك وهم فلا يبصرون . »

وهذه الآية من أبلغ الرد على المشركين الذين يدعون من لا ينفعونهم ولا يضرهم ويلسون ربهم رب العالمين الذى يرجع إليه الأمر كله . وهى أيضاً من أبلغ الرد على الداعين إلى هؤلاء الطائفتين بالقبور السائلين للأموات . وقد نوع الرد فيها للأموات

وبلغ فيه ، فقوله : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » صريح في أنهم كانوا يدعون أناساً مثلهم بشراً ، ليسوا جماداً ولا أحجاراً أو أشجاراً ، كما يزعم من لا يعرف . وفي هذا أبلغ التهم والرد على القوم والزياة بهم وبعقولهم . فإن العاقل لا يمكن أن يدعو من هو مثله في القدرة وفي الحول والعول ليهبه ما يرجو وليليله ما يسجز عنه هو ، وإنما يدعو العاقل من هو أقدر منه ومن هو أعظم حولا وطولا وسلطة وسلطانا . وذلك لأن الداعي والمدعو لا يصح أن يستويا وأن يكونا مثلين ، لأنهما إذا كانا كذلك فليس دعاء أحدهما للثاني أولى من العكس . وليس عجز الداعي عن نيل ما يطلبه من المدعو بأحق من عجز المدعو ، وليس هذا أولى من هذا بأن يكون مدعواً ، ولا هذا أحق من هذا بأن يكون داعياً . وإذا عجز الداعي عن أن ينال ما يطلب من المدعو فالمدعو كذلك عاجز أيضاً ، لأنهما مثلان ، وإذا كان المدعو قادراً على ما يطلب منه الداعي فالداعي ، كذلك ، قادر لأنهما سيان ، فلا وجه لأن يكون أحدهما داعياً محتاجاً والآخر مدعواً محتاجاً إليه ، بل يجب أن يكونا إما داعيين ، وإما مدعويين . فمن دعا من هو مثله فقد بالغ في هجم نفسه وعقله وحاله . ومن النقص العظيم ، مع الجهل الفاضح ، أن يدعو المرء مثله ويدع الله وراء ظهره . فقوله تعالى « عباد أمثالكم » من أعظم الهجاء لدعاة البشر ومن أظهر الرد على دعاة المخلوقين .

العاقل لا
يدعو مثله

آية التحدى وقوله : « فادعهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » غاية في التحدى . والتعجيز لدعاة غير الله من البشر وغير البشر ، غاية الانصاف في الجدل والخصام . وبيان هذا أن الله أولاً قال لدعاة غيره : إنكم غالطون ضالون أن دعوتكم سوى عباداً مثلكم من كل وجه ، عاجزين عن نفعمكم كما عجزتم أنتم عن نفعهم ، محتاجين إلى غيرهم كما احتجتم أنتم إلى غيركم ، لأنكم أنتم وهم سواء ، وانظروا إلى حقيقتكم وحقيقتهم تجدوا الأمر واضحاً . فإن لم ينعمكم هذا البرهان الملموس المحسوس .

آية التحدى

وأمرهم دلي لأنهم قادرون على إجابة دعائكم فدعوتهم ، فتعالوا إلى أمر أحزم وأنقطع وأبين : تهاالوا إلى تجربة شهادة صادقة لا تخون ولا تبين ، هذه التجربة هي أن تدعوا هؤلاء الذين زعمتم أنهم يسمعون دعاءكم ويحببونكم ، وأن تنظروا بعد هذا هل يستجيبون لكم أم لا يستجيبون . فان كانت الأولى فقد صدقتم وهديتهم ، وإن كانت الأخرى فقد كذبتهم وضللتهم ، وعليكم أن تتوبوا بعد ، وأن ترجعوا إلى عقولكم وفطركم التي عزبتم عنها وعزبت عنكم منذ أحقاب وأزمان « فادعهم فايستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » . ولكن أين ! فقد طبلجوا هذه التجربة منذ عصور وحقب فلا حاجة بهم إلى تجديد لها والنحاكم إليها ، فهل استجابوا لأحد منهم ، أو هل أعطوا أحداً ما سأل ؟ هم يعرفون في دخال أنفسهم أنهم لم يستجيبوا لأحد ولم يعطوا سائلاً قط ما سأل ، ولكنهم يتللون بالأكاذيب والأمانى الفوارغ . ولهذا كان هذا التحدى والتعجيز من أبين الرد على دعاة المخلوقين المعرضين عن خالقهم وربهم . وهذا هو ما يقال اليوم لدعاة المتبورين ، يقال لهم « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعهم فايستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » .

وقوله « ألم أرى أن يمشون بها أم لم أرى أن يبطلشون بها أم لم أرى أن يصرن لما ذابني عن أم لم أذن يسمعون بها » تعليل للنهي عن دعائهم وسؤالهم ، وقطع الرجاء فيهم دعوة الاموات ومنهم . وذلك لأنهم قد فقدوا آلات العمل والحياة ، فهم لا يستطيعون أن يديلو أسئلتهم شيئاً له جزهم وقصورهم ، فهم لا يستطيعون أن يشوا ولا أن يعملوا بأيديهم ولا أن يبصروا ولا أن يسمعوا ، لأنهم أموات ، والاموات أشباح لا أرواح فيها ، فهي جهاد من حيث الظاهر ، ومن حيث الدنيا ، والحياة التي فيهم ولهم هي حياة روحية غيبية أخروية راجعة إلى أرواحهم التي مستقرها عالم الآخرة عند الله ، فلا صلات بينها وبين الدنيا وأهل الدنيا . أما أجسادهم — وهي ما بقي

عند أهل الدنيا منهم - فلا فرق بينها وبين الجماد الصامت من حيث المعجز عن .
النفع والضرر والعمل والحركة . فلا فرق بين من دعاها وبين من دعا الجمادات
الصامتة . أما الأرواح فما أبعد ، نالها ومكاتها عن داعي أشباحها . وما مثل
من دعا هذه الجثث الميتة الموضوعة تحت التراب والرغام إلا كمثل من دعائوباً أو
بيتاً ، لأن نبياً من الأنبياء ، أو ولياً من الأولياء . كان قد لبسه أو سكنه
يوماً من الزمان .

وهؤلاء الذين يدعون الموتى ويسألونهم حاجاتهم ومآربهم لا ينازعون في
أنهم ليست لهم أرجل يمشون بها ، ولا أيدي يبطشون بها ، ولا أعين يبصرون
بها ولا آذان يسمعون بها ، فهم بلا شك محجوجون بهذه الآلة ، داخلون تحت
تفريعها وذمها لمن دعوا من لا يمشون ولا يبطشون ولا يبصرون ولا يسمعون ولا
يعملون ، لأن تفريعها تناول كل من دعا شيئاً هو بهذا المكان من المعجز والنقص ،
والأموات هم ، بلا ريب ، في صدر هذا المكان .

ترتيب نظم
الآية وبراعته

وقد رتب الآلة وصف هؤلاء المدعوين بالمعجز والضعف ترتيباً هو في غاية
الدقة والنظام والبراعة . فقد سلبتهم أولاً المشى والنفلة ، وقد بقى لهم أن يسلموا
بأيديهم فسلبتهم ثانياً ذلك . فبقى لهم من آلات الحس أن يبصروا بأعينهم فينفعوا
دعائهم بالنظرات بعد أن عجزوا عن نفهم بعملهم بأرجلهم وبطشهم بأيديهم
فسلبتهم ثالثاً آلة النظر ، فهم لا يستطيعون أن يمنحوا من دعائهم ورجائهم نظرة
من نظرات المطف والحنو والحنان ، فبقى لهم بعد سلب ذلك كله أن يسمعوا
دعائهم وهتافهم ، ولعلمهم إذا سمعوا هذا شفّعوا لهم أو توجهوا بنفوسهم وإراداتهم
إلى نفهم ومجازاتهم على تعلقهم بهم وانقطاعهم إليهم ، فسلبتهم رابعاً آلة السماع ،
فأصبحوا لا يمشون ولا يعملون ولا يبصرون ولا يسمعون ، فكيف ينفعون أو
يضررون ؟ وكيف يرجون ويؤمنون ؟ . . . فاقطع منهم كل أمل ورجاء . وهذا

الترتيب في تمجيزهم وتسجيل ضعفهم في مكان من الدقة والبراعة لا يسع أجحد العقول وأكفرها وأعنفها كبرياء وجبروتنا إلا التواضع إزاءها والتسليم لها بالأعجاز وبصحة الانسحاب إلى الحق جللت قدرته وعظمته ، وإلا الاعطاء لها باليد ، يد الصغار والتضاؤل والتخاذل .

وقوله : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيون فلا تنظرون » نتيجة لما تقدم هي نتيجة ماتقدم في نهاية الدقة والبراعة والانسجام . ذلك أن الله قد أبان الدلائل أولاً على أن أولئك المدعويين عاجزون عجزاً تاماً ، ليسوا أهلاً لأن يدعوا ويستغاثوا لأنهم ليسوا قادرين على أن ينفعوا أو يضرروا . وقد ذكر من الدلائل على هذا المشاهدة ، والمشاهدة هي من أصديق الأدلة الصادقة . وهذا الدليل المشاهد الملموس هو أن هؤلاء المدعويين قد فقدوا آلات العمل كلها ، فقدوا الأيدي التي يبعثون بها والأرجل التي يمشون بها ، وفقدوا آلات البصر والسمع التي يمكن أن يروا بها حال دعائهم ، أو يسمعوها بها هتافهم ودعاهم . وعزز هذا البرهان القاطع بأن تخدام قائله : « فادعهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » . وهذا برهان حسي آخر على ضلال دعاة الأموات ، وعلى أنهم في غفلة عن دعاهم لا يحسون معها دعاه ولا يعلمون حاله . وبعد أن سجل على الدعاة هذا البرهان الباهر ، وعلى المدعويين هذا المعجز الظاهر ، عاد عودة المنتصر الوائق من خذلان خصمه المطمئن إلى أمره ، فقال : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيون فلا تنظرون » أي إذا أصررتكم على دعاء شركائكم وأصررتكم على أنهم ينفعون ويضررون ويستجيبون فانتنا لا نقر ذلك ولا نقبله بل نسكره ونرفضه ، فلا نخاف أو نرجو أحداً ممن تدعون وتخافون وتؤمنون ، فإن كان هذا الذي نقوله وننتحله لا يوجبكم ولا يوجب شركاءكم ، لأن فيه إعراضاً عنهم ونكراً لنا لسلطانهم وأمرهم ، فأجمعوا أنهم وهم على إبدائي والانتقام مني ، ولا تدخروا وسماً ، ولا ترحموني ، أو تنظروني ، أو ترفقوا

قل ادعوا
شركاءكم ثم
كيون

بني ، لأنني أنا لم أدخر وسعاً في نكرانكم ونكران شركائكم ، ولم أبال بكم ولا بهم فجازوني حرباً بحرب ، وجفاءً بجفاء ، وإيذاءً بإيذاء « فادعوا شركاءكم ثم كيّدون فلا تنظروا » . فان لم تستطيعوا لا أنتم ولا شركاؤكم شيئاً من هذا فلا شك في فساد أمركم وضلالكم ، ولا شك في عجز شركائكم عن أن يفعلوا شيئاً لا ضراً ولا نفعاً ، لأنهم إذا كانوا عاجزين عن ضرر أعدائهم وأعدائكم فلا شك في عجزهم عن نفع أصدقاتهم ، فإذا عجزوا عن ضرر أنا ، وأنا الحرب الزبون عليكم وعليهم في زعمكم ، فهم بلا ريب عاجزون عن نفعكم أنتم وأنتم الأولياء الأصدقاء لهم في ما زعمتم . فالذي لا يقدر على الضر لا يقدر على النفع ، والذي يقدر على النفع يقدر على الضر . فعجز هؤلاء الذين تدعون من دون الله عن أن ينالوني بسوء وقد نلتهم أنا بكل سوء — لأنني أدعو الناس إلى تركهم وترك عبادتهم ودمائهم دليل صحيح قائم على أنهم عاجزون عن كل شيء ، غافلون عن تقربوا إليهم ودعواهم وعبدوهم ، غافلون ، كذلك ، عن يعادونهم وينكرونهم . . . وهذا من أعظم التحدي والتعجيز لأولئك المشركين الغافلين ول هؤلاء المشركين الحاضرين .

وقوله : « إن وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » تحد وتعجيز آخر لمن أشركوا بربههم وبدعائه ، وهو كالسبب لما تقدم من الاعراض عن كل شريك وعن كل مخلوق وعن كل ما سوى الله . لأن من كان السيد الأعظم والمالك لكل شيء ولياً ونصيراً له فان يبالى بغيره ، ولن يعبأ بأحد من خلقه وعبيده ، ولن يرهب أو يبالى من خدم مولاة ونصيره قريباً ولا بعيداً ، لا من أهل السموات ولا من أهل الأرض . لأن السيد الأعظم الأعلى ، المالك لكل شيء إذا كان ولياً ونصيراً له وقريباً منه — لأنه أطاعه وخدمه خدمة صادقة صحيحة — لم يبق هنالك فرق بينه وبين المقربين إليه تعالى ، الذين يُدْعَوْنَ وَيُرْجَوْنَ وَيَسْأَلُونَ الشفاعة والوساطة لقرهم منه وحفظهم لديه . لأن المقربين

إليه من عباده وصفوة خلقه ما قربوا منه وحفظوا لديه تعالى إلا لأنهم خدموه تعالى خدمة عبودية صادقة صالحة صحيحة . وهذا هو الذى يقرب العباد إلى ربهم ومولاهم الحق لا غيره ، لأنه ليس بينه تعالى وبين أحد من خلقه نسب ولا قرابة سوى الطاعة والعبودية . فمن أطاعه تعالى وعبدته فقد أخذ حظه من القربى والزلفى لديه بقدر طاعته وعبادته . ومن لا فلا .

وفى الآية احتجاج على المشركين لطيف خفى لا يفتن له إلا من أعطى مثل المشركين فهم ما لكتاب الله . هذا الاحتجاج اللطيف مأخوذ من قوله تعالى : « إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وخلاصة الاحتجاج أن الله قد علم رسوله أن يقول للمشركين العابدين غيره معه : شتان ما بينى وبينكم فى القصد والغاية والمطلب وأخذ الطريق إلى الله ، فأنا قد توليت الله وحده ، فدعوته وسألته ورجوته وخفته وأملته ، وعنت به وأفكرت فيه ، واقطعت إليه وحده : ولم أدع غيره ، ولم أعبد سواه ، ولم أرج عبداً من عبيده ، ولم أذل لخلق من خلقه ، ولم أبسط يدي بسط ذلة واستكانة إلا له تعالى : فكنت كلى لله ، فكان لله محياى بما فيه من أنواع العبادات والصلوات والضراعات ، وكان له مماتى بما فيه أيضاً من ضروب الآمال والرجى والحساب والعقاب والثواب . فكنت له وحده مسلماً خالصاً ، والى وجهه بوجهى متوجهاً منصرفاً ، لم أعجج بميناً ولا شهلاً : لم أعجج على غيره لا بقلبي ولا بشئ من قالى ، فهو ولي وحده لا ولي سواه » إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وأما أنتم ، أيها المشركون ، فما كنتم له تعالى وحده ، ولا كنتم لأصنامكم أيضاً ، بل أنتم شركة بين الحق والباطل ، فكان منكم ما هو لله الحق ، وكان منكم ما هو لغيره الباطل ، فكنتم مشركين : إذا دعوتكم الله مرة واحدة دعيتم سواء مرات ، وإذا رجوتم الخالق تارة واحدة رجوتهم . فى تارات ، وإذا بسطتم أيديكم إلى السماء تدعون إليه

السماء بسطتموها إلى الأرض تدعون سكان الأرض من الأموات الراقيدين تحت الأحجار والتراب ، وإذا ارتفعت بآمالك وحاجاتكم إلى الله لم يفتكم هذا عن أن تهبطوا بها إلى الحضيض الأسفل تلمسونها تحت أقدام الموتى وبين أشلاء الرعية البوالى ، وإذا سفكنم شرطة محجم دماً ، ذلاً وعبودية ونسكا لله ، سفكنم بحاراً وانهاراً من ذلك ، ذلاً وتقرباً وتنسكا وعبودية لخلق العاجزين الضعفاء ... فكنتم هكذا متسمين بين الحق والباطل ولكن قسمة غير عادلة ولا منصفة ، إذ كان نصيب الباطل منكم وفيكم أعظم وأمن من نصيب الحق ، فكنتم شراً العبيد وأضل الخدم ، وكنتم مثل السوء والغباوة والبلادة للأرقاء الخائنين الغادرين الجاهلين . هذا ما كان من مثلى ومثلكم ، فشتان ما بينى وبينكم !

ليس العابد لله وقد ضرب الله المثل لعبده الخالص الموحّد ، ولعبده المشرك الممّدد بقوله
كأنّ وزع بين من سورة الزمر : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء مثلاً كسوف ، ورجلاً مسلماً
الشركاء لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » . فالرجل المملوك لعمدة
شركاء مثلاً كسين متخالفين - والشركاء لا بد لهم من التشاكس والتخالف -
وهذا مثل المشرك - ليس هو كالرجل المملوك للمالك واحد ، السالم الخالص له من
الشركة والمشاركة ، ومن الخلاف عليه والمشاكسة . وهذا هو مثل العبد الموحّد
العابد لله وحده الخالص له « من الشركات الأجنبية » الجائرة الملعونة ... فمن كان
دعاؤه ورجاؤه وخوفه ومحياه ومماته موزعين فلان وفلان من الأحياء والأموات ،
وبين الحق والباطل ، فليس هو مثل من كان محياه ومماته ودعاؤه ورجاؤه وخوفه
وعبادته وكل شيء فيه وله خالصاً لله وحده ، خالصاً للحق لا شريك فيه للباطل ولا
حظ . وذلك أن الذى يكون موزعاً بين الشركاء لا بد أن يختصموا فيه ويتشاكسوا
وأن يرغب كل واحد منهم فى حظ الآخر فيه ، وأن يطمع الشريك فلان فى
ما صرف للشريك فلان الآخر . فمن اعتاد أن يتقدم إلى الشيخ البدوى بسدد

كذا من القرايين والضحايا والهدايا ، أو إلى غيره من المشايخ ، فبدا لذلك المشرك الصارف ماله للبسوى أن يصرف بعض ذلك أو كله إلى شيخ آخر كالشيخ الرفاعي أو الدسوقي أو الجيلاني مثلا ، فصيرفه ، فلا محالة من أن يغضب ذاك الشيخ المعبود أولا لما ناله من الجفاء له والإعراض عنه إلى سواءه من الشركاء ، ثم لاحالة من أن ينتقم من عبده أو شريكه إن استطاع ، ولا بد ، إذا كان قادراً ، وكان راضياً بهذا الذي يقدم إليه وإلى قبره من الهدايا والضحايا والقرايين والنذور . وبمثل هذا يفعل غيره من الأشياع ولا مفر . ولهذا فان هؤلاء المساكين المفتونين بأهل القبور ، الذين يتقدمون إليهم بالنذور والهدايا إذا حدث لأحدهم حادث فلم يتقدم إليهم بما كان قد اعتاد أن يتقدم به إليهم كل عام ، فأصيب بمصيبة ، زعم أن تلك المصيبة من الشيخ فلان لأنه قد أعرض عنه وأساء معاملته إذ لم يذهب إليه ولم تعب المشرك يهدله ما اعتاد أن يهدى ، فراح يتقى ذلك ويدفعه بالضرعات والتوسلات وأوهامه وصنوف الهدايا والصدقات . وهذا لأنهم يعلمون أن المشايخ لا بد أن يغضبوا إذا لم يعطوا إن كانوا حقاً يرضون بأن يطلوا ، وهم يزعمون أنهم يرضون ذلك ويجازون عليه ، ولا بد أيضاً أن ينتقموا إذا أغضبوا متى كانوا قادرين على الانتقام وهم يزعمون أنهم قادرون . . . فالذى يتقدم إلى فلان وفلان وإلى الحق والباطل بالدعاء والسؤال والنذور والهدايا والصدقات والقرايين لاحالة من أن تقوم حوله معارك انتقامية وخلافية ، ولا محالة من أن يعظم فيه الخلاف ويشند ، وأن يتسع نطاق التشاكس والصراع حوله وحول عبادته وعبوديته ، ولا محالة من أن يقترب ذلك بالظلم والفساد إذا كان شيء مما زعموه حقاً وصدقاً . وامرؤ واحد لا يمكن أن يرضى عنه جميع المشايخ بنذوره وهدايه وصدقاته وضحاياه ودعواته ، وإن اقتطع إلى ذلك كله وأعطاه كل جسمه وعقله وقلبه وجهله وغباوته وبلاذته ، بل وإن تحمل من ذلك ما لا يطيق . فلا بد إذن من أن يقع فريسة الأوهام والخاوف من هؤلاء الذين

لا يقدر على إرضائهم كلهم ، والذين لا محالة من أن يسعى لإرضائهم ماواتاه السعى والجد والعمل . فلا بد إذن من أن يعيش منغصاً مذهباً مكديداً العقل والجسم والقلب والنفس مادام يرجو فلاناً ويخاف فلاناً ، ويحاول أن يرضى فلاناً بماله أو دعائه ، وأن يدفع عن ماله وولده ونفسه بطش فلان الغاضب الناقم الناثر لما لحقه من الجفاء والمهجران والنسيان لروحه وضييعه ولقائه الذي يتطلب الكسوة والمصاييح والسريرج والبخور والأطياب . . . فهو أبداً شقي وجل ، وهو أبداً مذعور مرزأ متعب . فأنعسه وأشقه وأنصبه !

راحة الموحدة
وأطمئنانه

وهذا من المحال أن يكون كعبد خالص لله وحده لا شريك لأحد فيه : لا في دعائه ولا في رجائه ولا في خوفه ، ولا في محبيه ومماته ولا في شيء منه لا سلبى ولا إيجابى . ذلك أن هذا الذى خالص لربه وحده لا بد أن يرضى وأن يهدأ بآله وتطيب حاله ويسكن إلى عقباه حينما يعلم أنه قد أسارع ربه وأرضاه وتقدم إليه بما أمره به من العبادات والفروض والفرائض والضراعات والضحايا المنسوبة لوجهه وحده لا ند له ولا شريك . فلا بد أن يعيش سعيداً عزيزاً قوياً بربه وبإيمانه وتوحيده وإخلاصه ، لا يخاف غيره ولا يبالي سواه ، ولا يرجو كائناً فى السموات ولا فى الأرضين خلاه . فيحق له حينئذ أن يقف فى وجه الزمان والوجود كله لا خائفاً ولا مذعوراً ، ويحق له حينئذ أن يسمو على كل شيء دون الله ، وأن يتناول مجد الحياة وشرف الزمان اغتنصها وكرها أو رضا وتسليها لا سؤالاً ولا التماساً ولا رجاءً ، وأن يقول بحاله ومقاله أيضاً :

إذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذى فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر * وبينى وبين العالمين خراب
هذان مثلاً عبد الله وحده ، وعبد الشركاء المتشاكسين المتخاصمين . فهل

يستويان . مثلاً ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : « إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

وقوله : « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » لا ينصرون أنفسهم ولا غيرهم .

أسلوب آخر من أساليب النقص على دعاة غير الله ، وبرهان قاطع قاهر على بطلان أصح من راحوا يدعون ويسألون من لا يقدر على نصر أنفسهم فضلاً عن أن يقدروا على نصر غيرهم . وأى مخلوق يستطيع أن ينتصر على ربه . وخالفه لنفسه أو لوليه ؟ وأى مدعو يقدر أن يدفع عن نفسه أو عن غيره ما أرادته الله به وله ، أو أن يكون بمنجى من عذابه وعقابه وقضائه وقدره ؟ فالخلق جميعاً لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا نصر غيرهم ، ولا يقدر على أن يدفعوا عن ساحتهم وجانبيهم ما يشاءه الله لهم . فما أجهل وأغبي من أمل نصر آئمين لا يستطيع أن ينتصر لنفسه ، ومن رجا دافعاً ممن لا يقدر على الدفع عن حله . وهذا ظاهر في أن الإنكار متجه إلى دعاة العاجزين الضعفاء الذين هم في حاجة أبداً إلى نصرة ناصر قادر ، وهو أيضاً واضح في الرد على دعاة الأموات . وذلك أنه مما لا خلاف فيه أنهم لا يستطيعون نصر دعائهم ولا نصر أنفسهم ، ولا خلاف أنهم عاجزون عن هذا النصر عجزاً تاماً ظاهراً . والآية واضحة في مذمة من دعوا من هم بهذا المكان من العجز والضعف ، ولهذا فإن الآية تنبئ إلى دعاة الموتى بأن يقال لهم : « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » . وإذا قيل لهم هذا لم يقدرُوا على أن ينازعوا في شيء منه ، فهم لا يقدرُونَ أن يقولوا إنهم يستطيعون نصرنا ولا أنهم يستطيعون نصر أنفسهم كما لا يقدرُونَ أن يقولوا : إننا لا ندعوهم . فهم يدعونهم وهم لا يقدرُونَ أن يقولوا إنهم ينصرونهم أو ينصرون أنفسهم . فإذا وجه إليهم إذن قوله : « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون » الآية كان ذلك حقاً وصدقاً ، وكانوا عاجزين عن الخلاص منه .

فألاية رادة عليهم رداً مريباً واضحاً . والاسم الموصول والضمائر بينة في أن هؤلاء المدعويين الذين أنكر الله دعاءهم كانوا عقلاء لا جاداً كما زعم .

وقوله : « وإن تدعوم إلى الهدى لا يسمعوا » تينيس بالغ منهم وقطع لكل أمل في الاتصال بهم كيف كانوا وأين كانوا .

آية أخرى وقال من سورة العنكبوت : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

وقد ورد إنكار اتخاذ « الأولياء » من دون الله في مواضع كثيرة مثل قوله « ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلاً ما تذكرون » ومثل قوله : « قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض » ومثل قوله : « إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وقوله : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لهم » . وقوله : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون » إلى آيات أخرى . ولكن هذه الآية آية « العنكبوت » لا نظير لها في تقرير من اتخذوا أولياء من دون الله ، فقد بالغت بحق في توهين أمرهم وتوهين عقائدهم وإيهاء الأسباب التي يتعلقون بها ويعلمون بها نجاتهم وآمالهم وحاجاتهم ، وليس أذل ولا أوهن ولا أهون ممن جعل الله شلهم . كمثل العنكبوت في الضعف والذلة والوهن والمهانة ، وجعل عقائدهم وأعمالهم التي يشيدون عليها نجاتهم ويلتمسون بها رضا الله ، ويرجون بها أن ينالوا جنته أمثال القرآن ودار كرامته كمثل بيت العنكبوت ، وهو أوهن البيوت في الضعف والوهن . في توحيد الله - والحقارة والهون والهوان . وهذا المثل الذي ضربه الله لحال من اتخذوا الأولياء

الآيات في
النهي عن اتخاذ
الأولياء

من دون الله من أبلغ الأمثال القرآنية ، وأمثال القرآن التي ضربت للدعوة إلى التوحيد والزراية بالشرك والمشركين كلها هذا المكان من القوة والبراعة والشدة كهذا المثل وكمثل سورة الحج في قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل » الآية ، وكمثل سورة الرعد في قوله : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء » الآية ، وكمثل سورة الزمر في قوله : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » ، وكالمثل في سورة النور في قوله : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة » الآيات . وضرب مثل العنكبوت مثلاً لمن اتخذوا الأولياء من دون الله يراد به أن كلا من هؤلاء يأوى إلى ركن غير وثيق ، ويشيد أمره على أو هن التواعد ، ويريد نجاته بما فيه حنقه وهلاكه ، ويتعب فيما لا يربح ولا يفيد . مثل العنكبوت تبيد في بناء بيتها وتكوينه ونسجه وهندسته لتجد فيه المأوى والمستقر والقرار ، ولكن أقل شئ وأهدأ حركة وأضعف ربح تفسد هذا البيت بما فيه من بناء وبنائين ، فتخسر بيتها وعملها ، وتخسر نفسها أيضاً ، وذلك هو الخسران المبين . وكذلك المشركون بالله المتخذون من دونه الأولياء والأنداد ينصبون أنفسهم ويشقون أبدانهم ويرهقونها بالأعمال الجسيمة المرهقة الشاقة على النفوس والأبدان . وهم مشركون بربهم - طلباً للنجاة والسعادة ، وتقرباً إلى مولاهم الحق بهذه الأعمال المشتركة ، ويحسبون أنهم بذلك قد اتخذوا للنجاة أسبابها ووسائلها ، وأعدوا للقاء الله ونيل رضاه عدته . ولكن ما علموا أن الشرك يحبط العمل ، وأن العبادات الممزوجة بعبادة غير الله تذهب هباءً باطلاً . . . فيهلكون بما ظنوا فيه النجاة ، ويشقون الأبد بما أرادوا به سعادة الأبد . . . فيخسرون أعمالهم ويخسرون أنفسهم ويخسرون سعادتهم ، وذلك هو الخسران المبين . وكذلك أيضاً هؤلاء المشركون يلتجئون الخيرات في دعاء الأولياء العاجزين

ويؤملون البركات حول قبور الصالحين المهالكين ، ويقربون إلى الضريح كبشاً لينالوا بدمه عجلاً أو جلاً أو كبوشاً ، ويضعون في صندوق الشيخ قرشاً ليأخذوا جنيهاً أو جنهات ، ويدعونه مرة ليأخذ بأيديهم مرات . هكذا يصنعون وهم يحسبون أنهم بذلك يكسبون رضا الشيخ وخيراته وبركاته ونواب الله ومرضاته . ولا يدرون أنهم بذلك يتعلقون بأوهى الأسباب ، ويشربون من السراب ، وأن مثلهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . ونعوذ بالله من أمثال السوء .

السراب
من السراب

بقي أن يقال : ما معنى اتخاذ الأولياء من دون الله ، وما معنى هذا الخس . العظيم ؟ والجواب أن يقال : يفسر هذا اتخاذ وهذا الذنب قوله في الآية : « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » . فبعد أن ذكر ذنب من اتخذوا أولياء من دونه وزجر المتخذين لهم فسر هذا بالدعاء فقال « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء » ولو كان اتخاذ الأولياء ليس هو الدعاء لهم ، أو ليس الدعاء من معانيه لكان قوله في الآية « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء » لا مكان له هنا ، ولكان النظم مشوشاً . ونزه الله كلامه عن الاختلال والاختلاف والتشويش . فاتخاذ الأولياء من دونه تعالى معناه دعاؤهم وسؤالهم والانتفاع إليهم وإلى قبورهم اجتماعاً للرحمات والبركات كما يفعل هؤلاء العاكفون اليوم على أحداث المشايخ : يدعون ويستغيثون ويتعرضون لشفاعات والبركات المزعومة المكذوبة .

ويفسر هذا

ويفسر أيضاً هذا اتخاذ ما ذكره القرآن عن المشركين وما ذكرته السير عنهم . وذلك أن الذي ذكره القرآن عن القوم وأشاد به وأعلن ملائمتهم من جرائمه كثيراً هو دعاؤهم غير الله وسؤالهم المخلوقين الحاجات والآمال . وقد قدمنا الدلائل على أن الكتاب لم يعلم القوم على أن زعموا أن غيره تعالى يخلق أو يرزق

أو يحيى أو يميت أو يساوى الله فى القدره والقوة والقدره ، لأن القوم لم يزعموا شيئاً من ذلك ، ولم يلزمهم أيضاً أن زعموا أن مخلوقاً هو الله ، أو أن أنكروا الله أو أنكروا قدره أو قوته أو سلطانه أو جلاله أو شيئاً من كلالته ليهبوها عبداً من عبيده ، ولم يلزمهم أيضاً أن زعموا أن شيئاً فى العالم لم يخلقه الله وأنه لا يميتة ويفنيه متى شاء ، لأنهم لم يزعموا ذلك ، بل ولم يلزمهم أن سجدوا لغير الله أو ركعوا ، لأنهم - فيما يظهر - لم يفعلوا ذلك . وإنما لامهم على دعاء العباد وسؤال المخلوقين وأمرهم بأن يدعوه وحده ويخلصوا له الدين والعبادة . وهذا ما امتلأ به الكتاب ومادلت عليه آياته وتفسيره . وإذا كان الكتاب إنما لام المشركين على أن دعوا غيره ، وكان إنما نهاهم عن ذلك وأخبر فى مرض الرد عليهم أنهم قد دعوا المخلوقين ، ودعوه الحق لا نكون إلا الله ، وأما دعوة غيره فبى الباطل والضلال والجهل : إذا كان هذا كله قد دل عليه الكتاب وجب أن تفسر اتخاذ الأولياء هنا بهذا المعنى : بدعائهم ورجائهم والانقطاع إليهم ، ولم يصح أن تفسر الآيات بما لا يصح وبما يدل عليه الكتاب ولا بما أنكره . فان القرآن يجب أن يرجع بعضه إلى بعض ، وأن يفسر مجمله بمفصله ومحتمله بيقينه وخافيه بظاهره . ومن غير الممكن أن تفسر الآية وغيرها من الآيات بما يذكره المخالفون المحرفون . فان غاية ما يمكن أن يفسروا الآية به أن يقولوا إن معنى اتخاذ الأولياء من دون الله تسميتهم بالأولياء الذى نهى عنه الكتاب هو عبادتهم . فاذا قيل لهم : سلنا هذا ، ولكن ما هى عبادتهم ، زعموا أن عبادتهم هى تسويتهم بالله والاعتقاد بأنهم مثله فى القدره والاختيار والسلطان مع دعائهم وسؤالهم . ويخفى عليهم أن الكتاب قد أنبأ عن المشركين فى آيات كثيرة معلومة أنهم لم يكونوا يعتقدون بأن شيئاً مساو لله فى أمر من الأمور ، ولم يكونوا يعتقدون أن شيئاً من الأشياء خارج عن سلطانه ومشيتته وأمره وقهره ، بل كانوا يقولون ويعتقدون أن الله خالق كل شئ آخذ بكل ناصية

حق أصنامهم وآلهتهم . فهذا لا يمكن أن يكون صحيحا في تفسير الآية ولا في الواقع لأنه باطل في نفسه .

أو يقولوا : إن معنى اتخاذ الأولياء هو الزعم والاعتقاد أنهم يضرون وينفعون ويتصرفون ويعطون ويمنعون مع دعاؤهم وسؤالهم . فاذا قالوا ذلك قيل لهم : إن هذا هو ما يعتقدونه ويعلمونه هؤلاء العالمون على القبور في قبورهم : فانهم يعتقدون أنهم يضرون وينفعون ويعطون ، وإذا شاءوا يمنعون . ولولا هذا الاعتقاد لما سألوهم ولما رجعوا إليهم ولما عبثوا بهم في حالة من حالاتهم ، غير أننا لا ننكر أنهم يعتقدون أن كل ما يفعلون لا يفعلونه إلا بأذن الله ورضاه ، ولكن هذا هو اعتقاد المشركين أيضاً في آلهتهم . فلا فرق بين الفريقين .

أو يقولوا إن معنى اتخاذ الأولياء هو السجود والركوع لهم . فاذا قالوا ذلك قيل لهم : إن القرآن قد أخبر كما قدمنا بأن المشركين كانوا يدعون غيره ، وقد لامهم وأكفرهم على هذا الدعاء ، ولم ينههم بأنهم كانوا يسجدون لغيره ، وما ورد هذا - فيما أعلم - إلا في قوله « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » وفي قوله حكاية عن المهدد « وجديتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . وأما الدعاء فجاء النهي عنه في عشرات الآيات . وهذا يحتمل أمرين - كما تقدم ، أحدهما أن المشركين لم يكونوا يسجدون للأصنام وإنما كانوا يدعونها ويسألونها فقط ، وعلى هذا تكون عبادتهم لغير الله هي دعاؤهم غيره ، وثاني الاحتمالين أن يكونوا يسجدون للأصنام ويركعون كما كانوا يدعونها ويرجونها ، ولكن يقال على هذا كيف حدث القرآن عن الدعاء ونهى عنه وزجر ولم ينه كذلك عن السجود والركوع ؟ ولا يبقى لهذا جواب صحيح حيث لا غير أن يقال : إن القرآن قد أعظم من شأن الدعاء ونهى عنه ولا م عليه كثيراً لأنه أعظم من السجود والركوع ، ولأن دعاء غير الله أقبح أنواع الاشرار ، هذا هو

الجواب الصحيح عن هذا السؤال الصحيح ، وهذا يدل على أن دعاء غير الله شرك عظيم لأنه أعظم من السجود والركوع لغيره ، ولا خلاف في أن السجود للمخلوق شرك بالله وعبادة لذلك المخلوق . . . وأيا اخترنا من الاحتمالين فهو رد على أصحاب القبور . ولا يشك بصير بدين الله أنه إذا كان السجود والركوع لغير الله كفرًا كان سؤال المخلوق الميت هداية القلب ، وغفران الذنب ، وشفاء المريض ، ورجع الغائب أدخل في الكفر والضلال العظيم .

قلنا مفر من تفسير اتخاذ الأولياء في الآية باعتقادات هؤلاء الجهلاء في هؤلاء الأولياء من دعائهم وسؤالهم والاتقطاع إليهم رجاء شفاعتهم ووساطتهم ونفعهم وضرهم . فالآية من أعظم البراهين على بطلان الرجوع إلى الموتى وأصح الحجج على فساد أمر هؤلاء العاكفين على القبور . ومن العجيب أن تكون هذه الآية بمعنى ما في الكتاب من الحض على أفرادهم تعالى بالدعاء والعبادة وبكل معنى من معانيها ثم يظل المسلمون يدعون أصحاب القبور وينازعون في دعائهم ويحاولون اختلاق الشبهات على ذلك ، ثم لا يقنعهم هذا حتى ينهبوا إلى اتهام الكتاب بهذه الفضائح الوثنية ، ويزعموا أن فيه آيات نزلت في دعاء الموتى وفي الأمر بدعائهم . ونعوذ بالله من هذه النوايات . . .

وقال تعالى حكاية عن رسوله إبراهيم من هذه السورة : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » .

وهذا يدل على أن المشركين ما اتخذوا الأوثان ولا عبدوها من دون الحق إلا مودة وهوئى لها وغراما بها ، فكأنهم قد عشقوها كما تعشق الصور والجمال الحسى الصادق أو الكاذب ، وكأنهم إنما أتوا وضلوا من طريق الحس لا من طريق العقل والقلب ، أى كأنهم رأوا الأوثان والآلهة التى عبدوها صوراً فانتة

(٢٦)

مشتبهة مغرية فوقعوا في هواها وعبادتها وتألبيها، ولم يقعوا فيها لأنهم علموا أنها تستحق ذلك لما لها من الأمر والسلطان والضر والنفع والجاه والمنزلة عند الله . فهم لم يعلموا شيئاً من هذا ولم يقدروا عليهم برهان واحد ، ولا شبه برهان عليه ، بل لاشك أنهم ما ألهوها إلا كما يؤله العاشق من يشقه : كلاهما سحر بما رأى وشهد لا بما علم ووجد . وهذا أمر لا ريب فيه ، فان المشركين إنما ضلوا وأخذوا من طريق العين والبصر . وذلك أنهم رأوا التماثيل الهائلة والصور الرائعة والزينات والزخارف المنصوبة عن اليمين وعن الشمال ، ووجدوا الروائع الزكية والأطياب الفواحة ، والبنائات الفخمة المشيدة والهياكل العظيمة المجودة : رأوا ذلك كله حول الأضرحة والقبور وفوق الأموات فهاتهم فأكبروها وهاموا بها غراماً ، أو في الصحيح هاموا بالزينات التي قبل لهم إنها فوق الشيخ فلان والولى فلان ، فتصاعد هذا الغرام بهذه الزخارف إلى عيون المشركين المساكين ، ثم انتثر على قلوبهم وعقولهم وأعضائهم ، فصار شركاً وعبادة واقتتانا وضلالاً كبيراً . ولولا هذه الزخارف والزينات المنشورة هنا وهناك عن يمين القبور وشمالها وفوقها وحولها لما كان ما كان من غرام الضلال وضلال الغرام . وقد فطن سدنة هذه القبور أو الأصنام لهذا السر العظيم والفتنة الكبرى فجدوا في تجميلها وزخرفتها وإحاطتها بما يفرى ويفتن حتى جعلوها شركاً لا بصر الجاهل المغفلين ، ومصايد لحيوبهم وتقوهم ، ليروم ما يهرم وما يرخصون عنده غالى أموالهم وقلوبهم وعقولهم ، وما يصطادونهم به كما تصطاد المرأة الشوهاء القبيحة شهوات الرجال المغفلين بالأصباغ والحلل الزاهية الخادعة ، وإن كان تحت ذلك الشين كله والقبح مجسماً قائماً . ولهذا

إقراء زخرفة تلك لأنجد الزحام ، حيث تتصادم المناكب والأقدام ، إلا لدى القبور المزخرفة .
القبور المحاطة بالقباب والآثواب وسائر ما هناك من البسج التي حظها الاسلام جدياً .
ونادى على قبحها وفسادها ، وإن كان المقبور المدفون المقصود صغيراً ، بل

ضلال المشركين
من أبصارهم
لا من عقولهم

هرام الضلال

وإن كان فاسقا أو ضالا أو كافرا بالله العظيم . وأما المعدم من الزخارف والزينات ،
فلن تجمد لديه من هؤلاء الضلال أحداً وإن كان من كان فضلا وعلمًا ونباهة شأن
وشهرة ، وإن كان من أولاد النبوة وسلالات الرسل . ومن ثم فانك واجد حول
ضريح البدوى ما لن تجمده حول ضريح آخر من أضرحة الصالحين والعلماء الربانيين
الذين يزن الواحد منهم من أمثاله الألوف لو كان هذا البدوى ممن توزن بهم
الرجال . هذا مالا شك ومالا خلاف بين البصراء فيه . ولولا هذا لما عبّد مخلوق
مخلوقا إلا من شاء الله . وذلك أن عبادة المخلوق ليس لها ربح من برهان ولا طيف
من حجة يمكن أن يقع فيه أو يخضع به لإنسان . فالمخلوق ولا - سيما الإنسان - أذل
وأهمل وأحق من أن يلتبس أمره وحقيقته على أحد ، فيغريه هذا الالتباس بعبادته
وتأليه ، وبابتغاء الحاجات والأرزاق بين يديه وقدميه ميتا . ولكن هذا الخداع
الذى نصبوه فوق قبره هو الذى له الفضل فى الاضلال وفى تأليه ماتحته من العظام
البالية . ولأجل هذا كان نهى الإسلام شديداً عن زخرفة القبور وخلق الزينات
عليها ، وكان نهيه شديداً كل الشدة عن العناية بالقبورين والرفع من شأنهم ، وكان
هذا النهى حذار هذا الضلال وحذار هذا الفساد المشهود حول الأضرحة المزخرفة
والأموات المعظمين . ولكن هؤلاء الجاهلاء خالفوا هذه المناهى ، وجعلوا هذه
الحكم الدوالى ، فزخرفوا القبور أولا ، ووقعوا فى عبادة ما زخرفوه ثانيا . والله
الأمر من قبل ومن بعد .

ومن الدلائل على أن القوم ما عبدوا المخلوقين إلا لعمشقا وغراما أنه لا يمكن
أن يلتفتوا ببرهان يقام لهم على بطلان تلك العبادة ، ولا يمكن أن يقلعوا عن
ضلالهم لحجة قاهرة يرونها بأعينهم إلا القليل النزر . وذلك لأن المسألة ليست
مسألة حلم وبرهان ، ولا حجة ودليل ، ولا مسألة عقل وبصيرة ، وإنما هى مسألة
غرام وحب وودة . والحب والغرام والمودة لا تجدى فيها البراهين والحجج

والدلائل والعلم ، لأن ذلك مستقره العين ، والعين لا تنزق البرهان ولا تبصره
ولا تثبت فيها الحجة ولا يقوم فيها الدليل . فما أضيع البرهان والحجة والعلم
بمرض الدليل عند من بلاؤهم من أعينهم ! وما أقل انتفاع المحب بعقله وعلمه وبرهانه
للعين . فالحب في فلسفة الواقع مرض في العين لا في العقل ولا في القلب ، وإن كان شيء
من ذلك فمدوى فقط من العين أو من حاسة أخرى . ولهذا فالواجب علينا إذا
أردنا أن نعالج مريضاً من هؤلاء المرضى أن نعود إلى علاج عينه لا عقله ولا
قلبه ولا علمه ، لأنها هي المريضة يقينا . فاذا أردنا أن نعالج مصاباً بحب القبور
دج عشق وهو الأزمات وجب أن نجرد هذا المحبوب من زيناته وزخارفه وأن نعيه مما
القبور خدعت به العيون من القباب والأشياء الأخرى ، فنزيل كل ما هنالك من
هذا البلاء ونضعه هو وترابه وعظامه البالية وصمته الخفيف المفزع . وهذا يكفيننا
وينقينا عن كل برهان وحجة وعلم ، وهذا كاف في تغيير القلوب ، قلوب هؤلاء
المحبين على هذا الحبيب . هذا هو العلاج الصحيح الطبيعي كما أرشد إليه الاسلام
والنبي الأكبر عاياه الصلاة والسلام . وإذا أردنا أن نداوى مريضاً بحب صورة
من الصور وجسم من الأجسام وجب أن نضع يده على مقاب تلك الصورة وذلك
الجسم ، وأن نجردهما مما يخدع ويفوى ويفرى ، أو نبعدهما عن بصره وبريد
شهوته العين . وهذا أجدى وأقرب إلى الشفاء والعلاج من محاولة إقامة البرهان
أو البراهين على أن جبهما جهل وضلال ونقصان وجنون . فان النهى عادة عن مثل
هذا يقوم مقام الإغراء به والخض على التزيد منه والهيام به . . . هذا هو العلاج
الحاسم الصحيح في فلسفة الأدوية العلمية النافعة ، وهذا هو العلاج الالهي الذي
أرشد إليه من ختمت به النبوات ، ورسالات السموات ، عليه أزكى السلام
ونوامي الصلوات

أخرى وقال من هذه السورة أيضاً : « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له

الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » .

وقد جاء هذا المعنى في آيات وسور ذات عدد . ومن الواضح أن المراد بالشرك في قوله : « إذا هم يشركون » هو الشرك في الدعاء أو في العبادات التي أحدها الدعاء . وذلك لأن الذي تقدم في الآية هو قوله : « دعوا الله مخلصين له الدين » ، أى إذا ركبوا في البحر وخشوا الفرق والمهلك أخلصوا الله الدعاء والدين بلا ريب . فالشرك في آخر الآية هو دعاء غير الله ، والاخلاص في أولها هو دعاء الله وحده . وهذا لا أحسب ذكياً متصفاً يخالف فيه .

وإذا علم هذا علم أن دعاء غير الله شرك بالله وعبادة لذلك المدعو ، وعلم أن الشرك يكون في الدعاء كما يكون الاخلاص فيه . فهذا الشرك الذي نعام الله في آيات على المشركين حينما ينجون من أهوال البحار وأخطارها هو دعاؤهم غيره تعالى . وظاهر من جميع الآيات التي ذكرت في هذا المعنى أن القوم لو ظلوا على ما كانوا عليه في لجج البحار حين اشتد بهم الخوف والفرع من الاخلاص والا تقطاع إليه وحده لكانوا مخلصين غيره شركين ولا كافرين ، ولكانوا متدحين غير ملومين . وذلك أن القرآن قد أنبأ في جميع الآيات التي جاء فيها هذا المعنى أنهم في تلك الساعات يخلصون لله ، والاخلاص هو أساس النجاة كما أن الاثراك هو أساس الهلاك والضيق الأبدي . وهذا الاخلاص هو دعاء الله وحده كما هو ظاهر من القرآن ، كما أن الاثراك هو دعاء غيره في البحار وفي حالات الخوف والذعر وعلى هذا فالذين يدعون الله وحده ولا يأتون بعمل من أعمال الشرك هم مخلصون لله الدين كله ، والذين يدعون غيره تعالى هم مشركون وإن أخلصوا له جميع أعمالهم وعباداتهم وأحوالهم حاشا الدعاء . وهذا ظاهر لا ينزع .

هذه بعض دلائل الكتاب على منع دعاء المخلوقين . وليس هذا الذي ذكرناه وأوردناه الاغيضاً من فيض وقطرات من محيطات . وهذا الذي ذكرناه هو مادل

دلالة القرآن
السلبية على
منع دعاء
الخلق

عليه الكتاب من الناحية الايجابية ، وله دلالة على ذلك أخرى سلبية ، وهي أن الله في قرآنه قد دل على جميع أصول الخيرات وأساس الأعمال الصالحة دلالات ظاهرة جلية ، تفهمها العامة كما لا يخفى على الخاصة ، ونهى عن الشرور والأعمال الباطلة المنكرة نهياً صريحاً واضحاً مفصلاً يفهمه الرجل الساذج كما لا يميز عن الرجل الممتاز العليم الخافق . . . وما ترك أصلاً من أصول الخيرات والطاعات العامة إلا وأمر به ونهى عنه وأشاد بامتداحه وامتنادح فاعليه . ولا ترك أصلاً من أصول الشرور والمنكرات إلا ونهى عنه وحذر منه وأشاد بمنذره فاعليه وآتية وقد ذكر في ما لا ينحصر دعاء الله والأمر بدعائه ، والإخبار بأن عباده هم الذين يدعوهم تعالى رغبا ورهبا في السراء والضراء وفي جميع الحالات . وذكر أدعية الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباده ، وضراعتهم وتوسلاتهم بأسمائه وصفاته الحسنى ، وأورد من ذلك ما أورد بأساليب مختلفة وعبارات مختلفة في سور عديدة كثيرة ، فأورد أدعية أبوى البشر آدم وحواء ، وأدعية نوح أول رسول إلى أهل الأرض بعثه الله ليدعو إلى التوحيد وليسند القوم عن الشرك والضلال والغند ، وأورد أدعية موسى كلم الله ومصطفاه ، وأدعية خليله إبراهيم ، وأدعية غيره هؤلاء من الأنبياء والمرسلين ، وأورد نماذج كثيرة من أدعية أتباعهم المؤمنين ، وما كانوا يقولونه في حالات سراتهم وضراعتهم ، كما ورد أدعية خاتم الأنبياء وأدعية أتباعه المسلمين : أورد أفانين ونماذج كثيرة من أدعية هؤلاء العباد الخيار المصطفين الأبرار الذين هم صفوة الصفوة من بنى الإنسان ، بل صفوة هذه الخليقة وسرها العظيم وشرفها المرموق . . . ولكن مع هذه الدلالات على جميع الخيرات ، ومع إيراد كلمات الخير من الخليقة وإيراد ألفاظ دعواتهم لله وآدابهم فيها ، لا نجد في كتاب الله لفظاً واحداً يأمر بدعاء غير الله ويأمر بسؤاله وبالرغبة فيه والرهبة منه ، ولا شيئاً

ادعية الانبياء
واتباعهم

حما نراه اليوم قائما فوق الاضحية والأصنام مما يدعى هؤلاء المخالفون أنه من الاسلام ومن دين الله ، كما لا نجد أن أحد هؤلاء الخييار المصطفين الذين ذكرت دعواتهم للاقتداء بهم والنهج منهاجهم فيها دعا غير الله من الأموات وسأله حاجة من الحاجات أو عاذ بقبره وضريحه عند رغبة أو رهبة ، أو سافر إليه ، أو دعا الله بمجاهه ووسيلته ، أو استشفع به ، أو طلب منه الدعاء والشفاعة . وهذا ما لا شك فيه ولا نزاع . فانه من المحال والعبث الباطل أن تتلمس في كتاب الله آية واحدة تأمر بدعاء الأموات ، لا على طريق التصريح والجلاء ولا على طريق التلميح لما إذا لم يفعلوا والأيام ، لا بأسلوب الإشارة ولا بالنص ، أو تدل على أن أحد هؤلاء الأنبياء أو أحد الصالحين ، فعل شيئا من هذا في حالة من حالاته أو رغبة من رغباته . فليس على كتاب الله ما يأمر به أو ما يجيزه ، وليس في دعوات الأنبياء والصالحين ما يدل على جوازه أو الأمر به أو استحبابه . فان كان ذلك خيرا دينيا ، كما زعموا ، فلماذا خلا منه كتاب الله ، وقد جمع أصول الخيرات وقواعد الأعمال الصالحة ؟ وكيف خلت منه أقوال الأنبياء والصالحين وأفعالهم وأدعيتهم ، وما من خير إلا وقد فعلوه إن كان فعليا وقالوه إن كان قوليا ؟ وليس لهذا السؤال إلا أحد جوابين : أحدهما أن يقال إن هؤلاء قد دعوا غير الله من الأموات والصالحين وتوسلوا بهم واستغاثوهم وسألوهم كل ما يدعيه هؤلاء المخالفون ، ولكن الله مع هذا لم يشأ أن يذكر منه شيئا في كتابه مع ذكره جملا كثيرة من دعواتهم وضرعاتهم وتوسلاتهم المصيبة المقبولة . وثاني الجوابين أن يقال : إن أحدا من هؤلاء لم يفعل شيئا من هذا ، ولكنه على رغم ذلك طاعة وقرب إلى الله ... والجوابان باطلان لا خير فيهما : أما الأول - وهو القول بأن الأنبياء والصالحين الجوابان باطلان فعلوا هذه الأمور كلها ودعوا الأموات واستغاثوهم وصنعوا جميع ما يصنعه المخالفون اليوم على القبور ، ولكن الله لم يذكر عنهم هذا ولم يذكر منه شيئا -

فهو جواب باطل فاسد لاخير فيه. وذلك أن الله قد أنزل كتابه للهداية، وقد حدث بأحوال الماضين وأقوالهم وأفعالهم للعبرة والأسوة والقُدوة . فلا يمكن - وهذا من حكمة ذكر قصص الأولين في القرآن ، ومن حكمة إنزال الكتاب - ألا يذكر هذا وهو من الدين ، والناس في حاجة شديدة إليه ، وفي ظمأ عنيف ملح إلى النهل والارتواء منه . وهل يمكن في الحكمة أن يذكر عنهم ما الحاجة إليه غير ماسة ولا شديدة ، وما لا خلاف في جوازه وحسنه ، ثم يهمل أن يذكر عنهم شيئاً كثيراً ولا قليلاً من هذا النوع الذي لو ذكر منه شيئاً صريحاً عن أحد هؤلاء الماضين لكان قاطعاً كل نزاع ، حاسماً كل شك وريب ؟ أو هل يمكن في سنة الله وحكمته أن يورد دعوات هؤلاء الأنبياء والصالحين في مواضع كثيرة من كتابه بأساليب واضحة ظاهرة ثم يحذف منها دعاءهم الأموات واستغاثتهم بإيائهم وتوسلهم بهم ؟ وهل يكون التلبيس والتضليل غير هذا ؟ تعالى الله وتعالى كتابه عن التضليل وإرادة التلبيس . ولا ريب أن حذف هذا من دعواتهم المذكورة في القرآن - لو كان حقاً هذا القول - متعمد مقصور . وهل يمكن أن يحذف هذا النوع من الدين تعمداً وقصدًا والحاجة إلى الإبقاء عليه ، كما يرى ماسة شديدة ؟ فلا جرم أن هذا الجواب باطل منكر مكذوب .

الجواب
الثاني

وأما الجواب الثاني - وهو القول بأنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك وهو مع هذا جائز ودين يثاب عليه فهو جواب باطل أيضاً ، لأن الأمر الذي يرغب عنه جميع الأنبياء والصالحين في جميع العصور والأزمان والحالات لا يمكن أن يكون مرغوباً فيه عند الله ، ولا يمكن أن يكون ديناً لله ، بل الأمر الذي يدعه ويرغب عنه جميع الأنبياء والصالحين المقتدين بهم التابعين لهم لا محالة من أن يكون أمراً باطلاً وضلالاً وشرّاً ، ليس من الدين ولا من العقل ولا من الذوق ، ولا مما يتقرب به إلى الله . والمرء الذي يحاول أن يسبق هؤلاء جميعاً إلى الغيبرات والصالحات والطاعات

وأن يعمل ما لم يعملوه من ذلك مصاب في عقله أو في دينه أو فيهما مما : إذ لا خير يقرب إلى الله ويدنى إلى رضاه ، ويباعد من غضبه ومقته وطرده إلا وقد أخذ هؤلاء الأخيار منه بالنصيب الوافر والسهم الراجح الراجح . ولن نجد سابقا إلى الخيرات إلا أن يكون على آثارهم وعلى هديهم ومنهجهم يسير ويسى . ونحن لا نرتاب في أن كل عمل يتركه هؤلاء الصفة هو عمل باطل منكر مقص عن الله وعن رضاه . ولا نشك أنه لا يمكن أن يكون خيرا فيفوتهم ولا صالحا فيمجرده ، وغاية الصلاح عندنا والتقوى الاقتداء بهم فلا وتركوا ، قولاً وعملًا ، وغاية الظلم والجهل والخروج على دين الله الجراءة على مخالفة إجماعهم والتقدم بين أيديهم إلى الامام أو التخلف عنهم إلى وراء . هذه حقائق لا ينازعها المسلمون . فالجواب الثاني أيضا باطل منكر . فالجوابان : الأول والثاني باطلان . فقدم ذكر القرآن لشيء من ذلك عنهم دليل ، إذن ، ظاهر على أنهم لم يفعلوه قط ، وعدم فعلهم له ، إذن ، دليل ظاهر على أنه ليس من دين الله ولا من الذوق ولا من العقل والعلم . فهذا دليل سلبي ظاهر قاهر بعد الدليل الإيجابي من الكتاب على بطلان دعاء الأموات ، دلالتنا القرآن والاستغاثه بهم وسؤالهم والاستشفاع بهم . فللقرآن دلالتان على بطلان ذلك على بطلان دلالة إيجابية ، ودلالة سلبية ، فالدلالة الإيجابية هي الآيات الآتية في النهي دعوة الموتى والزجر البالغ عن دعاء المخلوقين وسؤال غير الله حاجة من الحاجات ، والدلالة السلبية هي أن القرآن لم يرشد إلى ذلك ألبتة ، وهي أيضا أن الأنبياء والصالحين الذين أنبأ الله أنباءهم ، وحدث أحاديثهم ، وحكى دعواتهم ، لم يفعلوه في حالة من الحالات ، ولا في رغبة من الرغبات ، لأننا لا نشك أن هذا لو كان ديناً لأمر به القرآن ولفعله الأنبياء والصالحون الأولون . فقدم أمر الكتاب به ، وهو الأمر بكل خير ، وعدم فعل الخيارات الماضية له ، وهم قد فعلوا أطراف الخيرات وأشتات الصالحات ، برهانان على أنه ليس من الدين ولا من الطاعة والاسلام ، ولانما

يقرب إلى الله . فالقرآن دال على بطلان هذه المخازي ، دال على تجايفها عن الحق والدين من ناحيتين . كلتاهما ظاهرة باهرة ، وكلتاهما قوية جليلة . والله العليم بكل شيء .

﴿اعتراض على نهى القرآن عن دعاء غير الله﴾

اعتراض على ذلك

فإن قيل إن آيات الكتاب التي ذكرتموها تدل حقا دلالة ظاهرة على النهي عن دعاء المخلوقين ، وعلى الزجر الشديد عن سؤال غير الله ، وهذا مالا يستطيع أن ينازع فيه إنسان منصف ، غير أن الأخذ بهذه الظواهر باطل فاسد عندنا عندكم وعند جميع الناس ، فالذين يدعون الأموات ويجيزون دعاءهم لا يأخذون بهذه الظواهر والذين يقولون ببطلان ذلك وحرمة وجرم فاعليه لا يأخذون بها أيضا ، فالفریقان ، المجيز والمانع ، لا يلتزمان هذه الآيات ، ولا يحافظان على العمل بها ، بل كلاهما مخالف لما ، خارج عليها ، عامل بخلافها ، داع إلى مخالفتها ، قائل بهذه المخالفة ، ملتزم لما . ذلك أن الناس جميعا يدعون غير الله من الأحياء القادرين على الإجابة ، ويجيزون هذا الدعاء ، لا يختلفون فيه ، ولا يتنازعون في أن الأديان كلها تجيزه وتتسع له نصوصها ومعانيها ، فالذين يقولون : لا تدعى الأموات ولا يصح دعاؤهم يقولون بجواز دعاء الأحياء بل ويدعونهم والذين يقولون بجواز دعوة الأموات يقولون بجواز دعوة الأحياء أيضا . وهؤلاء وهؤلاء لا يرون أنهم بهذا الدعاء ، أعنى دعاء الأحياء ، خالفوا هذه الآيات التي ذكرتموها والتي جهرت بتحريم دعوة المخلوقين والزجر عن دعاء غير الله ، بل لا يفكرون أنهم ، إذ يدعون الأحياء ، يفعلون ما يمكن أن تكون تلك الآيات شبه دلائل على منعه وبطلانه . والفرق بين الفريقين : الفريق المجيز دعوة الموتى ، والفريق المانع ، أن هؤلاء أجازوا دعوة المخلوقين جميعا : الأحياء منهم والأموات ، أما أولئك فأجازوا دعوة الأحياء دون الأموات ، ولكنهما متفقان

على دعوة المخلوق ودعوة غير الله ، متفقان على مخالفة ظواهر هذه الآيات
الزواجر عن الالتفات إلى مخلوق ما ، لدعوته ولندائه .

وحينئذ يقال : إن كانت الآيات المذكورة ردّاً على دعاة المخلوقين الموتى ومنعاً ^{نتيجة الاعتراض} .

صريحاً من دعائهم ، فهي أيضاً رد على دعاة المخلوقين الأحياء ومنع صريح
لدعائهم ، وإن لم تكن ردّاً على هؤلاء لم تكن ردّاً على أولئك ، وإن لم تكن
إبطالا لهذا النوع من الداء فليست إبطالا لذلك النوع منه ، لأن هذا كله سواء
بالنظر إلى ظاهر الآيات ودلالاتها ، فانها لم تقل ادعوا الأحياء دون الأموات ،
ولم تقل إن دعاء الموتى محرم عليكم دون دعاء الأحياء ، ولم تقل : لاتدعوا الأموات
بل قالت : « فلاتدعوا مع الله أحداً » « والأحد » يشمل الحي والميت ، وكذلك
جميع الآيات التي أوردتموها لم تفرق بين الفريقين ، ولم تأب الالتفات إلى فريق
دون فريق ، ولا إلى طائفة دون طائفة ، بل نهت عن الجميع وأمرت بالكف
عن كل ما خلا الله ، وزجرت عن الأفكار في عبادة من العباد ، آمرة بالانقطاع
إلى الخلاق وحده وإخلاص الحياة والممات والصلاة والنسك وكل عبادة له
لا شريك له ولا ند .

فالجميع إذن قد تركوا الآيات في توحيد الله بالدعاء وخالفوا نصوصها ،
والجميع قد ردوا العمل والأخذ بها ، فالعمل بظواهرها متروك عند جميع الناس
لا تختص بذلك طائفة دون طائفة . وإذا كان ذلك كذلك لم يصح لكم أن
تحتجوا علينا بما هو حجة عليكم وبما هو متروك الظاهر وبما لا يصح العمل به
عند أحد من المسلمين .

إن قيل هذا قلنا هذا اعتراض مشهور قديم توارثه أنصار البدعة وتناقلوه
بعبارات مختلفة ، ودونوه في كتب مختلفة انتصروا فيها لدعوة الأموات
والمكوف على القبور وقد يرضونه بأساليب أخرى غير هذا الأسلوب كأن يقولوا

الاعتراض مثلا : لو كانت دعوة الموتى شركا وضلالا لكانت كذلك دعوة الأحياء ، لأن أسلوب آخر الدماء بالنظر إلى حقيقته إما أن يكون عبادة للمدعو ، وإما ألا يكون كذلك . فان كل عبادة فالمدعو معبود سواء أ كان حيا أم كان ميتا ، وإن لم يكن عبادة فالمدعو غير معبود سواء أ كان حيا أم ميتا ، واختلاف المدعو لا يغير حقيقة الدماء ، لأن حقائق الأشياء ثابتة لا تحتاج في ثبوتها إلى شيء غير كونها حقائق ولكن لا شك أن دعاء الحي ليس عبادة له وليس ممنوعا ، فدعاء الميت كذلك ليس عبادة كما ذكرنا .

جواب ويحاج عن هذا الاعتراض بأمور كثيرة منها أن يقال : إن الآيات نفسها الاعتراض قد فرقت بين الفريقين : فريق الأحياء وفريق الأموات ، وفرقت بين دعاثهما ، ولوحت إلى جواز هذا وامتناع ذاك ، وبطلان دعاء دون دعاء . وهذا مذكور مفهوم من كثير من الآيات التي نهت عن دعوة الخلق ونعت على الداعين وأطبت في هجائهم وفي نعت غيبائهم . وقد قال الله : « إنك لا تسمع الموتى » وقال : « وما أنت بمسمع من في القبور » . وهذا تصريح بأن الذين لا يسمعون دعاء من دعاءهم الموتى الذين هم في القبور . وقد أفهم هذا أن غيرهم من الأحياء ليسوا كذلك . وقال تعالى : « قل أئدعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا » وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم » وقال : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك » الآية . . وواضح من هذه الآيات أنها لا تشمل الأحياء الذين يقدر على ما يسألون ، والذين ينفعون ويضرون بمقدار طاقاتهم وقواهم التي أعطاهم الله إياها ، ليعملوا وينفعوا من يستحق النفع ، وليضروا من يليق به الضر ، وليتعاونوا على الخير والبر والتمق . فان الأحياء ، بالاتفاق بيننا وبين هؤلاء الخسائين ، يضررون وينفعون بأذن الله ، فلا يمكن أن يكون دعاؤهم من هذا الدعاء المنهى عنه المنبأ بأنه لا يجدى شيئا . وقال : « ومن أضل

تفريق بين
الأحياء
والأموات

النهى عن دعاء
الأموات دون
الاحياء

ممن يدعو من دون من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ،
وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وقال « إن تدعوهم
لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم »
هذه نصوص صريحة في أن النهى عن دعاء الأموات الذين لا يسمعون
الدعاء ، والذين لا يستجيبون لمن دعاهم وهنأ بنجوام ، والذين هم غافلون عن
استجدام والذين هم في موت عميق وعجز تام . وليس يمكن أن يعنى بها الاحياء
القادرين عادة ، ولا أن يعنى بها إبطال دعائهم . وذلك لأن هذه الأوصاف في
الآيات لا تتناولهم لأنهم يسمعون ويحيون من دعاهم ، ولأنهم قد يعينون من
استعانهم ويهبون مستوهم . فالنهي في القرآن منطلق إلى دعاء الأموات دون
الاحياء ، وإلى سؤال العاجزين دون سؤال القادرين . وقال تعالى : « إن الذين
تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين »
الآيات . ومعلوم أن الذين لا يستجيبون لمن دعاهم والذين يصح أن يتحدى بمعجزهم
عن الاجابة هم الأموات دون الاحياء إذ الاحياء يستطيعون أن يجيبوا
دعائهم بالمشاهدة والبداهة ، فلا يصح أن يقال في النهى عن دعوة الاحياء وفي
تمجيز من دعاهم وتضليله : « فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » ولو
قليل لهم ذلك لدعوهم ، لا بطلان هذه الدعوى ، ولأجابهم ، بل ريب ، بما أعطاهم
الله من القدرة والقوة . . . فالأوصاف التي ذكرها القرآن لمن نهى عن دعائهم
لا تصدق على الاحياء البتة . وإنما تصدق على الأموات . فان الذي ذكر من
أوصاف هؤلاء المدعويين الذين نهى عن دعوتهم هو أنهم لا ينفعون ولا يضررون
ولا يسمعون ولو سمعوا لا يستجيبون ، لأنهم في غفلة تامة وانقطاع تام . وهذه
الصفات هي صفات الموتى . وقد جعل الله في كتابه هذه الأمور هي الحجة والبرهان
على بطلان دعاء أصحابها وبطلان الانقطاع إليهم والرغبة فيهم . وقد دل على

هذا كثير من الآيات المتقدمة . ومعنى ذلك أن هؤلاء المدعوين لو لم يتصفوا بهذه الصفات العاجزة لصح دعاؤهم ، ولما كان منكراً ممنوعاً ، ولما كان دعائهم جاهلين ضالين .

فالقرآن نفسه صريح في التفريق بين الفريقين : الأحياء والأموات ، والقرآن نفسه لم يدل على النهى عن دعاء من يقدر على الاجابة والعمل والنفع والافادة من أهل الحياة والقدرة والاستطاعة المعتادة ، ولم يدل إلا على النهى عن الانقطاع إلى من في القبور والنهى عن دعوتهم ورجائهم وتأميلهم ، لأنهم مرتنون بأحكام الموت ، مقطوعة الصلات والأسباب بينهم وبين أهل الحياة من أهل الدنيا . فالقول بأن القرآن قد دل على النهى عن دعاء الأحياء والأموات مما قول باطل ، والزعم أن القرآن لم يفرق بين دعاء الفريقين في نهيه زعم كاذب باطل أيضاً .

جواب آخر من الاعراض
ومن الأجوبة عن هذا الاعتراض أيضاً أن يقال : لا يصح أن تكون هذه الآيات الناهية عن دعاء المخلوقين شاملة الأحياء يقيناً . وذلك أن هذه الآيات حينما كانت تنزل على عبد الله ورسوله محمد ﷺ كان ينزل عليه أمثال قوله تعالى في دعاء الحى والاستغاثة به واستنصاره : « وإن استنصركم في الدين فعليكم النصر » « فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه » « إلاتنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا » « قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم » « وإذا استسقى موسى لقومه - إلى قوله - وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تلبث الأرض - إلى قوله - اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم » ومن هذا الباب تلك الآية التى استدلت بها من لم يوهب الفرقان بين الحق والباطل على جواز دعوة الموتى والاستغاثة بهم ، والآية هى ما قصه الله عن تلك

المرءة الصالحة . من قولها لنبي الله موسى عليه الصلاة والسلام : « إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » . وقد استدلل هذا المستدل أيضاً بقول الرسول عليه الصلاة والسلام في كتابه إلى هرقل عظيم الروم : « أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام » قائلا : هذا الرسول يدعو ملك الروم وهو رجل كافر بالله فكيف لا يجوز دعاء الانبياء والصالحين . . . وهذا الاستدلال من هذا المستدل قائم على أنه لا فرق بين الاحياء والاموات . فكان هذا الاحتجاج من فضائح الغلاة في القبور ، ونعوذ بالله . وأمثال قوله تعالى : « وأما السائل فلا تنهر » وقوله « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وقوله : « وإذا سألك عبادي عني فاني قريب » - إلى غير ذلك مما لا يحاط بعدده . فقد كان هذا يتنزل على رسول الله وعلى المسلمين حينما كان يتنزل عليهم ذاك ، أى كان القرآن ينهى عن دعاء الخلق بتلك الآيات التي أوردنا بعضها ، ويميز دعوة الاحياء بتلك الآيات التي ذكرنا قسما منها ، فكان ، ولا بد ، لكل من النوعين مورد خاص به ، وكان لكل من الآيات : الناهية عن دعاء الخلق ، والمجيزة دعوة الاحياء منهم القادرين على الاجابة مذهب . ولا يصح أن تكون الآيات الناهية تعني مالمنيه الآيات المجيزة المبيحة ، ولا أن تريد الآيات المجيزة المبيحة ما تريده الآيات الناهية الحافظة ، ولا يصح أن يدعى أن بينهما تعارضا واختلافا ، لافي الظاهر ولا في الباطن ، بل يجب أن يقال إن لكل منهما تأويلا خاصا به صحيحا لا ريب فيه . وقد نظرنا فوجدنا الآيات المجيزة دعوة الاحياء القادرين آيات صريحة ظاهرة بينة المقصد والدلالة ، لا يصح أن يختلف ولا أن يشك فيها ولا في تأويلها ، فكانت دعوة الأحياء القادرين جائرة بنصوص القرآن وآياته الصريحة وباجماع الناس ، خلا ما يستثنى من ذلك ، فكان هذا مفروغا منه ومن الاحتجاج فيه وله وعليه . ثم نظرنا ثانيا في الآيات الناهية عن دعاء الخلق

نهى القرآن عن
هذا حينما كان
يميز ذلك

إطلاقاً وإجمالاً - وقد علمنا أن الخلق إما أحياء وإما أموات ، لاثالث لهما - فقلنا : إن هذه الآيات الناهية لا يمكن أن تعني النهى عن دعوة الأحياء لأن القرآن قد أجاز دعوتهم وأمر بها أحياناً . فعلمنا أنه لا يمكن أن يكون في هذه الآيات نهى عن دعوة أحد فريق الخلق ، وهو الفريق الحى الموجود بيننا وتحت أعيننا ، فلم يبق إلا الفريق الآخر ، وهو فريق الأموات . فعلمنا علماً لا شك فيه أن تلك الآيات نهى صريح واضح عن دعاء الأموات وعن سؤالهم والاتصال بهم هذا النحو من الاتصال . فكانت هذه الآيات نصوصاً صريحة في تحريم دعوة الموتى دون الأحياء . فعلمنا من هذا كله أن الاعتراض المذكور لا محل ولا قيمة له ، والحمد لله على ذلك .

ولاريب أن المسلمين لم يكونوا يظنون أن الآيات الناهية عن دعاء الخلق إطلاقاً وإجمالاً ، يعنى بها النهى عن الاستعانة بالحى القادر على العون على البر والتقوى ، أو النهى عن سؤاله ما أجاز الشرع سؤاله إياه من العلم والهدى والشؤون الأخرى ، وهم يتلون ما أنزل الله في هذا من الإباحة والنسب والأمر أحياناً كثيرة ، فلم يكونوا يشكون في أن النهى عن دعوة الخلق ليس متناولاً من أمر بدعائهم وسؤالهم والاستعانة بهم ، ولا متناولاً من كانوا قادرين على نفع داعيهم وسائلهم إذا ما أخرج من ذلك ما حرم لأسباب أخرى صحيحة ، ولم يكونوا يشكون في أن النهى خاص بمن لم يبيح دعاؤهم وبمن حرم الرجوع إليهم من الأموات العاجزين . فلاريب أن من ادعى أن ظاهر القرآن النهى عن دعاء الأحياء إلى الخيرات والطاعات ، أو النهى عن الاستعانة بهم على البر والتقوى وسؤالهم ما فيه نفع بلا ضرر فقد غلط غلطاً فاحشاً ظاهراً .

ومن الأجوبة أيضاً عن الاعتراض المذكور أن يقال لا مانع من أن يقال إن الله سبحانه وتعالى قد أراد من عباده أن يكونوا خالصين له وحده لا شريك

سجواب ثالث
عن الاعتراض

نه في شيء منهم ، لا في دعائهم ولا في أعمالهم ولا في معاني قلوبهم وعقولهم وعقائدهم ، لا في ظواهر ذلك ولا في بواطنه ... فأراد منهم أن يدعوه وأن يسألوه وأن يخافوه ويرجوه وحده وأن يخصوه بكل معنى من معانيهم ومظهر من مظاهرهم وعمل من أعمالهم الظاهرة والباطنة . وذلك لأنه وحده هو الذي خلقهم : خلق أجسامهم وأرواحهم وقلوبهم وعقولهم وكل ما يحتاجون إليه من شيء : خلق كل ذلك وحده ، فكان كل شيء منه تعالى ابتداء وبقاء ، وكان كل شيء راجعاً آيها إليه . وقد كان من العدل والعقل أن يكون الخالق وحده هو المعبود وحده ، وكان من العقل والعدل أن يكون هو المعبود وحده كما كان هو الخالق وحده ، لأنه إذا لم يكن له شريك في الخلق والإيجاد لم يصح أن يكون له شريك في العبادة والطاعة ، فهو كما خلق الخلق وحده يجب أن يعبد الخلق وحده . والنفوس كلها مفعورة على معرفة هذه الحقيقة ، والناس كلهم محبولون عليها ، وماذا دم عنها لا يسجد إلا الخالق .

إلا الغادرون ، وما خرج عنها وعليها إلا من خرج على فطرته وعن هداه الجبلى . وقد أكرر القرآن الكريم من الإشارة إلى هذه الحقيقة الواضحة ومن التنبيه عليها ، وقد آتين في إيقاظها وإيقاظ النفوس الغافلة عنها ، وجعلها من براهين التوحيد ودلائل الإخلاص الناطقة . . وقد ذكر هذا في مواضع من كتاب الله - بأساليب مختلفة ظاهرة قال تعالى من سورة البقرة : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » وقال من سورة الأنعام : « إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » وقال من سورة الرعد : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، قل أنا اتخذتم من دونه أولياء . لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل

تستوى الظلمات والنور ! أم جاءوا الله شركاء خلقوا كخافه فتشابه الخلق عليهم
 قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار . . . الآيات ، وقال من سورة المائدة :
 « قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم »
 وقد جاء معنى هذه الآيات في آيات أخرى كثيرة . وقال من سورة يس : « وما لى
 لأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ! أتأخذ من دونه آلهة إن يردنى الرحمن بضر
 لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينتقون ! إني إننى لفي ضلال مبين » وقال من
 سورة العنكبوت : « إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً . إن
 الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً . فابتغوا عند الله الرزق
 واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون » وقال من سورة الصافات في محاجة نبي
 الله إبراهيم لقومه المشركين « قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون »
 وقال من سورة النمل : « أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء
 ماء فآبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تلبثوا شجرها . أإله مع الله ؟
 بل هم قوم يعدلون (إلى قوله) قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » - إلى غير
 ذلك من الآيات في حجاج المشركين والاحتجاج عليهم بعجز من يعبدون دون
 الله عن النفع والضرر والخلق والايجاد ، والاحتجاج لعبادة الله وحده بأنه هو
 الخالق الرازق الضار النافع المغطى المانع . . . وهذا الاحتجاج من أصبح
 الاحتجاجات وأوضحها وأقطعها للنزاع والخلاف ، وأسرعها ولوجاً في النفوس
 والعقول والقلوب . والنفوس كلها ، كما ذكرنا ، مفعورة على معرفة هذه الحقيقة
 وقبولها ، ولولم ينزل الله فيها كتاباً ووحياً يتلى . وقد أمر الله عباده جميعاً بأن
 يسلموا ويستسلموا له وحده ، وقد سمى دينه الحق « الاسلام » لذلك ، وهكذا سمى
 جميع الأديان السماوية السابقة كما قال : « إن الدين عند الله الاسلام » وأبأ عن
 جميع عباده الصالحين بأنهم قد أسلموا واستسلموا له وقالوا : أسلمنا . والاسلام

الاسلام لله وحده
 وعسى الاسلام
 والسلام

يعطى ، باشتقاقه ومعناه ومادته وتصريفه ، معنى الخلوص والسلامة من شوائب
 الاشرارك وأدوانه وأوضاره . فمعنى الاسلام لله الخلوص له وحده ، ومعنى المسلم
 الخالص له تعالى ، المنقطع إليه . وقد قال في هذا المعنى : « قل إن صلاتي ونسكي
 ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »
 فالحياة بما فيها من أعمال ومغان وأقوال ، وما فيها من عبادات وضراعات
 وهنالك وغير ذلك يجب أن تكون لله رب العالمين لا شريك له . فاللدعاء يجب
 أن يكون له ، والرغبة يجب أن تكون فيه ، والخوف يجب أن يكون منه ، والعمل
 يجب أن يكون كله له ، والظاهر والباطن يجب أن يكونا له وحده لا شريك له
 وغير ذلك مما يقع في حياة العبد ومماته : كل هذا يجب أن يكون لله بنص هذه
 الآية الكريمة ، لأن المراد هنا « بالحيا » الحياة وكل ما يقع فيها من الأعمال
 والأقوال الظاهرة والباطنة ، ولأن المراد من « المات » الموت وكل ما يقع فيه
 من الحساب والثواب والعقاب والخشية والرغبة والرهبة وما مع ذلك من صروف
 وحشوف . والمخلوق له خالتان حياة وموت ، وحياته وموته لله وحده . فكله إذن
 لله لا شراكة فيه لأحد معه لافي حياته ولا في مماته . فكل ما يقع في حالتي المخلوق
 الحياة والموت لله لا شريك له . فمساؤه ورجاؤه وعمله وقوله وسائر ما هنالك ،
 وجميع معانيه وعباداته لربه الذي خلقه كله لا شريك له ولا معين . وقد كان
 رسول الله عليه الصلاة والسلام يفتتح صلاته بقوله : « وجهت وجهي للذي فطر
 السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين . إن صلاتي ونسكي ومحياي
 ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين . . . »
 وهذا الدعاء الذي كان يقول رسول الله عند قيامه للصلاة مركب من قول خليل
 الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في حجاجه لقومه المشركين من سورة الأنعام :
 « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »

ومن قول الله له في هذه الآية التي ذكرناها من آخر سورة الأنعام . وقد جاء معنى هذه الآية في آيات أخرى معلومة مثل قوله : « ولم يخش إلا الله » فمعنى أولئك أن يكونوا من المهتدين ، وقوله : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل » وقوله « له دعوة الحق » ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ » ، وقوله : « ففروا إلى الله » وأمثال قوله : « عابد الله مخلصاً له الدين » ، ألا الله الدين الخالص . وقوله : « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين » وأمرت لأن أكون أول المسلمين » وقوله تعالى : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » . والدين معروف الاشتقاق والمادة والمعنى ، ومن معانيه الاسلام والاستسلام والخضوع . فهذه الآيات وأمثال أمثالها تطلب إلى الخلق كافة أن يكونوا خالصين لله رب العالمين ، لا يشركون معه غيره في معنى من معانيهم ، ولا في عمل من أعمالهم ، ولا في عبادة من عباداتهم ، الصورية والحقيقية ، كما لم يشرك معه غيره في خلقهم وإيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في حياتهم ووجودهم وبقائهم مما في السموات والأرضين ومما بينهما .

صرف القرآن
من جميع الخلق

وقد نوح الله في قرآنه التزهد في الخلق جميعاً والترغيب والصرف عنهم بضروب الأساليب ومختلف العبارات ، فتارة يخبر بأن كل شئ فقير إليه وأنه هو الغنى الحميد . وأى محتاج عاقل يرغب بحاجاته وآماله عن الغنى الحميد إلى الفقير المحتاج وتارة يخبر بأن الخلق جميعاً أموات هلكت فيقول : « كل من عليها فان » « كل شئ هالك إلا وجهه » . وأى عاقل يدع ربه الحى الذى لا يموت ماثلاً إلى الهلكى وأبناء الهلكى ، طامعاً فى الموتى وأبناء الموتى والموتى وتارة يخبر بأن كل ما يدعى من دونه تعالى باطل فيقول : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل » . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى قول الشاعر : (ألا كل شئ ما خلا الله باطل) إنها أصبحت كلمة قالها شاعر . ومن الذى يرغب عن الحق فى

الباطل إلا أن يكون مصاباً في عقله وفطرته ، وتارة يخبر بأن أقرب الخلق إليه وأفضلهم وأكرمهم عليه لا يملكون لأنفسهم خيراً ولا شراً ولا نفعاً أو ضرراً ولا يملكون شيئاً من ذلك لغيرهم فيقول لخاتم أنبيائه عليه الصلاة والسلام : « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله » « قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً ، قل إني لن يميزني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً » وتارة يخبر بأن الخلق والامر له تعالى وحده فيقول : « ألا له الخلق والأمر » ويخبر بأن غيره ليس له شيء من ذلك فيقول : « ليس لك من الأمر شيء » . وتارة يخبر بغير ذلك مما يراد به كله الحيلولة بين الخلق والخلق وتزويد العبد في العبد . وقد كان من أصدق الأسماء وأفضلها « عبد الله » ونحوه . وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » . وقد أجمع أهل الفقه والبصر بالدين على أنه لا يجوز التعبد لغير الله تسميةً مثل عبد النبي وعبد الحسين وعبد علي وعبد الجليلاني وعبد البدوي وأمثال ذلك . وهذا لأن المفروض على الخلق المطلوب منهم جميعاً أن يكونوا عبيد الله وحده ، فلا يصرفوا لغيره تعالى معنى واحداً من معاني العبودية ، والعبودية ، مادة واشتقاقاً ، ترجع أصالة إلى الخضوع التام والالتقياد الصادق وكل ما يمت إلى ذلك من قريب أو من بعيد . ومن أظهر معاني العبودية الخوف والرجاء والسؤال والدعاء والرغبة والرغبة وامتناع التعبد لغير الله تسميةً ، لامتناع أن يكون شيء من هذه المعاني للخلق ما . فإذا قيل : عبد الله وقيل : إن الخلق جميعاً عبيد الله كان معنى ذلك أن كل شيء فيهم هو من حق الله وخالص ما يجب له عليهم . وليس معنى كونهم عبيد الله أن أجسامهم وخلقهم له تعالى دون معانيهم ودون عباداتهم وضراعاتهم وأدعيتهم ، بل هذا كله يجب له عليهم وحده لأنه قد خالقهم ورزقهم وحده . وما أوجد أجسامهم ولا أعطاهم العقول

كل مال الخلق
يجب أن يكون
لخالق

والقلوب والأسماع والابصار والآلات الجسمية الأخرى إلا لتقوم كلها وتبذل في خدمته وطاعته وعبادته ، ولتصرف لوجهه تعالى معانيها وما تقدر عليه من خدمة وعبودية واستسلام. ولهذا كان أعبد الناس لله وأقومهم بحقه وأصدقهم عبودية هم أقل الناس رجوعاً إلى الخلق ورغبة فيهم وأعظمهم انقطاعاً إليه تعالى وأكثرهم سؤالاً ودعاءً له ورغبة فيه. وكان أقل الناس عبادة لله وأكثرهم وأبدم عنه تعالى هم أشد الناس رغبة في الخلق وسؤالاً لهم وانقطاعاً إليهم ورجاءاً لهم وخوفاً منهم وتأملاً فيهم. وكان من نقص حظه من أحد الجانبين زاد حظه من الجانب الآخر. فن زاد تعلقه بالخلق نقص تعلقه بالخالق ، ومن زاد حظه من التعلق بالله والرجوع إليه نقص حظه من الالتفات إلى الخلق والعبيد من الخلق قل دونه

فزيادة الإنسان في عبادة العبيد نقص في عبادته الله ولا بد ، ونقصه من عبادة العبيد زيادة في عبادته الله ولا ريب . فزيادة الشرك نقص في الإيمان ، ونقصان الشرك زيادة فيه . ولهذا السبب نفسه كان الأنبياء والمرسلون وأصحاب التقدم والسبق في الدين والتقوى هم أقل الناس سؤالاً للناس ورغبة فيهم وانقطاعاً إليهم فكان محمد رسول الله وكبار صحابته أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وغيرهم أقل من سواهم سؤالاً للناس والتفاتاً إليهم ، لأنهم كانوا أصدق الناس عبودية لله وأكثرهم معرفة لحقه وأقومهم به وأعظمهم التفاتاً إليه تعالى . وقد جاء في نعت الصحابة أن السوط كان يسقط من أيديهم فلا يقول لأحد : ناولني ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أخذ عليهم العهد ألا يسألوا أحداً غير الله . وكان يقول للواحد منهم في وصاياه : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » . وكان يحذر مسألة الخلق ويذكر لمن سألهم أليم العذاب وشديد العقاب بعبارات أوصدت في وجوههم جميع الأبواب سوى باب الله ، وقطعت بهم كل

حبيب غير سبب الله . فكانت مسئلة الخلق لذلك جراماً ومنكراً لا يجوز منها إلا
 ما دفعت إليه الضرورة التي لا ترحم ، والضرورات ، كما قالوا ، تبيح المحظورات .
 وهذا لأن مسئلة الناس فيها عبودية لغير الله ، وفيها امتهان وهوان للسائل ،
 وفيها ، بعد ، عدوان على المستول وعلى حقه ، وفيها رغبة عن الله ، وفيها رجوع
 إلى غير الأسباب المشروعة الفاضلة . هذا كله في مسئلة المخلوق الحي ، وأما
 مسئلة الميت فهي شر من ذلك ، لأنها أكثر جهلاً وظلماً وعبودية لغير المعبود
 ولأنها أظهر امتهاناً وهواناً وإذلالاً لنفس السائل ، وأعظم رجوعاً إلى غير
 الأسباب المشروعة الفاضلة . وهذه الأدواء والنقائص محرمة كلها في كل الأديان
 الصحيحة الإلهية ، وقد جاءت الأديان كلها بثلاثة أمور لا تختلف فيها : بالدعوة
 إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وبالتزجر والنأي عن مواطن الامتهان والذلة
 لغير الله ، وبالدعوة إلى الأخذ بالأسباب المشروعة الفاضلة . . . فدوال المخلوق
 الحي والميت هو في الأصل حرام وجريمة يأبأها الله ويأبأها شرعه كل
 الأياد ، لأنها تخالف حكمة الله وإرادته لأن يكون العبد عبد ربه وحده
 ولأن يكون عزيزاً بهذه العبودية ، ولأن يكون زاهداً في غير الأسباب الصحيحة
 التي جعلها الله وسائل إلى غايات عباده ، ولأن يظلم أحد أحداً في مسألة ولا في
 غيرها من أنواع الظلم ، لأن المخلوق قائم أمره كله على الضعف والفقر والعوز ،
 فكانت إرادة النفع منه ، أصالة ، حراً ، وإعانة الضعف وقره وعوز ، ولأن
 المخلوق مطالب أبدأ بأن يطلب ذلك عند ربه وحده ، ومطالب بأن يطلبه
 بالأسباب التي جعلها الله أسباباً إلى ما رتب الخلق وحاجاتهم ، لأن الرجوع إلى
 الأسباب التي جعلها الله أسباباً ، امتثالاً لإرادته تعالى وشرعه وأمره ، هو رجوع
 عن الحقيقة إلى الله عز شأنه ، طلب له . . . أما من رجع إلى المخلوق الضعيف
 القدير ، محاولاً لديه قضاء حاجاته ومآربه ، فقد ظلم أولاً نفسه بأن أخذها لغير
 المطالب الأرشى

ربه وعبدها الخلق مثله ، وظلم تانياً مخلوقاً قديراً محتاجاً مثل احتياجه ، لأنه استجداه وهو الفقير وطلب منه القوة وهو الضعيف العاجز ، وظلم ثالثاً حاجته لأنه طلبها بغير عدتها وبغير أسبابها التي اعتيد أن تدرك وتنال بها ، وظلم رابعاً الجيل الذي يعيش فيه لأنه قد ابتدع فيه بدعة نكراء لا تلبث أن تكون عادة له وحقيقة من حقائقه . فأفسد ببدعته عقول الجيل الذي يعيش فيه وعقائدهم وأنفسهم ، فكان بذلك من شر الظالمين الباغين . فكانت مسألة المخلوق هذه المفاسد وغيرها 'حراماً وجريمة ، وكان المفروض على الخلق جميعاً أن يرجعوا بآمالهم وحاجاتهم وشؤونهم كلها إلى الخالق وحده لا شريك له ، وكان المفروض الواجب عليهم جميعاً ألا يلتفتوا إلى مخلوق وألا يفكروا فيه وألا يعدوه في الحساب ، وكان المفروض عليهم كافة أن يكونوا عبيداً لله وحده أجساماً وأرواحاً ومبائى ومعائى . هذا هو ما يقضى به العقل والقلب والفطرة والشرائع كلها

الرجوع الى
الاعتراض

أجل أقول لا مانع من أن يقال ذلك كله ويقال بعده إن الآيات المذكورة في النهى عن دعوة المخلوق وعن دعوة غير الله ، الأمر بدعائه تعالى وحده آيات يراد بها الحيلولة بين العباد ودعوة العباد ، ويراد بها تحريم دعوة غير الله ونسيان ما سواه . فالآيات على ظاهرها تأبى على المؤمن أن يدعو غير ربه في حالة من الحالات ووقت من الأوقات . أما الانفكاك من الاعتراض المذكور وهو دعوة الحي وقول المعارضين : إن الآيات لو أخذت على ظاهرها لدلت على منع دعوة الأحياء ، ودعوتهم جائزة بالاتفاق والضرورة ، فيقال : إن دعوة الأحياء أخرجت من هذا المنع العام الشامل للضرورة والحاجة والبداهة . فانه لو لم تكن دعوتهم مباحة جائزة لما استطاع الناس عمارة هذا الكون ، ولما استطاعوا التعاون على تنظيم شؤون الحياة ولا أن يعيش بعضهم إلى جانب بعض ولما استطاعوا التعاون على الخير والبر والتقوى . وهذه أمور مطلوب التعاون

دعوة الاحياء
ضرورة

عليها . فإباحة دعاء الأحياء ضرورة من الضرورات ، والضرورات ، كما قيل ،
تحل المحظورات . ولولا هذه الضرورة لكانت دعوتهم حراماً باطلة على الأصل
العام في تحريم دعاء غير الله وإيجاب دعائه سبحانه وتعالى وحده . فدعاء الخلق ،
كما ذكرنا ، حرام وجريمة ولكن دعوة الأحياء منهم لا يمكن الغناء والاستغناء
عنها ولا الانسكاف منها . ولا يستطيع إنسان في هذا العالم أن يعيش عيشة
صحيحة مقولة لولم يسح له أن يدعو الأحياء وأن يناديهم وأن يطلب منهم وأن
يخاطبهم وأن يفهم منهم وأن يفهموا منه وينادوه ويدعوه ويخاطبوه . فإن
هذا العالم وهذه الحياة قائمان على التفاهم والتعاون والتخاطب . وبغير ذلك
لا تقوم حياة ولا يعمر عالم . فدعوة الأحياء من الخلق مباحة للضرورة إليها . أما
الأموات فبالضرورة لا ضرورة تلجئ إلى دعائهم وموالمهم والالتفات إليهم .
فبقيت دعوتهم في المحرمات المحظورات . وبهذا يخاف من الاعتراض المذكور
وليس في هذا القول والتخريج شيء من الغرابة والخروج على الأصول
أو الفروع ، فإن الناس مجمعون على أن حالة الضرورة تخالف غيرها من
الحالات التي لا ضرورة فيها ولا إليها ، ومجمعون على أن الضرورات تحل لديها
المحرمات ، أو نوع المحرمات ، كإحلال أكل الميتة ولحم الخنزير والدم المسفوح عند
خوف الملكة والموت إبقاء على الرق والحياة ، وكإحلال النطق بكلمة الكفر والشرك
والضلال لمن أكره على ذلك والسيف فوق رأسه مشهور مصلة - إلى غير
ذلك من الحالات . وقريب من هذا مسألة الناس ، فإنها محرمة البتة ولكنها
تباح في حالة الضرورة . وشبه هذا أنه مفروض على المؤمن ألا يخاف إلا ربه
وآلا يهاب إلا إياه ، ولكنه إذا وقع بين برائن السبع فخافه وها به كان معذوراً .
لأن الصبر على هذا وعنه فوق طاقته وقدرته . ونظيره أن المطلوب من المؤمنين
ألا يهنوا وآلا يحزنوا ، وقد جاءت نواهي القرآن عن ذلك كثيرة صريحة ولكن

امثال ذلك

من أضيّب بصيبة الصبر عليها والتماسك إزاءها فوق طاقتها وفوق إنسانيتها
فاستسكان لها وضمف وتضمضع لها بناء صبره وجلده ، فخرن وأسف فانهم كان
غير ملوم ولا معاقب ، دعيا للحالة التي هو فيها . وهذا كله واضح

جواب آخر من
الاعتراض

ومن الأجوبة عن هذا الاعتراض أيضاً أن يقال إن جميع المكلفين عند
ما تلقى عليهم تلك النواهي عن دعوة غير الله ، وتلك الأوامر بدعوته تعالى
وحده لا شريك له لا يمكن أن يفهموا منها أنها تنصرف إلى تحريم دعوة الأحياء
واستعانة الملك بجيشه وجنده ورعيته لدفع عدوان المعتدين وظلم الظالمين ، ولا إلى
تحريم التألمين على الخير والبر والتقوى وعلى تبند عوز الموزين المحتاجين
المنكوبين ، ولا إلى تحريم أمثال ذلك : هذا كله لا يمكن أن يمر لأحد منهم على
بال ولا أن يهبط له على فهم . فاذا ما خاطبهم الله في قرآنه بهذه النواهي الصادرة
لم يمكن أن يدخل فيها النهي عن هذا الذي لا يمكن أن يفهموه ولا أن يمر على
أذهانهم ، ولم يمكن أن يكون النهي عنه مراداً بها ولا داخلات تحت معناها ،
لا منطوقاً ولا مفهوماً . وذلك أن القرآن - وكذلك كل كلام - إنما يراد به إلهام
المخاطبين به وتعليم المكلفين . وقد رعى به لذلك أن تدرك المعاني التي سيق
إليهم تحت ألفاظه ، وهذا لا ريب فيه . وإذا كان ذلك كذلك كان أمثال قوله
تعالى : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ونظائره في معنى أن يقال :
وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً من الأوثان ، لامن الأوثان والأحياء
لأنه قد عرف للمخاطبين أنه لا يمكن أن ينهوا عن دعوة الأحياء نهياً عاماً مطلقاً
وعرفوا لذلك أن الخطاب بعبد عن الأحياء وأنه خاص بغيرهم ، فكان هذا
التقييد المعلوم في النفس كأنه مذكور في اللفظ لأنه معلوم في النفس مفهوم من
المنعنى فهو في حكم المذكور ، وقد قيل : (وحذف ما يدل جائز) . وهذا كما جاء
تحويل المسئلة في أحاديث كثيرة مطلقاً لم يذكر فيها أن الحزم هي مسئلة الناس

دون مسئلة الله . وذلك مثل قوله ﷺ : « من يستغفر يغفره الله ، ومن يستغفر يغفره الله » وكقوله عليه السلام : « لا تزال المسئلة بأحدكم حتى يلتقي الله وليس في وجهه مزعة لحم » وكقوله عليه السلام : « إن المسئلة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسئلة حتى يصيبها ثم يمسه ، ورجل أصابته جائحة فحلت له المسئلة حتى يصيب قواماً من عيش ، ورجل أصابته فاقة فحلت له المسئلة حتى يصيب قواماً من عيش . فما سواه من المسئلة سحت يأكلها صاحبها » والأحاديث الثلاثة في الصحيح . ولا شك أن المراد بذلك تحريم مسئلة الناس لا مسئلة الله فان مسألة الله مطالبة كل وقت ، ومن لا يسأل الله يغضب عليه كما في الحديث . وكذلك النواهي القرآنية عن دعوة غير الله وعن دعوة المخلوق لا يمكن أن يراد بها النهي عن دعوة الخلق القادر على العون والمغفرة ، وإنما يراد بها النهي عن دعاء الأموات خاصة . وهذا مفهوم لجميع المخاطبين ، لا يحتاجون في فهمه ومعرفته إلى أن يذكر في اللفظ بلا ريب ولا جدال .

ومن الأجوبة أيضاً عن الاعتراض المذكور أن يقال : إن المشركين والعرب الذين أنزل الله عليهم وفيهم القرآن ابتداء وخطبوا بهذه النواهي كانوا يدعون الملائكة والجان والأموات من الأنبياء والصالحين ويدعون صورهم وتمائيلهم ومخلفاتهم ، فجاءهم القرآن الكريم ناهياً عن دعوة غير الله آمراً بدعوته وحده ناعياً عليهم دعاء المخلوقين والافتقار إلى العاجزين . فوجب أن يكون هذا متوجهاً إلى دعوة هؤلاء المدعوين المعبودين من الأنبياء والصالحين والملائكة والجان الذين كانت العرب تدعوم وتناديهم في جاهليتها حين سرائها وحين ضرائها ، ولم يجوز أن يفهم منها أنها نهى عن أن يدعو بعضهم بعضاً لما يجمل ويحسن . وذلك أنهم كانوا يرون النبي الكريم ومن معه من المسلمين - وهم يدعون إلى هذا التوحيد ، وهذا الإنكشاف عن عبادة الخلق وعن دعائهم

جواب آخر من
الاعراض

وسؤالهم - يدعو بعضهم بعضاً ، وينصر بعضهم بعضاً ويسأل بعضهم بعضاً ، ولا يرون في دعاء الحى القادر منعاً ولا شركاً ولا ضللاً ولا شيئاً من الأشياء الباطلة المحرمة . فكان هذا دالاً على أنه لا يراد النهى عن دعاء الأحياء ، وأنه لا يراد الا النهى عن دعاء من يدعون من الأنبياء والصالحين الأموات ومن الملائكة والجان خاصة .

ونظير هذا

ونظير هذا أننا اليوم وقبل اليوم نهى الناس عن دعاء غير الله وعن دعوة الخلق وعن سؤاله واستجدائه ، ونقول : إنه يجب ألا يدعى أحد من الخلق معه . ومع هذا لا يمكن أن يفهم أحد ولا أن يقول : إننا نهى عن دعاء الأحياء القادرين ، ونهى أن يدعو بعضهم بعضاً وعن أن يدعوا أبناءهم وإخوانهم وأهلبيهم إلى الخير والعون على البر والتقوى . . . بل كل مخاطبين يفهمون أن المراد بذلك النهى عن دعاء من يدعون من الأموات وسكان الاجداث والمقابر من المشايخ والصالحين . ولهذا ظنهم لا يوردون هذا الاعتراض لأنه لا يخطر على بال أحد منهم . ولهذا ظن أقواماً يقبلون هذه الدعوة الصحيحة ويقبلون عليها ويقرون بها أعيناً ، فينكفون عن دعاء الأموات والمشايخ والصالحين وأصحاب القبور ويظنون على ما كانوا عليه من دعاء الأحياء والاستعانة والاستغاثة بهم . . . فيفرقون بين الحى والميت لأنهم يعلمون أنهم لا ينهون عن دعاء الأحياء نهياً تاماً باتاً . فهم حينما قيل لهم : لا تدعوا إلا الله ، ولا تدعوا مع الله أحداً فهموا أن النهى متوجه إلى الموتى وإلى دعونهم خاصة دون دعوة الأحياء . فكذلك حينما قيل للعرب والمشركين في كتاب الله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » وغير ذلك فهموا أنه لا يراد النهى عن دعاء الأحياء يقيناً لقرائن كثيرة عقلية ودينية وضروورية وحالية . فكان هذا كهذا ، وكان هذا الاعتراض ساقطاً لا اعتبار له ولا التفات إليه .

عود الى بقية
براهين المسئلة

﴿ بقية الحجج على منع دعاء الاموات ﴾

هذا الذى ذكرناه كله هو البرهان الاول على بطلان دعاء الأموات وسؤالهم الحاجات ، وهناك براهين أخرى كثيرة قوية ، عقلية وتقليدية على بطلان ذلك . منها أن هذا المخالف وإخوانه الذين يزعمون أنه جائز سؤال الموتى جميع الحاجات ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وشفاء المرضى ، ورجع النائبين وإحياء الأموات ، معترفون لنا بأن الأموات الذين يدعونهم هذه الدعوات ويسألونهم تلك الحاجات ، لا يقدرّون على أن يفعلوا ذلك ولا أن يفعلوا شيئاً حقيقياً ، وإنما يريدون منهم الشفاعة والوسيلة فقط ، ذاهبين إلى التأويل والمجاز فى القول والتعبير ، لأنهم معترفون - فى ما يقولون - بأن ظواهر هذه الأسئلة والدعوات من الأموات كفر ظاهر وشرك جلى وباطل منكر ، لأن هذه المطالب لا يقدر عليها سوى الله وحده . وإنما المسيخ لذلك كله عندهم هو المجاز والتوسع فى القول . . . فهم إذا قيل لهم : هذا كفر وضلال وجهل ، لأن فيه سؤال المخلوق مالا يقدر عليه إلا الخالق قالوا : كلا ، لا كفر ولا ضلال ولا جهل ولا منكر ، ولا شئ من هذا القبيل ، لأن الكلام ذو فنون واسعة كثيرة ومذاهب طويلة عريضة . ومن فنون الكلام المجاز ، وفى المجاز بلاغة وقوة وجمال وحسن وذوق ، ومن مذاهبه الخذف والمبالغة والتوسع ووضع كلمة مكان كلمة وعبارة مكان أخرى ، وفى الخذف والمبالغة والتوسع روعة وبراعة وإيجاز وشحن للأذهان ورياضة للأفهام والألباب . وقد جاء ذلك كله فى كلام الله وفى كلام رسله وأنبيائه ، وجاء فى كلام الأئمة وكلام سائر القائلين والناطقين . فلا حرج على من ذهب هذا المذهب أو على من أخذ ذاك المأخذ ، فلا حرج على من قال فى دعائه وندائه : يا رسول الله اغفر لى ذنبى . أو يا على اهد قلبى ، أو يا فلان اشغنى من دأى وأسقامى ، ولا شئ على من استعان بالأموات وبالملائكة والصالحين ، لأن هذا كله ، إذا وجد ، مجاز فى القول وسعة

فى التعبير وذهب مع فنون الكلام وضروبه . وحقيقته هى طلب الوسيطة والشفاعة . وهذه أمور كلها صحيحة ، صحيح طلبها من الأموات ومن الأنبياء والصالحين الأحياء منهم والأموات ، وصحيح أيضاً طلبها من الملائكة ، والجان الصالحين . هذا ما يقوله هؤلاء المعارضون وما يدفعون به عن دعوة الأموات وعن دعائهم وحيثئذ . يقال هؤلاء جميعاً : إذا كان إدخال المجاز جائزاً لديكم فى الأدعية وفى النداء وفى كل الأقوال المعبرة عن الاعتقادات وعن الديانات ، فهل ترون أن هذا جائز بلا قيد ولا شرط فى هذه المسائل والمطالب والمباحث بحيث يجوز إدخال المجاز فى كل قول وفى كل دعاء ودعوى مادام صحيحاً جائزاً مقبولاً فى قانون البلاغة وعلوم المجازات ؟ أم أنتم لا تدعون هذه الدعوى ولا تنهون هذا المذهب فلا تطلقون جواز المجاز فى جميع أقوال العبادات ، ولا تطلقون جواز التأويل لكل قائل ، ولكل داع ومدع ، بل تنهون إلى أن من ذلك ما هو ممنوع باطل ، وما هو ضلال وجهل ، وما هو كفر وشرك . . . إنه لا فرار لكم من اختيار أحد المذاهب وأيا اخترتم فقد خصتم ، ولا ريب . فانكم إذا اخترتم الرأى الأول وزعتم أن المجاز جائز مطلقاً بلا قيد ولا شرط فى كل كلام ومقال قيل لكم هذا باطل بالاجماع والضرورة . فانه لو كان صحيحاً حقاً لما استطعنا أن نخطئ ولا أن نعارض من قال ~~الله~~ : عيسى هو ابن الله ، أو قال محمد ﷺ هو خالق العالم ، أو قال على بن أبى طالب هو خالق محمد عليه السلام ونحو ذلك من الأقوال . وذلك أن هنالك مجازاً اسمه مجاز الخذف وقد مثل له بقول الله : « واسأل القرية » أى اسأل أهل القرية مفراد بقول : عيسى هو ابن الله أنه ابن أمة الله ، وبقول : محمد خالق العالم أنه حبيب خالق العالم أو رسوله أو صفيه ، وبقول : على خالق محمد أنه مختار خالق محمد . . . وبهذا التخريج والتأويل تصبح هذه الأقاويل من أقاويل المؤمنين الصحيحة المقبولة التى لا اعتراض عليها ولا فسد فيها ، ولا لوم على

يطلق التأويل
لدعاة الاموات

قائلها كما زعم المخالف في من قالوا : يا رسول الله اغفر لنا ذنوبنا ، ويا على اهد قلوبنا وامثال ذلك . وأيضاً لو صح هذا المذهب لجاز أن يقول المسلم : إن الله ظالم ، وأنه يأكل ويشرب ، وإنه يموت وأمثاله ، على أن يكون المعنى : إن خلق الله ظالم ، وأن خلقه تعالى يأكل ويشرب . ولكن أيضاً من المقال الصحيح مقال الذى قال : ما فى الجبة إلا الله ، ومقال القائل الآخر : سبحانى عز شأنى . وبالأجمال لو صح لجاز لكل قائل أن يقول ما يشاء ويريد ، فان كل كلام فى الدنيا يستطاع أن يوجد له وجه من وجوه التأويل ، وفق من فنون المجاز ، ونوع من أنواع التوسع فى ضروب ما يسمونه بلاغة . وهذا يقضى ألا يؤخذ قائل بمقال ولا منكهم بكلام حتى ولو قال : إني أريد بقولى ظاهره وما يبدو منه بلا تأويل ولا مجاز ولا شئ من هذا ، لأن قوله هذا نفسه يحتمل التأويل والمجاز والمبالغة الموجودة فى الكلام . وهذا غاية الضلال والخذلان .

وأما إن قلتم بالرأى الثانى ، أى قلتم : إنه ليس كل ما صح مجازاً صح ديناً بل من المجازات ما هو ضلالات ، ومنه ما الذهاب إليه إثم كبير ، وذنب لا يجوز للمسلم اقتحامه قيل لكم إذن لعل هذا المجاز الذى زعمتموه وأجريتكموه فى كلام الداعين للأموات السائلين لهم صنوف الحاجات من هذا المجاز الذى هو إثم وكفر بالله العظيم . وإذن لا يصح لكم أن تقولوا بجواز الاستغاثة بالأموات وجواز دعائهم حتى تقيموا الدليل الواضح المقبول على أن ذلك ليس من المجاز الممنوع المحرم ولا من الباطل المنكر . وأنتم لا تستطيعون شيئاً من ذلك فلا يقبل إذن ما زعمتم من المجاز ، وإذن فدعاء الأموات على كل حال باطل .

ومن الدلائل أيضاً

على بطلان دعوة الأموات ودعوة الملائكة والجان أن يقال : إن غاية ما يمكن أن يزعم فيهم أنهم أحياء عند ربهم فى الملأ الأعلى أو فى قبورهم مثلاً أو فى مكان نجبه ولا لعله ولا يعلمه إلا الله . وعلى هذه الأقوال

الثلاثة لا يمكن ولا يصح دعاؤهم لا عقلاً ولا ديناً ، لأن حالتهم حينئذ كحالة الأحياء الغائبين ، ودعوة الأحياء الغائبين لا تجوز بحال . ومن دعا حياً غائباً عنه كان مصاباً في عقله أو عقيدته أو في عقله وعقيدته . ولو جاز دعاء الميت بحجة أنه حي عند الله أو حي في قبره أو في مكان آخر قصي مجهول لجاز لمن ضل في الصحراء فمطش وجاع وخاف أن يطلب من شيخه أو من أبيه أو من أخيه أو من صديقه وهو مقيم في المصر أن يهديه وأن يسقيه وأن يطعمه ويشبعه وأن يعينه على أهله بحجة أنه موجود في جوف المدينة ، والحي الموجود يدعى ويستغاث . ولا يختلف الناس في أن من فعل ذلك كان ضالاً جاهلاً مذمماً ، ولا يختلف أهل البصر بالاسلام والفقهاء في الدين أن من استغاث بشيخه وهو عنه غائب غير حاضر ولا مشهود فقد ضل ضلالاً بعيداً ، ولا يختلفون في أن من الغواية والجهالة أن يدعو من في المشرق من كان في أقصى المغرب - دون أن يكون بينهما وسائل عادية تنقل الأصوات ، وتبلغ الاستغاثات . ولا ريب أن الاستغاث بالأموات ليست أقل ضلالاً وجهلاً وفنداً من الاستغاث بالحي الغائب ، إذ لا شك أن الحي الغائب الذي هو على ظهر الأرض أقرب إلينا من الميت الذي هو في بطنها . وإذا كان هؤلاء لا يجوزون الاستغاث بالحي الغائب فكيف إذن يجوزونها بالميت وهو لا يقل عنه بعداً وغيبه ؟ وقد نص القرآن الكريم على أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، والأخبار عنهم بأنهم عند ربهم دليل على أنهم ليسوا عندنا ولا معنا ولا مع من يدعوهم ويستغيثونهم ، وكذلك جاء في السنة الصحيحة أن أرواح الشهداء الصالحين تغدو وتروح هناك . وهذا بالاجمال من الأمور المتواترة في الاسلام . والعلماء وإن اختلفوا في مستقر الأرواح بعد الممات ، فإنهم لم يختلفوا في أنها ليست في الأبدان ولا القبور . على أنها لو كانت في القبور لكانت أيضاً عنا ظلية قصية غير حاضرة ولا قريبة . وقد دلت النصوص على أن الجنة مخلوقة

«ودلت على أن فيها اليوم سكاناً . وما استجاز أحد من المسلمين ، ولا أحد من العقلاء غير المسلمين ، دعوة سكانها والاستغاثة بهم . وكذلك من عقائد المسلمين التي دل عليها الكتاب والسنة أن هنالك عالماً مستقلاً قائماً بنفسه اسمه عالم الجن . وأن من هذا العالم المؤمنين والكافرين ، والصالحين والطلحين . ودل الدين على أنهم أقرب إلينا وأكثر اتصالاً بنا وعلقة من الأموات ، وأنهم أعظم سلطاناً وشأناً من الإنسان حياً وميتاً . وما أجاز أحد من أهل العلم دعوتهم ولا الاستغاثة بهم ، لا بمؤمنهم ولا بكافريهم ، فكيف يجوز ذلك ، إذن ، بالموتى يوم أبعد عنا وأضعف منهم حينما كانوا أحياء . وكذلك ما أجاز أحد من المسلمين الاستغاثة بالملائكة ولا أجاز دعاءهم ، والملائكة ، بلا خلاف ، أقدر من الإنسان وأقرب إلى الله وإلينا . . . إن بعض هذا الذي ذكرناه يدل على بطلان دعوة الأموات والاستغاثة بهم ومحاولة خطابهم بالنحو المشهود المفعول اليوم .

ومن الدلائل أيضاً على بطلان دعاء الموتى أن هذا لم ينقل عن رسول الله ﷺ ولا برواية صحيحة ولا ضعيفة ، لا مجملة ولا صريحة مفصلة ، ولم يؤثر عن أحد من السلف وخيار الأمة وساداتها . وقد حفظت السنة النبوية ودونت بمهارة وإتقان عظيمين ، وميز صحيحها من ضعيفها وثابتها من مكنونها . وقد فعل فرسان الرواية وصيارفة الحديث كل ذلك ووضعوا كل شيء موضعه : الصحيح في مكان الصحة والضعيف في مكان الضعف والموضوع في مكان الوضع . ووضعوا لكل نوع من ذلك كتباً خاصة جيدة بارعة أتقنها الاخلاص والعلم والدأب العجيب ، حتى لقد بدروا الموضوعات المكنوبات ذاكرين حالها وقيمتها نصيحاً للمسلمين وخدمة للإسلام والعلم خيفة أن يُضل بشيء من ذلك ، وخيفة أن يقع في أيدي الجاهلين به فيضلوا ويضلوا غيرهم . وقد حفظوا - نضر الله وجوههم - كلام النبوة في كل فن من فنون العلوم ، وحدثوا في كل ضرب من ضروب المعارف ، ورووا في كل

باب من أبواب العلم مختلف الروايات وعجيب النقول . وقد قسموا ذلك أحسن التقسيم وفصلوه أجمل التفصيل . كل ذلك قد فعلوا ولكنك لو قرأت جميع ما دونوا وألفوا وكتبوا في القديم والحديث رجاء أن تظفر برواية واحدة - ولو ضعيفة - مجلة - فيها أن الرسول عليه الصلاة والسلام علم أصحابه أن يدعوا الأموات وأن يسألهم الحاجات وأن يهتفوا بهم - زاعبين راهبين - لأعيك الطلب . ولا تظن أن هذا راجع إلى تقصير الرسول عليه السلام في البيان والبلاغ ، أو راجع إلى تقصير رجال الحديث في التدوين : لا تظن شيئاً من ذلك فإن الرسول علي الصلاة والسلام قد بلغ كل البلاغ وبين كل البيان ، ودل أمته على كل ما يقربها من الله ومن جنته ورضاه ، وحذرها كل ما يبعد عنها من ذلك . وهذا شيء مفروغ منه عند المسلمين لا يختلفون في أن نبيهم قد بلغ البلاغ وبين البيان كله . وأما المحدثون فانهم أيضاً لم يقصروا - نضر الله وجوههم - في شيء من حفظ السنة وتدوينها ، بل لقد جدوا وبالفوا في جدم حتى تقلوا كل ما بلغ علمهم ، فنقلوا أزيز صدر الرسول عليه الصلاة والسلام خوفاً من ربه ، ونقلوا اهتزاز شعرات لحيته الشريفة حين القراءة ، ونقلوا ما عده الخصوص والجهلاء مقادح فيهم وفي الاسلام وفي النبي عليه الصلاة والسلام . فليس الأمر إذن أمر تقصير .

وقد رووا عنه عليه السلام ما كان يقوله عند زيارته المقابر وما كان يوصي به المسلمين ويعلمهم أن يقولوه حين زيارتهم . وقد رووا في هذا الباب - كما دلتهم - الصحيح والضعيف والمكثوب الموضوع . ولكنهم لم يرووا رواية واحدة في دعوة الأموات والاستغاثه بهم لاجمحة ولا ضعيفة ، لاختفاء الدلالة ولا واضحتها . لأن الرسول الكريم لم يفعل ولم يقل شيئاً من ذلك ، بل هو ما بعث وأرسل إلا وكان من الحكمة في بعثته وإرساله محاربة هذا ومناوأة بشدة وعنف حتى تطهر منه الأرض والقلوب والنفوس . وهامى كتب الحديث قديمها وحديثها ،

صحاها وضعافها ، لينظر فيها كلها جميع من شكوا في صدق ما نقول . وإنا
نتحدى المخالفين جميعاً .

وكذلك لم يؤثر عن سلف الأمة الذين تلقوا الإسلام من قم النبوة وعملها
مباشرة ومشافهة أنهم دعوا ميتاً من الأموات فسألوه غفران الذنوب وهداية
القلوب ، أو سألوه النصرة على الأعداء أو نحو ذلك من أنواع المطالب ومختلف
المسائل التي يسألها هؤلاء الجاهلون اليوم المشايخ والصالحين من الميتين . وقد
اختلف الصحابة - رضوان الله عليهم جميعاً - واشتد بهم الخلاف حتى اندفعوا
إلى السيوف وطال بينهم الخلاف والقتال ، وكانوا في أشد الحاجة إلى حسم
ذلك الخلاف ووقف رحا تلك الحروب ، وقد احتاج الكثيرون منهم إلى العون
والمعونة وإلى يد الله الناصرة المؤيدة . وكذلك وقع كثير من ذلك بين التابعين
ومن بعدهم من المسلمين . ولكن أحداً من هؤلاء جميعاً مع ذلك كله لم يلجأ إلى
قبر الرسول ولا قبر غيره من الصالحين والشهداء الأبرار يستجديه ويسأله المعونة
والنصرة والنوثة أو رفع الخلاف بين المسلمين أو وقف الحرب والقتال . وقد كان
رسول الله منهم قريباً وكانوا هم أفطن إلى هذه المعاني من هؤلاء الجاهلين
المتأخرين ، وكانوا أحرص منهم على الخير والثواب والدين وطاعة الله . وقد
خولف على بن أبي طالب وقوتل وقهر وغلب على أمره : قاتله معاوية وعمر بن
العباس وخالفاه حتى أعياه أمرهما . وقد خالفه رضى الله عنه شيعة حتى أخرجوه
وأكدوه واضطروه إلى أن يبعثها عليهم لعنات ملتهبة ، وشتائم صارت مضرب
الأمثال في الذيوع والانتشار والبلاغة والقوة وفي غليان الحق وشدة - إذا صدقوا
في عز وهم نهج البلاغة إليه . وكذلك لاقى ولداه الحسن والحسين رضى الله عنهما
حتى قتل أولهما مسموماً على زعم الشيعة ، وقتل ثانيهما بأسيا ف أعدائه مخنولاً
من شيعة . وقد كانوا رضوان الله عليهم في غاية الحاجة إلى عون رسول الله وإلى

لم يفعل ذلك
الرسول ولا
العلمون

لم يفعله على ولا

عون من مضى من أسلافهم . ولكنهم لم يحاولوا الذهاب إلى قبر الرسول أو قبر غيره يطلبون العون ويرجون النصر ، بل أخذوا بالأسباب المشروعة التي يأخذ بها غيرهم ويأخذ بها جميع الناس ، ولجأوا إلى العدة التي يلجأ إليها كل مهاجم أو مدافع من حشد الرجال وحمل السلاح . . . أما الذهاب إلى الأجداد والقبور فما كان لهم على بال ولا حسابان . وكذلك قتل عثمان رضى الله عنه : قتله الأشرار محصوراً مظلوماً في داره وفي حرم الرسول وجوار قبره الشريف وقبور صحابته الأكرمين . فما ذهب إلى شيء من ذلك ولا استغاث بغير الله من الأموات ولا حاميها : لا رسول الله ولا أباً بكر ولا عمر ولا من دونهم . بل ذكروا أنه كان يطلب النصر والغوث من الأحياء فيبعث إلى علي بن أبي طالب قائلاً : (وإلا فأدركنى ولما أمزق) . أما من الأموات فلا . وكذلك لقي غير هؤلاء من الصحابة وغيرهم من سلف الأمة . وقد اتفقوا جميعاً على الرغبة عن طلب العون والنصرة من الموتى وأجمعوا على الرغبة عنهم بلا شنوذ ولا خلاف أو اختلاف . ولاريب عندنا وعند جميع المنصفين أنه ما كان لديهم مانع يمنعهم من الرجوع إلى القبور . وأصحاب القبور إلا علمهم بأن الرجوع إلى القبور باطل لا أصل له في دين الله ، وإلا علمهم بأن ذلك من أدراج الوثنية وأوضاع الشرك التي أقدم الله منها والتي حطموها بأسياهم وإيمانهم . ومن المحاولات الفاشلة أن نطلب لهذا تمليلاً ووجهاً غير علم القوم بأن هذه الأمور لا تجوز ديناً ولا تجدى فاعلاً شيئاً ، ولا ينال بها سوى غضب ربه . وقتنه وقمته .

ومن الدلائل أيضاً على بطلان دعاء الأموات أن يقال : لاخلاف بين المسلمين ، الواقفين والمخالفين ، القائلين بمجواز ذلك والقائلين بمنعه : لاخلاف بين هؤلاء جميعاً في أن دعاء الأموات ليس واجباً من واجبات الدين ولا فرضاً من فروض الإسلام ، ولا خلاف بينهم في أن من ترك ذلك فليس مريضاً نفسه

ومن الدلائل
أيضاً

للائمة ولا حقاب ولا مؤاخضة من المؤاخذات . ذلك أن غاية ما يقوله المجيزون لدعوة الاموات والاستغاثة بهم أن يزعموا أن ذلك أمر جائز مباح قد يستفيدون من فعله ولا يعاقبون على تركه . ولا يجزأ أحد منهم أن يدعى أنه واجب ولا أن تاركه معاقب آثم . وأما المانعون لهذا فالأمر عندهم واضح مفهوم لأنهم يقولون : إنه كفر والعياذ بالله ، أو ضلال كبير ومنكر عظيم : معرض فاعله نفسه لأعظم المؤاخذات وأشد العقوبات .

إذن فقد اتفق المسلمون على أن من لم يدع الأموات ناج راشداً إذا ما قام بما فرض عليه من الواجبات والفرائض ، وجانب مانهى عنه من الآثام والمحرمات . وأما دعاة الاموات فقد اختلف في نجاتهم ورشادهم وهداهم : فقوم يقولون : إنهم ناجون - كما يزعم المخالفون - وجماهير المسلمين وأهل البصر والمعرفة منهم يقولون : إنهم هالكون صائرُونَ إلى غضب الله وعقابه . فمن لم يدع الأموات ناج بالإجماع ومن دعاهم في نجاته قولان : قيل إنه ناج وقيل إنه هالك معذب ، فطائفة تقول إنه ناج ، وطائفة تقول إنه غير ناج .

وإذا كان ذلك كذلك فلا خلاف بين العقلاء أن المرء مأمور بالاحتياط لنفسه ^{ترك ذلك من الاحتياط الواجب} وبالأخذ بالأحزم الأحجى في كل حالاته وشؤونه ، في دينه ودنياه ، ولا خلاف أن من الاحتياط أن يدع ما يشك فيه إلى ما لا شك فيه ، وأن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ، وأنه إذا كان أمامه طريقان أحدهما يقال إن في سلوكه الهلكة والضلال ، وفي سلوك الآخر النجاة والرشاد يقيناً وجب عليه سلوك الطريق المأمون الذي لا شك في أنه صائرٌ بسالكه إلى الغاية المطلوبة المحموده ، ووجب عليه اجتناب الطريق الأخرى التي ربما يكون في سلوكها المكروه والعطب . ولو قدم لظمان قدحان مملوءان ماءً ، فحضر لديه قوم فأجمعوا على أن أحد القدحين لا شئ فيه سوى الماء وأيقن هو ذلك في نفسه ، ثم اختلفوا في القدح الآخر ، فزعم بعضهم أن

فيلم سما ، وزعم الباقون أنه لاسم فيه . وكان لاماء لدى ذاك الظلم أن غير ذينك
القدخين — لوجب عليه شرعاً وعقلاً أن يشرب من القدح الذى أجمع على أنه
لاسم فيه والذى استيقن فى نفسه أنه كذلك لاشئ غير الماء فيه . ولو أنه قدم
القدح الذى ذكر له فيه السم على الذى لاسم فيه يقيناً لكان مصاباً فى عقله .
ولو أن ضالاً تاه فى الصحراء فجاءه جماعة فزعموا له كلهم أن الاتجاه جهة معينة
موصول إلى الوجه الذى يطلبه فاستيقن هو فى نفسه صحة ذلك ، ثم اختلفوا فى
الاتجاه جهة أخرى ، فقال فريق منهم : إن هذه الجهة لا توصل إلا إلى الموت ،
وقال فريق آخر : بل هى توصل أيضاً إلى المكان الذى يقصده . لوجب عليه
عقلاً وشرعاً أن يتجه الاتجاه الذى لا شك فى إرادته الغاية المقصودة المحمودة ،
ووجب عليه هجران سائر الجهات والمذاهب إذا كان حقاً يطلب نجاة نفسه ،
وهكذا الأمر فى جميع أمثال ذلك . والسرفى هذا أن المطلوب من العاقل أن
يتلص النجاة لنفسه أين كانت وأين كان هو ، وأن يجانب الهلاك ومواقع الخطر
ما استطاع ولا سيما فى ما يتعلق بالأموال والدينية التى فى الضلال فيها هلاك الأبد
والقى فى الهداية فيها سعادة الأبد .

ولا شك حينئذ أن المفروض على العاقل الناصح لنفسه أن يدع هذا الأمر
الذى قال جماهير المسلمين : إن فى فعله والذهاب إليه هلاك الأبد والشقاء المطلق
وأن يأخذ بما أجمع المسلمون على أن الأخذ به لا لوم عليه ولا عتاب ولا عقاب .
ولا شك أن من تدبر هذا يقظاً مخلصاً وجد أنه الحق ، ووجد أنه حتم على كل
مسلم أن يجتنب دعوة غير الله من الأموات ، وأن يستغنى بدعوة الحى الذى
لا يموت . ومن أهدى ممن استغنى بالخالق عن المخلوق ، وبالحق عن الباطل وبالحق
لا يموت عن الميت ، وبالله عما سواه !

ومن الدلائل أيضاً على بطلان دعوة الأموات أن يقال : إن المخالفين

ومن الدلائل
أيضاً

موافقون لنا على أن هؤلاء الذين يدعون الموتى من دون الله ويفزعون إليهم كلما
 حزبهم حازب، وطرق ناديم طارق من الخدنان لو اعتقدوا ظاهر كلامهم وظاهر ما
 يقولون، فاعتقدوا بأن للأموات تأثيراً ما في الكون وتصرفاً وفعلًا وأثرًا لكانوا
 كافرين بالله مشركين به، لأن دعوة الموتى مع اعتقاد التصريف لهم وفيهم
 كفر بالله وشرك. والمخالفون لنا فيما زعموا - لم يخطئوا هؤلاء الماكفين على
 القبور ولم يضللهم أو يكفروهم أو يزعموا أنهم عملوا عملاً منكراً لأنهم يقولون :
 إنهم لو سئلوا لقالوا جميعاً : إننا لا نريد غير الوسيلة والشفاعة والوساطة، وأنهم
 لا يشكون أن الفاعل هو الله وحده لا شريك له. أما لو زعموا أن من يدعونهم من
 دون الله يتصرفون أو يفعلون أو يضررون وينفعون، لكانوا عندنا كفاراً
 مشركين بالله. وقد قال أحد شيوخ الشيعة الامامية المعاصرين وهو الشيخ محمد
 الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه : « أصل الشيعة وأصولها » : « بل لا مؤثر
 في الوجود عندهم (يعني عند الامامية) إلا الله ، فمن اعتقد أن شيئاً من الرزق
 أو الخلق أو الموت أو الحياة لغير الله فهو كافر مشرك خارج عن رتبة الاسلام »
 فدفاع هؤلاء عن دعاة الأموات وعن دعوتهم قائم على الاستيقان بأن لا أحد
 من هؤلاء الماكفين على القبور يعتقد في من يدعو به أنه يفعل أو يضر وينفع أو
 يؤثر. فإذا بطل هذا الزعم وذاك الاستيقان ، وقام الدليل على خلافه وبطلانه
 وخطئه انهار هذا الدفاع . ونحن إذا سألنا هؤلاء المدافعين عن هؤلاء الداعين
 للأموات وقلنا لهم : من أين علمتم بأنهم لا يعتقدون في من يدعونهم التأثير
 والتصريف والضر والنفع ، بل والخلق والرزق والاحياء والاموات ؟ ما كان جوابهم
 إلا أن قالوا : إنهم مسلمون ، والمستلمون لا يمكن أن يعتقدوا هذه العقيدة ولا أن
 يروا هذا الرأي ، والمسلمون يجب أن تقول لهم جميع أقوالهم وأفعالهم التي ظاهرها
 لا خطأ والضلال والزيغ بل والكفر والشرك ، لأن احسان الظن بالمسلم مطلوب

تكفير العيا
 اعتقد التأ
 لغير الله

من المسلم أبداً في كل الأوقات وجميع الحالات ، ولا يجوز بحال إساءة الظن بالمسلمين . ومن اعتقد بأن هؤلاء الداعين للأموات من جهال المسلمين وعلمائهم يظنون بأن الذين يدعونهم من دون الله يضررون وينفعون ، أو يفعلون ويتصرفون ، فقد أساء الظن بالمسلمين أهل الشهادتين : شهادة التوحيد وشهادة النبوة الخاتمة ، ومن فعل ذلك فقد أساء وظلم نفسه وظلم أهل دينه وولته ، وخالف ما تقضى به أصول الإسلام وفروعه القاضية بإحسان الظن بالمسلم في جميع الحالات والأوقات .

هذا هو الدليل عندهم على أن دعاة الموتى سليمو الاعتقاد ، وعلى أنهم لا يرون لمن يدعونهم من أهل القبور تأثيراً ولا فعلاً ولا تصريفاً ، ولا يرون لهم غير الشفاعة والوساطة والوسيلة والجاه . ولكن هذا الدليل ، كما يرى القارئ ، دليل سخيف باطل ، وذلك أنه قائم على أن كل من تظاهر بالإسلام فقال الشهادتين . وتسمى بأسماء المسلمين وتزى بزيتهم وولد بين آباء مسلمين ، فلن يكفروا ولن يرتد أو يضل ، ولن يذهب إلى نوع من أنواع الشرك بالله ، ولن يعبد غير الله من الأحياء والأموات ، ولن يعبد الأجار والأشجار والأصنام والأوثان . . . وهذا كله باطل مكنوب كما تقدم في أول هذا الجزء ، وكما تقدمت الدلائل الكثيرة الصحيحة المختلفة الدالة على أن طوائف من المسلمين سوف يعبدون الأصنام والأوثان ، وسوف يصيرون إلى ما صارت إليه الأمم الأولى المشركة بخالقها وربها من لا يضرها ولا ينفعها . وقد تقدم قوله ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حنو القنة بالقنة » وغيره من الأخبار الصحيحة الثابتة . وشيوخ الشيعة وأئمتهم يصححون هذا الحديث ويروونه في كتبهم وينقلونه عن الأئمة المعصومين ويحتجون به على بعض ما ذهبوا إليه من الباطل والاثم والجهل : فيحتجون به على الرجعة وقد تقدم معناها عندهم وما يريدونه منها ، ويحتجون به على أن المسلمين قد

اعترافهم بكفر.
طوائف من
المدعين للإسلام.

حرفوا القرآن بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير والتغيير والتبديل كما فعل ذلك قبلهم اليهود والنصارى وغيرهم من الأمم بكتب الله المنزلة عليهم . وهم يعترفون في ما كتبوا ويكتبون أن طوائف من الشيعة غير الامامية الاننا عشرية قد غلوا في علي بن أبي طالب وفي الأئمة الآخرين حتى كفروا وصاروا من المشركين المالكين . وقد ذكر كثيراً من هذا أبو الحسن بن النوبختي الشيعي الإمامي في كتاب « فرق الشيعة » . وذكر فرقا كثيرة من الفرق الشيعية القائلة بالأباطيل المكفرة ، وذكر أن فيهم من اعتقدوا أن الأئمة آلهة ، ومن اعتقدوا أن بعضهم إله دون بعض ، وأن فيهم من قالوا بالتناسخ والحلول ، وفيهم من أحلوا المحرمات وأنكروا البعث والجنة والنار ، وفيهم من كفروا غير هذه الكفريات . وهذا المصنف نفسه ، أعنى صاحب كتاب « كشف الارتباب » يسلّم أن السبئية كفار ويسلم أن غيرهم من الفرق الغالية في الأئمة كفار . وهؤلاء كلهم كانوا يتظاهرون بالإسلام ويدعونه ويتسمون بأسماء المسلمين . وما منعهم هذا كله من أن يكفروا ولا من أن يكفروا لما أن كفروا .

وأقرب من هذا كله في النقض على القوم وفي إفساد هذه الدعوى وهذه الحجة أنهم هم يذهبون إلى كفر جمهور أصحاب النبي وإلى كفر كبارهم ، مثل الخلفاء الراشدين الثلاثة ومثل عائشة وحفصة وأم حبيبة وعمر وبن العاص والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير وابنه عبد الله ابن الزبير ومعاوية وغيرهم ، وينهبون إلى إكفار جميع الخلفاء العباسيين والأمويين وغيرهم من ملوك أهل السنة وخلفائهم : فعندهم أن هؤلاء جميعاً كفار مرتدون مشركون . فكيف تكون إذن مقالة الشهادتين ودعوى الإسلام عندهم مانعة من الكفر والشرك وضماناً من الردة والضلال ؟ وهل يوجد فرق ما الفرق بين هذا وهذا

بين هذه الحجة في الدفاع عن عباد القبور ، وبين قول اليهود والنصارى : إنه لا يوجد يهودى واحد ولا نصرانى واحد كافر ولا مشرك ، لأن اليهود كانوا بلا خلاف ، مؤمنين بموسى إيماناً صحيحاً ومؤمنين بشريعته ، وكذلك كانت النصارى مؤمنين بيسى وبشريعته وبما جاء به من الأقوال والشرائع والنبوات فهم جميعاً كانوا مؤمنين ناجين فيجب أن يظلوا كذلك وأن يدعى أنهم كذلك أبداً ويجب أن تؤول لهم جميع أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم التى ظاهرها الخطأ والضلال والكفر والردة ، لأنهم كانوا فى الزمان الأول ، بلا خلاف مؤمنين ناجين ، والمؤمن يجب أن يحسن الظن به وألا يكفر ، ويجب أن يحمل جميع ما يصدر منه على الخير والبر والطاعة والإيمان . وحيثئذ فلا اليهود ولا النصارى ولا غيرهم من أهل الملل السماوية كفار ولا ضالون ما داموا ينتسبون إلى شرائعهم وإلى أنبيائهم ، ويدعون لأنفسهم الإيمان والاتباع والاهتداء بهدى الأنبياء . وهذه الحجة مثل حجة هؤلاء المنازعين المتكلمين سواء ، وهما حجتان باطلتان بلا ريب ولا شك .

ولا ريب عندنا وعند جميع المنصفين أن هؤلاء الدعاة للأموات الكافرين على الأحداث يعتقدون فى من يدعونهم التصريف والتأثير والاعطاء والمنع ، بل والخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وسائر أفعال القادرين المتصرفين . ولولا اعتقادهم هذا فيهم وتمكنه من نفوسهم وعقائدهم وضمايرهم لما جاؤا إليهم راغبين راغبين ، ولما هتفوا بهم وبأسمائهم يتلمسون الغنى والشفاء وتفريج الكروب وإنالة المطلوب ودفع المرهوب . . . ولولا هذا الاعتقاد وتسلطه على نفوس القوم ورسوخه فى ضمائرهم وفى زواياها لوجدوا مندوحة عن هذه اللهفات والرغبات والرهبات والدعوات ، وعن هذا الانقطاع إلى القبور وأصحاب القبور . وقد جبلت النفوس كلها على الرغبة عن العاجز الضعيف الذى لا يستطيع أن يضر ولا ينفع ، والذى

اعتقاد دعاة
الأموات فيهم
التأثير ودلائل
ذلك

للا يريش ولا يبرى ، كما جبت على الرغبة فى القادر ، الصّار النافع ، أو من يعتقد فيه ذلك ، ولو كذباً وجهلاً وضلالاً وخداعاً . أما من تعلمه عاجزاً فقيراً فقلن تباليه ولن تفكر فيه ، لا عند أناسها وضرائها ولا عند سرائها . وهذه أهور لاخلاف فيها عند المنصفين العقلاء ، ولا ينازع فيها إلا جاهل أو متمصّب ، يدفع عن الباطل ويدفع الحق جهاراً .

وقد دلت أقوال التوم وأفعالهم على اعتقادهم هذه العقيدة فى من يدعون . ويسألون : فقد سموم أهل التصريف ، وأهل المدد ، والأقطاب ، وسموا الواحد منهم بالمتولى ، والمتصرف ، وقطب الوجود ، وسموم بأهل الشورى . وقد كتبوا كتباً سموها « تصرف الأولياء » وذكروا فيها نماذج كثيرة من هذه التصرفات ، وأثبتوا أقبح الروايات والحكايات . فيذكرون مثلاً أن فلاناً من الموتى أحى دجاجة ، وأن فلاناً الآخر سما إلى ملك الموت ، وهو بين السماء والأرض هارب صاعد بالأرواح التى قبضها ، فاخطفها منه قسراً وغلاباً ، فرجعت إلى أبدانها فحيوا بعد الموت ، ورجع ملك الموت إلى ربه شاكياً كاسفاً ويذكرون أن فلاناً الثالث أوجد ما ليس موجوداً وأحضر ممنوعاً ، وأن فلاناً الرابع كان من كراماته الأحياء والاماتة ، ومن كرامات فلان الخامس أن قاصد قبره لا يخيب ، وأن قبر فلان السادس الترياق المحرب . ويذكرون أن بعض المشايخ المعظمين المشهورين قد خرج من قبره فرد عن البلد أعداء كانوا مغيرين غازين . وقد ذكروا أن المشايخ يخرجون من قبورهم ويلاقون المعتقدين فيهم ويرونهم ويرونهم ويقضون لهم الحاجات والطلبات ، وقد يشفونهم من الأمراض والعلل ويفرجون كربهم ، وأنهم قد يقدمون لهم أشياء مفقودة ليست موجودة ولا معروفة عند الناس . إلى غير ذلك من هذه المزاعم المنكرة الباطلة . وهذا يجر لاساحل له . والشيمى المصنف قد ذكر فى غضون كتابه أشياء كثيرة من

تصرف الأولياء وإعطائهم من دعاهم وهرع إلى أجدانهم راغباً راهباً طامعاً
 ثم ما لنا نتطلب الدلائل على هذه العقيدة الظاهرة الجاهرة وأنت لو أسمعيت
 أحد هؤلاء العاكفين على القبور قولاً يحسبه يفضب شيخه الذى يدعو ويعبد
 مع دون الله لأنذك بأفعال الشيخ ونطوفك ما سوف يريك به من الأرزاء
 والمصائب والصيالم والانتقام الهائل الفظيع ، ولأصبح هو يترقب لك الدمار
 والفناء وألوان الآفات والمصيبات المنزلة عليك من سماء شيخه الذى أغضبت
 وآذيت . ولو أن أحداً منهم أعرض عن عادة من عادته التى قد عودها الشيخ
 الميت من صدقات وننور وهدايا فأصابه الله بمصيبة جزاء عمله لأيقن أن تلك
 المصيبة من الشيخ ومن جزائه وانتقامه الهائل لا أعراضه عنه ونسيانه لياه . ولهذا
 فانهم يزعمون ويتحدثون أن الشيخ فلانا وغير فلان قد جاء فى صورة سبيع
 أو جل صائل أو غير ذلك من صنوف الحيوان ، فبطش وجرح وقتل وأخاف وضر
 ونفع وفعل ما فعل . وهم يروون عن البدوى والرقصى والدسوق وغيرهم أشياء
 كثيرة من هذا النوع . هذا كله معروف عند القوم ، مدون فى كتب مطبوعة
 مقروءة ، لا ينكرها عند عشاقها إلا من كفر أو ضل . وهذه أمور يطول القول فى
 تعدادها وإيرادها .

فهم ، لاشك ، يعتقدون أن الأموات يتصرفون ، ويفضرون وينفعون ، بل
 ويحيون ويميتون ، ويفعلون جميع أفعال القادر الحكيم . ولهذا فان علماءهم الذين
 يؤلفون لهم الكتب ، يلمون فيها شعث الشبهات والترهات على جواز هذه
 المنكرات ، يذكرون أن قدرة الأموات وتصرفهم أعظم وأوسع من قدرة الأحياء
 ومن تصرفهم . فوجه هذه الدعوى لديهم أن روح الحى حبيسة سجيئة فى قفص الجسم
 وقت الحياة . فهى ، لذلك ، ضعيفة مهينة عاجزة ، شأن السجين الحبيس . فلما
 أن انفلتت الروح من البدن ومن عوائقه وصعنه وحبسها صارت حرة طليقة قوية

فى تصرفها وعملها وتنقلها ، فصارت قادرة غالبية ، لا يعوقها عائق ، ولا يعانها
ممانع . . . وقد ذكرنا هذا غير ما مرة فى مآلفوه وزوروه ، دفاعاً ونقضاً لا عن
هذه الآفات الاعتقادية النكراء وعن هذا الموت الاعتقادى الفظيع .

فالأموات عندهم أقدر وأكثرتصرفاً وأعمالاً من الأحياء بلا ريب . وهذا ^{لزم هذا على}
^{مذهب الشيعة} لازم واجب على مذهب طائفة هذا الرجل . وذلك أنهم يعتقدون ، مثل المعتزلة ،
أن العبد خالق أفعاله موجد لها ، خالق لتصرفه موجد له . فالأحياء لديهم ، بلا
شك ، خالقون متصرفون موجودون مؤثرون ، والأموات ، عندهم ، أقدر وأقوى
من الأحياء أو مثلهم . فالأحياء والأموات خالقون متصرفون موجودون مؤثرون
ضارون نافعون . وهم يردون على أهل السنة قولهم : إن الله خالق كل شئ حتى أفعال
العباد وأعمالهم . فلا شك إذن أنهم يرون من يدعوهم من المشايخ والأموات
متصرفين قادرين على أن يعطوهم ما يطلبونهم وما يسألونهم إياه ، وأن يدفعوا عنهم
ما يستدفعونهم إياه ، وأن ينفعوهم ويضروهم . فالشيخي الجاهل - بل والعالم - حينما
يرفع يديه إلى ميت من الأموات قائلاً : اشفنى ، أو ارزقنى أو اهدنى ، أو اغفر
ذلى ، يريد الاعطاء حقيقة لا مجازاً لأن العبد عندهم ، كما ذكرنا ، خالق أفعاله
وأعماله حقيقة لا مجازاً والله لم يخلق من ذلك شيئاً . فالمتوكل لديهم مدعوون
مستغاثون خالقون رازقون ضارون نافعون . فهم مدعوون حقيقة ، كما أنهم ضارون
نافعون معطون حقيقة أيضاً . وليس الأمر كما يزعم هذا المصنف الخادع : أن من
قال للميت : أعطنى ، أو اشفنى أو اهد قلبى ، أو نحو ذلك ، لا يعنى إلا أن يكون
له شيئاً وسيلة وداعياً ، فإن هذا المزعم لا يماشى مذهب القوم ولا حالتهم وأصول
المعتقداتهم .

فاذا كان هذا كله صحيحاً - وهو صحيح بلا شك - فلا ريب أن دعاة ^{إذا صبح هذا}
المتوكل ضلال هلكى على مازعمه المدافعون عنهم . وذلك أنهم ، كما تقدم ، زعموا أن

دعاة الأموات والصالحين لو اعتقدوا أن من يدعونهم يضررون وينفعون ،
ويعطون حقيقة ما يسألون ، لكانوا كفاراً مشركين . وهذا الذي ذكرناه
يكنى تدليلاً على أنهم يعتقدون فيهم ولهم هذه العقيدة ، ويرون هذا الرأي
وهذا لا يخرج لهم منه ولا مفر . على أننا نحن الذين يحق لنا ويجدر بنا أن
نطالب المخالفين بالتدليل على أن العاكفين على القبور الداعين لأصحابها ،
لا يعتقدون فيهم وفيها هذا الاعتقاد . وهم المزمونون بنصب البراهين على أنهم
ليسوا كذلك . وهذا لأنه لا خلاف بين الناس أن الأقوال والألفاظ وضعت
أصالة وأنها لتدل على معانيها الحقيقية القريبة لفهم السامعين المخاطبين .
ولا خلاف أن قول القائل : يا فلان اشفني ، أو أعطني ، لا يدل حقيقة وأصالة إلا
على طلب الشفاء والإعطاء من ذلك المدعو المسؤول . فنزعم أن مثل هذا
مصرف معقول عن ظاهره وعما يفهم منه ابتداءً وأصالة هو المطالب
بالحجة والبرهان على صحة قوله وصديق دعواه ، لأنه قد ادعى دعوى لا برهان لها
ولا حجة عنده عليها ، فكان مرفوض الدعوى والقول ما لم يعززهما ويقدمهما
بالبينات الواضحة . والدعوى المجردة لا تقدم ولا تؤخر ولا تجدى شيئاً . أما زعمهم
أن القائل لذلك مسلم والمسلم لا يقول باطلاً ولا يعتقد كفرًا فما أبردها من دعوى ،
وما أبرخصه من زعم ، وما أهونه من برهان ؟ ! وقد تقدم بطلان هذه الحجة في
غضون هذا الكتاب مرات .

وماذا يقولون ؟ ونحن لا ندري لماذا يتفوه هؤلاء العاكفون على القبور بهذه الألفاظ والأقوال ، ويضرعون إلى الأموات هذه الضراعات ، ويطلبون منهم هذه الطلبات ، إذا كانوا حقيقة وصدقا لا يرونهم قادرين على شيء مما يسألون ويطلبون. وإذا كانوا يعلمون بأن الله وحده هو القادر على كل ذلك لا شريك له ولا نديد ؟ وهم إذا كانوا حقا ، لا يطلبون غير الوسيلة والشفاعة والدعاء ، كما يدعى المحللون لهم

هذه المنكرات ، فان في استطاعتهم أن يعدلوا عن هذا الذي لا يريدونه ولا يقصدونه إلى ما يعمنون ويقصدون ، فبدل أن يقول القائل منهم : يا فلان اغفر لي ذنبي أو اهد قلبي ، أو اشفني من مرضي ، يقول : يا فلان ادع الله في ليشفيني وليهديني وليغفر لي ذنوبي ، أو يقول : يا الله أسألك الشفاء والهدى بجاه فلان ووسيلة فلان وبدعائه - على أن هذا أيضا لا يجوز لدينا لما تقدم من الدلائل في فصل الشفاعة وما الذي يضطرم عن الألفاظ التي تؤدي مرادهم وتفهم غايتهم بلا احتمال ولا إيهام ولا تضليل إلى الألفاظ التي لا تؤدي غرضهم ومرادهم وغايتهم أولا يفهم منها ذلك - إلا بتأويل وتكلف وتفسير بعيد إن قبله قوم رده أقوام ، وفيه بعد ذلك إيهام واشتباه واحتمال ؟ إن من العبث والجهل والغباوة ، بل والحال ، أن تذهب إلى البواب وتطلب إليه أن يعطيك ما تريد قائلا : يا فلان أعطني كذا أو كذا ، وأنت لا تريد من قولك هذا إلا أن يوصلك ويقربك إلى صاحب الدار الذي بيده العطاء والملك والتملك وبيده ما تريد . ومن الجهل والحال الباطل أن تقصد مخلوقاً بالناس ما بلغ من التقوى والصلاح والاستقامة والقرب والزلفى من الله فتقول : يا فلان أعطني هذا القصر أو هذه الدار ، وهو لا يملك شروى فقير ، فأصدا بقولك هذا أن يدعوك الله لك وأن يشفع لديه كي يعطيك مالا يملك بل ما يملك فلان وفلان . ومن الحال والجهل أن تقول لمريض لا يملك من أسباب الشفاء قليلا ولا كثير آولا من أسباب العلاج المعتاد شيئا : يا فلان اشفني ، فأصدا بقولك هذا أن يدعوك الله في شفائك ودوائك ، كما أنه من الحال والضلال أن تقول لأعمى : اقرأ لي هذا الكتاب أو الخطاب وأنت تعلم أنه أعمى ، مريدا بقولك هذا أن يرجو فلاناً أو فلاناً ليقراً لك . فلا شك أن أحدا من العقلاء لا يفعل شيئا من هذا أبداً ، ولو وجد من يفعله لعابه الناس ولا تهيموه في عقله وتفكيره . فلا ريب أن هؤلاء الذين يتنادون الأموات ويهتفون بهم وبأسمائهم ، طالبين

لا يسأل الله الله
من لا يملك

الشفاء والغنى والهدى والسلام والنجاة وغفر الذنوب ، وهداية القلوب ، يعتقدون اعتقاداً لا شك فيه بأن من يدعوهم قادرون على ما يطلبون منهم ، مستطيعون له ، إما بتفويض الله إليهم ذلك ، على مذهب المفوضة من الشيعة ، وإما بطريق الغفلة عن التفكير في هذا المعنى وحقيقته بأن يقف بهم التفكير في هذه المسألة على أن الصالحين والمشايخ من الأموات قادرون على أن يعطوهم وأن يمنعوهم ، وأن يضرروهم وينفعوهم ، ثم لا يفكرون بعد هذا في شيء من الأشياء - أعني في معنى هذه القدرة وفي سبيل حصولها لهم .

البرهان القاطع على ذلك

والبرهان القاطع على وجود هذا الاعتقاد في نفوس القوم وعقائدهم أننا لا نجدهم يدعون الأحياء الصالحين هذه الدعوات ، ولا يضرعون لهم كل هذه الضراعات ، ولا يطلبونهم هذه الطلبات : فلم نجد منهم من يخاطب حياً قائلاً ما كان قائلاً : اغفر لي ذنبي أو اهد قلبي أو اشف مريضاً أو رد غائباً أو اقر خصماً أو انصرني على أعدائي وأمثال هذه المطالب العالية التي لا يتوجه بها المؤمنون إلا إلى الله وحده وإلى إله السماء دون أهل الأرض جميعاً . فلماذا إذن فرقوا بين الأحياء والأموات في هذه الدعوات والمطالب ؟ ولماذا فرقوا بينهم في طلب الشفاعة والوسيلة والبطا إذا كانوا لا يعنون إلا هذا ؟ فإن الأحياء يدعون ويشفعون بلا شك ، ولهم جاه عند الله وقرب لديه إذا كانوا صالحين أبراراً . ولكننا وجدناهم يخصون الأموات دون الأحياء بهذه المطالب والدعوات والضراعات ، وجدناهم يدعونهم كما يدعون الله ، ويسألونهم ما يسألونه تعالى من جليل المطالب وعظيم الحاجات ، ثم لا يلتفتون إلى الأحياء بشيء من ذلك بل سولا يعرفونهم . حين رغبتهم في هذه الآمال الكبرى ، وحين رهباتهم أمثالها من البأس والضراء . فلماذا هذا ؟ وما تأويله وسره ؟ .

المخالفون يزعمون أن المراد بذلك كله هو طلب الشفاعة والجاه والبطا

والوسيلة ، ولكن يقال لهم ، بحق : إذا كان هذا هو كل المراد والغاية فلماذا لا يقصدون الأحياء به ؟ أليس للأحياء جاه وشفاعة ووسيلة ودعاء ؟ أليس الله لا يشفع الحى الصالح ويقبل جاهه ودعاه ، كما يشفع الميت ويقبل جاهه ودعاه ؟ أليس الحى الصالح التقي قريباً من ربه عزيزاً عليه محباً له كالميت الصالح ؟ إنهم إذا وجهت إليهم هذه الأسئلة والاشكالات لم يجدوا لها حلاً ولا جواباً صحيحاً مقبولاً ولا مخرجاً أو مهرباً منها ما داموا يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون . وليس لها فى الحق والواقع من جواب وحل سوى أن يقال : إنهم فرقوا بين الأحياء والأموات فى المطالب والدعوات لأنهم قد فرقوا بينهم فى الاعتقاد والتعظيم وتوهم السلطة والسلطان : فالأموات عندهم قادرون متصرفون ضارون نافعون بشكل ومقدار لم يكونوا للأحياء قط ولن يكونوا لهم أبداً ، والأموات عندهم يقدرون على الخوارق وعلى المعجزات وعلى الهداية وغفران الذنوب وإرشاد القلوب ، وعلى إعطاء من يرون إعطاءه وحرمان من يريدون حرمانه وهم متصرفون كثير والتصرف عاملون كثير والعمل ، لا يمنعهم من العمل مانع ، ولا يعجزهم عن التصرف معجز ، ولا يحول بينهم وبين ما يريدون حائل ، لأنهم أموات ، والأموات أحرار طلقاء : طلقاء من كل قيد ، لأن الأرواح قوية جداً متصرفة جداً إذا كانت مطلقة من البدن ومن حبسه وسجنه . وأرواح الأموات مطلقة من كل ذلك : من أبدانها وأجسادها وسجونها : فهى متصرفة جداً قوية جداً فهى تُسأل كل ما يخطر فى بال السائل ، وهى تعطى كل ما تسأل إذا شاءت وأرادت . ولأنها أيضاً من عالم الغيب ، وعالم الغيب لا حد لسلطانه وقدرته وتصرفه وعمله . ولهذا كانت الملائكة والجان أقدر من الانس وأوسع سلطاناً وسلطة . ولأن الأموات أصبحوا مجهولين ، والمجهول عند الانسان أبداً محاط بالتعظيم وبأوصاف الجلال والاجلال ، وبالقدر الخارقة النادرة : فالأموات أصحاب قدر خارقة نادرة

لماذا لا يدعونه
الأحياء
كالأموات

البطل على أنه
الأموات أقدر
من الأحياء عند
الحكم

وأصحاب تصرف مطلق ، وأصحاب أعمال وشؤون لاحتادها . . أما الأحياء فانهم ليسوا كذلك ، بل هم محدودو القدرة والتصرف والعمل ، ومحدودو المعنى والمبنى . بالمشاهدة والحس والضرورة . فأين يذهب الغلو فيهم ، وماذا يزعمه فيهم ولهم . الغالون الضالون الجاهلون ؟ ولهذا فانه لم يغفل في الأحياء إلا في حالات شاذة نادرة قليلة . وكثيراً ما يكون الغالون المتغالون في الأحياء كاذبين صرائين في غلوهم وتغاليهم ، مناققين طالبين دنيا وجاهاً وخداعاً . . . وهذا يغلب على طلاب الدنيا والرئاسات والعلو في الأرض واستعباد خلق الله المساكين ، إذ قد يرى الرئيس المغلوفيه والمرؤوس الغالى الداعى إلى الغلو أن مما يجذباه به الرئاسة والدنيا إليهما أن يدعى الرئيس لنفسه الأ كاذب والأ باطل : الأ لوهية . تارة والنبوة تارة أخرى ، أو صفاتهما ، والزعامة الروحية الكاذبة الباطلة المناققة ، ثم يحاول المرؤوس تصحيح تكذب الرئيس وتصحيح دعاواه المجرمة : فيحاول إقامة الشبهات والترهات عليها وخداع الجماهير البلهاء بها . . . وبهذا التعاون الأئيم بين الرئيس والمرؤوس يتم لهما ما يريدان ويطلبان من تصاوير الدنيا وصور الزعامات الفاسقة . ويكون كل منهما ، ولا بد ، في الواقع وفي نفسه محتقراً صاحبه ، ما قنأ له مزدرياً به ، لأنه يعرفه ويعرف سريرته وما علويت حليته من نفاق وباطل وخداع وتضليل وسخف فاحش . وهذا يكون كثيراً بين رجال الطرق والتصوف والزعامات الروحية الدينية المسخولة ، وبين أصحاب التعاليم الشيطانية المضلة . ونعوذ بالله من هؤلاء جميعاً .

الحق لا يعبد
الأ نادراً

وأيضاً فالأحياء مشهود نقصهم وضعفهم واحتياجهم ، ومشهود ما يعرفهم من الآفات والمصائب ومن الأعراض والأمراض ، ومن الفقر والجوع وسائر أعراض العاجز الميهن . وهذا كله يدافع الغلو ويأباه ، وهذا كله يرى الحقيقة المرة كما هي في نفسها لا كما هي في وهم الواهين الضالين . وهذا هو الفرق بين الأحياء والأمرات ،

الأحياء مشهود
نقصهم

وهذا هو السبب في عبادة أموات كانوا في حياتهم ودينام لا يجحدون من يحنو عليهم ولا يجحدون من يجود لهم بما يحفظ عليهم أرواحهم من غوائل الجوع وعوادي الحام . ولو أنك نقبت عن تاريخ هؤلاء المشايخ المعبودين دون الله اليوم في الأرض ، هؤلاء الأموات الذين تمطر قبورهم اليوم على سادنها الذهب والفضة وصنوف الهدايا والعطايا ، ومنحهم الأعراس والأعظام وشديد التبجيل - لوجدت الكثيرين منهم كانوا في حياتهم لا يصيبون الكفاف من القوت ، ولا يجحدون من يتحدث عنهم حديث خير ، ولا من يتبرع عليهم بنظرة احترام وتوقير ولا بوجه باش ولقاء طيب . فأكثر هؤلاء المحظوظين في موتهم - إن كان مثل هذا يسمى حظا - كانوا محدودين تضاءل في حياتهم ، لا يجحدون من يعنى بهم ولا من يحترمهم ويعظمهم ويحلمهم بعض الاجلال . . . انظر ، انظر مثلا ، هؤلاء الشيعة يطالبون اليوم جميع حاجاتهم وجميع ما يرغبون فيه وما يحبون ويشتهون من آكل البيت النبوي أمثال علي بن أبي طالب والحسن والحسين وفاطمة وذرية هؤلاء الأئمة ، ويصفونهم بكل أنواع التنظيم والاجلال والاكبار ، ويصفونهم بأجل أوصاف القدرة والكمال حتى إنهم يزعمون لهم بأنهم كانوا يعلمون كل شيء ويحيطون بجميع الأسرار والحكم والعلوم ، ويصفونهم أوصافا أحلت لهم أن يدعوا بأنهم أهل لأن يسألوا غفران الذنوب وهداية القلوب ، وشفاء المرضى ، ورجع الغائبين ، ويسألوا أيضا كل ما يجوز أن يسأل الله من عظيم الرغبات وأشتات الحاجات ، وأن يدعوا أيضا بأنهم معصومون من كل خطأ : صغيره وكبيره ، ومن كل ذنب : جليله ودقيقه ، ومن كل نسيان : عظيمه وحقيقه ، ومن كل نقص وضيف ، حتى ادعوا بأن من خالف أحدا منهم ، أو من تقدم عليه ، فهو هالك ذاهب إلى النار والقاب . وحتى أصابوا قبورهم مثابة لارائحين ولقنادين وكعبة لجميع ذوى الحاجات والآمال : يقصدونها من أطراف البلاد ، يحدوهم مالا

الذين يبدون
في قبورهم كانوا
لا يعرفون في
حياتهم

يحاط بصفته من الأمل والرغبة والشوق والاحتياج ، حتى جعلوها مسفكاً للعبرات
ومعتركا للشكايات ، وملتقى للحاجات والطلبات . وحتى لقد نسي الله عندها فلم
يسم إلى السماء طرف ، ولم يبسط إليها كف ، ولم يتعلق بها قلب — : هؤلاء
الشيعة الذين ذهب بهم الغلو الباطل كل مذهب ورمام التعالى في هذا المكان
السحيق ، قد كانوا من أزهد الناس في هؤلاء الأنعمة يوم أن كانوا أحياء ، ومن أكثر
الناس إعراضاً عنهم وجفاء لهم وخذلاناً ورداً لأوامرهم وإرادتهم حتى لقد عاهدوهم
على الموت فقد موهم طعماً للموت ، ودعوهم ووعدوهم النصر والتأييد فقد موهم
للخذلان وقذفوا بهم إلى الخنوف وفروا عنهم هاربين ، بل والنضوا لأعدائهم
وخصومهم حينما قمقع السلاح وجد الجدد . . . حتى تمكن منهم أعداؤهم فأذلوهم
وشردوهم وقتلوهم فلم يبالوهم ، حتى لقد بعثها الامام على وغيره من ولده عليهم
لعنات ضمنوها كتابهم « نهج البلاغة » وغيره من كتبهم — : هؤلاء الشيعة —
وهذا ولاؤهم ووثاقهم ونصرهم لآل البيت ومقدار غيرتهم وجبهم لهم — يطلبون
اليوم النصر من على ومن الحسن والحسين وغيرهم ، وقد كان هؤلاء يوم أن كانوا
أحياء بين أظهرهم محتاجين إلى نصرتهم ومعاونتهم ، فبخلوا عليهم بها فلم يعينوهم
ولم ينصروهم !! هؤلاء الشيعة يطلبون اليوم من الحسن والحسين ومن على ما كان
على والحسن والحسين يطلبون من أسلافهم وقدمائهم ! أفليس من العجيب أن
يكون آل البيت محتاجين لنصرة هؤلاء الشيعة طالبين منهم المعونة والتأييد حينما
كانوا أحياء ثم لما ماتوا صاروا مطلوبين مدعويين للنصرة والتأييد ! فاعجب بهم
مسؤولين أمواتاً سائلين أحياء ! واعجب من قوم يسألون النصر أمواتاً كانوا
يسألونها إياهم أحياء !

إننا لا نرتاب أن عليا والحسن وفاطمة وغيرهم لو كانوا اليوم أحياء بين
أظهر هؤلاء الشيعة لما سألوهم ما يسألونهم إياه اليوم ، ولما حفلوا بهم احتفالهم !

بقبورهم ، ولما قصدوم قصدهم لأجدانهم ، ولما عظموم تعظيمهم لقبابهم ، ولما شكوا إليهم شكواهم إلى رفاتهم ، ولما عبتوا بهم ولا يعلموم ولا يغير ذلك من أحوالهم وشؤونهم وفضائلهم ، ولضنوا عليهم بهذه الأموال الطائلة التي يوجدون بها على قبورهم وعلى الزينات والمعلقات وسائر ما على مقاماتهم من مبتدعات وسخافات أبابا الدين وأوعدها عليها أليم العذاب والعقاب . ولو أن عليا نفسه كان حيا يجاهد في سبيل الله الكفار والمشركين فطلب منهم هذه الأموال التي ينفقونها على قبره وقبور أولاده لينفقها في سبيل الله وليعين بها المجاهدين في سبيل الله ، المنتصرين لدينه وشريعته لبخلوا بالكثير منها ، أو بها كلها ، ولأحجم طوائف منهم عن بذلها . ولا شك أيضاً أن هذه حال أغلب هؤلاء العاكفين على القبور من الشيعة وغير الشيعة ، أعنى أنهم يوجدون بأموالهم وعقولهم وقلوبهم وكراماتهم ودياناتهم على القبور وزيناتها ويبخلون بها على أصحاب هذه القبور نفسها لو كانوا أحياء يرونهم ويخاطبونهم ولو طلبوها منهم لبذلها في سبيل الله وتميز دينه .

والفرق عندهم بين الأشياخ والأولياء أحياء وأمواتا أنهم في الحياة يعلمون من اللزوم
الاحياء
والاموات
وهم الجاهل
أنهم عاجزون فقراء محتاجون إليهم وإلى عونهم ولصرم وتأيدهم . . . فيبخلون
عليهم بأموالهم وأنفسهم لأنه لا طائل يمتنعهم ولا سر ولا غيب فيهم ، ولا قدرة نافذة غالبية ولا شيء من ذلك في الحياة ، بل هم مثلهم محدود والقدرة والتصرف والعمل والفعل . فلا خير في رجائهم والانتفاع إليهم . . . وأما بعد مماتهم فانهم قد أصبحوا أغنياء عنهم وعن مالهم وعن صدقاتهم وندورهم وهداياهم وأنفسهم وعن كل دنياهم ، لأنهم قد أعطوا الشيء الكثير من القوة والتصرف والسلطة والسلطان والغنى الواسع الدائم . . . فصاروا هم محتاجين إليهم وإلى عطاياهم وارفاقهم ، فراحوا يسألونهم ذلك ، وراحوا يدعونهم في السراء والضراء ، في

المحضر والمغيّب ، الليل والنهار ، وراحوا يجودون على قبورهم وأجدانهم بما
يخلو به عليهم وعلى حياتهم ، وبما يخلوا به على الله وعلى دينه وسبيله . وذلك
أنهم يعطونهم في الممات ليأخذوا منهم أضعاف ما أعطوهم . ومن السهل اليسير
على طبع الانسان الشحيح أن يعطى المخلوق شيئاً ليأخذ منه أضعاف ما أعطاه
وأما من أعطى الأحياء الذين أمر الله بأعطائهم فهو لا يرجو أن يأخذ إلا من الله
وحده يوم الدين وأحياناً في الدنيا . ولهذا يكبح عن الانفاق في هذه السبيل
ويضن بماله عليها ، لأن الانسان الشحيح اللئيم قد طبع على استبعاد جزاء الله
وثوابه وإن كان به . مؤثماً مصداقاً . فهم ما أعطوا الأموات أموالهم وأوقاتهم
ولا جادوا عليهم بكراماتهم وأنفسهم إلا رجاء أن يأخذوا منهم هم جزاء ذلك
لا من الله ، وليعطوهم هم ليعطيهم الله ، وإلا لو كانوا يريدون الله وجزاءه ورضاه
وثوابه بهذا الذي يصنعونه لجادوا على الأحياء الصالحين وعلى المجاهدين في سبيل
الله ، ولجادوا على إسعاد الانسانية المعذبة الشقية ، وعلى إسعاد المسلمين الأشقياء
التعساء ، فأنفقوا على بناية المدارس والمصحات وملاجئ الفقراء المعوزين وسائر
هذه الوجوه الخيرية الطيبة .

لنقم ولنصح بملء شديك حيث يسمعك الصباح والنداء في أفواج هؤلاء
الما كفين على القبور ، الباذلين لتشييدها وعمارتها حر أموالهم وغاليها بسخاء
ورضا واندفاع : صح فيهم ما وسمعك الصباح ، وقل لهم هذه فلسطين المنكوبة
المجاهدة في سبيل الله وسبيل الانسانية أعداء الله وأعداء الانسانية والمدنية
— أعني الإنجليز وحلفاءهم البغاة الطغاة الكذبة الفادرين — أوهذه سوريا المنكوبة
أو هذا المغرب المنكوب ، أو هذا ماشئت من أوطان الاسلام المنكوبة المعذبة —
أو قل لهم : هذه طوائف فقراء المسلمين من الأيتام والأرامل والمجانين ضائعين
في الطرقات العامة ، منبوذين على الأرصفة وأفواه الشوارع عراة جوعاً ، تتخطفهم

ينفقون على
القبور ويأبون
الانفاق في
سبيل الله

عصى الشرطة ولعنات حفظة الأمن والنظام : - هاهم لا يجدون مأوى تؤويهم إليه
قحمة الليل ويسوقهم إليه حر الصيف وقر الشتاء ، ولا يصيبون خبزاً جافاً حافاً
ولا يجدون غير اللعنات المرسلة على أعراضهم ، وغير السياط المنطلقة إلى أكتافهم
وظهورهم - أو قل لهم هذا بلد كبير بلا مسجد وبلا مدرسة وبلا عالم يعلمهم
الضروري من الاسلام والدين ، أو هذا مسجد لاماء فيه ولا نظافة ولا جمال -
أو قل لهم غير ذلك واذكر سوى ما ذكرت من وجوه النقص والضعف في
المسلمين ، وانظر بعد ذلك هل يندى منهم كف ، أو يتألم لأحد منهم ضمير ، أو
تحصل منهم على طائل ؟ لا ريب أنك لن تجد لدى أكثر هؤلاء سوى تحريك
الشفاه عبارة الامتناع الرسمي الظاهر ، وهز الاكتاف هزاً آلياً موروثاً ، ثم
منح الأقفاء في النهاية .

أما الأموات وقبورهم ومشاهدتهم فانهم ينتقون عليها ويبذلون لعمارتها
أفضل أموالهم وأطيبها لا يحتاجون إلى نصيحة ، ولا ناصح ، ولا إلى عظة أو
واعظ : لا يحتاجون إلى شيء ، بل ترام يترا كضون إلى ذلك جحرين جياذ
الجلود والسكرم ، ولو وقف أهل العلم كافة في وجوههم وسبلهم ينهونهم عن هذا
ويذكرون لهم أن دين الله برئ مما يفعلون ، وأن الاسلام غنى عنهم وعن
بدعهم . فما هذا يا صاح ؟ ما هو والله إلا الدليل القاطع على أن قلوب القوم قد
طويت على تأليه الصالحين الأموات ، وعلى عبادة قبورهم وأجدانهم وعلى الغلو
المنكر الآثم . والله العليم بذوات صدورهم وبما احتملت من ضلال وشرك
وخروج على الصراط المستقيم .

وليكن هذا آخر التدليل على بطلان دعوة الأموات . والمقام يتسع لأكثر
مما ذكرنا . ولكننا أحياناً نوجز ونختار الانلال على الاكثر .

﴿ تاختيص شبهات الرافضى على دعوة الأموات ﴾

أما شبهات الرافضى على جواز الاستغاثة بالموتى وجواز دعائهم فهي تتلخص
 في ما يأتي : بجمال شبهاتهم
على جواز دعاء
الأموات

أولاً - : أن المسلم إذا استغاث الميت كأن قال مثلاً : يا فلان اغفر ذنبي
 أو اهد قلبي وجب أن يقال إنه كلام صحيح حق ، وإنه مجاز عقلي ، لأننا
 مطالبون أبدأً بأن نحمل أفعال المسلمين وأقوالهم على الصحة والصواب ما وجدنا
 إلى ذلك سبيلاً . والمجاز العقلي جائز وارد في كلام العرب وفي كتاب الله وفي
 السنة النبوية كما في قولهم : بنى الأمير المدينة ، وأنبت الربيع البقل ، وكما في قول
 الله « فارزقهم منه » وقوله : « لو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا
 الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله » ، وكقوله : « وما تقدموا إلا أن أغناهم الله
 ورسوله من فضله » ، وكما في قوله عن عبده ونبيه عيسى بن مريم عليه الصلاة
 والسلام : « إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن
 الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله » . . . على أن يكون
 حقيقة دعاء غير الله من الأموات وغيرهم طلب الشفاعة والدعاء . فيكون قول
 القائل : يا رسول الله اغفر ذنبي ، ويا جيلاني أو يا علي بن طالب اهد قلبي مراداً
 به : كن شافعياً لي عند الله في غفران ذنبي وهداية قلبي . وقد جاء مثل هذا
 المجاز وهذا الطلب عن أصحاب النبي عليه السلام . فجاء أن أحدهم قال يا رسول الله
 أسألك مراقبتك في الجنة . وسؤاله المرافقة في الجنة مثل سؤاله غفران الذنب
 وهداية القلب .

ثانياً - : قد روى البيهقي وابن أبي شيبة عن مالك الدار خازن عمر بن
 الخطاب قال : أصاب الناس قحط في عهد عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبي
 فقال يا رسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله في المنام

وقال انت عمر واخبره أنهم مسقون .

ثالثاً - : قد نص القرآن الكريم على أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والأنبياء أولى بالحياة من الشهداء بالاجماع . والأحياء يصح دعاؤهم بلا خلاف .
رابعاً - : قال : إن المسلمين ما زالوا ، سلفاً وخلفاً ، يستغيثون بالأنبياء والصالحين . قال السهمودي : إن الاستغاثة بالنبي عليه الصلاة والسلام من فعل الأنبياء والمرسلين والصالحين .

خامساً - : إن جماعات من العلماء ، كما ذكر السهمودي ، قد استغاثوا بالنبي عليه السلام وبقبره فنالوا ما طلبوا وسألوا كما في الحكايات السابقة .

سادساً - : روى ابن السني عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد : عباد الله احبسوا ، فإن الله عباداً يجيبونه » وفي حديث آخر رواه الطبراني أنه عليه السلام قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينوني - وفي رواية - أعينوني فإن الله عباداً لا تروهم » .

سابعاً - : قال في خلاصة الكلام : صح عن بلال بن الحارث أنه ذبح شاة فوجدتها هزيلة فصار يقول : وامحمداه ، وامحمداه . وصح أن أصحاب النبي عليه السلام لما قاتلوا مسيلمة كان شعارهم : وامحمداه . وفي الشفا أن عبد الله بن عمر خدرت رجله فقيل له اذكر أحب الناس إليك فقال : وامحمداه ، فانطلقت رجله . هذه هي حجج الشيعة على جواز دعاء الأموات والاستغاثة بهم .

﴿ نقض هذه الشبهات ﴾

أما الشبهة الأولى وهي زعمه أن كل أقوال المسلم وكل أفعاله يجب أن تحمل الحمل الصحيح ، وأن تفسر التفسير الصحيح الذي لا يضر إيمانه وإسلامه ، فالجواب أن يقال : إننا قد قدمنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن هذا الزعم

إبطال شبهات
المتخالف إبطاله
الأولي

رغم غير صحيح لا عقلاً ولا شرعاً ، وقدمننا أنه من غير الدين والعلم والعقل القول بأن كل ما يصدر من مدعى الاسلام صواب لا خطأ فيه ولا إثم ولا ضلال ، وأنه من غير الدين والعقل والعلم القول بأنه جائز للمسلم أن يتلاعب بألفاظ الكفر والردة والضلال وفساد الاعتقاد ، على حساب المجاز والتأويل وادعاء الاسلام ، وإنه من غير الدين والعقل والعلم القول بأنه واجب علينا أن نؤول جميع أقوال من ادعى الاسلام وإن كانت ظاهرة في الكفر وخراب الدين ، فنقول ، على رغم ذلك كله : إن جميع ما قال وجميع ما يقول حق وإيمان وإسلام وهدى ، وإن كل ما خالف هذا في الظاهر محمول على المجاز والتأويل والتفسير . وقد قدمنا أنه لو كان هذا المذهب صحيحاً لما صحمت مناقشة مسلم ولا تخطئته ولا لومه ولا جداله ولا نصحه لقول يقوله ، ورأى يبيديه وعقبته يلتحلها ويتبعها ، وأخطاء يدونها ويظهرها . . . وذلك أن كل ما يصدر من المسلم يجب أن يؤول له على هذا المذهب الباطل والزعم المنحول . فكل ما يقوله مما يوم الشرك والكفر يجب أن يقال : إنه اسلام وإيمان وتوحيد ، وكل ما يقوله مما يدل على الخطأ والضلال يجب أن يقال إنه صواب وهدى ، وكل ما يقوله مما يشعر بالخبط والفجور يجب أن يقال : إنه طيب وصالح وتقوى ١١ فحق إذاً تصلح مناقشة المسلم ولومه وتخطئته وعذله ونصحه ؟؟ وأى مسلم ، حيلثه ، يصح لمسلم آخر أن ينازعه أو يناقشه أو يجادله ؟

لا شك أنه لو صح هذا الذى ذكره وزعموه لكان كل ما يقوم بين طوائف المسلمين من المناقشات والمساجلات والمجادلات والمنازعات فى الآراء والمقائيد باطلاً وخطأً وضلالاً ، وإذا كانت هذه المناقشات والمنازعات كلها باطلة وضلالاً كان أصحابها ضالين مبطلين ، وفى هذا طعن على المسلمين . فالطعن عليهم واقع ولا محالة ، وهو خلاف ما زعموا من إبعاد من ادعوا الاسلام عن

بطلان وجوب التامل لكل من ادعى الاسلام ودلائل ذلك

المطاعن والمقادح والأخطاء . ثم إذا كان هذا صحيحاً عندهم فما يقولون في أقوال مخالفينهم ؟ أثبتون على زعمهم هذا ، فيقولوا : إن جميع ما يقولونه ، مما ظاهره الباطل والضلال ، صحيح مؤول لهم لأنهم مسلمون ؟ أم يتناقضون فيخطئون ويندمون ويمرحون ويبرحون فيهم المزاعم ؟

إنه لو كان صحيحاً هذا الذي ذكره من وجوب التأويل لكل مسلم لوجب عليهم التأويل لمخالفينهم ، ولكنهم لم يؤولوا لهم . ولو صح أيضاً لقفل باب الردة ولما أمكن الحكم على مسلم بالكفر والارتداد . وهذا خلاف الإجماع والضرورة . ولو صح هذا أيضاً لوجب عليهم أن يؤولوا لنا جميع ما كتبناه في كتابنا هذا من الرد عليهم والنقض لمذاهبهم ، ولكان واجباً على هذا المصنف الشيعي وعلى إخوانه أن يشتغلوا بتأويل كتابنا هذا وبتطلب الخارج الصحيحة له وبمحملة كله على أنه ثناء عليهم وتسبيح بمحمد واعتراف بجلال أعمالهم وآثارهم في الاسلام . وهذه أضحوكة الأضاحيك . ولو صح هذا أيضاً لوجب إحسان الظن بأفعال المسلمين ووجب تطلب التأويل الحسنة الفاضلة لها ، فمن رأى منهم في حانات الخمر ، وبيوت الفجور ، وجب أن يحسن به الظن وأن يقال إنه لا يريد إلا الدين وطاعة الله وإلا نصرة الاسلام والدعوة إليه وإلى آدابه وعلوه ! ومن قتل منهم المسلمين وضربهم وأخذ أموالهم وتناول أعراضهم وأحسابهم بالأذى والزور وجب أيضاً أن يحسن به الظن وأن يقال إنه لا يريد غير نأديهم وحملهم على الجادة الواضحة والسبيل المسلوكة المستقيمة : وهكذا يجب أن تلتبس أمثال هذه التأويل والتفاسير لكل ما يفعله من يدعى الاسلام ومن يقول إنه مسلم ومن وضع اسمه في عداد المسلمين وعداد أسماء مواليهم . ولو صح هذا أيضاً لوجب التأويل لغير المسلمين وإحسان الظن بهم . ذلك أنه قد صح في الاسلام وصح عند المسلمين أن كل مولود يولد على الفطرة . والفطرة

التأويل لغير
المسلم إحساناً
لظن

هي الايمان الصحيح بالله وإنكار الشرك والشركاء كما قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » الحديث وفي حديث آخر قد سئ : « خلقت عبادى حنفاء - وفي رواية مسلمين - فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم » وكما قال الله في كتابه : « فاقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » فالأصل في جميع الناس أنهم ولدوا مؤمنين بالله برءاء من الشرك والوثنية وعبادة غير الله كما في هذه النصوص ، حتى يأتيهم ما يغير إيمانهم ودينهم وإسلامهم ، ولكن يجب على هذا الأصل الذي ذكره هؤلاء الناس أن يبقى على الأصل أيضاً فيهم أى في المشركين إحساناً للظن بهم وبقاء على الأمر الأول والفطرة الأولى التي فطرهم الله عليها . وإحسان الظن بهم يوجب التأويل لهم ، والتأويل لهم معناه أن يحمل كل ما يصدر منهم من الأقوال والأفعال الموهمة للكفر والإشراك وعبادة غير الله على الايمان والاسلام والهدى وعبادة الله وحده ، فإذا وجد منهم من يستغيث بالسيد المسيح وبأمه ، ويدعوها قائلاً : اغفرا لى ذنوبى وأهدنيا قلبى ، قيل إن ذلك القائل مؤمن بالله إيماناً صحيحاً حقاً لم يقل قولاً باطلاً ، ولم يشرك بربه شيئاً ، ولم يعبد سواه - إحساناً للظن به وبقاء على الأمر الأول وعلى الفطرة الأولى المؤمنة الموحدة ، ومن روى منهم يقبل الصليب ويركع أمامه ويسجد فوقه ، ويدعو ويروح إلى الكنائس والببيع أول له أيضاً وأحسن الظن به ، وزعم أنه مسلم حقاً ، مؤمن حقاً ، وأنه باقى على فطرته الصحيحة الأولى ، لم يغيرها ولم ينلها بأذى من الشرك والضلال والفند ، وهكذا يذهب ويقال فى كل باطلة من باطلات الشرك والضلال والغوايات .

ولو صح هذا أيضاً لكان واجباً على الأنبياء الذين بعثوا للدعوة إلى الله وإلى عبادته وحده ونسيان ماسواه أن يؤولوا لأقوامهم وأن يحسنوا الظن بهم

لماذا لم يؤول
الأنبياء
لأقوامهم

وأن يحملوا جميع ما كان يصدر منهم من الشرك وأفعاله وأقواله على المجاز والتأويل فراراً من إكفارهم والحكم عليهم بالردة والضلال : فكان واجبا عليهم ، لهذا ، ألا يسموهم بسمات المشركين الكافرين ، وألا يقولوا لهم : إنكم تعبدون غير الله ، وإنكم كافرون مشركون تعبدون الأصنام والأوثان ، وألا يستحلوا ، إذن ، قتالهم ودماءهم ولا الدماء عليهم بالهلاك العاجل العام والموت الناجز الشامل . بل كانت واجبا عليهم أن يقولوا لأقوامهم : إنكم مؤمنون صالحون موحدون ، لا تريدون الشرك بالله ولا عبادة غيره كما قال هؤلاء في عبدة الأموات العاكفين على الاجداث أو على الأقل كان واجبا عليهم - متى على الأنبياء - أن يسألوهم عن قصدهم ومرادهم بأقوالهم وأفعالهم التي ظاهرها الشرك والكفر ، فلا يهجموا عليهم بالإكفار واستحلال القتال والدماء ، ولعلمهم إذا سألوهم عن قصدهم تبين أنهم مسلمون وأنهم غير مشركين ولا كافرين ، ولعلمهم يقولون مثل ما يقول عبدة القبور الصالحين اليوم : إننا نعلم أن الله وحده هو الخالق الرازق ، وأنه هو الموجد لكل شيء في الأرض أو في السماء حتى هذه الأنصاب التي نقصدها وندعوها ونتوسل بها ونرجوها للشفاء والعافية والتقريب إلى الله ذلتي . بل لعلمهم كانوا يعرفون المجاز العقلي وغيره من ضروب المجازات ، ولعلمهم كانوا يذهبون إليه في عباداتهم وأقوالهم وأدعيتهم ونداءاتهم واتصالهم بالله ربهم ، ولعلمهم أيضاً يقولون : إننا جاهلون بالالفاظ وبما يراد بها وبما وضعت له ، وإننا نفهم منها خلاف ما يفهم غيرنا وخلاف ما تفهمون منها أنتم أيها الأنبياء والمرسلون : فنحن لا نريد بدعائنا هذه الأنصاب والأصنام والعكوف عليها والضراعات لها والانتطاع اليها إلا أن تصلنا بالله وتقربنا إليه وتشفع لنا لديه ، ونحن لا نريد أيضاً بهذه الأنصاب والأصنام إلا أن تربطنا بأنبياء لنا وصالحين كانوا فينا يدعوننا إلى عبادة الله وإلى الخير والبر ، وينودوننا عن الشرك والكفر والشرور وسائر الآفات لخلقنا

والاعتقادية . وإلا فنحن نعلم أنهم مخلوقون لله خاضعون له ، واقعون تحت سلطانه وقهره العام الشامل . فنحن موحدون لله غير مشركين به شيئاً ونعوذ بالله من الشرك وأسبابه ، ونعوذ بالله من أن نعبد معه أحداً وهو رب كل شيء خالق مافي السموات ومافي الارض ، وخالق كل شيء : لعلهم إذا سئلوا عن قصدهم بمظاهره الكفر والشرك يقولون هذا ويفسرون هذا التفسير ، كما يقول عبدة المشايخ والأولياء اليوم إذا سئلوا عما يعنون بهذه المنكرات ، على ما يزعم لهم هؤلاء المخالفون المدافعون عنهم وعن ضلالهم وغيهم . وهم إذا قالوا هذه الأقاويل ، وأولوا هذا التأويل كانوا غير مشركين ولا كافرين ، بل كانوا من خيار المسلمين الموحدين على زعم هؤلاء المخالفين المؤولين المحرفين .

ولكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يفكروا في هذا المعنى ولم يذهبوا إلى ما ذهب إليه هؤلاء الناس من إحسان الظن ومن مذاهب التأويل والمجازات . فهل هؤلاء خير من أنبياء الله وأفطن منهم إلى هذا المعنى الجليل وأحرص على دماء المسلمين ؟

وبالجملة لو صح هذا الذي ذكره من أنه واجب أن يؤول لكل من ادعى الاسلام أقواله وأفعاله لا يمكن التأويل لكل أحد ولو سعه كل كلام في الدنيا ، ولما أمكن أن يحكم على مسلم ما ، بل على أحد ما ، بخطأ أو ضلال أو كفر وإشراك ، وهذا لا يقره إنسان ولا يقبله مسلم . وكيف يصح هذا التأويل والمذهب الذي ذكره فيه وقد قال رجل لرسول الله عليه الصلاة والسلام : ما شاء الله وشئت ، فقال رسول الله : « أجعلتني الله ندا ، بل ما شاء الله وحده » . وقد كان التأويل ممكناً لهذا القائل . وقال جماعة من المسلمين لرسول الله وقد مروا بقوم من المشركين يمكفون على شجرة يتبركون وينوطون بها أسلحتهم : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ! ففضب رسول الله لهذه

لو صح هذا
التأويل لا يمكن
في كل كلام

أخبار لم ينظر
فيها إلى التأويل

المقالة وقال : « الله أكبر إنها السنن ! قلم والذي نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » . وقد كان التأويل ممكنًا مستطاعاً لهؤلاء المسلمين القائلين . وقام خطيب يوماً بين يدي رسول الله وقال : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقل له رسول الله : « بئس الخطيب أنت ! قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . وقد كان التأويل لهذا الخطيب أيضاً ممكنًا مستطاعاً . وقد قال قائلون يوماً أمام رسول الله : « وفيما نبي يعلم ما في غد ! فأنكر ﷺ هذه المقالة على قائلها وردّها عليهم . وقد كان التأويل ممكنًا مستطاعاً . وقد حلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ورسول الله يسمع بأبيه ، فأنكر عليه ﷺ حلفه وقال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت » . وقد كان التأويل ممكنًا مستطاعاً أيضاً . وقال ﷺ : « من حلف بالللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » . وقد كان التأويل لمن قال ذلك من المسلمين ممكنًا مستطاعاً . وقال قائل من المسلمين له عليه الصلاة والسلام : « يا نبي الله ، نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ! فنضب رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال : « شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » . وقد كان التأويل ممكنًا مستطاعاً ؟ كلا إن التأويل المطلق لا يمكن أن يجوز الذهاب إليه . فهذا الذي ذكره وزعموه كاذب باطل .

كيف يؤولون لكل
أحد وقد ضاق
التأويل من
أصحاب النية
عليه السلام

ولا ندرى كيف يدعون هذه الدعوى وكيف يزعمون أن التأويل لكل من ادعوا الاسلام واجب مطلوب وقد ضاق نطق هذه التأويل والمجازات - وقد وسع الجهلاء كلهم عندهم - عن خيار الأمة وعن صحابة النبوة وعن كل مسلم لم يكن شيعياً إمامياً اثنا عشرياً : فقد ضاق هذا النطاق عن صحابة رسول الله وعن الخلفاء الراشدين وعن جميع بنى العباس وبنى أمية وعن غيرهم من ملوك أهل السنة وسوقهم . فنالوهم جميعاً بالأكفار والاضلال والتجريح والانهام المر

المفتنع . وقد كان من الميسور الممكن لو كانوا صادقين في ما يدعونو يقولون في هذا التأويل والمجاز أن يؤلوا للمسلمين تلك الأمور التي آخذونهم بها ، ويؤولوا لأبي بكر وعمر وعثمان وعمر بن العاص وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعائشة وحفصة وأم حبيبة والآخرين ما حسبه عليهم من المآخذ والملاوم المعتجرة المزورة . . . ولكن القوم لم يصدقوا لا في هذا ولا في ذاك . وإلا لو صدقوا لعلوا أن التأويل الذي يسع هؤلاء الجهلاء المغفلين الطائفين بالقبور والأجداث يدعون ويناديون ويصرخون ويشكون ويشتكون لا يمكن أن يضيق عن صحابة رسول الله من الأنصار والمهاجرين وعن غيرهم من أركان الأمة وبناء الشريعة .

أما قول الشيعي إن المجاز العقلي جائز وارد في كلام العرب وفي كتاب الله فنقول في الجواب : نعم وإن كان وارداً جائزاً في الكلام العام وفي الكلام الخاص فإنه لا يجوز في ما يتناول الاعتقاد وما يشعر بفساد الدين .

فساد المجاز في
دعوة الأموات

ثم لو كان هذا المجاز جائزاً ، إطلاقاً وإجمالاً ، فيما يتناول الاعتقاد وفي ما لا يتناوله ، لكانت دعوة الأموات من المجاز الممنوع الذي لا يجوز ، إذ لا خلاف في أن من المجاز ما لا يصح استعماله وما لا يجوز الذهاب إليه ولا القول به .

ثم لو كان كل مجاز يصح استعماله والذهاب إليه والقول به ، في الاعتقادات وفي غيرها ، لكانت دعوة الأموات من غير المجاز للدلائل السابقة ، ولكانت من الحقائق الواضحة في فساد دين صاحبها واختلال اعتقاده . ثم لو لم تكن دالة على ذلك ، بل لو لم تكن دالة على شيء من الأشياء ، لكانت هي بلفظها وظاهرها من ألفاظ الضلال والشرك والارتداد . ولا خلاف بين الناس أن من الكلام ما هو كفر وما قائله كافر مرتد وإن لم يقصد به عقيدة من العقائد

ولا نوعاً من أنواع الضلال. ولو أن مسلماً طعن في الله أو في عدله وأحكامه وقضائه أو في كتبه وأنبيائه ودينه لكان مرتدّاً عند جميع المسلمين وإن كان لا يقصد بما قال إلا إضحاك الحاضرين والمزاح والتفريخ ، أو نحو ذلك مما قد يكفر به كثيرون من المجان وسوقة الناس . وإننا نأبى كل الإباء أن تكون دعوة الأموات مجاراً مراداً بها غير ظاهرها ، ونأبى كل الإباء أن يكون دعاة الأموات يريدون هذا المجاز العقلي انذى لجأ إليه هؤلاء المخدوعون الخادعون لعباد الله المضالون لهم ، ونأبى كل الإباء أن يكون قول القائل : يا على أو يا حسين ، أو يا عبد القادر الجيلاني ، أو يا بدوي ، أو يا رسول الله ، أو يا فلان أو فلان : أعطى أو اشفى أو اغفر ذنبي أو اهد قلبي ، يمكن أن يراد به غير الطلب الحقيقي حقيقة ونصاً .

المجاز في قولهم
أثبت الربيع
البقل وجوابه

أما قول الناس : أثبت الربيع البقل أو أثبت الماء العشب ، فهو ، إن كان مجازاً كما زعموا ، فليس كدعوة الأموات يقيناً . وذلك أن الماء والربيع - مثلاً - لا يمكن أن يعتقد أحدهما اللذان ينبتان العشب والبقل إلا أثبات الحقيقي المراد هنا . أما الأموات ، أما الأنبياء والصالحون والبشر فيمكن أن تعتقد فيهم الشراكة لله ، ويمكن أن يعبدهوا ويؤلهوا ، بل هذا هو الواقع المشهود المنظور . فإذا وجدنا من يدعو الأموات من الأنبياء والصالحين ، أو يدعو الملائكة والجان ، لم نجد مانعاً من أن نعتقد أن ذلك الداعي مشرك بالله . وأنه يعبد هؤلاء الذين يدعومهم من دون الله ، وأنه يرى أنهم يعطون حقيقة ما يسألهم وما يسألهم سواء من المشركين بربهم . أما إذا سمعنا من يقول : أثبت الربيع البقل والماء العشب فلا يمكن أن نعتقد أن قائل هذا يشرك بالله ويعبد الربيع والماء ويرى أنهما إلهان ينبتان حقيقة ... فكان المجاز في مثل هذا ظاهراً لا شك فيه ولا خلاف .

والدليل على صحة ما ذكرناه أننا نجد فرقاً بين قولنا : أنبت الربيع البقل والماء العشب ، وبين أن يقال إن الطبيعة خلقتنا ، أو الشمس هي التي تخلق الخلق وهي الرازقة ، والمحياة المميتة لهم . فان من قال هذا عد ضالاً . مفترياً بالاجماع والضرورة . وكذلك من قال : إن الملائكة هم الذين يخلقون الناس ويرزقونهم ويشفونهم ويفنونهم ، وهم الذين يغنونهم ويوجدون لهم جميع ما يحتاجون إليه في الأرض أو في السموات ، عد ضالاً . مفترياً . وكذلك من قال : إن محمداً أو عيسى أو موسى أو غيرهم من الأنبياء هم الذين خلقوا السماء أو خلقوا الأرض أو خلقوا البشر أو خلقوا الجنة والنار والقيامة أو نحو ذلك عد ضالاً . مفترياً جاهلاً بلا نزاع . ولكن من قال : أنبت الربيع البقل والماء العشب لم يعد ضالاً ولا قاتلاً منكراً . لأن قوله هذا لا يدل على عقيدة فاسدة ولا رأى ضال لظهور المراد منه .

ويوضح فساد ما زعموا أنه لا يصح أن يقول مسلم : إن محمداً رسول الله أو إن أباً بكر أو عمر أو علياً أو غيرهم من الأموات يلبثون البقل والعشب . وينزلون المطر والغيث ، أو يسوقون السحاب ويفيئون البلاد والعباد . مع أنه يصح أن يقال : إن الربيع ينبت البقل والعشب ، وإن الرياح تسوق السحاب وتحمل الغيث والماء ، وإن السحاب يفيث العباد والبلاد . . . فلماذا صح هذا ولم يصح هذا وكلاهما مجازي ما زعموا ؟ إن المخالفين إذا عرفوا هذا جيداً عرفوا الفرق البين بين قول الناس : أنبت الربيع البقل وبين دعوة الأموات وسؤالهم أفعال الله ، وعرفوا أن هذا يجوز وذاك لا يجوز بلا غرابة ولا إشكال .

وأيضاً هنالك فرق بين دعوة الميتين وبين قول الناس أنبت الربيع البقل والماء العشب . ذلك أن الأول طلب والثاني خبر ، وبين الأمرين فرق حقيقي عظيم معروف ، وليس كل ما جاز إخباراً جاز طلباً . والدليل على هذا الفرق الواضح أنه صح أن يقال أنبت الربيع البقل والماء العشب ولم يصح أن

يوضح فساد ما زعموا

فرق بين الاخبار والطلب

يقال : يا ربِّع أنبت البقل ، ويا ماء أنبت العشب - على أن يكون طلبا كالطلب في دعاء المشايخ والصلحين من الأموات . وإذا كان هذا المثل الواحد يجوز اخباراً ويمنع طلباً وإنشاء فكيف يستدلون بالمثل الاخبارى على مثل آخر طلبى إنشائى ؟ ومثل هذا أن الناس يقولون : أروانا الماء وأشبعنا الطعام ، ولسكنهم لا يقولون : يا ماء أرونا ، ويا طعام أشبعنا . ومن قال هذا عد سخيفاً أو ذاهباً مذهب المتجوزين المازحين المتلاعبين بالكلام والألفاظ . والفرق بين النوعين : الكلام الاخبارى والطلبى الانشائى ظاهر واضح . ذلك أن المخبر ليس طالباً ولا راجياً ولا ضارعاً ولا مؤملاً ذالاً ، بل هو ملق بالخبر كما هو أو كما يبدو له . أما الطالب كطالب المشايخ والصلحين الميتين فإنه راج ضارع خائف ذليل في طلبه ، خاشع فيه مؤمل أن ينال به شيئاً وأن يدرك به مطلوباً وحاجة من الحاج ، معتقد بأن طلبه ينفعه وأن تركه يضره ، أى يفينه شيئاً وهو ما يرجو نيله بطلبه ، ولهذا فإنه يطلب ويدعو لينال ويدرك ، ثم يخضع في طلبه ودعائه وينذل ويخاض ويخضع ليكون أقرب إلى نيل ما رغب فيه وما احتاج إليه . . . وهذه المعانى هى خلاصة معانى العبادة . أما المخبر القائل : أنبت الربيع البقل والماء العشب فليس فى إخباره شئ من هذه المعانى . فالمسوى بين الأمرين مصاب فى أعز شئ لديه . وأيضا القائل للميت مثلاً : اغفر ذنبى أو اهد قلبى يستطيع أن ينطق بحقيقة ما يطلب وحقيقة ما يريد . فيستطيع أن يقول : يا فلان اشفع لى عند ربك أو ادعه لى ليغفر ذنبى ويهدى قلبى . وهذا هو حقيقة ما يطلبه ويقصده دعاة الموتى على ما يقول المدافعون عنهم . فما الذى جعل هؤلاء الضلال يعدلون عن حقيقة الكلام إلى مجازة ؟ ولماذا لا ينطقون ويصرحون بما يعنون ؟ إن كانوا يريدون البلاغة فلا ريب أن هذا الذى ذهبوا إليه لا بلاغة فيه ، وإن كانوا يعتقدون أن هذا أقرب إلى الاجابة وإدراك المستول فهذا هو

الغفلال والنجبال وسوء الاعتقاد . فلا شك أنهم ما قالوا إلا ما اعتقدوا وما أجنوا في ضمائرهم ، ولا شك أن الذي اعتقدوه وأجنوه هو أن المشايخ يعطون ويقدرّون على الاعطاء والمنع والضر والنفع حقيقة .

ماذا يقال لو لم
يقول هذا

أما القائل : أنبت الربيع البقل وأمثاله فإذا يقول لو عدل عن هذا التعبير وما القول الذي يؤدي الغرض سواء ؟ أيقول : أنبت الله البقل بالربيع ؟ إن هذا القول ركيك مع ما فيه من إيهام في الظاهر لا يقل عن الإيهام في أنبت الربيع البقل . ذلك أن الباء في مثل « بالربيع » تشعر بالسببية والاستعانة ، فيشعر قول القائل : أنبت الله البقل بالربيع أن الله قد خالق البقل وأوجده بسبب الربيع مستعيناً به ، كما يقال قطعت بالسكين أو بالسيف ونحوه . والله منزّه عن أن يستعين بشيء وأن يحتاج في فعله وخلقه وشأنه إلى سبب من الأسباب . ولأجل هذا كان اختيار هذا التعبير على قول الناس : أنبت الربيع البقل اختياراً مرغوباً عنه لأنه إذا كان في هذا التعبير محذور وإيهام كان في ذلك التعبير من المحذور والإيهام ما هو أشد وأوضح . ولنا نزع أن في مثل هذه العبارة : « أنبت الله البقل بالربيع » الآن إيهاماً ومحذوراً ، وأنه لا يجوز استعمالها لذلك ، كلا ، وإنما نقول : إنه إذا كان في العبارة الأخرى إيهام ومحذور كانت هذه العبارة أكثر إيهاماً ومحذوراً ، فلا معنى إذن لترجيح هذا التعبير على التعبير الذي ذكره وزعموه مجازاً . وإذن فليشار هذا على هذا باطل مرغوب عنه .

أم يقول مثلاً : نبت البقل ؟ إنه إذا قال هكذا لم يخرج قوله عن حدود المجاز وعن منطقة الإيهام . ذلك أنه من غير الحقيقة أن يرمز مثل هذا الفعل الذي هو « نبت » إلى البقل إذا لم يكن من الحقيقة عزو الانبات إلى الربيع فالمجاز باق موجود في عزو الفعل إلى البقل نفسه ، فالمعقول عن التعبير به لا يصنع شيئاً . فإذا يقول من يريد الاخبار عن معنى الجملة المذكورة إذا رغب عنها هي ؟

حقيقة هذا المجاز
عنها لا يجوز

ويقال أيضاً إن الحقيقة التي زعموها في دعوات دعاء الأموات حقيقة لا يصح سؤالها من الموتى حتى ولو صرح بها وعدل عن مجازها. فإن الحقيقة التي ادعوا أن الهاتفين بالصلحين والأموات يريدونها هي طلب الشفاعة والوساطة والدعاء منهم. ولكننا قد قدمنا الدلائل في بحث الشفاعة على أنه لا يصح طلبها ولا سؤالها من الموتى، وقدسنا أنه من غير الدين والاسلام أن يقول قائل لهالك من الهلكى : يا فلان اشفع لى أو ادع الله لى أو أسألك الشفاعة والوساطة عند ربك أو نحو ذلك. وقد أوردنا البراهين المختلفة على بطلان هذا وخروجه على الدين والعقل ومحادثه للمعقولات والمنقولات. وإذا كان الكلام لا يصح لاحقيقة ولا مجازاً كان قائله خاطئاً غلطاً، وإذا لم تميز إرادة حقيقة قول ولا إرادة مجازه كان هو غير جائز وغير مقبول. فدعاء المشايخ الميتين ممنوع شرعاً سواء أأريد به الحقيقة أم أريد به المجاز، وسواء أادعى أنه على ظاهره أم ادعى أنه مؤول مصروف عن ظاهره. فإنا لا نرتاب في أن قول القائل لأحد الأموات : يا فلان اشفع لى أو ادع الله لى قول قد جاء الدين بجملته وبتفصيله مبطلا له راداً على قائله.

ويرجع في هذا إلى بحث الشفاعة من هذا الجزء

ونحن نشك في كون هذا مجازاً

ويقال أيضاً : إننا نشك في كون قول الناس : أنبت الربيع البقل مجازاً، ونرى أنه لا مانع من أن يكون حقيقة. والاختلاف فيه راجع إلى الاختلاف في معنى « الانبات » ولعل الانبات في اللغة لا يمانع أن يكون عزوه إلى الربيع حقيقة ولا يحتم أن يكون مجازاً، ولعل بعض الناس يفسره تفسيراً لا يرى معه أن نسبته إلى غير الله على سبيل الحقيقة ممنوعة. ونحن نشك كل الشك في أن قولهم : قطعت السكين أو قطع السيف مجاز، ولا نجد مانعاً من أن يعد حقيقة، ونرى أن من حكم على مثل هذا بأنه مجاز، قولاً واحداً، فقد جازف وتسرع واقتحم أمراً ما أقرب به إلى أن يكون خطأ باطلاً. ونسبة القطع إلى السكين وإلى السيف كنسبة

الانبات إلى الربيع وإلى الماء ، فهما سواء . هذا هو الجواب عن قولهم أنبت الربيع البقل . ومما ذكرناه يعرف الجواب عن قولهم : بنى الأمير المدينة وعن أمثاله . أما قوله تعالى « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » من سورة النساء ، ومثله قوله تعالى من السورة نفسها « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً » .

الجواب من قول الله « فارزقوهم منه »

معنى رزق

فالجواب أن يقال إن « رزقه » معناه أعطاه رزقاً أو هذا من معانيه . وليس بلازم أن يكون « رزق » معناه خالق الرزق وأوجده من العدم . وقد قال الاصفهاني في غريب القرآن : « الرزق يقال للعطاء الجاري تارة دنيوياً كان أم آخروياً ، وللنصيب تارة : ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة . يقال أعطى السلطان رزق الجنده ، ورزقت علماً (إلى أن قال) والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له وهو الله ، ويقال ذلك للإنسان الذي يصير سبباً في وصول الرزق . ويقال ارتزق الجنده أخذوا أرزاقهم . والرزقة ما يملطونه دفعة واحدة » .

فاذا كان رزق معناه أعطى الرزق فقول الله : « فارزقوهم منه » معناه أعطوهم من المال الذي حضروا قسمته نصيباً هو منحة منه تعالى ورزق أوجبه لهم . وكذلك قوله تعالى في الآية الأخرى « وارزقوهم فيها » معناه أعطوهم فيها نصيباً يكفيهم ويعولهم . وإذا لم يكن في قولهم : أعطى فلان فلاناً مالاً ونحوه مجاز لم يكن في قولهم : رزق الملك جنده . أو رزق السيد رقيقه أو « فارزقوهم منه » مجاز ، لأن رزق من معانيها أعطى كما ذكره الهمداني في اللسان . فاذا نص أهل اللسان والمسألة مسألة لسانية ، الحكم فيها يرجع إلى أهل اللسان . فاذا نص أهل اللسان وعلماء اللغة ونقلتها على أن « رزق » يكون بمعنى أعطى كان قولهم حقاً وحكمهم مقبولاً . ولا خلاف بين أهل اللسان أن قول الناس : أعطى فلان فلاناً شيئاً حقيقة

إذا كان مراداً به المعنى المفهوم القريب الشائع ، فيجب أن يكون مثله كلمة « رزق »
التي هي بمعنى أعطى . وهذا واضح .

ويوضح ما ذكرناه ويفسد ما ذكره أنه لا يجوز أن يقال : إن الأموات ^{وبدل على هذا}
يرزقون الأحياء ، وإن الشيخ فلاناً المالك منذ الأزمان والأحقاب يرزق أهل ^{أنه لا يجوز}
بلدته أو يرزق أهله وأقربيه ، أو يرزق من يلوذون به ويطوفون بقبره وأمثال ^{إضافة الرزق إلى}
هذا ، مع جواز أن يقال : رزق الملك جنده والسيد عبيده . وما نظن هؤلاء ^{الأموات}
يجهلون على أن يزعموا أنه يجوز هذا الذي ذكرناه أنه لا يجوز . وهذا لأن رزق
معناه أعطى ومن ماتوا لا يقدرن على أن يعطوا شيئاً . ولو كان رزق هنا مجازاً
وكان يجوز نسبة أمثاله إلى الموتى على سبيل المجاز لكان من المجاز الجائز أن يقال
إن الشيخ فلاناً من الأموات يرزق زائرته ويرزق أهل بلدته وأولى قرابته . ولكن
لا شك في امتناع هذه المقالة ، وبالتالي لا شك في بطلان دعوى هذا المؤلف .
فالآية على كل حال لا يمكن أن تكون حجة له . وذلك أنه لا يستطيع أن
يزعم بأن الرزق يصح أن يضاف إلى كل إنسان إذا صح أن يكون مجازاً واستوفى
شروطه أى شروط المجاز ، فلا يمكن أن يدعى أن من الجائز ومن الاسلام والعلم
والبلاغة أن يقال : إن على بن أبى طالب يرزق أهل النجف ، أو أن الحسين
يرزق أهل كربلاء ، أو أن عبد القادر الجيلاني يرزق أهل بغداد ، أو أن الإمام
الشافعي يرزق أهل القاهرة ، أو أن الرسول أو أبابكر أو عمر يرزق أهل الحجاز .
فهذا وأمثاله لا نحسب المخالف يميزه وإن قصد به قائله المجاز والتأويل ، وإذا
كان هذا ممتنعاً بالاجماع ، أى باجماعنا وإجماع المخالفين لنا ، كان استدلالهم ^{برهان باهر}
بالآية المذكورة استدلالاً مرغوباً عنه مهجوراً . فانهم إذا قالوا بجواز أن يطلب من
الموتى ما لا يستطيعه إلا الله على سبيل المجاز بدليل قوله : « فارزقوهم منه » قلنا
لهم : إذا لم تجوزوا أنتم نسبة الرزق إلى كل ولي ونبي وصالح - وهو صحيح مجازاً

وبلاغة - فكيف تجوزون غيره استدلالاً به ؟ أى كيف تستدلون على جواز
الشيء بشئ آخر واقفتم على امتناعه هو في نفسه ، ومتى كان الدليل باطلاً كان المدلل
عليه أبعطل ، وإذا كانت الحجة غير صحيحة كان المحتج له أيضاً غير صحيح .
ولا شك أن كلمة : « فارتزقوا منه » النازلة في الأحياء إذا لم تدل على صحة
نسبة الرزق إلى الأموات لم يصح أن يستدل بها على صحة نسبة غفران الذنوب
وهداية القلوب وشفاء المرضى إليهم أو طلب ذلك منهم . .

أما قوله تعالى : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله
سيؤتيانا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون »
فالجواب عن قول الله ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله

فالجواب أن يقال : إن الإتياء يضاف إلى المخلوق حقيقة بالاجماع وضرورة
اللسان . وقد جاء في كتاب الله نسبة الإتياء إلى المخلوق : إلى الرسول وإلى
المسلمين وإلى المشركين فيما لا يخصه من الآيات ، وورد الأمر به في غير ما آية
من كتاب الله . ولا يتنازع الناس في أنه حقيقة ، وفي أنه ليس مجازاً ، وفي أنه
باق على ظاهره غير مؤول ولا مصروف عما يثب إلى الفهم منه وما ادعى أحد من
الناس أن نسبة الإتياء إلى رسول الله من نسبة فعل الله وما يختص به إلى عباده .
فأى إشكال ، أو أى مجاز في قوله : « ما آتاهم الله ورسوله » وقوله : « سيؤتيانا
الله من فضله ورسوله » فإن المراد بما آتاهم الله الصدقات والأموال التي يفرقها
عليهم ، المجموعة إليه من الزكوات والمغانم التي غنمها أنصار الله من أعداء الله
وأعدائهم . والمراد به أيضاً الهدى الذي جاءهم به والدين الذي اختار الله لهم
والخير العظيم العميم الذي سينالونه إذا ما اتبعوه وآمنوا به . ولا ريب أن الرسول
يؤتيهم الأموال حقيقة ، ويفرق المغانم عليهم حقيقة ، ويعطيهم أيضاً حقيقة ،
ولا ريب أنه آتاهم بالاسلام وبالقرآن وبالخير حقيقة . فما المجاز وما الإشكال في
قوله : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله » ومن يستطيع أن يقيس إضافة

صلى الله عليه وسلم
الرسول عليه السلام

غفر الذنوب وإرشاد القلوب وشفاء ذوى العلل وإيجاد ما ليس موجوداً إلى الخلق بإضافة الايتاء إلى الرسول عليه السلام ؟؟ وشتان ما بين الأمرين !! فان الذنوب لا ينفرها إلا الله ، والقلوب لا يضع فيها الهدى سوى الله ، والعلل لا يكشفها سوى الله أيضاً . أما الايتاء فالرسول يؤتى ، والمسلم يؤتى ، والمشرِك يؤتى ، ورب العالمين يؤتى ، لأن الايتاء مثل الاعطاء ، والاعطاء ليس من الأفعال الخاصة بالله . ولهذا فرقت الآية بين الايتاء وبين الحسب والرغبة ، فجعلت الايتاء مضافاً إلى الله وإلى الرسول ، وجعلت الحسب خاصاً بالله ، وكذلك الرغبة ، قال في الآية : « وقالوا حسبنا الله » وقال في آخرها : « إنا إلى الله راغبون » ولم يقل فيها : حسبنا الله ورسوله ، ولا : إنا إلى الله ورسوله راغبون . وذلك أن هناك فرقاً بين الحسب والرغبة وبين الايتاء . فالله وحده حسب الخلق جميعاً ، والخلق لا يرغبون إلا إلى الله ربهم . فان الحسب هو الكافي . ومن يكون كافياً سوى الله ؟ قال تعالى : « أليس الله بكاف عبده » والناس لا يرغبون الرغبة المطلقة إلا إلى ربهم وخالقهم كما قال تعالى : « فاذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » وكما قال : « ففروا إلى الله » ، وقال : « وظنوا أنهم لاملجأ من الله إلا إليه » .

فإضافة الايتاء هنا إلى رسول الله لا دليل فيه ألينة على ما زعم المخالف فانه لم يدع أحدهم مخالفيه أن الايتاء لا يعمى إلا إلى الله ، ولا أنه من الصفات الخاصة به تعالى حتى يتاح له أن يتخذ منه حجة على جواز إضافة غفران الذنوب وهداية القلوب إلى الموتى . على أن هاهنا أمراً غفل عنه المخالف فى استدلاله بهذه الآية والآية التى قبلها : هذا الأمر الذى غفل عنه هو أن هذا الايتاء المضاف إلى رسول الله وهذا الرزق المضاف إلى المسلمين فى قوله « فارزقوهم منه » أضيفا إلى الأحياء لا إلى الموتى ، ومخالفوه لا يمانعون فى إضافة أمثال ذلك إلى

التفريق بين
الايتاء وبين
الحسب والرغبة

الأحياء ، وإنما الخلاف والنزاع في إضافته إلى الموتى . فلا يندن هذا عن بال
المخالف ...

وأما قوله تعالى : « وما تقوموا إلا أن أغناكم الله ورسوله من فضله » .
فالجواب عنها كالجواب عن الآية قبلها . فإن الإغناء معناه إيصال الثروة
والغنى . وهذا في استطاعة المخلوق أن يفعله كالإيتاء والاعطاء سواء ، فمن أوصل
إليك ثروة فقد أغناك ، ومن أعطاك مالا جزيلًا فقد أغناك . وليس معنى
الإغناء خاصاً بإيجاد الغنى وخلقته ، كما أن معنى الإيتاء والرزق ليس خاصاً بخلقته
وإيجاده من أسر العدم . وبقية الجواب عن هذه الآية يرجع إليه في الكلام
على الآية التي قبلها وهي قوله : « فأرزقهم منه » .

الجواب من قول
الله إلا أن أغناكم
الله ورسوله من
فضله

وأما قوله تعالى عن عيسى عليه السلام : « إني قد جئتكم بآية من ربكم
أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وأبرئ
الأكف والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تنسرون في
بيوتكم . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) . .

فالجواب أن يقال إن استدلال الرافضى بهذه الآية من غريب الاستدلالات
وباطلاتها . ذلك أن هذه الأمور التي أضافها إلى عبده ورسوله عيسى عليه
الصلاة والسلام من الخوارق والمعجزات جعلها الله البرهان القاهر الظاهر على
نبوته وصدق رسالته واتصاله بالله اتصال النبي بالاله والرسول بالمرسل . وما زعم
أحد من علماء الملة المتهتدين أن إضافة هذه الأمور إلى عيسى بن مريم إضافة
بجازية غير حقيقة على المعنى الذي يذهب إليه هذا المخالف ، بل أجمعوا على أنها
حقيقة لا مجاز ، وأجمعوا على أن عيسى عليه السلام كان يبرئ الأكف والأبرص
ويحيي الموتى باذن الله ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً
باذن الله حقيقة لا مجازاً ، وأجمعوا على أن إضافتها خاصة به دون سواء ممن لم

الجواب مما
أضاف الله إلى
عيسى بن مريم
من الخوارق
والمعجزات

يعطوا هذه الخوارق والمعجزات الالهية العظيمة ، وأجمعوا على أنه من الضلال وشر الخيال والكنب على الله أن يقال : إن على بن طالب أو الحسن أو الحسين أو عبد القادر الجيلاني أو الامام الشافعي أو البدوي أو السوقي أو الرافعي أو غيرهم من العلماء والصالحين والمشايخ المشهورين كانوا يحيون الأموات وكانوا يبرئون الأكمه والأبرص ويخلقون من الطين كهيئة الطير فينفخون فيه فيكون طيراً باذن الله . ولا يشكون أن من قال ذلك فقد ضل وغوى مع أنهم قد أجمعوا على وجوب إضافة ذلك كله إلى عيسى عليه السلام وعلى صدق إضافته ، وأجمعوا على وجوب قبوله والايمان به ظاهراً وباطناً على ظاهره لا تأويل ولا جدال ، وأجمعوا على أن من رام شيئاً من هذا فقد خرج عن منهاج المسلمين ومنهاج سلف الأمة وحفظه الشريعة . . . فما مراد الرافعي بإيراد ماخص الله به عبده ورسوله عيسى عليه السلام هنا ؟ هل يريد أن يدعى أنه عليه السلام ما كان يحى الموتى ولا كان يبرىء الأكمه والأبرص ولا كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله حقيقة ؟ وهل يريد أن يزعم أن عيسى ما كان يفعل شيئاً من ذلك وإنما أضيف إليه على مذهب المجاز والتوسع في الكلام كما زعم في إضافة غفران الذنوب وإرشاد القلوب إلى المشايخ والصالحين من الأموات العاجزين .

ولا مفر له من أن يقول إن عيسى كان يفعل هذه الأمور المذكورة باذن الله حقيقة لا مجازاً ، أو يقول إن عيسى ما كان يفعل منها شيئاً حقيقة زاعماً أن نسبتها إليه لم تعد أن تكون مجازاً وأن تكون من نسبة الفعل إلى غير فاعله على سبيل المجاز العقلي كما في قولهم : بنى الأمير المدينة ، وأثبت الربيع البقل . فان ذهب إلى الأمر الأول وذهب إلى اختياره قيل : إذن فلماذا ذكر هذا هنا وهو ليس منه ولا قريباً إليه ؟ فانه إذا كان عبد من عباد الله ، كميسى أو غيره ،

اما ان يقول ان
عيسى كان يفعل
هذه الامور او لم
يكن يفعل منها
شيئاً

يحيى الميت ويرى الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، فأضاف الله إليه ذلك حقيقة لم يدل على جواز إضافة غفران الذنوب وإرشاد القلوب وشفاء المرضى ورجع الغائبين إلى المشايخ الميتين ، الذاهبين ، وهم في الحقيقة لا يفعلون شيئاً من ذلك ولا يقدرّون على شيء منه وإنما هم أسباب فقط . . . وأما إن اختار الشافعي ، أى اختار أن إضافة هذه الأشياء إلى عيسى إضافة مجازية لا حقيقية ، واختار أن عيسى لم يكن يفعل منها شيئاً ، فزعم أن نسبتها إليه كلسبة غفران الذنوب وهداية القلوب وشفاء المرضى ودفع الأحداث الكبرى إلى الأشياع الميتين فقد اختار ساعتئذ ما أجمع المسلمون على بطلانه وفساده . ولا يذهب إلى هذا إلا من ذهب إلى إنكار الخوارق والمعجزات ، وذهب إلى إنكار معجزات جميع الأنبياء وكرامات جميع الأولياء ، وذهب إلى تأويل ما ذكره الله في كتابه من معجزات أنبيائه وكرامات أوليائه ، وما اتفق المسلمون في جميع المصور على إثباته وإقراره . ولكن كيف يذهب إلى هذا والشبهة من أخضع الخلق للخوارق حتى إنهم يلبسون إلى أئمة آل البيت منها ما يمسر على غير العقل الشيعي والمنطق الامامي الاثنا عشرى أن يؤمن به وأن يقبله . فهذا الشيعي إذن غير موفق ولا راشد لا عند طائفته ولا عند مخالفيه من أهل السنة حينما ذكر معجزات عيسى عليه الصلاة والسلام في مقام التدليل على جواز دعوة الأهوات وجواز إضافة أفعال الله الخاصة به إليهم . ولو صح له أن يخرج على إجماع المسلمين وعلى إجماع طائفته واستنطاق أن يؤول ما ذكره الله لعبده عيسى عليه السلام لكان من الجائز عنده أن يقال إن غير عيسى كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وكان يرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى ، وكان يلبي الناس بما يأكلون ويشربون . وبما يسخرون في بيوتهم . ولكانت نسبة هذه الأمور إلى عيسى كنسبتها إلى غيره

من المشايخ والصالحين وإلى سائر عباد الله الذين ترجى دعواتهم وشفاعتهم .
يا هذا ، لقد طاشت سهام الاحتجاج هذه المرة كثيراً ! فان عيسى كان حتماً يحىي
الموتى ويبرىء الأكف والأبرص ويخافى من الطين مثل هيئة الطير فينفخ فيه
فيكون طيراً صحيحاً باذن الله ، وكان ينهى أتباعه وحواريه بما كانوا يأكلون وبما
كانوا يدخرون في بيوتهم . ويعنى بهذا أنه كان يعلم هذا القسم من الغيب بإعلام
الله إياه وإطلاعه عليه . وقد كانت هذه الأفعال من معجزاته ودلائل نبوته وبراهين
صدقه وتصديق الله له . ولهذا يقول الله في الآية المذكورة : « إني قد جئتكم
بآية من ربكم : إني أخلق لكم من الطين » الآية . فالآية التي جاءت بها من
ربهم هي ما فصله في الآية من هذه المعجزات والخواص المدهشة ، وقد قال
في آخر الآية : « إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » يعنى أن في هذه
بالمعجزات دلالة على نبوته وصدق رسالته وتصديق الله لها .

فهذا الذى ذكره القرآن عن عيسى عليه السلام لم يكن إلا آيات شاهدة
قاطعة على أنه رسول الله . وما خص الله به الرسل والأنبياء من المعجزات والآيات
لا يصح أن يضاف إلى غيرهم ، ولا أن يسوى فيه بينهم وبينهم . وقد وهب
الله عيسى آيات ووهب موسى آيات ، ووهب إبراهيم آيات ، ووهب نوحاً آيات ،
وهب صالحاً آيات ، ووهب خاتم الأنبياء محمداً آيات ، ووهب كل نبي آيات
خاصة به أو مشتركة بينه وبين غيره من الأنبياء والمرسلين . ولكن آياتهم
لا يجوز أن تضاف هي ولا أمثالها إلى عامة المسلمين ولا عامة الصالحين ولا عامة
الأولياء ممن ليسوا بأنبياء . وآياتهم أيضاً لا يجوز أن يقال إن إضاقتها إليهم
غير حقيقية ولا أنها مؤلفة مصروفة عن ظاهرها إلى المجاز والاستعارات . فان موسى
عليه الصلاة والسلام ضرب مثلاً بمصاه البحر فانفلق وانشق بضرته له
ولاً نصاره المؤمنين طريق ييس ، وقد ضرب بمصاه أيضاً الحجر فانفجرت منه

معجزات
الأنبياء حقيقة
لا يقال إنها مجاز
غير حقيقة

اثنتا عشرة عيناً . ولا يصح أن يقال إن هذا مجاز وإنه غير حقيقة . وكذلك كان نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام يخلق من الطين كهيئة الطائر . والخلق هنا هو التقدير . فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وكان يبرئ الأكمه والأبرص . ويحيي الموتى باذن الله ويخبر أصحابه وأتباعه بما كانوا يأكلون وبما كانوا يدخرون في منازلهم . ولا يصح أن يقال إن هذا مجاز وإنه غير حقيقة ، وهكذا الأمر والقول في معجزات جميع النبيين .

وليس كل ما جاز للأنبياء يكون جائزاً لغيرهم ، وقد جاز لنبي الله يعقوب ولزوجه وبنيه أن يسجدوا ليوسف عليهم الصلاة والسلام ، وجاز للملائكة أن يسجدوا لآدم . والرافضى المخالف يزعم أن هذا السجود كان سجوداً حقيقياً . وليس بجائز لمسلم اليوم أن يسجد لمخلوق ما وإن كان من كان . ولو أن مسلماً سجد لولى أو لنبي محتجاً بهذا السجود لكان من الضالين الجاهلين باتفاق المسلمين . ومثله من أجاز إضافة أفعال الله - كغفران الذنوب وإرشاد القلوب إلى الأموات والمشايخ - محتجاً بإضافة أحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص إلى عبد الله ورسوله عيسى بن مريم . فان هذين الاحتجاجين - بالنسبة إلى الخطأ والجهل في قرن واحد . وكذلك قد كان من آيات الله وآلائه على عبده وخاتم أنبيائه ورسله أن عرج به إلى السموات العلى وأن قر به منه نجياً حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، وأن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن أراه في إسرائه ومعراجيه من آياته الكبرى ما أرى ، وأن أنزل عليه هذا الكتاب المخصوص بالعجاز الخالد وبالخلود المعجز ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . . وليس بجائز أن يقال إن غيره عليه الصلاة والسلام من الصالحين ومن العلماء الربانيين والأولياء المشهورين يمكن أن ينالوا ما قال وأن يعطوا ما أعطى ﷺ من هذه الآيات والآلاء ، وليس بجائز أن يضاف مثلها إلى أفراد المسلمين . .

ليس كل ما جاز
للأنبياء يجوز
لسواهم من
أتباعهم .

فالمسلمون كافة يقولون إن محمداً عليه السلام عرج وأمرى به وأنزل عليه الكتاب الخالد المعجز، وأعطى غير هذا من المعجزات مثل تكثير الطعام والشراب ونبوع الماء من بين أصابعه الشريفة ، إلى آخره . . . ولكنهم لا يقولون إن غيره من أنصاره المؤمنين به أعطى ذلك ، ولا يستجيزون هذا القول ، بل هم يرون أن من قاله فهو كاذب جاهل ضال . ومثله من أجاز إضافة غفران الذنوب وهداية القلوب وغيرها من أفعال الله إلى عبد من عباده الموتى احتجاجاً بأن الله أضاف إلى عيسى بن مريم إحياء الأموات وإبراء الأكف والأبرص . . . فهذان الاحتجاجان في صنف واحد من أصناف الباطل والخطأ والضلال . فالرافضى إذن قد بعد في هذا الاستدلال عن التوفيق كل التوفيق .

ثم ماذا يرى في هذا الاحتجاج وهذا الاستدلال ؟ أرى أنه يجوز أن يقول المسلم : إن الشيخ فلاناً والشيخ فلاناً من الأموات أو من الأحياء يحييان الموتى ويرثان الأكف والأبرص ويخلقان من الطين مثل هيئة الطير ثم ينفخان فيها فتكون طيراً بأذن الله ، وإنهما أيضاً يلبسان الناس بما يأكلون وبما يدخرون في منازلهم ، وإنهما يعلمان الغيب ؟ أرى أنه جائز للمسلم أن يقول هذا في شيخ من الأشيخ أو مسلم من المسلمين الأحياء أو الميتين ؟ إن كان يرى جواز هذه المقالة فقد خرج عن إجماع الأولين والآخرين من المسلمين وعاند الضرورة واستباح الحى ، حى الدين واللغة والعقل ، وما نحسبه بجهله . . . وإن كان يرى أنه لا يجوز أن يقال هذه الأقوال مع أنها قد قيلت في حق عيسى بن مريم وصدق قائلوها فقد بطل الاحتجاج والقياس ، وخرج من المعركة بالهزيمة الفادحة وبالفشل الفظيع . فهذه الحجة باطلة على جميع الفروض ، فاسدة لديه ولدى مخالفيه .

قول أحد الصحابة
لفي عليه السلام
أسألك من الجنة
في الجنة

وأما قول الصحابي للرسول عليه الصلاة والسلام : أسألك مرافقتك في الجنة . فالجواب أن يقال : إن الصحابي سأله المرافقة في الجنة ولم يسأله إدخال الجنة . وذلك

أن مرافقته في الجنة يملكها الرسول عليه السلام لمن دخلها ولكنه لا يملك إدخالها . والمرافقة في الجنة معناها أن يكونا رفيقين فيها حينما يدخلانها وإن كان كل منهما لا يستطيع أن يدخل الآخر . ومثل هذا أن تريد الحج هذا العام ، ويريد أيضاً صديقك فيسافر أحدهما قبل الآخر فنقول ، أو يقول لك : أريد منك أن تنزل معي في مكان كذا ، وأرجوك أن تقابلني وأن تسدي إليّ هناك المعونة وأمثال ذلك . . . فهذا ونظائره من الكلام يجوز وإن كان كل واحد منهما لا يستطيع أن يحمل صاحبه إلى الحجاز ، ولا أن يميز له السفر ، ودخول البلاد ، بل وإن كان أحدهما محكوماً عليه بالأيصال إلى البلاد وألا يطأ بقدميه أرضها . ومثله أن تقول لأحد أصدقائك أو أقربائك من المسلمين الصالحين : أسألك بإفلاّن أن تلقاني في الجنة وأن ترافقني وأن تريني وجهك فيها . فهذا يجوز قوله بلا ريب ، وإن كان لا يجوز أن تقول له : يا فلان أسألك أن تدخاني الجنة وأن تزحزحني عن النار ، ولا أن تغفر لي ذنبي وأن تهدي قلبي . وذلك أن المرافقة في الجنة أو في مكان آخر تملك وإن كان لا يملك الايصال إليها ولا إليه . فيجوز أن تسأل ما يستطيع دون ما لا يستطيع .

فتأويل قول الصحابي للرسول : أسألك مرافقتك في الجنة أن يكون قد علم . أو ظن ظناً قوياً أنه سوف يثبت على إيمانه وإسلامه ، وسوف يلقي الله مسلماً . مؤمناً غير مشرك ولا كافر به . وقد علم أن من لقي ربه بالإيمان والاسلام فلا بد له من دخوله الجنة . ولا بد من زحزحته عن النيران ، لأن الله أعدل من يجازي على الحسنات ، وأعدل من لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولأنه تعالى لا يمكن أن يجازي على الحسنات والخير والبر والإيمان والاسلام العذاب والنار . والشقاء . وقد سمع ضمانه الله الجنة في كتابه للمؤمنين والمسلمين الصادقين في إيمانهم وإسلامهم . ومن أصدق من الله قولاً ووعداً ، ومن أحق منه تعالى بإيفاء ضمانته

وكفالاته ! وقد علم أيضاً كفاية النبي عليه الصلاة والسلام الجنة لمن آمن به وصدق وأحسن في إيمانه . وقد علم أن من اختارهم الله لرسالته وبشارته لا يمكن أن يكذبوا في وعدهم ، ولا أن يفروا أنصارهم المؤمنين بهم المتبعين لهم ، الواهبين لما جاءهم به نفوسهم وأرواحهم وأبدانهم وأولادهم وكل ما يملكون : علم الصحابي هذا كله ، فعلم أنه صائر بتوفيق الله إلى الجنة بإسلامه وإيمانه وإحسان الله الشامل ، ولكن خاف أن يفوته هنالك أحب شيء إليه . خاف ألا يرى ثم النبي ، ورؤياه هي أعظم مني المسلم بعد رضا الله ورؤية وجهه الكريم ودخول جنته ، فقال : يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة لأني لن أطيق فراقك ولا البعد عنك وإن كنت في دار الخلود ، فقال له النبي عليه السلام كما في تمام الحديث : « أو غير ذلك ؟ » قال : هو ذاك . فقال النبي له : « إذن فأعني على نفسك بكثرة السجود » وقد علم عليه الصلاة والسلام أنه لا مانع من هذا الطلب ولا من إدراك هذه الطلبة وقد أنزل الله عليه في كتابه : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله علما » . وقد علم عليه السلام أن هذا الذي سأله مرافقته في الجنة من الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ، فهو مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إذا صدق في إيمانه ودينه . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « أعني على نفسك بكثرة السجود » لأن السجود والإيمان والعبادة وصدق الله في المعاملة هو الذي يدخل الجنة ويئيل مرافقة الرسول والصديقين والشهداء والصالحين في دار السلام ، لإرادة الرسول ولا إرادة غيره من الخلق . ولو كان دخول الجنة ونيل رضا الله يدرك بشيء من ذلك لكان أولى الناس به أبو طالب عم النبي وغيره من أولى قريبه ، ولكان من أولى الناس به آباء الأنبياء وأولادهم وأزواجهم وأقربهم . وقد أعلمنا الله في كتابه

أن من هؤلاء منهم من أهل النار خالدون فيها أبد الآباد . ونعوذ بالله . فالرسول عليه الصلاة والسلام يطلب العون ممن سألته المرافقة في الجنة لأنه يعلم أنها لا تنال إلا بالعمل الصالح وبالإيمان الصحيح القوى . فالصحابي يسأل النبي مرافقته في الجنة حقيقة لا مجازاً . .

ومما يكذب زعم هؤلاء الزاعمين أنه عليه السلام لم يدع ولم يشفع له حينما سألته المرافقة بل قال له « أعنى على نفسك بكثرة السجود » . ولو كان المراد ، كما زعموا ، أن يشفع له وأن يدعو ، وكان قوله : أسألك المرافقة في الجنة يعني به سؤاله أن يدعو الله فيه ليجمعه رفيقه هناك لدعاه النبي إذا كان . فقرأ طلبه قابلاً له ، وهؤلاء يزعمون أن النبي كان مقرأه ومجيزاً . وهذا ما لاشك فيه . وحينئذ يقال : لكن النبي لم يدع ولم يشفع فيما يبدو من الحديث ، وإذن : ليس مراد الصحابي ما زعموا ، وإذن ليس الأمر ما ادعوا .

فان قيل وكيف يمكن أن يرافق مسلم النبي في الجنة والجنة درجات ومنازل ولا شك أن النبي في أعلاها وفي أفضل منازلها ودرجاتها ، فلا يمكن أن يسمو سام إلى منازل ودرجاته منها سميت درجاته ومنازله ، فالجواب أن يقال : إن هذا الاعتراض ليس منطلقاً إلى قولنا نحن دون قول المخالفين ، بل هو اعتراض — إن كان صحيحاً — وارد على قولنا وعلى قول الرافضى وقول إخوانه . وذلك أنه يقال : وكيف يجوز لمسلم أن يطلب من النبي أن يسأل الله فيه ليكون رفيقه في الجنة والنبي عليه السلام لا تلحق درجاته ودرجته ، ولا يسمو إلى مكانه ومكانته سام . وحينئذ فالجواب مشترك بيننا وبين المخالفين ، والاعتراض لا يدل على بطلان قولنا إلا دل على بطلان قولهم ، فهو إذن ليس خاصاً بنا ولا بقولنا . ومع هذا نقول في الجواب : إن هذا الاشكال — إن كان صحيحاً — واد على الآية المذكورة وهي قول الله « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم

كان قيل وكيف يمكن أن يرافق مسلم النبي في الجنة وجوابه

من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . والاعتراض الذى ينطلق إلى نص القرآن الكريم لا يشك المسلمون فى بطلانه وفساده وإن لم يعرفوا وجه البطلان والفساد سوى انطلانه إلى كتاب الله ، وكتاب الله أمضى من أن يلحقه اعتراض أو يتناوله شك أو إشكال . ومع هذا نقول فى الجواب عن الآية والحديث : إن عالم الجنة ونعيمها لا يقاس بهذا العالم ونعيمه ، فلا ترد عليه إشكالاته واعتراضاته .

لا يقال أيضاً إن مرافقة المرء المرء فى المكان لا يلزمها تساويهما فى المكانة لا يلزم التساوى فى المكان التساوى فى المكانة والمنزلة والنعيم والدرجة . وهذا ما لا شك فيه . وقد يرافق ملك الدنيا وسلطانها أحد رعيته ، ويرافق أهله وزوجه وخدمه وأقربيه وغيرهم . ولا شك أنهم ليسوا سواء . وقد يرافق أغنى الناس أفقر الناس . وليس فى شئ من هذه المرافقات شئ من التساوى فى المقام أو فى الدرجة أو فى النعيم ، فلا إشكال إذن ولا اعتراض . ونظير هذا أن النبى عليه الصلاة والسلام - وكذا كل نبي - كان يرافق أنصاره وأتباعه فى الحياة الدنيا مع أن الفرق ثابت لا ريب فيه .

فهذا الحديث ليس للرافضى فيه مستمسك ، وليس له فيه أذن ولا بصر . فالصحابى لم يسأل النبى شيئاً لا يقدر عليه ، أو شيئاً لا يستطيعه المخلوق حتى يتوجه له أن محتج به على جواز أن يطلب من المشايخ والصالحين الميتين ما لا يقدرون عليه وما لا يقدر عليه سوى الله ، أمثال غفران الذنوب وإرشاد القلوب وشفاء ذوى العلل . ولهذا سألوا النبى المرافقة فى الجنة ولم يسألوه دخولها ولا إلابعاد من النار والعذاب . والناس جميعاً يجحدون فوقاً عظيماً بين سؤاله المرافقة والمصاحبة فى الجنة وبين سؤاله دخولها واستحقاقها . ولا يشكون أن أحداً لو قال : يا رسول الله أسألك أن تدخلنى الجنة وأن تبعدنى من النار وأن تغفر ذنبي وتهدى قلبي وأمثال هذه المسائل العليا ، لما كان منه عليه السلام الإنكار . وقد أنكر

وقد سأله
للمرافقة فى الجنة
ولم يسأله ادخال
الجنة

إنكار ما هو أكل من هذا وما في استطاعة البشر أن يفعلوه أحيانا .. فأنكر على من قالوا:
قوموا نستغيث برسول الله من هذا المناقق قائلا: «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث
بالله» وقال له وفد من الوفود يوما من الايام: أنت سيدنا وابن سيدنا . فأنكر
عليهم هذا القيل قائلا: «أياها الناس! قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يغوينكم
الشيطان». وقال لمرجل: ماشاء الله وشئت . فقال «أجعلني لله ندا» بل ماشاء
الله وحده». وقيل في حضرته: وفيما نبي يعلم ما في غد . فأنكره . وقد أنكر غير
ذلك مما الفرق عظيم بينه وبين طلب إدخال الجنة والابعاد من النار . ولا يتنازع
المسلمون أن طلب دخول الجنة والابعاد من النار، وطلب غفر الذنوب وإحلال
الهداية في القلوب لا يصح إلا من الله، وأن من طلب ذلك من غيره فقد تقحم
الضلال وعدا إلى غضب الله ومقتنه عدوا، وإلا لوجاز طلب مثل هذا من المخلوق
لجاز أن يطلب من غير الله كل ما يطلب من الله . ولكن المسلمين لا يختلفون في
أن من أجاز أن يسأل المخلوق كل ما يسأل الله فهو مرتد مشرك بالله وإن كان مريداً
في نفسه كل التأويل والتفسير والمجازات . وبما لا شك فيه أن المسلمين كانوا
لا يحرصون على شيء ما حرصهم على دخول الجنة والنجاة من النار، وقد كانوا يبيعون
في سبيل ذلك نفوسهم سائلة على غلبات الأسياف وجمرات الرماح، وكانوا
يرخصون أولادهم وأموالهم وكل ما ينخل في ملك أيديهم ابتغاء نيل الجنة وابتغاء
النجاة من النار . ومع هذا الرجاء وهذا الخوف لم يجيء أن أحدا منهم سأل الرسول
الجنة أو عاذ به من النار . فهل يمكن أن يكون هذا راجعاً إلى زهدهم في هذا الذي
ما كانوا يوما من الزاهدين فيه ولا من الوانين في طلبه؟ كلا إن هذا لا يمكن .
ولكنه راجع إلى علمهم بأن طلب دخول الجنة لا يبتغي إلا من خالقها ومبدعها،
وأن الابتعاد من النار لا يطلب إلا من الله .

لماذا لم يسألوا
لنهي ادخال الجنة

﴿ جواب الشبهة الثانية ﴾

الكلام على الشبهة
الثانية وهي
حديث خازن عمر

أما الشبهة الثانية وهي أن البيهقي وابن أبي شيبه رويا عن مالك الدار أن
الناس في عهد عمر أصابهم قحط فجاء رجل إلى قبر النبي فقال يا رسول الله
استسق لأمتك ، فاتاه رسول الله في المنام وقال له : « إئت عمر وأخبره أن
الناس مسقون » .

فالجواب أن يقال : إن من الظلم وقلة الإنصاف والعدل أن يجعل الرافضى
مثل هذه الرواية حجة في هذا الموضوع الجلل الخطير وهي ليست عن رسول الله ،
والفاعل ليس من أصحاب رسول الله ولا من غيرهم من المعروفين بالدين والعلم .
بل هو مجهول الحال ، مجهول الاسم ، لأن الرواية التي ذكرها لم تسمه ولم تذكر
من أى قبيل وفريق هو ، وإسنادها غير معلوم الصحة والثبوت ، فلم تروى
كتاب من كتب الصحاح ، ولم يحصها أو يصححها أحد من رجال الفن المحكمين
في هذا الشأن الصادقين في حكمهم :

أقول : إن من الظلم وقلة الإنصاف أن يجعل الرافضى مثل هذه الرواية التي هذه
حالتها حجة في هذا الموضوع وهو وطائفته يردون أصح الروايات إسنادا ، ويكذبون
ما اتفق على روايته وتصحيحه أعلم رجال الفن بالفن ، وأعرف فرسان الحديث
بالحديث ، أمثال البخارى ومسلم وغيرهما من جهابذة الرواة . فاذا لم يكن مارواه
البخارى ومسلم وجميع علماء السنة والحديث حجة عندهم ولا صدقا ، فكيف تكون
هذه الرواية حجة في عبادة الموتى ودعاء المشايخ الذاهبين ؟ وإذا لم يصدقوا مارواه
أهل السنة قاطبة ، ولم يرتضوا أن يعمدوه دليلا في أبواب الفقه والفروع فكيف
ارتضوا أن يعمدوا هذه الرواية دليلا لا يشكون فيه في موضوع التوحيد ودعاء غير الله ؟
ثم إذا كانوا لا يقبلون ما يقوله وما يفعله أبو بكر وعمر وعثمان وجهور الصحابة ،
بل إذا كانوا يكفروا هؤلاء ويعدونهم مرتدين خارجين من رواق الاسلام

الممدود ، مؤثرين الدنيا على الدين ، كآمين ما يعرفونه من الحق وأحكام النبوة ، فكيف يرتاحون لرواية قيل فيها : إن بعض الناس في عهد عمر بن الخطاب ذهب إلى قبر النبي عليه السلام وقال له استسق لأمتك . وهم لا يستطيعون أن يذكروا دليلاً صحيحاً على أن الذهاب إلى القبر ، الطالب للسقيا من النبي كان من الصحابة ولا من غيرهم ، ممن عرفوا بالصدق والایمان وصحة الاعتقاد ؟؟ إن الرافض يقولون إن جميع ما يرويه أهل السنة في أصح كتبهم وأنظف أسانيدهم وأوضحها لا يقبل ولا يرضى ولا يمدح ولا يشبه حجة ولا شبه حجة في أحكام المياه والوضوء وأشياء ههنا الفروع . ولهذا فإن هذا الرافض يدعو على كثير من أحاديث البخاري ومسلم وغيرهما في كتابه هذا ، فيكذبها ويهجو روايتها ولا يترك من ذلك إلا ما وافق مذهبه . وقد قالوا في كتاب « أصل الشيعة وأصولها » الذي ألف للدعاية : « إنهم —

الاسانيد المقبولة
عند الشيعة

يعنى الامامية الاثنا عشرية — لا يعتبرون من السنة إلا ما صحح لهم من طرق أهل البيت عن جدم . يعنى ما رواه الصادق عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين السبط عن أبيه أمير المؤمنين عن رسول الله سلام الله عليهم جميعاً . أما ما يرويه مثل أبي هريرة ومرة بن جندب ومروان بن الحكم وعمران بن حطان الخارجي وعمر بن العاص ونظائرهم فليس له عند الامامية من الاعتبار مقدار بموضة ، وأمرهم أشهر من أن يذكر . كيف وقد صرح كثير من علماء السنة بمطاعنهم ودل على جائفه جروحه . » انتهى .

فاذا كان هذا رأى القوم فيما رواه الصحابة وفيما رواه أهل السنة في أصح كتبهم وأنظف أسانيدهم ، وكانت هذه مكانة أصحاب النبي عندهم ، وكان هذا مقدار اعتبارهم بما رووه عن نبيهم ، وإذا كانوا لا يقبلون من السنة إلا ما جاء عندهم من طريق الصادق عن الباقر عن زين العابدين عن الحسين عن علي بن أبي طالب عن النبي عليه الصلاة والسلام ، تاركين كل سند وكل علم وكل شيء لم

يمكن بالاسناد المذكور : إذا كان هذا كله رأى القوم ومذهبهم وقولهم فلماذا يحتاجون بمثل هذه الرواية التي يرويها أهل السنة عن أهل السنة عن خازن عمر ، وعمر من شر الخلق عندهم ، والتي لم يصح إسنادها عند أهل السنة ، ولم يعلم الفاعل الذى جعل فعله الحججة فى الرواية ، وهو من الجائز أن يكون من شر الكفار وأضل الخليقة عند الإمامية ؟ فإذا قالوا إننا نذكر هذه الرواية وأمثالها للرد عليكم ولا لزومكم لأنكم أنتم تقبلون أمثالها وتزكون مخرجها ورواتها - قيل أولاً أنتم تفعلون كتابكم هذا حججاً وبراهين على هذه المباحث وتستدلون بما فيه على جواز ما تأتون به لدى القبور والمشاهد من الفطائع والباطلات . فأنتم تحتاجون بذلك كما تحاولون الرد به على مخالفكم . وقيل ثانياً : إن هذه الرواية لم تصح إسناداً عندنا معشر أهل السنة ، ولو صححت لما كانت لدينا حجة . ذلك أن الذهاب إلى القبر المستسقى بصاحبه عليه السلام غير مسمى وغير معروف . فنحن لا نحتج بفعله ولا نقبله . لأننا لا ندعى أن كل من كانوا فى عصر عمر بن الخطاب كانوا صالحين وكانوا عالمين بالاسلام حق العلم ، علما بمنعمهم من الابتداء والإحداث فيه ، وعلما يحجزهم عن أن يخطئوا السنة أو يميلوا عنها ذات الشمال أو ذات اليمين . والشيعى المخالف لم يذكر لنا شيئاً من هذا ، فلم يذكر صحة الرواية عند أهل السنة على حسب شروطهم وقواعد فهم المرسوم ، ولم يذكر لنا ذلك الذهاب إلى القبر المستسقى به حتى يعلم أن فعله حجة وأن عمله برهان لدينا . فنحن إزاء هذا نطالبه بأمرين اثنين : أولهما أن يقيم الحججة على صحة الرواية ووضوح سندها ، وثانى الأمرين أن يعرفنا بهذا الفاعل المستسقى بالنبي عليه السلام ، وأن يذكر لنا بسند واضح مشرق اسمه حتى نعرف حاله لنعلم هل قوله وفعله حجة أم ليس كذلك . وبغير هذين الأمرين لا يكون فيما ذكر شئ من معانى الحجج وصور المعارف

الرواية غير
صحيحة ولو صححت
لما كانت حجة
لهمنا بالفاعل

إننا نعلم ونقول إنه قد كان في عصر التابعين ضالون وجاهلون ومناققون .
وإننا لذلك لا ندعى أن جميع من كانوا في عصر عمر بن الخطاب معصومون من
الابتداع والاحداث والضلال والنفاق . فليست أقوال جميع الناس وأفعالهم
في ذلك العهد لدينا حججاً وبراهين يعارض بها الكتاب والسنة والدين والضرورة
جملة وتفصيلاً . .

فإن قيل قد روى أن المستنق بالنبي ، الذهاب إلى قبره هو بلال بن
الحارث المزني الصحابي وأنتم تقولون إن الصحابة عدول كلهم مبرهون كلهم من
الابتداع والاحداث في الدين ، فالجواب أن الرواية التي فيها بلال بن الحارث
رواية باطلة ضعيفة ، قد رواها سيف بن عمر الضبي في الفتوح وهو ضعيف جداً
حتى لقد اتهم بالزندقة . وقد أجمعوا على ضعفه ووهاء أمره . فثله لا يدان الله بروايته .
وبالاجمال فهذه القصة غير صحيحة والدلائل على كذبها كثيرة : منها أنها
شاذة مخالفة لما اشتهر وتواتر عن الصحابة والسلف الصالحين . إذ ما جاء عنهم
أنهم كانوا يرجعون إلى قبر النبي أو قبر غيره من الأموات عند نزول النوازل
واشتداد القحط يستدفون بها بهم وبدعائهم وشفاعتهم . بل كانوا يرجعون إلى الله
وإلى استغفاره وعبادته وإلى التوبة النصوح كما قال تعالى : « فقلت استغفروا
ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً » الآية . . . وقال : « وأن لو
استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » وقال : « ويقوم استغفروا ربكم ثم
توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم » الآية ، وقال « ولو
أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الآية
وقال : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من
فوقهم ومن تحت أرجلهم » الآية .

توجه الدالة على
كذب الرواية
وبطلان معناها

ومنها أنه قد بناء في البخاري وفي غيره أن الناس في زمان عمر بن الخطاب

طائفتين من ذلك

كانوا إذا قحطوا استسقوا بالعباس بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام
وقال عمر رضى الله عنه : اللهم إنا كنا . الحديث . وهذا يدل على أن الصحابة
ما كانوا يعرفون ولا يجيزون الاستسقاء بالنبي وهو ميت . ولهذا عدلوا عنه إلى
عمه العباس الحى . ولو كان الاستسقاء وطلب الدعاء من الميت جائزاً مشروعاً
مبهوداً عندهم لرجعوا إلى النبي واستسقوا به وتوسلوا . . . وقول عمر رضى الله عنه
فى « حيثيات » الانصراف عنه إلى العباس : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا
فتسقيننا ، يدل على أن التوسل به بعد الممات غير مشروع ولا ممكن شرعاً . وقد
جاء أن معاوية ومن معه من الصحابة والمسلمين استسقوا بأحد التابعين الصالحين ،
ولم يستسقوا بالنبي ولا بغيره من الأموات . ولا ريب أن التوسل لو كان جائزاً
ممكناً بالأموات لكان النهى أولى بذلك من العباس ، ومن يزيد بن الأسود
التابعى الجرسى الذى استسقى به معاوية بن أبى سفيان ومن معه من المسلمين
ومنها أن أهل العلم البصراء بالاسلام وحقايقه قد ذكروا كل ما يشرع عند
وجود القحط . وما ذكروا فى ذلك الرجوع إلى الأموات والاستسقاء بهم .
ومنها الدلائل المتكاثرة على أن الأموات لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولا
نداء من ناداهم . وهذا مذكور فى آيات صريحة كثيرة مثل قوله تعالى : « إنك
لا تسمع الموتى » وقوله : « وما أنت بمسمع من فى القبور » .
ومنها أن الميت قد انقطع عمله كما فى الحديث الذى رواه مسلم وهو قوله عليه
الصلاة والسلام : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية
أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به » . ولا ريب أن هذا الحديث أصح وأولى
بالتقديم من الرواية المذكورة .
ومنها أن النبي عليه السلام قد علّم أصحابه ما يقولون عند زيارتهم القبور
بقوله وبفعله ، وما جاء فى تعليمه الأمر بطالب الدعاء منهم والاستسقاء بهم .

ولا شك أنه لم يكن مقصرا ولا مدخرا بياناً ولا كاتماً عملاً يدينهم من رضا الله وجنته . ومنها غير ذلك مما هو منشور في أحشاء هذا الكتاب وفي غيره . .
ثم يقال : إذ تركنا كل ما قدمنا وسلمنا أن هذه الرواية صحيحة الاسناد ، وأن عمل ذلك الذهاب إلى القبر ، المستسقى به حجة لم يدل شيء منه على جواز ما يذهب إليه هؤلاء القوم من طلب المشايخ والموتى كل ما يطلب من الله كالنصرة على الأعداء وكشفاء المرضى وهداية القلوب وغفران الذنوب . وإنما تدل الرواية بهذا هذا كله على جواز الاستسقاء وطلب الدعاء من الأموات ، أما سؤالهم الحاجات مباشرة - وهذا هو أصل قول المنازعين في هذا الباب - فلا تتناوله الرواية بوجه من وجوه الجواز والإباحة . وقد يذهب قوم - بل قد ذهبوا - إلى أن طلب الدعاء من الميتين جائز ، وأما طلب الحاجات فإنهم لا يجيزونه ولا يقبلونه . وليس بين الأمرين تلازم شرعى ولا عقلى ، بل إن بينهما فرقا عظيماً ، وإن كان أخفهما ذريعة إلى أشدهما . فإن طلب الدعاء من الميت سبيل لاجبة ، كما حدث ، إلى دعائه مباشرة . والباطل عند أهل العلم والبصر مرفوض بوسائله وغاياته .

وإذا بطل كل ما تقدم لم تدل الرواية على كل ما يذهب إليه هؤلاء القوم على القبر

﴿ الشبهة الثالثة ﴾

أما الشبهة الثالثة ، وهي قوله إن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وإن الأنبياء أولى بالحياة من الشهداء ، وإن الأحياء يجوز دعاؤهم والاستغاثة بهم . فالجواب أن نقول : إن ما ذكره الله من حياة الشهداء نقض صريح على هؤلاء المخالفين لو كانوا يعلمون . ذلك أن القرآن قد نص جهرية على أنهم أحياء عند ربهم . وهذه العندية ، إما أن تكون عندية حقيقية حسية ، أو معنوية مجازية . فإن كان الأول هو الحق والمعنى - على أن يعنى به أنهم موجودون بحياتهم عند الله فوق الخلائق - فهو رد على المخالفين واضح . وذلك أن مسلماً من

حياة الشهداء لكلام عاظمي الشبهة الثالثة

المسلمين لن يبيع لنفسه ولدينه أن يدعو مخلوقاً نائياً غائباً عنه واقفاً في أقصى مكان : في السماوات أو في الأرض أو غيرهما . والمسلمون يعتقدون بأن عيسى ابن مريم مرفوع إلى الله ، ولا يرى أحد منهم أن دعوته جائزة أو ممكنة . ولو أن نبياً من الأنبياء : محمداً أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو غير هؤلاء كان اليوم موجوداً حياً سوياً ، فراح الناس يدعونه ويهتفون به في كل مكان ومن كل مكان بكل حاجة في الحضرة والمغيب ، مع البعد والقرب - كما يفعل هؤلاء في المشايخ الميتين - لكانوا ضالين جاهلين فاعلين مالا تميزه العقول ولا الشراع الصحيحة . وقد كان الأنبياء أحياء موجودين بين أظهر أقوامهم ، وما كانوا يدعونهم من كل مكان أو في كل مكان ، بل كانوا لا يدعونهم إلا حاضرين شاهدين . وما حاول أحد منهم من أهل الفضل والعلم والبصر بالدين شيئاً من هذا . . . ولا يدعو مخلوق مخلوقاً من كل مكان وفي كل مكان إلا إذا زعم وآمن بما زعم أن ذلك المخلوق المدعو عالم بكل شيء محيط بالعيوب ، عارف ما قرب منها وما بعد . ومن زعم هذا واعتقده في إنسان أو في مخلوق ما فقد شبهه بالخالق وسواء به في صفة علم الغائبات والاحاطة بالكائنات . ومن اعتقد هذه العقيدة في مخلوق : في نبي أو ولي أو صالح فقد ضل الضلال البعيد وكفر بإجماع المسلمين .

فهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والصالحين من كل مكان وفي كل مكان في المحضر وفي المغيب على القرب والبعد لا ريب أنهم ما دعوهم كذلك إلا لزعمهم أنهم يعلمون كل شيء ويسمعون كل مسموع من قرب ومن بعد ، لا يشغلهم سماع عن سماع ، ولا صوت عن صوت ، ولا يحول بينهم وبين سماع الهتاف بأسمائهم بعد ولا غيره من الشواغل . فهؤلاء الداعون للأموات يسوونهم بالله في علم الغيوب والاحاطة بأسرار الامهجات واللغات . فهم ضالون مخطئون بلا ريب . وهؤلاء العاكفون على القبور الداعون لسكانها - وهم يعلمون أنهم أحياء عند ربهم

نسوية الاموات
بأنه في صفة عالم
الغيوب

فوق السماوات وفوق جميع المخلوقات - يمتدّون فيهم هذه العقيدة النكراء من علم الغيب وعلم القريب والبعيد ، وعلم جميع اللغات واللهجات والحاجات . ولهذا يدعونهم : كل بلفظه ولهجته ، ووقنين بسماعهم دعاءهم وورقهم بلغاتهم وعلمهم بحاجاتهم . فهم ضلال خاطئون .

هذا إذا اخترنا أن هذه « العندية » في قوله « عند ربهم » عندية حسية حقيقية . أما إذا اخترنا أنها عندية مجازية معنوية - على معنى أنهم أحياء في حكم ربهم وشهادته وجزائه وثوبته ، وإن لم يكونوا أحياء في الواقع ولا عند الخلق ولا في المشاهدة كقوله عليه الصلاة والسلام « خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » يعنى أن هذه الرائحة المرغوب عنها المنبعثة من فم الصائم عند اشتداد جوعه حكمها عند الله أنها طيبة وأنها أطيب من ريح المسك ، وإن كانت في الواقع والمشاهدة كريهة مرغوبا عنها ، مثل أن يقال في الكلام المعروف : إن سواد النقي الصالح لأشدّ بياضا عند الله من بياض الفاجر الفاسق ، وإن درهم الخالص ينفعه في سبيل الله لأكثر عند الله من دنانير المنافق ينفعها رثاء وجمعة وأمثال هذا من الكلام المطروق المعروف - : أما إذا اخترنا هذا المذهب في معنى عند ربهم في الآية الكريمة فلاشك أن الآية خارجة عما نحن فيه ، بعيدة البعد كله عن استدلال القوم ، بل كانت ردا عليهم نقضا لمنهجم وزعمهم . وذلك أن المعنى حينئذ أن الشهداء في الواقع أموات حقيقة ، أموات كما تدل هذه الكلمة ولكن حكمهم عند الله حكم الأحياء بل هم أفضل منهم لأنهم باعوه تعالى أنفسهم وباعوا كل شئ لدينه ونصرة شريعته ، فنالوا من الثواب ما لا ينقطع وما لا يموت فكانهم ماماتوا ، وكانهم مازالوا يعملون في رضا الله وفي تأييد الفضيلة وتأييد الأخلاق . وذلك أيضا لأن أثر جهادهم لا يزال باقيا ، ولا يزال حيا مشهودا ، فكان الجهاد كذلك باق مشهود ، وكانهم هم كذلك لا يزالون باقين أحياء مشهودين .

واسكنهم أموات في الحقيقة ، والأموات لا يسمعون فلا يدعون ولا يرجون شيء
يرجى له الأحياء ، إذ قد انقطعت أعمالهم وتناثرت أعضاؤهم وأفضوا إلى دار
الجزاء والثواب . فالآية ، على الاحتمالين ، نقض صريح على دعاة الأموات
والمؤيدين لدعائهم احتجاجاً بالآية الكريمة .

اختيار الاحتمال
الأول في حياة
الشهداء

. إننا نحن نختار الاحتمال الأول ، وهو أن يكون معنى الآية الكريمة أن
الشهداء أحياء بأرواحهم حياة حقيقية غيبية روحية ، ولكنهم في حياتهم عند
ربهم في دار الخلد والجزاء والسلام . . . فهم غائبون قصيون عنا وعن أهل الدنيا
لا نستطيع الاتصال بهم ، ولا هم يستطيعون الاتصال بنا ، فنحن في عالم وهم في
عالم آخر ، والعالمان مختلفان متباينان حقيقة ومعنى . فنحاول الاتصال بأهل
الآخرة من الأموات وغيرهم فقد ضل وجهل وحاول مالا يستطيع نياله ولا لحاقه .
ومن حاول أن يدعوم وأن يسمعهم دعاءه ونداءه وصوته واستغاثته فقد جهل
وضل . فلو أن مسلماً راح يدعو المسيح بن مريم ويستغيثه ويناديه لحاجاته
ومآربه ، بحجة أن الله رفعه إليه وأنه حي عنده ، لكان عندنا وعند جميع المسلمين
من الضالين الجاهلين . ولو أن مسلماً راح يدعو من خلقهم الله في جنته من الحور
العين والولدان المخلدين ، بحجة أنهم أحياء ، وأن الأحياء يدعون ويستغاثون ، لكان
عندنا وعند جميع المسلمين عين الضال الجاهل . ولو أن مسلماً راح يدعو شيخاً حياً
ويستغيثه ويطلبه النصرة والمغوثه والعون ، وكان كل منهما : من الداعي والمدعو
في أرض ومكان لكان عند جميع العقلاء وعند جميع المسلمين من الضالين
الجاهلين : هذا كله لاشك فيه . ولا ريب أن شراً من هؤلاء وأجهد وأضل ذلك
الذي يستغيث الأموات ويدعوم ويهتف بهم وبأسمائهم من كل مكان وفي كل
مكان بعد ما سمع قول الله : « أحياء عند ربهم يرزقون » . فأنه إذا كان ضالاً
جاهلاً من دعا حياً غائباً بعيداً عنه إلا أنه معه في عالم الدنيا كان أجهل وأضل

من راح يدعو
المسيح وأهل
الجنة بحجة أنهم
أحياء

منه ذلك الذى يدعو من هو أغيب وأبعد عنه : من هو فى عالم الآخرة وعالم الموت والفناء . إذ لا شك أن من هو معك فى الدنيا - وإن كان عنك غائبا - أقرب إليك ممن هو فى عالم الأخرى . ذلك أن الأول تمكن رؤيته ويمكن الاتصال والاجتماع به والاستماع إليه بنوع من أنواع الآلات . أما الثانى فلا يمكن الاتصال ولا الاجتماع به ، ولا تمكن رؤيته ولا السماع منه إلا أن يشاء الله فتجاوز إليه هذه القنطرة ويطويك بساط العدم والفناء ، ويلفك أفق الموت فتغوص فى أحشائه . وشتان ما بين المدعوين . .

يقول الله تعالى
أحياء ولكن

إذن نقول لهذا الرافضى المحاصم : نعم إن الشهداء أحياء ، وإن الأنبياء أولى بالحياة منهم ، ولكن هذه الحياة لا تدل على جواز دعوتهم والاستغاثة بهم . وذلك لأنهم أحياء عند ربهم لا عندك ولا عندى ولا عند دعاةهم الهاتفين بأسمائهم . فمن لك بأن تتصل بهم ! ومن لك بأن تسمعهم دُعَاكَ ونداءك ونهجاك وسرك وعملك ! ثم من لك بأن يجيبوك وينفعوك لو اتصلت بهم وفنت إليهم وأسمعتهم خطابك وهتافتك ! من لك بذلك كله حتى تدعى بأنهم يعلمون الغيوب كلها ، ويسمعون الأصوات والنداءات كلها ، ويمرقون اللغات واللهجات كلها ، وتتسع آذانهم وقلوبهم وعقولهم وطبائهم للمطالب والحاجات كلها ! وأنت إذا ما دعيت هذا كله للمشايخ أو للأنبياء والشهداء كنت عين الضال المغترى ، وكنت آخذاً من كل بدعة بنصيب ، ومن كل ضلالة بحظ وافر كثير . ولكنك ولا بد ، غير قائل بهذا وغير قابل له . فالآية ، إذن ، رد ونقض عليك وعلى جميع الاخوان والأوصياء . ولنكتف بهذا القدر جواباً عن الآية السكرية . ولنا فيها كلام ذكرناه فى مواضع أخرى يرجع إليه من أراد المزيد من الإبطال لهذه الحججة الباطلة .

﴿ الشبهة الرابعة ﴾

أما الشبهة الرابعة - وهي قوله : « إن المسلمين سلفاً وخلفاً ما زالوا يدعون ذمه ان المسلمين قد فعلوا ذلك سلفاً وخلفاً » - فجوابها أن نقول : سبحانه هذا بهتان عظيم وكتب أثيم ! هذا هو الجواب الاجمالي عن الشبهة . وأما الجواب التفصيلي فيعرف من جملة هذا الكتاب . وهل يستطيع هذا المدعى الجري أن يورد حجة واحدة على أن أبا بكر أو عمر أو عثمان أو علياً أو الحسن أو الحسين أو فاطمة أو غيرهم من الصحابة وقرابة النبوة ، أو أن الامام أبا حنيفة أو مالكا أو الشافعي أو أحمد بن حنبل أو غيرهم من الأئمة الصادقين المعروفين ، أولى الذكرى الطيبة والامامة الشائعة المتبعة في المسلمين - : استغاث بميت من الأموات ، أو دعاه لكشف ملءة من الملمات ، أو هتف به لحاجة من الحاجات وأمل من الآمال ؟ فإن لم يستطع أن يورد لنا نقلاً صحيحاً عن أحد هؤلاء فليكنفه هذا العجز إبطالا وإدحاضاً لمزعمه هذا .

﴿ الشبهة الخامسة ﴾

وأما الشبهة الخامسة - وهي زعمه أن جماعات من العلماء استغاثوا النبي عليه الصلاة والسلام واستغاثوا قبره فأغيثوا ، مثل ما ذكر عن محمد بن المنكدر وعن أبيه ، وما ذكر عن الطبراني وأبي الشيخ وابن المقرئ ، وما ذكر عن ابن الجلاب ، وما ذكر عن محمد بن أبي زرعة الصوفي وعن أبيه ، وما ذكر عن أحمد بن محمد الصوفي - من أنهم استغاثوا بقبر النبي فأغيثوا وأعطوا ما طلبوا - فالجواب أن نقول ، هذا كله من أقبح الأكاذيب وأرخصها ومن أقبح الاتهام لأهل العلم ونحن لا نشك أنه لا ينحسب إلى هذا الذي في الحكايات ولا يفعله إلا مشرك بالله مغرق في شركه . وهذا الذي نقله وزعم أن أهل العلم فعلوه تكذيب

ما ذكره من ذلك من أهل العلم وكذبه وإبطاله لمزعمه الأخرى

منه لما زعمه وذكره في غير موضع من كتابه من أن الداعين للأموات المستغيثين بهم لا يريدون منهم إلا الشفاعة والجاه والوسيلة والوسيلة . وذلك أن هذه الحكايات التي ذكرها وكثر بها صريحة في أن القوم الذين احتج بفعلهم قد سألوا النبي حقيقة فأعطاهم حقيقة . ففي الحكاية التي ذكرها عن ابن الجراد قال : « فنفوت فرأيت النبي عليه السلام فأعطاني رغيماً فأكلت نصفه وانتهت ويدي النصف الآخر . . . » وفي الحكاية التي ذكرها عن محمد بن أبي زرعة الصوفي وعن أبيه وعن ثالثهما قال : « فدخلنا المدينة فأتى أبي الحظيرة وقال : يا رسول الله أنا ضعيفك الليلة — إلى أن قال — فرأيت رسول الله فوضع في يدي دارم فبارك الله فيها إلى أن رجعنا إلى شيرازة وكنا ننفق منها » وفي الحكاية التي ذكرها عن أحمد بن محمد الصوفي قال : « فدخلت المدينة فجلست إلى النبي عليه الصلاة والسلام فسلمت ثم نمت ، فرأيت عليه السلام في النوم فقال لي : جنت ؟ قلت : نعم وأنا جائع وأنا في ضيافتك ، فقال : افتح كفك فلاهما دراهم فانتهت وهما مملوءان » .

هذه الروايات صريحة في أن المدعو حقيقة والمعطى حقيقة كذلك هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والروايات لا تحتل غير هذا . وفيها رد واضح على هذا الرفض وإخوانه زعمهم أنهم لا يطلبون من الأموات ، كالأنبيا والصلحين والمشايع ، سوى الشفاعة والوساطة والجاه ، وقولهم إن المعطى حقيقة هو الله وحده ، وإنه هو وحده تعالى الضار النافع ، المعطى المانع . . . وقد زعموا أنهم بهذا التأويل والتخريج قد حلوا هذه المشكلة ، مشكلة دعاء الموتى والاستغاثة بهم كما زعموا أنه لولا هذا التأويل وذلك التخريج لما وسعهم إلا إكفار دعاة الأموات ، وإلا إلحاقهم بالمشركين الضالين . . . ولكنهم بهذه الروايات والحكايات قد أفسدوا هذا التأويل وقوضوا ذلكم التخريج ، وأبانوا أنهم كانوا

هذه الروايات صريحة في أن المعطى حقيقة هو الرسول

كاذبين غاشين لأنفسهم ولن يخادعونهم ويضلونهم بهذه التأويل من دعاة الميتين العاجزين .

فيامن زعموا أنهم مسلمون موحدون : إذا كان الرسول وغيره من الميتين ^{يا من زعموا أنهم مسلمون} يدعون حقيقة ويعطون حقيقة ، ويرجع إلى قبورهم كل مكروب محروب ، ويبسط يديه إلى أضرحتهم وأجدانهم كل راغب طالب ، وإذا كان لديها يجاب المضطر ، ويكشف الضر ، ومنها تنال الحاجات ، وعليها تلتقى الرغبات : إذا كان هذا كله للقبور والمقبور فماذا بقي ، ويحكم ، لله رب العالمين ؟ ويا من قالوا إنهم يبرءون من الشرك والمشركون قولوا لنا وافصحوا ، ويحكم ، إذا لم يكن هذا أضخم أنواع الشرك وأثقل عبودية لغير الله فماذا يكون الشرك ، وماذا يكون المشركون ؟

ويا من زعموا أنهم مؤمنون بالقرآن وبآيات التوحيد قولوا لنا ، ويلكم ، كيف تلاقى هذه الروايات التي ذكرتموها قول الله : « أليس الله بكاف عبده » ، وقوله : « آمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . آمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون آمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . وكيف تقابل حكاياتكم هذه قوله تعالى : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلمهم يرشدون » وقوله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » وقوله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا . قل إنما أدعوربي ولا أشرك به أحداً ؟

أم كيف تقابل أمثال قوله : « قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً ، قل إني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً » وقوله : « ليس لك من الأمر شيء » وقوله : « ألا له الخلق والأمر » وقوله : « فاذا فرغت فانصب » ، وإلى ربك فارغب » وقوله : « وظنوا أنهم لا ملجأ من الله إلا إليه » ؟ بل كيف تقابل رواياتكم هذه جملة القرآن وجملة السنة وجملة الاسلام ، وكيف تقابل صريح العقل وصريح الفطرة ؟ لا إله إلا الله . صدق الله العظيم « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

كيف تقابل هذه الروايات جملة الاسلام

نعم فجواب هذه الحجة الداحضة الكاذبة أن نقول للرافضى : إننا نرفض هذا النقل ونأباه ، ولا نصدقه ولا نؤمن به ، ولا نقيم له وزناً ، ولا نتمتع به عيناً ، ولا نطمئن به كتاب الله وسنة نبيه ، ولا نرد به جملة الاسلام وجملة الدين . ونحن نتحدى المخالفين ونطلب إليهم جميعاً تصحيح الأسانيد إن كانوا صادقين . ولكن هيهات ثم هيهات لما يذكرون .

ولا ندرى والله كيف يعقل هؤلاء ، ولا كيف يفكرون ، ولا كيف يرفعون جنب الله ! إنهم يرفضون أصح الروايات وأصح الأحاديث النبوية التي اتفق على روايتها وتصديقها وتصحيحها جميع أهل السنة من أعلام الرواة أمثال البخارى ومسلم والآخرين أمثالهم . فكيف مع هذا يسوغ لهم أن يحتجوا بأمثال هذه الروايات والحكايات التي لم يروها إلا هيان عن بيان ، ولم ينقلها إلا الجهل عن أخيه النبأ عن جده الشرك بالله عن جد أبيه الوثنية الأولى الراسبة في أحماق النفوس من بقايا الشرك العريقة في نسب القدم ؟ اللهم إنا نؤمن بكتابك ونكفر بما يذكرون وما ينقلون خلافاً لدينك ولكتابك .

« الشبهة السادسة »

وأما الشبهة السادسة وهي قوله : روى ابن السني عن عبد الله بن مسعود

صحيحة إذا ادخل أحكم دأبه في ثلاثين الأرض والكلام عليه

قال قال رسول الله ﷺ: «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد: عباد الله احبسوا، فان الله عباداً يحبونه»، قال وفي حديث آخر رواه الطبراني أنه ﷺ: «إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل: يا عباد الله أعينوني - وفي رواية - أغثوني، فان الله يحب المجتهد لا ترونهم».

ثم فاجاب أن يقال: الكلام على هذا الحديث من وجين: الأول الكلام في إسناده، والثاني الكلام في معناه. أما الكلام على الإسناد فيقال: لا ريب بل لا خلاف في أن مجرد رواية ابن السني أو الطبراني أو غيرهما - ممن لم يشترطوا الصحة والثبوت في ما يروون - ليس حجة في صحة الحديث وثبوته ووجوب التسليم والرضا به. فان أمثال هؤلاء من المحدثين يروون الصحيح والضعيف والمكذوب الموضوع. ولهذا فان صياغة الحديث ونقاد الرواة يتعرضون لما يروون هؤلاء بالنقد والتخريج: بالتصحيح تارة والتضعيف أخرى والتكذيب تارة ثالثة. ولهذا أيضاً يذكر الذين ألفوا في الموضوعات أحاديث كثيرة رويت في هذه الكتب ويمدونها في عداد الموضوعات. وما أنكر عليهم عالم بالفن والحديث عملهم هذا، ولا قال لهم قائل: كيف تمدون حديثاً رواه ابن السني والطبراني موضوعاً وهما من علماء الحديث وخول الرواة؟ والسبب في هذا أن أكثر المحدثين كانوا يروون كل ما يصل إلى علمهم من الحديث والأخبار بالأسانيد ويتكونها كما هي ثقة بلم القارئ وتقدمه وبحته. فهم يودون الأمانة النقلية، كما وصلت إليهم ويدعون تمحيصها وتقدمها إلى غيرهم علماء منهم بأن مجرد روايتهم الحديث ليس تصحيحاً له ولا توثيقاً وتزكية لرواته. ولهذا فانهم أحياناً يضعفون ما يروون، وأحياناً يصححونه، وأحياناً أخرى يحسنونه، وأحياناً يعللونه، وأحياناً يسكتون عنه. ولكل في عمله وجهة ووجه. ومثلهم في هذه الناحية فقط رجال الادب الجاهلون الراوون لكل ما وصل إليهم من الأشعار والآداب الكلامية: جيداً

ورديتها ، حسنها وقبيحها ، مقبولها ومردودها . وليست روايتهم لا بيت من الشعر أو القصيدة أو للقطعة من الكلام أو للخطبة من الخطب استحساناً مطلقاً أو اختياراً لها أو رضا عنها أو تجويداً لأمرها ، كلا . بل قد يرون من الشعر ومن الكلام والخطب ما يستقبحون وما يضعفون وينقدون . نعم هنالك طائفة شرطوا على أنفسهم أن يضعوا كتباً لا يذكر فيها إلا ما يختارون ويستحسنون مثل أبي تمام في ديوان حماسته ومثل غيره . وهنالك أيضاً طائفة كبيرة من علماء الحديث أخذوا على أنفسهم أن يؤلفوا كتباً خاصة بالصالح الثوابت كما فعل البخاري ومسلم في تأليف الصحيحين ، وكما فعل غيرهما . ولكن هؤلاء ليسوا إلا أكثر في رجال الحديث . ولهذا احتاج المتأخرون من المحدثين إلى وضع الكتب المختلفة في خدمة مادونه وخالفه الأوائل منهم : فوضع بعضهم كتباً في الأحاديث الموضوعة ووضع بعضهم تخریجاً لأحاديث طائفة من الكتب ، وبعضهم فعل غير ذلك مما هو معروف معلوم .

وبالاجمال لاشك أن مجرد رواية الحديث في أحد هذه الكتب لا يكفي لتجوب العمل به والقبول له ، ولا يكفي لتصحيحه وثبوته . فهذا الحديث الذي رواه ابن السني والطبراني لا بد للمحتج به من التدليل على صحته وثبوته ، وبغير هذا لا يقبل ولا يلتفت إليه . لأن الناس جميعاً يعلمون أن هنالك أحاديث كثيرة مدونة في كتب مشهورة ، ولكنهم يعلمون بعد أن في هذه الكتب أخباراً باطلة وأحاديث موضوعة مكذوبة لا يصح الاعتقاد بأن رسول الله قالها . فلهذا الشئى مطالب أولاً بتصحيح الحديث الذي استدلل به على عبادة الصالحين ودعاء الأموات والاستغاثة بهم . وإلا فإن مسلماً عاقلاً يحب دينه واعتقاده ، ويحب أمره ونبيه لا يرضى بأن يقيم قواعد دينه وعقائده على مجرد روايات رويت في الكتب لم يقم دليل على ثبوتها وصحتها ولم يعلم هو شيئاً من ذلك .

ونحن لا نشك أن الحديث غير ثابت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد ذكره السيوطي في الجامع الصغير وسكت عنه ولفظه عنده : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوا على دابتي فان الله في الأرض حاضراً سيحبسه عليكم » . وعزاه إلى أبي يعلى والطبراني وابن السني من حديث عبد الله بن مسعود . وقال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » : « رواه أبو يعلى والطبراني ، وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف . ورواه ابن السني أيضاً في « عمل اليوم والليلة » وسنده عنده هكذا : حدثنا أبو يعلى حدثنا الحسن بن عمر بن شقيق حدثنا معروف بن حسان أبو معاذ السمرقندي عن سعيد عن قتادة عن أبي بردة عن أبيه عن عبد الله بن مسعود الحديث . ومعرف بن حسان هذا ضعيف للغاية . قال الذهبي في ترجمته من الميزان : « قال ابن عدي منكر الحديث ، قدرى عن عمر بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة » . وذكر هذا العسقلاني في لسان الميزان وزاد : قال ابن أبي حاتم عن أبيه : مجهول . ولم يذكر الذهبي ولا العسقلاني فيه ثناء أحد . فكان حديثه باطلا لا يحل الاحتجاج به . وقال في مجمع الزوائد أيضاً : قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إذا أضل أحدكم شيتاً أو أراد أحدكم عوناً وهو بأرض ليس بها أنيس ، فليقل : يا عباد الله أعينوني ، يا عباد الله أعينوني ، يا عباد الله أعينوني . فان الله عبداً لا ترام » رواه الطبراني ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم إلا أن زيد بن علي لم يدرك عتبة . هذا لفظ الهيثمي . وهذه الرواية هي الحديث الثاني من أحاديث الرافضي . وفي سندها انقطاع وفي روايتها ضعف كما ذكر الهيثمي . فهذان هما الحديثان اللذان يمارض بهما القوم كتاب الله وضرورة الدين بل الأديان كلها . فهما حديثان ضعيفان لا يعتمد بهما أهل العلم ولا يقيمون لهما وزناً . وقد حاول المصنف الشيعي الدفاع عن سند الحديث فقال في كتابه ما نصه : « إن أخذ التقهاء له بالقبول ، وذكرهم مضمونه في آداب السفر

دفاع الشيعي عن الحديث وبطلانه

وإيراد أئمة الحديث له في كتبهم كالطبراني والنووي ممن عن تصحيح سنده
لو سلم ما قالوه . وكيف خفي على الفقهاء والمحدثين أن مضمونه شرك أو حرام وظهر
ذلك لأعراب نجد ؟ »

هذا هو دفاع الشيعي عن الحديث وعن ضعف الحديث ، وهذا لون من
ألوان علمه وأدبه ومنطقه ودينه . وقد خفي على الرجل أنه لم يقل أحد من خلق
الله إن رواية حديث من الأحاديث وخبر من الأخبار في كتاب من الكتب ،
مالم يشترط الصحة ، ليست دليلا على ثبوته عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وليست
دليلا على صحة معناه وصدقه ، ولا دليلا على واقعه اتقوا عد الاسلام ولا أصوله وفروعه
وكل الناس الذين تملطوا شيئا من علوم الرواية والحديث يعلمون أن كبار الأئمة
قد يروون الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة المكنوبة . وقد عد المحدثون
على مسند الامام أحمد بن حنبل - وحسبك به علما وفضلا وإمامة في هذا الشأن -
أحاديث كثيرة باطلة ، دع عنك الضعيفة ، والمعللة والشاذة . بل زعم فريق من
نقد الحديث البارعين أن في المسند أحاديث موضوعة . هذا في مسند إمام الحديث
والفقه والعلم والتقوى أحمد بن حنبل . أما الكتب الأخرى كمؤلفات الطبراني
وابن السني وأبي يعلى وأضرابهم فالأمر فيها أوضح وأشهر وأظهر . وأنت إذا
رجعت إلى الكتب المؤلفة في الموضوعات وجدت شيئا كثيرا من هذا ، بل إذا
رجعت إلى جميع كتب أعلام النقد وكتب الجرح والتعديل وجدت الأمثولات
الكثيرة لهذا النوع . وهل الأحاديث الموضوعة التي اتفق أهل الحديث على
أنها كذب إلا أحاديث مروية في كتب الأعلام من العلماء مثل الطبراني وأبي
يعلى وابن السني والحاكم والدارقطني والخطيب البغدادي وغيرهم من شيوخ
الحديث ؟ وهذا لا يخالف فيه أحد من أهل العلم والرواية والدراية . ولو كانت رواية
الحديث في كتاب من الكتب كافية في تصحيح الحديث وثبوته عن النبي

لما كل ما روى في
كتب الحديث
صحيحا

وفي صحة معناه لما احتاج أهل العلم إلى علم الرواية وعلم الجرح والتعديل ، ولم يحتجوا إلى علم الأسانيد وإلى علم الرجال وإلى تقديم وتقدمها وإلى الكلام عليها وعليهم تصحيحاً وتضعيفاً ، قدحاً ومدحاً ، قبولاً ورداً ، ولكن ينبغي عن ذلك كله أن يذكر الحديث في كتاب من الكتب المنسوبة إلى أحد العلماء الأعلام ، ولكن أيضاً من حاول تضعيف حديث من الأحاديث المخرجة في هذه الكتب غالباً ممتدداً جاهلاً ، ولكن أيضاً تضعيف المحدث لحديث يرويه هو جهلاً وحماقة ، ولكن هذا الرافض أعلم بالسنة والحديث وعلم الرواية من أمثال البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل والذهبي والحافظ بن حجر وابن تيمية وأخبرهم من أساطين العلم وأعلام النقد .

ثم كيف يكون إيراد المحدثين للحديث في كتبهم وذكر الفقهاء له في أدلج^١ كيف يصح هذا الحديث عندهم وهم يردون جميع الأحاديث أهل السنة

السفر كافياً عند الشيعة في تصحيحه وثبوته وتصحيح معناه والشيء نفسه يكذب الأحاديث التي اتفق على روايتها البخاري ومسلم وجميع المحدثين من أهل السنة ، بل وهو وإخوانه الإمامية الاثنا عشرية يمتقدون أن جميع الأحاديث المواترة المروية في جميع كتب أهل السنة وفي أصحابها وأجودها ، الواردة في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وطائفة وحفصة وغير هؤلاء من كبار الصحابة وأئمة المسلمين : يمتقدون أن جميع هذه الأحاديث مكنوبة موضوعة على النبي عليه الصلاة والسلام ، بل يمتقدون أن جميع الأخبار الدالة على إيمان هؤلاء وإسلامهم أخبار مكنوبة باطلة ، ويعتمدون أيضاً أن جميع الروايات المروية عن هؤلاء الدالة على صدق إيمانهم وإسلامهم ودينهم موضوعة أو صحيحة ولكنها نفاق منهم . . . وقوم يزعمون أن كل حديث يدل على إيمان أبي بكر وعمر وكبار أصحاب النبي حديث مكذوب موضوع - وإن روى في جميع الكتب - كيف لا يستحيون من أن يزعموا أن إيراد الطبراني والنووي لهذا

الحديث برهان على صحة سنده وصحة معناه ووجوب العمل به ؟
ولا تتنازع الشيعة الاثنا عشرية ، طائفة هذا الرجل ، أن كل حديث لم يرد
في كتبهم من طرقهم حديث لا يجب قبوله ولا تصديقه ولا الإيمان به ولا
الاعتراف بصحة معناه ، وإن رواه أهل السنة قاطبة ، بل وإن روه في كل كتاب
من كتبهم ، وقال به كل قائل ، وعمل به كل عامل منهم . بل ولو رواه جميع الصحابة
البكرين العمرين ، ثم رواه عنهم جميع التابعين البكرين العمرين ، ثم رواه
عن التابعين جميع من بعدهم من البكرين العمرين ، وهكذا إلى أن يتصل بنا :
إن كل حديث يروى كذلك هو حديث مكذوب مزور عند الامامية الاثنا
عشرية ما لم يرووه هم بطرقهم عن أئمتهم الذين زعموا معصومين ، بل لقد
غالى القوم في باطلهم هذا حتى زعموا أن رواية الحديث في كتب أهل السنة
من الدلالات على كذبه ووضعه وبطلانه وفساد معناه ، ومنافاته لدين الله . وقد
شادوا على هذا الباطل الذي لا باطل مثله مازعموا أن منهم من الكفر الذي لا
يمثله كفر في الاسلام وهو ما زعموه من تحريف القرآن ونقصه وحذف أشياء
كثيرة منه وزيادة أشياء فيه . وعندهم أن نقل المسلمين له وحفظهم إياه
ومحافظتهم عليه في جميع المصور هكذا لا يدل على صحته ولا على أنه لم يحرف .
ولم يزد فيه أو ينقص منه . وقد زوروا أحد مشايخهم كتابا يشيد به هذا الكفر
سماء (فصل الخطاب في تحريف كلام رب الأرباب) وقد طبعوه ونشروا
في إحدى بلادهم . وسوف نتحدث عن هذا الكتاب في فصل سوف
يجي من هذا الجزء .

ثم ما هذا التعبير بأعراب نجد ؟ إن هؤلاء الذين يسميهم أعراب نجد لا يدعون
لأنفسهم السبق فيما هم فيه ، ولا يدعون أنهم أحدثوه أو ابتدعوه أو هدوا إليه
وخدم ، بل كل ما يدعون ويروون أن يكونوا على نهج السلف الصالح والرعيل
الحق لا يسمي
السبق ولكن
على الاقتداء
والنصي

الأول الذين أخبر الله عن رضاه عنهم وسبقهم إلى الخيرات والطاعات كالصحابة الذين لا يرضاهم الشيعة ، وكلائمة من التابعين ، وكلائمة الأربعة ، وكأهل الحديث . وكفى هؤلاء القوم فخراً لمفتخر ، ومقندئى لمن رام الاقتداء والاهتداء . وهؤلاء الذين يسميهم أعراب نجد ماضعوا هذا الحديث إلا لأن أهل الحديث وأهل الأسانيد والروايات قد ضعفوه قبلهم ، والذين ضعفوه مثل الحافظ الهيثمي وغيرهم لم يكونوا من أعراب نجد .

ألا يرى هذا الرافضى أن الهجاء الصحيح والسبة اللازمة ^{الهجاء الصحيح والسبة اللازمة الفاضحة} أن يقول قائلون إنه يمكن أن يكفر بالله وبالرسول وبالإسلام أبو بكر وعمر وعائشة وحفصة وخالد بن الوليد وغيرهم من كبار الصحابة ، ويؤمن بالله وبرسول الله جهال الشيعة وأغبياء الامامية ، بل أن يجهل هؤلاء الاسلام والحق وكل ما تدعيه الشيعة الامامية من الوصية والمصحة والرجعة إلى آخر ما يذكرون ثم يعلم ذلك كله جهال المتشيعين وبلداء الطائفة ، وأن يظلم أبو بكر وعمر وعثمان عليا وفاطمة بضعة النبي وبنينا ويساعدن على ظلمهم سائر الصحابة أو جاهدوهم ، ثم يجيء هؤلاء المغبونون يحاولون الانتصاف لهؤلاء المظلومين من هؤلاء الظالمين ، وأن يجهل جميع المسلمين الأولين ما فى عبادة القبور والمكوف عليها وعلى بنائها وتشيعها وتعليق المعلقات عليها وقصدها من كل مكان ودعائها وندائها من خير وفضل ومثوبة ثم يظفر بذلك كله هؤلاء الشيعة ، وأن يفوت أهل السنة جميع ما عند الشيعة الامامية من الحق والدين والروايات وجميع ما لذلك من ثواب وجزاء ، وأن يفوت كل من ليس إماميا شيعيا الحق والهدى والصحيح من الاسلام ثم يخص به هؤلاء الظالمون لأنفسهم : هذا كله هو الهجاء الصحيح والسبة الفاضحة اللازمة .

فالحديث إذن غير صحيح الاسناد ، فلا يعارض به كتاب الله وسنة نبيه .

وجهة دينه وضرورة العقل وصحيح الفطرة

هذا هو الكلام على السند . وأما الكلام على المعنى فالجواب أن يقال : إن الحديث، إن كان صحيحاً ، لا يمكن أن يكون دليلاً على صحة دعوة الأموات وذلك ظاهر بأمور : أولها قوله فيه : « وهو بأرض ليس بها أنيس » فان هذا صريح في أنه يدعو حيث لا إنسان لا من الأحياء ولا من الأموات . وإذن فالدعوة ليست للأموات . وثانيها قوله « بأرض فلاة » . فان هذا يدل على أن من أراد عوناً أو أضل شيئاً وهو في الصحراء حيث لا شيخ ولا صالح ولا ولي ولا نبي ولا إنسان لا من الأحياء ولا من الأموات ينادى النداء المذكور . ومن المعلوم بالضرورة والبداهة أن من كان في الصحراء لا يجوز له أن ينادى البدوي أو الرطاعي أو الجليلاني أو الحسن أو الحسين في المصر . ومن نادى الموتى في الأمصار وهو في الصحراء وفي الفلوات فقد زعم أنهم يجيبون من كل مكان وفي كل مكان ويسمعون كل داع ومناد قريب وبعيد . وهذا هو الضلال ، لأن فيه الاعتقاد بأنهم يعلمون الغيوب ، والاعتقاد أيضاً بأن صفة السماع فيهم غير محدودة ، وهذه هي جرثومة الضلال الكثيف . فلا شك إذن أن من قيل له ادع وأنت في الصحراء لم يرد أن يدعو الأموات والصالحين والمشايخ المدفونين في المدن والأمصار بالضرورة . وثالث الأمور أنه لو كان المنادى هنا من الأموات لقبل : من أضل شيئاً وأراد عوناً فليذهب إلى الشيخ فلان أو إلى ضريح النبي عليه السلام أو إلى ضريح غيره من الأنبياء والصالحين وليدعه وليسأله العون ورجع الضلالة النائية ، لا أن يقال له : فليناد في الصحراء يا عباد الله أعينوا أو أغثوا . فان هذا صريح في أنه لا يعنى به مشايخ الموتى . ورابعها أنه لو كان المراد ما زعم المخالفون لقبل : من أضل شيئاً وأراد عوناً فليناد يا رسول الله أو يا أبا بكر أو يا عمر أو يا عثمان أو يا علي أو يا حسن أو يا حسين ، أعينوني أو أغثوني ونحو ذلك . ولم يصح

الكلام على معنى الحديث

امور دالة على ان التحديث في الحديث من غير الاموات

أن يقال : فليناد يا عباد الله أعينوني . فإن من عباد الله من لا يصح عونهم ومن لا تجوز الاستغاثة بهم . وخامسها لو كان المنادى في هذا الحديث من الموتى لما قيل من أضل شيئا وهو بأرض فلاة فليناد بل لقليل من أراد شيئا ، أو من رهب ورغب ، أو من خاف ورجا ، أو من كانت له حاجة ومسألة فليدع عباد الله الصالحين ولينادهم وأمثال هذا . وذلك أن إضلال الدابة في الصحراء حاجة صغيرة نادرة من حاجات الانسان الكثيرة المتوافدة عليه ما دام حيا . ولا يصح إذا ما أريد التعريف بما يفعل إزاء جميع الحاجات أن يؤتى بالأندر الأقل والأخف الأصغر . ولا يفعل مثل هذا إلا من كان لا يريد التنهيم والتعليم . ونزه الله نبيه عن هذا التضليل والالغاز . وسادسها أن قوله : « فإن الله حاضرا سيحبسه » يدل على أن المنادى من الحاضرين الشاهدين . والأموات الذين في المدن ليسوا من الحاضرين ولا من الشاهدين إن دعاهم وناداهم وهو في الصحاري والفلوات . فالمنادون في الحديث من غير الأموات يقينا ، بل قوله فيه : « فإن الله حاضرا سيحبسه » يدل دلالة جلية على أن من ليس حاضرا لا ينادى ولا يدعى . والذين يدعون الأموات وينادونهم يدعون وينادون غير حاضرين وغير شاهدين بلا ريب . فهم غالطون بظاهر الحديث الذي جعلوه من براهينهم على خطئهم . وسابعها أن قوله : « فإن الله عابداً يجيبونه » دليل جلي على خطأ المخالفين وبطلان قولهم وزعمهم . وذلك أنهم يزعمون أن الأموات المدعوين لا يجيبون ، وأن دعائهم لا يريدون منهم أن يجيبوا ، ولكنهم يزعمون أنهم يشفعون فقط عند الله لمن دعاهم ليجيبهم ويعطيهم . فالذي يجيب عند القوم هو الله وخده لا شريك له . ولكن هذه اللفظة في هذا الحديث تصرح بأن المنادين المدعوين هم الذين يجيبون ، وهم الذين يغيثون . وثامنها قوله : « فإن الله عابداً لا ترونهم » نص أو كالنص في أن هؤلاء المنادين من غير الأموات ، إذ لو كانوا منهم أو كانوا إياهم

لقليل : فان المشايخ والصالحين ، أو الأنبياء والمرسلين ، أو إخوانكم من المؤمنين
الذاهبين ، يجيبونكم أو يسمعونكم أو نحو ذلك . أما إذا قيل : فان الله عبداً
لا ترونهم ، أو لانراهم فلا ريب عندنا في أن التحديث عن غير الأموات ،
وهذا يعرفه كل من يعرف .

سؤال وجوابه
هذه أمور ثمانية تدل مجتمعة دلالة قاطعة على أن الحديث المذكور ليس
تحدثنا عن الأموات ولا عن دعوتهم والاستغاثة بهم . فاذا ما قيل : من المنادون .
المرادون إذن في هذا الخبر ؟ فالجواب أن نقول : ليس بل لازم أن نعرفهم ولا أن
يعرفهم غيرنا ، لأن الحديث ، إن صح ، لم يعرفهم ولم يذكر ما يدل عليهم ولا على
صفتهم . فالجائز إذن أو المطلوب من المسلم إن كان الخبر صحيح السند - وهو غير
صحيحه - إذا أضل دابة في الصحراء وأراد أن يعمل به أن يقول كما في نصه :
ياعباد الله احبسوا على دابتي ، أو يعباد الله أعينوني . ولا ينطق بغير ذلك من
الدعوات والكلمات كأن يسمى أحداً : شيخاً أو صالحاً أو نبياً في دعوته وندائه .
ومن فعل ذلك فقد خالف الحديث وصنع ما لا علم له به وما يجوز أن يكون عين
الخطأ والضلال والجهل ، وما قد يؤخذ عليه بلاريب . فان قيل أيجوز أن يكون
هؤلاء الذين أمر بدعوتهم وندائهم من الملائكة ؟ قلنا في الجواب : نحن لا نقطع
بشيء من هذا في هذا المقام إلا أن الذي نقطع به ونقوله هو أنه لا يجوز لمن أحب
أن يعمل بالخبر أن يدعو الملائكة أو أن يدعو الدعاء المذكور ضمراً في نفسه
الملائكة أو غيرهم معينين ، لأن الحديث لم يذكر شيئاً من هذا . ولكن لاريب
لدينا أن دعوة الملائكة غير جائزة للأدلة والحجج الناطقة التي ذكرناها في الفصل
الآتف من هذا الجزء .

سؤال آخر
فان قيل أيضاً : ألا يمكن أن يكون المنادون هم الجن أو هم من الجن ؟ قلنا .
في الجواب : نحن لا نقطع بشيء من هذا النوع أيضاً لأن الحديث لم يذكره ولم

يشير إليه ، فيجب على العامل به أن يلتزم نصه ولفظه وأن يدع ماعداء وقوفه مع النص وعملًا به وحذرًا من الزلل والخطأ ، غير أننا لانشك في بطلان دعوة الجن والاستغاثة بهم لأجل الحجج والبراهين الصحيحة الباهرة التي قدمناها في البحث السابق .

فاذا ما قيل حينئذ : ماذا يراد بالحديث ومن المعنيون به ! قلنا لا مانع أن يكون مرادًا به بعض الأحياء البشر ممن يوجدون عادة في الصحارى والقفار ، فيكون في نداء المنادى الذى أضل دابته تنبيه لمن لعله يكون موجوداً في ذاك المكان وتلك الناحية . فلا يكون في هذا النداء شئ من دعاء الموتى أو دعاء الملائكة والجان ، بل لا يخرج حينئذ عن أن يكون من دعاء الحى وسؤاله ما يقدر عليه عادة . وقوله في الحديث « فان لله عبداً لا ترونهم أولاً نراهم » لا يأتى هذا الاحتمال ولا يأتى هذا رأى ، وذلك أنه يجوز أن تكون في أرض فلاة لا ترى فيها أحداً ولا تسمع لشيء صوتاً ولا تحس له أثراً ، فتنادى النداء المذكور في الرواية فيتحاح صدفة وقدرًا أن تجد من يجيبك ومن يسمع صوتك ونداءك فيعينك على ما أردت ودعوت .

الذين بين الدعاء
المطلق وبين دعاء
المخلوق المعين

والذى لاشك فيه أن هنالك فرقا شاسعا بين أن تدعو مخلوقا من الأموات معينا باسمه مثل أن تقول يا بدوى أو يا أبا بكر أو يا عمر أو يا حسن أو يا حسين احبس على ضالتي أو أعنى على أمرى ، وبين أن تقول ، مطلقا قولك مرسلا لخطابك وندائك : يا عباد الله احبسوا على ضالتي ، أو أعينوني ، أو أغثوني . لأنك إذا دعوت صالحا أو نبيا معينا باسمه ووصفه ونعته وطلبت إليه أن يعينك وأن يغيثك وأن يحبس عليك دابتك وضالتك فقد اعتقدت بلا ريب أن ذلك النبی أو الصالح المدعو المهتوف به قادر على إجابتك وسماع صوتك من كل مكان وفى كل مكان ، وأنه يعلم ما قرب وما بعد وما خفى وعلنى ، وأنه بعد ذلك ذو سر عظيم

وسلطان قاهر واسع ، حتى إنه .ليقدر على إجابة الطلبات المختلفة ، وسمع الاصوات . كلها على بعد ها واختلافها أيضا ، ويعلم بالمنادين له على كثرتهم وتفرقهم واختلافهم . أيضا . وهذا كله يستازم التأليه والعبادة ، وهذا كله ضلال مستقل قائم بنفسه . أما إذا دعوت دعاء مطلقا مرسلًا قائلا : يا عباد الله احبسوا أو أعينوا أو نحو ذلك ، فليس فيه شيء من تلك الأمور الخاصة بالله الموجبة للشرك والضلال . وهذا لأنك قد تكون سليم الاعتقاد والدين من الشرك والنسب والابتداع ، فلا ترى أن أحداً مع الله يعلم الغيب أو يعلم البعيد والتقريب ، أو يقضى الحاجات على اختلافها وتباينها ، أو يصح أن يدعى وينادى من كل مكان ، بحيث تعتقد أن الأموات والأشياخ لا يصح أن يدعوا وأن يستغاثوا وأن ينادوا الكشف الضراء . ويطلب النماء : يجوز أن تكون بهذا المكان من طهارة الاعتقاد ونقاؤه وبصحة من العقل والأمراض ، ومع هذا كله تقوم في الصحراء وفي جوف القفر البلقع . وقد ضل لك ضال . فنقول : يا عباد الله احبسوا أو أعينوا أو أغثوا معتقدا أو مجوزا ان هنالك . حيث يذهب صوتك وحيث يتسع نداؤك . من يجيبك ، ومن يرد عليك ضالتك وحاجتك ، ثم قد تكون في هذا الظن والاعتقاد مصيبا ، وقد تكون مخطئا ، أعنى أنه قد يكون ثمة من يجيبك ويسمع صوتك ، وقد يذهب نداؤك ورجاؤك على أجنحة الريح ، فلا تجد من يجيب ولا من يسمع . وليس في الحاليتين ضلال ولا سوء اعتقاد ، ولست في هذا النداء والرجاء عابداً ولا مؤلهاً لأحد . سوى الله ، وإنما أنت حينئذ بشر ظن ظنا فعل بظنه ، والظن قد يخطئ . وقد يصيب . ولكن لا ريب أنك في ندائك ورجائك هذا مخالف كل المخالفة لدعاة الأموات العاكفين على الأجداث كما تقدم . وما مثل هذا إلا إنسان أعمى يقف في الطريق العام ، ويصادف أن يكون الطريق خاليا ، فيقول : يا رجلا أو يا فلان خذ بيدي أو أرشدني إلى الطريق . فاذا نادى أعمى هذا النداء ،

هذا كقول
الاعمى لرجلا
خذ بيدي

وطلب هذا الطلب ، ورجا هذا الرجاء ، وقدر أن لا يجد أحداً وألا يكون هناك من يسمعه ومن يجيبه ، لم يكن قائلاً إثمًا ولا طالباً حراماً ، ولا معتقداً شركاً أو ضلالاً لأنه لم يعتقد في أحد سرا من الأسرار ، ولا سلطاناً على علم الغيوب وقضاء الحاجات كلها وعلم القريب والبعيد كدأب الداعين للأشياخ من الأموات . وفرق عظيم بين نداء هذا الضريبر وبين أن يقف ضريبر آخر في الصحراء قائلاً : يا بدوى أو يا رفاعى أو يا حسن أو حسين أو عبد القادر الجيلانى ، خذ يدي أو اهدنى الطريق أو أقتدى مما أنا فيه أو رد على بصرى أو استغنى أو اطمئنى أو نحو هذه المطالب الكبيرة . . . ولا يشك إنسان فى الفرق بين الموقفين والاعتقادين والنداءين والضريبرين . ولا يشك مسلم فى ضلال هذا الأخير وخروجه على الاسلام وعلى التوحيد وشركه بالله رب العالمين . وليس كذلك الضريبر الأول المنادى من عساه يكون موجوداً من الأحياء ليأخذ بيده ويهديه السبيل .

فالذى يقف فى الصحراء وينادى يا عباد الله احبسوا على دابقى أو أعينونى مريداً بذلك الأموات والأشياخ من سكان القبور ، مأمثله لإمثلة هذا الضريبر المنادى فى صحرائه للأموات . والذى ينادى هذا النداء من قلب الصحراء مريداً بندائه من عساه يكون موجوداً حاضراً من الأحياء مأمثله لإمثلة الضريبر الواقف فى عرض السبيل قائلاً : يارجلاخذ يدي ، قاصداً من قد يسمعه من الأحياء . ولا ينازع عاقل فى الفرق بين الأمرين والرجلين . وهذا المثل الصحيح الذى ضربناه يفسد على المخالفين مثلهم المشهور وقولهم المعروف الذى يدافعون به عن شرك المشركين وضلال الضالين . . . أعنى قولهم : إنه لو فرض أن الأموات لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولا يقدرّون على إعطاء من سألمهم ورجاهم لما كان فى هذا شئ من الشرك والضلال ألبتة ، وإنما يكون ذلك حينئذ خطأ مجرداً لا أكثر .

مثل المنادى
للأموات من كل
مكان والقائل
احبسوا على
دابقى

ولا أقل . . . قالوا : ومثل هذا أن تطلب إلى مقعد أن يقوم وأن يمشي حاسباً أنه قادر على ذلك ، وأن تطلب إلى أعمى أن يقرأ وأن ينظر حاسباً أنه غير أعمى وأمثال هذا . قالوا : وبهذا يخلص دعاة الموتى من الشرك والضلال وفساد الاعتقاد . ولكن فات هؤلاء المنتصرين للعاكفين على الاجداث الفرق العظيم بين من دعا حياً وطلب منه أمراً ظاناً أنه عليه قادر ، وبين من دعا الموتى وسألهم حاجاته وآماله وأغراضه وآربه واستدفع بهم مخاوفه وأسباب خشيته . والفرق بين الأمرين واضح جلي لا يجوز أن يدق على أفهام من يتصدرون للتأليف في أمهات الدين ولا يرشاد الناس ، ومن يحاولون أن يحتازوا الزعامتين : الديلية والعلمية . وذلك أن الداعي للحى العاجز - ظاناً أنه غير عاجز - لم يعتقد فيه شيئاً من الاعتقادات الغالية الفاسدة ، ولم يهبه صفة من صفات الله مثل علم الغيب وعلم القريب والبعيد والحاضر والغائب ، ومثل القدرة المطلقة على قضاء الحاجات والرغبات ، ولم يعتقد فيه سرّاً من الأسرار ولا سلطاناً من السلاطين الغيبية ، ولم يعتقد فيه شيئاً فوق الأسباب العادية ، ولم يهبه تلك الرهبة النفسية ، أو يرغب فيه ذلك الرغب المخالف للرغبات المعهودة بين الحى والحى والحاضر والحاضر ، ولم يخشعه ويحذره على القرب والبعد وفي الحضرة والمغيب ، ولم يقرر في نفسه قرار الأموات والأشياخ الصالحين أو من زعموا صالحين من الطالحين في نفوس دعاة الهاتنين بأسماهم . هذا كله لم يعتقد منه شيئاً ذلك الذى يدعو الحى ^١ ليس هذا بهذا العاجز حاسباً أنه غير عاجز . . . أما الذين يدعون الأموات والأشياخ الصالحين فانهم قد اعتقدوا فيهم جميع هذه الأمور حتى قاموا منهم مقامات العبيد الأرقاء الأذلة الصاغرين من الاله ، وحتى هبطوا إليهم في قبورهم بكل ما يرتفع به العابد الراشد إلى مقام المعبود الحق من الأشياء الظاهرة الصورية ، والمعاني الباطنية الروحية الحقيقية ، حتى أرونا هذه الوثلية النكراء المنتشرة اليوم وقد ١

أضرحة الميتين في أكثر البقاع الاسلامية . . . إذن فقياس هذا على هذا من القياس المرغوب عنه ، وإذن فالدفاع عن عبدة المشايخ والأموات بهذا الأسلوب من الدفاع الخاسر الباطل ، وإذن فالهجاج عن المشركين بهذا المثل من الهجاج الداحض .

والحاصل أن هذا الحديث ، إن كان صحيحاً ، فالواجب على العامل به أن يأخذ بلفظه ونصه دون أن يزيد أو يقيس عليه أو يستدل به على غير ماورد فيه بعد أن يعلم أن دعوة الأموات والجان والملائكة باطلة ممنوعة بالدلائل والبراهين التي قدمنا في البحث السابق . ومن جعل هذه الرواية دليلاً على جواز دعاء الميت أو دعاء عالم الجان أو عالم الملائكة فقد زعم مالا قبل له بأقامة الحجة عليه ، وما يعوزه أن يمجده في ألفاظ الرواية أو في فحواها ما يصححه أو ما يجعله جديراً بالاحترام والالتفات إليه . فهؤلاء المحتجون بالرواية على ما هم فيه من الفوضى الاعتقادية والمظاهر الوثنية الاثراكية كاذبون على الرواية وعلى نصها وعلى روحها ومعناها . هذا لو كانت صحيحة ولكننا لا نشك في ضعفها وبطلانها ونكارتها . والله أعلم .

﴿ الشبهة السابعة ﴾

أما الشبهة السابعة — وهي ما جاء أن بلال بن الحارث ذبح شاة فوجدها هزيلة فصار يقول : وإعجده ! وما جاء أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كان شعارهم في قتال مسيلة الكذاب : وإعجده ! وما جاء أن عبد الله بن عمر خدرت رجله فقيل له اذكر أحب الناس إليك فقال : وإعجده . فانطلقت رجله — فالجواب عن هذه الشبهة أن نطالب أولاً المخالفين بتصحيح الأسانيد وإثبات هذه الروايات . وقبل أن يقيموا الحجة على صحتها وثبوتها بالطرق العلمية الفنية الصحيحة الا يلتفت إلى شبهتهم هذه ولا يعبأ بها ، ولا يعبد الله بها إلا كل من هان عليه

جواب الشبهة
السابعة وعنه
الروايات
المرهومة

دينه وهانت عليه نفسيه وعقبه ومنطقه، ولا يهاب في أن يركل في ثور واحتجة كل
 الواجب اعلمته تصحيحها وإثباتها في ثقل ومحترم، وإلا فالخطا في كنهية
 والكنف أكثر. فهذه الجبهة من دودة على الخالف وعلى ثقلها عنه. ونحن
 قلده فيها حق يصحها إما بتصحيح أمة هذا الشأن وهم الحديثون، وإما بالتدليل
 على صحتها بالأدب الفقهية الصحيحة المقبولة التي عبادها وخلفها رجال الحديث
 الأبرار. فان من المعلوم الجليل أن قول الشيخ دجلان بن الذي ينقل عنه في هذا
 الرافضي : صح عن الرضا عليه السلام عن صحابته كذا وكذا ليس من كلامهم في ثقلها
 ولا كنه، وليس من الدراهم في قبيل ولا دهر. فالشيخ دجلان ونظرائه،
 كذا الشيخ، بعداء من معرفة صحيح السنة بن ضيقها، قاصرة خطاب من
 إدراك هذه الغاية وهذه الصناعة العلمية والطبية ولا شيك، وهم إذا نقلوا، فلا
 مجرد آكروا متعبد، وكان الاعتقاد عليهم وعلى نقلهم باطلا خطأ تغليب أهوائهم
 على دينهم وتغواهم، وجعلهم على علمهم وميراثهم، فدينهم بصراية عرضي الهوى،
 وعلمهم مضايك. يداء الجدل رومن وقع بين الجمل والهوى لم يصح. الزكوى،
 ولا الاعتماد عليه. فنحن لا نقبل هذه الروايات بمجرد أن قال الشيخ دجلان
 أو قال الشيخ حسن الأمين العزلي. فلما هم صحيحة ثابتة. والكتاب والسنة منام
 أصحجة، عن الإمامين لم تعلم صحته أو بما لم يرقم الدليل عليه. وقد أفر القرآن
 والكرام والسنة والإخبار بالعلم والحجة أو البرهان، وأمرنا بالسير تحت المظلة، وفي
 وضع النهار المأخوذ، ونهانا عن الأخذ بالخلق والخرص، والرجوع والجهل وعن الناس
 في البلاط. ونهانا عن جود البيل الدار كره، وأمرنا بالتبين والتثبت، ونهانا أن يفتروا
 الخمر، ما ليس له به من ثقل ولا حجة. وفيه كل كلام النزهة الصريحة في الطرح
 ما كذب الخلد في هذا، ذكر كفى بالمجمل، وإثبات الحديث بكل ما يجمع به. وقد قيل :
 لولا الأسماء لقال من شاء الله ما يشاء، وقيل أيضا لولا الأسماء لقال من شاء الله ما يشاء.

وروى محمد بن زياد عن صدقة بن يزيد الجهني عن أبي بكر الهذلي قال :
دخلت على محمد بن سيرين وقد خدرت رجلاه فتقعهما في الماء وهو يقول :
إذا خدرت رجلى تذكرت قولها * فناديت ابني باسمها ودعوت
دعوت التي لو أن نفسى تطيعنى * لألقيت نفسى نحوها فقضيت
فقال يا أبا بكر تلشد مثل هذا الشمر ؟ فقال بالسك وهل هو إلا كلام حسنه
كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه .

أخبرني أحمد بن الحسن الصوفي حدثني علي بن الجعد حدثنا زهير عن أبي
إسحاق عن عبد الرحمن بن سفيان قال كنت عند ابن عمر فحدثت رجله . وذكر
الحديث مثل ما تقدم . هذا كله ذكره ابن السفي في كتابه عمل اليوم والليلة .

وأسانيد هذه الروايات : أما السند الأول فهو محمد بن إبراهيم الأحمطي
وعمر بن الجنيد بن عيسى - معا - عن محمود بن خدّاش عن أبي بكر بن
عياش عن أبي إسحاق السبيعي عن أبي شعبة أو أبي سعيد عن ابن عمر . . .
أما الأحمطي فذكره الخطيب في التاريخ ولم يذكر فيه مدحا ولا قدحا غير أنه قال
حدثني الحسن بن محمد الخلال أن يوسف القواس ذكره في جملة شيوخه الثقات .
ولم نجد له ترجمة غير ما ذكر الخطيب . وأما عمرو بن الجنيد بن عيسى فلم نجد له
ترجمة مطلقا . وأما محمود بن خدّاش فتنة مشهور . وأما أبو بكر بن عياش فإمام
معروف مخرج حديثه في الصحاح إلا أن النقاد من علماء هذا الشأن ذكروا
أنه كان بهم وينلط كثيرا ، وأنه قد تغير بعض الشيء . وقد قال الذهبي في ميزانه
عنه : « صدوق ثبت في القراءة ولكنه في الحديث بهم وينلط ، وهو صالح الحديث
ولكن ضعفه محمد بن عبد الله بن نمير . وقال أبو نعيم لم يكن في شيوخنا أكثر
غلطا منه . وقال أحمد ثقة ربما غلط ، وهو صاحب سنة وقرآن . وكان يحمي بن
سعيد لا يعبا به ، إذا ذكر عنده كلع وجهه . وقال ابن معين ثقة كثير الغلط

السند الاول
ويأيد طه وضطه

جدا ، وكتبه ليس فيها خطأ . وذكر مثل هذا العسقلاني في تهذيب التهذيب ، وروى تضعيفه عن جماعة وتوثيقه عن جماعة أخرى . قال وكان يحيى القطان وعلى ابن المديني يسيئان الرأي فيه ، وذلك أنه لما كبر ساء حفظه فكان يهمل إدا روى . وقال العجلي : كان ثقة قديما ضاخب سنة وعبادة ، وكان يخطئ بعض الخطأ . وقال ابن سعد : عمر حتى كتب عنه الأحداث وكان صدوقا ثقة عارفا بالحديث والعلم إلا أنه كثير الغلط . قال وقال أبو عمر بن عبد البر : كان الثوري وابن المبارك وابن مهدي يثنون عليه ، وهو عندهم في أبي إسحاق مثل شريك وأبي الاحوص إلا أنه يهمل في حديثه وفي حفظه . وقال الحاكم أبو أحمد : ليس بالحافظ عندهم . وقال الساجي : صدوق يهمل . وقال البزار لم يكن بالحافظ وقد حدث عنه أهل العلم واحتملوا حديثه . . . وقد ذكرنا فيه غير ذلك . وكتبهم متفقة على أنه صدوق ثقة نفسه وفي كتبه ، صاحب سنة ودين وخير ، ولكنهم متفقون على أن في حفظه شيئا من الغلط والوم . لحديثهم ، كما ذكرنا ، محتمل إذا لم يخالف الثقات ، ولكن لا يصح أن يكون ما انفرد به حجة في مثل هذه المسائل الكبرى إن لم تشهد له الشواهد وتسند المتابعات :

وأما أبو إسحاق السبيعي فامام لا يسأل عن مثله

وأما أبو شعبة المحدث عن ابن عمر فلا أعرف من يكون . وقد ذكر في تهذيب التهذيب شخصا واحداً يكنى أبا شعبة ولم يذكر سواه . قال : أبو شعبة المدني مولى سويد بن مقرن المزني كوفي ، روى عن مولاة في تميم لعلم الصورة ، وعنه ابن المنكدر . ذكره ابن حبان في الثقات . . . ولكن لا نسري هل يمكن أن يكون هذا هو الراوي عن ابن عمر الحديث المذكور ؟ في هذا شك بل بعد . وقال في الميزان : أبو شعبة الطحان كان جاراً للأعمش . قال الدارقطني : متروك . ولم يذكر الذهبي غيره . وقال ابن حجر في تمجيد المنفعة : أبو شعبة الطحان الكوفي جار

الأعرجين غلق لهما بالزبد يبيع بغيره أيضا لعمري لو عينه أتوا أحدا أو يبرني . قال الدار قطني
 بكر ولدك . ولم يذكر مثواه . لو كان قال في لسان الجبلان قوله . بأنهم كرموا . أيضا . فهل
 يمكن أن يكون ههنا هو أبا شعبة لهذا كورني الخفيث مع اللحن . يلبسوا . ألا . يكونه . بما
 ويظهر أنه . لم يدرك ابن عمر . بل هو لا . جميعا لم يذكر . وأما تاريخ تولدتهما . ولا تاريخ
 وفاته حتى انتهى . بل في من هذا . إلى آخر قال الحقيقة المنشوعة . ولم يذكر الخطيب
 في التاريخ أنها . بكل هذه الكنية . وكذا لم يذكر الملائكة في باقي الكنى . والأما
 ما يبين هذا الراوي . في الخطيب . وأما من يذوق الاحتجاج بهذا الخطيب
 البحث عن هذا الراوي . ومعرفة المزمع . أم طرفة . وقيل . معرفته . لا يجوز
 هذا أخذ من الناس الاجتماع . بحديثه .

هذا على تقرير ابن جرير . الراوي . أي . شعبة . كما ذكر في النسب . المعطوطة .
 في الحديث . وأما على . أي . أبو بصير . كما أشير إلى أنه . كذلك . في النسب . والاضطراب
 والتحرى . مقتولان . في الخطيب . من . أي . شعبة . الجبل . في الحديث . في الخطيب . في
 يكون ههنا . الكنية . وقد لا يجمع إلى الكنى . في . أي . شعبة . الجبل . في الحديث . في الخطيب . في
 والميزان . وتسجيل المتعة . تاريخ الخطيب . فلم أجد من أسلمة . أي . الجبلان .
 مثلا : أبو سعيد الأزدى عن أبي جعفر . لا يكره الإبر . وليلة . قلادة . أي . أبو سعيد
 الجبلاني . عن حمزة . عن أبي جعفر . وعنه . أي . الجبلاني . وأبو زرعة . لا يعرفه .
 أبو سعيد عن ابن عمر لا يعرف . وعنه . أي . الجبلاني . أبو سعيد عن ورائه .
 شاعره . في جهالة . أي . جعفر . ابن جعفر . أبو سعيد . أي . الجبلاني . عن . لا يدري .
 من هو . أي . جعفر . عن شريح المصري . أبو سعيد . أي . الجبلاني . قال الجوزي .
 غير ثقة . أبو سعيد . أي . الجبلاني . عن أبي جعفر . وعنه . أي . الجبلاني . وعنه . أي . الجبلاني .
 ما جده . أي . أبو سعيد . أي . الجبلاني . عن أبي جعفر . وعنه . أي . الجبلاني . قال ابن جرير .
 مجهول . لا يعرفه .

مسئله: وقد ذكر في التمهيد في التمهيد في بعض المصنفين الذين لا يرون في العلم كرم المذاهب: روي في ذكرها
غيرهم، مؤلفين لم يذكر ما يلقون على أن يثبت عنه ما يثبت عنه.
نا يروى في كتابي: أن الذين لا يرون في العلم كرم المذاهب: روي في ذكرها
ومنهم الثقات، وأما الذين لا يرون في العلم كرم المذاهب: روي في ذكرها
من لم يثبت عنه عينه، وليس في تعجيل المنفعة ما يثبت هذا القول ولا ما يثبت
على معرفته، وحقيقة: فهذا الاستناد مطعون في الأصل، فالحاج به عند أخذ من
المسلمين: أهل البصر والعرفه.

وَأَمَّا الْأَسْفَدُ الثَّانِيُ وَهُوَ أَبُو أَحَدٍ يُعْلَمُ مِنْ غَيْثِي عَنْ أَحَدَيْنِ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ
إِسْرَافِيلَ عَنْ سَلَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ أَوْ ابْنِ سَلَمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ عَمْرِو بْنِ خُثَيْمٍ عَنْ بَعْضِهِمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَوْلُهُمَا أَمَّا جَعْفَرُ بْنُ عَيْشٍ
وَأَحَدُ ابْنَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ فَلَمْ يَجِدْهُمَا بَرَجَةً لَا فِي مَهْدَيْتِ الْبَهْدَيْتِ وَلَا فِي
الْمِيزَانِ وَلَا فِي لِسَانِ الْمِيزَانِ وَلَا فِي تَعْجِيلِ الْمَنْفَعَةِ وَلَا فِي تَأَخُّرِ الْبُشْدَادِ فَلَمْ يَجِدْ
عَنْهُمَا مِنْ ابْنَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ وَلَا مِنْ ابْنَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ وَلَا مِنْ ابْنَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ
وَأَمَّا سَلَامُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَوْ سَلَمٌ فَقَالَ الْخَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي مَهْدَيْتِ الْبَهْدَيْتِ
سَلَامُ بْنُ سَلَمٍ وَيُقَالُ ابْنُ سَلَمٍ أَوْ ابْنُ سُلَيْمَانَ وَالضُّوَابُ الْأَوَّلُ أَبُو سُلَيْمَانَ
وَيُقَالُ أَبُو أُوتُبٍ وَيُقَالُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ سَلَامُ الطَّوِيلُ الْمَدَائِقِيُّ خَرَّاسَانِي
الْأَصْلُ رُوِيَ عَنْ أَبِيهِ الطَّوِيلِ (يُقَالُ ابْنُ سَلَمٍ) قَالَ أَحْمَدُ يَرْوَى أَحَادِيثُ
مُسْنَدُهُ وَقَالَ ابْنُ أَبِي شَرِبَةَ (يُقَالُ ابْنُ سَلَمٍ) قَالَ أَحْمَدُ يَرْوَى أَحَادِيثُ
وغيره عن ابن معين بن أبي شَرِبَةَ (يُقَالُ ابْنُ سَلَمٍ) قَالَ أَحْمَدُ يَرْوَى أَحَادِيثُ
لَيْسَ بِحَجَّةٍ وَقَالَ الْجَوْزْجَانِيُّ لَيْسَ بِحَجَّةٍ وَقَالَ الْبُخَارِيُّ بَرَجَةٌ وَقَالَ صُرَّةُ
يُشْكَلُونَ قَبْلَهُ وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ صَعِيفٌ مُطْلَقٌ بَرَجَةٌ وَقَالَ أَبُو رُحَّةٍ
صَعِيفٌ وَقَالَ النَّسَائِيُّ مَرْكُوكٌ وَقَالَ صُرَّةُ لَيْسَ بِحَجَّةٍ وَلَا يَكْتَسِبُ حَدِيثَهُ وَقَالَ

ابن خراش : كذاب ، وقال مرة : متروك . وقال أبو القاسم البغوي : ضعيف الحديث جدا . وروى له ابن عدى أحاديث وقال لا يتابع على شيء منها ، وأخرج له الحديث الذي أخرجه ابن ملجه . وليس عنده غيره . وقال ابن حبان : روى عن الثقات الموضوعات كأنه كان متعمداً لها . وقال اسحاق بن عيسى : ثقة . وقال المعلى : ضعيف . وقال الساجي : عنده منا كبير . وقال الحاكم : روى أحاديث موضوعة . وقال أبو ليم في الحلية في ترجمة الشعبي : سلام بن سليم الخراساني متروك بالاتفاق .

وقال الخطيب البغدادي في التاريخ : سلام بن سلم ويقال ابن سليم ، ويقال ابن سليمان - والصواب ابن سلم ، أبو عبد الله التميمي المعروف بالطويل من أهل خراسان . سكن المدائن . ثم ساق الخطيب مقادح الناس فيه وزاد على ما نقله صاحب تهذيب التهذيب فيه قوله : قال الغلابي : سلام الطويل مدائني ضعيف . وقال في موضع آخر : سلام بن سلم مذموم .

وأما غياث بن إبراهيم فقال في الميزان : غياث بن إبراهيم النخعي عن الأعمش وغيره . قال أحمد : ترك الناس حديثه ، وعن يحيى ليس بثقة . وقال الجوزجاني : كان فيما سمعت غير واحد يقول يضع الحديث . وقال البخاري : تركوه ، يكفى أبا عبد الرحمن ، يعد في الكوفيين . قال الذهبي : روى عنه بقية ومحمد بن حمران ومحمد بن خالد الخنظلي وبهلول بن حسان وعلي بن الجعد . وهو الذي ذكر أبو خيثمة أنه حدث المهدي بخبر (لاسبق إلا في خف) فمس فيه (أو جناح) فوصله . ولما قام قال المهدي : أشهد أن قنك قنا كذاب . وذكر المستقلاي في لسان الميزان ما ذكره الذهبي في الميزان وزاد عليه : قال الآجري سألت أبا داود عنه فقال كذاب ، وقال مرة : ليس بثقة ولا مأمون . وقال ابن معين كذاب خبيث . وقال الساجي : تركوه وقال صالح جزرة : كان يضع الحديث . وقال أبو

أحمد الحاكم : متروك الحديث . وقال النسائي في الجرح والتعديل : ليس بثقة . ولا يكتب حديثه . وقال ابن عدي : بين الأمر في الضعف ، وأحاديثه كلها شبه الموضوع . وذكره العقيلي وابن الجارود وابن شاهين في الضعفاء . وذكر هذا كله ابن حجر . فالرجل متفق على ضعفه .

وأما عبد الله بن عثمان بن خثيم فقال في الميزان : عبد الله بن عثمان بن خثيم المسكي روى عن ابن معين : أحاديثه ليست بالقوية ، وروى أحمد بن أبي مرزيم عن ابن معين : ثقة حجة . وحكى عن ابن مهدي توهينه . وقال أبو حاتم : مابة بأس صالح الحديث ، وقال مرة لا يحتج به . وقال النسائي عقب حديثه : « عليكم بالاثم » : لين الحديث . وقال في التهذيب : عبد الله بن عثمان بن خثيم القاري المسكي . روى عن أبي الطفيل وصفية بنت شيبة وقيلة وعطاء وسعيد . ابن جبير وأبي الزبير وشهر بن حوشب ومجاهد ونافع مولى ابن عمر وعنه السفينان وابن جريج وحماد بن سلمة وحفص بن غياث وغيرهم قال ابن أبي مريم عن ابن معين ثقة حجة . وقال المعجلي : ثقة . وقال أبو حاتم : مابة بأس ، صالح الحديث . وقال النسائي : ثقة ، وقال مرة : ليس بالقوى . وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : كان يخطئ . وقال الدورقي عن ابن معين : أحاديثه ليست بالقوية ، نقله ابن عدي وقال : وهو عزيز الحديث وأحاديثه أحاديث حسان . وقال ابن سعد كان ثقة وله أحاديث حسنة . وقال النسائي : ليس بالقوى . قال : ولم يترك يحيى ولا عبد الرحمن حديث بن خثيم إلا أن علي بن المديني قال : ابن خثيم منكر الحديث ، وكان علي بن المديني خاف للحديث . هذا حاصل كلامهم في ابن خثيم هذا . وقد أخرج مسلم حديثه في الصحيح . وأما مجاهد فلا يسأل عن مثله . فهذا الاسناد الذي أسند الحكاية إلى عبد الله بن عباس استراح ذاهب هالك لا يجوز الالتفات إليه .

وقال ابن قانع ثقة . لهذا لما قالوا في الرجل . فلان يكثر من يطمعونه .
 ولما قيل إسرائيل فلو إسرائيل بن يونس بن إسحاق السبيعي أخينا السبيعي الإمام
 الثقة المشهور . فتنة من رجال الصحيحين ، ولا يبالى بشطعيف من الصفقة . من
 المشددين في النقد . وأما أبو إسحاق فلا ينال على مثله .
 وأما الهيثم بن حنش بهذا الضبط فلم أجده . ذكر آ في الكعبة الجبلية .
 قال في بعد آذ ويران الاضطهاد ولسان الميزان . وهنيت التهذيب . وفيه من المنفعة .
 والذي يفتد إلى الله . صاحب آق الطبع أن يقال : الهيثم بن حنش . لا ابن حنش
 فيكون هو الذي قال عنه لسان الميزان : الهيثم بن حنش . قال الخطيب في
 الكفاية لم يرو عنه غير أبي إسحاق السبيعي . وهذا لا يبعد . التقارب القرب
 وكثرة الشبه بينهما . والكتب المطبوعة في الهند كثيرة التعريف . والنسخات
 وتحيث يكون الهيثم هذا الجوهل لا يفتد به . وهذا الاستاذ الذي هو الثالث
 في الكتاب .
 أما الاستاذ الرابع . وهو أحمد بن محمد بن الصوفي عن محمد بن أبي عبد الله عن
 محمد بن أبي إسحاق عن محمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد
 ابن الحسن الصوفي . فقد ذكره الخطيب في التلخيص . قال وهو ثقة . ثم ذكر له ترجمة
 طويلة . وقد ذكر له حديثا مشكرا . وهو ثقة . ذكره ابن الرضوي في الصلاة والسلام
 . الهدي لأبي جهم . خلا . أو لم يزل . جلا . قال وقد مثل الدارقطني عن هذا الحديث
 فقال : وهم الصوفي فيه . وهما قبيحا . قال الخطيب : وهو ثقة . ليس من الصوفي لأنه
 قد تولى عليه . وإما الوهم من سويد بن سعيد الذي روى عنه الصوفي . وقد
 حمل على سويد بن سعيد . لذلك . وحكى عن الدارقطني . تولى عنه . وحكى عن
 ابن المنادي قال كتبت عن أحمد بن الحسن الصوفي . وأما الهيثم . وقال الذهبي في
 الميزان : أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي مشهور . ولحقه الدارقطني . وذكر

الاستاذ الرابع
وما به

قول ابن المنادى فيه . وذكر المسقلاني في لسان الميزان ما قاله الخطيب . . .
والحاصل من هذا كله أن الصوفى المذكور ثقة لا يسمو إلى مراتب الثقات الأثبت .
ولا ينزل إلى مواضع الضعفاء المتروكين .
وأما على بن الجهم فوثقه الأكترون وروى البخارى حديثه فى الصحيح
ولم يبال تضعيف من ضعفوه .

وأما زهير فهو زهير بن معاوية الجعفى الكوفى الامام . ثبت ثقة من رجال
الجماعة ، ولكن مهرة هذا الفن ذكروا أن روايته عن أبى إسحاق خاصة فيها شيء .
لأنه مجمع منه آخرة بعد الاختلاط . قال الذهبى : ولبن ، ما يته من قبل أبى
إسحاق لا من قبله هو .

وأما عبد الرحمن بن سعد فسيأتى الكلام فيه . فهذا السند خير سند عند ابن
السنى لهذه الحكاية . ولكن خير ما روى به هذا المعنى عن عبد الله بن عمر هو .
ما رواه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » قال : حدثنا أبو نعيم قال حدثنا
سفيان عن أبى إسحاق عن عبد الرحمن بن سعد قال : حدثت رجلا ابن عمر فقال له
رجل اذكر أحب الناس ، فقال . يا محمد . وهذا الاسناد رواه كلهم أئمة مشاهير
خلا عبد الرحمن بن سعد الراوى عن ابن عمر . وقال فى تهذيب التهذيب : عبد
الرحمن بن سعد القرشى كوفى روى عن مولا عبد الله بن عمر ، وعنه أبو إسحاق
السبعى ومنصور بن المصنف . . . ذكر . ابن حبان فى الثقات . وقال النسائى
ثقة . وقد روى إلى أنه من من رجال البخارى فى الأدب المفرد . فلذا ثبت أن
عبد الرحمن هذا ثقة صحيح الحديث وأمن بجانبه على الحديث كانت الرواية
المذكورة فى غاية الصحة والقوة ، وكان إسنادها فى غاية الإشراف والنظافة . والنسب
نختاره نحن ونميل إليه أن لهذا المعنى عن عبد الله بن عمر أصلا لتعدد الطرق .
هذا ما نقول أولا ثم نقول ثانيا : هذه الروايات - إذا صححت - لا تبدل على

اللفظ سند
لحديث عند
الرجل

معاني هذه
الروايات ان
صححت وبرأها
مما ذهبوا

مازعموا من دعاء الأموات وسؤالهم ضروب الحاجات . وذلك أنه ليس فيها طلب
شئ من الأشياء ولا حاجة من الحاج الكبيرة أو الصغيرة - كالذى يطلب هؤلاء
الضلال من الموتى ، مثل هداية القلوب وغفران الذنوب ومطالب الدنيا والأخرى
وكل الذى فيها أنه يجوز أن يقال فى بعض الأحيان والحالات : واعمداه ،
بالتجريد من كل طلب وسؤال . وهذا القول ليس استغاثة وليس طلبا ولا سؤالاً
وإنما هو قول يقال عند التوجع وإبداء الأسف ويسمى اصطلاحاً ندبة . يقال
ندب الميت إذا بكاه وعدد أو صافه وفضائله المحمودة . . والمندوب ليس مستولاً
ولا مطلوباً ولا مراداً منه أن يسمع أو يعطى أو يشفع أو يدعو . وليست الندبة فى
التحقيق خطاباً حقيقياً وإن كانت فى الظاهر كذلك . فاذا قال الحى - برئى ميتاً
عزيزاً وفقيداً آد فقدته - : واخليلاه ، أو واصديقه ، أو وأميراه ، أو وأبناه ،
وإنما هو ذلك لم يكن فى شئ منه دعاء ولا طلب ولا خطاب حقيقى ، وإنما هو توجع
وأسف بالغ وبكاه . وقد صرح أن السيدة فاطمة بنت سيد الخلق رضى الله عنها
ندبت أباه بعد وفاته وقالت فى نديتها ورثتها إياه : يا أبته ، أجاب ربه دعاه ، يا أبته
من جنة الفردوس مأواه ، يا أبته إلى جبريل نعمة . رواه البخارى فى الصحيح
عنها . وكذلك جاء أن غيرها نديته عليه الصلاة والسلام . فقول القائل : واعمداه
فى الرواية المذكورة مثل قول السيدة فاطمة : يا أبته . . . كلاهما توجع وتنفج ،
وكلاهما خال من الدعاء والطلب . وهذا مثل قول الراى لصديق له ذهب إلى
سبيله : واصديقه ، واخليلاه . ومن زعم أن هذا استغاثة أو أن فيه استغاثة وطلباً
وسؤالاً فهو فى حاجة إلى التعليم لا إلى المجادلة والمساجلة فى هذه المباحث العليا
القيمة . ولو كان هذا الذى ذكره استغاثة لكان فيه طلب ما هو طلب المستغاث
من أجله وهو أن يقول القائل : واعمداه أغشنا أو أعنا أو انصرنا أو أعطنا . ولكن
الروايات الثلاث المذكورة خالية من ذلك . ولا ريب أن من وقع فى بلاء وشدة

فأود أن يستغنى قولي مثلاً: وإفلاها لم يكن مستغنياً استغناءً صحيحة. ومن أشرف على الفرق قولي: يا رجل أو يا فلان. ولم يقل خذ بيدي أو أقبضني أو أدركني أو أغنني. لم يكن مستغنياً استغناءً صحيحة ولا داعياً دعاء صحيحاً تماماً. فلذلك ذكرت عنهم هذه إلهاً وإيات لم يقولوا: واحمداه أعطينا أو أغننا أو نجو. ذلك لأنهم إذا نزلوا فليسوا طالبين ولا سائلين ولا مستغنين، وإنما هم نادون بما يكون لهم وما يوضح غلط هؤلاء القوم وغلطهم أن الذين كانوا يقاتلون مسيحية الكذاب وقومه المرتدين في أرض اليمامة لا يصح اليقظة أن يستغثوا برسول الله ولو كان حياً سويّاً في المدينة المنورة ليعد ما بينهم وبينه. ولا يمكن أن يدعو وأن يخاطبهم من هذه المسافات ليحييهم ويسمعهم ويعطيهم ما سألوه وطلبوه إلا إذا زعموا أنهم ^{عليه السلام} مثل الله تعالى حبه وعظم شأنه في صفة الحاجة والغيوب وعلم القريب والبعيد وفي القدرة على إغاثة المستغثين بهما كثيراً وتمددوا واختلطوا، وفي الاستطاعة على قضاء الحاجات مهما تعددت وكثرت واختلقت. ولكن برأ الله حماة فيه من هذه العبادة التكبراء الموحدة الباطلة.

ووضح غلط القوم

ومن الغلط الفاضح أن الرافضى بعد ذكرهم هذه الرواية زعم أن المسلمين ما أتوا مسيحية الكذاب إلا في حياة النبي عليه السلام. وهذا زعم يخزي والله شاملاً بأسره. فإن المسلمين ما أتوا مسيحية وقوم المرتدين إلا بعد وفاة النبي عليه السلام. فأتاهم الصديق إلا كبراً أو بكر العظيم حتى تحت أقدامهم وأطاعوا خفتهم واستأصل شائقتهم. ويظهر أن الشيعة يريدون من وراء هذا الخطأ والضلال تحريش أي بكر الصديق من هذه المكرمة وخلق من هذه الحلة، وهي قتاله المرتدين وقضاؤه عليهم القضاء الأخير. ولكن

مهم أن يقال المرتدين كان في حياة النبي

من كان فوق محل الشمس مضمهم. فليس شيء ولا يضع
شئ ولا يقف عند حلقه.

هذه توبة لا
استغفارة

ووضح أن النبي في هذه الرواية توبة لا استغفارة أن عبد الله بن عمرو عليه السلام لما ذكر أن لا يغفر الله له ما ذكره من الناس إليك . فإن هذا يدل دلالة صريحة واضحة على أنه لا استغفارة هنا التوبة ، إذ لو كانت المسألة مسألة استغفارة وطلب أسأل لقليل له : استغفرت أو أطلب أو أدرج أحب الناس إليك . أما كلمة إذ كررناها بيننا في أن المراد ذكر الاسم . اسم الحبيب مرسلًا مطلقًا

حال باطل

على أن الذي لا يشك فيه المؤمنون أنه من أحوال والباطل أن روح أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام تستغيثون بغير الله ربهم وخالقهم في أخرج الساعات وأجلد الأوقات وأخرج ما يكونون إلى الممونة والمغفونة وللنصرة الحاسمة المؤيدة حتى يكون شعارهم وهم ينهضون أعداء الله وأعدائهم وأعداء الإسلام ، بل والحق ينزل الباطل بكل قواه وعدهم وعدمه فلما انتصر وما أنكسروا في أنكساره ذهب كل شيء من راث الرسول وراث صحابته إلا راث الحق والهدى الأزل . أقول من أحوال والباطل أن يكون شعار صحابة رسول الله بينهم كذلك وأحاديث طالبين التوب والنصر والتأييد ، تاركين الله جل جلاله وراء ظهورهم ووراء أذانهم وأمانتهم ومسائلهم ، ووراء حاجاتهم وأمانهم . ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان معهم في تلك الساعات والأوقات يخوض الخوف ويظا الصروف لأخضع هو إلى عونهم ونصرهم له ولدنه بأسياهم وبطولة أنظلمهم . وهو لو كان معهم في تلك المواقف الحاسمة لكان هو يوم لا يجارون إلا الله ولا يدعون سواه . « أمن بحسب المضطر إذا دعاه » « الله مع الله »

وقد أنبأنا الله في غير ما آية من كتابه أن المؤمنين في ساعات الحروب ومناخزة الأعداء لا يستغيثون إلا بالله كما قال صلى من سورة الأتفال : « إذ تستغيثون إلى الله وحده في حالات الشدة »

تعليم المؤمنين وإرشادهم إلى الأخذ بالسبيلين : بالقوة المادية والقوة المعنوية الروحية ، وهى الرجوع فى وقت الحاجة والشدة إلى الله وحده : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا . . . » ولم يقل : فاذكروا الرسول أو اذكروا الله والرسول ، بل قال : اذكروا الله وأطيعوا الله والرسول . فالرسول له حق الطاعة فى هذا المقام لا الاستغاثة ولا طلب العون والمدد ، فان ذلك من الله وإليه وحده لا شريك له . وقال فى هذه السورة أيضاً « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » ، أى الله حسبك وحسب المؤمنين معك ، وقال تعالى حكاية عن طالوت ومن معه من المؤمنين حينما زحفوا إلى جالوت ومن معه من الكافرين : « ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله . » ولم يكن من شعار هؤلاء المؤمنين المختارين حين القتال والنضال ومنازلة أخصام الحق أن يستغيثوا بمخلوق : لا بنهى ولا بنصره من الخلق ، بل رجعوا جميعاً إلى الله وإلى طلب النصر والعون وإفراغ الصبر لديه . وقال من سورة آل عمران : « وكأين من لى قاتل مع ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » وقال : « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فاتقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بأن المؤمنين ، أتباع النبيين فى حالات

الحروب والشدائد والخاوف لا يذكرون سوى ربهم ، ولا يدعون أو يسألون إلا إلههم معرضين عن جميع المخلوقين : الصالحين والنبیین وغيرهم من صنوف المخلوقين المرئيين . وما ذكر الله في كتابه عن أحد منهم أنه دما مخلوقاً أو استغاث نبياً أو ولياً أو صالحاً حين الزحف إلى قتال أعداء الله وأعداء دينه . وما ذكر عنهم سوى الانقطاع إلى الله والرغبة فيه وفي نصره وفي تأييده وحده . ولا ريب أن الله لم يقص علينا في كتابه أحوال عباده الصالحين وأقوالهم إلا للتقوية والأسوة والاتباع بهم والنهج منهم . فيقص علينا أن الأنبياء والربيين معهم والصالحين كانوا حين الحرب والبلاء والبأساء يدعون الله ويرغبون إليه لا إله إلا هو كي نفعل فعلهم ، ونأخذ سبلهم ، ونرجع إلى الله وحده مثلما رجعوا . وقد أنبأنا الله في كتابه ، كما تقدم ، أن الكافرين والمشركين أنفسهم كانوا في شدتهم . وحين عصف الأقدار بهم يتركون كل ما سوى الله ويخلصون إليه تعالى . وحده لا شريك له مخلصين له الدين ، لا يبالون بمخلوقا ، ولا يذكرون أحداً إلا الله . فكيف يمكن بعد هذا أن يكون أصحاب النبی عليه السلام في حين شدتهم وبأسائهم يرضون عن الله ، يأخذون يستغيثون المخلوقين ويضعون عليهم آمالهم وحاجاتهم ؟ اللهم إن هذا باطل كاذب . -

فالذين يدعون العبيد ويستغيثونهم في أوقات الحروب والشدائد والمكار . والاقدام على الختوف والصروف خارجون عن سنن الأنبياء والصالحين ، مخالفون لما قصه الله في كتابه عن عباده المختارين . فمن الحال الباطل أن يكون شـمار صحابة النبی عليه الصلاة والسلام في قتالهم وحروبهم الاستغاثة بالنبي ، ومن الحال أن تكون الرواية صحيحة إن كان معناها ما ذكرنا وزعموا ، ومن الحال أن يكون الذي فيها استغاثة ودعاء إن كانت صحيحة ، بل لا بد أن يكون ندبة ، أي توجهاً وأسفاً على فراق رسول الله .

ومما يرد على المخالفين زعمهم أعظم الرد أن حرف « وَا » ليس حرف نداء .
 فهو لا يدخل على المنادى الحقيقي أبداً ، فلا يقال : وارجل أقبل ، أو وافلان .
 افعل كيت ، ولا يقال : وا الله اغفر ذنبي ولا أمثال ذلك . وإنما يجيء عند
 إرادة النداء الحقيقي أحد الحروف الموضوعة للنداء مثل « يا » و « أي »
 و « أيا » و « هيا » والمهزة ، فيقال : يا فلان أو أي فلان أو أيا فلان أو هيا .
 فلان أو أفلان افعل . ولا يقال : وافلان افعل مثلاً . ويوضح هذا جيداً دخول
 ألف الندبة وهاء السكت بعدها على « وامحمداه » في الروايات الثلاث على ما ذكر
 الشيعي . وهذان الحرفان : الألف والهاء ، لا يقعان في المنادى الحقيقي ، فلا يقال :
 يا محمداه أقبل أو أيا زيدا اذهب . وأيضاً فإن المنادى المفرد المرفع يبنى على
 ما يرفع به ، ومحمد مثلاً يرفع بالضمة . فإذا كان منادى وجب أن يبنى على الضمة .
 فقل يا محمد . . . إذن فالذي في الروايات ليس نداء وإنما هو ندبة بلا شك
 هذا ، ومن الجواب عن حديث خدر الرجل أن يقال : عرفنا من الروايات .
 التي نقلناها من كتاب « عمل اليوم والليلة » لابن السني أنه كان من عادة العرب .
 أن يذكروا اسم أحب الناس إليهم عند خدر الرجل لا على سبيل النداء والسؤال .
 والاستغاثة والطلب بالضرورة ، وإنما هي مجرد عادة قد يكون فيها بعض التأثير
 على نفس المحب الواله عند ذكر من يحب . وهذا التأثير - إن وجد - راجع إلى
 ما ينال نفس المحب وما يتغشاها من التأثير والانفعال - الذي يسمو عن التعبير
 وعبارة الكلام عند ما يلاقى بمحبه اسم حبيبه ، فتتملى نفسه بالصور المختلفة المتنوعة
 لذلك الحبيب الغائب . . . قهتر النفس لتلك الذكريات اهتزازات لا محالة من .
 أن يهتز لها كيان الجسم وكيان الصورة الخارجة . . . فيصاب الداخل والخارج
 أو الجسم والروح بالارتجاج العنيف ، وبالارتجاج يكون التبديل والتغير ، وبالتغير
 والتبديل قد يزول خدر الرجل ، وقد يزول غيره من آلام النفس والجسم ، من

ويرد على
المخالفين أن
حرف « وَا »
يسمى من حروف
النداء

تذكر اسم الحبيب
عند خدر الرجل
عادة من عادات
العرب

الآلام الظاهرة والباطنة . وليس في هذا الزعم ما يخالف ما طبعت عليه النفس وما شيد عليه الجسم من عادات وسنن وطبائع لا يحيط بكنهها وحقيقتها سوى من خلقها وهو اللطيف الخبير .

ومن الدليل على ذلك أقوالهم التي ذكرناها : « إذا خدرت له رجل دعاك » و « تخدر في بعض الأحيان رجله » * فان لم يقل يا عتب لم ينهب الخدر

إذا خدرت رجلى تذكرت قولها * وناديت ابني باسمها ودعوت فهذه الأشعار دلائل ناطقة على أنهم قد اعتادوا أن يذكروا أسماء أحبائهم عند ما تخدر أرجلهم ، ولكن لا شك أنه ليس في ذكرهم من يحبون حينذاك شيء من الاستغاثة والسؤال والنداء والطلب . فالقائل : « إذا خدرت له رجل دعاك » لا يريد أنه يستغيث بتلك المرأة حينما تخدر رجله ، والقائل أيضا : « فان لم يقل يا عتب لم ينهب الخدر » لا يعنى الاستغاثة والنداء الحقيقي لتلك المرأة المحبوبة يوم أن تخدر رجله ، والقائل أيضا : « إذا خدرت رجلى تذكرت قولها » البيت لا ينهب بقبيله هذا إلى الاستغاثة والسؤال والطلب بالضرورة الجلية . وإنما هي ذكرى قد يكون للنفس فيها بعض الشفاء . ولاريب أن ذكر الحبيب وتمثل ضوره قد يشرحان النفس ، وقد يطلقانها من آلامها أو يلبسانها إياها . وإذا انشجرت النفس كان في انشراحها العلاج الذى لا يماثله علاج لآلام الجسم وأمراضه ، لأن المرض نوع من أنواع الفتور والضعف والهبوط . وفي انشراح النفس لذكرى الحبيب من القوة والنشاط والحركة ما يبعد ذلك . ولأن المرض عبارة عن نقص وقود الجسم ، والذكرى ، ذكرى الاحباب ، وقود ما مثله وقود واشتعال وانتقاد ما مثلها اشتعال وانتقاد . فما كالذكرى إذن علاج ، ولا كالذكرى دواء .

والذى فى أحاديث خدر الرجل من هذا القبيل أى من قبيل تذكر الحبيب

ما لذكرى
الحبيب من علاج

الأعظم عليه الصلاة والسلام . وليس هو من نوع الاستغاثة والدعاء والطلب الذى نأباه لأن الاسلام يأباه .

وليعلم هذا الرافضى وغيره من أنصار البدعة أن الممنوع لدينا ليس هو حروف النداء والتلفظ بها ، ولا حرف الندبة ولا غير ذلك من الحروف . وإنما الممنوع عندنا هو طلب مالا يستطيعه إلا الخالق من المخلوق . وإذا علم هذا سقط كل ما يصاولون به ويطاولون من الحساب والاعتبار ، وسقط كل ما يتشبهون به من إدخال حروف الخطاب والنداء والندبة على الأموات . وفى هذا فصل الخطاب وفيصل التفرقة .

هذا آخر النقض على شبهات الرافضى . ولعل القارىء اللبيب رأى كيف يشيدون عقائدهم ودينهم على الأخبار النافذة والروايات التى فاتها الحسب والنسب ، فاذفين بكتاب الله وبقواطع الاسلام وضرورات العقول وراء ظهورهم ودبر آذانهم حيناً بحجة التأويل الذى هو تحريف قبيح ، وحيناً بالانكار والجحود الصريح . والله الهادى لمن يشاء إلى سبيله وصراطه المستقيم .

﴿ التوسل ﴾

ثم قال الرافضى : « الفصل الثالث فى التوسل إلى الله بالأنبياء والصلحاء . وهذا يكون على وجوه : أحدها أن يقول : أتوسل إلى الله به أو أتوجه به إليه ، أو أتشفع أو أقدمه بين يدي حاجتى أو نحو ذلك . ثانيها - : أن يقول : أسألك بفلان أو بحق فلان أو بحقه عليك أو بجاهه وبركته أو بحرمته أو نحو ذلك . ثالثها - : أن يقول : أقسمت عليك أو أقسم عليك بفلان أو نحو ذلك وكلها تؤول إلى شئ واحد وهو جملة وسيلة واسطة بينك وبين الله لماله من المنزلة عنده والكرامة لديه .

« والتوسل بأنواعه مما منعه الوهابيون وجعلوه شركاً لأنه نوع من التشفع

أنواع التوسل
••• الخالف
وجوازها وأدلة
ذلك

الممنوع عندهم الموجب للشرك وجريان أدلتهم فيه .

« ونقول : التوسل ثابت بنص الكتاب قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتنوا إليه الوسيلة » . وهي بعمومها شاملة لكل توسل إلى الله بما يكرم عليه . وقد دلت الأخبار الكثيرة على ثبوت الوسيلة الأنبياء والأوصياء والصالحين . وقد مر قول النبي عليه الصلاة والسلام : « أسألوا الله لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد » . ويأتي قوله عليه السلام عن الخوارج : « يقتلهم خير الخلق والخليفة ، وأقربهم عند الله وسيلة » . والمراد بالوسيلة الدرجة والمكانة عنده تعالى ، ولذلك يتوسل ويتشفع به إليه .

« والتوسل بذوى المكانة عند الله ، أحياء وأمواتا ، من سنن المرسلين ، وسيرة الصالحين بأي وجه من الوجوه الثلاثة . بل هو ثابت في الشرائع السابقة فمن القسطلاني في شرح صحيح البخاري عن كتب الأخبار أن بنى إسرائيل كانوا إذا حطوا استسقوا بأهل بيت نبيهم . انتهى .

« وقد ثبت جواز التوسل بالحي كما اعترفوا وكما صرحوا بالأحاديث ، وفيها أمره عليه الصلاة والسلام بالتوسل به إلى الله وبسؤاله بحق السائلين وبحق المشي المصلي إلى الصلاة . وصرحت بالحق على الله وبالتوسل بالنبي وبالعباس . وجاء ذلك في الأخبار الآتية وفيها قول عمر في العباس : هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه . . . وإذا ثبت أن التوسل بالحي ليس عبادة ولا شركاً فالتوسل بالميت كذلك لعدم تعقل الفرق . فان جواز التوسل به إلى الله إن كان لمكانته عند الله فهي لم تذهب بالموت ، وإن كان لأجل أن يدعو الله فهو ممكن في حق الميت . ولو فرض عدم إمكانه لم يوجب الشرك بل يكون مثل طلب المشي من المقعد بزعم أنه صحيح . فالتفرقة بين التوسل بالأحياء والأموات نحكم محض .

وقد فهم الصحابة عدم الفرق وهم أعلم بالسنة من ابن تيمية وأتباعه كما يأتي في حديث ابن حنيفة . وصرحت الأخبار الآتية أيضا بعدم الفرق بين الحى والميت بل والموجود والمعدوم . وأمر مالك إمام المذهب المنصور أن يتوسل بالنبي ويستشفع به بعد موته وقال : هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم ، كما يأتي كل هذا . مع هذا إن الأخبار قد صرحت بعدم الفرق بين الحى والميت ، بل الموجود والمعدوم ، بل العاقل وغير العاقل كالأعمال ، فصرحت بوقوع التوسل من آدم بالنبي عليه الصلاة والسلام قبل وجوده ، وبالتوسل بالأعمال وبتوسل النبي بالأَنْبياء قبله وهم أموات ، وبتوسل الصحابة بقبر النبي بفتح كوة بينه وبين السماء . وإليك بيانها : قال السهمودي عالم المدينة في كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » : الفصل الثالث : فى توسل الزائر وتشفعه به ﷺ إلى ربه واستقباله فى سلامه وتوسله ودعائه :

« اعلم أن الاستغاثة والتشفع بالنبي وبجاهه وبركته إلى ربه تعالى من فعل الأنبياء والمرسلين ، وسير السلف الصالحين ، واقع فى كل حال ، قبل خلقه وبعد خلقه فى حياته الدنيوية ومدة البرزخ وعرصات القيامة .

« الحال الأول أى قبل خلقه ورد فيه آثار عن الأنبياء ، ولنتمصر على ما رواه جماعة منهم الحاكم وصححه إسناده عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله عليه السلام : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لى . فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقك ؟ قال : يارب لأنك لما خلقتنى بيديك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله تعالى : صدقت يا آدم . إنه لأحب الخلق . وإذا سألتنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ما خلقتك » . قال : ورواه الطبرانى وزاد : « وهو آخر الأنبياء

من ذريتك » انتهى . وفي خلاصة الكلام : ورواه البيهقي باسناد صحيح في دلائل النبوة . وفيها أيضا : قال في « المواهب اللدنية » ورحم الله ابن جابر حيث قال :

به قد أجاب الله آدم إذ دعا * ونجى في بطن السفينة نوح
وماضرت النار الخليل لنوره * ومن أجله نال الفداء ذبيح
« وفيها أيضا قال بعض المفسرين في قول الله تعالى : « فتلقى آدم من ربه
كلمات فتاب عليه » : إن الكلمات هي توسله بالنبي : انتهى . وفي مجمع البيان
في تفسير الآية بعد نقله جملة من الأقوال مألوفة : « وقيل — وهي رواية
تختص بأهل البيت — : إن آدم رأى مكتوبا على العرش أسماء مكرمة فسأل عنها
فقيل له : هذه أجل الخلق عند الله منزلة والأسماء : محمد ، وعلى ، وفاطمة ،
والحسن ، والحسين . فتوسل آدم إلى ربه بهم في قبول توبته ورفع منزلته » انتهى .
وفي ذلك يقول الواسطي :

قوم بهم غفرت خطيئة آدم * وم الوسيلة والنجوم الطلع
« وإلى هذا التوسل أشار مالك بقوله للمنصور : ولم تصرف وجهك عنه وهو
وسيلتك ووسيلة أبيك آدم في الحديث الآتي

« ثم قال السموودي : قال السبكي : وإذا جاز السؤال بالأعمال كما في حديث
الفار الصحيح — وهي مخلوقة — فالسؤال بالنبي أولى . وفي العادة أن من له عند
شخص قدر فتوسل به إليه في غيبته فإنه يجيب إكراما للتوسل به . وقد يكون
ذكر المحبوب أو المعظم سببا للإجابة . ولا فرق في هذا بين التعبير بالتوسل أو
الاستغاثة أو التشفع أو التوجه . ومعناه التوجه به في الحاجة . وقد يتوسل بمن
له جاه إلى من هو أعلى منه .

« الحال الثاني التوسل به بعد خلقه في مدة حياته في الدنيا . منه ما رواه

جماعة منهم النسائي والترمذي في الدعوات من جامعه عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضربير البصر أتى النبي عليه السلام فقال : ادع الله لي أن يمايني . فقال ﷺ : « إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت وهو خير لك » . فقال : ادعه فأمره عليه السلام أن يتوضأ وأن يحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة . يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضي ، اللهم شفعه في » . قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وصححه البيهقي وزاد : فقام وقد أبصر . وفي رواية ففعل الرجل فبراً .

« ومن التوسل به في حياته ماورد في قصة سواد بن قارب التي رواها الطبراني وفيها أنه أنشد النبي قصيدته التي يقول فيها :
ولئك أدنى المرساين وسيلة * إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة * بمن فتيلا عن سواد بن قارب
« فلم ينكر عليه قوله : أدنى المرساين وسيلة ، ولا قوله : وكن لي شفيعاً .
« ومن التوسل به في حياته ما رواه البيهقي أن أعرابياً جاء النبي عليه السلام .
يستسقي به وأنشده :

وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل
« وهذا صريح في التوسل ولم ينكر عليه بل قال أنس لما أنشده الأبيات
قام يجر رداءه حتى رقى المنبر وخطب ودعا لهم فلم يزل يدعو حتى أمطرت السماء وهو
على المنبر . وروى البخاري في الصحيح أنه عليه السلام لما أمطرت السماء قال :
« لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناه . من يلشدنا قوله ؟ » فقال يأسول الله كأنك
أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قهلل وجه النبي .

« وقال السهمودي : الحال الثالث التوسل به بعد وفاته : روى الخبراني في الكبير عن عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له ، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته . فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال له ابن حنيف : ائت الميضاة فتوضاً ثم ائت المسجد وصل ركعتين ثم قل : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بديننا محمد بنى الرحمة . يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن تقضى حاجتي » وتذكر حاجتك . فانطلق الرجل فصنع ما قال ، ثم أتى باب عثمان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه على الطنفسة فقال حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ، ثم قال : ما ذكرت حاجتك إلا الساعة . وقال : ما كانت لك من حاجة فاذكرها . ثم خرج الرجل من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا ينظر إلى حتى كلمته في . فقال ابن حنيف . والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله وأتاه ضريبر فشكا إليه ذهاب بصره . الحديث .

« وفي كتاب » وفاة الوفا بأخبار دار المصطفى « أيضاً ما لفظه : وفي الكبير والأوسط بسند فيه روح بن صلاح ، وثقه ابن حبان وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح ، عن أنس بن مالك قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام فجلس عند رأسها فقال : « رحمك الله يا أمي بدد أمي » . وذكّر ثناءه عليها وتكفينها ببرده . قال : ثم دعا رسول الله أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فخفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل فاضطجع فيه ، ثم قال : « الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » . وفي خلاصة .

الكلام : رواه الطبرني في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم ومصحوه انتهى .
« ومن التوسل به بعد موته قول صفية بنت عبد المطلب في مرثيتها للنبي
عليه السلام التي رواها أهل السير وعلماء الأثر :

ألا يا رسول الله أنت رجاؤنا * وكنت بنا برآ ولم تك جافياً

« وفي وفاة الوفا » ما لفظه : وفي الوفاء لابن الجوزي من طريق أبي محمد
الدارمي بسنده عن أبي الجوزاء قال : قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى
عائشة رضي الله عنها فقالت : انظروا قبر النبي عليه السلام واجعلوا منه كوة إلى
السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، ففعلوا فطروا حتى نبت العشب
وممئت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق . قال الزين المرأعي :
إن فتح الكوة سنة أهل المدينة عند الجنب .

« ثم قال السهمودي : الحال الرابع التوسل به عليه السلام في عرصات القيامة
فيشفع إلى ربه . وهذا مما قام عليه الاجماع وتواترت به الأخبار . وروى
الحاكم ومصححه عن ابن عباس قال أوحى الله إلى عيسى : يا عيسى آمن بمحمد
وأمر من أدركت من أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ، ولولا أئى
خلقت محمداً ما خلقت الجنة والنار . ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب ،
فكتبت عليه : لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن .

« ومن أخبار التوسل بالملائكة والأنبياء ما في خلاصة الكلام عن الأذكار
للنووي أن النبي عليه السلام أمر أن يقول العبد بعد ركعتي الفجر ثلاثاً : « اللهم
رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد أجرني من النار » . قال في الأذكار :
خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم في قبول الدعاء .

« وأما التوسل بقبره عليه السلام فقد جاء في حديث توسل عمر بالعباس
وفي خلاصة الكلام : واستسقى عمر بالعباس لما اشتد القحط غام الرمادة فسقوا .

وذلك مذكور في صحيح البخاري .

« وفي وفاة الوفا » وغيره قال القاضي عياض في الشفاء بسند جيد عن ابن حميد أحد الرواة عن مالك - فيما يظهر - قال : ناظر أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله فقال مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فان الله أدب قوماً فقال : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » ومدح قوماً فقال : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله » الآية . وذم قوماً وقال : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » . وإن حرمة ميتنا كحرمة حيها فاستكان لها المنصور . فقال : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله . قال الله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » انتهى . وفي الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي أن الشافعي توسل بآل البيت النبوي وقال :

آل النبي وسيلتي * وهم إليه ذريعتي

أرجوهم أعطى غداً * بيدى اليمين صحيفتي . . .

وهنا نقل الرافضي جملة حكايات في التوسل نسب بعضها لبعض الأعراب ، وبعضها لآل البيت من طرق الشيعة ، وبعضها نسب لبعض الفقهاء . . . وكلها لا قيمة لها لارواية ولا دراية . وسوف نمر بالقارئ في غضون الكتاب إن شاء الله . وهذا الذي نقلناه حاصل ما ذكره الرافضي في هذا البحث من الشبهات . وإننا بعون الله وتأييده نورد ما يتييسر من القول في الوسيلة وفي معناها وفي ما يراد منها وبها شرعاً ولغة ، وما يراد بها ومنها عند جمهور الناس اليوم وقبل اليوم من العامة وأشباه العامة وما يقع في ذلك من اللبس والابهام والالهام . وسنورد إن

شاء الله الدليل القاطع على كل ما نكتب ونذكر ، ثم بعد هذا نتعقب ماذا كره
الرافضى فى هذا الفصل من الشبهات أو البراهين فنرد المردود الفاسد ونكشف
ما فى الصحيح من الوهم والوهن والتحريف والتجديف — سائلين الله وحده
العون والفوت والسلطان والبيان .

﴿ حقيقة التوسل والوسيلة ﴾

الكلام على
نوسل والوسيلة
لغة وشرها

إذا رجعنا إلى الكلمات الواردة فى الشرع وفى اللغة التى جاء فيها لفظ
التوسل وما اشتق منه وجدناها كلها بمعنى القرب وما يشتق منه أو ما يؤول
إليه من قريب أو من بعيد . وفى كتاب الله يقول الله من سورة المائدة : « يا أيها
الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون »
والوسيلة فى هذه الآية هى ما يقرب إلى الله وما يتقرب به إليه من الأعمال
الصالحة المبرورة المشروعة دلى اختلاف ضروبها واختلاف مظاهرها وحقائقها
وصورها ، يدخل فى ذلك أدلى الأحوال وأشرفها كالصلوات والفروض الخمسة ،
وأقلها مثل إمالة الأذى عن الطريق مثلا : كذا جاء تفسيرها عن السلف
الصالح فجاء عن عبد الله بن عباس أن الوسيلة هى القربة . وكذا جاء عن الحسن
 وابن زيد وجاهد وذيرم . وقال قتادة فى تفسيرها : أى تقربوا إلى الله بطاعته
والعمل بما يرضيه .

وقال تعالى من سورة بنى إسرائيل : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه
فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى
ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك
كان محذورا » . وقد فسرت الآية بما فسرت به الآية قبلها ، أى بالقرب والتقرب .
فآية المائدة تطلب إلى المؤمنين أن يبتغوا عند الله وحده الوسيلة أى القرب والتقرب
إليه . والتقرب إلى الله لا يدرك إلا بطاعته وعبادته واتباع أنبيائه والمرسلين من

عباده ، وآية بنى إسرائيل تحدث المؤمنين بأن عباد الله المؤمنين يدعون الله
 ربهم ، يطلبون لديه تعالى القربى والزلفى ، ويتنافسون فى هذا القرب وذلك
 التقرب ، ويرجو كل منهم أن يكون الأقرب الأدنى الأسبق . وهم أيضا
 يرجون رحمته ويخافون عذابه لأن عذاب الله مخدور مرهوب لأنه شديد أليم
 وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « من قال قال حين يسمع النداء
 اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه
 مقامًا محمودًا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة » . وهذه الوسيلة المذكورة فى
 هذا الحديث الصحيح هى منزلة من منازل القرب والزلفى عند الله مدخرة لنبيه
 ﷺ . فهى راجعة إلى معنى القرب وما تفرع عنه ، كذا جاء بيانها فى حديث آخر
 صحيح وهو ما رواه الامام مسلم فى الصحيح قال قال رسول الله عليه السلام : « إذا
 سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ، فان من صلى على صلاة صلى الله
 عليه بها عشرا . ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا للعبد
 عباد الله وأرجو أن كون ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه
 الشفاعة » . فالوسيلة فى هذا الحديث منزلة من منازل الجنة العليا . ولا ريب أن
 الجنة درجات ، وأن أقربها إلى الله هو أعلاها وأرفعها ، وقد جاء فى الحديث
 الصحيح عن رسول الله أنه قال : « إذا سألت الله فاسأله الفردوس ، فانه أعلى
 الجنة وسقفه عرش الرحمن » . فهذه الوسيلة التى هى منزلة من منازل الجنة لا تعدو
 فى معناها مادة القرب والزلفى . وذلك أن من ينال مثل هذه الدرجة من درجات
 الجنة لا ريب فى قربه من ربه . وقد قال تعالى فى أهل جنته وقربهم لديه : « إن
 بالمتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » فأنبأ الله أن المتقين
 الذين هم فى الجنة التى هى جزاء المتقين عند مليك مقتدر وهو الله جلست قدرته

الاحاديث فى
 التوسل
 والوسيلة

والذى ينال أسمى منازل الجنات - وهى المنزلة الموصوفة فى الحديث - قريب من الله أعظم القرب وأدناه -

وفى حديث أنس بن مالك المشهور أن عمر بن الخطاب كان إذا قحط استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فمستقمنا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاستقمنا . قال أنس : فيسقون . وقوله هنا : نتوسل إليك - فى اللفظين - معناه نتقرب إليك ونزدلف إلى رضاك وإلى خيرائك وأنعمك . وغياثك ورحمتك وكل فضلك وأياديك . وجاء فى شعر المتنبى قوله :

الاشعار فى
التوسل والوسيلة

ألا ليست الحاجات الا نفوسكم * وليس لنا إلا السيوف وسائل
يريد أن يقول إنه ليس لهم ما يصلهم بآمالهم الفضية المقطوفة من أشعة الشمس وخيوط القمر ، وليس لهم ما يقربهم إلى ما يتطلبه المجد والشرف والحياة العزيزة الفاضلة إلا السيوف المغمدة المنتفضة على البأس وبالبأس ، فهى هى التى تدرك بها الحاجات ، وينال البعيد الأقصى ، وتتطلب الحقوق وافية كاملة . وكل حق أو باطل ريم اقترابه بغير السيوف - والسيوف أبداً عنوان القوة والبأس - فلن يقترب منه خطوة واحدة ، ولن يزداد على الرجاء والتأمل إلا بعداً ونأيًا . ولقد صدق هذا الشاعر الحكيم إذ قال :

من اقتضى بسوى الهندي حاجته * أجاب كل سؤال عن هـل يلم
وجاء فى شعر لبيد :

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم * بلى كل ذى رأى إلى الله واسل
و « واسل » هنا إما بمعنى راغب وإما بمعنى متقرب بالأعمال ، والمعنيان يصيران - نتيجة - إلى معنى واحد . وذلك أن الراغب فى الشئ متقرب إليه ضرورة ولا بد ، فكلمة « واسل » فى قول لبيد لا تخرج عن القرب والتقرب . وجاء فى شعر أبى طالب فى نعيه على قريش مقاطعتهم بنى هاشم وظلمهم

إياهم واحتشادهم على عدائهم ونبذهم قوله من قصيدته الطويلة المشهورة : « وقد قطعوا كل العرى والوسائل » . ويعنى هنا بالوسائل القربات التى كانت بين بنى هاشم المنبوذين المظلومين وبين قرىش النابذين الظالمين ، القربات التى ما كان أجدرها بالرعاية والصيانة والوصل .

وجاء فى شعر عنتره العبسى قوله :

إن الرجال لهم إليك وسيلة * أن يأخذوك ، تكحلى وتخضى
يعنى أن للرجال تقرّباً لقضاء مآرب الشهوات والحاجات الجنسية وفروض اللذائذ المتأججة . فعليها إذن - لا لهاب هذا التقرب ولتحريك تلك الشهوات الدافعة إليه - أن تتسلح بأعظم سلاح وضعه الله فى يد المرأة الموصوفة جهلاً وغلطاً ومغالطة بالضعف والالطف . . . وهذا السلاح هو أن تحتال لتقوية سلطتها وجبروتها بأن تستعمل أنواع الزينات والمساحيق والأصبغ التى اعتادت المرأة أن تذل بها صاحب السيف والمزراق ، وتأسر بها أمر الملوك والأبطال . ويمكن تفسير « وسيلة » فى البيت بالحاجة . ويراد أن للرجال لديها حاجة . وحاجات الرجال عند النساء معروفة . والحاجة اللازمة الصحيحة يطلب أبدأً التقرب إليها ويطلب قربها . فإطلاق الوسيلة التى هى التقرب أو القرب أو القربى أو التقريب على الحاجة إذن معهود مثاله فى اللغة ، جائز قياساً ورواية ونقلًا . والأمر كله يرجع إلى مادة القرب .

وجاء أيضاً فى شعر العرب وأنشده ابن جرير فى التفسير قولهم :

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا * وعاد التصافى بيننا والوسائل

والوسائل هنا هى معانى القربات التى تجمع الحبيب بالحبيب ، وتقرب ما بين العاشق والمعشوق وما بين الرجل والمرأة . وما أكثر معانى هذه القربات وما أقرب معانى الرجال من معانى النساء ، وما أكثر ما يحاول معنى أن يقرب من معنى .

• وجاء أيضاً في شعر العرب قول قتيلة بلى النضر وقد قتل أبوها النضر
والنضر أقربهم إليه وسيلة * وأحقهم إن كان عتق يعتق
تعنى أن النضر المقتول ألصق القوم قرابة بمن إليه مصير قتل أولئك المقتولين
• وإحيائهم بالمن عليهم .

وجاء في شعر العرب الأقدمين :

ولما عصينا بالسيوف تقطعت * وسائل كانت قبل سلما حبالها
هذه بعض أقوال الشرع وأقاويل اللغة في معنى الوسيلة والتوسل . أما أقوال
علماء اللغة فلا تخرج عما ذكرنا . قال في النهاية : « وفي حديث الأذان : آت
عمداً الوسيلة هي في الأصل ما يتوسل به إلى الشيء ويتقرب به إليه . وجمعها
وسائل . يقال وسل إليه وسيلة وتوسل . والمراد به في الحديث القرب من الله
تعالى . وقيل هي الشناعة يوم القيامة . وقيل هي منزلة من منازل الجنة ، كذا
جاء في الحديث . » وقال الجوهري في صحاحه : « الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير .
والجمع الوصيل والوسائل . والتوسيل والتوسل واحد . وسل فلان إلى ربه وسيلة ،
وتوسل إليه بوسيلة أى تقرب إليه بعمل . وقال في القاموس : « الوسيلة والواسطة
المنزلة عند الملك والدرجة والقربة . ووسل إلى الله توسيلاً عمل عملاً تقرب به إلى
الله كتوسل ، والواصل الواجب والراغب إلى الله . . » . ومثل هذا قال في معنى
التوسل والوسيلة سائر علماء اللغة كصاحب « لسان العرب » وغيره .

أقوال أهل اللغة
في معنى الوسيلة
والتوسل

فالتوسل إذن إلى الله وإلى الشيء معناه التقرب إليه بما يقرب منه وبما
يوصل إليه ، فهو بمعنى الطريق والسبيل . ولكن لا ريب أنك قد تظن ما يبعد
عن الله مقرباً إليه ، وما يدنى من غضبه ومقته مدنياً من رضاه ورحمته ، وتظن
ما ليس طاعة طاعة ، بل قد تظن المعصية طاعة ، والطاعة معصية . فأنت قد
تضل السبيل إلى الله ، وقد تضل في سبيل عبادته والتماس رضاه وقربه وثوابه ،

ليس كل ما يسمى به
الناس وسيلة
يكون عند الله
وسيلة كذلك

كما قد تفضل السبيل إلى الدنيا فلا ترشد في مآربها ومآربك . فقد تحسب أنك إذا عملت ذلك العمل المعين نجحت وربحت وأدركت غايتك ، فإذا عملته أو بدأت العمل بدالك أنك قد كنت غالطاً ضالاً ، وأنك في رأيك وتفكيرك جاهل شارد . وقد تحسب أن ذلك الطريق ينتهى بك إذا سلكته حيث تريد وحيث تذهب ، وهو في الواقع لا ينحى بك إلا إلى عكس ما تريد وتقصد وتذهب وتطلب . وقد تظن أن عملاً من الأعمال ينال به رضا الله وهو في الواقع لا ينال به سوى غضبه وعذابه . وقد يظن الكثيرون من الخلق أن أشياء كثيرة يعملونها من الدين ومن الاسلام وهي في التحقيق مما جاء الدين والاسلام بحربها والذناد عنها : هذا كله لا شك فيه ولا خلاف في شيء منه . وذلك أن الوسائل إلى الله - وأعني بها كل ما يقرب إليه تعالى - هي في نفس الأمر لا تعدو رسالات الأنبياء وشرائع السماء . فانه لا يقرب إلا الله إلا ما قال الانبياء وكتب الله : إنه يقرب إليه تعالى ، ولا يكون وسيلة إلى رضاه وثوابه إلا ما علم من طريق السماء أنه كذلك . فمعرفة الوسيلة لا تكون إلا بمعرفة الشريعة ، وجعل الشريعة هو في الواقع جيل بالوسيلة . فمن لم يعرف دين الله فلن يكون عارفاً بالوسيلة فيه ، ومن عرف الوسيلة فلا بد أن يكون عارفاً بالدين لأن الدين كله تقرب إلى الله وكله يقرب إليه تعالى . والوسيلة - كما تقدم - هي ما يقرب إليه أيضاً . فالوسيلة إذن هي الدين وهي الطاعات والعبادات ، وهي ماله عند الله الثواب والجزاء والشكر والحمد ثم الجنة والرضا . ومعرفة الدين تحتاج بلا ريب إلى علم ودراسة واتصال مكين قريب بالرسالات السماوية . إذ ليس كل ما يسمى عند الناس ديناً يكون كذلك . ديناً عند الله وفي شرائع أنبيائه ، وليس كل ما يمدونه طاعات وعبادات يكون عند الله وفي شرعه كذلك . . . ومرجع هذا الاختلاف على الدين والعبادات والطاعات إلى الجهل والغباء وفساد الذوق والقصور الذاتي البشري ، والمعجز

الانسانى الظاهر المطبوع . ولا شك أنه لولا رسالات الله وبلاغاته أنبيائه لم عرفنا ، مثلاً ، أن الحج إلى مكة المكرمة - بطوافه وسعيه وسائر أعماله وشعائره - مما يقرب إلى الله ومما يرضيه ويجزى عليه . ولولا رسالات الأنبياء ووحى السماء لما عرفنا أن صيام شهر رمضان مما يقرب إلى الله ومما يجزى عليه الجنة والتقريب ، ولما عرفنا أيضاً كثيراً من الشرائع الإلهية المجمع عليها . وهذا كله معلوم ظاهر لا يتقبل الخلاف والتزاع .

إذن لا ريب أن من قال : هذا العمل وسيلة إلى الله - أى مقرب إليه - كان مطالباً بالحجة والبرهان من الشريعة نفسها . وذلك أن قوله : هذا وسيلة معناه هذا دين وشرع لله ، ودين الله لا يعلم إلا بالنقل والبرهان والوحى . وكتب الله كلها إنما أنزلت لتعريف العباد الدين وتعليمهم إياه . ولا شك أن من قال : إن المشايخ والصالحين والأموات ، وإن المكوف على القبور والحج إليها وإسراجها وتمظيمها ودعاء أصحابها وسكانها : - لا شك أن من زعم هذه الأمور أو بعضها وسائل إلى الله كان مطالباً بالدليل من الشرع والدين ، وأن من زعم هذا بلا نقل ولا عقل كان زاعماً لا يقبله العقلاء ولا المسلمون .

فإذا قيل إن الله قد أمر بابتغاء الوسيلة إليه والوسيلة عامة شاملة ، قيل في الجواب : هذا حق لا تنازع فيه ولا فى شئ منه ، أى لا تنازع فى وجوب ابتغاء الوسيلة الشرعية بكل أنواعها إلى الله ولكننا تنازع فى معنى الوسيلة وفى ما يراد بها ومنها فى نصوص الدين ، لأنها - كما قدمنا - هى كل ما يقرب . فعلى المخالفين إذن أن يقيموا الحجة المقبولة على أن هاتيك الباطلات والوثنيات مما يقرب إلى الله . وإلى جزائه وثوابه . فالنزاع والخلاف فى هذا لافى وجوب ابتغاء الوسائل واتخاذها كلها لديه تعالى . والأمر بابتغاء الوسيلة مثل الأمر بسائر العبادات والطاعات . وبالدين وبارضاء الله : كل ذلك يحتاج إلى معرفة بالمأمور به وإلى تعيينه والنصر

لاشك كل فى معرفة الوسيلة بالمأمور بها

عليه . فاذا قيل لنا : اعبدوا الله ، احتجنا إلى معرفة العبادة لنقوم بالأمر
وتؤدى الأمور به . وإذا قيل لنا : الدين كله لله احتجنا أيضاً إلى عرفانه لنقوم به
ونؤديه إلى الله ونخضع به . وإذا قيل لنا : توسلوا إلى الله وابتغوا إليه الوسيلة
اكتبنا في حاجة شديدة واضحة إلى عرفان هذه الوسيلة وهذا التوسل ، الذين
أمرنا بهما لنقوم بفروضهما وافية كاملة . كما أنه إذا قيل لنا : أقيموا الصلاة
وآتوا الزكاة كنا محتاجين إلى أن نعلم ما هي الصلاة وما هي الزكاة حتى نقيم هذين
ونؤتي تلك . بل كما أنه إذا قيل لنا : والله على الناس حج البيت ، كنا محتاجين
إلى معرفة معنى هذا البيت الذى أوجب الله علينا حجه ، ومحتاجين إلى معرفة
معنى الحج والمراد به وحقيقته وما يدخل فيه وما لا يدخل . وهكذا الشأن فى
جميع الأوامر والنواهي . فالوسيلة هي التقرب إلى الله ، وهذا لا ينزاع ولا ينزاعه
أحد من المسلمين . والتوسل إلى الله — أى التقرب — لا ينزاع فى وجوبه بالجملة
مسلم واحد . ولكن النزاع منطلق إلى معرفة ما يقرب منه تعالى . هذا معترك
الآراء ، وهنا تتصادم الأفكار .

إذن لا ريب فى أن من احتجوا بقوله تعالى : « اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة »
وقوله : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » على صحة
هذه المخزيات الباطلات الشريكات التى يأتينا الجبال وأشباهم فوق القبور ولدى
أضرحة الصالحين غلطاً عظيماً منكراً . وما مثلهم فى هذا الاحتجاج إلا
كمثل من احتجوا بقوله تعالى : « فاذا فرغيت فانصب » على صحة « النصب »
على أموال الناس أى الاحتياال عليها واغتصابها بطرق التبجيل والاحتجاج
والكذب . وقد وقع هذا الاحتجاج حقيقة لاخيالاً ، وقد سمعنا من احتج بالآية
هذا الاحتجاج الظريف . وهذا الاحتجاج كذلك الاحتجاج من كل وجه .
وذلك أن الذين أجازوا « النصب » استدلوا بالآية ، حججهم أنهم وجدوا العامة

مثل من استدوا
بالآية على جواز
كل ما يسمونه
توسلاً ووسيلة

يسمون الاحتيال على الناس وعلى أخذ أموالهم « نصباً »، ووجدوا الآية الكريمة تأمر « بالنصب »، فظنوا أن هذا هو هذا . وقد قرب هذا التفسير المجيب إلى أفهام هؤلاء المفسرين النبلاء ظنهم أن قوله « فرغت » يعنى به الفراغ من المال والمادة ومن العمل ، أى إذا فرغت يدك من المال ومن العمل الكاسب للمال واحتجت جازلك النصب على الناس لكسب قوتك وضرورة حياتك . وكذلك الذين احتجوا بالآيات والنصوص الآمرة بابتغاء الوسيلة إلى الله وجدوا أن عبادة المشايخ والأموات والطواف بقبورهم وأجدانهم ودعاءهم وسؤالهم ضروب الحاجات الدنيوية والأخروية ، وكل هاتيك المنكرات تسمى فى لغة عبدة القبور « وسائل »، ووجدوا أن القرآن يأمر بابتغاء الوسائل إليه تعالى ، فظنوا أن تلك هى تلك : فضلوا وأضلوا اعتقاداً وعملاً .

ومثل هذا الاحتجاج أيضاً ما سمعناه من شيخ كبير من كبار المشايخ الرميين وهو فى معرض إقامة البراهين من الكتاب والسنة على جواز التوسل أو وجوبه سمعنا هذا الشيخ الكبير الرسمى الجليل يقول بملء فيه على مسامع الجماهير من المستمعين إليه : إن قوله تعالى : « إن أبى يدعوكم ليجزيك أجر ما سقيت لنا » وقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى كتابه إلى هرقل عظيم الروم : « أما بعد طأى أدعوك بنسابة الاسلام . أسلم تسلم . . . » يدلان على جواز دعاء الأموات والتوسل بالمشايخ والصالحين ، ويدلان على بطلان ما ذهب إليه الوهابية من منع الاستغاثة بالموتى . . . وقد ذهب هذا الشيخ المفسر لكلام الله وكلام رسوله بهذا المنين إلى سبيله ولقى حتفه ورببه .

ولا يبعد من هذا الاحتجاج احتجاج بعض هؤلاء التأهين بقوله تعالى فى حصة بقرة بنى إسرائيل : « قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » على أن السنة اختيار الأصفر من النعال والخفاف . والاستدلال كله فى هذا راجع

إلى أن المستدل له والمستدل به يقعان تحت لفظ واحد وكلمة واحدة في حالة من الحالات وصيغة من الصيغ . فالأعمال الصالحة التي سماها الله في كتابه وسيلة وأمر يا ابتغائها ، وهذه الخمازي المبثوثة فوق القبور والأبواب وحول الأشجار والأحجار كل من النوعين أطلق عليه اسم الوسيلة وسمى توسلا في عبارة من العبارات وحالة من الحالات . ومن ثم جاء احتجاج هؤلاء المحتجين وضلال هؤلاء الضالين . وكذلك « فأنصب » في الآية « والنصب » في كلام الناس الجهلاء شملها لفظ واحد وعبارة واحدة ، فنشأ هذا الضلال . وكذلك دعاء الأموات والدعاء في قوله : « إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » وقعا كلاهما تحت كلمة الدعاء . فثار ذاك الاستدلال الشنيع . وكذلك صفراء في الآية الكريمة التي يعنى بها البقرة واختلف الأصفر كلاهما ينتسب إلى الصفرة والأصفرار . وعلى ذلك قام هذا الاحتجاج الأبله . ونظائر هذه الاحتجاجات البلهاء كم أصيب بها كتاب الله ودين الله ، وكما أصيبت بها عقول وقلوب وعقائد .

هذا هو تحقيق معنى الوسيلة والتوسل شرعاً ولغة .

أما معناهما في لغة عبدة القبور العاكفين على الأحداث فهما عندهم كل ما يأتون عند القبور والآثار المعزوة للمشايخ والصالحين من أشنات المنكرات وفرائد الضلالات الأثيمة ، كالمكوف على الأضرحة والبناء عليها وإسراجها وتزيينها بسائر الزينات واستقبالها وتقبيلها ودعاء أصحابها وسؤالهم كل الحاجات والمطالب الصغيرة والكبيرة ، والاستغاثة بهم في المحضر والمغيب على القرب والبعد ثم خوفهم ورجاؤهم وإطلاق العبرات الحري ، وإرسال الشكايات والآهات من " " والصدور الملتهبة ، فوق ترابهم وأعتابهم وعلى أطلالهم ومعالمهم الدائرة أو العامرة . وبالأجمال لا يخرج معنى التوسل والوسيلة عند هؤلاء المساكين المرضى عن هاتيك الأعمال والأقوال الوثنية الجاهلة المنتشرة على أركان أضرحة

معنى الوسيلة
والتوسل في لغة
العاكفين على
القبور

المشايخ المزورين المعظمين المحجوجين من كل مكان لسكل غاية وحاجة . وهم يحاولون أن يعدوا هذا البلاء كله من الوسيلة التي أمر الله بها عباده وأمرهم بأن يتقربوا إليه تعالى بابتغائها وطلبها وليس لهم من دليل على هذا الخلط الفظيع المنكر سوى أنهم وجدوا هذه المنكرات تسمى في لغتهم وسيلة ، ووجدوا الله يأمر بابتغاء الوسيلة إليه . وما علموا أن تسمية هذا أو غيره من الأمور في لغتهم وسيلة وتوسلا لا يقضى بأن يكون في لغة القرآن والشرع كذلك ، وما علموا أنهم كما يغلطون في معنويات الشرع ومعنويات الأشياء كلها يغلطون أيضا في لغويات الشرع ولغويات الأشياء . ولا علموا أن لهم لغة ولسانا وأن للشرع لغة ولسانا ، وأن لغتهم هم ولسانهم هم يخالفان لغة الشرع ولسانه . ولا علموا أن اعتقادهم هم بأن هذا من هذا ، لأنه سمى باسمه ، يساوى الاعتقاد بأن شخص محمد هذا هو شخص محمد ذاك لأن الشخصين كليهما يسميان محمداً ، ولأنهما كليهما يدعوان بهذا الاسم .

التوسل نوحان
جائز وممنوع

﴿ما يجوز من التوسل وما لا يجوز﴾

نحتاج في هذا البحث إلى الكشف عما يجوز من التوسل والوسيلة وما لا يجوز لأن هذا الذي ذكرناه في الفصل الآنف دلنا على أن التوسل نوحان: جائز وممنوع ودين وخلاف للدين ، ومأمور به ومنهى عنه . والحاجة ملجئة إلى معرفة هذا وذاك ، لاجتناب هذا واجتناء ذاك .

فنقول على وجه الاجمال والايجاز : الجائز من التوسل والوسيلة هو كل ما جاء دليل من الشرع على أنه مطلوب لله من عباده محبوب لديه ، مأمور به مثاب عليه لأن الوسيلة ، كما تقدم ، وهي الدين والعبادات والطاعات وكل ما أمر به ، لا تعرف إلا بالنصوص والبلاغات الإلهية . فكل ما دل الشرع على أن الله يطلبه من عباده ويريد منه ويحازيهم عليه إذا عملوه جزاء البر والطاعات هو وسيلة

شرعية مجزئ عليها من الله . وجميع ما لم يدل الشرع على أنه كذلك فليس من الوسيلة الشرعية ولا يصح القول بأنه منها . هذا هو بيان الوسيلة على وجه الإيجاز والالجمال . ولكن لا ريب أن هذا عند بعض الناس لا ينقع الغلة ولا يشفي العلة . فلا بد من بيان أشفي وأكفي ، ومن قول معدود من التفصيل القائم على الدليل .

فيقال : ذكر هذا الرافضى للتوسل ثلاثة وجوه أو ثلاث صيغ : أحدها أن يقول القائل : أتوسل بفلان إلى الله ، أو أتوجه أو أستشفع أو أقدمه بين يدي حاجتي . وثانيها أن يقول : أسألك بفلان أو بحق فلان أو بمجاهه أو ببركته أو بمرمته . وثالثها أن يقول أقسمت ، أو أقسم على الله بفلان ونحوه . هذه هي وجوه التوسل أو صيغه التي ذكرها الرافضى في مطلع بحثه هذا ، وأجاز الوجوه الثلاثة كلها . وقد أورد من الشواهد عنده على جوازها ما ذكرناه نحن وما سوف نلخصه ونرد باطله بعد .

والوجوه الثلاثة عندنا باطلة فاسدة مخالفة لنصوص الدين ، ولروحه ومفراه العام .

وبيان ذلك : أما الضرب الأول وهو قول القائل : أتوسل إليك يا الله بفلان أو أتوجه أو أستشفع به أو أقدمه بين يدي حاجتي لديك فهو باطل فاسد غير مشروع . وذلك أن كلمة « أتوسل » معناها أتقرب كما تقدم ، والتقرب إلى الله بالأشخاص والنوآت غير معقول ولا مقبول لا عقلاً ولا شراً ، لا عند الله ولا عند عباده الصالحين . وإنما يقرب العباد إلى ربهم الأعمال الصالحة والطاعات وأفعال البر والإيمان وشعائر الإسلام وجواهر الفضائل الظاهرة والباطنة ، الفعلية والقولية ، الاعتقادية وغير الاعتقادية . ولا شيء غير ذلك يقرب العباد إلى ربهم . لأن التقريب هنا يراد به الرضا والحظوة والتكريم والجزاء والثواب الحسن من الله ، فهو التقريب الحقيقي الملتزم لهذه الأمور . والله لا يقرب عباده وخلقه بهذا التفسير

وجوه التوسل
الثلاثة عند
المخالفين وبطلان
كلها

ولا عمل بطلاق
سؤال الله بعباده
المخلوق

منه إلا بقدر صلاحهم وطاعتهم وأعمالهم وبرهم وخوفهم مولاهم ووقوفهم عند
الأوامر والنواهي جزراً ومدناً . والعلاء من الخلق جميعاً لا يقربون المرء إليهم
هذا التقريب إلا بمقدار ما يتحلى به من هذه الفضائل والحسنات الشخصية المبرورة .
ومن قرب بغير ذلك كان عند الناس العقلاء عين الظالم المعتدى المولوم ، وكان
فعله هذا من المحاباة المقنونة الملعونة . ولهذا فإن الحكومات والهيئات كلها التي
تعامل الخلق بالمحاباة و« المحسوبية » المعروفة : فتقرب مثلاً فلاناً المتأخر لأجل فلان
لا لأجل عمله واستعداداته واستحقاقه ، ولا لأجل كفاءته ومقدرته الذاتية - من
شر الحكومات والهيئات التي تجب الثورة بها وبحكمها ونظامها والقائمين عليها
وبها . ولهذا أيضاً كانت حكومات « المحسوبية » والمحاباة التي تقرب فلاناً وتولييه
الدرجات والوظائف العالية لاشئ إلا لأجل قرابته الماتة إلى فلان العظيم أو
الكبير أولاً لأجل شفاعته فلان ورجاء فلان : نعم كانت حكومات « المحسوبية »
والمحاباة - ولا تزال ، ولن تزال - من الحكومات الملعونة على جميع الأنفواء .
والألسنة ، المكروهة المقنونة في كل قلب وعقل وضمير حتى لدى من خصتهم
« محسوبيتها » ومحاباتها ، وذلك لأن الباطل والظلم مكر وهان ملعونان وإن طلبا
وسعى إليهما . ولو أن قاضياً من القضاة لم يوزع عدله وعطفه وميله وحبه وكل
هاتيك المعاني والمظاهر والمناورات المعلومة بين الخصوم المتقاضين بالسوية .
والنصفة - ذهاباً مع شفاعته فلان ووسيلة فلان - لكان قاضياً يجب أن يزول
من مكانه ، وأن يهبط من فوق كرسي القضاء والفصل بين الناس . ولو أن صدقات
المسلمين وأوقافهم وزكواتهم قسمت بين الناس المحتاجين بغير السوية .
والاستحقاق والجدارة ، بل بالشفاعات والوسائل والجاهات والوساطات لكانت
تلك القسمة قسمة ضيزى ، يكرها الله ويكرها خلقه . ولهذا كانت الشفاعات
والجاهات والرجاءات والوساطات غير موجودة ولا نافذة عند العاديين المتسعين .

لا تخف
الشفاعات
الوساطات
في القسمة
النافذة
الحكومات
النافذة

من الحكماء كالقضاة والولاة والملوك والخلفاء . وإنما توجد وتشيع وتعم وأطمح ويتسلح بها كل غاد لحاجة باطلة أو صحيحة في البيئات والحكومات والشعوب التي يسيطر عليها ويمسك أزمتهما الظالمون المجرمون، عباد الأهواء والأغراض الخسيسة الدنيئة، وعباد الشهوات والنساء والاندازات والفواكه المحرمة — قاتل الله أمثال هؤلاء، واجتث أصولهم وفروعهم، وطهر بلاد الاسلام والحكومات الاسلامية والعربية منهم ومن سلطانهم وتسلمتهم . اللهم عاجلهم بعقابك وعذابك وقدرتك . العادلة . ولو أنك تقدمت إلى قاض أو حاكم عادل بشفاعة أو جاه أو وساطة أو وسيلة لكنك عنده ممقوتاً مهيناً مجرمًا ساعياً بالظلم والخيانة الوطنية الدينية الكبرى . ولهذا لم يكن الناس يتقدمون إلى الخلفاء وإلى غيرهم من الحكماء العادلين بشيء من ذلك ألبتة رجاء أن ينالوا حقاً أو باطلاً ، بل كان الناس يتقدمون إلى هؤلاء الخلفاء العادلين الراشدين بحاجاتهم فرادى ، لا شفعاء ولا جهاء وأولياء ، ولا غير ذلك سوى ما يحملون معهم من استحقاق وجدارة وكفاءة وسلطان ظاهر . وما كان المسلمون يتخذون عند رسول الله شفيعاً ولا وسيطاً ولا من يقومون هذا المقام لينالوا حاجاتهم وحقوقهم أو ليظفروا بعدله وحيه . . . وإنما كانوا يتقدمون إليه بأعمالهم وطاعاتهم وإيمانهم وإسلامهم . وكان ﷺ يهبهم من حبه وتعظيمه وولائه ورضاه بقدر ما وهبوا ربهم من قلوبهم وعقولهم وعقائدهم وإخلاصهم وتقواهم . وكان الآتي الأبعد عنه نسباً ورحماً أقرب إليه وإلى قلبه . وحبه ورضاه من غيره ، من الذين لم يبلغوا ما بلغه من التقوى والدين والاستقامة . ونصرة الله . وكانت منازل المسلمين ودرجاتهم لديه عليه السلام مرتبة على حسب الصلاح والدين والقرب من رضا الله وطاعته . ولأن معاوية بن أبي سفيان أو أبا سفيان نفسه جاءه ﷺ بأهل الأرض جميعاً شافعين متوسطين ليجعلوه . كان أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي بن أبي طالب لما كان ذلك أبداً

وإذا كان هذا النوع من الجاه والوساطة والشفاعة مقبوحاً مذموماً بين الناس والناس ، والخالق والخلق ، وعند العبد في حق العبد فكيف يكون مقبولا مرضياً بين الله وخلقه ؟

بإزالة الشرع على
أن الجزاء بالعمل

وقد دل الشرع بجمليته وتفصيله على هذا الذي نقول ، ودلت جميع نصوصه قرآنه وحديثه على أن العباد يجزيون : مثابون ومعاقبون ، مقربون ومبعدون بأعمالهم : خيرها وشرها ، صالحها وطالحها . ودلت على أنهم لن ينالوا شيئاً من هذا ولن ينالهم شيء من ذلك إلا بالعدل والحكمة والمساواة . وقد دل القرآن ، وكذلك السنة ، على أن الإنسان لن يجزى إلا بعمله من خير وشر ، وأن ماسوى العمل من الجاه والشفاعة والوساطة والوسيلة لن يقدم ولن يؤخر ، ولن يثيب أو يعاقب ، ولن يفعل شيئاً . ودل الكتاب والسنة في جملة نصوصهما على أن كل امرئ بما كسب رهين ، وأن كل نفس بما كسبت رهينة ، وأنه ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى . ودل كل شيء في الاسلام ، بل في جميع الأديان السماوية ، على أنه لا شيء يقرب إلى الله سوى الأعمال والطاعات والعبادات ، وسوى الإيمان والصالح والبر . والنصوص : الآيات والأحاديث في هذا الأصل معروفة للخاصة وللعمامة ، غنية بشهرتها وكثرتها ووضوحها عن إيرادها أو إيراد شيء منها . وقد قال تعالى إبطالاً لنوع من الدعاوى يضارع هذا النوع : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً . فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » والاستثناء في الآية عند أهل العلم منقطع . والمعنى أن الذين يقربون عند الله درجات ومنازل عظيمة ، والذين تضعف لهم حسناتهم بأعمالهم ، لا بالشفاعات ولا بالجاهات ولا غيرها ، هم الذين آمنوا ، وهم الذين عملوا أعمالاً صالحة . فأولئك هم الذين لهم جزاء المضاعفة بأعمالهم لا بالشفاعات ولا بالجاهات والوساطات ، ولا

بغير ذلك من هذا القبيل ، ولا بالأموال ولا بالأولاد ولا غيرها من أسباب الدنيا وأعراض الحياة . وقد قال تعالى إنباء عن خليله إبراهيم وتحديثاً عن هذا الأصل العظيم والجزء العادل والحكم النزيه : « ولا تحزنى يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . يعنى أنه لا ينفع شئ من الأشياء ولا أمر من الأمور فى ذلك اليوم العظيم غير سلامة القلب . ويراد بسلامته طهارة الداخل من الادواء النفسية والاعتقادية ، ثم امتثال الظاهر بالطاعات والأعمال والآقوال . أى إنه لا ينفع فى ذلك اليوم غير الايمان والاسلام ، أى الاعتقاد السليم النظيف والأعمال المبرورة الصالحة . وما سوى ذلك فباطل وضلال وزور وغرور ، وغباء اتباعه ورجاؤه . ولأجل هذا تجمد الكتاب العزيز يخبر فى غير ما آية بأن الأنبياء والمرسلين - بله من دونهم - لا ينفعون ولا يضرون ولا يقدمون أو يؤخرون ؛ فلا يهدون ضالا ولا ينفعون مجرماً ولا ينجون كافراً ولا يأخذون بيد هالك غريق فى أعماله وسيناته وأحواله وأحواله ، ويخبر أن الكثيرين أرادوا الشفاعة - أو شفّعوا فعلاً - لأبائهم وأولادهم وأقربهم فنهوا عن ذلك وعوتبوا ووعظوا وقيل لهم ما قيل ، ثم لم تجد شفاعتهم تلك شيئاً ولم تخلص من شفّعوا فيهم من عذابهم وإجرامهم . وحدث تعالى أن فريقاً منهم لم يفتنوا بمعض الغناء عن زوجاتهم وحليلاتهم حينما شركن فى العذاب ، فأدخلن النار مع الداخلين والداخلات لمصياتهن وشروردهن عن الله وعن أنبيائه .

مجن الانبياء
من نعم آياتهم
وأولادهم

وقد وجدنا الكتاب عند ما ينهى عن وظائف الأنبياء والمرسلين يحملها فقط البلاغ والرسالة والندارة وهذه المعانى ، فيقول مثلاً : « إنما أنت منذر » ويقول : « إن عليك إلا البلاغ » ويقول : « قل إنما أنا بشر مثلكم » ويقول : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن » ويقول : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست

وظائف النبوة

عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر، فيعذبه الله العذاب الأكبر. إنا إلينا إليهم ثم إن علينا حسابهم ». والآيات في هذه المعاني كثيرة معروفة . والمراد بها إعلام الخلق كافة أن الأنبياء والمرسلين ليسوا سوى مبشرين ومنذرين ، لا جبارين ولا مسيطرين كما قال تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين ». ولا شأن لهم في مسألة الجزاء والثواب والمقاب والحساب، ولا في مسألة التقريب والابعاد إلى الله ومنه ، ولا في كسب رضاه ورحمته وتقمته. بل هذا كله من فعله واختصاصه على حسب الأعمال والقيام بحقوق العبودية ، إذ ليس بين الله وبين أحد من خلقه حسب ولا نسب ولا قرابة .

وقد أنبأ القرآن بأن محاولة التقريب والتقرب إلى الله بالأشخاص والخلق من فعل المشركين الجاهلين ، فنعى هذا الباطل وهذا الجهل على القوم قائلًا : « والذين اتخنا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ». فالله قد عاب على القوم في هذه الآية أمرين اثنين ، عاب عليهم عبادة الأولياء من دونه ، وعاب محاولتهم القرب والزلفى إليه تعالى بالأشخاص والعباد المخلوقين . فكلا الأمرين في الآية عيب وذنب ، وكلاهما باطل وكذب وضلال . وقال أيضاً : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ». وفي هذه الآية أيضاً نعى على القوم أمرين اثنين: نعى عليهم عبادة من لا يضر ولا ينفع ، ونعى عليهم ، بعد ، ظنهم أن الشفاعات تقرب إلى الله وتجدي لديه شيئاً . فالأمران في الآية كلاهما باطل فاسد مردود على فاعليه .

وقد تحدث القرآن كثيراً عن مجازاة الخلق المؤمنين والكافرين المحسنين والمسيئين ، وأطال التحدث ، وأنبأ ونوع الانبئات والعبارات والآيات في التحديث والانباء عن هذه المعاني التي هي غاية العاملين والتي هي كل ما يخافه

حديث القرآن من
مجازاة الخلق
ومن موجبات
للجنة وموجبات
النار

الخالقون ويرجوه الراجون. وأخبر عن دخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار ، وأخبر عن المنازل والدرجات ، وأخبر عما يقال لأهل الجنة عند دخولهم إليها وما يقال لأهل النار عند قذفهم أيضا فيها ، وأخبر عن الأسباب الموجبة لدخول الجنة ونيل رضا الله ، وعن الأسباب الموجبة غضب الله ودخول ناره ، وأخبر عن مقامات التهنة والبشارات ، وعن مقامات التقرير والتوبيخ : أخبر القرآن عن ذلك كله وعن غيره وما شاء الله من هذه الأنباء والأخبار . ولكننا لم نجد لفظا واحدا قيل فيه لأهل الجنة : ادخلوا الجنة أو امضوا إلى هذه المنازل الرفيعة السامية بشفاعة فلان أو بوسيلة فلان ، أو لأنكم توسلتم بفلان واستشفعتم بفلان ، أو ادخلوا الجنة بأعمالكم وبشفاعات شفعاكم ووسائل أنبيائكم وأوليائكم : كلا ، لم يقل شيء من هذا . وإنما قيل في الآيات كلها ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وبما كنتم تكسبون . وكذلك لم يقل لأحد من أهل النار : ادخل النار أو ذق العذاب لأنك لم تتوسل بفلان ولم تستشفع بفلان أو نحو ذلك . ولكن قيل لأهل النار جميعا : ادخلوا النار وذوقوا العذاب بكفركم وشرككم وتكذيبكم الأنبياء والمرسلين وانقطاعكم إلى الشفاء والوسطاء والمخلفين .

إذن فلا التوسل بالمخلوقين ينفع ولا تركه يضر ، فلا يتعلق بمجاه ذوى الجاه . يقرب من الله ولا الأعراض عنه يبعد منه . فالذين يزعمون أن التوسل بالنوات والاشخاص يدنى من الله ويقرب من رضاه كاذبون على الله وعلى الاسلام وعلى هداه تعالى وعلى دينه . والذين يرجون بذلك أن ينالوا خيرا وأجرا ، فيذهبون يلهجون به وينضحون عنه ، يجأتون على الدين وعلى أنفسهم وعلى عقولهم . ولو كان في مثل هذا التوسل خير وثواب ومصاب ودنو إلى الله لوجدنا كبار المسلمين بوخيارهم وأصحاب النبي عليه السلام يتسابقون إليه ، ويتنافسون فيه ، ولوجدنا

دعاءهم جميعه مشفوعاً به قائماً عليه ، ولوجدنا النبي عليه الصلاة والسلام يوصي صحابته وكبار المسلمين به أشد الإيحاء ، ويحثهم عليه الحث المتتابع المتلاحق . ولكن ماذا يقول المخالفون وماذا يزعمون إذا وجدنا دعوات كبار المسلمين وفضلائهم ودعوات عظماء الأصحاب وكبرائهم خالية من هذا التوسل المزعوم وهذه الوسيلة الباطلة ، وإذا وجدنا الرسول عليه الصلاة والسلام يعلمهم أنواع الأدعية ، ويسأل عن أفضل ذلك وأقر به إلى الاجابة والرضا والقبول وأصعده إلى السماء فيجيب ويصف أفضل ما يلزم أن يدعو المسلم به ربه وأفضل ما يحسن أن يواظب على الدعاء به ، ثم لا نجد في شيء من ذلك وسيلة ولا توسلاً : نعم ماذا يقولون ويزعمون إذا ما قلنا لهم هذا كله ووجدوه صحيحاً كله ؟

ما يبطل السؤال
بالقنوات
والاشخاص

فهذا الضرب من ضروب التوسل الثلاثة التي ذكرها الشيعة باطل كاذب فالتوسل بذوات الخلق وأشخاصهم غير مرغوب فيه وغير مقبول لا عقلاً ولا نقلاً . ولو أن ذاهباً ذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال له ، وهو حي سوى ، يا رسول الله إني أتوسل إليك وإلى رضاك وعدلك وإحسانك وحبك بذات أبي بكر أو بشخص عمر أو عثمان أو علي أو بالكعبة أو بالمقام وزمزم أو بالحطيم والمشرع الحرام أو بالمدينة المنورة أو بمكة كلها أو بنذر ذلك لكان هذا القائل المتوسل جاهلاً ، ولما كان في شيء من قوله وتوسله هذا ما يوجب البر به والعطف عليه والتقرب إليه والاحسان إليه . ولو أن ذاهباً ذهب إلى قاض أو حاكم عادل قائلاً له : إني أتوسل إليك بذات ابنك أو ذات والدك أو بشخص أحب الخلق وأحظاهم لديك أن تقضي لي وأن تعطف علي وأن . وأن . . . لما كان في شيء من هذا القول ما يوجب أن ينذر الحكم والقضاء وسير الدعوى ، ولا ما يوجب العطف عليه والاحسان إليه بوجه من الوجوه ، بل لكان هذا القول برمته وجملته جهلاً وحققاً وسماجة ظاهرة ، ولما كان إيراد خيال نين حجة وطيف من برهان أنفع وأجمع في الأمر والدعوى

من هذا الكلام الهراء والرجاء الباطل المقبوح . ولهذا كان من أجهل الناس . وأضلهم أولئك الذين يقولون في كلامهم وسؤالهم لمن يسألونه ويرجونه مثلاً : أتوسل إليك بقبر أبيك أو برأسه أو بروحه أو بجسده ورمته . وكان لا يقول هذه الأقاويل إلا الجاهلاء والضلال ومن لا يعقلون ولا يعرفون ما يحسن مما يقبح . ومثل هذا الكلام والهراء من التوسل والاستشفاع لا ينفع ولا يروج ولا يعرف إلا بين أراذل الناس وسوقتهم وسخفائهم وسقطهم . . . أما عليهم وخاصتهم فيسمون على هذا الاسفاف ويرغبون عن ذاك الهراء . والله أجل وأحكم وأعلى . من أن يروج عنده هذا السخف أو يجوز لديه هذا الباطل .

فالذى يقول مثلاً : أتوسل إليك يا الله بذات محمد ﷺ أو بذات أبي بكر أو بذات الكعبة أو بالحجاز كله لا يكون إلا جاهلاً مغرماً في جهالة . ذلك لأنه ليس في سؤال الله بذوات هؤلاء ما يوجب أن يجيب الدعاء وأن يقبل صاحبه ويقربه منه . فان مثل هذا ليس سبباً عادياً ولا شرعياً لشيء من الأشياء . ولا يزيد قولك : أتوسل إليك يا الله بذات محمد عليه الصلاة والسلام وبجاهه عن قولك : أتوسل إليك باسم نبيك محمد وبأسماء أنبيائك ورسلك وباسم بيتك الحرام ، أو أسألك يا الله وأرجوك لأن اسم نبيك محمد ، ولأن اسم حرمك مكة واسم حرم رسولك المدينة ، كما أنه لا فرق بين قولك : أتوسل إليك يا فلان بأبيك وأخيك وأهلك ، وبين قولك : أسألك لأن اسم أبيك زيد ولأن اسمك عمرو . فان كان في هذا النوع من الكلام ما يعد سبباً لنيل مطلوب كان ذلك في ذاك وإلا فلا . ولكن الناس جميعاً لا يرتابون في أن هذا التوسل الأخير جهل وباطل وضلال ، فالأول مثله .

فان قيل هذا حق وكلام جيد لولا أنه قد جاء في السنة الصحيحة ما يبطله اعتدائهم وجوابه . ويرده ، وذلك حديث أنس المشهور الذي فيه أن عمر استسقى بالعباس بن

عبد المطلب وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك
بعم نبينا فاستقنا . ومثله حديث الأعمى الآتي وقد جاء فيه : « اللهم إني أسألك
وأتوجه إليك بنبيك محمد بنى الرحمة . يا محمد إني توجهت بك إلى ربي . . . »
ففى هذين الحديثين ما يفسد ما ذهبتم إليه وما زعمتموه ، فالجواب أن نقول : إن
حديث الاستسقاء بالعباس وحديث الأعمى ليسا من التوسل بالذوات والأشخاص
الذى منعناه وذكرنا أنه باطل فى الشرع والعقل . وإنما هما من التوسل بالدعاء
بلا ريب . فقول عمر : اللهم إنا كنا نتوسل بنبينا . . . وإنا نتوسل إليك بعم
نبينا معناه أنهم كانوا إذا أجدوا فى حياة النبي عليه الصلاة والسلام طلبوا إليه
أن يدعو الله لهم وأن يضرع ويرغب إليه لينزل الغيث والسحاب ويمن على
عباده بالرحمة والمطر . هذا هو التوسل الذى كان يطلبه المسلمون من النبي فى حياته
والذى كان يفعله إذا شحت السماء بهاها كما جاء مفصلاً فى أحاديث الاستسقاء .
وقد جاء فى كل الأخبار أنهم كانوا يطلبون من النبي الدعاء ويقولون : هلكنا
وهلكت دوابنا وعبائنا من الجسد طادع الله ليفيئتنا وينزل على عباده ، وبلاؤه
الخير والغيث ، فيدعوا لهم حينئذٍ مجرداً كما فعل فوق المنبر عند ما سأله ذلك
وهو قائم يخطب ، وأحياناً يعمد إلى صلاة الاستسقاء فيصلى ويدعو ، ويصلى
ويدعو معه المسلمون . وهذا هو الأكثر الأشهر من فعل النبي عليه السلام ، وهذا
هو التوسل المذكور فى قول عمر . وقوله رضى الله عنه : وإنا نتوسل إليك بعم
نبينا معناه أننا نتقرب إلى رحمتك وغيثك ورضائك بدعاء عم نبيك العباس :
لأن العباس صالح وقريب منك ومن نبيك ، وقد احتاج إلى رحمتك واحتجنا
نحن كذلك ، وأراد الغيث منك وأردناه نحن ، وقد دعا ودعونا وضرع وضرعنا
وسألك وسألنا . فما أخلقنا بأن نجاب ونغاث ، وما أخلقك بأن تجيب وتغيث ..
فالتوسل بالدعاء لا بالذوات ولا بالأشخاص ، ولا ريب . وحديث الأعمى كذلك

أيضاً ، فقله : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبي الرحمة . يا محمد إني
توجهت بك إلى ربي » معناه أنه أراد من الله بدعاء محمد ﷺ . وهذا لا يزيد
عن أن يقول : إن محمداً قد دعاك في وسائلك كسب ضررى وبلائى وإنى ، أسألك
أن تجيب دعوته ، وأن تقبل شفاعته وأن تشفعه في ، وتشفعني فيه . فانا كلاً ما - أنا
ونبيك محمد - داع ، وكلاً ما شافع سائل ، وأنت يا الله خير من أعطى السائلين
وأجاب الداعين . فالتوجه في الحديث لم يكن بالذات والشخص وإنما هو بالدعاء
والشفاعة . والدليل أول الحديث وآخره : ففي أوله أنه طلب من النبي أن يدعو
له وأن النبي أشار عليه بأن يصبر لأن الصبر خير له ، فقال له : لا ، بل ادعه .
وفي آخره قال : اللهم شفعه فيّ وشفعني في نفسي - أو شفعني فيه - أي اللهم
اقبل دعاءه في ، لأن الشفاعة دعاء . . فأول الحديث وآخره وانحمان في أن المسألة
مسألة دعاء . وفي الحديثين : حديث الاستسقاء بالعباس وحديث الأعمى كلام
طويل سوف يمر بالتقارير فيما بعد .

الذي يجيب الله
فانظره واهي

وإذا علم أن مافي الحديثين ليس من التوسل والتوجه بالذوات والأشخاص
زال هذا الإشكال والسؤال وسلم مما ذكرناه من الاعتراض والقدح . وذلك أنه
لا ريب في أن تمت فرقاً عظيماً بين التوسل بالدعاء والشفاعة وبين التوسل بالذوات
والمادة . فان التوسل ، كما تقدم ، معناه التقرب والتزلف ، والذوات المجردة لا
تقرب ولا تنفع في هذا المعنى شيئاً ولا قيمة لها في هذا الضرب . وأما الدعاء فإنه
يصح أن ينفع وأن ينال به المرء خيراً وأن يدرك به مطلوباً وحاجة من الحاج .
وذلك أن الدعاء عبادة من العبادات وطاعة من الطاعات . بل قد جاء في الحديث
« الدعاء مخ العبادة » . وفي رواية : « الدعاء هو العبادة » . والعبادات يجازي
الله عليها ، ومن جزائه عليها أن يجيب وأن يعطي صاحبها ما سأل . والله أيضاً
أعظم من يعطي على السؤال ومن ينفع عنده الدعاء . وقد قال تعالى : « وقال ربكم

ادعوني أستجب لكم » ، وقال : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » ، وقال : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » الآية . ولا فرق في ذلك بين أن تكون الدعوة من المرء لنفسه أو من المرء لغيره . بشرطها وفروضها . وقد جاء الترغيب الكثير في الدعوة للغير ، وللأخوان المؤمنين في أحاديث صحاح معروفة .

فالذي يطلب من صالح أن يدعو له ويشفع هو إنسان قد أخذ بسبب من أسباب النجاح والقبول ، ثم قد يستجاب له وقد لا يستجاب . ومن أخذ بسبب من هذه الأسباب فقد توسل إلى الله وتوسل إلى حاجته . فيصح أن يقال إنه قد توسل إلى الله . ولا ريب أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا دعا الله أن يغيثه وأن يغيث المسلمين معه ، فقد توسل إلى ربه وإلى نزول الغيث بسبب من أعظم الأسباب . ولا ريب أن المسلمين إذا طلبوا من النبي عليه السلام أن يصلي بهم . وأن يصلوا معه ، وأن يدعو الله وأن يدعوهم وأن ينزل عليهم غيثه وحنانه فقد توسلوا إلى الله . جلّت قدرته رجاء أن يرحمهم وأن ينزل عليهم غيثه وحنانه فقد توسلوا إلى الله . ربه . وإلى حاجاتهم بسبب هو من أعظم الأسباب وأقواها ، ومثله إذا فعلوا ذلك مع العباس بن عبد المطلب أومع غيره من الأحياء الصالحين . ثم لا ريب أن ذلك الضرير إذا طلب من النبي أن يدعو له ليورد بصره فدعا وأمره أيضاً أن يصلي ركعتين خاشعتين بارتين تقيتين ، وأن يدعو كذلك ، فصلاهما ودعا بعد أن دعا له النبي عليه السلام : نعم لا ريب أنه قد توسل إلى الله وإلى إدراك حاجته ورد بصره ، وأنه يصبح حينئذ أن يقول : « اللهم إني أتوجه إليك بنبيك . محمد نبي الرحمة . . . » . ولهذا لما أن كانت المسألة مسألة دعاء وعبادة ، لا مسألة أشخاص وذوات ، أمره النبي عليه الصلاة والسلام أن يتوضأ ويصلي وأن يدعو أيضاً ويضريح ، بل وأن يطلب من الله أن يقبل شفاعته النبي عليه السلام .

فكان هو شافعاً للنبي كما كان النبي شافعاً فيه ، فكلاهما شافع . شفع له لكن على وجهين مختلفين . وذلك أنه قد جاء في آخر الحديث من الدعاء الذي علمه النبي للأعمى « اللهم شفعه في وشفعني فيه » . وهذا كله صحيح عقلاً ونقلاً .

أما التوسل بالذوات والأشخاص فشيء باطل فاسد لا معنى له ولا حقيقة . وما مثل من توسل إلى الله وإلى حاجته عند الله بالأشخاص والذوات إلا كمثل من توسل بذاته وشخصه . ولو أن أتقى خلق الله قال : أسألك يا الله وأتوسل إليك بذاتي أو بنوأي أو بكرامتي أو بقبري أو بوجهي أو جامي لكان من الجاهلين ولكان دعاؤه هذا وتوسله دعاء وتوسلاً باطلاً سخيلاً ، لا يقدمان ولا يؤخران ولا يجديان شيئاً . وشر منه ، ولا شك ، ذاك الذي يقول مثلاً : أتوسل إليك بجسم فلان من الأنبياء أو بكرامة ذلك الشيخ أو بمقامه أو ببركته أو بجاهه . وذلك أنه إذا كان من غير الجائز المقبول أن يتوسل المرء ، مهما كان صالحاً براً ، إلى ربه بذاته وشخصه كان من غير الجائز يقيناً أن يتوسل بذات غيره وشخصه ، كما أنه إذا كان من الحسن المقبول أن يتوسل إلى ربه وإلى حاجته عنده بدعائه وسؤاله كان من الجائز الحسن أيضاً أن يتوسل إلى ذلك بدعاء الصالحين الأحياء . وكل الناس يعلم أنه لا يمكن مثلاً أن يقول الرسول ﷺ : « اللهم إني أتوسل إليك بذاتي ووجودي » ، ولكن من الحسن المقبول أن يقول : « اللهم إني أتوسل إليك بطاعتي وبتطاتي وسؤالتي » . وعليه يجب أن يكون من غير الجائز أن يقول المسلم مثلاً : « اللهم إني أتوسل إليك بذات نبيك محمد ولا بجاهه أو ببركته أو بقبره أو بصومته وشرفه أو بتقواه وورعه . . . » ، وفساد مثل هذا واضح حتى في كلام الناس وعندهم . فلو قال قائل : أسألك يا فلان بتقوى فلان وصلاحه وبره ويقينه وعلمه وفضله ، أو بشجاعته أو بفضيلته أو بوجوده لكان قولاً لا معنى له . وهذا لأنه لا ريب في صلاح فلان ودينه وأخلاقه الكريمة . وبين إعطائك حاجتك وأملك .

التوسل إلى الله
بدعوات الصالحين
مثل التوسل
بذاته وبجسمه
وفهره

فكان سؤال هذا بهذا من العبث والجهل والسخف والبرود . ونحن لا نجد فرقا بين أن يقول القائل : أسألك وأتوجه إليك بجاه النبي و بركته وحرمة و بين أن يقول أسألك وأتوسل إليك بصلاح نبيك أو بتقواه أو بحسن أخلاقه وطيبها أو بسمو شمائله أو بشجاعته أو بصبره على المكاره والآلام أو بطيب عنصره أو بطهارة نفسه ونحو ذلك . ولا نجد فرقا أيضاً بين التوسل بالجاه وبين أن يقال : أتوسل إليك بكون نبيك وجدني عصر كذا و بلد كذا ، و يكون والده فلاناً ووالدته فلانة . فإذا لم يكن وجود النبي عليه السلام في عصر كذا و مكان كذا ، ولم يكن صلاحه وصبره وفضائله وأخلاقه سبباً من أسباب نيلك ما تطلب وترجو ، ولا وسيلة لأن تجاب وتمطى وتقرب من الله ، لم يصح كذلك أن يكون جاهه ولا بركته ولا حرمة ولا ذاته ولا قبره سبباً من أسباب أن تعطى وأن تنال ما ترجو وتؤمل . وإذا لم يكن شيء من هذا سبباً لما ترجو لم يصح أن تطلب ما ترجو بما لا يمكن أن يكون سبباً له ألبتة . وهذا كله واضح جلي لا يدركه الخلاف والشك إن شاء الله .

هذا التوسل مثل
أن يقال أسألك
بكون نبيك وجدني
عصر كذا

فان قيل إن ما ذكرته هنا كله صحيح واضح الصحة والجودة ولكن الشفاعة وإثباتها بردان عليه إشكالا ، قيل : جواب هذا الإشكال يرجع إليه في بحث الشفاعة الآنف من هذا الجزء . هذا جواب الضرب الأول من ضروب التوسل الثلاثة التي ذكرها الشيعي وهو التوسل إلى الله بالأشخاص والنوات والخلق وأما الضرب الثاني وهو سؤال الله بالجاهات والبركات والحرمت وبال حقوق مثل أن يقال : أسألك بحق فلان أو بجاهه أو بحرمة أو بركته — فالجواب أن هذا الضرب حكمه حكم الضرب الأول بل هو هو فجوابه جوابه وكل ما قيل هناك يقال هنا .

وأما الضرب الثالث — وهو الاقسام على الله بخلقه ، مثل أن يقال : أقسم عليك يا الله بفلان لما غفرت أو لما وهبت لي كيت وكيت — فيقال في الجواب :

إن الإقسام بالخلق لا يجوز ألبتة . وقد جاء النهي عنه متواتراً ، وورد الوعيد الشديد عليه . وهذا له باب خاص به سوف يجيء الكلام فيه وافيّاً . فلنتركه له فهذه ضروب التوسل الثلاثة التي ذكرها الرافعي المؤلف كلها باطلة فاسدة لا يجوز منها شيء لا شرعاً ولا عقلاً وسيأتى الجواب مفصلاً عن دلائله المذكورة . فالتحقيق إذن أن التوسل المطلوب شرعاً الوارد في نصوص الكتاب والسنة يراد به جملة الأعمال الصالحة المبرورة قولية وفعلية ، وهو عبارة عن الواجبات والمستحبات . وبعبارة أخرى هو الأوامر ، والأوامر إما على سبيل الوجوب والإلزام ، أو على سبيل الاستحباب والندب . فكل واجب عمله توسل ووسيلة إلى الله ، وكل مستحب مشروع القيام به هو من التوسل والوسيلة الشرعية أيضاً . وما ليس واجباً ولا مستحباً فليس وسيلة ولا توسلاً ، أى ليس مقرباً إلى الله وإلى رضاه . فعلى إذنت وعلى المخالفين وعلى المسلمين كافة أن يعرفوا الواجبات والمستحبات وأن يعرفوا الشرع والدين وأن يدرسوه ليعرفوا ماهو التوسل وما هي الوسيلة . فالصلاة مثلاً من أعظم الوسائل ، والحج والزكاة والصيام والشهادتان من أعظم وأفضل ما يتوسل به المرء إلى ربه ، بل لا يمكن التوسل إليه تعالى بدون ذلك ، ودعاء الصالحين الأحياء نوع من التوسل أيضاً . وهذا كله قد دل عليه الشرع ولا يختلف الناس فيه .

أما ما يذكره الجهال وما يمدونه من التوسل والوسيلة بما لا دليل عليه سوى أنهم يسمونه توسلاً ووسيلة فليس من ذلك بل هو توسل إلى الشيطان وإلى رضاه وإلى غضب الله ومقتنه . فدعاء الأموات والمعكوف على الأجداث وسائر هاتيك المنكرات الخزيات هي وسائل ولا شك ولكنها وسائل إلى البعد عن الله وعن رحمته وشريعته ودينه — عياداً بالله .

بعد هذا نقول : ومن الكذب الواضح الصريح وقلة الإنصاف ومراقبة الله

وبالاجماله
فالتوسل
عبارة عن جملة
الأعمال الصالحة

من كذب
الرافعي

قول الرافضى : « والتوسل بأنواعه مما منعه الوهاية وجعلوه شركاً لأنه نوع من التشفع الممنوع عندهم ، الموجب للشرك وجريان أدلتهم فيه . . » وهذا كذب من وجهين : أحدهما أن الوهابيين لا يمنعون التوسل كله بكل أنواعه وأقسامه الصحيحة والباطلة ، وهذا ضرورى . بل هم يرون من التوسل ما لا يكون الاسلام والايمان إلا به ، بل عندهم أن الاسلام والايمان هما التوسل والوسيلة ، وعندهم أن كل ما أمر به الشرع من الواجبات والمستحبات فهو توسل شرعى ووسيلة شرعية . . . فكيف يزعم من يخاف الله ومن يعلم أن الكذب جريمة وكبيرة أن الوهابيين يمنعون التوسل بكل أنواعه وأقسامه ؟ ! ولكن الرافضى لا يعرف من التوسل إلا أنه عبادة الأموات والأجداد وسائر هذه الفضائح القائمة على القبور اليوم وقبل اليوم ، ولا يعلم أن منه - أى من التوسل والوسيلة - العبادات والطاعات والايمان بالله وبكتبه ورسوله وكل ما وجب الايمان به ، وأن منه الصلاة والزكاة والحج والصيام وجميع أعمال البر والاسلام . . . وعن هذا قال : إن الوهابيين يمنعون التوسل كله ولا يجوزون منه شيئاً ، لأنهم حقيقة يمنعون الاستغاثة بالموتى والضراعة إليهم والمكوف على قبورهم وجميع هاتيك الباطلات المبتوثة على ضرائح الصالحين والأشياخ .

وثانى الوجهين المكذوبين الكاذبين زعمه أن الوهابيين يقولون : إن ضروب التوسل الثلاثة التى ذكرها شرك بالله . وهذا بهتان قبيح من الرجل . فان الوهابيين لا يقولون : إن سؤال الله بمجاه المخلوقين أو بمحقتهم أو بمحرماتهم ، أو التوسل بالانبياء والصالحين ، أو الاقسام على الله بهم - : لا يقولون إن شيئاً من هذا من الشرك المخرج من الملة والايمان ، المنافى للتوحيد . وإنما يقولون : إن ذلك ممنوع مبتدع كله . وهنالك واسطة ، ينبغى ألا تخفى على هؤلاء الناس ، بين كون الأمر كفراً وشركاً وبين كونه جائزاً مأموراً به . وهذه الواسطة هى ألا يكون

الأمر شركاً وكفراً ولا جائزاً مأموراً به ، بل يكون محرماً ممنوعاً ، والأمر المحرم قد يكون شركاً وقد لا يكون ذلك . والأضراب الثلاثة التي ذكرها الشيعي ليست كبراً ولا شركاً مخرجاً من الملة عند أحد من الوهابيين ، وليست أيضاً جائزاً ولا ديناً ، وإنما هي أشياء باطلة مبتدعة يلزم الانكشاف عنها وطرحها من حساب الدين والاعتقاد الصحيح .

إجمالاً في التوسل
على جواز
التوسل إليه
رغمه

﴿ تلخيص أدلة التوسل عند الرافضي ﴾

والأدلة التي أوردها الشيعي في هذا البحث والتي سقناها إجمالاً كما ساقها تتلخص في ما يأتي :

أولاً - : قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » قال : وهذه الآية متناولة بعمومها كل وسيلة . وقد دلت الأخبار على ثبوت الوسيلة للأنبياء والصلحاء والأوصياء مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام : « اسألوا الله لي الوسيلة » وقوله عن الخوارج : « يقتلهم خير الخلق والخلق » وأقربهم عند الله وسيلة .

ثانياً - : أن التوسل ثابت في الشرائع السابقة كما عن القسطلاني في شرح صحيح البخاري عن كعب الاحبار أن بني إسرائيل كانوا إذا قطعوا استسقوا بأهل بيت نبيهم .

ثالثاً - : أن التوسل قد ثبت بالحق كما اعترف الوهابيون وكما جاء في الأحاديث كحديث الاستسقاء بالعباس ، وكما أمر ﷺ أن يسأل بحق السائلين وبحق مشي المصلي إلى الصلاة . وقد لفظت الأحاديث بالحق على الله لعباده . وإذا ثبت التوسل بالحق وثبت أنه ليس شركاً ولا كفراً فالتوسل بالميت كذلك إذ لا يعقل الفرق بين الفريقين . فان جواز التوسل به إلى الله إن كان لمكانته عند الله فهي لم تذهب بالموت ، وإن كان لأجل أن يدعو الله فهو ممكن في حق

الميت . ولو فرض عدم إمكانه لم يجب فعله الشرك بل يكون كطلب المشي من المقعد بزعم أنه صحيح غير مقعد . قال : وقد فهم الصحابة عدم الفرق بين الحي والميت كما في حديث ابن حنيفة ، وصرحت الأخبار الآتية بعدم الفرق ، بل بين الموجود والمعدوم . وأمر مالك المنصور أن يتوسل بالنبي بعد موته وقال : هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم .

رابعاً — : روى عمر بن الخطاب عن النبي عليه السلام قال : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : أسألك يارب . . . » الحديث .

خامساً — : قال بعض المفسرين في قوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات » : إن الكلمات هي توسله بالنبي عليه الصلاة والسلام . وفي « مجمع البيان » أن الكلمات هي توسله بمحمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين .

سادساً — : روى جماعة منهم النسائي والترمذي عن عثمان بن حنيف أنه وجلاضير البصر أي النبي . . . إلى آخر حديث الأعمى .

سابعاً — : روى الطبراني أن سواد بن قارب أشد رسول الله قصيدة فيه مدحه جاء فيها : « وإني أدنى المرسلين وسيلة » « وكن لي شفيعاً يوم لا فؤاد شفاعته » . وروى البيهقي أن أعرابياً استسقى بالنبي عليه السلام وقال :

وليس لنا إلا إليك فرادنا * وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل ؟

قال : روى البخاري أن النبي عليه السلام قال لما أغاث الله العباد باستسقاءه : « لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناك . من ينشدنا قوله ؟ » فقيل كأنك أردت : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال ينأى عصمة للأرامل قهله وجه النبي عليه السلام .

ثامناً — : روى الطبراني عن عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له ، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته . إلى آخر القصة السابقة .

تاسعاً — : روى الطبراني أيضاً في الكبير والوسط بسند فيه روح بن صلاح، وثقه ابن حبان وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصنعيج، عن أنس بن مالك قال لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله . . . إلى آخر الحديث
عاشراً — : قالت صفية بنت عبد المطلب في رثاء رسول الله :

ألا يارسول الله أنت رجاؤنا * وكنت بنا برا ولم تلك جافيا

الحادى عشر — : روى الدارمي بسنده من طريق أبي الجوزاء قال قحط أهل المدينة فشكوا إلى عائشة . . . إلى تمام الرواية .
الثاني عشر — : قال قام الاجماع وتواترت الأخبار أن الناس يوم القيامة يتوسلون بالنبي عليه السلام فيشفع إلى ربه .

الثالث عشر — : روى الحاكم وصححه عن عبد الله بن عباس قال : أوحى الله إلى عيسى بن مريم : يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركت من أمتك أن يؤمنوا به . فلو لا محمد ما خلقت آدم ، ولو لا أنى خلقت محمداً ما خلقت الجنة ولا النار . . . الحديث .

الرابع عشر — : قال قال في خلاصة الكلام : إن النبي عليه الصلاة والسلام أمر أن يقول العبد بعد ركعتي الفجر ثلاثاً : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد أجري من النار » .

الخامس عشر — : روى القاضى عياض في كتاب « الشفا » بسند جيد عن ابن حيد أحد الرواة عن مالك في ما يظهر قال فاطر أبو جعفر المنصور مالكاً في مسجد رسول الله فقال مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد . . . الحديث وقد سبق لفظه وسوف يحى أيضاً .

السادس عشر — : إن الشافعى توسل بأهل البيت النبوى كما تقدم في الآيات السابقة .

هذا هو تلخيص ما ذكر الشيعي من الشبه أو البراهين على جواز أنواع التوسل وسائر ضروبه التي ذكرها . وإتنا هنا نذكر أجوبة كل شيء سائلين الله وحده العون والتأييد والتوفيق .

﴿ جواب الشبهة الأولى ﴾

جواب قول الله :
وابتغوا إليه
الوسيلة

أما الشبهة الأولى وهي قول الله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » فالجواب أن يقال : حقا إن الآية الكريمة تطلب إلى المؤمنين جميعا أن يبتغوا إلى ربهم الوسيلة الشرعية بكل ضروبها وأنواعها وأقسامها وسائر مظاهرها قولها وفعلها واعتقادها ، حقيقتها وصورها . . . ولكن ما هي الوسيلة التي افترض الله على خلقه كافة ابتغاءها إليه وطلبها عنده ؟ هذه هي المسألة ، وهذا هو المشكل

مما لا يشك فيه مسلم ولا عاقل غير مسلم أن هذه الوسيلة المطلوبة هي الوسيلة الشرعية الصحيحة . إذن علينا أن نعرف ما هي الوسيلة الشرعية الصحيحة ، وعلى المخالفين أن يقيموا الدلائل المحترمة المقبولة على أن من الوسيلة الشرعية ما زعموه هنا من خرافات القبور ومبتدعات الماكفين على الأموات . . . ابتغاء الوسيلة إلى الله حق لا ريب فيه ولا نزاع ، ولكن نريد أن نعرف الوسيلة . هؤلاء يقولون إنها عبادة المشايخ والأموات ودعائهم والاستغاثة بهم والعكوف عليهم وإنزال الحاجات بأبوابهم وسؤالهم حاجات الدين والدنيا وجميع هذه المصائب المنشورة اليوم وقبل اليوم فوق القبور . ونحن نقول لهم : كلا ، ليس شيء من هذا بوسيلة شرعية إلى الله ، وإنما هو وسيلة إلى الشيطان والضلال والباطل . إذن نحن لا نخالفهم في وجوب ابتغاء الوسيلة إلى الخلاق ، ولكن نخالفهم ويخالفهم جميع أهل اللسان والإيمان والقرآن في حقيقة الوسيلة ومعناها . فنحن نقول : إن الوسيلة إلى الله هي الأعمال الصالحة المبرورة ، فالأعمال هي التي تقرب إلى

الله ، والوسيلة هي الزلنى . والقربى لديه تعالى . . . وهم يقولون : إن الوسيلة هي دعاء الأموات والاستغاثة بالقبور والمقبور . فاذا قلنا لهم : مادليلكم على أن الرجوع إلى الأشياء والموتى من الوسيلة والزلنى عند الله لم يكن لديهم من جواب سوى أن يقولوا إن المتوسلين يسمون ذلك كله وسيلة وتوسلا . فاذا قلنا لهم : إن المسألة ليست مسألة ألفاظ ولا مسألة عوام وجهال ، وإنما المسألة مسألة علم وحق وحقيقة وعلماء ، فالعوام والمتوسلون يخطئون في ألفاظهم وكلامهم كما يخطئون في عقائدهم ومعارفهم وآرائهم ، وكما يخطئون في أشياء كثيرة . فما دليلكم على أن هؤلاء الجهال والعوام لم يغلطوا ويخطئوا في تسمية هذا الباطل والائتم وسيلة وتوسلا لم يكن لديهم من جواب البتة .

إن المسألة مسألة علم وحقيقة . فالوسيلة هي القربى من الله أو ما يؤول إلى هذا المعنى بلا خلاف بين أهل العلم . فقول الله : « . . . وابتغوا إليه الوسيلة » معناه . اطلبوا إلى الله القربى والزلنى . وإذن عليكم أن تقيموا الدليل على أن هذا الباطل المعروف على القبور ، وتلك السخافات القائمة في كل مكان مما يقرب إلى الله ويرزق . لديه تعالى ، وأن تقيموا الدليل على أنه لا يبعد عن الله ولا يوجب غضبه ومقته . وطرده . إذ لا شك حينئذ أن من الممكن الجائز أن يستدل بالآية المذكورة على بطلان توسلهم وما يدخل في معناه من باطلات وسخافات بأن يقال مثلاً : الآية تطلب إلى الخلق أن يتقربوا إلى ربهم وخالقهم ، ولعل من التقرب إليه تعالى وإلى رضاه وثوابه هجران هذا التوسل وهذه الوسيلة ، أعنى توسل العوام ووسيلتهم . فاذا قيل هذا القيل لم يجحد المخالفون لنا من رد له ولا اعتراض عليه .

لا شك ان من
التوسل الحق
ومنه الباطل

لا شك أن التوسل منه الحق ومنه الباطل ، ومنه ما يخالف الشريعة ومنه ما وافقها ومنه ما يقرب إلى الله ومنه ما يبعد عنه . ثم لا شك أن معرفة الفرقان بين الأمرين مردها إلى الشريعة نفسها ، وأن التحاكم فيها لا يكون إلا إلى الكتاب

والسنة لا إلى العوام والجهال والمتوسلين . فلا بد لنا ، ولا بد للمتوسلين المخالفين ، ولا بد لجميع المسلمين من معرفة الفرقان بين النوعين : الجائر والمنبوع ، الحق . والباطل ، ولا بد من الرجوع إلى الكتاب والسنة ، ونصوص الدين لمن يحاول هذه المعرفة ولمن ينشد الحق والهداية . إذن لترجع وليرجع معنا المخالفون والموافقون إلى الكتاب والسنة ، ولتتعرف الوسيلة الصحيحة المأمور بها في الكتاب والوسيلة الباطلة المنهى عنها في الكتاب ، والتي لا يصح أن يأمر بها الكتاب ولا السنة . فان الآية الكريمة — مفردة — لا يمكن أن تدل على شيء مما زعموا وادعوا بالاجماع والضرورة والبداية . فلا بد من بيان . فأين البيان ؟ هذا هو المطلوب المشود ، فأين يوجد هو ؟ ونستطيع أن نمبر عن هذه المعاني التي ذكرناها بعبارة أخرى قصيرة كأن نقول مثلاً : الآية تطلب إلى المسلمين كافة جميعاً أن يبتغوا إلى ربهم الوسيلة ، وهذه الوسيلة المطلوبة المأمور بها إما أن يراد بها الوسيلة الشرعية فقط ، وإما أن يراد بها كل ما يسمى وسيلة وإن كانت غير شرعية . وهذا مالا قرار ولا ممدى عنه . ولا بد حينئذ أن يكون الجواب على هذا السؤال : إن الوسيلة المطلوبة المأمور بها هي الوسيلة الشرعية لا غير . وإذن ما الدليل على أن دعاء الأموات ، أو دعاء الله بجاهاتهم وكراماتهم وحقوقهم والاقسام على الله بهم من الوسيلة الشرعية المطلوبة المأمور بها ؟ هذا هو السؤال ولا بد من البيان والجواب . فالآية إذن تحتاج ، ولا شك ، إلى تفسير لفظي لغوي ولا بد للتفسير الذي يقال فيها من دليل . وأما إن قيل إن الوسيلة المطلوبة في الآية هي الوسيلة المطلقة العامة ، أي الوسيلة الشرعية ، وذير الشرعية ، فالجواب أن هذا القول من الباطل والضلال والخطأ بحيث لا يخفى مكانه على أحد . فان الناس قد يسمون الشرك وسيلة إلى الله — بل قد فعلوا — وقد يسمون ما أجمع المسلمون على بطلانه وفساده وضلاله وسيلة . وقد يشركون ويصلون ويعبدون

«الأوثان والأصنام» ثم يزعمون بملء أفواههم وحناجرهم أنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك
هو أنهم إنما يتوسلون ويتقربون إليه تعالى فقط كما قد يسمون الباطل والزور والجهل
حقاً وهدىً وعلماً إلهياً، وكما قد يخطئون ويضلون السبيل وهم يحسبون أنهم
يحسنون صنعاً وأنهم يرضون الله ويرضون الحق والابيمان والمعرفة . وقد كان
المشركون يعبدون الأصنام والأوثان ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ،
ويقولون : ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . ولم يكن قولهم للأصنام والأوثان
إنها شفعاؤهم عند الله ، مصداقاً وموجباً أن تكون كذلك شفعاؤهم ، ولم يكن زعمهم
أنها تقربهم إلى الله زلفى محتمة تقربها إياهم حقيقة لا غلطاً ولا كذباً... هذا حق
لاباطل فيه، فكذلك زعم هؤلاء الضلال أن عبادة الأموات ودعاءهم والاستغاثة
بهم وسيلة وتوسل إلى الله لا يوجب أن تكون أفعالهم هذه حقيقة وسيلة وتوسلا
نافعاً عند الحق

قد يقال إن الاسم
بإبتغاء الوسيلة دليل
على بطلان هذه
الوسيلة

ولو كان كل ما يسمى وسيلة مطلوباً ابتغاؤه إلى الله بدليل هذه الآية لكان
من الجائز الممكن أن نسمى ترك هذه الوسيلة — التي هي وسيلتهم — وسيلة ، وأن
تقول : إن من التوسل إلى الله ومن ابتغاء الوسيلة عنده ألا يدعى إلا الله وألا
يضرع إلا له وألا يرجع إلا إليه وألا يسأل إلا بأسمائه وصفاته لا بفلان ولا فلانة
ولا بجاه فلان ولا جاه فلانة ، وألا يدعى أحد من الأشياخ والميتين . . . وإذا
قلنا هذا أو قاله غيرنا كانت الآية — على الافتراضين — دالة على بطلان
التوسل الذى يدعو إليه هؤلاء المخالفون . وهذا هو المطلوب .

ويقال بمباراة أخرى : إن الآية تقول : « وابتغوا إليه الوسيلة » وهؤلاء
المخالفون المشاكسون إما أن يزعموا أن الصالحين من الأموات هم الوسيلة نفسها
أو يزعموا أن الوسيلة تبتغى بهم وأنهم هم أنفسهم ليسوا وسيلة . . . فان زعموا الزعم
الأول قيل لهم : إذا كان المشايخ والأولياء هم الوسيلة نفسها فالآية تأمر

بابتغائهم لا بالابتغاء منهم ولا بالابتغاء بهم ، لأنها تقول : « وابتغوا إليه الوسيلة » .
فالأية على هذا تأمر بابتغائهم هم لا بالابتغاء بهم ولا بالابتغاء منهم . فدلالة
الآية حينئذ خلاف ما زعموا وذكروا . وأما إن قالوا بالشرط الثاني - أى قالوا
إن المشايخ والأولياء أنفسهم ليسوا وسيلة - قيل إذن فالآية لم تأمر بما ادعيتهم به
فلا شيء لكم فيها .

ونحو بر هذا الكلام ونحو يده أننا نقول : الآية تأمر بابتغاء الوسيلة فقط
فإن كان المشايخ والأمواء هم الوسيلة وهم تفسيرها فالآية لم تقل : ابتغوا بهم
ولا منهم الوسيلة ولا غيرها ، وإنما قالت : ابتغواهم . وفرق عظيم بين الابتغاء
من الشخص والابتغاء به وبين ابتغائه هو ذاته ونفسه . فإن لم يكن المشايخ
والأولياء هم الوسيلة ، وإنما الوسيلة تبتغى بهم وتطلب ، قيل إن الآية لم تذكر
هذا ، ولم تذكر أن الوسيلة تبتغى بهم ولا منهم ولم تأمر بذلك ، بل وليس فيها حرف
واحد يشير إليهم . فما الدليل حينئذ على أن هذه الوسيلة التى أمرنا بابتغائها
يراد منا أن نبتغيها من الخلق بالطريق الذى يزعمه هؤلاء المخالفون ويعملونه . . .
ويقال أيضاً بعبارة أخرى : قد قدمنا أنه لا خلاف بين أهل اللسان أن
الوسيلة معناها فى أصل اللغة الزلى ، وأن التوسل معناه فى صريح اللسان التقرب .
فالآية بلا ريب تطلب من الخلق أن يتقربوا إلى الله وأن يأخذوا بما يقربهم
منه تعالى وبما يدينهم من ثوابه وجزائه الأوفى . وهذا بالاجمال لا نزاع فيه .
وحينئذ يقال ما دليلكم على أن دعاء الأموات والاستغاثة بهم وأن سؤال الله
بجاههم وحقهم مما يقرب إلى الله ؟ فإن أئتم الدليل على هذا - أى على أن دعاء
الأموات أو الدعاء بجاههم وبركاتهم وحرمتهم - مما يقرب إلى الله ، فالحجة فى
الدليل الذى ذكرتموه لا فى الآية ، لأن الآية لم تدل على أن هذا مما يقرب إلى
الله ، وإن أنتم لم تقيموا دليلاً على أن دعاءهم ودعاء الله بهم وبجاهاتهم يقرب إلى الله

دلالة أحاديث
الوسيلة على
خلاف قوله
المخالف

لم يمكن أن تأخذوا من الآية شيئاً... فهي على الافتراضين خارجة عن منطقة النزاع والخلاف، وأنتم على الافتراضين لا تستطيعون أن تستفيدوا منها شيئاً. ثم يقال أيضاً: إن الأحاديث التي أوردتها الشيعة رد عليه. وذلك مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا الله لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله الصالحين» وكقوله. «آت محمداً الوسيلة والفضيلة». فان هذه الأخبار نصوص صريحة في أن الوسيلة ليست هي الصالحين والميتين، وليست هي أيضاً دعاءهم والاستغاثة بهم، وليست هي أيضاً سؤال الله بجاههم وكراماتهم وحرمتهم وحقوقهم كما زعموا بل الأحاديث صريحة في أن الوسيلة تطلب لعباد الله الصالحين كالأَنْبياء والمرسلين، لا تطلب منهم ولا بهم، بل تطلب من الله وحده. فهؤلاء القوم المنازعون مخالفون لهذه النصوص الصحيحة. فان النصوص تُعلمُ المسلمين وتأمروهم وتطلب إليهم أن يطلبوا الوسيلة لأن شرف الخلق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وهؤلاء المخالفون يطلبونها من أمروا بأن يطلبوها لهم. فكانوا بهذا مبدلين مبتغين غير الذي قيل لهم. فالرسول الأكرم يقول لهم وللمؤمنين به جميعاً «اسألوا الله لي الوسيلة» وهم يقولون: لا، بل نسألك أنت الوسيلة وتتوسل بك. وهذا عين الخلاف على النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿ الشبهة الثانية توسل بنى إسرائيل بأهل بيت نبينهم ﴾

استشهاد
إسرائيل بأهل
بيتهم

وأما ما ذكر عن القسطلاني من أن بنى إسرائيل كانوا إذا أجدبوا استسقوا بأهل بيت نبينهم، فالجواب ثلاثة أمور: أولها المطالبة بتصحيح هذا النقل من طريق صحيح مقبول لدى أهل المعرفة. وبغير ذلك لا يبالى بالرواية ولا بالنقل. وليس كافيًا تصحيح الرواية ذكر القسطلاني لها بلا خلاف بين الناس. ثاني الأمر أن تطلب إلى المخالفين أن يقيموا الدليل على أن جميع ما يفعله بنو إسرائيل حق

وصواب وهدى : ة وأنه ليس في ما يفعلونه ضلال ولا جهل ولا خلاف على أنبيائهم ودينهم وكتابتهم . ولكن كيف ذلك وبنو إسرائيل قد فعلوا بدينهم وبكتابتهم الأفاعيل ، وقد حرفوا الكتاب وكتبوا بأيديهم كتباً وقالوا : إنما من عند الله ليشتروا بها نفعاً قليلاً ؟ كيف وقد جاء الكتاب والاسلام ناعياً عليهم أفانين الضلالات والجهالات والفسقات في الأصول والفروع . فلا ينجح بما فعلوا واعتقدوا وقالوا إلا من خبط في مثل ما خبطوا فيه من شراذم الغواية وضروب الباطل . بل لو قيل إن فعل بنى إسرائيل للأمر الذي لم يؤثر عن سواهم من الدلائل على بطلانه وفساده وخلافه على الاسلام والحق والصواب لكان قولاً مقارباً إن لم يكن الحق عينه فليس عنه بعيداً . وذلك لوفرة نصيبهم من الباطل والاثم والني ، وقلة حظهم من الهدى والخير والصواب حتى عد ركونهم إلى الشيء من أمارات بطلانه وفساده وكذبه . ثالث الأمور لو صح هذا النقل وقام الدليل على أنه من الحق الباقي عند بنى إسرائيل لما كان فيه حجة على ما ذهب إليه المخالفون لجواز أن يكون المراد الاستسقاء بدعاء صالحى ذرية نبيهم وشفاعتهم ، مثل استسقاء عمر ومن معه من المسلمين بالعباس بن عبد المطلب ، ومثل استسقاء معاوية ومن معه بيزيد بن الأسود الجرشي التابعى الصالح . وهذا النوع من الاستسقاء والتوسل لا ينافى فيه أحد من المسلمين ، بل لا ريب أن الاستسقاء بدعوات الصالحين الأحياء من السنين المشهورة المرغوب فيها . ولكن الخلاف ليس في هذا .

﴿ الشبهة الثالثة التسوية بين الأحياء والأموات ﴾

وأما الشبهة الثالثة وهى زعمه أن التوسل قد ثبت بالحى فليثبت كذلك بالميت لأنه لا فرق بين الأحياء والأموات - فالجواب أن يقال إن الذى ثبت من التوسل بالحى هو التوسل بدعائه وشفاعته . والميت لا يمكن الاتصال به

فدفع المخالفين
بين الأحياء
والأموات

يوجه من الوجوه التي يزعمونها ، فلا يمكن أن يدعو لمن طلب منه الدعاء ولا أن يشفع لمن أراد منه الشفاعة ، ولا أن يسمع لمن دعاه وناداه ، للدلائل الكثيرة العقلية والنقلية التي قدمناها في فصل الشفاعة السابق . وقد تكلمنا هناك وأبنا أنه غير جائز بحال من الأحوال أن يطلب الدعاء والشفاعة من ميت . . . أما الحى فيمكن دعاؤه والاستشفاع به بالمشاهدة والضرورة والاجماع . فأنى تمكن التسوية بين الفريقين ! وأنى يقياس الميت على الحى لو كانوا يشعرون !

وأى عاقل يسمح لنفسه بأن يدعى أنه لافرق بين الأحياء والأموات ، ومن يسمح لنفسه بأنه يصح أن يقاس أحد الفريقين على الآخر ؟ وأى قياس هذا الذى يقضى به أن يكون الميت مثل الحى سواء ، فيطلب منه كل ما يطلب منه ، ويرتجى لكل ما يرتجى ، ويدعى كما يدعى ، ويسأل كل ما يسأل ، فإذا جاز أن يقال للحى أعطنى كذا ، أو اذهب إلى كذا ، أو اترك أمركذا ، أو قم بأمر كذا ، جاز أن يقال للميت مثل ذلك سواء . إن هذا بلا شك ضرب من ضروب الجنون والعمه . ولو أن إنساناً قال لا إنسان آخر حى : ناولنى كيت وكيت - مما يقدر عليه الحى عادة - لكان هذا القول قولاً عادياً لا شئ فيه . ومن قال ذلك لأحد الأموات كان مجنوناً بلا شك ، أو مبشراً مغروراً في الشرك والغي ، معتقداً بأن ذلك الميت الذى يخاطب ويدعو قادر على كل شئ ، فاعل كل شئ . ولو تخاصم متخاصمون ، فذهبوا إلى قاض حى ليقضى ويحكم بينهم في خصومتهم ونزاعهم لكانوا فاعلين ما يقضى به العقل والشرع والضرورة والوجدان .. ولو أنهم ذهبوا إلى أحد الأئمة الأربعة أو غيرهم مثلاً ليقضى بينهم ويفض نزاعهم لما كانوا إلا مجانين ... فكيف يزعم عاقل مسلم أنه لافرق بين الأحياء والأموات ، ويزعم أن قياس أحد الفريقين على الفريق الآخر قياس صحيح سليم يكتب ويشرح ويحاول إقناع المسلمين والعقلاء

به ؟ ولا يجب أن شر ما في الدنيا من قياس ، وأن أكذبه وأبطله وأجهله هو قياس .
الموتى على الأحياء

على أن الشيعة الامامية الاثنا عشرية ينكرون القياس بكل ضروبه
وأشواحه ، ويلجئون في إنكاره وجحوده ، ويميئون الذين يقيسون الذين يقولون
يجوز القياس مهما وضع صدقه ووجهه ، ومهما استوفى شروطه : واجباته
ومستحباته ومقوياته . فإياهم إذن هنا يستحسنون ما قبحوا ؟ وما بال القياس .

كله يكذب ويقبح إلا قياس الميت على الحي ، قياس الضد على ضده ؟ ونحن
لا نستطيع أن نفرق كيف يستطيعون أن يزعموا أن الأموات مثل الأحياء ،
وأنه لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟ وقد لهجوا بهذه المقالة وتغنوا ، ورتلوا في كثير
من كتبهم ، وشاذوا عليها كثيراً من ضلالهم وباطلهم وبدعهم ، وانزعوا منها
الحجج والبراهين على ما هم فيه من عكوف على القبور وعبادة لأصحابها . ولا نعلم
شيئاً يشهد لهذه المقالة لامن الشرع ولا من العقل ولا من العادة والدق والوجدان .
والناس كلهم مفطورون على التفريق بين الحي والميت ، وعلى التفريق بين
أحكام هذا وأحكام ذاك ، ولا يوجد إنسان واحد يسوى بينهما تسوية تامة مطلقة
عامة شاملة ، والشرع قد فرق بينهما بنصوص لا تقبل الخلاف والجدال ، مثل قوله
تعالى : « وما يستوى الأحياء ولا الأموات » ومثل قوله : « إن تدعوم لا يسبوا
جاءكم » الآية . والأحياء يسمعون بلا خلاف فهم ليسوا مثل الأموات ، ومثل
قوله : « وما أنت بمسمع من في القبور » وقوله : « إنك لا تسمع الموتى » . وكل
أحكام الأموات الشرعية تدل على الفرق بين الفريقين . وما في الشرع ما يدل

على التسوية بل كل ما فيه يدل على خلافها . وأما العقل فإنه لا يستطيع تبليغ
هذه التسوية . فهو إذا كان لا يرى للميت أثراً ولا فعلاً من آثار الحي وأفعاله ،
ولا كان يرى بالمشاهدة أن الميت لا يدرك ما في الحي من حياة وعمل وعلم فلا يمكن
الفرق بين
الأحياء
والأموات
بالشرع والعقل
والوجدان
والاجماع

أن يحكم بأنه مثله . وإلا لو لم يستطع التفريق بين شيئين فرق بينهما المحس والضرورة والمشاهدة لما كان مرضى الحكومة ولا مقبول الدعوى . وأما حكم الوجدان فهو أظهر وأبين . فالشرع والعقل والوجدان والاجماع : كل ذلك قاض بالفرق بين الأحياء والأموات ، وكل ذلك لا يسلم التسوية بين الطائفتين . فبماذا إذن يسوون بينهما ؟ وبماذا احتجوا حين قالوا : إنه لا فرق بين الحى والميت والفرق موجود فى الشرع والعقل والاجماع والوجدان ؟ وإذا أباح هؤلاء لأنفسهم ، وصدقهم عقولهم وعقائدهم ، أن يدعوا مثل هذه الدعوى فإذا يقولون لو قال قائل : أنه لا فرق بين الجساد والحيوان ، فلا فرق بين الحجر والشجر والانسان فى هذه الأحكام كما قالوا هم سواء ، ثم قال مثل ما قالوا : « إذا ثبت التوسل بالانسان وثبت أن التوسل به ليس شركا ولا كفرا فالتوسل بالحجر والشجر والجناد كذلك ، إذ لا يمثل الفرق بين الأمرين . فان جواز التوسل بالانسان إن كان لمكانته عند الله فالمكانة ثابتة للجساد والأحجار كأحجار البيت العتيق وأحجار قبور الصالحين وآثارهم عند المخالف . وإن كان لأجل أن يدعوا الله فالجناد يدعوا أيضاً كما قال تعالى « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وكما قال : « والله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالندو والآصال » وكما قال : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » . وكما قال : « والنجم والشجر يسجدان » وكما قال فى وصف الحجارة : « وإن منها لما يهبط من خشية الله » وقد عزا الكتاب أشياء كثيرة من هذا النوع إلى الجناد . وقد جاء فى الصحيح أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « إني لأعرف حجراً فى مكة كان يسلم على »

وقد حن الجنح الذى كان يخطب عليه عليه الصلاة والسلام لما اتخذ منبره وخطب ماذا يقولون فى دعاء الجناد الجبره من كل حياة عليه . وقد صح فى الأحاديث الصحاح المجمع على صحتها وثبوتها عند أهل

الحديث أن الطعام كان يسبح على عهد النبي وكذا الحصا . . . هذا ما يمكن أن يقال وما يمكن أن يكون مثل قول الشيعي : « إذا ثبت التوسل بالحى وثبت أنه ليس شركاً ولا كفراً فالتوسل بالميت كذلك ، إذ لا يمتل الفرق بين الفريقين فان جواز التوسل به إلى الله إن كان لمكانته عند الله فهى لم تذهب بالموت ، وإن كان لأجل أن يدعو فهو ممكن فى حق الميت . . . »

ولا ندرى كيف يجوز لمن هو فى أقصى المغرب أن يتوسل أو يستغث بميت فى مكة أو فى المدينة أو فى كربلاء أو فى النجف مثلاً ، ولا يجوز له أن يتوسل وأن يستغث ، أين كان ووجد ، ببيت الله الحرام وبمسجده وبأستار حرمه . فأننا لا نجد فرقاً فى هذه الحالة بين الأمرين . فان التوسل بذلك المدفون فى الحجاز أو فى العراق مثلاً إن كان جواز التوسل به لأجل كرامته على الله وحرمة وقربه إليه فالكعبة كذلك لها كرامة وحرمة ومكانة عند الله وعند المسلمين ، وإن كان ذلك رجاء أن يدعو ويشفع فالكعبة من الممكن أن تدعو وأن تشفع . وقد تقدم فى كلام الشيعي أن الحجر الأسود يشفع لمقبله ومحترمه . وإذا قالوا : إن الكعبة وغيرها من الجماد لا يمكن أن تسمع من دعاها وطلب منها وتوسل بها قيل وكذلك الميت المدفون فى الحجاز أو العراق كيف يمكن أن يسمع من دعاه واستغاثه وهو فى أقصى المشرق أو أقصى المغرب ؟ فهذا لا يمكن إلا بخارقة وانخارقة إذا جاز أن تكون فى دعوة الميت جاز أن تكون فى دعوة بيت الله وحرمة ومساجده المفضلة وغيرها من المنازل المقدسة المعظمة .

فاذا بلغت المسألة هذا الطور من الجدال والنضال والضلال وجد كل مؤمن فى إيمانه — وإن قل — ما يحجزه عن التزحلق فى هذه الغاية من الغواية ، وهذا المكان السحيق من أعماق الضلال .

أما ما ذكره الرافضى فى هذه الشبهة من أحاديث الاستسقاء بالعباس

وسؤاله تعالى بحق السائلين وحق الممشى إلى الصلاة ، وحديث ابن حنيفة
والأحاديث التي نطقت بثبوت الحق على الله لعباده وخلقه ، وما كان بين الامام مالك
وأبي جعفر المنصور - : فسوف يجيب جوابه كله في ما بعد

وأما ما ذكر من أن من طلب ميتا ظانا أنه يسمع ويدعى - وهو في الواقع قياس غير صحيح
ليس كذلك - كان خير ضال وخير آثم ، وكان كمن طلب من مقعد القيام ظانا
أنه خير مقعد وأنه قادر على القيام - فرأى باطل وقياس سخيف . وذلك أن من
طلب من مقعد القيام أو من أعمى القراءة مثلا لم يعتقد في أحدهما سرّاً من
الأمرار ، ولا سلطاناً قاهراً غيبياً ، ولا قدرة على الخوارق والمعجزات ، لأنهما يعلمان
الغيوب ، أو يعطيان كل ما يسألان ، أو يتصلان بالله ، أو أن لهما دلالاً على الله
أوجاهاً صاراً نافعاً عنده ، أو شفاغة لا ترد ولا تخطئ - لا يعتقد من طلب من
المقعد القيام ومن الأعمى القراءة شيئاً من هذا فيهما . ثم هو لن يخضع أو يخشع
لهما في سره وباطنه ودخيلة نفسه ، ولن يوليها من التقديس والجلال والمهابة
والتعظيم فوق القدر المعتاد المؤلف . . . أما من دعا الأموات فانه ، ولا محالة ،
يعتقد فيهم ذلك كله بأبناخ معانيه وأجلى مظاهره وصوره . وهذا عين التأليه والعبادة
فالفرق بين من طلب من مقعد القيام وبين دعا الأموات والصلحين فرق
ظاهر واضح كبير لا يصح أن يخفى على من قام ينم أهل السنة والجماعة ، ومن قام
يثاب أبابكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وأم حبيبة وعمر وبن العاص وسعد بن
أبي وقاص ومعاوية وغيرهم من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام .

خبر سؤال آدم
بحق محمد صلى
الله عليه وسلم

﴿ الشبهة الرابعة سؤال آدم بحق رسول الله ﴾

أما الشبهة الرابعة وهي الحديث الذي ذكر فيه أن آدم لما اقترف الخطيئة
سأل الله بحق محمد عليه السلام فغفر الله له خطيئته - فالجواب أن يقال : هذا
الحديث رواه أبو عبد الله الحاكم في مستدركه على الصحيحين . ورواه غير الحاكم

في فضائل النبي عليه الصلاة والسلام . ولفظ الخبر : عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي ، فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال يا رب لأنك لما خلقتني بيديك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على قوائم العرش : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعلت أنك لم تضيف إلي اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي . ادعني بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ما خلقتك » . والحديث معدود في فضائل النبي عليه السلام لهذا سارع به بعض الذين يحرصون على تكثير الفضائل — ولو بما لم يصح إسنادهم إلى تصحيحه وروايته كما فعل الحاكم . وقد أخذ أعلام النقد وصيافة الحديث وفرسان الرواية أبا عبد الله الحاكم على تساهله ولينه وإغماضه في هذا الشأن ، وعلى ميله الكثير الواضح إلى تصحيح الأخبار التي لم تصح عند أهل الحديث والتي بان ضعفها وبطلانها لدى صفار علماء هذا الفن وكبارهم ، ولا سيما ما كان متعلقاً من ذلك في أبواب الفضائل . ولهذا فانه يصحح في أبواب فضائل الصحابة — ولا سيما على أهل البيت النبوي — ما لم يجارده عليه أحد من المحدثين وما أنكره عليه وما عدوه من ضعفه في هذه الصناعة وقلة تماسكه فيها ... وقالوا : إنه لا يجوز الاعتداد بتصحيحه وبدرأته وعلمه ولا بشيء مما يقول في هذا الباب إن لم يتابعه أو يسبقه العدول الجهابذة من رجال هذا العلم الجليل . وقد قال أبو بكر الخطيب البغدادي في تاريخه من ترجمة الحاكم نقلاً عن أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الازمعي النيسابوري : « ... جمع أبو عبد الله الحاكم أحاديث زعم أنها صحاح على شرط البخاري ومسلم ، يلزمها إخراجها في صحيحيهما . فأنكر عليه أصحاب الحديث ذلك ولم يلتفتوا فيه إلى قوله ولا صوبوه في فعله ... » .

الحديث مكذوب فهذا الحديث حقا رواه الحاكم وصححه ورواه سواء من المكاثرين عالم

يصحح سندَه ولكن الحديث غير صحيح الاسناد بل هو حديث باطل موضوع
ضعفه أهل الحديث وكذبوه وردوه وخالفوا الحاكم فيه . وقد قال الذهبي في تعليقه
على المستدرک : إنه حديث موضوع مكذوب وفي سندَه ضعفاء . وقد ضعفه الحافظ
الهيثمى في « مجمع الزوائد » والسيوطى في « مناهل العرف » في تخريج أحاديث
« الشفا » على ما ذكر صاحب « صيانة الانسان » . وفي سندَه عبد الرحمن بن زيد
ابن أسلم العمرى ، وقد أجمع الناس على تضعيفه والقبح فيه كما ذكر الحافظ ابن
حجر في « تهذيب التهذيب » والحافظ الذهبي في « ميزان الاعتدال » . وما أثنى
عليه أحد في ما ذكره . والعجيب حقاً أن الحاكم نفسه قد ضعف عبد الرحمن بن
زيد هذا في كتاب « الضعفاء » له . ذكر ذلك عنه العسقلاني في تهذيب
التهذيب وذكره غيره . فمن العجيب حقاً أن يصحح حديث راوٍ ضعفه هو
بنفسه تضعيفاً شديداً وحذر الرواية عنه ، وقد انفرد هذا الراوى بالحديث .
والحديث ساقط الاسناد لا تقوم له قائمة عند أهل العلم .

ودلائل الوضع بادية عليه من جهات كثيرة : منها أن من المستحيل شرعاً
أن يصدق قوله فيه : « ولولا محمد ما خلقتك » . فمثل هذه اللفظة ينكرها الشرع
بل تنكرها الشرائع كلها بقوة وشدة . وقد اتفق المسلمون والمؤمنون جميعاً على
أن الله قد خلق الخلق والعباد وخلق الأنبياء كلهم : آدم فمن بعده ، محمداً فمن
قبله من الأنبياء والمرسلين لغرض واحد سام كل السمور ، عظيم كل العظيم . هذا
الغرض هو عبادة الله وعمارة أرضه بالعبادات والطاعات والاصلاح والمثل الانسانية
العليا كما قال تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » وكما قال : « وإذ
قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا اتجعل فيها من يفسد
فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون
(إلى قوله) قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني

اصناف الدلائل
على كتبها الحديث

أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدلون وما كنتم تكتمون . » وقال :
 « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله » وقال بعد أن ذكر إحياءه إلى
 الانبياء والمرسلين : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد
 الرسل وكان الله عزيزا حكيما » . فالله جلت قدرته وتسامت حكمته قد خلق خلقه
 وبعث رسله لحكم هي أجل مما ذكروا في هذه الرواية الباطلة : خلق الخلق
 لعبادته وحده . وما من مخلوق إلا وقد خلقه لذلك . فآدم مخلوق لعبادة الله لا
 لأجل محمد ولا لأجل غيره من العباد . ومحمد نفسه مخلوق لعبادته تعالى لا لأجل
 آدم ولا لأجل غيره من الخلق . والعباد كلهم مخلوقون لعبادة الله بنص القرآن .
 وهو تعالى قد جعل آدم في أرضه وملكه لحكمة أجل وأشرف مما زعموا في هذا
 الحديث الباطل : جملة ليكون خليفته في هذا العالم الأرضي ، ليعبد الله فيه .
 وليدعو إلى عبادته وليلد من يعبدونه تعالى ، ولينجل الانبياء والمرسلين والصالحين
 ويكون في نسله ومن نجله محمد وإبراهيم وعيسى وموسى ونوح وغيرهم من رسل
 الله وأنبيائه المصطفين الأخيار ، ويكون بعد هذا ما يكون من الحكم والأغراض
 والأسرار الإلهية الظاهرة والباطنة . وهو أيضا قد خالق الأنبياء وجعلهم أنبياء .
 ليكونوا مبشرين ومنذرين للخلق ، وليكونوا حججه تعالى على عباده ، فلا تبقى
 لهم حجة على الله بعدهم ، وليكونوا أدلاء إلى الخير والهدى والسعادة والايان .
 وإلى الجنة في النهاية . وما خلق أحدا منهم لأجل أحد ، ولا خلق أمة لأجل
 أمة ، ولا رسولا لأجل رسول . وإذا كان محمد نفسه ما خلق إلا لعبادة الله ولأجل
 الدعوة إلى عبادته فكيف يمكن أن يكون آدم أو غيره مخلوقا لأجله ﷺ أو
 لأجل أحد سواه ، أو يكون ما خلق إلا لأجله ؟ والحكمة في خلق محمد هي الحكمة
 في خلق آدم : هي الدلالة على الخير وإقامة العدل والشرع في هذه الأرض .
 والمحافظة على فطرة الله وذود النفوس عما خلقت بطبعها جانحة مائلة إليه من

الناس مخلوقون
 لعبادة الله لا
 قصد ولا لغية

صنوف النوايات وجرائم الشرور، ودفعها إلى أصل هداها . والآية المذكورة ، أعنى قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » صريحة في إكذاب هذا الخبير وبطلانه . وذلك أنها تنص بكل وضوح وصراحة على أن الناس جميعاً ما خلقوا إلا لأجل عبادة الله لا لشيء آخر غير العبادة . وإذا كان الناس جميعاً وكان الانس والجن إنما خلقوا لعبادة الله لا لأجل محمد عليه السلام ولا لأجل غيره من العباد فكيف يمكن أن يكون آدم الذي اصطفاه الله واجتبه ، وتاب عليه وهداه ، قد خلق لفرض غير عبادة الله ؟ وليس هناك ما هو أشرف وأعظم من عبادته تعالى . وآدم أيضاً لم يخرج عن أن يكون أحد الانس فهو مخلوق بصريح الآية لعبادة ربه كغيره من الخلق ، لم يخلق لفرض آخر غير ذلك .

مولانا ريب أنه إذا كان آدم أبو البشر وأول الانبياء وأبهم ما خلق إلا لأجل رسول الله عليه الصلاة والسلام وأنه لولاه لما خلق كان غيره من الانبياء والمرسلين كذلك ما خلقوا إلا لأجله عليه الصلاة والسلام ، وكان عيسى وموسى وإبراهيم ونوح وغيرهم لم يخلقوا إلا لأجل رسول الله لا لأجل عبادة الله ولا لأجل الدعوة إلى عبادة الله وإلى إصلاح البشر والأرض بالتوحيد والدين والإيمان ، وأنه لولاه لما خلق منهم أحد : لأنه لا فرق بين آدم وغيره من الانبياء والمرسلين في هذا المعنى . ولكن كيف يجوز أن يقول مسلم : إن الأنبياء كلهم لم يخلقوا إلا من أجل محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنه لولاه لما خلق منهم أحد والله يقول بعد أن ذكرهم وذكر ثناءه عليهم وما خص كل نبي به من المنقبة والكرامة : « أولئك الذين هدى الله فبهم أقمت » ويقول ﷺ في الحديث الصحيح : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » . وجاءه رجل وقال له : يا خير البرية ا فقال عليه الصلاة والسلام : « ذاك إبراهيم » . وقال : « لا تنفضوا من أنساء الله » وقال : « لا تخبروا ، ولا تعلموا » . وهذه أحداث

لوصح هذا المكان ،
الانبياء جميعاً لم
يخلقوا إلا لأجله .
الرسول وهذا
باطل

كلها في الصحيح . وهؤلاء العباد المختارون الذين هذا مكانهم وهذه مكانهم من الله كيف يمكن أن يقال إنهم ما خلقوا إلا لأجل نبي الله ، وإنه لولاه لما خلقهم الله وقد قال تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » وقال : « ثم اجتبا به فتاب عليه وهدى » وقال : « وعلم آدم الأسماء كلها » وقال غير ذلك من الثناء والحمد على عبده ورسوله آدم . فكيف يجوز لمسلم أن يقول بعد هذا : إنه ما خلق إلا لأجل ولده محمد ﷺ وإنه لولاه لما خلق ، وقد خصه الله بميزة ومنقبة لم يجعلها لأحد سواه . ذلك أنه أمر ملائكته أن يسجدوا فسجدوا . والملائكة لا يخفى مكانهم ولا تجهل مكانهم من الله . وهذه فضيلة لا تقدر إلا لمن عظم قدره وقرب مكانه من ربه وتسامت مكانته لديه تعالى . ومن كان له هذا الفضل العظيم والشرف الرفيع كان من الإلهانة له والزرارية به القول بأنه ما خلق إلا لأجل محمد وإنه لولاه لما خلق

أي معنى في قوله
« ولولا محمد ما خلقتك »

هذا ثم أي معنى في قوله : « ولولا محمد ما خلقتك » ؟ فان آدم لم يلق محمداً عليهما الصلاة والسلام ، ولم يجتمع به ولم يقاتل معه ، ولم يدفع عنه ، ولم يشهد له ولم يؤيده بشيء من وجوه التأييد . فكيف إذن خلق لأجله ، وما معنى هذا ؟ إن الأمر يوجد لأجل الأمر إذا كان بينهما ارتباط ، وعلاقة من العلاقات . فلو أن آدم خلق في عصر النبي عليه السلام فقاتل معه ودفع عنه وذاد عن دعوته ودينه الخصوصم والأعداء لأمكن أن يقال : إنه لولاه لما خلق آدم . أما وآدم قد خلق في عصر في قوم لغرض ، ومحمد قد خلق في عصر آخر في قوم آخرين لغرض أيضاً فلن يصح أن يقال إن هذا ما خلق لولا هذا ، لأن هذا القول من الكذب الواضح والباطل الصريح

وماذا يمكن أن يفهم الخالفون المصححون لهذه اللفظة منها ؟ هل يعني بها أن آدم ما خلق إلا لأجل أن يلد محمداً ﷺ وأنه لولاه هذا الغرض لما خلق ؟ إنه

أي معنى في قوله
« ولولا محمد ما خلقتك »

لو صح هذا الاحتمال لكان الحديث من أعظم المقادح في آدم . ولو صح أيضاً أن آدم ما خلق إلا لأجل أن يلد محمداً فقط لكان غير آدم ممن هم دونه - أعنى الذين لم يلدوه - أولى بالألّا يخلقوا وألا يوجدوا ، لان الغرض من الخلق والابحاده هو ولادة محمد ، وهم لم يلدوه . وأيضاً لو كان الغرض من خلق آدم محصوراً في أن يلد محمداً لا غير لكان المعقول القريب أن يخلق محمد مباشرة كما خلق آدم مباشرة بلا آدم ، أو يخلق أحد آباء محمد دون آدم ودون غيره من الآباء الذين لم يلدوه ومن غيرهم . وأيضاً إذا كانت الحكمة في خلق آدم محصورة في أن يلد محمداً فما الحكمة في خالق غير آدم من الكفار ومن المؤمنين أيضاً ؟ إذن لا يمكن أن يصح هذا الاحتمال في هذه اللفظة ، ولا يمكن أن يلاقى الحق . فإذا إذن يعنى بها عند المؤمنين بها ؟ أيعنى أن آدم ما خلق إلا كرامة لمحمد عليه السلام وتشريعاً له ورفعاً لقدومه ، وأنه لولا هذا الغرض لما خلق ؟ وهذا الاحتمال لا يصح أيضاً . وذلك أنه لا فضل ولا أثر لمحمد ألبتة في خلق آدم وإيجاده . . . قادم مخلوق قبل محمد ، والله وحده الذى خلقه كله لا شريك لأحد فيه . فما أثر محمد في هذا وكيف يكون له في شئ منه كرامة أو شرف أو تشريف . ولو عكس الأمر والقول لكان العكس أقرب إلى المعقول ، أعنى لو قيل : لولا آدم لما خلق محمد . ذلك لأن محمداً هو الابن وآدم هو الأب . ومن المعقول المهود أن يكون للأب الشرف والكرامة والحمد في ابنه لأنه سبب في خلقه ولادته مثلاً . ولكن لا فضل ألبتة للابن في أبيه وفي وجوده وخلقته إذا كان لم يلقه ولم يره . وأيضاً إذا كان الله لم يخلق غيبه آدم إلا لأجل تكريم أحد أنبيائه ورسله به ، فلماذا إذن خلق غيره من الأنبياء والمؤمنين ومن الكافرين أيضاً ؟ فهذا كله لا يراد شئ منه بهنم اللفظة فإذا يراد بها ؟ أيراد أن محمداً ﷺ قد أعان على خلق آدم ، وكان هو الحامل على خلقه وإيجاده أو السبب الأقوى فيه ؟ كلا ، إن هذا لا يقوله مسلم واحد لأنه

احتمال ثالث
وبطلانه

احتمال ثالث
وبطلانه

شرك قبيح . . . فبعض هذا الذى ذكرناه يكفى تدليلاً على بطلان هذه اللفظة المذكورة فى الحديث وعلى بطلان الحديث جملة .

وحده واضحة في
بطلان هذا
الحديث

ومما يدل على كذب الرواية دلالتها على أن هذا التوسل بحق محمد هو السبب فى غفر خطيئة آدم وترك ذنبه له والتجاوز عن مواخذته ، إذ قد جاء فى رواية الحديث : « وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك » . والمفهوم من هذا أن الله قد غفر لآدم لأجل سؤاله ربه بحق محمد . وهذا باطل نصاً ونظراً وقياساً وفقهاً أما النص فإن الله سبحانه قد ذكر ما قاله آدم بعد ارتكابه الخطيئة أو بعض ما قال ، وذكر ما نادى به ربه متنصلاً من ذنبه وجرمه بالتوبة والاعتذار ، فقال من سورة البقرة : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم » . وظاهر من الآية الكريمة أن هذه الكلمات المتلقاة هى السبب فى الغفران له والرضا عنه ، وأنها هى الأمر المباشر للمغفرة عنه . وهذا جلي من ألفاظ الآية . وهذه الكلمات التى غفر الله لآدم من أجلها لا يصح أن تكون هى التوسل بمحمد والسؤال بحقه . وذلك لأن الله قد ذكر هذه الكلمات فى كتابه فى قوله من سورة الأعراف : « وناداهما ربهما : ألم أنهيكما عن تلبيكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالوا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تنفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » . فتلك الكلمات المجملّة التى أخبر الله أن آدم تلقاها من ربه يوم أن وقع على الذنب وأكل من شجرة الخطيئة هى هذه الكلمات المذكورة المفسرة فى هذه السورة وهى قولهما : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تنفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . فتلك جملة وهذه مفسرة مفصلة : ولم يذكر الكتاب عن آدم وزوجه شيئاً غير هذه الكلمات بعد غشياتهما الخطيئة .

وأيضاً مما يدل على أن الكلمات المتلقاة هي هذه الكلمات من الاعتذار والاستغفار قوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات » فقد جعل ذلك كلمات ، والمذكور في الرواية - أعني قوله « أسألك بحق محمد لما غفرت لي » - لا يسمى في لغة القرآن كلمات إلا أن يكون القول على سبيل المجاز والانساع في الكلام . أما ما ذكر من الاستغفار والاعتذار والاعتراف في سورة الأعراف فكلمات حقيقة لا مجازاً . فيصح أن تكون الآية تأويل الآية ، ولا يصح أن يكون الحديث تأويل الآية . وأيضاً قوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات » يدل على أن هذه الكلمات التي غفر له إذ قالها هي كلمات تلقاها من ربه بمعنى أن الله أوحاها إليه وأمره بها ، لأن هذا هو حقيقة التلقي . ويجب الوقوف عند حقيقة الكلام حتى ينود عنها ذائد . وقوله في الرواية : « أسألك بحق محمد لما غفرت لي » ليس متلقياً من الله لأنه تعالى - على ما في الرواية - قال له إذ قال ذلك : « وكيف عرفت محمداً ؟ » وقد قال في الجواب : « رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على قوائم العرش : لا إله إلا الله محمد رسول الله » الحديث . وكل هذا يدل على أن آدم دعا بالدعاء المذكور من تلقاء نفسه ومن اجتهاده . فليس إذن متلقياً من الله . ولكن الكلمات التي قالها آدم فتاب ربه عليه إذ قالها هي كلمات قد صرح القرآن بأنه قد تلقاها من ربه تلقياً . ومعقول . مفهوم أن نفس هذه الكلمات بقوله : « قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تنفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » لأن الله بلا ريب قد ألقى ولقى عبده آدم وغيره من خلقه بطريق التنصل من الذنوب بالتاب والاعتذار ، وأمرهم أن يعالجوا بينهم المصيبات والخطايا بالتوبة والاعتذار والاستغفار والاعتراف والرجوع إلى الله وإلى منطقة عفوه وصفحه هروباً من منطقة الذنب المحرقة الضيقة ، ومن منطقة غضبه ومقته وطرده . فمن المعقول والمفهوم معاً أن يكون آدم قد تلقى مثل هذا من ربه وأن يكون ربه أمره به وندبه إليه كما ندب جميع خلقه

من الأولين والآخرين . فالكلمات المنفورة لا آدم من أجلها هي كلمات متلقاة فيجب أن تكون غير مافي الرواية المذكورة المكنوبة .

وأيضاً قد أجمع المفسرون من السلف والخلف البصراء بوجوه التفسير والتأويل وعلوم القرآن والاسلام على أن هذه الكلمات المتلقاة هي غير مافي الحديث المذكور وغير سؤال آدم بحق محمد عليهما الصلاة والسلام . وما فسر الكلمات بأنها هي هذا أحد ممن يعتد بقوله ورأيه وعلمه . بل قد جاءت أخبار نبوية تفسر هذه الكلمات بخلاف مافي الحديث ، وهذه الأخبار - وإن كانت ضعيفة الأسانيد - هي ولا ريب أصح من هذه الرواية متناً وسنداً . ففي مجمع الزوائد « (الجزء الثاني صفحة ١٩٨) من جملة حديث طويل عن أبي برزة قال : - يعني الله - يا آدم ما يحزنك قال : كيف لا أحزن وقد أهبطتني من الجنة ولا أدري أعود إليها أم لا . فقال الله : يا آدم قل اللهم لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك . سبحانه وبمحمدك ، رب إني عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت أرحم الراحمين - إلى أن قال - هذه الكلمات التي أنزلها الله على محمد ﷺ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ، قال وهي لولده من بعده . إلى آخر الرواية . قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه سوار بن مصعب وهو متروك . وهذا وإن كان من قول أبي برزة الصحابي الجليل فلا شك في أنه لا يقال بالاجتهاد والرأي بل لا بد أن يكون له حكم الرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام كما هو مقتضى ما رجمه المحدثون في مصطاح الحديث ، لأن هذا غيب ومحاباة النبي لا يقتحمون الافتراء على الغيوب إلا بوحى وسلطان من الله ورسوله . أما من جهة السند فحديث توسل آدم بالنبي عليه الصلاة والسلام لا يزل عنه ضعفاً وسقوطاً إلا أن هذا أصح من جهة المعنى ومن جهة موافقته لظاهر القرآن ، فهو أولى بالتصديق والقبول وفي الجزء العاشر من مجمع الزوائد أيضاً صفحة ١٨٣ بعنوان : « باب دعاء آدم

روايات في تفسير
الكلمات التي
تلقاها آدم حين
عليه من أجلها

عليه الصلاة والسلام» عن عائشة عن النبي عليه الصلاة والسلام قال : «لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وجاء الكعبة فصلى ركعتين فألمه الله هذا الدعاء : اللهم إنك تعلم سريري وعلايتي ، فأقبل معذرتي ، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي ، وتعلم ما في نفسي فأغفر لي ذنبي . اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي ، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي ، ورضاً بما قسمت لي . قال فأوحى الله إليه : يا آدم قد قبلت توبتك وغفرت ذنبك . ولن يدعوني أحد بهذا الدعاء إلا غفرت له ذنبه ، وكفيتهم المهم من أمره ، وزجرت عنه الشيطان ، وانجرت له من وراء كل تاجر ، وأقبلت إليه الدنيا وهي راغمة وإن لم يردها » . قال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط وفيه النضر بن طاهر وهو ضعيف . فهاتان روايتان ضعيفتان ولكنها لا يضعفان عن معارضة روايتهم سؤال آدم بحق محمد عليهما السلام

ان القرآن
لم يذكر هذا
التوسل من آدم
مع أنه قد ذكر
قصته فلماذا هذا

وأيضاً فإن كتاب الله قد ذكر في مواضع ما امتحن الله به آدم من الذنب والخطيئة ، وذكر استغفاره إياه وتوبته وندمه وتوبة الله عليه واصطفاه إياه واختياره وتكفير ذنبه . . . ولكن لم يذكر هذا التوسل ولا هذا الدعاء الذي زعم فيه أن عفو الله تاله وأدركه من أجله . وما كان أجدره بأن يذكره في كتاب الله أو ما كان أجدره بأن يشيد به وبذكره ، ليتأساه المؤمنون المقتدون بكتاب الله وبأنبيائه . فإن الأمر الذي يغفر به مثل هذا الذنب وهذه الخطيئة خليف بأن يعرفه المسلمون التالون لكتاب الله ليكون لهم فيه القدوة والثواب . ومن البعيد جداً أن يكون الأمر كما زعم في هذه الرواية ثم لا يكون له من العناية والحظ في القرآن إلا الاعراض والطي والكتان مع ذكره القصة من أولها لآخرها فإن القرآن قد ذكر إسكان آدم وحواء الجنة ، وذكر تحذيرهما أن يقربا الشجرة وأن يأكلا منها ، وذكر محاورة الشيطان إياهما فأزلاهما فأقدامهما على الخالفة والأكل من شجرة الخطيئة ، وذكر ندمهما وأسفهما على ذلك ، وذكر

استغفارهما الله وطرهما نفسيهما بيباه تعالى وبياب متابه ، ثم ذكر توبة الله عليهما وقبولهما واصطفاهما : ذكر ذلك كله وذكر معه عتاب الله إياهما . ولكنه لم يذكر هذا التوسل الذي غفر به هذا الذنب العظيم وهذه الخطيئة التي كرها الله لها من الغاية الحميدة والحكمة البالغة . إن من أراد أن يعرف حقائق الأشياء وأن يعترف بحقائق الأمور لا يجد بداً من الاعتراف بأن هذه الرواية مختلفة اختلافاً قبيحاً شنيعاً .

هذا من جهة النص . وأما من جهة النظر والفقه والقياس فيقال : إن من بحسب الحال ان
يفسر الذنب
بما يسأل بحق
الحق البعيد جداً في حكمة الله وفي دينه أن يغفر لآدم هذا الذنب لا شيء إلا لأنه عرف محمداً ﷺ ، ولأنه سأل بحقه فيقال له : « وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك » . ولا يغفر له هذا الذنب بتوبته وإقباله على ربه واستغفاره وندبه وذلك وانكساره ورجوعه إلى ربه ومولاه رجوع الخاضع الخاشع الذليل . وقد حدث القرآن الحكيم عنه بأنه بعد الذنب جدد في الاستغفار والاعتذار والاعتراف والرجوع إلى غافر الذنب وقابل التوب . ولا بد عملاً من الاعتراف بأن آدم قد استغفر ربه ودعاه لغفر ذنبه ولقبوله مهة أخرى . وبما لا ريب فيه أن ندم المذنب وأسفه على ذنبه وعلى ما فرط منه واعتذاره إلى ربه واستغفاره إياه ومضاعفة العبادات والطاعات وإخلاصه وصدقه في هذا كله أعظم من عند الله وأقرب إليه وإلى ثوابه ورضاه ومتابه من سؤاله تعالى بحق واحد من الناس مهما كان ذلك الواحد . ولا يختلف المسلمون في أن المذنب لا يغفر له ذنبه وجريمته إلا بما وقر في قلبه من خوف الله ومن الندم على عصيانه والمزم على ألا يعود ، ثم بالأعمال الصالحة المبرورة المكفرة والاستغفار والاعتذار والابتهان بمناداته تعالى مناداة انكسار وإخلاص وخضوع وخشوع . وقد بين كتاب الله في غير ما آية ما به تغفر الخطايا والآثام فقال : « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى »

وقال : « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً » وقال : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً » وقال : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعملون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » . إلى غير ذلك من آي الكتاب الناطقة بأن الله يغفر الخطايا والآثام بالتوبة وبالأعمال الصالحة ، وبالندم على العصيان وبالاستغفار والاعتذار لا بسؤال الله بحق فلان أو فلانة . وقد أنبأ الله عن جميع أنبيائه الذين ألبوا ببعض ما عاتبهم الله عليه بأنه تعالى غفر لهم بما قدموه من استغفار ومنتاب وأعمال صالحة مبرورة . وهذا كله من قصص القرآن . فالرواية التي يقال فيها : إنه قد غفر لآدم ذنبه لأنه سأل الله بحق محمد رواية مخالفة لروح الاسلام ولنصوصه ، مخالفة لروح جميع الأديان ولنصوصها .

والسؤال بحق النبي أو بحق غيره من الأنبياء والصالحين ليس له من القيمة العملية الدينية ما يوجب أن يكون عملاً صالحاً مبروراً فضلاً عن أن يكون أداة غفران وعفو تام . وماذا في قول القائل : أسألك يا الله بحق فلان أو فلانة من عمل صالح يؤهل قائله لأن يكون من المغفور لهم ؟ وإنما يغفر للمستغفر ويؤجر على قدر ما وقر في قلبه ونفسه من خشية الله وخوفه وتعظيمه وإجلاله وحبه ، وعلى قدر تصميمه على ألا يعود إلى مخالفة الله وعصيانه ، وعلى قدر ندمه وأسفه المر . وأما الألفاظ المجردة فلا وزن لها عند الله ، ولا ينظر إليها فضلاً عن أن تكون عملاً تحط به الذنوب والخطايا الثقيلة . فإني قول القائل : « أسألك بحق محمد لما غفرت لي » من الشأن والقيمة حتى يقال له : « وإذ سألتني بحقه فقد

السؤال بحق
الذي ليس له من
القيمة العملية
ما يوجب كل هذا

خفرت لك ؟ وأجبل الناس وأرقهم ديناً وتقوى وفضيلة ، وأشدّهم بعداً عن الله وعن رضاه يقولون ذلك ويلهبون به . وهم على رغبة لا يجدر بهم الغفران ولا التجاوز والعفو والرضا ، بل وهم خليقون بالانتقام والطرود والعذاب الأليم الموجه . ولن تجديهم هذه المقالة ولا هذا التوسل قليلاً ولا كثيراً . فنحن لا نشك في أن آدم ماغفر له ذنبه إلا لتوبته ولرجوعه إلى ربه ولا قلاعه عن ذنبه ، ولا اعتذاره واستغفاره الصادرين عن جميع نفسه وقلبه وعقله . أما السؤال بالحق فلا قيمة ولا وزن له عند الله ألبتة .

ما معنى السؤال
بحق المخلوق

على أنه لا يدري ما معنى أمثال قوله : « أسألك بحق محمد » . وذلك أن حق محمد وحقوق سواء من عباد الله الصالحين ضربان : حق يتعلق بذات الله وصفاته ، وحق يتعلق بمخلوقاته . أما الحق الأول فهو نصرة الله وتأنيده لهم ورضاه عنهم وغير هذا من المعاني القائمة بذاته تعالى . وأما الحق الثاني فهو ما ادخر وأعد لهم من الجزاء والثواب ، من الجنات والنعم المختلف الألوان والأفنان . هذا هو ما يحتمل أن يفسر به حق النبي وحق غيره من خلق الله المختارين . فإن كان الحق في هذه الرواية هو الحق الأول القائم بذات الله بصفاته فالرواية خارجة عن محل النزاع والخلاف . فانه لا خلاف في أنه يجوز سؤال الله بصفاته وأفعاله ونصره وتأنيده . وليس هذا هو ما يريد المخالفون أن يحتجوا له وأن ينصروه ويؤيدوه . وأما إن كان المراد في الرواية الحق الثاني فيقال عليه : إن حق محمد عليه الصلاة والسلام من النعم والجزاء والثواب هو أشياء مختلفة كثيرة ، ذات أنواع وأصناف وألوان وأفنان وعدد . وهذا تشتمل عليه الجنة كله . فنه الحور العين والولائم المخلدون ، ومنه أنواع المأكولات والمشروبات المدخرة من أصناف العيون وغيرها وكل ما هنالك مما ذكر في القرآن ومما لم يذكر ، مما لم تره عين ولم تصم به أذن ولم يخطر على قلب بشر . وإذا كان هذا

الحق في الرواية
قد يكون مخلوقاً
موقد يكون غير
مخلوق ودلائل
يطلق الأول

هو الحق الذى سأل به آدم ربه غفر ذنبه فغفر له قيل : وهل يليق أو يمكن أن يسأل نبي الله آدم ربه أن يغفر له ذنبه بما فى الجنة من المأكولات والمشروبات واللذات والشهوات المادية التى أعدت للنبي عليه السلام ؟ أظن أن هذا لن يكون لأنه لا يليق ولا يجدر فعله بمثله . وأحسب أن هذا الراضى لا ينازع فى أن من القبيح والبرود أن يتوسل آدم إلى ربه بما كولات الجنة ومشروباتها وبنساتها وغلمانها وولداتها وغير ذلك مما ادخر فيها لعباد الله الصالحين . إذ لا ينازع أحد حسب ما أظن - فى قبح هذا النوع من التوسل والسؤال . . . وإذا سلم أن هذا هو المراد فلماذا خص ما ادخر لرسول الله ﷺ فى الجنة دون ما ادخر لغيره فيها ؟ وما الفرق بين سؤال الله بما أعده حقاً لمحمد ﷺ ثم وبين سؤاله بما أعده لغيره ؟ إنه لا فرق . . . ثم إذا كان هذا هو المراد فأية فضيلة لرسول الله فى أن سأل آدم ربه بما أعده فى دار الجزاء ؟ إنه لا فضل ولا فضيلة . . . وإذا كان هذا هو المراد فما الذى فيه مما يستدعى الإجابة والغفران ؟ إنه لا شئ . ولا شك أن سؤال الله حينئذ بالجنة جملة وبما فيها جميعاً أهدى وأقرب إلى الإجابة والغفر المرجو .

ثم ما معنى سؤال الله بما فى الجنة من المأكولات والمشروبات والجزاء المادى أو الروحى ؟ وما معنى أن يقول القائل : أسألك يا رب بما فى جنتك من مأكولات ومشروبات أن تغفر لى وأن ترحمى ؟ إن كانت «الباء» فى «بحق» بمعنى «مِنْ» على معنى : أسألك مما فى الجنة خرج الحديث جملة عن محل النزاع والخلاف وصار ظاهره باطلاً لأن معناه حينئذ يرجع إلى أنه يسأل ربه أن يعطيه من حق محمد الذى أعده له جزاء عمله وثواب رسالته ودعايته إلى الخير والهدى : وهذا السؤال باطل بالإجماع والضرورة . وإن كانت هذه الباء بـاء السببية ، وكان المعنى أسألك بسبب ما فى الجنة مما أعده لمحمد كان هذا أيضاً باطلاً كل البطلان

قبيحاً كل القبيح . . . فما معنى سؤال الله إذن بحق محمد : بحقه المخلوق الذى هو جزاؤه الآخر وى المخر فى الجنات ؟ أليس هذا ما لا يعقل وما لا يستطيع له تأويل وما لا يعرف له وجه فى وجوه العلم والدين والبيان ؟

دلالة الرواية
نفسها على كذبها

فالرواية - ولا ريب - ملفقة مكذوبة تلفيق جاهل وكنب غبي . وفيها شئ يكاد يكون نصاً فى اخلاقها وتلفيقها . ذلك الشئ هو قول آدم عليه السلام المذكور فيها : « يا رب إنك لما خلقتنى ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فهذه اللفظة تدل على أن العرش كان فى متناول بصر آدم وأنه كان بحيث يراه ويشهده . وهذا - وإن كان واقعاً فى منطقة الإمكان والاحتمال - إلا أنه غير المعهود المعروف فى الشريعة وفى نصوصها ومعانيها . فما كان من المعهود فى الدين أن الأنبياء كانوا يشاهدون عرش الله ويرونه . ومحمد ﷺ قد بلغ ليلة الإسراء والمعراج ما لم يبلغ نبي قبله من السمو وقرب المكان والمكانة ، ولكنه لم يبلغ عرش الرحمن ولم يره ببصرته على ما نعلم فى روايات السنة الصحيحة . فهاهذه اللفظة أعنى قوله : « فرأيت على قوائم العرش مكتوباً » ؟ أليست هى ميسم الكذب قد سمعت به هذا الرواية ليكون كذبها فيها ، وليكون منها عليها شواهد ؟ ثم أليست من الخطأ الذى فلت واضع الرواية وكاذبها أن يخفيه وألا يبيديه ؟ بل لأن الله قد كفل التمييز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والدين وخلاف الدين ، وكفل التفريق بين ما جاءت به الأنبياء وبين ما كذبه الكاذبون الدجالون . والحمد لله رب العالمين .

﴿ الشبهة الرابعة توسل آدم بعلى وفاطمة والحسن والحسين ﴾

رواية توسل آدم بعلى وفاطمة والحسن والحسين
وأما الشبهة الرابعة - وهى قوله : « وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات » : إن الكلمات هى توسله بالنبي . وفى مجمع البيان : إن الكلمات هى توسله بمحمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين » - فالجواب أن

يقال : أما ما ذكر أن بعض المفسرين قاله في تفسير الآية فنحن نحاجه إلى جميع كتب التفسير الصحيحة المملوءة بالآثار وبتفاسير السلف وبالروايات المسندة الصحيحة القوية : نحاجه في ذلك بتفاسير الطبري والبقوي وابن كثير والرازي وغيرهما من التفاسير السلفية الأثرية التي تفسر القرآن بأقوال السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المتبعين ، والتي تذكر ما تذكر بالأسانيد والروايات المتصلة المعروفة المشرفة : نحاجه بكل ذلك ونقول : إنه لن يجد رواية واحدة تصح إسناداً عن أحد من أصحاب النبي ، أو عن أحد من التابعين المهتدين ، أو عن أحد من أئمة الحديث والفقهاء أنه فسر هذه الآية وهذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه بما ذكره وزعمه من التوسل بالنبي عليه الصلاة والسلام . وما نحن نقول هذا وتجاهد معاجزين له ولسواء من المخالفين ، ونطلب إليهم جميعاً أن يصححوا لنا رواية واحدة عن واحد من هؤلاء السلف . فان فعلوا تبعناهم وصدقناهم ، وإن لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فليكنوا عن هذا الضعف والوهن الخجل . بل نحن نقول : إن إجماع السلف على تفسير الآية والكلمات المذكورة بخلاف ما ذكروا من الدلائل على بطلان الرواية السابقة في توسل آدم بحق رسول الله . فان جميع أقوال السلف المروية في تفاسير السلف والأثر تذكر في الآية غير ما ذكروا . وليرجع من شاء إلى ما شاء من هذه التفاسير ، لا نخص طائفة دون طائفة ، ولا فريقاً دون فريق آخر .

نحاجه الى جميع
المفسرين

نعم نحن لا ننازع في أن بعض الناس المنحرفين المفكرين بمقول الشيعة والصوفية الغالين قد فسروا الآية بما زعم الرافضي ، وزعموا فيها مثل ما زعم . ولكن أهل العلم لا يمتأون بهؤلاء المفسرين ولا بهاتيك التفاسير . فان الأقوال تعطى من الاحترام والتقدير مثل ما تلقاها من ذلك . «وقدر الشهادة قدر الشهود» أما أهل العلم فانهم لا يختلفون في بطلان أمثال هذه التفاسير والأقوال المريضة

في كتاب الله . ولا يختلفون في أن هذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ليست هي التوسل بمحمد ﷺ ولا بملي وفاطمة والحسن والحسين ، وليست السؤال بحق رسول الله ولا بحق غيره من الخلق . بل هذه الكلمات هي قولها : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تنفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ، أو هي كلمات من ضمنها هذه الكلمات : إعتذار واستغفار ورجاء وخوف مريب ، وانقطاع لدى بابه تعالى وباب متابوه لإحسانه العظيم الشامل طوائف المذنبين إذا تابوا واعتذروا واستغفروا وأعطوا بأيدي العبودية والصغار . ولم يفسر أحد من أهل العلم هذه الكلمات بما زعمه الرافضي ومن نقل عنه . والتفسير المحترمة الصحيحة ميسورة لمن أحب أن يعرف خطأ هؤلاء القوم . وهذا — أي إجماع أهل العلم والایمان على تفسير الآية بخلاف ما ذكرناه هنا — من البراهين لدينا على بطلان الحديث الآنف الذي زعم فيه أن آدم سأل ربه بحق محمد وأن الله غفر له ذنبه لهذا السؤال والتوسل .

وأما ما ذكر عن صاحب « مجمع البيان » أن هذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي توسله بمحمد وبملي وفاطمة والحسن والحسين بعد أن رأى أسماءهم مكتوبة على العرش فسأل عنها فقيل له : هذه أسماء أجل الخلق عند الله منزلة — فالجواب أن يقال : تفسير « مجمع البيان » تفسير شيعي إمامي رافضي لا يعتد بنقله ولا بعلمه ولا بما يقول . والرواية التي قيل فيها : إن آدم توسل بمحمد وبملي وفاطمة والحسن والحسين رواية مكذوبة موضوعة ، رواها الدارقطني وقال تفرد بها عمرو بن ثابت بن هرمز . وعمر وهذا من الشيعة الفلاة الكذابين الوضاعين . وقد حدثوا عنه أنه كان يقول : كفر الناس بعد رسول الله إلا أربعة . وكان من السبابة للسلف . وقد أجمع علماء الجرح والتعديل من أهل الحديث على ضعفه وتضعفه وإلغائه . فروايته هذه رواية مكذوبة باطلة بلا ريب . وقيد

رواية توسل آدم
بملي وفاطمة
والحسن
والحسين
مكذوبة

ذكرها ابن الجوزي والسيوطي في الموضوعات . ومما يوهن أمرها مجيئها في أمر يتعلق بمذهب الشيعة ، فعمر و الراوى لها متهم فيها . ويقضى بردها مرة واحدة ما ذكرها فيها أن آدم رأى هذه الأسماء مكتوبة على العرش وسأل عنها فقيل له « هؤلاء أجل الخلق منزلة عند الله » . فان هذا القول يقضى بأن يكون على وفاطمة والحسن والحسين أفضل وأجل عند الله من آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، وهذا لا يذهب إلى القول به إلا من هم أضل الخلق والخليقة .

فهذا الخبر خبر موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث . وعمر وهذا الذي تفرد به كذاب وضاع ضعيف باتفاق أهل الحديث والمعرفة . فلا يصح أن يشاد على مثل هذه الرواية دين ولا اعتقاد ، ولا أن يحتاج بمثل هذه الأبواب الوضوء والخيض وأحكام المياه فضلا عن أن يحتاج به على دعاء الأموات والعكوف على القبور . وعمل كل هاتيك الآفات الاعتقادية النكراء . والسؤال بحق المخلوقين - على ما ذهب إليه المخالفون - باطل عقلا وشرعاً ووجداناً وعرفاً كما ذكرنا في الكلام على الحديث الذي قبل هذا . فانه لا معنى لأن يسأل الله بحق محمد أو حق آدم أو حق عيسى أو حق موسى أو حق غيرهم من الأنبياء والمرسلين . وليس مثل هذا السؤال مما يوجب أن يجاب الدعاء وأن يقرب الله الداعي وأن يقبل دعاءه وليس له معنى ولا وجه وجبه لافي الشرع ولا في العقل . وأنت لو كنت من أعظم الناس وأشدهم تقوى وصلاحاً ودينياً ، ومن أقربهم إلى الله منزلة وأحفظهم نديه تعالى وأوسعهم جاهاً . . . فقلت أسألك يارب بحق عليك كنت قائلاً باطلاً ولغوياً من القليل لا يمت إلى العقل والعلم والدوق والدين بسبب من الأسباب ، ولما كنت سائلاً الله بما يوجب أن يستجيب لك وأن يقبل دعاءك وأن يعطيك حوائجك وطلباتك . ولو قلت لأصلح الناس وأتقاهم وأعظمهم بالدين و بمواقف الكلام

السؤال بحق
المخلوق باطلاً
شرعاً وعقلاً
ووجداناً وعرفاً

أسألك بحق الأنبياء أو بحق الملائكة أو بحق الصالحين لما كنت ماتا إلى غرضك وحاجتك بسبب صحيح يعطى على مثله ، ولما كان في هذا المقال والسؤال ما يوجب أن يعطف عليك وعلى حاجتك بالقضاء والانجاز . ولهذا لانجده العالمين العارفين بمواقع القول ووجوه وأغراض الناس ونفوسهم يحاولون أن يصلوا إلى حاجاتهم وقضاء ما ربههم بهذا التوسل وهذا السؤال . فلا نجد أفصح القائلين وأعقل المفكرين يقول لمن يسأله ويستجديه حاجة من الحاجات : أسألك بحق الملائكة أو حق الأنبياء أو حق الصالحين والأبرار أو حق غيرهم من عباد الله . وهذا لأن السؤال بهذا الحق وهذا التوسل ليس من الأسباب التي يجاب بها السؤال والطلب وتنال بها الحاجات . فمن سأل الله أو سأل غيره بحق مخلوق فقد سأل بأمر أجنبي بعيد عنه وعن حاجته . فمن قال أسألك يارب بذات محمد ﷺ أو بجاهه أو بكرامته أو بعلمه وتقواه وحسن خلقه كان كمن يقول : أسألك بالكعبة أو بمكة أو بالمدينة ، أو ببيت المقدس أو أتوسل إليك بأحجار تلك الأبلية وبنياتها وترابها . ومن سأل الله بهذه المواضع المعظمة المشرفة كان كمن سألته تعالى بالأيام والأوقات والليالي المفضلة مثل أن يقول : أسألك يارب بيوم الجمعة وبأيام عشر ذي الحجة ، وبأيام رمضان ولياليه وأيام الحج وبالأشهر الحرم وبالأيام المفضلة كلها . ومن سأل الله بهذا كله وتوسل إلى حاجته بهذه الأيام والأوقات والأماكن كان كمن سألته تعالى بتراب الجنة وبنياتها وأحجارها وأشجارها ومائها وما فيها من ما كولات ومشروبات وقصور وديار ولذات ويب ذهب يسأل الله بهذا كله ، أو قال إن من الدين سؤال الله به كان من أنقص الناس ذوقا وعقلا ورأيا وعواركهم اختيارا وفهما . ولا يختلف أهل البصر بالاسلام في أن هذا كله خلاف الدين وخلاف الضروريات الدينية ، ولا زب أن التوسل والسؤال بلم الأنبياء وتقام وأخلاقهم مثل السؤال بجاههم.

وهذا مثل
السؤال بالأيام
للجنة

وبحقوقهم وبركاتهم وذواتهم . ولكن لا ريب أن سؤال الله والتوسل إليه بذلك
 - مثل أن يقال أسألك يارب . بعلم الأنبياء وبأخلاقهم وتقاهم وشرفهم ونجابتهم وأصولهم
 وطهارة نفوسهم وأعراقهم - سؤال باطل بارد ، وتوسل مردود شرعاً وعقلاً وذوقاً .
 وفساد أمثال هذا معلوم من الأديان السماوية بالضرورة والبداهة . وذلك أنه يقال
 لهؤلاء المخالفين المنحرفين : ماذا ترون ؟ أترون أنه يجوز سؤال الله بكل عظيم
 محبوب لديه تعالى من المخلوقات كلها ، أم تقولون : لا ، بل لا يجوز سؤاله تعالى
 ولا التوسل إليه إلا ببعض ذلك ؟ فإن قلتم بالأول قلنا : هذا يقضى بأن تجوزوا
 سؤال الله بالأيام والشهور والليل وبالأحجار والأشجار والتراب والماء كولات
 والمشروبات وبغير ذلك مما عظمه الله وشرفه بوجه من وجوه التعظيم والتشريف ،
 مثل أيام الجمعات وأيام الحج وأيام رمضان وليالي الأشهر الحرم وأيامها
 وتراب الجنة وأحجارها وأشجارها وقصورها وأنهارها ومائها وكل ما فيها ، ومثل
 أحجار المدينة المنورة وترابها وأشجارها وبيوتها ، ومثل أحجار مكة وترابها
 وغبارها وبيوتها وصيدها وكثبانها ونباتها وكل ما فيها ، ومثل بيت المقدس كله وكل
 ما فيه بل وكل ما أقسم الله به في كتابه مثل الليل والنهار والشمس والقمر
 والضحى والد وما ولد ، ومثل العصر ، ومثل العاديات والمفريات والنازعات
 والناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات والمرسلات والمعاصفات والناشرات
 والفارقات والملقيات والذاريات والحاملات والجاريات والصافات والتين والزيتون
 وطور سينين وهذا البلد الأمين والسماء والطارق والنجم إذا هوى والفجر
 وليال عشر والشفع والوتر ، والقلم وما يسطرون وما تبصرون وما لا تبصرون وغير
 ذلك مما أقسم الله به في كتابه . فإن إقسام الله بالشئ تعظيم له ، فيقضى هذا
 بأن يكون من الإسلام أن يسأل الله بذلك كله وأن يتوسل إليه بجميع ما ذكر .
 وهذا لا يقول به مسلم ولا عاقل ذير مسلم . أما إن قالوا : إنه لا يصح سؤال الله

ومع هذا جوا
 التوسل إلى الله
 بكل شيء في
 الأرض أو في
 السماء

بكل عظيم محبوب لديه ، بل لا يسأل الا بما ورد النص به بلا قياس ولا زيادة ، قيل إنكم أنتم تزعمون أنه يجوز التوسل بالأولياء والأشياخ الموتى ، وأنه يجوز سؤال الله بجاه الصالحين وبكراماتهم وحقوقهم وحرمتهم وبذواتهم . وهذا كله لم يرد فيه نص لا صحيح ولا ضعيف ، وأنتم تسألون بجاه النبي وحقه وكرامته وحرمة وذاته . وهذا لم يأت فيه خبر ألبتة لا صحيح ولا ضعيف . وإنما جاء التوجه به على وجه العموم والاجمال والاطلاق كما في حديث الأعمى الآتي ، وجاء التوسل به وبالعباس على وجه الاطلاق والاجمال أيضاً كما في حديث الاستسقاء بالعباس الآتي القول فيه أيضاً ، وجاء سؤال آدم بحق رسول الله كما في الحديث الموضوع الآنف . وغير هذا لم يجيء فيه خبر ألبتة . فكان اللازم الواجب على القوم أن يقفوا حينئذ عند ما جاء له نص : لا يزيديون ولا ينقصون ، ولا يتقدمون أو يتأخرون أو يقيسون .

نراض في الخبر
وجوابه

فالتوسل والسؤال بالحق والكرامة أو بالحرمة أو بالذات أو بالجاء أو نحو ذلك من الأمور المبتدعة المحدثه في الاسلام التي أحدثها وابتدعها الجهال الأغبياء والعوام الذين يجهلون مواقع الكلام وأساليبه ، والذين يجهلون حقائق ما جاء به النبيون والمرسلون . . . أما دين الله الحق فبعيد عن هذا الهراء كل البعد ، منزّه عنه وعن قائله ومنتحليه كل التنزيه . ولهذا لم يجيء شيء منه في كتاب الله ولا في سنة رسوله الصحيحة الثابتة . ولا جاء عن أحد الأصحاب بسند ثابت صحيح ، ولا عن أحد الأئمة العارفين بدين الله حق المعرفة . . . ولو أنك فليت كتاب الله حرفاً حرفاً ، وسطراً سطراً ، وآية آية ، وفليت السنة الصحيحة حديثاً حديثاً ورواية رواية لما وجدت أن أحداً من أنبياء الله أو من عباده الصالحين الأبرار أو من غيرهم سأل الله بحق مخلوق أو بجاهه أو بحرمة أو بكرامته أو ببركته . . . وإنما نجد عباد الله الصالحين من الأنبياء فن دونهم يدعون ربهم ويسألونه وحدهم

التطبيق ان
السؤال بالجاء
ونحوه من
الامور التي
ابتدعها الجهال

بلا وسائط ولا وسيلة سوى إيمانهم وتقاعهم وأعمالهم الصالحة المبرورة . وهذا بين واضح ، وهذا ما نص عليه الله في كتابه بقوله : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها » ولم يقل : ادعوه بجاء فلان أو كرامة فلانة أو بحق محمد أو حرمة إبراهيم مثلاً . بل قال : ادعوه بأسمائه الحسنى وبصفاته . وعباد الله يدعون الله دون سواء : لا يدعونه بسوى ذاته وصفاته وأفعاله . والله وحده الهادى إلى سواء السبيل وصراطه المستقيم .

الكلام على
حديث الأئمة
سنداً ومتناً

﴿ الشبهة السادسة حديث الأعمى المشهور ﴾

أما هذه الشبهة فنقول : قال أبو عيسى الترمذى فى جامعه من أبواب الدعوات : حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرب بالبصر أنى النبى عليه الصلاة والسلام فقال : ادع الله أن يعافينى ، قال : « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك » قال فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ وأن يحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبىك محمد نبى الرحمة يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى . اللهم شفّعنى فى » . هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر وهو غير الخطى . هذا لفظ الترمذى .

وقال ابن ماجه من سننه فى باب ما جاء فى صلاة الحاجة : حدثنا أحمد بن منصور بن سيار حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبى جعفر المدنى عن عمارة ابن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرب بالبصر أنى النبى عليه الصلاة والسلام . وذكر الحديث كما ذكره الترمذى إلا أنه قال فيه : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويصلى ركعتين . ورواية الترمذى ليس فيها ذكر صلاة الركعتين .

وقال ابن السني في كتاب عمل اليوم والليلة : أخبرني أبو عروبة حدثنا
العباس بن فرح الرياشي والحسين بن يحيى الثوري قالا : حدثنا أحمد بن شبيب
ابن سعيد قال : حدثني أبي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المدني - وهو
الخطمي - عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف قال سمعت
رسول الله وجاء رجل ضربه فشكا إليه ذهاب بصره فقال رسول الله : « ألا
تصبر ؟ » قال : يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي . فقال النبي عليه السلام :
« ائت الميضأة فتوضأ وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك
بنبي محمد ﷺ . يا بني الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي عز وجل فتجلى عن
بصري . اللهم شفعه فيّ » وشفعني في نفسي . قال عثمان . وماتفرقنا ولا طال بنا
الحديث حتى دخل الرجل كأنه لم يكن ضريراً قط . ورواه الامام أحمد في المسند .
من حديث روح بن عبادة عن شعبة عن أبي جعفر المديني عن عمارة بن خزيمة
ابن ثابت عن عثمان بن حنيف . الحديث ، وفيه ذكر الصلاة والدعاء ، وقال في
آخره « وتشفعني فيه وتشفعه فيّ » وفي آخره : « ففعل الرجل فبرئ » . وروى
الحديث أيضاً البيهقي في دلائل النبوة والحاكم في المستدرک والطبراني في المعجم
ورواه آخرون من أهل السنن والمسائيد والمعجزات غير أن صاحب الصحيحين
البخاري ومسلماً أعرضا عنه ولم يروياه .

والحديث هذا من شبهات القوم وحججهم على باطلهم وعلى جواز دعوة
الأموات والاستغاثة بهم وعلى جواز التوسل والسؤال بنوات الأنبياء وذوات
الصالحين وعلى جواز كل ما يأتون به حول القبور من الضلالات والجهالات . أما
استدلالهم به على جواز دعاء غير الله من الأموات والغائبين فن أمر النبي عليه
السلام ذلك الضرب بعد الوضوء والصلاة أن يدعو وأن يقول في دعائه : « يا محمد
إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضي » . وأما استدلالهم به على جواز

ساق استدلال
المحالين بهذا
الحديث على
أكمل الوجوه

التوسل والسؤال بالذوات وبالأَنْبياء والصالحين وبالميتين فن أمره عليه السلام
الضرب أن يقول في دعائه : « أتوجه إليك بمحمد نبي الرحمة . يا محمد إني توجهت
بك إلى ربي » . ففي قوله : « يا محمد » جواز دعوة الغائبين ، لأن الرسول أمره
أن يدعو بهذا الدعاء وهو عنه غائب . وإذا جاز دعاء الغائبين جاز دعاء الميتين
ولا فرق . وفي قوله : « أتوجه إليك بمحمد نبي الرحمة .. إني توجهت بك إلى ربي »
جواز السؤال بمحمد ﷺ . وإذا جاز السؤال به جاز السؤال بذاته وبحقه
وجاهه وحرمة وكرامته . وإذا جاز السؤال والتوسل بهذا كله من النبي عليه
الصلاة والسلام جاز ذلك بغيره من الأنبياء والصالحين ولا فرق . فالحديث
دليل واضح ناطق ، وبرهان قائم جلي على جواز دعاء الأموات من الأنبياء
والصالحين وعلى جواز التوسل والسؤال بهم وبذواتهم وحقوقهم وحرمانهم
وكراماتهم . فالذين يمنعون شيئاً من هذا مخالفون لهذا الحديث الصحيح
محجوجون به بلاريب ولا مرية .

هذا والحديث قد رواه جماعات من أئمة الحديث والفقه والدين ، وعدوه من
معجزات النبي عليه السلام وكراماته على ربه . وقد صححوه ووضحوه في كتب
جيدة محترمة سامية المكانة والشأن بين كتب الحديث والدين والسنة ودواوين
الاسلام . وقد تلقاه المسلمون عنهم في كل المصوّر بالقبول والرضا والاطمئنان
والثقة البالغة . وقد عمل به وبما فيه طوائف منهم من السلف والخلف بكل هذا قد
كان وقع . وما قام هنا اعتراض ولا ارتفع صوت بالانكار والنقد ، ولا قال
لهم قائل : إنكم خالفتم الاسلام أو أشركتم أو ابتدعتم أو فعلتم ما تأباه روح
الدين أو نصوصه . ولا حاول صيرف من صياغة الحديث ولا فارس من فرسانه
أن يظعن فيه سنداً أو متناً ومعنى . وقد مضى عليه من الزمان ما يقارب ثلاثة
عشر قرناً ونصف قرن والألسنة تدرسه ، والقلوب تميّه وتعلقه ، والدواوين تحفظه

والقرون تصقله ، والمسلمون مجتمعون متفقون عليه وعلى صحته مطمئنون به واثقون .
راضون كل الرضا . . . فكيف يسوغ أن يشك في مثل هذا ؟ أو كيف يجرح
أو يرد أو يكتنب ؟ إذن هو حديث صحيح الاسناد صحيح المعنى ، مشرقهما
وباديهما . . . هذا كله ما يمكن وما يصح أن يقوله المستدلون بالحديث على ما هم
فيه من باطل وجهل وضلال وبدع سود قائمة اللون والوجه .

والجواب أن يقال : إن الكلام على الحديث من ناحيتين : ناحية الاسناد .
وناحية المعنى . فاذا صح الاسناد ، وكان المعنى في متنه ولفظه ما ذكره قامت
حجتهم ونهضت دعواهم وإلا فلا . ونحن نورد ما نستطيع من الكلام في الناحيتين .

﴿ إسناد الحديث ﴾

أما الاسناد فهو أول ما يجب أن يكون الكلام فيه . فإن الاعتقاد وأمره
أعلى ما عند المؤمن ، فلا يجوز - والحالة هذه - أن يتركه عرضة للأخطاء والباطلات ^{الكلام على سند الحديث}
ولا أن يدعه في مهبط الضلالات والجهالات ، ينلن منه ويتصرفن فيه . فلا جرم أن
وجب على العاقل ألا يمتنع إلا ما كان صحيحاً ثابتاً . أما الضعيف والباطل
والمرغوب عنه فلا يحسن بمن لا يرضى لنفسه ولدينه وعقيدته إلا الصحيح القوي
أن يعبا به وأن يباليه وأن يقيم له وزناً .

وإسناد هذا الحديث في جميع طرقه عند جميع رواه قد انفرد به راو
واحد ، هذا الراوى هو أبو جعفر الذى روى الحديث عنه شعبة عند ابن ماجه
والترمذى والامام أحمد ، والذى روى الحديث عند هؤلاء الثلاثة عن عمار بن
خزيمة بن ثابت . وقد قال أبو عيسى الترمذى كما تقدم بعد روايته الحديث :
غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي جعفر . أما الذين رووه عن أبي جعفر هذا
فشعبة عند الترمذى وابن ماجه وأحمد ، وروح بن القاسم عند ابن السنى
وعند البيهقى والحاكم ، ورواه عن شعبة عثمان بن عمر عند الترمذى وابن ماجه

وروح بن عباد عند أحمد والبيهقي ، ورواه عن روح بن القاسم شبيب بن سعيد عند ابن السني والبيهقي ، ورواه عن شبيب ابنه أحمد عند ابن السني . ورواه عن عثمان بن عمر محمود بن غيلان عند الترمذي وأحمد بن منصور بن سيار عند ابن ماجه وغيرهما عند غيرهما . ورواه عن محمود بن غيلان الترمذي مباشرة ، وعن أحمد بن منصور بن سيار ابن ماجه مباشرة ، ورواه عن روح بن عباد الامام أحمد مباشرة . ورواه عن أحمد بن شبيب العباس بن فرح الرياشي والحسين بن يحيى الثوري عند ابن السني ، ورواه عنهما أبو عروبة الحراني شيخ ابن السني . وقد روى من طرق أخرى . فالحديث إلى أبي جعفر هذا صحيح السند لا غبار عليه . فلا كلام للناقد في هذا الاسناد حتى يصل أبا جعفر الذي قيل : إنه الخطمي وقيل إنه غير الخطمي . وقد رأى القارئ أن أبا جعفر هذا رواه عند الثلاثة الترمذي ، وأحمد وابن ماجه عن عمارة بن خزيمة ابن ثابت عن عثمان بن حنيف الصحابي شاهد القصة . وعمارة هذا ثقة لا كلام فيه . وقد زعم ابن حزم في « المحلى » أنه مجهول لا يعرف كما في تهذيب التهذيب ، ولكن هذا لا يضيره لأن غير ابن حزم عرفه ووثقه . وعثمان بن حنيف صحابي جليل لا كلام فيه أيضاً للناقد . وقد تابع عمارة بن خزيمة في روايته عن ابن حنيف أبو أمامة - واسمه أسعد - ابن سهل بن حنيف ابن أخى عثمان بن حنيف ، رواه عن عمه عثمان عند البيهقي وابن السني والحاكم والطبراني . فيكون أبو جعفر هذا رواه عن عمارة بن خزيمة وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف . فالحديث إذن لا يكون غريباً إلا عند أبي جعفر المذكور ، ولا ينفرد به سواء ، وسوى الصحابي عثمان بن حنيف . أما ما بين ذلك فالرواة متعددون . وانفراد عثمان بن حنيف لا يضيرنا لخبر لأنه صحابي جليل . فالكلام هنا يجب أن يقصر على أبي جعفر هذا ، والله اعلم ، كما تقدم قول إنه غير الخطمي ، والأكثر أن نذكر أن الخطمي .

الحديث في
طريقه غريب
انفرد به أبو
جعفر هذا

والغريب أن اسمه لم يقع مصرحاً به - في ما نعلم - في واحدة من الروايات -
فمن الخطمي إذا كان هو إياه ؟ ومن هو إذا كان سواء ؟

من أبو جعفر إذا
كان هو الخطمي

أما أبو جعفر الخطمي فهو عمير بن يزيد بن عمير بن حبيب الأنصاري
المدني ثم البصري . وهو ثقة من رجال الأربعة . قال ابن حجر في تهذيب
التهذيب : وثقه اللسائي وابن معين ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وأثنى عليه ابن
مهدى ، ووثقه أيضاً العجلي وابن نمير والطبراني . قال ابن حجر : وقال أبو
الحسن بن المديني هو مدني قدم البصرة وليس لأهل المدينة عنه أثر ، ولا يعرفونه .
والخطمي مع هذا نزر الرواية قليل التحديث والحديث ، ومن ثم وقع الاختلاف
فيه في هذا الخبر .

فأبو جعفر هذا إن كان هو الخطمي كما ظنه غير الترمذي - فالحديث في
درجة متوسطة من الصحة والجودة ، لا يبلغ مكانة أحاديث البخاري ومسلم
ولا ينزل إلى أن يكون ضعيفاً باطلاً مردوداً ، وإنما هو كالأحاديث التي
يصححها أمثال الترمذي وابن خزيمة والحاكم وابن حبان وغيرهم ممن عندهم نوع
تساهل وإغماض في التصحيح ونقد الأخبار . ولأجل هذا صحح للشيخين
البخاري ومسلم أن يعرضا عن روايته في كتابيهما وأن يرغباه عنه لقصوره عن
أن يباغ درجة ما يضمنان في صحيحيهما اللذين لا مثيل لهما في كتب السنة بل في
كتب الرواية مطلقاً .

هذا إن كان أبو جعفر هذا هو الخطمي ولكن وقع اختلاف كما تقدم : فالترمذي
يقول في جامعه بعد تخريجه الحديث : إنه غير الخطمي . وابن حجر المستقلاني يميل
في التقريب « بـ » على قول صاحب صيانة الإنسان - إلى أنه غير الخطمي
كالترمذي ، ويرجح أنه أبو جعفر عيسى بن ماهان الرازي التميمي الذي ضعفه
قوم ووثقه قوم آخرون . وقد ذكر في كتابه تهذيب التهذيب ما يدل على أنه

استتلاف أهل
الحديث في كونه
الخطمي أو غيره

يرجح كونه غير الخطى . وذلك أنه قال من التهذيب في من يكونون أبا جعفر :
« أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة ، وعنه شعبة . قال الترمذى ليس هو الخطى »
ولم يزد على هذا ولم ينكر على الترمذى ما حكاه عنه . فكأنه يميل إلى
الأخذ بقوله . وعند ما ذكر ترجمة الخطى من التهذيب لم يتعرض لهذا الخلاف
ولم يذكر أنه هو الذى روى هذا الخبر عن عمارة بن خزيمة مع أنه معروف
التعقيب على ما يراه يستحق ذلك . فالظاهر من مجموع هذا أنه يميل إلى موافقة
الترمذى فى القول بأنه غير الخطى . . . هذا قول الترمذى ومن فى جانبه .
أما الأكثرون فقد ذكروا أنه هو الخطى عينه . هكذا وقع فى كثير من
الكتب التى روى الحديث فيها . وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية هذا
الرأى الأخير .

إذن فالخلاف قائم بين أهل الحديث فى أبى جعفر راوى الحديث . فن لنا
بالاهتداء إلى الحق المنشود ١ وبأى أسلوب نستطيع أن نعتز على الصواب
والرشد فى هذا الخلاف ١ هذا مالا بد منه ، ومالا غنى عنه ، ومالا فرار من محاولة
نشدان العرفان فيه . وإلا فإن الذين يكونون أبا جعفر كثيرون ، منهم الثقات ،
ومنهم غير الثقات . فلا محيص من التمييز حذار الوقوع فى رواية غير الثقات .
والدين أغلى وأعلى من أن يكتفى فيه بالروايات المهمة بحيث لا يعرف الثابت من
غير الثابت .

قد يقول قائلون : إنه يجب إسقاط خلاف الترمذى ومن معه فى هذا
الخلاف لأنهم لم يعلموا أن أبا جعفر هذا هو الخطى أو غيره . وغاية الأمر أنهم
وجدوا الراوى عن أبى جعفر يقول حدثنا أبو جعفر فظنوه غير الخطى فقالوا
إنه غيره . ولكن قولهم هذا غير حجة لأنه قائم على الظن والتوهم والحسبان .
والحجة فى قول غيرهم من الذين روى الحديث وصرحوا بأنه هو الخطى كما وقع

هل يمكن ترجيح
أحد الرأىين على
الأخر وكيف
ذلك

مصرحاً به عند ابن أبي خيثمة في التاريخ، وعند الطبراني في المعجم، وعند الحاكم في المستدرک، وعند ابن السني في عمل اليوم واليلة. فان هؤلاء قد صرحوا بأن راوى الحديث هو الخطي عينه. ومما قالوا ذلك إلا لأنهم علموا أو حدثوا أنه هو نصاً لا توهمًا وحسباناً

إن قال قائلون هذه المقالة ورجعوا هذا الرأي على رأى الترمذی ومن معه وعدوه المصير الصحيح اللازم المصير إليه علماء وبخناً وبحقيقاً، قيل في الجواب: كلا، إنه لا يجب اطراح قول أبي عيسى الترمذی هكذا، ولا الذهاب إلى تخطئته. جزاء وقولا واحداً، إذ لو صح لنا أن نقول: إنه ظنه غير الخطي فقال: إنه غيره. بلا دليل. سوى الظن والتوهم والحسبان الخفى لصح لنا أن نقول: إن هؤلاء الذين صرحوا في كتبهم بأنه هو الخطي نفسه ليس لهم من دليل أيضاً سوى التوهم والظن والحسبان. وهذا قزيب جداً. وذلك أنهم وجدوا أبا جعفر في الإسناد مجرداً مطلقاً مما يمكن أن يعينه، فوثب إلى توهمهم وأوهامهم أنه الخطي فصرحوا بما توهموه وحسبوه، لا بما علموه ومعموه، وهذا يحتمل في الترمذی كما يحتمل في الآخرين المخالفين له، وإن كان يبدو للتأمل جيداً تقديم ما ذهب إليه الترمذی وترجيحه. وذلك أنه من البعيد للغاية أن يصرح عالم بالحديث، كالترمذی مثلاً، بأن هذا ليس هو هذا انسياقاً وراء الظن المجرّد والحسبان الباطل. لأنه إذا لم يكن لديه سوى الظن والتوهم كانت منطقة السكوت أرحب وأوسع! وما أبعد أن يقع اسم أو كنية بين يدي ناقد بصير مثل الترمذی فيقول مبادراً: إن صاحب هذا الاسم أو هذه الكنية ليس هو فلاناً ممن يسمون ذلك الاسم بلا حجة وبرهان غير الظن والبحث... أما من قالوا إنه هو الخطي فنن القريب للغاية أن يسموا الراوى يقول: حدثني أبو جعفر، فيساق بسرعة إلى أذهانهم وأوهامهم أنه هو الخطي أو غيره ممن يكونون هذه الكنية،

ولأن اللسان والجنان كثيراً ما يندفعان إلى مثل هذا اندفاعاً ، وينطلقان إليه انطلاقاً آلياً أو شبه آلي . والأمرين لمن تدبره جيداً ، ولن رزق فهماً وإنصافاً وإنفلاتا من ربة التقليد والاحتذاء المكروه الجاهل .

وإذن لا يسوغ لناشد المعرفة والحقيقة أن يبادر إلى الحكم بتخطئة الترمذى زاعماً أنه الخطي قولاً واحداً ، بل يجب عليه على الأقل التريث والتوقف ما لم يلبثق له في هذه الظلمة شعاع من نور . ولا سيما أن هذا الراوى المختلف فيه لم يتابعه أحد على روايته الحديث عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف ، بل انفرد به في جميع الأسانيد والروايات . وهذا ما يزيد الباحث الحريص على الحقيقة والمعرفة توقفاً وتريثاً . ولا سيما أن الحديث وارد في مسألة كهذه المسألة لها من الخطورة والخطر ما لها .

وإذا وصلنا إلى هذا الدور من البحث وجدنا أمامنا أمرين لا مندوحة لنا من اختيار أحدهما : أحد الأمرين أن نذهب ، قولاً واحداً ، إلى أن هذا الراوى ليس هو الخطي كما قال الترمذى وكما رجح الحافظ ابن حجر على ما سبق . وثانيهما أن نلتزم التوقف وتجويز كلا الاحتمالين والقولين ريثما يقدم لنا قبس من نور في هذه الدجنة تتلصص به حقيقة ما غمّ علينا وعلى الباحثين . وعلى الاحتمالين والقولين لا يصح لنا أن نبادر إلى القول بصحة الحديث وإلى الأخذ به حتى نأمن من أن يكون هذا الراوى راوياً ضعيفاً متروكاً منهوكاً مردود الرواية ، معروف الضعف والوهن . وما دنا بجوزين أن يكون الخطي وأن يكون غيره فلا سبيل إلى الضمان من أن يكون ضعيفاً ذاهب الحديث حتى نعلم أن جميع من يكتنون هذه الكنية ممن هم في هذه الطبقة ثقات أثبات كلهم . أما إذا ذهبنا إلى القطع بأنه غير الخطي فقد يحتمل أن يكون راوياً ضعيفاً ، وكذلك إذا جوزنا أن يكون إياه وأن يكون غيره — لأنه لا سبيل إلى القطع

هنا أمران القول بأنه غير الخطي وتجوز أن يكون إياه وأن يكون غيره وعلى الأمرين

بأنه هو قول واحد إلا لمن كان متسرعاً إلى ما يجب التأني والبطء فيه . وما دام هذا الاحتمال موجوداً فلا شك أن العمل بالحديث باطل مردود . ومن ثم ذهب المحدثون إلى أن رواية المجهول غير مقبولة ولا صحيحة لاحتمال أن يكون ضعيفاً ، وذهبوا إلى أن الحديث المنقطع ضعيف أيضاً لجواز أن يكون الراوى الساقط من الاسناد ضعيفاً ، وأجمعوا على أن الخبر المنقول بلا إسناد لا يجب العمل به ولا يكون حجة . في الدين حتى يعلم إسناده . لجواز أن يكون رواه ضعفاً . وهذا بين . وقد ذهبوا إلى أكثر من هذا كله ، محافظة على السنة والدين واحتياطاً من الضيف والكذب ومن التدين بالضيف والمكذوب وبما لم يصح عن النبوة الخاتمة الصادقة .

وقد أجمعوا أيضاً على أنه إذا جاءت رواية باسم مشترك بين ثقات وضعفاء فاحتمل أن تكون الرواية رواية ضعيف ، واحتمل أن تكون رواية ثقة ، وجب طرح تلك الرواية ولم يحلل العمل بها قولاً واحداً . مثل ذلك أن يقول الراوى الثقة المرووف : حدثنا أحمد ، وكان اسم أحمد هذا مشتركاً بين راو ثقة ثبت وبين آخر ضعيف ، ولم يقم دليل على أنه أحدهما . فمثل هذه الرواية لا يجوز عند حملة الحديث والسنة العمل بها ولا القول بصحتها . ومثله قول شعبة بن الحجاج - وهو الامام الحجة - في هذا الحديث : حدثنا أبو جعفر ، أو عن أبي جعفر . فإن شعبة إمام حجة ولا شك . ولكن الذين يكتنون بأبي جعفر من يحمل ويمكن أن يروى عنهم شعبة غير واحد ، منهم الضعفاء ، ومنهم الثقات الأثبات ، ومنهم مقبولو الحديث ، ومنهم مردوده ، في حين أنه لم يظهر لنا هذا الذي روى عنه شعبة الحديث . هذا كله صحيح عند أعلام النقد وعلماء الرواية وفرسان الفن . وأكثر منه وأدل على الدقة والنمحيص البالغ أن شيوخ هذا الشأن وأساطينه ذهبوا إلى أن الثقة إذا قال : حدثني الثقة ، ولم يذكر اسمه ولا من يكون ، لم يقبل

من شروط
المحدثين لصحة
الحديث ومن
احتياطهم
العريب

حديثه ولم يكن صحيحاً لديهم في علمهم . وذلك لاحتمال أن يكون ثقة عند الراوى عنه لأنه لم يعلم ضعفه ، غير ثقة عند سواء من المحدثين لأنهم علموا ضعفه وعلموا ما لم يعلم موثقه من أمره وحاله . ومن ثم ذهبوا إلى أن قول الامام مالك رضى الله عنه في الموطأ : حدثني الثقة ، لا يقضى بأن يكون ثقة عندهم حقيقة ، ولا يقضى بأن يكون حديثه الذى روى بالايهام والايهام صحيحاً حتى يعلموا من هو ذلك الراوى المبهمة الثقة عند الراوى عنه ، أو يعلموا للحديث سنبلاً آخر معروف الرواة مسام . وذهبوا إلى أن الأحاديث التى يذكروها هو وغيره عن النبي عليه الصلاة والسلام بلا أسانيد مثل أن يقول : صح عن النبي كيت ، وقال النبي كذا . ليست صحيحة . مطلقاً ولا يجب العمل بها لمجرد هذا النقل . ومثل هذا وأبلغ منه في الخبط . للسنة أنهم لم يقبلوا الأخبار التى يعلتها البخارى في الصحيح بلا إسناد ، مع علمهم شروط البخارى وشدها وقوتها ، بل عندهم أنه لا يجب العمل بها حتى يعلم إسنادها وحاله . ومن ثم نجد شراح البخارى ، كالمستقلانى وسواء ، يتصدون لتطريح هذه الأحاديث المعلقة وتبيان حالها ، وقد يميلون حيناً إلى تصحيحها ، وهو الأكثر وأحياناً إلى القمح فيها وتضعيفها وهو الأقل . ولهذا كله احتياج المسلمون إلى الأسانيد والعناية بها وإثباتها ، وقد جعلوها من الدين . ولم يكتفوا بأن يقول العالم المحدث الثقة : صح عن النبي كذا وصح عن أصحابه كيت ، بل وجدوا أن هذا لا يجدى ولا يرب الحيلة المطلوبة والعلم المطلوب . فما ألف البخارى صحيحه بلا أسانيد ، ولا ألف مسلم صحيحه كذلك بلا أسانيد ، ولا أحمد مسنده مخدوف لماذا كتب الأسانيد ، ولا غيرهم من أعلام الرواة وعلماء الحديث . بل ذكروا جميعاً الأخبار والأحاديث بالأسانيد ليكون ان جاءوا بعدم من المسلمين الاختيار الصحيح التزيه ، والاجتهاد الفاحص ، والنظر المدقق ، والعلم الذى لا يحد إلا بحدود البشرية وحدود العقل : فيكون لكل من جاءوا بعدم - إذ استطاعوا واستوفوا

لماذا كتب
الحديث
بالأسانيد

الآلة - أن يصححوا وأن يضعفوا وأن ينقدوا وأن يقولوا : هذا صحيح وهذا ضعيف . وقد كشفوا - نضر الله وجوههم - أحوال الرواة وبينوا قواعد الرواية ودونوا ما يشتملون عليه من محبة وضعف ، ومن دين ومروق ، ومن قوة ووهن ليكون في كل ذلك النبراس اللامع الوهاج لمن راحوا يسرون ويدلجون في ليل الجهالات والضلالات والشكوك والآ كاذب المبثوثة في كل سبيل وعلى كل مرصد - متخطين ذلك كله إلى مناهل الحقيقة الواحدة ، وموارد الايمان والعرفان والصدق .. حتى خلفوها ببضاء واضحة الأعلام والمعالم ، لا يتيه فيها إلا قائمه هالك ولا يعمى عنها أو فيها إلا من استنحب العمى على الهدى ، وآثر الظلام على النور بعد أن باع هداه لهواه وعقله لجهله : هذا كله صحيح عند أهل الحديث الذين حفظ الله بهم العلم والسنة ، وأبان بهم كلام النبوة الصادقة من كلام البجالين والوضاعين .

ومن طالع مقدمة الامام مسلم في صحيحه رأى العجب العجيب من أقوال أئمة الحديث وشيوخ السنة في التعظيم لأمر الرواية والرواة وفي الخذر من الكذب والكذابين ، وفي الحملة الشديدة الصلبة القاسية على من طاروا فرحاً وسروراً بكل ما سمعوه من الأخبار زاعمين أنه من كلام النبوة ومن دين الله . وقد ذكر هذا الامام في مقدمة الصحيح بعنوان : « باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم » بسنده عن عامر بن عبدة قال قال عبد الله : إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب ، فيتفرقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما نعمة . وروى أيضاً بالسند الصحيح عن طاوس قال : جاء بشير بن كعب إلى ابن عباس فجعل يحدثه ، فقال له ابن عباس : عد لحديث كذا وكذا . فعاد له ، ثم حدثه فقال له : عد لحديث كذا وكذا فعاد له ، فقال له : ما أدري أعرفت حديثي

ما ذكره مسلم في
مقدمة صحيحه
من نقد الرواية
والرواة

كله وأنكرت هذا ؟ أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا ؟ فقال له ابن عباس : إنا كنا نحدث عن رسول الله إذ لم يكن يكذب عليه ، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه . وروى أيضا بالاسناد عن ابن عباس قال : إنا كنا نحفظ الحديث والحديث يحفظ عن رسول الله ، فلما إذ ركبتم كل صعب وذلول فبهتات . ثم روى عنه رواية أخرى جاء فيها : قال فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه ، فقال : يا ابن عباس مالي أراك لا تسمع لحديثي ؟ أحذرك عن رسول الله فلا تسمع . فقال ابن عباس : إنا كنا إذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بأذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم تأخذ من الناس إلا ما نعرف . وقد روى مسلم في فاتحة هذا الباب بالاسناد الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم . فإياكم وإياهم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم » . وقد ذكر في المقدمة قبل هذا الباب باباً آخر عنوانه : « باب النهي عن الحديث بكل ماسع » فروى فيه قوله ﷺ « كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع » . وروى فيه أيضاً أن عمر بن الخطاب قال : « يحبس المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع » . ورواه عن عبد الله . وروى فيه عن الامام مالك أنه قال : « اعلم أنه لا يسلم رجل حدث بكل ما سمع ، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع » . وروى عن عبد الرحمن بن مهدى مثله .

التحديث بكل ما سمع

ثم عقد مسلم في مقدمة الصحيح باباً آخر عنوانه : « باب في أن الاسناد من الدين » فروى فيه بالسند عن محمد بن سيرين قال : « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » . ثم روى عنه أيضاً أنه قال : « لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سمعوا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » . ثم روى عن ابن أبي الزناد

الاسناد من الدين

عن أبيه قال : أدركت بالمدينة مائة ، كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث ، يقال ليس من أهله . ثم روى عن مسعر قال سمعت سعد بن إبراهيم يقول لا يحدث عن رسول الله إلا الثقات . ثم روى عن عبد الله بن المبارك أنه قال : الاسناد من الدين ، ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء . ثم روى عن العباس بن رزمة قال سمعت عبد الله يقول : بيننا وبين القوم القوائم ، يعنى الاسناد . ثم روى عن أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال : قلت لعبد الله بن المبارك يا أبا عبد الرحمن : الحديث الذى جاء « إن من البر بعد البر أن تصلى لأبيك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك » ؟ قال فقال : يا أبا إسحاق عن هذا ؟ قلت له : عن شهاب بن خراش ، فقال ثقة ، عن ؟ قلت عن الحجاج بن دينار ، قال ثقة ، عن ؟ قلت قال رسول عليه السلام ، قال يا أبا إسحاق إن بين الحجاج بن دينار وبين رسول الله مفاوز تنقطع فيها أعناق المطى ، ولكن ليس فى الصدقة اختلاف .

ثم عقد باباً رابعاً عنوانه : « باب الكشف عن معاييب رواة الحديث ونقله الاخبار وقول الأئمة فى ذلك » ، وقد ذكر فيه من قواعد هذا الفن أشياء عجيبة ترى قارئها كيف كان أعلام الحديث ورجاله يحذرون من الروايات كل ما يمت إلى الضعف والوهن بسبب من أسبابه ولون من ألوانه وظل من خياله ، وكيف كانوا لا يقبلون منه إلا الصحة والقوة بالأسانيد المشرقة فى جو الحقائق والمقول إشراق الشمس فى جو الأجسام والمادة ، وكيف كانوا يهجون كل إسناد يكون عليه لون من ألوان الضباب أو سمّة من سمات السكورة والخفاء والظلام .. ولهذا كان علم الحديث من أشرف العلوم وأفضلها وأدقها وأقواها ، وكان رجاله هم الفواريق الفارقة بين الإسلام وماليس إسلاماً . وكانوا هم حفظة الشريعة المحمدية بلا نزاع ولا مكابرة . . . ولولا هذه الأسانيد وعلومها وفنونها لما بقى لنا من الإسلام سوى القرآن . وذلك لاختلاط أحاديث النبوة بأحاديث الكذبة . فله أهل الحديث .

الكشف عن
معاييب الرواة

ولله ما قدموه للإسلام والمسلمين من خدم ودين
بعد هذا كله نقول : إننا لا ندرى من يكون أبو جعفر هذا ، فجائز أن يكون
الخطمي ، وجائز أن يكون غيره ، وإذا كان غيره فجائز أن يكون ثقة وجائز أن
يكون ضعيفاً بل وتحت الضعيف .

من يكون هذا
الراوي إذا كان
غير الخطمي ثم
أبو جعفر
الرازي

﴿ من يجهل أن يكون أبو جعفر هذا إذا لم يكن الخطمي ﴾
الذين يكتنون بأبي جعفر ، يمكن أن يراد أحدهم في هذا الحديث كثيرون
فمنهم أبو جعفر : عيسى بن ماهان الرازي التميمي بالولاء . وهذا ثقة قوم وضعفه
آخرون . وقد قدسوا في حفظه وضبطه . وقال ابن حبان : إنه ينفرد عن المشاهير
بالنكا كبر ، فلا يجهل في الاحتجاج بحديثه إلا فيوافق الثقات . وقال ابن معين : يكتب
حديثه ولكنه يهمل . وقال أبو زرعة : شيخ بهم كثيراً . وقال أحمد بن حنبل :
ليس بالقوي في الحديث . وَهَنَ أمره النسائي . وقد وثقه أبو حاتم وابن المديني
والحاكم وآخرون . فهو إذن قائم بين التضعيف والتوثيق ، وبين القوة والضعف .
فقوم يقبلونه ، وقوم يردونه . وكأن الذين قالوا إنه ثقة أرادوا أنه ثقة لولا الوم والغلط
لأن الذين قدسوا فيه قدسوا من هذه الناحية نفسها . فكأنه صالح في نفسه ودينه
وحاله ولا عيب فيه سوى سوء حفظه وضعف ضبطه . وبهذا تتفق أقاويل القادحين
والمادحين . ويشهد لصديق هذا الجمع بين القدح والمدح أن ابن معين وثقه مرة ،
ومرة قال : يكتب حديثه ولكنه يخطئ . . . ومن كانت هذه حاله كان حديثه
من قسم الحسن ، لا يبلغ درجة الصحيح إلا عند المتساهلين جداً ، أو عند وفرة
الشواهد والمتابعات . ولكن لا شواهد هنا ولا متابعات . فحديثه هذا - إذا كان هو
إياه - لا يكون صحيحاً وإنما يكون حسناً باغماض أو ضعيفاً ضعفاً هيناً . ولكن
هل يمكن أن يكون أبو جعفر المذكور في الحديث هو هذا ؟ والجواب أنه يمكن
أن يكونه . ويقوى هذا الاحتمال والامكان أن شعبة بن الحجاج قد روى عن

أبي جعفر هذا كافي تهذيب التهذيب . وشعبة هو راوى هذا الحديث عن أبي جعفر الذى فنشد المعرفة فى أمره وفى اسمه وحقيقته . ولكن قد يؤمن هذا أنه وقع فى بعض روايات الحديث نسبة أبي جعفر هذا إلى المدينة ، فجاء فى سنن ابن ماجه : عن شعبة عن أبي جعفر المدنى عن حمارة بن خزيمة بن ثابت . وكذا جاء فى مسند الامام أحمد ، وكذا عند البيهقى وعند الحاكم فى المستدرک ، وعند الطبرائى فى المعجم . وهذا فى الظاهر يأتى احتمال أن يكون أبو جعفر هذا هو عيسى بن ماهان الرازى ، لأنه ليس مدنياً ، لأنه « مروى الأصل » سكن الرى . وقيل كان أصله من البصرة وكان متجراً إلى الرى فليسب إليها ، كذا فى تهذيب التهذيب . ولكن قد يدفع هذا الاعتراض بأن يقال : نحن إذا جوزنا الوهم على من زعموه الخطي فلا مانع من أن نجوزهم على من نسبوه إلى المدينة . والمسألة لا تعدو منطقة التجويز والاحتمال . والتوهم هنا لا بد منه : إما للذين زعموه الخطي المدنى ، وإما للذين زعموه غيره . فهذه لا معدى عنها كما ترى . فليس فى التزامها إذن شئ .

وهناك راو آخر يكتفى بأبا جعفر ، يحتمل أن يكون إياه . هذا الراوى هو عبد الله بن المسور بن عون بن جعفر ابن أبي طالب . أبو جعفر الهاشمى المدائنى كما فى الميزان للذهبي . وروى فيه عن معاوية بن صالح عن يحيى قال : أبو جعفر المدائنى هو عبد الله بن محمد بن مسور بن محمد بن جعفر . وأبو جعفر هذا ضعيف قال أحمد وغيره : أحاديثه موضوعة ، كذا فى الميزان . وقال النسائى والدارقطنى : متروك . وقال الامام مسلم فى مقدمة الصحيح فى فصل « الكشف عن معائب رواة الحديث » : حدثنا عثمان ابن أبي شيبة حدثنا جرير عن ربيعة أن أبا جعفر الهاشمى المدنى كان يضع أحاديث وليست من أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام وكان يروىها عن النبى .

ومم أبو جعفر
المدائنى الهاشمى
الوضاع

وإذا كان أبو جعفر هذا هو أبا جعفر الذي روى عنه شعبة الحديث كان الحديث ، ولا ريب ، حديثاً ضعيفاً بالمرّة ، لا يحمل الاحتجاج به ولا الاشتغال بمعناه . وقد يقوى هذا الاحتمال - احتمال أن يكون أبو جعفر الوارد في الحديث هو هذا - أن كليهما يقال له : أبو جعفر المدنى . فهذا مدنى كما جاء في صحيح مسلم ، والذي في الحديث أيضاً مدنى كما جاء في ابن ماجه وفي مسند أحمد وفي المستدرک وفي معجم الطبرانی . فالانفاق في الكنية والنسبة قد يقوى أن يكون هذا هذا . أما شهرة أبي جعفر هذا بالمداينى فراجعته إلى أنه كان نزول المداين . فلا خلاف بين المداينى والمدنى ، لأنه مدنى بالأصل ، مداينى بالاقامة والثواء .

وهناك راو آخر يقال له أبو جعفر الأنصارى المدنى المؤذن . قال في تهذيب ^{وهناك أبو جعفر آخر} التهذيب : « روى عن أبي هريرة ، وعنه يحيى ابن أبي كثير . قال الترمذى : لا يعرف اسمه . وقال غيره : هو محمد بن على بن الحسين ، قاله أبو بكر الباغندى عن أبي عاصم عن حجاج ابن أبي عثمان عن يحيى . قال أبو مسلم الكجى عن أبي عاصم عن حجاج عن يحيى عن محمد بن على . وقال عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى : أبو جعفر هذا رجل من الأنصار . وبهذا جزم ابن القطان ، وقال : إنه مجهول . وقال ابن حبان في صحيحه : هو محمد بن على بن الحسين ، وهذا ليس بمستقيم ، لأن محمد بن على لم يكن مؤذناً ، ولأن أبا جعفر هذا قد صرح بسماعه من أبي هريرة في عدة أحاديث . وأما محمد بن على بن الحسين فلم يدرك أبا هريرة . فتمين أنه غيره . » هذا كله كلام الحفاظ العقلاني في تهذيب التهذيب . قال في آخر الترجمة : « وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين هذا وبين الراوى عن أبي هريرة ، وأظن أنه هو . وعنه أبو داود في الصلاة عن يحيى ابن أبي كثير عن أبي جعفر - غير منسوب - عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة . وأظنه هذا » . وقال الحفاظ .

الذهبي في الميزان : « أبو جعفر الحنفى البجلي . عن أبي هريرة . وعنه عثمان ابن أبي طاسكة - مجهول » . وقال بعده : « أبو جعفر . عن أبي هريرة . أراه الذى قبله . روى عنه يحيى ابن أبي كثير وحده ، قليل الأنصارى المؤذن . له حديث النزول وحديث ثلاث دعوات . ويقال : مدنى فلهله محمد بن على بن الحسين وروايته عن أبي هريرة وعن أم سلمة فيها إرسال لم يلحقهما أصلاً » .

فان كان أبو جعفر هذا هو الذى روى عنه شعبة الحديث كان الحديث ، بلا ريب ، ضعيفاً . لكن قد يشك فى إدراك شعبة لأبى جعفر هذا وفى روايته عنه . وهذه الأقاويل والاحتمالات متروكة كلها رهن البحث والتحصيص ، لا يصل شئ منها إلى العلم والايقان .

هناك آخرون
يكونون هذه
الكنية

وبقى ثم رواة آخرون يكونون هذه الكنية ، منهم الثقات ، ومنهم الضعفاء ، ومن الجائز أن يكون أبو جعفر الذى فى الخبر أحدهم ، ومن الجائز أن يكون غير هؤلاء جميعاً ، وأن يكون رجلاً مجهولاً لا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه شعبة سواء ، ولم يرو عنه عن عمارة بن خزيمة بن ثابت غيره . وقد يفهم هذا من صنع الحافظ ابن حجر فى كتاب تهذيب التهذيب . وذلك أنه قال فى من يكونون بأبى جعفر : « أبو جعفر . عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعنه شعبة . قال الترمذى : ليس هو الخطمى » انتهى . وقد يشهد لهذا أيضاً قول الترمذى ، ذلك أنه قال : إنه غير الخطمى ولم يزد دلى هذا القول شيئاً ، فلم يسمه ولم يصفه ولم ينسبه : فسكانه ما كان يعرف من أمره شيئاً ، ولا كان يعرف اسمه ولا نسبته . وإنما صح حديثه اعتماداً على رواية شعبة عنه ، لأن شعبة عرف بالرواية عن الثقات دون الضعفاء ، وإن كان هذا ليس لازماً من أمر شعبة ، فقد روى عن غير الثقات . والترمذى معروف بالتساهل واللين فى التصحيح . فهذا منه معروف لا ينكر . وقد صحح حديث من أجمع دلى ضعفه ككثير بن عبد الله بن

عمر بن عوف المزني المدني : وقد صحح حديثه في الصلح بين المسلمين المشهور .
وقد نعى ذلك عليه جهابذة الفن وقالوا : إنه لا يقلد في التصحيح كغيره من
المساهلين .

وبعد هذا
فالحديث غير
صحيح

بعد هذا البيان كله يظهر لنا أن هذا الحديث — أعنى حديث الأعمى —
ليس من الأحاديث الصحاح ولا الحسنات ، وأنه لا يجوز لمن لا يرضى لنفسه ودينه
وعقيدته إلا الصحة والقوة واليقين أن يقدم على تصحيحه وعلى العمل به أو
إلزام الناس ذلك أو اتخاذه قاعدة من قواعد الاسلام وعقيدة من عقائده ،
وشرعية من وشرائعه . فان أبا جعفر المنفرد بهذا الحديث رجل مجهول ، لا يعرف اسمه
ولا تعرف حاله ، ولا يدري مكانه من الصحة والضعف على وجه الإيقان — فلا
يجوز أن يكون ما انفرد به صحيحاً ، بل ولا يكون حسناً ، بل يجب أن يقال :
إنه ضعيف مردود . والدين قوى متين ، لا يثبت به إلا قوى متين مثله ، أما
الضعيف أو المجهول فلا يشيد عليه المسلم عقيدة من عقائده ولا رأياً من آرائه
ولا أمراً من أموره . وقد نهى الاسلام : كتابه وسلته عن العمل بما لم يصح
ومالم يثبت ، وعن الايمان بما لا يعرف دليله ولا يدري ما هو . والشواهد على
هذا معلومة كثيرة .

وزيد الريب في
الحديث انفراد
هذا الراوى
المجهول به في كل
الطرق وانفراد
ابن حنيفة
باعتبار به

وَمَا يَزِيدُ الرِّيبَ فِي صِحَّةِ هَذَا الْحَدِيثِ وَيَحْمِلُ عَلَى الرَّدِّ لَهُ أَنْفَرَادُ أَبِي جَعْفَرٍ
بِهِ فِي جَمِيعِ طَرَفِهِ وَجَمِيعِ أَصَانِيدِهِ ، ثُمَّ أَنْفَرَادُ عُثْمَانَ بْنِ حَنْبَلٍ بِرَوَايَتِهِ عَنِ النَّبِيِّ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَقَدْ وَقَعَ كَمَا ذَكَرْنا فِيهِ بِمَحْضَرَةِ جَمْعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَعَرَفُوهُ
وَعَرَفُوا الْقِصَّةَ كَمَا هِيَ . . . فَانْفَرَادُ أَبِي جَعْفَرٍ هَذَا الْمَجْهُولُ بِرَوَايَتِهِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ
خَزِيمَةَ وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حَنْبَلٍ فِي جَمِيعِ طَرَفِ الْحَدِيثِ لَيْسَ مِمَّا
لَا يُضِيرُهُ ، وَلَيْسَ مِمَّا يَكْثُرُ مِثْلُهُ فِي حَدِيثِ كَذَا الْحَدِيثِ فِيهِ مَعْجَزَةٌ لِلْإِسْلَامِ ، وَفِيهِ
كَرَامَةٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَفِيهِ فَرَحٌ وَسُرُورٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَفِيهِ آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ،

وفيه ، بعد ، خروج على المعتاد المؤلف ... وهذا كله مما يفرى المؤمنين والمسلمين بروايته ونقله ، ويلهب الاحتشاد عليه والمنايا به والالتفات إليه . أما افراد عثمان بن حنيف بروايته عن النبي عليه السلام فالغربة فيه أكثر وأظهر . وذلك أن هذه المعجزة في الحديث قد وقعت ، على افتراض صحة الحديث أمام ، جمع كثير من المسلمين الذين يشوقهم أمثالها ، ويطيب لهم التحديث والتحدث بها وعنهما ، ويطيب لهم نشرها وإذاعتها على جميع الأملاء . فلماذا إذن لم ترو إلا عن عثمان بن حنيف ؟ ولماذا إذن لم يتحدث بها سواء هى مما يطيب التحديث بها ومما تلذ روايته وتطرب الأسماع لسماعه ، وهى مما يعظم به شأن النبوة وشأن الاسلام ، وتتكاثر به دلائل صدقه وآيات انتسابه إلى السماء ؟ من الجائز أن تكون هذه المعجزة وقعت أمام عثمان بن حنيف وحده - وإن كان يرد هذا الاحتمال قول عثمان في الرواية الأخرى الآتية : « فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط » - فان صرح هذا الاحتمال - وهو غير صحيح - قيل ولكن لا ريب أن مثل هذه الحادثة المعجزة ، والكرامة الظاهرة مما يجعل لسان ذلك الأعمى الذى شفى بدعوة نبي الله يلجج بذكرها والتحديث بها وروايتها على رؤوس الخاصة والعامة ، ونشرها في العالمين حتى يتكاثر الراوون لها ، المتحدثون بها ، ومما يجعل السنة عارفي ذلك الضرير والسنة أقريبه ولسان عثمان بن حنيف تلجج بها أيضاً وتكثر من روايتها . وتطلب في التحديث بها ، حتى تصبح ذات ذبوع وشهرة بين الأقربين

أخبار المعجزات
المادية تعدد
روايتها وروايتها
والأبعدين . وقد وجدنا أخبار المعجزات الصحيحة تتكاثر روايتها من الصحابة ومن بعدهم : فوجدنا أخبار انشقاق القمر وزيادة الطعام والشراب بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام ، ونبيع الماء من بين أصابعه ، وحنين الجذع الذى كان يحطب فوقه لما أن اتخذ منبره وتركه ، وأخبار الإسراء والمعراج ، وأخبار

تسبيح الحصى والطعام على مسامح المسلمين ، وأخبار غير ذلك من المعجزات الحمديّة المادية : وجدنا أخبار هذه المعجزات كلها قد تعدد روايتها عن النبي عليه الصلاة والسلام وكثرت طرقها ، وعلت أسانيدها ونزلت ، ورواها الجهم الغفير عن مثله - هكذا - إلى النهاية وإلى البداية وهذا لا بد منه في الأحداث الكبرى وفي الآيات الجليلة المشهودة بالآبصار . وهذا مثل واحد وهو نبع الماء من بين أصابعه الشريفة قد رواه الحافظ أبو نعيم في « دلائل النبوة » عن ثمانية من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام . وهذه رواية أبي نعيم وحده في كتاب دلائل النبوة وحده ، وقد روى هذه المعجزة غيرهم عن غير هؤلاء الثمانية . وروى معجزة ربو الطعام بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام عن اثني عشر رجلا من الصحابة في الدلائل أيضاً ، وهذه المعجزات تروى في غير دلائل أبي نعيم عن غير هؤلاء . مع أن هنالك فرقا بين هذه المعجزات وبين معجزة إِبصار الأعمى ، والفرق أن هذه المعجزات تلتهم وتنقضي في وقتها ، وليست كذلك معجزة الإِبصار ورد البصر . وهذا واضح جداً .

فانفراد عثمان بن حنيف برواية هذا الحديث عن النبي دون غيره من الصحابة ودون صاحب القصة نفسه الذي شفى بدعوة النبي عليه السلام ، ودون شاهده وعارفيه ودون غيرهم مما يفت - ولا شك - في عضد الحديث ويوهي سنده . وكذلك انفراد أبي جعفر المشكل المبهم بروايته عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف دون غيره من أقرانه ومعاصريه ، ودون الراويين عن عمارة وعن أبي أمامة . هذا كله مما يوهن سند الحديث أيضاً .

وهذا القسم من الحديث - أعني الحديث الذي يكون في أمر تحفز الدواعي

وتنهو إلى نقله وروايته ثم يجيء غريباً لا يرويه إلا الواحد - قد أبى قبوله
جماهير من أهل الفقه والحديث والمعقول والفلسفة والنظر . وقد عدوا انفراد
الراوى به من الحجج على ضعفه وبطلانه ، إذ لو كان حديثاً حقاً لما انفرد بروايته
الواحد عن مثله وهو أمر تطرب لسماعه الأسماع وتشرب إليه الأعناق ، ويطيب
التحديث به والانباء عنه . . . وهذا وجه وجيه في علم البحث والمعقول عندهم .
ونحن لا نقدم على موافقة هؤلاء الفائلين ، الذاهبين هذا المذهب ، ولكننا نحكيه
حكايه ، ونعتمد نحن في تضعيف الحديث على جهالة أبى جعفر المنفرد به عن
التابعى الراوى له عن الصحابى المشاهد للقصة بعينه .

﴿ إجمال علل الحديث ﴾

ماى الحديث من
العلل والقادح

وعلى حديث الأعمى تلخص فى ما يأتى :

أولاً - : جهالة أبى جعفر هذا المنفرد به عن عن عمارة بن خزيمة وعن
أبى أمامة بن سهل بن حنيف واختلاف الناس فيه ، إذ زعم فريق أنه الخطمى
وادعى فريق آخر أنه سواء بحيث لم يظهر لنا نحن القول الصحيح من
القولين والحق من الباطل ، حتى وجدنا التوقف والوقوف بين القولين هو المذهب
والمصير الصحيح .

ثانياً - : تفرد هذا الراوى المجهول المختلف فيه به دون غيره من أقرانه
وممن هم أكثر منه حديثاً وتحديثاً ، وأكثر اجتماعاً ولصوتاً بعمارة بن خزيمة وبأبى
أمامة بن سهل بن حنيف . وقد كان المظنون أن يرويه غيره وأن يكثروا روايته
إذا كان صحيحاً .

ثالثاً - انفراد عثمان بن حنيف به بحيث لم نحفظ أنه روى عن غيره من
الصحابة ، لا عن هم أكثر منه رواية ولا عن ذلك الأعمى الذى رد الله له بصره
يدعوه نبيه وشفاعته ، ولا عن أقارب الأعمى وعارفيه ، ممن عرفوا القصة

والمعجزة حقيقة . . . فهذا الانفراد بالحديث - مع أنه من أحاديث المعجزات المادية المخبرة عن حدث من الأحداث التي تكثر رواياتها ورواياتها والتحديث بها عادة - مما يزيد الشك ويهيج الريب في صحة الرواية ووقوعها . والتفرد وحده لا يقضى برد الحديث الصحيح عندنا، ولكن التفرد مع جهالة الراوى المتفرد به ومع ما تقدم من الكلام في الحديث يتألف منه شك يقف الطالب للحقيقة والمعرفة ، المتجرد من كل هوى وغرض غير تقي عنده حيران بين الرد والقبول . ولا مناص حينئذ من الرد والطرح ، لأن الدين لا يكفي في إثباته أمثال هذه الروايات المجهولة الغريبة .

شذوذ معنى الحديث

رابعا - : غرابة معنى هذا الحديث وشذوذه عن مألوف الاسلام وعما عرفه الخاص والعام من أصوله وفروعه ، وعما علم بالضرورة منه . فان سؤال الله بخلقه - كأن يقال : أسألك يا الله بفلان أو بفلانة ، أو أتوجه إليك بعبك فلان أو بنبيك فلان ونحو هذا - لم يعمد مثله في كتاب الله ولا في سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولا عن أحد من الأصحاب ولا عن غيرهم من البصراء بالشريعة وبدين الله الاسلام . . . وما نقل شيء من هذا النوع إلا ما جاء في الأخبار الباطلة الموضوعة كحديث سؤال آدم ربه بحق محمد ، وقد غير الكلام عليه ، وكحديث السؤال بحق السائلين وحق الممشى إلى الصلاة ، وهو حديث غير صحيح ومعناه إذا صح خلاف ما نحن بصدده . . . وسوف يمر بالقارىء الكلام عليه إن شاء الله . وكرروا بينهم : « إذا سألت الله فاسأله بجاهي ، فان جاهي عند الله عظيم » . وهذا لا أصل له . وكالرواية التي رواها عبد الملك بن هازون بن عنصرة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانت اليهود يخير تقاتل غطفان ، وكانت يهود تهزم ، فعاشت بهذا الداء : « اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه في آخر الزمان إلانصرتنا

الأخبار التي بها السؤال بحق المخلوق ضمنية او مكشوفة

عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدماء فهزموا غطفان . وهذه رواية باطلة لا تصح . وعبد الملك هذا ضعيف جدا . قال أحمد والدارقطني : ضعيف . وقال يحيى . كذاب . وقال أبو حاتم : متروك ، ذاهب الحديث . وقال ابن حبان : يضع الحديث . وقال السعدي : دجال كذاب . وقال صالح بن محمد : عامة حديثه كذب . وقال الحاكم : ذاهب الحديث جدا ، وقال في المنخل إلى علوم الحديث : روى عن أبيه أحاديث موضوعة . وذكره الساجي والعقيلي وابن الجارود وابن شاهين في الضعفاء . وقال أبو نعيم الحافظ : يروى عن أبيه مناكير ودين الله أجل من أن يحتاج له برواية مثل هذا . وأما أبوه هارون فضعه قوم وثقه قوم . فالروايات التي فيها السؤال بحق المخلوق كلها إما ضعيفة جدا أو موضوعة . ومثل هذه الروايات لا يحل أن يثبت بها حكم من أحكام المياه والوضوء والحيض والطهارة وأحكام المياه وتقسيمها إلى أقسام ، فضلا عن أن يثبت بها قاعدة من قواعد الاسلام وقواعد مناجاة الله وسؤاله والاتصال به أما الروايات المحترمة الصحيحة فلم يجيء في شيء منها شيء من هذا السؤال وهذا التوسل المبتدع .

فسؤال الله بالخلق والعباد وبحقهم وجاههم ونحوه لم يرد مثله ولا دليله في آية ولا في حديث صحيح ولا في كلام صاحب من أصحاب النبي ، ولا عن إمام من أئمة الدين المقتدى بهم . فما جاء في البخاري ولا في مسلم - أصبح كتب الاسلام بعد الكتاب - شيء من هذا النوع خلا حديث أنس بن مالك في الاستسقاء بالعباس . وهو ليس من هذا كما سوف يجيء القول فيه باذن الله . ولا جاء في خبر صحيح سليم من القدح والطنن والضعف والاختلاف -

وأبواب الدين : أصوله وفروعه كلها جاءت فيها الآيات والأخبار الصحيحة المتواترة التي لا يختلف المسلمون في صحتها وصحة نسبها إلى النبي عليه السلام .

أبواب الدين
كلها متفق على
أصلها بالجملة

إلا هذا الباب ، باب سؤال الله بالخلق وبجاءه وذاته وحرمة . فما جاء فيه حديث أجمع على صحته وثبوته عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أو سلم من النقد والضعف . ودين الله لا يثبت إلا بالنقل الصحيح ، والنقل الصحيح لا يكون سوى الكتاب وسوى السنة القوية السليمة من الضعف وأعراضه . وخلاف هذا لا تثبت به قاعدة من قواعد اللغة ولا قواعد النحو ، ولا مسألة من مسائل الحبض والطهارات فضلا عن أن يثبت به حكم من هذه الأحكام وشريعة من هذه الشرائع .

هذا الكتاب
وهذه السنة

هذا كتاب الله يتلى ، وهذه أدعية عباده الصالحين : الأنبياء والمرسلين فن دونهم من الأولياء والصلحاء والأتقياء وسائر صنوف المؤمنين ، وهذه أوامر الكتاب ، وهذا حضه الناس على الدعاء والسؤال — سؤال الله جميع الحاجات والآمال : هذا ذلك كله يقرأ في الكتاب ، فهل يوجد فيه حرف واحد يدل على جواز أن يسأل الله بالخلق أو أن تطلب الحاجات بحق مخلوق أو بجاء عبد من العباد ؟ لقد ذكر الكتاب من أساليب الأدعية وضروب المسائل — مسائل العباد المتقين ربهم — أفاضين وأموراً لا يقف عليها ولا يحيط بها إلا من عنى بالكتاب ودراسته و بطلب الهدى والعلم فيه . فهل يوجد في الكتاب أن أحداً من عباد الله سأل الله بنبي أو بولي أو بجاء مخلوق له الزلفى والقربى لدى ربه ؟ أو يوجد أمر من أوامر الكتاب بأن يفعل المؤمنون نوعاً من هذا ؟ يسير على كل مسلم أن يجيب على كل هذه الأسئلة سريعاً وبلا توقف ولا إهمال بالنفي والسلب . . . وكذلك السنة الثابتة الصحيحة ، قد حفظت ما حفظت من أدعية الأنبياء والأولياء والمؤمنين كلهم : الأولين والآخرين . ولكن لا توجد فيها رواية واحدة صحيحة سليمة من الضعف والقدح تدل على أن أحداً من هؤلاء العباد توسل إلى ربه بمخلوق أو بجاء مخلوق . ولا جاء عن أحد من صحابة

النبي وخيار المؤمنين بإسناد صحيح قويم أنه سأل ربه بجاه نبي أو بجاه ولي ، أو دعاء تعالى بمخلوق أو توسل بأحد من الخلق سوى ما في حديث الاستسقاء بالعباس الآتي ، وهو ليس من هذا الباب كما سوف يعلم حين الكلام عليه . فلماذا هذا وقد حوت السنة جوامع الدين أصوله وفروعه ؟ ترجع إلى صحيح البخاري وإلى صحيح مسلم - أصبح كتب الدين بعد القرآن بلا خلاف - فتجد فيها كل علم وكل فن من علوم الاسلام وفنونه : تجد فيها أحكام المياه وأحكام الوضوء وسائر أحكام الطهارات ، كما تجد أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج وأحكام البيع والشراء وسائر المعاملات - معاملات العبد لربه ، ومعاملات العبد للعبد ، وتجد فيها أحكام الموت والدفن والتكفين وما بعد الموت من القبر وعذابه وحسابه وسؤاله وشؤون الأرواح ، ثم تجد ما بعد القبر من نعيم الآخرة وعذابها وحسابها وعقابها أو جزائها وموازينها وكل ما هنالك من نعيم وعذاب أليم ، بل وتجد فيها أبواب الأخلاق وجوامع الآداب الاجتماعية الفاضلة المطلوبة من المسلم ، المفروضة عليه لإخوانه ولأقربيه وأبعديه من المسلمين وغير المسلمين : تجد فيها آداب اللقاء ، وآداب الفراق ، وآداب الجلوس ، وآداب القيام ، وآداب المراء مع أهله وفي بيته ، وآدابه مع أصدقائه وإخوانه ، وما يصح من ذلك ، وما لا يصح تجد كل ذلك في أخبار الصحيحين كما تجد الشيء الكثير منه في كتاب الله . ولكنك لا تجد فيهما ولا في الكتاب ولا في السنة الصحيحة البريئة من النقد والضعف والتجريح والاختلاف ما يدل على جواز سؤال الله بجاه المخلوق ولا التوسل إليه تعالى بالكرامات والحرمات والمقامات . فلماذا هذا يا صاحب ؟ أترى النبي عليه الصلاة والسلام لم يبينه ويبلغه مع أنه من الدين والرسالة المنزلة عليه ؟ أم ترى حفاظ السنة وأعضاء الملة شاءوا كتمان ذلك ونسيانه ، ورغبوا عن نقله وتدوينه ليختلف الناس وليضلوا وليطول اختلافهم ونزاعهم وجدالهم ؟ كل

تجد في الكتاب
والسنة كل علوم
الاسلام فلماذا
لا يوجد فيها
السؤال بالخلق

ذلك يا صاح لا يجوز عندنا ولا عند أحد من المؤمنين . فالرسول قد بين البيان كله ، وحفاظ السنة لم يألوا وسعا في التدوين والمحافظة على الدين ، والتمييز بين الصحيح والضعيف . إذن لماذا هذا أيها القارئ اللبيب ؟ الجواب عندنا أن هذا النوع من الدماء والسؤال لا حقيقة ولا وجود ولا معنى له في الاسلام . ومن هنا خلا الكتاب وخلت السنة الصحيحة منه ، وخلا البخاري وخلا مسلم من ذكره ومن أخباره ورواياته ، وخلا كلام السلف وأدعيتهم منه خلواً كمللاً تاماً خلا ما جاء في الأخبار المضعفة الملققة .

فسؤال الله بالخلق وبالأشخاص والنوات لم يثبت بدليل منفق عليه ولا بدليل سالم من الضعف والقبح : لم يثبت لافي الكتاب ولا في السنة الصحيحة . وأصول الاعتقادات وأصول اتصال الخلق بربهم لا بد أن تكون دلائلها ونصوصها قوية صحيحة ، والضعيف أو المقدوح فيه لا يقبل إلا في بعض المسائل الفرعية وفي تفصيل بعض ما كانت نصوص أصله ودلائله بالجملة ثابتة صحيحة سليمة من

الاختلاف الصحيح . وما من مسألة من مسائل الدين إلا ولا بد أن يكون أصلها بالجملة ثابتاً في الكتاب والسنة ، أو في الكتاب أو في السنة الصحيحة التي لا خلاف فيها ، أو في الإجماع الظاهر المعلوم . وكل مسألة لا تكون دلائل أصلها وأصل ثبوتها كذلك هي مسألة ليست من الدين ولا من الاسلام . وأنت إذا فليت أصول الاعتقادات ، بل وأصول الفروع وجدت نصوصها ثابتة بالجملة بين المسلمين ثبوتاً لا ريب فيه : فأصول الوضوء للصلاة والطهارة بالماء والتيمم عند فقدانه ثابتة نصوصها في الكتاب وفي السنة بلا خلاف بين المسلمين . ونصوص أصل الصلوات وأصل الزكوات وأصل الحج والصيام وأصل الدماء والاتصال بالله ، وأصل الركوع والسجود ، وأصل صلاة الاستسقاء وصلاة الجنائز وصلاة العيدين :- نصوص أصول هذه العبادات كلها ثابتة إما في الكتاب

وما من مسألة إلا
ولا بد أن يكون
أصلها ثابتاً بالجملة

والسنة والاجماع والضرورة والتواتر، وإما في بعض ذلك . وكذلك نصوص أصول
جميع العبادات وجميع شرائع الاسلام لا خلاف فيها ولا في صحتها ، وإنما الخلاف
في بعض تفاصيلها وفروعها .

أما هذه المسألة - مسألة سؤال الله بالخلق وبجاهاتهم وحرمتهم وذواتهم
وكراماتهم فهي مسألة لا أصل لها في الاسلام ، وما ورد أقوى من هذا الحديث
فيها ، وهو كما تقدم - محل مضعف ، ومختلف فيه إختلافاً مشهوراً قديماً . فأصل
المسألة ، إذن شاذ في الاسلام غير مألوف ولا معروف ، لم يأت فيه دليل صحيح
سليم من العيب والنقد . . . فالحديث إذن يثبت قاعدة في الاسلام شاذة شذوذاً
ظاهراً ، ويأتى بأمر جديد فيه لم يثبت بغيره ولم يعلم من سواء مما يقام له وزن
ويحسب له حساب . والخبر الذي يكون معناه شاذاً غريباً - لأنه يثبت عقيدة
من العقائد وقاعدة من القواعد لا أصل لها في غيره ولا برهان لها إلا به - يكون
خبراً مشكوكاً فيه وفي قبوله وفي الاطمئنان إليه . هذا إذا كان خبراً صحيحاً خالصاً
من المقادح العلمية الفنية ، فكيف إذا كان جم المقادح ، ظاهر العيوب العلمية
كهذا الحديث ؟

فالحديث إذن شاذ المعنى غريبه في الدين . ولكن ليعلم أنه لا يكون شاذاً
غريباً إلا إذا فهم فهم المخالفين له وزعم فيه زعمهم ، وقيل ، كما قالوا : إنه من
سؤال الله بالأشخاص والذوات والجاهات والحرمت والحقوق . فسؤال الله بهذه
الآشياء هو الشاذ الغريب في الاسلام وفي دين الله . وهذا هو ما يفهمونه من
الحديث ، فهو شاذ غريب إذا فهم فهمهم . أما عندنا نحن فليس بشاذ ولا غريب
إذا كان صحيحاً ، لأننا لا نفهم منه إلا أنه استشفاع بالنبي عليه الصلاة والسلام
وسؤال ببطائه وشفاعته ، وهذا ثابت عندنا لا ريب فيه ولا نزاع . وسوف نبينه في
ما بعد . . . فالحديث إذا فهم فهم المخالفين وأول تأويلهم كان شاذاً ، وكان غريباً

وكان مثبتاً لأصل من أصول الأعمال والاعتقادات لم يعلم من غيره ولم ينبت في سواه . وهذا يوجب الشك فيه والوحشة منه . لأن أصول الأعمال والعبادات والمقائد لا تثبت ، كما تقدم ، بأمثال ذلك من الأخبار ، ولا تعلم بالأحاديث الغريبة الشاذة . فالشذوذ قدح فيه لا ريب ، والغرابة إيها في بتيانه بلا شك ، فهو ضعيف مردود لما ذكرناه .

وقد عهدنا من السلف الصالح الشك في الروايات المفردة الغريبة الصحيحة والسلف الروايات الغريبة الشاذة:
 - بله الضعيفة الواهية مثل هذا الخبر - إذا ماجأت في إثبات أمر يحسبونه غير ^{ثقة} وان كان راويها ثابت في الاسلام وغير معلوم بدلائل أخرى قوية . فقد جاء أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يقبل رواية عمار في التيمم لمن لم يجد الماء . وصح أن عائشة لم تقبل رواية عمر وعبد الله بن عمر في أن الميت يعذب ببكاء أهله ويبكاء الحى عليه . وقد قالت لما أن قيل لها إن عمر وابن عمر رويَا ذلك عن النبي عليه السلام: إنكم لتحدثون عن غير كذا بين ولا مكذابين ، ولكن السمع يخطئ . وصح أيضاً أن ابن عباس لم يقبل هذه الرواية حينما أبلغ إنكار عائشة لها حتى قال عبد الله ابن أبي مليكة - راوى هذا الحديث : والله ما قال ابن عمر من شيء . أى ما قال شيئاً حين أنكر ابن عباس الرواية قائلاً : إن عائشة قد أنكرتها على عمر قائلة : يرحم الله عمر ! والله ما قال رسول الله : « إن المؤمن يعذب ببكاء أحد عليه » . ولكن قال : « إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه » . وقالت في رواية أخرى منكراً رواية ابن عمر : يرحم الله أبا عبد الرحمن - تعنى ابن عمر - سمع شيئاً فلم يحفظه . إنما مرت على رسول الله جنازة يهودى وهم يبكون عليه فقال : « أنتم تبكون وإنه ليعذب » . وصح عنها أيضاً . أنها أنكرت رواية عمر وابنه عبد الله في أن النبي عليه الصلاة والسلام وقف على قتلى بدر من المشركين - وقد رموا في بئر هنالك - وأخذ يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم . فلما قيل له في ذلك قال

« إنهم يسمعون ولكن لا يجيبون » ، وقالت : إن ابن عمروهم ، وإنما قال النبي عليه السلام : « إنهم ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » وقرأت « إنك لا تسمع الموتى » وقوله : « وما أنت بسمع من في القبور » ، وصح أن عمر رضى الله عنه لم يقبل رواية فاطمة بنت قيس في أن المطلقة ثلاثا لانفقة لها ولا سكنى ، وقال لما حدث حديث فاطمة : لا نترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى حفظت أم نسيت . لها السكنى والنفقة . قال الله تعالى : « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » . وصح أيضا أن عائشة أنكرت هذه الرواية على فاطمة بنت قيس وقالت : لا خير لها في ذكر ذلك . وجاء في الصحيح أن مروان لما حدث بقول فاطمة هذا قال : لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة . وسأخذ بالمصمة التي وجدنا الناس عليها ، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان : بيني وبينكم القرآن وتلت قول الله : « لا تخرجوهن من بيوتهن » الآية ، وقالت . هذا لمن كانت له مراجعة ، وأى أمر يحدث بعد الثلاثة ؟ وفي الصحيح أن الأسود بن يزيد حصب الشعبي لما أن حدث بحديث فاطمة هذا وقال : ويلك ! تحدث بمثل هذا ؟ وذكر قول عمر : لا نترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة . وصح أيضا أن عمر لم يقبل رواية أبي موسى الأشعري عن النبي عليه السلام في أن المستأذن يستأذن ثلاثا فان أذن له وإلا رجع . وقد قال لأبي موسى لما أن حدثه الحديث : لا وجع ظهرك وبطنك أو تأتي بمن يشهد لك على هذا . فشهد له أبو سعيد الخدري وأبي بن كعب ، وقال أبي : سمعت رسول الله يقول ذلك يا ابن الخطاب ، فلا تكونن عذاباً على أصحاب رسول الله . قال عمر : سبحان الله ! إنما سمعت شيئاً فأحببت أن أثبت . . . وهذه الأخبار كلها في الصحيح . ولها أشباه وأظاير عن السلف كثيرة معلومة مشهورة . وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام مثل ذلك في حديث سهوه في الصلاة ، فانه عليه .

اتوا من ذلك
وورد مثله من
رسول الله وعن
خطابه

السلام لما أن سها وسلم عن ركعتين من أربع قال له ذو اليمين - من الصحابة -
أنسيت يا رسول الله أم قصرت الصلاة ؟ فقال : « كل ذلك لم يكن » . فقال
الرجل : قد كان بعض ذلك يا رسول الله ، فأقبل رسول الله على الناس فقال :
« أصدق ذو اليمين ؟ » فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأتم ما نقص من الصلاة .

وقال الحافظ الذهبي في أول كتابه « تذكرة الحفاظ » من ترجمة أبي بكر
الصدّيق : « وكان أول من احتاط في قبول الأخبار ، فروى ابن شهاب عن قبيصة
ابن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتبس أن تورث . فقال : ما أجدر لك في
كتاب الله شيئاً ، وما علمت أن رسول الله ذكر لك شيئاً . ثم سأل الناس فقام
المغيرة بن شعبة فقال سمعت رسول الله يعطيها السدس ، فقال له : هل معك أحد ؟
فشهد له محمد بن مسلمة بمثل ذلك ، فأنفذه لها أبو بكر » . قلت : وهذا الخبر
رواه الخمسة إلا النسائي وصححه الترمذي . ثم قال الحافظ الذهبي في التذكرة من
ترجمة الفاروق : وهو الذي سن للمحدثين التثبت في النقل ، وربما كان يتوقف في
خبر الواحد إذا ارتاب . وهنا ذكر عنه حديث الاستئذان المتقدم : وقال بعده :
ففي هذا دليل على أن الخبر إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجح مما انفرد به واحد .
وفي ذلك حصن على تكثير طرق الحديث لكي يرتقى عن درجة الفتن إلى درجة
العلم إذ الواحد يجوز عليه النسيان والوهم ، ولا يكاد ذلك يجوز على ثقتين لم
يخالفهما أحد . وقد كان عمر من وجله أن يخطئ صاحب على رسول الله يأمرهم
أن يقلوا الرواية عن نبيهم ، ولئلا يتشاغل الناس بالأحاديث عن حفظ القرآن
قال : وقد استشارهم عمر في إملاء المرأة - يعني السقط - فقال المغيرة بن شعبة
قضى فيه رسول الله بغرة . فقال عمر : إن كنت صادقاً فنجى بأحد يعلم ذلك فشهد
له محمد بن مسلمة . قلت هذا الخبر متفق عليه .

ثم قال الحافظ الذهبي في ترجمة علي ابن أبي طالب : وكان إماماً متحريراً في

أنواع من ذلك
ما نقله الذهبي

الآخذ بحيث إنه يستحلف من يحدّثه بالحديث . قال عثمان بن المغيرة . . . إنه سمع علياً يقول : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله به ما شاء الله أن ينفعني ، وكان إذا حدّثني غيره استحلفته فإذا حلف صدقته . وحدّثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال سمعت رسول الله يقول : « ما من عبد مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ويكتمين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » . واسناده حسن .

والروايات في هذا المعنى عن السلف : الصحابة فمن بعدهم كثيرة مشهورة معلومة . فقد كان معهوداً عندهم ومنهم أن يردوا خبر الواحد الشاذ المعنى المخالف لما علموه أو ظنّوه من الاسلام ، ولما ظنّوه مبيناً للسبيل الواضحة والمهيب البين والجدادة المسلوكة . . وإن كان الراوى ثقة ثباتاً ، بل وإن كانوا هم لا يشكون في صدقه وأمانته ودينه . ولكنهم أحياناً يردون قول الثقة المتفرد بالرواية الشاذة المعنى في ما يحسبون غلوهم من الغلط والنسيان ، لأن الفرد الواحد يسهل نسيانه ويخشى غلظه وإن كان كل الثقة . ولهذا يقول عمر في إياه قول فاطمة بنت قيس في حكم المطلقة المبتوتة : لا نترك كتاب الله وسنة نبيينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت . ويقول في رده على أبي موسى الأشعري روايته في أن الاستئذان ثلاث مرات : إني سمعت شيئاً فأحببت أن أثبت . وتقول أم المؤمنين عائشة في ردها رواية عمر وابنه عبد الله في تعذيب الميت ببكاء الحى عليه : إنكم لتحدثون عن غير كذابين ولا مكذابين ، ولكن السمع يخطئ . فانفراد الراوى الواحد بالرواية الواحدة المفيدة في الدين أمراً جديداً وحكماً خاصاً لا يوجد في غيرها يريب ذلك الافراد في صحتها وصدقها ويحمل على التوقف في قبولها وتصديقها والايان بها . لأن الافراد دائماً قريب من النسيان والغلط . ومن ثم كانت أحكام الاسلام كلها معروفة إما بالقرآن والاجماع والسنة ، وإما بالسنة المتواترة والاجماع أيضاً ، وإما بالروايات العديدة المتكاثرة . وعبادة من العبادات لا يصح

الواحد يقرب
لنسيانه

اشترائط التعدد
في الشهادة وفي
الشهود

قبولها أبداً إذا ما جاءت من طريق واحدة غريبة ، بل لا بد لها من النص الذي لا شك فيه . وأمثال هذه الروايات الغريبة لا تقبل إلا في التفصيلات وأشباهاها . أما في أصل العبادة التي لم يعلم أصلها فلا تقبل ولا تثبت الأحكام الإسلامية بها . وإذا كانت الشهادات لا يجزى فيها الواحد المنفرد المتفرد بها فيقول الله في الشهادة على الأموال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » ، ويقول في الأشهاد على الطلاق والمراجعة ، أو على أحدهما : « وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله » ، ويقول غير ذلك في أمر الشهادة وأمر الشهود - إذا كان الله يشرط في الشهادة أن تكون شهادة أكثر من واحد لئلا يقع غلط أو خطأ أو نسيان فكيف يقبل مثل هذا الخبر الضعيف المختلف فيه المنفرد بروايته أو لا يعرف من هو ولا من يكون ، ولا يدري مكانه من الصحة والضعف والضبط والغلط في إثبات عبادة من العبادات وأصل شريعة من الشرائع التي لا يعلم أصلها ولا أنها شرعت إلا منه وبه ؟ وإذا كان الله يشترط في شهود المال والطلاق والمراجعة العدالة والرضا بهم ، والعدالة لا تعرف في المجهول : المختلف فيه وفي اسمه ، فكيف تقبل رواية هذا الراوى المجهول المنفرد بروايته في إثبات حكم من أحكام الإسلام وشريعة من شرائع الله لا تعلم إلا به ومن طريقه . ولا يحسب حاسب أننا لا نقبل خبر الواحد الثقة ، وأنتا ننكره ونرده مطلقا كلا ، وإنما نقول : إن شرائع الإسلام وأحكام الدين لم تبين على الروايات المفردة الغريبة كهذه الرواية ، ولم تعلم من طريق الواحد المضعف أو المختلف فيه . فإن أحكام الدين كلها معلومة بالنصوص المتواترة التي لا يختلف فيها بالجملة ، ولا يتنازع المسلمون في أصلها . وما من حكم من أحكام الله إلا وقد علمت نصوصه الأولية الأصلية باليتين . فنصوص تحريم الربا معلومة بالتواتر في القرآن وفي السنة ،

نصوص الد
كله متواتر

ونصوص تحريم الزنا والفواحش كلها معلومة بالتواتر في الكتاب وفي السنة .
ونصوص تحريم العدوان وتحريم الدماء والأموال والأعراض معلومة بالتواتر في
الكتاب وفي السنة . ونصوص تحريم دعاء الأموات والاستغاثة بهم معلومة بالتواتر
في الكتاب والسنة . ونصوص تحريم البناء على القبور والمكوف عليها وجميع
هاتيك الباطلات المخزيات معلومة بالتواتر في السنة . ونصوص تحريم الذبح والنذر
وتقريب القرابين للأشياخ والصالحين والحج إلى قبورهم معلومة التواتر في الكتاب
وفي السنة . ونصوص تحريم متعة النساء التي تقول بها الشيعة والتي تجعلها من الفروق .
الظاهرة بينهم وبين أهل الباطل والضلال معلومة بالتواتر في الكتاب وفي السنة .
ونصوص تحريم الحلف بنسب الله والإقسام بالخلق معلومة بالتواتر ، ونصوص
العقوبات ، عقوبات الفواحش كالزنا والسرقة والقتل وغيرها معلومة بالتواتر في
الكتاب وفي السنة . ونصوص فرائض الاسلام كلها معلومة بالتواتر في الكتاب
وفي السنة . أما خبر الواحد الثقة فجاء في فروع ذلك وتفصيلاته .

فمن زعم أن مثل هذا الخبر الغريب المجهول تثبت به شريعة من شرائع
الاسلام وعقيدة من عقائده ، فقد جهل وجنى على الاسلام والدين ، وذهب إلى
الباطل والاثم .

ثم بعد هذا يقال : ألا يستحي هذا الرافضي من الله ومن خلقه أن يصحح
هذا الحديث وأن يزكي رواته وهو يضعف أحاديث البخاري ومسلم والأحاديث .
المتواترة في تحريم البناء على القبور والصلاة إليها وفيها ، وتحريم عقد القباب
عليها كما فعل صفحة ٣٦٦ وما بعدها من هذا الكتاب ؟ بل ألا يستحي من الله
ومن خلقه أن يزكي هذا الراوي المجهول ويصحح حديثه وهو في الصفحة المذكورة
وما بعدها يضعف حفاظ الدنيا وسلاطين المحدثين : فيقدح في وكيع بن الجراح .
وفي سفيان الثوري وفي أبي وائل الأسدي : شقيق بن سلمة الكوفي . وقد قال .

الاستحي هذا
الرافضي

ابن عبد البر: أجمعوا على أنه ثقة . ومن البلاء أنه ضعف شقيقا هذا وقدم
 على حمله ودينه لأنه كان فيما زعم عثمانياً ، ويعنى بهذا أنه كان يقدم عثمان ويفضله
 على علي ابن أبي طالب . ويحتج على أنه كان عثمانياً بما روى أنه قيل له : أيهما
 أحب إليك : علي أم عثمان ؟ فقال : كان علي أحب إليّ ثم صار عثمان . قال
 الرافضى : وهذا يؤيد انحرافه عن علي . ومن المضحك المبكى قوله فيه : « ولم
 يختلف فى أنه (يعنى شقيقا هذا) خرج مع الخوارج ، وأنه عاد إلى علي منيباً
 مقلماً » . فإذا كان يزعم أنه خرج على علي وعلى قتاله بالاجماع - والخروج عليه
 كفر عندهم لا خلاف فيه - ثم تاب ورجع إلى مولاة علي بالاجماع أيضاً ، فلماذا
 لا يقبل حديثه ؟ ولماذا لا يتاب عليه ؟ إن الله ليقبل توبة المشرك والملاح إذا
 تابا حقاً ، فكيف لا يقبل توبة من خرج على الامام علي ثم تاب وأتاب لو صدق
 ما زعم ؟ ولكن الجواب أن القوم لا عقول لهم فى عداء سلف هذه الأمة وفى
 بغضاء أهل السنة والجماعة . ثم إذا كانت رواية العثماني عند الشيعة مردودة باطلة
 وضعيفة واهية فليعلموا أن عامة هذه الأحاديث والأخبار التى ينقلونها فى كتبهم
 هذا عن كتب أهل السنة والجماعة والحديث ليست إلا روايات عثمانيين بكرين
 عربيين ، بل عامة هذه الكتب التى ينقلون عنها ويحتجون بها فى زعمهم لم
 تكتبها إلا أيدي من يمنحون عثمان وأبا بكر وعمر أشد ولائهم وحبهم وإخلاصهم
 ومن يعطون هؤلاء وغيرهم من أصحاب النبى عليه السلام أفضل ما فى قلوبهم من
 معائى الموالاتة والود الصادق . بل مؤلفو هذه الكتب ورجال أسانيدها يكرهون
 من لا يوالون الخلفاء الثلاثة الراشدين أشد الكراهة وأصدقها وأعقها . وكثيرون
 منهم لا يميزون لأنفسهم التحديث والرواية عن يكرهونهم ولا يوالونهم ، وإن
 حدثوا عنهم ضعفوا أحاديثهم وقابلوها بالتحفظ والحذر والامتنان .
 فإذا كان أبواؤنا هذا ضعيف الحديث مردوده ، لأنه كان عثمانياً ، فلماذا

قدح الرافضى ل
 سلاطين المحدثين

يقبل الرافضى أحيانا أحاديث البخارى ومسلم وأحاديث أهل السنة جميعاً؟ ولماذا يحاول الاحتجاج بها وانتزاع البراهين منها وهم كلهم عثمانيون : يوالون عثمان رضى الله عنه ، ويوالون سابقيه : الصديق والفاروق ، ويوالون جميع الاصحاب ؟ الحق إذن أن الشيعة هم مأساة الاسلام الاعتقادية الكبرى ، وهم بلاؤه العظيم الذى لم يفتأ منذ تلك العصور ينهك قواه ويهد فى بيانه المشمخر الرفيع... والله حسيبهم ، المجازى لهم ما يستحقون وما يضررون ويكيّدون .

وقد قدح أيضاً الرافضى (صفحة ٣٦٨) فى حديث أبى الهياج الأسدى الآمر بتسوية القبور المشرقة وبطمس التماثيل . قال فى قدحه بعد طعنه فى الرواة : « وأولاً إنه شاذ تفرد به أبو الهياج الأسدى » . هذا لفظه . فيقال أولاً : هذا كذب ، لم ينفرد أبو الهياج الأسدى بهذا الحديث ، بل معناه متواتر فى الصحاح ، متفق عليه بين المسلمين . وفى صحيح مسلم قال الراوى : كنا مع فضالة بن عبيد فى أرض الروم فتوفى صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوى ، ثم قال : سمعت رسول الله يأمر بتسويتها . ونصوص هدم القبور المرتفعة المشرقة ، وتحريم بنائها ، ونصوص تحريم التماثيل والصور متواترة . فاقوله : إن أبا الهياج انفرد بهذا الحديث ، ثم يقال ثانياً : إذا كان انفرد أبى الهياج الأسدى قاضياً برد الحديث فليعلم أن حديث الأعمى قد انفرد به عثمان بن حنيف من الصحابة ثم انفرد به أبو جعفر الراوى له عن خزيمة بن ثابت وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف وهو مجهول كما تقدم . . . فهذا الحديث إذن أولى بالتكذيب والتضعيف والرد من حديث أبى الهياج الأسدى من جهات كثيرة . ويكفى تفريقاً بينهما أن حديث أبى الهياج فى الصحيح ، وأما حديث الأعمى فليس فى الصحيح ، وأن حديث أبى الهياج معروف الرواة ثقاتهم واضحهم ، وأن حديث الأعمى فيه أبو جعفر وهو لا يعرف ، وأن حديث أبى الهياج جاء معناه فى أحاديث أخرى

تضعيف الرافضى
لحديث الأمر
بتسوية القبور
والوان من
تناقضه وعدوانه
على المحدثين

متواترة وجاء لفظه نصاً في حديث فضالة بن عبيد المتقدم في الصحيح. وأما حديث الأعمى فما جاء معناه ولا لفظه إلا في أحاديث باطلة موضوعة... فما أجل الفرق بين الحديثين ١ وما أخلق حديث الأعمى بالرد والتكذيب إذا صح له أن يرد حديث أبي الهياج وأن يضعفه لانفراده به ؟ هذا كله حق يضيق عن النزاع والخلاف . ولكن لا تقر به إلا أعين المؤمنين .

وأيضاً قد قدح الرافضى صفحة ٣٧٤ في حفص بن غياث وفي ابن جريج وفي أبي الزبير وفي عبد الرزاق الصنعاني، وهم كلهم من رجال الصحيح. وقدح أيضاً في عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ونقل مقادح الناس فيه . وهذا من المضحك ١ لأن عبد الرحمن هذا الذي ضعفه ورد حديثه لضعفه في تحريم البناء على القبور ، هو عبد الرحمن الذي روى حديث سؤال آدم ربه بحق محمد ﷺ وقد انفرد به . فكيف كان هناك ثقة وهنا ضعيفاً ؟ وكيف كان حديثه في التوبيل والسؤال بمحمد صحيحاً وحديثه في تحريم البناء على القبور باطلاً ضعيفاً لولا الهوى وقلة الانصاف ؟ ونعوذ بالله من الهوى . والمعجب أن أغلب ما يكتبه الشيعة لا يمدو هذا النوع المضحك المبكى .

أجل نقول : ألا يستحي من يؤمن بالله وباليوم الآخر من أن يضعف هؤلاء الحفاظ ويلج في إكذاب أحاديثهم ورواياتهم ، ثم يروح يوثق أبا جعفر هذا ويلج في تصحيح حديثه الشاذ الغريب ؟

على أن الشيعة الامامية لا يقبلون أحاديث أهل السنة ولو رواها كلهم من عهد أبي بكر الصديق إلى قيام الساعة . ولهذا لا يقبلون أخبارهم المتواترة في إيمان أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وأم حبيبة وعمر بن العاص ومعاوية وغيرهم من الأصحاب الذين بينهم وبين الشيعة ما بينهم وبين أعداء الإسلام وخصوم المسلمين اللد . وإذا كانت أخبار أهل السنة المتواترة كذباً وباطلاً عند

الرافضى وقومه فلماذا كان حديث أبى جعفر هذا حديثاً مقبولاً لديهم ؟
 فالكلمة الأخيرة الفاصلة فى حديث الأعمى هذا أنه حديث ضعيف
 باطل ، لا يحل الاحتجاج به . أما تصحيح من صححوه فليس بحجة وفى سنده
 ومعناه ما ذكرناه من النقد والقدح . والذين صححوه كلهم من المتساهلين فى
 التصحيح والنقد أمثال الترمذى والحاكم ولا سيما فيما يتعلق بأبواب المعجزات
 والفضائل . أما الحاكم فلا يعتد بتصحيحه فى المستدرك لأنه قد صحح الأحاديث
 التى أجمع أهل الحديث على أنها موضوعة مكنوبة ، ووثق من الرواة من اتفق
 على كذبه أو جهالته أو ضعفه حتى صار معلوماً لأهل هذا الفن بأنه من الذين
 لا يحسب لقولهم فى هذا الباب حساب . وأما الترمذى فتساهل أيضاً جداً
 حتى إنه صحح أحاديث من أجمع على ضعفهم وضعف حديثهم . وجامعه ملائ
 بالأحاديث الضعيفة التى زعمها حسنة أو صحيحة . وقريب منهما البيهقى وابن حبان
 وابن خزيمة وجماعات أخرى معروفة فى طوائف أهل الحديث . وما صحح حديث
 الأعمى من عرف بالصلابة والشدة إزاء الضعيف والرخيص من الحديث . ولأمر
 ما أعرض صاحبى الصحيحين البخارى ومسلم عنه وعن روايته فى كتابيهما .
 ولا ندعى أن كل ما لم يخرجاه ضعيف باطل . وإنما ندعى أن إعراضهما عنه
 - وهو فى هذا المعنى الشائق للمسلم - لا بد أن يكون لأمر ما ، وعله وجداهما
 فيه . ولولا ذلك لبادرا إلى إخراجهم ، ولوجدنا فيه ما يشوقهما إليه وإلى
 روايته ، ولا سيما أنه لا يوجد فى كتابيهما حديث واحد فى معناه .
 ولعل الذين صححوه اعتمدوا فى تصحيحهم له على رواية شعبة بن الحجاج
 له عن أبى جعفر المختلف فيه . وذلك أن شعبة قد عهد منه كثيراً اجتناب الضعفاء
 واجتناب حديثهم والرواية عنهم . ولكن هذا ليس بلازم ، فقد روى شعبة عن
 قوم ضعفاء . ولعلمهم أيضاً صححوه حاسبين أن أبى جعفر الرواى هو الخطمى لأن

الخطي عندم ثقة ، ولم يعلموا أنه سواء كما علم الترمذى وكما ذكر . فكان التصحيح قائم على هذا الهم الذى خطأه الترمذى وفطن إليه فرده . وملشاً هذا الظن الوام اتفاق الكفى .

﴿ تحقيق معنى الحديث إن كان صحيحاً ﴾

أما الكلام على الحديث من جهة المعنى - على افتراض كونه صحيحاً - فيقال : استدلال المخالفين به من ناحيتين : ناحية سؤال الله بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وناحية سؤال النبي نفسه وهو غائب عن السائل . الناحية الأولى دليلها قوله فيه « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك » محمد بنى الرحمة . . . إني . توجهت بك إلى ربى . . . » . ودليل الناحية الثانية قوله فيه : « يا محمد » الحديث . ففيه جواز سؤال الله والتوجه إليه بفضلاء خلقه من أنبيائه وأوليائه ، وجواز دعاء الصالحين وندائهم فى غيبتهم . . . هذا بيان شبهة القوم فى الحديث ووجه احتجاجهم به . والجواب أن نقول : إن الحديث - على افتراض صحته - دليل واضح جلى على بطلان ما ذهب إليه المخالفون ، ورد عليهم بين ، وهو من البراهين الظاهرة الواضحة على بطلان هذين الزعمين وفساد السؤالين .

وبيان ذلك أن هذا الرجل الأعمى عند ما فكر فى الرغبة إلى الله ليرد له بصره ، وفى النبي ليدعوله الله ويشفع عنده من أجله لم يفعل مثل ما يفعلون ومثل ما يزعمون أنه يجوز فعله والركون إليه من دعوة الرسول عليه السلام أين كانوا ، ومن سؤاله الشفاء وضروب الحاجات والمطالب التى يطلبونها اليوم منه ومن الأموات فى كل مكان ومن كل مكان ، ولم يسأل الله قبل أن يأتى النبي عليه السلام و يطلب منه الشفاعة فيجيبه بحقه ولا بحق أحد غيره من خلقه : لم يفعل الأعمى شيئاً من هذا فى غيبة الرسول ولا فى حضرته حتى أتاه وطلب منه الدعاء

فأجابه إلى ما طلب وأمره أن يدعو الدعاء المذكور . ولو كان الأمر كما يزعمون
 ويذكرون لما احتاج إلى أن يذهب إليه عليه السلام ، ولما احتاج إلى استثنائه
 ورجائه ، بل كان يقول بملء فيه ، أين كان وأين وجد ، كما يقولون وكما يفعلون :
 يا رسول الله أشغنى وردى بصرى وطافى ، كما يفعل دعاة الأموات والتقبور من .
 كل مكان اليوم ، وقبل اليوم . وكان يقول ، أين وجد وأين كان : يا الله أسألك .
 بحق محمد صلى الله عليه وسلم وبجأه وحرمة وكرامته ومكانته لديك كما يفعل .
 المتوسلون المبتدعون . ولما كان في غنية عن أن يذهب إلى الرسول وأن يطلب
 منه الدعاء والشفاعة . فإتيان هذا الأعمى النبي عليه السلام قبل أن يطلب منه
 الدعاء دليل على أنه لا يصح طلب الدعاء منه في غيبته . . . وهؤلاء المخالفون .
 يدعون الموتى من كل مكان وهم غائبون عنهم ، غائبون عند الله كما تقدم .
 والأموات كلهم غائبون . وطلبه الدعاء منه وقوله : ادع الله أن يردى بصرى .
 دليل على أنه لا يصح سؤال النبي ذلك ولا سؤال غيره مثله ، فلا يصح أن يقول
 قائل : يا رسول الله رد بصرى ، أو عافى ، أو اهد قلبي ، أو اغفر ذنبي على وجه
 ما من الوجوه المجازية أو الحقيقية . والمخالفون يزعمون أن هذا كله يجوز ، فيجوز
 عندهم أن ينادى المسلم وأن يقول : يا رسول الله اهد قلبي واغفر ذنبي ورد بصرى .
 واشف مريضى ونحوه من المطالب العالية . . . وإقصاره عن أن يقول قبل أن
 يستأذن النبي عليه الصلاة والسلام : أسألك يا رب بمحمد أو بحقه أو بجأه أو
 بكرامته ، أو اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة - دليل على .
 أن هذا النوع من الدعاء لا يصح وإلا لو كان صحيحاً جائزاً لقاله قبل إتيانه
 إياه عليه الصلاة والسلام . . . وقوله عليه السلام : « وإن شئت صبرت وهو خير
 لك : . . » دليل أيضاً على أن السؤال بالجاء والذات ليس من الدين ، لأنه لو
 كان من الدين ، وكان الأعمى يريد من النبي أن يأذن له فيه لما قال له : « وإن .

شئت صبرت وهو خير لك ، لأن ترك دعاء الله ليس من الخير ، ولأن الدعاء دين ، والدين لا يمكن أن يكون الخير في تركه . فلا يمكن أن يرغب في ترك دعاء الله بأن يقال للداعي : اصبر وهو خير لك ، أى اصبر عن دعاء الله وعن التقرب إليه بما يقرب لديه . . فان هذا ليس خيراً ، بل هو شر كله . والخير في دعاء الله وفي التقرب إليه وفي ابتغاء الوسيلة الصحيحة لديه .

هؤلاء الأمور كلها ترد على المخالفين ما ينهبون إليه . والحديث إن كان صحيحاً هو في جانب المنكرين لهذه الخرافات والترهات . . وليس في جانب أصحابها ، الذائمين عنها منه شيء كما سوف يظهر جلياً واضحاً إن شاء الله وحده . فنحن إذا قلنا لهؤلاء القوم المخالفين المخاصمين في هذه الأمور الإسلامية

أربعة أمور يدل
كلها على أن
الحديث رد على
المخالفين

الأولية : إذا كان دعاء الرسول ، وكان دعاء الأنبياء والصالحين ، وكان دعاء الخلق جائزاً في الإسلام إما على سبيل الحقيقة أو على سبيل المجازي ما لا يمكن حقيقته ، وكان جائزاً أن يقول المسلم : يا رسول الله اشفني ورد لي بصري ووافني واهد قلبي فلماذا لم يقل الأعمى ذلك قبل أن ينهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام ولماذا احتاج إلى أن يأتيه وأن يطلب منه أن يدعو الله له . : إذا نحن قلنا لهم هذا لم يستطيعوا أن يحيروا جواباً صحيحاً . . . ثم لو قلنا لهم ثانياً : إذا كان دعاء الرسول ودعاء الأنبياء والصالحين كلهم جائزاً في حضرتهم ، ومغيبيهم ، وفي حياتهم وبعد مماتهم - كما يفعلون وتذكرون وتزعمون - فلماذا لم يدع ذلك الأعمى النبي عليه السلام في مغيبه وبعد ، بل رأى أنه لا بد من إتيائه وطلب ذلك منه حضوراً : لو قلنا لهم هذا لم يجدوا ما يجيبون به . . . ثم لو قلنا لهم ثالثاً : إذا كان سؤال الله بحق النبي وبجأه وكرامته وحرمة وقبره ونحوه من الإسلام والدين فلماذا لم يسأل الأعمى ربه بشيء من ذلك قبل أن يأتي النبي وقبل أن يطلب منه الدعاء ؟ لو قلنا لهم هذا القول لما غفرنا منهم بجواب صحيح :

ثم لوقلنا لهم رابعاً : إذا كان التوسل بجاه المخلوق والتوجه به وبكرامته وبركته وفضله من الدين والخير ومما يقرب إلى الله ومما يأمر به القرآن في قوله : « . . . وابتغوا إليه الوسيلة » فلماذا قال النبي عليه السلام للأعمى : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » ؟ وهل يأمر النبي بالصبر عن الدين وعن الرغبة إلى الله وعن التقرب إلى رضاه بصالح الأعمال ؟ لوقلنا لهم هذا المقال ما استطاع أحد منهم أن يجد له جواباً مقنعاً صحيحاً . . . فالحديث إذن نقض لمذهبهم ، والحديث إذن عليهم لا لهم .

الجواب من قوله « واتوجه إليك »
أما الألفاظ التي استدلووا بها منه على أمرهم وعلى ما يأتون فالجواب عنها :
أما قوله : « واتوجه إليك بلبيك » « وتوجهت بك إلى ربي » فالتوجه هنا يراد به التوجه بدعاء الرسول عليه الصلاة والسلام لا بذاته ولا بشخصه ولا بشبه ذلك . والدليل عليه ما قلناه . ومن الدليل عليه أيضاً أن أصل المسألة كان في الدعاء وفي طلبه من النبي ، ولم يكن أصلها في سؤال الله بجاهه أو بذاته أو بمرمته أو ببركته حتى يصح ما زعم المخالف . ومن الدليل أيضاً عليه قوله في خاتمة الحديث : « اللهم شفعه في » . فالأمر إذن أمر شفاعة . ومن الدليل عليه أيضاً أنه لو كان سؤالاً بالذات والجاه والحرمة والبركة وهذه الشئون لما احتاج إلى أن يستأمر النبي عليه السلام كما أن هؤلاء يدعون ويسألون بجاه النبي وبجاه غيره من الأنبياء والأولياء من غير استئذان واستئذان ، لأن الجاهات والبركات والحرمت وهذه المعاني ثابتة سواء أاستؤمر صاحبها أم لم يستأمر . ومن الدليل أيضاً عليه قوله : « وإن شئت دعوت » . وقد شاء بلا خلاف ولا شك ، فقد دعا إذن بلا خلاف ولا شك ، لأنه قد علق الدعاء بالشيئة ، والمشية قد وقعت فالدعاء كذلك قد وقع . ومن الدليل أيضاً قوله : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » . ولو كانت المسألة مسألة دعاء بالذات وتوسل بالأشخاص والحرمت والجاهات

— وهذا كله عند المخالفين من القربات والطاعات — لما اختار له النبي عليه الصلاة والسلام الصبر والترك ، لأن هذا عند القوم من أفضل الوسائل المأمور بابتغائها إلى الله . وهذا لا يمكن أن يشار على المسلم بتركه والصبر عنه يقنًا . فالسؤال والتوجه هنا بالدعاء والشفاعة بلا شك ، وهو مثل حديث الاستسقاء بالعباس ومثل قول الفاروق : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . وهم كانوا يتوسلون بدعاء النبي وشفاعته لا بذاته وشخصه ، وهذا ظاهر في الشرع وفي اللسان . فإذا قال المخالف : إن الذي زعمتموه عدول عن ظاهر الخبر وعن ظاهر نصه ، وهو لا يجوز الذهاب إليه إلا بدليل ملمجى ، ولا دليل معكم على هذا العدول ، قلنا : إن من الكذب القول بأن ما ذهب إليه المخالفون هو ظاهر الخبر وما يفهمه منه السامع عند فقدان القرائن . ومن ذا يفهم من قول القائل : وصلت إلى الرئيس أو إلى الملك أو السلطان بوزيره أو بقريبه فلان أو فلان أن المعنى فيه الوصول إليه بشخص ذلك الوزير أو ذات ذلك القريب لا بدعائه وشفاعته ! ومن ذا يفهم من قول القائل : إنما نبلغ حاجتنا وننال حقوقنا وما نصبو إليه بأيدينا وسواعدا وأنفسنا أن المعنى بلوغ ذلك بالذوات المجردة وبالأشخاص وبالأحجم والدم والعظام ؟ ومن ذا يفهم من قول القائل : بالحديد والنار ينال المسلمون حقوقهم واستقلالهم ، ويردون عليهم كراماتهم المفقودة لا بالأنين والبكاء ، ولا بالتضرع والتوسل المهين الدليل على مقاعد جنيث تحت أقدام تلك الآلهة الخرساء الصماء عن دعاء الخير وصوت الحق الزنان إلا أن المراد استخدام الحديد والنار في تحطيم أولئك الظالمين وتحريقهم حتى يرق إحساسهم وتلين عواطفهم الصوانية ؟ ومن ذا يفهم من قول القائل : سعد المسلمون بالقرآن وعزوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونصروا بعمر و خالد وحمة وعمر و بن العاص إلا أن المعنى أنهم نالوا ذلك بأعمال هؤلاء وإيمانهم وشجاعتهم وتدبيرهم

الدلائل من كلام
المرب على أن
الحديث ليس
كما يزعم القوم

لا بأشخاصهم ولا بمجاهاتهم وذواتهم ؟ كل هذا الذى ذكرناه وقدمناه المعنى فيه ظاهر جلى لا نزاع فيه ولا خلاف . وكلام النبى ينهب به حيث تذهب اللغة العربية .

قوله عليه السلام فى تعليمه الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك » وقوله : « توجهت بك » معناه التوجه والسؤال بالعمل لا بالذات . والعمل هنا هو الدعاء والشفاعة بلا ريب وقريب من هذا قول النبى عليه السلام فى الحديث الصحيح : « دخلت النار امرأة فى هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » . ولا يمكن أن يراد أنها دخلت النار بحسم الهرة وذاتها ، بل المعنى أنها دخلتها بعملها الذى قنلتها به . والأمر واضح جلى اعتراف . جوابه . فان قال المخالف : إن قولكم هذا يقضى بأن يكون فى الحديث كلمة محذوفة وهى كلمة الدعاء والشفاعة التى ترعون أن التوجه والسؤال بها لا بالذات ، فيقدر فى قوله : « وأتوجه إليك بنبيك » « بدعاء نبيك » وفى قوله : « توجهت بك » « توجهت بدعائك » ، وهذان تقدير وادعاء فى الحديث لادليل عليهما ، ولا ملجئ إليهما : إذا قال المخالف هذا القيل قلنا له : إن التقدير فى الحديث واجب على قولنا وقولكم وعلى كل قول . فأنت تقول : إن التقدير : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بذات نبيك وبحرمته وبكرامته عليك ومكاته لديك » ونحو ذلك من المحذوفات . ولادليل فى الحديث على واحد منها . أما نحن فنقدر الدعاء فقط ، والدعاء مذكور فيه ، مدلول عليه بأول الخبر وآخره ، فكان تقديره سائغاً بل واجباً ، بل هو فى حكم المذكور المنصوص عليه . فالعلم به لا يحتاج إلى تفكير ولا إلى دلالة ولا إلى شئ غير الفهم والانصاف . بل هذا هو ما يفهمه ويعرفه جميع سامعى الحديث وقارئيه من غير الخاضعين للأهواء الجائرة وللجدال والعناد . وهذا التقدير على كل حال واقتراض أقل مما يقدره المخالف الزاعم أن

التوجه والسؤال بالذات والجاء والحرمة والكرامة والمظنة والحب والرضا والبركة إلى آخر هذه المقدرات الكثيرة التي لا دليل على شيء منها . . . فلا مفر إذن مما ذكرناه . . . وإنا نتحدى المخالفين ونطلب إليهم جميعاً أن يرونا وأن يذكروا لنا كلمة واحدة في الشرع أو في اللسان جاء استعمال الحديث وكان التفسير لها هو ما ذكرنا . فان جاءوا بشيء من ذلك قلنا : صدقوا وإلا فلا هروب لهم من اقتحام الحقيقة والرضا بالأمر الواقع والحق الذي لا غصاضة على قابله .

على أن في الحديث شيئاً يدل دلالة قاطعة على ما نذهب إليه وعلى فساد ما يذهبون إليه : هذا الشيء هو قوله عليه الصلاة والسلام : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » . فانه لو كان مافي الحديث سؤالاً بالذات والكرامة والحرمة والجاء ، وكان السؤال بهذه الأمور من التوسل إليه تعالى ومن ابتغاء الوسيلة المذكورة في الكتاب العزيز - والمخالفون يزعمون هذا كله - لما أمكن أن يشير النبي على الأعمى بالصبر والترك . فان الصبر عن التوسل والتقرب إلى الله بما يقرب منه حقيقة لا يمكن أن يختاره النبي عليه السلام لأحد من عباد الله ، ولا يمكن أن يرغب فيه مسلماً ولا كافراً ، لأن الخلق جميعاً مطالبون أبدأً بالتقرب إلى الله وابتغاء الوسائل المقربة لديه كلها . وترك هذا التوسل لا يمكن أن يكون خيراً ولا أن يكون فيه خير ، بل هو شر كله . والمخالفون اليوم وقبل اليوم يزعمون أن التوسل إلى الله وسؤاله بالنبي وبالأولياء والصالحين : الأحياء منهم والأموات ، من أفضل الطاعات وأشرف العبادات . وعندهم أن العبد يزداد أجره وثوابه ويعظم فضله بحسب ما يفعل من ذلك وعلى قدر ما يدعو الله به ويرغب فيه . بل لعل طوائف من هؤلاء الضلال الخيرون يحسبون أن دعاء الله بغير هذه الوسيلة لا يقبل وأن دعاءه بها مقبول على كل حال كما ذكر هذا الرافضي في القصيدة التي وضعها في آخر كتابه هذا أن دعاء الله عند القبور مقبول وأن دعاءه تعالى بعيداً

على أن في الحديث
شيئاً يدل على
ما نذهب إليه
دلالة قاطعة

عنها غير مقبول ! فن قوله في تلك القصيدة النكراء المشنومة :
 لا بدع أن كان الدعاء إليه في * ها صاعداً وبغيرها لم يصعد
 وهذا القول عند جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومحلهم من أقوال
 الردة والكفر الواضح . ونعوذ بالله من الخذلان . وقبل هذا البيت :

من كلو الشيعة
 في القبور

وكذا الصلاة لدى القبور تبركا * بنوى القبور فليس بالصنع الردى
 إن الأئمة من سلالة هاشم * ثقل النبي وقنوة للمقتدى
 قالوا : الصلاة لدى محل قبورنا * في الفضل تمل مثلها في المسجد
 عنهم روته لنا الثقات فبالهدى * عنهم إذا شئت الهداية فاقصد
 شرف المكان بنى المكان محقق * وأخو الحجا في ذاك لم يتردد
 خير عبادة ربنا في مثله * من غيره ، فإليه فاعمد واقصد
 وكذلككم طلب الحوائج عندها * من ربنا أرجى لنيل المقصد
 بركاتها ترجى لداع ، إنها * بركات شخص في الضريح موصد
 لا بدع إن كان الدعاء إليه « البيت »

والقصيدة أغلبها من هذا النوع الفاحش المناقض لدين الإسلام ولنفيه من
 أديان الله . ومن خذلان الله المشايخ لهذا الشيعي الذائد عن عبدة الأجداث
 والأحجار والأشجار والتماثيل أنه قال بعد هذا الاطراء والترغيب في العبادة لدى
 القبور وإليها وفيها :

تتألف لامثال له

والنهي جاء عن الصلاة إلى القبو * ركا رواه أحمد في المسند
 لكنه إن صح غير المدعى * وكذلك منه حرمة لم تقصد
 لكنما منه الكراهة قد بدت * للفهم في النظر الصحيح الجيد
 فهو بعد أن امتدح العبادات في القبور وعندها وإليها ، وبعد أن ذكر أن
 الأئمة من سلالة هاشم قد قالوا : إن الصلاة عند قبورنا أفضل من الصلاة في

المساجد كلها ، وإن الدعاء عندها أقرب إلى الإجابة والقبول ، وإن الدعاء فيها لا بد أن يصعد إلى الله ، وإن الدعاء في غيرها من المساجد وغيرها لا يصعد : بعد أن ذكر هذا كله يقول : إن الصلاة إلى القبور مكروهة وأى خذلان من الله العظيم يعدل هذا الخذلان ؟

فقول النبي عليه الصلاة والسلام للاعلى : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » يدل دلالة لا ريب فيها على أن المعنى فيه خلاف ما يذهبون . فإن هذا القيل من النبي ترغيب ، ولا شك ، لذلك الطالب الدعاء منه في أن يترك هذا النوع من التوسل والتوجه . فإن كان مافى الحديث سؤالا بالذات الذى تأباه نحن ویرضاه المخالفون كان الحديث دليلا ظاهرا على أن الأحسن الأفضل للمسلم ألا يتوسل هذا التوسل ، وألا يتوجه إلى ربه وحاجته هذا التوجه . ولكن المخالفين لنا لا يسلّمون هذا ، بل هم يزعمون أن التوسل بنوات الأنبياء والصالحين والأولياء المقربين وبجرماتهم وكراماتهم وجاهاتهم من الخير المرغّب فيه ومن الدين ومن الوسيلة التى أمر القرآن بابتغائها إلى الله . والله لا يأمر بما الأحسن تركه ، ولا بما الأفضل الرغبة عنه بلا خلاف . فالحديث إذن عليهم لالحسم . وقد قدمنا فى الفصول السابقة أن سؤال الله بالذوات والأشخاص ، وأن التوسل إليه بالحرّمات والجاهات والكرامات من الأمور الفاسدة الباطلة عقلا وشرعا ونظرا وقياسا وحرفاً ووجداناً ، وأنه من الهذيان الذى أحدثه من لا يعرفون اللسان ولا فنون القول ولا مذاهب العقليات والشرعيات . هذا جواب قوله : « وأتوجه إليك بنبيك » وقوله : « إني توجهت بك إلى ربي » .

الجواب عن قوله
« يا محمد »

وأما الجواب عن قوله : « يا محمد » وقول المخالف : إن هذا دعاء له وهو غائب ، وإنه يدل على جواز دعاء الغائبين ، وإنه إذا جاز دعاء الغائبين جاز دعاء الأموات فيقال فى الجواب : لا يوجد فى الروايات التى ذكرها المخالف لفظ واحد

يدل على أن الأعمى دعا هذا الدعاء وهو عنه عليه الصلاة والسلام غائب . فإن الذى فى الخبر أن النبى أمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويصلى ركعتين ويدعو بالدعاء المذكور . وفى إحدى الروايات أنه أمره أن يأتى الميضأة فيتوضأ فيصلى فيدعو . وفيه فى غير رواية الترمذى وابن ماجه والنسائى قول عثمان بن حنيف « فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط » . وهذا كله لا يدل منه شئ دلالة قاطعة على أنه دعاء غائباً . وبهذا يستقط الاحتجاج مرة واحدة . ويدل على أنه لم يدعه غائباً ، وعلى أنه لا يصح أن يدعوه كذلك أن الأعمى حينما أراد منه أن يدعوله جاءه . ولم يطلب منه أن يدعوله وهو عنه غائب ، بل احتاج إلى أن يذهب إليه وإلى مكانه وأن يقول له : يا رسول الله ادع الله أن يعافينى . وهذا لأن المسلمين جميعاً ، بل الخلق كافة ، مفلطرون على أن دعوة الغائب غير ممكنة وغير جائزة . ومن ثم لم يكن المسلمون يخاطبون النبى ولا يطلبون منه دعاء ولا شيئاً من الأشياء وهم عنه غائبون ، لأنهم كانوا يعلمون أنه بشر مثلهم لا يسمع إلا القريب كما لا يرى إلا القريب - خلا المعجزات التى أيد الله بها دعوته ورسالته . وإلا فهو بشر مثلهم كما نطق الكتاب . ولا يختلف المسلمون أن الرسول عليه الصلاة والسلام - بله من دونه - لم يكن يدعى ويخاطب إلا حاضراً مشهوداً مرئياً ، ولا يختلفون فى أن من دعاه من كل مكان - زاعماً أنه يسمعه ويعلمه - فقد ضل وجهل وأبعد فى ضلاله وجهله . وكل هذا من ضرورات الإسلام وقواطع الملة . فالحديث نفسه لا يدل على أنه دعا الدعاء المذكور فى مغيب النبى .

ثم إذا فرض أنه دعا الدعاء المذكور غائباً عن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن دالاً على شئ مما يذهب إليه المخالف . وذلك أنه فى هذا الدعاء لم يطلب منه عليه السلام أمراً ولم يسأله شيئاً لادعاء ولا حاجة . فانه قد طلب منه أن

حل دعا الأعمى
الدعاء المذكور
غائباً عن النبى
وإذا كان ذلك
أجوابه

يدعوه بالشفاء والعافية ورد البصر وهو منه قريب حاضر، فقبل النبي عليه السلام أن يدعو وأمره أن يدعو بالدعاء المذكور المتفق عليه . وقوله فيه : « يا محمد إني توجهت بك إلى ربي » لا يريد به أن يسمع منه ، ولا يطلب منه شيئاً غير ما طلبه منه وهو عنده حاضر . والدليل عليه أن النبي هو الذي لقنه وعلمه ذلك الدعاء ، ولا يمكن أن يقول له اطلب مني أن أدعوك لأدعو . فان هذا لا معنى له . فلا يراد إذن بقوله : « يا محمد » إسماعه عليه الصلاة والسلام ولا سؤاله أمراً جديداً ، لأن المطلوب منه هو الدعاء لرد البصر وقد قبل منه أن يدعو له بذلك ووعد به . والخطاب هنا في قوله : « يا محمد » مثل الخطاب في قول المشاهد في الصلاة : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ومثل الخطاب في قول زائر القبور : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » الحديث ، ومثل الخطاب في أمثال ذلك . فانه لا يراد بشئ من هذا الخطاب إسماع الخطيب ولا دعاؤه حقيقة . فان المسلمين يقولون في تشهد ذلك القيل أين كانوا وأين وجدوا . ومن المستحيل أن يريدوا بخطابهم النبي إسماعه وإعلامه ، ومن المحال أن يظنوا أنه يسمع ذلك منهم . وكذلك من المحال أن تقف في طرف المقبرة الطويلة المريضة فتقول ، جهرًا أو همسًا : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » فيسمعوك أو يعلموك .

ومن الدليل على أنه لا يراد بهذا الخطاب والنداء الإسماع والطلب الحقيقي أنه في خطاب الله قال : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك » بأسلوب المضارع المستقبل وأسلوب الحال . وفي خطاب النبي قال : « يا محمد إني توجهت بك إلى ربي » بأسلوب الغابر الماضي . وهذا لأنه قد توجه به حقًا وطلب منه الدعاء ليشفيه الله وليرد له بصره . أما في خطاب الله فكان الخطاب خطاباً حقيقياً فأورده بصيغة المستقبل التي أريد به نيل رجاء مستقبل ، وهو الشفاء والاجابة

وأما في خطاب النبي عليه الصلاة والسلام فكان الخطاب ماضياً لأنه أريد به شيء قد فرغ منه وقضى وهو الدعاء وقد دعا له .

ومن الدليل على هذا أنه في خطاب النبي لم يطلب منه شيئاً ، لا دعاء ولا شفاعاً ولا غير ذلك . فإنا قلنا : ادع الله لي ، أو إني أسألك أن تدعو الله لي رد بمرى ولا شيئاً من هذا النوع ، وإنما قال : « إني توجهت بك إلى ربي » . ويراد بهذا التوجه طلب الدعاء منه ، وقد طلبه ذلك قبل أن يأمره بهذا الدعاء فأجابه إلى طلبه . فقله هنا : « يا محمد إني توجهت بك إلى ربي » معناه إني توجهت بدعائك وشفاعتك إلى الله ليشفيني وإنما قال : « يا محمد إني توجهت بك » إحضاراً للبعيد ، وإقامة للغائب مقام الحاضر ليدل على مكانة الصلة بين الداعي والمدعو ، وعلى قوتها وشدتها ، وليلد على استحضاره في الذهن والقلب والنفس . والقصد ، حتى كأنه حاضر في الشاهد وللعين الباصرة . وكثيراً ما يقيم الغائب مقام الحاضر لأجل هذا المعنى . والضمائر ينوب بعضها عن بعض كثيراً . وقد يدعو المحب حبيبته دعوة الحاضر السامع الشاهد وهو غائب أو ميت ، ويخاطبه خطاب القريب الرائي المرئي وهو في غيابات الخفاء والاضمار والبعد والعدم . وقد يرئى الميت ويدعى بضد الحضور ، مع أنه لا حضور ولا شيء من ذلك ، وإنما هو الحضور الذهني التصوري ، وإنما هو أيضاً تقريب البعيد لكثرة الرغبة في قربهِ ولشدتها ، والدلالة أيضاً على هذه الرغبة القوية . وقد يشند التصور الذهني ويقوى حتى يغلب سلطانه سلطان الحس وسلطان العين ، فيريها ما لم تره ، ويسمع الأذن أيضاً ما لم تسمعه . والخيال قد يؤلف وجوداً لا وجود له ، ويهب هذا الوجود « الخيالي » أحكام الموجود الحقيقي . هذه فنون من الخيال والكلام . معروفة مطروقة . وهذه اللفظة في الحديث ، لفظة « يا محمد » و « توجهت بك » . لاتعدو أمر هذا المذهب المعروف المطروق .

﴿ التشبيه السابعة شعر سواد وأشعار أخرى ﴾

جواب الشبهة
السابعة وبيان
ضعف قصة سواد
ابن قارب التي فيها
الاستشفاع
بالرسول

أما ما ذكره من الأشعار في هذا الباب فالجواب : أما ما ذكر عن سواد ابن قارب من قوله :

وإنك أدنى المرسلين وسيلة * إلى الله يا ابن الأكرمين الأطلاب

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعه * بمن فتيلا عن سواد بن قارب

فمن هذا جوابان : أحدهما أن قصة سواد بن قارب التي فيها هذا الشعر غير صحيحة الأسناد ، وقد ضعفها الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (الجزء الثامن صفحة ٢٥٠) وقال : رواها الطبراني بإسنادين كلاهما ضعيف .

وقال الحافظ ابن كثير في التاريخ في آخر الجزء الثاني : قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامي حدثنا علي بن منصور الأنباري عن عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي قال : بينما عمر بن الخطاب جالس ذات يوم إذ مر به رجل فقيل له : يا أمير المؤمنين أنعرف هذا المار ؟ قال : ومن هذا ؟ قالوا : هذا سواد بن قارب . . . وذكر القصة وفيها هذا الشعر . قال ابن كثير بعد ذكر القصة بتمامها : وهذا منقطع من هذا الوجه . ويشير ابن كثير إلى أن محمد بن كعب القرظي لم يدرك ولم يسمع عمر بن الخطاب فتكون روايته عنه منقطعة . ورواه الحافظ أبو نعيم أيضاً في « دلائل النبوة » من هذا الوجه من حديث عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي . وهذا ضعيف جداً وإمراً للغاية . وعثمان بن عبد الرحمن الوقاصي هذا متفق على ضعفه ووهاء أمره . قال ابن معين : لا يكتب حديثه ، كان يكتب . وقال ابن المديني : ضعيف جداً . وقال الجوزجاني : ساقط . وقال يعقوب بن سفيان : لا يكتب حديثه أهل العلم . وقال البخاري : تركوه . وقال أبو حاتم : متروك الحديث ، ذاهب . وقال أبو داود : ليس بشيء . وقال الترمذي : ليس بالقوي .

وقال النسائي : متروك . وقال الساجي : يحدث بأحاديث بواطيل . وقال ابن البرقي : غير ثقة . وقال البزار : لين الحديث . وقال أبو أحمد الحاكم : متروك الحديث . وقال ابن حبان : كان يروى عن الثقات الموضوعات ، لا يجوز الاحتجاج به . وقال ابن عدى : عامة أحاديثه مناكير إما إسناداً وإما متناً .

فهذه القصة التي فيها هذا الشعر واهية الاسناد جداً لا يجوز الاحتجاج بها ولا الالتفات إليها . ولا يحمل هؤلاء المخالفين أن يحتجوا بأحاديث بمجرد روايتها في بعض كتب الحديث التي تروى الصحيح والضعيف والموضوع المكذوب الباطل حتى يعلوا أنها صحيحة ثابتة عن النبي عليه السلام . وقوم يستحلون القدح فيما رواه البخاري ومسلم وما رواه غيرهما من نقدة الأخبار وجباينة المحدثين كيف يستجيزون لأنفسهم ودينهم أن يحتجوا بمثل هذه الرواية . وإذا كان هذا الرافضي المصنف يقدح في سفيان الثوري وفي وكيع بن الجراح وفي غيرهما من مالوك المحدثين وأمرائهم فكيف يستحل لنفسه ولدينه الاحتجاج بمثل هذا الخبر ؟ بل هذا الرافضي لا يقبل ما يرويه أمثال أحمد بن حنبل ومالك بن أنس والشافعي ، بل ولا ما يرويه أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان بن عفان فأتى يطيب له أن يتخذ من أمثال هذه القصة حكماً شرعياً يصول به ويجول ؟ بل هذا الرجل وطائفته الرافضة الامامية الاثنا عشرية لا يبالون بالقرآن ولا بنصوصه ، وهم يخطئون من يتمسكون به من المسلمين ويضللونهم ، ويحملون عليهم حملات ظالمة آسمة . وقد قال أحد شيوخهم ، وهو الشيخ مرتضى الأنصاري التستري في كتابه المطبوع المسى « فرائد الأصول » قولاً نصه : « إن المنهى في تلك الأخبار (يشير إلى أخبار ذكرها توعد من حاول فهم كتاب الله من غير طريقهم) المخالفون الذين يستفنون بكتاب الله عن أهل البيت النبوي . بل ويخطئونهم به (يعني بالقرآن) . ومن المعلوم ضرورة من منهبنا تقديم نص

ههنا للشبهة لمن
يعملون بكتاب الله
وزعمهم أن قول
الامام مقدم على
الكتاب والسنة
بالضرورة

الامام على ظاهر القرآن ، كما أن المعلوم ضرورة من مذهبهم (يعنى أهل السنة والحديث) العكس . ويرشد إلى هذا ما تقدم من رد الامام على أبى حنيفة حيث يعمل بكتاب الله . ومن المعلوم أنه إنما كان يعمل بظاهره لأنه كان يؤوله بالرأى إذ لا عبرة بالرأى عندهم مع الكتاب والسنة . . . » انتهى بحروقة من صفحة ٣٢

فاذا كان هؤلاء الشيعة الحيرى يهجون أهل السنة والحديث ويقعون فيهم ويستحلون ثلبهم وتلب أعراضهم ، ويستحلون إفساقهم وإكفارهم ، ويكفرون أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد لأنهم يستغنون بكتاب الله وسنة نبيه الصحيحة الثابتة عن غيرهما ، ولأنهم قد يرغبون عما تنقله الشيعة الكاذبة عن أهل البيت النبوى لأنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان أحد أئمتهم على ما ذكرنا ينكر على الامام أبى حنيفة ويرد عليه ويسببه لأنه كان يعمل بكتاب الله ، وإذا كانوا يهجون أهل السنة جميعاً لأنه لا عبرة بالرأى عندهم مع وجود الكتاب والسنة ، ولأنهم يقدمون ظاهر القرآن على آراء الرجال : إذا كان هذا كله من مذهب الشيعة الظالمة لنفسها ولقومها فما قيمة هذا الخبر الباطل السقيم الاسناد لو كانوا يعدلون وينصفون الحق ومخالفينهم من أنفسهم ؟ وإذا كان معلوماً من مذهبهم بالضرورة تقديم رأى الامام على ظاهر كتاب الله - بله ظاهر الخبر النبوى - فما قيمة ظاهر هذه الرواية وظاهر هذا الشعر المنسوب إلى سواد بن قارب ، المذكور فيه أنه أنشده النبى فما أنكره عليه ؟ كل هذا لا قيمة له عندهم ، ولكنهم لا ينصفون ولا يعدلون ولا يصدقون .

وهم يقدمون آراء أئمتهم التى ينقلها كذبهم على كتاب الله لأن كتاب الله لا قيمة ولا مكانة له لديهم ، لأنه عندهم محرف : منقوص منه ومزبد فيه ، ومغير الترتيب والنظام ، قد تناوله كل ما يزعمونه من عبث الصحابة المناقضين ، ومن تحريفهم وأهوائهم وإلحادهم وكفرهم . ولأن الذين جمعوه كفار لديهم . والكفار

لا يؤمنون على كلام الله ، ولأنهم يزعمون أيضاً أن الصحيح الثابت من كلام الله لا يمكن فهمه إلا من طريق الأئمة من آل البيت المعدودين المحصورين . ومن حاول فهمه من غير طريقهم وسبيلهم فهو عين الضال الجاهل الآثم المارق . وقد قال في الكتاب المذكور أعني « فرائد الأصول » صفحة ٣٢ أيضاً نقلاً عن « مجمع البيان » : « قد صح عن النبي وعن الأئمة القائمين مقامه أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح والنص الصريح . وعن أبي عبد الله أنه قال لأبي حنيفة : أنت فقيه العراق ؟ قال : نعم . قال : فبأي شيء تفتيهم ؟ قال : بكتاب الله وسنة رسوله . قال : يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : نعم . قال يا أبا حنيفة لقد ادعيت علماً - ويلاك - ما جعله الله إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم ! ويلاك وما هو إلا عند الخالص من ذرية نبيينا ! وما أوردك الله من كتابه حرفاً . وفي رواية زيد الشحام قال : دخل قتادة على أبي جعفر فقال له : أنت فقيه أهل البصرة ؟ فقال : هكذا يزعمون . فقال : بلغني أنك تفسر القرآن ! قال : نعم - إلى أن قال : يا قتادة إن كنت قد فسررت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك ، وإن كنت قد فسرته من الرجال فقد هلكت وأهلك . يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به » انتهى بحروفه .

« انكارهم على من يشتغلون بهم القرآن »

فالكتاب والسنة لا وزن لهما عند القوم . وعندهم أن جميع نصوص القرآن ونصوص السنة وجميع الأخبار النبوية المتواترة وجميع الآراء والمذاهب والعلوم باطلة وزور وجعل وضلال . والعلم والدين والإيمان - كل ذلك لا يمسو ما تنقله الشيعة الكذابة في كتب الشيعة الكنوب عن زعمهم أئمة من آل البيت النبوي . وكل ما ينقل في كتبهم من إيمان وكفر وجعل وعلم وبلادة وذكاه كل هذا يجب الأخذ والعمل به عندم بلا بحث ولا أسانيد ولا امتحان

ولا تنقيب عن الرواية والرواة ماداموا شيعة ، إمامية ، اثنا عشرية . ولهذا لا يعرفون معنى الاسناد ولا علم الجرح والتعديل ولا الصحيح والضعيف . وهذا من علوم أهل السنة والحديث وحدهم . وقد قال في الكتاب المتقدم صفحة ٦١ : « ثم اعلم أن أصل وجوب العمل بالأخبار المدونة في الكتب المعروفة مما أجمع عليه في هذه الأعصار بل لا يبعد كونه ضروري المذهب » انتهى بالنص . وهذا صحيح لا شك فيه لديهم . فكل ما يروى في كتبهم لا ينازعون في صحته وثبوته . وجوب العمل به ، وليكن ما يكون . أما أهل السنة والحديث فعندهم أن الاسناد من الدين ، وأنه لولا الاسناد لضاعت السنة وكلام النبوة ، ولقال من شاء ما شاء . وعندهم أنه لا تقبل إلا رواية الثقة الثبت ، وأن غير الثقة مردود الرواية وإن كان عندهم إماماً من الأئمة المتبوعين ، وإن كان أصلح الناس وأتقاهم قلباً ونفساً وأزكاهم ورعاً وديناً . والدين عندهم والصالح غير الضبط والحفظ والوثاقة في الحديث . فقد يكون الرجل عندهم ديناً صالحاً فاضلاً سليم الاعتقاد والمذهب ، ثم لا يكون ثقة في الحديث . ومن أعجب ذلك وأطيبه من أمر أهل السنة والحديث أن جماعات منهم ضعفوا الامام الأعظم أبا حنيفة النعمان في الحديث من جهة حفظه . وهولديهم الامام الحجة ، والفقهاء الذي لا يلحق له غبار في هذا المضمار . بل هو عندهم أبو الفقة الغنى حتى قالوا فيه : « الناس هيال على قته أبي حنيفة » . وقالوا فيه : « لو شاء أن يقيم الدليل على أن الصخر الأصم ذهب لا استطاع » لقوة عارضته ، وسرعة بديهته ، ووفرة ذكائه ، ورعاية ذهنه وعقله وقلبه . وقد قلده الجمهور الاكبر الاكثر من المسلمين لعظم شأنه وأمره في الفقه والدين . . . وهذا كله لم يمنع طوائف من المحدثين أن يضعفوا حديثه وأن يعيبوه ويقدموا فيه من جهة الحفظ والضبط . وقد ضعفه لذلك السائى والدارقطنى والحافظ ابن عدى وآخرون غيرهم ، وأجتلب التحديث عنه رضى الله عنه صاحباً الصحيحين :

وهم وجوب
العمل به
ما كتب في كتبهم

أهل السنة
والحديث من
يجب أمرهم
وطيبه

البخارى ومسلم ، لأنهما لا يرويان إلا الصحيح الثابت من الأخبار . وهذا كله لم يمنعه أن يكون عندهم الامام الاعظم ، والحجة الكبرى في الفقه وفي الدين . ولكن الحديث - حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، عند المؤمنين أعلى وأعلى من الأئمة ومن الرجال ، وإن كانوا من كانوا ، عظم شأن ، وجلالة قدره ، ونباهة ذكره . وإذا كان الحديث نفسه قد لا يرضى حفظه ولا يأتينه على أحاديث النبوة ، فيفزع لذلك إلى الكتاب والكتابة لتلا يضل وينسى ، فيزيد أو ينقص أو يحرف - كان ألا يأتين من عرف بضعف الحفظ وقلة الضبط أولى وأحرى . وإذا لم يضر الرجل من الحديثين أن يرد الحديث الذي اتهم نفسه على حفظه وضبطه - لأنه عهد من نفسه ضعف الحافظة لأمر من الأمور - لم يضر الامام أبا حنيفة رضى الله عنه أن يجتنب حديثه من عرفه بقلة الحفظ ونسيان المروى . ويشبه هذا المعجب الطيب من أمر الحديثين ما ذكر الامام مسلم في مقدمة الصحيح قال : حدثني محمد بن أبي عتاب قال حدثني عفان عن محمد بن يحيى بن سعيد القطان عن أبيه قال : لم نر الصالحين في شيء أ كذب منهم في الحديث . قال ابن أبي عتاب : فلتيت محمد بن يحيى بن سعيد القطان : فسألته عنه فقال عن أبيه : لم نر أهل الخير في شيء أ كذب منهم في الحديث . قال مسلم : يقول يجري الكذب على لسانهم ولا يتعمدونه . قال مسلم : حدثنا حجاج بن الشاعر حدثنا سليمان بن حرب أخبرنا حماد بن زيد قال قال أيوب : إن لي جاراً - ثم ذكر من فضله - ولو شهد عندي على تمرتين ما رأيت شهادته جائزة . قال مسلم أيضا : حدثنا نصر بن علي الجهضمي حدثنا الأصمعي عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال : أدركت بالمدينة مائة كلهم مأون ، ما يؤخذ عنهم الحديث - يقال : ليس من أهله .

وهذا الصنع من أهل السنة والحديث يشهد بحق واضح الدلائل على أنهم هم حوار رسول الله ، وأنهم هم الذين اختارهم الله وهبهم لحفظ دينه ، ليكونوا

أهم حوار
رسول الله

شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا . فرضى الله عنهم ونصر وجوهمهم .
فلولا أسانيدهم وعلمهم وتصحيحهم وتضعيفهم وقولهم : هذا ثقة ، وهذا كذاب
وذاك صدوق صادق ، وهذا ضابط حافظ ، وهذا سوع الحفظ والضبط ، وهذا مجهول
وهذا معروف ، وهذا حق وهذا باطل : لولا هذا كله لمر علينا وعلى المسلمين
اليوم وقبل اليوم تمييز كلام النبوة من كلام الكذابين ، والتفريق بين صحيح
النسب برسول الله وبين الضعيف الباطل النسب ، ولكانت أنساب الأحاديث
اليوم إلى رسول الله كأنساب من يزعمون اليوم من ذرية رسول الله ومن ذرية
فاطمة والحسن والحسين : كلاهما يموزه الدليل ، وكلاهما أفسده الكذب
والتدجيل ، وكلاهما قطع ظهره وصلبه الظلام والضلال وانقطاع الاسناد . ولكن ديننا
شاء الله أن يكون خاتما لا ديان شاء له أن يحفظه بأهل الحديث ، لتبقى الحجة ، ولتزول
العلة ، ولتبطل المندرة ، ولتنزل صلة الأرض بالسما محفوظة قائمة ، وليبقى هذا
البصيص السماوي الآلهي متألقا لا معاً بين حنادس هؤلاء الناس وحنادس
ظلماتهم وضلالهم ، وبين حنادس هذه الأرض المظلمة ، ليهتدى به من شاء لنفسه
الهدى ، ويسرى عليه من طلب السرى ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وأما
أشهد الله أن علم الاسناد - كما خلفه أهله - ليس مما تهتدى إليه القول والبداهات
بسرعة ويسر وقرب ، فلا بد أن يكون اهتداء أهل الحديث إليه وتوفيقهم له حتى
أقاموه كما هو اليوم معجزة من معجزات الاسلام ، ولطيفة من لطائف الله خص بها
هذه الأمة ، وخص بها من هذه الأمة أهل السنة ، وخص من أهل السنة بها
أهل الحديث . فهم خاصة من خاصة من خاصة ، وخيار من خيار من خيار . إذن
فقصة سواد هذه التي فيها هذا الشعر غير صحيحة وغير قائمة الاسناد ، فلا يحمل
الاحتجاج بها في أبواب الدين والایمان .

الجواب الثاني من
شمر سواد بن
قارب ان كان
صحيحا وبيان
دلالة على خلاف
ما زعموا

والجواب الثاني عن هذا الشعر إن كان صحيحاً أن يقال : إنه لا شيء مما فيه

يدل على شيء مما اختلف فيه . أما قوله : « وإنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله »
فمعناه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أعظم الأنبياء ، وأعظم عباد الله جميعاً
قربة إلى الله ، وأقربهم قرباً ، وأعظمهم منزلاً ومنزلة لديه تعالى . لأن الوسيلة ،
كما تقسم ، هي القرب والقربة والدرجة الرفيعة ، وهي المنزل العلى من منازل
الجنات العليا . وهذا لا شك فيه . ولا شك في أن رسول الله أعظم الخلق جاهاً
وأسماء مكانة ، وأدناهم مكاناً إلى الله ، وأن له لديه تعالى أعظم الوسائل وأشرفها
وأرفعها وأعزها . ولكن ليس الخلاف في هذا . فإن كان الراضى يريد بصوله
وجوله وشوله أن يثبت بهذا الشعر أن رسول الله أقرب الخلق إلى ربه وأعظمهم
منزلة ومنزلاً ووسيلة لديه وأكرمهم عليه فليرح نفسه من عناء البحث ، ومن
التزيد بالروايات الباطلة . فإن مخالفه أسبق منه - إن شاء الله - إلى إثبات هذه
الحقيقة والاقرار بها والدعوة إليها . ولو تدبر الشيعى هذه اللفظة لوجدوا إلى الرد
عليه أقرب من أن تكون رداً على مخالفه . وذلك أنه جعل لرسول الله عليه
الصلاة والسلام وسيلة إلى الله بقوله : « وإنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله » .
ولم يجعله نفسه وسيلة ، أى لم يقل : « وإنك وسيلة إلى الله » ، أو الوسيلة ، أو إحدى
الوسائل إليه تعالى . وإذا كان قد جعل للرسول نفسه وسيلة إلى ربه ، فالوسيلة إما
أن يكون معناها هو معناها اليوم عند العوام ونظرانهم من سؤال الأموات
وسؤال الله بهم ، ومن العكوف على القبور وجميع هاتيك المصائب العملية
الاعتقادية التي وقع فيها جماهير المسلمين ، أو يكون معناها المنزلة الرفيعة عند الله
والقرب منه والتقرب إليه تعالى بأصناف العبادات والطاعات وفنون الخيرات . فإن
قالوا : إن المراد بالوسيلة في الشعر هو المعنى الأول قيل لهم : إذن يكون معنى قوله :
« وإنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله » « وإنك أكثر الناس كوكفاً على القبور
وانقطاعاً إليها ، ودعاءً لأصحابها ، واستغاثة بهم ، ورجوعاً إليهم ، وبكاء وخضوعاً

وخشوعاً بين أيديهم». وهذا لا يقول به مسلم ولا عاقل غير مسلم. ولو كان المعنى هو هذا لكان الشعر المذكور هجاء لرسول الله لا مديحاً. وإن قالوا: إن المراد بالوسيلة هو المعنى الثاني كان معنى قوله: «وإنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله» «وإنك أعظم الخلق قربة وقرابا إلى الله، وأقوام صلة به، وأسماهم مكانة ومكانا لديه، وأكثرهم أعمالا صالحة لوجهه وإرضاء له ورضا عنه وبه...». وإذا كان هذا هو المعنى - وهو هو بلا شك - كان ردّاً على القوم لو يشعرون وينصفون.

وأما قوله: «وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة» فالجواب أن هذا القيل مما يرجع إلى بحثه في فصل الشفاعة الماضي. ومن الجواب عنه أن يقال: إنه من الاستشفاع بالحى، والاستشفاع بالحى لا خلاف فى جوازه. فإذا قيل: كيف يطلب من الرسول عليه السلام فى الحياة الدنيا أن يشفع له يوم القيامة، والشفاعة يوم ذاك لا تكون إلا بعد إذن الله، فكأنه بهذا قد طلب من الرسول ما لا يملكه، وما لا يقدر عليه - فالجواب - إذا سلم أنه يعنى بيوم لا ذو شفاعة بمن قتيلا عنه يوم القيامة، مع أنه يمكن الشك والخلاف فيه - أن يقال إذا سلم ما زعموه أن هذا السؤال ليس خاصاً بنا دون مخالفينا، وليس منطلقاً إلى من يمنعون التوسل المرذول دون من يجيزونه، ويدعون إليه ويفعلونه، بل هو سؤال مندفع إلى الجميع إن كان سؤال حق.

والذى نقوله نحن أنه لا يجوز سؤال الأموات الشفاعة، وهذا الشعر ليس فيه سؤال للأموات، فلا دليل للمخالف أثبتة. ومن الجواب عن هذا السؤال المذكور أن يقال: إنه طلب منه شيئاً يقدر عليه، لأن الله قد أخبر بأنه سوف يشفع لجميع الخلائق. ولا شك فى صدق خبر الله ووقوعه. فالتبى عليه الصلاة والسلام يشفع الشفاعة الكبرى العامة بلا ريب. وسوف تنال شفاعته هذه الجميع. فقوله: «وكن لي شفيعاً» هو طلب لشفاعة مطلقة، لم توصف ولم تعين.

جواب قوله
«وكن لي شفيعاً
يوم لا ذو شفاعة»

إلا بيومها ، والرسول بلا شك سوف يشفع له في من يشفع لهم . فكأنه قد طالب شيئاً لا بد من وقوعه وحصوله ، ولا شك فيه . وقد أقره الرسول على طلبه لصدقه فيه ، ولعلمه أنه سوف يشفع له ولغيره يوم القيامة بما وعده ربه . ولا يخلف لوعده الله سبحانه .

وأما ما ذكره من استسقاء الأعرابي بالنبي عليه الصلاة والسلام بقوله :

وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل ؟

فالجواب أولاً المطالبة بالصحة . وههنا ذلك . وقد قال الحافظ في فتح الباري : رواه البيهقي من حديث مسلم بن كيسان الكوفي الضبي الملائى الأعمور وضعف سنده لذلك . ومسلم هذا يجمع على ضعفه ، وقد ذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب والحافظ الذهبي في الميزان ، وذكر إجماع الناس على ضعفه والقبح فيه وفي حديثه . فلا يحل الاحتجاج به . وقد صح عند شيوخ الحديث أنه كان وضاعاً كذاباً .

جواب قوله
« وليس لنا إلا
إليك فرارنا »

ويقال ثانياً : إن هذا الشعر إن ثبت لا يدل على ما زعموا . فما فيه سؤال المخلوق مالا يقدر عليه إلا الله ، ولا سؤال الله بمجاه المخلوق ، أو بكرامته أو حرمة أو بقره أو بذاته أو بشخصه ، ولا فيه الإقسام بغير الله ولا العكوف على القبور ولا الانقطاع إليها . . . وإنما فيه الفرع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام عند اشتداد القحط ، ليدعو الله وليسأله إنزال غيائه ورحمته على عباده وبلاده . . . وهذا متفق على جوازه وإباحته . وقوله : « وليس لنا إلا إليك فرارنا » معناه أننا لا نفر ولا نفرع عند إلحاح القحط علينا وإمساك السماء ماءها إلا إليك يا نبي الله لتدعو الله وتشفع لنا لديه . لأنك مقبول الشفاعة مسموع الدعاء عنده . وقوله : « وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل » معناه : وأين يذهب العباد إذا ما التمسوا شفيعاً لهم عند ربهم مستجاب الدعوة قريب المكان والمكانة - إلا إلى أنبيائهم ورسولهم ، لأنهم هم أقرب الخلق إلى الخالق ، وأدناهم إلى رحمته

جواب ثان من
الشعر

و. إلى إجابته ورضاه... ولكن هذا الأعراي لم يقل هذا القول للرسول عليه السلام
يمد وقاته وصعوده إلى الأملاء العليا . وإنما قاله وهو حي حاضر بين أظهرهم ، على
مسمع منهم ومرأى . فأين هذا من ذاك ؟

من كلفه
الرافعة

وأما قوله : روى البخارى أن النبی عليه السلام لما استسقى فسقى الله عباده
قال : « لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه : من يشدنا قوله ؟ » فقيل : كانك
أردت قوله : وأبيض يستسقى الغمام بوجه البيت . . . فالجواب أن يقال : هذا
كذب فليس هو في البخارى كما ذكر . وإنما في البخارى أن عبد الله بن عمر كان
يتمثل بقول أبي طالب : وأبيض يستسقى الغمام بوجه . « البيت » . وروى عنه
أنه قال : ربما ذكرت ، وأنا أنظر إلى وجه النبي يستسقى فما ينزل حتى يبيض
كل ميزاب قول الشاعر : وأبيض يستسقى الغمام . البيت . وهذا الذي ذكر أن
البخارى رواه ذكر الحافظ العسقلاني في فتح الباري أن البيهقي رواه في دلائل
النبوة بإسناد فيه مسلم بن كيسان الكوفي الملائى المتقسم . وهو كذاب وضاع
للحديث كما مر . وقد ضعف الحافظ السند لذلك

وسواء أكانت الرواية التي عزاها إلى البخارى صحيحة أم كانت ضعيفة باطلة
فانها لا تمثل على ما ذهب إليه . وذلك أن قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

الجواب من شعر
أبي طالب وقوله

« وأبيض
يستسقى الغمام
بوجهه »

يراد به أن الغمام يستسقى بشفاعته ودعائه ، وأنه يدعو الله ويسأله الغيث
لعباده وبلاده فيجيبه ويسقى البلاد والعباد ، وأنه لذلك كلف للآيتام والأرامل
لأن الآيتام والأرامل من الضعفاء ، والضعفاء لا يضيعون ولا يجوعون ويحتاجون
إلا أيام الجلب والجهد والتقحط والبلاء . ومن كان يدعو ربه عند الجلب والضر
والجهد والتقحط ويستسقيه فيجيب دعاءه واستسقاءه فلا ريب في أنه أمان للضعفاء
وئمال لليتامى ، وعصمة للأرامل . و « الثمال » هو مزيل الحاجة والضرورة

والبؤس . والعصمة هو ما يعتصم - أى يحتسب به . وهو صلى الله عليه وسلم - إذا كان يفاش : إذا استغاث للخلق - كهف وثمال وعصمة للضعفاء والمحتاجين على المعنى والمذهب . الذى ذكرناه . فعنى « يستسقى الغمام بوجهه » يطلب الغيث والمطر بدعائه وشفاعته وهذا استعمال عربى واضح ظاهر لا ريب فيه . ومن الدليل عليه تمثل ابن عمر بهذا الشعر حين يستسقى النبى عليه السلام فيسقون . وتمثله به تلك الساعة نص . فى أن معنى الاستسقاء بوجهه الاستسقاء بدعائه وشفاعته . ولا ينازع فى ما ذكرناه أحد من أهل العلم .

﴿ الشبهة الثامنة أمر عثمان بن حنيف الرجل الذاهب

إلى عثمان بن عفان أن يتوسل بالنبي عليه السلام ﴾

وذلك ما رواه الطبرانى فى المعجم من حديث أصبغ بن الفرّج عن عبد الله بن وهب المصرى عن شبيب بن سعيد البصرى الحبلى عن روح بن القاسم عن أبى جعفر المختلف فيه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى حاجة له ، فلقى عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال له أئت الميضاة فتوضأ ثم أئت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك ببينا محمد نبى الرحمة . يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك . عز وجل فيقضى لى حاجتى » وتذكر حاجتك . فانطلق الرجل فصنع ما قاله له ثم أتى باب عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة . وقال : ما كانت لك من حاجة فأتتنا . ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حقى كلمته فى ، فقال له خذنى وإلهمما كلمته ، ولكى شهدت رسول الله وأناه ضمر فشكا إليه ذهاب

أمر عثمان بن حنيف لرجل أن يتوسل بالنبي عليه السلام
فأجابته وقال
الرجل وجواب ذلك

بصره فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « أفتصبر ؟ » فقال يا رسول الله إنه ليس لى قائد وقد شق على . فقال له رسول الله : « ائت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات » . قال ابن حنيفة : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط .

قال المخالفون : وهذه الرواية تدل على جواز الاستشفاع بالنبي وعلى جواز ندائه والسؤال والتوسل به بعد مماته ، فانه لو لم يكن ذلك جائزاً كله لما أمره به ولما أجازته عثمان بن حنيف وهو من صحابة النبي الأبرار الذين شهد الله لهم في كتابه بالعدالة والايمان والهدى وسلوك الصراط المستقيم ، وأخبر أنه قد رضى عنهم وتاب عليهم ووعد كلا منهم الحسنى ، وجعلهم الشهداء على عباده المؤمنين ، وأمر باتباعهم وبالتهج منهاجهم والسير على آثارهم ، رضى الله عنهم أجمعين . قالوا : وما جاء أن أحدا منهم أنكر على عثمان بن حنيف فعله هذا ولا عارضه أو نازعه ، ولا جاء أن عثمان نفسه رجع عنه أو سأل عن حكمه وفهمه . قالوا : ومن البعيد الذى لا ترضونه أنتم لأنفسكم أن تزعموا أن أصحاب النبي عليه السلام يقعون فى مثل هذا الضلال وهذا الباطل وأن توقوه أنتم وتسلموا منه ، فتكونوا أهدي وأرشد وأعلم بالاسلام والايمان والتوحيد منهم ! وهذا بعيد جدا كما أنه باطل وقبيح جدا كما أنكم أنتم تستقبحوه لأنفسكم جدا .

والجواب أن نقول : إننا قد قدمنا فى جواب الشبهة السادسة الكلام على سند هذا الحديث ، وذكرنا ماله ومافيه من العلل ومافيه من أسباب الضعف والوهن ، وذكرنا أن جميع طرقه تدور على أبى جعفر هذا الذى ذكرنا الاختلاف فيه ، وذكرنا أنه قد انفرد به عثمان بن حنيف دون غيره من الأصحاب ، وأنه انفرد به عنه أسعد بن سهل بن حنيف وعمارة بن خزيمة بن ثابت دون غيرهما من التابعين ، وأنه انفرد به عنهما أبو جعفر هذا ، وأنه يختلف فيه : فقول : انه

الخطي - والخطي وسط في الثقات ، دون المدول الأثبات الممتازين ، وفوق الضعفاء المتروكين - وقيل إنه غير الخطي . وإذا كان غيره احتمال أن يكون ضعيفاً جداً ، وأن يكون ضعيفاً ضعفاً هيناً مقاربا ، وأن يكون ثقة ثباتاً ، وأن يكون مجهولاً لا يعرف عنه شيء . وذكرنا أنه لم يسفر لنا ولا للباحثين الفاحصين وجه الصواب وحقيقة الرجل الراوى ، ولكننا لذلك كله بضعف الحديث وبطلانه . وهذه الرواية هي إحدى رواياته ، فهي ضعيفة بضعفه ، مردوده برده ، فيها ما فيه من أسباب الوهن والضعف ، وفيها من ذلك ما ليس فيه كما سوف يرى القارئ . وقبل أن ينتقل القارئ من هذا إلى بقية البحث يحسن أن يرجع إلى ما كتبناه على الحديث في الشبهة السادسة السابقة .

وهذه الرواية قد أتت من حديث أصبغ بن الفرج المصري وهو ثقة لا كلام فيه ، عن عبد الله بن وهب المصري وهو إمام ثقة أيضاً ، عن شبيب بن سعيد الحبلى البصرى التميمي . وهذا فيه كلام سنذكره . عن روح بن القاسم - وهو ثقة ثبت ، عن أبي جعفر المختلف فيه عن أبي أمامة وهو أسعد بن سهل بن حنيف . وهو أيضاً ثقة لا كلام فيه من رجال الستة ، عن عثمان بن حنيف . فلا كلام على هذا الاسناد إلا في أبي جعفر وقد تقدم الكلام عليه ، وتقدم أنه غير معروف ولا معلوم الاسم والحال . لحديثه حديث ضعيف لذلك . وبقي أيضاً الكلام في شبيب هذا ، الراوى لهذه الرواية عن روح بن القاسم .

بيان حال هذه
الرواية

وشبيب ثقة من رجال البخارى لا عيب فيه إلا أن الحذاق من المحدثين ذكروا لقسم من أحاديثه علة خفية . ذلك أنهم حدثوا عنه أنه كان سئ الحفظ وأنه كان يهمل وينلط إذا حدث من حفظه ، وأنه ثقة ثبت إذا حدث من كتابه . قالوا ولذلك حدث عنه عبد الله بن وهب المصري بأحاديث منكورة ، لا تشبه أحاديثه وهذا لأنه كان يختلف إلى مصر متجراً ، فكان يأخذ عنه ابن وهب من حفظه

لأمن كتابه ، فكان يغلط ، وكان يقع في حديثه الوهم والضعف . . . وهذه الرواية التي رواها الطبراني هي من حديث عبد الله بن وهب عنه ، فهي من قسم أحاديثه التي يهم فيها والتي فيها هذه العلة الخفية ، والتي هي من قسم الضعيف . وقد قال الحافظ الذهبي في « الميزان » : « شبيب بن سعيد الجبلي البصري ، صدوق يفرّب . ذكره ابن عدي في كامله فقال له نسخة عن يونس بن يزيد مستقيمة . حدث عنه ابن وهب بننا كبير . قال ابن المديني : شبيب بن سعيد ثقة كان يختلف في تجارة إلى مصر ، وكتابه صحيح ، وقد كتبه عن ابنه أحمد ، وقد روى ابن وهب عنه . . . قال ابن عدي : شبيب لعله يغلط ويهم إذا حدث من حفظه ، وأرجو أنه لا يعتمد . فإذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه شبيب آخر ، يعني يوجد » انتهى كلام الذهبي في الميزان . وقال الحافظ المستطاني « في تهذيب التهذيب » في ترجمة شبيب : « قال ابن المديني : ثقة ، كان يختلف في تجارة إلى مصر ، وكتابه كتاب صحيح . وقال أبو زرعة : لا بأس به . وقال أبو حاتم : كان عنده كتب يونس بن يزيد ، وهو صالح الحديث لا بأس به . وقال النسائي : لا بأس به . وقال ابن عدي : لشبيب نسخة الزهري عنده عن يونس عن الزهري ، أحاديثه مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث منكورة . وذكره ابن حبان في الثقات . وقال الدارقطني : ثقة . ونقل ابن خلفون توثيقه عن الذهلي . ولما ذكره ابن عدي وقال الكلام المتقدم فيه قال بعده : ولعل شبيباً لما قدم مصر في تجارته كتب عنه ابن وهب من حفظه فغلط ووهم ، وأرجو ألا يعتمد الكذب . وإذا حدث عنه ابنه أحمد فكأنه شبيب آخر . وقال الطبراني في الأوسط . . . » انتهى كلام تهذيب التهذيب

من علل هذه
الرواية

فشبيب هذا فيه كلام إذا حدث من حفظه - ولا سيما إذا كان الراوي عنه عبد الله بن وهب - فانه حيلثذ يكون مشكوكا في حديثه . وهذه الرواية التي معنا من

حديث عبد الله بن وهب عنه ، فهي رواية يخشى أن تكون منكورة باطلة ، وأن تكون مما غلط وروم فيه . لكن قد يدفع هذا التوهين بأن يقال : إن البيهقي روى هذه الرواية من غير طريق ابن وهب ، رواها من حديث إسماعيل بن شبيب عن أبيه شبيب هذا عن روح بن القاسم عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف عن عثمان بن حنيف . قال البيهقي : ورواها أحمد بن شبيب عن أبيه شبيب أيضاً ولكن يقال : إن الفنين أثبتوا على شبيب وعلى حديثه إنما أثبتوا عليه إذا حدث من كتابه فقط . أما إذا حدث من حفظه فقد بهم ويفلط سواء أكان الراوى عنه ابن وهب أم كان غيره . ولهذا قالوا : إذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه شبيب آخر . وقال أبو حاتم : كان عنده كتب يونس ، فهو ثقة ضابط عن يونس لأنه إذا حدث عنه حدث من كتابه . وقال ابن المديني : إن كتابه صحيح . وقال ابن عدي : له يونس نسخة مستقيمة . فشبيب عندهم ثقة إذا حدث عنه ابنه أحمد عن يونس . أما إذا لم يحدث عن يونس وحدث عنه ابن وهب فهو بهم ويخطئ . . وهو في هذه الرواية لم يحدث عن يونس وقد رواها عنه الطبراني من طريق ابن وهب فهي معولة . ورواها البيهقي من حديث ابنه أحمد عنه عن غير يونس فهي عرضة لما ذكره من الوهم والغلط . وقد قال الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري في جملة الرجال الذين قدس فيهم من رواة البخاري : « شبيب بن سعيد الجبلي أبو سعيد البصري ، وثقه ابن المديني وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني والذهلي . وقال ابن عدي : عنده نسخة عن يونس عن الزهري مستقيمة . وروى عنه ابن وهب أحاديث مناكير . فكأنه لما قدم مصر حدث من حفظه فغلط ، وإذا حدث عنه ابنه أحمد فكأنه شبيب آخر لأنه يجود عنه . قلت : أخرج البخاري من رواية ابنه عنه عن يونس أحاديث ولم يخرج من روايته عن غير يونس ولا من

رواية ابن وهب عنه شيئاً . وروى له النسائي وأبو داود في كتاب التماسيح
بالمسوخ ، انتهى كلام ابن حجر من مقدمة فتح الباري . فالبخاري إذن لم
يرو له عن غير يونس شيئاً ، ولم يرو له عن ابن وهب شيئاً أيضاً . على أن بعض
الناس كأبي الفتح الأزدي ، قد ضعفوا أحمد بن شبيب عن أبيه . فالرواية عند
هؤلاء بهذا الإسناد ضعيفة . ولكننا نحن لا نرضى إلا العدل والانصاف ، ونكره
الجهل والاعتساف ، فأحمد بن شبيب هذا ثقة ثبت ولا شك . ولم يوافق
القادحين فيه السواد الأعظم من نقاد الحديث ، فوثقوه وقبلوه ، ومحموا حديثه .
ونحن لا نقبل الشنوذ والتطرف غير المنصف ، فأحمد عندنا ثقة ثبت ، وإن كان من
مصلحة بحثنا أن يكون ضعيفاً ، ولكن كلا ، فإنه لا مصلحة لنا غير الحق وغير
التماسه أين كان . وإن كان المتشددون المتطرفون الذين يقسمون الجرح على التعديل
مطلقاً لا يقبلون مثل هذه الرواية . ولكن هذا المنهج في رأينا منهج مسرف
شديد ، يقضى برد أحاديث كثيرة صحيحة قبلها المسلمون وقبلها نقاد الحديث
ونقاد الرواة .

فهذا الحديث
ضعيف

لحديث شبيب هذا - إذا علم هذا الكلام فيه وضم إليه الكلام في أبي
جعفر المتقدم المتفرد به في جميع الطرق للحديث - حديث ضعيف ذاهب ، وعند
المتساهلين حديث لا يرتفع إلى درجة الصحيح الذي تبنى عليه الأحكام أو
تعرف به عقائد الإسلام . وأعلى ما يمكن أن يعطى من التقرير والتجويد ومن
إحسان الظن والتساهل أن يقال : إنه حديث حسن ، والحديث الحسن لا يجوز
أن تبنى عليه أحكام الدين ، ولا سيما إذا كان معناه شاذاً غريباً كهذا الحديث ،
ولا سيما إذا لم يكن له نظير في الإسلام ، بل ولا سيما إذا علم أنه لم يروه من الصحابة
غير عثمان بن حنيف وهو في هذا المعنى الذي تشتاقه النفوس المسلمة ، ويطيب
لها التسميت عنه . وبذلك فإن فيه معجزة من معجزات الإسلام ، كرامة من كرامات

النبي عليه الصلاة والسلام . كل هذا يوهن الرواية ويوهيها ، ويزيد في إيهانها وتوهينها أفراد أبي جعفر هذا بها عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف دون غيره من الرواة المكثرين من الحديث والتحديث ، الحفاظ لأشنت الأحاديث في أشنت العلوم النبوية الإسلامية .

ويزيد في ضعفها وقد يزيد في إيهاء الرواية ووهنها إعراض أهل السنن عنها مع روايتهم لأصلها . فان الترمذى وابن ماجه والنسائى والامام أحمد وروا حديث الأعمى كما تقدم دون هذه الزيادة ودون هذه القصة ، قصة ذلك الرجل مع عثمان بن عفان وإعراض عثمان عنه وشكايته إلى عثمان بن حنيف . . . واقصار هؤلاء المحدثين عن تخريج هذه القصة مع أنهم قد خرجوا أصلها وخرجوا الحديث دونها إما أن يكون راجعاً إلى أنهم لم يطلعوا عليها ولم يعرفوها ، أو يكون راجعاً إلى أنها باطلة واهية عندهم ، أو يكون راجعاً إلى رغبتهم عنها مع علمهم بها وعلمهم بصحتها وثبوتها . أما القول بأنهم لم يطلعوا عليها ولم يعلوها فبعيد كل البعد ، لأن الرواية من أصل الحديث الذى علموه وخرجوه ، ولأن مثل هذه القصة جديرة بالانظار والاشتهار . مع أننا لا ندرى لماذا يحدث من روى الحديث عنهم أصحاب السنن بأصل الحديث دون هذه القصة فيه . ونحن لا نستطيع أن نعزو هذا إلى اللسيان ، لأن مثل هذه القصة لا يمكن أن ينساها من حفظ أصل الحديث إذ هي جديرة بالحفظ ووعى الذاكرة البليدة فضلاً عن الذكية الأليمة . وأما القول بأنهم لم يخرجوها لأنها عندهم غير صحيحة فقول قد يكون قريباً مقبولا . أما معارضة هذا القول بأن أصحاب السنن ، مثل الترمذى وابن ماجه والنسائى ، يروون الأحاديث الضعيفة الباطلة المالككة ، فمعارضة لا يجب أن تكون صحيحة . وذلك أنها لا تشك في أنهم - وإن كانوا يخرجون الضعيف والباطل التالف - قد يدعون الحديث لأنه ضعيف ، ويرغبون عن تخريجه لأنه غير صحيح . فهذا لا يمنع هذا . وأما القول بأنهم رغبوا عنها زهداً

فيها مع علمهم بها وعلمهم بصحتها قول لا نعرف له وجه ولا حكمة ما دنا نقول :
إن هؤلاء المحدثين يدينون بالحكمة ، ويخضعون للصواب ، ويسلكون في علمهم
الجادة المسلوكة . ولا مندوحة عن هذا القول .

ويزيد ذلك

وقد يزيد أيضا في اتهام هذه القصة واساءة الظن بها اشتغالها على ما عيس
دين الخليفة الرضى المرضى عثمان بن عفان ، وما عيس ما عرف عنه من لين ورفق
وحياء ودين وصلاح وورع . هذه الخلائق العثمانية التي لا تترك لصاحبها أن
يمرض عن صاحب حاجة حقة وعن طالب عرف وعثمان بن عفان رضى
الله عنه كان من أرفق الناس وأبرم بالناس ، ومن أقربهم إلى حاجات المحتاجين
ورغبات الراغبين وكان هينا لنا حيا ، تطرف عيناه من رؤية العنف
والقسوة والظلم ، ويندى جبينه من مثل هذا الموقف هكذا كله يبعد جدا أن
يعرض عن ذلك الطالب ذلك الإعراض الذى حل على الشكوى إلى آحاد
الصحابة كعثمان بن حنيف . رضى الله عن الجميع . هذا قد يقال : وإن كان
ليس عمدة عندنا ولا ظاهراً في إضعاف الرواية وردّها ، وإنما هو قول
من الأقوال .

ويزيد الشك في
الرواية أيضا .

ومما يهيج الريب في القصة أنه لم يرو بأسناد صحيح مقبول أن أحد أصحاب
النبي عليه الصلاة والسلام فعل مثل ذلك . فاجاه أن واحداً منهم توجه بالنبي
إلى ربه وسأل أو توجه به بعد موته . وقد كانوا رضى الله عنهم يعمرون بأزمان
وأزمات كانت تفرهم باللجوء إلى هذا السبب ، وإلى هذه الحيلة وهذه الوسيلة ،
بل كانوا لا ينفكون بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى يتقلبون
في أمور وشئون تحمل على التمسك بأسباب النجاة كلها بكلتا اليدين . وقد مروا
جميعاً بتلك الأرزاء والآفات ، وسبحوا في اثباها الجراحة الخفيفة رضى الله
عنهم ، وعبروها على قوارب من الايمان بالله والاتقطاع إليه وحده فبا

سألوه بجاه مخلوق ولا توسلوا إليه بأحد ، ولا توجهوا بغير إيمانهم وقلوبهم إلى خالقهم وصانعهم ، ولا تعلقوا بسبب غير سبب العبودية الصادقة ، ولا طلبوا نجاتهم وسعادتهم في غير الا تقطع إلى الله وحده لا شريك له . ولا شك أنهم لو فعلوا شيئاً من هذا لنقل إلينا عنهم كما نقل ما أصابهم من خلاف وفرقة ، وما لاقوه من كرب وبلاء ، وما ذاقوه من شدائد ومكائد ، وكما نقل عنهم غيره من أعمالهم وأفعالهم وما يتصل بهم . بل لقد جاء عنهم ما يدل على بطلان ذلك وكذبه ، وخلافه لما علموه وعملوه وأجمعوا عليه من الاسلام والدين . فقد جاء عنهم أنهم كانوا يزورون قبر النبي وقبري الشيخين ، فيسلمون وينصرفون ولا يزيدون شيئاً . وجاء عنهم ما هو أوضح وأوضح من ذلك فجاء أنهم كانوا إذا أصيبوا بالجذب والقحط طلبوا الفيت بداء الأحياء الصالحين . وما كانوا يرجعون إلى النبي ولا إلى سواه من الأموات . . . فكانوا يستسقون بالعباس بن عبد المطلب ويزيد ابن الأسود الجرشي التامبي . وما قال أحد من هؤلاء ولا هؤلاء : كيف تستسقون بالعباس ويزيد وعندكم رسول الله ؟ ولا ذهب أحد منهم إلى قبره ﷺ فاستسقى وطلب الشفاعة والدعاء سوى ما جاء في حديث مالك الدار خازن عمر بن الخطاب . ولكن لم يصح في هذا أن الذهاب إلى القبر من الصحابة . والرواية التي فيها أن الذهاب هو بلال بن الحارث الصحابي رواية باطلة ضعيفة . فأصحاب النبي - وهم لا يعلم عددهم حقيقة لا الله - قد أعرضوا جميعاً عن الرجوع إلى القبر النبوي وإلى غيره من القبور .

والمعالة ليست مسألة روايات غريبة شاذة مجبولة ، وإنما هي مسألة الاسلام جملة ، ومسألة الدين والعقيدة والاجماع . وعقائد الاسلام ليست أدبيات ولا نصوص ولا تنويعات تؤخذ بأمثال هذه الروايات الشاذة الباطلة . ولكن الاسلام دين المسطين الأولين قد تلقى بالتواتر والاجماع . وهؤلاء المسلمون لم يحمي عن أحد

المسألة ليست
مسألة روايات
هالكة غريبة

منهم تشدد مقبول محترم أنه فعل شيئاً من ذلك سوى ما في هذه الرواية . فما أشدها وأبطلها وأكثرها خلافاً على الاسلام والمسلمين !

إننا لو اختلفنا في مسألة لغوية أو نحوية أو صرفية فأدلى أحدنا برواية مثل هذه الرواية الشاذة المفردة معزاً بها أحد الأقوال ، ولم يأت بسواها من الدلائل عن أهل اللسان ولا عن قولهم الحجة الفاصلة في هذا الشأن والموضوع ، بل جاء عنهم كلهم هجران ما في هذه الرواية وهجران ما تدل عليه من الرأي - : نعم لو جاء أحد برواية مثل هذه الرواية كي يثبت بها قاعدة من قواعد اللسان مفردة شاذة كهذا لما قبلت ولما صح الاحتجاج بها والبناء عليها ألبتة . فكيف مسائل الدين ومسائل الاعتقادات ؟ إن الاسلام ، عقائده وأعماله وأحكامه ، منقول بالتواتر والاجماع المتصلة ، لا بأمثال هذه الأباطيل والأكاذيب ، لأن الدين أعز وأغلى من أن يؤخذ بالروايات الشاذة أو الغريبة أو المنكرة أو الباطلة . وإنما هو حق لا يؤخذ إلا بالحق ، وإنما هو دين الله ، ودين الله لا يؤخذ من الواهي الواهن ، وإنما هو قوي ، والقوى لا يشاد إلا على قوى مثله . هذا ما يقال في هذه الرواية من جهة الاسناد .

ما يقال في معنى
الرواية اذا صححت

أما ما يقال فيها من جهة المعنى فنقول : إنها لا تمدد أن تكون اجتهاد صحابي ونحن لا نقول بمصحة كل اجتهاد يصدر من الصحابة كما تقول الشيعة في من يغفلون فيهم من آل البيت . والمعصوم عندنا هو رسول الله ، وكذا ما جاء عن الله ، وكذا إجماع الصحابة ، وكذا إجماع المسلمين . وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين معصومون عندنا . أما أفراد الصحابة وأفراد المسلمين من بعدهم فليس أحد منهم بعينه معصوماً ، ولا مفضلاً على المسلمين اتباعه دون غيره ، ولا تقليده في كل ما يقول وما يجتهد فيه . ولهذا اختلفت الصحابة واختلفت من بعدهم من المسلمين في بعض فروع الدين وبعض أحكامه ومسائله . ولو كان كل

أحد منهم معصوماً لما اختلفوا ، ولما جازأت يختلفوا . ولو كان كل فرد منهم مفروضاً على المسلمين اتباعه وتقليده لوجب أن يتبع الأمر وضده ، وأن يقلد فلان في قوله : هذا حلال ، وأن يقلد فلان الآخر في قوله : هذا حرام . إذن فليس أحد من المسلمين معصوماً خلا رسول الله . أما من بعده فان أبا بكر الصديق أفضل الأمة المحمدية - بله من دونه من المسلمين - ليس معصوماً . ولهذا يقول الله في كتابه خطاباً للصحابية ولن بعدهم وللناس جميعاً : « فان تنازعتم في شئ » فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلاً . والآيات في هذا المعنى - في الأمر بالرد إلى الكتاب والسنة عند النزاع والخلاف - كثيرة معلومة ، غنى المقام عن إيرادها . ولهذا تنازع الصحابة ، وخالف بعضهم بعضاً ورد فريق منهم على فريق . وقد خالف الأئمة الأربعة . ومن بعدهم ومن قبلهم من مشايخ الإسلام بعض الصحابة في مسائل من أقوالهم وآرائهم ، بل خالفوا الخلفاء الراشدين في بعض ذلك ، وهم سادة الأمة وصفوتها . لأنه قد تبين لهم من السنة والدين ما لا يصح خلافه ولا تركه . فما وجنوا عن اتباع السنة محيصاً ولا مفراً ، ولا عن حكم الله منهدبا .

فهذا الذي ذهب إليه عثمان بن حنيف من تعليمه الرجل المحتاج إلى عثمان ابن عفان أن يدعو ذلك الدماء ويسأل بالنبي عليه السلام اجتهد اجتهد ، لم يدل عليه الحديث الذي رواه . فهو اجتهد تسوغ مخالفته ومنازحته ، ولينز علينا قبوله ولا العمل به ، لأن الحجة في رواية الصحابي لافي رأيه واجتهاده . ولهذا نظائر كثيرة من اجتهادات الصحابة - رضوان الله عليهم . وقد قدمنا أن عمر بن الخطاب قد أبى تيمم الجنب إذا لم يجد الماء ، فلما حدثه عمار بمحدث التيمم ارتأب فيه . وتقدم أنه كان ينهب إلى أن المطلقة بالثلاث لها السكوت والنفقة ، وقد رد رواية فاطمة بنت قيس وقولها : إن النبي عليه السلام لم يجمل

مختلف الصحابة
وخلالهم في
اجتهادهم

قد تضمن اجتهاد
الصحابة

لها سكرى ولا نفقة وقد طلقت ألبتة . وقد قال في رده ذلك : لها السكنى والنفقة . لا نترك كتاب الله وسنة نبيه لقول امرأة لا ندرى حفظت أم نسيت . وقد احتج بقوله تعالى . « لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » . مع أن الآية في الحقيقة تعنى باللاتى لا يخرجن ولا يُخرجن غير المبتونات ، أى تعنى المطلقات طلاقاً رجعياً . لأن الآية تقول في تعليل النهى عن إخراجهن وخروجهن : « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » . ويعنى بالأمر الذى يرجى حدوثه هو رغبة الرجل فى المراجعة . والمطلقة ثلاثاً لا ترجى مراجعتها كما قالت فاطمة بنت قيس : « وأى أمر يحدث بعد الثلاث ؟ » . وقالت « بينى وبينكم كتاب الله » . وقد تقدم أيضاً أن أم المؤمنين عائشة كانت تذهب هذا المذهب — أى مذهب عمر — فى المطلقة ثلاثاً . وقد قالت لما حدثت حديث فاطمة بنت قيس : « لا خير لها فى ذكر ذلك » . وتقدم أنها كانت تنكر روايتهم أنه ﷺ وقف على قتلى بدر من المشركين وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم قائلاً لهم : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ لقد وجدت ما وعدنى ربي حقاً » الحديث . وتقدم أنها كانت تنكر روايتهم عن النبي عليه السلام « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » . ومثل هذا أن أباه ريرة كان يفسل يديه ويبالغ حتى يفسل عضديه مستدلاً بما رواه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إنكم تأتون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء » ، قال أبوهريرة : فن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل . وقد صح أن عثمان بن عفان كان يتم الصلاة فى السفر ، وقد خالفه الصحابة وخالفه الخليفةتان قبله . وصح عن علي بن أبي طالب أنه ذهب إلى أن المتوفى عنها زوجها تمتد بأبعد الأجلين إذا كانت حبلى مع أن السنة أن الحبلى تنقضى عدتها بوضعها ، والله يقول فى الكتاب :

« وأولات الأجمال أجلهن أن يضمن حملهن » . وقد قام خلاف بعد موت النبي عليه السلام وارتداد بعض العرب ومنع بعضهم الزكاة . فكان من اجتهاد عمر ابن الخطاب وآخرين معه من الصحابة ألا يقاتلوا ماداموا يشهدون فلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وكان رأى الصديق العظيم أن يقاتلوا على ذلك حتى يؤدوها . وقد قال في هذا الخلاف كلمته القوية الرائعة المشهورة : والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهن على منعه . فرجع عمر والجميع إلى رأى الصديق الأكبر . وقال الفاروق : فما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال فمرفت أنه الحق . وقد كان جماعة من الصحابة يرون حل متعة النساء ، ولم يبلغهم التحريم حتى نهام عمر بن الخطاب في خلافته عنها . وكذا اختلفوا في مسائل أخرى من مسائل الدين . وقد كان الصواب والحق في جانب أحد الفريقين المختلفين . وكانوا رضوان الله عنهم لا يتمهلون عن الرجوع إلى الحق والأخذ به إذا انكشف لهم .

وما قال أحد من أهل العلم : إن كل رأى يراه أحد الصحابة يكون حجة شرعية وبرهاناً من الله على خلقه . وإنما أجمع أهل الاسلام على أن الحجة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ، وفي إجماع المسلمين . لأن الإجماع يدل على أن الله نصاً وأمرآ في الكتاب أو السنة ، لأن الله لم يكن ليجمع المسلمين كلهم على الضلالة والجهالة .

وقد كان بعض الصحابة يجتهد في حياة النبي اجتهاداً يردّه النبي عليه الصلاة والسلام مثل ما جاء أن معاذ بن جبل سجد للنبي ، فأنكر عليه ذلك . وقال : « لو كنت امرأةً أحدت أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » . رواه الامام أحمد وابن ماجه . وجاء أن الصحابة كانوا في غزوة مع رسول الله فروا على قوم من المشركين يعكفون على شجرة ينوطون

من اجتهادات
الصحابة في حياة
رسول الله

بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط . فقالوا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط
كما لهم ذات أنواط . فقال ﷺ : « الله أكبر ! إنها السنن ! قلم والذي نفسى
بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . رواه أحمد
والترمذى ومصححه . وجاء أنهم حاولوا القيام له عليه السلام فأنكر عليهم ذلك
وقال : « لا تفعلوا فعل فارس والروم » . وقال له رجل مرة : ما شاء الله وشئت ،
فقال : « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحده » . رواه النسائى . وصح أنه عليه
السلام سمع عمر بن الخطاب يحلف بأبيه فأنكر ذلك عليه وقال : « إن الله ينهاكم
أن تحلفوا بأبائكم . ومن كان منكم حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . رواه
البخارى ومسلم . وصح أنهم كانوا يسألونه : متى الساعة ! — يحسبونه يعلم أوان
قيامها — فيرد عليهم بأن علمها إلى الله وحده . وقد جاء فى حديث رواه الطبرانى
باسناد فيه ضعف أن منافقاً كان يؤذى المؤمنين فقال بعضهم لبعض : قوموا بنا
نستفيث برسول الله من هذا المنافق ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنه
لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » . وجاء غير ذلك من اجتهادات الصحابة
ورد النهى عليهم ما اجتهدوا .

ومن هذا النوع اجتهاد عثمان بن حنيف فى تعليمه الرجل أن يدعو الدعاة
المذكور إن صح سند الرواية . وهذا الذى ذهب إليه ابن حنيف ليس هو مثل ما
ذهب إليه هؤلاء المخالفون الداعون للأموات ، لما كفون على قبورهم يدعونهم
الليل والنهار فى السراء والضراء . وإنما ذهب عثمان بن حنيف — على تقدير صحة
الرواية — إلى معنى آخر غير ما ذهبوا إليه . ذلك أنه ظن هذا الدعاء الذى علمه الرجل
دعاء يقال عند طلب الحاجات من الله ، لا لإسماع الرسول عليه السلام ، ولالدعائه
وطلب الشفاعة منه . بل ظن أنه سؤال وتوجه إلى الله ، لا على معنى أنه يسمع
ويدعو ، بل على معنى أن سؤاله به من أسباب الاجابة والقبول والرضا . ولهذا

مخرج لما ذهب
إليه عثمان بن
حنيف فى هذه
الرواية

علمه أن يقول : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة ». مع أنه يعلم أن النبي لم يدع له ولم يعلم من أمره شيئاً . وإذا كان النبي لم يدع لذلك الداعي الطالب ، ولم يعلم من أمره شيئاً لم يكن لقوله : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد » معنى إلا أن يكون المقصد دعاء الله به لادعائه هو ولا طلبه . ومن البرهان على صدق هذا أنه لم يأمره أن يأتي القبر النبوي ولا أن يقف حوله ، بل أمره أن يتوضأ وأن يصلي في المسجد ، لا عند القبر النبوي ولا قريباً منه ، لأنه لم يكن الغرض إسماعه ولا خطابه ودعائه ، وإنما كان الغرض دعاء الله به . ولو كان عثمان بن حنيف يريد من الرجل أن يخاطب النبي وأن يسمعه خطابه ، وأن يسأله الشفاعة لأمره أن يأتي القبر وأن يدنونه ليرسمه ، كما أن الأعمى لما أراد من النبي أن يدعو له الله وأن يطلب منه الشفاعة ذهب إليه وأباه ، ولم يخاطبه أو يطلب ذلك منه بعيداً . وهذا لا يخطر على بال أحد من الصعابة ولا بال أحد ممن قهقروا الاسلام .

ومن المحال أن يقال : إن عثمان بن حنيف كان يحسب وكان يرى أن النبي عليه السلام يسمع المخاطب له ، الطالب منه الشفاعة من كل مكان وفي كل مكان . ولا شك أنه قد ظن أن الخطاب في قوله : « يا محمد إني توجهت بك إلى ربي » مثل الخطاب في قول المتشهد : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » . ومثل الخطاب في قول زائر المقابر : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » ، ومثل الخطاب في قول نبي الله صالح لقومه بعد أن أهلكهم الله : « وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحببون الناصحين » ، وفي قول نبي الله شعيب لقومه المالكيين : « وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » ومثل أمثال ذلك . وعثمان بن حنيف من العرب الذين يعرفون فنون الكلام

ومن المحال أن
يظن عثمان بن
حنيف أن
الرسول يسمع
مخاطبه أين كان

ومذاهب القول ، ويعرفون أن من الخطاب مالا يراد به إسماع الخطاب ولا دعاؤه حقيقة. ويعرفون أن من لا يسمع لبعده ، أو لأنه لا يصلح للسمع أبداً ، قد ينادى وبوجه إليه الخطاب كأنه سامع حاضر لأمر من الأمور وغرض من أغراض البيان التي لا تخفى على أهل اللسان. فهذا الذي ذهب إليه عثمان بن حنيف بعيد جداً عما ذهب إليه المخالفون من سؤالهم للأموات ودعائهم لإياهم ليشفعوا لهم ويدعوا الله من أجلهم.

ومن البرهان
القاطع على
ما ذهب إليه

ومن البرهان القاطع على أن ما ذهب إليه ابن حنيف ليس هو هذا أمره الرجل أن يدعو بالدعاء الذي علمه الرسول الرجل الأعشى بالنص والصيغة ، ولم يأمره أن يدعو الله ويتوجه إليه بالنبي بصيغة أخرى ، ودعاء آخر. فكأنه ظن أن الدعاء المذكور مما يجيب الله عليه ومما يقبله من عبده بنصه ولفظه ، لا لأن فيه خطاباً للنبي عليه السلام بل لأنه خطاب لله . ولو كان عثمان قد فهم من الحديث جواز السؤال بالنبي وجواز خطابه وطلب الشفاعة منه حياً وميتاً لما كان هنالك ضرورة إلى المحافظة على صيغة دعاء الأعشى ، لأن الأعشى قد أمر بالدعاء بعد أن طلبه من النبي وبعد أن أجابه إلى طلبه فدعاه له فعلا . فحافظه عثمان على صيغة الدعاء الذي علمه الأعشى يدل دلالة ظاهرة جلية على أنه قد ظن بنصه ولفظه دعاء يجيب الله عليه ويعطى سأل به ما سأل ، ولولا ذلك الظن لأمره أن يسأل الله وأن يتوجه بنبيه إليه بصيغة أخرى تناسب حال من لم يدع له النبي عليه الصلاة والسلام . فان قوله هنا : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » إما أن يريد به التوجه إلى الله بدعاء النبي وشفاعته ، أو يريد به شيئاً غير هذا . فان كان يريد به السؤال والتوسل بدعائه وشفاعته عليه الصلاة والسلام قيل : ولكن النبي لم يدع له ولم يشفع ، بل ولم يعلم من أمره شيئاً ، فكيف يتوجه إلى ربه بدعاء من لم يدع له ؟ فان ظن أنه بطلبه الدعاء والشفاعة منه يدعو ويشفع

له يقيناً ، قيل إن هذا ليس بلازم ، فليس كل من طلب الدعاء من النبي عليه السلام ينال دعاءه لو كان حياً فكيف وهو ميت ؟ وفي الحديث الصحيح المشهورة : « سبقك بها عكاشة » . وهذا لا نزاع فيه . وقيل أيضاً : إن عثمان بن حنيف أمر الرجل أن يقول : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد » قبل أن يأمره بطلب الدعاء والشفاعة منه ، ففعل ذلك الرجل ما أمره به قبل أن يطلب من النبي الشفاعة والدعاء .

فإن قيل إن التوجه لم يكن بالدعاء والشفاعة قيل هذا حق ، وهذا يدل على أن عثمان لا يريد بما علمه الرجل أن يستشفع بالنبي وأن يخاطبه وأن يطلب منه دعاءه وشفاعته . فلا شك أن الأمر لو كان أمر استشفاع لأمر الرجل أن يطلب من النبي الشفاعة وأن يطلبه أن يدعو الله من أجله ، ثم لأمره أن يطلب من الله أن يقضى له شفاعة نبيه وأن يشفعه فيه ، لأن ينهب ابتداء فيأمره أن يقول : يا الله « إني أتوجه إليك بدعاء نبيك » . ولو أن أحد المسلمين في حياة رسول الله قال قبل أن يطلب منه أن يشفع ويدعوه له : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بدعاء نبيك وشفاعته » لكان غلطاً عظيماً . ولا ريب أن أغلط منه من قال بعد موته عليه السلام : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بدعاء نبيك » قبل أن يدعو له وقبل أن يطلب منه الدعاء - لو كان جائزاً طلبه . فالذي ذهب إليه ابن حنيف وغير ما ذهب إليه دعاة الأموات ودعاة النبي عليه الصلاة والسلام ، هؤلاء العاكفون على الأجداث ، بلا شك ولا ريب .

ومن المجيب أن المجيب أن يحتج الرافضى باجتهاد أحد الصحابة ، ويجعله برهاناً يحتج الرافضى باجتهاد واحد من البراهين وحجة من الحجج الشرعية ، وهو وطائفته الامامية ، الاثنا عشرية من الصحابة وهم يكفرون جواهر الصحابة ، ويكفرون الخلفاء الراشدين الثلاثة منهم ، ويدعونهم المنافقين والمرتدين والمارقين بل عندهم أن موافقة القول والمنهج لما ذهب إليه

الصحابة والمسلمون الذين ليسوا شيعة من الدلائل على بطلانه وفساده وازوراره
عن الحق والهدى ! فاذا كان هنالك منحيان وقولان ورأيان في مسألة من المسائل
نظروا إلى القول والرأى والمنهج الذى ذهب اليه المسلمون فتركوه ، ثم اعتقدوا
لزوماً ووجوباً أنهم ماتركوا إلا الباطل والضلال والجهل والغباء ، وأنهم ما أخذوا
إلا بالحق الناصع المكشوف والبرهان الظاهر . لأنهم يعتقدون أن الحق أبداً
ودائماً يكون فى خلاف ما ذهب إليه المسلمون وفى خلاف ما هدوا إليه ، إذ هم
لا يهتدون أبداً إلا إلى الباطل والضلال والزيف والفساد . . . فخالفوا المسلمين من
مقاصد الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية . . . ومؤلفو الطائفة لا يتهيبون أن يكتبوا
هذا البلاء ، وأن ينشروه على الناس بلا أدب ولا حياء . وقد قال أحد شيوخهم
وهو الشيخ مرتضى الأنصارى التستري فى كتاب « فرائد الأصول » صفحة
٣٢٥ وما بعدها : « . . . روى المشايخ الثلاثة بإسنادهم عن عمر بن حنظلة قال سألت
أبا عبد الله عن رجلين من أصحابنا يكون بينهما منازعة فى دين أو ميراث
فنحكما إلى السلطان أو إلى القضاة ، أمجل ذلك ؟ قال : من تحاكم إليهم فى حق أو
باطل فانما يتحاكم إلى الطاغوت . وما يحكم به له فانما يأخذه سحتاً وإن كان حقه .
ثابتاً ، لأنه أخذه بحكم الطاغوت ، وإنما أمر الله أن يكفر به قال الله : « يريدون
أن يتجسسوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » . إلى أن قال - قلت : فان
كان الخبران عنكم مشهورين قد رواهما الثقات عنكم ؟ قال ينظر ما وافق حكمه حكم
الكتاب والسنة وخالف العامة - والعامة فى كلام الشيعة هم أهل السنة - فيؤخذ .
به ويترك ما خالف الكتاب والسنة ووافق العامة . قلت : أرايت إن كان
القبهان عرفاً حكماً من الكتاب والسنة فوجدنا أحد الخبرين موافقاً للعامة .
والآخر مخالفاً فبأى الخبرين يؤخذ ؟ قال : ما خالف العامة ، ففيه الرشاد . قلت :
فإن وافقهم الخبران جميعاً ؟ قال : ينظر إلى ما هم إليه أميل : حكمهم وقضاتهم -

فيترك ويؤخذ بالآخر . قلت : فان وافق حكمهم انخيرين جميعاً ؟ قال : إذا كان ذلك فأرجه حتى تلقى إمامك . فان الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في المللكات . . . » .

ثم قال : « روى ابن أبي جهور الاحسائي في « عوالي اللآلى » مرفوعاً إلى زرارَةَ قال سألت أبا جعفر فقلت له : يأتي عنكم الخبران والحديثان المتعارضان ، فبأيهما آخذ ؟ قال : يا زرارَةَ خذ بما اشتهر بين أصحابك ودع الشاذ النادر . إلى أن قال - فقال : انظر ما وافق منهما العامة فتركه وخذ بما خالف ، فان الحق في ما خالفهم » .

اخبار الشيعة في وجوب مخالفة المسلمين واسباب وجوب هذه المخالفة عندهم

ثم قال : « وعن رسالة القطب الراوندي باسناد صحيح عن الصادق : إذا أورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله . فما وافق فخذوه ، وما خالف فذرّوه . فان لم تجدوه في كتاب الله فاعرضوهما على أخبار العامة . فما وافق أخبارهم فذرّوه ، وما خالف أخبارهم فخذوه » .

ثم قال : « وروى أيضاً بسنده قال قال أبو عبد الله : إذا ورد عليكم خبران مختلفان فخذوا ما خالف القوم » .

ثم روى بعد هذا أخباراً كثيرة كلها توجب الأخذ بما خالف أهل السنة والجماعة ، وكلها تحدث أن الحق لا يكون معهم أبداً ، وأن الباطل لا يفارقهم أبداً . ثم قال الشيخ مرتضى الأنصاري في الكتاب الآف الذكر صفحة ٣٤٤ « قال في العدة : إذا كان رواية الخبرين متساوين في المدد عمل بإمدهما من قول العامة ، وترك العمل بما يوافقهم » . قال : « أقول : وتوضيح المرام في هذا المقام أن ترجيح أحد الخبرين بمخالفة العامة يمكن أن يكون بوجوه : أحدها مجرد التعبد كما هو ظاهر كثير من الأخبار . الثاني كون الرشاد في خلافهم كما صرح به في غير واحد من الأخبار المتقدمة ، ورواية علي بن أسباط قال قلت للرضا :

جواب

يحدث الأمر لا أجد بداً من معرفته ، وليس في البلد الذي أنا فيه أحد أستغنيه من مواليك ! فقال أعط فقيه البلد واستغته في أمرك ، فإذا أفتاك بشئ فخذ بخلافه فان الحق فيه . وأصرح من ذلك كله خبر أبي إسحاق الأرجاني قال قال أبو عبد الله : أتدري لماذا أمرتم بالأخذ بخلاف ما يقول العامة ؟ فقلت : لأدري ، فقال إن عليا عليه السلام لم يكن يدين الله بشئ إلا خالف عليه العامة إرادة لا بطل أمره (٩) وكانوا يسألونه عن الشئ الذي لا يعلمونه فإذا أفتاهم بشئ جعلوا له ضداً من عندهم ليلبسوا على الناس . الثالث حسن مجرد المخالفة لهم . ومرجع هذا المرجح ليس الاقربية إلى الواقع . بل هو نظير ترجيح دليل الحرمة على الوجوب ودليل الحكم الأسهل على غيره . ويشهد لهذا الاحتمال بعض الروايات مثل قوله عليه السلام : إن من وافقنا خالف عدونا في قول أو عمل فليس منا ولا نحن منه . وهذه العبارة ظاهرة التحريف ولعل صوابها : ولم يخالف عدونا . ورواية الحسن بن خالد : شيعتنا المسلمون لا أمرنا ، الآخذون بقولنا ، المخالفون لأعدائنا . لو من لم يكن كذلك فليس منا . فيكون حال اليهود الوارد فيهم قوله عليه الصلاة والسلام . « خالفوم ما استطعتم » . الرابع الحكم بصدوره تقيه . ويدل عليه قوله عليه السلام « ما ممعته مني يشبه قول الناس فقيه التقيه ، وما سمعته مني لا يشبه قول الناس فلا تقيه فيه » . ثم روى عن أبي عبد الله أنه قال : « ما أنتم والله على شئ مما هم فيه ، ولا هم على شئ مما أنتم فيه ، فخالفوم فانهم ليسوا من الخنيفية على شئ » . ثم ساق أخباراً في هذا المعنى .

كل ما يقول أئمة
الشيعة مواها
لما عليه للمسلمون
فلا بد ان تكون
التقيه دخلته

فعند طائفة هذا الرجل أنه ، طلب منهم أبداً أن ينهبوا إلى خلاف مذهب إليه المسلمون ، وأن يعتقدوا ويقولوا خلاف ما اعتقدوا وقالوا ، لأن الرشد لا يوجد إلا في ما لم ينهبوا إليه ، ولأن الضلال لا بد أن يوجد في ما ذهبوا إليه ، ولأن أمرهم واعتقادهم أبداً على الباطل والضلال والغي ، ولأنهم أبداً ليسوا

على شئ من الخيفية التي هي ملة إبراهيم وملة محمد وملة جميع الأنبياء والمرسلين. والمؤمنين ، ولأنهم لا يمكن أن يكونوا على شئ مما عليه الشيعة الراشدة المهدية ولأن الشيعة المهدية الراشدة لا يمكن أن تكون على شئ مما عليه أهل السنة الضالون المارقون ! فالشيعة أبداً مطالب بأن يخالف أهل السنة وأن يخالف ما قالوا واعتقدوا ، ومطالب أبداً بأن يتعبد بمخالفتهم وبالذهاب خلاف ما ينهجون وخلاف الجهة التي يقصدون . والشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية ، مطالب أبداً بأن يخالف أهل السنة وجمهور المسلمين وعامة الصحابة وكبارهم وساداتهم كما يخالف اليهود - شر الأمم وأبعد الشعوب عن قلوب الشعوب ، وعن احترامهم وموالاتهم . والشيعة مأمور أبداً بأن يعتقد ويؤمن بأن الأحسن له ديناً وعقيدة أن يباين المسلمين ، وألا يذهب إلى شئ ذهبوا إليه : فلا يذهب إلى شئ ذهب إليه أبو بكر وعمر وعثمان أو غيرهم من الصحابة والمسلمين ، ومأمور بأن يؤمن أبداً بأن الرشد والهدى والحق في خلاف ما ذهبوا إليه وما اعتقدوه وقالوه . ومطلوب منه في جميع حالاته بأن يؤمن بأن كل ما يأتي عن الأئمة المعصومين موافقاً لما عليه المسلمون فهم إنما قالوه وذهبوا إليه تقية لعقيدة ، لا لأن الحق فيه ، ولأن حكم الله يوافقه : فكل ما عمله على بن أبي طالب أو الحسن أو الحسين أو زين العابدين أو الصادق أو الباقر أو غيرهم من الأئمة المعصومين في زعمهم - : نعم كل ما عمله هؤلاء أو قالوه أو ذهبوا إليه فجاء موافقاً لما كان عليه أبو بكر أو عمر أو عثمان ، أو موافقاً لما كان عليه الموالون لهم ، فلا بد أن يكون صدوره عن الأئمة المعصومين تقية وخداعاً ونفاقاً ، ولا بد أن يكون حكم الله في خلافه . . . فإذا قال أبو بكر وعمر وعثمان أو غيرهم من الموالين لهم ، الآخذين بسيرتهم : إن الله واحد وإن محمداً رسول الله ، وإن الاسلام حق ، وإن مكة في الحجاز ، وإن الحجاز من بلاد العرب ، وإن المدينة هي البلدة التي هاجر إليها رسول الله وصحابته ، وإن

جسد رسول الله هنالك - : إذا قالوا ذلك فلا بد أن يعتقد الشيعة أنهم كاذبون ضالون جاهلون وأن يعتقد ويقول : إن الحق والرشاد في مخالفتهم في مقالاتهم هذه والذهاب خلاف مذهبوا فيها ، وإذا جاء عن علي ابن أبي طالب أو عن واحد من ذريته المعصومين شيء من هذا الذي قاله العامة واعتقدوه فلا بد أن يكون تقية وأن يكون نفاقا : كل هذه مطلوب من الشيعة ، الإمامي . ومطلوب منه أيضا أن يسأل علماء السنة وفقهاء الجمهور من المسلمين ، فإذا أفتوه فتوى وقالوا له قولاً وجب عليه أن ينحسب إلى خلاف فتوأم وقولهم . فإذا أفتوا بأن هذا حلال وجب أن يعتقد هو أنه حرام ، وإذا أفتوا بأنه حرام وجب عليه أن يعتقد أنه حلال ، وإذا أجابوا بأن الزنا جريمة وجب عليه أن يعتقد أنه فحشيلة ، وإذا قالوا إن الشرك والاثم والظلم والعدوان جرائم وآثام وجب أن يعتقد أنها دين وقرب إلى الله ، وإذا قالوا إن الرسول صادق ، وإن الله صادق ، وإن القرآن كلام الله ، وإنه لم يزد فيه ولم ينقص منه ، ولم يحرف ، وجب عليه أن يعتقد خلاف ذلك كله ، وأن يقول هو : إن الرسول كاذب وإن الله كاذب ، وإن القرآن ليس كلام الله وإنه محرف منير بالزيادة والنقصان والترتيب والنظام يقول الشيعة ، الإمامي ذلك كله ليتحقق له مخالفة العامة وليصدق ما نقلوه عن الإمام كل ذلك مطلوب من الشيعة الإمامي : « ما أنتم والله على شيء ممام فيه ، ولا هم على شيء مما أنتم فيه » وقوله : « وإن علياً لم يكن يدين الله بشيء إلا خالف عليه العامة » وقوله : « ما سمعته مني يشبه كلام الناس ففيه التقية ، وما سمعته مني لا يشبه كلام الناس فلا تقية فيه » وقوله أيضاً : « استفت فقيه البلد فإذا أفتاك بشيء فخذ بخلافه ، فإن الحق فيه » . هذا كله مطلوب من الشيعة الإمامي . ومطلوب منه أيضاً أن يعتقد أن قضية المسلمين وحكامهم طواغيت كلهم ، لافرق بين فلان وفلان ، وأن التحاكم إليهم وإلى محاكمهم من التحاكم إلى الطواغيت التي أمر المسلمون بالكفران بها

وأن من أخذ حقه الثابت المعلوم من طريقهم وطريق حكوماتهم وأحكامهم وحكامهم قائماً يأخذه سحتاً وحراماً ، فلا يحل له أخذه ولا الانتفاع به . ولا ندري ماذا يقولون في من يأخذون حقوقهم ، أو يحاولون أخذها من طريق المحاكم الالحادية أو المحاكم الانجليزية والفرنسية من طائفتهم الشيعة ! يقولون إنهم يأخذونها سحتاً وحراماً باطلاً ، وإن الرجوع إلى تلك المحاكم للحصول على الحق المعلوم المنتصب من التحاكم إلى الطواغيت ، وإن كل ما يؤخذ من تلك المحاكم — وإن كان الحق الثابت الذي لا ريب فيه — يكون حراماً على أخذه وصاحبه ؟

فصند هؤلاء الخنوليين الأبعدين أن رجلين من المسلمين لو ظلم أحدهما الآخر فذهب المظلوم إلى أبي بكر الصديق أو إلى عمر بن الخطاب أو إلى عثمان - فضلاً عن دونهم - قضى له بحقه المظلوم عليه ، وأخذ على يدي الظالم - عند هؤلاء الخنوليين الأبعدين أن هذا القضاء باطل ، وأن أخذ الحق المأخوذ من طريقه لا يحل ، وأن ذلك المتقاضى آثم ظالم متحاكم إلى طاغوت أمر أن يكفر ، وأن ذلك القاضي - أبا بكر أو عمر أو عثمان - طاغوت من الطواغيت التي نهى الله عن التقاضي إليها والرضا بها وبحكمها .

هذا كله من دين الشيعة الامامية الاثنا عشرية ، الذين يحتجون في موضوع عبادة القبور والمكوف على الأحجار والأشجار باجتهاد محابي واحد ! إننا لا نقول : كيف لا ينتق الله هؤلاء القوم ، ولا كيف لا يخرجون ولا كيف يكتبون هذه الفضائح الاعتقادية : لا نقول شيئاً من هذا ، لأن الغاية التي يسعون إليها والأغراض التي يخدمونها تميز لهم هذه الوسيلة ! وإنما نقول : من العجيب أن تقول الشيعة هذه الأقاويل ، وتعتقد هذه العقائد ، وتدونها في كتبها ثم يوجد في المسلمين المخلصين للإسلام من يفارون لهم ، ومن يتقربون

إليهم ، ومن يكرهون خلافهم وشقاقهم ، ويسعون للاتحاد بهم والتأليف بينهم وبين المسلمين . . . ومن المحال أن يتحدوا بالمسلمين أو يصادقوهم أو تهوى أفتدنتهم نحوم ، أو تعطفهم عليهم العواطف ، أو تصرفهم إلى ودم وموالاتهم الصوارف ، مادامت هذه الكتب كتبهم ، وهذه الأقوال أقوالهم ، وهذه المناهل مناهلهم . فانهم بهذا ، ولاريب ، أبعد عن المسلمين وعن ولائهم وعن صداقتهم وودم من أهل الملل الأخرى ، وأهل الأديان المحاربة أصولها لأصول الاسلام . فانه لا يوجد أهل دين - مهما باعد الاسلام وباينت أصوله أصوله - يعتقدون أن المفروض عليهم أولاً أن يخالفوا المسلمين وأن يعتقدوا أن مخالفتهم من أغراضهم وأغراض دينهم ، وأن يعتقدوا بطلان كل ما يذهبون إليه ، وكل ما يعتقدونه . وأن يعرفوا الحق ويعرفوه أنه ما جانبه المسلمون ، والباطل بأنه ما ذهب إليه المسلمون ، وأن يقول رؤسائهم لدهمائمهم : إن كل ما فعله ونقوله مما يعتقده المسلمون ويفعلونه ويقولونه لا بد أن نكون إنما فعلناه وقلناه تقية ، لأننا لا يمكن أن نوافق المسلمين في أمر من الأمور ، ولا في عقيدة من العقائد ، ولا في قول من الأقوال . إن اليهود - وهم أعنف الناس خصومة وعداً للاسلام والمسلمين - لا يذهبون إلى ما ذهب إليه الشيعة المسلمة من الخاصة لأهل الاسلام ولأهل السنة خاصة . فأى رجاء رجاء التأليف بين الفريقين ؟

إذا كانت مخالفة أهل السنة واجبة فلماذا لا يخالفونهم في دعوة الاموات والمكوف على القبور

وعلى هذه المذاهب التي نقلناها وذكرناها ورويناها من كتب القوم مروية عن الأئمة المصومين لديهم نسأل الرافضى المصنف سؤالاً محرّجاً معجزاً لا يرجى أن يجده جواباً ولا حلاً . هذا السؤال هو أن نقول : هذا الحديث - أعنى حديث الأئمة برواياته وزياداته - وغيره من الأحاديث المنقولة من كتب أهل السنة المروية بأسانيدهم ، المكتوبة بأقلامهم ، المشروحة بكلامهم ، تدل عندك على أن أهل السنة وهم العامة يميزون التوسل الذى تدعو إليه ، ويميزون دعوة

الأموات ، وسؤالهم والاستغاثة بهم وسائر هاتيك الباطلات الخزية ، القائمة على الأضرحة . بل زعمت أنت في مواضع من كتابك هذا وفي غيره أن العامة - أي أهل السنة - قد أجمعوا على ذلك ما خلا الوهابيين : أجمعوا على جواز التوسل بالأموات ودعائهم والاستغاثة بهم ، والبناء على القبور وإسراجها وطرح الزينات والمعلقات عليها ، وشد الرحال إليها ، وعلى جواز الذبح والنذر لها ، وإهداء الهدايا وتقديم القرابين إليها : كل هذا تزعم أن أهل السنة ذهبوا إليه وأجازوه وفعلوه ودعوا إليه . ونحن هنا نقول : إذا كان هذا كله صحيحاً عن العامة أي عن أهل السنة ، أفأما كان الواجب على الشيعة المأمورة بمخالفة العامة بدلالة الأخبار السابقة أن ينهبوا إلى خلاف ما ذهب إليه أهل السنة ، فينهبوا إلى تحريم هذه المعتقدات كلها والحكم بخروجها على الحق والدين ، وبجائبتها لمذاهب الأئمة المعصومين الذين كانوا لا يدينون بشيء كانت العامة تدين به ، والذين كانوا يقولون : « ما أنتم على شيء مما هم فيه ، ولا هم على شيء مما أنتم فيه » ؟ أفأما كان المفروض حينئذ على الشيعة الإمامية الاثنا عشرية أن يحققوا هذه المخالفة للعامة المطلوبة منهم ، الموجبة عليهم ، فينهبوا إلى منع كل ما أجازته العامة من التوسل ودعاء الأموات والاستغاثة بهم والبناء على القبور وشد الرحال إليها وإلقاء الزينات والمعلقات فوقها ؟ نعم كان الواجب عليهم أن يصيروا هذا المصير ، وأن ينهبوا هذا المذهب إذا كانوا صادقين في نقلهم عن أئمتهم ، وكان أئمتهم صادقين في أنفسهم ، وكان ما ينقلون ويندكرون حقاً وصحياً . وهذا لازم لهم لزوماً لا مهرب لهم منه حتى يتاح لهم الهروب من أنفسهم ، وحتى يتواروا في أفواه العدم وفوهات الفناء الأبدي .

لزام معجز ويمكن أن نسألهم هذا السؤال ، ونسوق إليهم هذا الالتزام بأسلوب آخر بأن نقول : هل عندكم دلائل عن أئمتكم وعن اعترقكم بأنكم لا تفهمون الدين

ولا الإسلام ولا القرآن ولا السنة إلا بإرشادهم وكلاءهم وبيانهم: هل لديكم دلائل عن هؤلاء تدل على جواز التوسل، وجواز دعوة الأرواح والاستغاثة بهم، وجواز جميع ما تأتونه عند القبور؟ فإن قلتم: نعم، عندنا دلائل عنهم تدل على جواز ذلك كله، قلنا لكم: إنهم قد أنباؤنا وأنباؤكم بالأخبار السابقة بأن كل ما يقولونه وما يذكرونه وما يفعلونه، موافقاً لما عليه أهل السنة من المسلمين فلا بد من أن يكون ذلك منهم تقية، ولا بد أن يكون الحق والهدى في خلافه. فكل ما في أيديكم مما يدل على الجواز عن الأئمة المعصومين لا يمدو أن يكون تقية وأن يكون الرشد في خلافه وفي تركه. أما إن قلتم إنه لا دلائل عندنا عن أئمتنا على جواز هذه الشريكات والضلالات، قلنا لكم: شيء لا دليل لكم عليه كيف يجوز لكم أن تدينوا الله به وأن تدعوا إليه المسلمين، إن كنتم الحق والدين والخير تريدون؟ أما إن قلتم إن الدلائل عندنا هي إرشاد أئمتنا لنا بأن نخالف الجمهور وما عليه المسلمون قلنا لكم إذن واجب عليكم أن تذهبوا إلى خلاف ما ذهبوا إليه، وقد زعمتم بأنهم قد ذهبوا إلى جواز كل ما يُنحله الموتى والأشباح عند قبورهم من التعظيم والتقدیس وصنوف التأليه والعبادة، وقد زعمتم أن الصحابة كانوا من المتوسلين، وأن عدوكم الأكبر عمر بن الخطاب كان من المتوسلين كما في حديث الاستسقاء بالعباس، وأن المسلمين كلهم كانوا من المتوسلين ما خلا الوهابيين. فواجب عليكم تحريم هذا التوسل وتحريم كل هذا البلاء، ولا مفر لهذا الشيء ولاخوانه من هذا السؤال وهذا الإلزام ولو طاروا على أجنحة عنقاء مغرب، أو هربوا مع الامام للمقصوم المارب على قوادم الريح، يذرفون المغارات والفيافي: مغارة مغارة، جوفياء فيفاء.

﴿ الشبهة التاسعة سؤال النبي بحق الأنبياء قبله ﴾

المشبهة التاسعة ما رواه الطبراني عن أنس بن مالك قال: لما ماتت فاطمة

حديث سؤال النبي
بحق الأنبياء قبله

بنت أسد بن هاشم ، أم علي بن أبي طالب ، وكانت قد ربت النبي عليه السلام ، دخل عليها رسول الله فجلس عند رأسها ثم قال : « رحمك الله يا أمي بعد أمي » . وذكر ثناءه عليها ، ثم كفتها ببردته وأمر بحفر قبرها . قال : فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه ثم قال : « الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ووسع لها مدخلها بحق نبيك والآنبياء الذين من قبل ، فانك أرحم الراحمين » وكبر عليها أربعاً ، وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق . رواه الطبراني في الكبير والأوسط . وفيه روح بن صلاح ، وثقه ابن حبان والحاكم ، وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح . كذا في « مجمع الزوائد » . وذكر من حديث ابن عباس نحوه إلا أنه ليس فيه هذه الزيادة ، أعنى قوله . « بحق نبيك ، والآنبياء الذين من قبل » . وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه راو مجهول . وبقية رجاله ثقات .

والجواب أن يقال : أمارواية ابن عباس فلا شيء فيها لأنها خالية من هذه الزيادة ، زيادة السؤال بحق النبي وحق الأنبياء على ما في سندها من الجهالة التي ذكرها الحافظ الميثمي . وأما رواية أنس فهي التي فيها استدلال المخالف لو كانت صحيحة ثابتة . ولكن يقال : نحن ليس لدينا معجم الطبراني : لا الكبير ولا الأوسط ، حتى نستطيع أن ننظر في الاسناد وفي مكانته من الصحة والضعف ، والصمود والمبوط . وليس لمسلم أن يحتج بحديث لا يدرى أثابت هو أم غير ثابت ، ولا سيما إذا كان مروياً في أمثال معجم الطبراني الثلاثة ، فانها ملأى بالأخبار الضعيفة والمنكرة ، وبالأخبار الموضوعة التي لا يحل لمسلم أن يقيم عليها

عقيدة من عقائده ولا أمراً من أموره .

ثم في سنده علم ، قول صاحب « مجمع الزوائد » وقول المخالفين ، روح

بخطه ضعيف
فيه روح بن
صلاح

ابن صلاح المصري ، المكنى بأبي الحارث ، المشهور بابن سيابة . ضعفه ابن عدى الحافظ ، ووضعه ابن حبان في ثقاته ، وقال الحاكم : ثقة مأمون . ذكره هذا الذهبي في الميزان . وذكره الحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » : وقال بعده : « ذكره ابن يونس في تاريخ الغرباء ، فقال من أهل الموصل ، قدم مصر وحدث بها . رويت عنه منا كبير . وقال الدارقطني : ضعيف في الحديث . وقال ابن ماكولا : ضعفه . وقال ابن عدى بعد أن أخرج له حديثين : له أحاديث كثيرة في بعضها نكرة » . ذكر هذا كله في « لسان الميزان » . فالأكثر من إذا من علماء النقد وعلماء الجرح والتعديل يضعفونه . وتوثيق ابن حبان والحاكم له لا يمكن أن يعارض به جرح هؤلاء الذين جرحوه أمثال ابن عدى والدارقطني وغيرهما . لأن ابن حبان والحاكم ، كما تقدم ، متساهلان لينان في تقديمهما وحكمهما في هذا الشأن . أما ابن حبان فإنه ذكر في كتابه الذي وضعه لثقة الرواة من هم بعيدون عن الثقات ، فذكر فيه المجهول والضعيف ، بل والكذاب . ومن العجيب أنه وضع في كتابه هذا من ضعفهم هو نفسه . ومثله في هذا الحاكم فإنه يضعف الرجل ثم يصحح حديثه . وقد ضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ثم صحح حديثه الذي رواه في سؤال آدم ربه بحق محمد ﷺ . والحاكم أوهى في هذا الشأن من ابن حبان وأوهن . وهو في توثيق الرواة مثل نفسه في تصحيح الأحاديث . فإنه كما يصحح الأحاديث الباطلة والموضوعة المكنوبة كذلك يوثق الراوى الضعيف والوضاع الكذاب . وقد أكثر من هذا في مستدركه على الصحيحين حتى أضاع قيمته العلمية وحتى ساء لهم أن يهتموه في اعتقاده ومنهجه . وقد قال الحافظ الذهبي في « الميزان » : « الحاكم أبو عبد الله الحافظ صاحب التصانيف - إمام صدوق ولكنه يصحح في مستدركه أحاديث ساقطة ويكثر من ذلك . فما أدرى هل خفيت عليه ! فما هو من يجبل ذلك . وإن علم فهذه خيانة عظيمة . ثم هو

كلام الناس في
الحاكم ولى
تصحيحه
الأحاديث

شيعى مشهور بذلك من دون تعرض للشيخين . وقال ابن طاهر : سألت أبا إسماعيل الأنصارى عنه فقال : إمام فى الحديث ، رافضى خبيث . قلت : الله يحب الانصاف ، ما الرجل برافضى ، ولكن شيعى فقط . . . » انتهى كلام الذهبى من الميزان . ونقل الحافظ ابن حجر العسقلانى فى « لسان الميزان » هذا الذى نقله الذهبى وزاد عليه قوله : « والحاكم أجل قدراً من أن يذكر فى الضعفاء ، ولكن قيل فى الاعتذار عنه : إنه عند تصنيفه المستدرک كان فى أواخر عمره . وذكر بعضهم أنه حصل له تغير وغفلة فى آخر عمره . ويدل على ذلك أنه ذكر جماعة فى كتاب الضعفاء له وقطع بترك الرواية عنهم ، ومنع من الاحتجاج بهم ، ثم أخرج أحاديث بعضهم فى مستدرکه وصححها . من ذلك أنه أخرج حديثاً لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وكان قد ذكره فى الضعفاء ، فقال : إنه روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه . وقال فى آخر الكتاب : فهؤلاء الذين ذكرتهم فى هذا الكتاب ثبت عندي صدقهم (كذا فى طبعة الهند ، وهو غلط ظاهر . والصحيح عدم صدقهم أو نحوه) لأننى لا أستحل الجرح إلا مبيناً ، ولا أجزئه تقليداً . والذى أختار لطالب العلم أن يكتب (والصحيح الا يكتب) حديث هؤلاء أصلاً » انتهى كلام ابن حجر فى لسان الميزان . وقد تقدم ما نقله الخطيب البغدادى فى التاريخ وأنه قال فى ترجمة الحاكم نقلًا عن أبي إسحاق : إبراهيم بن محمد الأرموى النيسابورى قال : « جمع الحاكم أبو عبد الله أحاديث زعم أنها صحاح على شرط البخارى ومسلم ، يلزمها إخراجها فى صحيحيهما . فأنكر عليه أصحاب الحديث ذلك ، ولم يلتفتوا فيه إلى قوله ولا صوبوه فى فعله . » انتهى كلام الخطيب . وذكر الذهبى فى تذكرة الحفاظ من ترجمة الحاكم مثل ما ذكره فى « الميزان » . فرجال الحديث النقاد مجمعون على ضعف الحاكم فى تصحيحه وفى رأيه فى هذا الشأن .

وبعضهم يتهمة في ذلك ، وبعضهم يرجع هذا الضعف إلى الاختلاط والتغير الذي اتنا به في آخر عمره . والذي لا شك فيه عندنا أن الرجل أجل من الاتهام وأرفع قدراً من أن يرجع شيء من هذا إلى اعتقاده ومنهجه ، وإنما الأمر هو ما ذكره الحافظ العسقلاني في « لسان الميزان » وغيره من اختلاط الرجل وتغيره .

فتوثيق ابن حبان والحاكم ومن في طبقتهما لروح بن صلاح هذا لا يعتمد به في معارضة تضعيف الناقدين البصيرين البارعين له : ابن عدي والدارقطني . فان هذين الحافظين من أبرع الناس وأحذقهم وأبصرهم بالرجال وبعلم الجرح والتعديل وبمعرفة هذا الشأن كله . فاذا ضعف الدارقطني وابن عدي راوياً وثقة مثل الحاكم وابن حبان فلا ريب أن الانصاف يقضى بتقديم تضعيفهما على توثيقهما وتوثيق أمثالهما . وهذا لا يدق على فهم الذكي من المشتغلين بهذا الفن . وليس هذا راجعاً عندنا إلى أن الجرح مقدم على التعديل كما يقولون . ولكنه راجع إلى ما بين أمثال الدارقطني وابن عدي وأمثال ابن حبان والحاكم من فرق وتفاوت في معرفة هذا العلم .

وهذه الطريقة التي ذكرها علماء الحديث من تقديم الجرح على التعديل تقضى أيضاً بتضعيف روح هذا وتقديم تضعيف ابن عدي والدارقطني وابن ما كولاء وابن يونس له على توثيق ابن حبان والحاكم . كيف والمضعفون أكثر عدداً من الموثقين ، وهذا ترجيح آخر مستقل . ولكننا نحن لانرجح ضعفه عملاً بهذه القاعدة والطريقة ، لأنها في رأينا طريقة ليست مقبولة ولا مأخوذة ولا صحيحة على إطلاقها وإجمالها وعمومها . إذ لو صحت وصدقت شاملة عامة لقضت بتضعيف رواية هم من أوثق الرواة وأجلهم وأصحهم حديثاً ورواية . ولأننا نجد من الظلم البارز البغيض أن ترد حديث من وثقه السواد الأعظم والجمهور الأكثر

الكلام على الجرح والتعديل وتقديم أحدهما على الآخر

من علماء الجرح والتعديل ونقده الرجال لأن رجلاً أو رجلين نزت بهما نوازي التشدد والتطرف فقال أو قالاً : إنه سئ الحفظ ، أو بهم ، أو ضعيف ، أو فاسد المنهج والاعتقاد . . . وهو قد يكون من أئمة الحديث وحفاظ الدنيا وسلاطين المحدثين . . . وقول القائلين - في توجيه تقديم الجرح على التعديل إطلاقاً - : إن الجرح قد يكون علم ما لم يعلم الموثق المزكى ، وأطلع على ما لم يطلع عليه - : قول فيه شيء من الصواب والصدق ، ولكن لا كل الصواب ولا كل الصدق . وذلك أن من ضعف راوياً قائلًا : إنه سئ الحفظ ، أو يغلط ، أو بهم ، أو يكذب ، أو يقلب الأخبار والأسانيد ، أو نحو ذلك - مما مرجع القدر فيه إلى اتهام الحفظ - قد يكون هو المقدوح فيه ، وقد يكون هو الناظر الواهم . فان من قال : فلان غير متقن ، أو غير حافظ ، أو غير ضابط ، لا يقول ذلك إلا بحسب علمه وحفظه وإتقانه ، وهذا لا شك فيه . ولكن ألا يمكن أن يكون حينئذ هو نفسه الذي لم يحفظ ولم يتقن ولم يضبط ، فيكون قد خدع قائماً على غلطه ووهمه ، فلا يكون حجة ؟ إذن فنحن لا نقبل هذه الطريقة على إجمالها وإطلاقها ، ولنا نضعف روح بن صلاح هذا بهذه الطريقة نفسها . وإنما نضعفه لأنه ضعيف على ما ذكر ابن عدي والدارقطني وابن ماكولاء وابن يونس والحافظ الهيثمي . وتوثيق ابن حبان والحاكم له لا يعارض تضعيف هؤلاء لما ذكرناه .

وكلام الرافضين
ابن حبان

على أن هذا الشيعة المصنف قد ذكر ابن حبان صفحة ٣٣٣ وما بعدها من كتابه هذا فكذبه في تضعيفه عطية العوفي وفي تضعيفه على بن موسى الرضا وكفروه لقوله في الأخير : « إنه يروى عن أبيه المعجائب وإنه كان بهم ويخطئ » وقد سبه لقوله هذا سباً قبيحاً وهجاء هجاء مرأ ، وزعم أن الذي حمله على تضعيف على بن موسى الرضا بنفضه لآل النبي الذين أمر الله بمحبهم وولائهم . وبنفض على وحده - فضلاً عن بنفض جميع آل البيت - كفر وردة عند طائفة هذا

الشيعة . فكيف إذن يقبل قول ابن حبان في روح بن صلاح ويرد قوله في عطية
بالعوفى وفى على بن موسى الرضا ؟ وكيف يصح له أن يعتمد في تزكية روح هذا
على قول ابن حبان وهو كافر عندهم لأنه كان كارهاً لقراءة النبي عليه السلام ؟

من حبيبهم
الشيعة ومطهرهم
من آل النبي

ومن أعجب ما كتبه الشيعة - وكل ما يكتبونه مخالفاً لأهل السنة عجيب -
قول هذا الشيعة صفحة ٣٣٤ من كتابه هذا دفناً لما قاله ابن حبان في على بن
موسى الرضا نقلاً عن سماه بعض العلماء : « انظر إلى هذه الجرأة العظيمة من
هذا المغرور (يعنى ابن حبان) كيف يوم ويخطئ ابن بنت رسول الله ووارث
علمه ، أحد علماء العترة النبوية ، وإمامهم المجمع على غزارة علمه وشرفه . وليت
شعري كيف ظهر لهذا الناصبي الذي أفنى عمره في علم الرسوم لأجل الدنيا حتى
قال بها قضاء بلخ وغيرها - وم على بن موسى الرضا وخطؤه ، وبينهما نحو مائة
وخسين عاماً لولا بنفوذ التزبي النبوية التي أمر الله بحبها ومودتها ، وأمر
رسول الله بالتمسك بها ؟ قائلهم الله أنى يؤفكون ! » . هذا ما نقله تلميذاً لابن
حبان ورداً لقوله ، واتهاماً لدينه ، وتضليلاً لعله . فأنى يسوغ له بعد هذا أن يحتاج
بقوله : إن روح بن صلاح ثقة لولا الهوى والمصيبة التي نسأل الله الوفاة من
شرها وضرها ، والانفلات من ربقتها .

ومن العجيب قوله : « وكيف يوم ابن بنت رسول الله ويخطؤه » ! أفلا
يعلم هؤلاء القوم أن من أبناء بنت رسول الله من يكفرون ! ومن يحاربون الله
ورسوله ! ومن يختانون الإسلام وأوطانه ! ومن يختانون أنفسهم ! ويختانون رسالة
جدهم عليه الصلاة والسلام ! ومن يمالئون خصوم الاسلام وخصوم العرب عليه
وعليهم ! ومن يجعلون من أنفسهم جواسيس غلاة تجس على الاسلام وعلى
المسلمين ، لخدمة الأعداء وخدمة الكافرين ؟ وكيف لا تختلج الشيعة من هذه
المقالة وهم يكفرون جميع أبناء بنت رسول الله من أهل السنة وكل من ليس شيعياً

تكفير الشيعة
اقراءة النبي

إماميا ، اثنا عشريا . فكل أبناء بنت رسول الله كفار وضلال عند هؤلاء القوم إن لم يدينوا دينهم ، وينهبوا منهم في القول بمصمة الأئمة ، وكفر الصحابة ، وبالرجة التي بينا معناها عندهم في أول الكتاب ، وبالقول بسائر هاتيك الآفات . الاعتقادية النكراء التي أصيبت بها هذه الطائفة المغبونة . وقد نزت بالطائفة عداوة أصحاب النبي ، وعداوة الثلاثة منهم خاصة حتى أنكروا أن تكون رقية وأم كلثوم ابنتا رسول الله اللتان تزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة ابنتين حقيقة لرسول الله كما تقدم في أول هذا الجزء . وهم يريدون بهذه المقالة أن يبحدوا ما خص الله به عثمان بن عفان من شرف مصاهرة النبي عليه السلام وزواجه بابنتيه : أم كلثوم ورقية معا - مقتنا من عند أنفسهم لهذا الخليفة ، وإنزالا له عن مقعد رفيع سام . أقدمه عليه سبقه إلى الاسلام ، وإنفاقه على المسلمين ، وقربه من الله ومن رسوله . ثم هم يكفرون أو يفسقون ويضللون جماعات بأعيانهم من أولاد فاطمة ، ويحكمون عليهم بالردة أو بالنسق والضلال العظيم . ولا يشكون في كفر كل حسيبي وكل حسي . بأعيانها إذا كانوا من أهل السنة . أو ليسوا بمقتون بنى العباس عم النبي عليه السلام كلهم ، بل ويكفرونهم ويلعنونهم ؟ أو ليسوا يكفرون الزبير بن صفية . عمه رسول الله ، وقد كان رسول الله يحبها ويحبه أعمق الحب وأخلصه ؟ أو ليسوا يسبون ويمقتون زيد بن علي بن الحسين من أولاد بنت رسول الله ، وكذا يسبون ويمقتون جعفر بن علي أخا الإمام الحسن العسكري ، وعم الإمام الثاني عشر المنتظر عند الشيعة ؟ ولقد لقبوا هذا بالكذاب كما ذكر محسن الأمين العاملي في كتاب « أعيان الشيعة » . وجعفر هذا من أولاد الأئمة المعصومين ومن أولاد فاطمة بنت رسول الله . وهذا شيء لا حصر له . وبالأجمال هم يكرهون ويمقتون أو يكفرون جميع أبناء بنت رسول الله من غير الشيعة الإمامية ، اثنا عشرية . وإذا كانوا هذا المكان من مخصوصة أبناء بنت رسول الله ، وأبناء علي والحسن

والحسين ، وعداوتهم ، فكيف لا يقصرون عن التغنى بهذه الأنشودة ، أنشودة كراهة قرابة النبي وبنض آله ؟ ؟

حديث مسطرد
بأهل البيت في
مدمة الرافضة

ثم إذا كان أبناء بنت رسول الله لا يخطئون ولا يهجون ولا يكذبون فماذا يقولون في هذا الخبر المسلسل بأهل البيت ؟ قال في كتاب « إنباء الحق على الخلق » : « قال الامام الهادي عليه السلام في كتاب « الأحكام » وقد ذكر الامامية : وفيهم ما حدثني أبي وعمامي محمد والحسن عن أبيهم القاسم عن أبيه عن جده عن إبراهيم بن الحسن عن أبيه عن جده الحسن بن علي بن أبي طالب عليه وعليهم السلام عن النبي عليه السلام أنه قال : يا علي يكون في آخر الزمان قوم لهم نيز ، يعرفون به ، يقال لهم الرافضة ، فإن أدركتهم فاقتلهم ، قتلهم الله . فانهم مشركون . انتهى بحر وفه . ولا أعلم في الاحكام إسناداً متصلاً مسلسلاً بأهل البيت عليهم السلام سواء إلا أن يكون مرسل أو مقطوعاً أو مدخلاً فيه غيرهم من الرواة . . . » انتهى كلام « إنباء الحق على الخلق » . فهذا من رواية أهل البيت وهم لا يخطئون ولا يهجون ولا يكذبون . فسا يقول هؤلاء الشيعة ؟ وهذا الحديث قد جاء من طرق أخرى معلومة ولكنها لا تخلو من الضعف . ومن المضحك قوله : « وكيف ظهر لهذا الناصبي وهم على بن موسى الرضا وبينهما نحو مائة وخمسين عاماً » .

من علم الشيعة
في علم الرجال
وعلم الاسناد

فيا هؤلاء متى كانت المفارقات الزمانية مانعة من معرفة التاريخ القديم ؟ ومتى امتنع أن يعرف فلان أن فلاناً كان ثقة ثبتاً ، أو كان ضعيفاً هالكا ، لأن بينهما زماناً طويلاً ، ولأن فلاناً تأخر ميلاد زمانه عن زمان فلان مائة وخمسين عاماً ، بل ألفاً ، بل ألوف الأعوام ؟ وإذا كان هذا المنطق عندهم صحيحاً محترماً فالهم اليوم ومال أجهل الجاهل منهم يزعمون أن أبا بكر الصديق كان كافراً ، وأن عمر كان كافراً ، وأن عثمان كان كافراً ، وأن عامة الصحابة كانوا كفاراً ، وأنهم كانوا إجماريون

الإسلام ، ويكيدون لله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، وأنهم كانوا يحملون في صدورهم العداوة المتأججة الفائرة الملتببة للإسلام ولآل النبي عليه السلام ، وبينهم وبينهم ما يناهز أربعة عشر قرناً ؟ وإذا كان هذا المنطق لديهم صحيحاً صائباً فكيف ظهر لهم أن علياً كان مسلماً حقاً ، وكان ناصراً للإسلام ولنبيه ، ذاباً عنه ، مخلصاً له في الظاهر والباطن - وكذلك يقال في أولاده المعصومين لديهم وفي الموالين له ولهم - : كيف ظهر لهؤلاء الشيعة هذا النبأ العظيم وبينهم وبينهم ما يطاول أربعة عشر قرناً أو ما ينقص عن ذلك قليلاً ؟ بل إذا كان ما ذكره منطقاً صحيحاً محترماً فكيف علموا ما حكوه عن ابن حبان من الضلال والزيف وكراهة آل النبي وبينهم وبينه كل هذا الزمان وهذه الفجوة الزمانية ؟ نعم لو صدقوا في منطقهم هذا لبطل التاريخ وبطلت كتبه وأغلق باب المعرفة لكل ما تقدم ميلاده الزماني أو المكاني ! فهل يفتنون لهذا ؟ وهل يشعرون بهذه الأخطاء التي يهدونها البناء وإلى قرائهم وهم يحسبون أنهم لا يهدون سوى الهدى والعرفان والعلوم الإلهية النبوية ؟

فروح بن صلاح غير صحيح الحديث ولا مقبوله إذا انفرد به . ثم لا شك أننا في حاجة إلى البحث عن باقي رجال الاسناد الذين قال فيهم صاحب « مجمع الزوائد » : إنهم من رجال الصحيح ما خلا روحاً . وذلك أن بعض رجال الصحيح إنما خرج لها صاحباً الصحيحين في المتابعات والشواهد والمعلقات . وهؤلاء لا يلزم أن يكونوا ثقات أثباتاً ، ولا يلزم أن يكونوا فوق النقد والتضعيف والبحث ولا يلزم أن يكون حديثهم صحيحاً لا يخضع للنقد والاعتراض والامتحان . . . وهذه المنزلة الرفيعة السامية إنما هي لرجال الصحيحين الذين روى لهما فيهما استقلالاً وانفراداً في الأصول لا في المتابعات ولا في الشواهد وفي المعلقات . أما رجال هذا القسم فلا خلاف في أنهم ليسوا في منجى من النقد والتمحيص .

جال الصحيح
فسمان عطفان

فعلى المحتجين بهذا الحديث أن يذكروا لنا رجاله من أى القسمين هم ، وإلا فلا جمع ولا كرامة .

كلام النورى
في تقسيم رجال
الصحيح

وقد قال الشيخ أبو زكريا النووى فى مقدمة شرحه على صحيح مسلم : « فصل . عاب عابون مسلماً بروايته فى صحيحه عن جماعة من الضعفاء والمتوسطين الواقفين فى الطبقة الثانية الذين ليسوا من شرط الصحيح . ولا عيب عليه فى ذلك ، بل جوابه من أوجه ذكرها الشيخ ابن الصلاح : أحدها أن يكون ذلك فى من هو ضعيف عند غيره ، ثقة عنده . ولا يقال : الجرح مقدم على التعديل ، لأن ذلك فيما إذا كان الجرح ثابتاً مفسر السبب ، وإلا فلا يقبل الجرح إذا لم يكن كذا . وقد قال الخطيب البغدادى وغيره : ما احتج البخارى ومسلم وأبو داود به من جماعة علم الطعن فيهم من غيرهم محمول على أنه لم يثبت الطعن المؤثر مفسر السبب . الثانى أن يكون ذلك واقعاً فى المتابعات والشواهد ، لافى الأصول . وذلك بأن يذكر الحديث أولاً بإسناد نظيف رجاله ثقات ويجعله أصلاً ، ثم يتبعه بإسناد آخر أو أسانيد فيها بعض الضعفاء على وجه التأكيد بالمتابعة ، أو لزيادة فيه تلبه على فائدة فى ما قدمه . وقد اعتذر أبو عبد الله الحاكم بالمتابعة والاستشهاد فى إخراجهم عن جماعة ليسوا من شرط الصحيح ، منهم مطر الوراق ، وبقية بن الوليد ، ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وعبد الله بن عمر العمرى ، والنعمان بن راشد . وأخرج لهم مسلم فى الشواهد فى أشباه لهم كثيرين . الثالث أن يكون ضعف الضميف الذى احتج به طراً بمد أخذه عنه باختلاط حدث عليه ، فهو غير قادح فيما رواه من قبل فى زمن استقامته كما فى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ابن أخى عبد الله بن وهب . فذكر الحاكم أبو عبد الله أنه اختلط بمد الحسنين ومائتين بعد خروج مسلم من مصر . فهو فى ذلك كعبيد بن أبى عروبة وعبد الرزاق الصنعاني وغيرهما ممن اختلط آخر ، ولم يمنع ذلك من صحة الاحتجاج فى

الصحيحين بما أخذ عنهم قبل ذلك . الرابع أن يعلو بالشخص الضعيف إسناده وهو عنده من رواية الثقات نازل ، فيقتصر على العالى ، ولا يطول بإضافة النازل إليه مكتفياً بمعرفة أهل الشأن فى ذلك . وهذا العذر قد رويناه عنه تنصيهاً وهو خلاف حاله فيما رواه عن الثقات أولاً ثم أتبعه بمن دونهم متابعة . وكأن ذلك وقع منه على حسب حضور باعث النشاط وغيبته . رويناه عن سعيد بن عمرو البرذعى أنه حضر أبا زرعة الرازى وذكر صحيح مسلم وإنكار أبى زرعة عليه روايته فيه عن أسباط بن نصر وقطن بن نسير وأحمد بن عيسى المصرى ، وأنه قال أيضاً يطرق لأهل البدع علينا فيجدون السبيل بأن يقولوا إذا احتج عليهم بحديث : ليس هذا فى الصحيح . قال سعيد بن عمرو : فلما رجعت إلى نيسابور ذكرت لمسلم إنكار أبى زرعة ، فقال لى مسلم : إنما قلت صحيح ، وإنما أدخلت من حديث أسباط وقطن وأحمد ما قد رواه الثقات عن شيوخهم إلا أنه ربما وقع إلى عنهم بارتفاع ويكون عندى من رواية أوثق منهم بنزول ، فاقصر على ذلك وأصل الحديث معروف من رواية الثقات . قال سعيد : وقدم مسلم بعد ذلك الرى فبلغنى أنه خرج إلى أبى عبد الله محمد بن مسلم بن وارة فجفاه وعاتبه على هذا الكتاب ، وقال له نحواً مما قاله لى أبو زرعة : إن هذا يطرق لأهل البدع ، فاعتذر مسلم ، وقال : إنما أخرجت هذا الكتاب وقلت : هو صحيح ولم أقل : إن ما لم أخرجه من الحديث فى هذا الكتاب فهو ضعيف . وإنما أخرجت هذا الحديث من الصحيح ليكون مجذوعاً عندى وعند من يكتبه عنى ولا يرتاب فى صحته . فقبل عذره وحببه . قال الشيخ : يوقد قنمنا عن مسلم أنه قال : عرضت كتابى هذا على أبى زرعة الرازى فيمكن ما أشار أن له علة تركته ، وكل ما قال إنه صحيح . ولا علة له فهو هذا الذى أخرجته . قال الشيخ : فهذا مقام وعبر . وقد مهدته بوضيح من القول لم أره مجتمعاً فى مؤلف . والله الحمد . قال : وفيما ذكرته

دليل على أن من حكم لشخص بمجرد رواية مسلم في صحيحه عنه بأنه من شرط الصحيح عند مسلم فقد غفل وأخطأ . بل يشوق ذلك على النظر في أنه كيف روى عنه على ما بيناه من انقسام ذلك . والله أعلم ... » انتهى كلام النووي . وفيه بيان لما ذكرناه .

على أن رجال هذا الحديث إذا كانوا حقاً من رجال الصحيح الذين هم ثقات ^{قد يكون الرواة ثقات ويكون الحديث غير صحيح} أثبات بلا شك لم يلزم أن يكون الحديث صحيحاً . إذ قد يكون الرواة عدولاً الحديث غير صحيح أئمة ، ويكون الحديث الذي رويوه ضعيفاً باطلاً . وذلك بأن يكون الاسناد منقطعاً أو تكون فيه علة من علل الاسناد المعروفة الكثيرة . والمستدلون بالحديث لم يذكروا براءته من هذه العلل التي قد تكون في الاسناد المسلسل بالثقات ظاهراً ، ولم يذكروا لنا سياق السند حتى نبينه ونعرف أسلم هو من تلك العلل الفنية أم هو كثير العلل والأمراض . والحافظ الهيثمي لم يذكر أن الحديث صحيح لولا روح ابن صلاح ، بل ذكر أن رجاله من رجال الصحيح ما خلا روحاً . قال : وروح على توثيق ابن حبان والحاكم له فيه ضعف . مع أن الحافظ الهيثمي يبدل كتابه « مجمع الزوائد » على أنه يذهب منهج المتساهلين في نقد الروايات والرواة . وكأنه لم يفتح بتوثيق الحاكم وابن حبان لروح بن صلاح فأطلق أن فيه ضعفاً ، لأنه يعلم لين هذين الشيخين : ابن حبان والحاكم في نقد الأخبار ونقد رواياتها ، ويعلم مقدار تساهلها في ذلك . ثم لم يقل : إن الحديث ثابت صحيح لولا روح فكأنه قد قدر أن يكون في السند علة أو علل ، أو كأنه علم بوجود تلك العلة أو تلك العلل . وهذه طريقة للهيثمي في كتابه « مجمع الزوائد » معروفة ، وهي طيبة محدودة . يقول مثلاً في آخر الحديث : « والحديث رجاله ثقات ، أو رجال الصحيح » . ويتورع كثيراً عن التصحيح الجازم البات . فلا يقول : « والحديث صحيح الاسناد » . وهذا راجع عنده - والله أعلم - إلى أمرين : أحدهما أن

يكون قد علم أن في الحديث علة تمنع الحكم عليه بالصحة مع أن رواته ثقات أثبتت . وثانيتها احتمال أن تكون فيه علة وإن لم يعلم هو حقيقة ذلك . فكان الصواب والرأى عنده في الحالتين أن يتورع عن التصحيح وعن الحكم عليه بالثبوت ، وهو قد لا يكون صحيحاً في الواقع . وأحياناً يعلم عدالة الرواة وسلامة سياق الاسناد من سائر عال الاسناد وسائر أسباب الضعف ، فلا يقصر عن أن ينطق بنتيجة ما علم ، فيقول : « إن الحديث صحيح الاسناد » أو « حسن الاسناد » . على أنه في كل هذا متساهل ينحو منحى من لا يقسون في النقد ، ومنحى من يشوقهم جمع الأحاديث الكثيرة المذيلة بكلمة « صحيح » . وهذه طريقة معروفة لطائفة كبيرة من علماء الاسناد . ولكن هؤلاء بلا شك ليسوا حجة في هذا الباب ، بل لابد من الرجوع إلى حذاق هذا الشأن وأفذاذه المهرة .

فلا يصح لمسلم أن يحتج بهذا الحديث حتى يعلم صحته وثبوته عن رسول الله وحق يختبر الاسناد فيعرف ما ذكرناه . أما نقل هذا الرفض أن الحاكم وابن حبان صححاه فنحن أولاً لا نثق بنقله ولا بنقل من نقل عنه ذلك . وثانياً إذا صح هذا فقد علمت مكانة الحاكم وابن حبان في تصحيح الأخبار الضعاف وتوثيق الرواة الضعفاء . وابن حبان مردود الحكم عند الرفض مطلقاً لأنه كافر لتضمينه على بن موسى الرضا . وقد تقدم ما ذكره فيه . وأما الحاكم فإنه يصحح الأخبار الموضوعة . وقد طرح الناس تصحيحه لذلك . فلا حجة في تصحيحهما الحديث إذا ثبت أنهما صححاه . هذا ما يقال في سند الحديث .^١

معنى الحديث
إذا صح

أما معناه - على تقدير صحته وثبوته - فالجواب أن قوله : « وسع مسخها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » لا يدل إلا على شيء واحد ، وهو جواز أن يسأل الله بحق المخلوق الصالح . وهذا أمر بسيط يسير بازاء ما يأتيه عباد القبور عند قبورهم من الدعوات والاستغاثات وسؤال جميع الخائجات . . . وافرقت

عظيم بين سؤال الله بحق الأنبياء والصالحين ، وبين سؤال الأنبياء والصالحين أنفسهم . فإن الأول توحيد لله وعبادة له وتضرع واستجداء إليه . وغاية ما فيه أنه ابتدع فيه بدعة ، والبدعة ليست دائماً شركاً . وأما الأمر الثاني وهو سؤال الأنبياء والصالحين أنفسهم فعبادة لغير الله وشرك به تعالى . وشتان ما بين الأمرين : الشرك والتوحيد ، الشرك والبدعة ، عبادة الخالق وعبادة المخلوق ، سؤال الله وسؤال عباده الموتى . وليس هذا هو ما أقام النزاع والخلاف بين فريق التوحيد وحزب التنديد ، وليس هذا هو ما نلن التكبير العام الحاد على المخالفين من أجله ، وإنما ذاك هو دعاء الأموات وسؤالهم الحاجات ، كما يدعى الشيعى وكما تدعى شيعة ، وكما يفعلون .

ويقال ثالثاً - : ما هو حق الأنبياء الذى سئل الله به فى هذا الحديث ؟ ولعل معرفتنا هذا الحق تخلص يدي الرافضى من الحجة فى الخبر . فنقول : حق الأنبياء وحق الصالحين جميعاً على ربهم أمران : أمر هو صفة من صفات الله وشأن من شئونه ، وأمر هو أثر لهذا الأمر الذى هو صفة الله وشأنه . أما الأمر الأول فهو ما أخبر الله عنه فى مثل قوله تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وقوله : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » وقوله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » وقوله : « وعد الله حقاً » وقوله : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » وقوله : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » وقوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » الآية إلى غير ذلك من الآيات التى فيها وعد الله رسله وأنبياءه بالنصر والغلب والتأييد وحسن العقبى وإتمام الدين وإظهاره والتمكين للأتباع والحق الذى جاءوا به فى الأرض وفوق هام العباد والبلاد ، ثم وعده تعالى لإمام الجنة والخلود والرضا

سؤال المخلوق
ليس كسؤال الله
بالمخلوق

ما هو حق
الأنبياء له
الحديث

والتقريب والحظوة القريبة المكنية لديه تعالى — إلى غير ذلك من هذه الأمور والمعاني الجليلة التي وعد الله بها رسله وأنبياءه من عباده . . . ووعد الله حق لا ريب فيه ولا في صدقه ووقوعه . . . فهذا هو حق الأنبياء الأول على الله . وهذا الحق ليس مخلوقاً ولا مربوباً ، لأنه عبارة عن نصر الله وتأيدته وإعلائته لهم . فهو فعل من أفعاله تعالى وشأن من شئونه . والسؤال بصفات الله وأفعاله وشئونه لا خلاف في جوازه وحسنه وصحته .

أما الأمر الثاني الذي هو حق لعباد الله الصالحين عليه تعالى بمقتضى وعده ورحمته — وهو تعالى لا يخلف الميعاد ولا يخلف ما تقضى به الرحمة الحكيمة — فهو ما ادخر لهم من النعيم والمشتريات في دار خلوده ونعيم داره ذوات الوان وأنفس وأنواع كثيرة لا يعلمها إلا الله . ولكن يجمعها كل ما هو متعة للنفس وللروح والبدن والجسم . أي هو عبارة عن متع البدن والروح مما خلقه هناك جزاء لهم على قيامهم بخدمته تعالى وبطاعته وعبادته . ويدخل في هذا الحق الحور العين ، والولدان المحسلون ، وصنوف الانذابات الأخرى من مأكول ومشروب ومنظور ومسموع ومدرَك بأحدى الحواس الانسانية المعروفة وغير المعروفة . . . وهذا الحق هو أثر من آثار الحق الأول الذي هو صفة الله وفعله وشأنه .

وإذا علم هذان الحقان لم يبق لدينا شك ما في أن حمل الحق في الحديث المذكور على الحق الأول واجب لازم وفرض حتم ، لا مناص عنه ولا فرار منه . وذلك ان الحق الثاني لا يمكن أن يسأل رسول الله ربه به يقيناً ، فلا يمكن أن يسأل ربه بما خلقه تعالى في الجنة من المأكولات والمشروبات المدخرة لنبي الله آدم ولنبي بعده من الأنبياء والمرسلين . فكما لا يمكن أن يقول رسول الله : أسألك يا الله بالخور العين التي خلقتها في جنتك وأنشأتها لآدم أو لإبراهيم أو لموسى أو لعيسى أو لعيرهم ، كذلك لا يمكن أن يقول : أسألك يا رب بما خلقت

الحق حقان .
الذي هو المراد في
الحديث

لهم من الجزاء والثواب . وكما نجد من غير الحسن أن يقول : أسألك يا رب بما خلقت لى فى الجنة من النعيم والثواب والجزاء فكذلك نجد من غير الحسن أيضاً أن يقول : أسألك يا الله بحق نبيك إذا كان حق نبيه هو الحق المخلوق المصنوع المربوب . ولا نشك أن قول المسلم التقي الصالح : أسألك يا رب بذاتى وشخصى وبدنى أو يدي أو برجلي أو بنحو ذلك مساو لأن يقول : أسألك بما خلقت لى فى الجنة من نعيم وجزاء وثواب . ولا يشك العليم فى فساد السؤالين . ونبوهما عن أصول الدين وفروعه وعن الذوق والأدب السليم الصحيح .

إذن لا مندوحة من حمل الحق فى الحديث إذا صح على الحق الأول الذى هو صفة من صفات الله وشأن من شئونه وفعل من أفعاله - على أن يكون قوله : « توسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » بمعنى : أسألك يا رب أن توسع مدخلها وأن تقبل شفاعتى فيها ورجائى ودعائى لها بما وعدتني ووعدت الأنبياء قبلى جميعاً من النصر والتأييد والعطف والرضا والإرضاء وإجابة السؤال والدعاء . . . » . فهو من سؤال الله بذاته وصفاته وأفعاله وشئونه . وعلى هذا لا يبقى فى الخبر مكان شبهة لأنصار البدعة . لأن السؤال بذات الله وصفاته وأفعاله وشئونه متفق على جوازه .

الجواب عن
رواية ديارسونه
الله كنت رجاءنا

« الشبهة العاشرة قول صافية : ألا يا رسول الله كنت رجاءنا »

الشبهة العاشرة ما ذكره الحافظ الهيثمى فى كتابه « مجمع الزوائد » (الجزء التاسع صفحة ٣٩) بعنوان : « باب فى وداعه ﷺ » . قال : روى الطبرانى بإسناد حسن عن عروة بن الزبير قال : قالت صافية بنت عبد المطلب ترى رسول الله :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا * وكنت بنا برآء ، ولم تك جافيا
نقال الرافضى : « ومن التوسل به بعد موته قول صافية بنت عبد المطلب
(٤٥) .

في مرثيتها للنبي عليه الصلاة والسلام التي رواها أهل السير وعلماء الأثر:
 ألا يا رسول الله أنت رجاؤنا وكنت بنا برآ ولم تك جافيا
 » وقولها : يا رسول الله أنت رجاؤنا صريح في التوسل والاستغاثة به ﷺ.
 أي أنت رجاؤنا في الشفاعة إلى الله ، وأنت وسيلتنا إليه . قالت ذلك بمسمع
 من الصحابة ولم ينكر عليها أحد . ولا يصح هذا على رأى الوهابية لأنه
 دعاء ونداء لمير الله ، واستغاثة وتوسل بالأوات جهلته صفة عمه النبي وصحابته
 وسائر الصحابة الذين مسموه وعلمته الوهابية ومع ذلك يسمون أنفسهم السلفية
 ويقولون : إن قديرتهم السلف . . . هذا كلام الرافضي .

والجواب من وجهين : أحدهما الكلام على الإسناد . فان ذلك أول
 ما يجب أن يسأل وأن يبحث عنه الباحثون . وثانيهما الكلام على معنى الرواية
 إذا كانت صحيحة . أما السند فليس صحيحاً يقيناً . وذلك أن الرواية من حديث
 عروة بن الزبير ، وعروة تابعي ، ولد بعد وفاة رسول الله ببضعة عشر عاماً ،
 لحديثه هذا مرسل ، والمراسيل ليست حججاً لأنها منقطعة أو في حكم المنقطعة .
 والأحاديث المنقطعة ليست بصحيحة عند علماء هذا الشأن . ثم إن عروة
 ابن الزبير ما ولد إلا بعد وفاة صفة بنت عبد المطلب . فان صفة توفيت سنة
 ٢٠ وعروة ما ولد إلا بعد ذلك . فروايته عنها منقطعة . فالرواية ضعيفة على
 كل حال .

على أنه يجب على المستدل بهذا الشعر أن ينظر في بقية سنده ، وفي الرواية
 قبل عروة ، فلمل فيه انقطاعاً ، ولمل فيه ضعفاء . ونحن ليس بين يدينا الطبراني
 حتى ننظر في الإسناد . وقبل عرفان ذلك لا يحل الاحتجاج بالرواية . فان
 الطبراني يروي كل شيء حتى الموضوعات المكنوبة . وقول الحافظ الميثمي :
 إن الإسناد حسن يدل على ضعفه ، لأن الحافظ الميثمي متساهل في التصحيح

والنقد كما تقدم . وتحسينه له مع إرساله يدل على تساهله الشديد .
وهذه القصيدة التي منها هذا البيت معدودة في مرآي النبي عليه الصلاة
والسلام . وقد ذكر ابن هشام في سيرته المرائي التي قيلت في رسول الله ولم يذكر
مرثية صفية هذه .

ومعنى الرواية
« كنت » لا أنت
وتحريف
القصيدة لها

. أما معنى هذا الشعر إذا صح أن صفية قد قالت حقيقة فلا يدل على ما ذهبوا
إليه ألبتة ، وذلك أن لفظ الشعر الذي استدلوا به على ما في « مجمع الزوائد » :
« كنت رجاءنا » لا « أنت رجاءنا » . وكذا ذكره الشيخ محب الدين الطبري
في كتابه « ذخائر المعقبى في مناقب ذوى القربى » كما ذكر الحافظ الهيثمى بلفظ
« كنت رجاءنا » . وقال : رواه الحافظ السلفى بإسناده عن هشام بن عروة . . .
والرافضى ذكر الشعر بلفظ « أنت رجاءنا » تحريفاً من عند نفسه ومن عند الذين
يقلدون في هذه الآفات العلمية . واللفظة الصحيحة هي ما ذكره الحافظ الهيثمى
والحبيب الطبري « كنت رجاءنا » لا « أنت رجاءنا » . فلا دليل فيها لشيء
مما يذهبون إليه إذن ، بل هي رد عليهم صريح ظاهر . وذلك أنها قد فرقت بين
الحياة والموت ، فقالت : « كنت رجاءنا » . تعنى أنه ﷺ قد كان رجاءهم يوم
أن كان حياً بين أظهرهم ، ومعنى هذا أنهم كانوا في حياته عليه السلام يرجعون
إليه إذا عميت عليهم الأنبياء ، وأشككت الأمور وتمعت ، ليدعوا الله لهم
وليسأله من أجلهم ، وليبين لهم ما يحتاجون إليه من الهدى والدين وشئون الدنيا
وليعالج نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وعقائدهم من آلامها وفسادها وعذابها واضطرابها ،
بإيمانه وقرآنه وإحسانه . . . فقد كان ﷺ يوم أن كان حياً نجم المؤمنين الثاقب
يهتدون به ويسرون ، ويدخلون على ضوئه وهداه في ظلمات العقائد ودياجي
الأديان المبعدة المحرفة الزائفة عن السبيل . وكان ﷺ رجاءهم ، يرجعون
إلى وحيه عند الضلال والاشكال ، وإلى دعواته وشفاعاته عند الضيق

والاحمال ، وإلى ثباته وإيمانه وإيقانه حين اشتداد الأهوال ، فيرجعون إلى نعم الرجاء ، ويصلون آمالهم وحاجاتهم بعليا السماء فلما أن ساء هذا الرجاء إلى ربه خلا مكانه ، وبقي كتابه وإيمانه ، سببين بين المؤمن به وبينه ، يسمو بهما إلى حيث سما ، يصلان أهل الأرض بأهل السماء ، حتى يلتقي الجميع في مكان القدس الأعلى .

فالرواية : « كنت » لا « أنت » بالفعل الماضي . ولا ريب أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان رجاء المسلمين في حياته . ولكن ليس معنى هذا أنه كان رجاءهم في الخلق والرزق وتيسير الأمور العسيرة وتفريج الكربات ، ولا في الأحياء والاماتة ، ولا في هداية القلوب وغفران الذنوب ، ولا في ما هو خاص بالله رب العالمين من هذه الأمور . وإنما كان رجاءهم في ما كان يستطيعه مخلوق ممتاز مثله ، ورسول مقرب إلى ربه ، حظى بمكانة الرسالة وشرفها ، وبسفارة جبريل سيد الملائكة ونفخها ... فهو ﷺ رجاءهم في بيان الحق من الباطل ، والظلام من النور ، وبيان ما يرضى الله مما يغضبه ويسخطه ، وفي الدلالة على الله وعلى دينه وسبيله الواضحة المستقيمة . وهو رجاءهم لأنه كان يدعو لهم فيجيب ، ويشفع من أجلهم فيشفع ، ويستنصر بالله لنصرهم فينصر ، ويحارب بهم أعداء الله وأعداءهم فيغلب . وهو رجاءهم لأنهم كانوا يطيعونه فيرشدون ، ويتبعونه فيهتدون ، ويسألونه ما يقدر عليه فيجيبون . وهو رجاءهم لأنه هو صلتهم بالسماء والله ، ولأن وحى الله ينزل إليهم عليه ، ولأنه هو وما أنزل عليه مجمع سماعتهم في الدارين والحياتين . وأى رجاء هو أعظم وأفضل وأجل من هذا الرجاء ؟

فهذا هو معنى قول صفيّة : « ألا يا رسول الله كنت رجاءنا » . والرواية ، كما تقسم « كنت رجاءنا » . وقد ذكرها الشيعي بلفظ « أنت رجاءنا » تيمناً

الرواية رد
عليهم وبيان ذلك

منه ومن الذين يقدم وينقل عنهم هذه الشناعات الصلحاء : حرقها وحرقوها ليصلح له ولهم ما زعمه وما زعموه في تأويل هذه اللفظة من أنها تدل على جواز كل ما يأتونه من البدع والثرهات والضلالات . . . ولكن الرواية « كنت » لا « أنت » فهي رد عليهم لو يشعرون . لأن صفة بقولها هذا قد فرقت بين الحياة والموت ، فقالت بعد الموت : « كنت رجاءنا » . فكأنها كانت تعتقد بأن الرسول عليه الصلاة والسلام في وقت موته ليس مثله في وقت حياته . فليس كل ما كان يفعله في وقت حياته يستطيع أن يفعله في وقت موته من أجل المسلمين والاسلام ، ومن أجل نصرتهم ونصرتهم . فقد كان هنالك رجاء للمسلمين فيه فقد يموت و زال بزواله وانقطع عنهم باقطاعه عنهم . وقد كانت هنالك أمور فقدتها المسلمون بعد أن غيبوا نبينهم في الحدة وجدته الشريف ، وآمال ذهبت بذهابه إلى ربه . فقالت صفة في الرجاء المفقود ، وفي تلك الأمور والآمال الداهية : « ألا يا رسول الله كنت رجاءنا » . فلا ريب إذن في أن قول صفة هذا حجة على الرافضى وعلى إخوانه نصراء البدعة جميعاً .

على أن الرواية لو كانت صحيحة باللفظ الذى ذكره : « أنت رجاءنا » لو صح ما
ذكره
لكانت بعيدة أيضاً كل البعد عما يزعمون ويدعون . وذلك أنها باللفظين والروايتين ليس فيها دعاء الرسول ولا الاستغاثة به ، ولا سؤاله حاجة من الحاج ، ولا طلبه أمراً من الأمور كما يفعل العوام اليوم وقبل اليوم ، وكما يدعون ويدعون . ومعنى « أنت رجاءنا » — لو كان صحيحاً سنداً ولفظاً — أنه رجاءهم في أن يشفع لهم يوم القيامة ، وفي أن يلقوه ويلقاهم ، وفي أن يحفظوا به ويحفظ بهم . . . لأن الرجاء هو الأمل اللذيذ الحلوى . ولا أحلى ولا ألد عند المسلم المؤمن من شفاعته رسول الله يوم القيامة ، ومن لقياه ، ومن ملء العين والأذن وجميع الحواس والجوارح المختلفة برؤياه ، وبحديثه وبالقرب منه . ولا أحلى ولا ألد عند المسلم

انؤمن به ﷺ من الكون في ركابه وبين أصحابه ، زمراً زمراً في جنات الخلود وفي مكان القرب من الله... فهذا هو رجاء صفة بنت عبد المطلب في رسول الله ، وهذا هو رجاء كل مسلم يؤمن بالله وبرسوله ، وهذا الرجاء قصي فاه عن التوسل والاستغاثة ، وعن الدعاء والعكوف على الأجداث . وبرأ الله صفة عمة رسول الله وبرأ سائر صحابة رسول الله وسائر قرابته من هذا الباطل وهذا الاتم العظيم ، والحنث الجسيم .

وقد جاء في « مجمع الزوائد » المطبوع بلفظ : « ألا يا رسول الله كنت رخاءنا » من الرخاء لامن الرجاء . ولكن لا يبعد أن يكون هذا تحريفاً . ويراد بهذه الرواية لو صححت أنه عليه السلام كان رخاء المسلمين والمؤمنين في حياته . لأنهم كانوا إذا قحطوا وأجدبوا ذهبوا إليه وطلبوا منه أن يدعو الله لهم فيدعو فيثابرون ، فيكثر الرخاء ويم الأرجاء . فقد كان ﷺ رخاء المسلمين بهذا المعنى كما تكاثرت الأخبار في الصحاح وغيرها أنه كان يسأل الله الفيت للعباد والبلاد فيتنزل حتى يشكو الناس كثرته فيرغبون إليه عليه الصلاة والسلام ليدعو لهم ربه كي يقفه ، كي يصرفه إلى الضراب و بطون الأودية ورؤوس الآكام ومنابت العشب ، ويجنبه الأمصار والديار . . . وهذه المعاني لاتزاع ولا خلاف فيها بين المسلمين .

أما كلمة : « يا رسول الله » وقول الرافضى : إن هذا دعاء وخطاب ونداء للأموات فشيء لامعنى له ، ولا خلاف فيه . فان الخطاب المجرد من الطلب الحقيقي ومن إرادة الإسماع والاعلام ونيل الحاجات لاخلاف في جوازه بين المسلمين ولا بين غيرهم من الناس . والخطاب « يا » وبغيرها من حروف النداء شائع معروف للأحياء وللأموات ، وللحيوان وغير الحيوان ، وللجماد والحي وغير الحي ، ولكل شيء . وهذا ينطق به العالم والجاهل ، والمؤمن والكافر ،

وجاء في رواية « أنت رخاؤنا »

الجواب من « يا رسول الله »

والمشرك والموحد ، ومن يؤمن بحياة الأرواح ، ومن لا يؤمن إلا بالأشباح . فهم يقولون مثلاً :

أيأ شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف
ويقولون أيضاً :

وياقبر معن كيف وأريت جوده * وقد كان منه البر والبحر مترقا
ويقولون أيضاً :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل * بصبح، وما إلا صباح منك بأمثل
ويقولون :

ياالله ياظبيات القاع قلن لنا * ليلاى منكن أم ليلى من البشر
ويقولون :

زمان الفرد يافرعون ولى * ودالت دولة المتجبرينا
ويقولون . « بربك أيها البرق الجاني » :

وهذا في الشعر لا تخفى على أحد كثرت . ونظيره من نصوص الشرع قول
المتشهد : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » وقول زوار المقابر :
« السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » الحديث وقوله ﷺ في رثاء ابنه إبراهيم :
« وإنا بك يا إبراهيم لحزونون » . وقد تقدم قول تلك المرأة الأنصارية ترى
عثمان بن مظعون : « رحمة الله عليك أبا السائب . أشهد لقد أكرمك الله »
الحديث . وقد صح عن عمر بن الخطاب في الحديث المتفق على صحته أنه قال
وهو يقبل الحجر الأسود : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني
رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . وجاء أن رسول الله عليه الصلاة والسلام
كان إذا سافر فأقبل الليل قال : « ياأرض ربى وربك الله . أعوذ بالله من شرك
وشر ما فيك ، وشر ما خلق فيك ، وشر ما يدب عليك » . وهذا في نصوص الشريعة

الرواج من
الخطاب الذي
لا استهانة فيه

كثير معلوم لاخلاف فيه ولا نزاع . ولا يستطيع أحد أن يدعى أن هذا النداء .
نداء حقيقى وأنه يراد به كله إسماع المنادى وإعلامه .

النداء الصورى

إذن لا شك أن من النداء ما هو نداء صورى فقط ، وأن من الخطاب ما هو
خطاب فى اللفظ دون المعنى . ولا ريب أن المنوع الباطل من نداء الأموات هو
النداء الحقيقى المنطوى على الطلب والأمل والحاجة . وأن النداء الصورى الظاهرى .
الذى لا طلب ولا أمل ولا حاجة ولا رغبة ولا سؤال فيه ليس ممنوعاً ولا محرماً .
فجائز أن تقول : « رحمك الله أيها الدفين الشهيد ، والفقيد المفقود مثيله » وأن
تقول أيضاً : « رحمة الله عليك أبا العباس ، يا أحمد بن تيمية ! أشهد لقد أيد بك
الله السنة ، ورفع منار التوحيد والدين الخالص بما خلفت وكتبت وتركت من
مؤلفات باقية على الزمن بقاء الزمن على الزمن .. » . فهذا النوع من الخطاب والنداء .
جائز كله مستعمل شائع بين الجميع ، لا ينكره منكر ، ولا يجحده جاحد . ولكن من
غير الجائز ومن غير الحسن أن تقول خطاباً لدفين تحت أطباق التراب وعجلات
الدم : « يا فلان اشغنى واهد قلبى واغفر ذنبى » ، أو أن تقول : « يا أبا العباس
انصرنى أو اهد قلبى أو اغفر ذنبى ، أو اكشف لى ماخفى على من كلامك
وكتبت وعلمك . . . » . هذا كله وأمثاله غير جائز وغير حسن وغير خاف على
أحد أنه ليس مثل النوع الأول .

محل الخطاب

وفصل الخطاب فى هذا المقام أننا نحن لا نمنع كل خطاب وكل نداء للأموات
بأحد حروف النداء ، ونحن نقول فى كل صلاة : « السلام عليك أيها النبى
ورحمة الله وبركاته » ونقول فى كل زيارة للمقابر : « السلام عليكم أهل الديار من
المؤمنين » . وإنما نمنع من النداء والخطاب ما كان فيه رغبة ورهبة وطلب وأمل
وحاجة ، وما كان مشتملاً على الخوف والرجاء ، ومنطوياً على الخشوع والخضوع
كهذا الذى يفعله القوم اليوم ويدعون إليه فى كتب زوروها ، وشبه كذبوها

واختلقتها ، وأشياء ما أنزل الله بها من سلطان ابتدعوها... فإني قول صفة هذا
لوصح شيء مما يذهبون إليه ، بل فيه الرد عليهم لو يشرون ويتدبرون وينصفون .

﴿ الشبهة الحادية عشرة فتح الفرجة من القبر النبوي إلى السماء ﴾

رواية الاضواء
بقبر النبي إلى
السماء

الشبهة الحادية عشرة مارواه الدارمي في أول سننه بعنوان « باب ما أكرم
الله به نبيه بعد موته » قال : حدثنا أبو النعمان حدثنا سعيد بن زيد حدثنا عمرو
ابن مالك النكري حدثنا أبو الجوزاء : أوس بن عبد الله قال : قحط أهل المدينة
قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت : انظر واقبر النبي فاجعلوا منه كوة إلى
السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف . قال : ففعلوا فطرونا حتى نبت العشب
وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتنق . قال الرافضي بعد إبراده
هذه الرواية : « فهذا توسل به عليه السلام بعد موته وقبره الشريف بالفعل كما
يتوسل به بالقول ، وهو مستمر من عصر الصحابة الذين هم أعلم بالله وبرسوله
وبأحكامه وبحرمته وحرمة قبره من الوهابية . وقد وافقهم وتبعهم عليه المسلمون في
كل عصر كما صرخ به الزين المرائي من غير تكبير . » هذا كلام الرافضي .

سند الرواية

وعن هذا جوابان : أحدهما أن نقول : هذا الخبر رواه أبو محمد الدارمي في
سننه عن أبي النعمان : محمد بن الفضل البصري المعروف بعارم . وهو ثقة حجة
مخرج حديثه في الستة . وقد وثقه أهل الحديث وتقده الرواة ، ولكن تكلموا
فيه من جهة أخرى إذ ذكروا أنه قد تغير واختلط في آخر حياته . فجاء عن
البخاري وأبي حاتم الرازي والدارقطني وابن حبان والنسائي وأبي داود أن عارماً
هذا قد اختلط في آخر عمره . وقد قسموا حديثه لذلك قسمين : قسماً صحيحاً
جيداً ، وهو ما حدث به قبل الاختلاط والتغير ، وقسماً ضعيفاً واهياً ، وهو ما حدث به
بعد ذلك . ومارواه عنه البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب الصحاح هو مما حدث
به قبل الاختلاط . ومارواه من حديثه من لا يشترطون الصحة والثبوت لما يروون .

يحتمل أن يكون من هذا ، وأن يكون من هذا . فتارة يكون صحيحاً ، وتارة يكون ضعيفاً . فالصحيح هو ما حدث به قديماً ، والضعيف هو ما حدث به أخيراً . فما رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديثه لابد أن يكون من حديثه الصحيح الذى حدث به أولاً حينما كان حافظاً جيد الحفظ ، متقناً تام الاتقان . وما رواه غيرهما من حديثه يحتمل أن يكون من القسم الأول ، وأن يكون من القسم الثانى ما لم يعلم من أى القسمين هو بنص صحيح صريح ، وهذا الحديث الذى رواه عنه أبو محمد الدارمى لاندري من أى القسمين هو ، ولا نعلم متى رواه عنه ، ولا كيف رواه . وهو محتمل أن يكون رواه عنه قبل الاختلاط والتفسير ، وأن يكون إنما رواه بعد ذلك . ولا نستطيع الذهاب إلى أحد القولين ألا تظننا واجتهاداً مجرداً من البراهين المقتنمة الكافية الشافية لصدر الصديان إلى تمييز المعرفة . ولكن هذا لا يعطى اليقين المنشود .

وعارم هذا روى الحديث عن سعيد بن زيد الأزدى الجهضمى ، وهو أخو حماد بن زيد الامام الكبير . وسعيد بن زيد روى له البخارى تعليقاً ، وروى له مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه على ما فى تهذيب التهذيب للحافظ العسقلانى . . . وهو أيضاً مختلف فيه : ضعفه الأقلون ، ووثقه الأكثر . فحديثه - منفرداً - حسن محتمل ، لا يباغ درجة الصحيح القوى ، ولا يهبط إلى مكان الضعيف المطروح .

وسعيد هذا رواه عن عمرو بن مالك النكرى البصرى . قال فى تهذيب التهذيب : وكنيته أبو يحيى ، ويقال : أبو مالك . قال : وهو من رجال الأربعة . والبخارى فى الأدب المفرد . وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : يمتبر حديثه غير رواية ابنه عنه . بخطى ويفرب . . . وقال فى التقريب : صدوق له أوهام . ووثقه الذهبي فى الميزان . وهو مع هذا قليل الحديث .

وعمر و هذا رواه عن أوس بن عبد الله الربيع البصري المعروف بابي
الجوزاء . . . وهو ثقة مشهور أخرج حديثه الستة وثقوه . وقد رواه هو عن
عائشة رضي الله عنها وروايته عنها فيها كلام ، وسماه منها مختلف فيه . قال في
تهذيب التهذيب : « قال ابن عدى : أبو الجوزاء روى عن الصحابة ، وأرجو
أنه لا بأس به ، ولا يصح أنه سمع منهم . وقول البخاري : في إسناده نظر يريد
أنه لم يسمع من مثل ابن مسعود وعائشة وغيرهما ، لأنه ضعيف عنده . وأحاديثه
مستقيمة . . . » وقال في تهذيب التهذيب أيضاً : « قال ابن عبد البر في التمهيد
إنه لم يسمع منها ، أى من عائشة . وقال ابن أبي حاتم في المراسيل أبو الجوزاء
عن عمرو على مرسل . . . » .

وبالاجمال فأبو الجوزاء معروف مشهور عند أهل الحديث بالإرسال . وقد
أخرج حديثه عن عائشة مسلم في الصحيح في أبواب الصلاة فمابوا ذلك عليه .
قال الحافظ بن حجر العسقلاني في « بلوغ المرام » عقب روايته الحديث الذي
رواه أبو الجوزاء عن عائشة في افتتاح الصلاة بالتكبير واختتامها بالتسليم :
« رواه مسلم وله علة » . وهو يريد بهذا أنه من رواية أبي الجوزاء عن عائشة وهو
لم يسمع منها . . . فهذا الحديث من أحاديث مسلم المأخوذة المعبية عليه . ولكن
حذر مسلم في تخريج إياه - إذا صح عنده أن أبا الجوزاء لم يسمع من عائشة -
تواتر معناه في أحاديث أخرى صحيحة كثيرة .

جهة على
الحديث المختلفة

هذا هو سند الحديث ، وهذه هي حال روايته . فهو مع هذه العلل المختلفة
والمقادح التي تناولت جميع رجاله من جهات مختلفة : جهة الاختلاط ، وجهة
الارسال ، وجهة الضعف ، لا يبلغ أن يكون صحيحاً ، ولا أن يكون حسناً يسوغ
العمل والاحتجاج به في هذا الباب ، وفي هذه المسألة ، وفي هذا المعنى الشاذ
الغريب . فالحديث غريب الإسناد ، غريب المعنى . فانه لم يمهّد مثله في الأخبار

ولم يجيء معناه في سواء.. فهو شاذ، وهو آتٍ بحكم لم يعلم إلا منه وبه، والأحكام الشرعية، وعقائد الاسلام لا تثبت بمثل هذا الخبر الذي يحمل كل هذه العيوب والمقادح وهذا الشذوذ والغرابة... بل معنى الخبر، شكل مخالف لأصول كثيرة من أصول الاسلام الأولى الظاهرة المتواترة. فأى معنى في فتح الفرجة من القبر إلى السماء؟ وأى أصل من أصول الشريعة يؤيده أو يقبله؟

ولو كان في فتح الفرجة ما يوجب الغيث وما يوجب نزول المطر وما يقرب من الله ومن رحمته وسمائه لترك المسلمون القبر النبوي الشريف مكشوفاً، ولأزالوا سقف الحجرة التي دفن فيها هو وصاحبه لتكون القبور الثلاثة مفضية إلى السماء، ليكون في ذلك ما ينزل الغيث وما يدنى من رحمة الله ومن إحسانه وسمائه.

. ولو كان هذا أيضاً صحيحاً لكان من سنة رسول الله ومن سنة خلفائه الراشدين ومن عمل غيرهم من أهل العلم والدين أن يبرزوا بأجسامهم وأشخاصهم إلى السماء والفضاء عند امتناع الغيث والمطر ليكون في بروزهم سقياً للعباد والبلاد. ولا ريب في أن إبراز الذات النبوية أعظم في هذا المعنى من إبراز القبر إلى السماء. ولكن لم يأت أن أحداً من أهل العلم والدين، ولا أتى أن رسول الله، ولا أن أصحابه فعلوا شيئاً من ذلك أو فكروا فيه. بل جاء عنهم في حياة الرسول وبعد وفاته أنهم كانوا يفزعون إلى الصلاة - صلاة الاستسقاء - وإلى الدعاء عند اشتداد الجذب وحين إلحاحه عليهم فيستمطرون بالصلاة والدعاء. وما جاء عنهم غير هذا. وكل ذلك يدل على غرابة معنى هذه الرواية فضلاً عن غرابة إسنادها. ومثل هذا الغريب - إسناداً ومعنى - لا يصح أن يبنى عليه حكم من أحكام الطهارة والوضوء والمياه فضلاً عن أن يبنى عليه حكم من هذه الأحكام التي لها اتصال مكين بالاعتقاد.

على أن هذا الذي ذكره في فتح الفرجة يناقض ما ذهبوا إليه من تشييد.

لقباب والبنيات على القبور ثم إنقالها بالطوب والتراب والحجارة والأخشاب والاصباغ والنقوش والزخارف ذات الألوان والأنواع . فانه لو صح ما ذكر من الفرجة وفتحها لكان من الحسن المستحسن المرغوب فيه ألا يجعل على القبور شيء من هذه البنيات وهذه الآلام من القباب والأشياء الأخرى . ولكن من الحسن المرغوب فيه أن تترك القبور هي والسماء مفضية إليها ، مكشوفة لها ، لا يقوم بينهما حائل ، لتنال البركات والرحمات ، وليكثر الفيث والمطر . . ولكن القوم لا يهتمون في جدالهم ونضالهم بمنطق مستقيم واضح مستدير . هذا ما يقال من جهة الاسناد .

الجواب الثاني
ان الرواية
ليس فيها شيء
مما يذهبون
إليه من التوسل
ودعاء الموتى

والجواب الثاني أن يقال : هبوا الرواية صحيحة ثابتة فهل تدل على شيء مما ذهبتم إليه ؟ نقول في الجواب : كلا ، إنها لا تدل على شيء من أمركم يقيناً . ذلك أنه ليس فيها دعاء ميت ، ولا استغاثة ميت ، ولا توسل بميت ، ولا عكوف على قبر ميت ، ولا تشييد لقبر ميت ، وليس فيها شيء من الزخرفة للقبور أو البناء عليها ، أو شيء مما نراه اليوم ماثلاً فوق القبور ، فنراه جرحاً دائماً في صميم الاسلام ، وسبة واضحة سوداء في جبين التوحيد المشرق الوضاء : نعم ليس في الرواية شيء من هذا ، وإنما فيها الإفضاء بالقبر إلى السماء . وهذا لا يقول أحد من الناس العقلاء إنه يدل على أن من الدين والاسلام أن يقول المسلم : يا رسول الله اهد قلبي ، أو اغفر ذنبي واشفني ، أو اغنني ، أو ارزقني ، أو أدخلني الجنة ، أو أعطني كيت أو كيت . كما لا يمكن أن يقول أحد : إن هذا مساوٍ لهذا ، ومن قال ذلك فلا ريب في أنه من أبخس الخلق عقلاً وفهماً وديناً . فان القائل : يا رسول الله أعطني ، أو اهد قلبي ، أو اغفر ذنبي ، رآغب راهب ، طالب سائل من غير الله مالا يستطيعه إلا الله . وهذا هو البلاء الأكبر ، والداهية العظمى . أما كشف القبر والافضاء به إلى السماء فليس فيه طلب ولا سؤال من غير الله ،

ولا رغبة في سواء أورهية من مخلوق . وشتان ما بين الأمرين وللمقامين -
وكشف القبر النبوي الشريف رجاء استدراار الغيث والمطر هو مثل أن تذهب
إلى من تحتاج إليه فتكشف له عن مكان حاجتك وشبكاتك ، وعن موضع
ألمك وضرك . ومثل أن تربه منك ما يعظمه وما يحبه وما يمز عليه وما يعزه ،
وما يكرم عليه من أثر أو غيره ليكون في ذلك حض له على إعطائك حاجتك
وما تريده منه . . . ولكن لا يقول أحد : إن في شيء من هذا دعاء لغير الله
أو استغاثة بمخلوق .

اجوبة اخرى

وقريب من كشف القبر - لو صححت الرواية - إخراج المستسقين أطفالهم
وبهائمهم معهم إلى مكان الصلاة والاستسقاء ، ومثل البروز بهم وبها إلى الخلاء
والسواء ليكون هذا أبلغ في الاستسقاء والاستغاثة بالله ، وليكون فيه ما يقرب من
نزول النيث ونزول رحمة الله على عباده وبلاده . وقد ذكر بعض الفقهاء أنه
يستحب الخروج بهؤلاء إلى الصحراء في صلاة الاستسقاء ، وهم ينهبون إلى
هذا المعنى . ولكن ما قال أحد : إن ذلك يدل على جواز دعاء الأموات وسؤالهم
مالا يقدر عليه إلا الله من عظيم الحاجات وجيل المطالب . فنحن إذن قد نجيز
كشف القبر - لو صح الحديث - طلباً للغيث . ولا يلزم هذا أن نجيز دعوة
الموتى والاقطاع إلى قبورهم . فان هذا لا يلزم هذا ، كما أجاز طوائف من الفقهاء
الخروج بالبهائم والأطفال إلى الخلاء وإلى مكان صلاة الاستسقاء مبالغة في طلب
النيث وإظهار الفقر والفاقة لله ، بل قد استحب هذا فريق من أهل الفقه
ولكنهم لم يجيزوا الاستغاثة بالأموات ولا دعاءهم ولا شيئاً من هذه الآثام
المنشورة فوق القبور ، ولا زعموا أن هذا لازم لذلك ، ولا أنه مثله وفي حكمه .

ومن الأمور المرغوب فيها السنونة في صلاة الاستسقاء الخروج إلى
الصحراء والاقضاء إلى السماء ، أعنى إفضاء المصلين المستسقين وخروجهم ، كما

خرج رسول الله ومن معه من المسلمين لصلاة الاستسقاء متبذلين متخشعين .
متكسرين . . . فصلوا في الصحراء صلاة الاستسقاء مفضين إلى السماء مفارقين
للديار وللأبنية والبيوت مبالغة في التقرب إلى الله وإلى رحمته وغيائه وغيثه .
ولم يكن في هذا عند أحد من العقلاء شيء من الدلائل على جواز دعاء الأموات
والاستغاثة بهم كما زعم . فهذا غير هذا ، فهما أمران متباينان غير متلازمين .
أما زعم الرافضي أن فتح الفرجة سنة أهل المدينة عند القحط فزعم كاذب
لا يكاد يصح ، وإن صح شيء فمن الجهلاء لا عن أهل العلم والمعرفة . والسقف
حائل بين القبر والسماء ، لا يفضى إليها ولا تفضى إليه . ولا أحسب التاريخ
والمشاهدة يقران شيئاً من هذا الذي زعموه وذكروه .

استشمام الناس
يوم القيامة
بالأنبياء وجوابه
ذلك

﴿ الشبهة الثانية عشرة توصل الناس بالأنبياء ﴾ ﴿ ويخاتمهم في عرصات القيامة ﴾

الشبهة الثانية عشرة قال الرافضي : « قام الاجماع وتواترت الأخبار على
أن الناس يتوصلون بالنبي في عرصات القيامة فيشفع لهم إلى ربه ... » .
والجواب أن نقول : هذا لا خلاف فيه ولكنه على الرافضي لاله . ذلك
أن الثابت في هذه الأخبار التي يشير إليها ، وفي الاجماع الذي يذكره أن
الناس يوم القيامة عندما يشتد بهم الهول ، وعندما يلح عليهم الكرب
والبلاء ، وعندما يتوجهون إلى التماس الشفاء وتطلب الشفاعات لا يطلبون من
نبي الله نوح ولا من بعده من الأنبياء الشفاعة إلا بعد أن يأتوهم ويروم . ولا يطلبون
ذلك من أحد منهم وهو عنهم غائب فاه ، ولا هو عنهم محتجب قصي . فلا يقولون .
أين كانوا : ياتوح اشفع لنا ، ولا إبراهيم أو يا محمد اشفع من أجلنا لتراح من هذا
البلاء والكرب العظيم : لا يفعلون شيئاً من ذلك ألبتة ... ولكنهم يذهبون إلى

دلالة هذه
الحجة على خلافه
قول المخالفين

نوح وإلى إبراهيم وإلى موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فيطلبون منهم جميعاً الشفاعة إلى ربهم وخالقهم ليرحمهم مما هم فيه من الشقاء والبلاء ، فيحييهم كل نبي على النبي الآخر حتى يصلوا إلى محمد خاتمهم عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، فيذهب إلى ربه ، فيضرع إليه ويتوسل إلى ذاته تعالى بأنواع الوسائل من دعاء وحمد وسجود ورغب ورهب حتى يأذن له ربه بالشفاعة الكبرى للناس كافة فيشفع ويشفع ، وتحد له الحدود فيمن يشفع فيهم وفيمن تنفعهم شفاعته ، فإذا شفع فيمن لا يستحقون الشفاعة قال الله له : « ذلك ليس إليك » كما جاء في الصحيح في آخر حديث الشفاعة الذي رواه الحسن عن أنس بن مالك قال عهد ﷺ : « فأقول : يا رب ائذن لي في من قال : لا إله إلا الله ، قال : ليس ذلك لك - أو ليس ذلك إليك - ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله ... » . وما جاء في رواية واحدة من روايات أحاديث الشفاعة أن الناس يطلبون من الأنبياء ومن الشفعاء الشفاعة قبل أن يذهبوا إليهم وقبل أن يأتوهم فيسمعوم ويروم . . . بل اتفقت تلك الأخبار جميعاً على أنهم أولاً يذهبون إليهم ويأتونهم ثم يطلبون منهم أن يشفعوا لهم وأن يدعوا ربهم من أجلهم . وهذا يدل على أن الفطر كلها مفطورة على أنه لا يصح الاستشفاع بالغائب ، ولا يصح دعاؤه ولا الاستغاثة به ولا التوجه إليه ، ولا سؤاله ولا طلبه شيئاً من الأشياء . . . وهذا لا شك فيه بين ذوى الأبواب الصحيحة السليمة . وهذا يرد على المخالفين رداً صريحاً ، وينقض ما ذهبوا إليه من الاستشفاع بالأموات ودعاء الغائبين الغابرين نقضاً قوياً جليلاً . فان المخالفين يدعون الأموات من كل مكان ، ويستشفعون بهم من كل مكان ، ويسألونهم ضروب الحاج من كل مكان ، ويرغبون إليهم من كل مكان ، ويلهجون بأسمائهم ودعائهم من كل مكان . . . والأموات الذين يدعونهم ويستغيثونهم غائبون عنهم

إذ يدعونهم وإذ يهتفون بأسمائهم : غائبون عنهم ، لأنهم إن كانوا صالحين فهم عند ربهم يرزقون ويحبرون ويفرحون كما قال تعالى في كتابه العزيز : «... أحياء عند ربهم يرزقون...» الآية . وإن كانوا من الأشقياء وأصحاب الجحيم فهم غائبون أيضاً في أطباق النيران يعذبون ويشقون ويتجرعون ألوان العذاب وألوان النكال... فالأموات - مؤمنين وكافرين - صالحين وطالحين - غائبون عن أهل الدنيا وعن دعوم وخاطبوم وراموا الاتصال بهم من أهلها ، قصيون عنهم لا يسمعونهم إن دعوم سرّاً أو جهرّاً ، ولا يعلمونهم إن رغبوا فيهم وفي سلطانهم . ولكن هؤلاء المخالفين يدعونهم ويستغيثونهم مع بعدم غيبتهم ، ومع انقطاع الصلات والأسباب بينهم وبينهم . وأهل الموقف الذين يستشفعون بالأَنْبياء : بآدم فمن بعده ، لا يستشفعون بهم إلا في حضرتهم وبين أيديهم في حياتهم الأخرى.. وما طلبوا من أحد منهم أن يشفع لهم ، ولا أن يدعو الله ليرحمهم من موقفهم ذاك في شبيهه وبعده . فهذا الذي سوف يفعله أهل الموقف في عرصات القيامة رد على هؤلاء الداعين للأموات المخالفين بأسمائهم وألقابهم عند الشدائد ، وفي الرخاء أيضاً من كل مكان لو يشعرون ، ولكنهم لا يشعرون ولا يريدون أن يشعروا !

في آخر في
هذه الأحاديث
يرد على المخالفين

ثم إن أحاديث الشفاعة تلك رد عليهم من ناحية أخرى... ذلك أن الذي في جميع روايات أخبار الشفاعة وأخبار الموقف وعرصات القيامة أن الناس لا يطلبون من الأنبياء سوى الشفاعة وسوى الدعاء لهم عند الله ربهم . وما جاء في رواية واحدة من الروايات الكثيرة أنهم يطلبون منهم ، لا من آدم ولا من نوح ولا من بينهما ، أن يدخلهم الجنة وأن يريحهم من موقفهم الهائل ، وأن يكشفوا ما هم فيه من الكرب والعذاب والبلاء العظيم... فما قالوا : يا آدم أدخلنا الجنة ، ولا أرحنا من عذابنا هذا ، كما قالوا له : اشفع لنا عند ربك رحماً . .

من العذاب . ولا قالوا : يا محمد أرحنا أو أزل عنا ما نحن فيه من الشقاء والآلام . كما قالوا اشفع لنا وادع من اجلنا . ولا قالوا مثل ذلك لأحد من الأنبياء الذين طلبوا منهم الشفاعة والدعاء ... فالأخبار كلها مطبقة مجمعة على أن الناس يوم القيامة لا يسألون الأنبياء إلا الشفاعة والدعاء : لا يسألونهم إدخال الجنة ولا الإراحة من العذاب ، لا بأسلوب الحقيقة ، ولا بأسلوب المجاز . وهذا يرد على الرافضى وعلى إخوانه الخاصين ، ويرد على سائر طوائف المبتدعين الضالين فى هذه المسائل الكبرى . لأنهم يزعمون أنه يصح أن يسأل المخلوق الميت كل شيء يصح سؤاله الله ، فيصح عندهم أن يقول المسلم المؤمن : يا رسول الله أو يا على ، أو يا حسن ، أو يا حسين : اغفر ذنبي واهد قلبي وأدخلني الجنة ، ونجني من النار : هذا كله عندهم يجوز . ويجوز أيضاً غيره من كل ما يصح أن يسأل الخالق إياه مما لا يستطيعه سواه ، إلا أنهم يزعمون أن هنالك حقيقة ، وأن هنالك مجازاً ، يزعمون أن سؤال المخلوق ذلك مجاز ، وأن سؤال الله إياه حقيقة . وقد تقدم الكلام على هذا . ولكن أخبار الشفاعة وأخبار عرصات القيامة ترد عليهم هذه الدعوى وهذا الزعم . فان تلك الأخبار قد أطبقت وأجمعت على أن الناس لا يسألون الأنبياء فى ذلك اليوم الأحمر المصيب الشديد إلا الشفاعة والدعاء . لا يسألونهم شيئاً من هذا الذى زعموه مجازاً ، والذى ادعوا أنه مؤول مصروف عن ظاهره وصحاحه منه . فانه لو كان هذا الذى زعموه صحيحاً جائزاً لجاء أن الناس يوم القيامة ، أو أن فريقاً منهم ، سوف يسألون الأنبياء بذلك اللسان المجازى ، وبذلك القول المؤول المصروف عن ظاهره . فيقولون مثلاً : يا نوح أو يا آدم أو يا إبراهيم أو يا محمد أدخلنا الجنة وأرحنا من العذاب الذى نحن فيه . ولا يلس أن من جملة الناس المستشفين بالأنبياء يوم القيامة هؤلاء الداعين إلى هذه الباطلات ، المستشفين المستغيثين بالأموات ، القائلين هذه

إذا لا يسأل
المخلوقون
الأنبياء يوم
القيامة سوى
الشفاعة

المقالات . فلماذا يفسون في ذلك اليوم هذا المجاز الذي زعموه ، وهذا القول المؤول الذي ادعوه ؟ ولماذا لم يخاطبوا الأنبياء ويدعوم هناك بهذا المجاز وبهذا اللسان ؟ إن الجواب على هذا السؤال سهل قريب ، لا يمجز طالبه . فأين يذهبون ؟ ونحن لا نجد مانعاً يمنعهم كلهم من أن يقولوا مثل هذا القول إذا كان جائزاً ، وإن يستعملوا هذا المجاز إذا كان صحيحاً مقبولاً ، وهم أخرج ما يكونون إلى السؤال والطلب ، وإلى العافية والنجاة ، بحيث لا يصح أن يتركوا وسيلة ممكنة مرجوة إلا طرعوها ، ولا سبباً من أسباب النجاة والعافية — ولو توهموا تظنياً — إلا أخذوا به من طرفيه وأمسك به كل امرئ منهم بكلتا يديه ، طلباً للنجاة ورغبة في العافية . فما لهم لم يفعلوا ذلك ؟ بل ما لهم لم يفعلوا منه شيئاً ، ولم يفعله منهم أحد ؟ أفلا يدلنا هذا الإقصار وهناك الاعراض على أن الذي رعه المخالفون أمر باطل وزعم غير صحيح ولا كرامة ؟ بلى ، إنه لكن ذلك ، وبلى ، إن أخبار الشفاعة مما يرد على المخالفين ومما يفسد ما ذهبوا إليه لو يفتنون ولا يتمصبون .

دلالة الأخبار
على قولنا من
أجبة ثالثة

والأخبار — أخبار الشفاعة — رد على القوم من جهة ثالثة . ذلك أن الناس حينما يشتد عليهم الكرب والبلاء يذهبون إلى آدم أبي البشر ، فيطلبون منه أن يشفع لهم ، فيقول لهم : لست لها . إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله ، وإنه نهائى عن الشجرة فأكلت منها . نفسى ، نفسى . اذهبوا إلى غيرى . فيأتون نوحاً عليه السلام فيطلبون منه الشفاعة فيعتذر كما اعتذر قبله آدم ، ويذكر ما له من خطيئة فيستحى ربه منها ، فيقول لهم : اذهبوا إلى غيرى . فيأتون إبراهيم فيقول لهم : لست هناكم . ويذكر خطيئته فيستحى ربه منها ، ويقول لهم : اذهبوا إلى غيرى . فيأتون موسى فيقول : لست هناكم . ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها ، ويقول : اذهبوا إلى غيرى . فيأتون عيسى فيقول لهم : لست هناكم . اذهبوا إلى غيرى . فيأتون محمداً فيذهب إلى ربه

ويحمر ساجداً حتى يقال له : ارفع رأسك وسل تعطه ، واشفع تشفع . . إلى آخر الحديث . . . وقد جاء هذا التفصيل في الشفاعة وتنحى الأنبياء عنها واحداً بعد واحد عن جماعة من الصحابة بطرق متعددة صحيحة . وجاء في جميع طرق هذا الحديث أن الأنبياء : آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى يمتدرون عن الشفاعة وعن التقدم بين يدي الله كي يشفعوا للخلائق ، وأنهم يتهيئون ذلك المقام ويذكرون غضب الله وجلالة الوقوف بين يديه ، ويذكرون الأمور التي أتوها والتي مسموها خطايا ، أو ذنوباً ، فيستحيون منها ومن ربهم من أجلها ، فيكعون عن مقام الشفاعة وعن مقام الشافعين ، ويقصرون عنها ويعدون أنفسهم دونها ، فلا يجرون على التقدم ، ولا يقدمون على الشفاعة — إجلالا لله وإجلالا لمقامه ، وإجلالا لذلك اليوم ، واستحياء من الله ، واهتماماً لأنفسهم . . . وأخيراً لا يشفعون ، وأخيراً يقول كل منهم : لست هناك ، وأخيراً يقول كل نبي منهم : نفسي ، نفسي . اذهبوا إلى غيري . . . إذن فمقام الشفاعة بين يدي الله للخلق مقام عظيم مهيب ، وإذن ليس كل أحد يستطيع أن يقوم ذاك المقام وأن يقف ذلك الموقف ، وإذن ليس كل امرئ يجزئ على التقدم بين يدي الله شافعاً للخلق . . ، هذا ما تدل عليه كله أحاديث الشفاعة التي احتجوا بها على باطلهم ، وهذا ما رواه أصحاب الصحاح من كلام النبوة في صحاحهم .

إذا كان الأنبياء
يأبون الشفاعة
للخلق إجلالا
لله فكيف يرجو
هؤلاء الشفاعة
من الشايخ

فإذا كان ذلك كله حقا — وهو حق بلا ريب — فال هؤلاء القوم يطرحون أنفسهم على كل جدث من هذه الأجداث ، ويلتقون آمالم وحاجاتهم ومآربهم على كل دفين من الأموات ، زاعمين أن كل شيخ سألوه الشفاعة لا بد أن يشفع لهم ، وأن كل ولي أوكل حظي عند الله قالوا : له اشفع لنا عند ربك لا بد أن يشفع لهم ، ولا بد أن يقوم مقام الشفيع ، وقد تنحى عنه — إجلالا له وإجلالا لله — آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ؟ إذا كان هؤلاء الأنبياء — وهم

أولو العزم منهم - يابون أن يشفعوا للناس نبيًا لمقام الشفيع ولأمر الشفاعة ،
وتمظيما لله وللمقامه ، وتصغيراً لأنفسهم الكبيرة إزاء عظمة الله وكبر كبريائه -
وإذا كانوا يابون أن يشفعوا للخلق لأنهم قد أذنبوا ذنباً وخطأوا خطأ ، لعله
لا يكون خطأ ولا ذنباً إلا في أعينهم وعندهم هم تخشيتهم ربهم وإعظامهم له -
وإذا كانوا يابون أن يشفعوا لأن الله قد غضب غضباً شديداً ، وهم لا يليق بهم
أن يتقدموا إليه بهذا الأمر وهو غضبان ، والله إذا غضب ذاب كل شيء إزاء
غضبه ، وصغر كل كبير عنده ، والله إذا غضب تلاشت المقامات وطارت النفوس
المؤمنة ذعراً وهيبه : إذا كان هؤلاء الأنبياء - وهم سادة الخلق وزعماء الأنبياء -
يابون أن يشفعوا لما ذكروا فقال هؤلاء الخيري ينطرحون على كل قبر ، وفوق كل
جدث : يريدون الشفاعة ، ويريدون الغفران ، ويريدون تكفير الخطايا والآثام
التي قد أحاطت بحياتهم وبأعمالهم وبما عملوه من حسنات ، إن كان ذلك ؟ ؟
أفلا يعلمون أن الأنبياء إذا كانوا يتأخرون عن الشفاعة إعظاماً لأمرها
واستعفاء من ذنوبهم ومن ربهم أن غير الأنبياء ممن يسألونهم الدعاء والشفاعات
أكثر منهم تأخراً ونبياً وإياه وإحجاماً ؟ إذا كان نبي الله إبراهيم الخليل يقول
لمن يطلبون منه الشفاعة : لست هناكم ، لأن الله قد غضب ، ولأنني قد
أخطأت أو أذنبت ذنباً ، فما يمكن أن يقول غيره كالحسين أو الحسن أو فاطمة
أو عبد القادر الجيلاني أو الرفاعي أو البدوي أو غيرهم من الأولياء الصالحين
والمشايخ الآخرين ؟ ماذا يمكن أن يقول هؤلاء إذا طلبت منهم الشفاعة إذا
كان مثل إبراهيم الخليل يتأخر عنها ويأبأها ، لأنه قد أذنب أو أخطأ ، ولأن
الله قد غضب ؟ وماذا يمكن أن يقول مثل الامام الشافعي إذا طلبت منه الشفاعة
وقد تأخر عنها موسى وعيسى ونوح وإبراهيم خليل الرحمن ، وآدم أبو الخلائق
وأبو الأنبياء جميعاً ، لأنهم أصغروا أنفسهم عن ذلك المقام ، ولأن ربهم قد غضب

على خلقه لأنهم وذنوبهم ؟ لا ريب أن في أحاديث الشفاعة هذه زجراً زاجراً عن التعلق بالشفاعات والشفعاء ، وترغيباً ظاهراً عنها ، وحيلولة صارمة صادقة بين الناس وبينها . ولا ريب أن المسلم البصير يأخذ من هذا العظة البالغة ، ويأخذ أن شيئاً يحجم عنه مثل إبراهيم ونوح وموسى وعيسى وآدم لا يمكن أن يقدم عليه مثل البدوى والجيلاني والرافعي والدسوقي وأمثالهم . ثم يأخذ من ذلك أن من أقدم على ما أحجم عنه الأنبياء فليس من الله في شيء ، وليس من الحياء والجلال لله ولا نبيائه في قليل ولا كثير .

فهذه الأحاديث زجر للناس عن التعلق بالشفاعة والشفعاء أي زجر ، وترغيب عنها أي ترغيب ، فان العاقل يعلم بداهة أن ما عجز عنه مثل هؤلاء الأنبياء وأحجموا عن حماه لا يمكن أن يقدر ويقدم عليه غيرهم ممن ليسوا رسلاً ولا أنبياء وهذا كله واضح . ولكن أين من يفهمون وينصفون !

بعد هذا نقول لهذا الرافضي الظالم : إن استشفاع الخلائق يوم القيامة بالأَنْبياء من الاستشفاع بالأحياء ، ونحن لم نقل : إن الاستشفاع بالحى ممنوع باطل ولم نقل : إن طلب الشفاعة من كل أحد محرم محظور . ولكن قلنا إن الاستشفاع بالموتى ودعائهم من البسج المنكرة الباطلة ، ومما نهى عنه الدين : كتابه وسنته . والخلائق حينما يطلبون الشفاعة من الأنبياء لا يطلبونها منهم إلا وهم أحياء بين أيديهم . فأين هذا من ذاك ! وأين الأموات من الأحياء .

﴿ الشبهة الثالثة عشرة — خالق آدم والجنة والنار ﴾

﴿ من أجل محمد عليه الصلاة والسلام ﴾

حديث خلق الجنة والنار
لاجل محمد عليه السلام
الشبهة الثالثة عشرة قال الرافضي : روى الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : أوحى الله إلى عيسى : يا عيسى آمن بمحمد وامر من أدرت من أمرك أن

يوثمنوا بمحمد . فلو لا محمد ما خلقت آدم ، ولو لا إني خلقت محمداً ما خلقت الجنة ولا النار . ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن اهـ

والجواب أن نقول : قال الحاكم في المستدرک (الجزء الثاني صفحة ٦١٥ كتاب التاريخ . طبعة حيدرآباد الهند) : حدثنا علي بن حمشاذ العدل إملاء حدثنا هارون بن العباس الهاشمي ، حدثنا جندل بن والقي ، حدثنا عمرو بن أوس الانصاري ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : أوحى الله إلى عيسى . . . الحديث . قال الحاكم بعد روايته : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبي في التعليق : « قلت أظنه موضوعاً على سعيد » . قلت أنا : وهذا ورع من الحفاظ الذهبي رحمة الله عليه . وإلا فالمقام غني عن « أظن » . بل الحديث موضوع يقيناً .

والسند : أما علي بن حمشاذ فهو أحد شيوخ الحاكم الحفاظ . وقد أثنى عليه سند الحديث الحاكم كثيراً وأكثر من الرواية عنه في المستدرک . وذكره الحفاظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » بالخبر . وأما هارون بن العباس الهاشمي فذكره الخطيب في التاريخ ووثقه . وأما جندل بن والقي فقال فيه مسلم : متروك . وقال البزار : ليس بالقوي . وذكره ابن حبان في الثقات . كذا في « تهذيب التهذيب » . ونقل عن أبي زرعة توثيقه . قال : وروى عنه البخاري في « الأدب المفرد » . قلت : ما روى عنه البخاري في كتاب « الأدب المفرد » إلا حديثاً واحداً في الاستغفار رواه عن يحيى بن يعلى . وأما عمرو بن أوس الأنصاري فقال الذهبي في الميزان : « عمرو بن أوس . تجهل حاله . وأنى يخبر منكره ، أخرجه الحاكم في مستدركه . وأظنه موضوعاً ، من طريق جندل بن والقي » . وذكره هذا الخبر . وكذا قال الحفاظ المستقلان في « لسان الميزان » مثل ما قال الذهبي . وأما سعيد بن أبي

عروبة ومن بعده فائمة لا يسأل عنهم .

الحديث موضوع
فالحديث موضوع ، والحمل فيه على عمرو بن أوس هذا . أما تصحيح الحاكم
له فن شقا شقة المعروفة .

وكيف يصح خبر يقال فيه : إن الله لم يخلق آدم ولا الجنة ولا النار إلا لأجل محمد
عليه الصلاة والسلام ، ويقول : « ولولا أني خلقت محمداً ما خلقت الجنة والنار » .
إن الجنة والنار قد خلقنا عدلاً من الله ورحمة وحكمة ، والله حكيم عادل رحيم
قبل أن يخلق محمداً ، وقبل أن يخلق أحداً . والله كذلك حكيم عادل رحيم .
لم يخلق أحداً . خلق الله الجنة جزاء لمن أطاعوه واتقوه من عباده الصالحين .
الأبرار ، وخلق النار عقاباً للعصاة والكفار والظالمين والأشرار . . . فهل معنى
هذا الخبر أن الله لو لم يخلق محمداً لما جازى عباده الصالحين الأبرار على طاعتهم
وعباداتهم ، ولما عاقب الكفار والظلمة والأشرار على كفرهم وظلمهم وشركهم ، بل
لتركهم جميعاً سدى ، ولسوى بينهم ، ولجعل الكفار كلهم مؤمنين ، والفجار كلهم أبرار ؟
نعمذ بالله من هذا ومن حديث يدل عليه ويؤيده ! هذا الحديث الموضوع يقول :
إن الله لو لم يخلق عبده ورسوله محمداً لما استحق عبد الله ورسوله آدم الحياة ، ولما
استحق هو ولا إبراهيم خليل الرحمن ولا نوح أول رسول بعثه الله بالتوحيد
وبالدعوة إلى عبادة الله وحده ، ولا موسى ولا عيسى ولا غيرهم من الأنبياء والمرسلين
ولا غيرهم من المؤمنين والصالحين والشهداء والحكماء : يقول هذا الحديث الموضوع .
إن الله لو لم يخلق محمداً عليه السلام لما استحق أحد من هؤلاء الجنة ، لأن الجنة
ما خلقت إلا لأن محمداً عليه الصلاة والسلام خلق ، ولو لم يخلق لما خلقت . فلو لم
يخلق ما استحق أحد من هؤلاء الأنبياء والمؤمنين أن يدخل الجنة .

ويقول هذا الحديث الموضوع أيضاً : إن محمداً لو لم يخلق لما خلقت النار ولما عذب
فرعون وجنوده ولا أبو جهل وجنوده ولا غيرهم من أجناد الباطل والكفر والضلال

وحياة الشر وأعوان الإيتم . . . لأن النار لم تخلق إلا لأجل محمد ! نعوذ بالله من هذا الحديث ومن هذا القول .

قد يعقل بعض ناقصي العقول القول بأن الجنة لم تخلق إلا لأجل محمد وأنها لولاه لما خلقت . ولكن الذي لا يعقله أحد القول بأن النار لم تخلق إلا لأن محمداً خلق ، وأنها لم تخلق إلا من أجله . . . وما معنى خلق النار المخلوقة لعذاب الكفار والأشرار لأجل محمد عليه الصلاة والسلام ؟ وما معنى قول هذا الحديث المكذوب : إن الله لو لم يخلق محمداً لما خلق النار ؟ إن كان معناه أن محمداً هو الذي يعذب بالنار ، أو أن الكفر به وحده دون الكفر بسائر الأنبياء والحقائق هو الذي يوجب دخول النار : إن كان معنى الحديث هو هذا فهذا باطل وجبل وكفر . وإن كان معناه أن الله لم يخلق النار إلا لإرضاء وتكريماً لمحمد عليه الصلاة والسلام ورفعاً لشأنه وقدره . . . فهذا أيضاً من شر الضلال والجهل الزور . . . وإن كان معناه أن محمداً هو الذي خالقها فهذا أدهى وأمر وأقبح . . . وإن كان معناه أن الله لو لم يخلق محمداً لما خلق أحداً ، ولو لم يخلق أحداً لما خلق النار ولا الجنة : إن كان هذا هو معنى الحديث - وهذا أقرب ما يقال فيه - قيل إن هذا القول من شر الأقاويل . وذلك أن الله قد خلق خلقه لحكمة كبرى جليلة ، بل لحكم كثيرة جليلة . ومن هذه الحكم إرادته أن يعبد وأن يعمر هذا الكون . وعبادة الله وعمارته كونه غايته من الغايات المطلوبة المحموده سواء أخلق محمداً أم لم يخلق ، بل محمد نفسه ما خلق إلا لأجل هذه الغاية . . . ومن الحكم في خلق الخلق إرادته تعالى الإحسان والجود وإظهار معاني صفاته ومعاني صفات الربوبية والألوهية وصفات الكمال . وهذا لا يكون إلا بخلق الخلق وخلق من يستحقونه وخلق الحل القابل له . . . وفي هذا القول أمور فاسدة كثيرة ذكرناها في كلام سابق عند الكلام على خبر سؤال آدم ربه بمحمد عند اقترافه الخطيئة فليراجع .

ما معنى خلق
النار لأجل محمد
عليه السلام

ومن الإساءة
للأنبياء

ومن الإساءة لأنبياء الله ولعباده الصالحين جميعاً القول بأن الله لم يخلقهم لأجل عبادته تعالى ، ولا لأجل الدعوة إليه وإلى عبادته أصالة ، وإنما خلقهم أصالة لأجل محمد عليه الصلاة والسلام . بل لبس هذا القول إساءة إلى الأنبياء وإلى عباد الله الصالحين فقط ، بل هو عين التحقير والتصغير لشأن عبادة الله وشأن المهمة وأمر الخدمة التي قام بها المصلحون - الأنبياء - فن دونهم - في الأرض قبل محمد وبعده . وذلك أن معنى هذا الحديث المكنوب أن الإصلاح في الأرض وتقويم المموج من الاخلاق ، وإصلاح الفاسد من الآداب والمعتقدات ، وكل ما قام به الأنبياء والمصلحون كلهم لم يكن هو الغرض من خلقهم وإيجادهم ولا الحكمة في اصطفاء الله إياهم وتفضيلهم على العالمين . . . وإنما الغرض من خلقهم والحكمة في اصطفتهم واختيارهم هو تشریف محمد وتكريمه وإرضاءه ونموذ بالله من هذا المذهب ومن هذا الحديث الدال عليه ، ومن الباهين إليه والمصححين له . وبرأ الله ابن عباس - حبر الأمة - من أن يجرى هذا المذيان والضلال على لسانه ، أو على لسان أحد من الصحابة والعلماء الربانيين الفاضلين للإسلام ولحقائقه الظاهرة الأولى .

وانصح الحديث
كان خارجاً عن
هل النزاع

والجواب الثاني أن يقال : هبوا الخبر صحيحاً فهل يدل على ما ذهبتم إليه من الترهات والخرافات ودعاء الأموات ؟ والجواب أن نقول : كلا ، لا يدل على شيء من ذلك . فانه لا يدل إلا على أن لمحمد ﷺ عند ربه غاية غايات الشرف وأقصى نهاية التكريم والتبجيل ، حتى إنه تعالى من تكريمه له وإعظامه إياه لم يخلق آدم ولا الجنة والنار إلا لأجله ولأجل إرضائه وإكرامه ، وإنه لولاه لما استحق آدم ولا الجنة والنار الوجود والحياة . . . ولكن هذا لا يدل على جواز دعائه والاستغاثة به والمكوف على قبره ميتاً كما أننا نقول نحن : إن الله خلق الخلق لأجل العادة ، ومع هذا لا نقول بجواز دعاء العبادة والاستغاثة بها ولا الغلو

فيها . . . والتفضيل والتكريم ليس معناه قوة المفضل والمكرم ، ولا قدرته ولا إعطاء القدرة المطلقة والسلطان الواسع ، وليس معناه أيضاً أن يعطيه الله وصفه أو أن يبيح خلقه أن يعبدوه وأن يتوجهوا إليه بما يتوجهون به إلى ربهم من أنواع العبادات والاستغاثات والضراعات . . . بل معنى التفضيل والتكريم . للعبد الدلالة على أنه كان أخضع خلق الله الله وأقومهم بفروض العبادة وأكثروا انقياداً لها . فالعبد المفضل المكرم هو العبد الخاضع لله ، العابد له عبودية وقف دونها وعجز عنها من لم ينالوا ما نال من التفضيل والتكريم . فمحمد عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق لأنه كان أعبد لهم لربه وأخضعهم لعبادته . والآنياء والمرسلون أفضل عند الله من سواهم لأنهم قد كانوا أعبد لربهم وأخضع وأدنى إلى معاني العبودية وأكثر استعداداً لذلك والمسلمون المؤمنون أفضل عند الله من الكافرين والملحدين والجاحدين لأنهم أعبد لله وأخلص له وأعظم عبودية وذلة وأصدق توحيداً لله رب العالمين . . . وليس محمد رسول الله ، ولا الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، ولا المؤمنون أفضل من الآخرين لأنهم كانوا أقدر وأقوى منهم ، ولا لأن الله قد أعطاهم من السلطان والقدرة والقوة ما ميزهم به . بل قد يكون الكافرون والملحدون المطرودون أقدر من الأنبياء وأوسع سلطاناً وسلطة — أعنى السلطة والسلطان الماديين الدنيويين . وقد كان الشياطين والتمردون والظالمون أقوى من المؤمنين والصالحين والعادلين إلا في الفرط النادر من الزمان . وقد كان بعض الأنبياء السابقين أعظم سلطاناً وملكاً من محمد عليه الصلاة والسلام . ولم يمنع هذا أن يكون محمد أفضل النبيين وأكرمهم على ربه وعلى المؤمنين . وهذه أمور لا تنسج للخلاف والتزاع .

فاذا صح أن الجنة والنار ما خلقنا إلا لأجل محمد ، وأن آدم لم يكن ليخلق لو لم يخلق محمد ، وأن الوجود كله لم يكن ليستحق الوجود والتخليق لولاه عليه

كرامة الله
لا يلزمها الله
المادية

الصلاة والسلام : إذا صح هذا كله لم يكن فيه شيء سوى الدلالة على عظمته ﷺ وعظم فضله وشرفه وكرامته على ربه وقدره لديه . وهذا كله لا يدل إلا على أنه كان أعبد العباد وأزهّد الزهاد وأكثرهم صلاحاً وتوحيداً وأكثرهم دعوة إلى ذلك . فأعطاه ربه من التكريم والتفضيل بمقدار ما أعطى عبوديته من الخدمة والرياسة والقوة . وكثرة عبودية العبد لا تحض على عبادته نفسه ، ولكنها تنهى عنها وتذود عن الوقوع فيها ، وتغرى بالسمو إلى الواحد الصمد ، وبالاتقطاع عن كل أحد .. فما في هذا الخبر ، إذا صح - شيء مما يذهبون إليه ، وما فيه إلا فضيلة من فضائل محمد عليه الصلاة والسلام وإلا الأمر بالإيمان به . فقد قيل لعيسى عليه السلام : آمن بمحمد وأمر من أدركت من أمّتك أن يؤمنوا به . وذكر فيه بعد الأمر بالإيمان به هذه الفضيلة العظيمة ، ولم يذكر غير الإيمان والتصديق . فكان الفضيلة المذكورة إذا صححت لم تدل إلا على وجوب الإيمان بصاحبها وهو خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولهذا لم يقل في الخبر المذكور : يا عيسى توسل بمحمد ولا استغث به ولا ادعه ولا اعكف على قبره ، ولا أوامر من أدركه من أمّتك أن يتوسلوا به ويستغيثوا وأن يدعوه ويعكفوا على قبره وأن يسألوه حاجاتهم وأن يسألوه الجنة والنجاة من النار ، أو يسألوه شيئاً من هذه الأشياء التي يسألها الناس اليوم المشايخ والأموّات والصالحين والطلّحين . ففضيلة محمد عليه الصلاة والسلام تقتضي الإيمان به واتباعه وإجلاله وإجلال أحكامه وشريعته ، والرغبة عما خالفها وخالفه . والاعتراف بهذه الفضيلة لا يكون إلا بذلك ... أما الاتقطاع إلى قبره والعكوف عليه رجاء مدده ونصره ، ورجاء نفعه وضره - وأما سؤاله ودعاؤه والاستغاثة به : أما ذلك كله فليس فيه فضيلة له ، وليس الفاعل له من المعترفين بفضله وفضيلته وقدره وبما أوجبه الله له وخصه به من الفضائل والعطايا الربانية الكريمة . ولهذا نجد المالكين على قبره .

الفضيلة محمد
تقتضي الإيمان
واتباعه ودعاؤه
وطلب الحاجات
منه

وعلى قبور سواء من الأنبياء والصالحين والأولياء والأشبيخ من أنقص الناس ديناً وتقىً واتباعاً لأوامر الإسلام وأوامر نبي الإسلام . وقد كان أبو بكر الصديق أفضل الأمة وأقربها إلى نبيها وربها وأعظمها اعتراكاً بقدر النبي عليه السلام ومعرفة له واعترافاً بشرفه وفضله وفضائله ، وكان أعملها بذلك : كان أبو بكر الصديق مع ذلك كله أقل المسلمين سؤالاً للنبي وشكاية إليه ورغبة في ما عنده من أعراض الحياة الدنيا . بل قيل إنه رضى الله عنه لم يسأل النبي عليه السلام شيئاً قط في حياته لنفسه ولا لغيره . وكذلك كان المسلمون جميعاً : أكثرهم إيماناً وتصديقاً وتقوى أقلهم سؤالاً للمخلوق وشكاية إليه ورغبة فيه وفي الحاجات لديه . وقد كان الأعراب وحداء العهد بالإيمان والإسلام هم الذين يسأله الرسول . يكثر من سؤال النبي . وكانوا يلحفون ويلحون بمسائلهم ومطالبهم حتى كان ينفضب وينكر ، وكان ينفضب لفضبه كبار أصحابه وسادتهم أمثال الصديق والفاروق . وقد جاء في الحديث الصحيح أن الصحابة كانوا يتهيبون سؤاله عليه السلام ، وكانوا يدعونه مع رغبتهم فيه وحاجتهم إليه ، وقالوا : إنهم نهوا عن سؤاله . وكانوا يفرحون ويتمنون أن يأتي الأعرابي من البادية فيسأل النبي فيتلقوا جوابه ويعلموا ما يحتاجون إلى علمه . . . هذا في العلم والدين . أما الدنيا ، فانه عليه الصلاة والسلام كان ينفضب ، وكان يشتد في غضبه على من يسأله الدنيا ، وكان ينكر المسألة ويحذرهما ، وكان يذكر وعيد السائلين والمستجدين ، وكان يرغب في التعفف وفي الإقصار عن مسألة الناس ألوان الترغيب . وكان كبار صحابته وكبار المسلمين لذلك أبعد الناس عن أن يسألوه شيئاً من حاجات الدنيا ومآربها وأعراضها . وكانوا - رضى الله عنهم - مع ذلك أعظم الناس إيماناً بالله وبرسوله وأكثرهم اعتراكاً بحقوقه وعرفاناً لها .

أما هؤلاء العاكفون على الأجداث فلا يجدون الفضيلة والكرامة للنبي

عليه السلام أو لنفيره إلا في دعائه وسؤاله واستجدائه وفي المكوف على قبره وجده ، وإلا في الرغبة فيه وتأميل الحاجات والشهوات لديه ، وإلا في بناء قبره وزخرفته وإلقاء المطارف والحرير وأنواع المملقات الفاخرة الجيدة على قبره ومقامه . وقد كان ﷺ أشد الناس زهداً وزهيداً في هذا كله يوم أن كان حياً ..

ما يريد عباد الدنيا
ف هؤلاء الناس المخالفون لا يمدون فضائل النبي والقرار بها إلا هذه الألاعيب والمظاهر والزخارف التي لا يرغب فيها إلا أهل الدنيا وأهل الجاه الكاذب المغرور والاطلاب الشهرة والعظمة والعلو في الأرض من أهل الرثاء والنفاق الحاد ، ومن لا يعملون شيئاً من الإصلاح — أو مما يسمى إصلاحاً — إلا لأجل أن ينالوا التعظيم وعبادة الجماهير الجاهلة بعد موتهم وذهابهم إلى ما قدموا من صالح أو سيئ . فننصب لهم التماثيل في أعظم الميادين ، وتصنع لرفاتهم التواييت ، ونشاد على رمهم أخضر القباب والبنائات الشائخة الرفيعة .. وغير ذلك من صنوف الأحابيل التي يقع فيها الجماهير الغبية الجاهلة من يدعون بالعظمة والقواد .

ولكن عباد الله حقاً كلاً نبياء والمرسلين ، وسائر الصالحين المهتدين بهديهم الأخذين بأخدهم ، لا يرغبون في شيء من هذا ولا يقرونه ولا يرضونه ولا يكتبنون في إنكاره وردة على فاعليه وصانعيه .. ونحن إذا رأينا زعيم شعب يريد من قومه وشعبه العناية به بعد موته والتقدیس لجثمانه وروحه ، فيرغبهم في إقامة التماثيل له وفي تسمية الأماكن والطرقات باسمه الشريف الخالد ، وإقامة الحفلات « الدورية » والإفناق عليها من الأموال والأعمال مالا يطيق الشعب : إذا رأينا زعيم شعب ينحى هذا المنحى — بالتصريح أو بالإيماء — شككنا في إخلاصه وفي صدق زعامته ، وساغ لنا أن نقول : إنه رجل يعمل لنفسه وجثمانه وشهوته وشهرته ... ونبذناه إذا كنا عقلاء فطناء .. وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفاعيل حول قبر النبي وحول قبور الأنبياء وقبور الصالحين من عباد الله : يزخرفون

ويشيرون ويعلقون ويندرون ويهدون ويعكفون ويرغمون أن النبي وأن الأنبياء وأن المسلمين الأولين يرضون ذلك ويريدونه منهم ويأمرون به ويدعون إليه ويقبلونه من فاعليه : هؤلاء الذين يفعلون هذا ويرغمون هذا هم يسيثون إلى النبي وإلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإلى الصالحين من حيث لا يشعرون ولا يريدون ، ويلقون ضباباً من اتهام الجهلاء وظنون الطائنين الذين لا يعرفون حقيقة الاسلام وخلوصه وبراءته من هذا الجهل والنفاق والرئاء والكذب كله . أفلا يعتبر المخالفون بهذا إن كانوا حقاً الاسلام وحب النبي يريدون ويقصدون ؟

﴿ الشبهة الرابعة عشرة السؤال رب جبرائيل ﴾

﴿ وميكائيل وإسرافيل ﴾

خير السؤال
رب جبرائيل
وميكائيل ومحمد

الشبهة الرابعة عشرة ، قال الرافضي : ومن أخبار التوسل بالملائكة والأنبياء ما في « خلاصة الكلام » أن النبي عليه السلام أمر أن يقول العبد بعد ركعتي الفجر ثلاثاً : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد أجرني من النار » . قال في شرح الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم في قبول الدعاء ، وإلا فهو سبحانه رب جميع المخلوقات . فافهم ذلك أنه من التوسل المشروع ، انتهى .

والجواب أن يقال أولاً : إن هذا النوع من التوسل لا خلاف في جوازه . فلا خلاف في جواز أن يقول القائل : « اللهم رب الأنبياء ، ورب الملائكة ، ورب السماوات والأرضين ، ورب العالمين : أسألك أن تغفر ذنبي ، وأن ترحم حني عن النار ، وأن تدنيني من الجنة ومن أعمالها وموجباتها .. » ، ولا في أن يقول قائل : « اللهم رب محمد وأبي بكر ورب عمر ورب عثمان ورب علي ، ورب المؤمنين جميعاً : أسألك موجبات رحمتك ومزيلات سخطك ... » . كل هذا لا خلاف

في جوارحه وجواز أمثاله فيما نعلم . وقد جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة قالت كان رسول الله إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، علم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا من التوسل
بصفات الله

فهذا النوع من الدعاء والتوسل لا ينافي فيه أحد من المسلمين فيما نعلم ، لأنه في الواقع توسل ودعاء باسم من أسماء الله وصفة من صفاته ، وهما اسم « الرب » وصفة « الربوبية » . مضافين إلى مخلوقات هي من أعظم وأجل مخلوقات الرب وأشرفها فالذي يقول : أسألك يا رب السموات ويا رب العالمين ، لا يسأل بشيء من الخلق لا بالسما ولا بالعالم . وإنما يسأل ربه متوسلا إليه بإحدى صفاته وهي صفة الخالقية . والذي يقول : يا رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل اغفر لي ذنبي واهدني لما اختلف الناس فيه لا يسأل بجبرائيل ولا بميكائيل ولا بإسرافيل ، وإنما يسأل ربه بصفة الخلق التي من أشرف متعلقاتها والكائنات بها هؤلاء الملائكة الكرام . والرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك . إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » لم يسأل ربه هؤلاء الملائكة ولا بالسموات والأرض ولا بالغيب والشهادة ، ولا بمن يهديه إلى الصراط المستقيم . وإنما سأله تعالى بصفاته : صفة الربوبية ، وصفة الخلق ، وصفة علم الغيوب ، وصفة الهداية ، وصفة الحكم بين المختلفين . . . ويراد بضافة أحد أسماء الله أو إحدى صفاته إلى بعض المخلوقات العظيمة المبالغة في الثناء على الله وعلى صفاته وأسمائه . وذلك أن الأمر يعظم بقدر ما يعظم أثره وسببه ، فما كان أثره عظيما وجليلا كان هو عظيما جليلا . ومن أثنى على أثر أمر من الأمور

وعلى أفعاله ومصنوعاته فقد أتى ولا شك على صاحبها وفاعلها . بل الثناء على
المصنوعات المفعولة هو ثناء على الفاعل الصانع . فالذى يقول : اللهم رب محمد
والأنبياء ، ورب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ورب الملائكة اهدنى . . .
لا يريد بقليله هذا إلا الثناء على الله والتوسل إليه بامتداح صفته التى من آثارها
هؤلاء الأنبياء وهؤلاء الملائكة . فهو قد أتى على صفة الله باضافتها إلى هؤلاء
العباد الكرام على الله وعلى خلقه ، وأتى على الله بثنائه على صفته . فهو قد
توسل إلى ربه بالثناء عليه والتمجيد لأسماؤه وصفاته . ولم يتوسل بمخلوق ولا بعبد
من العبيد . ولهذا قال فى حديث عائشة . . . فاطر السموات والأرض ، عالم
الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف
فيه من الحق باذنك . إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم . ولا يمكن أن
يكون هذا من التوسل بالسموات والأرض والغيب والشهادة — أى بالغائب
والشاهد — وبالعباد . ومن يهdy إلى الصراط المستقيم من خلق الله . فانه لا
يقول أحد : إن التوسل بهذه المخلوقات كلها من التوسل الجائز المشروع . فلا يجوز
تأخذ التوسل بالأرض والسماء والغائب والشاهد ، وبكل العباد ، وبكل من
هدى إلى الصراط المستقيم . ولو كان ذكر جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد
فى الحديث الذى ذكره توسلاً وسؤالاً بهم لكان ذكر السموات والأرض
والغائب والشاهد والعباد والمهدين فى حديث عائشة وفى غيره من النصوص
توسلاً وسؤالاً أيضاً ، لأنه لا فرق بين ذكر هؤلاء وذكر هؤلاء . وقد جاء فى
الكتاب وفى السنة إضافة لفظة « الرب » إلى كل شئ : إلى العالمين ، وإلى
المشارك والمغارب ، وإلى السموات والأرض وما بينهما ، وإلى العرش ، وإلى
الشعرى ، وإلى الناس ، وإلى الفلق ، وإلى الغيب والشهادة ، وإلى كل شئ
إلى الرياح وإلى الشياطين . . . وهذا كله مذكور فى الكتاب وفى الأخبار .

ولكن لا يذهب حافل إلى جواز التوسل إلى الله بكل ذلك . لأن القول بجواز التوسل بالأرضيات والسماويات والعلويات والسفليات وسائر صنوف المخلوقات حتى الرياح والشياطين والشجرى والفلق ، وحتى الناس بمنافعهم وملحديهم وضلالهم وجهالم وكفارهم . . . قول لا يرضاه أحد في ما نظن . والمخالفون يدعون أن قوله في الخبر المذكور : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد . . . » توسل وسؤال هؤلاء الملائكة وبرسول الله عليهم الصلاة والسلام . وإذن ليقولوا : إن قوله في حديث عائشة وفي غيره : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة » الحديث توسل وسؤال بكل شيء . وهذا يلزمهم لزوماً لا فرار لهم منه .

ثم يقال ثانياً - . هذا الحديث غير صحيح ، فيه رواية ضعفاء ، تكلم فيهم . وقد رواه ابن السني والطبراني في الكبير . قال في « مجمع الزوائد » (الجزء الثاني صفحة ٢١٩) : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه عباد بن سعيد . قال الذهبي : لا شيء . وقد زكاه ابن حبان في الثقات . وقد روى من طرق أخرى كلها ضعيفة لا يصح الاعتماد على شيء منها في التحليل والتحريم والتشريع . وإنما يقبلها من يقبلها في فضائل الأعمال ، وفيما ثبت أصله وحكمه بأدلة أخرى صحيحة ثابتة . هذا والحديث لم يرد بلفظ الأمر ، وإنما ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول ذلك . والشئبى المؤلف ذكر أن النبي أمر به أمراً . وهو غلط أو كذب .

وأما قوله : « قال في شرح الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم وإلا فهو سبحانه رب جميع المخلوقات . فأفهم أنه من التوسل المشروع . . . » فهو كذب ، لم يذكر هذا الكلام في شرح الأذكار ، لا بلفظه ولا بمعناه . بل ذكر فيه ما يبطل زعم الرافضى . فقد ذكر أن هذا من التوسل بصفة « الربوبية » لا

بهؤلاء المرويين . ولو كان صادقا في فيما نقله لما كان في ما نقل حجة شرعية . لأن كلام الشراح وغيرهم من الناس لا يحكم على الشرع ، بل الشرع هو الحاكم على الشراح وعلى سائر الناس . والكتاب والسنة لا يردان إلى آراء الرجال ، ولكن الآراء ترد إليهما عند المسلمين .

﴿ الشبهة الخامسة عشرة أمر مالك للمنصور ﴾

﴿ ان يستشفع بالنبي عليه السلام ﴾

قال القاضي عياض في كتاب « الشفا » : حدثنا القاضي أبو عبد الله : محمد بن روية امرأه
عبد الرحمن الأشعري ، وأبو القاسم : أحمد بن أبي الحاكم ، وغير واحد فيما أجازوني به
قالوا أخبرنا أبو العباس : أحمد بن عمر بن دهاث . قال حدثنا أبو الحسن : علي
ابن فهر . حدثنا أبو بكر : محمد بن أحمد بن الفرج . حدثنا أبو الحسن عبد الله
ابن المنتاب . حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل . حدثنا ابن حميد
قال : ناظر أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله . فقال له
مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فان الله تعالى أدب قوما
فقال : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » الآية ومدح قوما فقال : « إن
الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله » الآية . وخم قوما فقال : « إن الذين
ينادونك من وراء الحجاب أكرهم لا يعقلون » الآية . وإن حرمته ميتا
كحرمته حيا . . . فاستكان لها . أبو جعفر . وقال : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة
وأدعو أم أستقبل رسول الله ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك
وسيلة أهلك آثم إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله .
قال الله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك . . . » الآية . انتهى سياق
القصة عند القاضي عياض في كتابه « الشفا » .

قال الرافضى بعد ذكر هذه الرواية : « قال السهمودى ، فانظر إلى هذا الكلام من مالك وما اشتمل عليه من أمر الزيارة والتوسل بالنبي واستقباله عند اللقاء وحسن الأدب التام معه » .

الكلام على اسناد
القصة

والجواب أن يقال : أما هذه الرواية عن الامام مالك فهي رواية ليست مشرقة الاسناد ولا واضحة ولا معروفة الرجال والرواة ، بل هي رواية منكورة باطلة ، وإسنادها مظلم منكر مجهول . والرواة كلهم من القاضى عياض إلى الامام مالك يحتاجون إلى البحث والتنقيب الدقيق . وقد بحثنا عنهم جميعاً فيما بين أيدينا من كتب الحديث وكتب الرجال فما وجدنا منهم غير يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل . وسيأتى الكلام عليه . أما ابن حميد فهو دائر بين رجلين كما سوف يأتى . ثم على جهالة رواية هذا الاسناد لا يدري هل التقى بعضهم ببعض ، وهل تعاصروا ، وهل يمكن أن تكون رواية بعضهم عن بعض متصلة سليمة من الانقطاع ؟

فالرواة - ما خلا يعقوب ابن حميد - مجهولون من كل وجه ، والاسناد مظلم ، يعوزه الإشراق والوضوح . فلا يصح الاحتجاج بالرواية ، ولا يجوز التدين بالاسناد . وعلى من يخالفنا في هذا ويزعم أن الرواة ثقات أثبات معروفون معلومون ، ويزعم أن الاسناد ثابت صحيح متصل ، أن يكشف لنا هذا كله ويبينه بالأساليب العلمية الفنية الصادقة . وإلا فلا الثقات إليه ولا مبالاة به . ورواية القاضى عياض للقصة لا يدل على صحتها ، لا عنده ولا عند غيره ، ، وتخرجهما في كتاب : « الشفا » لا يدل على أن الرواة معروفون ، وأنهم ثقات أثبات يجب - أو يسوغ - الاحتجاج بهم .. لأن القاضى عياضاً يروى في « الشفا » أحاديث منكورة باطلة بالاجماع ، بل أحاديث موضوعة مكنوبة . وعادته هذه معروفة لا خلاف فيها . وهو مثل غيره من الجامعين في كتبهم ومؤلفاتهم صنوف الأخبار

الصحيحة ، والضعيفة ، والموضوعة المكنوبة . وليس هو من المشترطين فيما يروون ويذكرون الصحة والثبوت كما اشترط فريق ليس الأكثر من المحدثين ذلك فصارت لكتبهم منزلة خاصة بها بين المسلمين والباحثين جميعاً ، ولكل طائفة من الطائفتين - المشترطة الصحة ، والجامعة كل ما يصل إليها من الأخبار - غرض واضح مشكور . فاسناد الرواية فيما بين القاضى عياض وبين يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل إسناد منكر مظلم مجهول ، لا يدان الله بمثله ، ولا يخضع له العلم ولا الايمان . أما القاضى عياض فلا شك في إمامته وصدقه وجلالة قدره وعظم شأنه وصحة ما يرويه بنفسه . وأما يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل فقد ذكره الحافظ الخطيب في التاريخ ولم يذكر فيه قدحاً ولا مدحاً غير قول الدارقطني : إنه لا بأس به . وذكر أنه مروى الأصل ، وأنه حدث عن أبيه وعن داود بن رشيد ، وأحمد بن عبد الصمد الأنصاري ، والحسن بن شبيب المؤدب ، وعمر بن شبة النخعي . وأنه حدث عنه المفضل بن سلمة بن عاصم ، وعبد الصمد بن علي الطسقي ، وأبو القاسم الطبراني . ولم يذكر أنه من الرواة عن ابن حميد ، ولم يذكر تاريخ وفاته ولا ميلاده . هذا خلاصة ما ذكره الخطيب في ترجمة يعقوب .

وأما ابن حميد هذا الذي حدث عنه يعقوب ، والذي روى القصة مباشرة عن ^{بيان الاختلاف في السند} مالك ، فاختلف فيه : فقيل : إنه محمد بن حميد الحافظ الرازي ، وقيل : إنه محمد ابن حميد البشكري البصري . وبكل من القولين قال فائون . فبالأول قال شيخ الاسلام ابن تيمية ومن تبعه كابن عبد الهادي وغيره . وبالثاني قال السبكي في كتاب « شفاء السقام » ومن قلده من المتأخرين الجهلاء بهذا العلم . والأمر في الظاهر محتمل أن يكون هذا وأن يكون هذا ، لأنه لم يمين في الرواية ، ولم يأت في الظاهر ما يمين على تعيينه . فجاز أن يكون الرازي الحافظ ، وأن يكون البصري

اليشكرى ، وجاز أن يذهب إلى هذا ذاهبون ، وأن يذهب إلى ذاك ذاهبون .
ولا بد من معرفة الحقيقة ومن تطلبها لمن يريد أن يحتج بالرواية وأن يدين الله
بالقصة ، ولا بد من معرفة ابن حميد هذا قبل الإقدام على تصحيح حديثه ، لأن
أحد هذين الراويين - الدائر ابن حميد بينهما - ثقة ، وأحدهما ضعيف ذاهب .
ولأن أحدهما متأخر عن عصر الإمام مالك ، فروايته عنه لا تكون إلا منقطعة
غير متصلة ، وأحدهما متقدم يمكن أن يروى عن الإمام مالك وأن تكون
روايته عنه متصلة . . . فن يكون إذن ابن حميد هذا ؟ أهو الرازي الحافظ ،
أم البصري اليشكرى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية ومن تبعه : إنه هو الرازي .
وعلى هذا فالرواية ضعيفة لأمرين اثنين : أحدهما أن محمد بن حميد الرازي
ضعيف . وهما الآخران واتهموه بالوضع والكنب المنعم . وقد كذبه أبو
زرعة الرازي واسحاق الكوسج وصالح جزرة وابن خراش وابن وادة وآخرون ،
وترك التحديث عنه آخرون . ووثقه طائفة مع اعترافهم بوجود المناكير في حديثه .
وفانى الأمرين القاضيين بضعف القصة على هذا الرأي أن رواية ابن حميد
الرازي عن الإمام مالك منقطعة ، لأنه لم يرو عنه ولم يدركه . فان ابن حميد
توفى سنة ٢٤٨ وتوفى الإمام مالك سنة ١٧٩ . فوفاة مالك سابقة وفاة ابن حميد
ب ٦٩ سنة . فإذا فرض أن ابن حميد عاش ٦٩ كان . ولده في العام الذي مات فيه
مالك . وإذا فرض أنه عاش ٨٩ كانت سنة في العام الذي مات فيه مالك عشرين
عاماً . ولا يمكن في الغالب المعتاد أن يرتحل من بلاده إلى المدينة المنورة
بلدة الإمام مالك بن أنس فيلتقي به ويروى عنه قبل هذه السن في الكثير
المعهود . إذا فرض أنه روى عنه في آخر حياته . على أن أبا جعفر المنصور الذي
ناظر مالكاً كما في الرواية قد تقدمت وفاته على وفاة مالك ، فإنه قد توفى عام ١٥٨
ففيكون وفاة المنصور قبل وفاة محمد بن حميد ب ٩٠ عاماً . فذلك قد أن

قال ابن تيمية

عمره ٩٠ سنة كان ميلاده في العام الذي مات فيه المنصور. فلا يظن أن ابن حميد قد ولد في حياة المنصور فضلاً عن أن يظن أنه ولد واصلح للرواية والتحديث وحمل العلم حينما وقعت هذه المناظرة بين الخليفة والامام في الحكاية المزعومة. فابن حميد هذا - إذا كان هو الرازي - ضعيف. ضعفه الاكثر كثرون، وكذبه طوائف منهم. وروايته عن مالك منقطعة يقيناً. فالحكاية المذكورة ضعيفة بالنظر إلى ابن حميد - فقط - من ناحيتين: الانقطاع والضعف. والا لنقطاع والضعف كافيان في بطلان الرواية وردها ولو لم يكن في سندها سواهما.

هذا إذا كان ابن حميد هو الرازي الحافظ. أما إذا كان هو أبا سفيان اليشكري البصري فهو ثقة ثبت من رجال مسلم في الصحيح. وهذا هو ما جرح إليه السبكي في «شفاء السقام». قال: «أظن ابن حميد هو أبو سفيان البصري اليشكري، لأن الخطيب ذكره في الرواة عن مالك...». ولكن هذا التمين لا دليل عليه سوى ما ذكر عن الخطيب أنه عدمه من الرواة عن مالك. وهذا لا يدل على أنه هو يقيناً إذا صح ما ذكره عن الخطيب البغدادي. وإنما هو احتمال عند قوم قوي وعند آخرين ضعيف. وقد ذكر الخطيب ترجمة ابن حميد الرازي وابن حميد اليشكري البصري في التاريخ ولم يذكر أن واحداً منهما روى عن مالك. وكذلك ذكر الحافظان الذهبي في الميزان وابن حجر في التهذيب ترجمتهما ولم يذكر أنهما من الرواة عن مالك. وعلى كل حال فالاحتمال الذي ذكره السبكي احتمال ضعيف لا دليل عليه، ولهذا قال في كتابه «شفاء السقام»: «أظنه إياه» ولم يقطع مع أنه يود أن يكونه، ويكره أن يكون الرازي، لأنه ضعيف ولأنه لم يدرك مالكا. ومع حرصه الشديد على أن يكون ابن حميد هذا هو البصري اليشكري الثقة - ومع إصراره في اتباع هواه يقول: «أظن» ولم يستطع القطع واليقين.

وقال السبكي

وعلى كل حال فالانصاف يقتضينا بالآلا نجزم بانه الرازى الضعيف كما
يقتضينا بأن لانسلم ظنهم أنه البصرى اليشكرى المعمرى الثقة . فكلما الرأيين .
لادليل عليه من نفس الاسناد وسياق القصة . وإنما هو الترجيح والتظنى . وهما
لايفيدان العلم والمعرفة . وهذا الاحتمال وحده قاضى برد الرواية وتضعيفها
لجواز أن يكون ابن حميد المبهم هو الرازى الضعيف لا اليشكرى المعمرى الثقة .
ومما لاشك فيه أن كلا الرجلين - الرازى الحافظ ، والمعمرى البصرى .
اليشكرى - قليل التحديث والحديث عن مالك إذا صح أن أحدهما روى .
عنه . ولا يعلم أن واحدا منهما التقى به وجلس إليه وسمع منه ، وهما رازى .
وبصرى ومالك مدنى . وأنت إذا راجعت كتب التراجم وكتب رجال الحديث
لا تجد لها تذكرة ولا تذكر واحدا منهما فى الرواة عن الإمام مالك سوى ما ذكره
السبكي عن الخطيب . وهذا يهيج الشك فى صحة الحكاية ومحة سندها .

ومع هذا
الاسناد ضعيف

ولاريب أن تأخر عصر محمد بن حميد الرازى الحافظ عن عصر مالك وعن
العصر الذى وقعت فيه المناظرة بينه وبين الخليفة لا يدل على أنه غيره . لانه
جائز وواقع معهود أن يحدث الراوى عن لم يدركه ، وعن بينه وبينه العصور
والسنون بأن يقول مثلا : قال فلان كذا . والناس كلهم يفعلون هذا حتى البخارى
نفسه يفعل فى الصحيح ، أعنى الأحاديث المعلقة التى يقول فيها مثلا بلا إسناد
قال رسول الله ، أو فعل ، كذا ، وقال أحد الصحابة أو فعل كذا بلا إسناد . وابن
حميد الرازى قريب منه أن يقدم على هذا النوع . فانه مدلس كما أنه ضعيفه
ذاهب الحديث . فتأخره عن الإمام مالك وعن عصره لا يمنع أن يكون هو
المذكور فى هذه القصة ، لا أباسفیان المعمرى الثقة . وإذا لم يثبت أو يترجح
أنه هو كان محتملا وممكنًا . والاحتمال والإمكان يمنعان ويأبيان صحة الرواية ،
ويردان على هذا الرافضى ومن يقدّم فى هذه المسائل قولهم : إن الاسناد صحيح

أو جيد . وكيف يكون صحيحاً وقد احتمل أن يكون أحد الرواة هو هذا الضعيف المتهم بالكذب واختلاق الأخبار ؟ والرواية لا تكون صحيحة إلا إذا كان روايتها كلهم من أول الإسناد إلى آخره عدولا أثباتا معروفين بالنص والعلم والتميين ، لا بالاحتمال والتجوز والتظني . . . والحديث الذي يكون أحد رواياته ضعيفاً لا يصح أن يقال : إنه حديث صحيح أو حديث جيد بلا خلاف بين علماء هذا الشأن ورجاله .

ولو صح ما قالوا
كان الأسنا
مقطعا أيضا

على أنه إذا قطع هذا الاحتمال ونهض الدليل أو الدلائل على أن ابن حميد هذا هو أبو سفيان البصري المعمرى اليشكري الثقة العدل الذي أخرج حديثه مسلم في الصحيح كان السند أيضاً معلولاً وكان غير صحيح يقيناً ، بل كان منقطعاً غير متصل . فقد ذكر الحافظ ابن عبد الهادي في كتاب « الصارم المنكي » أن محمد بن حميد المعمرى اليشكري البصري قد مات قبل أن يولد يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل الراوى لهذه الحكاية عنه ، وقد تقدم أن الخطيب ذكر في التاريخ يعقوب بن إسحاق هذا وتقدم أنه لم يذكر تاريخ وفاته ولا تاريخ ميلاده ولا ذكر أنه روى عن ابن حمد لا الرازى ولا المعمرى اليشكري البصري ، وأنه ذكر أنه كان يروى عن عمر بن شبة النخعي ، والحسن بن شبيب المؤدب ، وذادود ابن رشيد ، وأحمد بن عبد الصمد الأنصاري ، وأمثالهم ، وأنه كان يروى عنه أبو القاسم الطبراني ، والمفضل بن سلمة بن عاصم ، وعبد الصمد بن علي الطسقي ومن في طبقتهم . والذي يروى عن هؤلاء ويروى عنه أولئك متأخر عن محمد بن حميد المعمرى البصري . فان المعمرى قد توفي سنة ١٨٢ ، والطبراني - وكان من الرواة عنه - ولد سنة ٢٦٠ ومات سنة ٣٤٠ . فيكون بين ميلاد الطبراني ووفاته ابن حميد هذا ثمان وسبعون سنة . فاذا قدر أن يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل كانت سنة ٢٠ يوم مات ابن حميد - وهذا التقدير لا بد منه لتصح روايته عنه -

كان بين ميلاد الطبراني وبين ميلاد يعقوب ثمان وتسعون سنة. ولو صح هذا لما
 أمكن أن يروى عنه الطبراني، وهو من الرواة عنه. إذ لا بد أن يكون عصر
 يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل متأخراً عن عصر ابن حميد البشكري
 المعمرى، وإذن لا بد أن تكون روايته عنه منقطعة بلاريب. إذ من غير الممكن
 أن يكون تلميذاً لأحدهما شيخاً للآخر وبينهما هذه الفجوة الزمنية الهائلة.
 فاسناد هذه القصة منقطع على كلا الرأيين والاحتمالين. فان كان ابن حميد هو
 الرازي الحافظ فالانقطاع بينه وبين مالك. وإن كان هو البصري البشكري
 المعمرى فالانقطاع بينه وبين يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل. فالرواية
 منقطعة الاسناد لاحتمال، فالحكاية ضعيفة لا بد، فالاحتجاج بها باطل مردود لاشك
 وهناك أمور أخرى كثيرة تدل على ضعف هذه القصة المروية عن الامام
 مالك رضى الله عنه. من ذلك أن أصحاب مالك نفسه، الذين دونوا فقه وعلمه
 وكل ما يتصل به لم يذكرها عنه في ما ذكرها وكتبوا. وإنما انفرد بها عنه ابن
 حميد هذا، الذي هو الرازي على قول، والبصري المعمرى على قول آخر. وهما
 كلاهما ليسا من أصحابه ولا من حملة العلم عنه لا الحديث ولا الفقه ولا غيرهما
 من صنوف العلم. ولا شك أن رواية ينفرد بها هذا المختلف فيه عن مالك دون
 أصحابه الثقات الاثبات الملازمين له رواية جديرة بالاطراح والرد، أو جديرة على
 الأقل بالشك في صحتها وثبوتها.

فالاسناد منقطع
 على كل حال

أمور أخرى دالة
 على كذب
 الحكاية

ومن ذلك أنها مخالفة لما صح عن مالك ولما رواه عنه أصحابه الثقات من
 أن الداعي يستقبل القبلة لا القبر كما سوف يجي. وقد زعم في هذه الرواية أن
 مالكا أمر المنصور بأن يستقبل القبر حين الدعاء لا القبلة. وهذا خلاف ما صح
 عن مالك وخلاف ما رواه الثقات عنه من أصحابه الآخذين عنه. ولا شك أن
 رواية أصحابه مقدمة على روايات سوام، فان أصحاب الرجل أعلم به من غيرهم

ولا ريب . قال القاضي عياض في كتاب « الشفا » : « قال مالك في المبسوط : ما نقله عياض
عن مالك
ومحالفته لما
في هذه القصة
من وجوه : لا أرى أن يقف عند قبر النبي ويدعو ، ولكن يسلم ويمضي . وقال نافع : كان
ابن عمر يسلم على القبر ، رأيته مائة مرة وأكثر يجيء إلى القبر فيقول : السلام
على النبي ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي . ثم ينصرف . وعن ابن قسيط
العتبي : كان أصحاب رسول الله إذا خلا المسجد جسوا رمانة المنبر التي تلي
بميامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون . وفي الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الليثي
أنه كان يقف على قبر النبي فيصلي على النبي وعلى أبي بكر وعمر . وعند ابن
القاسم والقنبي : ويدعو لأبي بكر وعمر . وقال مالك في المبسوط : وليس يلزم
من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر وإنما ذلك للغرباء . وقال
فيه أيضاً : لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي
فيصلي عليه ويدعو له ، ولأبي بكر ، وعمر . فقيل له : إن ناساً من أهل المدينة
لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة وأكثر ، وربما وقفوا
في الجمعة أو في الأيام المرة أو المراتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون
ساعة . فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع . ولا يصلح
آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها
أنهم كانوا يفعلون ذلك . ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده . قال ابن القاسم :
ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوها أتوا القبر فسلموا . قال : وذلك
رأى . قال الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك ،
وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم . وقد قال ﷺ :
« اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبوراً بلبائهم
مساجد » . وقال : « لا تجعلوا قبري عيداً » . ومن كتاب أحمد بن سعيد
الهندسي في من وقف بالقبر لا يلصق به ، ولا يمسّه ، ولا يقف عنده مطويلاً .

هذا كله كلام القاضي عياض المالكي في كتابه : « الشفا في حقوق المصطفى »

من باب : « فصل في حكم زيارة قبره عليه السلام » .

فذهب الامام مالك الثابت عنه ، الذي رواه ثقات أصحابه في أفضل كتبهم أن الداعي في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام يستقبل القبلة ولا يستقبل القبر كما ذكر في هذه الحكاية ، فالحكاية مخالفة لمذهب مالك المعروف بين أصحابه الثقات البصرياء . وهذا مما يفت في ضدها ويوهيها ويقضى بردها وإطراحها . ولهذا لم يذكر القاضي عياض هذه المناظرة في « فصل زيارة قبر النبي وآداب الزيارة » وإنما ذكرها في « فصل في أن حرمة النبي بعد موته وتوقيره وتظيمه لازم كما كان حال حياته » . وكان هذا الذي ذكر في المناظرة من الأمر باستقبال القبر الشريف عند الدعاء لم يكن عند القاضي عياض من آداب زيارة القبر الشريف ومستحباتها . بل عنده أن آداب الزيارة هي ما ذكره في فصل الزيارة من النهي عن استقبال القبر حين الدعاء ، والنهي عن إطالة الوقوف عليه والدعاء عنده ، والاكتفاء من إتيائه وإتيائه . ولو كان استقبال القبر حين الدعاء عند القاضي عياض من آداب الزيارة وسننها ومشروعاتها لأورد هذه الحكاية في باب الزيارة ، أولاً وأخيراً . ولا يمكن أن يورد ما يخالفها في فصل الزيارة ويقتصر عليه إلا إذا كان يرى أن السنة لا تعدو ما ذكره مخالفاً لها . وهذا واضح بين .

استقبال القبلة
بين الدعاء في
مذهب مالك

أما ما ذكره عنه رضى الله عنه من رواية ابن وهب أنه قال : إذا سلم على النبي ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ، ويدنو ويسلم ولا يمس القبر : بيده فالجواب أن المراد بالدعاء الذي يستقبل القبر في حينه هو الدعاء للرسول ولصاحبيه أبي بكر وعمر . فإن السلام دعاء لغة وشرعاً : فمن الدليل على أنه يسمى دعاء الرواية المتقدمة التي قيل فيها : « ويدعوا لأبي بكر وعمر » . وقد نقل

وأما الرواية
الأخرى فالمراد
بها الدعاء
للرسول

القاضي عياض في الفصل المذكور : « قال أبو الوليد الباجي : وعندى أنه يدعى
للشيء بلفظ الصلاة ولأبي بكر وعمر » . وقال في الرواية المتقدمة عن مالك :
« لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي فيصلى عليه
ويدعوه ولأبي بكر وعمر » . فهذا كله يدل على أنهم يسمون الصلاة والسلام
على النبي وعلى صاحبيه دعاء . وهذا لا شك فيه لغة ولا شرعا . فقول مالك رضى
الله عنه في رواية ابن وهب أنه إذا سلم على النبي ودعا يقف ووجهه إلى القبر
لا إلى القبلة يراد به الدعاء للنبي ولأبي بكر وعمر ، ولا يراد به دعاء المرء لنفسه .
فرواية ابن وهب هذه ليست مخالفة لروايات غيره الصحيحة القائلة : إنه يستقبل
القبلة لا القبر وقت الدعاء ، وليست مخالفة لما صح عنه رضى الله عنه من إنكاره
الوقوف بالقبر طويلا ، وإنكاره الدعاء عنده . فهذا له موضع وذاك له موضع .
فلا اختلاف ولا اضطراب . وهذا معقول مفهوم شرعا ونظرا . فان الداعي لرسول
الله ولصاحبيه بالصلاة والسلام أو بغيرهما معقول منه وله أن يستقبل القبور
الشريفة وأن يتجه إليها ، لأن في ذلك نوعا من الخطاب وإن كان غير حقيقى .

أما الذى يدعولنفسه فى مسجد النبى عليه الصلاة والسلام فمكروه له ومنه
أن يستقبل القبر ، لأن استقباله إذ ذاك لا معنى له ، بل فيه نوع وثنية إن لم
تكن فى حقيقتها ومعناها فى صورتها وظهورها . وفيه غلو منكربيع ، وخرج
على أصول الشرع وقواعده المروفة المؤسسة على الاخلاص المحض وعلى التجرد
لرب العالمين والخلوص إليه من جميع الدوائق والموانع . والنبي عليه السلام حينما
كان حيا لم يكن المسلمون يستقبلونه إذا دعوا ربهم لأنفسهم . ولو أنهم استقبلوه
لأنكر ذلك عليهم ولما رضى منهم البتة . ولكن هذا كان بعيدا عن أذهانهم
وأفهامهم رضى الله عنهم . وكانت أذهانهم وأفهامهم وخطراتهم وعقائدهم أخلص
لله وأعرف بمعانى التوحيد والاخلاص لعبودية من أن تقع فى شئ من هذا ، أو

براهين واضحة
على إطلاق
استقبال القبر
حين الدعاء
والعبادات

أن نحوم حول حماء . ولو أن مسلماً أراد أن يدعوره فتوجه إلى شيخ حتى
وتعمد استقباله وقت دعائه لكان ضالاً ، وكان فاعلاً ما ينكره جميع من
عرفوا الاسلام وفقهوا أصوله وفروعه . ولهذا لم يجوز لمسلم أن يستقبل في صلاته
شيئاً غير بيت الله ، فلم يجوز أن يستقبل النبي ، أو يستقبل قبره في صلاته
وعبادته ، فضلاً عن أن يجوز شيئاً من هذا لغير النبي ولغير قبره . وقد نهى
الاسلام نهياً شديداً صريحاً صحيحاً عن الصلاة إلى المقبور . والنهي عن الصلاة
إلى القبور يراد به النهي عن الصلاة إلى المقبور في الحقيقة والمعنى . إذ البقعة
من الأرض المجردة لا ينهى عن الصلاة إليها لذاتها ولا تسمى قبراً بدون قبور
ولو آلا .

وقد أمر الاسلام المسلمين أمراً عاماً مطلقاً بأن يوجهوا وجوههم إلى خالقهم
ومالكهم ، ونهاهم عن أن يلتفتوا إلى سواه في وقت من الأوقات ، وحالة من
الحالات ، لا في صلواتهم ولا في دعواتهم ولا في ضراعاتهم ولا في سائر عباداتهم ،
ولا في شيء مما يسمى عبادة وديناً . وهذا قد تقدم . وما جاء عن أحد من المسلمين
الأولين أنه استقبل رسول الله حينما كان حياً سوياً وقت الدعاء ، أو الصلاة
أو العبادة المطلقة العامة ، بل ولا فكر أحد منهم في شيء من هذا . بل وأي معنى
ودين في أن تريد أن تدعو لنفسك ربك وتسأله أمورك وحاجتك فتصرف
بجسمك وتوجه بوجهك إلى عبد من عباده ؟ ولو أنك سألت مخلوقاً شيئاً
توجهت حين سؤاله إلى سواه لكنت جاهلاً فاعلاً ما ينكر عليك وما تلام
عليه . فما أجدر بالملامة والانكار من راح يدعوره وخالفه فتوجه إلى عبيده
وخلقه !

فالذين يتوجهون إلى القبور حينما يدعون الله غاطلون غلطاً بيناً فاحشاً ،
آتون ما ينكره الدين والعقل . وهم ما توجهوا إلى القبور إلا لاعتقادهم أن من

توجهوا إليهم وإلى قبورهم لهم دخل وسلطان وأثر ظاهر في إجابة دعائهم وإعطائهم ما يسألون ربهم . فكأنهم قد اعتقدوا أن من توجهوا إليه وإلى قبره من وظيفته أن يرفع دعواتهم وحاجاتهم إلى الله وأن يبلغه إلهاها ويطلب إليه أن يقبلها وأن يجيبها ، وأن يفعل غير ذلك مما يظنون ويتوهمون من غريب الظنون والخطرات والأوهام البعيدة عن الاسلام وعن الاعتقاد الصحيح السليم ، المناهض لكل ما يمت إلى الوثنية والشرك بسبب من الأسباب . فهذه المناظرة المحكية عن الامام مالك ليست صحيحة لأنها مخالفة لمنهجه المعروف المدون عنه في أصح الكتب ، والذي رواه عنه أجل أصحابه وأصقهم به وأعرفهم بمقالاته ودقائق مذهبه وفنون قبه . فهي رواية شاذة منكرة .

ومن الدلائل على بطلانها ركازة لفظها وخروج أسلوبها على الأساليب العربية الصحيحة . وذلك أنه قد قيل فيها : « استشفع به فيشفعك الله » . وهذا لحن صريح . فان الاستشفاع معناه طلب الشفاعة من المستشفع به . فعنى « استشفع به » اطلب منه الشفاعة ليشفع لك : فالرسول عليه السلام هنا شافع . وإذا كان ذلك كذلك كان الصحيح أن يقال : « استشفع به فيشفعه الله فيك » لا أن يقال : « استشفع به فيشفعك الله » . فان المستشفع بالرسول ليس شافعاً ، والذي يُشَفَّع هو الشافع لا المشفوع له يقينا . ومثل الامام مالك العربي بمولده ونشأته وعلمه يجمل عن أن يقع في هذا الخطأ الذي لا يقع فيه إلا من جهل أساليب العرب ومواقع كلامها . ولهذا جأ بعض المعارضين المصححين لهذه القصة إلى تحريف هذه اللفظة وتغييرها فرووها هكذا : « استشفع به فيشفعه الله فيك » تحريفاً من عند أنفسهم لتسلم الرواية من هذا العيب الدال على أنها ليست من كلام الامام مالك ولا من كلام عليم بكلام العرب .

ويدل على بطلانها أيضاً قوله فيها بعد أن سأله المنصور على ما زعموا عن

ومن دلائل
بطلانها ركازة
أسلوبها

وعدم تلاقي
أجرامها

الاستقبال القبلية : « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به » . وهذا القول غير متلائم الأجزاء ولا مرتبط الدعوى بالدليل . وذلك أن كون محمد ﷺ وسيلة لنا ، ولأبينا آدم يوم القيامة لا يدل على جواز أن نستشفع به وأن نسأله الدعاء والشفاعة بعد مماته . وذلك أن قوله : « وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » يعنى به الشفاعة الكبرى التى خص الله بها خاتم أنبيائه وهى شفاعته يوم الحشر لجميع الخلائق ليقضى بينهم وليراحووا من تلك الأهوال كما توارد فى الأخبار الصحيحة الكثيرة . فالوسيلة التى أشير إليها بهذه الحكاية هى شفاعته محمد ﷺ يوم يحجم جميع الأنبياء عنها هيبة الله ورهبة من ذاك المقام الرائع العظيم . وهذا لا ريب فيه . ولكن هل تدل شفاعته النبى يوم القيامة على استحباب استقبال قبره حين الدعاء وعلى جواز الاستشفاع به فى الحياة الدنيا ؟ وهل يدل هذا على هذا ؟ كلا . فان شفاعته النبى يوم القيامة لا تدل على أن السنة استقبال قبره حين الدعاء ، ولا على أن من السنة الاستشفاع به فى قبره . وهذا لأن شفاعته يوم القيامة لا تدل على أنه يشفع قبلها فى حال الموت وفى قبره . ولو كان يشفع فى حال الموت يقيناً لما دلت شفاعته على أنه لا يشفع إلا إذا طلبت منه ، بل من الجائز أن يشفع لأمنه وإن كانوا لا يسألون الشفاعة . وهذا كما أمر صلى الله عليه وسلم بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات . والاستغفار شفاعة ، وكما تستغفر الملائكة للمؤمنين وهم لا يسألونهم ذلك . ثم لو فرض أن شفاعته يوم القيامة تدل على أنه يشفع فى حال الموت ، وفرض أنه لا يشفع إلا إذا طلبت منه الشفاعة ما دل شئ من ذلك على استحباب استقبال القبر عند الدعاء . وهذا لأن الدلائل قد قامت على أن الأنبياء ومن دونهم من الصالحين والمؤمنين يرجون بهد موتهم - أعنى أرواحهم - إلى أعلى عليين كما قال تعالى : « أحياء عند ربهم يرزقون » . وإذا

كان النبي وكان غيره من الأنبياء والصالحين والمؤمنين عند ربهم لم يكن للاتجاه إلى القبر بقصد خطابه وسؤاله معنى من المعاني ولا رجة من الوجوه، وإنما الصحيح لموصح بهذا الذي تقدم أن يتوجه الداعي السائل إلى كل الجهات والوجوه على سبيل التوزيع والتقسيم، يدعو ويستشفع ويطلب، كما أن من أراد الصلاة والسلام على النبي صلى وسلم حيث كان وحيث أتجه . وقد قال ﷺ : « إن الله حلائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام » . رواه النسائي من حديث عبد الله ابن مسعود . وروى أبو داود أنه عليه السلام قال : « لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا على حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغني » . وروى عبد الرزاق في مصنفه عن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أنه رأى قوماً عند القبر فقام وقال قال النبي عليه الصلاة والسلام : « لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » . وروى سعيد بن منصور في سننه عن عبد العزيز بن محمد عن سهيل بن أبي سهيل قال : رأى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فنادى وهو في بيت فاطمة فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي . فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال إن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « لا تتخذوا بيوتكم عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر . لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وصلوا على حيث كنتم . فإن صلاتكم تبلغني » . ما أتم ومن بالأندلس إلا سواء . وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي بكر بن أبي شيبة عن زيد بن الحباب عن جعفر بن إبراهيم — من ولد ذى الجناحين — عن علي بن عمر عن أبيه عن علي بن الحسين — زين العابدين — أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة عند قبر النبي فيدخل فيها فيدعو ، فتهناه عن ذلك ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً . فإن تسليمكم يبلغني أينما

الاحاديث في
النبي من اتيان
القبر النبوي
من طرق أهل
البيت وغيرهم

كنتم . قال الحافظ الهيثمي : « رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفي . ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً . ورجاله ثقات . » كذا جاء في نسخة « مجمع الزوائد » المطبوعة . وهذا تحريف واضح . والصواب جعفر بن إبراهيم لا « حفص » . وجعفر بن إبراهيم هذا الذي قال الحافظ الهيثمي : إن ابن أبي حاتم ذكره ولم يجرحه قد ذكره الحافظ المستقلاني في كتابه « لسان الميزان » قال : « جعفر بن إبراهيم الجعفي . عن علي بن عمر عن أبيه عن علي بن الحسين نسخة . وعنه زيد بن الحباب . قال ابن حبان : يعتبر بحديثه من غير روايته عن أبيه . وأخرج أبو يعلى عن أبي بكر بن أبي شيبة عن زيد بن الحباب بهذا السند عن علي بن الحسين حدثني أبي عن جدي رفعه : « لا تتخذوا قبوري عبداً ، ولا بيوتكم قبوراً . فان تسليكم يبلغني أينما كنتم » . وفي الحديث قصة (يشير إلى القصة المتقدمة من دخول الرجل الفرجة إلى آخره) . وأخرج إسماعيل ابن إسحاق القاضى فى فضل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام عن إسماعيل ابن أبي أويس عن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر عن أخبره من أهل بيته عن علي بن الحسين . . . فذكر القصة مطولة . وفيها قال علي بن الحسين : هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي ؟ قال : نعم . قال : أخبرني عن جدي . . . فذكره وزاد بعد قوله : « قبوراً » « وصلوا على وسلموا حيث كنتم . فتبلغني صلاتكم وتسليكم » . وقد أخرج المتن ابن أبي عاصم في كتاب « فضل الصلاة على النبي » من طريق سعيد بن أبي مريم عن محمد بن جعفر حدثني حميد بن أبي زيلب عن جسر بن الحسن البجلي أبي عثمان عن أبيه رفعه قال : « حيثما كنتم فصلوا على فان صلاتكم تبلغني » . ومحمد بن جعفر هذا هو ابن أبي كثير لا قرابة بينه وبين جعفر المذكور في سند إسماعيل ولا إبراهيم في سند أبي يعلى . . . وذكره ابن أبي طي في رجال الشيعة . وقال : كان

أصله أخرى
في هذا المتن

ثقة من رجال علي بن الحسين رضي الله عنهما . روى عنه عبد الله بن الحجاج . « انتهى كلام » لسان الميزان . « وحديث علي بن الحسين هذا قد رواه أيضاً أبو عبد الله المقدسي في الأحاديث المختارة . قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن عبد الهادي في « الصارم المنكي » . وقال الحافظ ابن كثير في التاريخ : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبد المجيد ابن عبد العزيز بن أبي رواد عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود عن النبي عليه السلام قال : « إن الله ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام » . وقال قال رسول الله : « حياتي خير لكم ، تمحدثون ويحدث لكم ، ووفاتي خير لكم ، تعرض على أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه ، وما رأيت من شر استغفرت لكم » . قال البزار : لم نعرف آخره يروى عن عبد الله إلا من هذا الوجه . قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » : إن رجاله رجال الصحيح . ونعم ، رجاله رجال الصحيح كما قال . ولكن في بعضهم كلام مشهور . وسوف نبين في ما بعد أن قوله : « حياتي خير لكم » الحديث إن صح لا يدل على ما ينسب إليه المخالفون ألبتة وإنما يدل على ما نذهب إليه .

لا يستقبل القبر
عند الداء كما
لا يستقبل عند
الصلاة والسلام
عليه

وعلى هذا لا داعي لاستقبال القبر ولا معنى له حين الدعاء ، كما أن من يصلي ويسلم على النبي عليه الصلاة والسلام يصلي ويسلم حيث كان ووجد ، وحيث توجه وقصد ، لا يتيمم جهة مخصوصة . والمسلمون ، في جميع أوقاتهم وحالاتهم : يصلون ويسلمون عليه في صلواتهم المفروضة وفي الصلوات النوافل ، ويصلون ويسلمون عليه عند دخولهم المساجد ، وعند ذكره ، ويدعون له بالوسيلة والفضيلة وبالمقام المحمود عند الأذان . ويصلون ويسلمون عليه في كثير من أوقاتهم وحالاتهم . ولا يقصدون بذلك جهة معينة ولا مكاناً مخصوصاً ، ولا يتوجهون شطر المدينة المنورة حيث يقيم جسده الشريف حين صلاتهم وسلامهم عليه ،

يحيون في هذا . بل عندهم أن من قصد هذا وتعمده فقد خرج على دين المسلمين ، وخالف إجماعهم ، وجاء بأمر عظيم وبيدعة نكراء هوجاء .
فقالة هذا القائل في الرواية المنسوبة إلى الامام مالك : « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ... » غير متلائمة الأجزاء ، ولا صحيحة النظام والاستدلال . بل هي مقالة متناثرة الأجزاء ، ركيكة الأسلوب والسينق ، يجلب عن مناهها مثل الامام مالك رضى الله عنه . وإنما يصح في الكلام أن يقال : « ولم تصرف عنه وجهك وأنت مخاطبه ، وهو يسمعك إذا خاطبته ، ويشفع لك إذا استشفعت به » فاستقبله ، واستشفع به ، فيشفعه الله فيك ... » . هذا ما يصح قولاً وإن كان لا يصح ديناً ولا نقلاً .

ومما ينادى على بطلان هذه الرواية وكذبها قولهم فيها : « ... واستشفع به .. »
فإن الاستشفاع بالنبي بعد موته أو بغيره من الأموات لم يؤثر عن أحد من سلف الأمة الصالح ، لا عن أحد من الصحابة ولا عن أحد ممن بعدهم بإسناد يقام له وزن . فما نقل عنهم أنهم استشفعوا بالنبي ولا بغيره من الأنبياء والصالحين في قبورهم . وهذا قد تقدم الكلام عليه مراراً . ومالك رضى الله عنه ينكر أقل من ذلك ، وقد أنكر ، كما تقدم ، الدعاء عند القبر وإطالة الوقوف به ، وتعمد الذهاب إليه . وقال : إن الزائر يسلم ثم ينصرف ، لا يقف ولا يدعو ولا ينتظر .
وقد سلف قوله المروى عنه في المبسوط وفي « الشفا » للقاضي عياض : « لا أرى أن يقف عند قبر النبي ، ولكن يسلم وينصرف » ، وقوله : « لا بأس لمن قدم من سفر أو أراد أن يقف على قبر النبي فيصلي عليه ، ويدعوه ، ويدعو لأبي بكر وعمر » . وقد قيل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة وأكثر ، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة . فقال رضى الله عنه

ويدل على كذب
القصة الأمر
بالاستشفاع
بالنبي

«لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا» وتركه واسع . ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراد . . . » . فإذا كان مالك رضى الله عنه يكره . والكراهة في كلام السلف تنطلق إلى التحريم . الدعاء عند القبر الشريف ، ويكره الوقوف به ، والذهاب إليه إلا حين إرادة السفر أو الرجوع منه : إذا كان يكره ذلك كله ويقول : إننا لم نجد أهل العلم من أهل بلدنا يفعلونه ، ويقول : إن آخر الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها وصدرها : إذا كان هذا كله من قول الإمام مالك ، ينقله عنه أفضل أصحابه في أفضل كتبهم فكيف يمكن أن يقول لمن سأل عن استقبال القبر : «استقبله واستشفع به ..» ولا ريب في أنه إذا كره دعاء الله عند القبر كان لدعاء صاحب القبر نفسه أكره بلا خلاف ، وأنه إذا كره الوقوف بالقبر وإطالته لم يمكن أن يجوز الاستشفاع بساكنه عليه الصلاة والسلام . وهذا كله بين جلي .

رأى السلف
الصالح في إتيان
قبر النبي للزيارة
والسلام

والاستشفاع به عليه السلام بعد موته لم ينقل عن أحد من الصحابة بسند صحيح محترم ، ولا عن أحد من غيرهم من أئمة الدين الذين لهم لسان صدق في الأولين والآخرين . وقد مرت بالصحابة والتابعين وبمن بعدهم من أئمة هذا الدين أوقات عصيبة ، وحالات عسيرة ، فاحتاجوا إلى المعين وإلى المنقذ المخلص ، واحتاجوا إلى رحمة الله ونصرته ، وتطلبوا كل سبب من أسباب العجاة الشريفة الصحيحة . . . ولكن أحداً من هؤلاء لم يحاول الذهاب إلى القبر للاستشفاع وطلب الدعاء والمغفرة والمعونة . . . بل المعروف عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم ما كانوا يقصدون القبر الشريف للزيارة والسلام خلا ما جاء عن عبد الله بن عمر إذا قدم من سفر ، فقد نقل عنه أنه كان إذا حضر من سفر ذهب وسلم على النبي عليه السلام وعلى صاحبيه ، لا يزيد على السلام شيئاً . وبفعل ابن عمر

احتج من احتج من السلف كالامام مالك على استحباب الزيارة والسلام للغرباء
ولأهل المدينة إذا أرادوا السفر أو قدموا منه . ولكن هذا لم يكن من فعل جمهور
الصحابة ، ولامن فعل الخلفاء الراشدين منهم . بل لقد جاء في الروايات ما يدل
على كراهتهم هذا الذي استحبه ابن عمر وفعله ، ورضى الله عن الجميع وقد تقدم أن
على بن الحسين المعروف بزين العابدين ، وأن ابن عمه الحسن بن الحسن بن
على بن أبي طالب أنكرا على من رأياه يقصد القبر الشريف للزيارة والسلام
والدعاء ، وقال : إن النبي عليه السلام قال : « لاتخذوا بيقي عيدا ، ولا بيوتكم
قبوراً » وإنه قال : « لمن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وإنه قال
« وصلوا على حيث كنتم فان صلاتكم تبلغني أينما كنتم » . وقد قال الحسن بن
الحسن في روايته لمن نهاه عن ذلك : « ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء » . وقال
شيخ الإسلام ابن تيمية : روى الشيخ الصالح أبو الحسن : على بن عمر القزويني
في أماليه عن عبد الله الزهري عن أبيه عن عبد الله بن أحمد عن أبيه عن نوح
ابن يزيد قال : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعد قال : مارأيت أبي قط يأتي قبر
النبي ، وكان يكره إتيانه . وقد روى عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن أيوب
عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي فقال : السلام عليك
يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبتاه . قال معمر : فذكرت
ذلك لعبيد الله بن عمر العمري فقال : ما لم أعلم أحداً من أصحاب النبي فعل ذلك إلا
ابن عمر . وهذا صحيح فانه ما جاء باسناد يعبأ به شيء من ذلك عن أحد من أصحاب
النبي غير عبد الله بن عمر ، بل وما كان الصحابة ينطقون بلفظ زيارة قبر النبي .
وقد صح عن مالك أنه كره أن يقال : زرنا قبر النبي . وقد روى أبو داود في
في سننه من حديث أحمد بن صالح عن عبد الله بن نافع الصائغ عن ابن أبي
ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله : « لاتجعلوا بيوتكم

قبراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا على فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم .
ورواه أحمد من هذه الطريق . وهذا الحديث مافيه إلا ابن نافع الصائغ وثقه قوم
بوطرحة آخرون ، وهو من رجال مسلم في الصحيح . وعلى كل فاسنده أفضل
وأصح من أسانيد الأحاديث والروايات التي يحتج بها المخالفون على زيارة القبر
والعكوف عليه وشد الرحال إليه . والحديث له شواهد كثيرة تقدم بعضها . وقد
تقدم حديث علي بن الحسين وحديث الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .
فهو ليس مفرداً غريباً لافي معناه ولا في نصه . وعبد الله بن نافع الصائغ لم يتفرد
به حتى يخشى من غلطه فيه وضعفه . ومن شواهد قوله ﷺ : « اللهم لا تجعل
قبري وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبوراً أنبيائهم مساجد » . قال
القاضي عياض في « الشفا » : وقد كره مالك أن يقال : زرنا قبر النبي . ثم أخذ
عياض في تأويل قول مالك هذا وفي تعليل كراهته قال : « والأولى عندى أن
منعه وكراهة مالك له لا إضافته إلى قبر النبي وأنه لو قال : زرنا النبي ، لم يكرهه لقوله
عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد بعمى » . اشتد غضب الله
على قوم اتخذوا قبوراً أنبيائهم مساجد » . فحتمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبه
بفعل أولئك ، قطعا للنريمة وحسباً للباب . . . » . هذا كلام عياض في الشفا من
باب الزيارة . وقد ذكر في هذا الفصل من الشفا أن الباجي تأول هذا الحديث
والحديث الآخر وهو قوله عليه السلام : « لا تجعلوا قبري عيداً » على من
يقصدون القبر الشريف من أهل المدينة للزيارة والسلام والدعاء كما فعل الحسن
ابن الحسن وعلي بن الحسين - زين العابدين - حفيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله
وبضعته الطاهرة ، ولدا ولدى علي بن أبي طالب . ومن شواهد ذلك ما رواه
سعيد بن منصور في سننه قال : حدثنا حبان بن علي حدثنا محمد بن عجلان عن
أبي سعيد مولى المهري قال قال رسول الله عليه السلام : « لا تتخذوا بيقي عيداً »

روايات أخر على
كراهة ذلك

ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيث كنتم . فان صلاتكم تبلغني . » . وهذا
مرسل لأن أبا سعيد هذا تابعي وهو ومحمد بن مجلان ثقتان من رجال مسلم فيه
الصحيح . وأما حبان بن علي فهو من رجال ابن ماجه في سننه ، وفيه كلام .
من هو اهمل ذلك وثقه قوم وضعفه الا كثرون . فهذا الاسناد لا يصلح الالتفات إليه لافي الشواهد
والتابعات ، وهو هنا كذلك . ومن الشواهد ما رواه الحافظ النسائي في سننه من
حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله عليه السلام : « إن لله ملائكة
سياحين يبلغونني عن أمتي السلام » . وقد تقدم الكلام عليه . ومن الشواهد الحديث
المشهور الصحيح المروي في الصحيح من طرق وهو قوله عليه الصلاة والسلام :
« لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . . . » الحديث ، وقد جاء بلفظ النهي
وبلفظ النفي والاختيار . وسوف يبيح القول فيه . ومن الشواهد الأحاديث
المتواترة في النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، الزاجرة الناهية عن فعل اليهود
والنصارى ، المتخذين قبور أنبيائهم وصالحينهم مساجد . ومعنى هذه الأحاديث
متواتر مروي بطرق وأسانيد لا شك في ثبوتها وصدورها بالجملة عن النبي . وما جاء
ما يخالفها لا عن النبي ولا عن أصحابه ولا عن الأئمة المقلدين ، الذين لهم لسان
صديق في الأمة . وقد كان أصحاب النبي عليه السلام ، وكان الخلفاء منهم
يسخرون المسجد النبوي في اليوم واليلة المرات العديدة للصلاوات ولغيرها من
شئون الدين وشئون الدنيا . وكانوا يزورون أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها
وهي في حجرتها التي قبر فيها النبي وصحابه . وما جاء عنهم أنهم كانوا حين
دخولهم المسجد وحين خروجهم منه ، وحين زيارتهم لما أشته ينهبون إلى القبر
ويقفون به وعليه ، يدعون ويسلمون سوى ما جاء عن عبد الله بن عمر إذا قدم
من السفر كما تقدم . ولا شك أنهم لو كانوا يفعلون ذلك لنقل إلينا كما نقل إلينا
فعل ابن عمر ، وكما نقلت إلينا أقوالهم وأعمالهم

وهاهنا أمر قاطع في المسألة ، يدل دلالة واضحة جلية لا ريب فيها على أن أصحاب النبي ، وناشري دينه ، وحاملي رسالته ما كانوا يفكرون في هذا المعنى ، ولا كان يجوز في أنفسهم أو يمازج عقائدهم أنه من الإسلام ومن التعظيم للنبي عليه السلام . هذا الأمر هو إجماعهم على أن يدفنوه ﷺ في حجرة زوجته عائشة ومعه صاحباه وخليفته الراشدان : أبو بكر وعمر . ولو أنهم كانوا يريدون الإكثار من زيارة القبر ومن الوقوف عليه ، ومن الطواف به والاختلاف إليه ، أو لو كانوا يظنون أن شيئاً من هذا من مقاصد الإسلام وظيفاته ، لما وضعوه وصاحباه في حجرة عائشة . . . بل لوضعهم في مكان بارز مباح ، يستطيع الخاصة والعامة أن يصلوا إليه ، وأن يزوروه ، وأن يقفوا عليه طويلاً ، وأن يختلفوا إليه متى شاءوا الاختلاف وأرادوا ، يدعون ويسألون ويسلمون ، ويتلون ما يتلون من الأناشيد والأوراد والدهوات . . . كأن يضعهم مثلاً في الصحراء أو في أحد الميادين العامة أو في وسط المسجد أو في قبلته أو نحو ذلك . . . ولهذا نجد الناس ينصبون تماثيل زعمائهم وقادتهم المهرجين - وكذا يفعلون في قبورهم وأضرحتهم - في الميادين العامة والأماكن الواسعة المباحة للجميع . . . لأنهم يريدون أن يكثر الشعب من مشاهدتهم ومشاهدة أجدانهم وما يذكركم بهم ، وأن يكثر من المكوف عليهم وعلى أنصابهم وتماثيلهم والاحتشاد على قبورهم ، وليصل إليها الصغير والكبير والخاص والعام في كل وقت ومن كل مكان وجلس . تثبتنا للمعنى الذي يريدون ويسعون نحوه . وهو إحدى غاياتهم المعلومة التي يقال : إنها شريفة . . . ولا يمكن أن يوضع تمثال زعيم أو قبره في بيته وفي مسكن زوجته الخاص إلا إذا أريد أن يحال بينه وبين الناس ، وأن يحجب ويقص عن زيارات الشعب وعن طوافه ووقوفه به . وهذا واضح لا ينزع فيه عاقل ما .

فالمسلمون مادفنون جثمان نبيهم الكريم في حجرة زوجته عائشة رضي الله ﷺ لا إذا خضع قبر النبي

والبرهان الواضح
على ما نقول ومن
النبي في حجرة
زوجه

عنهم إلا بعد علمهم أن المكوف على قبره، وأن الطواف به، وأن الاحتشاد عليه وأن الاختلاف إليه ليس من الدين ولا من فعل المسلمين، ولا مما يريد رسول الله منهم. ولولا ذلك لدفنوا في مكان مكشوف مباح الوصول إليه كل وقت لكل أحد ولأبرزوه... كما قالت عائشة: «ولولا ذلك لأبرز قبره». أي لولا خشية أن يتخذ قبره مسجداً وأن يكف عليه - ولولا نهيه ﷺ أيضاً لأبرزه المسلمون أي لوضعوه في البراز وهو الخلاء. ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله في مرض موته: «لئن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قالت عائشة بعد رواية الحديث: «يحذر ما فعلوا. ولولا ذلك لأبرز قبره» ولكن كره أن يتخذ مسجداً.

والفرق بين من يعمل للناس لزعماء الدنيا وعظماؤها، وبين من فعله المسلمون لنبيهم أن عظماء الدنيا وزعماءها ما كانوا ولا عملوا ما عملوا بما يسمى إصلاحاً وبما استحقوا من أجله أن يكونوا عظماء، وزعماء، إلا لأجل نيل للدنيا ونيل جاهها وفخرها وشهواتها، ولنيل السمعة الدائمة، والأحدثثة الشائعة، ثم السلطان المذى القاهر. فكان من المعقول أن تنصب تماثيلهم وأجداثهم وصورهم في الميادين وفي الأماكن العامة الواسعة ليدركوا ما عملوا من أجله ولأجله من عبادة الجاهل وتعتيهم والافتتان بهم وانفاق الأموال في سبيل ذلك. أما رسول الله - وكذلك كل رسول - فما كان ولا عمل ولا أصلح إلا الله وحده لا شريك له: لم يعمل لأجل أن ينال تعظيم الناس أو عبادتهم أو جزاءهم وشكرهم وأجرهم أو لينال شيئاً من شهوات الحياة ومفاتها ومغرياتها، بل كان كل شيء فيه لله وحده... فكان من المعقول أن يعتمد عن هذا الذي لم يعمل له والذي لا يريد... فكانت النتيجة أن أخفى قبر النبي عليه السلام وأن نهى عن الغلو فيه وفي قبره، وعن اتباع آثاره، وأن حرمت تماثيله وصوره وكل ما عمت

الفرق بين من
يعمل للدنيا ومن
يعمل لله ومظاهر
ذلك

إلى ذلك . . . وكان أن نصبت تماثيل رجال الدنيا ، و رفعت قبورهم ، ودعى إلى عبادتهم . . . وكل ميسر لما خلق له .

فلا ريب أن دفن المسلمين نبيهم في حجرتة وحجرة زوجه حجة لاتنازع على أن القوم كانوا بعيدين عما ذهب إليه هؤلاء المخالفون العاكفون على الأجداث ، وعلى أنهم كانوا يعلمون أن زيارة القبر الشريف والعكوف عليه وانتيا به ، والطواف به ليست من مقاصد الدين ، ولا من أغراض الاسلام والمسلمين . ويوضح هذا جداً أن عائشة رضى الله عنها لما توفيت وأدخلت حجرتها في المسجد لما احتاجوا إلى توسيعه سدت الحجرة على القبور الثلاثة ، وحيل بين الناس وبينها . ثم لم يكتف بهذا بل أحيطت الحجرة بمجدار « برأى » زاد الناس بعداً عن القبور الثلاثة وحيلولة بينهم وبينها . فصاروا لا يقدرّون على الوصول إليها ولا على الوقوف بها وعليها . وصارت هذه منزلة خاصة بقبر النبي وقبري صاحبيه لحكمة عليا تدق على أفهام هؤلاء الذين لا يريدون أن يفهموا الشرع وحكمه وأسراره . . . فان سائر القبور بارزة ظاهرة مكشوفة ، تستطيع زيارتها والوقوف بها والعكوف عليها والدنو منها . أما قبر النبي وقبرا صاحبيه فقد حال المسلمون بين الناس وبينها لسر عظيم يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم ، وإجابة لدعاء نبيه عليه الصلاة والسلام إذ قال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » . فالذين يذهبون اليوم وقبل اليوم إلى المسجد النبوي يزورونه هم لا يزورون القبر لأنهم لا يصلون إليه ، وإنما يزورون المسجد والجدران المحيطة بالقبر . والذين يظنون أنهم يزورون القبر غلطون واهمون . وإنما يزورون مسجده عليه الصلاة والسلام ومصلاه ومواضع عبادته . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » . وكل فضيلة تذكر في زيارة النبي أو زيارة قبره إنما يراد بها

ويوضح هذا
أحاطة القبر
بالجدران وسده
الحجرة

زيارة مسجده الذى بنى بأمره ، والذى شارك أصحابه فى بنائه بيديه الشريفتين ،
والذى شاده وعمره بالعبادة والتلاوة والتوحيد خير أهل الأرض إذ ذاك وهم صحابته .
— رضى الله عنهم أجمعين .

فدفن المسلمين نبينهم فى بيته ، ثم سدم الحجرة وتسويرها بالجدران دليلاً .
ظاهراً على أنهم ما كانوا يريدون الاحتشاد على زيارة القبر والمكوف عليه ،
وعلى أنهم كانوا قد قصدوا الخيلولة بينه وبين الناس — حذر الغلو ، وحذر الضلال .
وهناك دلائل أخرى كثيرة تساند هذا الذى ذكرناه وذكرته عائشة وهم أمور أخرى
تساند ما ذكرناه
رضى الله عنها . من ذلك ما روى أن المسلمين فى غزوم فارس وجدوا قبر
« دانيال » النبي طرياً فأمرهم عمر رضى الله عنه بأن يحفروا عدة قبور وأن يدفنوه .
فى أحدها لتلا يعرف مكانه فيقع المخذور . ومن ذلك قطع عمر شجرة الرضوان
التي بايع المسلمون نبينهم تحنها والتي ذكرها الله فى كتابه . ومن ذلك نهيه رضى
الله عنه عن تعدد الصلاة فى المسجد الذى صلى فيه رسول الله ﷺ قائلاً لهم : هكذا
هلك أهل الكتاب قبلكم : اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً . من عرضت له الصلاة
فيه فيصل وإلا فلا . وقد ثبت هذا عن عمر بالسناد الصحيح ، رواه سعيد بن
منصور فى سننه من حديث أبى معاوية عن الأعمش عن المعروى بن سويد عن
عمر . وهذا إسناد مشرق كالشمس ، ورجاله كلهم أئمة عدول يسمون على النقد .
والبحث والامتحان . وقد ذكر هذا عن عمر أكثر الذين ألفوا فى البدع من
المتقدمين والمتأخرين . فذكره الحافظ محمد بن وضاح محدث المغرب فى وقته فى
كتاب « البدع والنهى عنها » . وذكره الشاطبى فى كتاب : « الاعتصام »
وذكره أبو شامة فى كتابه : « الباعث على إنكار البدع والحوادث » .
وذكره الطرطوشى فى كتابه « الحوادث والبدع » . وذكره غير هؤلاء من
القدامى والمحدثين .

وهذا كله يعرفه الامام مالك ويعرفه أصحابه ، لا يختلفون فيه . ولهذا لما ^{الجمع بين ما ذكره} عقد القاضي عياض في كتاب « الشفا » فصلاً عنوانه : « فصل في حكم زيارة ^{عياض في الشفا} قبره وَفِيهِ وفضيلة من زاره وسلم عليه ، وكيف يسلم ويدعو » لم يذكر أن الزائر يستشفع به عليه السلام أو يسأله أن يدعو له : لم يذكر شيئاً من هذا القبيل وإنما ذكر الصلاة والسلام عليه والدعاء له ولصاحبه ، وذكر ما قدمناه من الروايات المحفوظة عن مالك ، المتواترة عنه بين أصحابه من أن الزائر لا يقف على القبر طويلاً ولا يدعو عنده . ولكن يسلم ثم ينصرف ، ويستقبل القبلة ويدعو . وذكر ما صح عن مالك أيضاً من كراهته لأهل المدينة زيارة القبر والوقوف به وقوله : إن ذلك لا يشرع إلا لمن جاء من سفر أو أراد سفرًا . أما أهل المدينة فلا يشرع لهم شيء من ذلك . وقد قال : إئتنا لم نجد أهل الفقه يبلدنا يفعلونه . وقال : لا يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها وصدرها . ولو كان من مذهب مالك أن الزائر يستشفع بالنبي عليه الصلاة والسلام لذكر ذلك عياض في الشفا في هذا الباب الذي ذكر فيه كل ما يشرع للزائر في مذهب المالكية أن يفعله . ولذكره سواء من علماء المذهب . ويوضح هذا جيداً أن عياضاً لم يذكر في باب الزيارة الاستشفاع مع أنه هو الذي روى وذكر مناظرة المنصور لمالك التي فيها الأمر بالاستشفاع . وعياض لم يذكر هذه المناظرة ليستدل بها على جواز الاستشفاع بالنبي بعد موته ، وإنما ذكرها للاستدلال بها على أن حرمة وَفِيهِ ميتاً كحرمة حياً . وقد ذكر المناظرة في الفصل الذي عنوانه : « فصل ، واعلم أن حرمة عليه السلام بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته » . فالمناظرة المذكورة في غير باب الزيارة لأنه ليس كل ما فيها يشرع للزائر فعله عند مالك وعند أصحابه كعياض وغيره . ومن الجائز أن تكون الحكاية عند عياض غير صحيحة . الاسناد ، ولكن ساقها في هذا الفصل استدلالاً بها على أمر مجمع عليه

وهو وجوب توقيف النبي وتمظيمه بعد وفاته كما كان ذلك في حياته . وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين . فالاستدلال عليه بالرواية الضعيفة لا بأس به ولا خلاف فيه . ولا ريب أن عياضاً لو كان يعلم أن الاستشفاع بالنبي في قبره مشروع للزائر في منزه مالک - وعياض من علماء المالكية الكبار - لذكروه في باب الزيارة . ولما ذكر الروايات الثابتة الصحيحة الدالة كلها على إنكاره ونكرانه . فإن الروايات التي ذكرها في كراهة الدعاء عند القبر وإطالة الوقوف به ، وكراهة استقبال القبر عند الدعاء وكراهة الزيارة لأهل المدينة . كل هذا قد ذكره القاضي عياض ، وكل هذا الذي ذكره يبطل رواية الأمر بالاستشفاع المحكية في المناظرة المنصورية له . وهذا كله ينادى على كذب هذه المناظرة التي قيل فيها : « بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله » . ونزه الله مالكا أن يبتدع بدعة لم تؤثر عن أحد من السلف الصالح . وقد ذكرنا مرات كثيرة أنه لم يحفظ أن أحداً من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام استشفع به عليه السلام في قبره أو طلب منه الدعاء ، بل ما حفظت زيارة أحد منهم له حاش ما تقدم وصح عن عبد الله بن عمر من وقوفه بالقبور الثلاثة إذا جاء من السفر وسلامه عليهم . ومالك الذي قال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، والذي قال : من ابتدع بدعة في الإسلام فقد زعم أن محمداً خان الرسالة ، والذي كان من فرط محافظته على تراث السلف وسيرة المسلمين الأولين أنه كان يحتج بعمل أهل المدينة وما بقي لديهم من أعمال لعله أن عملهم لا بد أن يكون متلقى عن رسول الله متصلاً به وبصحابته لا متبشاعه أن يبدل أهل مدينة الرسول وأن يغيروا وأن يميلوا عن سنة نبيهم بعض الميل : مالك الذي هذا مقدار محافظته على سيرة السلف وكراهته للابتداع والاختراع والخلاف لا يمكن أن يبتدع الاستشفاع بالنبي في قبره . وإنا نشهد الله شهادة لا نشك في صدقها وبرها أن مالكا لم يقل ذلك ولم يخرج من بين شفتيه .

اقوال مالك
تناقض هذا

مالك الذي كره أن يقول القائل : زرنا قبر النبي لأن السلف لم يقولوا ذلك ،
لا يمكن أن يأمر بالاستشفاع بالنبي في قبره . وقد أنكر رضي الله عنه على عبد الرحمن
ابن مهيدي وضعه رداه بين يدي الصف قائله : إنك قد أحدثت في مسجدنا
شيئا ما كنا نعرفه ، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « من أحدث في
مسجدنا حدثنا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » . فبكى ابن مهيدي وآلى
على نفسه ألا يفعل ذلك أبدا في مسجد النبي عليه السلام ولا في غيره . ذكر
ذلك عنه صاحب كتاب « الاعتصام » ، وهو من أئمة المالكية .

وقد روى الشاطبي عنه بعد هذه الحكاية ما هو أعجب وأغرب في إنكاره
على البدع والمبتدعين . فروى عنه أن مؤذن المدينة تنحني فوق المنارة عند
طلوع الفجر ، فسأله مالك عن ذلك . فقال : أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر .
فتناه عن ذلك . وقال له : لا تحدث عندنا ما لم يكن . فكف المؤذن عن ذلك
زمانا ثم جعل يضرب الأبواب فسأله مالك عن فعله ، فقال : أردت أن يعرف
الناس طلوع الفجر ، فقال له ، لا تفعل ، لا تحدث في بلدنا ما لم يكن . (صفحة
٢٢٩ وما بعدها من « الاعتصام » . الجزء الثاني . الطبعة الأولى) . وحكى عنه
في موضع آخر قال : « وحكى ابن العربي عن الزبير بن بكار قال : سمعت مالك
ابن أنس ، وأباه رجل فقال : يا أبا عبد الله ، من أين أحرم ؟ قال : من ذى
الخليلة من حيث أحرم رسول الله . فقال : إني أريد أن أحرم من المسجد ، روايات اخره
فقال : لا تفعل . قال : فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر . قال :
لا تفعل ، فإني أخشى عليك الفتنة ! قال : وأي فتنة في هذه ؟ إنما هي أميال
أزيدها . قال : وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها
رسول الله ؟ إني سمعت الله يقول : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم
فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » (صفحة ١٦٧ . الجزء الأول) . وحكى الشيخ أبو شامة .

شدة مالك في
انكار البدع

في كتاب « الباعث على إنكار البدع والحوادث » ، قال قال ابن وهب سألت مالكا عن الجلوس يوم عرفة ، يجلس أهل البلد في مسجدهم ، يدعو الامام رجالاً يدعوهم الله للناس إلى غروب الشمس ، فقال مالك : ما نعرف هذا ، وإن الناس عندنا اليوم يفعلونه . قال : وقال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن جلوس الناس في المسجد عشية عرفة بعد العصر واجتماعهم للدعاء ، فقال : ليس هذا من أمر الناس ، وإنما مفاتيح هذه الأشياء من البدع . ثم قال أبو شامة : قال مالك في العتبية : وأكره أن يجلس أهل الآفاق يوم عرفة في المساجد للدعاء . ومن اجتمع إليه الناس للدعاء فلينصرف . ومقامه في منزله أحب إلى . فإذا حضرت الصلاة رجع ف صلى في المسجد . قال أبو شامة في مكان آخر من كتابه المذكور : ذكر الطراطوش في كتاب « الحوادث » قال مالك : لا يجتمع القوم يقرءون في سورة واحدة كما يفعله أهل الاسكندرية . هذا مكروه ، ولا يمجبن . لم يكن هذا من عمل الناس . هذا مكروه ومنكر . فلو قرأ واحد منهم آيات ثم قرأ الآخر على إثر صاحبه ، والآخر كذلك لم يكن بذلك بأس . هؤلاء يعرض بعضهم على بعضهم فمالك — وهذا موقفه ، وهذه صرامته ، وشدة إزاء البدع والمبتدعين — لا يمكن أن يتدفع الاستشفاع بالأموال ، ولا يمكن أن يكون السابق إلى هذه الضلالات والترهات يقيناً . وقد كان رضى الله عنه من أشد الناس كرهاً ومقتناً للحدوثات والزيادات في الاسلام ، وكان من أعظم الأئمة محافظة على السنة ، وهدى السلف الصالحين الأولين . ولهذا كثر في أصحابه واتباعه المؤلفون في الرد على المبتدعين وفي إنكار المبتدعات . ومن قرأ ما كتبه أصحابه في هذا الباب وجد العجيب ، ووجد أن الساف الصالح أعظم من الوهابين — كما يسميهم هؤلاء المبتدعون — تشدداً وحرماً للحدوثات والزيادات ، وتحدياً لها . ولا أصحابها .

﴿ الاستشهاد بقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية ﴾

ويحسم كل تردد وشك في تكذيب الحكاية الاستشهاد فيها بقول الله : ^{الكلام على قوله} « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله ^{الله « ولو أنهم إذ} تواباً رحيماً » . فان الاستدلال بهذه الآية الكريمة على زيارة القبر واستقباله ^{ظلموا أنفسهم} والاستشفاع به لا يمكن أن يصدر عن مثل مالك . وهذا لا يعرف إلا عن ^{جاءوك} أعرابي لا يعرف ، يقال : إنه جاء إلى القبر النبوي فبكى واستبكى وقال من ضمن ما قال : « يا خير الرسل ، إن الله قد أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله تواباً رحيماً » : وقد جئتك مستغفراً من ذنبي ، مستشفعاً بك إلى ربي » . . وأنشد :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه * وطاب من طيهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم
ثم استغفر وانصرف . قال الراوي عن هذا الأعرابي : فرقت فرأيت
النبي في نومي وهو يقول : « الحق الرجل وبشره أن الله غفر له بشفاعتي »
فاستيقظت وخرجت أطلبه فلم أجده .

حكاية النبي

وتعرف هذه الحكاية من طريق العنبي ، قال السبكي واسم العنبي : محمد بن عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان الأموي . وقد ذكر الحكاية موفق الدين ابن قدامة الحنبلي في « المغني » قال : « وروى عن العنبي قال : كنت جالساً عند قبر النبي عليه السلام فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول ... » وذكر الآية وبقية الرواية . وذكرها صاحب الشرح الكبير الحنبلي بالنحو المتقدم عن العنبي نفسه . قال السبكي : وذكرها ابن عساكر في تاريخه ، وابن الجوزي في « مثير العزم الساكن » .

جاءنا نيدم إلى محمد بن حرب الملالى ، قال : دخلت المدينة فأثيت قبر النبي وجلست

هذه أعرابي . وذكر الحكاية باللفظ السابق . وذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في « وازع من كتبه » ، وقال : إنها لا تعرف إلا عن هذا الأعرابي ، قال : وبها احتج من احتج من متأخري الفقهاء من أصحاب الشافعي وأصحاب أحمد . وهذا صحيح فإن صاحب « المغني » وصاحب « الشرح الكبير » الحنبليين ، وهما من كبار الفقهاء ، حينما ذكرا هذا ذكراه عن العتيبي عن الأعرابي . ولم يذكر شيئا من ذلك عن مالك رضي الله عنه . ولو كانت الرواية محفوظة عندهما عن مالك لأسنداها إليه واحتج بها ، ولكن هذا أفضل من الاحتجاج بفعل ذلك الأعرابي المجهول . ولكن هذا يدل على أنهم ما كانوا يعرفون شيئا من هذا النوع عن أمثال مالك . ثم هم يذكرون الرواية على وجه التوهين ، لا يذكرون لها سنداً ولا يصححونها ، ولا يقولون فيها غير : « بروى عن العتيبي » مثلاً . فهم لا يعرفون لها سنداً ، ولا يعرفون لها صحة أو ثبوتاً . وإنما يسوقونها مائلة موهنة مرسلّة .

بلا خلاف في
الحكاية

وقال ابن عبد الهادي في « الصارم المنكي » : وهذه الحكاية يرويها بعضهم عن العتيبي بلا إسناد ، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالي ، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالي عن أبي الحسن الزعفراني عن الأعرابي . قال : وقد ذكرها البيهقي في شعب الإيمان بإسناد مظلم عن محمد ابن روح بن يزيد البصري . حدثنا أبو حرب الهلالي ، قال : حج أعرابي فلما جاء إلى باب مسجد النبي أنشأ راحلته وعقلها ، ثم دخل المسجد فأتى القبر . . . : وذكر قريباً مما تقدم . . . قال : وقد وضع لها بعض البكنايين إسناداً إلى علي بن أبي طالب ، وهو ما رواه أبو الحسن : علي بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الكرخي عن علي بن محمد بن علي حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم الطائي قال حدثني أبي عن جدي عن سلمة بن كهيل عن أبي صادق عن علي بن أبي طالب

قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفن رسول الله بثلاثة أيام، فرمى بنفسه إلى قبر النبي وحنا على رأسه من ترابه، وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فما وعينا عنك، وكان في ما أنزل الله عليك: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا». وقد ظلمت نفسي وجئتكم لتستغفروا. فنودي من القبر: إنه قد غفر لك. قال: وهذا خبر منك موضوع، وأثر مختلق مصنوع، لا يحسن الاعتماد عليه، ولا يصلح المصير إليه. وإسناده ظلمات بعضها فوق بعض. والمهيم جد أحمد بن محمد بن المهيم أظنه ابن عدى الطائي، فإن يكنه فهو متروك كذاب، وإن لا يكنه فجهول. ثم نقل كلام الناس في المهيم ونقل عنهم أنه كان كذاباً يضع الحديث على الثقات تعمداً. وهذا الإسناد ملآن بالميوب وبألوان الضعف وألوان السقوط. فالمهيم بن عدى كذاب، وأبو صادق قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألت أبي عنه فقال: روى عن علي ولم يسمع منه. وأبو صادق في نفسه مقبول الحديث حسنه. قال ابن سعد: كان ورعاً قليل الحديث يتكلمون فيه، روى الحديثه للنسائي وابن ماجه كما في تهذيب التهذيب. وبقية رجال السند لا يعرفون.

ليس الحكاية
سند صحيح

فتلخص من هذا أن حادثة الأعرابي قيل فيها مرة: إن الراوي لها هو علي ابن أبي طالب، وقيل مرة أخرى، وهي المشهورة: إنه العتيبي، وقيل ثالثة: إنه محمد بن حرب الهلالي، وقيل رابعة: إنه أبو الحسن الزعفراني... ولكن لا يوجد شيء من ذلك إسناد ينظر إليه، ولم تخرج في كتاب من كتب الحديث المحترمة، ولم يصححها أو يحسنها أحد من أهل العلم والدراية. وإنما يذكرها من يذكرها بصيغة التمریض، فيقولون: يروى عن العتيبي كذا. ومثل هذا لا يقول أحد من أهل العلم: إنه يجوز الاحتجاج به. فالحكاية باطلة الأساس. ولو فرض أنها صحيحة الإسناد لمادلت على شيء مما ينهبون إليه. وذلك أن هذا فعل أعرابي

من نكرات الأعراب ، والأعراب ليسوا حججاً في دين الله : ولو أن العتيبي نفسه الذي شهرت عنه الحكاية فعل ذلك لما كان فعله حجة ولا مقبولاً ، فكيف بفعل أعرابي يروى عنه العتيبي ؟ والعتيبي ليس معروفاً بالحديث ولا بالدين . وقد ذكره الخطيب البغدادي في التاريخ وقال عنه : « كان صاحب أخبار ورواية للأدب ، وكان من أفصح الناس . . . » ولم يذكره بتزكية ولا بتوثيق ولا بمحدث ، وإنما ذكره بالشعر وروايته . وقال : بلغني أنه مات سنة ٢٢٨ . وكذلك لو فعل محمد بن حرب الهلالي الذي روى عنه القصة بعضهم . وأما الرواية التي قبل فيها : إن علياً هو الذي شاهد الأعرابي وشاهد فعله ، وهو الذي روى عنه ذلك فهي رواية موضوعة مكنوبة .

ثم هذا فعل
أعرابي لا حجة
في فعله

أما أن مالكاً احتج بالآية في هذا الموضوع فهذا هو الكذب والباطل من وجوه كثيرة ، من هذه الوجوه أن مالكاً كما تقدم ذكره لأهل المدينة أن يزوروا القبر الشريف ، وأن يقفوا به وأن يدعوا عنده . وما أجاز من ذلك إلا الزيارة والسلام فقط لمن جاء من السفر أو أرادته . ولما أن قيل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يقفون على قبر النبي وصلى قبري صاحبيه ، فيصلون على النبي ويدعون لصاحبيه في اليوم مرة وأكثر ، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة أو المراتين أو أكثر عند القبر يسلمون ويدعون فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع . ولا يصلح آخر الأئمة إلا ما أصلح أولها . ولم يبلغني هذا عن صدر الأئمة وأولها . وقال : لا أرى أن يقف عند قبر النبي يدعو ولكن يسلم ويمضي . . . وكل هذا ثابت عند أصحاب مالك عنه . فإذا كان يكره الوقوف بالقبر للدعاء مطلقاً للمسلمين وللأقارب ، ويكره للمدني الذي لم يأت من سفر ولم يرده أن يزور القبر وأن يسلم على صاحبه ويدعوه ، فكيف يمكن أن يستدل بقوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم لم يرجعوا »

دلائل إبطال
هذا من مالك

فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، الآية .. على الوقوف بالقبر والاستشفاع به
والمكوف عليه ؟ فان الآية لو كانت نازلة في الحض على الحجى لرسول الله يوم
أن كان حياً ، وفي الحض على الحجى إلى قبره بعد الموت لكانت دالة على
فضيلة الحجى أهل المدينة وغير أهل المدينة إلى القبر الشريف في كل الأوقات
وجميع الحالات ، ولكل من ظلم نفسه من المدنيين والأفاقيين ، بل لدلت على
إثم من ظلم نفسه من أهل المدينة فلم يبادر إلى حجى القبر والدعاء عنده .
فكيف يمكن أن يحتاج مالك بالآية على الحجى إلى القبر ثم يكره زيارة القبر إلا
لمن جاء من السفر ، أو أراد السفر ، ويكره الدعاء عنده مطلقاً ، لآتى من السفر
وللمقيم الذى لم يبرح بلده ؟ وقد ذكر القاضى إسماعيل بن إسحاق فى كتاب
« المبسوط » أن مالكاً سئل عن نذر أن يأتى قبر النبي عليه الصلاة والسلام
فقال : إن كان أراد المسجد فليأته ، وإن كان أراد القبر فلا يفعل للحديث الذى
جاء : « لا تعمل المطى إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث . . . وقد ذكر معنى
هذا فى سائر كتب المالكية ، ومعناه موجود فى الموطأ . فالسفر عند مالك إلى
القبر النبوى لا يجوز للحديث المشهور ، وزيارة القبر لأهل المدينة لا تجوز إلا
لمن جاء من سفر أو أراد . هذا هو مذهب مالك رضى الله عنه . فكيف إذن
يمكن أن يحتاج بقوله تعالى « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية . . على ما يحتاج
له هؤلاء المخالفون ؟ وهى لو كانت نازلة فى الحث على حجى قبره لكانت دالة
على طلب السفر إليه والوقوف به والاستغفار عنده ، ولكانت دالة على أن من
ظلم نفسه فلم يأت القبر ، أين كان ، ولم يقف به ، ولم يدع عنده كان ظالماً آثماً
مخالفاً لأمر الله فى قرآنه . فالذى يحتاج بالآية على الترغيب فى حجى القبر
والدعاء عنده لا يمكن أن تكون أقواله وآراؤه كأقوال مالك وآراء مالك . فان
هذه مفارقة واضحة جلية . فلا يمكن أن يكون مالك قد استدل بالآية على حجى

القبر والدعاء عنده . فهذا وجه وجيه من وجوه الإبطال لهذه الرواية المزورة . .
 وأيضا فالآية لا يمكن أن تدل على طلب الحجى إلى القبر لأمر كثيرة ، أول
 هذه الأمور أن الآية تطلب إلى المعنيين بها أن يجيئوا الرسول عليه السلام ،
 وتذمهم إذ لم يأتوه ، وهذا واضح . ولكن بعد موته عليه السلام لا يستطيع إثيان
 ولا يمكن ، ولا يقدر أحد عليه . فلا يمكن أن يؤمر به . وإنما يستطيع إثيان
 مسجده ، وإثيان الحجرة التي تضم رافته . ومن أتى مسجد النبي وحجرته
 والمكان الذى دفن فيه لم يقل : إنه أتى النبي ولا أنه جاءه لا شرعا ولا لغة . فإن
 بجىء الشئ ، حقيقة ، هو بجىء ذاته وبجىء شخصه ، لا بجىء ما يتصل به وما يضاف
 إليه من قبر ومكان ودار . . ولهذا فإن الزائرين للمقابر لا يقال : إنهم زاروا أهلها
 حقيقة ، أو إنهم أتوا حقيقة . فن زار قبر والده لا يصدق أنه زار والده حقيقة
 بالاجماع والضرورة . ولهذا جاء فى الأنجاديث الصحاح إضافة الزيارة إلى المقابر
 لا إلى الأموات المقبورين ، فجاء قوله عليه السلام « كنت نهيتكم عن زيارة القبور
 فزوروها ، فانها تذكركم الآخرة » . وجاء قوله عليه السلام : « لمن الله زارات
 القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » . وفى الصحيح عن أبي هريرة قال :
 زار النبي قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال : « استأذنت ربي فى أن استغفر لها
 فلم يأذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى . فزوروا القبور فانها تذكروا
 الموت » . وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبي المقبرة فقال : « السلام
 عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » . وفى صحيح مسلم أيضا
 عن بريدة قال : كان رسول الله يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم :
 « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .
 نسأل الله لنا ولكم العافية » . وعن عبد الله بن أبي مليكة ، قال : أقبلت عائشة
 ذات يوم من المقابر فقلت لها يأم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخى

إبطال الاحتجاج
بالآية على إثيان
القبر

زيارة القبر
ليست زيارة
لصاحبه

عبد الرحمن ، قلت لها : أليس نهى رسول الله عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم كان نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها . رواه الأثرم في سننه . وفي الحديث الذي يستدل به هؤلاء المخالفون عن عبد الله بن عمر عن رسول الله قال : « من زار قبري ونجبت له شفاعتي » . رواه الدارقطني والبيهقي . وهو حديث باطل ضعيف . وقال الله في كتابه « ألستم التكاثر حتى زرتم المقابر » ، وقال تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره » . والأخبار في إضافة الزيارة إلى القبور لا إلى المقبورين كثيرة معلومة متواترة . والعلماء يوجبون لذلك فيقولون مثلاً : « باب زيارة القبور » أو « باب زيارة القبر النبوي » ونحو ذلك . وهذا لأنهم لا يختلفون في أن من زار القبور لا يقال له : إنه زار الأموات . وفي هاتين الآيتين وفي الأحاديث التي ذكرناها قد أضاف الله وأضاف رسوله الزيارة إلى المقابر . ولم تضاف في شيء من ذلك إلى الأموات ، ولم يأت شيء من هذا إلا أن يكون متجاوزاً فيه متوسعاً . وهذا لأن زيارة قبور الموتى ليست في الحقيقة زيارة لهم بالاجتماع . فزيارة الميت ليست ممكنة ، وإنما يمكن زيارته قبره فقط ، وامتناع زيارة النبي بعد موته أظهر من امتناع زيارة غيره من الموتى كما تقدم . فان غيره تمكن زيارة قبره لأنه ظاهر موصول إليه . أما قبر النبي عليه الصلاة والسلام فلا يمكن الوصول إليه ولا زيارته حقيقة ، لأنه محاط بالحجرة المسدودة عليه ، ولأن الحجرة محاطة بالجدار البراني الذي أقيم عليها وسورت به . فزيارة الأموات غير ممكنة وإنما يمكن زيارة قبورهم . وإن أمكنت زيارتهم فزيارة النبي عليه السلام خاصة غير ممكنة . فإنيانه إذن غير ممكن . وإذا كان إنيانه غير ممكن فلا يمكن أن يطلب من الناس ما ليس ممكناً . وإذا لم يصح أن يطلب منهم لم يصح أن يكون قوله تعالى « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » الآية أمراً بالجهى إلى هذا الذي لا يستطاع ، ولا حضاً عليه بالبداهة والاجماع .

إتيان النبي بعد موته غير ممكن

فبطل الاستدلال بالآية على استحباب مجيء القبر .
ثانيها : مما لا شك فيه أن الآية تدم هؤلاء الذين لم يأتوا الرسول عليه
السلام ، وتؤاخذهم على ذلك مؤاخضة ظاهرة ، وتلحق بهم ذنبا عظيما جسيما .
وتنتههم بأنهم قد تركوا واجبا من أعظم الواجبات ، وأنهم ارتكبوا جرمًا يستحقون
عليه اللوم والتفريع العنيف ، وأنهم قد أغضبوا ربهم وأغضبوا نبيهم بما فعلوه ،
وأنهم قد عدوا بذلك من العصاة المذنبين المشار إليهم بالتفريع والملامة المتلوة
في كتاب الله . هذا كله لا شك فيه . وقد أجمع المفسرون السابقون واللاحقون
أيضا على أن هؤلاء المعنيين بالآية قد تركوا واجبا من أجل الواجبات ، وتركوا
شريعة من شرائط الإيمان ، بتركها قرعهم القرآن ، وأنزل فيهم هذا الخطاب .
القوى الرائع .

وجه ما كان في
إعلان
لا يستدل بالآية

وإذا كان هذا المجيء الذي أوخذ القوم بتركه واجبا من الواجبات ، وفريضة
من الفرائض لم يصح الاستدلال به على زيارة القبر النبوي ، ولا على الحضر
عليها . فانه لا خلاف بين المسلمين في أن زيارة قبر النبي ليست بواجبة ولا فريضة .
وأشد الناس غلوا وحماسة في هذا الباب لا يزعمون أن زيارة قبر من القبور واجبة
من الواجبات ، يؤاخذ تاركها عند ربه . بل هم مجمعون على أنها سنة من السنن
بشرطها ومستحباتها . وإن كان بعض الناس من أهل العلم قد كره زيارة القبور
معالمها كما ذكر ذلك السبكي في « شفاه السقام » وهو من الخصوم الأوائل في
هذه المسائل . وكما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من كتبه . والسبكي بلا
شك لم يعلم الخلاف إلا من كلام شيخ الإسلام ، ولولاه لما علم من ذلك شيئا فيما
أظن . قال ابن تيمية في بعض كتبه : « قال ابن بطال في شرح البخاري : كره
قوم زيارة القبور لأنه روي عن النبي أحاديث في النهي عنها . وقال الشعبي :
لولا أن النبي نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنتي . وقال إبراهيم النخعي : كانوا

كرامة من
هل العلم بزيارة
القبور

يكرهون زيارة القبور . وعن ابن سيرين مثله . وقال علي بن زياد : يحتفل مالك .
عن زيارة القبور فقال : كان قد نهى عنها رسول الله ثم أذن فيها . فلو فعل ذلك .
إنسان ولم يقل إلا خيراً لم أر بذلك بأساً ، وليس من عمل الناس . وروى عنه
أنه كان يضعف زيارتها . كل هذا كلام شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقد نقل بعضه
السبكي في كتابه « شفاء السقام » . وبعض هذا ثابت عن عزى إليه بلا شك .
وقد جاءت أحاديث صحيحة في الوعيد لزيارات القبور . وبعض الناس لا يفرق
بين الرجال والنساء في هذه المسألة . ولكن زيارة القبور مستحبة بالاجماع خلا
هذه الآراء الشاذة القليلة في كراهتها . ولم ينهه أحد من علماء الاسلام الأجلة
فيما نعلم إلى القول بوجوبها وتائم من لم يزرها . فاحتجاج بالآية على زيارة القبر
النسبي احتجاج ما أفسده ١١١ لأن المجيء المذكور فيها مجيء واجب ، عاص
تاركه . والزيارة غير واجبة . فنحتج بالآية على المجيء إلى القبر فقد ذهب إلى
القول بوجوب الزيارة ، والوجوب لم يقل به أحد من العلماء أهل البصر بالاسلام .
وذلك أن المحتج بالآية على زيارة القبر يرى أنها تدل على الزيارة إما بالنص
وإما بالقياس . والذين ينهبون إلى القول بالنص يزعمون أن قوله : « جاؤك »
شامل للمجيء إلى الرسول حياً وميتاً . والذين ينهبون إلى القول بالقياس
يزعمون أن الحث على مجيئه في الحياة يدل على الأمر بمجيئه بعد المات قياساً
وجهه عموم العلة ، كما ذكر السبكي وغيره . وإذا كان الصواب هو القول الأول ،
أي القول بأن الآية حث على مجيء الرسول حياً وميتاً ، كانت دالة على وجوب
الزيارة ، وهذا لم يقل به أحد . وإذا كان الصواب هو القول بالقياس كانت أيضاً
دالة على الوجوب ، لأن المقيس على الواجب واجب . فلا استدلال بالآية على
الزيارة ينتج القول بوجوبها ، والقول بوجوبها باطل بالاجماع . فلا استدلال
بالآية باطل .

إما أن يقولوا
بأن الزيارة واجبة
ولما أن
يخالفوا الآية

وليس أمام المخالفين إلا أمران : إما أن يزعموا أن المؤاخنة في الآية
مؤاخنة على أمر غير واجب بل على أمر مستحب مسنون ، أو يزعموا أن الزيارة
لقبر واجبة وفريضة . وكلا الأمرين باطل عند أهل العلم : أما القول بأن المؤاخنة
في الآية مؤاخنة على غير واجب فأظهر القولين بطلانا . . . فإن قوله تعالى
« لوجدوا الله تواباً رحيماً » مغناه لغفر الله لهم ولتأب عليهم ولرحمهم ،
فلم يمتنعهم ولم يؤاخذهم على ما استحقوه من عذاب ونكال . . . وإلا فالله تواب
رحيم أبداً قبل ظلم النفس وبعده وفي كل وقت . وسياق الآية المذكور يدل على
أن الله لم يتب عليهم ، ولم يغفر لهم ، ولم يرحمهم لأنهم لم يبحثوا النبي عليه
الصلاة والسلام . وتوبة الله عليهم ورحمته إليهم مشروطتان في الآية بمجيئهم
إياه عليه السلام . وحرف « لو » حرف امتناع لامتناع كما يقولون . فكان التوبة
عليهم والرحمة لهم امتنعنا لامتناع المجيء الذي طلب منهم . فتفسير الآية
الجملي هو : الله لم يتب عليهم ، ولم يرحمهم ، لأنهم لم يبحثوا النبي حينما أذنبوا
وظلوا أنفسهم . وإذا لم يتب الله عليهم ويرحمهم كانوا بلا شك مستحقين للهلاك
والعذاب . والمجيء الذي يستحقون على تركه عذاب الله وتقمته وسخطه ،
ويستحقون عليه ألا يتوب عليهم ، وألا يرحمهم مجيء واجب بلا نزاع ولا تردد .
فهذا المجيء الذي تركوه ولم يأتوا على تركه واجب من أعظم الواجبات ، وفريضة
من أكبر الفرائض . فالقول بأن المؤاخنة في الآية مؤاخنة على غير واجب
قول باطل .^١

أما القول بأن الزيارة ، زيارة القبر ، واجبة فقول يخالفه الإجماع ويخالفه الدين
جملة ، وقول لا يقول به المخالف نفسه ، فلا تردد في بطلانه وفساده . . . ومن
زعم أن زيارة القبر واجبة فقد افترى على الله ، وافترى على دينه ، وزعم
زعماً ما أفضله وأقبحه ، وذهب إلى إيجاب الحج إلى غير مكة المشرفة وإلى غير
الحج إلى غير مكة

بيت الله الحرام . والمسلمون مجتمعون على أن الحج لا يجب إلا إلى الكعبة ،
أما غيرها من الأماكن ، ومن جعلها قبر الرسول ، فلا يجب الحج إليها عند
أحد من أهل الفقه في الاسلام والسنة . ولو صح هذا لكانت الشيعة من أترك
الناس لهذا الواجب ، فانه يندر فيهم من يحج ، وبالتالي يندر فيهم من يزور
المدينة المنورة . إذ قد استغنوا بقبور النجف وكر بلاء وغيرهما عن مكة والمدينة
وعن مسجد الله الحرام ومسجد نبيه عليه السلام . . . وقد كان رسول الله
يقول بعد فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فلهجرة إلى
المدينة في حياة النبي بعد الفتح غير واجبة فكيف يجب بعد وفاته عليه الصلاة
والسلام ؟ هذا ما لا يكون وما لا يذهب إليه المسلمون . فلا استدلال بالآية
على الزيارة استدلال منكر مفضوح .

فاتها : لو كان يقصد بالآية زيارة القبر الشريف نصاً أو قياساً لما شرط
المجئء إليه بظلم النفس وبالذنب ، ولما قيل « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك »
بل لقيل : ولو أنهم جاؤك . لأن المقصد على قول المخالفين الحث على زيارة النبي
حياً وميتاً في قبره وفي حياته . . . وإذا كان هذا هو المقصود والمرمى للآية الكريمة
لم يكن لشرط المجئء بالذنب والظلم معنى من المعاني . لأن تقييد الترغيب في المجئء
إليه عليه السلام بظلم النفس يخصص معناه العام الشامل .

فان قيل : إن تقييد المجئء بالظلم لم يكن للدلالة على أنه لا يشرع إلا لمن
ظلموا أنفسهم وإنما كان ذلك للدلالة على فضيلة زيارة النبي وزيارة قبره ، وللتنبية
على ما في ذلك من عظيم الأجر والثواب بأن يقال : إن زيارة النبي حياً وميتاً
عظيمة جداً بحيث إن من ظلموا أنفسهم وفعلاوا الإثم والذنب العظيم لو زاروا
النبي حاملين ذنوبهم وخطاياهم وظلمهم لأنفسهم لغفر لهم ، ولو ضمت عنهم
الأوزار والخطايا ، فكيف لو زاروه من لم يذنبوا ، ومن لم يظلموا أنفسهم ، ومن

وجه ثالث في
إبطال
الاستدلال بالآية

أحسنوا أعمالهم وأقوالهم ، وطهروا ظواهرهم وبواطنهم ؟ إن أجرهم إذن لعظيم :
إن قيل هذا قيل : هذا فاسد وبيانه :

رابعها - : وهو أن يقال : لا يمكن أن تريد الآية الحث على زيارة القبر .
لأنصاً ولا قياساً ، وذلك لأن الآية قد رتبت على الحجى إلى النبي عليه السلام .
أجراً عظيماً وفضيلة عظيمة ، تتناول إليها أعتاق المتقين ، وتتساق إلى أشواطهم .
وينضون للوصول إليها مطايا جهودهم وأعمالهم : هذا الأجر العظيم ، وهذه
الفضيلة العظيمة هي وجدانهم الله تواباً رحماً ، وهذا يكفى به عن التوبة والرحمة .
ومن تاب الله عليه ورحمه فقد فاز وأفلح وأخذ بسبب من نجاته متين . وهذا
الأجر لا يمكن أن يكون أجر من زار القبر وشهد المطايا إليه ، فإن زيارة القبر
مهما بولغ في تعظيمها وتكثير أجرها لا يمكن أن يبلغ ثوابها هذا القدر بحيث
يفخر الزائر ويناب عليه ويرحم ، وبحيث يترك له ظلمه وذنبه ، فإن هذه المشاكلة
لا تنال إلا بالأعمال الجسيمة الصالحة ، لا بزيارة القبور والوقوف بها ، لأن فضيلة
الزيارة إن كانت في السلام على النبي والصلاة عليه فهذا يحصل ويدرك في
القرب والبعد ، ويناله القريب والقاص . ومن صلى على النبي مرة صلى الله عليه
بها عشرة . وهذا لا فرق فيه بين من كان فوق القبر ، ومن كان في الأندلس ،
كما قال الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب لذلك الذي كان يعتمد زيارة
القبر . وقد قال عليه السلام في الحديث الذي رواه أبو داود والامام أحمد : « وصلوا
على فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم » . والمسلمون من كل مكان وفي كل مكان
وكل زمان يقولون في صلواتهم : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » .
ويصلون ويسلمون عليه في كل أوقاتهم وحالاتهم . وينالون بذلك أجر الصلاة
والسلام عليه أين كانوا وجدوا . وإن كانت فضيلة الزيارة في مشاهدة الحجرة
التي تضم رفات النبي وفي مشاهدة الجدار المحيط بها ، فهذا بذاته لا فضيلة فيه

وجه رابع في
بطلان
الاستدلال
بالآية

حيثية بالإجماع والضرورة . وإن كانت الفضيلة في إثبات المسجد والصلاة فيه خرجت المسألة عن الزيارة ورجعت إلى زيارة المسجد وشد الرحال إليه . وهذا لاخلاف فيه ، ولكن ليس هو ما يذهب إليه المخالفون .

خامسها - : لو أن الآية تتناول الزيارة نصاً أو قياساً لكان من المشروع لكل من ظلم نفسه وعمل السوء أن يزور القبر النبوي ، وأن يشد المطايا والرحال إليه ، وإلا كان آثماً مجرمًا ، لأن الآية تقول - مفرعة القوم ذامة لهم ^{وجه خامس في} ^{إطلاق} ^{الامتداد لبالآية} أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيمًا . وإذا كان ذلك كذلك كانت زيارة القبر مشروعة بل واجبة عند كل ذنب مهما تعدد وتنوع وكثر . وذنوب الانسان لا تقف عند غاية ولا عند حد من الحدود . فكان من المشروع إذن للمسلم ، بل من الواجب عليه أن يهيج إلى القبر النبوي في البسام الواحد عشرات المرات بل مئات المرات : كلما ظلم نفسه ، وعصى ربه . وهذا شيء كثير جداً . وعليه يكون الحج إلى القبر أعظم من الحج إلى بيت الله ! بل على هذا يكون من المشروع للمسلم الواجب عليه أن لا ينفك مسافراً بين ذهاب وإياب ، راحلاً إلى القبر في حياته كلها . وهذا من أعظم الضلال وأبين المخالفات لدين الله الاسلام ، ومن أعظم الوثنية التي جاء النبي لتقويض أبنيتها ، وهدم قواعدها ، ونقض أساسها . وفساد هذا ومخالفته لدين الاسلام بل لجميع الأديان لا يحتاج إلى إمعان في النظر وكد للفكرة .

سادسها - : أن يقال : لو كان هذا صحيحاً ، وكان هو المراد بالآية لكان أصحاب النبي وأنصار الله من المهاجرين والأنصار من أزهد الناس في هذه الفضيلة ، ومن أقلهم عملاً بها ، والتفاتاً إليها . . . وذلك أنهم - وقد تقدم هذا صرات - ما كانوا يرغبون في زيارة القبر الشريف . . . ولا كانوا يتسددون إليها ، ولا يعنون بها بعض العناية ، بل ماصح عن أحد منهم زيارة القبر لا من

الآفاق ولا من المدينة في ما نعلم إلا ما صح عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا
 قدم من سفر زار وسلم وانصرف . لا يزيد على ذلك شيئاً . أما غيره كأبي
 بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وغيرهم من الأنصار والمهاجرين فلم ينقل عنهم
 بإسناد صحيح يقام له وزن أنهم كانوا يفعلون شيئاً من ذلك لآحين حضورهم من
 الأسفار والآفاق ، ولا عند دخولهم المسجد للصلاة ولغيرها . وما صح عن
 أحد منهم أنه زار القبر أو وقف عنده أو طاف به ، أو دعا لديه . وقد كانوا
 يدخلون المسجد النبوي في اليوم الواحد المرات ، وكانوا يدخلون على أم
 المؤمنين عائشة حجرة فيها وفيها النبي وصاحبه . وما نقل عن أحد منهم بسند
 صحيح أنه فعل شيئاً من هذا الذي فعله عبد الله بن عمر فضلاً عن الأشياء التي
 يفعلها هؤلاء المبتدعون والتي يدعون إليها الناس ، بل لقد جاء نهيهم عن ذلك
 كما تقدم في حديث علي بن الحسين المعروف بزين العابدين ، وفي حديث
 الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . وتقدم قول أبي إسحاق إبراهيم بن
 سعد قال : ما رأيت أبي يأتي قبر النبي قط ، وكان يكره إتيانه . وسعد هذا من
 سادات التابعين وأعلامهم ، وهو سعد بن إبراهيم ابن عبد الرحمن بن عوف
 الزهري . وتقدم قول عبيد الله بن عمر العمري لما حدثه معمر أن عبد الله بن
 عمر كان يزور قبر النبي إذا حضر من السفر وقبري صاحبيه ، فقال عبيد الله بن
 عمر العمري : ما نعلم أحداً من أصحاب النبي فعل ذلك غير ابن عمر . وعبيد الله
 ابن عمر القائل هذه المقالة إمام كبير من أئمة التابعين . وتقدم قول الشعبي : لولا
 أن رسول الله نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنتي . وتقدم قول إبراهيم
 النخعي : كانوا يكرهون زيارة القبور . وعن ابن سيرين مثله . وتقدم أن مالكاً
 سئل عن زيارة القبور ، فقال : قد نهى عنها رسول الله ثم أذن فيها ، فلو فعل
 ذلك الإنسان ولم يقل إلا خيراً لم أر بذلك بأساً . وتقدم قوله : إن زيارة القبور

هل كان السلف
 يأتون القبر
 النبوي

ليست من عمل الناس . وروى عنه أنه كان يضعف زيارتها . وتقدم أنه قيل له :
إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يقفون على القبر فيصلون.
عليه ويسلمون ، فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع .
ولا يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها . وتقدم قوله : ويكره ذلك إلا لمن جاء من
سفر أو أراد . والإمام مالك يجيز ذلك لمن جاء من السفر ولمن أراد استئذالا .
بفعل عبد الله بن عمر . أما غيره فلم ينقل عنه شيء من هذا . ومن ثم احتج المولعون .
بهذه الأمور بحكاية العتيبي عن ذلك الأعرابي النكرة المجهول . ولو كان عندهم
شيء من هذا العلم عن أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو غيرهم من الصحابة وأئمة
التابعين لما احتاجوا إلى حكاية العتيبي عن الأعرابي النكرة ، ولما احتاجوا إلى
الأحاديث الموضوعة مثل الرواية المعزوة إلى النبي القائلة « من زار قبري وجبت
له شفاعتي » . وقد كانت عائشة رضى الله عنها ساكنة في الحجرة التي فيها النبي .
وصاحبه ، وما حفظ عنها أنها كانت تقف بالقبور وتدعو وتسلم وتزور . وكان
الناس يزورونها في حجرتها ويدخلون عليها ، وما جاء عنها أنها أشارت على
أحد من زائريها بالزيارة للقبر والطواف به والدعاء والسلام عليه . فالصحابه لم
يفعلوا ذلك ، والتابعون لم يفعلوه ، بل قد جاء عنهم كراهته والازورار عنه ،
لأنهم لم يجذوه من فعل الناس ولا من فعل صحابة النبي وناشرى رسالته من بعده .
فلو كانت الآية حثاً على زيارة القبر وترغيباً فيها لكان خيار الأمة وصحابة
النبوة ومن تبعهم بالإحسان والإيمان من أعصى الخلق ومن أبسدم وأنأم عن
هذه الطاعة وعن تلك الفضيلة . ولكن حاش لله أن يقال في خيار الأمة هذه المقالة .
بل الصحابة أئقي الناس وأعملهم بأوامر الله وأوامر رسوله ، وأقومهم بما يجب
لرسول الله من التعظيم والاحترام والحب الصادق الصحيح . ولا خير في ما
تركوه ورغبوا عنه من أمور الدين وعبادة الله .

وجه سابق في
الاعتدال
الآية على أيدي
القبر

سابعها - : لا خلاف بين الناس في أن هذه الآية قد نزلت في طائفة من
الناس مفرقة لهم على إعراضهم عن الله وعن رسوله رغبة عما عند الله وزهدا
في النبوة والنبي . ولا خلاف في أن الآية لم تكن خطاباً عاماً لجميع الناس ، ولا
حضاً لهم كلهم على أن يأتوا الرسول . وقبل هذه الآية يقول الله : « يا أيها
الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ثم يقول : « ألم تر
إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن
يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم
ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل وإلى الرسول رأيت المنافقين
يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك
يخلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم
فأعرض عنهم وعظيهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً . وما أرسلنا من رسول
إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر
لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً . . . » ثم يقول بعد هذا : « فلا وربك
لا يؤمنون حتى يحكوك في ما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت
ويسلموا تسليماً . ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه
إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ،
وإذن لا تينام من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً . . . » والآيات
صريحة في أنها نزلت في طائفة من المنافقين دعوا إلى رسول الله ليغتفروا إليه
وليتوبوا من نفاقهم ، وإساءتهم إليه فلم يفعلوا . وأصرح هذا قوله « وإذا قيل
لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً »
وهو مثل قوله تعالى من سورة « المنافقون » : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم
رسول الله لمواؤهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون » . وهذا لا يحتاج

إلى زيادة تفصيل . فالآية نازلة في جماعة من المنافيين بلالريب . فالذين يزعمون أنها عامة يلجأون إلى القياس لا إلى النص . فإذا كانت المسألة مسألة قياس قلنا : أما الشيعة فانهم ينكرون القياس كله ، ولا يقبلون منه شيئاً . وهم يفخرون على أهل السنة بهذا الإنكار ، وينمونهم ويهجونهم لقولهم به ، وذهابهم إليه . فباطل إذن أن يقيسوا هنا . وأما غير الشيعة من القائلين بالقياس فيقال لهم : إن القياس في هذه المسألة - خاصة - باطل ، ولو كان كل قياس في الدنيا صحيحاً . وذلك أن القياس بالاجماع لا يكون صحيحاً مقبولاً إلا إذا اشترك المقيس والمقيس عليه في علة الحكم الثابتة للمقيس عليه التي زعم ثبوتها للمقيس ، فزعم صحة إعطائه حكم المقيس عليه تحليلاً وتحريماً ، فلا يقاس محرم على محرم إلا إذا وجدت علة التحريم في الأمرين معا : المقيس والمقيس عليه ، ولا يقاس مستحب على مستحب ، ولا واجب على واجب إلا إذا اشتركا في علة الاستحباب ، والوجوب . وهذا ركن من أركان القياس لا معنى له بغيره . والقياس في المسألة التي معنا باطل لأن العلة في المقيس عليه مفقودة من المقيس فلا يصح أن يشتركا في الحكم . وبيان ذلك أن أولئك المنافيين قد أساءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام باحتكامهم إلى الطاغوت وبامتناعهم من التحاكم إليه ، وبصدودهم ورفضهم عنه ، وبمصيبتهم إياه ولهم رهوسهم عند دعوتهم إليه إعراضاً وضوئاً عنه ، وكفراناً به واحتقاراً له . . . فكان كفارة ذلك كله أن يتوبوا في أنفسهم ، وأن يذهبوا إليه عليه الصلاة والسلام فيعتدروا ويتوبوا بين يديه تكفيراً لجرم إساءتهم إليه وجرم خروجهم على ربهم وشرودهم عنه ، وليستغفروا لأنفسهم وليستغفر لهم الرسول لتقبل توبتهم وليغفر جرمهم العظيم . . . وهذا كله عنوان إقلاهم عن نفاقهم وبرائتهم من كفرانهم .

فهم في الحقيقة لم يلاموا على أنهم لم يجيئوا الرسول ولم يذهبوا إليه : ليس

لم يلاموا لانهم
لم يزوروا
الرسول ولكن
ليدوا لانهم
كفروا ولم يتوبوا

هذا هو وجه ضلالهم وسبيل نفاقهم ، ولكن وجه ذلك وسبيله هو كفرهم المدلول عليه بإعراضهم عن رسول الله وصدودهم عنه وتحاكمهم إلى الطاغوت ، تاركين حكمه وشرعه وراء ظهورهم ، غير حافلين ولا مباليين ، نفاق منهم وارتداد آ . وهذا لا ريب فيه . فهم إذن لم يطلب منهم المجيء إلى رسول الله زيارة ، ولا لأن المجيء إليه ذاته مطلوب . . . وإنما طلبت منهم التوبة ، وطلب منهم الايمان . وهم إذا كانوا يصدون عن رسول الله ، ويتحاكون إلى الطاغوت ، ويعرضون عن حكمه ، ويحفلون منه ، فليسوا بمؤمنين ولا تائبين ولا مسلمين بلا شك . فالمجيء المطلوب منهم مجيء يحدوه الايمان والتوبة والاخلاص لله ورسوله . فهم مذمومون لأنهم مناققون غير مؤمنين وغير مسلمين ، لا لأنهم لم يأتوا الرسول ولم يزوروه أو يزوروا قبره . . . فاللعن في الآية الكريمة : ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم تابوا واستغفروا وتخلوا عن ظلمهم وجرمهم وكفرهم ، لوجدوا الله غفارا لذلك كله . . . وهذه الآية مثل الآيات التي فيها قبول الله توبة التائبين مهما عظمت ذنوبهم وسيناتهم وآثامهم . وإنما قيل في الآية : « جاءوك » لأن مجيئهم إياه عليه السلام بتلك الحال عنوان لإقلاعهم عما ليموا عليه ، وبرهان التوبة والصدق والاخلاص . فالمجيء ليس مطلوبا إلا للتوبة ولا إعلانها وإعلان الاسلام والايمان والصدق فيهما . وإلا لو أنهم آمنوا وتخلصوا من نفاقهم وبما يحملون للاسلام وللهي من العداوة والكراهة والبغضاء بالتوبة ثم لم يجيئوا الرسول عليه السلام ، لا كراهة له ولا بغضاء ولكن لاشتغالهم بحياتهم وشتونها لما ليموا على ذلك ولما طلب إليهم المجيء إلا إذا كانوا محتاجين للتعليم وأخذ دينهم عنه مباشرة ، أو كانوا مطلوبين للجهاد بين يديه والدفاع عنه ، أو نحو ذلك من الأغراض . ولهذا كان ﷺ يقول بعد فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ، لكن جهاد ونية » . . . ومن الدليل على أن المجيء ذاته ليس مطلوبا :

من الدليل على أن المجيء نفسه ليس مطلوبا معروفا

ولا فضيلة أنه تعالى ذكره في هذه الآيات ذاماً له ، منكراً لمجيبهم . وذلك في قوله تعالى : « ثم جاءوك يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ : إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاتًا وَتُوفِيقًا » . وهذا ذم لأحد أفراد المجيء . وقال تعالى من سورة المناقون : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ لَكَاذِبُونَ » إلى آخر الآيات ، وهذا ذم لهم على محنتهم بتلك الحال الكاذبة المُنَاقِقَة . وقال في ذم أحد أفراد المجيء : « إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أَكْثَرُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » . ولا يصح الاستدلال بقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ » الآية على استحباب المجيء إلى رسول الله بعد موته ، كما لا يصح الاستدلال بهذه الآيات المذكورة على ذم المجيء إليه حياً وميتاً . وإنما المدح والتمن لما قارن ذلك بالضرورة والاجماع . وإذا صح قعودهم أن يستدلوا بالآية التي نحن بصددنا على استحباب مجيء قبر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستدلوا بالآيات التي سقناها على كراهة المجيء إلى القبر . والاستدلالان في الحقيقة سواء .

فالملة في طلب مجيء أولئك المناققين إلى الرسول هي إعلان توبتهم وإيمانهم وبرهان براءتهم من نفاقهم وضلالهم ، ثم اعتذارهم إلى الرسول ، لأنهم أساءوا إليه وتنقصوه ، ثم تحاكمهم إلى شرعه وحكمه : هذه هي الملة في طلب المجيء منهم ، وليست الملة هي الزيارة . وهذه الأمور مفقودة في زيارة المسلم القبر الشريف . فالملة التي طلب من أجلها المجيء موجودة في المقيس عليه دون المقيس . فالقياس اذن فاسد باطل . ولا يصح القياس حتى يزعموا أن الملة في طلب المجيء هي الزيارة . وهذا لا يقول به مسلم ولا عاقل غير مسلم . فظهر بهذا أن الاحتجاج بالآية في مكان بعيد من الإرشاد والسداد .

بأنها — : لو صدق الاحتجاج بقوله تعالى « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

وجه تسمي
في إطلاق
الاستدلال
بالآية

جاءوك « الآية على زيارة القبر النبوي لصديق الاحتجاج بقوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم » على امتناع دعاء النبي وخطابه من حجراته حياً وميتاً . فإن الذين يدعون النبي عليه السلام بعد موته ويخطبونه ، لا يدعونه ، ولا يخطبونه إلا من وراء الحجرات ، إذ لا يمكن الوصول إليه كما تقدم لأنه مقبور في حجرة زوجه عائشة رضي الله عنها ، والحجرة مسدودة ومحاطة بالبناء . فمن أراد لليوم أن يخطبه وأن يدعو عليه الصلاة والسلام لم يمكنه ذلك إلا من وراء حجراته ومن وراء البناء المحيط بالحجرة . وحيث أن الآية دليلاً ظاهراً على بطلان خطابه ودعائه بعد موته وبعد وضعه في بيت أم المؤمنين عائشة . ودلالة هذه الآية على امتناع دعائه وخطابه ميتاً أبين وأظهر من دلالة الآية التي نحن بصددنا على استحباب مجيء القبر والسفر إليه . ولكن هؤلاء المخالفين ينازعوننا في هذا الاستدلال ولا يسمونه ، ويصرون على دعاء الرسول وخطابه والاستغاثة به ، وطلبه الحاجات من وراء الحجرات والجدران غير مباين بهذه الآية ولا بغيرها من الآيات . ولا مفر لهم من أخذ الأمرين : إما الاستدلال بالآيتين معاً : بآية « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية على استحباب زيارة القبر وشد الرحال إليه ، وبآية « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » الآية على تحريم دعاء النبي وخطابه ميتاً وإما ترك الاستدلال بالآيتين معاً ، فلا تدل هذه على استحباب السفر إلى القبر ، ولا تلك على تحريم خطاب النبي عليه الصلاة والسلام بعد الممات . . . وهذا أقل ما يوجب به الانصاف والعدل .

وجه تاسع في بطلان الاستدلال بالآية على السفر إلى القبر

تاسعها — : نقول : هبوا الآية نازلة في الحث على زيارة القبر الشريف وشد الرحل إليه خاصة . ولكن لا ريب أن المعنيين بها قوم من أهل المدينة من

أهل النفاق والضلال . ونحن لا تنازع في جواز زيارة القبور إذا كانت زيارة مجردة من السفر وشهد الرحل وإعمال المطى ، بل لا تنازع في أن زيارة القبور على وجه العموم مستحبة مطلوبة بالجملة كما قال عليه الصلاة والسلام : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً » . وفي رواية : « فاتها تذكركم الآخرة » .

فزيارة القبور لم نخالف نحن في جوازها واستحبها كما لم نخالف في زيارة القبر النبوي إذا لم يسافر لأجل الزيارة خاصة . والآية الكريمة نازلة في طائفة من أهل المدينة دعوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأبوا وصدوا وأعرضوا . . . فإذا كانت حقاً دعوة إلى زيارة القبر النبوي أو إلى زيارة النبي نفسه حياً وميتاً لم تدل على شيء مما يذهب إليه المخالفون ، ولم تدل على شيء مما ننكره ونأباه . فإن الذي في الآية دعوة لطائفة من أهل المدينة ليأتوا إلى النبي أو إلى قبره على قول المخالف ، ودعوة أهل المدينة إلى النبي حياً وميتاً ، أو إلى زيارته وزيارة قبره ، لم ننكرها نحن . ولم نقل : إنها ممنوعة أو مكروهة أو غير مستحبة . وإنما ننكر من الزيارة ما كان بسفراً أو ما كان مصحوباً بالابتداع والضلال . فقصارى ما في الآية بمد كل شيء أن تدل على حث أهل المدينة المنورة النبوية على زيارة القبر . . . ، ولكن ليس الكلام ولا الخلاف بيننا وبين المخالفين في زيارة سكان المدينة للقبر ، وإنما ذلك في شد الرحال وفي الأسفار إلى مجرد الزيارة . فنحن نسلم أن القرآن يدعو أهل المدينة عامة إلى زيارة رسول الله في مدينته حياً وميتاً ، وأنه يحثهم على ذلك ويرغبهم فيه . وهذا ما لا خلاف ولا كلام بيننا وبين هؤلاء المخالفين فيه .

فاً : قالوا : إنه لا فرق بين أهل المدينة وبين سواهم في هذا ، فإذا طلب سؤال وجوابه القرآن من أهل المدينة أن يزوروا القبور كانت الزيارة بلا شك مطلوبة من سائر

المسلمين في أقطار الأرض ، لأن ما طلب من طائفة من المسلمين كان مطلوباً من جميع المسلمين ، إذ لا يصح أن يشرع لقوم ما لم يشرع للآخرين ، فلا يحل لفريق ما حرّم على فريق آخر ، ولا يوجب على فريق ما لم يوجب على كل فريق . فالذي يطلب من أهل المدينة يطلب من غيرهم ، كما أن الذي يحرم على غيرهم يحرم عليهم . فلا يجوز في شرع الله أن يكون هذا حلالاً لأهل الحجاز أو لأهل المدينة ، حراماً على أهل مصر أو العراق أو الشام أو الهند أو أقصى بلاد الإسلام كما لا يجوز العكس . فلا يجوز أن تكون زيارة القبر النبوي جائزة أو مستحبة لأهل المدينة ، محرمة على أهل مصر أو أهل الشام أو أهل العراق أو أهل الأندلس أو غيرهم كما لا يجوز العكس . فإذا سلمت أن الآية تدعو أهل المدينة إلى زيارة القبر النبوي فقد سلمت أنها تدعو سواهم إلى ذلك لما ذكرنا من أنه لا فرق بين المسلمين أمام أوامر الشريعة : حلالها وحرامها .

إذا قال المخالفون هذا قلنا : نعم ، لا فرق بين أهل بلد وبلد آخر إزاء أوامر الدين وفروض الشريعة ، فلا فرق بين أهل المدينة وبين غيرهم من المسلمين في هذه المسألة وفي سواها من المسائل ، فالحرّم على المدني محرم على غير المدني من المصرى والشامى والعراقى والهندي وجميع المسلمين . والحرّم على المصرى والهندي والعراقى والشامى والمشرقى والمغربى من أمم الإسلام محرم على أهل المدينة بلا خلاف ولا نزاع ، والزيارة المطلوبة من أهل المدينة مطلوبة من غيرهم ، والمحرمة على غيرهم محرمة عليهم بلا شك . هذا كله نقوله ولا نخالف في شيء منه . فالسفر لمجرد زيارة القبر النبوي - مجرداً من قصد الصلاة في المسجد - منهي عنه : أهل المدينة وغيرهم من المسلمين ، وزيارة القبر الشريف وغيره من القبور مشروعة ومستحبة لمن كان في المدينة سواء أكان من أهل المدينة أم كان غريباً . فالمدني إذا كان في مكة أو في مصر أو في العراق أو في الشام أو في الهند منهي عن أن يسافر إلى المدينة

لأجل زيارة القبر . وغير المديني إذا كان في المدينة كان جائزاً له أن يزور القبر وأن يسلم على صاحبه وعلى صاحبيه عليه السلام ، ورضى الله عنهما . فليست زيارة القبر مباحة لأهل المدينة ، محرمة على غير أهل المدينة ، ولم يحرم على المسلمين ما أحل لأهل المدينة ، ولكن السفر لأجل الزيارة منهي عنه الجميع : المدنيون وغير 'المدنيين ، والزيارة بغير سفر مستحبة للجميع : المدنيين وغيرهم . فالمسلمون إزاء ذلك سواء .

ونظير هذا عند المخالفين وغيرهم أن من كان في مصر كان مباحاً له أن يصلي في الأزهر أو في غيره من المساجد . ولكن من كان في المدينة المنورة أو في مكة المكرمة أو غيرهما من الأقطار منهي بالاجماع عن أن يسافر إلى مصر لأجل الصلاة في الأزهر أو في غيره من مساجد القاهرة كجامع عمرو بن العاص . وكذلك يقال في جميع المساجد ما خلا المساجد الثلاثة التي قال النبي فيها : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد المدينة » . فكل المساجد مشروع قصدتها للصلاة فيها ، ولكن لا يصح السفر إليها لأجل الصلاة فيها عند المخالفين أنفسهم للحديث المذكور . وهذا مثل زيارة القبر النبوي . بل جميع القبور ، فإن زيارتها مشروعة استحباباً ولكن بلا سفر . فالصلاة فيها - بلا سفر - مأمور بها . وبالسفر منهي عنها ، والزيارة مشروعة مأمور بها - أمر باستحباب - بلا سفر ، منهي عنها بالسفر . . ولم يقل أحد : إن في هذا تحريماً على قوم ما أحل للآخرين ، ولا إحلالاً لطائفة ما حرم على غيرها

ونظائر هذا كثيرة معلومة في الشريعة : فأهل مصر مثلاً إذا أرادوا الحج كان واجباً عليهم أن يمشوا بما بينهم وبين مكة شرفها الله من البر والبحر . ولكن هذا ليس واجباً على من أرادوا الحج من أهل مكة وأهل الحجاز عامة ، لأن وصولهم إلى الكعبة وإلى بيت الله لا يتوقف على ذلك . ولا يقول أحد في هذا ، إنه أوجب

على أهل مصر مثلاً ما لم يوجب على أهل الحجاز . وكذلك يقال في غير أهل مصر ممن بعثت^١ عن الحجاز . وأهل مكة إذا صلوا في الحرم وجب عليهم أن يتوجهوا إلى كل الجهات الأفقية ليولوا وجوههم شطر الكعبة . ولكن من كانوا في بلدة أخرى وجب عليهم أن يتجهوا جهة واحدة ليصيروا شطر المسجد الحرام . ولا يقال : إن في هذا إيجاباً على قوم ما لم يوجب على الآخرين ، ولا أن فيه تفريقاً بين طوائف المسلمين : هذا كله مفهوم معقول .

سؤال وجوابه فان قال المخالفون : قد دلت الآية على طلب الزيارة من أهل المدينة فله دليلكم على أن هذا خاص بهم دون غيرهم ، والتخصيص لا يركن إليه وإلى القول به إلا بدليل ظاهر جلي قوى ، قلنا : الدليل عندنا على التخصيص قوله وَيَذَرُهَا « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث ، ودلائل أخرى أيضاً سوف يحى بيانها وشرحها . وأيضاً المسوى بينهما هو المطالب بالدليل لأن التسوية بينهما تسوية بين مختلفين ، ومن سوى بين مختلفين كان مخطئاً أو آتياً بدليل لا ينزع . وأيضاً إذا رجع استدلال المخالفين إلى العمومات والتمسك بالأموور المطلقة المرسله الشائكة فالأحسن أن يستدلوا بأحاديث الأمر بزيارة القبور العامة مثل قوله وَيَذَرُهَا : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فانها تذكركم الآخرة » . وقد كان عليه السلام يزور القبور . فيمكن حينئذ أن يستدل بزيارته التي بغير سفر وبالأوامر المطلقة : أن الزيارة التي تكون بسفر . فإذا رجعوا في احتجاجهم إلى الاستمسك بما أوجبنا الجواب عن ذلك إلى الفصل الخاص بالسفر إلى زيارة القبور .

عاشرها - : يقول الله في الْبَقَرَةِ : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » الآية . وظاهر من هذه الآية أنه المطلوب فيها يحى يستغفر بعمده رسول الله لمن جاءه ، لأن قوله : « واستغفر لهم وجه عاشر في إطلاق الاستدلال الآية على البيان القبر »

الرسول « معطوف على قوله ، « واستغفروا الله » وهما - أعنى « واستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » معطوفان على قوله : « جاءوك » « بالفاء » والفاء للعطف والتعقيب على المشهور المنصور من مذاهب النحويين . فاستغفارهم واستغفار الرسول لهم بعد مجيئهم بنص الآية . وإذن فالمطلوب في الآية مجيء يكون بعده — مباشرة وتسبباً — استغفار من الرسول للجائي . . . أما المجيء الذي لا يعقبه استغفار من الرسول فليس مجيئاً مطلوباً ولا مشروعاً بنص الآية وظاهرها . وهذا في ما أحسب جلي قوى . فعليهم إذن أن يثبتوا أولاً أن الرسول عليه الصلاة والسلام يستغفر من جاءوه زائرين في قبره ليصبح لهم الاستدلال بالآية التي استدلو بها . فإن لم يقيموا الدليل على هذا لم يبق لهم حجة ولا شبهة في الآية الكريمة . فإين دليلهم على أن من جاءوا القبر وزاروه استغفر لهم الرسول ؟ لا يصح أن يقولوا جواباً عن هذا السؤال : إن الرسول قد استغفر لجميع المؤمنين والمسلمين في حياته لأن الله قد أمره أن يستغفر لهم على وجه العموم والإطلاق ، لأن المطلوب هنا استغفار يكون بعد المجيء لا قبله . ولا يصح أن يقولوا : إنه ﷺ دائماً يستغفر لأئمة لقوله عليه السلام : « تعرض على أعمالكم ، فإن وجدت خيراً حمدت الله ، وإن وجدت شراً استغفرت لكم » لأن هذا الحديث أولاً فيه كلام سوف يجيء بيانه ، ولأن المطلوب ثانياً استغفار يكون عقب المجيء لا عقب عرض الأعمال عليه عليه الصلاة والسلام . وظاهر الآية يدل على أن الاستغفار يكون عقب المجيء مباشرة ، ويكون المجيء أيضاً سببه أو أحد أسبابه . والاستغفار المذكور في حديث عرض الأعمال ليس في شيء من ذلك . فالمجيء المطلوب في الآية هو مجيء يستغفر بعده رسول الله للجائي . وكل مجيء لا يستغفر بعده الرسول لا يكون مجيئاً مطلوباً . فان استطاع المخالفون أن يقيموا البرهان على أن من زار الرسول في قبره استغفر له بعد زيارته ساغ لهم الاحتجاج بالآية على ضعف ووهن ، وإن لم يستطيعوا :

ذلك - وهم غير مستطيعيه - لم يسع لهم أن يتعلموا بها، ولا أن يفكروا في الاحتجاج بها ببعض التفكير .

أما في حياته فإنه ﷺ كان يستغفر لمن جاءوه معتذرين معترفين بظلمهم وظلماتهم وأخطائهم . كما جاء في حديث كعب بن مالك يوم تخلف عن رسول الله في غزوة تبوك قال في حديثه : « فلما قدم رسول الله من غزوته جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له . فقبل منهم رسول الله علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّل سرّهم إلى الله » . والحديث في الصحيح وغيرها . وهذا وارد في أحاديث أخرى كثيرة . وفي سورة « المناقون » « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لو وارءوهم ورأيتم يصدون وهم مستكبرون ، أسواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » . فاستغفار الرسول لمن جاءه في حياته معلوم لا خلاف فيه . وأما بدموته فعلى المخالفين أن يقيموا الدليل على أنه يستغفر في قبره لمن جاءوه ليكون لاحتجاجهم بالآية وجه ولوضعيّاً ولكنهم لن يجدوا دليلاً واحداً على هذا .

هذه الأمور كلها تقدر في الرواية المذكورة وتوهم إسنادها وعمادها . والله العليم بكل شيء .

﴿ لو صحت الحكاية ﴾

لو صحت الحكاية
لما دلت على
قول المخالف

ولو أنها كانت صحيحة ثابتة الإسناد لما دلت على ما ينهّب إليه المخالفون . وبيان ذلك في بيان ألقاظها .

أما قوله : « وإن حرمة ميتاً كحرمة حياً . . » فهذا حق ولكنه في غير ما يذهبون إليه . فإن المراد به أنه يجب تعظيمه ﷺ واحترامه وتوقيره وطاعته وحبّه والالتقياد لأوامره وأقواله في كل الأوقات والحالات ، في حياته وبعد مماته ، في شهوده وخيبته ، في قر به وبعد . . . ولكن شيئاً من هذا لا يدل على جواز

دعائه والاستغاثة به وسؤاله ما لا يقدر عليه وما لا يقدر عليه إلا الله وحده . ولهذا لم يقل : « فانه في قبره حي » أو : « إنه في مماته مثله في حياته » أو : « إن قدرته ميتاً كقدرته حياً » أو نحو ذلك من العبارات التي تدل على ما يذهب إليه المخالفون من الخرافات والضلالات . . . بل إن هذه العبارة والمقالة بلفظها وصيغتها وروحها ومفزاها تدل على أنه بعد موته قد انقطعت الصلات به سوى صلة الاحترام والحب والاحلال والتوقير والتمظيم وهذه المعاني من الطاعة والاتباع والانقياد لحكمه وشرعه مما يتعلق بالرسالة التي خلفها والدين الذي شاده وأقامه .

وأما قوله : « ولم تصرف عنه وجهك ؟ » فغاية ما فيه أنه يدل على أن السنة استقبال القبر الشريف وقت الدعاء . والدعاء كما تقدم يحتمل أن يراد به الصلاة والسلام عليه والدعاء لصاحبه . وقد سلف أن هذا يسمى دعاء . ونحن لا ننازع في أن زائر القبر يستحب له استقباله وقت السلام والدعاء لصاحبه .

معاني كلماتها
إذا صحت ها

وأما قوله : « وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » فالمراد به أنه يكون يوم القيامة شافعاً له ولا آدم لجميع الخلائق كما صحت بذلك النصوص . ولا تنازع في شئ من شفاعته ﷺ يوم القيامة ، بل تؤمن بها كلها وترجو الله أن ينفعنا بها وأن يزيد في نصيبنا منها ، ونسأله تعالى إياها ، وتعرض لها ما استطعنا . التعرض ، وقد تقدم الكلام عليها في فصل سابق . ولكن هذا ليس في محل النزاع والخلاف . وقول مالك هنا « وسيلتك ووسيلة أبيك آدم يوم القيامة » يشعر بأنه قبل يوم القيامة ليس كذلك على المعنى الذي يذهبون إليه ويدعونه ويدعون إلى الأخذ به . ولو كان ﷺ وسيلة عند مالك في كل الأوقات - بمعنى أنه شافع مسؤول الشفاعة كل وقت - لما قيد ذلك بقوله « يوم القيامة » بل لقال : « وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم » دون القيد المذكور ، أو قال : « وسيلتك ووسيلة أبيك آدم في كل وقت » . فقوله إذن في الرواية « وسيلتك ووسيلة

أييك آدم يوم القيامة « ظاهر في التفريق بين الوقتين : يوم القيامة وما قبلها من أيام البرزخ. وهذا هو ما نقوله وما ندعيه وندعو إليه ، لأنه ﷺ يكون يوم القيامة حيا حياة حسية صحيحة كاملة يخاطب بها ويدعى ويرجى ويستشفع ويشفع ، وليس كذلك في حال الموت . وهذا هو ما تشير إليه هذه الرواية إشارة صريحة واضحة وأما قوله : « واستشفع به فيشفعك الله » فقد قال بهض أهل العلم فيه قولاً لا يبعد أن يكون صحيحاً . ذلك أنه قال : الاستشفاع بالنبي معناه التعرض لشفاعته والاتباع بالأعمال والأقوال التي بها تنال شفاعته . قال : وشفاعته تنال بطاعته واتباع سنته ، وبالاقتداء بهديه ، وبالصلاة والسلام عليه ، وبسؤال الله الوسيلة والفضيلة له كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال قلت يا رسول الله : من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » ، وفي البخاري أيضاً عن رسول الله قال : « من قال إذا سمع الدعاء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة » . وفي صحيح مسلم عن رسول الله قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على فان من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا . ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد . فن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

فلاستشفاع بالنبي عليه الصلاة والسلام في قول مالك : « في أقوال غيره » هو طلب شفاعته عليه السلام ، وشفاعته لا تطلب إلا باتباعه وطاعته والاقتداء به ، والتمسك بسنته ، والعمل بشريعته . . . لا تطلب شفاعته النبي بغير ذلك . ومادة « الاستفعال » تعطي معنى الطلب والالتماس . فالاستنصار معناه طلب النصير ، والاستغفار طلب الغفر ، والاستفتاح طلب الفتح ، وكذلك « الاستشفاع »

معناه طلب الشفاعة . فالاستشفاع بالنبي معناه طلب شفاعته . وبماذا تطلب شفاعته عليه الصلاة والسلام ؟ إنها لا تطلب بالابتداع ولا بتنكب سنته والازورار عن شريعته ، ولكنها تطلب باتباعه وطاعته . فاذا طلب الاسلام من المسلمين أن يلتمسوا شفاعة نبيهم وأن يتعرضوا لها كان معنى هذا أن يأخذوا بالطريق الموصلة إليها حقيقة ، المرضية لربهم . وقد بين الاسلام أن الأمر الذي تنال به الشفاعة لا يمدو جملة الاسلام : أقواله وأفعاله واعتقاديته ، وأن السبيل المفضية بسالكها إليها لا تكون إلا سبيل رسول الله عليه السلام وما جاء به من الهدى والدين والنور . وقد علم أمته أنها لن تنال الشفاعة إلا بالاخلاص والتوحيد وقول : لا إله إلا الله اخلاصاً وإيماناً ، وإلا بالطاعات والصلاة والسلام عليه ، وبسؤال الله الوسيلة والفضيلة له كما في الأحاديث السابقة . وهذا لأن الجزاء من جنس العمل . فمن سأل الله لنبيه عليه السلام سأل النبي له ، ومن شفّع له وسأل ربه من أجله الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود شفّع هو له عند ربه وسأله له النجاة والغفران والصفح الجميل . فالذي يشفع للنبي يشفع له النبي جزاءً وفاقاً ، لأن الجزاء من جنس العمل .

معنى الاستشفاع
وبماذا تنال
الشفاعة

فالمسلمون ينالون شفاعة نبيهم وشفاعة غيره من الأنبياء والملائكة والصالحين بطاعة الله وطاعة رسوله وأنبيائه . فالاستشفاع بهم في لسان الشرع ولسان أهله لا يعدو الاثنيان بالأعمال والأقوال التي يرضاها الله ويشفع أنبياءه ورسوله في صاحبها ، الآتي بها . فقول الامام مالك هنا : « واستشفع به فيشفعك الله » معناه اعمل الأعمال التي تستحق بها الشفاعة ، وهي أن تطيعه وتمظمه وتوقره وتصلي وتسلم عليه ، وتسأل ربك له الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود . وهذا هو ما يجعل العبد من أهل الشفاعة ، لا الاستشفاع به ﷺ ، ولا استغاثته ولا سؤاله ، ولا إيقاله بالمطالب والحاجات المختلفة . . . فان هذه الأمور كلها لا يليل

شئ منها الشفاعة ولا الكرامة ، بل هي من الأنور المبعثة عن الله وعن رسوله :
ولهذا يقول ﷺ : « فن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » ويقول :
« من قال آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود حلت له شفاعتي يوم
القيامة » . ولم يقل : « من سألني الشفاعة في قبري أو في حياتي حلت له شفاعتي »
بل قال : من دعا الله لي وسأله من أجل الوسيلة والفضيلة شفعت له . فهو ﷺ يطلب
من المسلمين المؤمنين به أن يدعوا الله وأن يشفعوا له ، لأن يدعو نفسه ويسألوه
فانه ﷺ مثلهم في باب الفقر الى الله والاحتياج الى ما عنده ، وفي العجز عن
الضر والنفع . والأمر في غاية الوضوح والظهور .

مخرج قريب
لكلام مالك

وأما استشهاد بقوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله
واستغفر لهم الرسول » الآية فهو إذا صح عنه ليس دالا على قول المخالفين .
وذلك أن المنصور حينما جادل مالكاً كان في المدينة في المسجد النبوي كما في
الحكاية . ونحن لا ننازع أن من كان في مسجد النبي عليه السلام كان مستحباً له
أن يأتي الحجرة وأن يصلي ويسلم على رسول الله ويدعو لصاحبيه : أبي بكر وعمر .
وإنما يمنع أن يسافر لأجل ذلك قصداً وعدداً . والحكاية لم تدل على أن المنصور
كان قد سافر لأجل الزيارة المجردة . وإنما تدل - إذا صححت - على أن مالكاً
قد طلب إليه وهو في مسجد النبي أن يأتي القبر وأن يصلي ويسلم عليه ، غير أنه
لم يطلب إليه أن يسافر إلى القبر لمجرد زيارته . وهذا هو ما نمنعه وما يميزه المخالفون
والرواية لا تؤيد من ذهب المخالفين يقينا . ولعل الإمام مالكاً كان يذهب إلى أن
الآية ترغيب لأهل المدينة أنفسهم وحدهم ولمن كان فيها من غير أهلها - دون
غيرهم - في أن يأتوا النبي حياً ويأتوا قبره ميتاً وإن كان يمنع السفر مطلقاً لزيارة
القبور عامة كما تقدم لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة
مساجد » الحديث . ومالك رضي الله عنه يفرق بين الزيارة بسفر وبين الزيارة

بدون سفر ، فيمنع السفر لأجلها كما سبق ، ويستحبها لمن قسم من السفر سواء .
أكان القادم من أهل المدينة أم من الغراء . والمنصور حينما أمره مالك باتيان
القبر كان قد قسم من السفر . فاتيانه القبر موافق لمذهب مالك الذي رواه عنه .
جلة أصحابه . ومالك يعلم أن هذه الآية قد نزلت في جماعة من أهل المدينة كانوا
قد أبوا إتيان رسول الله وقد دعوا إليه بعد أن ظلموا أنفسهم وأساءوا إليه عليه
السلام بنفاقهم وضلالهم ونحاكمهم إلى الطاغوت وتأبىهم حكمه وحكم الله . فهي
ليست دعوة للناس كافة إلى إتيان النبي واتيانه قبره .

فالحكاية لو صححت لم تدل على ما يذهب إليه المخالفون . والحمد لله رب العالمين .

توسل الشافعي
بآل النبي

﴿ الشبهة السادسة عشرة - توسل الشافعي بآل النبي ﴾

وأما قول الرافضي : إن الامام الشافعي قد توسل بآل البيت النبوي وقال :

آل النبي خريعتي * وم إليهم وسيلتي

أرجوهم أعطى غدا * بيدي اليمين صحيفتي

فالجواب أن نطالبهم أولاً بصحة سند هذا الشعر إلى الشافعي رضي الله عنه .
فإنه ليس كل ما عزى إلى الشافعي أو إلى غيره من الأئمة يكون صحيحاً . ونقل
الهيتمي له في كتاب « الصواعق المحرقة » أو غيره لا يكفى في إثباته وثبوته .
وتصحيحه . فعلى المحتج به أن يذكر سنده إلى قائله رضي الله عنه . ونحن لا نعرف
له سندا ، ولا نعرف أن أحدا من أهل العلم والبصر بالمنقول ذكره عن الشافعي .
وأقل ما يطالب به المحتج بالشئ أن يقيم الدليل على صحته وثبوته أو أن يورد له
إسناداً يستطاع اختباره والتنقيب عنه .

ونحن لا نشك في بطلان نسبة هذا الشعر إلى الامام الشافعي ، والشافعي .
أجل من أن يقول مثله : فإنه شعر ركيك هالك ، سخيف بارد ، لا يليق بأمثال .
الشافعي ، العربي القح الفحل ، البارع في معرفة كلام العرب وفنونه بلشأته .

وبمولده وبعلمه وثقافته . وإنما يليق بجهلاء الفقهاء الذين لم يأخذوا من الأدب ، ولا من لسان العرب ، بسبب ولا ببعض سبب .

معنى هذا الشعر لو
سح من القاصي

ثم يقال ثانياً : لو صح هذا الشعر ما دل على ما ذهبوا إليه . فإنه ليس فيه استغاثة بنسب الله من الأموات ، ولا دعاء ولا طلب ولا سؤال . . . وإنما فيه الزعم أن آل النبي ذرية ووسيلة إلى الله . والذرية هي الوسيلة . والوسيلة قد تقدم الكلام عليها ، وتقدم أنها لا تعدو ما يتقرب به إلى الشيء ، فالوسيلة إلى الله لا تعدو ما يتقرب به وما يقرب إليه تعالى . . . فآل النبي - على ما في هذا الشعر - ذرية ووسيلة إلى الله ، بمعنى أن المسلم يتقرب بهم إلى ربه ، أى يتوسل ويتذرع . ولكن ما معنى تقرب المسلم إلى ربه بآل النبي ؟ يصح أن يراد التقرب بهم ولائهم واحترامهم والعطف عليهم والدعاء لهم إذا كانوا صالحين طيبين . . . ولا يصح أن يراد بذلك دعاؤهم ولا سؤالهم ولا استجداؤهم ولا المكوف على قبورهم لأن هذا كله ليس من الموالاة ، ولا من الاحترام والتعظيم لهم . والنبي ﷺ كان يسأل لهم الاحترام والتقدير والاجلال الصادق الصحيح . ولم يكن يأمر بأن يسألوا ويدعوا ويطلبوا . . . والشيعنة تزعم أن الله يأمر بإعطائهم وبرهم والإحسان إليهم بأمثال قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه » وقوله : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » وقوله : « واعلموا أن ما غنمنا من شئ فإن الله خمسته وللرسول ولذى القربى » . . . فإله يأمر بالإحسان إليهم وإعطائهم حقوقهم وبالبر بهم وبحبهم وموالاتهم لقرابتهم من رسول الله وانحذارهم من صلبه الشريف الطاهر إذا صلحوا وطابوا أنفسهم وأعمالاً وعقائد وأخلاقاً ، وإلا فرسول الله نفسه يكون أول من يبرأ منهم ومن يكرههم ويتجافى عنهم طاعة لله وغيرة لدينه ولحقه .

١٠ : فمن قال من أهل الفقه والعلم والبصير بالدين : إن آل النبي وسيلة أو ذرية

إلى الله كان مراده التقرب إلى الله بولائهم وحبهم والاختصاص لهم والدعاء من أجلهم كما في تشهد الصلاة ، وإعطائهم حقوقهم التي فرضها الله لهم . ولا يصح أن يراد بمثل هذا القول دعاؤهم ولا الاستغاثة بهم ولا مخالفة أمر الله فيهم . وقوله : « أرجوهم أعطى غداً » بوضوح ما ذكرناه ويقويه . فإنه يريد « بغد » يوم القيامة . فمعنى هذا الشعر : أننى أحب آل النبي وأوليهم وأعظمهم رجاء أن ينفعني الله بشئ من ذلك يوم القيامة ، ورجاء أن أكون من أصحاب اليمين . فهو بهذا الشعر لم يطلب ولم يرد منهم شيئاً . وإنما رجا أن يعطى بهم يوم القيامة صحيفته - وهى كتابه - بيمينه . ولفظة « بهم » هذه يراد بها بحبهم والاحسان إليهم والاحترام لهم لقربانهم لرسول الله . ولهذا لم يقل : « أرجو أن يعطونى غداً صحيفتى بيمينى » ولا نحواً من ذلك . وإنما رجا الله وحده - شأن كل مسلم مؤمن بالله . فلا شئ في هذا القول مما يذهبون إليه ، لو كان صحيحاً ، وهو غير صحيح

﴿ حديث الاستسقاء بالعباس ﴾

السلام على
حديث الاستسقاء
بالعباس

و لقي من حجج المخالفين في هذا الباب حديث الاستسقاء بالعباس بن عبد المطلب . وذلك ما رواه البخارى في الصحيح عن أنس بن مالك أن عمر ابن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » . قال : فيسقون قال المخالفون : وهذا الحديث يدل على جواز التوسل بالصالحين إلى الله .. والتوسل عندهم يشمل كل هاتيك المنكرات الفاشية فوق القبول . وقد احتجوا بذلك كله بهذا الحديث . ثم قالوا : ولا فرق بين الأحياء والأموات . فإذا جاز التوسل بالأحياء جاز كذلك بالأموات ، ولا فرق ، لأن المجيز للتوسل والحامل

عليه هو الصلاح والكرامة على الله . والصالحون لهم صلاحهم وكراماتهم عند ربهم أحياء وأمواتاً .

الحديث لا يدل على اقوال المخالفين

والجواب عن هذا الخبر في مقامين : المقام الأول في عدم دلالة على ما زعموا . والمقام الثاني في دلالة على خلاف ما زعموا . أما المقام الأول وهو التدليل على أن الحديث لا يؤيد شيئاً مما يزعمون ويذكرون ، فنقول : لا خلاف بين الناس في أن العباس حينما استسقى به عمر كان حياً . وهذا لم ينزع فيه أحد من المخالفين ولا من غيرهم . فهو من التوسل بالحي ، أي من الاستشفاع به . ونحن لم ننازع قط في جواز الاستشفاع بالأحياء وجواز التوسل الشرعي بهم ، بل لم ينزع أحد من المسلمين في جواز طلب الخلق ما يقدر عليه بالجملة ، ولا في الاستغاثة به على ما يستطيعه عادة . بل هذا عندنا واجب أحياناً . والاستشفاع بالحي — وكذلك التوسل — مما يجوز ويشرع ، لأن الحي يقدر أن يشفع لمن استشفع به ، ويقدر أن ينفعه بعض النفع ، ويقدر أن يسمعه ، وأن يعلم حاله وسؤاله . فالتوسل بالعباس في هذا الحديث هو من الاستشفاع بالحي ، والاستشفاع بالحي لا خلاف في جوازه .

فقول عمر : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا . . . وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . . . معناه : اللهم إنا كنا نستشفع إليك بنبينا حينما كان حياً ، وإنا اليوم نستشفع إليك بالعباس عم نبيك . . . فالتوسل هنا هو الاستشفاع ، والاستشفاع هنا هو الاستسقاء . ويدل على هذا أمور كثيرة .

منها قول أنس : إن عمر كان إذا قحطوا استسقى بالعباس . وقد فسر هذا الاستسقاء بأنه كان يقول : وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . فذكر الاستسقاء أولاً ثم ذكر التوسل ثانياً ، وأحد اللفظين يفسر الآخر ، فالتوسل في اللفظ الأخير هو الاستسقاء في اللفظ الأول ، فهذا تفسير لهذا ، فهما بمعنى واحد . والاستسقاء

بعباس على أن التوسل هنا هو طلب الدعاء

معناه طلب السقيا . فهم إذن طالبون من العباس ، أى مستشفعون .
ومنها أن التوسل في هذا الحديث مذكور بالنبي عليه الصلاة والسلام وبالعباس
فالتوسل بهما في معنى واحد . ولا شك أن التوسل بالنبي هنا معناه طلب الاستسقاء
منه . وقد جاء هذا مفسراً في الأحاديث الأخرى الكثيرة الصحاح ، فجاء في
غير ما حديث أن الناس كانوا حين الجذب يأتون رسول الله عليه السلام
ويطلبون منه أن يستسقى لهم ، ويقولون : يا رسول الله ادع الله أن يغيثنا . فيرفع
يديه ويدعو لهم فيسقون ، فإذا كثر المطر طلبوا إليه أن يدعو الله بأن يمسه
وقالوا : ادع الله أن يمسه السماء فيدعو . وقد كان ﷺ إذا استسقوا به .
يستسقى لهم ويدعو بلا صلاة ، وأحياناً يأمرهم بالخروج إلى الصحراء والخللاء ،
فيصلي بهم صلاة الاستسقاء ويستسقى ويدعو مع الصلاة . وهذا كله معروف
مذكور في الأحاديث الصحيحة . فالتوسل بالنبي عليه السلام في هذا الحديث
معناه الاستشفاع والاستسقاء المفسر في غيره من الأخبار . ومثله التوسل بالعباس
بلا ريب ، فانهما مذكوران في حديث واحد فإذا علم أن التوسل بالنبي
معناه طلب الداء منه علم أن التوسل بالعباس مثله هو طلب الداء منه .
ومنها أن هذا قد جاء مفسراً في بعض الروايات . قال الحافظ ابن حجر في
فتح الباري : وقد روى عبد الرزاق من حديث ابن عباس أن عمر استسقى
بالمصلى فقال للعباس : قم فاستسقى ، فقام العباس . قال : وقد بين الزبير بن
بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ،
فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا
بذنوب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بي إليك لمكاثي من نبيك ،
وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاستقنا الغيث . وأخرج من
طريق داود عن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال : استسقى عمر بن

الخطاب عام الرمادة بالعباس فخطب الناس فقال : إن رسول الله كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد . فاقبلوا أيها الناس برسول الله في عمه العباس وأنخذوه وسيلة إلى الله . هذا كله كلام الحافظ ابن حجر . ثم قال في الفتح بعد هذا : « ويستفاد من قصة العباس استعجاب الاستشفاع بأهل الصلاح والخير وأهل بيت النبوة ، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه » . وقال الشيخ المحب الطبري في كتابه « ذخائر العقبى » من فصل « ذكر استسقاء الصحابة بالعباس » : « قال أبو عمر : أجذبت الأرض على عهد عمر إجداباً شديداً سنة سبع عشرة ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين إن بني إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بمصبة أنبيائهم . فقال عمر : هذا عم النبي ﷺ وصنو أبيه ، وسيد بني هاشم . فمشى إليه عمر ، فشكا إليه ما فيه الناس ، ثم صعد المنبر ومعه العباس وقال : اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا صنو أبيه ، فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين . قال عمر : قم يا أبا الفضل فادفع (كذا في النسخة المطبوعة . ولعل الصواب « فادع ») فقام العباس وقال بعد حمد الله وثنائه عليه : اللهم إن عندك سحاباً ، وعندك ماء ، فالشر السحاب ، وأنزل الماء منه علينا ، واشدد به الأصل وأطل به الزرع ، وأدر به الضرع . اللهم إنك لم تنزل بلاء إلا بذنب ، ولم تكشفه إلا بتوبة . وقد توجه القوم بي إليك . فاسقنا الغيث . اللهم شفّعنا في أنفسنا وأهلنا . اللهم إنا شفّعنا عما لا ينطق من بهائمنا وأنعامنا . اللهم اسقنا سقياً نافعاً طبقاً ، سحاً ، صافاً . اللهم لا ترفع إلّا إلّاك ، ولا تدعو غيرك ، ولا ترغب إلّا إليك . اللهم إنا نشكو إليك جوع كل جائع ، وعري كل عار ، وخوف كل خائف وضعف كل ضعيف . . . في دعاء طويل . وكل هذه الألفاظ لم تجب في حديث واحد ، وإنما في أحاديث متفرقة ، جمعت واختصرت . وفي بعض الطرق : فسقوا والحمد لله . وفي بعضها : فأرخت السماء عز إليها ، فجاءت بأمثال الجبال حتى

روايت الحديث وما دأ به العباس

استوت الحفر والآكام واخضرت الأرض وعاش الناس . فقال عمر : هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه . وعن ابن عمر قال : استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس ، وقال : اللهم هذا عم نبيك ﷺ نتوجه به إليك فاسقنا . فما برحوا حتى سقام الله . أخرجهم إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي . . . قال أبو عمر : وروينا من وجوه عن عمر أنه خرج يستسقى ، وخرج معه العباس ، فقال : اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك ونستسقى به ، فاحفظ فيه نبيك كما حفظت الغلامين لصلاح أيهما ، وأتيناك مستغفرين ومستشفعين . ثم أقبل على الناس وقال : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا » إلى قوله : « ويجعل لكم أنهاراً » . ثم قام العباس وعيناه تنضحان ، ثم قال : اللهم أنت الراعي ، لاتهمل الضالة . ولا تدع الكسير بدار مضية ، فقد تضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، أغشنا بقبائك من قبل أن يقتلوا فيهلكوا ، فانه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون . فلشأت طريرة (سحابة صغيرة) من سحب . فقال الناس : ترون ، ترون . ثم تلاءمت ثم هرت ودرت ذكر هذا كله صاحب « ذخائر المعنى » . وألفاظ هذه الروايات بينة في ما نقول . وقول العباس : « اللهم لا ترجو إلا ليالك ، ولا ندعو غيرك ، ولا نرغب إلا إليك . . . » يرد على هؤلاء دعاءهم الأموات ، ورجاءهم المخلوقين ، ورغبتهم إلى الأجداث .

فالمسألة إذن مسألة استشفاع لا غير . ولذلك قال الفقهاء والمعلماء : إنه يستحب الاستشفاع بأهل الصلاح والخير والدين ، مستدلين بهذا الحديث لأنهم لا يفهمون منه إلا أنه استشفاع واستشفاع . وهم يسمون هذا الحديث « حديث الاستشفاع بالعباس » . وهذا لا يختلف الناس فيه . وقد قال شاعر العباسيين : أبو عبادة البحري في امتداح أحد خلفاء بني العباس - مشيراً إلى هذا الحديث : إن الفضيلة للذي استسقى به * عمر ، وشفع إذ غدا يستشفع

دلائل أخرى
على أن الذي في
الحديث استشفاع
بالأحياء

قالشاعر نفسه يعلم أن المسألة مسألة استشفاع وطلب دعاء ، لا كما يظن هؤلاء المخالفون . فالعلماء والشعراء ، وكل الناس لا يفهمون من التوسل بالعباس في هذا الحديث إلا أنه استسقاء واستشفاع ، ولا يفهمون إلا أن عمر طلب من العباس أن يدعو للناس وأن يستسقى من أجلهم ، ويسأل ربه إنزال الغيث والمطر كما كانوا يسألون رسول الله ذلك حينما كان حيا إذا أجذبوا واحتاجوا إلى المطر .

وقد جاء هذا مفسراً في بعض طرق حديث أنس . قال في فتح الباري : وحديث أنس عن عمر جاء عند الاسماعيلي من رواية محمد بن المثني عن الأنصاري بإسناد البخاري إلى أنس ، قال : كانوا إذا قحطوا على عهد النبي استسقوا به فيستسقى لهم فيسقون ، فلما كان في إمارة عمر ... وذكر الحديث . وهذا صريح في الاستسقاء : والاستسقاء هو الشفاعة والدعاء .

والذي يوضح هذا جيداً أن الراوي للحديث ، وهو أنس بن مالك ، قد سمي هذا التوسل استسقاء فقال : إن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس . والاستسقاء بالاجماع ليس له معنى إلا طلب السقيا . فهذا نص لا يتقبل الخلاف والجدال . وقوله فيه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك ... الحديث تفصيل للاستسقاء المذكور . و « الفاء » تفصيلية تفسيرية .

ومن الدلائل على ما ذكرناه أن التوسل هنا لو لم يكن هو الاستشفاع وطلب الدعاء لما عدلوا عن النبي عليه الصلاة والسلام إلى العباس . فلو كان التوسل هو ما يعنيه هؤلاء القوم من السؤال بالذات والجاه والحق - وإن لم يكن هناك دعاء ولا شفاعة من المستول به - لما عدلوا عن النبي إلى سواء ، بل لتوسلوا بجاهه وبذاته وبحقه وإن كان عليه الصلاة والسلام في الملاء الأعلى عند ربه ، وإن كان لا يعلم من أمر من توسلوا به شيئاً ، لأن التوسل حينئذ بالذات والجاه والحرمة . وهذه الأمور ثابتة للنبي عليه الصلاة والسلام حيا وميتاً سواء أدا أم لم يدع ، وسواء

أعلم أم لم يعلم . ولكن عدول الخليفة عمر بن الخطاب وغيره من الأصحاب من التوسل بالنبي بعد وفاته دليل ظاهر على أن مرادهم بالتوسل الاستشفاع وطلب الدعاء . وهم لا يعلمون أن الميت يستشفع به ويطلب منه الدعاء .

ومن الدلائل أيضاً أن قول عمر في الحديث : وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . دليل آخر ^{جليل} ^{باهر} . وإنما أن يراد به التوسل بذات العباس أو بما فيه من معاني الإيمان والإسلام والصالح والتقوى ، أو يراد به التوسل بدعائه وشفاعته . . . أما التوسل بالذات المجردة فلا يمكن أن يراد لأنه لا معنى له . وذات العباس المجردة من معانيها وإيمانها وإسلامها وخلاتها لا فرق بينها حينئذ وبين سائر النوات المجردة . وأما التوسل بمافي ذات العباس من معاني الإيمان والإسلام والصالح والتقوى فلا يمكن أن يراد أيضاً ، لأن التوسل إلى الله بإيمان العباس وإسلامه وصلاحه ودينه ليس سبباً من أسباب قبول الله دعوتك ورضاه عنك وإجابته لك . لأن صلاح المرء ودينه ومعانيه الفاضلة الطيبة خاصة به وحده . ولا فرق بين أن تقول لمن تتوسل إليه : أسألك بصلاح الناس ودينهم وفضائلهم وتقواهم ، وبين أن تقول : أسألك بجمال الشمس والقمر وبعلمهما وإشراقهما ، وبنفاسة الذهب والفضة والؤلؤ ، وبكل مافي المخلوقات من جمال وجلال . . . فالسؤال بكلا الأمرين لا يقتضي أن تجاب ، والتوسل إلى حاجتك بهذا وبهذا باطل جاهل . وقولك : أسألك يارب بدين العباس ، وبصلاح فلان من الناس ، مثل أن تقول : أسألك يارب بجمال الشمس ، وإشراق النهار ، وهدوء الليل ، وروعة الظلام ، وبكل مافي خلقك يارب من جمال وجلال وروعة ، وبكل مافي من معاني وحكم وعبر وأسرار . . . كلاهما جميل في نفسه ، رفيع في قدره ، رائع حسن . ولكن هذا لا يقتضي لك بأن تتوسل بهما ، ولا يقضوك بأن تجاب وتعطى إذا توسلت بهما . ولهذا لم يسأل أحد من أهل العلم والمعرفة بنحو الكعبة والمسجد الحرام والأماكن

المقدسة المفضلة ، ولا بالجنة ولا بالشمس ولا بالقمر ، ولا بنير ذلك من مخلوقات الله الباهرة الكبرى ، الجامعة بين الجلال والجمال وعظمة القدر والشأن . وهذه لأنهم يعلمون أن شرف الشيء وجلاله وجماله وحسنه لا يسوغ أن يسأل به ، وأن يتوسل إلى الحاجات بذكره مع ذكرها ، أى ذكر الحاجات . فالتوسل بصلاح العباس لا يصح أن يراد هنا . وأما التوسل بشفاعته ودعائه فهو الذى يجب أن يراد بالخبر ، وهو الذى لا معدى عنه . وذلك أن التوسل بالدعاء والشفاعة من أسباب الاجابة ، لأن الله سبحانه يجيب دعوة عبده سواء أداها بلسانه أم بلسان غيره ، وسواء أداها لنفسه أم لأخيه . فالمسلمون إذا طلبوا من العباس أو غيره من أهل الصلاح والدين أن يدعو الله لهم وأن يستقيم الغيث فقد توسلوا إلى الله وإلى حاجاتهم بسبب صحيح ظاهر وهو شفاعته من استشفعوا به من أهل الصلاح والدين والخير ، لأن الله يقول فى الكتاب : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » وقال : « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » ويقول : « أم من يجيب المضطر إذا دعاه . . . » الآية إلى غير ذلك من الآيات الواعدة للداعين المتقين بالاجابة والقبول كما قال تعالى « إنما يتقبل الله من المتقين » . ولهذا جاء فى غير ما آية وغير ما حديث أنهم كانوا يطلبون من أنبيائهم أن يدعووا الله لهم وأن يشفعوا من أجلهم . وجاء فى غير ما نص الترغيب فى طلب الدعوة والشفاعة من المؤمنين الصالحين الأبرار . ولم يأت عن أحد منهم التوسل والسؤال بالنوات المجردة وبالجاهات . وهذا كله معروف معلوم . فالتوسل بدعاء العباس وبدعاء الصالحين توسل صحيح عقلا وشرعا . فعمد وغيره من الصحابة لا يمكن أن يكون توسلهم بنير دعاء العباس وشفاعته . وقد تقدم بيان لهذا فى الكلام على حديث الأعمى وحديث سؤال آدم ربه بحق محمد صلى الله عليهما وسلم . فراجع .

وأما المقام الثاني - وهو التدليل على أن الخبر يدل على خلاف ما ذهبوا إليه - فيقال : لا ريب أن عمر بن الخطاب وغيره من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام لم يعدلوا عن التوسل بالنبي إلى التوسل بالعباس إلا لسبب وجيه صحيح ، اقتضاهم أن يتركوا صفوة خلق الله ، وأقربهم إليه وسيلة ومكاناً ، ومكانة ، صادقين إلى غيره من أصحابه وأتباعه ، قائلين : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . فاستقنا . وقد بين هذا الخبر أنهم كانوا حين القحط في حياة النبي لا يعدلون عنه عليه الصلاة والسلام ، ولا عن التوسل به إلى التوسل بسواه . فدل ذلك على أنهم كانوا في حياة رسول الله لا يتوسلون بغيره مطلقاً عند الاستسقاء ، وعلى أنهم بعد ذلك - أعني بعد موته - ما كانوا يتوسلون به مطلقاً ، بل يتوسلون بغيره كالعباس بن عبد المطلب وغيره . وقول أنس في الرواية : إن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس يدل على تكرار ذلك وتعددده ، وعلى أنه لم يكن مرة واحدة . فحسب . وقول عمر : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا . . . يدل على تكرار توسلهم به عليه الصلاة والسلام ، وعلى أن ذلك كان شأنهم عادة . ومن مجموع الحديث يؤخذ أنهم كانوا لا يتوسلون بغير النبي في حياته عند القحط ، ولا يتوسلون إلا بغيره بعد مماته حين ذلك . ولا شك أنه لا بد من سبب صحيح وجيه في عدولهم عن النبي إلى غيره بعد أن كانوا لا يتوسلون إلا به ، وبعد أن كانوا يتوسلون به ويسألون قههم الله ما يسألون وما يطلبون . فلم السبب في هذا ؟ وما الحامل لهم عليه ؟ وما الصارف لأصحاب النبي عن نبهم بعد أن كانوا لا ينصرفون عنه ولا يتوسلون بسواه ؟

جواب الرافضى
من هذا

وقد أجاب الرافضى عن هذا السؤال بقوله : « إنا نقول : لا يلزم على الإنسان دائماً توخى الأقرب إلى الاجابة في التوسل والدعاء ، كما لا يلزم توخى

الأفضل في العبادة ، بل له أن يختار ما يشاء . ويدل على ذلك أن النبي طلب الدعاء من عمر ولم يطلبه من أبي بكر الذي هو أفضل من عمر . وأنه أمر عمر أن يطلب الاستغفار لنفسه من أويس . فلم لم يأمره أن يطلبه من أبي بكر الذي هو أفضل من أويس ، بل من النبي الذي هو أفضل الكل . على أن قول عمر : إنما نتوسل إليك بعم نبينا لا يخرج عن التوسل بالنبي ، أي نتوسل بمن له عندك حرمة لكونه عم نبينا المقرب عندك ، كما تقول لنفرك : أتوسل إليك بقراءة الملك أو بمرضعة ابنك أو بصهر أخيك أو نحو ذلك . ولذلك لم يقل : نتوسل إليك بالعباس . وهذا كما في قوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن » . ولم يقل على الوالد ، قصداً لبيان العلة في ثبوت ذلك عليه وهي أن الولد له . ويرشد إلى ذلك قول العباس : وقد توجه بي القوم إليك لمكائى من نبيك . وفي خلاصة الكلام : وإنما خص عمر العباس من بين الصحابة لإظهار شرف أهل بيت الرسول ، ولبيان جواز التوسل بالفضل مع وجود الفاضل ، فان علياً كان موجوداً وهو أفضل من العباس . . . » .

هذا كله كلام الرافضى في جواب السؤال وهو جواب باطل يقيناً ، ويعرف حساد هذا الجواب بوجهه كثيرة قوية . أما المحمل فهو أننا نعرف بالبداهة والضرورة أن جماعة من الناس لو أصابهم القحط الشديد، وأرادوا أن يستسقوا بأحدهم لما أمكن أن يعدلوا عن دعاؤه أقرب إلى الإجابة وإلى رحمة الله . ولو أن إنساناً أصيب بمكروه فادح ، وكان أمامه نبي، وآخر غير نبي ، وأراد أن يطلب الدعاء من أحدهما لما طلبه إلا من النبي ، ولو طلبه من غير النبي وترك النبي لعد من الآئمين الجاهلين . ولو كان أمام أحدنا أبو بكر الصديق ورسول الله ، وأراد أن يستشفع برسول الله أو بأبي بكر الصديق لما أمكن أن يستشفع بأبي بكر ويترك النبي . أو لو كان أمامنا عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان، وكان يمكننا أن نطلب الدعاء من أحدهما

لما أمكن أن نطلبه من معاوية ونترك عمر . ولو فعل ذلك مسلم لكان جاهلاً ملوماً . ولو أن أحد أصحاب النبي أتى النبي في جماعة من فضلاء أصحابه لما أمكن أن يستنقئ أحدهم ، وأن يستشفع به ويترك النبي ، لا يستنقئ ولا يستشفع به ، كما لا يمكن أن يقدموا واحداً منهم لإمامة الصلاة مع وجوده عليه السلام .

. ويدل على بطلان هذا الجواب الذي ذكره الشيعة أن رسول الله لو كان موجوداً يوم أن استنقئ عمر بالعباس لما أمكن أن يترك النبي وأن يستنقئ بالعباس ، وأن المسلمين لا يمكن أن يريدوا صلاة الاستسقاء في حياة نبيهم ووجوده بين أظهرهم ، فيخرجوا للصلاة ويستسقوا بواحد منهم ويأتوا به ، ويتركوا رسولهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لكانوا عين الضلال الجلاء . وهذا كله يرد جواب الرافضي

لا يمكن الاتهام
بغير رسول الله
مع وجوده

رداً لاحيلة له فيه . فالمسلمون ، مجتمعين ، لا يمكن أن يستشفعوا بغير النبي في مثل صلاة الاستسقاء ودعائه ويتركوا نبيهم مع وجوده بين أظهرهم ومع إمكان أن يستشفعوا به . ولهذا لم يأتوا بغيره في حياته عليه الصلاة والسلام لا في صلاة الاستسقاء ودعائه ، ولا في سائر الصلوات مع وجوده معهم . وقد ذهب عليه السلام مرة ليصلح بين جماعتين من الأنصار تنازعنا ، فحانت صلاة العصر قبل أن يحضر فأذن وأقيمت الصلاة وتقدم أبو بكر الصديق إماماً بالناس ، فأتى رسول الله وهم في الصلاة فتخلص حتى وقف في الصف ، فرآه الناس فصمتوا بأبي بكر ليشره ويحضور رسول الله . وكان أبو بكر لا يلتفت في الصلاة ، فلما أكثر الناس التصفيق التفت فرآى رسول الله فأشار إليه رسول الله : أن امكث مكانك ، فتأخر أبو بكر عن مكان الإمامة حتى وقف في الصف فتقدم النبي عليه الصلاة والسلام فصلى بالناس . فلما سلم قال لأبي بكر : « مامعك أن تثبت إذ أمرتك ؟ » فقال أبو بكر : ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام . وقد تقدم مرة لإمامة الصلاة أبو بكر أيضاً في مرض النبي بأمه ،

فوجد النبي في نفسه قوة فخرج بين رجلين من أصحابه إلى الصلاة حيث يصلي الناس ، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأشار إليه رسول الله : أن مكانك ، فأتيا به عليه السلام حتى أجلساه عن يسار أبي بكر . فكان أبو بكر يصلي قائماً ورسول الله يصلي قاعداً . وكان رسول يصلي بالناس وأبو بكر يسمحهم التكبير
والحديث متفق عليه . فقد كان عليه السلام يؤم الناس وهو مريض ، يصلي قاعداً ويصلون معه مؤتمين به . ولا يتقدم أحد منهم لإمامة الناس في حضوره .
فن الباطل والمحال أن يستسقى عمر وغيره من الأنصار والمهاجرين بالعباس أو غيره من المسلمين مع وجود رسول الله . وأبطل من ذلك أن يتكرر استسقاؤهم بالعباس ثم لا يجيئ أنهم استسقوا برسول الله مرة واحدة . والعقل والمسلم لا يمكن أن يعدلا عن الأفضل الأكمل الأقرب إلى نيل المطلوب وإدراك الحاجة ، يأخذوا بغيره إلا لسبب صحيح وجيه ظاهر عندهما . وإلا فانه إذا كان أمي أمران أحدهما أفضل من الآخر وأكمل لم يمكن أبداً أن آخذ بالمفضول الناقص وأدع الفضل الكامل بلا سبب . والذي يفعل ذلك لا يكون عاقلًا يقينا . وعلماء الكلام والفلسفة يقولون : إنه لا يمكن ترجيح أحد الأمرين المتساويين إلا بمرجح ، فكيف بترجيح المرجوح المفضول الناقص على الراجح الفضل الكامل ؟ ومن خير بين مالين أو منصبين أو شرفين أو شيتين لم يمكن أن يختار أضعفهما ويدع أفضلهما وأكملهما بلا سبب إلا أن يكون غير عاقل .
نعم ، قد يختار كثيرون من الناس النقص والشر والباطل والضلال على الكمال والخير والحق والهدى ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً من ذلك بلا سبب بل يفعلونه لسبب قهار غلاب ، تضعف عزائمهم وإنسانيتهم . أو حيوانيتهم . أمامه ، فيقعون بين يديه صرعى ، لا يستطيعون معه عزماً ، ولا قوة ولا رجولة . وهذا السبب هو الضعف البشري الحيواني ، أو الشهوة ، أو الجهل ، أو غير ذلك مما يقهر الإنسان

لا يمكن ترجيح
المفضول على
الفاضل

كثيراً ويضطره إلى الأخذ بالنقص والجهل والغباوة والشر . وهذا لا يمكن أن ينازع فيه منازع . والمسلم لا يمكن أن يترك أبداً فاضل الأعمال ويأخذ بمفضولها بدون ماسبب بل لمجرد الرغبة في النقصان ، والرغبة عن الكمال ، والأنحطاط نحو الشر والباطل والضلال . فما السبب إذن في عدول الصحابة عن التوسل برسول الله إلى التوسل بالعباس إذا كان ممكناً التوسل بالاثني عشر ، وكان المخالف معتزلاً بأن التوسل بالنبي أفضل وأكمل ، وأقرب إلى الإجابة والقبول من التوسل بالعباس وبسائر الناس . والصحابة لا يمكن أن يعدلوا عن الأكمل الأفضل لمجرد اتباع الهوى ، واتباع الباطل ، ولا يمكن أن يأخذوا بالسبب الضعيف ويتركوا السبب القوي لغير ماداع ولا اختيار ، ولا يمكن أن يصدفوا عن الدعاء الأقرب إلى الإجابة وإلى إدراك الحاجة ، آخذين بالأبعد عن الإجابة وعن إدراك الحاجة . . هذا هو السؤال وهو لا بد له من جواب فما جوابه ؟

نحن نقول : ان السبب هو أن رسول الله بعد مماته لا يصح الاستشفاع به ولا طلب الدعاء منه ، ولا التوسل به . لهذا مالوا عنه إلى من يمكن ذلك منه ، وإلا لما مالوا عنه إلى سواء ألبتة . والمخالفون لا بد كرون من جواب سوى قولهم : إنه لا يلزم توخي الأفضل ، ولا الأخذ بالأكمل الأقرب إلى الإجابة . ولكن هذا جواب سطحي ، ينفيه التحقيق ، ويبطله الإمعان في البحث والفهم ، ويذيبه المنطق الصائب ، وتزله الحجة الصحيحة . فما الجواب إذن ؟

أما ما ذكره الشيعة من التدليل على أن المسلم قد يأخذ بالمفضول ويترك
الفاضل فالجواب عنه - وهو الجواب المفصل - أن نقول : أما طلب النبي الدعاء
من عمر دون أبي بكر وهو أفضل منه فأنما كان ذلك عندما خرج عمر بن الخطاب
معتبراً فقال له رسول الله : « لا تلسنا يا أخى من دعاك » إن كان الحديث

الجواب من طلب
النبي الدعاء من
عمر دون أبي
بكر

صحيحاً . فطلب النبي الدعاء من عمر لأنه خرج معتمراً قادماً على بيت الله . ودعوة المعتمر في جوف بيت الله قد تكون أفضل وأقرب إلى الاجابة والقبول من دعوة غير المعتمر في غير البيت وإن كان أفضل منه وأتقى لله . فدعوة عمر في عمرته في جوف بيت الله قد تكون أقرب إلى الاجابة والسماع من دعوة أبي بكر الصديق في غير العمرة في غير البيت وإن كان أبو بكر أفضل من عمر بلا خلاف ولا نزاع . وإنما يستقيم هذا الاستشهاد للرافضى لو أن أبا بكر وعمر دخلا على النبي - أو دخل عليهما - وكان في حاجة إلى دعوة صالحة من عبد صالح ، فطلب الدعاء من عمر ولم يطلبه من أبي بكر لغير ما سبب ، أو لو كانا - أبو بكر وعمر - أرادا العمرة فطلب رسول الله الدعاء من عمر دون أبي بكر . فهذا هو الذي يستقيم للرافضى الاحتجاج والتثليل به ، ولكن مثله لن يكون .

الجواب عن
حديث طلب
الاستغفار من
أويس

وأما أمر النبي عمر أن يطلب من أويس القرنى الاستغفار إن استطاع فالسبب في هذا الأمر أن أويساً كان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة قريباً من الله . وقد قال عمر في روايته حديث أويس هذا كما في صحيح مسلم : سمعت رسول الله يقول : « يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن . كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم . له والدة هو بها بر . لو أقسم على الله لأبره . فان استطعت أن تستغفر لك فافعل » . وفي رواية قال : إني سمعت رسول الله يقول : « إن خير التابعين رجل يقال له أويس . وله والدة . وكان به بياض . فروه فليستغفر لكم » . رواه مسلم في الصحيح .

فأويس هذا كان من الصالحين الأبرار الزهاد ، مجابى الدعوات ، ممن لو أقسموا على الله لأبر أقسامهم . وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله قال : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره » . وهذا لا يدفع أن يكون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وجهور الصحابة أفضل منه . فان

الفضيلة لا توجب التفضيل، فقد يوجد في المفضول من الفضائل ما لا يوجد في
الفاضل . والتفضيل ينظر فيه إلى المجموع . ونحن إذا قلنا : إن فلانا أفضل من
فلان أو أفضل من الجميع لم نعن بهذا أنه أفضل من فلان أو من الجميع في كل
شيء ، بل نعني أن مجموع فضائله ومناقبه الخيرة الطيبة أكثر وأشهر وأقوى من
فضائل الجميع المفضل عليهم . ولا ريب أن في جمهور صحابة النبي من هو أزهد في
الدنيا وأكثر صلاة وصياماً وانقطاعاً إلى الآخرة وعبادة الله وصداً عن الدنيا
وعن رئاساتها وسلطانها ممن هو أفضل منه وأعظم وأجمع للخير وللحاسن
والحسنات ، ومثل هذا يقال في غير الصحابة . ولا نشك مثلاً في أن خالد بن
الوليد أشجع وأعظم إيقاعاً بأعداء الإسلام وخصوم الرسالة الحمديدية ممن هو أفضل
عند الله منه ، ولا نشك أيضاً في أن أبا هريرة أحفظ لسنة والنبي لأحاديثه عليه
الصلاة والسلام ممن هو أفضل منه ، ولا نشك في أن أباذر الغفاري أزهد وأتقى
وأعبد لله وأدنى إلى خشيته ممن هو أفضل منه ، ولا شك في أن عبد الله بن
مسعود أقرأ لكتاب الله ممن هو أفضل منه ، ولا في أن عمرو بن العاص أفضل
أثرأ في الإسلام ممن هو أفضل منه ، ولا في أن أويساً هذا محاب الدعوة أكثر
ممن هو أفضل منه .

الفضائل مقسمة
على الناس

والفضائل التي يهبها الله عباده مقسمة موزعة عليهم جميعاً ، لم تقدر كلها لواحد
منهم ما خلا الأنبياء والمرسلين . ولكن لا ريب في أنه قد قدر لصديق الأمة
الأكبر أبي بكر العظيم من هذه الفضائل ما لم يقدر لسواه من المسلمين . ولا
نرتاب مع هذا أنه قد يوجد في جمهور الصحابة من دعاؤه أقرب إلى الإجابة من
دعائه . وأويس هذا قد فضل على سواه بقرب دعوته من الإجابة والقبول لزهده
في الدنيا وهروبه منها ، وقطعه الصلات بها وبأهلها ، وخالوصه لله ، وعبادته إياه .
وهذا كالذي قال فيه رسول الله : « رب اشمث أغبر مدفوع بالأبواب ، لو أقسم

على الله لأبره . وليس معنى هذا أن ذاك الأثمت الأغر الفقير المدفوع بالأبواب وعن الأبواب ، لهوانه على الناس وعلى الدنيا ، أفضل من أهل عصره كلهم ، الذين ليسوا مثله في إبرار أفسابهم على ربهم وإجابة دعواتهم . فالنبي عليه الصلاة والسلام إنما حث على طلب الاستغفار والدعاء من أويس لأنه كان محاب الدعوة يقيناً ، وإلا فلماذا حث على ذلك ؟ ومن فهم هذا فهماً جيداً علم أن فيه رداً لما ذكره الشيعي ، وتقضاً على قوله : « إنه لا يلزم توخي الأفضل الأقرب إلى الإجابة من الدعاء ، ولا الأفضل من الأعمال والعبادات » . وإذا كان صحيحاً لا يلزم توخي الأفضل من الأقوال والأعمال ، بل قد يختار المفضل على الفاضل ، والناقص على الكامل بلا داع ولا سبب فلماذا رغب النبي عليه الصلاة والسلام في طلب الدعاء من أويس وحث عليه وقال : « مهو فليستغفر لكم » ؟ وإنما لا نشك في أن النبي ما رغب في دعوة أويس واستغفاره إلا لامتياز دعائه واستغفاره على دعاء غيره واستغفاره بقرب الإجابة والقبول . وإلا لولم يكن السبب هو هذا فلماذا خص النبي أويساً الذي لو أقسم على ربه لأبرره قسمة بذلك دون سواه ؟ فهذا الذي ذكره الرافضي حجة عليه لاله .

لا يصح قياس عهد النبي ﷺ على عهد النبي عليه الصلاة والسلام
أما النبي ﷺ فلا يمكن قياس غيره عليه ولا به ، فانه أفضل الخلق على وجه الإطلاق والموم ، وعلى وجه التقسيم والتفصيل أيضاً : فهو أشجعهم وأعلمهم وأصلحهم وأتقاهم وأقربهم إلى الله وإلى الإجابة ، ودعاؤه أسرع الدعوات صعوداً إلى الله وإلى سمائه . ولا يمكن أن يسوى به سواء في وجه من الوجوه ، ولا في فضيلة من الفضائل ، ولا في شيء من الأشياء . وعلى هذا لا يمكن تقديم غيره عليه في أمر من الأمور : لا في طلب الدعاء والشفاعة ، ولا في الاستفتاء ، ولا في التعظيم والتوقير ، ولا في الحب والاحلال ، ولا في أمر من

الأمر . فلماذا إذن عدل عمر ومن معه من الأصحاب عن التوسل به إلى التوسل
بغيره وهم في غاية الحاجة إلى رحمة الله ، وإلى غيائه ؟ إنه لا جواب عند المخالفين
لهذا السؤال .

أما قول الشيعة : فلماذا أمر عمر بأن يطلب الدعاء من أويس ولم يأمره ^{طلب الدعاء من}
أن يطلبه من النبي نفسه وهو أفضل من أويس ومن الكل ، فهو قول باطل وسؤال
لا يعبأ به . وبيان ذلك أن النبي ﷺ قد أرسل رحمة للعبيد خاصة وعامة ،
وكان حريصاً على المؤمنين وعلى ما يقربهم من رضوان الله ومن جناته ، عزيزاً
عليه شقاؤهم وضلالهم وجهلهم وعنتهم . وكان أبر بهم من آبائهم ومن أمهاتهم ،
جل أبر بهم من أنفسهم بهم ، لا يدع شيئاً ينفعهم ويصلحهم إلا فعله ، ولا شيئاً
يضرهم ويفسدهم إلا تركه وهجره وحذرهم إياه ، وخاف عليهم منه وذادهم عنه وعن
الوقوع فيه . وقد قال الله في صفته : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه
أمهاتهم » ، وقال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز على ما عنتم ، حريص
عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » . وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله
ﷺ قال : ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن
شئتم « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . فأما مؤمن ترك مالا فليدره عصبته
من كانوا . فان ترك ديناً أو ضيقاً فليأتني وأنا مولاه . ولقد كان ﷺ يحزنه
الحرص عليهم حتى يكاد يقتله وحتى تكاد نفسه تذهب حسرات عليهم . وقد
شهد الله عن ذلك في كتابه في آيات وقال له : « فلعلك باخع نفسك على أئامهم إن لم
يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » .

فالنبي ﷺ كان أحرص على المؤمنين من أنفسهم وأولى بهم منهم . فكان
يسعى في ما يصلحهم وإن لم يسألوه ذلك ، بل وإن لم يريدوه منه ، فكان
يخلصهم ويخلصهم على الخلق والصلاح وأسباب النجاة ، وكان يدعو لهم ويسأل
من أنفسهم ^{الرسول يدعو}
^{المؤمنين وأنهم}
^{يسألوه الدعاء}
^{لأنه أولى بهم}
^{من أنفسهم}
(٩٤) .

ربه هدايتهم وإسعادهم وإن لم يطلبوه ، بل وإن أبوا ذلك وكرهوه ، لأنه عليه السلام كان قائماً على تربيتهم قيام الوالد البر الرحيم على تربية أولاده وقرّة عينه ، بل كان أحرص على تربية المؤمنين وإصلاحهم وإسعادهم من الوالد الرحيم على واحد ، بل كان أرفق بهم من أنفسهم كما قال تعالى : « النبي نزل بالمؤمنين من أنفسهم » . وقد أمره الله أن يدعو للمؤمنين وللمؤمنات فقال : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » ، وقال في النساء المؤمنات المبيعات : « فبايعن واستغفرن لهن الله ، إن الله غفور رحيم » ، وقال تعالى : « وصل عليهم . إن صلاتك سكن لهم » . وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله إذا أتاه قوم بصدقهم قال : « اللهم صل عليهم » . فأتاه أبي : أبو أوفى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » . فقد كان عليه السلام مأموراً بالدعاء والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات وإن لم يسألوه ذلك ، لأنه قد أرسل رحمة وعناية آتية بهم ، ولأنه لا يمكن أن يدع شيئاً ينفعهم في دنياهم ودينهم إلا فعله . فكان يدعو لمن يستحقون الدعاء ، ويستغفر لمن يليق بهم الاستغفار والغفران ، كما كان يبين لهم الحلال والحرام ، ويعلمهم وحى الله وعرائضه وإن لم يسألوه شيئاً من ذلك . وكان لا يدعو لمن لا يجوز أن يدعو له وإن سأله وألح في السؤال . وقد ثبت أن بعض الناس سأله ﷺ أن يدعو له بشئ فأبى . أما الذين يستحقون الدعاء والاستغفار فكان يدعو لهم ويستغفر . فكان طلب ذلك منه أحياناً عبثاً .

وقد استغفر ﷺ للأَنْصَارِ ولِلدَّرَارِيِّ الْأَنْصَارِ وَمَوَالِي الْأَنْصَارِ ، لأنهم كانوا جديريين بذلك . وفي الصحيح عن زيد بن أرقم قال قال رسول الله : « اللهم اغفر للأَنْصَارِ ، ولأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ » ، وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك أن رسول الله استغفر للأَنْصَارِ وَلِلدَّرَارِيِّ الْأَنْصَارِ

ولموا إلى الأنصار . وقد دعا ﷺ المخلقين قال : اللهم اغفر للمخلقين ، قالوا يا رسول الله والمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمخلقين ، قالوا يا رسول الله والمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمقصرين . وقال : « اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا » . الحديث المتقدم . وقال لعمه أبي طالب : « لا تستغفرون لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله قوله : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » الآية . (١) فهو ﷺ مأمور بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وأن يدعو لهم وإن لم يسألوه شيئاً من ذلك ، وقد كان كذلك فلا يحتاج إلى أن يطلب منه . وهو في هذا مثل الملائكة ، فانهم مأمورون بالدعاء والاستغفار والشفاعة للمؤمنين وبالصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، وهم لا يسألون ذلك كما قال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » الآيات . وقال : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً » وقال : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » . وهذا من وظائفهم التي لا يصح أن يتركوها ولا أن يقصروا أو يغفلوا بها . والنبي ﷺ كذلك كان مأموراً بالدعاء والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، وهو يفعل ذلك وإن لم يسأله كما تقدم في الأخبار ، وكما جاء في أخبار أخرى كثيرة . وفي الحديث الذي يحتاج به المخالفون « حياتي خير لكم ، ومماتي خير لكم ، تعرض على أعمالكم ، فإن وجدت خيراً حمدت الله ، وإن وجدت شراً استغفرت لكم » وقد كان ﷺ يقنت في صلواته فيدعو لقوم ويدعو على قوم آخرين . وكان الناس بالجملة منهيين عن سؤاله الدعاء والاستغفار والشفاعة ، وكان هو لا يرغبهم في شيء من هذا . بل كانت أقاويله ترشد على وجه العموم والتفصيل إلى أن الأحسن لهم ألا يفعلوا ، وألا يسألوه : فكان أجاباً يرد على من يسأله الدعاء

إياه الرسول
الدعاء لمن
لا يستغفرون

رداً جميلاً كما في قوله لذلك الذي قال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم - فقال عليه الصلاة والسلام : « سبقك بها عكاشة » . وقال الأعمى الذي جاءه يسأله أن يدعو ليرد الله له بصره : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » والحديث قد تقدم . وجاءته امرأة كانت تصرع وتتكشف ، فسألته أن يدعو الله لها ، فرغبها أن تصبر ، فقالت : إذن ادع الله لي ألا أنكشف ، فدعا لها . وقال في الحديث الذي يحتاج به المخالف والذي تقدم الكلام عليه : « اللهم بارك لنا في ثماننا وفي يمننا » ، قالوا يا رسول الله وفي نجدنا ، فأبى أن يدعو بالبركة وقال : « هناك الزلازل والفتن ، ومنها يخرج قرن الشيطان » . ونظائر هذا كثيرة معلومة . وما كان عليه السلام يرغب أصحابه في أن يسألوه الدعاء بل هذا الذي تقدم - وله نظائر كثيرة - يشير إشارة صريحة إلى أن الأحسن الانكفاف عن هذا . ولهذا لا نجد كبار الصحابة وقهاتهم وخلفاءهم يسألون النبي ذلك ، فلا نكاد نجد أن أبا بكر الصديق أو عمر أو عثمان أو علياً كان يسارع إليه ، ويتهافت عليه ، بل قيل : إن أبا بكر الصديق لم يسأل النبي عليه السلام مطلقاً شيئاً لنفسه خاصة . وعلى كل حال صح هذا القول أم لم يصح فالذي لا شك فيه أن صحابته المقربين لديه ، العارفين به وبقدره وبمنزلته عنده ما كانوا يحرصون على سؤاله ، لا الدعاء ولا غير الدعاء ، لأنهم قد عرفوا حقيقة نبيهم وعرفوا مقدار حرصه عليهم وعلى ما يصلحهم وينفعهم ، وعرفوا أنه لن يدع شيئاً مما فيه صلاحهم وإسعادهم وخيرهم ، فكانوا يحجمون عن سؤاله لأن في سؤالهم إياه شبه اتهام له بالتقصير والبخل عليهم بما يجب الجود به ، وعرفوا أن الجواد الكامل الجود هو الذي يعطيك حاجتك وماتريده قبل سؤاله وبدون سؤاله . والناس يمتدحون الجواد بأنه يعطى قبل أن يسأل وبدون أن يسأل ، وبأنه لا يحوج المحتاج إلى ذل السؤال ومشقته . ويسأل الله أولى الخلق بهذا الجود والكرم عليه السلام .

أكمل الجود
الاعطاء قبل
السؤال وبدونه

وهذا صحيح ، ولا يعترض عليه بسؤال الله ، لأن سؤال الله مقصود لذاته لما فيه من الذل والخضوع والخشوع والانكسار له تعالى . وهذه الأمور هي خلاصة العبادة . والعبد وظيفته أن يعبد ربه وأن يقوم بكل صور العبودية وضروبها وأشكالها ومظاهرها . والله يجازي على الدعاء الإجابة لأنه عبادة ، والله يتقبل من عباده المتقين ، ويعطيهم سؤالهم وحاجتهم . أما الذل للمخلوق فليس مطلوباً لذاته بل منهي عنه لذاته نهياً شديداً صريحاً . ولهذا السبب نفسه ، ولأسباب أخرى كثيرة حرمت مسألة المخلوق ونهى عنها أشد النهى ، وطلبت مسألة الخالق ورغب فيها صنوف الترغيب ، بل لا يكون مؤمناً من لا يسأل الله ، ومن لا يذل له . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من لا يسأل الله يغضب عليه » . والدعاء لا يخفى مكانه من الإسلام والدين . فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يرغب في سؤاله وطلبه الدعاء والشفاعات . فقول الشيعي هنا : لما ذا لم يأمره أن يطلب من النبي الدعاء سؤال باطل لأن النبي لم يكن يرغب في سؤاله بل كان يزهد فيه ضروب التزهيد كما تقدم لأنه أجود من أن يوجههم إلى سؤاله وطلبه وهو الرحمة المهداة من السماء إلى الأرض وإلى أهلها وهو أحرص عليهم من آباتهم وأمهاتهم ومن أنفسهم وأولى بهم منهم .

ابطال لاشك
فيه لما ذكره
الخالف من
الامثال

أما قوله : « إن قول عمر : وإنا نتوسل إليك بعم نبينا لا يخرج عن التوسل بالنبي » فقول باطل كل البطلان . ولو كان صحيحاً لكان قول من قال : أسألك يا عبد الله سؤالاً لا لعبده ، لأنه أضاف المستول إلى الله كما أضاف عمر العباس إلى النبي ، ولكان قول من قال : اعبدوا رسول الله واسجدوا لأنباء الله ، لا يخرج عن قول من قال : اعبدوا الله واسجدوا له ، ولا تعبدوا أحداً سواه ولا تسجدوا لمخلوق ، لأنه قد أضيف هنا رسول الله وأنبياءه إليه تعالى كما أضيف العباس في حديث الاستسقاء به إلى « نبينا » ، ولكان أيضاً قول

من قال : أعطاني عبد الملك ، أو وزير السلطان كذا مثل أن يقال : أعطاني الملك أو السلطان كذا . وهذا كله فاسد لا يقول به عاقل ولا مسلم . وإذا كان هذا الذي ذكره الرافضي صحيحاً ، وكان المراد من التوسل بالعباس التوسل بالنبي فلماذا لم يأتوا بالمراد صراحة ؟ ولماذا لم يتوسل عمر بالنبي مباشرة ؟ ولماذا أدخل كلمة العباس في الوسط وهي غير مرادة ولا معنية ؟ ولماذا قال : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ؟ وقد كان الصحيح أن يقول : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا وإننا اليوم نتوسل إليك أيضاً بنبينا فاسقنا . ولماذا أقحم العباس هنا إذا كان غير مراد وغير منظور إليه ؟ ولماذا قال أنس بن مالك راوى الحديث : إن عمر كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ، ولماذا لم يقل : استسقى بالنبي ؟ ولماذا سمى الناس جميعاً حتى المخالفين هذا الحديث : « حديث الاستسقاء بالعباس » ؟ كل هذه الأسئلة لأجواب لها عند الشيعة يقيناً .

أما قول القائل : أتوسل إليك بقرابة الملك فيقال في الجواب : إن كان المراد بقرابة الملك أقاربه فلا يمكن أن يكون التوسل بأقارب الملك توسلاً بالملك كما لا يمكن أن يكون التوسل به توسلاً بأقاربه . وهذه أشياء غنية عن تطلب الحجج لها لوضوحها

أما قول القائل : أتوسل إليك بمرضة ابنك فالتوسل بمرضة الابن ليس توسلاً بالابن كما أن إهانة الممرضة ليس إهانة للرضيع ، وكما أن ضربها لا يكون ضرباً له ، وطردها لا يكون طرداً له ، وسبها لا يكون سباً له . وكذلك يقال في قول القائل : أتوسل إليك بصهر أخيك فإن التوسل بصهر الأخ ليس توسلاً بالأخ بالضرورة واليقين والاتفاق . فهذه الأمثال التي أوردتها احتجاجاً بها على أن قول عمر رضي الله عنه : « وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » توسل بالنبي لا بالعباس

أمثال باطلة ، لا تشهد لشيء مما ذهب إليه .

نعم ، نحن لا ننكر أنه قد يكون من أسباب التوسل بهذه الاشياء عند من يتوسلون بها لإضاقتها إلى من أضيفت إليهم ، فيكون من أسباب التوسل بأقارب الملك قرابتهم له ، ومن أسباب التوسل بمرضعة الابن إرضاعها للابن ، ومن أسباب التوسل بصهر الأخ مصاهرته للأخ : قد تكون هذه الإضافات من الأسباب ، أو تكون هي الأسباب في توسل من توسل بالاشياء المذكورة ، ولكن ليس معنى هذا أن التوسل بأقارب الملك توسل بالملك ، وأن التوسل بمرضعة الابن توسل بالابن ، وأن التوسل بصهر الأخ توسل بالأخ . وإنما غاية هذا الالتفات إلى السبب وإلى الاضافة . وهذا نسلمه ونسلم أن التوسل بالعباس توسل بالعباس نفسه ، وأن من أسباب التوسل به قرابته لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقر به منه مع كبر سنه ، مع صلاحه وتقواه ودينه وفضله وجلالة قدره هي أسباب التوسل به ، أى بشفاعته ودعائه . وغاية هذا أن تكون قرابة العباس للنبي من أسباب التوسل به . وهذا صحيح ، ولكن التوسل لم يخرج عن أن يكون توسلا بالعباس بلا ريب . ومثل هذا أنه يجب على المسلم أن يكرم أقارب النبي وأولاده ومن لهم به صلة نسب وقرابة ، ويجب أن يحبهم وأن يحترمهم ، وإن كان أفرادهم لا يكرام والاحترام الواجب لأقارب النبي ولذريته لا يمكن أن يكرم به النبي بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . فاعطاء أقارب النبي الأموال والمغانم وأنواع التجارات واجب عند الشيعة لقرابتهم من النبي ، مع أنه لا يصح إعطاء النبي شيئا من ذلك بعد وفاته . وكذلك استفتاء أولاد النبي المصومين عند الشيعة واجب في حياتهم ، واستفتاء النبي بعد وفاته لا يجوز إجماعاً . وكذلك يقال في التوسل بالعباس هبوا أن سببه قرابته من النبي ، وهبوا أنه لا سبب له غيره : هبوا هذا كماه صحيحاً فإنه لا يدل على جواز التوسل بالنبي الذي هو سبب

لماذا توسلوا
بالعباس

التوسل بالعباس بلا ريب ولا خلاف . ونظير هذا أن تكرم صديق أبيك لأنه صديق أبيك ، لا تكرمه لشيء غير ذلك ، ولكنه لا يصح لك أن تكرم أباك بدميته أنواع الاكرام انى تكرم بها صديق أبيك . وقد تبرر إنساناً لأن ذاهباً عزيزاً عليك كان يبره ، ثم لا يجوز لك أن تبر عزيزك الذاهب ذلك البر الذى تقدمه لذلك الانسان ، كما تبر أقارب النبي لقربهم من النبي ، ثم لا يجوز لك أن تبر النبي نفسه ذلك البر الذى تبره أقاربه . وهذه أشياء لا ينازع فى شيء منها من عرفها :

أما قوله : « إن عمر خص العباس بالتوسل به لإظهار شرف أهل البيت النبوى » وليبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل لأن علمياً كان موجوداً . وكان أفضل من العباس « فيقال فى الجواب : لو كان غير شيعى قاله . ثم هو قول لا طائل تحته وادعاء مجرد من العلم والبرهان والكتاب ، فلا يحتل به . ثم هو ظن بحت ، وقد ذم الله الظن والظانين فى كتابه . ولو كان صحيحاً زعمه أن عمر ماتوسل بالعباس إلا لإظهار شرف بيت النبي لكأن هناك وسيلة أخرى لإظهار هذا الشرف أولى وأظهر من هذه الوسيلة ، وهى أن يقول عمر ذلك قولاً ويصفه وصفاً . فيقول مثلاً : إن أهل البيت النبوى أشرف الخلق وأكرمهم على ربهم وعلى خلقه ، ويقول : إن لهم من الشرف والمجد والفضل ما مقداره كيت وكيت . وبمثل هذا يعرف شرفهم وقدرهم أكثر وأظهر -

علم يراه
إظهار شرف
آل النبي

ولو كان هذا الذى ذكره وزعموه صحيحاً لتوسل بالحسن أو بالحسين ، أو لتوسل بهما مع العباس ، أو لتوسل بآل النبي جميعاً : بالعباس وبالحسن والحسين . وقاطمة وعلى ورقية وأم كلثوم وابنه عليه الصلاة والسلام إبراهيم وبغيرهم من أقارب النبي الأحياء والأموات ، لأن المراد فى ما زعموا إظهار شرف البيت النبوى ، وهذا الذى ذكرناه أقوى وأبلغ فى إظهار شرفهم ومالهم عند الله .

الفضائل والمكائات . أما التوسل بالعباس فلا يدل على شيء من هذا ، ولودل
لكان خفي الدلالة فاضها جداً .

على أن من القبيح الفاضح الواضح الذي لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يترك
عمر بن الخطاب ويترك الأصحاب معه نبيهم ﷺ ، وينصرفوا إلى عمه العباس
لأجل إظهار شرف العباس وشرف أقربيه .

الدلائل على
بطلان التوسل
بالعباس مع
امكان التوسل
بالنبي

والذي يدل على بطلان هذا الزعم أن النبي عليه السلام لو كان حياً لما أمكن
أن ينصرفوا عنه إلى سواه لهذا الغرض وهو غرض إظهار شرف المعدول إليه ،
المتوسل به . ولا ريب أنه لو كان الغرض إظهار شرف العباس وشرف أقاربه
بهذا التوسل لكان من الصحيح ومن الحسن الجائز أن يتركوا النبي في حياته
وأن يتوسلوا بالعباس ، أو يأتموا به في الصلاة ، أو يستفتوه مع وجود رسول الله وفي
حضرته وحضوره ، لأجل أن يظهر شرف العباس وشرف غيره من أهل النبي
وأهل بيته . ولا شك أن فعل هذا في حياة النبي أدل على إظهار هذا الذي
زعموه وزعموا أن إظهاره هو الغرض من التوسل بالعباس ومن ترك رسول الله .
ولكننا نعلم بالضرورة والبداهة الواضحة أن المسلمين لا يمكن أن يتركوا نبيهم مع
وجوده وحضوره وأن يعرضوا عنه وعن التوسل به ليتوسلوا بالعباس أو بغيره من
أهله وآله إظهاراً لشرفهم وتقرباً له وإقراراً به .

على أن هنالك طريقة لإظهار شرف بيت النبي أوضح وأحسن من هذه
الطريقة لو صدق القوم في ما قالوا وزعموا . هذه الطريقة هي أن يتوسلوا بالعباس
مع توسلهم بالنبي عليه السلام ، فيقرنوا بينهما فيقولوا مثلاً : اللهم إنا نتوسل إليك
بليبينا وبعم نبيينا وبآل بيت نبيينا ، كما يقولون : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد
وبارك على محمد وعلى آل محمد وأمثال ذلك . ولا خلاف أن هذه الطريقة أقرب
إلى بيان هذا الغرض الذي ادعوه مع المحافظة على التوسل بالنبي والاستسقاء به

على أن هذا الغرض الذى زعموا أنه هو الحامل لعمر على التوسل بالعباس
يعارضه أمر آخر يجب تلافيه ورعايته . هذا الأمر هو أن التوسل بالعباس دون
النبي يوم أن التوسل به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته لا يمكن ولا يجوز . . . : فإذا
أمكن أن يتوسلوا بالعباس لإظهار شرفه وشرف أهل بيته فلماذا لم يتوسلوا بالنبي
السلام يظن أن التوسل به بعد الموت وفى قبره لا يجوز ولا يمكن شرعاً ودينياً ؟
ولارىب أن ملاحظة هذا أولى من ملاحظة ذاك ، وأن دفع هذا الإيهام أولى
من إظهار ذاك الغرض .

ثم إن بيان شرف العباس وشرف آل النبي ليس متروكاً إلى عمر ولا إلى
غيره من الصحابة أو غيرهم . وإنما بيان ذلك إلى الله وإلى رسوله .

ثم كيف يستقيم للرافضى هذا القول والرافضة يزعمون أن عمر بن الخطاب كان
من أشد الناس خصومة وعداوة لآل النبي ، وكان من أشدهم حرباً عليهم
وإيذاء لهم واغتصاباً لحقوقهم وإخفاء وجودها ووقفاً في سبيلهم ، ويزعمون
أنه هو الذى سلبهم حقهم الذى أنزله الله في كتابه ، وهو الذى أخرهم وأزالهم
عن مكانهم وشرفهم المعلوم الواجب بمبادرته إلى مبايعة الصديق وتثبيت خلافته
والخلافة من حقهم الذى نزل في الكتاب وتواتر في السنة ، ويزعمون أنه كان على
اتفاق مع أبي بكر في هذه القضية الجائرة ، وهذه الجريمة المنكرة ، ليكون الخليفة من
بعده ، وليكون شريكه في المقم والصقعة . . . فإذا كان عمر عندهم بهذا المكان
السحيق من الخصامة والمداوة لآل النبي فكيف يقال هنا : إنه كان يتوسل
بالعباس ليظهر شرفه وشرف هذا البيت الذى مازال يحاربه وينأوئه ، والذى
مازال سداً منيعاً قوياً بينه وبين نيله حقه المنزل في وحى الله ، والذى مازال
يؤيد أعداءه عليه حتى أظهرهم عليه ، حتى استطاعوا أن يقتلوا جميع الأئمة
المعصومين منهم وهم اثنا عشر إماماً ما خلا محمد بن الحسن الامام المهدي الثاني

وعمر منسدم
كان خصماً لآل
النبي وهذا يطل
قولهم هنا

عشر المنتظر المختفى منذ ولد سنة ٢٥٥ من الهجرة إلى اليوم وإلى الأبد . وذلك
 أن الشيعة تزعم أن جميع الأئمة المعصومين من ولد علي وفاطمة قد ماتوا قتلا
 ما عدا المهدي المختفى : أما علي والحسين فمعلوم أمر مقتلهما . وأما الباقر - وهم
 الحسن ، وزين العابدين ، والباقر ، والصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ،
 ومحمد الجواد ، وعلي الهادي ، والحسن العسكري - أما هؤلاء فقتلوا جميعاً غيلة
 بالسم في ما تزعم الشيعة . فالأئمة المعصومون كلهم عندهم قد قتلهم أعداؤهم
 المسلمون ما خلا المختفى فراراً من القتل . وهم يزعمون أن جميع هذه المصائب التي
 أحاقّت بأهل البيت النبوي مرجعها ومصدرها الأقوى الأعلى عمر بن الخطاب ،
 لأنه هو الذي ساعد الصديق وعاونه على انتزاع هذا الأمر - وهو الخلافة
 والامامة - من أيديهم . وكل هذه المصائب والمظالم منشؤها وضع الخلافة أولاً في
 يدى أبي بكر الصديق ، والذي وضعها أولاً في يديه هو عمر بن الخطاب . ولهذا
 يزعمون أن الذي قضى على الشيعة وعلى أئمتهم بالتأخر هو عمر وحده ، وهم لذلك
 يخصونه بمزيد العداوة وعنيفة الخصومة وقوى السباب .

فاذا كان هذا كله صحيحاً لدى الشيعة فأنى يزعمون هنا أن عمر كان يحتال
 لإظهار شرف هذا البيت النبوي الذي أذاقه كل هذا البلاء والهوان .

وهنا نقول : إن الشيعة تكذب في زعمها أن جميع الأئمة المعصومين
 المذكورين قد قتلوا غيلة بالسم ما خلا علياً والحسين والثاني عشر المختفى ..
 والبرهان القاطع على كذبهم في هذه الدعوى أنهم يعترفون بأنه لم يمّت أحد من
 هؤلاء الأئمة شاباً ما عدا محمداً الجواد ، بل ماتوا كلهم باعترافهم وقولهم بعد ما
 تجاوزوا حدود الشباب . فبعضهم مات في سن الستين ، وبعضهم مات في سن
 الخمسين ، وبعضهم جاوز ذلك ، وبعضهم لم يصل إليه ، ولكن لم يمّت أحد منهم
 عدا الجواد إلا بعد أن جاوز الأربعين . وهذه الحقيقة يعترفون بها ولا ينازعونها .

البرهان القاطع
 على كذب هذا
 الزعم

وهنا يقال لهم : لا ريب أن الملوك - أعنى خلفاء المسلمين كما يزعمون - لو كانوا هم الذين قتلوا هؤلاء الأئمة المعصومين اغتيالاً خيفة منهم ومن منازلهم إياهم الملك والخلافة لبادروا إلى قتلهم شاباً أقوى ملتهبين ، ولما صح أن يملوهم في الشباب ، وسن الفتوة والقوة ، وسن المغامرات والجنوح إلى المغامرات . فانهم في تلك السن ، سن الشباب والفتوة والقوة - أخطر ولا شك منهم بعد وأقوى وأنزع إلى الخروج وإلى الثورات ، وأشد على احتمال تبعات ذلك وأرزائه ومخاطره . وقد علم بالعادة الصادقة وبالتجربة المتكررة أن المخاطر أكثر ما تكون وأصلب ما تكون وأعنف ما تكون وأنجح ما تكون في سن الفتوة والشباب الطامح المغامر ، وعلم بالتجربة أيضاً أن الخصم أكثر ما يخاف خصمه وهو في ميعة الشباب وأحلامه قبل أن تمرى أفراس الصبا ورواحله . إذن لا شك أن الملوك والخلفاء لو كانوا يريدون اغتيال هؤلاء الأئمة ، أو لو كانوا قد اغتالوهم فمسلماً لا اغتالوهم في مطامع أعمارهم وفتوة حياتهم ، ولما جاز أن يملوهم جميعاً شاباً ثم يقتلهم جميعاً شيوخاً وكهولاً . فهذا يدل على كذب الشيعة في هذه الدعوى .

ولا يصح أن يقال : إن الملوك والخلفاء قد أمهلهم في سن الشباب لأنهم لم يكونوا يخافونهم ولا يرهبونهم إذ ذاك ، وإنما قتلهم بعد لاستكمالهم أسباب السيادة والقيادة والزعامة وشروط الإمامة ، وما كانوا كذلك وهم شبان : لا يصح أن يقال هذا القيل لأن الشيعة يزعمون أن الأئمة قد كلوا واستوفوا كل أسباب الفضائل وكل ما يليق بالسيد الإمام وبالخليفة المعصوم وهم شبان ، بل وهم أطفال ، ويستدلون لذلك بقول الله : « وآتيناه الحكم صبياً » . إذن القوم كاذبون على التاريخ وعلى المسلمين وعلى خلفائهم وعلى أئمتهم . وجازى الله الكاذبين . وهناك براهين أخرى لا يبطال هذه الدعوى ، ولكننا اكتفينا بهذا البرهان المادي القوي . على أن هذه الأعمار التي عمرها الأئمة أعمار عادية لمن كانوا مثلهم من

ذوى الطموح والنزوع إلى مالا ينال ومالا يمكن نيله ، ومن ذوى المشاعر المعذبة المتحرقة بطغيان ذلك العصر وظلمه ومفاسده كما تزعم الشيعة . فلا وجه إذن للقول بانهم لم يموتوا وإنما قتلوا واغتيلوا ، وهذا برهان آخر على كذب الدعوى .

هجرة وجوه ل
إعلان ما ذهبوا
إليه في التوسل
بالعباس دون
النبي

أما القول بانهم ماتوا بالعباس إلا لبيان جواز التوسل بالفضل مع وجود الفاضل فقول لا يصح أيضاً . أولاً لأنه لا دليل عليه ألبتة فلا يبالى به . ثانياً أن الذى يبين ذلك ليس هو عمر ولا غيره من الصحابة ولا غيرهم ، وإنما الذى يبينه الله ورسوله . وثالثاً لو كان هذا هو الغرض والسبب لقاله عمر قولاً ، ولكن فى هذه المسألة مقولاً أوضح منه . فمولاً . ورابعاً لو صح هذا لقرنوا بين التوسل بالنبي والتوسل بالعباس مثلاً فقالوا : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا وبعم نبينا بالعباس . فكانوا بهذا يجمعون بين الأمرين المطلوبين : بين المحافظة على التوسل بالنبي ، وبين بيان جواز التوسل بالفضل مع وجود الفاضل ، وهو على عثمان ، لأنهما أفضل من العباس المتوسل به . وخامساً إذا وجب أن يرعوا بيان هذه المسألة - أعنى جواز التوسل بالفضل مع وجود الفاضل - وجب عليهم أن يرعوا أمراً آخر ذابال . هذا الأمر هو أن توسلهم بالعباس وتركهم النبي يوم أن التوسل بالميت لا يجوز . فكان واجباً عليهم أن يعملوا لدفع هذا الإيهام إذا جاز أن يعملوا لبيان تلك المسألة ، مسألة جواز التوسل بالفضل مع وجود الفاضل ، أو كان يجب عليهم ألا يوقعوا فى هذا الإيهام فى سبيل بيان هذه المسألة ، إذ لا ريب أن ورود هذا الإيهام أعظم إثم من جهل هذه المسألة عندم ، لأنها فى ما يزعمون من الأمور التى أمر بها الكتاب ودعت إليها السنة . وسادساً لو كان هذا صحيحاً لجاز أن يتركوا النبي عليه الصلاة والسلام فى حياته وأن يتوسلوا وأن يستسقوا وأن يأتوا ويقتنوا بالعباس وبغيره من الناس ليبينوا أنه يجوز التوسل والاستسقاء والاقتداء بالفضل مع وجود الفاضل ، ولجاز أن يفعل ذلك النى نفسه ليبين المسألة لأنه هو الذى عليه

البيان والبلاغ . ولكننا نعلم بالضرورة واليقين والبداهة أن المسلمين وأن عمر وغيره من الأصحاب ما كانوا يتركون النبي ويتوسلون ويستسقون ويقتدون ويأتمون بغيره ليعلموا الناس أنه يجوز التوسل بغير الفاضل مع وجود الفاضل . ولا شك أن بيان الدين وبيان مسائله وشرائعه ، وأن التشريع والتقنين السماوي إنما كان في حياة النبي لا بعد وفاته وانسداد باب الوحي . فإذا لم يوجد هذا في حياة رسول الله - حينما كان التشريع قائماً و باب التنزيل والوحي مفتوحاً - لم يصح أن يوجد بعد وفاته و بعد أن وقف التشريع وقفل باب الوحي والتنزيل . والشئ الذي يكون كذلك لا يكون من الدين ولا من الشرع الذي أنزله الله . وسابغاً لا يصح أن يترك عمر ومن معه من المسلمين النبي ويتكوا سنته - وهي التوسل به ﷺ في الاستسقاء - ليعلموا الناس أن ذلك الذي فعلوه يجوز في الاسلام ودين الله . أن مثل هذا المنحى لم يمهّد من الصحابة ولا يمكن أن يمهّد . وثامناً التوسل بالفضل مع وجود الفاضل إما أن يكون لجوازه دليل شرعي يعلمه عمر والمسلمون الذين كانوا معه ، أو لا يكون له دليل شرعي . فان كان لذلك دليل يعرفه عمر ويعرفه الذين كانوا معه كان الواجب عليهم أن يبينوا ذاك الدليل الشرعي للناس ليعرفوا سنة رسولهم عنه . ولا شك أن المسلمين يرضون بقول نبيهم وفعله ويطمئنون بهما أكثر وأظهر من رضاهم واطمئنانهم بفعل عمر والذين كانوا معه . بل قد تشكك طوائف منهم في صواب كل ما يفعله عمر ومن وافقه . أما فعل النبي وقوله فلا يشك فيهما مسلم . فإيراد الدليل من فعل النبي أو قوله أحسن وأصدق وأقوى في بيان هذه المسألة وبيان سواها من فعل عمر بلا نزاع بين المسلمين . فلا يصح إذن اللجوء في بيان جواز التوسل بالفضل مع وجود الفاضل بفعل عمر دون اللجوء إلى ذكر قول رسول الله وفعله إذا كان معلوماً معروفاً . أما إذا لم يكن عمر والصحابة معه يملكون جواز ذلك من سنة رسول الله فلا يصح لهم ولا يمكن أن

بعية الوجوه
المعيرة

ينهبوا ليبينوا للناس جواز ما لا يعلمون جوازه من الدين ولا من سنة النبي الكريم . لأن محرومين معه من الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً لا يعرفون الدين إلا أنه المأثور عن النبي قولاً أو فعلاً أو رسالة يؤذيها عن جبرائيل عن الباري . أما غير ذلك فليس من الدين عندهم ولا مما يجوز بيانه ولا الذهاب إليه . فهذا القول الذي ذهب إليه المخالف في توجيه التوسل بالعباس دون رسول الله قول باطل سخي . وناسماً الذي يشترط في التوسل به في الاستسقاء أن يكون بحسب الدعوة ، قريباً من الله لصلاحه وفضله ، ولا يشترط فيه أن يكون أفضل الموجودين بالإجماع . فإذا فرض أن العباس بن عبد المطلب كان بحسب الدعوة أكثر من هو أفضل منه — وهذا لا مانع منه كما تقدم — كان الاستسقاء به أولى من الاستسقاء بعلي أو غيره ممن هم أفضل منه . والمخالفون لا يستطيعون أن يقيموا الدليل على أن علياً وعثمان وغيرهما كانوا بحسب الدعوة أكثر من العباس ، ولا يستطيعون أن يذكروا ما يمنع من أن يكون العباس يوم استسقى به أقرب إلى الإجابة والقبول من سائر الموجودين ولو كان في الموجودين من هم أفضل منه وأكثر مآثر وفضائل . وهذا الزعم الذي زعموه في توجيه الاستسقاء بالعباس قائم على أن الاستسقاء بعلي أو عثمان كان أولى من الاستسقاء به لظهور فضلها عليه . أما إذا فرض أن الاستسقاء به أولى من الاستسقاء بغيره لقرب دعائه من الإجابة والقبول ومن السماء فقد فسد هذا الزعم الذي زعموه . وذلك أن الناس لا يتنازعون ولا يشكون في أن الاستسقاء بمن هو أقرب إلى إجابة الدعاء أولى من الاستسقاء بمن هو دونه في ذلك ، وإن كان أكثر منه فضلاً وأجل قدراً . وهذا لا يحتاج المسلمون في معرفته إلى قلة عمر ولا فعل سواء لظهوره ووضوحه . فلا يمكن أن يكون التوسل بالعباس لهذا الغرض الذي لا يخفى على أحد . وعاشراً لو صدق هذا الذي ذكره لتوسلوا بالعباس تارة ليبينوا جواز التوسل بالمفضول مع وجود

الفاضل على ما ذكر المخالفون ، ولتوسلوا برسول الله تاراة بعد موته لأن التوسل به الصحيح المشروع أفضل وأولى وأدنى إلى الإجابة والقبول والعروج إلى الله ، ولما صح أن يتكرر توسلهم بالعباس ويستمر تركهم النبي والتوسل به بعد موته . والتكرار والاستمرار ظاهران من قول أنس راوى الحديث : « كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا استسقى بالعباس » . فان كلمة « كان » صريحة في أنهم فعلوا ذلك مرات ، وأنه قد كان من شأنهم ودأبهم . ولو فعلوا هذا لكان فيه جمع بين الفوائد كلها : بين بيان جواز التوسل بالمفضل مع وجود الفاضل ، وبين جواز التوسل بالميت ، وبين المحافظة على التوسل برسول الله وعدم الانصراف عنه . ولكن عمر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين قد واظبوا على الانصراف عن رسول الله وعن التوسل به بعد وفاته وواظبوا على التوسل بغيره من الأحياء . فكان السبب وكان الأمر — ولا بد — غير ما ذكر المخالف يقيناً .

على أنه لو كان صحيحاً ما ذكره لتوسلوا بأحد الأموات الناهيين مثل حمزة ابن عبد المطلب أو خديجة أو إبراهيم ابن رسول الله أو غيرهم من الأموات ليدلوا على جواز التوسل بالمفضل مع وجود الفاضل الحى . ولو فعلوا هذا لكان أجمع لأشتات الفوائد وأوضح في بيان المسألة من كل وجهها مع عدم الإيهام واللبس الذى ذكرناه وأشرنا إليه . وهذه أشياء لا تترك للتأويل الذى ذكره المخالفون منفذاً إلى الحق والصواب ، ولا متنفساً . والحمد لله على ذلك .

ومن أعجب ما قيل في توجيه الاستسقاء بالعباس قول بعض المحرفين من الخائضين في هذه الحقائق مع الخائضين : « أما توسل عمر بالعباس دون الرسول فلكون ذلك سنة الاستسقاء ولكون العباس من ذوى الحاجة ، أو لكون عمر أراد أن يبين للناس أنه يجوز التوسل بغيره عليه الصلاة والسلام لفضله أو قرابته أو لخوفه على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل ، أو ليدلهم

أجمع تأويل
لحديث التوسل
بالعباس دون
رسوله الله

على أن التوسل بالمفضول جائز مع وجود الفاضل . وإلا فلي أفضل من العباس وكذا عمر . . . » انتهى قول هذا القائل .

وهذه آراء في غاية السقوط والبطلان : أما الرأي الأول - وهو أنهم استسقوا بالعباس « ليكون ذلك سنة الاستسقاء » فيقال ماذا يراد بهذا ؟ أيراد أن من السنة أن يستسقى بالعباس دون النبي ودون غيره ؟ أم يراد أن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ؟ أم يراد أن من السنة ألا يستسقى بالنبي في صلاة الاستسقاء ؟ هذا ما يحتمل أن يراد بهذا الرأي الذي ذكره . وكل هذه الاحتمالات باطلة : أما الاحتمال الأول فباطل بالإجماع والضرورة والنص ، فقد أجمع المسلمون وجاء النص وعلم بالضرورة أنه يجوز ، بل يستحب الاستسقاء بأهل الصلاح والخير والدين في حياة العباس وبعد وفاته وقبل وجوده وفي كل وقت . فالقول بأن من السنة الاستسقاء بالعباس دون النبي ودون غيره قول باطل بالإجماع والضرورة والنص ، وباطل بالحديث المذكور نفسه . وذلك أنه قيل فيه : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » . فهم إذن كانوا يتوسلون أى يستسقون بالنبي عليه السلام إذا ما أجذبوا . وهذا مالا يختلف فيه المسلمون ، بل الاختلاف فيه عندهم من أين الخطأ والجهل .

وأما الاحتمال الثاني وهو القول بأن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات فيقال : نعم هذا حق ، وهذا هو ما نقوله ، وهذا هو ما دل عليه الحديث المذكور وما دل عليه الدين : بجملة وتفصيله ، ولكن يجب عليهم أن يعرفوا لماذا كان من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ، ولماذا لا يجوز الاستسقاء بالأموات إذا كان يصح دعاؤهم ، وكان يمكن أن يسمعوا دعوة من دعاهم ، وكان يمكن أن يدعوا لمن طلب منهم الدعاء ؟ المخالفون يقولون : إن من الدين ومن السنة التوسل بالأموات وطلب الدعاء والشفاعة منهم ، ويقولون : إنه لا فرق بين

بيان بطلان هذا
الثاني ويل
والوجود لله
يحتملها

الأحياء والأموات في باب التوسل والاستشفاع وطلب الدعاء ، ويقولون : إن كل ما يصح أن يرجى وأن يطلب من الأحياء يصح أن يرجى وأن يطلب من الأموات . ويحتجون لجواز الاستغاثة والاستعانة بالموتى بجواز الاستغاثة والاستعانة بالأحياء ، ويقولون : إذا جاز أن نقول للحي أغثنا جاز أن نقول للميت أغثنا . وإلا كنا مخطئين خالطين ، لأن في التفريق بين الأحياء والأموات في الدعاء والسؤال والطلب تفرقا بينهما في القدرة والاستطاعة والعمل ، وهما لا فرق بينهما في أن الكل لا يستطيع أن يوجد وأن يحدث ، وأن يضر وأن ينفع ، وإنما يستطيع أن يذبح وأن يشفع . وهذا لا فرق بين الحي والميت فيه ، فالحي والميت عاجزان عن الإيجاد والإحداث وعن الضر والنفع ، قادران على الشفاعة والدعاء والرجاء ، فلا فرق بينهما في شيء من الأشياء . هذا كله يقوله المخالفون .

فإن صدقوا فيما قالوا هنا لم يصدقوا في قولهم : إن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ، وإذا صدقوا في هذا لم يصدقوا في ذاك . ذلك أنه يقال لهم : من أين علمتم أن من السنة الاستسقاء بالحي دون الميت ؟ فإن قالوا : علمنا ذلك من فعل عمر ومن معه ، ومن استسقاهم بالعباس دون النبي ، إذ لو كان من السنة الاستسقاء بالميت لما عدلوا عن النبي إلى العباس ولا إلى غيره من الناس ، قلنا لهم : وأيضا قد صح أن عمر وسائر الصحابة كانوا يطلبون الدعاء من الأحياء بعد موت النبي ، وما جاء في رواية صحيحة أن عمر أو غيره من أصحاب وقفوا بقبر النبي أو بقبر غيره طالبين منه الدعاء والاستغفار أو غير ذلك ، كما لم يصح أنهم استسقوا به عليه السلام بعد موته فقولوا إن من السنة أن يطلب الدعاء والشفاعة من الأحياء دون الأموات ، أو إن من السنة ألا يدعى الميت والأحيا يطلب منه شيء : لا دعاء ولا شفاعة ولا إغاثة ولا إغاثة ولا شيء من هذه المطالب التي يطلبون بها سكان القبور .

تصحيح الإبطال
فذكره

وأما إن قالوا: إن نصوص الدين هي التي دلت على أن من السنة أن يستسقى بالحي دون الميت قلنا لهم : إن كل نص يدل على ذلك يدل كذلك على أن من السنة دعاء الأحياء والاستشفاع بهم دون الأموات . فإنهم إذا قالوا : إننا وجدنا المسلمين في حياة النبي وبعد وفاته يستسقون ويتوسلون إذا أجذبوا بالأحياء دون الأموات ، وما علمنا أنهم توسلوا بميت ولا استسقوا به ، وهذا يدلنا على أن التوسل بالميت من الخلاف على الدين وعلى السنة ، قيل لهم : وكذلك وجدنا المسلمين في حياة النبي وبعد مماته يدعون الأحياء ويطلبون منهم ما يقدرون عليه عادة ، ويسألونهم الدعاء والشفاعة ، وما علمنا أنهم ذهبوا إلى قبر يدعون صاحبه ويسألونه الفوت والمدد أو الدعاء والشفاعة ، فدل ذلك على أن دعوة الموتي ليست من الدين ولا من السنة . فإن قالوا : قد جاءت روايات في دعاء الأموات والاستشفاع بهم ، قيل لهم : وكذا قد زعمتم أنه قد جاءت روايات في الاستسقاء بالميت عند الجذب كما في الرواية المذكورة عن مالك الدار خازن عمر ، وقد تقدمت الرواية وتقدم الكلام عليها . فنأين علمتم إذن أن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ؟ وكيف يكون من السنة دعاؤهم والاستشفاعة بهم وسؤالهم ضروب الحاجات في جميع الأوقات وعلى كل حال ، إلا عند الجذب وعند الرغبة إلى الله ، لينزل غيثه على عباده الأزلين ؟ وهل يعرف مثل هذا في العقل أو في الشرع ؟ وكيف يكون من السنة الواضحة لديكم التوسل بالنبي في كل وقت ولدى كل حاجة وعلى كل حال ثم لا يكون من السنة التوسل به حين القحط ؟ وهل لهذا نظير في الشرعيات أو في العقليات ؟ وكيف يعتقد أصحاب النبي : عمر ومن معه أن التوسل بالنبي سنة في كل وقت وعند كل حاجة وكل رغبة إلا عند ما يجذبون فيرغبون إلى الله لكشف الجذب ؟ وهل يستسيغ هذا الشرع أو العقل ؟ وكيف يدأب أصحاب النبي على دعاء النبي وعلى التوسل به وعلى سؤاله

هذا لا يعقل ولا
يصح مثله في
الشرع

ضروب الحاجات والشفاعات ، كما تدعون ، ثم لا يفعلون شيئاً من ذلك حين الاستسقاء وحين طلب الفيث ؟ ؟

وقد تصاغ هذه الأسئلة بعبارات أخرى كأن يقال : لماذا استسقى الصحابة بالعباس ولم يستسقوا بالنبي ؟ فان قالوا : لأن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ، قيل لهم : ولماذا كان من السنة أن يستسقى هؤلاء دون هؤلاء ؟ إن السؤال لا يزال قائماً . وقيل لهم ثانياً : من أين علمتم أن من السنة الاستسقاء بالحى دون الميت ؟ إن قالوا من فعل عمر ، قلنا لهم : ولماذا استسقى عمر بالحى المفضل دون الميت الفاضل ؟ إن السؤال لا يزال قائماً أيضاً . فما الجواب ؟ فان قالوا : لأنه لو كان من السنة الاستسقاء بالميت لما عدلوا عن النبي إلى العباس ولا إلى غيره ، قيل لهم : ولماذا عدلوا عن النبي إلى العباس ؟ إن السؤال لا يزال باقياً أيضاً . فاجابوه ؟ فان قالوا : لأن النبي وأصحابه لم يستسقوا بميت قط وهذا يدلنا على أن من السنة ألا يستسقى بالميت ، قيل لهم : وكذلك لم يثبت أن النبي وصحابته دعوا . ميتاً ولا استشفعوا به ولا سألوه حاجة قط ، وهذا يدلنا على أن من السنة ألا يدعى الأموات ، فما الجواب ؟ على أن هؤلاء غير صادقين في مقاتلهم هذه . وذلك أنهم يدعون الموتى لكل شئ : يستسقون بهم ويستشفعون ويستشفون ويسألونهم كل شئ كما يقولون وكما يفعلون .

نعم حق وصدق أن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الموتى ، وهذا لأن الدين والسنة يحرمان دعوة الأموات مطلقاً في الاستسقاء وغير الاستسقاء كما تقدمت الدلائل . ولو كان من السنة سؤال الأموات غفر الذنوب ، وهداية القلوب وسؤالهم الدعاء والشفاعة لكان من السنة أيضاً سؤالهم السقيا والفيث بالضرورة والاجماع ، أو لو كان من السنة أن يتوسل بهم في الاستعداد على الناس وفي طلب إحياء فلان وفلانة ، وشفاء فلان وإسقام فلان ، وفي طلب التزيج والتحويل

والإعانة في كل الأمور لكان من السنة أيضاً التوسل بهم في طلب السقيا وفي طلب الغيث والمطر بالاجماع والبداهة .

. وأما الاحتمال الثالث وهو أن يراد أن من السنة ألا يستسقى بالنبي في صلاة الاستسقاء فهو احتمال باطل بالاجماع والنص والضرورة أيضاً . أما إن أريد به أن الاستسقاء بالنبي عليه السلام من غير السنة بعد موته لأن الميت لا يستسقى به فهو راجع إلى الاحتمال الذي قبله .

وأهم الثاني
موجبه الخبر
وبطلانه

وأما الرأي الثاني في توجيه الخبر - وهو أنه استسقى بالعباس لأنه كان من ذوى الحاجة إلى المطر - فالجواب أنه رأى باطل لأنه أولاً لم يذكر دليلاً واحداً على أن العباس كان في حاجة إلى المطر، وكثيراً ما تجذب الدنيا ويظل كثير من الناس في غنى وسعة من العيش والثراء ، لا يحسون الحاجة ولا الجذب . وثانياً ليفرضوا أن العباس حقا كان في غاية من البؤس والاحتياج إلى الغيث فما دخل هذا في التوسل به دون التوسل بالنبي عليه السلام في طلب السقيا ؟؟ أيظنون أن الاستسقاء بالعباس أقرب إلى الإجابة وإلى إنزال الغيث لأنه محتاج من الاستسقاء بالنبي لأنه ليس محتاجاً إلى ذلك ؟ إن كان هذا هو ما يظنون فقد ظنوا ظناً كبيراً وظنوا ما لا يظنه مسلم . إذ لا يختلف المسلمون في أن الاستسقاء المشروع برسول الله أفضل وأقرب إلى الجدوى والاعطاء من الاستسقاء المشروع بغيره كالعباس وغيره . ولعله قد انسرق إلى أوهامهم أن التوسل بالعباس كان أولى لأنه كان محتاجاً والمحتاج لا بد أن يخلص في دعوته واستسقائه . وأما النبي فلا يلزم أن يخلص في ذلك إذ لا حاجة تحمله على الإخلاص . وإذا كان هذا هو ما انسرق إلى أوهام القوم فقد أصيبوا في دينهم قبل أن يصابوا في عقولهم . نعم ليفرضوا أن العباس كان في غاية الحاجة وفي غاية الفقر ولكن لما ذا توسلوا به في الاستسقاء ولم يتوسلوا بالنبي ، ونحن وهم متفقون على أن التوسل المشروع برسول الله أفضل

وأجدي وأقرب إلى الاجابة من التوسل الم شروع بالعباس وبجميع الناس ، ونحن
 وهم والعقلاء جميعاً متفقون على أن الاستسقاء بمن استسقاؤه أقرب إلى القبول
 والاجابة أولى وأحجى من الاستسقاء بمن استسقاؤه أبعد عن القبول والاجابة ،
 بل ونحن وهم والعقلاء جميعاً متفقون على أن الصحابة كانوا في استسقاتهم وتوسلهم
 يتوخون الأفضل الأقرب إلى رضا الله وإلى غيظه وسقياه . فلماذا عدلوا عن
 النبي ونحن وهم والناس جميعاً متفقون على أن المحتاج الطالب لابد أن يمت إلى
 حاجته بأقوى الأسباب وبأفضلها إن لم يمنع من ذلك مانع ، ونحن وهم والعقلاء
 جميعاً متفقون على أنه لا مانع يمنع عمر و يمنع الصحابة معه من أن يتوسلوا بذيبيهم
 إذا كان ممكناً التوسل به في قبره ؟ هذه الأسئلة لابد أن تبقى بلا أجوبة ماداموا
 يقولون بجواز التوسل بالنبي بعد مماته . وقد خفي على هؤلاء أنه كان من الممكن
 الجمع بين التوسل بالعباس المحتاج وبين التوسل بالنبي غير المحتاج ، لو كان التوسل
 بالميت جائزاً ممكناً . وخفي عليهم أيضاً أنهم كانوا كلهم يستسقون : العباس وعمر
 والجميع ، وإنما كان العباس كالإمام لهم في استسقاتهم .

ولو كان هذا الذي ذكره صحيحاً لتوسلوا بأعظم الناس حاجة وبأكثرهم
 وأظهرهم بؤساً وفقراً إذا كان للاحتياج والفقر والبؤس دخل في هذا التوسل وهذا
 الاستسقاء . ولتوسلوا أيضاً بأعظم الناس حاجة وفقراً في حياة النبي وبعد وفاته ،
 ولتوخي المسلمون دائماً أهل الفاقة والحاجة في توسلهم واستسقاتهم . ولقال العلماء :
 « ويستحب أن يستسقى بأهل الفاقة والحاجة والفقر المدقع » لا أن يقولوا :
 « ويستحب الاستسقاء بأهل الصلاح والدين والتقوى » . ولو صدق هذا الذي
 ذكره لكان توسل أحدهم بأحد أهل بيته المحتاجين أفضل عندهم وأولى من
 التوسل بالنبي وبأعظم الأولياء والمشايخ قدراً وجاهاً . ولكن كلا فان هؤلاء
 لا يفكرون في التوسل بالمحتاجين من أولادهم وأهلهم ، وإنما يترا كضون إلى أهل

ولو صح ما
 ذكره لتوسلوا
 بأهل الناس

لأن ضريحه والقبور البادية على قبورهم مظاهر الفنى والتعيم والثراء ، باسطين إليهم
أ كف الرجاء ، وأ كف الحاجة والذل والسؤال عند كل ملّة . وما توسلوا بأولادهم
ولا بمن هم محتاجون مثلهم ، كما توسل عمر بالعباس لأنه كان من ذوى الحاجات
وترك النّبي عليه السلام لأنه لم يكن محتاجاً .

ولو صح أيضاً هذا الذى ذكره لكان من السنة تقديم الفقراء والمحتاجين فى
كل عمل يراد به رزق الله ويراد به عطاؤه ومنه . ولكن لا يختلف المسلمون فى أن
السنة تقديم الأفضّل الأبرّ الأصلح الأقرب من الله .

ذهبهم أنهم
توسلوا بالعباس
ليبين جواز
التوسل بغير
النّبي . ويؤكد
بطلانه

وأما الرأى الثالث - وهو أن يكون عمر قد توسل بالعباس ليبين للناس
جواز التوسل بغير النّبي عليه الصلاة والسلام - فجوابه أنه رأى باطل فاسد أيضاً
لذلك أنه لا يشك مسلم فى جواز طلب الدعوة والشفاعة - وهذا هو التوسل هنا -
عن كل صالح بر . ولو لم يتوسل عمر بالعباس لما شك أحد من المسلمين فى جواز
هذا التوسل المشروع بأهل الخير والصلاح والدين بغير النّبي عليه السلام ، ولما
قال أحد من أهل الإسلام : إن التوسل - على هذا المعنى الذى ذكرناه - لا يجوز ،
أو يكره أو لا يستحب . فالمسلمون جميعاً لا يمكن أن يتنازعوا فى جواز الاستشفاع
وطلب الدعاء من الصالحين الأبرار الأحياء . فلا يمكن أن يكون عمر إنما أراد أن
يبين جواز ذلك ، ولا يمكن أن يكون قد شك فى معرفة المسلمين بإياه ومعرفتهم
جوازه ، أو شك فى احتياجهم إلى بيانه وعلمه . فلا يصح هذا الذى ذكره المخالفون
فى توجيه الخبر .

ويقال ثانياً : إن بيان هذه الشئون والمسائل ليس إلى عمر ولا إلى غيره من
أفراد الأمة . وإنما بيانها إلى الله وإلى رسوله .

ويقال ثالثاً : لو صح هذا الزعم لتوسلوا بالعباس وبغيره من الناس فى حياة
النّبي عليه الصلاة والسلام ، بياناً لهذا الجواز .

ويقال رابعاً : لو كان هذا هو الغرض لتوسلوا بالعباس تارة وبالنبى تارة
ليجمعوا بين فضيلة التوسل بالنبى وبين بيان جواز التوسل بغيره عليه السلام
ولكن لم يصح أنهم توسلوا بالنبى بعد وفاته .

ويقال خامساً : لو صح هذا لقرنوا بين النبى وبين العباس وغيره فى التوسل
ولقالوا : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا وبعم نبينا مثلاً ليعلم هذا الجواز ولتحرر
فضيلة التوسل بسيد البشر ﷺ .

ويقال سادساً : لو كان هذا صحيحاً لقاله عمر قولاً وصرح به تفسيراً ، ولكان
مقولا أوضح منه مفعولا .

ويقال سابعاً : إذا صح لعمر وللصحابة معه أن يتوسلوا بالعباس لبيان جواز
التوسل بغير رسول الله عليه السلام وجب عليهم أن يتوسلوا برسول الله ميتاً
لبيان جواز التوسل به فى قبره ، أو إذا صح لهم أن يلحظوا الرغبة فى بيان جواز
هذه المسألة ، وجب عليهم أن يلحظوا أن توسلهم بالعباس مع صدوقهم عن النبى
عليه الصلاة والسلام يوم أن التوسل به عليه السلام فى قبره لا يجوز ولا يشرع .
وهذا الإيهام محذوراً أعظم من ذلك الجواز مرغوباً فيه .

ويقال ثامناً : لو كان هذا هو الغرض حقاً لتوسلوا بأحد الأموات الذاهبين
كحمزة أو جعفر أو فاطمة ابنة محمد عليه السلام أو إبراهيم ابن رسول الله أو غيرهم
من الأموات ولومرة واحدة ، ليتلوا على جواز التوسل بغيره ﷺ ، وليدلوا أيضاً
على جواز التوسل بالأموات ، وليدفعوا توهم أن التوسل بالموتى لا يجوز ولا يشرع .
ويقال تاسعاً : إما أن يكون لدى عمر بن الخطاب دليل شرعى على
جواز هذا الذى زعم المخالفون أنه أراد بيانه ، أو لا يكون لديه دليل شرعى عليه .
فإن كان لديه دليل كان الواجب شأيه بيان ذلك الدليل وذكره ليعلم هذا الحكم
من مصدره الأصلى الأول الصحيح . وهو قول الشارع وفعله . وليس من الرأى .

الصحيح ولا من الحكمة أن يحاول عمر أو غيره من الصحابة أو غيرهم من المسلمين والأئمة المتبعين بيان حكم من الأحكام الشرعية بعمله وفعله هو . فان أحداً من من الناس - كائناً من كان - لا يمكن أن يحاول بيان أحكام الله وأحكام شرعة نبيه بفعله وعمله إن لم يكن أحد أنبياء الله ورسله . ومن حاول ذلك فليس على هدى من الله . وذلك أنه لا معصوم في قوله أو في فعله من البشر سوى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام . ومن ليس بمعصوماً لا يصح أن يتخذ فعله أو قوله حجة من الحجج ، ولا يصح أن يعتد به أن فعله برهان من براهين الله وبراهين شرائعه . هذا إذا فرض أن لدى عمر دليلاً شرعياً على جواز هذا الذي أراد بيان جوازه في مازعم المخالفون . وأما إذا لم يكن لديه دليل فلا يمكن أن يحاول بيان جوازه . وإذا حاول لم يصح أن يتبع في ما لا دليل عليه . فهذا التوجيه الذي ذكره في الخبر توجيه باطل -

وأما الرأي الرابع - وهو أن يكون عمر إنما توسل بالعباس دون النبي خيفة ^{زمهم أنهم توسلوا بالعباس خيفة على ضيق المسلمين وبطلانه} على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل به عليه السلام فهو من أبطال الآراء وأسخطها . وبيان ذلك بأمور :

أولها - : أن في هذا الرأي إساءة ظن بالمسلمين الأولين ، واتهاماً فظيماً لخير القرون ولأفضلها بما لا يصح أن يتهم به من توطنت في صدره جرائم الإيمان والاسلام . وفيه أيضاً اتهام لعمر بأنه كان يتهم الصحابة والتابعين - وهما خير القرون - ويسئ الظن بهم ، ويخاف عليهم إذا توسلوا بالنبي فلم يجابوا أن يرتدوا . ويضلوا ، أو يضعف اعتقادهم وإيمانهم بالله وبالنبي . وهذا من شر الاتهام وشر المقادح في أوائل المسلمين الذين هم خير القرون وأفضلها وأتقها وأصلحها وأبرها . وكيف يمكن أن يخاف على أولئك المسلمين إذا توسلوا بالنبي فلم يعطوا ونحن نشاهد هؤلاء الجهال من عامة المسلمين يدعون المشايخ والصالحين ، وهم لا يجيبونهم طبعاً .

ومع هذا لا يزدادون إلا عكوفاً على قبورهم ، وتملقاً بدعائهم ، ولهجاً بأسائهم ، وانقطاعاً إليهم . وما ضف إيمانهم بهم ، ولا تزلزل اعتقادهم بأنهم يجيبون وينفون إذ لم يجابوا ، إذ لم يلتفتوا بدعائهم شيئاً . فكيف يمكن أن يظن أن عمر بن الخطاب كان يخاف على الصحابة وعلى التابعين الضلال أو الارتداد أو نقصان الإيمان إذا توسلوا بالنبي التوسل المشروع فلم يجابوا ؟ اللهم إنا نعوذ بك من هذا الرأي وهذا الظن الآثم .

وثانيها — : كيف يمكن أن ينقح في ذهن عمر أنهم إذا توسلوا واستسقوا بالنبي عليه الصلاة والسلام لا يجابون ولا يعطون ولا يسقون وهو يجدهم يتوسلون ويستسقون بالعباس فيجابون ويعطون ويسقون كما في الحديث المذكور ، وقد قال أنس بن مالك راويه : إن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون . فإذا كان عمر يرام يستسقون بالعباس فيجابون ويسقون ، فكيف يخاف أن يستسقوا برسول الله فلا يجابوا ، ولا يسقوا ؟

سنة وجوه تبطل
هذا الزعم القبيح
ومحواه

ثالثها — : لو صح هذا لتركوا التوسل بالنبي عليه السلام في حياته ، ولتركوا التوسل بسائر الأنبياء ، بل ولتركوا دعاء الله والضرعة إليه وسؤاله والطلب منه خيفة الضلال والارتداد وضعف الإيمان إذا لم يجابوا ويعطوا ولتركوا عبادة الله مطلقاً لئلا يكون في عبادته فتنة أو ردة أو سوء ظن به تعالى إذا أصيب عابده بشيء من الامتحان ، ومصائب الدنيا ، وبأنواع من الابتلاء . وهذا لا يقوله مسلم ولا مؤمن بالله . فإن الناس لا يختلفون في أن دعاء الله وسؤاله والضرعة إليه وعبادته أنواع العبادات أشياء واجبة على الجميع كائنة أحوالهم ما كانت . ولا يختلفون أنه لا يجوز اجتناب التوسل بالنبي وسائر الأنبياء التوسل المشروع الصحيح خيفة هذا الذي ذكره .

رابعها — : إن نص الخبر نفسه يكذب هذا الوهم : وذلك أن عمر قد قال فيه : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا » . إذن هم كانوا يتوسلون بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وإذن هم كانوا يدعون التوسل به خيفة الضلال والفتنة عند تأخر المطر ، وإذن ما كان عمر ولا كان غيره يخاف هذا الذي ذكروا أن عمر خافه ، وإذن هذا الرأي رأى مرغوب عنه مهجور .

خامسها — : لو كان حقاً هذا الذي ذكروه وزعموه لكان من الحق والهدى ، ومن الاقتداء بعمر والصحابة أن يجتنب المخالفون اليوم وقبل اليوم التوسل بالنبي ودعائه والاستغاثة به واستشفاعه والمكوف على قبره خيفة على أنفسهم وعلى من يقتدون بهم من العامة والجهلاء ذاك الذي خافه عمر بن الخطاب على الصحابة والتابعين ، خيفة أن يضلوا وأن يرتدوا وأن يضعف إيمانهم واعتقادهم إذا لم يجابوا ويعطوا ، ولكان من الصواب والهدى نهى المتوسلين ، ونهى المخالفين اليوم عن ذلك خيفة عليهم من الضلال والارتداد . ولكن المخالفون لا يوافقون على شيء من هذا ، بل يزعمون أن التوسل بالنبي في قبره من أفضل القربات وأقربها إلى الله ، وهم لا يدخرون وسعاً في حض الناس على التوسل بالنبي في قبره وعلى دعائه وسؤاله كل الحاجات

فيا هؤلاء كيف يخاف عمر بن الخطاب على الصحابة والتابعين عاقبة التوسل برسول الله ، وأنتم لا تخافون على أنفسكم ولا على هؤلاء الجهلاء الماكفين على الأجداث عاقبة ذلك ؟ أنتم أذكى وأبصر وأعلم بعواقب الأمور من عمر بن الخطاب ؟ أم أنتم وهؤلاء الجهلاء الماكفون على القبور أرسخ إيماناً وإسلاماً وأقوى عقيدة من أولئك الصحابة وأولئك التابعين الذين خيف عليهم عقبي التوسل بالنبي ؟ اللهم لا هذا ولا ذاك ، ولكنها فتنتك تضل بها من تشاء

وسادسها — : لو صح ترك التوسل بالنبي خيفة الارتداد إذا تأخر المطر لصح

أيضاً ترك التوسل بالعباس خيفة هذا . وذلك أنهم ما استسقوا بالعباس إلا لصلاحه وإيمانه بالله وبالنبي وبدينه واقربته من النبي أيضاً على قولهم . هذا هو وجه التوسل بالعباس والاستسقاء به . ومن ثم رجوا أن يسقوا وأن يعطوا ما سألوا . فإذا ما استسقوا دلى هذه الحال وبهذا الاعتبار بالعباس فلم يسقوا ولم يجابوا ولم يعطوا ما سألوه خيف عليهم الضلال أو الارتداد أو ضعف الإيمان وتزعزعه ، وخيف عليهم أن يشكوا وأن يقولوا : هذا عم النبي - وعم الرجل صنو أبيه - قد آمن به وصدق واتبعه وآمن بالله وبدينه وأطاعه وعبدته قد توسلنا به إلى ربه فدعا لنا واستسقى من أجلنا ، ورغب إلى الله وكله أمل ورجاء ، ورغبنا معه وكلنا آمال ورجاء ، ومع هذا كله لم يجب ولم نجب ، ولم يشفع لنا ولا له صلاحه وإيمانه ولا شيبه في الإسلام ، ولا قرب به من الله ولا قرباه من رسول الله ولا غير ذلك . . . وهنا يهتز إيمانهم ويتقلقل من مكانه ، ويخاف عليه التصديق والانهيار .

إذن هذه التوجيهات في حديث العباس توجيهات كلها باطلة ، وكلها لا يصح منها شيء ، فما الجواب ؟ إن الجواب الصحيح لا يمدو ما ذكرناه وهو أن الصحابة ما عدلوا عن النبي عليه الصلاة والسلام إلى العباس إلا لأنهم يعلمون أن التوسل بالميت لا يجوز ولا يمكن ولا يشرع .

ما في هذا الحديث
من الفوائد
الفائدة الأولى

﴿ فوائد حديث الاستسقاء بالعباس ﴾

وحيلئذ نستفيد من حديث الاستسقاء بالعباس جملة فوائد كبرى .

« الفائدة الأولى »

إن التوسل بالأشخاص كالتوسل بالنبي وبالعباس أو غيره إذا أطلق في لسان السلف من الصحابة ومن بعدهم من أهل العلم وفي عرف الشارع ونصوصه كان

معناه الاستشفاع وطلب الدعاء أو التقرب بالدعاء والشفاعة . تقول مالك في الرواية المذكورة عنه المتقدمة : « وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » يعنى به شفاعة رسول الله يوم القيامة . وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث الأعمى المتقدم : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك . يا محمد إني توجهت بك إلى ربك » يراد به التوجه بالدعاء والشفاعة . وقوله في الخبر الذى نحن بصدده : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وأنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » يعنى به التوسل بالدعاء . وكذلك كل ما ورد من التوسل بالأشخاص والدوات في ظاهر اللفظ لا يراد به إلا التوسل بالدعاء والشفاعات أو ما هذا معناه . والدليل عليه أن عمر ومن معه من الصحابة كانوا يتوسلون بالنبي عليه السلام في حياته ، وبعد وفاته كفوا عن التوسل به وتوسلوا بسواه . وهذا لأن التوسل عندهم معناه طلب الدعاء والتقرب بالشفاعة . ومن مات لا يستشفع به ولا يطلب منه دعاء ولا غيره . ولو كان معنى التوسل عندهم كمعناه عند هؤلاء المخالفين - ومعناه عندهم السؤال بالدوات والأشخاص والحقوق - لما عدلوا عن النبي ﷺ لا حياً ولا ميتاً ، لأنه يمكن التوسل بذاته وشخصه وحقه وجاهه حياً وميتاً ، لأن ذلك ثابت له عليه السلام وقت الحياة ووقت المات وفي كل وقت . فالسؤال به دائماً ممكن فلا وجه للعدول عنه إلى العباس أو إلى غيره من الناس لو كان هذا هو الحق . ولكن التوسل بالشخص في لغة القوم وخطابهم إذا أرسل وأطلق كان معناه الاستشفاع أو الشفاعة والدعاء وما يضارع ذلك . فحيث أطلق التوسل في اللسان الصادق ذهب إلى الشفاعة والاستشفاع .

الفائدة الثانية

« الفائدة الثانية »

ونعلم من هذا الحديث أن أصحاب النبي وخلفاءه الراشدين ما كانوا يحاولون أن يسألوا النبي عليه الصلاة والسلام في قبره شيئاً لا شفاعة ولا دعاء ولا إغاثة

ولا إعانة ولا أمراً من الأمور التي يسألها اليوم هؤلاء المسلمون كل من هب ودب من المشايخ والأموات ، وكل من أقيم على قبره قبة أو بناية أو زينة أو مسجد أو نوع من أنواع المملقات المختلفة ، وإن كان مات تحت ذلك جسد حيوان أو جسد كافر أو منافق أو فاسق من الفساق . وذلك أننا لا نشك في أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ما عدلوا عن نبيهم إلى عمه في وقت حاجتهم وشدتهم وأزمتهم إلا لأنهم كانوا يعلمون أن الاتصال به على هذا الوجه أصبح غير ممكن وغير مستطاع ولا يسور ، ولأنهم علموا أنه لا يصح أن يسألوه الشفاعة والدعاء فضلاً عن أن يسألوه الفوت والمدد وقضاء الحاجات المختلفة ، أو يسألوه هداية القلوب وغفران الذنوب . وقد كانوا رضى الله عنهم حراساً الحرس كله على أن يسألوه ذلك وأكثر منه لو كان ممكناً ومشروعاً مستطاعاً . لأن القوم كانوا جد مشتاقين إلى نبيهم وإلى الاتصال به الاتصال الممكن المستطاع كله ، وكانوا وجد مشتاقين إلى الاغتراف من نهره علا ونهلا ، لأنهم قد شاهدوا فضله ، وشاهدوا ما أعطاه ربه من البركات والخيرات التي تتمتعوا بها معه في حياته وتمتعوا بها بعده . ولو أنهم علموا أن شيئاً من ذلك يشرع لبادروا إليه ، ولما صح أن يتركوه وأن يعرضوا عنه ، آخذين بوسيلة العباس أو بوسيلة غيره من الناس . وما نازع في هذا أحد ، ولا أقيم حوله جدال أو خلاف . فكان القوم كانوا مجمعين عليه ، متفقين على فعل خليفتهم وخليفة رسولهم عمر وعلى فعله رضى الله عنه وعنهم . ولو أن أحداً منهم كما ينهب إلى إمكان التوسل به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته وإلى جوازه لقام في وجه عمر بن الخطاب ومن معه من الأصحاب ، ولقال له ولهم : كيف تتركون نبيكم وتتوسلون بسواه وهو حاضر معكم موجود بين أيديكم وأنتم في مسجده وفي بلده وأمام حجرته وبيته ، أما تستحيون منه ومن ربه ؟ كلا ، إنه يجب عليكم أن ترجعوا إلى نبيكم وإلى وسيلته وشفاعته وحجرته ١

فقتسقوا به وتسالوه ما تشاءون من السقيا والدعاء والوسيلة والشفاعة وكل ما ترجون وتؤملون عند ربكم ومنه . . . ثم لما كان من عمر ومن معه من الأصحاب إلا أن يصفوا لهذا النداء ، وأن يلبوا ذلك الاعتراض ويقولوا جميعاً : حقاً لقد عزبنا عن الصواب والسداد إذ تركنا نبينا ورجعنا إلى أتباعه ، نطلب الوسيلة والسقيا ، ونحن بين يديه في مسجده وبلده . . . ولكن لسنا واحداً لم يفه بشيء من هذا ، فدلنا على أن قلباً واحداً من تلك القلوب لم يتردد على صفحاته شيء منه . وهذا لأنه لم يكن بين القوم خلاف في أن سؤال النبي بعد الوفاة ضلال وحقارة كبرى جليلة . وهذا من أعظم الحجج والبراهين على بطلان دعوة الأموات ، وبطلان أسئلة الشفاعات وغيرها من المآرب والمطالب المختلفة التي يسألها اليوم كل هالك أقيم حول قبره نصب من الأنصاب المختلفة .

« الفائدة الثالثة »

الفائدة الثالثة

أن نعلم من هذا أن كل الأخبار التي تروى في دعاء النبي وسؤاله الشفاعة والدعاء وغير ذلك بعد مماته أخبار - إن وجدت - كاذبة غير ثابتة ولا صحيحة ، وأخبار ما كان يعرفها أصحاب النبي عليه السلام ولا يروونها . إذ لو كانت لديهم أخبار يروونها عن نبيهم في جواز الاستشفاع والتوسل به ودعائه وسؤاله بعد وفاته لعلوا بها حين أزمتهم وحاجتهم واستسقامهم ، ولما جاز أن يعدلوا عن التوسل بالنبي والاستسقاء به إلى التوسل والاستسقاء بالعباس . فإنه لا شك أن القوم ما تركوا نبيهم وتركوا الاستسقاء به وتركوا دعاءه وسؤاله وخطابه إلا لأنهم لا يجدون دليلاً يسوغ شيئاً من ذلك . فلو كان عمر بن الخطاب يعلم مثلاً حديثاً عن النبي في جواز دعائه وسؤاله في قبره لدعاه ولسأله واستسقى به يوم جديهم وقحطهم . ولا غناء الرجوع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الرجوع إلى العباس وإلى

غيره . ولو كان يروى عن النبي عليه السلام حديث سؤال آدم ربه بحق نبيه محمد وغفران الله له ذنبه بهذا السؤال لسأل ربه السقيا بحق رسوله محمد ﷺ كما سأل آدم به ، وإقال : نحن أحوج إلى السؤال بحق نبيينا من آدم ، ولقال : أسألك يارب بحق محمد لما سقيتنا ، كما قال آدم في الخبر المروى عن عمر عن النبي : « أسألك يارب بحق محمد لما غفرت لي » . ومن المحال أن يكون هذا الحديث حديث سؤال آدم ربه بحق محمد ثابتاً عن عمر ثم لا يسأل ربه بحقه ، بل يعمل عن ذلك إلى التوسل بالعباس . وما عن هذا من جواب إلا أنت يقال : إن عمر كان يلقى حديث آدم هذا كلما استسقى بالعباس وكلما قحطوا ، بل وكل حياته . ولينظر هل يمكن أن يصح هذا وهل يجوز على عمر . ولو صح هذا كله وصح أن عمر كان يلقى الخبر عند استسقاؤه بالعباس لوجب أن يلقيه إليهم من حديثهم به ومن معموه منه ومن عرفوه من الصحابة والتابعين إن كان أحد عرفه .

دلالة هذا الحديث على كذب جميع الأحاديث التي فيها ما يدل على مخالفتين .

وكذلك لو كان حديث الأعمى السابق ثابتاً عن عثمان بن حنيف مع القصة المذكورة فيه بين ابن حنيف وبين ذلك الرجل الذي كان يقصد عثمان بن عفان حاجته فلا يلتفت إليه إلى آخر القصة السالفة : لو كان هذا الحديث ثابتاً عن ابن حنيف وكان دالاً على ما يذهب إليه المخالفون لقال عثمان بن حنيف ولقال غير ابن حنيف ممن يعلون الحديث إن كان أحد يعلمه غيره لعمر ومن معه من الصحابة والتابعين : لا يصح أن تعدلوا عن النبي عليه الصلاة والسلام إلى سواه ، بل ارجعوا إليه واسألوه الشفاعة والسقيا والوسيلة ، واسألوه جميع ما تطلبون وتسألون ، ثم ذكروا لهم الحديث وقصة الأعمى والرجل الآخر فيه ، وأمرهم أن يتوضأوا وأن يصلوا وأن يدعوا ذاك الدعاء الذي علمه عثمان بن حنيف الرجل المتردد على الخليفة عثمان بن عفان . وإذا كان ابن حنيف قد علم ذلك الرجل المتردد على عثمان في حاجته الخاصة به أن يتوسل بالنبي وأن يدعو ويخاطبه

ويسأله ، في ما يزعمون ، أن يشفع له في قضاء حاجته ، فكيف لا ينبغي عمر ومن معه من الأصحاب والمسلمين بهذا الدعاء وهذا الأمر ليدعوا الله به كي يستجيبهم ، وكي يزيل جديهم وقحطهم بشفاعه نبهم والاستسقاء به وبجأه وكرامته وبركته ؟ وكيف طالب لابن حنيف أن يكتم هذا النبأ وهذا الخير العظيم من عمر وعن المسلمين معه وم في حاجة شديدة . ملجئة إلى علمه ومعرفته لو كان ناهيا صحيحاً حقاً عن عثمان بن حنيف ؟

وكذلك أيضاً استسقاؤهم بالعباس يوهى سند تلك الرواية المتقدمة ، وهي ما ذكرها عن مالك الدار خازن عمر قال : أصاب الناس قحط في زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبي عليه السلام فقال : يا رسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا . فأثى الرجل في المنام فقليل له : أئت عمر وأخبره أنهم مستقون . قال الحافظ العسقلاني في فتح الباري (الجزء الثاني صفحة ٣٣٨ . طبعة الخشاب) : « وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الدار ، وكان خازن عمر ، قال : أصاب الناس قحط في زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبي فقال : يا رسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا ، فأثى الرجل في المنام فقليل له : أئت عمر وأخبره أنهم مستقون . وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة » انتهى كلام العسقلاني . وهذه القصة إما أن تكون ضعيفة الإسناد أو محرفة اللفظ ، أو يكون الاتساق إلى قبر النبي عليه السلام ، القائل له : استسق لأمتك مخطئاً غلطاً مخالفاً لما ذهب إليه التلخيف عمر ومن معه من المسلمين . والرواية التي ذكر الحافظ ابن حجر أن إسنادها صحيح لم يكن الذهاب فيها إلى القبر هو بلال بن الحارث الصحابي ، وإنما هو رجل مبهم مجهول غير معروف الاسم ولا الحال . ولا يجب أن يكون في قطعه هذا راكباً مصيباً ، فقد كان في التابعين من ابتدعوا وضلوا . وأما الرواية التي

جاء فيها أن الذهاب إلى القبر للنبي القائل : استسقى لأمتك هو بلال بن الحارث المزني الصحابي فهي رواية باطلة لأنها من طريق سيف بن عمر الضبي الأسدي الأخباري المشهور، مصنف « الفتوح » و « الردة » وغيرهما . وسيف هذا منهم ، واتهمه ابن حبان وغيره بالزندقة ، وأجمع الباقون على ضعفه في الحديث مع إجماعهم على غزارة علمه ومعرفته بالأخبار . فالرواية التي قيل فيها : إن الذهاب إلى القبر هو بلال بن الحارث الصحابي رواية ضعيفة ، لا يحل الاحتجاج بها لضعف سندها واتهام راويها ومخرجها وهو صاحب « الفتوح » سيف بن عمر الضبي المؤرخ . أما الرواية التي قال الحافظ ابن حجر : إنه رواها ابن أبي شيبة بإسناد صحيح فلا حجة فيها ، لأن ذلك الفاعل القائل المستسقى ليس صحابياً . ونحن لا نقول : إن كل ما يعمل في زمان التابعين أو زمان عمر الفاروق حق ودين وهدى .

وبالجملة فحديث الاستسقاء بالعباس المتفق على صحته يشهد شهادة صادقة واضحة بأن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وبأن الصدر الأول من المسلمين ما كانوا يروون أحاديث عن رسول الله في جواز دعوة الأموات أو جواز الاستشفاع بهم أو طلب الدعاء منهم أو التوسل بهم على الوجه الذي يذهب إليه المخالفون ، ويشهد شهادة لا ريب في صدقها على أن كل ما يروى عن عمر أو عن غيره من الأصحاب عن النبي في جواز دعاء النبي وجواز الاستشفاع به في قبره شيء لا صحة له ولا قيمة لسنده ، ويدل أيضاً دلالة ظاهرة على أن الأخبار الصحيحة الثابتة عنهم عن رسول الله لا تدل عندنا على جواز دعوة الأموات ولا جواز خطابهم وطلب الشفاعة والدعاء منهم فضلاً عن طلب غير ذلك . فلا يدل عندنا حديث مخاطبة النبي ﷺ لكفار بدر بعد ما قتلوا ورموا في الطوى على أنه يجوز دعاء الأموات . وحديث خطاب رسول الله ﷺ للمشركين

ولأنه على أن
الأحاديث
الصحيحة لا تدل
على مذهب
عباد الأموات

يوم بدر قد جاء من رواية عمر نفسه ، وجاء من غير روايته أنه كان حاضراً لرسول الله وسامعاً له حين خاطبهم وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وقال لهم ما قال . وقد قال الله عنه في هذه الحادثة : يا رسول الله كيف يسمعون - أو أنى يجيبون - وقد جيفوا ؟ فمرضى الله عنه كان قد شهد خطاب النبي لقتلى المشركين ورآهم يخاطبهم ويناديهم ذلك النداء المعروف . ولكنه لم يفهم من كل ذلك جواز دعوة الأموات ، الدعوة التي يراد بها الشفاعة ، أو يراد منها الإعطاء أو المنع ، أو الضر والنفع . ولو كان قد فهم أن مخاطبة النبي لأولئك المشركين الموتي تدل على جواز دعوة الموتي مطلقاً ، وعلى جواز الاستشفاع بهم لمخاطب رسول الله في قبره حين الجذب ، ولطلب منه الدعاء والشفاعة ، ولا تستقى به ، ولما احتاج إلى العدول عنه عليه السلام إلى العباس أو غير العباس .

وكذلك أحاديث زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم لا تدل عندهم على صحة دعوة الأموات . وأحاديث زيارة القبور أحاديث مشهورة لديهم معلومة لهم . ولو كانت تدل عندهم على جواز دعاء أصحاب القبور لاحتجوا بها على جواز التوسل والاستسقاء بالنبي ودعائه وسؤاله ، ولما عدلوا عنه حينئذ إلى سواه في الاستسقاء أو غيره .

وكذلك خطاب النبي في تشهد الصلاة لا يدل عندهم على جواز نداء الموتي وهذاهم . وقد كانوا يقولون في تشهدهم كما علمهم رسول الله : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » . ولو كان هذا لديهم مبيحاً لأن يدعى الموتي ويسألوا ، لسألوا النبي ودعوه وتوسلوا به واستسقوا بشفاعته إذ أجذبوا .

وكذلك جميع الأخبار والأحاديث الصحيحة الثابتة لا تدل عندهم على إباحة ما يأتيه هؤلاء المبتدعون اليوم وما يقولونه ويلهجون به فوق قبور المشايخ والصالحين من الضراعات والشكايات والأدعية ، وإلا لو كانوا يفهمونها كما يفهمها

هؤلاء المخالفون لدعوا نبهم في قبره ولتوسلوا به واستسقوا حين الجذب وحين
سواه من الأزمات والحاجات .

وكذلك يدل خبر الاستسقاء بالعباس على بطلان الأخبار السالفة في دعاء
من أضل دابة أو بشيئا وأراد عونا وهو في فلاة من الأرض ، وأنه ينادى ويقول :
« يا عباد الله أعينوني - أو أغثوني » . وقد تقدم الكلام على هذه الأخبار . فلو
كانت ثابتة عن أصحاب النبي وكانوا يعرفونها ويروونها ، وكانت دالة لديهم على
جواز دعوة الأموات والاستغاثة بهم وطلب العون منهم لاستدلوا بها على دعاء
النبي والاستغاثة به في قبره ثم لتوسلوا واستسقوا به يوم أن احتاجوا إلى أن
يستسقوا ويتوسلوا بالعباس .

ولا يخفى على من أنصف الحق من نفسه وهواه وعلمه أنه لا يمكن أن تكون
هذه الأخبار معلومة لأصحاب النبي ، ثابتة عنهم ، وأن تكون دالة لديهم على
ما استدل بها له المخالفون ، ثم لا نجدهم يعملون بشئ منها ، لا عند قبره عليه السلام ولا
عند قبر غيره . بل نجدهم يستسقون ويتوسلون بالعباس وبغيره كما استسقى معاوية
ومن معه من الصحابة والتابعين يزيد بن الأسود الجرشي أحد التابعين الصالحاء .
وما فكر أحد منهم في أن يذهب إلى أحد القبور في يوم ما يدعو ويستشفع أو
يتوسل ويستسقى . وهل لهذا سبب غير أنهم لا يعرفون هذه الأخبار المكذوبة ،
وغير أن ما يعرفونه منها لا يدل على ما استدل به عليه هؤلاء المخالفون المصابون
في عقولهم وفي دياتهم ؟

الفائدة الرابعة

الفائدة الرابعة

أن نعلم أن التوسل بالجاء والحق والحرمة والبركة والذات والشخص شئ لا
وجود له بين صحابة النبي وسادات المسلمين ، وشئ لا يعرفونه ولا يقولون به ولا
نلتفتون إليه . فان هذا التوسل لو كان معروفا عندهم ، وكل من الدين والحق فيما

علموا وتعلموا من دينهم ونبيهم لتوسلوا بجاه النبي عليه السلام ، أو بجرمته ، أو ببركته ، أو بذاته ، أو بغير ذلك مما يتوسل به المبتدعون ويزعمونه من الدين . ولكن صحابة النبي ﷺ دينة وشرعته كانوا يعلمون أن الاسلام الذي تلقوه من محمد بن عبد الله رسول الله برئ من هذه الوسيلة ، ومن هذا التوسل الدخيل ، ومن هذا الدعاء الباطل . ولأجل هذا لم يعبتوا به ولم يرجعوا إليه ، بل توسلوا بالعباس لأنه كان يستطيع أن يدعو ويشفع ويستسقى لهم . وهذا هو التوسل الصحيح المشروع . ولم يتوسلوا أو يستسقوا بنبيهم عليه الصلاة والسلام في قبره لأنه لا يصح أن يدعى ولا أن يسأل ولا أن يطلب منه شيء بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى . والتوسل الصحيح المشروع بالشخص لا معنى له غير طلب الدعاء والشفاعة والاستشفاع . ولو كان من الدين الذي تلقوه من نبيهم التوسل بالذوات والسؤال بالجاهات والحرمان والبركات وغير ذلك ، مما لا يعنى به الدعاء ولا الشفاعة ، لأمكن أن يتوسلوا بنبيهم بعد وفاته في قبره عند الاستسقاء وغير الاستسقاء ، ولأمكن أن يقول الفاروق : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك أيضاً بنبينا - أي بجاهه وجرمته وبركته - فاسقنا » . ولكن كلا لم يقل ذلك ، بل قال : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . وهذا لأنهم كانوا في حياة النبي يتوسلون بدعائه وشفاعته واستسقائه لهم ، أما بعد موته فلا دعاء ولا استسقاء ، لهذا لم يتوسلوا أو يستسقوا به . والتفريق بين الحياة والمات في هذا الأمر يدل دلالة ظاهرة على أن التوسل بالذات أو بالجاه أو بالحرمة أو بالحق لا يشرع ولا يعرف في الدين ولا عند الصدر الأول من المسلمين ، وإنما هو أمر مبتدع مكذوب في الاسلام .

هذا الحديث
أصل من أصول
الرد على المخالفين
المبتدعين

فحديث الاستسقاء بالعباس الذي عده المخالفون من دلائلهم على مبتدعاتهم أصل من أصول الرد عليهم وعلى ما ابتدعوه من ضلال وجهل وباطل . وهكذا

الشان في جميع ما استدلووا به : إما شئ ضعيف مكذوب ، أو صحيح ولكنه لا يدل لهم ، وإنما يدل على خلاف قولهم كهذا الحديث ، وكأ حادith الشفاعة يوم القيامة . وقد تقدم الكلام عليها وتقدم بيان دلالتها على خلاف ما ذهبوا إليه . وكأ حادith زيارة القبور ، فانها في الحق ترد عليهم وتدل على خلاف قولهم . وذلك أن الرسول عليه السلام قد علم أصحابه ما يقولون عند زيارة القبور من الأدعية والسلام والخطاب فكان كل ما فيها ، بلا خلاف ولا اختلاف ، دعاء لأصحابها بالسلام عليهم وطلب السلامة لهم ، وسؤال العافية من أجلهم ، ودعاء للزائر نفسه بالعافية وبالنجاة من أسباب الشقاء والشر . . ولا يخرج كل ما في أحاديث الزيارة الصحيحة عن هذين الأمرين : الدعاء لصاحب القبر والدعاء لزاره . . وليس في شئ منها لافي صحيحها ولا ضعيفها الأمر بدعاء أصحاب القبور ، أو سؤالهم . أو الاستشفاع بهم ، أو الدعاء بتحقيقهم أو جاههم وحرمتهم أو نحو ذلك من هذه الأمور التي اخترعها المخترعون عند قبور المشايخ والصالحين ، بل وقبور الطالحين الفاسقين . وكذلك ليس في أحاديث الزيارة الأمر بالتمسح بالقبور أو التقبيل لها أو لمسها أو استقبالها أو شئ من هذه الأمور ، بل ما فيها غير الدعاء الذي هو السلام وسؤال العافية والأجر للزائر والمزور .

ولو كان هنالك شئ يشرع : يقال أو يفعل ، حين الزيارة ، لعلمه النبي أصحابه ولدهم عليه حينما سألوه أن يلهمهم سنة ذلك وما يقولونه وما يفعلونه إذا مازاروا القبور ، فعلمهم الدعاء فقط : الدعاء لأنفسهم وللهوتى . الذين راح المغيرون للسلام يدعونهم وقد أمروا بأن يدعوا لهم . وما علمهم غير الدعاء شيئاً . وليس يمكن أن يكتم عنهم شيئاً يقربهم من الله يصح أن يفعلوه أو يقولوه حينما يزورون المقابر . وقد كان هو عليه الصلاة والسلام يزور فيقول مثل ما علمهم أن يقولوا لازيادة ولا نقصان .

ومن زعم أن هنالك شيئاً يقال أو يفعل حين الزيادة غير ما في هذه الأخبار النبوية الصحيحة من السلام والدعاء فقد ذهب إلى اتهام النبي ، برأه الله ، بالكتمان والتقصير في البلاغ والبيان . وحاش لله أن يكتنم نبيه شيئاً أو يدخر وسماً في بيانه وبلاغه .

فأخبار الزيادة رد على المخالفين بلا ريب . أما استدلالهم بلفظ الخطاب في قوله : « السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » الحديث . فاستدلال ما أبطله . ذلك أن الخطاب هنا ليس خطاباً حقيقياً يراد به الطلب أو الإسماع ، وإنما هو خطاب تصوري استجباري يضاهي الخطاب في قول المتشبهين : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » . ولا يقول مسلم إن الخطاب في التشهد خطاب حقيقي يراد به الطلب من النبي أو يراد به إسماعه وإعلامه أو نحو ذلك ، لأن الذي يسمع من كل مكان هو الله وحده ، ولا أحد من المخلوق يستطيع ذلك . ويضاهي الخطاب في قول النبي يرئى ابنه إبراهيم : « وإنا بك يا إبراهيم لحزونون » . ولا يراد بهذا الخطاب الطلب ولا الإسماع بالاجماع . ويضاهي قول الصديق يرئى نبي الله بعد وفاته : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله . لا يجمع الله عليك موتتين » . ويضاهي قول أم العلاء الأنصارية ترئى عثمان بن مظعون : « رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . ويضاهي قول النبي عليه السلام إذا سافر وأقبل الليل : « يا أرض ، ربني وربك الله . أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك » الحديث . رواه أبو داود في سننه . وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا رأى الهلال : « هلال خير ورشد . هلال خير ورشد . آمنت بالذي خلقك » . ويضاهي قول نبي الله صالح لقومه بعد ما أهلكوا . « وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربِّي ونصحت لكم وأسكن لآئحبون الناصحين » وقال نبي الله شعيب خطاباً لقومه المالكيين مثل قول صالح لقومه . وهذا النوع كثيراً جد

كيف تنهم
احاديث الزيادة
بالنسبة الى هذه
الحديث

في نصوص الشريعة . أما في كلام الناس شعرا ونثرا فلا يحيط به محيط . وقد تقدم بعض الكلام عليه ، والخطاب في زيارة المقابر من هذا النوع . وخطاب الأموات ، بل والجمادات ليس ممنوعا مطلقا ، وإنما يمنع منه ما كان مشتملا على الطلب وإرادة الإسماع وعلى الرغبة والرغبة . فأحاديث الزيارة مما يحتاج به على المخالفين وليست مما يحتاج به لهم إلا عند الجانبين المحرفين .

وكذلك الحديث المشهور وهو قوله ﷺ « حياتي خير لكم ومماتي خير لكم ، تعرض على أعمالكم ، فإن وجدت خيرا حمدت الله ، وإن وجدت شرا استغفرت لكم » إن صح . وقد روى مرسل عن بكر بن عبد الله المزني التابعي الثقة ، رواه القاضي إسماعيل بن إسحاق في فضل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام وروى أيضا موصولا من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام ، رواه البزار ، وقال الحافظ الميشتي : رجاله رجال الصحيح ، ولفظه عنده في مجمع الزوائد : عن عبد الله بن مسعود عن النبي عليه السلام قال « إن الله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام » قال وقال عليه السلام « حياتي خير لكم ، تمحدثون ويحدث لكم . ووفاتي خير لكم ، تعرض على أعمالكم . فلو رأيتم من خير حمدت الله عليه ، وما رأيتم من شر استغفرت لكم » رواه البزار ورجالهم رجال الصحيح . وقد تقدم سياق سنده عند البزار . فهذا الحديث إن صح عن النبي كان ردا على دعاة الأموات العاكفين على الأحداث . وذلك أن رسول الله قد أخبر أن أعمال أمته تعرض عليه عرضا : يعرضها الله ، أو تعرضها ملائكته وأنه بعد عرضها عليه إما أن يحمده الله وإما أن يستغفر . وهذا أمر لا بد منه على مافي الحديث سواء أسأله أم لم يسأله ، فسؤالهم إياه لا يجعله يفعل غير ما ذكر في الخبر ، وتركهم سؤاله لا يجعله يترك شيئا مما في الخبر من حمد الله والاستغفار . فسؤاله لا يفعل شيئا ولا يقدم ولا يؤخر ولا يفيد شيئا ، فهو عبث والعبث باطل .

حديث « حياتي خير لكم ومماتي خير لكم » بالنسبة إلى هذا الحديث

والباطل ضد يد الحق ، وضديد الحق منهى عنه . وقوله فيه « تعرض على أعمالكم » صريح في أنه لا يعلمها بنفسه ، وصريح في أننا لا نستطيع نحن أن نعرضها عليه ، وأننا لو عرضناها لما استطاع أن يعلمها ، فهو لا يسمع دعاءنا ولا استشفاعنا ولا طلبنا الداء منه ، ولا ابتهالنا إليه ، ولا لهجنا باسمه ، ولا يعلم شيئاً من ذلك ، لأنه في عالم ونحن في عالم آخر . ولهذا لا يعلم من أعمالنا عملاً إلا بهرضه عليه : بهرض الله أو بهرض ملائكته ، أو بهرض جند من جنده . وإذن لا يصح دعاؤه ولا خطابه لمحاولة إسماعه وإعلامه ، لأنه إن يسمع وإن يعلم من أمرنا شيئاً بواسطتنا نحن . وقوله « فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت لكم » يدل على أن هذا الاستغفار وهذا الحمد لله أمران من أمور وظائفه التي لا يخل بها ، فلودعونا لما زاد ذلك في استغفاره وحمده لله شيئاً ، ولو تركناه لما نقص تركنا من ذلك شيئاً . فلا تأثير لدعائه في وظيفته هذه : وظيفة الحمد والاستغفار .

وهذا مثل قوله عليه السلام : « وصلوا على فان صلاتكم تباقى حيث كنتم » وقوله في الخبر الآخر « إن لله ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام » ومعنى الخبرين أنه عليه السلام يبلغ صلاة أئمة وسلاهما عليه حيث كانوا ، وحيث كان حين يصلون وحين يسلون ، وإن كان لا يسمع ذلك من المصلين المسلمين . وهذا لا يقضى شيء منه بأن يدعى وأن يستشفع به وأن يطلب الداء منه . ومثله أن الملائكة يصلون على المؤمنين ويدعون لهم ويسألون الله من أجلهم الغفران والتقريب من الجنة والإبعاد من النار . وهذه إحدى وظائف الملائكة ، ولكن مع ذلك لا يجوز دعاؤهم ولا سؤالهم هذا الذي يسألونه ربهم للمؤمنين ولا طلب الشفاعة والدعاء منهم ، كما تقدمت الدلائل . ومثل هذا أيضاً أن النبي عليه السلام يوم أن كان حياً كان كذلك يدعو للمؤمنين ويستغفر لهم ويصلي عليهم . وسأل ربه لهم كل ضرر وبأس وإفلاح ، وكل أسباب الخير والنجاة . ومع

ومثل هذا دعاء
الملائكة . ومثله
واستغفارهم لهم

هذا كله ما كان يصح لمن كان بعيداً عنه أن يطلب ذلك منه : فما كان يصح لمن كان في مكة أن يخاطبه وهو في المدينة وأن يقول له ادع الله لي أو استغفر من أجلي أو نحو ذلك ، فضلاً عن أن يسأله هداية قلبه أو غفران ذنبه أو شفاء من مرضه أو إنقاذه من بلوى حلت به . ولو أن أحداً فعل ذلك لعد من الطبايين الجاهلين المؤخذين . فكيف بمن فعل ذلك بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى العالم الآخرى ، إلى الرفيق الأعلى ، إلى عالم الخلود والنعم ؟ فهذا الحديث ، وهو من براهين المخالفين ، لو صح ، كان من الحجج عليهم ومن الدلائل القوية على بطلان دعاء الأموات والاستغاثة بهم وطلب الأشياء منهم : وهكذا جميع الأخبار الصحيحة التي يحتاجون بها ما لها عند التحقيق وإعطاء الفهم حقه أن تكون حججاً عليهم .

وكذلك الآيات التي يحاولون التعلق بها : فمثلاً هم يحتاجون بقوله تعالى « أحياء عند ربهم يرزقون » الآية النازلة في الشهداء . والآية عند التأمل رد عليهم . وذلك أنها قد أخبرت أنهم أحياء عند ربهم لا عندنا ولا عند دعاةهم ولا عند دعاة الأموات . ومعنى ذلك أنهم مقيمون في السموات ، مستقر الأرواح العالمة الصالحة ، وأوى الملائكة والمقر بين الأنبياء والرسل والصالحين . وإذا كان ذلك كذلك فلا يمكن دعاؤهم ، ولا الاتصال بهم ، ولا محاولة إسماعهم وإدلائهم ، لأنهم فوق ما فوق السموات في أعلى عليين . فلا يستطيع حينئذ أهل الأرض أن يتصلوا بهم بوجه من وجوه الاتصال التي يحاولها اليوم دعاة الأموات المبدعون الضالون . وهم حينما كانوا أحياء في الأرض لم يكونوا يدعون ويسألون في مغيبهم ، ولم يكن يطلب منهم النوث والمدد إلا في حضورهم . فما كان المسلمون يدعون نبيهم ولا يخاطبونهم ولا يسألونه في غيبته أو غيبتهم هم شيئاً ، ولا كانوا يفكرون في هذا . ولو أن أحداً دعاه ﷺ في مغيبه وقت حياته لعد من

الآيات التي يحتاج بها المخالفون بالنسبة إلى هذا الحديث

الجهلاء الضلال . فدعوة الحى الغائب ممنوعة باطلة ، غير ممكنة ولا جائزة ولا مشروعة . فدعوة من هم أحياء عند ربهم حياة برزخية غيبية فى أعلى عليين أحق بالمنع والبطلان والتحرير .

فآية حياة الشهداء التى يستدلون بها على جواز دعوة الأموات هى فى الحق وعند التأمل الصحيح الخالص تدل على خلاف ما ذهبوا إليه ، وخلاف ما قالوه ، أى تدل على بطلان دعوة الموتى وعلى تحريم الاتصال بهم وتحريم سؤالهم واستجدهم .

وهم يحتجون أيضاً بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » على جواز ما يذهبون إليه وما يقولونه من الباطلات والخرافات كالاستغاثة بالأموات ودعائهم . والآية فى الحقيقة صريحة فى فساد مذهبهم . وذلك أن الوسيلة فى نص الآية إما أن يراد بها الأنبياء والأولياء والصالحون - وهؤلاء وسائل عند عبدة القبور - وإما أن يراد بها القرب إلى الله والتقرب إليه وإلى مرضيه . أما الاحتمال الأول فباطل من نفس الآية . وذلك أنها تقول : « وابتغوا إليه الوسيلة » . فلو كانت الوسيلة هى من يدعى من الأنبياء والصالحين والمشايخ لكانت الآية أمراً بابتغاء هؤلاء الصالحين المدعوين ، والابتغاء معناه الطلب . فإذا كانت الوسيلة هى من يدعى من الصالحين - والابتغاء هو الطلب - كان معنى الآية هكذا : « اتقوا الله واطلبوا إليه الصالحين » . وهذا لا معنى له بلا ريب . وكلام الله يجمل عن أمثاله . ولو كان هذا هو المراد من الآية الكريمة لقل فيها : « وابتغوا من الوسيلة » . أو « وتقربوا بالوسيلة » . أو « وتوسلوا بالوسيلة » أو نحو ذلك . فلاحتمال الأول لا يمكن أن يكون مراداً بالآية وبالوسيلة فيها يقيناً . وأما الاحتمال الثانى - وهو أن يكون المراد بالوسيلة القرب والتقرب إلى الله - فهذا هو التفسير الصحيح للآية كما تقدم .

فالأية إذن أمر بالتقرب إلى الله ، والتقرب إليه تعالى غير التقرب إلى
الأموات وإلى المشايخ والصالحين ، بل الأمر بالتقرب إليه تعالى يناهى اتخاذ
الوسائط والوسائل من الخلق ومحاولة التقرب إليها والتقرب بها . فالأية إذن
رد على عبدة القبور ، نقض لما زعموه وادعوه . وهكذا جميع الآيات وجميع
الأحاديث الصحيحة التى يحتجون بها ، هى عند التأمل الصائب القوى رد عليهم
وإبطال لما يزعمونه ويدعونه . وبالله التوفيق .



﴿ كتاب ﴾

﴿ فصل الخطاب، في تحريف كتاب رب الأرباب ﴾

وقع لي أخيراً كتاب ألفه أحد شيوخ الشيعة، الامامية، الاثنا عشرية،
سماه « فصل الخطاب، في تحريف كتاب رب الأرباب ». والكتاب مطبوع
طبعة حجرية، كأنه مطبوع في فارس أو في الهند. قال في أوله: « الحمد
لله الذي أنزل على عبده كتاباً جعله شفاء لما في الصدور، ومهيمناً على التوراة
والانجيل والزبور، والصلاة والسلام على حامله نور النور، والبيت الرفيع المعمور
محل تدبير الأمور، ومالك أزمة النشور^(١) محمد المنتخب في عالم السرور،
وعلى آله النصف الناطقة بكل غائب ومستور، والزبر المحنوية لما يكون أو
مضى في سالفات الدهور^(٢) ومصاييح الأنام في ظلمات الفرو، ومفاتيح
خزانة العلم المسطور، في رق منشور، خصوصاً على مختلف الملائكة في الأصال
والبكور^(٣) القطب الذي على مدار وجوده الأفلاك تدور، المشرق نوره في
قلوب مواليه، المحتجب عن أعين كل عديم الشعور، إلى يوم ينفتح في الصور،
ويبعث من في القبور^(٤) وبعد فيقول العبد المذنب المسئ: حسين بن محمد تقي
النوري الطبرسي - جعله الله من الواقفين ببابه، المتمسكين بكتابه: هذا
كتاب لطيف، وسفر شريف، عملته في إثبات تحريف القرآن، وفضائح أهل
الجور والمدوان، ومحميته « فصل الخطاب، في تحريف كتاب رب الأرباب »

(١) النشور: البعث. يعني أنه عليه السلام مالك يوم القيامة

(٢) يعني أن آل النبي طالعون بجميع القيوب: الماضية والآتية

(٣) مختلف الملائكة مكان اختلاطهم أي إتيانهم وذهابهم ويريدون أن علياً يوحى إليه

(٤) هذه الجارات تأليه ظاهر لعل بن أبي طالب.

مذهب الشيعة
في تحريف
القرآن

وجملت له ثلاث مقدمات وبابين ، وأودعت فيه من بدائع الحكمة ما تقر به كل
عين . وأرجو ممن ينتظر رحته المسهون . أن ينفعني به في يوم لا ينفع مال ولا
بنون . . . » .

وقال في ختام الكتاب : « . . . وقد حان لنا أن نعطف عنان القلم ، إلى حمد
من علم الانسان ما لم يعلم ، وأودع في قلوبهم طرائف الحكم ، وتتوسل بالصلاة
على النبي الأكرم ، والفاتح الخاتم البعث على طوائف الأمم ، وعلى آله أولياء
النعم ، ومصاييح الظلم ، وأسرار السجود لآدم . وقد فرغ من تنميق هذم
الأوراق ، رجاء الانتفاع بها يوم يكشف عن ساق ، العبد المذنب المسىء
الملىء ، حسين بن محمد بن تقي النوري الطبرسي ، في مشهد مولانا أمير المؤمنين .
شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٩٢ من الهجرة النبوية . . . » .

وقد ختم الكتاب بهذه العبارة : « وقد فرغت من تسويد هذا الكتاب
العال ، بعون الملك المتعال ، في ثاني عشر شهر شوال من شهور سنة ١٢٩٨ من
الهجرة المقدسة النبوية ، على مهاجرها آلاف الثناء والتحية ، وأنا العبد العاصي
الفاني ابن مرحوم ميرزا سيد محمد بن رضا أحمد الطباطبائي غفر الله لي ولأبي
وأبي بجاه محمد وعلى . سنة ١٢٩٨ » .

والكتاب - كما يدل اسمه - موضوع للتدليل على أن القرآن محرف
أنواع التحريف كلها ، بالزيادة ، والنقصان ، والترتيب ، والتبديل . وقد ذكر
الدلائل على كل هذا من روايات الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية في كتبهم عن
أئمتهم . وقد زعم أن القول بالتحريف من ضروريات مذهبهم ، ومما تواترت دلائله .
ونحن في هذا الفصل ننقل بعض ما جاء في هذا الكتاب الشنيع إتماماً للغرض
الذي قصدناه وأردناه .

بوالهم في الزيادة قال صفحة ١٢٢ « اعلم أن وجود أصل الزيارة مقطوع به في كلمات الأكرمين

حقى من المنكرين للتحريف ، كالصدق وأتباعه . والأخبار فيه متواترة ،
وستقف عليها . . . » .

وقال صفحة ٢٣٦ « روى الثقة الجليل محمد بن مسعود العياشى فى تفسيره
باسناده عن أبى جعفر عليه السلام قال : لولا أنه زيد فى كتاب الله ونقص
ما خفى حقنا على ذى حجبى . ولو قام قائمنا فنطق صدقه القرآن . قال المحدث
البحرانى فى « الدرر النجفية » : يمكن حمل الزيادة فى هذا الخبر على التبديل حيث
إن الأصحاب ادعوا الإجماع على عدم الزيادة ، والأخبار الواردة فى هذا مع
كثرتها ليس فيها ما هو صريح فى الزيادة . فتأويل الخبر بما ذكرنا لا بعد فيه .
انتهى . وهو حسن ، إلا أنه تأتى الإشارة إلى زيادة بعض الحروف . ويأتى ذكره
فى محله . وعن الصادق : لو قرئ القرآن كما أنزل لألفينا فيه مسمين . وقال
أبو عبد الله : إن فى القرآن ما مضى وما يحدث ، وما هو كائن . كانت فيه أسماء
الرجال فالقيت . وإنما الاسم الواحد منه فى وجوه لا تحصى ، يعرف ذلك الوصاة .
وعن أبى جعفر قال : إن القرآن طرح منه آى كثير ، ولم يزد فيه إلا حروف
أخطأت بها الكتبة وتوهمتها الرجال . وروى محمد بن إبراهيم النعمانى فى « غيبته »
باسناده عن على بن أبى طالب قال : كأتى بالمعجم^(١) فى فساطيطهم فى مسجد
الكوفة ، يملكون الناس القرآن كما أنزل . قلت : يا أمير المؤمنين : أليس هو
كما أنزل ؟ فقال : لا ، محى منه سبعون من قریش بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وما ترك
أبو لهب إلا للإزراء على رسول الله لأنه عمه . . . » .

تحريم الشيعة
على النار

وقال صفحة ١٥٦ « روى فرائد بن إبراهيم الكوفى فى تفسيره باسناده قال
على بن موسى الرضا عليه السلام : والله لا يرى فى النار منكم اثنان أبدا ، لا والله
ولا واحد . قال : قلت أصلحك الله أين هذا من كتاب الله ؟ قال هو فى سورة

(١) هذه الرواية مرفوعة فى أن بناء المذهب الشيعى العالى من الانحطام

الرحمن في قوله تبارك وتعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه منكم إنس ولا جان » . قال : قلت : ليس فيها « منكم » قال : بلى والله ، إنه لمنبت فيها ، وإن أول من غير ذلك لابن أروى . وروى أحمد بن محمد السيارى في كتاب القراءات بالاسناد عن الرضا قال : لا يرى في النار منكم اثنان ، لا والله ولا واحد . ذلك في كتاب الله . قلت : أين هو من كتاب الله ؟ فسكت عنى حولاً ، ثم اجتمعت معه في الطواف فقال : ما أذن لى إلا الساعة ، قال الله تبارك وتعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه منكم إنس ولا جان » قلت : ليس « منكم » قال : بلى والله ، يحاها . : أروى . وروى الصدوق في « بشارة الشيعة » ، على ما في تفسير البرهان للسيد المحدث التوبلى باسناده عن الرضا عليه السلام قال : لا يرى منكم في النار اثنان ، لا ولا واحد ، قلت : أين ذا من كتاب الله ؟ فأمسك عنى سنة ، قال : فأتى معه في الطواف ذات يوم إذ قال : أذن لى في جوابك عن مسئلتك كذا ، قلت : فأين هو في القرآن ؟ قال في سورة الرحمن وهو قول الله « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه منكم إنس ولا جان » فقلت له : ليس فيها « منكم » قال : إن أول من غيرها ابن أروى . وذلك أنها حجة عليه وعلى أصحابه . ورواه الشيخ شرف الدين النجفى في تأويل الآيات عن الصدوق مثله . وأروى هي أم عثمان بلى كرى بن ربيعة بن عبد شمس .

وقال صفحة ٢٥٠ في الدليل الثاني عشر الأخبار الواردة في الموارد المخصوصة من القرآن ، الدالة على تغيير بعض الكلمات والآيات والسور بأحدى الصور المتقدمة ، وهي كثيرة جداً حتى قال السيد نعمة الله الجزائرى في بعض مؤلفاته كما حكى عنه : إن الأخبار الدالة على ذلك تزيد على ألفى حديث . وادعى استفاضتها جماعة كالمفيد ، والمحقق ، والعلامة المجلسى ، وغيرهم ، بل الشيخ أيضاً صرح في « التبيان » بكثرتها ، بل ادعى تواترها جماعة يأتى ذكرهم في آخر

تواتر الأخبار
التعريف عند
القوم

البحث . ونحن نذكر منها ما يصدق دعواهم مع قلة البضاعة ، ونبين في آخرها ضعف بعض الشبهات التي أوردتها جماعة . واعلم أن تلك الأخبار منقولة من الكتب المعتمدة التي عليها معول أصحابنا في إثبات الأحكام الشرعية والآثار النبوية » .

ثم بعد هذا من صفحة ٢٥٢ إلى صفحة ٣٥٠ ذكر القرآن سورة سورة ، وأورد ما اطلع عليه مما حذف منه على زعمهم ناقلاً لذلك من كتب أسلافه . الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية .

ما حذف من
سورة البقرة
وآل عمران

قال فيما حذف من سورة البقرة : روى ثقة الاسلام الكليني عن الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : نزل جبرائيل بهذه الآية هكذا : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا في قَاتُوا بسورة من مثله » . وروى الكليني أيضاً عن أبي جعفر أيضاً قال نزل جبريل بهذه الآية هكذا : « فبدل الذين ظلموا آل محمد حقهم قولاً غير الذي قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا آل محمد حقهم وَجَزَاءٌ مِنَ السَّمَاءِ بما كانوا يفسقون » . وذكر هذا أيضاً عن جماعات من شيوخ الشيعة . قال : وروى الكليني عن أبي عبد الله في قول الله : « واتبعوا ما تنزل الشياطين بولاية الشياطين على ملك سليمان » .

وقال في سورة آل عمران : هكذا نزل قول الله : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران وآل محمد على العالمين » . ونقل هنا رأيين أحدهما يقول : إن كلمة « آل عمران » لم تكن موجودة ، وإنما كان الموجود مكانها « آل محمد » ، فأزالوا آل محمد ووضعوا « آل عمران » بدلها . فتكون الآية مبدلة محرفة . والرأي الآخر يقول : إن كلمة « آل عمران » كانت موجودة وكان بعدها آل محمد فأزالوا آل محمد . وعلى هذا الرأي فالذي في الآية نقصان . قال : وروى على .

(٥٥)

ابن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن سنان قال : قرأت على أبي عبد الله عليه السلام : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » فقال أبو عبد الله : خير أمة يقتلون أمير المؤمنين والحسن والحسين ! فقال القارئ : جعلت فداك كيف نزلت ؟ قال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . ألا ترى مدح الله لهم « تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » ، وتؤمنون بالله ^(١) » . قال : وروى النعماني في تفسيره عن الصادق عن أمير المؤمنين أنه قال : وأما ما حُرف من كتاب الله . قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » فحُرفت إلى « خير أمة » الخبير وهو طويل . وفي المجلد التاسع عشر من البحار : روى مشايخنا عن أصحابنا عن أبي عبد الله قال : قال أمير المؤمنين - وساق الحديث إلى أن قال : باب التحريف في الآيات التي هي خلاف ما أنزل الله مما رواه مشايخنا من العلماء عن آل محمد قوله عز وجل : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . فقال أبو عبد الله لقارئ هذه الآية : ويحك « خير أمة » يقتلون ابن رسول الله ؟ قلت : جعلت فداك فكيف هي ؟ فقال أنزل الله : « كنتم خير أمة » ألا ترى مدح الله لهم : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . فسعه لهم دليل على أنه لم يكن الأمة بأسرها ، ألا ترى أن الأمة الزناة ، واللاطحة ، والسراق وقطاع الطريق ، والظالمين ، والفاسقين ^(٢) أفترى الله مدح هؤلاء وسام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ؟ كلا ، ما مدح هؤلاء ولا سام أخياراً بل هم الأشرار . قال : وقال علي بن إبراهيم في قوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » . قال أبو عبد الله : ما كانوا أذلة

(١) ومعنى هذا أن المسلمين لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ولا يؤمنون بالله

(٢) كذا بالنصب ، وكذا هم الأمة بأنها الأصناف الفاسقة التي ذكرها . والاستدلاله

سبب لا نتا اذا قلنا : للعرب نصرنا الاسلام والنبي لم تكن كل عربى -

وفيه رسول الله . وإنما نزل : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم ضعفاء » . وقال في قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء » أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » قال أبو عبد الله : إنما أنزل الله : « لك من الأمر شيء » . وعن محمد ابن جمهور عن بعض أصحابنا قل : تلوت بين يدي أبي عبد الله هذه الآية « ليس لك من الأمر شيء » فقال : بلى وشيء ! وهل الأمر كله إلا له ؟ قال : وروى النعماني بالسند المتقدم عن أمير المؤمنين : وقال سبحانه في سورة آل عمران : « ليس لك من الأمر شيء » أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون لآل محمد » لخذفوا آل محمد .

وقال في سورة النساء : وعن البرقي عن الديلمي عن داود الرقي قال قال أبو عبد الله : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم وآل عمران وآل محمد الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً » ثم قال : نحن والله الذين ذكرم الله في كتابه ، ونحن والله المحسودون ثلاثاً . قال : وروى ثقة الاسلام في روضة الكافي بالإسناد عن أبي الحسن في قول الله : « أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم فقد سبقت عليهم كلمة الشقاء وسبقت لهم العذاب وقل لهم في أنفسهم قولاً بلياً »^(١) . قال : وروى السيارى عن أبي عبد الله « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول ، وظلموا آل محمد حقهم لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً » . قال وعن علي بن إبراهيم بالإسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك يا علي فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » هكذا نزلت . قال : وروى ثقة الاسلام عن العدة عن أبي عبد الله في هذه الآية : « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت في أمر الولاية ويسلموا لله الطاعة تسليماً » . وروى العياشي

(١) كذلك ذكروا الآية مريدة ومنقوصة .

المهدوف من
سورة النساء

عن جابر عن أبي جعفر : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك في ما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى محمد وآل محمد ويسلموا تسليماً » . وعن عبد الله بن يحيى الكاهلي عن أبي عبد الله قال : والله لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وحججوا البيت ، وصاموا شهر رمضان ثم لم يسلموا لنا لكانوا بذلك مشركين . . . ثم قرأ : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك في ما شجر بينهم مما قضى محمد وآل محمد » . وروى ثقة الاسلام عن أبي عبد الله : « ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم وسلوا للامام تسليماً أو أخرجوا من دياركم رضاله ما فعلوه إلا قليل منهم . ولو أن أهل الخلاف فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً » . قال : وروى الكليني بسنده عن أبي جعفر قال نزل جبرائيل بهذه الآية هكذا : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم في ولاية على فآمنوا خيراً لكم ، وإن تكفروا بولايته فإن الله ما في السموات والأرض » .

وقال في سورة المائدة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » قال : إن الرسول عليه الصلاة والسلام عقد لعل عليهم بالخلافة في عشرة مواطن ثم أنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدت عليكم لأمر المؤمنين صلوات الله عليه » . قال : وروى ابن شهر آشوب في المناقب كما في البحار عن عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جده في قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك في على وإن لم تفعل غذبناك عذاباً أليماً » فطرح عدوى اسم على عليه السلام ^(١) .

وقال في سورة الأنعام : وعن أبي عبد الله في قوله : « والله ربنا ما كنا » ^(٢) . وقد ذكرنا روايات كثيرة - ول هذا النقل ما يدل على أنهم يصطلحون على بن أبي طالب على رسول الله بل ، كأنهم يرونه خادماً له .

المحدوف من
سورة المائدة

ما ذكره في
سورة الأنعام

مشركون بولاية علي . قال وروى الكليني بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال سألت أبا عبد الله عن قوله تعالى : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » فقال : الورقة : السقط ، والحبة ، الولد ، وظلمات الأرض : الارحام ، والرطب ما يحيا الناس به واليابس ما يقيظ ، وكل ذلك في إمام مبين . ثم ذكر عن الخاصة والعامة أن الامام المبين هو علي بن أبي طالب .

وقال في سورة الأعراف : إن الله أنزل هذه الآية هكذا : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم وبعد رسولى وعلى أمير المؤمنين » . وهنا ساق روايات كثيرة .

وقال في سورة براءة : روى العياشى عن عبد الله بن محمد الحجال قال : كنت عند أبي الحسن الثاني ومعى الحسن بن الجهم فقال له الحسن : إنهم يحتجون علينا بقول الله : « فأنزل الله سكينته على رسوله » وما ذكره (يعنى أبا بكر) بخير فيها . قال قلت جعلت فداك هكذا تقرأونها ؟ قال هكذا قرأتها . وعن زرارة قال أبو جعفر « فأنزل الله سكينته على رسوله » ألا ترى أن السكينة إنما نزلت على رسوله : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » فقال هو الكلام الذى تكلم به عتيق^(١) . وروى الكليني بسنده عن الرضا : « فأنزل الله سكينته على رسوله وأيده بجنود لم تروها » هكذا تقرأونها وهكذا تنزيلها : وروى السيارى عن أبي عبد الله قال قال أبو جعفر : « فأنزل الله سكينته على رسوله » فقلت له « عليه » فقال « على رسوله » ، ألا ترى أن السكينة نزلت على رسول الله . وعن أبي جعفر أنه قرأ « فأنزل الله سكينته على رسوله » وأيده بروح القدس منه .

(١) عتيق هو أبو بكر الصديق . فهو الذى كفر وجعل كلمة السفلى عند الشيعة .

ما ذكرناه في
سورة الأعراف
وبراءة

قلت : ليس هكذا نقرأها ، قال : لا ، هكذا فقرأها لأن تنزيلها هكذا .
قال الرافضى : وللاصحاب كلام طويل فى المقام فى استهجان عود الضمير
« عليه » إلى صاحب . قال : والآية تدل على عدم إيمان صاحب . والعامّة
قبّحهم الله يفتخرون بها حتى إنى رأيت بعض مصاحفهم كانت الآية المذكورة
مكتوبة فيها بماء الذهب . قال : وروى السيارى عن أبى عبد الله أنه قال : « ويلك »
من كتاب الله . وعن مثالب بن شهر آشوب عنهم عليهم السلام أن الآية المذكورة
هكذا « ويلك لا تحزن » . قال : وروى الكلينى قال : قرأ رجل عند أبى
عبد الله عليه السلام « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ، فقال :
ليس هكذا وإنما هى : « والمؤمنون » ونحن المؤمنون . قال : وروى على بن
إبراهيم قال نزلت : « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ^(١) » لأن النبى لم يجاهد
المنافقين بالسيف قال الطبرسى : وروى فى قراءة أهل البيت « جاهد الكفار
بالمنافقين » قالوا عليهم السلام لأن النبى لم يقاتل المنافقين ، وإنما كان يتألفهم ،
لأن المنافقين لا يظهرون الكفر

وقال فى سورة الرعد : كان التنزيل هكذا : « إنما أنت منذر ، وعلى لكل
قوم هاد ^(٢) » . وروى شمس الدين محمد بن بديع الرضوى فى الحبل المتين فى
تفسير كازر والمولى فتح الله فى سياق الآيات المحرفة : وفى سورة الرعد : « إنما
أنت منذر للعباد ، وعلى لكل قوم هاد »

ما ذكره فى
بالي سور القرآن

وقال فى سورة الحجر : روى الكلينى بالإسناد ، عن أبى عبد الله قال :
« هذا صراط على مستقيم » . وقد أورد هنا روايات كثيرة
وقال فى سورة النحل : وعن أبى جعفر عليه السلام قال : أنزلت هذه الآية

(١) يهتدون بالمنافقين الصحابة الذين كانوا يقاتلون مع رسول الله الكفار

(٢) ولا شك ان الهادى لكل قوم أفضل ممن هو منذر فقط .

هكذا : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم في على قالوا أساطير الأولين ». وهذا ذكر عدة روايات . قال : وروى النعماني في تفسيره بالاسناد المتقدم عن أمير المؤمنين في سياق الآيات المحرفة : ومنها قوله تعالى في سورة النحل : « أن تكون أئمة هي أزكى من أئمتكم » فجعلوها « أمة » . وذكر هنا جملة روايات .

وقال في سورة الاسراء : عن أبي جعفر قال : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك في على » . وقد ساق هذا عن غير واحد من شيوخهم وعن غير كتاب من كتبهم . قال : وروى المياثي بالاسناد عن أبي جعفر قال نزل جبريل بهذه الآية على محمد هكذا : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين آل محمد حقهم إلا خساراً » . وروى محمد بن عباس بالسند عن أبي عبد الله قال نزل جبريل بهذه الآية هكذا « فأبى أكثر الناس بولاية على إلا كفوراً » .

وقال في سورة الكهف قال أبو عبد الله عليه السلام نزلت هذه الآية هكذا : « وقل الحق من ربكم في ولاية على فن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين آل محمد ناراً أحاط بهم سرادقها » . وقد أورد هنا جملة أخبار .

وقال في سورة (طه) : وعن أبي الحسن : موسى بن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال سمعت أبي يقول : « وعنت الوجوه الحي القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً لآل محمد ﷺ » هكذا نزلت . وروى السيارى بالسند عن أبي عبد الله في قوله عز وجل : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل كلمات في محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم ففسى » هكذا والله نزلت .

وقال في سورة الأنبياء : وروى السيارى بالاسناد عن عمير وجابر : « وأسروا

النجوى الذين ظلموا آل محمد حقهم : هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ أفأنون السحر وأنتم تبصرون »

وقال في سورة (الفرقان) : روى على بن إبراهيم بالسند عن أبي جعفر قال نزل جبريل بهذه الآية هكذا : « وقال الظالمون لآل محمد حقهم : إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » . وروى السيارى بالاسناد عن أبي عبد الله أنه قال نزل جبريل بهذه الآية على رسول الله هكذا وإني مصحف على بن أبي طالب : « ليتني لم آخذ زفر خليلا » . وعن البرقي عن خلف عن أبي بصير عن أبي عبد الله قال : إن في الكتاب لتغييراً كبيراً ، فإن الله سبحانه قد سمى رجلاً باسمه فقال القوم : « ليتني لم آخذ فلاناً خليلاً » فكنوا عن اسمه وسيظهر يوماً . وعن أبي جعفر : « وبوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتنا ليتني لم آخذ زفر خليلاً » يقول الأول للثاني ^(١)

وقال في سورة الأحزاب : روى على بن إبراهيم بالسند عن أبي عبد الله في قوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله في ولاية على والأئمة من بعده فقد فاز فوزاً عظيماً » هكذا نزلت

وقال من سورة التحريم : عن أبي عبد الله ، « إن تتوبا إلى الله مما همتا به من السحر فقد زاحمت قلوبكما »

وقال في سورة المائدة : روى السيارى بالسند عن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عن قول الله : « إن أهلكني الله ومن معي » قال هذه الآية مما حذفوا وغيروا وبدلوا ، فإن الله عز وجل لا يهلك محمدًا رسولاً ولا من كان معه من المؤمنين وهو خير ولد آدم ، ولكن قال الله : « رأيتم إن أهلككم الله جميعاً ^(٢) » ورحمنا

(١) أي يقول أبو بكر لسر . فالظالم في الآية هو الصديق وزفر هو الفاروق

(٢) هذا يدل على أنهم يكفرون جميع الصحابة الخاطئين بالقرآن

فمن يجيركم من عذاب أليم ؟

وقال في سورة « الجن » : عن محمد بن أبي بكر بالإسناد عن أبي جعفر في قوله تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » قال هم الأوصياء والأئمة منا واحد فواحد : « فلا تدعوا إلى غيرهم فتكونوا كن دعا مع الله أحداً » هكذا نزلت .

وقال في سورة المزمل : روى الكليني بالإسناد عن محمد بن الفضيل قلت : « واصبر على ما يقولون فيك واحرم هجراً جليلاً وذرنى يا محمد والمكذبين بوصيك أولى النعمة » قلت : إن هذا تنزيل ؟ قال : نعم .

لماذا سميت
الشيعة تراباً

وقال في سورة (النبأ) : روى الشيخ الجليل محمد بن إبراهيم النعماني في تفسيره عن الصادق عن أمير المؤمنين في أمثلة الآيات المحرفة قال عليه السلام : ومثله : « ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابياً » فحرفوها فقالوا « تراباً » . وذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يكثر من مخاطبتي بأبي تراب . وهنا أورد روايات كثيرة ، قال : وقال العلامة المجلسي في تاسع بحاره : يمكن أن يكون ذكر الآية لبيان وجه آخر لتسميته بأبي تراب لأن شيعته لكثرة تذلهم له وانقيادهم لأمره سموهم « تراباً » كما في الآية الكريمة ، ولكونه قائم ومالك أمورهم^(١) هو أبو تراب (كذا في النسخة المطبوعة) . ويحتمل أن يكون استشهاده لتسميته بأبي تراب ، أو لأنه وصف به على جهة المدح لاعلى ما يزرعه النواصب لعنهم (كذا) حيث كانوا يصفونه به استخفافاً . فالمراد بالآية : « يا ليتني كنت ترابياً » . والأب يسقط في النسبة مطرداً وقد تحذف الياء أيضاً كما تقول : نعيم وقريش لبنيهما . . .

(١) وهذا تصريح من القوم جرى تأليبهم علياً واعتقادهم أنه مالكهم ومالك أمورهم ، وهذا كثير في كلامهم .

وقال في سورة « التكوير » : إن قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت »
محرقة عن : « وإذا الموءودة سئلت » قال : ويراد بها موءدة أهل البيت المضئعة .

وقال في سورة الليل قال قرأ أبو عبد الله : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا
نجلى ، الله خلق الزوجين : الذكر والأنثى ، ولعل الآخرة والأولى » قال هكذا
نزلت . قال : وعن بونس عن علي بن أبي حمزة عن فيض بن المختار عن أبي
عبد الله أنه قرأ : « إن علياً للهدى ، وإن له للآخرة والأولى ^(١) » وهنا ذكر

الآخرة
والأولى لعل بن
أبي طالب

روايات كثيرة .

وقال في سورة الانشراح : إن القرآن هكذا : « ألم نشرح لك صدرك
بعلی ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، بعلی
صبرك . فاذا فرغت من نبوتك فانصب علياً وصياً ، وإلى ربك فارغب
في ذلك » .

وقال في (سورة) القدر : إن السورة هكذا نزلت : « إنا أنزلناه في ليلة
القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر يملكها بنو أمية
ليس فيها ليلة القدر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من عند ربهم على
محمد وعلى أوصيائه محمد وعلى آل محمد بكل أمر » .

وقال في سورة الكوثر : إنها نزلت هكذا : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل
لربك وانحر ، إن شئت لك عمرو بن العاص هو الأبر » .

هذه أشياء يسيرة قليلة من الأشياء الكثيرة التي نقلوها في كتاب « فبجل
الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب » وزعموها من كلام الله . وقد ذكر
صفحة ١٨٥ كلاماً طويلاً على اعتباره سورة من السور المحنوفة قال : قال صاحب

(١) ولا ريب في أن هذا كفر بواح لمؤذ بالله .

كتاب « بستان المذاهب » بعد ذكره أصول عقائد الشيعة مامعناه : و بعضهم يقولون : إن عثمان أحرق المصاحف وأتلف السور التي كانت في فضل علي وأهل بيته عليهم السلام منها هذه السورة :

كلام ترممه
الشيعة سورة
محدودة من
القرآن

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالتورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم ، نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم . إن الذين يوفون بعهدي الله ورسوله في آيات لهم جنات النعيم ، والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه ينفذون في الجحيم ، ظلموا أنفسهم وعصوا الوحي الرسول ^(١) أولئك يستقون من حميم . إن الله الذي نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه يفعل الله ما يشاء ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسلمهم فأخذتهم بمكرهم . إن أخذي شديد أليم : إن الله قد أهلك عاداً وثموداً (كذا بالتنوين) بما كسبوا وجعلهم لكم تذكرة فلا تتقون . وفرعون بما طغا على موسى وأخيه هارون أغرقته ومن تبعه أجمعين ليكون لكم آيته (كذا) وإن أكثركم فاسقون ، إن الله يجمعهم في يوم الحشر فلا يستطيعون الجواب حين يسألون . إن الجحيم مأواهم ، وإن الله عليم حكيم . يا أيها الرسول بلغ إنذارى فسوف يعلمون . قد خسر الذين كانوا عن آياتي وحكي معرضون ^(٢) مثل الذين يوفون بعهدي إني جزيتهم جنات النعيم ^(٣) إن الله لذو مغفرة وأجر عظيم ، وإن علياً من المتقين ، وإنا لنوفيه حقه يوم الدين ، ما نحن عن ظلمه بغاقلين ، وكرمناه على أهلك أجمعين ،

(١) وهذا لس على أنهم يعتقدون علياً رسولاً مع الرسول أو هو الرسول .

(٢) كذا بالواو والتنوين . (٣) مثل هذه التراكيب الركيكة لا يقولها عربي أبداً فضلاً عن أن يقولها الله تعالى عن ذلك . ولا شك أن هذا الكلام من تأليف الأعمام الجاهلاء بلفظ العرب . وهذا يتوى ما ذكرناه من أن مذهب الشيعة من وضع الجهم دون العرب .

فانه وذريته لصابرون ، وإن عدوهم إمام (شكلت الميم بالنصب) المحرمين ، قل
للذين كفروا بعد ما آمنوا : أطلبتم زينة الحياة الدنيا واستعجلتم بها ونسيتم
ما وعدكم الله ورسوله وتعضتم اليهود من بعد توكيدها . وقد ضربنا لكم الأمثال .
لعلكم تهتدون . يا أيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفاه
مؤمننا ومن يتولاه من بعدك يُظهرون . فأعرض عنهم إنهم معرضون (ما معنى هذا
العرض ؟) إنا لهم محضرون (شكاهه بفتح الضاد) في يوم لا ينفي عنهم شيء
ولا هم يرجعون . إن لهم في جهنم مقاماً عنه لا يعدلون . فسبح باسم ربك وكان
من الساجدين . ولقد أرسلنا موسى وهارون بما استخلف فيبنوا هارون (ما معنى
هذا ؟) فصبر جميل ، فجعلنا منهم القردة والخنازير ولعنناهم إلى يوم يبعثون . فاصبر
فسوف يبصرون . ولقد آتينا بك الحكم (كذا) كالذين من قبلك من المرسلين .
وجعلنا لك منهم وصياً لعلهم يرجعون . ومن يتول (وضعوا كسرة تحت اللام)
عن أمري فإني مَرَجُهُ (كذا شكاهه) . فليتمتعوه بكفرهم قليلاً فلا تسأل
عن الناكثين . يا أيها الرسول قد جعلنا لك في أعناق الذين آمنوا عهداً نفهمه
وكن من الشاكرين . إن علينا قاتلاً بالليل ساجداً (كذا) يحذر الآخرة ويرجو
ثواب ربه . قل هل يستوى الذين ظلموا وهم بعبادتي يفعلون (يستوون هم ومن
أيها العلماء) سيجعل الاغلال في أعناقهم وهم على أعمالهم يندمون (كذا)
كسرت الدال) إنا بشرناك بذريته الصالحين وإنهم لأمرنا لا يخلفون (كذا
ضبطوه) فعليهم منى صلوات ورحمة أحياء وأموات يوم يبعثون ، وعلى الذين يبنون
عليهم من بعدك غضبي ، إنهم قوم سوء خاسرين (كذا باليله والنون) وعلى
الذين سلكوا سلكهم منى رحمة وهم في الغرقات آمنون . والحمد لله رب العالمين »
قال الرافضى بعد إيراد هذا الكلام على أنه سورة من القرآن : « قلت .
ظاهر كلامه أنه أخذها من كتب الشيعة ولم أجد لها أثراً فيها غير أن الشيخ محمد

ابن علي بن شهر آشوب المازندراني ذكر في كتاب المثالب على ما حكى عنه أنهم أسقطوا من القرآن تمام سورة الولاية ، ولعلها هذه السورة . والله العالم . . . » . انتهى كلام الرافضى .

وهذا الكلام الذى يزعمونه من كلام الله لا يصح أن يكون من كلام عوام العرب وجهلائهم فضلا عن أن يكون من كلام الله ومن كلام رسوله أو من كلام أحد الأئمة المعصومين عندهم من آل البيت النبوى . وإنما هو من كلام الأعجم الذين لا يعرفون أساليب اللغة العربية ، ولا يعرفون نحوها ، ولا صرفها ولا مفرداتها ولا قواعدها . وهذا القرآن يضارع قرآن غلام أحمد القاديانى ، بل ذاك انظف وأفضل قرآنًا . وإذا قيل فى الشعر :

هل من الأحسن
الأمراض من
هذه الآفات
الاعتقادية

وهاج نفسه من لم يميز • كلامى من كلامهم المرء

كان أهجى لنفسه ولعقله وذوقه وفطرتيه واستعداده ذاك الذى لا يميز كلام الله من كلام هؤلاء الأحاجم . ويخطئ الذين يحسبون أن من الخبير والأحسن الاعراض عن مثل هذا الكلام والاعراض عن نقله وعرضه على القراء لثلاثهم حول القرآن حائمة من الشبهات والريب . وهذا الزعم خطأ ظاهر . وذلك أن من الانتصار للقرآن أن نضع هذا المرء إزاء ليتبين فضله وإعجازه ، ولتظهر خيبة المعارضين له المنكذبين عليه إذ (وبضدها يتبين الأشياء) . والحق يزداد جمالا ووضوحا وقوة حينما يوضع إلى جانبه الباطل ، والعالم يتبين فضله بإزاء الجاهل ، والنجوم الثواقب لا يتبين اشراقها ولا لاؤها وجمالها إلا فى وسط الدجئات الحوالك

وهذا الكتاب — أعنى كتاب (فصل الخطاب) فى تحريف كتاب رب الأرباب) يقع فى ما يناهز أربعمائة صفحة كبيرة . وكله من هذا النوع الفاحش ، الذى يتبرأ إن شاء الله منه كل من يؤمن بالله وباليوم الآخر ، ويتبرأ

منه كل من يحب أمته وقومه ، بل يتبرأ منه كل عربي على وجه الأرض . إذ لا شك أن هذا كله من وضع المعادين للعرب وللإسلام والمسلمين ، الكائدين لله ولرسوله ولصحابته شتاً من عند أنفسهم .

ويلاحظ مما قلناه أن وضعة هذا الكفر والالحاد كانوا يقصدون بما يضعون أمرين اثنين : أحدهما الامعان في ثلب الصحابة والمسلمين و تنقصهم وإكفارهم ووضعهم في زمر الملحدين والمنافقين الذين لم يؤمنوا بالله ولا برسوله ولا بدينه قط ، والذين مازالوا يكيّدون للإسلام ولأهل الإسلام ونهى الإسلام . وهذا الغرض ظاهر بارز في الجمل التي قلناها من كلامهم . . . وثاني الأمرين الامعان في تعظيم علي بن أبي طالب وآله الممدودين عندهم إلى حد أن جعلهم أنبياء ورسلاً ، بل فوق الأنبياء والرسل . فانهم جعلوا الملائكة والروح ينزلون عليهم ليلة القدر بكل أمر ، وجعلهم مختلف الملائكة ، أي موضع اختلافهم ، أي مجيئهم وذهابهم ، وجعلهم « الكتب الناطقة بكل فائب ومستور ، والزبر المحتوية لما يكون أو مضى في سالفات الدهور . . . ومفاتيح خزانة العلم المسطور في رق منشور ، خصوصاً على مختلف الملائكة في الآصال والبكور »^(١) ، القطب الذي على مدار وجوده الأفلاك تدور^(٢) . . . كما تقدم في خطبة الكتاب . ولم يقفوا عند هذا الحد الأبعد الفظيع بل تجاوزوه بمراحل وفراخ حق جعلوا علياً المهدي ، وجعلوه المالك للآخرة والأولى ، المالك لهم ولأموالهم كلها ، وجعلوا الرسول مالك أزمة النشور ، وجعلوا الأمر كله له ، وزعموا قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء » محرفاً مبدلاً . ومن القبيح أن صاحب هذا

(١) يمتنون أن للملائكة تختلف إلى علي بن أبي طالب صباحاً ومساءً . والانبيااء لا يريدون من هذا شيئاً

(٢) وهذه هي المعضلة التي لا تنهم ، إذا ما معنى دوران الأفلاك على مدار وجود علي ؟ لا معنى لهذا إلا أن يراد أنه هو مسير الأفلاك ومسير العالم كله وجوداً وفناء وتصريفاً .

الكتاب - أعنى كتاب « فصل الخطاب » - يقول فى أثناء مباحث الكتاب هذه الجملة : « فأقول مستمداً من آل الرسول ! » كما يقول المسلم : « فأقول مستمداً من الله أو مستعيناً بالله »

فوضعة هذا الكلام يقصدون من وراء ما وضعوا ويضعون أمرين : ماذا ؟ وماذا ؟
 تنقص أوائل المسلمين ، ووضعهم في أرذل طبقات المناققين ، والضالين الجرمين
 ثم الغلو بآل النبي الغلو الأبعد المنكر إلى حد العبادة والتأليه . أما الأمر الأول
 فالخامل لهم عليه خصومة العرب وشتان الاسلام ، لأنهم ليسوا عرباً ، ولأنهم لم
 يدخلوا حقيقة في الاسلام . وأخص بهذا نفس وضعة هذا الكلام الذي تقلناه
 لا أتباعهم المقلدين لهم إذ قد يكونون محدوعين بهم . وهذا عندنا ظاهر واضح .
 وأما الأمر الثاني فهو نتيجة للأمر الأول . فأنهم عند ما امتلأت صدورهم بعداوة
 العرب وبشتان الاسلام حاولوا حرب هذين العدوين الخصمين بلا خصومة .
 منهما ، وحاولوا ضربهما بالضربات القاتلة ، فكان السلاح الذي حملوه للانتقام
 من هذين الخصمين وللإيقاع بهما هو الغلو في آل النبي . والغلو في آل النبي له
 أثران ونتيجتان : أحدهما إفساد الدين والتوحيد بمبادتهم وباعطائهم حق الله
 الخالص له . وثانيهما إفساد الدولة بالثورات والاضطرابات . وبهذين الأثرين
 أو النتيجتين يستطيع الانتقام من العرب بإزالة ملكهم واكتساح سلطاتهم ،
 ويستطيع الانتقام من الاسلام - وهو عز العرب - بإفساد أصوله وعقائده ،
 ومزجه بالشرك وعبادة الخلقين . فإذا زال ملك العرب وتناثرت عروشهم الواحد
 قتل الواحد ، وفسدت عقائد الاسلام وأصوله ، وأصابها ما أصابها ولا بسبها ما لا بسبها
 من الاشراك والضلال فقد تم الانتقام بأروع صورته ومظاهره .

وقد كنت ممعت من أحد الذين عرفوا بعض أغراض هذه الطائفة وألما بشئ من أسرارها وأسرار دعوتها ودعاؤها - لأنه كان معاشاً لهم مواطناً - انهم

يزعمون إيماء — وأحيانا تصريحاً — أن القرآن لم ينزل — كما يقول المسلمون جميعاً — لهداية الخلق ودعائهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم . . . وإنما نزل لأجل التعريف بهلى وبآله ، ونزل للدلالة عليهم والحض على إكبارهم وتقديسهم ولهذا فإن الشرائع عندهم تؤخذ مما يروونه بكتبهم عن علي وعن الأئمة المعصومين لا من القرآن ولا من السنة النبوية ، بل الكتاب والسنة لا وزن لهما عندهم ولا ذوات القرآن عند الشيعة

وقد تقدمت الدلائل على ذلك .

وقد تبين لي اليوم صدق هذا القائل إلا أنني أزيد عليه شيئاً ، فأقول : إنهم يرون أن القرآن لم ينزل إلا لأمرين اثنين : أحدهما امتداح علي وآله ، وهذا الامتداح الأحق المجنون أو المخادع المنافق . وثانيهما هجاء الصحابة وهجاء المسلمين وإكفارهم وإفساقهم وقذفهم بكل الأدواء النفسية والاعتقادية ، ورشقهم بتهمة النفاق الحاذ المنكر . والدليل على ذلك زعمهم أن المحذوف من القرآن أكثر من النصف — وهذا مذكور في هذا الكتاب وفي غيره . وقد زعموا أن المحذوف منه إما هجاء وإكفار للصحابة والمسلمين ، وإما ثناء ومدح لعلي وآله ، إلا الأقل النادر . وقد زعموا أيضاً أن الموجود من القرآن المبق عليه يراد بالكثير منه امتداح علي وآله وثلب الباقيين من المسلمين . وقد زعموا كما تقدم أن القرآن قد نزل بمذمة ستين أو سبعين رجلاً من رؤوس قريش مصرحاً بأسماهم ، وبعلاماتهم الجليلة الظاهرة ، وأن الصحابة المنافقين حذفهم بعد رسول الله من القرآن رغبة لقريش المشركين . وإنما أبقوا على أبي لهب احتقاراً لرسول الله وإزدراءً به لأنه عمه . . . فكان القرآن ما نزل عندهم إلا للهدى والضلال : هجاء المسلمين بادئاً بالصحابة ، وامتداح علي وأولاده والتعريف بمحققهم . وأغراضهم الحقيقية من وراء ذلك هي ما ذكرناه .

نحن لا نناقش القوم بهذه الكلمة ، وإنما ذكرنا ما ذكرنا لنقول : ألا ينجبل قوم

هذا نصيبهم من عناد الإسلام وحرب المسلمين من أن يؤلفوا كتاب كشف
الارتباب ، في أتباع محمد بن عبد الوهاب ، ليضمنوه غيرتهم على دماء المسلمين
وعلى أعراضهم وعقائدهم ، ولكي تعرف - معاشر المسلمين - أعداءنا من
أعدائنا ، لنف من الفريقين موقفا صريحا واضحا ، يدفعنا إليه الإخلاص
للإسلام ، والحرص على جماعات المسلمين . فما ينبغي أن يكون عدد المسلمين
أربعمائة مليون من أمثال هؤلاء ، وما يضرنا أن يكون عددهم مائة ألف مسلم أمثال
المسلمين الذين توفى عنهم رسول الله . بل ما يضرنا أن نكونوا مسلما واحداً مثل
لصديق أو الفاروق . إن نحر الشعوب والأمم وقوتها ليس بالعدد ، ولكن
بالعمل . والشواهد على هذا منظورة في الوقت الحاضر ، مقروءة في الزمن الغابر .
وقد كان الصحابة يوم أن توفى رسول الله ﷺ لا يزيدون على مائة ألف ،
وقد استطاعوا أن يبعثوا من عددهم هذا الضئيل عدة جيوش مختلفة إلى جهات
مختلفة فيقهرها بها أقوى دول الأرض إذ ذاك . وكان عددهم في غزوة بدر
الفاصلة ثلاثمائة ، وقد استطاعوا أن ينتصروا بتلك الفئة القليلة أول انتصار حاسم
للإسلام . وقد كان عددهم أقل من ذلك وأكثر . وكانوا في تلك الحالات كلها أعز
منهم اليوم وعددهم كما يقولون أربعمائة مليون . فأين غناء هذا العدد الهائل ؟
شعبان سنة ١٣٥٧ هـ عبد الله على القصبي بالقاهرة

﴿ تم الجزء الثاني ويليه إن شاء الله الجزء الثالث ﴾

فهرست الجزء الثانى

﴿ من كتاب الصراع بين الاسلام والوثنية ﴾

صفحة	
٣	من قول الشيعة فى الشيعة . كتاب فرق الشيعة - لجارودية - عبد الله ابن سبا - الكيسانية . البيانية - المنصورية
١٥	النبي هو موجد العالم
١٦	رجوع الأمركله إلى على
١٦	على غير محدود الذات ولا الصفات
١٧	وجود على ومع كل الوجود
١٧	آل النبي يملكون أمور العالم
١٧	الدنيا والأخرى أقل عطايا السيدة زينب
١٧	مجاورة أحد قبور آل البيت يعصم من هول القبر
١٨	ضربة على لعمر بن عبدود أفضل من عبادة الخلائق
١٩	إنكارم لبنات رسول الله
١٩	ذرية النبي محرمون على النار، ومعصومون من كل سوء
٢٠	بنو أمية ليسوا من قریش
٢٠	ملوك أهل السنة أولاد زنا
٢١	من بكى أوتباكى على الحسين حرم على النار
٢١	على قسيم النار ومنقذ الخلق يوم القيامة
٢٢	زائر الحسين نافع، وزيارته أفضل من الحج والاعتمار

صفحة	
٢١	الشفاء وإجابة الدعاء في قبر الحسين
٢٢	الامام المنتظر يأتي بأمر جديد وكتاب جديد
٢٣	بطلان الجهاد في سبيل الله عند الشيعة
٢٦	الرجعة ومعناها عندهم
٣٠	بماذا يعرف الشيعة الحق ؟ بمخالفة المسلمين
٣٤	مصنف طائفة، جماعة على، الجفر - المصاحف غير القرآن - لافرق بين الامام والرسول - تكفيرهم لا تمتهم وتنكثير بعضهم لبعض - مافى، جماعة على من المعلوم والمعارف - لدى القوم مجازان - اشتباك الجفر على جميع العلوم سوى على علم الله - مؤلفات على بن أبى طالب ما تم عاشوراء
٤٤	اعتقاد الوهابيين في الأنبياء والصلحين في قبورهم - فضل الأنبياء ليس في مقدرتهم ولكن في عبادتهم وحبهم - ليس في محو الالهيته تعظيم لهم - ما يمنع من أنواع التوسل والاستغاثاة والاستشفاع - تقبيل القبر ليس من الدين - تقديم وصف النبوة على وصف الرسالة - لا يضير الرسول عبادة من عبوده
٥٦	المسلمون في نظر الوهابيين - لا يدل على حقيقة المرء سوى أقواله وأفعاله - الوهابيون لا يبارزون غيرهم من المسلمين في عن - أكبر رجل سعودى في مصر يعلى الجمع والجمعات في المساجد العامة - الوهابيون ينفون عن أنفسهم ككفر المسلمين - شبهاتهم على أن الوهابيين يكفرون المسلمين - الحروب بين الناس لا تنل على نوع العقيدة - دلالة الحرب معتركة بين المتخالفين - قد حفروا الجاهل بالشرعاً وعقله

- لا ريب في ابتداء طوائف من المسلمين — ما أعجب أمر الشيعة
 — وقوع الابتداء ضروري — سبى ذرارى المسلمين — ما يقولون في
 حروب على — توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية — لا ينجو المرء
 إلا بالتوحيدين — إيمان المشركين بأن الله الخالق لكل شيء —
 الكلمة التي يصير بها المرء مسلماً — كلمة لا خالق إلا الله ليست من
 الذكر المرغوب فيه — الكفر المطلق والكفر المقيد
- ٩٣ هل المسلمون في أمان من الشرك ؟
 ٩٥ الدلائل على أن طوائف من المسلمين يقعون في الاشرار
 ١٠١ كلام الشاطبي في فساد الناس وفشو البدع
 ١٠٣ كلام ابن وضاح في ذلك
 ١٠٩ عبادة الأصنام في المحاريب
 ١١٠ حديث ذات الأنواط
 ١١١ الكتب الموضوعة في إنكار البدع
 ١١٢ دلالة القرآن على فساد المسلمين ومجانبتهم دينهم
 ١١٦ الكلام على يأس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب
 ١١٧ جواب حديث « والله ما أخاف أن تشركوا بعدي »
 ١٢١ جواب حديث « إن الشيطان أيس أن يعبد في جزيرة العرب »
 ١٢٨ بما ذا كان المشركون مشركين ؟
 ١٣٣ هل كان العرب المشركون ينكرون الله ؟ أو يقولون إن الأصنام
 تنفع أو تضر ؟
 ١٤١ الآيات التي احتج بها القوم على أن المشركين العرب كانوا ينكرون

صفحة	
	الله أو كانوا يقولون : إن الله أعطى أصنامهم التأثير كله أو بعضه
١٥٢	هل يرى المنقطعون إلى الأموات أنهم ينفعون أو يضرون ؟
١٦١	ما الفرق بين العا كفين على الأصنام والعا كفين على القبور
١٦٤	خلاصة الفروق بين الفريقين
١٦٦	جواب هذه الفروق وإبطالها
٢٠١	كيف ، ولماذا عبد الخلق — أسباب الشرك — فلسفة ذلك
٢٠٨	الباب الثالث من كتاب الرافضى
٢٠٩	الاستشفاع بالأموات ، حجة الرافضى
٢١١	إبطال شبهات القوم
٢١٢	دلائل بطلان الاستشفاع بالموتى
٢١٦	أحد العلماء يؤلف كتاباً فى عبادة شخصه — تقضى هذا الكتاب —
	ما فى الكتاب من الأخطاء والضلالات — أنواع ذلك
٢٧٥	بقية البراهين على بطلان الاستشفاع بالموتى
٢٩٨	الكلام على جميع المخالف فى الاستشفاع بالأموات ، وإبطالها
٢١٣ و ٣٠٥	حديث كشف القبر النبوى إلى انتهاء عند الجذب — سنده — ضعفه
	روايته — علله — معناه إذا صح
٣٠٩	حديث استشفاع أنس بن مالك برسول الله وجوابه
٢٥٣ و ٣١٠	رواية قصة سواد بن قارب — سندها — روايتها — ضعفها — معناها
	لو صححت
٣١٢	ما روى أن أبابكر وعلياً قالاً لرسول الله بعد موته : « اذكرونا عند ربك واجعلنا من همك » . بطلان ذلك — معناه توضيح — كلام

- المصائب لا يحتاج به — الخطاب نوعان : جائز وممنوع — المنوع من خطاب الموتى
- ٣٢٠ تتبع أغلاط العلماء — شر المذاهب — من ذكر هذا — ما ذكره ابن قدامة — ليس من الاسلام ضلالات الافهام
- ٣٢٦ الاستغناء بالأموال — براهين الشيعة — حكايات غريبة
- ٣٣٠ بطلان الاستغناء بالميتين — دلائل ذلك — دلالات القرآن — كثرة هذه الدلالات ، تنوعها — ضروبها — كل القرآن نهى عن دعاء غير الله وعن الالتفات إلى المخلوق — سياق أغانين من الآيات — وضوح دلالتها — ردها لكل ممارسة وجدال — الرجوع بالقارئ إلى ذلك كله — فساد التأويلات التي يلجأ إليها المخالفون — الموازنة بين المالكين على الأصنام والمالكين على القبور — تشابه الطائفتين — الزمات كثيرة متنوعة — مثل — المشرک والموحد — تعب هذا وراحة ذاك — النهى عن اتخاذ الأولياء — ومعنى هذا
- ٤١٠ اعتراض على نهى القرآن عن دعاء غير الله — نتيجة الاعتراض — سياقه بأسلوب آخر — جوابه من وجوه كثيرة — التفريق بين الأحياء والأموات — النهى عن دعاء الأموات دون الأحياء — لا يعبد إلا الخالق — معنى الاسلام والمسلم — صرف القرآن عن جميع المخلوقين — كل ما في المخلوق يجب أن يكون للخالق — من كثرة سؤاله غير الله قل دينه — سؤال المخلوق حرام شرعاً وعقلاً — المظالم الأربع — دعوة الأحياء ضرورة — ونظير هذا
- ٤٢٩ بقية الحجج على بطلان دعاء الميتين — بطلان التأويل لدعائهم — دلائل

ذلك - لم يفصل ذلك الرسول ولا آله ولا المسلمون - من الاحتياط
الواجب - تكفير الشيعة من اعتقاد التأخير لتفسير الله - اعترافهم
بكفر طوائف من المدعين للإسلام - اعتقاد عبادة الموتى - ذلك في موافق
وولا الله - لزومه مذهب الشيعة - العاقل لا يسأل العاجز عن إعطائه -
البرهان القاطع - لماذا لا يدعوون الأحياء كما يدعوون الأموات -
الدليل على أن الميت أقدر من الحي عند الخالف - الأحياء لا يعبدون
إلا نادراً لمشاهدة تعبداتهم - الذين يعبدون في قبورهم كانوا لا يعرفون
في حياتهم - يعبدونهم بعد الممات وقد خلوهم في الحياة - ينفقون
على القبور ولا يتفقون في تبجيل الله

٤٥٦ تلخيص شبهات الزايفي على دعوة الأموات

٤٥٧ تقض هذه الشبهات - بطلان التأويل لكل من ادعى الإسلام - التأويل
لغير المسلم إحساناً للظن - لماذا لم يؤول الأنبياء لأقوامهم - يؤولون
لكل الناس ولا يؤولون لأصحاب النبي - فساد المجازي دواء أصحاب
القبور - المجاز في قولهم : أنبت الربيع البقل - الفرق بين الإخبار
والطلب - الجواب عن قول الله « فارتقوا مني » - برهان باهر - الجواب
عن قول الله : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله » وعن أمثاله
ومن إضافة الخلق والبراءة إلى عيسى عليه السلام - ليس كل ما جاز
للأنبياء يجوز لغيرهم - قول أحد الصحابة لرسول الله : أسألك
مراقبتك في الجنة وجوابه ، - إشكالات على قلق وجوابها

٤٨٥ حديث خازن مر وهو أن رجلاً أتى قبر النبي وقال له استسق لأمتك -
سند الحديث - الأسانيد المقبولة عند الشيعة - الرواية غير صحيحة -

صفحة	
	الوجوه الدالة على كذبها - معناها لو صححت
٤٩٠	حياة الشهداء - الكلام عليها - دلالة ذلك على أن الأموات لا يدعون — أنواع البراهين
٤٩٥	ما نقله عن بعض العلماء من الاستغناء بالقبور - كذب النقل - لو صح كان إبطالاً لمزاعمه - يا من زعموا أنهم مسلمون
٤٩٨	أحاديث: «إذا أضل أحدكم دابته في فلاة فليناد: يا عبد الله احبسوا» الاسناد - ضعفه - دفاع الشيعي عن ضعفه - ما كل ما روى في كتب الحديث صحيحاً - كيف يصح عندهم هذا الحديث - الكلام على المعنى لو صح - الدلائل على أن ما في الأحاديث ليس دعاء للأموات - أسئلة وأجوبة - الفرق بين الدعاء المطلق والدعاء المقيد - هذا كقول الأعمى: يا رجلاً خذ يدي - مثل المنادى للأموات من كل مكان والقائل: احبسوا دابتي
٥١٣	الأحاديث التي جاء فيها: واعمدوا! عند خدر الرجل وعند القتال - سياق الأسانيد وتخريجها - بيان من رواها - السند الأول والثاني والثالث والرابع وبيان عللها وضعفها - انظف سند الحديث خدر الرجل - معاني الأحاديث لو صححت - زعم الشيعي أن قتال المرتدين كان في حياة النبي - رجوع المؤمنين إلى الله في حالات الحروب والشدائد - ذكر اسم المحبوب عند خدر الرجل من عادات العرب - ما في ذلك من علاج للروح والجسم
٥٣٢	التوسل - أنواعه عند المخالف - دلائله - سياقها كلها
٥٤٠	حقيقة التوسل والوسيلة - الأحاديث في التوسل - الأشعار فيه -

أقوال أهل اللفظة — ما كل ما يسميه الناس وسيلة يكون عند الله كذلك — مثل من استندوا بالآية على جواز كل ما يسمونه وسيلة — معنى الوسيلة والتوسل في لغة العامة كفيين على القبور ما يجوز من التوسل وما لا يجوز — وجوه التوسل الثلاثة عند المخالف و بطلانها — دلائل بطلان سؤال الله بالجاه ونحوه — لا تنفع الشفاعات والوساطات إلا في الشعوب المنحطة والحكومات الفاسدة — دلالة الشرع على أن الجزاء بالعمل — عجز الأنبياء عن نفع أقربيهم وظائف النبوة — حديث القرآن عن مجازاة الخلق وعن موجدات الجنة وموجدات النار — المتوسل إلى الله بنوات الصالحين مثل المتوسل بذاته وبجسمه وقبره — هذا التوسل كأن يقال : أسألك بكون نبيك وجد في عصر كذا ومكان كذا

٥٦٧ تلخيص أدلة التوسل عند الرافضى — جواب أدلته — جواب قول الله : « وابتغوا إليه الوسيلة » دلالة الآية على خلاف منذهب المخالف . دلالة أحاديث الوسيلة على بطلان قول القوم — الجواب عما زعموه من توسل بنى إسرائيل بأهل بيت نبيهم

٥٧٦ التسوية بين الأحياء والأموات — براهين بطلان ذلك من الشرع والعقل والوجدان والضرورة والإجماع والالزام

٥٨١ حديث سؤال آدم ربه بحق محمد عليه السلام بعد أن ارتكب الخطيئة — سند الحديث — الحديث مكثوب — أصناف الدلائل على كذبه . الناس مخلوقون لعبادة الله لا لغير ذلك . لو صح هذا لكان الأنبياء جميعاً لم يخلقوا إلا من أجل محمد — فساد معنى الحديث — وجوه فساد

وتعمدها - وجوهر واضحة في بطلان الحديث واختلافه - الروايات في تفسير الكلمات التي تلقاها آدم - القرآن لم يذكر هذا التوسل مع ذكره القصة - السؤال بحق النبي ليس له من القيمة العملية ما يوجب كل هذا - ما معنى السؤال بحق المخلوق ؟ - دلالة الرواية نفسها على كذبها - رواية توسل آدم بعلي وفاطمة والحسن والحسين - الرواية مكتوبة - السؤال بحق المخلوق باطل شرعاً وعقلاً وعرفاً وجداناً - هذا مثل السؤال بالأيام والأوقات المفضلة ، ومعنى هذا جواز التوسل بكل شيء

حديث الأعمى المشهور - رواياته - ألفاظه - سياق استدلال المخالفين له على أكل الوجوه - الكلام على سند الحديث في كل طرقة غريب انفرد به أبو جعفر المختلف فيه - من أبو جعفر هذا - قال قوم : إنه الخطي ، وقال آخرون إنه غيره - أدلة الفريقين وكيف يرجح أحد الرأيين - من شروط الحديثين لصحة الحديث - لماذا ألقت كتب الحديث بالأسانيد - ما ذكره مسلم في مقدمة الصحيح من نقد الرواة والروايات - الإسناد من الدين - من يكون أبو جعفر هذا إذا لم يكن الخطي - يزيد الشك في صحة الحديث انفراد ابن حنيف وانفراد أبي جعفر أيضاً به - أخبار المعجزات - تعدد رواياتها

إجمال علل الحديث - شذوذ معناه - الأخبار التي فيها السؤال بحق المخلوق ضعيفة أو موضوعة - أبواب الدين كلها متفق على أصلها بالجملة - نجد في الكتاب والسنة كل علوم الإسلام ولكن لا يوجد فيها السؤال بالمخلوق - رد السلف الروايات الغريبة الشاذة وإن كان راويها ثقة - اشتراط العدد في الشهادة والشهود - نصوص الدين كلها متواترة -

٥٩٦

٦٠٣

٦٢٤

قدح الرافضة في أئمة المحدثين - الكلمة الفاصلة في الحديث أنه ضعيف
تحقيق معنى الحديث إن كان صحيحاً - بيان دلالاته على خلاف مذهب
الخالفين - أربعة أمور تدل كلها على أن الحديث رد على القوم -
الجواب عن ألفاظه - البراهين من كلام العرب على أنه ليس كما
يرحمون - وفي الحديث شيء قاطع ضروري - من غلو الشيعة - تناقض
لا مثيل له - هل دعا الأعمى الدعاء المذكور غائباً وإذا كان كذلك
فما جوابه ؟

٦٤١

قصة سواد بن قارب وما فيها من الشعر مع أشعار أخرى
الحديث الذي جاء فيه أن عثمان بن حنيف أمر رجلاً أن يتوسل برسول
الله بعد موته - سند الحديث - بيان علله - الحديث ضعيف - وجوه
ضعفه - اختلاف الصحابة وخلافهم في اجتهادهم المحض - أمثلة من
اجتهادات الصحابة - تخريج قريب لما ذهب إليه ابن حنيف في هذه
الرواية - محال أن يظن هذا الصحابي أن الرسول يسمع مناديه من
كل مكان - برهان قاطع - الرافضة يكفرون الصحابة فكيف يحتجون
بقول واحد منهم - أخبار الشيعة في وجوب مخالفة المسلمين وأسباب
ذلك - كل ما يقوله الشيعة موافقاً لما عليه المسلمون فلا بد أن يكون تقية
- كل هذا مطلوب من الشيعي - مخالفة المسلمين مطلوبة لدى الشيعة
فليخالفهم في خرافات القبور

٦٥٣

٦٦٤

٦٨٩

حديث سؤال النبي بحق الأنبياء قبله - الحديث ضعيف، فيه روح بن
صلاح المصري - كلام الناس في الحاكم وفي تصحيحه الأحاديث
الضعيفة - الكلام على الجرح والتعديل وتقديم أحدهما على

الآخر — من عجيب نقد الشيعة ودفاعهم عن آل رسول الله — تكفير الشيعة لقراءة النبي — حديث مسلسل بآل البيت في منمة الرافضة — من علم الشيعة في علم الإسناد — رجال الصحيح قسماً مختلفان — معنى الحديث إن صح — سؤال المخلوق ليس كسؤال الله بالمخلوق — ماحق الأنبياء في الحديث

٧٠٥ قول صفية : ألا يارسول الله كنت رجاءنا — الإسناد — ضعفه — تحريف الرافضة لهذا الشعر — صحته — الرواية رد عليهم وبيان ذلك لوصح ماذكروه — الاختلاف في الألفاظ — جواب كل لفظ — أنواع من الخطاب الذي لا استغناء فيه — الخطاب الصوري — فصل الخطاب

٧١٣ رواية الإفضاء بقبر النبي إلى السماء — إسنادها — معناها
٧١٩ أحاديث توصل الناس بالانبياء يوم القيامة — دلالة الأخبار على خلاف أقوال المخالفين من وجوه مختلفة كثيرة — دلالة الأخبار على قولنا من ناحية ثانية — إذا امتنع الانبياء من الشفاعة فكيف يرجون المشايخ لها

٧٢٦ حديث خلق الجنة والنار لأجل محمد عليه السلام — سند الحديث — الخبر موضوع — الدلائل الكثيرة على بطلانه — لوصح

٧٥٣ حديث السؤال برب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد — هذان التوسل بصفات الله — إضافة اسم الرب إلى كل شئ

٧٣٩ رواية أمر الامام مالك للخليفة المنصور أن يستشفع بالنبي — سياق الاسناد — الكلام عليه — الاختلاف فيه — بيان ضعفه على كل

حال - بيان انقطاعه - أمور أخرى دالة على كذب الحكاية - مخالفة ما في هذه الحكاية لمذهب مالك - تحقيق ذلك - استقبال القبر النبوي حين دعاء الله - خلاف هذا السنة ولمذاهب العلماء - ركاكة أسلوب الحكاية عدم تلاؤم أجزائها - الاخبار في النهي عن إتيان القبر النبوي من طرق أهل البيت وغيرهم - لا يستقبل القبر عند الدعاء كما لا يستقبل عند الصلاة والسلام - ويدل على كذب الرواية - هدى السلف في إتيان القبر للزيارة والسلام - كراهة ذلك - لم ينقل عن غير ابن عمر - ومن البراهين القاطعة دفن النبي في حجرة زوجته عائشة وإحاطة القبر بالجدران - أقوال مالك تناقض هذه الحكاية

٧٩٩ الاستشهاد بقول الله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » الآية - حكاية المعنى - بيان طرقها - الاختلاف فيها - ضعفها - ليس لها اسناد - بطلان الاحتجاج بالآية على إتيان القبر - زيارة القبر ليست زيارة لصاحبه - إتيان النبي بعد موته غير ممكن - وجوه عشرة في بطلان الاستدلال بالآية على شد الرحال إلى القبر

٧٩٤ لو صححت الحكاية - معاني كلمات الامام مالك في الحكاية إذا كانت صحيحة - معنى الاستشفاع ويمّاذا تنال الشفاعة - تخرج قريب لكلام مالك

٧٩٩ توسل الشافعي بآل النبي - معنى هذا لو صح عن الشافعي

٨٠١ حديث الاستسقاء بالعباس - الحديث لا يدل على أقوال المخالفين - الدلائل على أن التوسل هنا هو طلب الدعاء - روايات الحديث وما دعا به العباس - دلائل أخرى على أن الذي في الحديث

استشفاع بالأحياء - دلالة الحديث على خلاف قولهم - جواب الرافضين
عن هذا وفساده بوجوه كثيرة - لا يمكن الاتمام بغير رسول الله مع
وجوده - لا يمكن ترجيح المفضل على الفاضل - اعتراضات وأجوبتها -
لا يصح قياس غير النبي على النبي - هل يرغب في طلب الدماء من
الرسول - الرسول يدعو للمؤمنين وإن لم يسألوه - أكل الجود - لماذا
توسلوا بالعباس - بطلان التوسل بالعباس مع إمكان التوسل برسول الله -
وعندهم أن عمر خصم لآل النبي فلا يصح ما ذكره - زعمهم أن جميع
الائمة قد قتلوا - برهان قاطع على كذب هذا الزعم - عشرة وجوه
في بطلان ما ذهبوا إليه في توجيه التوسل بالعباس دون النبي - أقبح
تأويل للحديث وإبطاله - زعمهم أن التوسل بالعباس كان لبيان جواز
التوسل بغير النبي - ومزاعم أخرى باطلة

فوائد حديث الاستسقاء بالعباس - دلالة الحديث على كذب جميع
الأحاديث التي فيها ما يشهد لقول المخالفين - حديث «حياتي خير
لكم ومماتي خير لكم»

كتاب «فصل الخطاب» في تحريف كتاب رب الأرباب - مذاهب
الشيعة في تحريف القرآن - تواتر الأخبار عندهم في هذا - قولهم بالزيادة
وبالتقصان وبالتبديل - أمثال من الآيات التي زعموها عرفة - كلام
فارغ زعموه سورة مخنوفة - هل من الأحسن كتمان هذه الفضائح ؟
- الدليل على أن وضعة المذهب الشيعي أعجم - ماذا يريدون من
هذا ؟ المسلمون أمس واليوم

﴿ تم الفهرس ﴾

﴿ كتب المؤلف - وكلها مطبوعة ﴾

- ١ البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية
- ٢ شيوخ الأزهر
- ٣ الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفهم
- ٤ مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها
- ٥ نقد كتاب « حياة محمد »
- ٦ الثورة الوهابية
- ٧ الجزء الأول من كتاب « الصراع بين الاسلام والوثنية »
- ٨ الجزء الثاني منه وهو هذا .

عبد الله القصيمي قلب معسكر الإصلاح في الشرق

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ حسن القاياتي

معسكر الإصلاح في الشرق ، طلعيته ابن خطدون ، باكرة الاجتماعيين ،
وجناحه السيد الألفاني ، وتلميذاه محمد عبده والسيد الكواكبي ، أما قلبه فهو
السيد القصيمي نزيل القاهرة اليوم ، مجدي في جبهته وقبائه ، وصمادته وعقاله ،
إذا اكتسحت به غيتاك لأول التماحه ، قلبت : زعيم من زعماء العشائر
التجدية ، تخلف عن عشيرته ، لبعض طيته ، حتى إذا جلست إليه فأصغيت إلى
حديثه الطيب أصغيت إلى عالم بحر يفوق بعلم ديني واجتماعي .
تعرفت إلى العالم التجدي القصيمي ، فجلست إليه مرة ومرة ، ثم شاهدته
كرة ، فهاهيك منه داعية اصلاح ، أكثر ما يلهج به الشرق وأدواؤه وجهله
ودواؤه .

لم أقتض العجب حين شهدت السيد القصيمي من عرق في شمالك ، ملتف
في شملته ، يروعك منه عالم في مدرسته ، كاذ يحليني شرقيا بغيرة الشرقية ، وقد
بنيت مصريا .

حيا الله السيد القصيمي . ما أصدق نظره إلى الحياة . وأبعد مرماه في
المداية . يقول الأستاذ القصيمي :

« شعبان هبطا هذا الكوكب الأرضي الواسع الأرجاء . فسار شعب تحت
ضمان معرفته في قوة لا تكبر ولا تفضل . فاستغل واستغل . وشعب آخر هبط
غريبا في هذا الكوكب ، جاهلا بنواميسه وقوانينه . فلم يدرك كيف يأخذ ولا كيف
يدع ، هذان شعبان ، فإذا عسى أن تكون النتيجة لاجتماعهما . ليس هناك أدنى
ريب في أن الغلبة ستكون: للعلم والعرفان »